المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الدير

تأليف : زاخار بريليبين
ترجمة: د. محمد جميل قاجو

الدير

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

الدير

تأليف : زاخار بريليبين

ترجمة: د. محمد جميل قاجو

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٥م

العنوان الأصلي للكتاب:

Обитель

الكاتب: **Захар Прилепин.**

النـاشر: **Издательство АСТ, 2014**

تصميم وإخراج: **LimpidSoft**

المترجم: **د. محمد جميل قاجو**

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الدير / تأليف زاخار بريليبين ؛ ترجمة محمد جميل قاجو.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٥م.- ٩١٦ ص؛ ٢٥سم.
(المشروع الوطني للترجمة؛ الرواية العالمية).

١- ٨٩١,٧٣ ب ر ي د ٢- العنوان ٣- بريليبين
٤- قاجو ٥- السلسلة

المكتبة الوطنية

من المؤلف

يحكى أنّ والد جدي كان في شبابه صاخباً وغاضباً. توجد في منطقتنا كلمة صحيحة تحدّد مثل هذه الطباع: طائش.

حتّى سنّ الشيخوخة، كان لديه حالة غريبة: إذا مرّت بجوار بيتنا بقرة ضلّت عن القطيع وحول رقبتها جرس، فقد يترك والد جدي أحياناً، أيّ عمل ويخرج سريعاً إلى الشارع، ويأخذ أيّ شيء يقع بين يديه على عجل- عصاه الملتوية المصنوعة من فرع الروان أم حذاء أم قدرٍعتيقة. يشتم من على العتبة بشدة، ويلقي وراء البقرة الشيء الذي انتهى به الأمر بين أصابعه الملتوية. كان بإمكانه الركض خلف الحيوان الخائف، متوعداً بعقوبات دنيوية له ولأصحابه.

"شيطان هائج! "- كانت تقول عنه الجدة. كانت تنطق "بيشانّي تشورت" (الشيطان الهائج) بطريقتها غير المعتادة للسمع!". كانت تلفظ الحرف "أ" في الكلمة الأولى بشكل غير معتاد للسمع، وكان لحرف "و" في الكلمة الثانية صدى، وهو ما كان يلفت الانتباه.

كان الحرف" أ " يشبه عين والد جدي، المهتاجة والتي كانت على شكل مثلث تقريباً، كما لو أنّها مقلوبة نحو الأعلى، والتي كان يحدق فيها بانزعاج – مع العلم أنّ العين الأخرى كان يزرّها. بالنسبة ل"تشورت" (الشيطان) - فعندما كان والد جدي يسعل ويعطس بدا كأنّه ينطق هذه الكلمة: "آه.. تشورت ! آه... تشورت ! تشورت ! تشورت!". كان يمكن الافتراض أنّ والد جدي يرى الشيطان أمامه ويصرخ في وجهه ويطرده. أم مع السعال، في كلّ مرّة يبصق شيطاناً من الشياطين التي كانت في داخله.

كنت أردد وراء الجدة كلمتي "بي- شا- نّي تشورت" (شي-طا- ن هائج) مقطعاً مقطعاً- لقد كنت استمع إلى همسي: تشكلت فجأة في الكلمات المألوفة، تيارات هواء من الماضي، إذ كان والد جدي مختلفاً تماماً: شاباً، أحمقَ ،غاضباً.

كانت الجدة تذكر: عندما تزوجت جدي، وجاءت إلى المنزل، كان والد جدي يضرب زوجته "حماتها " والدة أبي بشكل رهيب. مع العلم أنّ حماتها كانت ممشوقة القوام وقوية وصارمة وأطول من والد جدي مقدار الرأس، وكتفاها أعرض من كتفيه- لكنّها كانت تخافه وتطيعه من دون جدل.

كان على والد جدي، حتّى يستطيع ضرب زوجته، أن يقف على المقعد، ويدعوها من هناك إذ كان يقف، أن تقترب منه، ثمّ يمسكها من شعرها ويضربها بقبضته الصغيرة القاسية على أذنها بقوة.

كان يدعى زاخار بتروفيتش .

"مَن هذا الشاب؟ إنّه ابن زاخار بيتروف" .

كان لوالد جدي لحية. وكانت لحيته كما لو أنّها شيشانية، مجعدة قليلاً، لم يكن قد غزاها الشيب بالكامل بعد- على الرغم من أنّ الشعرات القليلة المتناثرة على رأس والد جدي كانت بيضاء بشكل مطلق، خفيفة منفوشة. وفيما لو التصق زغب طائر على رأس والد جدي من وسادة قديمة، كان لا يمكن تمييزه على الفور عن شعره.

لقد كان يزيل الزغب من على رأسه أحدٌ منّا، نحن الأطفال الذين لم نكن نخافه- لأنّ جدتي وجدي ووالدي لم يلمسوا رأس والد جدي قطُّ. وحتّى لو صدف وأطلقوا بعض المزاح اللطيف بشأنه، فكان ذلك في غيابه فقط.

كان قصير القامة، فعندما كنت في سن الرابعة عشرة من عمري، تجاوزته بالطول، على الرغم من أنّ زاخار بتروف في ذلك الوقت، كان قد انحنى ظهره، وأصبح يعرج بشدة، وبدأ يقصر طوله مع الزمن- كان عمره إمّا ثمانية وثمانين

وإمّا تسعة وثمانين عاماً: سجّل عام ميلاده في الهوية، غير العام الذي ولد فيه، إمّا قبل التاريخ الوارد في المستند، وإمّا على العكس من ذلك، في وقت لاحق، ومع مرور الزمن نسي هو نفسه أي عام ولد فيه.

كانت الجدة تقول إنّ والد جدي أصبح أكثر لطفاً، عندما تجاوز سن الستين من عمره، ولكن مع الأطفال فقط. لقد كان شغوفاً بأحفاده، كان يطعمهم ويسليهم ويغسل لهم أيديهم ووجوههم ، وكان كلّ ذلك غريباً وفقاً لمعايير القرية. كان أحفاده كلهم يتناوبون بالنوم معه على الموقد، تحت فروته الضخمة المجعّدة، التي تفوح منها رائحة جلد الخاروف.

كنّا نأتي لزيارة منزل الأجداد، وأعتقد أنّني كنت في السادسة من عمري، وقد حالفني الحظ مرّات عدّة أن أنام تحت هذا المعطف أيضاً: مزوة ثقيلة كثيفة الصوف، لا زلت أتذكر رائحته حتّى يومنا هذا.

كانت الفروة تشبه الحكاية القديمة- هناك من كان يعتقد بصدق: أنّ سبعة أجيال ارتدتها ولم تهترئ- كانت عائلتنا بأكملها قد تدفأت بهذا الصوف، كما كانوا يغطون بها العجول والخنازير التي ولدت للتو في فصل الشتاء، والتي كانت تنقل إلى البيت، حتّى لا تتجمّد من البرد في الحظيرة، كان يمكن لعائلة من الفئران المنزلية الهادئة، أن تعيش بشكل جيد في أكمامها الضخمة لسنوات عديدة، وإذا ما بحثت لفترة طويلة في ثنايا وزوايا الفروة، يمكن أن تجد تبغاً لم يدخّنه والد جد والد جدي، قبل قرن من الزمان، وشريطاً من عدّة زفاف جدة جدتي، وقطعة من السكّر فقدها والدي، والتي بحث عنها لثلاثة أيام في طفولته الجائعة بعد الحرب، ولم يجدها.

أمّا أنا فقد وجدتها وأكلتها مع ما علق بها من تبغ.

عندما توفي والد جدي رُمِيَت الفروة، وعلى الرغم ممّا نسجت حولها، لكنّها كانت قديمة جداً ورائحتها كريهة.

لقد احتفلنا بعيد ميلاد زاخار بتروف التسعين، ثلاث سنوات متتالية تحسباً لأيّ شيء قد يطرأ.

جلس والد جدي، وكان يبدو من نظرة أولى سطحية، أنّه يشعر بأهمية شخصيته، لكنّه في الحقيقة كان مبتهجاً ولديه بعض المكر، بمعنى: خدعتكم - لقد عشت حتّى التسعين عاماً وجعلت الجميع يجتمعون.

ظلّ يشرب الخمر حتّى شيخوخته، مثلنا جميعاً، على قدم المساواة مع الشباب، وعندما يكون هناك حفل ما، وكان الحفل يبدأ منتصف النهار في العادة، كان ينهض، عندما يشعر أنّه قد اكتفى، من وراء الطاولة ببطء، ويبتعد عن الجدة التي كانت تهرع لمساعدته، ويذهب إلى مضجعه، دون أن ينظر إلى أيّ أحدٍ.

بينما كان والد جدي يغادر الطاولة، كان كلّ من بقي حول الطاولة، يصمت ولا يتحرك.

" يمشي مثل القائد الأعلى..."، قال كما أتذكّر، عرّابي وعمي الذي قتل العام التالي في عراك أحمق.

لقد عرفت عندما كنت طفلاً، أنّ والد جدي قضى ثلاث سنوات في معسكر اعتقال سولوفكي. بالنسبة إليّ كان الأمر هو نفسه تقريباً، كما لو أنّه ذهب إلى بلاد فارس في أثناء حكم أليكسي تيشاتشي(الأهدأ)[1] لجلب عباءات جوخية، أم سافر مع سفياتوسلاف الحليق إلى تموتاراقان.

لم يجر الحديث عن ذلك كثيراً، ولكن، من ناحية أخرى، كان والد جدي يذكر إيخمانيس أحياناً، وفي بعض الأحيان رئيس السريّة كرابين، وأحياناً الشاعر أفاناسييف .

لقد اعتقدت لوقت طويل أنّ مستيسلاف بورتسيف وكوتشيرافا كانا مع والد جدي في نفس الفوج، ولكن أدركت، فيما بعد فقط، أنّهم كانوا جميعاً في معسكر اعتقال .

---

(١) أليكسي ميخائيلوفيتش (تيشاتشي - الأهدأ) رومانوف ٠ قيصر عموم روسيا من ١٦٤٥ إلى ١٦٧٦.

عندما وقعت بين يدي صور من سولوفكي، تعرفت على الفور، وبشكل مدهش، على إيخمانيس وبورتسيف وأفاناسييف أيضاً.

كنت أعتبرهم أقرباء تقريباً، وإن لم يكونوا أقرباء جيدين في بعض الأحيان.

عندما أفكّر في ذلك الآن، أفهم مدى قصر الطريق إلى ذلك التاريخ.إنّه قريب. لقد تطرقت إلى والد جدي الذي رأى القديسين والشياطين بأم عينيه.

لقد كان يسمّي دائماً إيخمانيس "فيودور إيفانوفيتش"، وكان يُسْمَع، أن والد جدي كان يتعامل معه بشعور من الاحترام الصعب. أحاول أحياناً أن أتخيل كيف قتلوا هذا الرجل الوسيم والذكي، مؤسس معسكرات الاعتقال في روسيا السوفيتية.

لم يحدثني والد جدي شخصياً، عن أيّ شيء حول الحياة في سولوفكي، رغم أنّ والد جدي، في أثناء الجلوس الجماعي حول المائدة في بعض الأحيان، كان يتوجه إلى الرجال البالغين حصرياً، وولا سيّما إلى والدي، ويقول، بشكل عرضي ما يشبه ذلك، وكان في كلّ مرّة ينهي قصة ما جرى الحديث عنها من قبل، على سبيل المثال، قبل عام أم عشر سنوات، أم أربعين عاماً.

أتذكّر أنّ والدتي، وهي تتفاخر قليلاً أمام كبار السن، كانت تسأل أختي الكبيرة كيف تسير الأمور مع اللغة الفرنسية، وذكّر والد جدي فجأة أبي، الذي كان على ما يبدو، سمع هذه القصة، كيف أُرْسِلَ لجمع الثمار المختلفة في الغابة بالصدفة، إذ التقى فيودور إيفانوفيتش فجأة، الذي كان يتحدث مع أحد السجناء باللغة الفرنسية.

رسم والد جدي بسرعة، وفي جملتين أم ثلاث، وبصوته الأجش والعالي، صورة معينة من الماضي، وتبيّن أنّها واضحة للغاية ويمكن تخيلها. مع العلم، أنّه كان لمظهر والد جدي، وتجاعيده ولحيته، وشعر رأسه الذي يشبه الوبر، وضحكته التي تشبه الصوت الذي يصدر عندما يجري كشط المقلاة بملعقة حديدية، أهميّة أكثر من كلامه نفسه.

كانت هناك قصص أيضاً عن جذوع الأشجار في مياه الأنهار الجليدية في شهر تشرين، وعن مكانس سولوفكي الضخمة والمضحكة، وعن النوارس المقتولة، وعن الكلب الملقب ببليك.

أنا أطلقت على جروي الأسود اللون، الهجين اسم بليك أيضاً.

لقد خنق الجرو، وهو يلعب، فرخ دجاج عمره سنة، ثمّ آخر، ونثر الريش على العتبة، وتلاه الثالث... وبالنتيجة، في أحد الأيام أمسك والد جدي الجرو الذي كان يطارد آخر فرخ دجاج في الفناء، من ذيله، وضربه بزاوية منزلنا الحجري بقوة، وصرخ الجرو بعد الضربة الأولى، بشكل رهيب، وصمت بعد الضربة الثانية.

كانت يدا والد جدي إلى سن التسعين صلبتين، إن لم تكونا قويتين. وقد ساعدته الصلابة التي اكتسبها في سولوفكي، في الحفاظ على صحته طوال قرن كامل. ربّما لا أتذكر وجه والد جدي جيداً، باستثناء اللحية والفم المائل فيه، وهو يمضغ شيئاً ما، ولكن مجرّد أن أغمض عيني، أرى يديه على الفور: أصابع ملتوية ضاربة إلى الزرقة، وشعر مجعّد متّسخ. حكم على والد جدي بالسجن، لأنّه ضرب المفوض بوحشية. ثمّ نجا من السجن بأعجوبة، عندما قتل بيديه الماشية المنزلية التي كانوا يريدون مصادرتها وإرسالها إلى التعاونية.

عندما أنظر إلى يدي، لا سيّما عندما أكون مخموراً، أكتشف ببعض الخوف كيف تتحوّل كلّ عام إلى ما يشبه أصابع والد جدي الملتوية ، مع أظافر رمادية - نحاسية.

كان والد جدي يطلق على البنطلون "سروال"، وعلى الشفرة " موس" ، وعلى ورق اللعب تقويم القديسين، وقال ذات مرّة عندما كنت متكاسلاً ومستلقياً مع كتاب: "... أوه، إنّه مستلقٍ دون أناقة..."، لكن دون غضب ومازحاً، كما لو كان موافقاً.

لا أحد كان يتحدث مثله، سواء في الأسرة أم في القرية بأكملها.

حدثني جدي بعض الحكايات عن والده بطريقته الخاصّة، ووالدي بشكل آخر، وعرّابي بطرقة ثالثة، ولكن جدتي كانت دائماً تتحدّث عن حياة والد جدي في معسكر الاعتقال، من وجهة نظر عاطفية ونسائية، أحياناً كانت تبدو أنّها تتعارض مع وجهة نظر الرجال.

ولكن الصورة الشاملة بدأت تتبلور بالتدريج.

لقد حكى لي والدي عن غالا وأرتيوم عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، إذ بدأ للتو عصر كشف المستور وجنون التوبة. وقد أوضح والدي بإيجاز هذه القصّة، والتي صدمتني بشكل غير عادي حتّى في ذلك الوقت.

كانت جدتي تعرف هذه القصّة أيضاً.

ما زلت لا أستطيع أن أتخيّل كيف ومتى حكى والد جدي كلّ هذا لأبي- كان قليل الكلام بشكل عام، لكنّه قصّها له مع ذلك.

لاحظت لاحقاً، بعد جمع كلّ القصص في صورة واحدة ومقارنتها مع الواقع، وفقاً للتقارير والمذكرات والبلاغات الموجودة في الأرشيف، أنّه امتزجت في حديث والد جدي أحداث عدّة مع بعضها، وحدثت بعض الأشياء على التوالي، وراء بعضها البعض، فيما هي جرت خلال عام كامل، أم حتّى في ثلاثة أعوام.

من ناحية أخرى، ما هي الحقيقة التي توجد، غير التي يجري تذكّرها.

الحقيقة- هي ما يجري تذكّره.

توفي والد جدي عندما كنت في القوقاز، حرّاً، ومرحاً، وبزيٍّ مموهٍ.

لقد ذهب وراءه إلى باطن الأرض تقريباً جميع أفراد أسرتنا الضخمة بالتدريج، واحد بعد الآخر، ولم يتبق سوى الأحفاد وأولاد لأحفاد، وحدهم، من دون الكبار.

علينا أن نتظاهر أنّنا بالغون الآن، على الرغم من أنّني لم أجد أيّ اختلافات ملفتة للنظر، عندما كان عمري أربعة عشر عاماً، والآن.

ما عدا أنّه، أصبح لديّ ابن يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً.

الذي حدث، أنّه بينما كان جميع كبار السن في عائلتي يموتون، كنت دائماً في مكان ما بعيد، ولم أحضر جنازة أيٍّ منهم.

أعتقد أحياناً أنّ أقاربي على قيد الحياة، وإلّا إلى أين ذهبوا جميعاً؟.

حلمت مرّات عدّة أنّني أعود إلى قريتي وأحاول العثور على فروة والد جدي، أبحث بين الشجيرات، تتجرّح يداي، أتجول بقلق وبلا معنى على ضفة النهر، بجوار المياه الباردة والقذرة، بعد ذلك أجد نفسي في الحظيرة، وتقع علي بالصدفة مجارف ومناجل قديمة وحديد صدئ، وأشعر بالألم، ثمّ لسبب ما أصعد إلى مخزن الحشائش، وأحفر هناك، وأختنق من الغبار، وأسعل: " يا للشيطان! يا للشيطان! يا للشيطان)!".

لا أجد شيئاً.

الكتاب الأول

— ***Il fait froid aujourd’hui.***

— ***Froid et humide.***

— ***Quel sale temps, une véritable fièvre.***

— ***Une véritable peste…***

"هل تذكرون ماذا كان يقول الرهبان هنا: خلاصنا في العمل!" !قال فاسيلي بيتروفيتش، وهو ينقّل للحظة عينيه الراضيتين، اللتين غالباً ما كانتا ترفان، من فيودور إيفانوفيتش إيخمانيس إلى أرتيوم . أومأ أرتيوم برأسه موافقاً لسبب ما، مع أنّه لم يفهم حول ماذا كان يدور الحديث.

— *C’est dans l’effort que se trouve notre salut?*

- أعاد أيخمانيس السؤال

- C'est bien cela!-

- ردّ فاسيلي بيتروفيتش بسرور، وهزّ رأسه بعنف لدرجة أنّه ألقى حبات عدّة من الثمار على الأرض من السلة التي كان يحملها في يديه.

"حسناً، هذا يعني أنّنا على حق" - قال إيخمانيس، مبتسماً وهو ينظر بالتتابع إلى فاسيلي بيتروفيتش، وإلى أرتيوم وإلى رفيقته التي، مع ذلك، لم تردّ على نظراته- "لا أعرف ماذا هناك مع الخلاص، لكن الرهبان كانوا يعرفون الكثير عن العمل".

كان أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش يقفان بملابسهما المبلّلة والقذرة، وركبهما السوداء، على العشب الرطب، وأحياناً كانا يغيّران وقفتهما، ويلطخان بنسيج

العنكبوت والبعوض خدودهما بأيديهما الملطخة بالتراب. كان إيخمانيس والمرأة التي كانت معه يمتطيان حصانين: هو على حصان كميت مضطرب، وهي على حصان أرقط كبير العمر، كما لو أنّه أصمّ.

وبدأ المطر يهطل من جديد، عكرٌ ولاذعٌ غير معتاد في شهر تموز. هبّت رياح باردة غير متوقعة حتّى في هذه الأماكن.

أومأ إيخمانيس برأسه إلى أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش. شدّت المرأة اللجام بصمت إلى اليسار، وكأنّها منزعجة من شيء ما.

" تجلس على الحصان ليس أسوأ من إيخمانيس"- علّق أرتيوم، وهو ينظر وراء الفارسين.

"نعم، نعم..."- أجاب فاسيلي بيتروفيتش بطريقة يفهم منها أنّ كلمات محدثه لم تصل إلى أذنيه. وضع السلّة على الأرض وجمع بصمت الثمار التي وقعت على الأرض.

"إنّك تتأرجح من الجوع "- قال أرتيوم ، إمّا مازحاً وأمّا جدياً، وهو ينظر من الأعلى إلى قبعة فاسيلي بيتروفيتش- " لقد دقّت الساعة السادسة. ينتظرنا حساء رائع. اليوم بطاطس أم حنطة سوداء، ما رأيك؟.

خرج من الغابة أشخاص عدّة آخرين، من وردية جمع الثمار، إلى الطريق.

دون انتظار أن ينحسر رذاذ المطر المتواصل، سار فاسيلي بيتروفيتش وأرتيوم نحو الدير. كان أرتيوم يعرج قليلاً، فقد ألتوت ساقه في أثناء جمع الثمار.

لقد كان متعباً أيضاً، ليس أقل من فاسيلي بيتروفيتش. بالإضافة إلى ذلك، من الواضح أنّ أرتيوم لم ينجز الكمية المطلوب جمعها، مرّة أخرى.

قال أرتيوم بصوت منخفض لفاسيلي بيتروفيتش، لكسر الصمت: " لن أذهب إلى هذا العمل بعد الأن. إلى الجحيم هذه الثمار. لقد شبعت منها خلال أسبوع ، ولكن ليس هناك أيّ سعادةٍ".

" نعم، نعم... يا أرتيوم"- كرّر فاسيلي بيتروفيتش مرّة أخرى، لكنّه سيطر على نفسه أخيراً، وأجاب فجأة: "لكن من دون حراسة!، لا نرى طوال اليوم أيّاً من هؤلاء، أصحاب القبعات المزنرة بالعصائب السوداء، ولا سريّة مراقبة المساجين، ولا " الفهود".

أجاب أرتيوم: "حصّتي ستكون النصف، ووجبة غداء دون الطبق الثاني". سمك قدّ مسلوق، وشوق ثقيل.

اقترح فاسيلي بيتروفيتش: "حسناً، دعني أسكب لك من سلتي".

ضحك أرتيوم بهدوء: "عندها سيواجه كلانا نقصاً في الكمية المطلوبة. لا أظن أنّ ذلك سيفرحني".

"أنت تعرف أيّة جهود بزلتها للحصول على هذه المهمّة... ومع ذلك هذا ليس قلع أرومات أشجار يا أرتيوم". استعاد فاسيلي بيتروفيتش تدريجياً حيويته وقال:" بالمناسبة، هل لاحظت ما هو الشيء الذي لا يوجد في الغابة؟".

لاحظ أرتيوم بالتأكيد شيئاً ما، ولكنّه لم يستطع أن يفهم ما هو بالتحديد.

"هناك لا تصرخ النوارس اللعينة!"- حتّى إنّ فاسيلي بيتروفيتش توقّف، وفكّر قليلاً ثمّ أكل ثمرة من سلته.

لم يكن هناك راحة في الدير ولا في الميناء بسبب النوارس، وإضافة إلى ذلك، كان هناك عقوبة الجلوس في زنزانة منفردة، في حال قتل نورس، وكان قائد المعسكر يقدّر هذا السلالة الصاخبة والوقحة في سولوفكي، لسبب ما، غير مفهوم.

" هناك في ثمار الآس الأسود أملاح من الحديد والكروم والنحاس"- قال فاسيلي بيتروفيتش بعد أن أكل ثمرة أخرى.

قال أرتيوم بكآبة: "ولذلك أشعر بنفسي مثل الفارس النحاسي، وفارس من الكروم".

قال فاسيلي بيتروفيتش: "الآس الأسود يحسّن الرؤية أيضاً. هل ترى النجم فوق المعبد؟".

نظر أرتيوم.

"ماذا؟"

"كم زاوية في هذا النجم؟" - سأل فاسيلي بيتروفيتش بكامل الجدية.

نظر أرتيوم بانتباه لثانية واحدة، ثمّ فهم كلّ شيء، وفهم فاسيلي بيتروفيتش، أنّ أرتيوم قد خمّن، وضحك كلاهما بهدوء.

"من الجيد أنّك كنت تومئ برأسك فقط بشكل يحمل الكثير من المعاني، ولم تتكلّم مع إيخمانيس، فمك مصبوغ بالكامل بالأس الأسود" - قال فاسيلي بيتروفيتش، وهو يضحك، وأصبح الأمر مضحكاً أكثر.

في أثناء تفحصهما النجم وضحكهما لهذا الأمر، تجاوزهما فريقهما، واعتبر كلّ واحد منهم من الضروري استراق نظرة إلى سلتي الواقفين على الطريق.

بقي فاسيلي بيتروفيتش وأرتيوم وحدهما على انفراد. سرعان ما انقطع الضحك، وفجأة تجهّم وجه فاسيلي بيتروفيتش.

لقد تحدّث بصعوبة وبكراهية: " كما تعلم، هذه السمة مخجلة ومثيرة للاشمئزاز. ليس فقط لأنّه قرّر ببساطة التحدّث معي، لكنّه كلمني باللغة الفرنسية! وأنا مستعد أن أسامحه على كلّ شيء. وحتّى أن أحبه! سوف آتي الآن وأبتلع هذا الحساء كريه الرائحة، وبعد ذلك سأتسلق إلى مضجعي الخشبي لإطعام القمل. وهو سيأكل اللحمة، وبعد ذلك سوف يجلبون له الثمار الذي جمعناها هنا. وسوف يأكل الأس الأسود ويشرب الحليب معه! يجب عليّ،عفواً، أن أبصق على هذه الثمار، وبدلاً من ذلك أحملها بامتنان له لأنّ هذا الشخص يتحدث اللغة الفرنسية ويتنازل لمستواي! لكن والدي كان يعرف اللغة الفرنسية! والألمانية والإنجليزية أيضاً! ولكن تجرأت عليه! وأهنته! فلماذا لم أفعل هذا أنا الجذمور العجوز؟، أنّني أكره نفسي كثيراً، يا آرتيوم! اللعنة عليّ!".

"يكفي - يكفي، فاسيلي بيتروفيتش، هذا يكفي"- ضحك آرتيوم بشكل آخر، فقد تمكّن، خلال الشهر الماضي، من أن يحب هذه المونولوجات...

قال فاسيلي بيتروفيتش بجدية كاملة: "لا أرتيوم هذا ليس كلّ شيء، أنا أصبحت هنا أفهم التالي: الأرستقراطية، ليست دماً أزرق قطّ، لا. هم ببساطة ناس تغذوا جيداً من جيل إلى جيل، وجمعت لهم الخادمات الثمار، ووضبن أسرّتهم، ونظفنهن بالحمام، وبعد ذلك قمن بتصفيف شعرهم بالمشط. لقد غسلوا ومشطوا إلى حدّ أنّهم أصبحوا أرستقراطيين . نحن الآن قد تلوثنا بالوحل، فيما هؤلاء يركبون على الأحصنة، ومتغذون ومستحمون، وهم... ليكن ليس هم، ولكن أطفالهم، سيصبحون أرستقراطيين أيضاً.

"لا "- أجاب أرتيوم، وذهب، وبعصبية خفيفة مسح حبات المطر من على وجهه.

سأل فاسيلي بيتروفيتش، وهو يلحق به: "هل تعتقد عكس ذلك؟"، وأضاف، وكان صوته ينم عن أمل واضح أن يكون أرتيوم محقاً: "سآكل على الغالب ثمرة أخرى... وأنت، يا أرتيوم كُلْ أيضاً، أنا سأضيفك، خذ، حتّى اثنتين".

لوّح أرتيوم بيده بالنفي، وقال: "ألا يوجد دهن مقدد لديكم؟".

كلما اقترب الدير كان صوت النوارس يعلو.

كان للدير زوايا، زوايا ضخمة، وكان غير متسق، وهناك خراب رهيب.

كان جسد الدير محترقاً، وبقيت فتحات تدخل منها الرياح، ونمت الطحالب على صخور الجدران.

لقد كان شاهقاً بشكل كبير وضخم، كما لو أنّه لم يجر بناؤه من قبل أشخاص ضعفاء، وإنّما سقط دفعة واحدة، بكامل جسمه الحجري، من السماء، وألقى القبض على أولئك الذين وجدوا أنفسهم في المصيدة.

لم يكن أرتيوم يحب النظر إلى الدير: لقد أراد بسرعة تجاوز البوابة ، ليدلف إلى الداخل.

قال فاسيلي بيتروفيتش هامساً: "أعيش هنا للعام الثاني في كارثة، وفي كلّ مرّة تمتد يدي لرسم شارة الصليب عندما أدخل إلى هذا الدير".

أجاب أرتيوم بصوت عالٍ: " كان عليك أن تضع شارة الصليب ".

سأل فاسيلي بيتروفيتش: "على النجم؟".

قاطعه أرتيوم: "على المعبد. ما الفرق بالنسبة لك - نجم، أم ليس نجماً، المعبد قائم".

قال فاسيلي بتروفيتش، بعد تفكير: " وفيما لو قطعوا أصابعي، من الأفضل ألّا أغضب الحمقى"، حتّى إنّه أخفى يديه في أكمام سترته، وكان يرتدي تحت سترته قميصاً بالياً من الفانيلا.

أنهى أرتيوم فكرته "... في المعبد هناك حشد من القديسين تقريباً، على مضاجع بعضها فوق بعضٍ في ثلاث طبقات... أم أكثر من ذلك بقليل، إذا أخذ بالحسبان تحت المضاجع.

كان فاسيلي بيتروفيتش يعبر الفناء بسرعة دائماً، وهو ينظر إلى الأسفل، كما لو كان يحاول عدم لفت انتباه أيّ شخص دون جدوى.

نمت أشجار البتولا والزيزفون القديمة في الفناء، وارتفع شجر الحور فوق كلّ شيء . لكن أرتيوم كان يحب شجرة الروان بشكل خاص، فقد كان يجري قطف ثمارها دون رحمة، إمّا من أجل غليها في الماء، وإمّا لمضغ شيء حامض، ولكن اتضح أنّها طعمها مرّ بشكل لا يحتمل، لم يكن هناك سوى عدد قليل من العناقيد في أعلاها، ولسبب ما ذكّر كلّ ذلك أرتيوم بتصفيف شعر والدته .

احتلت السريّة الثانية عشرة العاملة في معسكر اعتقال سولوفكي، قاعة الطعام ذات العمود الواحد، في كاتدرائية انتقال السيدة العذراء سلبقاً.

دخلا إلى دهليز خشبي، وألقا التحية على المناوبين، أحدهما شيشاني، لم يكن بإمكان أرتيوم تذكّر سبب إدانته، وكنيته، بأيّ شكل من الأشكال، ولم يكن يريد ذلك حقاً، وشاعر من مدينة لينينغراد، أفاناسييف الذي حكم عليه لمناهضته النظام السوفييتي، كما كان يتباهى هو نفسه، والذي سأل بمرح: " كيف ياغودا[1] في الغابة، يا تيوما؟". كان الجواب: "ياغودا في موسكو، إنّه نائب رئيس الإدارة السياسية للدولة، أمّا نحن ففي الغابة ".

ضحك أفاناسييف بهدوء، لكن الشيشاني، كما بدا لأرتيوم، لم يفهم أيّ شيء، على الرغم من أنّه يمكنك التخمين من خلال مظهرهما. جلس أفاناسييف مستلقياً قدر الإمكان على المقعد، بينما كان الشيشاني إمّا يسير ذهاباً وإياباً، وإمّا يجلس القرفصاء.

أشارت الساعة التي على الحائط إلى السابعة إلّا ربعاً .

انتظر أرتيوم بفارغ الصبر فاسيلي بيتروفيتش الذي كان يجلب الماء من الخزان عند المدخل، وكان يرتشف متنهداً بهدوء، بينما كان من الممكن أن يفرغ أرتيوم الكوب في جرعتين... وفي الواقع، شرب بيتروفيتش في النهاية، ثلاثة أكواب كاملة، وسكب الرابع على رأسه".

"علينا أن نحمل هذه المياه!" - قال الشيشاني باستياء، وهو يخرج كلّ كلمة روسية من فمه ببعض الصعوبة. أخرج أرتيوم بعض حبات من الثمار المجعدة من جيبه وقال:" خذ"، أخذها الشيشاني، دون أن يدرك ما الذي يعطون له، ولكنّه عندما خمّن، دحرجها بقرف على الطاولة. التقطها أفاناسييف كلّها، الواحدة تلو الأخرى ورماها في فمه.

عند مدخل قاعة الطعام، انبعثت رائحة على الفور، لم يعتدادوا عليها خلال يوم واحد في الغابة - أقذار بشرية لم تشطف، ولحم مهترئ قذر، لا تفوح

---

(١) ياغودا تعني باللغة الروسية ثمار.

هذه الرائحة من أيّ حيوان، كما تفوح من الإنسان ومن الحشرات التي تعيش عليه، لكن أرتيوم كان يعلم على وجه اليقين أنّه في غضون سبع دقائق سوف يعتاد على ذلك، وسوف ينساها، ويندمج مع هذه الرائحة، ومع هذا اللغط والفحش، وهذه الحياة.

كانت المضاجع مكوّنة من قضبان خشبية دائرية ورطبة دائماً وألواح ليست ملساء.

كان أرتيوم ينام على الطبقة الثانية، وفاسيلي بيتروفيتش على الطبقة التي تحته تماماً: لقد لحق أن يشرح لأرتيوم، أنّه من الأفضل النوم في الصيف على الطبقة السفلية، لأنّ الجو يكون أكثر برودة هناك، وفي الشتاء على الطبقة العلوية:"... إلى أين يرتفع الهواء الدافئ؟ " كان أفاناسييف ينام على الطبقة الثالثة. لم يكن يشعر بالحر أكثر من الجميع فحسب، بل كانت تتساقط قطرات من السقف باستمرار عليه، لأنّ الرواسب الفاسدة التي كانت تتكون من أبخرة العرق والتنفس، تتجمع وتسقط.

"يبدو أنّك لست مؤمناً يا أرتيوم؟"- لم يهدأ فاسيلي بيتروفيتش في الطابق السفلي، محاولاً مواصلة الحديث الذي بدؤه في الخارج، وفي الوقت نفسه كان يعبث بحذائه المتهالك. "أنت طفل القرن، أليس كذلك؟، ربّما قرأت كلّ أنواع القاذورات عندما كنت طفلاً ؟، دير بول شيل في السروال، وسحر وتعويذات الجن على العقل، ومات الرب موتاً طبيعياً، شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

لم يرد أرتيوم، وكان يستمع لمعرفة ما إذا كانوا يحملون العشاء أم لا، على الرغم من أنّه نادراً ما يجْلب الطعام قبل الوقت المحدد.

كان يأخذ معه خبزاً عندما يذهب لجمع الثمار، لأنّ ثمار الآس الأسود كانت تسري مع الخبز أفضل، لكن في النهاية لم يشبع جوعه المزمن.

وضع فاسيلي بيتروفيتش حذاءه على الأرض بهذه العناية الهادئة التي تميّز النساء غير المدللات، اللاتي يخلعن مجوهراتهن في الليل. ثمّ نفض أشيائه مطوّلاً، وختم أخيراً بحزن:

" أرتيوم، تصور، لقد سرقوا ملعقتي مرّة أخرى".

تأكد أرتيوم على الفور، ما إذا كانت ملعقته في مكانها: نعم، في مكانها، والقصعة أيضاً. سحق بقة فراش، في أثناء البحث في أغراضه. لقد سبق وسرقوا له قصعة، وقتها اقترض ٢٢ كوبيكاً من عملة سولوفكي المحلية، من فاسيلي بيتروفيتش، واشترى قصعة من الحانوت، وبعد ذلك خدش حرف "A" في أسفلها، بحيث إذا جرت سرقتها، يمكن معرفة غرضه. وفي الوقت نفسه، كان يدرك تماماً أنّ لا فائدة من العلامة تقريباً: فيما لو ذهبت القصعة إلى سريّة أخرى، فلا أحد سيسمح بمعرفة مكانها ومن يقوم بقشط العلامة عنها.

سحق بقة فراش أخرى.

كرّر فاسيلي بيتروفيتش مرّة أخرى: " تصوّر يا أرتيوم"، وبحث مرّة أخرى في مكان نومه دون انتظار إجابة.

تمتم أرتيوم بشيء ما غير واضح.

سأل فاسيلي بيتروفيتش: "ماذا؟".

أجاب أرتيوم: "تصورت"، وأضاف، من أجل مواساة صديقه: "اشتر واحدة من الحانوت. دعنا نتناول العشاء بملعقتي الآن".

كان يمكن لأرتيوم بشكل عام، أن لايشتمّ وصول الطعام، فالعشاء كان يسبقه دائماً غناء مويسي سولومونوفيتش: كان لديه حاسّة شمٍّ قوية للطعام، وفي كلّ مرّة كان يبدأ بالعواء قبل دقائق قليلة من إحضار المناوبين برميل العصيدة أو الحساء.

كان يغني بنفس القدر من الحماس كل شيء على التوالي، الأغاني الرومانسية والأوبريت والأغاني اليهودية والأوكرانية، وحاول الغناء حتّى

بالفرنسية، التي لم يكن يعرفها، وكان يمكن فهم ذلك من تكشيرة فاسيلي بتروفيتش اليائسة.

غنّى مويسي سولومونوفيتش بصوت واطٍ "عاشت الحرية والسلطة السوفييتية وإرادة العمال والفلاحين"، ولكن كان من الواضح، إنّه يغني دون أيّة سخرية، كما كان يبدو. كان لديه جمجمة طويلة، وشعر أسود كثيف، وعينان جاحظتان منتفختان، ومندهشتان، وفم عريض، ولسان كبير. وكان يساعد نفسه بتحريك يديه في أثناء الغناء، كأنّه يلتقط كلمات الأغاني العائمة في الهواء، ويصنع برجاً منها.

أحضر أفاناسييف والشيشاني، وهما يحركان رجليهما بخطوات قصيرة، برميلاً من الزنك على العصي، ثمّ أحضرا برميلاً آخر.

واصطف كلٌ في فصيلته للحصول على العشاء، كان يستغرق الأمر دائماً ساعة على الأقل. كانت فصيلة أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش بقيادة سجين مثلهما، الشرطي السابق كرابين، وهو رجل صامت، وصارم، مع شحمتي أذنين ملتصقة. كان جلد وجهه محمّراً دائماً، كما لو كان مسلوقاً، وكانت جبهته بارزة ومنحدرة، يوحي مظهره بالقوة بشكل خاص، يذكّر على الفور، بصفحات شوهدت منذ فترة طويلة، إمّا من كتاب مدرسي حول علم الحيوان، وإمّا من مرجع طبي.

كان يوجد في فصيلتهم، بالإضافة إلى مويسى سولومونوفيتش وأفاناسييف، العديد من الجناة وأصحاب السوابق، وأحد القوزاق من منطقة تيريك، لاجيشنيكوف، وثلاثة شيشانيين، ومسن بولوني، وشاب صيني، ورجل من روسيا الصغرى، قاتل في الحرب الأهلية إلى جانب عشرات زعماء العصابات القوزاقية، وفي أثناء فترات الراحة كان يقاتل مع الحمر، وضابط من قوات كولتشاك، وحاجب الجنرال الملقّب ساماور، واثني عشر فلاحاً من أرض السواد، وكاتب المقالات الساخرة غراكوف من لينينغراد، الذي كان يتجنّب التواصل مع مواطنه أفاناسييف.

وظهر إضافة إلى ذلك، منذ يومين مشرّد تحت المضاجع، بين أكوام القاذورات التي لا يمكن تصورها، والتي تكونت من الخرق والقمامة، والذي إمّا قد يكون هرب من زنزانة العقاب، وإمّا من السريّة الثامنة، إذ يعيش أمثاله بشكل أساسي. أطعمه أرتيوم الملفوف مرّة واحدة، ولكنّه لم يفعل ذلك فيما بعد، لكن المشرّد بقي رغم ذلك ينام بالقرب منهم.

تساءل فاسيلي بيتروفيتش بشكل قاطع، وبأقل قدر من السخرية الذاتية: "كيف يخمّن، يا أرتيوم، أنّنا لن نسلمه؟" - وقال: "هل مظهرنا يوحي فعلاً أنّنا عديمو الفائدة ؟ سمعت ذات مرّة أن الرجل البالغ غير القادر على الخسّة أم على القتل في أقصى الحالات، يبدو مملًّا. أليس كذلك ؟".

بقي أرتيوم صامتاً، حتّى لا يجيب ولا ينزل من قيمة رجولته.

كان أرتيوم قد وصل إلى المعسكر منذ شهرين ونصف، وحصل على فئة العمل الأولى، من أصل أربع ممكنة، والتي تضمن له العمل اللائق في أيّ مكان، بغض النظر عن الطقس. مكث حتّى شهر حزيران، في سريّة الحجر الثالثة عشرة، بعد أن عمل لشهر كحمال في الميناء. وكان أرتيوم قد جرّب نفسه منذ سن الرابعة عشرة كحمال في موسكو، وقد تكيّف مع هذا العمل، وجرى تقديره على الفور من قبل رؤساء ورشات العمال والآمرين. لو أنّهم أطعموه بشكل أفضل، وسمحوا له بالنوم أكثر، لكان الأمر بشكل عام جيداً.

جرى نقل أرتيوم من سريّة الحجر إلى السريّة الثانية عشرة.

ولم تكن هذه السريّة هي الأسهل، كان النظام فيها أكثر ليونة ممّا كان عليه الأمر في سريّة الحجر. قاموا في المجموعة الثانية عشرة، بأعمال شاملة أيضاً، وغالباً ما عملوا بجدٍّ دون تحديد ساعات العمل، لحين إنهاء العمل المكلفين به. لم يكن لديهم الحق في التواصل مع الإدارة بشكل شخصي، فقط من خلال قادة الفصائل. أمّا بالنسبة لفاسيلي بيتروفيتش الذي كان يتحدث الفرنسية، فقد كان إيخمانيس أوّل من تحدث معه في الغابة.

أرسلوا السريّة الثانية عشرة طوال شهر حزيران، لجمع الجذوع أحياناً، وأحياناً إلى تنظيف الدير نفسه من القمامة، وأحياناً إلى اقتلاع جذوع الأشجار، وكذلك إلى حصد الحشيش، وإلى مصنع الطوب، وإلى صيانة سكة الحديد. لم يكن يعرف الكثير من أبناء المدن (من سجناء الدير) كيفية حصد الأعشاب، والبعض الآخر لم يكن مناسباً لتنزيل الحمولات، وهناك من انتهى به الأمر إلى المستشفى، وهناك من عوقب وجرى إرساله إلى زنزانة العقاب، ولذلك جرى استبدال المجموعات وخلطها إلى ما لا نهاية.

تجنب أرتيوم إلى حدّ الآن العمل في نقل جذوع الشجار، وهو العمل الأكثر صعوبة، وكآبة وابتلالاً، لكنّه عانى من قبع الجذوع: لم يستطع قطٌّ تخيل مدى عمق وتنوع الأشجار وتشبثها بالأرض.

"إذا لم تقطع الجذور واحداً تلو الآخر، وقمت بقلع الجذع بقوة هائلة، فسيقوم بذيوله اللامتناهية بقبع قطعة من الأرض، بحجم قبّة كنيسة انتقال العذراء" - قال ذلك أفاناسييف بأسلوبه المجازي، وكان إمّا يلعن، وإمّا يعبّر عن إعجابه.

معدل عمل الشخص الواحد هو ٢٥ جذعاً في اليوم.

جرى نقل السجناء الاختصاصيين والحرفيين الأكفاء إلى سرايا أخرى، إذ كان نظام العمل أسهل، لكن أرتيوم كان لا يزال غير قادر على تحديد المكان الذي يمكن أن يكون فيه مفيداً، كطالب لم ينه تعليمه، وما الذي يستطيع القيام به في الواقع. إلى جانب ذلك، هذا القرار هو نصف الأمر. يجب أن يلاحظوك ويدعوك.

كان الجسم، بعد العمل بنقل الجذوع، يتوجّع، كما لو كان متهدماً، وكان يشعر في الصباح أنّه لم يعد هناك المزيد من القوة للعمل. فقد أرتيوم وزنه بشكل ملحوظ، وبدأ يرى الطعام في الحلم، ويبحث باستمرار عن رائحة الطعام والشعور به بشدة، لكن شبابه كان ما يزال يعطيه القوة ولم يستسلم.

يبدو أن فاسيلي بيتروفيتش ساعده، متظاهراً أنّه ضليع بجمع الثمار في الغابات، وعلى أيّة حال، كان الأمر كذلك، فقد كلّف بمهمّة جمع الثمار، وأخذ أرتيوم معه، ولكن كان يجري إحضار الطعام إلى الغابة بارداً كلّ يوم وأقل من المعيار المطلوب: كان السجناء الذين يحملون الطعام ويوزعونه، يرتشفون منه على ما يبدو، في الطريق، ونسوا في المرّة الأخيرة، إطعام جامعي الثمار، مدّعين أنهم أتوا، لكنّهم لم يجدوا جامعي الثمار الذين انتشروا في الغابة. اشتكى أحد ما على محضري الطعام، وتعرّضوا للعقوبة لثلاثة أيام في زنزانة العقاب، لكن هذا لم يشعرهم بالشبع جراء ذلك.

كان العشاء اليوم عصيدة من الحنطة السوداء، كان أرتيوم منذ صغره يأكل بسرعة، لكن هنا، جلس على مضجع فاسيلي بيتروفيتش، ولم يلحظ كيف اختفت العصيدة، مسح الملعقة أسفل سترته من الداخل، وسلّمها إلى رفيقه الأكبر منه سناً، الذي كان جالساً والقصعة على ركبتيه، وينظر بلباقة جانباً.

" ليحفظنا الله "- قال فاسيلي بيتروفيتش بهدوء وحزم، وهو يغرف بملعقته العصيدة التي اهترأت، والتي لا طعم لها والمصنوعة من ماء مخاطي.

أجاب أرتيوم - "أحم، أحم".

بعد أن شرب الماء المغلي بعلبة كنسروة، التي حلّت محلّ الكوب، قفز إلى مضجعه في الأعلى، مخاطراً بإمكانية انهيار المضاجع الأخرى، وخلع قميصه، ووضعه مع فوط قدميه تحته كالمفرش لتجف، وأدخل يديه في معطفه، ولفّ وشاحاً حول رأسه، ونام مباشرة تقريباً، ولكنّه تمكّن من سماع فاسيلي بيتروفيتش يقول بهدوء للمشرّد، الذي اعتاد في أثناء الطعام، أن يشدَّ برفق بناطيل الذين يتناولون الطعام:

" لن أطعمك، مفهوم ؟ أنت الذي سرقت ملعقتي، أليس كذلك؟".

ولكون المشرّد كان مستلقياً تحت المضجع الذي يجلس عليه فاسيلي بيتروفيتش، فقد بدا كما لو أنّه يتحدث إلى الأرواح، ويهددهم بالجوع وهو ينظر أمامه بعينين صارمتين.

كان أرتيوم بعد ذلك، قادراً على أن يبتسم لأفكاره، وتسللت الابتسامة من بين شفتيه، عندما كان قد نام، وبقيت ساعة واحدة قبل أن يبدأ التفقد المسائي، فلماذا إذن تضييع الوقت.

كان هناك، في غرفة الطعام السابقة، من يتشاجر، ومن يتشاتم، ومن يبكي، لم يكن يهتم أرتيوم لذلك.

تمكّن في غضون ساعة، من أن يحلم ببيضة مسلوقة عادية، وصفارها يتوهج داخلها، كما لو أنّه مليء بالشمس، تنضح بالدفء، واللطف. لمسها أرتيوم بأصابعه بإجلال، وسخنت أصابعه. لقد شقّ البيضة بعناية، وانقسم البياض الذي داخلها إلى نصفين، في أحدهما، كان الصفار عارياً دون خجل، منادياً، ينبض، يمكن للمرء أن يقول دون أن يتذوقه، إنّه كان حلواً وناعماً بشكل لا يمكن تفسيره، لحدّ الدوار. جاء الملح الخشن من مكان ما في الحلم- وملحَّ أرتيوم البيضة، ورأى بوضوح كيف تتساقط كلّ حبّة ملح، وكيف يصبح صفار البيض مطلياً بالفضة، ذهباً ليّناً بالفضة. نظر أرتيوم، إلى البيضة المفتوحة، لبعض الوقت، غير قادر على تحديد من أين يبدأ، من البياض أم بالصفار. وانحنى، كما لو أنّه يصلي، فوق البيضة ليلعق الملح بحركة لطيفة.

استيقظ للحظة، مدركاً أنّه يلعق يده المالحة.

كان من الممنوع مغادرة السريّة الثانية عشرة في الليل. كانوا يتركون حوض البراز في السريّة حتّى الصباح .علّم أرتيوم نفسه أن يستيقظ ما بين الساعة الثالثة والرابعة ليلاً، مشى وعيناه ما زالتا مغمضتين، دون أن يرى الطريق، معتمداً على الذاكرة، ومع هيجان النعاس كان ينظف نفسه من بق الفراش... لكنّه لم يشارك أحداً في ممارسته.

عندما عاد إلى الوراء، كان لا يكاد يستطيع تمييز الناس على المضاجع.

نام الولد المشرّد على الأرض مباشرة، وتراءت قدمه القذرة... فكّر أرتيوم بشكل عابر:"كيف لم يمت بعد...". كان موسي سولومونوفيتش يشخر بشكل

رخيم ومتنوّع. ولم تكن المرّة الأولى التي يلاحظ فيها أرتيوم أنّ فاسيلي بيتروفيتش، كان يبدو مختلفاً تماماً، عندما يكون نائماً، كان يبدو مخيفاً وحتّى كريهاً، وكان عندما يستيقظ كما لو أنّه ، شخص آخر تماماً غير معروف.

نظر أرتيوم، وهومستلقٍ على معطفه الذي لم يبرد بعد، بعيون نصف ثملة، إلى قاعة الطعام السابقة، الموجود فيها مئة وخمسون سجيناً نائماً.

فكّر، وهو خائف ومندهش، ومغمض العينين: " من الغريب! أنّ الشخص يستلقي، لا يفعل شيئاً، وهكذا... معظم حياته...".

ومض عود ثقاب في الطرف الآخر، أراد شخص ما، لم يعد قادراً على التحمّل، أن يسحق ولو عائلة فراش واحدة على الأقل، من خلال ضوء عود الثقاب. كان بق الفراش يزحف باستمرار حتّى في الليل، على طول قوائم المضاجع، وعلى الجدران، وكان يسقط من مكان ما من الأعلى...

فتح أرتيوم عينيه على وميض عود الثقاب الخافت، ورأى أحداً ما من الفصيلة الثانية، ينبش في كيس أغراض شخص آخر . التقت نظراته مع نظرات اللص، أغمض عينيه، واستدار، ونسي إلى الأبد.

استيقظ الجميع في نفس اللحظة، على جرس الساعة الخامسة صباحاً، وبعد لحظات قليلة صاح أفاناسييف :

" السريّة استيقاظ!"

كره أرتيوم أفاناسييف اليوم . صاح أمس مناوب آخر، بصوت حادٍّ، وكانت الكراهية تجاهه.

بعد دقيقة، غنى مويسي سولومونوفيتش الذي لايكاد يمكن تمييزه في شبه الظلام المقرف، بالفعل:

" أين أنت الآن، من يقبل أصابعك؟، إلى أين ذهب صغيرك الصيني، إليّ؟".

نظر أرتيوم بطرف عينه إلى الصيني الذي نام الليل بالقرب منه تماماً، لكنّه ،على ما يبدو، لم يسمع كلمات الأغنية: كان جالساً على مضجعه في الطبقة الثانية، يمسح رقبته ووجهه، كما لو كان يحس بنفسه وجسده ووعيه من جديد تحت كفيه.

"أيّها المغنّي اللعين، اخرس!" - صرخ أحد الجناة الذين لم يقوموا بعد من مضاجعهم.

صمت مويسي سولومونوفيتش في وسط كلمة.

"أظن أنّني لا أغنّي بصوت مرتفع"- قال وهو يحرك يديه في الفراغ.

صمت مويسي سولومونوفيتش، ولكن ليس لفترة طويلة، وسرعان ما دمدم بشيء ما بصوت لا يكاد يسمع: أتوا بالطعام.

كان يمكن الوقوف في الطابور والانتظار أربعين دقيقة حتّى يأتي دورك، لكن أرتيوم درّب نفسه على الصبر حتّى لا يضيع الوقت دون فائدة.

جلس تحت ضوء المصباح، وتمكّن من ترتيب، وتصفح صفحات المجلة المحلية التي يصدرها السجناء أنفسهم في المعسكر باسم "جزر سولوفكي"، والتي استعارها فاسيلي بيتروفيتش من المكتبة، على ما يبدو للحفاظ على الشعور بالكراهية الشديدة تجاه إدارة المخيم، وغالباً ما كان أرتيوم يقرأ صفحة الشعر في المجلة، ويجب أن يقال، صفحة ضعيفة جداً، باستثناء ما يكتبه بوريس شيرياييف الذي لفت الانتباه إلى نفسه، محاولاً قدر الإمكان تقليد أصوات الآخرين. هل جرى الإفراج عنه أم لم يفرج عنه بعد؟.. حفظ أرتيوم القصائد المنشورة في المجلة بغض النظر عن مستواها، وكان يكررها بينه وبين نفسه أحياناً، دون أن يفهم إلى حدٍّ ما السبب.

بمجرّد أنّه انتهى من كلّ هذه الأمور، وقف أرتيوم في الدور: في الوقت الذي لم يتبقّ سوى عدد قليل من الأشخاص.

" أرتيوم، هل غيرت رأيك؟"- سأل فاسيلي بيتروفيتش، وأعاد الملعقة التي غسلها إليه.

"لا، لن أذهب"- أجاب أرتيوم بابتسامة، مدركاً على الفور أنّ الحديث يدور حول جمع الثمار، وقال: "لا تتوسّط لي، لا يستحق الأمر ذلك".

"سوف يرسلونك إلى نقل الجذوع، يا عزيزي، وستعوي من التعب. أنت لست الأوّل. فكّر في الأمر" - قال فاسيلي بيتروفيتش ذلك بصرامة، وأضاف: "لقد جمعت ثماراً، خلال خمسة أيام متتالية، مرّة ونصف أكثر من المطلوب، اليوم كلفوني رئيساً للمجموعة. ضع في اعتبارك، سيحين قطف الكشمش وتوت العليق قريباً على الشاطئ الشمالي الشرقي . عندهم أيضاً ثمار الشيكشا الرائعة التي تنمو هنا، والتي تسمّى سيكا أيضاً، إنّها مفيدة جداً، إذا حكمنا من خلال الاسم".

"لا"- كرّر أرتيوم، وقال: "كلّ شيء لدي على ما يرام".

"يمكنك في الغابة، رؤية نحل الحقل الطنان الحقيقي، كما هو الحال عندنا، في مقاطعة تولا"- قال فاسيلي بيتروفيتش بلا حول ولا قوة، وأضاف: "ونبات القريص بطول الإنسان، هل تذكر، رأيناه معاً؟ وأمّا الطيور؟ الطيور تغنّي هناك!".

قال أرتيوم: "هناك طائر يزقزق بشكل، كما لو أنّ مصراع بندقية يسحب، غير مريح، والبعوض في الغابة أكثر بثلاث مرّات من هنا. لا أريد".

قال فاسيلي بيتروفيتش: "لا يزال يتعيّن عليك قضاء الشتاء، ما زلت لا تعرف ما هو شتاء سولوفكي!"

"هل ستقطف الثمار في الشتاء أيضاً؟"- ضحك أرتيوم، ووبخ نفسه على الفور لبعض الوقاحة في كلامه، لكن فاسيلي بيتروفيتش لم يظهر ذلك.

بغض النظر عن أنّ مويسي سولومونوفيتش كان يغني، لكنّه سمع كلّ شيء. اقترب فجأة من مضجع فاسيلي بتروفيتش، قطع الأغنية وسأل :

هل سيكون هناك شاغر في المجموعة؟ هل أرتيوم لا يريد؟ وهو محق، إنّه شاب غاضب وقوي ! أنا، يا فاسيلي بيتروفيتش، بإمكاني، أن أحلّ محلّ أرتيوم، ولو لفترة من الوقت. لا تنظر إليّ بهذا الشكل العدائي، فأنت لا تعرف حتّى كيف أرى الثمار بين الأعشاب بدقة، لديّ موهبة!".

لوّح فاسيلي بتروفيتش بيده فقط ، وذهب لبعض شؤونه.

"هل اتفقنا؟"- ناداه مويسي سولومونوفيتش، وهو ينظر بمودّة في أسره، وقال: "سأشكرك، من المتوقع أن يصلني طرد من أمّي خلال أيام".

أطلق مويسي سولومونوفيتش كلمة أمّي، على زوجته وأمّه نفسها، والعديد من عماته بدرجات متفاوتة من القرابة، وعلى ما يبدو، على آخريات أيضاً.

قال مويسي سولومونوفيتش، وهو يغمز بعين كبيرة مثل بيضة: "وأنت، أرتيوم، ينتظرك علاج بالماء، في منتجع سولوفكي، لثلاث سنوات، تضمن لك صحة جيدة مدى الحياة. لديك حكم لثلاث سنوات، أليس كذلك؟".

قفز أرتيوم من مضجعه وسأل بطريقة ما: "وأنت كم عام؟"- اختفى مويسي سولومونوفيتش على الفور.

ظهر كرايين فجأة بالقرب من مضجع أرتيوم وقال له: "أحمق، ستموت".

كانت لديه مثل هذه العادة: أن يكون فظاً ثمّ يقف لدقيقة، في انتظار الإجابة. صمت أرتيوم، وعضّ على شفته ونظر جانباً حارفاً نظره عن رئيس الفصيل، وقال كلمتين بينه وبين نفسه:"قميء، ملعون". كان أرتيوم خائفاً من أن يضربوه، وخاف أكثر من أن يرى الجميع كيف يُضْرَب.

تظاهر مويسي سولومونوفيتش أنّه يبحث بين أشيائه وينفض ستراته، لكنّه كان واضحاً من ظهره: كان يصيغ السمع ليعرف كيف ستنتهي الأمور.

أعطوا أوامر بالاصطفاف من أجل التفقد الصباحي.

عندما خرجوا ليصطفوا في الممر. تباطأ كثيراً الشيشان الذين كانوا يلتفون حول بعضهم البعض، وتشاجروا مع شخص ما. كان كرابين، الذي يحمل في يده عصاً للضرب، يطرد السجناء الجنائيين الذين لم يحبهم ويحقد عليهم بشكل خاص، أمّا هم فكانوا يقابلونه بكراهية خفية، تلقى أرتيوم الذي كان بينهم ضربة عصا، كما لو كان الأمر عن طريق الصدفة، لكنّ أرتيوم كان متأكداً من أنّ كرابين رأى من كان يضرب، وضربه عن قصد.

"أوجعك؟"- سأل فاسيلي بيتروفيتش بتعاطف، بينما كانوا يصطفون، وهو يرى كيف كان أرتيوم يتوجع.

تذكّر أرتيوم فجأة، وهو يبتسم بحزن:"كانت والدتي تمزح هكذا،عندما كنت أنا وأخي نجتمع في المساء، ونطلب العشاء، يجب أن يضرب الأولاد الحمقى بعصا غليظة على أجنابهم! لو أنّها كانت تعرف..."

بينما كان يعاني، وهو يقف في الصف، لم يخرج كرابين من رأسه. كان ينظر أمامه، بطرف عينه على بعد حوالي عشرة أمتار، من جهة اليسار، جبهة حمراء منحدرة، وشحمة أذن ملتصقة.

لم يرغب أرتيوم في أن يصبح سبباً، في إثارة انتباه، وتهيّج قائد الفصيل غير المفهوم: لا يوجد أحد تشكو له هنا، ولن تجد الإنصاف- ولكن سيطبقون عليك... العدالة بسرعة.

كان يعرف، منذ اليوم الأوّل في المعسكر، شيئاً واحداً: الشيء الرئيس هو أن لا يميزوك ولا يتذكروك ولا يراك من لا يحتاج إلى رؤيتك، ولكن حصل عكس ذلك تماماً الآن. لم يكن أرتيوم خائفاً من الوجع، ولم يكن ليشعر بالإهانة كثيراً، لو أنّه ضُرِبَ على قدم المساواة مع البقية الآخرين، ولكن الشيء المقزز هو عندما يميزونك من بين الآخرين لسبب ما.

فكّر أرتيوم بحزن وغضب في نفس الوقت: " أيّ علاقة لهذا القميء بالعمل الذي أمرت به. أنا لا أخاف من أيّ عمل! ربّما أريد أن أصبح بطل

إنتاج، حتّى يخفضوا مدّة حكمي إلى النصف! لا يمكنني جمع الكثير من ثمار الآس الأسود مع هذه التورم اللعين".

وبينما كان يفكّر في كلّ هذا، لم يلاحظ كيف نودي عليه برقمه خلال تفقد السجناء، وانتبه عندما دفعه أحد ما بكوعه فقط.

" ما الرقم ؟"- سأل أرتيوم في رعبٍ، من كان يقف بجانبه، كان صينياً، وأجاب بلغة مشوهة، مكرراً رقمه في الصف- تذكّر أرتيوم أنّ هذا هو الرقم بالذات الذي ذكر للتو، وذكر الرقم الذي بعده.

لاحظ بطرف عينيه، نظرة غاضبة أخرى من كرابين.

"ما الذي يحصل!"- أنّب أرتيوم نفسه، وأراد أن يبكي كما كان يفعل في طفولته،عندما كانت تحدث معه نفس سلسلة الإخفاقات السخيفة والمزعجة.

" استعداد! محاذاة إلى الوسط!"- صاح قائد السريّة.

كان قائد السريّة جورجياً- إمّا لقبه أم كنيته كوتشيرافا- قصير القامة، مع عينين جاحظتين، وبقع صلعاء لامعة، كان يذكّر أرتيوم بشدة بالشيطان. كان يرتدي مثل جميع قادة السرايا في المعسكر، بدلة زرقاء غامقة مع عروات رمادية اللون وقبعة، والتي لم يكن يحب ارتداءها وغالباً ما كان يخلعها، ويمسح العرق على الفور من على رأسه بمنديل متسخ.

" مرحبا، السريّة الثانية عشرة!"- صاح كوتشيرافا، بصوت عال، محملقاً بعيون مجنونة.

عدّ أرتيوم، إلى الثلاثة، كما علموه، وصاح بأعلى صوته :

"مرحباً"- أراد أن يتميّز ولو بالصراخ: "ولكن هل هناك من سيلاحظ حماستك وسط أصوات الجميع؟".

أبلغ رئيس السريّة الضابط المناوب في المعسكر عن عدد الموجودين، وعدم وقوع حوادث.

تلقّى ضابط الأمن التقرير وغادر على الفور.

"أيّها المتمردون، والمحتالون والكسولون الأوغاد!"

- توجه قائد السريّة بلهجة ملحوظة إلى المصفوفين، والذي بدا كأنّه شرب طوال الليل ونام ساعة واحدة قبل الاستيقاظ، كانت عيناه حمراوين، ممّا جعله يشبه الشيطان أكثر- "أحذر مرّة أخرى: من لعب الورق، ومن صنع الورق...".

بعد ذلك شتم قائد السريّة، دون أن يخجل من جدران الدير، بشكل سيء، إلى جانب ذلك أخطأ بالقواعد- لم يقل "... والِدَتُك "، ولكن لسبب ما قال "... والِدَتِك". ثمّ ظل صامتاً لفترة طويلة، يتذكّر، ويبدو أنّه كان يغفو من حين لآخر.

ثانياً، تذكّروهو يهتز- في أيلول تفتتح مدرسة أسرى المعتقل من جديد. تتألف المدرسة من قسمين .الأوّل هو القضاء على الأميّة الكاملة، والثاني لأشباه الأميين. وينقسم الثاني بدوره إلى ثلاثة أقسام أخرى: للضعفاء وللمتوسطين وللأقوياء نسبياً. بالإضافة للقواعد العامة والرياضيات، سيقومون بتدريس... هذه... العلوم الطبيعية مع الجغرافيا... وكذلك العلوم الاجتماعية ".

ضحك السجناء بهدوء، استفسر أحد ما، عمّا إذا كانوا سيدرّسون في الجغرافية، أقصر طريق للانتقال من سولوفكي إلى لندن، وما إذا كانوا بالمناسبة سيعلّمون الأميين اللغة الإنجليزية.

"نعم، سيعلّمون"- أجاب رئيس السريّة فجأة، بعد أن سمع أحاديث بإذنه القليلة السمع في الاجتماع- ستكون هناك حلقات خاصّة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، بالإضافة إلى حلقات أدبية وعلوم طبيعية"- لم يكد يتمكّن من لفظ الكلمات الأخيرة، لكنّ أرتيوم استوعب المعنى.

وقف بجانب أرتيوم بورتسيف، وهو ضابط سابق من قوات كولتشاك[1]، وكان دائماً مشدوداً وأنيقاً، ودقيقاً جداً في أفعاله وحركاته- كان يرجف خده المحلوق بشكل واضح باشمئزاز، بينما كان كوتشيرافا يتحدّث. وكان في السريّة إلى جانب بورتسيف، رجل من ريازان، وهو جندي سابق في الجيش الأحمر واسمه أفدي سيفتسيف، بالمناسبة شبه أُميّ.

بينما كان قائد السريّة، يتصارع مع الكلمات، استيقظ إلى حدٍّ ما وقال: "لا يجيد نصفكم القراءة أم الكتابة".

فكّر أرتيوم بكآبة، وهو ينظر بطرف عينه إلى بورتسيف- "والنصف الآخر يتحدث ثلاث لغات".

"من الأفضل قتلكم جميعاً، لكنّ الحكومة السوفييتية قررت تعليمكم حتّى تجعل منكم أناساً ذوي فائدة. الدراسة بالنسبة للأميين إجبارية، والباقي، حسب رغبتهم. يمكن للراغبين التسجيل الآن"- مسح قائد السريّة فمه بحركة غير متوازنة، ولوّح بيده، الأمر الذي كان يعني "استراحة " في هذا الصباح الصعب بالنسبة له.

" فيما لو سجلنا أنفسنا في المدرسة، هل سيعفوننا من العمل؟" - صرخ أحدهم، عندما انتهى الاجتماع واختلطت الناس مع بعضهم ببعض، وارتفع الضجيج.

" يبدأ الدوام في المدرسة بعد العمل"- أجاب قائد السريّة بصوت منخفض، لكن سمعه الجميع.

ضحك أحدهم بازدراء.

"وهل تريدون أن نعفيكم من العمل مقابل الذهاب إلى المدرسة، بنات آوى؟"- صرخ قائد السريّة فجأة، وعلى الفور فقد الجميع الرغبة في الضحك.

---

(١) ألكساندر فاسيلييفيتش كولتشاك (١٨٧٤- ١٩٢٠) كان أميرال روسي إمبراطوري وقائد عسكري اعدم في مدينة ايركوتسك كولتشاك ٧ شباط عام ١٩٢٠.

جرى توزيع العمل مباشرة- جلس وراء الطاولات المكلفون بتوزيع العمل، وفرزوا كلّ واحد إلى أين يجب أن يذهب.

بينما كان أرتيوم ينتظر دوره، ذهب كرابين إلى إحدى الطاولات، وعندما رأى أرتيوم قائد الفصيلة شعر بحكاك في ظهره، إذ تلقى ضربة العصا بالضبط.

لم يخدعه الحكاك - قال كرابين لأرتيوم، في طريق العودة:

"يجب أن تعتاد على مكان الإقامة الجديد. قريباً ستنقل بشكل دائم إلى هناك".

استدار فاسيلي بيتروفيتش الذي كان يقف في المقدمة، ونظر بتساؤل إلى أرتيوم الذي هزّ كتفيه. تدحرجت قطرة من العرق بين لوحي كتفيه، وارتجفت ركبته اليسرى، بشكل كبير ومقزز.

سأل المسؤول عن توزيع العمل، عن كنية أرتيوم، وقال وهو يغمز في الضوء الخافت للمصباح:

"أنت إلى المقبرة".

ظل أفدي سيفتسيف يبحث عن الدور، للتسجيل في المدرسة. لم يكن هناك أيّ دور.

اتضح أنّ العمل الذي كلّف به، ليس الأصعب، عبثاً كان خائفاً.

حتّى أنّه تعانق مع فاسيلي بيتروفيتش مودعاً- كان بتروفيتش يستعد للذهاب مرّة أخرى لجمع الثمار، آخذاً معه هذه المرّة مويسي سولومونوفيتش.

"أرتيوم..." - بدأ فاسيلي بيتروفيتش بشكل جدي ممسكاً أرتيوم من كتفيه.

"حسناً، حسناً"- لوّح أرتيوم بيده، حتّى لا يظهر حزنه الشديد- لو كان كرابين يريد معاقبتي، لكان قد أرسلني إلى مطحنة الصلصال... سنكتشف الآن ما هي المقبرة. ربّما جرى فرزي إليجوقة الإنشاد.

بقيت في دير سولوفكي، كنيسة واحدة عاملة وهي القديس أونوفريوس، والتي كانت موجودة على أرض المقبرة. سُمِحَ من جديد القيام بالصلوات في الدير، منذ ذلك الوقت الذي تسلّم فيه إيخمانيس المعسكر، وأيّ سجين لديه تصريح دائم بالتجوال خارج الدير، كان يستطيع حضور الصلوات.

قال فاسيلي بيتروفيتش مبتسماً: "مطربون في كنيسة أونوفريوس- نعم! لن تجد مثل هؤلاء في كنائس روسيا السوفيتية، لقد طلب مويسي سولومونوفيتش أن يغنّي هناك يا أرتيوم. لكن هناك اصطف عدد كبير من مغني الأوبرا في الدور. يوجد هناك أصوات جهورية وعميقة، أخ ..." .

لم يرسلوا أرتيوم، بالطبع، إلى الغناء، وإنّما لهدم المقبرة القديمة على الجانب الآخر من الجزيرة.

كان معه في المجموعة، أفدي سيفتسيف، والشيشاني خاساييف، والقوزاقي لاجيتشنيكوف، الذي كان يقدم نفسه دائماً باسم : "تيمافي ستيبانيش"- والذي كان، بالمناسبة، يليق جيداً بلحيته المجعدة وحاجبيه الأشعثين. قال فاسيلي بيتروفيتش حول ذلك لأرتيوم بأسلوبه الدافئ، لا بطريقة ساخرة على الإطلاق: " هذا الاسم يليق بهذه اللحية وهذين الحاجبين".

"لماذا يجب كسر الصلبان؟"- سأل سيفتسيف الحارس عند وصولهم.

كان ممنوع التحدّث مع الحراس بشكل عام، لكن جرى انتهاك الحظر في كثير من الأحيان.

" قال الحارس عابساً: "سيكون هنا إسطبل للحيوانات". كان من الصعب معرفة ما إذا كان يمزح أم يكشف الحقيقة.

قال الرجل بصوت منخفض: "ألا يكفي أنّهم حولوا الدير إلى إسطبل للحيوانات، والآن وصلوا للمقابر".

صمت الحارس، وجلس على المقعد بالقرب من قبر على طرف المقبرة، وأخرج سيجارة من علبة السجائر.

فكّر أرتيوم للحظة : "لا بدّ أنّه أخذ علبة السجاير من مسكين محلي".

لم تكن هناك بندقية مع الحارس. كان الحراس يسيرون دون سلاح أغلب الأحيان، وفي الكثير من أماكن العمل لم يكن هناك حراس نهائياً. جرى انتقاء الحراس من عناصر الأمن السابقين، الذين انتهى بهم المطاف إلى معسكر الاعتقال، ويجب القول إنّهم كانوا أوغاداً، دون شك.

قيل، إنّه إذا كانت الظروف ملائمة، وبالطبع مع وجود أسلحة ، فيمكن للحارس أن يقتل السجين، بسبب الوقاحة أم فيما لو أعجب بشيء ما وأراد أخذه منه، مثل علبة السجائر هذه، ثمّ بعد ذلك يؤلف كذبة ما، على سبيل المثال "كاد أن يهرب، أيّها الرفيق القائد".

لكن أرتيوم نفسه، لم يرَ مثل هذه الحالات، ولم يصدّق مثل هذه الأحاديث كثيراً، إلى جانب ذلك لم يكن معه أشياء باهظة الثمن، ولم يفكّر بالهروب. لا يوجد مكان للهروب إليه أصلاً، وما زالت الحياة كلّها أمامه، ولا يمكن تخطيها.

ظهر رئيس المجموعة، الذي انشغل بأكل الثمار في الطريق، ممسكاً بفأس في يده ووضع فأساً أخرى تحت إبطه، وصرخ من بعيد وهو يبصق ثمرة لم يمضغها :

" لماذا أنتم تقفون؟ يجب انجاز العمل خلال يوم واحد! يجب ألّا يكون هنا أيّة مقبرة ولا صلبان ولا شواهد قبور بحلول المساء! سنجمعها كلّها في كومة واحدة! لن نذهب من هنا، حتّى ننهي العمل! حتّى لو بقيتم تعملون حتّى الصباح! ستنامون في القبور ولن تغادروا!

سأل سيفتسيف: "هل يجب إخراج الهياكل العظمية أيضاً"؟.

"سأخرج هيكلك العظمي" - صرخ رئيس المجموعة بصوت أعلى.

" أذهب إلى العمل، أيّها الحصان اللعين"! - فجأة قفز الحارس من على المقعد وصرخ على سيفتسيف.

ابتعد سيفتسيف بسرعة من الخوف، كما لو أنّه يهرب من جمرة ملتهبة، أمسك بصليب قديم مائل على قبر وسقط معه.

بدءاً من ذلك، بدأ العمل.

هدأ أرتيوم نفسه: "المقبرة هي مقبرة - أنت تقطع شجرة - على الأقل هي على قيد الحياة، ولكن الجميع هنا أموات."

قرأ أرتيوم في البداية، أسماء الرهبان المدفونين، لكن بعد ساعة، لم تعد ذاكرته قادرة على الاستيعاب. لفت انتباهه أحد التواريخ فقط ، يصادف يوم ميلاده هو، ولكن قبل مئة عام، في نفس اليوم ، وفي شهر أيار أيضاً. كان تاريخ والوفاة كانون الأوّل عام ١٨٤٣.

"لم يعش حياة طويلة..."- فكّر أرتيوم بابتسامة استهزاء، إمّا بالرجل المتوفى وإمّا بنفسه. وفكّر أيضاً: "ماذا سيحدث لنا عام ١٩٤٣؟".

كان الجو مشمساً، عندما يكون هناك شمس يكون البعوض أقل بكثير.

خلع أرتيوم قميصه أوّلاً، وتبعه الشيشاني ثمّ لاجيتشنيكوف، سيفتسيف فقط لم يخلع قميصه:كانت رقبته محترقة ومتجعدة، مثل معظم الفلاحين، وكان جسمه الذي يظهر عند ياقة قميصه أبيض اللون.

بدأ الحماس يدب بالجميع بالتدريج: لقد كانوا يقبعون الصلبان بنزق، والذي يستعصى قبعه، يقومون بقطعه. تعامل سيفتسيف ببراعة مع الفأس التي أوكلت إليه، وكانوا يهزون أسوار المقابر، وفي حال عدم وقوعها، كانوا يقومون بتحطيمها والدوس عليها. جرى حمل شواهد القبور في البداية إلى مكان معيّن، وجمعوها بعناية، كما لو كانت لا تزال صالحة للاستخدام، وسيقوم الأموات فيما بعد بنصبها مرّة أخرى على القبور، باحثين عن أسمائهم.

ظلّ القوزاقي لاجيتشنيكوف يردّد، وهو يقرأ الأسماء: "عفواً، سنزعجكم... يا يليسي سافاتيفيتش... يا تيخون ميرونوفيتش... وأنت يا بانتليمون إيفانوفيتش أعزرني..." - ولكن فيما بعد،عندما بدأ يلهث من التعب

وتقطعت أنفاسه، وأصبح يتصبّب عرقاً، صمت. لقد بدؤوا بعد ساعة واحدة، بتحطيم النصب التذكارية بالكامل، دون احترام أم رحمة، رفعوها وهم يتأوهون ويجرونها وهم يشتمون بصوت خشن، ويلقون بها كيفما كان.

كما لو أنّ ارتفاع مشاعر الإعجاب بتدنيس المقدسات ينعكس أحياناً على الوجوه.

فكّر أرتيوم مرّة أخرى بذهول، وهو يتنفس بصعوبة ويمسح جبهته باستمرار: " ألا يوجد إثم في ذلك، أم لا؟ فيما لو أنا كنت مستلقياً في الأرض هكذا، هل سأحس بالإهانة... من أنّه لا يوجد صليب فوقي... وشاهدة القبر التي تحمل اسمي... ملقاة، و مختلطة... مع البقية... بعيداً عن القبر؟".

قطع سيفتسيف أفكاره، فقد انتهز لحظة، وقال بصوت منخفض، للحارس، وهو يمر بجانبه :

"لا يجوز الحديث عن الحصان بهذا الشكل يا عزيزي . يمتطي الحصان عالم الفلاحين كلّه. أنت نفسك ربّما كنت في المدينة طوال حياتك؟ أبواك من عمال المصانع؟".

"ماذا تقول؟"- لم يفهم الحارس. غادر سيفتسيف وهو يحمل الصليب الخشبي إلى الكومة المشتركة، إذ كان هناك حوالي مئة من الصلبان، أم حتّى أكثر.

همس الفلاح، الذي بدا أن الصمت يعذبه أكثر من الجميع: "إنّ البلاشفة... لا يتركون الموتى ولا الأحياء يهدؤون".

جرى إنجاز العمل بسرعة غير متوقعة - انتصروا على كلّ الموتى ببساطة.

بدت الصلبان مخيفة: كما لو كان هناك قتال كبير بين هياكل المعوقين العظمية.

أشعل رئيس المجموعة لذي لا يحرم نفسه من المتعة، النار من ناحية، ومن ناحية أخرى، قام الشيشاني الذي كان يتحرّك بحماسة أكثر فأكثر حول النار، بإحكام وضع خشبة مشتعلة، بسرعة ورمى ما وقع منها عند قدميه في لبّ النار.

كانت النار عالية وجافة ومستقيمة.

قال سيفتسيف عن الصلبان، مهدئاً نفسه بالأحرى، وليس أرتيوم: "إنّهم أصبحوا جميعاً في الجنة، الموتى لا يحتاجون للصلبان، الأحياء هم من يحتاج الصلبان، لكن لا يوجد أقارب للأحياء هنا. نحن بلا أقارب الآن".

عندما انطفأت النار، تفحّص رئيس المجموعة بملل موقع المقبرة السابقة. لم يكن هناك شيء يمكن القيام به على هذه الأرض المحفورة ببشاعة، كما لو كانت ضحلة- وأرضاً منصعقة. ربّما لم يتبق سوى نقل شواهد القبور إلى أبعد من ذلك، ورميها في الماء أم دفنها - لكن لم يصدر مثل هذا الأمر.

شعر أرتيوم فجأة بشكل مؤلم، بأنّ كلّ الموتى من الآن فصاعداً وإلى الأبد عراة تحت الأرض. كانوا مغطّيْن وهم الآن مثل الأطفال دون لحفٍ في منزل بارد.

سأل نفسه:"وماذا بعد؟ ما العمل حيال ذلك؟"

هزّ رأسه وسها ونسي.

ذهبوا إلى الدير قبل حلول الظلام.

كان الشيشاني كالعادة عابساً، حسب مظهره الخارجي، لكن من الداخل بدا كأنّه منفعلاً. عندما اقتربوا، وبدأت جدران الدير المصنوعة من حجارة الصخور، تصدر رائحة كريهة خاصّة، قال الشيشاني بحزم فجأة:

" لو قيل لنا دمروا مقبرتكم - ما كان ليمسها أحد. سأموت ولن أمسّها. أمّا أنتم فدمرتم مقبرتكم".

ردّ لاجيتشنيكوف الذي تحول وجهه إلى اللون القرمزي الغاضب، على الفور: "أنت تكذب، أيّها العاهر".

"العاهر هو من يقول ذلك "- أجاب الشيشاني في مقاطع لفظية متقطعة تقريباً.

برز لدى لاجيتشنيكوف وريد عظمي سميك على رقبته مشدود للغاية لدرجة أنّه بدا: اقطعه وسيسقط الرأس على الجانب. تقدم خطوة نحو الشيشاني، وباعد ذراعيه مسبقاً، وفتح أصابعه كما لو كان يريد دغدغة الشيشاني تحت إبطيه، لكنّ الحارس صاح: "توقّف"!، ودفع لاجيتشنيكوف في ظهره.

وعد لاجيتشنيكوف الشيشاني: "سنكمل عندما نصل إلى السريّة".

لكن لم يستطع الصبر أكثر من دقيقة واحدة:

" نحن من قوزاق تيريك. عندما سقناكم، أيّها اللصوص، لم تجروا المقبرة خلفكم، لقد تركتم موتاكم لنا لكي ندوس عليهم".

"نعم، نعم"- وافق الشيشاني، وبدا صوته عند لفظ "نعم، نعم"، كأنّه صرخة طائر كبير خشن- يمكنكم القيام بذلك: "تدوسون أوّلاً، على مقبرة غيركم، ثمّ على مقبرتكم".

ارتجف لاجيتشنيكوف كلّه من جديد، والتفت إلى الوراء بحدة، على أمل أن يكون الحارس قد اختفى في مكان ما- لكن عبثاً، كان يسير، وكان وجهه غير مبالٍ.

"ألا تسمع كيف يجري تشويه سمعة المسيحيين هنا؟"- سأل لاجيتشنيكوف في نوبة من الغضب.

"من هو الذي تسأله عن المسيحيين؟"- قال الشيشاني وضحك لبرهة، ملتفتاً إلى الحارس. لم يعد إلهكم موجوداً لديكم- أيّ نوع من الآلهة هو، إذا كان يوجد مثل هذا الإيمان به!".

" كان الشيشان مسيحيين أيضاً من قبل، منذ زمن طويل..." - فجأة قال أرتيوم الذي كان مفتوناً في صغره بقصص بيستوجيف مارلينسكي، والذي كان يقرأ دفعة واحدة ، كلّ ما كان يقع تحت نظره عن القوقاز في ذلك الوقت.

نظر خاساييف إلى أرتيوم بالطريقة التي ينظر بها الكبار إلى طفل، تدخل فجأة في الحديث، وصمت، محركاً فكيه فقط.

وبّخ أرتيوم نفسه ضمنياً: "لماذا تدخلت أيّها الأحمق".

" أيّ أحمق "- كررها أرتيوم وهم يسيرون في فناء الدير: " أيّ أحمق، أحمق، أحمق، أحمق طوال اليوم..".

كرّرها كثيراً، حتّى أنّه نسي سبب توبيخه لنفسه.

جرى إعطاء كلّ واحد منهم في السريّة، فطيرة من الملفوف مقابل إنجازهم العمل بسرعة. قال سيفتسيف وهو يتطلع إلى الفطيرة عابساً، كما لو أنّها كائن حي: "لا نعرف ماذا نفعل بها، هل نمضغها أم نختنق بها". كنّه على أيّ حال أكلها، وجمع بعد ذلك الفتات من على ركبته.

بقيت ساعة واحدة تفصلهم عن وقت العشاء، وتمكّن خلالها أرتيوم من النوم، ولاحظ أنّ لاجيتشنيكوف وخاساييف في السريّة، ذهب كلّ واحد إلى مكانه، ولم يحاولا استكمال حديثهما.

وضب لاجيتشنيكوف ثيابه البالية على مضجعه بعناية ودقة. كما لو أنّه كان في بلده تيريك يتطلع إلى عدّة الحصان أم إلى عدّة صيد السمك، أمّا الشيشاني فكان يتهامس بهدوء مع جماعته الشيشان- كانوا يبدون من بعيد، وكأنّهم يتحدثون دون أن ينطقوا الكلمات، وإنّما عبر إشارات وإيماءات، وإمّا حركات فموية سريعة.

هزّ فاسيلي بيتروفيتش أرتيوم لإيقاظه، وفي الوقت نفسه انطلق صوت مويسي سولومونوفيتش يغنّي حول الغابة والعندليب، من المؤكد أنّ جمع الثمار ألهمه الغناء.

قال فاسيلي بيتروفيتش: "كم أحسدك، يا آرتيوم، على هذا النوم العميق"، وكان صوته مريحاً، كما لو كان قد جاء من مكان، في أيام طفولته- "حتّى من غير المفهوم ، سبب سجن هذا الشاب الذي ينام مثل نوم الصالح في الجحيم. جاء العشاء، انهض يا أرتيوم ".

فتح أرتيوم عينيه ورأى وجه فاسيلي بيتروفيتش المبتسم بقربه، وكانت يده التي أمسك بها حافة مضجع أرتيوم أقرب.

عندما أدرك فاسيلي بيتروفيتش أنّ رفيقه قد استيقظ تماماً، غمز لأرتيوم وجلس مكانه.

أجاب أرتيوم وهو يتعمّد النزول ببطء من على مضجعه، وفي الوقت نفسه يتمطّى:" بقدر ما استطعت أن ألاحظ أنّ الصالحين ينامون بشكل سيئ".

فكّر أرتيوم، وهو يتناول بتلذذ، عصيدة الدخن الكريهة، بفاسيلي بتروفيتش، وهو يستمع في الوقت نفسه إلى هذا الشخص الكثير الكلام كالعادة.

سأل فاسيلي بيتروفيتش في البداية، ما هو العمل الذي قمتم به في المقبرة، وهزّ رأسه: "لقد جنّوا تماماً، تماماً..."، ثمّ قال إنّه وجد الأماكن التي فيها ثمار، وأن موسي سولومونوفيتش خدعه- لقد غابت عن ناظريه ثمار الآس تماماً، وعلى الأرجح، بصره ضعيف، كان يجب أن يعمل في المجال التعاوني..." - أضاف فاسيلي بتروفيتش.

لقد أدرك أرتيوم فجأة، ما بدا له غريباً في فاسيلي بتروفيتش. نعم، وجه ذكي، وحافظ على شيء ما من سلالته، عادة زرّ عينيه، والرأس المرفوع، ونظرته المهمومة والمركّزة دائماً، ولكن في الوقت نفس كانت لديه يدان جافتان وقويتان ومغطاتان بشعر أبيض كثيف- لكن في الوقت نفسه، كان فاسيلي بيتروفيتش لا يكاد يملك شعراً أشيب.

تذكّر أرتيوم لا شعورياً هاتين اليدين، منذ كانا يجمعان الثمار- كانت أصابع فاسيلي بيتروفيتش تمتلك تلك الثقة الغريبة في الحركة التي يتميز بها المكفوفين في بعض الحالات- عندما يكونوا على دراية كاملة بما حولهم.

" كما لو أنّ يديه لشخص آخر"- فكّر أرتيوم وهو يمسح صحنه بقطعة خبز بحجم عملة الكبيك. كان الخبز يوزع عليهم لأسبوع، وكان لا يزال لدى

أرتيوم رطلان[1] تقريباً- فقد تعلّم أن يقتصد به، بحيث يكفي حتّى مساء يوم السبت على الأقل.

قال فاسيلي بتروفيتش: "أتعلم، يا أرتيوم، في البداية عندما وصلت إلى هنا، كانت الظروف مختلفة قليلاً - كان قبل إيخمانيس، قائد آخر للمعسكر، كنيته نوغتيف- إنّه زاحف نادر حتّى بين رجال الأمن. كان يستقبل شخصياً بنفسه، كلّ مجموعة جديدة من المساجين، ويقتل شخصاً واحداً عند مدخل الدير بمسدسه: طق- ويضحك. في أغلب الأحيان، كان يختار كاهناً أم معادياً للثورة. من أجل أن يعرف الجميع من الخطوات الأولى، أنّ السلطة هنا ليست سوفييتية، وإنّما سولوفيتية- كان يكرّر مقولته هذه باستمرار. ضع في اعتبارك أنّ إيخمانيس لا يقول ذلك، والأكثر من ذلك أنّه لا يطلق النار على الدفعات الجديدة. ولكن فيما يتعلق بوجبات الطعام، لقد حصل وقتها أشياء مذهلة. عندما هربت الجبهة الشمالية للجيش الأبيض، تركوا مخزوناً كبيراً من الطعام هنا: مكعبات السكر، ولحم الخنزير المقدد الأمريكي، وبعض الأطعمة المعلبة غير المعروفة هنا. لن أقول أنّهم كانوا يطعموننا من ذلك كثيراً، لكن في بعض الأحيان كان ثمّة شيء منها على الطاولة. في ذلك العام، كان لا يزال يعيش سجناء سياسيون هنا- اشتراكيون ديمقراطيون، واشتراكيون ثوريون، وغيرهم من الفوضويين الذين اختلفوا مع البلاشفة في التفاصيل، لكنّهم يوافقونهم في الجوهر- فكانوا يطعمونهم مثل أطفال المفوضين. وإضافة إلى ذلك كلّه، لم يرسلوهم إلى العمل على الإطلاق. كانوا في الشتاء يذهبوا للتزلج، وفي الصيف كانوا يتأرجحون على كراسي الاستلقاء، ويتجادلون ويتجادلون ويتجادلون... من الممكن أنّهم الآن، يتحدثون عن ماضيهم الرهيب في سولوفكي- لكنّهم لا يعرفون ما هي سولوفكي يا أرتيوم.

أحضر فاسيلي بيتروفيتش في كيسٍ كبير، حمله على ظهره فطراً، كان ينوي على ما يبدو، تجفيفه، أمّا في الكيس الصغير الذي خيطه بيديه بإحكام، والذي

---

(١) الرطل الروسي = ٤٠٩,٥غ.

كان يحمله على صدره، فقد احتفظ بالقليل من الثمار. جلس، وأرجح كيسه لبعض الوقت، بحيث يمكن ملاحظته من تحت المضجع. سرعان ما ظهرت يدان قذرتان، مطويتان مثل مغرفة، وقعت فيهما ثمار عدّة

- معجونة. كانت أظافر أصابعه غريبة الشكل.

قال أرتيوم فجأة: "لكنّني لم أرَ وجهه قطّ "- أومأ برأسه إلى يدي المشرّد، اللتين اختفتا على الفور.

اقترح فاسيلي بيتروفيتش بعد لحظة صمت: " دعونا نذهب إلى الخارج ، ونتجول في الدير، عندهم مسرح اليوم- الفناء ليس مزدحماً بالناس كالمعتاد. بالإضافة إلى ذلك، لدي عمل مريح جداً ".

وافق أرتيوم، بطيب خاطر.

وقفا بالقرب من المصلى الرخامي لمباركة المياه ، إذ كان ثمّة مدفعان قديمان على عربتين غالباً ما ظهرا لأرتيوم بالحلم، لسبب ما، وكان هذا حلماً مخيفاً ومؤلماً وأكثر من ذلك ، كان أرتيوم متأكداً، لسبب ما، أنّه رأى هذين المدفعين أوّل مرّة في الحلم، قبل سولوفكي.

وصلا إلى الجنينة الواقعة بين مبنيي القديس والبشارة. لم يكن أرتيوم شبعاً تماماً ولم يكن قد نام جيداً، لكنّه نام، وأكل طعاماً ساخناً، وبسبب ذلك، كان يتثاءب مثل الشباب، ويشعر بالرضا تقريباً. أمّا فاسيلي بيتروفيتش الذي كان يفكّر دائماً في شيء، ليس اعتباطياً وضرورياً، كان مستعجلاً وسار أمامه قليلاً - في قبعته ذات الطراز الإنكليزي، التي لا يخلعها حتّى في الصيف - يبدو أنّه كان يخجل من رأسه الذي بدأ يصلع.

كان مساء مشرقاً، وكان الهواء رائعاً، وكانت السماء مليئة بالألوان بعناية، ولكن وراء هذه الألوان الهادئة، كما لو أنّ هناك شعوراً بوجود قبّة صلبة ما ، غير مرئية.

"في مثل هذه السماء، يمكن أن تقرع كما يقرع الجرس"

- قال أفاناسييف ذات مرّة.

اندفعت سحابة قاتمة على شكل كتل من الغيوم من الغرب، لكنّها كانت لا تزال بعيدة.

" كما لو أنّ هذه السحابة تجرّ من لحيتها إلى الجحيم "

- فكّر أرتيوم، وهو يقلّد أفاناسييف بشكل مقصود، وابتسم لنفسه، لقد عبّر عن ذلك بشكل غير سيء: ربّما أبدأ في كتابة الشعر؟ نعم أحب الشعر، لكنّه لم يقل لأحد ذلك ولا في وقت من الأوقات: ليس هناك ما يستدعي ذلك ؟.

كان عدد من الكهنة الأرثوذكس واقفين أو يتمشون في الجنينة، وكانوا جميعهم تقريباً، يرتدون الغفافير القديمة المرقعة، وقد أعيد ترقيعها، ولكن دون صلبان على الصدر، كان أحدهم يرتدي خوذة الجيش الأحمر، أقيمت النجمة عنها: لم ينتبه أحد لمثل هذه الأشياء منذ فترة طويلة، وكان كلّ واحد يرتدي ما في وسعه. لفت فاسيلي بيتروفيتش بإيماءة انتباه أرتيوم إلى القساوسة الكاثوليك الذين كانوا يجلسون منفصلين على مقعد، مركّزين ومتغطرسين قليلاً.

قال فاسيلي بتروفيتش: "من الملاحظ يا أرتيوم، أنّك تأقلمت بسرعة مع حياة سولوفكي" - ضحك وأضاف: "حتّى بق الفرش لا يعضّك كثيراً "- وتابع على الفور بجدية: "أنت لا تسأل أسئلة غير ضرورية. تتحدث قليلاً وعند الضرورة فقط. لست فظاً ولا غبياً. هنا، ينحدر الكثير من الناس في الأشهر الثلاثة الأولى.

- إمّا أنّهم يصبحون محطمين، وإمّا مخبرين، وإمّا في خدمة اللصوص، ولا أعرف، حتّى ما هو الأسوأ بينهم. ألاحظ أنّك قد تجاوزت كلّ هذه التهديدات كما لو أنّها غير موجودة، دون القيام بأيّ شيء خاص. تتأقلم مع العمل إلى حدّ الآن.

-أنت تتكيف معه، وهو أمر نادر بالنسبة لشخص يتمتّع بالذكاء والإدراك. أنت لا تحمّل الأمور أكثر ممّا تحتمل- وهذه أيضاً ميزة تحسد عليها.

لديك جَلَد، كما أرى. مقدّر لك أن تحيا حياة طويلة. في حال لن ترتكب أخطاء، ستسير أمورك بشكل جيد".

نظر أرتيوم باهتمام إلى فاسيلي بيتروفيتش، كان مسروراً لسماع كلّ هذا، ولكن باعتدال، ومتعة إلى حدٍّ ما. لا سيّما أنّ أرتيوم كان يعرف بعض صفاته الشخصية الغبية والشريرة والعادات السلوكية التي يصعب تفسيرها، لكنّ فاسيلي بيتروفيتش، لم يكن يعرفها بعد.

تابع فاسيلي بيتروفيتش: "هنا الكثير من المشاجرات والمشاحنات، أنت كما لاحظت، ودود جداً مع الجميع، والجميع غير مبالين بك إلى حدٍّ ما ".

قال أرتيوم: "ليس الجميع".

"حسناً، نعم، نعم، كرابين . لكن ربّما تكون مصادفة؟".

هزّ أرتيوم كتفيه، مفكراً في مدى غرابة كلّ شيء، إن لم يكن غريباً جداً: لقد أُخْرج من حياته، كما لو كان من الرحم، وانتهى به المطاف على جزيرة - إذا لم تكن هذه البقعة نهاية العالم، فهي بالتأكيد نهاية البلد- يقوم الحراس بمراقبته، وفيما لو تصرّف بطريقة خاطئة فيمكنهم قتله- وفي نفس الوقت يتمشى في الجنينة ويتحدث بهذه النبرة، كما لو كان على وشك العودة إلى المنزل، إلى والدته.

تابع فاسيلي بتروفيتش حديثه عن كرابين: " لا أتذكّر أنّه أذى أحداً إلى ذلك الحد، ولكن إذا سارت أمورك بشكل خاطئ مع قائد السريّة، فعندها ستكون هناك مصيبة، مصيبة! كوتشيرافا - غول. على أيّ حال، سيتم بالتأكيد نقلك إلى مكان ما، إلى سريّة أسهل، إلى ديوان الإدارة... سيكون لديك غرفتك الخاصّة- عندها ستدعوني لزيارتك، لشرب الشاي".

سأل أرتيوم: "فاسيلي بيتروفيتش، لماذا لم تفعل أيّ شيء، حتّى الآن، للابتعاد عن العمل العام؟ هذا، كما قلت، هو القانون الأساسي لأيّ سجين يسعى لأن ينجو من سولوفكي- وأنت نفسك؟ ربّما تعرف الكثير من الأشياء، عدا عن جمع الثمار".

نظر فاسيلي بيتروفيتش بسرعة إلى أرتيوم، ووضع يديه خلف ظهره، وأجاب:" أرتيوم، لقد اعتدت بطريقة ما على هذا. لماذا عليّ الانتقال إلى سريّة أخرى، سريتي هي الغابة. إليك معلومة صغيرة: حاول دائماً أن تختار العمل الذي يتطلّب عدداً أقل من الأشخاص. إنّه الأسهل . لا سيّما، وأنّني مصنف من الفئة الثانية- لن يرسلوني لقطع الأشجار. ولذلك لماذا علي الاستعجال، سوف أقضي فترة حكمي بهذا الشكل. لقد كنت في طفولتي متقلّب - هنا مكان رائع للتعود على التحمّل".

لم يبد الأمر مقنعاً تماماً، لكن أرتيوم الذي نظر إلى فاسيلي بيتروفيتش مراراً وتكراراً بسخرية، لم يقل شيئاً، ولحسن الحظ سرعان ما حوّل فاسيلي بيتروفيتش الحديث إلى موضوع آخر:

"انتبه، على سبيل المثال، إلى هؤلاء المتحاورين. هل تعرف من هم؟ إنّهم أشخاص رائعون، لن تلتقي مثل هؤلاء الأشخاص ببساطة في شوارع موسكو وبتروغراد. في سولوفكي فقط! هذا الذي على اليسار، هو سيرغي لفوفيتش بروسيلوف هو ابن شقيق الجنرال بروسيلوف، هو نفسه الذي كاد ينتصر في الحرب الوطنية الثانية، ثمّ رفض القتال ضد البلاشفة. إذا لم يكونوا قد ضللوني، فأنّ سيرغي لفوفيتش، هو قائد أسطول البلطيق- أي أنّه كان كذلك. ولكن هنا أيضاً، له علاقة ما، بأسطول سولوفكي المحلي. إنّه يتحدث مع السيد فيولار.. فيولار هو أيضاً طائر أكثر ندرة: إنّه قنصل المكسيك في مصر".

تساءل أرتيوم : "وهل ضلّ الطريق من أمريكا إلى إفريقيا وانتهى به الأمر في سولوفكي؟".

أجابه فاسيلي بيتروفيتش: "من هذا القبيل! فقد ضلّ طريقه، عندما تحوّل إلى تفليس" - ابتسم فاسيلي بيتروفيتش، وقال: "زوجته روسية أم بالأحرى جورجية .لأكون دقيقاً تماماً- أميرة جورجية، جمال رائع، لكنّها نحيفة بعض الشيء، حسب ذوقي...".

- "من أين عرفت ذلك"؟

- سأل أرتيوم بفضول غير متوقع.

رفع فاسيلي بيتروفيتش يده ذات الشعر الأشيب بلطف، كما لو كان يوقف المحاور الذي في عجلة من أمره، وقال: "اسمع، يا أرتيوم!

- منذ وقت ليس ببعيد، قرّر السيد فيولار زيارة وطن زوجته، وتذوق الطعام الجورجي وما إلى ذلك. وبدلاً من ذلك، قامت مخابرات تفليس باعتقاله وأرسلته إلى هنا. كان يجب استيضاح الأمر من قائد سريتنا، لكنّني أحاول قدر الإمكان أن لا أصطدم مع كوتشيرافا".

لم ينتظر أرتيوم الجواب، وسأل: " ماذا عن زوجته؟".

"وزوجته هنا أيضاً"

- تابع فاسيلي بتروفيتش هامساً، لأنّهما اقتربا من بروسيلوف الذي كان يستمع بهدوء واحترام كامل إلى محدثه فيولار الذي كان يقوم بحركات إيمائية سريعة- وكان الحديث يدور باللغة الإنجليزية. "إنّها، في سكن النساء بالطبع".

صمتا لدقيقة، في أثناء مرورهما بالقرب من هذين الشخصين.

"ها هو الشخص الذي أبحث عنه"

- فرح فاسيلي بتروفيتش

- لقد وعدنا سيدنا الكاهن بالقشدة الحامضة مع البصل".

كان لدى أرتيوم الوقت الكافي للتفكير في طيبة كلمة- "سيدنا"- لكن ذكر القشدة الحامضة مع البصل كان له تأثير أقوى، وفي لحظة شعر أنّ فمه مليء باللعاب. حتّى إنّ الأمر أصبح مضحكاً بالنسبة له، كأنّه غير بشري، كما لو كان كلباً ما.

"الأب إيوان"(يوحنا)

- قال فاسيلي بتروفيتش.

كان يسير باتجاههما، رجل مبتسم، طويل القامة، يرتدي غفارة، وله لحية عريضة وكثّة ممشطة ضاربة إلى الحمرة، وشعره طويل مجعّد قليلاً وليس نظيفاً تماماً.

- من الواضح أنّه لم يكن صغير العمر، ولكن لا يزال وسيماً: له أنف نحيف ومنحنٍ قليلاً. وله أذنان صغيرتان، وخدان غائران قليلاً، وحاجبان غير ملحوظين كثيراً، ونظرة لطيفة.

انحنى فاسيلي بتروفيتش له، ورسم الأب إيوان شارة الصليب بحركة سريعة أعلى جبينه، ومدّ يده النحيفة والمليئة بالنمش لتقبيلها.

لاحظ أرتيوم الذي لم يكن يذهب إلى الكنيسة لعدم إيمانه العفوي، في هذه الحركة، الغياب التام وحتّى أيّ تلميح لانتقاص الكرامة الإنسانية، ولكن كان هناك شيء عكس ذلك تماماً، شيء يعلي من شأن فاسيلي بتروفيتش فقط.

تفاجأ أرتيوم، واندهش من الفكرة التي خطرت له، وهي أنّه يود تقبيل هذه اليد أيضاً - لم تكن الكبرياء هي التي منعته عن ذلك، ولكن الخوف من أن يقوم بذلك بطريقة خاطئة. ظلّ واقفاً بعيداً قليلاً، لكن الأب إيوان رحب به أيضاً، وأومأ برأسه بمودة - ولم تكن هناك في هذه الإيماءة رسالة من شأنها أن تسيء إلى أرتيوم، أي إنّ الكاهن لم يقل له: ليس هناك مشكلة في أنّك لم تقترب لتحصل على البركة، فأنا أفهم مدى صعوبة الأمر، وخطورته في أيامنا الصعبة. لا، بل رحب به الكاهن وكأنّ شيئاً لم يحدث على الإطلاق، وهو بالتأكيد كان سعيداً بمقابلة أرتيوم، الذي هو بالتأكيد شاب طيب ولطيف.

سأل فاسيلي بيتروفيتش: "كيف حالك أيّها الأب إيوان؟".

"الحمد لله، أنا بصحة جيدة"- أجاب بجدية شديدة وواصل، وكأنّه لا يتحدث عن جسده، وإنّما عن شيء منفصل عنه، والذي جرى تكليفه بمراقبته، بطريقة غريبة

- "تعمل جميع الأعضاء دون فشل ودون ألم. ظهر ورم بالعدوى في ركبتي، ولكن إن شاء الله سيختفي من تلقاء نفسه. وأمّا ما يخص البرد الذي في القلب أحياناً، فيمكن تحمّل شتاء القلب، أكثر من شتاء سولوفكي. إذا بحث القلب، فسيجد مأوى له في محبّة الذي صلب من أجلنا، أمّا عندما تكون قدماك عاريتين ويبرد أسفل ظهرك، في هذه الحالة لا يمكنك أن تركض بعيداً"

- ضحك الأب إيوان، وضحك معه فاسيلي بيتروفيتش، وابتسم أرتيوم أيضاً: ليس للكلام، بقدر ما للسحر الذي يخرج من كلّ كلمة قالها الكاهن.

"لكن يجب أن نتذكّر، أيّها الأعزاء "- قال الكاهن إيوان ذلك، ونظر، وهو يعرج قليلاً، إلى أرتيوم الذي كان يسير على يمينه، وهنا نظر للحظة إلى فاسيلي بيتروفيتش الذي كان يسير على اليسار- " القوى الجهنمية والسلطة السوفييتية، ليستا نفس الشيء دائماً. نحن لا نحارب الناس، بل ضدّ الشر غير المادي وأرواحه. لا يمكن أن يكون هناك شر في الحياة، تحت حكم السوفييت، إلّا إذا كان مطلوباً التخلي عن الإيمان. إنّك ملزم بالدفاع عن روسيا المقدسة- لأنّ روس(١) لم تختف: فها هي تقع تحتنا وتدفئها رعايتنا الضعيفة. من المهم ألّا ننسى الكلمة ذاتها: الروسي، وكلّ شيء آخر، هو باطل دنيوي. يمكنك العمل في مزرعة جماعية أو كومونة - ما الخطأ في ذلك؟- الأهم، ألّا تهين اسم المسيح. هناك قائد للمعسكر، وهناك قائد للدولة، وهناك قائد الحياة- ولكلٍّ منهم عمله الخاص ومهمته الصعبة. قد لا يعرف قائد المعسكر، قائد الحياة، رغم أنّ لديه مئة عنصر أمن وفوجاً من الحراس الذين يساعدونه، وقسم المعلومات، ومطحنة الصلصال، وزنزانة العقاب الجاهزة دائماً- لكنّ قائد الحياة يتذكّر الجميع، ويتذكّرنا نحن وأنتم أيضاً. لا تتذمّروا، وتحمّلوا حتّى النهاية - من خلال تحمّل الأحزان بلا تذمّر، نذهب إلى أحضان قائد الحياة، وستكون رأفته أكثر نقاءً وإشراقاً بما لا يقاس من جميع النعم الأرضية، التي تنتهي بسرعة، وعبثية للغاية".

(١) روس: التسمية التي كانت تطلق على دولة السلاف الشرقيين في القرن التاسع، وهي النواة التي تشكلت منها الدولة الروسية الكبرى فيما بعد، ومنها اشتق اسم روسيا.

استمع أرتيوم إلى كلّ كلمة قالها الأب إيوان: لقد زرعت فيه الطمأنينة، ليس الحقيقة الثقيلة التي جرى الكشف عنها فجأة، وإنّما النسيج اللفظي نفسه.

الشيء الوحيد الذي صرف انتباهه هو رجل أسود مرّ بالقرب: له شفتان كبيرتان، وأسود بشكل ملفت، وطويل- ابتسم لأرتيوم، وأظهر أسناناً ممتازة، واختفى منها واحد أمامي.

"الأفعال والهموم تلتهمنا "

- قال الأب إيوان، وهو يزرّ عينيه بلطف، كما لو كان من الشمس- إنّ العيش هنا أسهل لأولئك السجناء الذين يتعلقون بالعمل، ووراء طاولة مكتب، مثل طوافة في البحر. أمّا بالنسبة لأولئك الذين يتلوون على المسرح، فإنّ الأمر أسهل بالنسبة لهم أيضاً، فأنّهم يطعمونهم من أجل عمل محبّب. أمّا الذين وقع عليهم القيام بأعمال عامة- فالأمر بالنسبة لهم أكثر صعوبة. قبيلتنا ذات الشعر الطويل"

- هنا الأب إيوان هزّ شعره الذي تطاير في الهواء بعض الشيء، وضحك بهدوء، وتابع:"جرى اختيارهم بصفتهم مشرفين وحراساً، لأنّه ليس لديهم عادة السرقة. لا يحالف الحظ الجميع، لا شك في ذلك! بالإضافة إلى ذلك، فإنّ العديد من المعذبين الذين وقعوا هنا، لا يعتنون بإخوانهم بالمصيبة، بل على العكس من ذلك، يفرضون أعباءً إضافية على من هم ضعفاء ومهانون مثلهم. وشرارة المسيح تتأرجح ولكن لا تنطفئ، سواء في روح المخبر أم في روح الهزيل أم في روح سجين زنزانة العقاب. ولكن مهما كانت همومنا، يجب أن تتذكروا، أنّه حتّى قبل أن يولد، أخبرنا من خلال النبي إشعيا: "إلى من سأنظر؟ للوديع والصموت فقط!"

- سيروا بحزم في الحياة، لكن اشعروا بالوداعة والخشوع باستمرار تجاه الذي سيقدم مساعدته المليئة بالنعمة لكلّ أولئك الذين يعبدونه!".

تنحّى أرتيوم جانباً، بينما كان فاسيلي بيتروفيتش يقدم للكاهن إيوان بعض الثمار، أمّا الكاهن فأعطاه بدوره، صرّة.

كانا يسيران وهما عائدين، كما لو أنّهما مخمورين، كان يجري بينهما حديث متعثر، وكانا يتعثران في مشيتهما، مليئان بالفرح ، فرح مضحك، صبياني تقريباً. حتّى النوارس الصاخبة التي كانت تلازمهما وتحلق فوق رأسيهما، لم تفسد مزاجهما.

التقيا مع امرأة في الطريق- كانت لا تزال جميلة، تبلغ من العمر أربعين عاماً، ترتدي شالاً، وجزمة لا بأس بها، وسروالاً رجالياً وسترة رجالية، أغلقتها بيديها على صدرها. نظر إليها أرتيوم بتمعّن حتّى تجاوزتهما.

جرى تثبيت لافتة ضخمة فوق البوابة الرئيسية كتب عليها: " سنشير للعالم إلى الطريق الجديد. سيكوم العمل سيّد العالم".

قال فاسيلي بتروفيتش، قاصداً إيخمانيس: " إنّ حديثنا هو الذي ألهمه... عن الرهبان الذين أنقذوا أنفسهم من خلال العمل؟".

أجاب أرتيوم: "هل تعتقد ذلك؟ أستبعد ذلك ...".

التقى بهما في الطريق مويسي سولومونوفيتش، الذي سار في البداية صامتاً، ولكن على بعد خطوات قليلة من أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش بدأ فجأة في الغناء دون كلمات، كما لو أنّه لم يعثر على الكلمات بعد، لكن كانت الموسيقى قد ظهرت.

ابتسموا لبعضهم البعض وافترقوا بالتأكيد لن يغنيا معه.

همس أرتيوم لفاسيلي بيتروفيتش: "أقسم لك، أنّه يشعر بالطعام ، وعندما يوجد الطعام يبدأ في الغناء!".

- سأل فاسيلي بيتروفيتش، لكنّه قبض على الصرّة بحزم: "لماذا تعتقد ذلك؟"

كانت الممرات داخل الدير مفروشة بالرمال، وكانت هناك أحواض في كلّ مكان زرع فيها ورود، وقد جرى تكليف بعض السجناء بالعناية بها. تخيّل أرتيوم أحياناً، بطرق مختلفة، أنّ هناك حديثاً يجري على هذا الشكل: " هل كنت في

سجن سولوفكي؟ ماذا كنت تفعل هناك؟ - كنت أزرع أصنافاً نادرة من الورود.

- أخ، إنّه نير البلشفية اللعين!".

جرى وضع فيل[1] مصنوع من الحجارة البيضاء على أحد أحواض الزهور الموجودة في الوسط.

كان الفيل يعني: معسكرات اعتقال سولوفكي للأغراض الخاصة.

من أجل عدم إثارة المساجين الجناة في السريّة، وعدم مشاركة أحد، وعدم إلهام مويسي سولومونوفيتش على الغناء، اقترح فاسيلي بتروفيتش خطّة عشاء رائعة: في غرفة أحد معارفه من عناصر الحرس الأبيض السابقين.

"سينضم بورتسيف، عندهم بعض الطعام أيضاً من أجلنا- سنرتب وليمة" - كان فاسيلي بيتروفيتش متحمساً ومنفعلاً، كما لو كان لديه موعد قريب- "ألا يوجد مناسبة ما اليوم، يا أرتيوم؟ يفضل ألّا تكون بلشفية؟"

- سأل، وهو يميل نحو أرتيوم،

حسب مفهوم أرتيوم، فإنّ فاسيلي بيتروفيتش كان تقريباً، مثالاً للروسي المثقف - الذي من غير المعروف إذا كان سيبقى حيّاً في روسيا السوفيتية: غير شرير وليبرالي... مع روح الدعابة... الكلمة الوحيدة التي كان يستخدمها عندما كان يشتم هي "قليل التعليم"... ساذج قليلاً وعاطفي بعض الشيء... ولكنّه يمتلك إحساساً فطرياً بقيمة الذات أيضاً.

فقد جرت صداقتهما التي لا يمكن تفسيرها بسبب معيّن، في ظروف غير عادية تقريباً.

استلم أرتيوم أوّلى طرد من والدته، عندما كان لا يزال في السريّة الثالثة عشرة.

---

(١) كلمة فيل، هي صلون باللغة الروسية، التي هي في الوقت نفسه تعني معسكر اعتقال سولوفكي للأغراض الخاصّة.

لقد سبق أن أصبح شاهداً على كيفية استيلاء السجناءالجناة، على طعام أم أغراض المساجين الآخرين، والتي يأتون بها إلى السريّة، وفكّر بكآبة، فيما يجب أن يفعله، وقام، وهو في الطريق إلى السريّة، بقضم قطع كبيرة من السجق المصنوع من لحم الحصان المرسل إليه وابتلاعها.

هنا ظهر فاسيلي بيتروفيتش لأوّل مرّة أمام أرتيوم: كانت السريتان الثانية عشرة والثالثة عشرة متجاورتين، وتقعان في قاعتين في المعبد نفسه.

قال فاسيلي بيتروفيتش معرّفاً عن نفسه، إمّا محرجاً من دوره، وإمّا يلعب دور المحرج: "أرى أن لديك شكوكاً أيّها الشاب. أنت من سريّة الحجر أليس كذلك؟ استولى اللصوص على أغراض قسم من أفراد مجموعتك في الطريق، عندما كنتم لا تزالون في عنابر سفينة "غليب بوكي ". ويجري تجريد القسم الآخر من اللباس والطعام في السريّة الآن. أنا مررت بكلّ هذا في وقت ما أيضاً. لدي اقتراح بسيط لك. من الصعب بالنسبة إليّ، إن لم يكن من المستحيل، إثبات صدق نواياي- تقبيل الصليب في أيامنا هذه ليس الفعل الأكثر إقناعاً، ولا يمكنني أن أعطيك كلمة صدق بلشفية لأنّني لست بلشفياً، لكنّني أعرف كيف أحفظ لك هذا الطرد. هل تسمع؟".

فكّر أرتيوم للحظة وأومأ برأسه موافقاً، وشدّ على الكيس الذي وضعت فيه الأغراض التي أرسلتها له والدته، بشكل أكثر إحكاماً.

أضاف فاسيلي بيتروفيتش "إذا سلّمتني الطرد، فسأخفيه بدوري عند أحد معارفي الطيبين، الكاهن بيتر، أمين مستودع الموجودات في القسم الأوّل. وهو سيحافظ على أغراضك بشكل آمن. وعندما تحتاج إلى بعضٍ منها يمكنك أن تطلبها منّي وتأخذ كلّ مساء ما تحتاج إليه، بعد العشاء- وقبل موعد التفقد المسائي".

نظر أرتيوم إلى زميله الجديد لبعض الوقت بتمعّن، وقرّر فجأة الوثوق به.

سأل أرتيوم فقط: "بماذا سأدين لك لقاء ذلك؟".

أجاب فاسيلي بتروفيتش بتواضع: "سنتحاسب بطريقة ما".

لم يؤجل أرتيوم عرض فاسيلي بيتروفيتش وأعطاه الطرد، والتقاه في اليوم التالي، بعد العشاء، إذ لم يطلب مكافأة، لكن أرتيوم، بالطبع، ضيّفه سمك الفوبلا الجاف، ولا سيّما أنّ أحداً لم يعبث بالطرد: إذا كان أرتيوم قد أكل السجق كلّه في اليوم الأول، فإنّه عدّ السمك المجفف، وربط أكياس السكر والفواكه المجففة بعقد معينة، وكان سيلاحظ بعد ذلك بالتأكيد إذا كانت العقد مختلفة.

في نفس اليوم دار بينهما حديث مفصّل.

كان يمكن لأرتيوم، أن يفترض بالطبع، أنّ فاسيلي بيتروفيتش يحافظ على العلاقات معه تحسباً للطرد التالي- لكن الشعور الإنساني أقنعه بشدة، أنّ الأمر غير ذلك: فكّر بأنّ ذلك متعلق بعاطفة إنسانية عادية. فلماذا لن يتعامل مع أرتيوم بشكل جيد، إذا كان هو يعامل نفسه بشكل جيد.

"لا سيما، يجب على الجميع العيش هنا"

- أكمل أرتيوم تأملاته حول هذه المسألة: "هل المثقف هو من يجب أن يموت أوّلاً؟".

بعد ذلك، جرى نقل أرتيوم من سريّة الحجر إلى السريّة الثانية عشرة، وكان في اليوم نفسه، قد غادرها أحد السجناء، نتيجة الإفراج المبكر عنه، وكان يشغل المكان الذي يقع فوق مضجع فاسيلي بيتروفيتش، فشغل أرتيوم، المكان الذي فرغ.

أخفى أرتيوم الطرد التالي بمساعدة فاسيلي بيتروفيتش، واقتسمه معه هذه المرّة أيضاً.

عندما كانا يبحثان عن الثمار، وفي لحظة راحة، حدّث فاسيلي بيتروفيتش باختصار أرتيوم، قصّة وقوعه في سولوفكي.

في عام ١٩٢٤، من خلال معارفه القدامى، ذهب فاسيلي بيتروفيتش مرّات عدّة لحضور حفلات في السفارة الفرنسية: علّمت سنوات الجوع، خلال

مرحلة الشيوعية الحربية التي لم يمض عليها وقت بعيد، الجميع أن يأكلوا كثيراً ليخزنوا للأيام القادمة، وكان الفرنسيون يطعمون.

لكن فاسيلي بيتروفيتش اشتكى: "إنّهم يفرشون الطاولة بشكل جميل، لكن ليس هناك ما تأكله ".

ذهب إلى السفارة الفرنسية أوّل مرّة، ثمّ مرّة أخرى، وفي المرّة الثالثة في طريق العودة، طلب منه ركوب السيارة وجرى نقله إلى الإدارة السياسيه الحكومية الموحدة، واعتبروه جاسوساً فرنسياً، رغم أنّ التحقيق كان غاية في الغباء، ولم يتمكنوا من إثبات أيّ شيء على الإطلاق.

غضب فاسيلي بيتروفيتش: "قمّة العار!" - لكن النتيجة كانت ثقيلة: المادة ٥٨، الجزء ٦ - تجسس.

ثمّ سأل فاسيلي بيتروفيتش، وهو يفرك يديه كما لو أنّ أرتيوم سيضيّفه، على سبيل المثال، بطاطس مسلوقة: "وماذا عنك؟".

تملّص أرتيوم، وأجاب: "شربت الزبادي عند امرأة غريبة

- وكانت النتيجة، سوط وسيبيريا".

قال فاسيلي بيتروفيتش بأسلوب مصطنع إلى حدٍّ ما، بطريقة معلّم جيد: "يا أرتيوم، بالنسبة إليّ الأمران سيّان، لكن يجب أن تعلم إنّ الجواب بهذا الشكل غير معتاد هنا، إذا سألك، على سبيل المثال، السجناء الجنائيون، لماذا أنت في سولوفكي، فسيتعيّن عليك الإجابة. ثمّ، ألم تتحدث، تحت أيّ مادة حكم عليك في أثناء التحقيق معك في الزنزانة ؟ من الصعب السكوت في الزنزانة - فقد يعتقدون أنّه جرى زرعك هنا".

قال أرتيوم: "غباء. يجري تعليم المزروع بالتحديد أن يكذب بشكل جميل".

لم ييأس فاسيلي بيتروفيتش: "هل من المعقول أنّك سجنت بسبب جريمة معيشية عادية؟ مظهرك يوحي بأنّك معارض حقيقي للثورة! لا أصدق أنّك قادر على السرقة!".

ابتسم أرتيوم، وأومأ برأسه، لكنّه لم يجب. كنت أسير دون أن ألتفت إلى الوراء، وعشت دون أن ألتفت إلى الوراء، طائش وعابث. لقد قادني المصير- والآن أعيش بلا رحمة. والشيء الأهم، هو ألّا أتذكّر والدي أبداً، وإلّا فسيأكلني العار وستتمزق روحي.

واصل فاسيلي بيتروفيتش الحديث، وهو يتطلع إلى أرتيوم : "... نعم، وأنت تتواصل أغلب الأحيان مع أعداء الثورة".

"أتواصل مع أناس عاديين"- أجاب أرتيوم لأنّ فاسيلي بيتروفيتش كان يتوقّع منه إجابة على الأقل.

طرح فاسيلي بيتروفيتش سؤالاً غير متوقع: "ما هو شعور الإنسان العادي تجاه البلاشفة؟".

أجاب أرتيوم بشكل مدروس مفكراً بكلّ كلمة يقولها، أي بطريقة غير مألوفة بالنسبة له: " لدي أخ أصغر مني- إنّه طليعي، ويهتم كثيراً بربطة عنقه الحمراء. أمّا أنا فليس لي أيّ علاقة بالبلاشفة. إنّهم جاؤوا، فليأتوا، ليكن".

بينما قطع فاسيلي بيتروفيتش البصل، تفحّص أرتيوم الغرفة.

لقد كان مندهشاً بشكل واضح.

أسقف عالية مطلية باللون الأبيض. أرضيات خشبية طليت مؤخراً باللون البني . نافذة بطول الإنسان تقريباً، نظيفة، لا يوجد سوى سريرين. أحدهما غير مفروش- عليه ألواح خشبية، فيما على السرير الآخر- غطاء نقش عليه نمر، وتظهر ملاءة ناصعة البياض، ووسادة منتفخة، أعتقد أنّها معطرة. يوجد فوق السرير رفٌّ عليه كتب: روايات إنكليزية عدّة، وراسين، وليونوف ما، جرى وضع علامة على صفحة ليست بعيدة عن بداية قصّة بعنوان "اللص"، ودوستويفسكي، وميريجكوفسكي، وبلوك- الذي أمسك به أرتيوم على الفور، وفتحه بمثل هذا الشعور، كما لو كان هناك رسالة شخصية له.

قرأ بضعة أسطر- أغمض عينيه، وتحقّق ما إذا كان يتذكّر ماذا يدور لاحقاً- تذكّر، ووضع الكتاب بعناية في مكانه.

كانت الطاولة مغطاة بمفرش وعليها مصباح كهربائي ذو غطاء عاكس ملوّن بالألوان المائية، وفي الزاوية علّقت أيقونة مع مصباح، وعلّق في مسمار صليب فضي، لمسه أرتيوم وهزّه قليلاً.

وضعت على قاعدة النافذة، صورة لامرأة وكلب من الخزف- أبيض عليه بقع سوداء، وله ذيل ملتوٍ، مكسور عند نهايته.

فكّر أرتيوم: "يمكنك أن تعيش في المعسكر بهذا الشكل... وستتذكّر فيما بعد ذلك..".

أكد فاسيلي بيتروفيتش: " نعم، أرتيوم، نعم، يمكن العيش على هذا النحو حتّى في المعسكر".

لم يكن أرتيوم ليصدّق قطُّ، أنّه يستطيع قول آخر فكرة بصوت مسموع- لقد كان شاباً، وليس لديه مقدمات لفقدان الذاكرة - لكنّه كان مشوّشاً للحظة.

قال وهو يحاول السيطرة على نفسه: "حسناً، نعم ، ليس من الصعب التخمين. وماذا عن بورتسيف؟ أين هو؟".

تناول فاسيلي بيتروفيتش بثقة، دون أن يجيب، وعاء من خزانة بسيطة الصنع، وسكب القشدة الحامضة فيه.

بعد أن تفحّص أرتيوم الأثاث، جلس على مقعد قوي بين الطاولة والنافذة، محاولاً عدم مشاهدة كيف يقوم فاسيلي بيتروفيتش بسكب البصل في الوعاء بسكين، وبدأ في تقليب كلّ ذلك بملعقة كبيرة، ورش الملح من حين لآخر- أخ، كم أردت أن ألعق هذه الملعقة!

أخذ أرتيوم الكلب المصنوع من الخزف، وقلّبه بين يديه، ومرّر إصبعه بعناية على طول خط الكسر في نهاية الذيل، وهو يبتلع لعابه بشكل متواصل.

استقام فاسيلي بيتروفيتش وقال، وهو يستنشق بإحساس، ويمسح عينه بقبضته: "آخ، يا أرتيوم، كم أحببت إطعام كلبي، أنا لست صياداً على الإطلاق... من أجل المظهر فقط. بندقية على الكتف، وإلى الغابة. أرى طائراً، أوجه البندقية إلى الأعلى- إنّه يخاف، ويطير وأنا اشتم : آه، يا للشيطان! ليأخذك الشيطان يا فيت، لقد أسميت الكلب فيت، على سبيل المزاح أو بدافع الحب لفيت[1]، لا أعرف أيّاً منهما المرجّح... على ما أعتقد كان لدى ميزيرنيتسكي فيت؟"- سرعان ما نظر فاسيلي بيتروفيتش إلى رفّ الكتب ونسي على الفور لماذا تطلّع.

تحدّث، كالعادة، قافزاً من موضوع لآخر، لكنّ أرتيوم كان يفهم كلّ شيء- كان كلّ شيء مفهوماً.

قال فاسيلي بيتروفيتش: " كنت أوبخ الكلب بهذا الشكل، كما لو كنت سأطلق النار بجد. وكان واضحاً من وجه فيت أنّه كان مستاء، متعاطفاً معي. أصبحت في المرّات القادمة، خبيراً، أرفع السبطانة إلى الأعلى ببطء . ويكمن فيت أيضاً - كلّه انتظار وترقب! وأنا أنظر إلى هذا الطائر - وكما تعلمون، لا توجد قوة لسحب الزناد .لأكون صريحاً، كقاعدة عامة، لم أذخّر البندقية في أغلب الأحيان.ولكن عندما أرفع السبطانة إلى الأعلى وأصوب، كانت تبدو كأنّها مذخّرة، فينتابني قلق رهيب".

وضع أرتيوم الكلب في مكانه، والتقط صورة المرأة، ولم ينظر كثيراً إلى سحرها المشكوك فيه: "... هل هي أمّه ؟" - بقدر ما حاول التقاط أشعة الشمس الأخيرة من خلال زجاج الصورة، وعكس شعاع الشمس على الحائط.

واصل فاسيلي بيتروفيتش: "وأستمر بهذا الشكل، ربّما، دقيقة، وعلى الأرجح أقل من ذلك - لأنّه من الصعب البقاء مصوباً البندقية لدقيقة. ولم

---

(١) أفاناسي أفاناسييفيتش فيت - شاعر غنائي ومترجم وكاتب مذكرات روسي معروف.

يتحمل فيت، بالطبع، ويبدأ بالنباح. إمّا علي وإمّا على الطائر - لا أعرف على من. ويهرب الطائر مرّة أخرى... وأضحك، وأشعر بالرضا في داخلي. كما لو أنّني أطلقت هذا الطائر إلى الحرية".

" سخافة" - فكّر أرتيوم دون انفعال، وكان يرفع عينيه من وقت لآخر ويومئ برأسه لفاسيلي بيتروفيتش وهو يبتسم.

أكمل فاسيلي بيتروفيتش حديثه: "وها نحن نعود إلى المنزل، جائعين، على طريقنا الترابي، حتّى لا يرى القرويون أنّني عائد خالي الوفاض مرّة أخرى، على الرغم من أنّهم كانوا يعرفون ذلك دائماً... وقد انتهت ناديا من إعداد العشاء لنا - ابتكرت شيئاً لي، وللكلب فيت من بقايا طعام أمس..." - هنا اختنق فاسيلي بتروفيتش فجأة، وظل صامتاً لعدة ثوان- "وأنا سأسكب له من حساء أمس في وعائه أيضاً، وأضع فيه فتاتاً من الخبز، بل على سبيل المثال لن أبخل عليه بالكبد المقلي، وفوق ذلك سأكسر بيضة فوقه- كما تعلم، لقد أحبّ فيت البيض النيئ لسبب ما... وهكذا سأقدم هذا الوعاء إليه، وهو يجلس وينتظر... أضعه أمامه- يجلس وينظر... كأنّه يخجل أن يأكل بوجودي. أم ربّما لديه شعور آخر. أبتعد عنه قليلاً، وأقول له : "كُلْ، عزيزي، كُلْ!" وهو، كما لو كان على مضض، كما لو كان لأوّل مرّة، يبدأ في الالتفاف حول هذا الوعاء من جوانب مختلفة وشمّه".

ابتلع أرتيوم لعابه مرّة أخرى: وفيما لو أنّه قرر فتح فمه، لكان قد تناثر لعابه على مفرش المائدة.

لم يفكّر أرتيوم بذلك، بل تخيله بالأحرى: "من الغريب أنّ هذا لم يخطر ببالي قطُّ - من المحتمل أن يكون لذيذاً جداً: حساء، يوضع فوقه كبد مقلي وكسرات من الخبز، وسحقها بملعقة، حتّى تتشرّب بالحساء... وكسر بيضتين أم من الأفضل ثلاث بيضات دجاج فوقه، حتّى ينسكب البيض بشكل عشوائي على الخبز، ويختلط في بعض الأماكن مع الحساء، لكنّ الصفار نفسه يبقى بكلّ الأحوال على السطح... وبعدها شمّ كلّ ذلك لدقيقة، ثمّ الاندفاع فجأة لتناوله، وابتلاع قطع من هذا الكبد مع الملفوف، والخبز مع البيض...".

أرتيوم، هل تسمع؟ - نادى عليه فاسيلي بيتروفيتش.

أجاب أرتيوم بصعوبة: "يا للشيطان، تعالوا لنأكل بسرعة. أين مضيفنا؟ ماذا قلت اسمه- ميزيرنيتسكي؟".

كان بورتسيف أوّل من وصل - أومأ برأسه إلى أرتيوم، كشخص يعرفه جيداً، على الرغم من أنّ الشيء الغريب، أنّهما في شهر ونصف لم يتبادلا حتّى بضع كلمات - بشكل ما، لم يتطلب الأمر ذلك.

لكن هذه الغرفة المجهزة جيداً، قرّبت ألموجودين: لقد شعروا، كأنّهم مختارون ومرتبطون- بطعام نظيف، وأرضية مسحت حديثاً، ووسادة لامعة، ومفرش طاولة نظيف، وكلب من خزف.

لقد عرف أرتيوم، من أحاديث فاسيلي بتروفيتش، أنّ بورتسيف بعد الحرب الأهلية عمل في المسرح، ثمّ في منصب إداري في مكان ما. ولم يكشف بالتفصيل ملابسات اعتقاله.

كان يلتزم الصمت أغلب الأحيان، وفي حال كان لديه متسع من الوقت، كان يقرأ شيئاً مبسطاً من مكتبة الدير، لكنّ أرتيوم لاحظ ، وفوجئ، من أنّه عندما يجري نقاش حول شيء مثير للاهتمام، بحضور بورتسيف أم في حال خاطر شخص ما بالتوجه إليه مباشرة، فإنّه كان يشترك في الحديث مرّات عدّة، حول موضوعات مختلفة: من فن الرقص لدونكان، والاختلافات بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، وحتّى رسائل كونستانتين ليونتييف إلى سولوفيوف، والمزايا الواضحة لبريوسوف على بالمونت- بالطبع أفاناسييف هو من بدأ هذا الموضوع. فاجأ بورتسيف فاسيلي بيتروفيتش هذه المرّة، بمعلوماته غير المتوقعة حول الثمار والصيد، قائلاً إنّه إذ ينمو التوت السحابي، فإنّ الأمر يستحق البحث عن طائر االحجل الأبيض، وإذ يوجد التوت البري، ابحث عن طائر قطا الغابة، على الرغم من أنّه ليس بعيداً عن شجيرات التوت البري، يمكنك أن تلتقي دبّاً أيضاً. ضحك فاسيلي بيتروفيتش من كلّ جوارحه على الملاحظة الجادة بحق،

حول الدب، وفكّر أنّ لدى بورتسيف كلّ الفرص للانضمام إلى مجموعة جامعي الثمار- لكنّه هو نفسه، لم يرغب في ذلك.

سمع سيفتسيف الذي كان بالقرب الحديث، وتذكّر فجأة كيف رأى دبّاً على الجبهة، جرى تعليمه في سريّة المدفعية تقديم القذائف، لكنّ فاسيلي بيتروفيتش لم يأخذه إلى جمع الثمار، إلى جانب ذلك، فقد توقف بورتسيف عن الحديث في موضوع الدبّ.

استمع أرتيوم بسرور إلى بورتسيف الذي كان يتكلّم ببطء، وأدرك بنفسه أنّ التوت السحابي ينضج في الاتجاه المعاكس: من الأحمر إلى الأصفر الكهرماني، وزهوره المذكّرة تعطي ثماراً أكثر من الإناث، أمّا شجيرة التوت البري، فيمكن أن تعيش أكثر من أيّ شجرة بلوط - لأنّها تعيش ثلاثمئة سنة.

صار أرتيوم أكثر فضولاً للاستماع إلى الحديث حول بروسوف وبالمونت أكثر من الثمار: كان بالمونت الشاعر الوحيد الذي كانت تعجب به والدته، ومع ذلك، لم يجرؤ بعد على الاقتراب من بورتسيف. بدا كلّ هذا سخيفاً- أن تأكل سمك القد، ثمّ بعد ذلك تتمشّى بين المضاجع، ثمّ تسأل فجأة: "أنتم تحدثتم هنا أمس عن الشعراء الرمزيين...".

إلى جانب ذلك، كان يبدو أن بورتسيف في جوهره شخص جيد، ورغم أنّ شكله الخارجي يوحي بالانعزال والتجهّم، إلّا أنّه ردّد قبل أيام أغنية يهودية وراء مويسي سولومونوفيتش- حتّى إنّ مويسي سولومونوفيتش نفسه صمت من التعجب.

قال بورتسيف: " ميزيرنيتسكي قادم، لقد أمر بإعداد الطاولة- أين ما لديه هنا...".

فتح بورتسيف صندوقاً خشبياً مطلياً بالقرب من النافذة - شعر أرتيوم برائحة الطعام على الفور.

قال بورتسيف ببساطة: "لدينا اليوم دهن الخنزير المملح مع الخبز الأبيض".

في هذه الأثناء سأل فاسيلي بيتروفيتش، إمّا بورتسيف، وإمّا كان يقصد أرتيوم، وإمّا العكس: " أنتما تعرفان بعضكما بعضاً جيداً؟" - بعد ذلك، التقت نظراتهما بإعجاب هادئ، وقد احتوت هذه النظرات الخاطفة، السخرية الدافئة لشباب، فيما يتعلق بالرفيق الأكبر سناً المنفعل دائماً، وبطبيعة الحال، لا داعي لشرح عدم معرفتهما الوثيقة بعضهما ببعض، لفاسيلي بيتروفيتش، ولا سيّما أنّ لا أحد يعرف مثل هذه الأسباب - هكذا حصل.

تابع فاسيلي بيتروفيتش، دون أن يلتقط نظراتهما: "هذا هو أرتيوم، شاب طيب وكريم وقوي، وإضافة إلى ذلك كلّه، إنّه حمّال ممتاز، ويقدّر عالياً الشعر سرّاً، وببساطة إنّه عاقل، ستتفقان".

تصنّع أرتيوم، الذي كان ينظر طوال وقت الحديث إلى الطاولة، إنّه يمضغ شيئاً ما في فمه الفارغ، لكنّ كلّ ذلك لم يؤثر كثيراً على فاسيلي بيتروفيتش.

قال: "سولوفكي مكان غريب!. هذا أغرب سجن في العالم! وعلاوة على ذلك: نحن نعتقد أنّ العالم ضخم ومدهش، ملآن بالأسرار والسحر والرعب والبهاء، لكن لدينا بعض الأسباب التي تجعلنا نفترض أنّ سولوفكي اليوم، في هذه الأيام، هي المكان الأكثر استثنائية الذي عرفته البشرية. لا شيء قابل للتفسير! هل تعلم، يا أرتيوم، إنّه في أحد المرّات بفصل الشتاء، ترك في موقع قطع الأشجار، ثلاثون شخصاً في الغابة، لأنّهم لم ينجزوا مهمتهم - وقد تجمّدوا جميعاً حتّى الموت؟ وأنّ ثلاثة مشردين عذبوا لأنّهم أكلوا نورساً محلياً، وقد عرف إيخمانيس ذلك، فعرّضهم لعض "البعوض"، بعد أن جرى تقييدهم عراة بالأشجار؟ بالطبع، سرعان ما جرى فكّ قيود المشردين، لقد نجوا - لكن بقيت على أجسامهم بقع سوداء من لدغات البعوض مدى الحياة. إنّ قائد معسكرنا مغرم جداً بالنباتات والحيوانات. هل تعلم أنّه جرى هنا إنشاء محطة بيولوجية

لدراسة أعماق البحر الأبيض؟ وأنّه بقرار من إيخمانيس، نجح السجناء في معسكرنا بتربية فئران المسك، والثعالب القطبية الشمالية، وأرانب شينشيلا، والثعالب السوداء والبنية، والثعالب الحمراء والثعالب الفضية، الكندية ؟ وأنّه يوجد هنا محطة أرصاد جوية؟ في المخيم، يا أرتيوم! إذ يعمل السجناء أيضاً!".

هزّ أرتيوم كتفيه، ولم يتفاجأ كثيراً- ولم يكن مكترثاً إلى حدٍّ ما : بالبعوض والثعالب ومحطة الأرصاد الجوية... كلّ ما كان يهمّه القشدة الحامضة والبصل!

قال فاسيلي بيتروفيتش: "حسناً، هل تعلم أنّه في فندق بتروغراد السابق، الذي يقع خلف الإدارة، يعيش رهبان سولوفكي الذين جرى التعاقد معهم، في الطابق الأوّل، ويعيش موظفو أمن الدولة في الطابق الثاني، وقد نشأت علاقات صداقة بينهم و يزور بعضهم بعضاً!".

"لقد أبحر البيض إلى الأرض الجديدة أيضاً، وكانوا في البداية يزورون السكان المحليين، وبعد ذلك، إذا لم يعبّر هؤلاء عن رغبتهم في التعميد، وتقاسم الذهب معهم، أحرقوا قراهم وحرضوا الكلاب عليهم... وما يجب القول، لم يسبق للهنود الحمر أن رؤوا مثل ذلك- تخيلوا رعب الناس البدائيين هؤلاء!" - قال بورتسيف ذلك، دون أيّ حقد، وقطّع بسرور واضح، دهن الخنزير المملح إلى بتلات رقيقة جداً، ورفع رأسه وهو يقول الكلمات الأخيرة، وابتسم لشخص دخل إلى الغرفة بهدوء ووقف خلف أرتيوم.

كان هذا ميزيرنيتسكي الذي سرعان ما أومأ برأسه لأرتيوم، موحياً له أن يبقى جالساً، والتقط الحديث على الفور، وهو يضحك:

" الاختلاف الوحيد أنّ أولئك لم يرغبوا في البداية في التعمّد، بينما رهباننا لا يريدون التوقف".

قال فاسيلي بيتروفيتش ضارباً كفاً بكفٍ: "سيد ميزيرنيتسكي، هل هذا سبب للمزاح؟".

صحّح ميزيرنيتسكي: "رفيق ميزيرنيتسكي، عازف الفرقة النحاسية ميزيرنيتسكي، لي الشرف!" - وواصل الحديث دون مقدمات:" حسناً، هناك مثالاً آخر، ربّما طرح فاسيلي بيتروفيتش موضوع مفارقات سولوفكي - ألا تعتقد أنّها مفارقة، أن يشغل في بلد البلشفية المنتصرة، وفي معسكر الاعتقال الأوّل الذي أقامته الدولة، نصف المناصب الإدارية فيه الأعداء الرئيسيون للشيوعيين- ضباط الحرس الأبيض؟ أمّا الأساقفة والمطارنة، المشتبه بهم في كثير من الأحيان في نشاط مناهض للسوفييت، فيحرسون ممتلكات البلاشفة والمعسكر! وحتّى أنا، الملازم ميزيرنيتسكي، أعزف لهم على البوق- والسبب بالضبط لأنّهم أنفسهم غير مدربين على هذا كلّه، لكنّهم مستعدون بسبب هذه المهارة بالتحديد لإعفائي من العمل العام. هل تعلم ماذا سأقول لك؟ سأقول إنّ الحرب ضد السلطة السوفييتية لا معنى لها. لا يمكنهم فعل أيّ شيء بمفردهم! سنحل تدريجياً، خطوة وراء خطوة، محلّهم في كلّ شيء وفي جميع الأمكنة - من المسرح إلى الكرملين".

نظر بورتسيف إلى الباب بشكل هادف، أمّا ميزيرنيتسكي فقد لوّح بيده فقط:

" كلام فارغ!" - لقد قلت هذا الكلام لإيخمانيس شخصياً أمس.

أجاب بورتسيف دون انزعاج، وحتّى بابتسامة: "سواء قلت ذلك أم لم تقل، الأمر متروك لك، خلاصة القول، إنّ كلّ ذلك يعد تهوراً. إنّك، يا صديقي منذ ثلاث سنوات هنا، وقد ابتعدت عن الواقع. أنت تعرف بشكل أفضل ما يحدث مع أدوات النفخ الموسيقية، أمّا فيما يخص الاقتصاد، فهم شيئاً فشيئاً يتعلمون كيفية التعامل معه...".

قاطعه ميزيرنيتسكي الذي كان يجب أن يتحدث لوحده: "لا أعرف، لا أعرف. لاحظوا من فضلكم، أيّها الضيوف الأعزاء: من بين جميع الضباط يعمل بورتسيف فقط ، في العمل العام، وذلك بسبب، عزراً منك عزيزي، عناده

السخيف، أمّا الأخرون..."- هنا بدأ ميزيرنيتسكي في ثني أصابعه، مستذكراً: " مفتّش وحدة الإمداد، ومشرف على المعسكر، ومهندس الهواتف، ومهندس زراعي، ومديرا إنتاج ، ورئيسا ورش العمل!.. وهذا ليس كلّ شيء، ليس كلّ شيء!.. جماعتنا على السكك الحديدية! وجماعتنا في محطة توليد الكهرباء ! وجماعتنا في المطبعة ! وجماعتنا في المركز الإذاعي ! وجماعتنا يعملون في الطبوغرافيا ! حتّى في مزرعة الفراء- جماعتنا!".

علّق بورتسيف بهدوء، دون أن يوجه كلامه لأحد معيّن:"ليس من المفهوم كيف خسرنا، بهذه المواهب، الحرب أمام البلاشفة ".

قال ميزيرنيتسكي دون أن يعير انتباهه لأحد مرّة أخرى: " ومع ذلك، ضعوا في اعتباركم، إنّه منذ العام ١٩٢٠، أناغير مسيّس تماماً. إنّ قيادة الجيش الأبيض، بغبائها ونذالتها، صالحتني مع البلاشفة مرّة وإلى الأبد. ولكن لماذا يجب إنكار الواقع. سولوفكي هو انعكاس لروسيا، إذ كلّ شيء يشبه العدسة المكبرة - طبيعي، وكريه، وواضح!".

بدلاً من الإجابة، عضّ بورتسيف على شفتيه، كما لو أنّه يفكّر - انتهى من تقطيع الخبز وتطلّع إلى الطاولة، كما لو كانت خارطة بدء إجراءات المعركة بنجاح.

نظر أرتيوم المتفحّص، بسرعة إلى بورتسيف وميزيرنيتسكي.

كان بورتسيف قصير القامة، ذا رجلين مقوستين، وشعر أشقر غامق مجعد قليلاً، وعينين سوداوين، وشفتين رقيقتين... أصبحت أصابعه نحيفة ومعصماه أيضاً، وهو ما بدا غريباً بالنسبة لشخص يشارك في العمل العام، على الرغم من أنّه ليس من زمن بعيد جداً: حسب ما يتذكّر أرتيوم، ظهر بورتسيف في سولوفكي قبله بشهر واحد، في دفعة الربيع الأولى.

كان ميزيرنيتسكي طويل القامة، ومحني الظهر قليلاً، وشعره سابل ودهني قليلاً، وغالباً ما كان يتنشّق مثل رجل مدمن على الكوكايين- كان من المستحيل

الشك به في سولوفكي، وكان يومئ بيديه بأشكال مختلفة، وقد لاحظ أرتيوم أظافره ألتي لم يجر تشذيبها منذ فترة طويلة.

لقد كان ذلك واضحاً بشكل خاص، عندما كان ميزيرنيتسكي يمسك بظفره ذي الإطار الأسود، بتلة دهن الخنزير المملح البيضاء الليّنة نتيجة الدفء.

انتهى الجدال بسرعة: لقد صالحت القشدة الحامضة مع البصل والخبز الأبيض والدهن المملح الجميع.

كان أصعب شيء هو تناول الطعام ببطء- وقد لاحظ أرتيوم، أنّ هذا الأمر لم يكن بالنسبة له بمفرده فقط.

ثمّ بدأ فاسيلي بيتروفيتش وبورتسيف يلعبان الداما: كان من الواضح أنّ الأوّل متحمّس للعب، والثاني- غير مبال تقريباً بتوازن القوة على الرقعة، لم يكن عزف ميزيرنيتسكي سيئاً على آلة المندولين الموسيقية، أمّا أرتيوم فقد كان يستمتع بهدوء، وهو نصف مستلق على السرير العاري، وكان يفكّر أحياناً: "... أيّ اناس طيبين هؤلاء، كم أشتهي أن أكون مفيداً لهم..."- وكان أحياناً كما لو أنّه يغفو، ويستيقظ من ذبابة عنيدة تغط على وجهه.

سقطت بقة فراش من سترته على لوح الخشب: سارع أرتيوم لقتلها.

... بعد أن ودعوا ميزيرنيتسكي، التقوا في الفناء أشخاصاً متحمسين ومتضرجين بالحمرة قادمين من المسرح. كان هناك، كالعادة، من لا يزال يناقش العرض المسرحي، وهناك من كان يفكّر في عمل الغد، وكان في عجلة من أمره للنوم- ولكن بشكل عام، كان الشعور، كما هو الحال دائماً، غريب: كان السجناء يسيرون مختلطين مع قادة المعسكر والعاملين المدنيين، والنساء المتبرجات، وكنّ بعضهنّ يرتدين أزياء أنيقة، وبعض الرجال لم يكونوا في ثياب ممزقة أيضاً.

بعد رؤية الجمهور المسرحي، ذهب فاسيلي بيتروفيتش على الفور، لا يكاد يقول وداعاً، إلى السريّة، وأومأ بورتسيف الذي دخن سيجارة بسرعة، لأرتيوم أيضاً، كما لو لم يكن هناك تفاهم صامت بينهما في الغرفة.

ظهر أفاناسييف في نفس الوقت، وقد نام جيداً بعد أن عاد من مناوبته في السريّة، وقد بدا في غاية السعادة.

كان أشقر الشعر، أشعث، وشفتاه كبيرتين قليلاً - كان يناسبه المزاج الجيد بشكل عام.

"هل أنت قادم من المسرح؟ "- سأله أرتيوم باهتمام . على ما يبدو أنّه تمكّن من النوم لخمس عشرة دقيقة على صوت موسيقا الماندولين - لقد شعر من جديد، ليس بالحيوية بالطبع، ولكن ببعض الانتعاش.

أدار أفاناسييف رأسه بقوة.

سأل أرتيوم: "ماذا قدموا؟".

لوّح له أفاناسييف بيده بمرح- لوناتشارسكي. على الرغم من أنّ كلّ ذلك، مثير للإعجاب يا أرتيوم، حتّى ولو كان لوناتشارسكي. أيّ فتاة رائعة من أعداء الثورة كانت تمثّل في المسرحية؟ هناك رغبة بالبكاء.

تحدّث أفاناسييف عن شيء آخر في العرض أيضاً، بشكل غير واضح، كما لو كان يريد شرح فكرة المخرج، لكن في ذهنه، مع ذلك، كان يتخيّل حصريّاً هذه السجينة.

كانا يتجولان ذهاباً وإياباً في الفناء الذي فرغ بسرعة في المساء، كان أرتيوم يومئ ويومئ ويومئ برأسه، ولم يلحظ حتّى كيف تحوّل أفاناسييف إلى موضوع آخر، وهو الأهم بالنسبة له.

"تصوّر يا أرتيوم فقط، أيّ نوع من الأشعار سأكتب عندما أعود! سوف أدخل في أبيات الشعر الكلمات التي لم تستخدم سابقاً! خروق، وسروال، والعاهرات! قصيدة "الادعاء"، تخيّل؟ بعد كلّ شيء، لم يسجن في بلدنا أيّ شاعر كما يجب!".

تذكّر أرتيوم: " سجن الثوار الديسمبريون".

لوّح أفاناسييف بيده مرّة أخرى " أيّ شعراء كان هناك!".

تذكّر أرتيوم أيضاً: " على ما أعتقد ماياكوفسكي".

لم يوافق أفاناسييف مرّة أخرى: " عن أيّ سجن تتحدث، كان كلّ شيء هناك مختلفاً! سولوفكي حالة خاصّة يا أرتيوم! إنّه يشبه رحلة أوديسيوس- عندما كان في ضيافة بوليفيموس...".

"نعم، بوليفيموس والسروال، والعاهرات- سيكون ذلك... سلطة!" - ضحك أرتيوم وتذكّر على الفور القشدة الحامضة مع البصل.

بدا أفاناسييف غاضباً بعض الشيء: "ماذا تفهم أنت! يكمن مستقبل الشعر في الكلمات الخرقاء العشوائية. كتب لومونوسوف عن ثلاثة أنواع من الأساليب - عالٍ ومتوسط وسفلي - لذلك عليك أن تغرف من الأدنى، من الروث، من حفرة الصرف الصحي، وتخلط ذلك بأسلوب رفيع - صدقني سيكون هناك مغزى!".

حرّض أرتيوم أفاناسييف عمداً: "بالنسبة إليّ، يمكن تأليف أمثولة بهذه الطريقة فقط: "بوليفيموس والخروق".

قال أحدهم بصوت منخفض: "يا له من حديث ممتع يدور بينكما حول الأساطير".

استدار كلاهما في الحال، ورأيا إيخمانيس. تجمّدا في مكانهما كما لو أنّهما ثبّتا بمسمارين.

قال أيخمانيس بهدوء " مساء الخير!".

ردّ أفاناسف بصوت مرتفع "مرحبا"! - كما كان يصرخ دائماً في أثناء التفقد، أمّا أرتيوم، فقد ارتبك ووقف مشوش الأفكار كأنّه محموم، كما لو كان في ثوب محترق، حاول أن يتذكّر ما إذا كانا قد تفوها ببعض الهراء المضاد للثورة في اللحظة الأخيرة أم لا.

صاح أرتيوم أيضاً: "مرحبا أيّها المواطن القائد". هكذا كان من المفترض الرد على تحية قائد المعسكر.

لم يجرؤ أحد على الرد على ملاحظة إيخمانيس حول الأساطير.

أومأ إيخمانيس برأسه، بمعنى- استرح. على ما يبدو، كان متوجهاً نحو البوابة - كما هو الحال دائماً بدون حراس، لكن مع نفس الرفيقة فقط، التي هي الآن، كما في اللقاء الأخير، في الغابة، كانت تتطلّع دون اكتراث بهما.

بدا إيخمانيس عن قرب أطول من متوسط القامة، وأطول من أرتيوم وأفاناسييف- رشيق، ونحيف، تفوح منه رائحة الكولونيا. كان يرتدي ملابس مدنية جيدة: جاكيتاً بنيّاً، وسروالاً وحذاء طويلاً مدبباً

لاحظ أرتيوم جندياً ينتظر عند البوابة، ويمسك بلجامي حصانين.

كان إيخمانيس يعيش على بعد أربعة فراسخ[1] من الدير، ليس بعيداً عن خلوة سافاتي، في قفرة ماكاري. قيل إنّه بنى لنفسه منزلاً ضخماً هناك، قريباً من المنطقة القطبية متعمّداً ذلك ليكون بعيداً عن مرؤوسيه الأمنيين. نادراً ما كان يظهر إيخمانيس، في أثناء التفقد، لكنّه كما كان يحكى، كان يذهب في كثير من الأحيان إلى الصيد، وإلى حاضنة الحيوانات، وإلى مشتل العرعر والشربين، التي بدؤوا في زراعتها هذا العام، في جميع أنحاء الجزيرة...

تطلّع أرتيوم من تحت حاجبيه بحذر، إلى وجهه. قسمات متناسقة وكبيرة، من النوع النادر، وحتّى إنّ ملامحه راقية، وشعره مفروق إلى الوراء، وذو أسنان كبيرة إلى حدٍّ ما وبيضاء، وعينان مبتسمتان، ولكن في الوقت نفسه، كما لو أنّهما جامدتان- كان وسيماً، ويذكّر بشاعر مشهور في العقد الثاني من القرن العشرين، وكان بمقدوره أن يجعل الناس تعجب به. لكنّ خطوط عظام وجنتيه - زلقة للغاية، مما يجعل وجه يبدو أكثر نحافة، ممّا هو عليه في الواقع - كان هناك شيء غير مريح ومعتل فيه.

---

(١) الفرسخ الروسي = ١,٠٦كم.

لم يجرؤ أرتيوم على النظر إلى رفيقة إيخمانيس، لكنّه أراد ذلك.

سأل إيخمانيس مبتسماً: "هل مازلت تعمل في السريّة الثانية عشرة يا أفاناسييف؟".

هزّ أفاناسييف رأسه الأحمر، وقال: "نعم!" - وأضاف لمزيد من التأكيد: "بالضبط!".

أومأ إيخمانيس من جديد برأسه، ولكنّ الآن مودعاً، وذهب مع مرافقته باتجاه البوابة.

ضحك أفاناسييف بهدوء، عندما سمع صوت حوافر الحصانين- "يا للشيطان"! لقد كررت: بوليفيموس، بوليفيموس... ألم نقل شيئاً ما غير مناسب؟ أليس كذلك؟".

ابتسم أرتيوم الذي انتابه شعور غريب أيضاً.

قال أفاناسييف دون انتظار إجابة: "يقولون إنّه يعرف كلّ السجناء بالاسم!".

أجاب أرتيوم، وهو يفكر بالأمر: "لا يمكن ذلك، كم ألفاً هنا ؟ خمس عشرة سريّة !..لا، هذا مستحيل".

وافقه أفاناسييف بسرعة: "حسناً، حسناً" - لكنّه في نفس اللحظة غير رأيه جزئياً: " بالتأكيد يعرف النصف، إنّه يعرف رؤساء الإنتاج ،وقادة السرايا، ورؤساء الفصائل، ومراقبي المجموعات، والممثلين والموسيقيين والكهنة... الجميع يقول ذلك! كما يتذكّرني أنا لسبب ما".

توقع أرتيوم، وهو يتصنّع الجدية إلى حدٍّ ما: "بالنتيجة هو يعرف الأشخاص الذين يحتاج إليهم".

"هكذا تعتقد؟"- سُرّ أفاناسييف غير ملاحظاً السخرية، على الرغم من أنّه حتّى هذه اللحظة، كان يمكنه تمييز أيّ نغمة في الصوت- "ربّما سينقلونني

أخيراً من السريّة الثانية عشرة . إلى أيّ مكان! لكن من الأسف لا أستطيع فعل أيّ شيء بيدي . اللعنة، لقد كنت أكتب الشعر! لو كنت طوبوغرافياً، أم نجاراً، أم عازف طبلٍ، أم، في نهاية الأمر، لو أنّني أعرف أن أطبخ شيئاً لذيذاً. هل تعلم أن الشيف السابق لليف تروتسكي يعمل هنا في المستشفى؟ هنا يوجد رسام البلاط - كنيته براز؟ إنّه بروفسور سابق في الأكاديمية الإمبراطورية للفنون!".

اقترح أرتيوم: " لذا اطلب من إيخمانيس، بأن تكون شاعر البلاط - ستؤلف له قصائد كلّ صباح . قصيدة عن زيارة إيخمانيس لحاضنة أرانب الشينشيلا!".

لوّح أفاناسييف بيده، وقال: " لا تملك إلّا السخرية فقط ".

قال أرتيوم: " لماذا سأل إذن، في أيّ سريّة أنت؟ يمكن أن يكون هناك تفسيران: إمّا أنّه يدعوك لتكون أحد شعراء البلاط، وإمّا أنّه يريد نقلك إلى سيكيركا، أيّهما بالنسبة لك أفضل؟".

كانوا يسمون سيكيركا، زنزانة العقاب، التي تقع في الكنيسة السابقة على هضبة سيكيرنايا، على بعد ثمانية فراسخ تقريباً من المبنى الرئيس. كانوا يقولون أشياء محزنة عن زنزانة العقاب: يقولون إنّهم يقتلون الناس هناك.

بدا أفاناسييف متفائلاً للغاية وكان صامتاً، ربّما فقط لأنّه كان يخشى تخويف حظه غير المفهوم إلى حدّ الآن.

سأل أرتيوم بصوت منخفض: "من التي كانت معه"؟ - دون أن يشرح أو يهزّ رأسه في اتجاه اللذين غادرا، لقد كان كل شيء واضحاً.

أجاب أفاناسييف بهدوء وسرعة دون أن يظهر أيّ مشاعر: "هذه غالا، عاهرة إيخمانيس، تعمل بعقد، في قسم المعلومات والتحقيقات - ألم تطلبك بعد ؟".

شعر أرتيوم، من الكلمة التي لفظها أفاناسييف، بالارتعاش والحزن: حتّى أنّه اختنق قليلاً. لم يكن لديه امرأة منذ أربعة أشهر.

لو لم يكونوا يوقظونهم في الخامسة صباحاً من أجل التفقد، وإنّما على الأقل في الساعة السادسة، لكانت الحياة أسهل بكثير. لكن تبيّن أن التفقد كان يأخذ وقتاً طويلاً دائماً، وكان هناك ارتباك في الفرز مهمات العمل، لذلك كانوا يصلون متأخرين إلى العمل، وأحياناً في الساعة التاسعة، وإذا كان مكان العمل بعيداً، بضعة فراسخ، كانوا يتأخرون أكثر من ذلك.

تذكّر أرتيوم أوّل شيء، كيف أثنى عليه فاسيلي بيتروفيتش أمس، حسناً، نعم، لقد دخلت حياته كسجين في سكتها الطبيعية: أهمّ شيء هو عدم عدّ الأيام، وقد توقف في اليوم الثالث عن العدّ، وتقبّل كلّ شيء كما هو. لم يتبق سوى القليل - يجب التحمّل والعيش إلى ذلك الوقت، وعلى أيّ حال، إلى حدّ الآن، لم ير بعد أيّ سبب للموت - فقد عاشوا هنا أيضاً. عاش هنا الضعفاء والسخفاء والأغبياء، والذين لم يكونوا متكيفين مع الحياة - حتّى هم عاشوا وبقوا على قيد الحياة.

ثمّ تذكّر أرتيوم كرابين، وساء قليلاً مزاجه المرتفع.

حاول طوال الصباح عدم لفت انتباهه - وقد نجح.

اشترى فاسيلي بيتروفيتش ملعقة: تفاخر بها على الفور.

سار أفاناسييف غارقاً في التفكير: أُزيح من مهمّة المناوب، على الرغم من أنّه جرى تكليفه للتو. كان هذا المنصب جيداً ودافئاً، ولا سيّما في فصل الشتاء. لقد تمسّكوا بمنصب المناوب بكلّ مخالبهم.

كلّف الشيشاني خاساييف بمهمّة المناوب بدلاً من أفاناسييف. كان الشيشاني الثالث، الأصغر بينهم، يتحرّك باستمرار في السريّة. كان القوزاقي لاجيتشنيكوف، يحاول الآن المرور بسرعة من جنب المناوبين، وهو ينظر إلى الأرض، وتوقف عن شرب الماء من البرميل الذي يقع جنب المكان الذي يقف فيه المناوبون.

لقد كان قائد السريّة كوتشيرافا خلال التفقد ، يلعن بغباء وضجر وبشكل يثير الاشمئزاز، إلى درجة أنّ أرتيوم شعر بغثيان طفيف.

لقد فرز أرتيوم لنقل الجذوع. لم يتفاجأ أرتيوم - لقد سارت الأمور في هذا الاتجاه.

" جذوع ليكن جذوع، لنر ماذا يعني ذلك..."

- شجّع أرتيوم نفسه، وكان سعيداً بالفعل، لأنّ كرابين لم يضربه من جديد بهذه العصا التي يحملها، وبدلاً من ذلك، قام قائد الفصيل بضرب أحد الجناة بشدة ،لأنّه كان يتوانى عن الذهاب إلى العمل في الملابس الداخلية: لم يكن لديه سراويل.

سأل أرتيوم أفاناسييف، وهو عابث: " إلى نقل الأشجار؟ وأنا أيضاً".

بالإضافة إليهما، فرز إلى هذا العمل موسي سولومونوفيتش، ولاجيتشنيكوف، وسيفتسيف، والصيني، وأحد الجناة الذي تعرّض للضرب من قبل كرابين، واثنان آخران من الجناة أيضاً، وشخص آخر قصير القامة غير ملحوظ، الذي لم يتذكّر أرتيوم عنه أيّ شيء، سوى أنّه كان يتمتم باستمرار، وكأنّه يحاول إقناع نفسه.

وقفوا في الفناء ينتظرون رئيس المجموعة. لا تفهم في الصباح، قطُّ ، المكان الذي من الأفضل أن تكون فيه: يصرخ الجميع في السريّة ويشتمون، وفي الخارج النوارس التي لا تهدأ والتي تضورت جوعاً طوال الليل. في أحد المرّات بعد وصول أرتيوم مباشرة إلى سولوفكي، ألتقط نورس الخبز الذي احتفظ به لوقت لاحق. ضحك الجناة الذين لاحظوا ذلك- شعر أرتيوم بالإهانة، وأقسم بشيء من الجدية، أنّه سيخلع جناح أحد النوارس، قبل مغادرته إلى البر الرئيسي، حتّى لا يموت على الفور، حتّى يفهم هذا الحقير، كيف يكون الألم.

كان يجب، بشكل عام، الحذر من النوارس- كان بإمكانها الهجوم والنقر حقا، نقر العين، على سبيل المثال، حتّى تعمى. أخفى أرتيوم الخبز في السريّة، لا

في سرواله، بل في ملابسه الداخلية - كان هناك جيب مناسب أيضاً . لم يكن يريد أن يتقاسم هذا الخبز مع أحد، أمّا هو فلن يشمئز منه.

ومع ذلك سأل أرتيوم أفاناسييف: "لماذا تركت المناوبة؟ لم تكد تبدأ؟ ليست الوظيفة الأصعب. كان يمكن تأليف الأشعار- هناك وقت لذلك.

نظر أرتيوم إلى أفاناسييف، وأدرك أنّه لا يريد المزاح كثيراً، حول هذا الموضوع.

أجاب أفاناسييف على مضض: يجري اختيار ذلك، من قبل قسم المعلومات والتحقيقات - لم تنطبق طباعنا أنا وغالا".

نظر فاسيلي بيتروفيتش الذي كان يقف في مكان قريب، إلى أفاناسييف بطريقة غريبة واستدار.

وأضاف أفاناسييف بعد دقيقة: "طلب كوتشيرافا تعيين الشيشان. إنّهم جيران في الجبال".

أومأ أرتيوم برأسه، ولمّا كان أفاناسييف معكّر المزاج، ذهب إلى فاسيلي بيتروفيتش، الذي فرز مرّة أخرى إلى جمع الثمار دون حارس، وكان ينتظر مجموعته.

طلب أرتيوم بابتسامة عريضة على خدّيه قبل خطوات عدّة من وصوله: " لا تعبر عن تعازيك لي، يا فاسيلي بيتروفيتش".

قال فاسيلي بيتروفيتش بحزن: "ابتسم، ابتسم"، وبحركة طفيفة، شدّ أرتيوم من كوعه، وأخذه قليلاً جانباً، أطاعه أرتيوم، متصنعاً ابتسامة الشباب.

قال فاسيلي بيتروفيتش بوضوح وصوت منخفض: "أنت، كما أرى، على علاقة وديّة مع أفاناسييف- أريد أن أخبرك، في منصب المناوب يجري تعيين المخبرين فقط، لذلك...".

"لقد نُحّيَ من منصبه للتو" - أجاب أرتيوم بصوت أعلى قليلاً ممّا كان ينبغي أن يكون عليه، وأدار فاسيلي بيتروفيتش، على الفور أرتيوم أكثر، بأصابعه

الواثقة جداً والقوية بشكل غير طبيعي، ممسكاً به من كوعه، نحو رتل من الكهنة المتوجهين في رتلٍ واحد للقيام بأعمال الحراسة الخاصة بهم.

سار بعض الكهنة على عجل، والبعض الآخر، على العكس من ذلك، حاول أن يسير برزانة، وهو ما أدّى إلى ارتباك سير الجميع في الرتل. كانت النوارس تحوم فوقهم، وتنخفض في بعض الأحيان بحدّة... وهذه اللحى، وتلك الغفافير والنورس هذه، التي ترش الفضلات البيضاء على ملابس الكهنة، وكأنّ كلّ ذلك توقف فجأة في عيون أرتيوم، وأدرك أنّه، سيتذكّر ما رآه مدى حياته- على الرغم من أنّ كل ذلك لم يدهشه، ولم يسيء إليه، ولم يمسّه. شعر فقط أنّه سيتذكّر كلّ ذلك.

قال أحدهم بصوت عالٍ وساخر: "السريّة السادسة- لا يستهان بها- المجموعة السادسة ملائكية! واحد، اثنان، وسيدخلون الجنة. من أجل ماذا يعانون؟ ليس من أجل الكلام أم الأفعال أم نيّة معينة، دون ذنب، من أجل اسمك أيّها الرب".

قال فاسيلي بيتروفيتش بهدوء شديد: "انظر، هذا هو يفغيني زرنوف، أسقف برْأمور و بلاغوفيشينسك- وهذا هو بروكوبي، رئيس أساقفة خيرسون... ويوفينالي، رئيس أساقفة كورسك... وباخومي، رئيس أساقفة تشرنيغوف... وغريغوري، أسقف بيتشورا... وأمفروسي، أسقف بودولسك وبراتسلاف... وكبريان، أسقف سيميبالاتينسك... وصوفروني أسقف ياكوتيا- غيّر طقساً بارداً، لطقس سيئ آخر... وها هو كاهننا الأب إيوان...".

أحنى فاسيلي بيتروفيتش رأسه قليلاً، رادّاً على تحية الأب إيوان الذي لوّح بيده بمرح، وكان يعرج، لذلك كان يسير بعجلة أكثر من الآخرين- كان هناك شيء طفولي جداً أم كهولي قديم في حركة يده هذه. وكأنّ طفلاً يقول: "أنا لا أيأس"، فيكرّر القول لرجل قديم "وأنتم لا تيأسوا" - وكلّ ذلك بحركة واحدة.

سأل أرتيوم: "من أين أنت تعرفه جيداً بهذا الشكل؟".

أجاب فاسيلي بيتروفيتش: " من أين أعرفه جيداً، لقد أتوا بنا إلى هنا معاً، في عنبر واحد. كان الجميع غاضبين ومكتئبين، فيما كان هو يبتسم ويمرح. حتّى إنّ الجناة لم يمسّوه. هناك شعور حاد بالقرب منه، وكأنّنا جميعاً أطفال. وهذا، يا أرتيوم، شعور دافئ وضروري في بعض الأحيان. ربّما لم تفهم بعد ذلك...".

نظر أرتيوم حوله وسأل:

"عندما كنّا هناك في الجنينة، تحدّث عن النظام السوفياتي- ما رأيك، هل ما قاله صحيح؟".

هزّ فاسيلي بيتروفيتش كتفيه، وبحركة سريعة وضع يديه خلف ظهره.

"هذا كلّه صحيح. والصحيح، على سبيل المثال، قد تكون أنت واشٍ - لقد رآك لأوّل مرّةفي حياته".

ضحك أرتيوم بحزن، ولاحظ أنّه لم يسبق له أن رأى فاسيلي بيتروفيتش صارماً إلى هذا الحدّ، وغيّر الموضوع:

"لقد قيل لي هنا، إنّ إيخمانيس يتذكّر بالاسم كلّ من في المعسكر تقريباً...".

أجاب فاسيلي بيتروفيتش وهو يتأمل: "محتمل جداً".

"وأنت... كيف حفظت أسماء كلّ هؤلاء الكهنة... ولماذا؟.

قال فاسيلي بتروفيتش بحيادية، وهو يتطلّع أمامه: "على إيخمانيس أن يحرسهم، وعليّ أنا أن أعيش بينهم. سأحفظ هذه الوجوه، وإذا عدت، سأضعهم في البيت مثل الأيقونات".

لم يجب أرتيوم، لكنّه فكّر كطفل: "بماذا هم أقدس مني؟ أنا أيضاً أتناول الحساء مع سمك الفبلا المجفف، وإمّا مع رؤوس السمك المملح، دون وجود العيون فيها- وبدلاً من اللحم العادي، لحم خيول ميّتة، لكنّهم هم يحرسون، وأنا سأذهب الآن، لأحمل جذوع الأشجار.

هزّ فاسيلي بتروفيتش رأسه، ومن أجل خفض لهجة الحديث المتوتر قليلاً، تحدّث بنبرة مختلفة تماماً، وبشكل أكثر موثوقية، وأصبح في الحال الشخص الذي أعجب به أرتيوم كثيراً:

"لقد فكّرت للتو... من هنا، من سولوفكي، اختفت القداسة منذ زمن القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش- لا بدّ أنّك، يا أرتيوم تعرف هذه القصة، عندما تمرّد الدير في عام ١٦٦٦، ضد إصلاح نيكون؟ وبعد عشر سنوات من الحصار، استولوا عليه، والرهبان وعمال الدير الذين تمرّدوا - جرى رميهم بالحجارة، حتّى لا تتلوّث السيوف، ولا يضيعون البارود سدىً. منذ أن حدث ذلك، لم يعد هناك مآثر رهبانية أم قديسون في سولوفكي. منذ أكثر من مئتي عام، كان الدير يتأرجح على الأمواج- فترة طويلة. كما لو أنّه كان يستعد لشيء ما. والآن، صدّق يا أرتيوم، يبدو لي أنّ زمن الحراك الجديد في سبيل العقيدة قد حان. ستبدأ الكنيسة الروسية بالانبعاث من جديد من هنا بالتحديد... ربّما كنت لا تزال طفلاً، لا تتذكّر كيف كان الجو مشحوناً قبل وصول البلاشفة".

أراد أرتيوم أن يسأل: " هل كما عندنا في المهجع؟"- لكنّه لم يفعل بالطبع.

عدد فاسيلي بيتروفيتش: "أصبح المثقف يكره الكاهن- والعامي الروسي يكره الكاهن. والشاعر الروسي - أصبح أيضاً يكره الكاهن! أشعر بالخجل من الاعتراف - لكنّني ، يا أرتيوم، أنا أيضاً كنت أكره الكاهن... ولن تفهم على الفور لماذا! لأنّ الكاهن الروسي كان في حالة سكر دائم ؟ إذن ماذا كان عليه أن يفعل؟ كانوا يكرهون على الغالب ليس لأنّ الشخص الآخر سيئ، وإنّما في أغلب الأحيان بسبب خوائهم... لم تكن في الحرب الوطنية الثانية، أمّا أنا فكنت، وأشهد: عندما عرض على الجنود الاعتراف قبل المعركة، تسعة من أصل عشرة رفضوا. لقد رأيت ذلك بنفسي، وأنا في حالة اندهاش! فهمت عندها: إنّنا سنخسر الحرب، لكنّ الثورة لا يمكن تجنبها، لأنّ الشعب أصبح بلا إيمان. كان لا بدّ من أن ينتهي كلّ شيء كما حصل!.. سينتهي- وسيبدأ على الفور. هنا".

تذكّر أرتيوم فجأة، ولم يصمت: "في السريّة الثالثة عشرة، كان حوض للبراز في المذبح. هل تذكر؟ كان هناك كاهن في مجموعتي - لم يستخدمه، ولا مرّة واحدة. كان ينهض في الليل، ويذهب إلى الشارع، إلى المرحاض العام. وبينما هو في الخارج، كانوا يأخذون مكانه على المضجع. نستيقظ في الصباح ونراه - نائماً وهو جالس في مكان ما في الزاوية، شبه متجمّد".

"وأنت ما رأيك؟" - سأل فاسيلي بيتروفيتش.

من الواضح أنّ أرتيوم أراد أن يغْضب رفيقه- لقد كان هذا شعوراً راسخاً، لا يمكن تفسيره.

أجاب أرتيوم: "أعتقد أنّه أحمق".

ارتجف فكّ فاسيلي بيتروفيتش السفلي - كما لو أنّ أرتيوم قد دفع مريضاً يقف أمامه ولذلك استدار.

لقد كانت المجموعة مع السلال مجتمعة تنتظر فاسيلي بيتروفيتش بالفعل، كما ظهر رئيس مجموعة أرتيوم، وصرخ على الفور، كما لو أنّ ماء مغلياً قد رشّ على بطنه.

قال أرتيوم : "نعم، أنا قادم "- على الأغلب كان يوجّه الكلام لنفسه، بدلاً من رئيس العمال، وإلّا لكان من الممكن أن يتلقى لكمة على أسنانه.

كان رئيس المجموعة نفسه نزيل المعسكر، سجن لارتكابه ثلاث أم خمس جرائم قتل، هو في الأصل من موسكو. كانت كنيته سوروكين. بدا كأنّه ينضح بحقارة بشرية بغيضة مخفية - يبدو أنّها كانت تخرج منه مع العرق: بغض النظر عن الرائحة الكريهة في المهجع - شعر أرتيوم، بمجرّد أن اقترب من سوروكين، برائحته. كان تحت أبطي سوروكين دائماً دوائر داكنة ملحيّة متصلبة، وكانتا يداه الرطبتان ترتعشان بشكل خفيف، كما كانت لحيته الخفيفة على وجهه رطبة أيضاً، وبدت كما لو أنّها ليست شعراً، وإنّما قذارة، مثل القش الحاد المغبر الذي يبقى على الأرض بعد جمع القش.

كان سوروكين، كما قالوا، يحب السخرية من المساجين - رغم أنّه، وهذا من الجدير قوله، لم يكن يضرب أعداء ألثورة. وفقاً للتعليمات غير المعلنة لإدارة المعسكر، لم يكن يسمح المسّ بهم، ولذلك فإنّ الذين كانوا يرغبون بممارسة العنف، كانوا يعذبون السجناء المحكومين بجرائم معيشية عادية.

ذهبوا للعمل في الغابة، لحقوا بمجموعة فاسيلي بيتروفيتش الذي التفت، والتقت نظراته بنظرات أرتيوم - وعلى الفور أدار رأسه إلى جهة أخرى، متألماً، كما لو أنّ مغصاً حاداً أصابه.

أراد أرتيوم أن يندم لأنّه رفض الذهاب لجمع الثمار، لكنّه أبعد هذه الأفكار عنه. لم يفكّر بالسبب الذي جعله يزعج فاسيلي بيتروفيتش. لم تكن طبيعته خبيثة، لكن هذه السمة - الوخز فجأة في المكشوف - كان يعرف أنّه يتسم بها. ولم يكن يحزن بسببها على الإطلاق.

فكّر أرتيوم مبتسماً قليلاً: "ربّما لا يعجبني عندما يكشفون عمّا يؤلم...".

فكّر أيضاً: "... يتحدّث عن الإيمان، بينما طرد مايسي سولومونوفيتش من مجموعته... بدلاً من أن يشفق عليه...".

كان سوروكين يصرخ ويشتم طول الطريق، من غير المعروف على من، ولأيّ سبب، كما لو أنّه قد قبض منذ الصباح على جرثومة من كوتشيرافا. حتّى إنّ الحراس نظروا إليه بريبة.

تخيّل أرتيوم فجأة، كيف يأخذ قطعة خشب غليظة، أكبر من عصا سوروكين، ويضرب بشدّة رئيس العمال على مؤخرة رأسه فجأة. كان ذلك ليسعده.

وكان سيعم الصمت مباشرة...

كنّا سنذهب لجمع الثمار، ونحن ننشد أغنية، ونشعل النار...

حتّى مويسي سولومونوفيتش الآن لا يغنّي.

تبادل أرتيوم نظراته مع أفاناسييف الذي بدا أنّه كان يحلم بنفس الشيء.

خرجوا من الغابة إلى القناة التي، كما قال لاجيتشنيكوف، تربط بحيرة دانيلوفو مع بحيرة بيرت. جرى تعويم الجذوع الناتجة عن قطع الأشجار، ودفعها على سطح الماء عبر القناة. نظر أرتيوم إليها من الشاطئ، بنفس النظرة التي ربّما كان ليتطلع بها إلى عدد كبير من الحقراء المفترسين الذين يتواجدون في نهر، والذين كان لا بد من جرهم من خلاصمهم إلى الشاطئ.

قال رجل صغير طوله متر ونصف المتر، يقف بالقرب من أرتيوم: "هناك يومان ذهبيان - أمس وغداً، لقد مرّ أمس بالفعل، وقد مضى بعناية الرب، وأنا أؤمن به، وسيمضي الغد بعنايته. ولم يتبقّ سوى يوم واحد - اليوم، عندما أنجز عملي بالصلاة.

سأل أرتيوم، مومئاً برأسه إلى الجذوع السابحة: "هذه؟".

نظر الرجل إلى أرتيوم، وإلى الجذوع، ولم يجب.

أعلن رئيس المجموعة عن المهمّة أمام المجتمعين. "يجب نقل جذوع الأشجار إلى المنشرة، مهمتكم نقل مئة جذع اليوم... ماذا تنتظرون؟".

أين، الخطّافات، والحبال؟

- سأل أحد الجناة، الذي ضربه كرابين منذ الصباح.

صرخ رئيس المجموعة: "ستعطى حبلاً عندما ستشنق!".

حسناً، الخطّافات إذن- لم يكفّ الجاني، وبالطبع ناله عقابه: اندفع سوروكين نحوه، وهو يلوح بعصاه من بعيد- دافع الجاني عن نفسه وحتّى إنّه كان يلوّح بيديه القذرتين الهزيلتين، وناله الضرب على يديه وجانبيه وعلى رأسه. وكان يصرخ فقط :"أيّها الرئيس ! أيّها الرئيس! ماذا تفعل؟".

قبعتْ قطعة من الجلد وتدلّت على خدّ الجاني، كما نزفت يده بشدة. صرخ رئيس المجموعة: أخلع ثيابك واغطس في الماء بسرعة مثل الرصاصة! عصا في

حنجرتك، حتّى لا يترنّح رأسك!". خلع الجاني سرواله الداخلي الممزّق، ولم يكن يرتدي تحته شيئاً، وسحبه رئيس المجموعة بنفسه من قميصه، وألقاه في الماء، وقد شقّ القميص إلى قسمين.

بدأ الجميع بخلع ملابسهم على عجل، حتّى لا يحصل نفس الشيء معهم.

صرخ رئيس العمال، تاركاً أخيراً الجاني الذي ركض إلى الماء حتى غمر خصره ووقف هناك، وهو يمسح الدم: " إلى أين أيّها العواهر- خلعتم ملابسكم، كما لو كنتم فرقة باليه على المسرح! ألصغار منكم إلى الماء، والبقيّة يتلقون الجذوع على الشاطئ! متسكعون أغبياء أولاد الزانية!".

فكّر أرتيوم وهو يخلع سرواله: "يعرف ما هي فرقة الباليه".

قال أحد الجناة، وهو يدْخل إلى المياه: " الزانية، باردة".

فكّر أرتيوم: " لا بأس، سيكون مناسبة تماماً. سقوط الأمطار في الليل... جعلها باردة قليلاً... ولكن عندما تكون في الماء يصبح البعوض أقل...".

" خذوا، يا مصّاصي الدماء، لستم بحاجة حتّى للعض، العقوا هكذا" - قدّم الجاني التي تنزف للبعوض وضحك بصوت أجشّ، بدا من خلال مظهره ، أنّه لم يكن قلقاً جداً لأنّ رئيس العمال ضربه.

لم يرغب أحد في البقاء على الشاطئ بجوار رئيس المجموعة: دخلوا إلى الماء واحداً تلو الآخر، في البداية سيفتسيف وأعقبه أفاناسييف ومن ثمّ مويسي سولومونوفيتش. كان الرجل صغير الحجم يسير ذهاباً وإياباً على طول الشاطئ، وهو يكرّر: "إذا وجد الظهر، يمكن إيجاد الذنب لمعاقبته!" - ثمّ دخل الماء.

كان مويسي سولومونوفيتش أطول من الجميع بمقدار طول الرأس - مشى ومشى في الماء، وكان الماء لا يزال ضحلاً بالنسبة له، أمّا الرجل صغير الحجم، فقد غمرته الماء حتّى ذقنه، بمجرّد أن خطا أوّل خطوة، وأصبح يتنهّد الآن فقط : "يا إلهي !انقذني يا رب " - تقدّم خطوة أخرى، وكاد يختفي تماماً.

صرخ رئيس المجموعة عليه: "إلى أين ذهبت يا حشرة! - اخرج إلى الشاطئ بسرعة! ماذا تفعل هناك، يا حشرة، هل تريد أن تسبح على الجذوع ؟"، وأشار إلى مويسي سولومونوفيتش: "أنت أيّها الطويل تعال إلى هنا، لديك يدان مناسبتان لسحب الجذوع ، ستكون بدل الخطاف".

كان سيفتسيف لا يزال يمتلك جسداً قويّاً، وكان هناك جرح بليغ واضح جداً على ظهره، على ما يبدو، من ضربة سيف. وكان لدى لاجيتشنيكوف جرح مماثل يمتد من كتفه إلى حلمة ثديه تقريباً.

كانت أجسام الجناة موشومة.

" أيّ أشخاص اجتمعوا هنا..." - فكّر أرتيوم دون تحديد، وهو يحدّق في جسده النظيف، حتّى إنّه لا يوجد شعر على صدره.

واتضح أن أفاناسييف أيضاً، كان دون أيّ علامات مميّزة، لكن هناك شامات صغيرة فقط على جسده.

شقّ أرتيوم طريقه، متقدماً بحذر، وهو يخطو في القاع، إلى أوّل جذع - اتضح أنّه يصل إلى صدره تماماً- وسحب الجذع بكلتا يديه نحوه، وهو يطرد البعوض عنه.

تقدّم نحوه الجاني الذي ضُرِبَ، لمساعدته وهو يشتم بهدوء.

قدّم نفسه باسم الوثيقة.

كان على وجه الوثيقة بثور عدّة، واثنتان أخريان على رقبته. تدلّت شفته السفلية - أرد أرتيوم بشكل لا إرادي أن يشدّها بإصبعين ويسحبها إلى أنف الوثيقة.

مدّ الجاني يده، في الوقت نفسه الذي شدّ أرتيوم عليها، قال ساخراً:

"أمسك خمسة، وستعطيك الإدارة السياسية الحكومية عشرة".

تنفس أرتيوم نفساً عميقاً من أنفه ولم يردّ نهائياً.

"حسناً، لا تتبوّل في سروالك، تبوّل في الماء" - لم يهدأ الجاني وواصل النظر إلى أرتيوم.

"هل ستقصّ مقولاتك هنا، أم ربّما سنبدأ العمل، هيّا؟" - قال أرتيوم، لأنّه كان عليه بالفعل أن يقول شيئاً.

قال الجاني، وهو يضحك من جديد، وينظر بسخرية إلى أرتيوم: "ستعطيك امرأة نفسها وأنت ستشطف... فيها - لذا هيّا دون هيّا. يكفي رئيس المجموعة".

انحنى أرتيوم تجاهه، محاولاً التحدّث باعتدال وبشكل سلمي: "اسمع لديك شركاء"، وأومأ أرتيوم إلى الجناة الآخرين الذين كانوا يستمعون إلى حديثهما باهتمام بالغ، وأضاف: "كن معهم، وأنا سأكون مع صديقي، هل يناسبك الأمر؟".

وقف أفاناسييف مباشرة، متعمّداً تشتّت الذهن إلى حدٍّ ما، وكأنّه لا يستمع لحديث لا يخصّه.

دفع الوثيقة الجذع ، بحيث أصاب أرتيوم في صدره، وبعد ذلك فقط ، تراجع خطوة إلى الوراء. وقبل النهاية، ضرب بكفه الماء، وطرش الماء على أرتيوم.

لم يرد أرتيوم عليه: وبدا له أنّ الرد عليه برش الماء أمر غبي، وتوجيه لكمة له مباشرة على جبهته - لم يكن فعلاً زكيّاً أيضاً. مسح بيده الماء من على وجهه، وانتهى الأمر.

"الأمر أسهل في الماء..." - فكّر أرتيوم مشتتاً انتباهه عن الأفكار السيئة بخصوص الجاني، هذا الشخص الذي اسمه الوثيقة، وفكّر: "العمل في الماء أفضل من العمل على الشاطئ. لأنّ دفع الجذوع الطائفة على الماء إلى الشاطئ شيء، وجرّها على اليابسة شيء آخر".

لكنّ أرتيوم لم يخمّن بشكل صحيح بالطبع.

كان يجب دفع الجذوع إلى الشاطئ، ثمّ إمساكها رطبة، وزلقة، وثقيلة للغاية من أحد طرفيها، في الوقت نفسه كان على مويسي سولومونوفيتش والرجل القصير القامة أن يلتقطا الطرف الآخر، ثمّ سحبها إلى اليابسة.

فيما لو تمكّن أربعة رجال من سحب الجذع، فهذا يعني أنّه صغير الحجم.

حتّى الآن، كانت تتقدم جذوع الأشجار غير المعمّرة، والتي ليست عريضة، وطولها لا يزيد على خمسة أمتار- كان هناك في أغلب الأحيان أصغر. لكن كانت ترى في الماء، جذوع عملاقة لا يستحي فصيل كامل من حملها.

كان الشاطئ صخرياً أيضاً- فالمشي عليه، ولا تكاد تدفع الجذع، تبيّن أنّها معاناة.

كان من نصيب سيفتسيف العمل مع الصيني. لسبب ما، أطلق سيفتسيف على الصيني" الأرنب ". تعال أيّها الأرنب اغطس أعمق..."- كرّر ذلك بمتعة، وفكّر: " إنّه غير صالح...".

لم يستطع الرجل الصغير ومويسي سولومونوفيتش العمل سويّة ، بأيّ شكلٍ من الأشكال. الجذع الأوّل الذي دفعه أرتيوم وأفاناسييف، بطريقة ما، استطاعا وهما يشتمان ويتحركان بخطوات قصيرة، ساعدا بسحبه بعيداً عن الماء، أمّا الجذع التالي فقد أسقطه الرجل القصير، فصرخ الوثيقة عليه- وهنا بكى الرجل كما الأطفال على الفور.

كان يقول وهو يشهق بالبكاء: "أنا كنت أعمل في مكتب! كانت علاقتي مع الأوراق! ويجبرونني هنا منذ أشهر عدّة على أن أتمزّق من الداخل ! لم يعد لديّ قدرة".

فكّر أرتيوم منزعجاً: "إنّه مجنون".

صرخ الوثيقة: "أيّها الرئيس، إلى الجحيم، لا حاجة لي به "- وغطس مباشرة في الماء عميقاً، وهو يجدّف بيديه على عجل، عندما توجّه نحوه رئيس

المجموعة. كان على ظهر الوثيقة بثور أيضاً، كانت متتابعة كما الحشرات ذات الرأس الأبيض على طول لوحي كتفيه، ومن ثمّ على طول عموده الفقري نحو الأسفل، وصولاً إلى مؤخرته.

بعد أن آذوا أيديهم، وأعطبوا أرجلهم، سحبوا عشرة جذوع إلى الشاطئ، بصعوبة كبيرة.

"... قال رئيس العمال إنّ المهمّة- نقل مئة!" - فكّر أرتيوم مزهولاً، لكنّه كان لا يزال قادراً على المزاح بينه وبين نفسه.

كان يجب جر الجذوع من الشاطئ إلى المنشرة.

بينما كانوا يرفعون وينحنون ويمزقون ظهورهم، شعر أرتيون بكره حادٍّ وعنيف تجاه أوّل جذع يحملونه على أكتافهم، كما لو كان كائناً حيّاً.

"أيّ عاهر أنت، ثقيل وزلق، لو أنّهم حطموا واجهتك بالفأس ،أيّها الشنيع...".

حمل أرتيوم أوّل جذع، بعجلة، خالعاً قميصه. وفي منتصف الطريق، خدش كتفه العاري الذي استضم بفرع شجرة.

واتضح أنّ الطريق إلى المنشرة لم يكن قريباً، وفوق ذلك هناك نتوءات وشجيرات في الطريق. وكان أرتيوم يبعد البعوض عنه بشكل متواصل. وعلى الرغم من أنّ أفاناسييف شاعر، فقد تبيّن أنّ لديه جلداً على العمل مثل الجمل:" يكفي رقص، يا تيوما!" - طلب، وهو يتنفّس بصعوبة من أنفه.

كان سيفتسيف والصيني يحملان مقدمة الجذع، وكان أرتيوم يحدّق باستمرار في مؤخرة رأس الصيني الأسود.

زعق المنشار في المنشرة- وفهم أرتيوم، دون أن يرى الطريق، من خلال الصوت أنّهم أصبحوا قريبين منها، ثمّ أقرب، وأقرب... على ما يبدو وصلنا. أمر أفاناسييف - " ثلاثة ، أربعة" - قذفوا الجذع- وشعر بارتياح كبير يسري في جسده كلّه للحظة. لكن البعوض...

خرج من المنشرة رجل غير ودود، محدودب من العمل، ونظر إلى القادمين، واختفى في المدخل دون أن يلقي السلام.

عاد أرتيوم راكضاً تقريباً - إلى قميصه.

صاح أفاناسييف ورائه:" إلى أين تركض؟ هل اشتقت للعمل؟".

كانت ملابسه رطبة ومزعجة. شعر أرتيوم بخدر وتيبّس وانكماش وخشونة بين رجليه. فجأة تذكّر أنّه نسي الخبز في جيبه، أدخل يده- نعم هو كذلك، دخلت أصابعه في مادة رخوة رطبة وقبيحة. تعثّر بنتوء، وسقط، ورمى يده إلى الأمام بشكل لا إرادي - بالتحديد تلك التي كان يمسك بها بالخبز.

لم يتبقّ سوى القليل منه على أصابعه: كان أرتيوم مستلقياً على العشب، وشعر بالماء البارد الموحل تحت بطنه... لعق يديه التي علق بها ما تبقى من معجون الخبز.

جاء صوت أفاناسييف من الخلف: "أوه، مختبئ. هل تكمن للأيل؟ أم أنّك تصطاد الضفادع؟".

نهض أرتيوم وشعر: أنّه على وشك البكاء. أدار رأسه حتّى لا يراه أفاناسييف.

كان هذا ما تبقى من الخبز، وبقي هناك يومان لتقديم عصيدة الدخن وسمك القد لهم.

تحكّم بنفسه، وكزّ على أسنانه، ومسح عينيه، وأجبر نفسه على الالتفات نحو أفاناسييف وابتسم له -جاءت ابتسامته على شكل تكشيرة.

لم يستعجل سيفتسيف العودة، ولسبب ما كان يتحرّك، وهو في وضع القرفصاء. خمّن أرتيوم أنّه يجمع ثماراً.

لم يكن يشتهي الثمار. نقلوا جذعين- بقي ثمانية وتسعون.

شعر بالحرارة خلال النقلات القادمة، على الرغم من أنّ الجو كان بارداً.

انتبه إلى سيفتسيف، كان كما لو أنّه مغطّى بسائل أصفر اللون كالقيح. فكّر أرتيوم في البداية، أنّ الرجل قد حطّم صدغه. اتضح - أنّه عصير الثمار: فقد دهن وجهه به ضدّ البعوض، إنّه احتيال قروي.

حاول أرتيوم أيضاً في أثناء العودة، العثور على أيّ نوع من الثمار، حتّى ولو كان توت الغراب. لم يوفّق في المرّة الأولى- شعر رئيس المجموعة سوروكين بالملل على الشاطئ، وذهب للقاء العمال المتأخرين: زأر من جديد كما لو أنّ أحد ما سرق منه شيئاً.

في المرّة الثانية عثر أرتيوم على ثمار متناثرة- الشيطان يعرف ما هي هذه الثمار، لكن دهن بها جسمه كلّه. كان يفرك بها نفسه بشكل مسعور، كما لو كان يعلم أنّ الموت قد وصل إلى قلبه، وهنا اكتشف ثمرة حيّة، يمكنها إنقاذه.

... على الأقل لن يعود البعوض يغطّ على العينين والجبين.

أصبح الجميع يلعن الرجل القصير الذي لم يعرف أحد اسمه، باستثناء مويسي سولومونوفيتش. كان هذا الرجل يتوقف كلّ دقيقة للراحة، وبمجرّد أن ينهض يتعثر على الفور ويسقط الجذع، يتأوه ويصرخ.

بعد الظهر، رفض الرجل العمل.

اقترب وهو يعرج على رجليه، من رئيس المجموعة وقال:

"حتّى لو قتلتني، لا أستطيع".

أجاب رئيس العمال: "سأقتلك"، وبدأ يضربه: لقد أطاح به أرضاً، وداس على وجهه، وضربه مرّات عدّة بحذائه على جانبيه، وهو يصرخ في الوقت نفسه: "ستعمل، أيّها الكسول؟".

توقّف العمال- هذه الوقفة كانت بالنسبة لهم بمنزلة استراحة. حتّى إنّ البعض منهم بدأ يدخن. الصيني فقط استدار، وجلس القرفصاء، وأغمض عينيه، كأنّه اختفى.

كان الرجل يصرخ بصوت ضعيف: "لا أستطيع! لا تقتلني! لا أستطيع! لا تقتلني!".

شاهد أرتيوم أيضاً ذلك بلا مبالاة، وخطر له للحظة أنّ الرجل يقول: "مرّة اقتلني!، ومرّة لا تقتلني!".

لو قتل الرجل الآن، لربّما لن يشعر أرتيوم بأيّ شيء.

"... يا له من تعبير غريب: " لا تقتلني!"- لاحظ أرتيوم من جديد - "لم أسمع مثل ذلك من قبل...".

عندما صاح أحدهم: "اسمع، يكفي!"- لم يستوعب أرتيوم للحظة أنّه هو نفسه الذي صرخ. تكوّن شق على خدّ أرتيوم من عصير الثمار الذي جفّ، فعندما فتح الفم بدا خدّه، كأنّه شق إلى نصفين.

استدار رئيس المجموعة، دون أن يفكّر للحظة، ورمى العصا، وهو مستدير، باتجاه أرتيوم، كما لو كان في حقل مفتوح.

لم يَكَدْ يتمكَّنُ أرتيوم من الانحناء، وإلّا لكانت العصا أصابت جبهته مباشرة.

أمره رئيس المجموعة: "أحضرها يا بن آوى".

لم ينظر أرتيوم إلى عيني رئيس العمال، ولا إلى السجناء الأخرين أيضاً. ونظر بطرف عينه إلى الحارسين- كانا يراقبان كلّ ما يحدث بشعور واحد وبسيط للغاية: لقد أرادا أن يقوم شخص ما بإعطائهما سبباً للغضب. حتّى إنّ أحدهما وقف وبدأ يحرّك رجليه- ينتظر بفارغ الصبر.

ذهب أرتيوم ليأتي بالعصا- كانت في مكان قريب، على الحجارة. ودون أن يرفع عينيه، أعطاها لرئيس المجموعة.

خلال هذه الدقيقة المثيرة للاشمئزاز، لم يخطر بباله أيّ فكرة، فقط كان يكرّر: "أمّا الأولاد الحمقى، فعصا غليظة على الجانبين".

مسك رئيس المجموعة العصا وهوى بها على أرتيوم الذي تفادى الضربة بسرعة، مع أنّه ليس من طباعه التسرّع والعجلة الكريهة التي لم يعهدها في نفسه، وركض منحنياً إلى الماء، وهو يقول: "العمل، العمل لا ينتظر".

حتّى دون أن يخلع قميصه- دخل في المياه على الفور حتّى عنقه.

دخل البقية الماء أيضاً، وراء أرتيوم.

توسّل الرجل على الشاطئ رئيس المجموعة، بحروف متقطعة: " ليس لديّ القوّة لا أستطيع أيّها المواطن رئيس المجموعة، ليس لديّ القوّة. القلب عالق في الحلق! سأموت!".

عندما كان أرتيوم مع أفاناسييف يسحبان جذعاً آخَرَ إلى الشاطئ، اتضح أنّ رئيس المجموعة اخترع مهمّة أخرى للرجل القصير مقابل العمل.

وقف الرجل على أرومة شجرة، وبدأ بالصراخ :

"أنا كسول! أنا كسول! أنا طفيلي على السلطة السوفييتية!".

ضحك الوثيقة بصوت عال، وضحك بقيّة الجناة أيضاً.

كان الرجل القصير يكرّر باستمرار:" أنا كسول! أنا كسول! أنا طفيلي على السلطة السوفيتية!".

قال رئيس المجموعة مسروراً بنفسه: " كرّر ألفيْ مرّة أنا أعدُّها ".

كان الحارسان القويا البنية، يضحكان بشدّة.

عندما تجمّع على الشاطئ عشرة جذوع، توجهوا من جديد إلى المنشرة. كانت يد أرتيوم اليسرى كلّها جروح من الشجيرات- عندما كانوا يتراقصون خلال الطريق على النتوءات، كانوا يتمسكون بأيّ شيء تصل أيديهم إليه. تبادل أرتيوم وأفاناسييف موقعيهما، وصار يتمسّك أرتيوم بيده اليمنى.

كان يسمع خلف ظهره باستمرار:

"أنا كسول! أنا كسول! أنا طفيلي على السلطة السوفييتية!".

في طريق العودة، عصر أرتيوم قميصه كما ينبغي، ولكن تبيّن أنّ القماش الرطب، أكثر برودة من المبلول بالكامل.

سال عصير الثمار عن الوجه، ولم يجد ثماراً جديدة. كان يضرب البعوض بشدّة - بقيت على راحة يده علامات قرمزية متناثرة - هذا يعني أنّ كلّ عشر بعوضات كانوا يغطون دفعة وحدة.

ويحلّ محلّهم عدد جديد لا يحصى.

لم يحتمل الرجل القصير مدّة طويلة، ولَمْ يكدْ، بعد نصف ساعة، يصبح يردّد بصوت ضعيف أجشّ. كان رئيس المجموعة يحثّه من وقت لآخر بالعصا.

أتوا بالغداء، نظر الرجل القصير بطرف عينه إلى الطعام، وصرخ بما تبقى له من قوّة، كسول وطفيلي، وأراد أن يخطو للحصول على وجبته، لكنّ رئيس المجموعة لم يفهم لماذا فعل ذلك.

صاح رئيس المجموعة: "إلى أين أنت أيّها الحشرة المغنيّة؟ إلى أين ذاهب؟ هل تعتقد أنّك عملت بحق طعامك؟ أيّ غداء للكسول؟ أنت تستحق ألف عقوبة!".

لم ينظر أرتيوم، إلى ما كان يحدث، لكنّه سمع فقط ، أنّهم يضربون إنساناً حياً وضعيفاً، مع صوت رهيب، لم يعتده خلال سبعة وعشرين عاماً من عمره.

فكّر أرتيوم بشكل متقطّع، عاجزاً، بينما كان يتناول غداءه: "ما هذا الذي يحصل؟ لماذا حصل كلّ هذا؟ استطعت حتّى الآن، تجنّب ذلك بطريقة ما!.. ما العمل الآن مع هذا الوثيقة؟ وراءه زمرة من الجناة... لن يقف فاسيلي بتروفيتش معي... علاوة على ذلك، لسبب ما أزعجته!.. أمّا بخصوص ما حصل مع رئيس المجموعة؟ يا للعار! كيف هربت أمامه - عار! لماذا لم أقتله؟...".

لم يضرب أحد أرتيوم قطّ، إلّا والده. لكنّه الأب - مضى على ذلك وقت وقت طويل!.. حتّى إنّه نسي اسمه.

بالإضافة إلى ذلك، بقي نحو سبعين جذعاً - كما لو أنّنا لم نبدأ.

تحدّث أفاناسييف الذي ظهرت لديه قوّة للكلام ، من مكان ما، عن الشيشان. استمع أرتيوم بارتخاء، ساهياً بعض الأحيان. ولا سيّما، أنّ الرجل لا يزال يصدر صوتاً أجشّ:

"أنا كسول! أنا كسول! أنا طفيلي... على السلطة... السوفييتية!... أنا كسول... أنا طفيلي...".

قال رئيس المجموعة سوروكين باستهزاء: " يا كسول لا تكن كسلان. في البداية، كرّر "كسول" مرتين، وبعد ذلك "طفيلي"، لأنّه لا يوجد هناك تناغم. وبصوت أعلى، أعلى ! إبدأ!".

بحث أرتيوم لنفسه عن غصن متناسقٍ ولذيذٍ- قضم طرفيه وأحكم وضعهما بين أسنانه. جلس يحكّ ركبتيه بأظافره - محرّكاً الدم فيهما بهذه الطريقة.

كرّر بينه وبين نفسه، وهو يقضم غصناً: "لا يجوز أن تضعف! يجب ألّا تلفظ أنفاسك قبل الأوان!".

ثمّ بصقه، وعضّ على يده مرّات عدّة - متفحّصاً إحساسه.

واصل أفاناسييف كلامه، محاولاً التحدّث بصوت يمكن سماعه، رغم صرخات الرجل القصير: "لا يمكن فهم طبيعة هؤلاء الشباب الشيشان- الشيشاني الأصغر- ذهب إلى غرفة المؤن للحصول على وجبة، وجلب ثلاثاً. كيف أقنعهم هناك، ماذا قال لهم، لا أعرف... تعتقد أنّهم طيبون- لكن على الفور يصبحون بلا رحمة... وسذّجاً مثل الأطفال، وماكرين...شعب غريب!".

في نصف ساعة، بينما كانوا يتناولون الغداء، التقط أرتيوم أنفاسه قليلاً، على الرغم من أنّ مظهره كان يوحي عكس ذلك، كان يرتجف: تثري قشعريرة بجلده، كما القمل الجليدي.

حلم أرتيوم، مغلقاً عينيه- كم هو رائع لو تظهر شمس ضخمة حارقة وذهبية، مثل السماور- يمكنك في البداية، أن تمدّ يديك إليها، مباشرة تقريباً،

وتلمسها براحة كفك تقريباً. بعد ذلك تستدير وتستند بظهرك إليها لدقيقة- بحيث يخرج البخار، وهو ينشّ من القميص، الشيء الرئيس هو أن تبتعد عنها في الوقت المناسب، قبل أن يلتصق القميص بالسماور، وإلّا فسيكون هناك ثقب... ولكن إذا ابتعدت ببطء عن السماور، وليس بحركة سريعة، فسوف يصدر عن القماش خشخشة طفيفة - وبعد ذلك سيرتاح ظهرك، كم سيكون الأمر لذيذاً. ثمّ بعد ذلك تستدير وتمدّ ساقيك، وكعبيك- لقد كان كعباه باردين لدرجة أنّه كان من الممكن أن يضعهما مباشرة في النار....

سأل الوثيقة: "أيّها المواطن رئيس المجموعة، هل يمكنني إشعال النار؟".

أجاب رئيس المجموعة: "الوقت صيف، أيّ نار، حان وقت العمل، بنات أوى!"- وصرخ على الفور: " إلى العمل بنات آوى، بدأتم للتو، وقد لفظتم أنفاسكم!".

سارع أرتيوم إلى الجذوع التي سحبوها إلى الشاطئ، مع بعض الأمل في أن يدفئ نفسه.

كان الحارسان يرميان الكسول والطفيلي بأكواز الصنوبر، لم يحاول تجنبها، لكنّه قام أحياناً بتحريك يديه بشكل خفيف، في كلّ مرّة كما لو كان يحاول الإمساك بالكوز، ولم يمسك بها مطلقاً. كان في بعض الأحيان يصيب جبهته- كانا على ما يبدو، يصوبان إلى فمه، ولم يستطيعا إصابته.

لم يكف الوثيقة: "أيّها المواطن رئيس المجموعة! لدينا مغنّ بقي وحده، وإضافة إلى ذلك إنّه طويل أيضاً، هو يعرقل فقط... غير صالح لشيء. دعه يغنّ إذن - إنّه يحب الغناء دع مويسي يقف على الأرومة المجاورة ويغنّي".

كان يمكن لرئيس المجموعة أن يرد بأقسى العبارات على الوثيقة، ولكن الجناة الآخرين أيّدوا طلب الوثيقة أيضاً- لم يكن هناك خطر كبير من مجادلته ضمن الماء. غمز أخيراً، أحد الحارسين لرئيس المجموعة مستحسناً الأمر، على

الرغم من أنّ الحارس لم يكن مهتماً- فهو، على عكس رئيس المجموعة، لم يكن مسؤولاً عن إنجاز المهمّة المكلفين بها.

قال رئيس المجموعة : "سولومون تعال إلى هنا"- وصرف انتباهه مباشرة متوجهاً إلى الرجل القصير: " وأنت لماذا صمتّ؟ اصرخ، اصرخ، بأعلى صوتك، كسول وطفيلي !اصرخ بملء حلقك، افتح فمك الوسخ...!".

لقد أوقفوا مويسي سولومونوفيتش حقاً على الأرومة. نظر حوله بلا حول ولا قوّة، كأنّه لم يكن ير الطعام بالقرب منه، ودونه لم يعرف كيف يبدأ الغناء، ولا سيّما أنّ الرجل القصير كان يشوّش عليه بوضوح... ولكن، بعد أن تنهّد مرتين، بدأ مويسي سولومونوفيتش يغنّي فجأة.

غنّى في البداية أغنية كيف "ودعتني أمي" التي لا نهاية لها، بعد ذلك، عندما لاحظ انتعاش الحارسين- غنّى أغنية التفاحة الشهيرة، وكان خلال ذلك، يضرب باستمرار البعوض على خديه- "واصل بصوت أعلى!"- حثّه الوثيقة - بعد ذلك غنّى أغنية غجرية، وبعد أن انتهى من "الغجرية"، بدأ فجأة أغنية عن الصقر التي لم تكن معروفة لأرتيوم : "أصيب الصقر الصغير بالحزن عندما وضعوه في قفص ذهبي على عودٍ فضّي...".

ضحك أفاناسييف بهدوء: "الأغنية عن زنزانة العقاب ".

تحدّثوا أنّ هناك في زنزانة العقاب يوجد أعواد مثل تلك التي توضع في خمّ الدجاج، لكن أكثر سماكة- كانوا يجبرون المعاقبين على الجلوس عليها ليوم كامل. بعد بضع ساعات، كان الجسد يتألّم ويتوسّل لوقف هذا العذاب، لكن كان من الممنوع التحرّك- فسبب أيّ حركة كانوا يضربون المعاقب وهذا أسوأ بثلاث مرّات، ثمّ يعيدونه، بكلّ الأحوال، إلى الجلوس على العود.

كان الرجل القصير المسلّي يردّد بصوت أجش طوال هذا الوقت، وقد اعتادوا قرقرته المزكومة، وعندما كان يصمت- يصبح الأمر غريباً وغير طبيعي، وعندها كان يتوجّه نحوه رئيس المجموعة، ملوّحاً بعصاه. ولكن عندما يتبقى

بضع خطوات لرئيس المجموعة ليصل إلى اللاأرومة، تصدر هسهسة "أنا كسول"، ويعود كلّ شيء إلى وضعه: الماء والجذع، وكسول، وغناء مويسي سولوموفيتش، وطنين الأذنين، ودوائر سوداء أمام العينين. كان الماء يتباعد في دوائر أيضاً، وكانت تختلط الدوائر في العين مع تموّجات الماء، أم تندمج معها...

أصيب أرتيوم بالغثيان، وآلمه رأسه، وكان دم دافئ يسيل على كتفه.

لم يعرقل الرجل القصير مويسي سولومونوفيتش.

غنّى مويسي سولومونوفيتش: "يشتكي الصقر الصغير الجميل، لأجنحته، لريشه الناعم الجميل: أخ، أجنحتي، أجنحتي، ريشي الناعم الجميل!".

ظلّ أفاناسييف يضحك، وإن كان تعباً الآن، وهو يدفع الجذع إلى الشاطئ: " ينشر الدعاية المضادة، لكنّ هؤلاء المغفّلين لا يسمعون ".

لاحظ أرتيوم أن صدر أفاناسيف أصبح أسود تقريباً.

واصل مويسي سولومونوفيتش الغناء: " أيّتها الأجنحة لقد حملتموني بعيداً عن الرياح والزوبعة، عن مطر الخريف الغزير، عن مطر الخريف الأخير... أيّتها الأجنحة لم تأخذوني بعيداً، عن الزائر الشاب الطيب، عن صياد الحاكم!".

"ماذا يفعل..."- فكّر أرتيوم... لكنّه لم يكد يفكّر، كما لو كان يجبر كلّ فكرة على التحرّك من مكانها.

حان وقت حمل الجذوع إلى المنشرة. هناك كانوا يكدّسونها في أكوام- هذا عمل صعب أيضاً.

لاحظ أرتيوم، وهو يسحق البعوض، أنّ قشرة من الدم تكونت بالفعل على خدّه. فكّر: "لو تراكم الكثير من الدم، حتّى لا يعود البعوض يلدغ ".

بحلول المساء، شعر رئيس المجموعة والحارسان نفسهما بالبرد- وأشعلوا النار أخيراً. وسمحوا في بعض الأحيان للعمال أن يدفئوا أنفسهم لدقيقة أم دقيقتين.

سمع أرتيوم أنّ الحارسين يحثا رئيس المجموعة، على أنّ الوقت قد حان للعودة. وكان رئيس المجموعة يشتم أنّ المهمّة لم تنجز، بسبب كسل وبطء الحيوانات المساجين.

كان أرتيوم يأمل لبعض الوقت، لدرجة الشعور بحرقة في صدره المتجمّد، أنّ كلّ شيء سيتوقف على الفور... لكنّ رئيس المجموعة اتفق بطريقة ما مع الحارسن.

جرى سحب آخر الجذوع المقرّرة إلى الشاطئ، عندما توهجت ليلة سولوفكي البيضاء كالمستنقع.

لم يتكلّم أحد، وكأنّ كلّ الكلمات المعروفة قد نسيت.

طلب مويسي سولومونوفيتش بنفسه من رئيس المجموعة أن يسمح له بالمساعدة لإنهاء العمل، وسمحوا له- لقد اكتفوا من سماع أغانيه. لكن الرجل القصير، الذي يقف على الأرومة، واصل الصراخ عن الكسل.

همس أفاناسييف فجأة: " إنّه مثل الفطر، ألا تعتقد أنّه فعل ذلك عن قصد؟".

لم يعتقد أرتيوم ذلك.

... بدت قاعة الطعام السابقة، التي كانت تفوح منها الرائحة الكريهة، وحركة البشر، حيث وصلوا بالفعل بعد الساعة العاشرة ليلاً، عزيزة، طال انتظارها، ولطيفة.

كان هناك معطف.

دون نظر أرتيوم إلى القصعة، تناول عصيدة باردة، وشرب نصف كوب من الماء الدافئ، ووضع ثيابه الداخلية الرطبة تحته، وارتدى معطفه واختفى، وربّما، من الممكن أنّه مات.

عندما أعطى الشيشانيون الأمر: "السريّة استيقاظ !"- رأى أرتيوم حلماً طويلاً وغنيّاً بمحتواه. أنّه قام، واغتسل، وسحب قطعة القماش التي يلفّ بها

رجليه وسرواله مع قميصه، من تحته- لقد جفّت، وهذا جيد- خلال ذلك تمتم فاسيلي بيتروفيتش بشيء ما، قافزاً من موضوع إلى آخر، ثمّ سحب فجأة جزمة لبّاد من حقيبته القماشية، وأعطاها لأرتيوم: البس، الجذوع ليست مزحة، لبسها أرتيوم فوراً، وشعر بطريقة غريبة أنّه يدخل بكامله في الجزمة- كانت رائحة لاذعة ودافئة للغاية وحامضة قليلاً داخلها، لكن هكذا أفضل- بعد أن تنعّم، خرج من الجزمة، وتوجّه إلى التفقد الصباحي، طوال هذا الوقت، في قاعة الطعام السابقة وفي أثناء التفقد، كان الرجل القصير يصرخ كسول وطفيلي، هذا لم يعرقل تلاوة الأسماء، "المئتان والخمسون، التشكيل كامل إلى العشرة!" - صرخ أرتيوم، وهنا أدرك أنّه نسي أن يتناول فطوره- كيف ذلك، شيء مرعب، ولكن متى كان لدى الجميع الوقت الكافي، وأين كان هو، هل كان حقاً في المرحاض- لكنّ الطابور على الفطور يستمر على الأقل ساعة، ماذا فعل ساعة كاملة في المرحاض؟- بعد أن جرى فرزه إلى جمع الثمار، حسناً، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، سارع أرتيوم العودة إلى غرفة الطعام السابقة، كأنّه عرف تماماً من أحد ما، أنّ فاسيلي بيتروفيتش أخذ وحفظ له وجبته من الدخن- مع قطعة كبيرة من الزبدة التي لم يقدموها لهم للشهر الرابع- لقد وضعها تحت معطفه حتّى لا تبرد، فقد ذابت وسالت الزبدة هناك- هكذا كانت امه تترك له العصيدة عندما كان طفلاً، كانت تلف العصيدة في بطانية قديمة. ركض أرتيوم تقريباً إلى مضجعه محاولاً تجنّب اللقاء مع الوثيقة، وكرابين ورئيس المجموعة سوروكين، وقد صاح الشيشان بشيء ما مزعج وراءه، كان كلّ شيء سيئاً في الأيام القليلة الماضية، وكانت العصيدة فقط يمكن أن تنقذه. "هناك فطيرة أيضاً!"- صاح فاسيلي بتروفيتش. صعد أرتيوم إلى مضجعه، ودخل مرّة أخرى في معطفه، وطوى ساقيه، حتّى لا يظهرا من تحت المعطف، وأغلق عينيه بقوّة، حتّى تحتفظ عيناه بالدفء... ولكن العصيدة؟ ما العمل مع العصيدة؟.

صاح الشيشاني مرّة أخرى بعناد:"السريّة استيقاظ"- لم تمض لحظة منذ أن صاح:"استيقظ" أوّل مرّة.

صرخ: "السريّة استيقاظ!"، للمرّة الثالثة.

صاح أحدهم على الشيشاني: "لماذا بحق الجحيم تصرخ مثل الديك ثلاث مرّات؟- عرف أرتيوم الذي استيقظ تماماً، إنّه صوت الوثيقة، مع أنّه كان يتلمّس بإحدى يديه، وهو مغمض العينين المضجع تحته وبجانبه- ألم استلق على العصيدة ؟ ألم أدلقها؟.

سأل الشيشاني بصوت عالٍ، من قال: "الديك"؟ نطق كلمة "الديك" ماطّاً حرف "ي".

كم أريد مواصلة النوم. لن يتردد أرتيوم في قطع خنصره من أجل غفوة. لا سيّما خنصر قدمه. ليست هناك حاجة إليه في القدم إطلاقاً. الخنصر مقابل ساعة من النوم.

ظهرت يد أفاناسييف مع فطيرة - بدا أرتيوم لسبب ما، خائفاً هل خنصر أفاناسييف في مكانه- نعم، في مكانه- ثمّ بعد ذلك ظهر الوجه المبتسم لشاعر بتروغراد.

كنت نائماً أمس عندما أحضروا الفطائر... مقابل العمل الجيد. تخيّل ما كلّفني عدم أكلها. لقد شممتها طوال الليل. هل أتركها ليوم واحد آخر، لأشمّها أيضاً؟.

انتزع أرتيوم الفطيرة، على صوت ضحك أفاناسييف الغبي، ووضعها بالكامل في فمه على الفور- ربّما هذا حلم أيضاً. كانت الفطيرة حقيقية، مع الملفوف، مضغ أرتيوم وشعر كيف أنّ وجهه يتفتت: هذا كلّه بسبب بعوض أمس الممزوج مع عصير الثمار بلون الدم... أوالعكس...

قال أفاناسييف الذي تمكّن بطريقة ما من غسل وجهه أمس: " لو رأتك والدتك".

كان عليه القفز بسرعة- كان يمكن أن يظهر كرابين، أم حتّى كوتشيرافا: كانا كلّ صباح يتجوّلان بين الصفوف، ويستعجلان بلا رحمة المساجين النائمين. حدث أن كسرا ضلوعاً.

في هذه الليلة، ولأوّل مرّة، لم يستيقظ أرتيوم للذهاب إلى حوض البراز- كان عليه الذهاب مع الجميع، الأمر عادي، لقد تحمّل. حوض مرتفع مع أذنين، ولوح خشب ثبّت بالعرض- يقفون وجهاً لوجه بالدور، ويشجع بعضهم البعض الآخر أحياناً. بدأ الوثيقة ، حتّى لا ينظروا إليه، كما لو كان مزاحاً، يمارس العادة السريّة، مخيفاً الجميع: "الآن! آه، الآن! قربت أن أنتهي! تفرقوا!".

لاحظ أرتيوم أنّ اثنين من المحطّمين يحملان الحوض، استأجرهما الشيشان لقاء تبغ. وضعوا عصاً في أذني الحوض، وسحبوه إلى المرحاض المركزي.

على العصا نفسها التي كانا يحملان بها الحوض، أحضر الشيشان برميل العصيدة.

على الرغم من أنّه لم يخلطوا العصيدة بهذه العصا، لكن في كلّ الأحوال كان الأمر كريهاً. لكن ليس إلى الحدّ الذي يجعلك ترفض الأكل.

لم يستطع أرتيوم الصبر على الطعام - وكان من ضمن الأوائل الذين يقفون في الدور، حتّى إنّه نسي أنّ الوثيقة في مكان ما هنا، والذي، بالمناسبة، لم يجب عن سؤال الشيشاني- فكّر أرتيوم: "إنّه حقير جبان "- كان الوقوف في الدور أمراً جيداً، مزدحماً ومرحاً، ولا سيّما أنّ السروال والقميص قد جفّا، ولكن لم يكن هناك أيّ جزمة لباد.

شعر بعد تناول الطعام بثقة أكبر بنفسه نوعاً ما.

كان يجب الإسراع أيضاً لأخذ الماء المغلي - لأنّ الماء المغلي ينفد كالمعتاد.

قرّر أرتيوم: "فيما لو الوثيقة سيتطاول علي، فسأضربه ".

اقترب فاسيلي بيتروفيتش، ونظر إلى وجه أرتيوم، وهزّ رأسه.

سأل بتروفيتش: "هل سمعت؟ أصبح بورتسيف رئيس قسم اليوم.

ابتهج أرتيوم بصمت، لأنّ فاسيلي بيتروفيتش قد سامحه. من الجيد أن يبدأ الصباح بهذا الشكل، وربّما يستمر على هذا النحو.

أجاب أرتيوم، وهو يشرب الماء الساخن: " حسناً... على الرغم من أنّنا... لم نتّفق إلى درجة تجعلني أشعر بالأمل...".

على الرغم من ذلك، شعر بالنعاس الشديد، وكانت تؤلمه الكدمة التي على ساقه، وكان كفّاه المجروحتان من الشجيرات، تؤلمانه بشكل رهيب- ضغط أرتيوم بهما على كوب الماء المغلي، حتّى إنّه شعر ببعض المتعة من الألم المضاعف.

قال فاسيلي بيتروفيتش، بأسف لسبب ما : "إنّه إنسان محترم". بالمناسبة، كانت تفوح منه رائحة توم قوية.

أراد أرتيوم أن يأكل ثوماً أيضاً، لكنّه لا يريد أن يشفق عليه أحد، وأدرك تماماً، أنّه لن يطلب الذهاب مع فاسيلي بيتروفيتش لجمع الثمار، على أيّ حال: ليست طبيعته.

جاء أفاناسييف، وقاما بدقّ كوبي الماء المغلي أحدهما بالآخر. قال أرتيوم، مبتسماً، وهو يشعر بخدّيه اللذين أكلهما البعوض:

"أنت لست سيئاً. لقد لحظت ذلك، منذ ذلك الوقت، عندما كنّا نقتلع الأرومات".

أجاب أفاناسييف: "عزيزي أرتيوم، حدث عندما كنت حراً، أن أبقى ثلاثة أيام، دون أن آكل أيّ شيء. أحصل من مكان ما على قطعة خبز- ومرّة أخرى ثلاثة أيام دون أكل. أمّا هنا فلدي حساء مع العصيدة على الغداء، وعصيدة من جديد في المساء. إذا أردت أن أتحرّك قليلاً، فأعدّ سلطة من السمك المملّح مع البصل. وإذا أردت أن أرفّه نفسي- أذهب واشتري لنفسي بعض السكاكر من الكشك. هل السعادة في ذلك حقاً؟".

تفاجئ أرتيوم، دون أن يواصل الحديث عن السعادة- "سكاكر؟- من أين تحصل على المال؟ هل ادخرته ؟".

"لماذا؟ لقد ربحته في لعب الورق. هل تريد حبّة سكاكر؟".

كان عند أفاناسييف حبّة سكاكر حقاً، وقد أعطاها لأرتيوم.

من حلاوتها وصلت إلى الدماغ: عطرة ولها طعم أخّاذ.

تعجّب أرتيوم، وهو ينظر إلى أفاناسييف: " منذ الطفولة، كنت أعتني بنفسي، كنت أمارس التمارين الرياضية على العارضة، حتّى إنّني تعلّمت الملاكمة، وعملت حمالاً"- أمّا هذا فشاعر؟ ولديه مثل هذه الحيوية، وذو طبيعة بسيطة للغاية!... ومع ذلك، يوجد لديّ بعض الزوايا، وبهذه الزوايا اصطدم مع الوثيقة أم مع كرابين... أمّا أفاناسييف فليس لديه أيّ زوايا على الإطلاق، فهو يتدفّق بالحياة- ويجري مع الحياة... مع أنّ الأمر قد لا يكون كذلك فقد جرى إزاحته من المناوبة؟..".

سأل أفاناسييف ضاحكاً، وهو يقول شيئاً: "هل تسمعني؟".

هزّ أرتيوم رأسه بالنفي، مبتسماً من جديد، وفجأة غنّى:

"أنا لا أمشي على القطيفة، لا أمشي على المخمل، لكنّني أمشي، أمشي على سكين حاد..."، من أين أعرف هذه الأغنية؟ لم أسمع بها من قبل.

قال أفاناسييف بلطف: " كيف لم تسمع بها، لقد غنّاها مويسي أمس".

فكّر أرتيوم وهو في طريقه لجمع الجذوع: " إنّ الإنسان حيوان قادر على العيش".

كان قلبه يدفع الدم بقوّة، واستيقظت عيناه، وذهب النعاس، وعادت روحه للحياة.

تساءل أرتيوم : هذا ما تقوله الآن- ماذا لو جرى إرسالك للقيام بهذا العمل حتّى شهر تشرين الثاني؟ تخيّل الوضع في تشرين الثاني، سيصل الماء في القناة إلى الرقبة...".

تجاهل الأمر، ولم يعد يتخيّل، والتفت إلى الدير.

" يجب التغطّي بالطحالب، والوقوف مثل الصخر في وجه أيّ ريح...".

كانت المجموعة اليوم كاملة مثل يوم أمس، حتّى إنّهم أخذوا معهم الرجل القصير المسلي- ربّما بدافع الخسّة. كان اسمه فيليب - عرفه أفاناسييف. قتل فيليبوك والدته، ولهذا السبب انتهى به المطاف إلى دير سولوفكي.

وعده الوثيقة بصوت خافت: "فيما لو رفضت العمل، فسأفقأ عينك في المساء، وأجبرك على أكلها".

أجاب فيليب بوداعة وبصوت لا يكاد يسمع : "سأقوم بهذا العمل المنهك إلى حين أن يحفروا حفرة لي".

بعد ما قاله أفاناسييف عن فيليب، تجنّب أرتيوم االرجل القصير بشكل لا إرادي. كان يشعر بالغثيان من كلامه، وكأنّه ممسوح بزيت السراج.

عندما وصلوا إلى المكان، دار مويسي سولومونوفيتش ثلاث دورات حول أرومته- هل يدعونه يغنّي اليوم أيضاً. لكن لم يعط أحد أيّ إشارة حول ذلك.

كان مظهر مويسي سولومونوفيتش بكامله يقول: "آه، يا للأسف، يا للأسف، آه ".

بعد حفل أمس، أصبح أرتيوم ينظر باهتمام إلى مويسي سولومونوفيتش: على ما يبدو، أنّه كان شخصاً جذاباً.

دخل أرتيوم إلى الماء دون انتظار أن يحثّه رئيس المجموعة. لفّ قميصه حول رأسه، ولطّخ كتفيه بطين الشاطئ.

سأل الوثيقة: أيّها المواطن رئيس المجموعة، هل اليوم مئة أيضاً؟ أليست المهمّة ضخمة؟ - وركض على الفور إلى الماء بسرعة، مثل حصان على قدمين.

لم يتكاسل رئيس المجموعة سوروكين، ورمى الوثيقة بالعصا.

أمره رئيس المجموعة: "أعد لي المزّاح[1]، يا بن آوى". كانوا يطلقون على العصا اسم المزّاح أيضاً.

---

(١) المزّاح: عصا. [المترجم].

أجاب: الوثيقة، وهو يوحي بأنّه يبحث باهتمام عنها: "لقد غرقت، أيّها المواطن رئيس المجموعة".

"غرقت، سأعاقبك كما ينبغي، إنّها مصنوعة من الخشب مثلك! ابحث!".

لاحظ أرتيوم أنّ لديه شعوراً غريباً: أنّه يرغب في أن يواصل رئيس المجموعة الضغط على الوثيقة حتّى النهاية، ويجعله يجلب العصا، ويعاقبه مرتين بنفس العصا.

لكنّ الوثيقة الماكر لم يجلب العصا، رغم صراخ سوروكين.

بعد الصراخ، ذهب رئيس المجموعة للتدخين مع الحارسين. ثمّ ذهب الثلاثة إلى مكان ما: ربّما، من أجل الثمار. وهو ذاهب، صرخ سوروكين، أصبحت المهمّة اليوم جمع ونقل مئة وخمسين جذعاً- جرى إضافة خمسين من أجل العصا.

حسب لاجيتشنيكوف، وهو ينظر إلى القناة واضعاً يده فوق حاجبيه: "يوجد هنا، ما يكفي للعمل أسبوعاً آخر، حتّى لو كانت المهمّة نقل مئتين، في اليوم".

شتم أفاناسييف، دون الكثير من التحدي:" اللعنة عليك يا وثيقة، قليل إغراقك ".

فوجئ أرتيوم مرّة أخرى: كيف سمح أفاناسييف لنفسه، أن يتحدّث بهذه النبرة مع الجاني. علاوة على ذلك، أجابه الوثيقة بلطف.

"اذهب إلى الجحيم يا أفاناس. أجلب أنت له العصا بأسنانك. كما فعل صديقك أمس".

على الرغم من أنّ أرتيوم، كان يقف في الماء، شعر أنّ أحداً ما سكب في أحشائه شيئاً ساخناً ولزجاً ومخزياً. ولكن لم يتْرك له مجال آخر.

صرخ أرتيوم، وزادته قوّة صوته إثارة ودعماً: "أيّها الجاني! خيّط فمك!".

تخلّص أرتيوم من الجذوع وتوجّه نحو الوثيقة، محاولاً القيام بذلك في أسرع وقت ممكن.

ضحك أفاناسييف بصدق: "ماذا يجري لكما، يكفي؟".

دعا الوثيقة أرتيوم إليه، الذي بالأصل لم يكن يبعد عنه خطوتين:"أنت أيّها التافه تعال إليّ"، وبحركة سريعة وجّه أرتيوم فجأة ضربة قويّة رائعة مستقيمة بيده اليمنى إلى جبهة الوثيقة، أصابته بدقّة، بحيث إنّ رأسه في البداية، ترنّح إلى الوراء، معرضاً فقرات الرقبة للكسر، ثمّ ترنّح إلى الوراء بحدّة، وبعد ذلك سقط إلى الأمام بجسده بالكامل - لحسن الحظ على الجذع، وإلّا لكان اختفى تحت الماء.

هرع اثنان آخران من الجناة لمساعدة الوثيقة، لكنّ أفاناسييف تدخّل في هذه اللحظة:

"هذا النقاش يخصّهما! حديث بينهما، اثنان يتفاهمان - ليقف البقية!".

جرى رفع الوثيقة من فوق الجذع، أدار عينيه ولم يستطع التحدّث لبعض الوقت، كان يغمغم فقط.

كان المساجين يعملون بصمت. كان لاجيتشنيكوف عابساً. أمّا سيفتسيف فكان دائم التنشّق من أنفه. كان الصيني كالعادة منطوياً حول نفسه بعمق. كان مويسي سولومونوفيتش ، يختار دائماً مكاناً بعيداً عن أيّ خطر. وكان فيليب، يركض وهو يئنّ ويغمغم، بالقرب من الماء، كما لو أنّ سمكة كبيرة على وشك أن تقفز مباشرة إلى يديه.

كان أرتيوم يرتجف كلّه ويبتهج من الداخل في الوقت نفسه.

بعد أن بصق، عاد ليساعد بسحب الجذوع أفاناسييف الذي كان مبتهجاً ومتفاجئاً، ولكن في حيرة أيضاً، في الوقت نفسه.

راح أرتيوم يعض على شفتيه، ويحاول ألّا ينظر كثيراً إلى الوثيقة، لكنّه كان ما يزال يستمع متأهباً، ليرى ما إذا كان سيتواقح الوثيقة من جديد.

من وقت لآخر، كان على أرتيوم أن يتشاجر. لم يكن لديه ميل إلى ذلك، لكنّه كان يعرف كيف يقاتل جيداً: كان عليه فقط أن يتخلّص من طبيعته الفطرية عدم الرغبة في ضرب شخص على وجهه المكشوف والأعزل- ثمّ بعد ذلك كان يجري كلّ شيء من تلقاء نفسه.

بعد أن سحب الجناة الوثيقة إلى الشاطئ، حاموا حوله، وأبدوا استعدادهم للمساعدة... يبدو أنّ أحدهم صرخ عليهم، فذهبوا من جديد إلى الماء.

قال أفاناسييف وهو لا يزال مبتسماً: "ليس سيئاً، ليس سيئاً".

أجبر الغرور اللطيف أرتيوم على إظهار رباطة جأشه. وكان الصمت هو الأنسب في هذه الحالة.

اقترح أرتيوم ، بعد بضع دقائق على أفاناسييف: " أن يقرأ شعراً".

فكّر أفاناسييف، كما لو كان يقرّر هل يجيب بشكل جدي أم لا، ثمّ أجاب بجدية شديدة:

"لم أكتب الشعر هنا بعد، أمّا القديم الذي كتبته سابقاً فغير محسوب. ولا أريد أن أقرأ أشعار الغير. سأعيش هنا دون شعرٍ، كما بلا امرأة. ثمّ ستكون المحاولة من جديد ألذ ".

غيّر الموضوع مباشرةً:

لماذا يا تيوما تختار أثقل جذوع الأشجار، لا أفهم. لديك الكثير من القوّة لقد شاهدت هذا. حسناً حافظ عليها. اختر الجذوع الرقيقة والضعيفة. يجب اختيار الفتيات الأكثر ليونة، أمّا هذه... فلماذا...؟

عاد رئيس المجموعة دون أن يلاحظه أحد، ربّما لاحظ من بعيد أنّ الوثيقة يتسكّع، فركض، وهو يقفز تقريباً من طرف الغابة. كانت عصا جديدة في يده.

بالتأكيد، كان يوماً عصيباً للوثيقة، بينما كان يركض نحو الماء، ناله ما يقرب العشر ضربات على ظهره.

عمل الوثيقة بعد ذلك، كما لو كان في نصف إغماءة، وتقيأ فجأة قبل الغداء بقليل، في الماء. تدلّى خيط من اللعاب على شفته المتدلية، حتّى قام بمسحه، ناظراً حوله بعينين غائمتين.

طفا كلّ هذا السائل المخاطي من الخبز والعصيدة غير المهضومة الذي تقيأه الوثيقة، لبعض الوقت على سطح الماء.

أدرك أرتيوم، في لحظة ما، أنّه لم يتبق حتّى القليل من الفخر من نصره القصير والواضح - ليس لأنّ الوثيقة كان لا يكاد يتحرّك، وهو نعس وذابل، بل لأنّه تبيّن، أنّ اليوم أكثر صعوبة من يوم أمس.

أصبحت الجذوع، كما لو أنّها أثقل خلال الليل، وأصبحت الريح أكثر إلحاحاً، ولم يختف البعوض رغم الريح.

شتم أفاناسييف البعوض: "بما أنّكم تطيرون أسراباً، ذهاباً وإياباً، جرّوا الجذوع إلى المنشرة".

بشكل عام، كان أرتيوم يعجب بأفاناسييف أكثر وأكثر- كان يمكن أن يفكّر بذلك بجدية أكثر، لو لم تكن النجوم المتعدّدة الألوان تتراقص في عينيه.

سمعت من مكان ما بعيد، زمجرة رئيس المجموعة سوروكين - عاقب فيليبوك المسلّي مرّة أخرى، لافتقاره إلى القوّة والإرادة للعمل.

عرض فيليب نفسه اليوم أن يقوم بالصراخ أنا كسول، على الرغم من أنّه أعترف أنه فقد صوته تماماً.

توجّه رئيس المجموعة إلى الحارسين: "هل سمعتما؟ يريد أن يصرخ أنا كسول مرّة أخرى، ولا يريد العمل!".

ضحك الحارسان على فيليب مرّة أخرى، قاما بطرح فيليب على الأرض، ولقناه درساً بالعصا، وهو يصرخ ويحاول الزحف دون جدوى.

لم يخطر ببال أرتيوم اليوم أن يدافع عنه. لم يفهم ما فعله أمس على الإطلاق، ولم يكن قادراً على شرحه ، حتّى إذا أراد ذلك كثيراً.

بدأت لديه حالة من الضبابية.

كرّر أرتيوم ببطء وهو يرمش عينيه بكثرة: "تسبح النجوم أمام عيّني، إنّها تسبح، إنّها تسبح، وماذا لو جرى اصطيادها، وماذا لو جرى اصطيادها وطهيها".

وتخيّل الحساء - مذهّب وعبق، ينضح بالروح الأكثر رقّة.

بدأت شيئاً فشيئاً، تسقط قطرات من المطر مباشرة في الحساء، وبعد ذلك، كما لو أنّ شيئاً قد انفجر، سقطت أمطار غزيرة تصم الآذان، وظهرت فقاعات صاخبة ومزدحمة.

كان يضرب على الدماغ، إلى درجة إنّه ظهر طنين وقرقرة في الرأس.

شعر أرتيوم بقشعريرة، جعلت يديه متصلبتين، وحركته غير متوازنة، وأصابعه خشبية.

اتضح أن دخول الماء أفضل من البقاء على الأرض، ودخل الجميع، باستثناء فيليب، إلى القناة، ووقفوا هناك بين الفقاعات، في حمّى وقعقعة المطر.

ركض رئيس المجموعة والحارسان على الفور، إلى أقرب الأشجار وانتظروا هناك وهم يدخنون.

سار فيليب، وهو يقول شيئاً ما، ذهاباً وإياباً على الشاطئ، كما لو كان يبحث وسط المطر عن مكان، حيث لا يسقط مطر.

هطل المطر لعشر دقائق وطرد البعوض.

لكن ما إن توقف رذاذ ما بعد المطر، حتّى بدأ البعوض في العودة واحداً تلو الآخر، وهو يطنّ باحتدام.

حلم أرتيوم: "لو أنّ المطر هطل كما النار شديد الحرارة".

السير في الطريق إلى المنشرة والعودة منها لم يعد يجلب الدفء. لكن كعبيه كانا لا يكادان يشعران بالألم، وكان أرتيوم يدوس على الحجارة وعلى الفروع والنتوءات مع بعض الغضب.

كان فيليب يعمل الآن بشكل مزدوج مع لاجيتشنيكوف قصير القامة ولكن أعرض منه بثلاثة أضعاف.

عندما حلّ المساء، صمت فيليبوك الذي كان يهمس باستمرار بشيء ما فجأة، وتصرّف لبضع دقائق بتيقّظ وغرابة.

عندما كان أرتيوم وأفاناسييف، يسحبان، وهما يئنّان ويصيحان، جذعاً آخر أثقل من البقيّة من الماء - قام فيليب فجأة بشكل مخادع أمام نظر أرتيوم - من الواضح أنّه عن قصد - بإفلات يديه. حاول لاجيتشنيكوف الحفاظ على توازن الجزع - لكن كان من المستحيل ذلك. سقطت نهاية الجزع بقوّة على ساق فيليب مباشرة.

خرجت من أرتيوم صيحة: "إيه! ماذا تفعل؟".

صرخ فيليب: "أخ! أخ!" - كان يريد أن يصرخ الكلمة ألتي فكّر بها مسبقاً أيضاً:"أوقعته!"، لكنّ الألم، على ما يبدو، كان حقيقياً، لدرجة أنّه استطاع أن يلفظ ـ " وق! وق! وقع!..".

ألقى أفاناسييف وأرتيوم الطرف الذي يحملانه أيضاً، ووقفا دون أن يتحركا.

فقط لاجيتشنيكوف الذي لم يفهم شيئاً ممّا جرى، قال وهو يحاول فحص مكان الإصابة على ساق فيليب دون جدوى:

"هل كسرتها؟".

أمسك رئيس المجموعة الذي ظهر، دون أن يفكر نهائيا، بفيليب من شعره وسحبه - ليس إلى مكان ما، أم لغرض محدّد، ولكن ببساطة، بسبب الغضب - وأخذ يلفه حوله بشكل دائري، حتّى قبعت خصلة الشعر المجعدة، وبقي قابضاً عليها في يده.

صاح سوروكين بأعلى صوته: "عاهر، ابن آوى!، من كنت تريد أن تخدع؟ لدي الحق شخصياً، في خنق مثل هؤلاء العواهر! يستحق القتل كلّ من يحاول أن يؤذي نفسه، حتّى يتهرب من العمل! سوف تموت الآن!".

ذهب أرتيوم، دون إرادة وهو يصمّ أذنيه، إلى المكان الذي أشعل فيه الحارسان النار للتو، التي لم تكد تشتعل.

كان متأكداً تماماً من أنّ فيليب سينتهي الآن.

تنهّد مويسي سولومونوفيتش بصوت عالٍ. لسبب ما بدا لأرتيوم إنّه يصلي.

بعد أن أنهى رئيس المجموعة تسليته مع فيليب وتركه على الأرض، ذهب إلى حيث تشتعل النار أيضاً - ألقى بخصلة الشعر في النار التي كان ما يزال ممسكاً بها بيده، وأمر: " حسناً، عليكم اللعنة، اذهبوا جميعاً إلى الماء!".

صرخ فيليب من جديد بصوت مخنوق، كما لو أنّ هذا الصوت لا يجد طريقاً للخروج من حلقه المجروح: "لا تقتلني!".

دعا سوروكين، الذي فكّر بشيء ما، إليه الجناة - وسرعان ما دحرجوا من مكان ما أرومة ثخينة تزن ٢٥كغ.

بعد أن جفّف سوروكين الأرومة على النار، بدأ يلفظ بصوت مسموع ما يكتبه عليها بقلم رصاص:

"حامل هذا الكتاب، الكسول ابن الطفيلي الذي أذى نفسه، يُرْسَل ليضمّد ساقه. أطلب منكم إرجاعه بعد الضماد، لنقل الجذوع وإنهاء المهمّة المكلّف بها".

ضحك الحارسان بصوت عال، مع أنّه كان لدى أرتيوم شعور قوي، بأنّ كلّ هذا حدث من قبل، ويتكرّر الآن، ولكن بصوت أعلى وبإلحاح أشد.

صاح سوروكين، بعد أن أنهى عمله: "انهض، ابن آوى!. هل تعتقد أنّك لا تستطيع أن تعمل بساق واحدة؟ تستطيع! تستطيع حتّى دون ساقين، يا صاحب الفم الوسخ !".

تكلّم فيليب بصوت أجش مع صفير: "ما جرى لم يكن مقصوداً!".

اقترح سوروكين بجدية كاملة، وهو يضغط بشدّة على عصا قوية: "إمّا أن أضربك على رأسك بالعصا، وألقي بك في القناة - أم تقوم وتذهب وتحمل معك الرسالة إلى الدير!".

رأى أرتيوم بوضوح تام شخصاً مستعداً للقتل حتّى أنّه يريد ذلك. نهض فيليب.

حمل في البداية، الأرومة على بطنه ثلاث خطوات- وأسقطها... وضعها على ظهره ومشى لدقيقة، يخطو خطوة واسعة بساقه السليمة وخطوات خاطفة صغيرة على ساقه المصابة، وهو يبكي بشكل حقيقي في نفس الوقت... سرعان ما سقط... وبعد ذلك دحرج الأرومة أمامه.

لم يتطلّع أرتيوم نحوه، وكان يسمع تنهداته وشكواه. كان فيليب أحياناً يصرخ كما لو كانت تخترقه إبرة حامية جداً، ربّما عندما كان يدوس بطريقة غير مناسبة على ساقه المصابة.

أنهوا المهمّة بوقت متأخر عن يوم أمس: اتفق رئيس المجموعة مرّة أخرى مع الحارسين. كان يسعى للحصول على الإفراج المبكّر المشروط النذل.

قال أفاناسييف لأرتيوم عندما سحبوا آخر جذع، وهم عائدون بلا حول ولا قوّة من المنشرة إلى الموقد الذي كان يومض: "قرّرت شراء سوط، وأنا أعرف كيف ذلك".

رافقهم مطر منتصف الليل إلى الدير. كانوا يمشون على الوحل الذي كانت تغوص فيه أقدامهم حتّى الكاحل.

عند رؤية فوانيس الدير العكرة، شعر أرتيوم أنّ الذي يدقّ على مؤخرة رأسه وكتفيه لم يكن المطر... وإنّما هو كان يسحب المطر وراءه، مثل شبكة ضخمة ملأى بالأسماك المثلجة بالكامل، التي كانت ترتعش.

شنق سجين نفسه من فصيلتهم ضمن السريّة في عتمة الليل.

جرى إيقاظ الجميع بداية الساعة الخامسة، بمجرّد أن اكتشف المناوب الميّت.

استيقظ أرتيوم، كما لو كسروا نومه مثلما يكسر العظم بفرقعة، وحدث كسر مفتوح في جمجمته التي كانت تطقطق من الألم.

... كان قادة السرايا قلقين: ربّما جريمة قتل. لكن المساجين فهموا على وجه اليقين، بأنّ الأمر ليس كذلك.

- لقد كان، الشخص محطّماً، غير مثير للاهتمام لأيّ شخص، لقد كان في السجن للعام الرابع، ومحكوم لخمس سنوات، أمضى مؤخراً عشرة أيام في زنزانة عقابية، وهذا ما أوصله إلى هذه النتيجة.

ضرب كوتشيرافا الذي استيقظ من نومه المناوب بالعصا مرتين لأنّه لم ينتبه. فتح الشيشاني عينيه الغاضبتين، لكن عيني كوتشيرافا كانتا أكثر غضباً.

كان الرجل الميّت معلقاً في الزاوية البعيدة، تحايل بشنق نفسه من حافة االمضجع، وربط الخناق بقضبان الطبقة الثالثة. وصنع حبل المشنقة من القميص، ممزقاً إيّاه إلى قطع طويلة.

لم يسمع أحدٌ أيّ شيء. وبقي السجين على الطبقة الأولى نائماً ورأسه بالقرب من أقدام المشنوق الجليدية، حتّى تلّقى ضربة بالعصا من كوتشيرافا.

لقد لعن الجميع الرجل الميّت، بشكل رهيب، لأنّه قطع نومهم.

أمر المناوبون بإنزال الجثّة- أطاع المناوب الذي جرى ضربه لأنّه لم يلحظ ما جرى، وتسلّق وقطع الأنشوطة، لكنّ اللذين تلقيا الجثة في الأسفل هما أنفسهما المحطمان اللذان أخرجا حوض البراز. كان أثنان آخران من الشيشان يأمران ويصرخان.

جرى إخراج الجثّة ووضعها في الخارج عند المدخل.

جاء كلب أحد السجناء، يدعى بليك راكضاً، وشمّ الجثّة، وجلس بجانبها. كان يعيش في الفناء أيل أيضاً يدعى ميشكا - لكنّه ظلّ اليوم بعيداً، على الرغم من أنّه في الصباح، وبمجرد ظهور السجناء، يسارع إليهم على الفور: لقد كان يحدث أن يطعمه أحد ما خبزاً وحتّى سكّراً- لم يكن جميع النزلاء محتاجين. ثمّ إنّه كان يجد أولئك الذين كانوا يطعمونه سكراً بسهولة في أيّ زحام.

نهض أرتيوم، وكأنّه مخمور تقريباً، ولم يتذكّر حتّى عشر ما حدث أمس، وأدرك ببطء شديد ما حدث اليوم.

كان يتجوّل بلا هدف في غرفة الطعام السابقة، وجاهزٌ للنوم وهو واقف، وعلى الغالب أنّه نائم بالفعل.

خرج إلى الشارع، وفي الطريق لاحظ أنّ الوثيقة يتقيأ مرّة أخرى، ولم يفكّر في أيّ شيء بهذا الخصوص.

صرخت النوارس بعصبية شديدة ، فوق الجثّة، كما لو أنّها رأت روحاً صاعدة، وهي لم تعجبها- أرادت أن تنقرها، مثل شيء غريب، أجذم، زائد في هذه السماء.

عندما بدأ أحد النوارس بالنزول، ويبدو من أجل أن يحطّ على الجثّة مباشرة، نبح بليك فجأة بشراسة غير طبيعية. اندفع النورس نحو الأعلى، لكنّه حمل ضغينة. بعد دقيقة، حلّق عدد من النوارس فوق بليك، محاولين الطيران فوق رأسه مباشرة - جلس بليك دون تبرّم، كما لو كان بإمكانه الإقلاع في أيّ لحظة وتمزيق أيّ كائن في الهواء، إلّا أنّه كان يتتبعهم بأنفه أحياناً.

بصق أرتيوم لعاباً حامضاً عند قدميه، وعاد إلى قاعة الطعام السابقة، وصعد عائداً إلى مكانه. كان يشعر بالكآبة، والبرد، والغثيان.

لم تكن ملابس أرتيوم قد جفّت بعد. على ما يبدو، لم يستطع جسده توفير الحرارة اللازمة في أثناء الليل. على العكس من ذلك، فقد تبلّل المعطف، وليس من الواضح لماذا أصبح القماش الداخلي في المعطف لزجاً بعض الشيء.

اقترب بورتسيف.

قال لأرتيوم: "لم يصدر أمر بالنوم".

فتح أرتيوم عينيه، ونظر إليه، وأراد أن يبتسم بتوسل، لكنّه لم يكن لديه ما يكفي من القوة، وفكّر وهو يغفو: "حرس أبيض حقير..." - وأغمض عينيه: ربّما سيختفي بورتسيف.

وغفا.

بقي لوقت الاستيقاظ ربع ساعة على أيّ حال- لكن هذا الربع ساعة في حالة استراحة يعني الكثير. لو سمح بسبع أو عشر ساعات أخرى، لكان الأمر جيداً تماماً.

الفكرة الأولى التي خطرت على باله: هل اختفى بورتسيف حقاً؟ من المثير للاهتمام، هل زعل، أم لا؟.

والفكرة الثانية التي خطرت له: هل كان هناك جثّة حقاً، أم كانت حلماً؟ ربّما كان بورتسيف رأى حلماً أيضاً؟.

ظلّت الجثّة ممددة في مكانها. وظلّ الكلب بليك يحرس الميّت. كانت النوارس تتنقل في مكان قريب، وهي تنظر بارتياب في عين الإنسان التي لا تتحرّك، وإلى اللسان الذي يغيظها.

سأل أفاناسييف أرتيوم بعد الإفطار:"هل تتذكّر ما قلته البارحة؟ شراء سوط - يعني "الهروب".

لم يجب أرتيوم بشيء، وحتّى إنّه لم يهزّ رأسه.

كانا جالسين على مضجعه، وفي أيديهما ماء مغليٌّ. كانت الساعة السابعة صباحاً فقط. كشط أرتيوم بلا خجل الطين الذي علق أمس عن كاحليه. لم يهتم أفاناسييف.

وضع منذ دقيقة، قبل أن يتسلق للأعلى إلى مضجعه، حبّة سكاكر في يد المشرّد الممدودة، والذي يعيش تحت المضاجع. راقب الرفيقان الآن من الطبقة الثانية كيف ظهرت اليد من جديد. بدا لبعض الوقت الكف المفتوح المتسخ، وكأنّه يبحث عن شيء ما- يحاولون بهذه الحركة في العادة ، تحديد ما إذا كان يهطل المطر أم لا. لم تسقط حبّة سكاكر أخرى. اختفت اليد.

ظلّا صامتين لبعض الوقت، معكّري المزاج بهدوء من قلّة النوم.

قال أرتيوم وهو يهزّ جسده لينتعش: "لا يهربون من هنا".

أجاب أفاناسييف بحزم وبطريقة صبيانية: "إنّهم يهربون"، وهو يشد على حرف " ر" في منتصف الكلمة.

بقيا جالسين.

لم يرغب أرتيوم حتّى في التفكير في أيّ هروب.

" كأنّه كان لديك ميل أخر للتأقلم مع الحياة هنا"- قال أرتيوم، وهو لا يكاد يتحكّم في لسانه، ويلفظ الكلمات بصعوبة.

همس أفاناسييف: "أنت أحمق يا تيوما؟ - حقيقة أنّني أستطيع العيش هنا، هذا لا يعني أنّني سأعيش هنا... علاوة على ذلك، إذا بقيت في السريّة الثانية عشرة، يمكن أن يميتوني هنا. ممكن أن يميتوني في الشتاء ببساطة.

"أريد المزيد من الماء المغلي" - قال أرتيوم ، وهو ينزلق عن المضجع كما لو أنّه جرى مضغه طوال الليل وبصقه قبل أن ينتهي مضغه.

عندما وضع علبة القصدير على مضجعه، لاحظ أنّ يده كانت ترتجف من الإجهاد- كيف سيرفع الجذوع الآن، إذا كان لا يكاد يستطيع حمل علبة فارغة.

كان يجب أخذ الملابس إلى غرفة التجفيف أيضاً- كان لديه سروال احتياطي وسترة. ارتدى ملابس جافة، وبغض النظر عن أن الوقت صيف، ارتدى معطفه.

قال أفاناسييف: "أنا ذاهب معك".

كانت غرفة التجفيف في الجزء الشرقي من المبنى. كانت تخدم الإداريين بشكل أساسي، لكن في بعض الأحيان، كانوا يتصدقون على العمال، الذين هم سجناء أيضاً، ويقبلون ملابس السجناء العاديين.

مرّا بالقرب من الرجل المشنوق، دون أن ينظرا إليه في أثناء حديثهما. لم يكد لسان الميّت الذي لاحظه أرتيوم بطرف عينه، يحرّك إنسانية أرتيوم، ولم يشعر به تقريباً.

لو أنّ أرتيوم فكّر في الأمر، لكان قرّر على هذا النحو التالي: هذا المستلقي ليس إنساناً، لأنّ الإنسان، هو الذي يسير على الأرض، مثله هو، يرى ويسمع ويتحدّث - أمّا المستلقي فهو شيء آخر، لا يمكن أن يكون هناك تعاطف معه.

ظلّ أفاناسييف يخيف أرتيوم من الشتاء القادم:

"... أجبروه بسبب عدم إنهاء المهمّة، على خلع ملابسه وتركوه يقف في البرد القارص... تجمّد من البرد. " أنا لست كسوولاً " حتّى أصيح. وبقي مستلقياً جثّة هامدة متجمّدة خلف المرحاض حتّى فصل الربيع، حتّى بدأ يذوب...".

تذكّر أرتيوم فجأة، كلمات فاسيلي بيتروفيتش، أنّ المخبرين فقط يجري تعيينهم مناوبين. إنّه كان يتحدّث عن أفاناسييف!.

قاطع أرتيوم أفاناسييف: " لماذا أنت تحدّثني عن ذلك؟".

التقاهم عنصر أمن عابس، خرج من غرفة التجفيف، ولم يجب أفاناسييف.

كان يقف في غرفة التجفيف سبعة أشخاص مساكين ملابسهم رطبة- وكان عدد منهم عراة حتّى الخصر: لم يكن لديهم ملابس بديلة لارتدائها.

صاح موظف استقبال ذو ملامح وقحة: " إلى أين أتيت بخرقك، اذهب وجففها تحت مؤخرتك!".

أصبح كلّ شيء واضحاً على الفور.

قال أفاناسييف في الشارع: "الإنسان عدو الإنسان".

ضرب بورتسيف الصيني في السريّة.

كان الصيني مستلقياً على مضجعه، وكان لا يريد أم لا يستطيع النهوض للذهاب إلى العمل.

سحبه بورتسيف من ياقته.

لم يستطع الصيني الوقوف على قدميه، وعندها تركه بورتسيف، ولكن في اللحظة نفسها، انحنى فوقه وأخذ يهزه بعنف من صدره، وهو يصرخ بصوت حاد مزعج، غير مألوف لأرتيوم:

"انهض! انهض! انهض!".

هذه الكلمة "انهض!"، بدت كأنّها صوت عنيف لصفق غطاء بيانو بقوة مراراً وتكراراً.

فكّر أرتيوم بخمول: "هكذا إذاً... " – بشكل عام هو ليس أكثر من رئيس قسم فقط. ويفعل هكذا. هل يستطيع أن يفعل الشيء نفسه معي؟".

ظهر فاسيلي بيتروفيتش من مكان ما، منفوش كلّه مثل دجاجة، إمّا من الرعب وإمّا من الدهشة.

كان يردّد باستمرار: " مستيسلاف!- مستيسلاف!".

"من هو مستيسلاف؟"- لم يفهم أرتيوم بأيّ شكل من الأشكال: لسبب ما لم يسمع أيّ شخص ينادي بورتسيف بالاسم.

استقام بورتسيف، ومشى باتجاه الباب، دون أن ينظر إلى فاسيلي بيتروفيتش: " أصدروا أمراً بالاصطفاف من أجل التفقد".

مسح بورتسيف في الطريق كفيه إحداهما بالأخرى. كما لو أنّه قد غسل يديه للتو. ساعد فاسيلي بيتروفيتش الصيني على الوقوف.

تمتم أفاناسييف، منفعلاً كالمعتاد، بينما كانت السريّة تستعد للاصطفاف: " تيوم، ألا يبدو ذلك غريباً بالنسبة لك، الشيطان يعلم أين تقع الصين، هناك يسير الصينيون، يعيشون حياتهم مثل النمل، وهناك يوجد أقارب لهذا الصيني... ما اسمه؟.. أقارب يتحدثون باللغة الصينية، ويأكلون الأرز، وينظرون إلى الشمس الصينية- إمّا ابنهم، وإمّا حفيدهم، وإمّا زوج، فموجود فيما يسمّى سولوفكي ويضربه رئيس القسم بورتسيف؟

لقد فهم أرتيوم عمّا يتحدّث أفاناسييف، لكن كلّ هذه المواضيع التي لا تخصّه، لم تكن لتثير مشاعره، لكنّ بورتسيف أدهشه. كان يسير ذهاباً وإياباً، ويراقب كيف يصطف مساجين قسمه. كان مظهر بورتسيف شديد التركيز.

أحضر فاسيلي بيتروفيتش الصيني معه، وبدا بورتسيف كأنّ الأمر لا يعنيه، كما لو أنّ شيئاً ما قد حدث، وكان من المفترض أن يحدث.

مارّاً بجانب أرتيوم، توقّف بورتسيف، وزرّ عينيه، وقال:

"أوه، لقد تغيّرت كثيراً. أصبحت رجلاً.

حاول أرتيوم أن يبتسم، لكنّه أدرك بوضوح أنّ بورتسيف كان يسخر من وجهه المتورم والمحموم، الذي يؤلمه، إذ كاد البعوض يأكله تقريباً، في غضون يومين.

فكّر أرتيوم: " لعين متعالٍ، هل يجب ضربه على جبهته أيضاً؟ هل سينتهي ذلك في وقت ما أم لا... ".

خمّن أرتيوم بعد لحظة: " هو ينتقم منّي لأنّني لم أنهض من الفراش في الصباح".

لم يكن هناك أمل في أيّ فرح بعد ذلك، لكنّ القدر لعب دوره: جرى إعفاء أرتيوم وأفاناسييف من نقل الجذوع، وأرسلوهما، في الواقع ليس من المعروف بعد إلى أين.

فكّر أرتيوم: "من أشكر؟ - هل الحظ ؟ أين هو - حظي؟.. أم فاسيلي بيتروفيتش؟.

لكن يبدو أنّ لا علاقة لفاسيلي بيتروفيتش بالأمر.

حاول أرتيوم ألّا ينظر إلى جبهة كرابين شديدة الانحدار والمسلوقة، حتّى لا يفسد أيّ شيء.

ربّما حصل ذلك بمحاولة من أفاناسييف؟.

لكن أفاناسييف لم يظْهر أيّ علامة، بل ضحك فقط، ونظر بمكر إلى أرتيوم:

" الشيء المهم لا إلى تنظيف المرحاض المركزي- كلّ شيء آخر مقبول".

في الطريق إلى السريّة، عندما أصبحت الحركة بطيئة نتيجة الزحام، دفع شخص ما أرتيوم بشكل مؤلم من الخلف، التفت إلى الوراء بسرعة. كان الجناة يمشون وراءه.

وقف الوثيقة على مسافة بعيدة عنه، كان يتطلّع بشكل زائغ، كما لو أنّ شيئاً ما قد جرى إخماده في رأسه. كانت لديه دوائر سوداء طبيعية تحت عينيه.

قال الجناة لأرتيوم: "حانت نهايتك أيّها الفزّاعة".

استدار أفاناسييف الذي كان يسير بجانبه على الفور، وهزّ غرته الحمراء المتسخة: "ماذا حدث أيّها الإخوة؟".

أجابوه: "لا تتدخل يا أفاناس".

استدار أرتيوم واتخذ خطوة إلى الأمام. يبدو أنّه، قد جرى وخزه، بمفاصل سلاميات الأصابع بعنف مرّة أخرى، تحت عظم الكتف. لم يعد ينظر إلى الوراء، بل على العكس من ذلك، حاول شق طريق له إلى الأمام بسرعة أكبر، ولكن لسوء الحظ، كان السجناء يتحركون مكانهم ببطء، كما لو كانوا تحت الماء.

صدر ضحك من خلفه، بعد أن قيل شيء مسيء وبغيض عنه.

بذل أرتيوم قصارى جهده حتّى لا يسمع، ولم يسمع. كان يرتجف ويداه في جيبيه، وقبضتاه مشدودتان.

كانت النوارس لا تزال تصرخ في الشارع- لم يكن هناك تفسير، لصنع الطبيعة ، بحيث إنّ طائراً صغيراً يستطيع إصدار مثل هذا الصوت المثير للاشمئزاز.

قال أفاناسييف بهدوء شديد: "لا تنفعل، سنجد حلاً".

كان الأمر كما لو أنّ أرتيوم قد جرى وخزه بإبرة دافئة تحت قلبه- كلّ كلمة طيبة تشفي، إنّها تدفئ الدم. لكنّه لم يظهر ذلك بالطبع، ولم يكن هناك أيّ أساس لتصديق ذلك. حسناً، على ما أعتقد أفاناسييف كان يلعب الورق مع المجرمين، ويخاطر بنفسه- لكن من أين له أن يجد حلًّا، وكيف؟.

قال أفاناسييف، وكأنّه كان يسمع أفكار صديقه: "كنت أن نفسي في شبابي، أمارس السرقة، يا تيوما- أنا أعرف كلّ اللصوص في بتروغراد. دعنا نحاول إيجاد الكلمات المناسبة. النقاش معهم - مثل كتابة الشعر: تقبض على القافية- تربح. أمّا الآن، فتحرّك بسرعة، لدينا مهمّة صنع مكانس.

ذهل أرتيوم: أيّ مكانس؟ كيف عرفت ذلك؟".

قال أفاناسييف: " لقد رتّبت الأمر، يا تيوما. يحتاج كرابين للمال أيضاً. سنحوك مكانس الحمام. لقد جاء الطلب من حمامات مدينة أرخانغيلسك. قبل أن يبدأ تساقط الورق".

سأل أرتيوم: " لماذا إذن كنت تتحدّث هناك عن المراحيض؟".

ضحك أفاناسييف، كما اهتزت غرّته الحمراء متناغمة مع الضحك: "كنت أخيفك. ولكن هنا الكثير من الأشخاص الذين يريدون إخافتك، طابور كامل، لذا...".

قال أرتيوم: "لست خائفاً"- على الرغم من أنّ ذلك لم يكن صحيحاً، على ما يبدو.

فجأة غيّر أفاناسييف لهجته: "لا، يا عزيزي، يجب أن تخاف منهم: عندما يكونون أكثر من واحد، لا يوجد أفظع منهم... لكن في بعض الأحيان يمكن التوصل إلى اتفاق معهم. والأهم من ذلك يا تيوما، لدينا مهمّة صنع المكانس اليوم! ودون حراس.

قفز أفاناسييف، وحاول أن يضرب النورس الذي كان يحوم فوق رأسهما، والذي اندفع إلى أعلى، وهو يصرخ بشيء هستيري غير معقول.

شتمه أفاناسييف، بينما كان يبتعد: "عاهر!"- وسأل أرتيوم بلهجة خطابية: "هل سمعت بماذا نعتني؟".

تجاوزتهما العربة التي تحمل جثّة المشنوق. جلست ذبابة سمينة على لسانه، لم يخفها الاهتزاز.

تذكّر أرتيوم فجأة، أنّه لم ير فيلبوك المسلّي منذ الصباح.

اتضح أنّ الصباح طويل جداً، وقد حان الوقت لكي ينتقل إلى النهار.

سأل ارتيوم وقد هدأ تماماً: "من كان يتحدّث معي؟".

قال لنفسه: "سأخرج منها ".

أجاب أفاناسييف: " الجاني شافربيكوف. إنّه ذبح زوجته، ووضعها قطعاً في سلّة، وأرسلها إلى عنوان وهمي في شيماخا"(١).

سأل أرتيوم: " والوثيقة من يكون؟".

أجاب أفاناسييف: " نشّال. لكنّه أيضاً أخاف إحدى الجدات، حتّى الموت".

سأل أرتيوم: "من أين جاء لقبه هذا؟".

أجاب أفاناسييف:"هل رأيت شفته؟ حسناً، إنّها مثل الوثيقة- إنّه يظهرها على الفور للجميع..."- هزّ أرتيوم رأسه:

"وأنت تتعامل مع هذه الحثالة؟".

تجهّم أفاناسيف بشكل ساخر:

أجاب أفاناسييف:"وهل يوجد آخرون هنا؟".

هزّ أرتيوم كتفيه: كان من الواضح أنّه يوجد.

---

(١) شيماخا: مدينة تقع على بعد ١٣٥ كم غرب باكو عاصمة دولة أذربيجان.

سأل أفاناسييف: "هل تعتقد أن يدي أيّ عنصر أمن سابق في السريّة التاسعة ملطخة بالدماء أقلّ منهم؟هناك لدى أيّ واحد دزينة من هذه السلال في ملفّه".

قال أرتيوم:"أنا لا أتحدّث عنهم".

سأل أفاناسييف: "عن من إذاً؟ انظر إلى بورتسيف- ماذا حدث له في يوم واحد! عينوه رئيس قسم! أمّا مستيسلاف فهو من النبلاء بالتأكيد. سيحصل على سوط قريباً، أراهن. هل تعتقد أنّ رجال الأمن عواهر، أمّا أعداء الثورة، فكلّهم أبرياء، كما يتحدثون جميعاً عن أنفسهم هنا؟ آها!".

قال أرتيوم بصوت منخفض: "أيادي أعداء الثورة ملطخة بدماء أخرى".

شيماخا هي مدينة تقع على بعد ١٣٥ كم غرب باكو

سأل أفاناسييف: "أي أخرى؟ نفس الشيء. في البداية سائلة، ثمّ تتخثّر".

كرّر أرتيوم بعناد: "أنت تفهم ما أعنيه".

تابع أفاناسييف بمرح، ولكن ليس دون مشاكسة: "أنا أيضاً، لا أحبّ صديقك فاسيلي بيتروفيتش، من النوع المتقلّب. هل تعرف كيف تعارفنا؟ كنت أسير حاملاً طرداً من والدتي، أمسك بي من كمي في الممر- هذا عندما كنت في سريّة الحجْر: قال هل تريد أن أحتفظ بالطرد؟".

صمت أرتيوم مؤقتاً وسأل:

"ماذا في ذلك؟".

قال أفاناسييف: "لماذا يجب عليّ أن أتقاسم معه الطرد ؟".

ردّ أرتيوم: " إذن عليك أن تتقاسمه مع الجناة".

أجاب أفاناسييف:"هو كذلك. كان سؤالك الأوّل: لماذا تصاحب هذه الحثالة؟".

زفر أرتيوم وقال بشكل سلمي:

"يكفي".

ضحك أفاناسييف، راضياً عن نفسه جداً.

قال أرتيوم بطريقة لطيفة تماماً، لا تخلو من الاعتراف، ببعض الاحترام: "أنت أفاناسييف ماجن، كان يمكنك أن تصبح شاعراً سوفييتياً رائعاً. غير مؤيد فحسب، وإنّما أكثر إخلاصاً".

وافق أفاناسييف بكلّ جديّة قائلاً: "كنت أستطيع. لكنّني لن أفعل. لديّ أوراق لعب بها يكفي للغش. وأنا لا أتاجر بقناعاتي.

سأل أرتيوم بعد دقيقة: " ألا تصدّق البلاشفة على الإطلاق؟".

ارتعش أفاناسيف قليلاً، حتّى إنّه أمسك غرته بقبضته: "أنا؟ لماذا؟ أصدّق بعض الشيء. لكن البلاشفة لا يصدقونني على الإطلاق!".

وقهقه من جديد.

قاما بتقطيع وكسر أغصان البلوط والبتولا، وربطا المكانس بالخيوط المتينة التي أعطيت لهما، وكانا يهويان بها على البعوض لإبعاده عن أنفسهما.

كان اليوم يوماً مشمساً يجفّف الرطوبة السابقة، واختارا مكاناً تلفحهما فيه الشمس، فكان الأمر جيّداً جداً، حتّى رائعاً. لم يريدا أن يفكرا على الإطلاق بمن كان يقشعر من البرد، ويضني قواه بنقل الجذوع اليوم.

سأل أرتيوم، قاصداً أوراق اللعب: "أين تلعبون؟ بسبب ذلك يمكن أن يرسلوكم إلى زنزانة العقاب".

قال أفاناسييف ساخراً: "إلى الزنزانة... وماذا في ذلك ؟ نلعب حيثما نستطيع - إنّها لعبة أقوى من الخوف، هي بدلاً من هذه الحياة العاهرة في سولوفكي، تطغى عليها... لا يزال هناك الكثير من الأماكن التي نلعب فيها: نلعب في تجاويف النوافذ... هناك سقيفتان صالحتان للسكن وغير مجروقتين بعد، وهناك مكان وراء الحطب... يلعبون في السريّة أحياناً، ألم تر؟ لكن يمْسكنا هؤلاء العواهر، ويضغطون علينا".

كان أفاناسييف ينظر حالماً إلى مكان ما بعيد، كما لو كان يوزع أوراق اللعب ذهنياً.

سأل أرتيوم: "هل أنت تلعب جيداً؟".

ضحك أفاناسيف: "ألعب؟ لا، هذا مختلف. هذه ليست لعبة - هذا، يا تيوما- غش. لا معنى للعب هناك، الخداع فقط هو المهم. كنت أريد في صغري، إظهار الحيل في السيرك، حدّ الجنون. لم أتعلم الحيل كما يجب، لكن مع أوراق اللعب يمكنني فعل شيء ما من هذا القبيل... أمّا اللعبة نفسها- فهي شيء آخر تماماً. الشيء الرئيس، إذا كنت تريد الفوز- هو أن يكون لديك أوراق اللعب الخاصّة بك أو في الحالات القصوى، أن يكون الورق لشخص ثالث. كلّ شيء متعلّق بأوراق اللعب: كيف تخلطه، سيجري اللعب لصالحك، يا تيوما".

صمت أرتيوم. ثمّ سأل: "من أين لكم أوراق اللعب؟".

تحدّث أفاناسييف بسرور واضح: "إنّ صنع تقويم القديسين، هو متعة خاصّة أيضاً" - فكّر أرتيوم بمرح:"... يا لهذا الشاعر".

"يذهب الجناة إلى المكتبة، ليواصلوا عملية إعادة التأهيل، حسب البرنامج المقرر، ويأخذون رواية سميكة... يقطعون الصفحات من الكتب، ويلصقون الورق بصمغ مصنوع من الخبز- يحصل هذا،عندما يضعون الخبز بالماء المغلي ويعصر، فالسائل المعصور يصبح دبقاً، وبعد ذلك، بطريقة الاستنسال، يرسمون بالصابون المخلوط بالحبر، أوراق اللعب" ويسمونها " تقويم القديسين" وأيضاً " المدقات". أنهى أفاناسييف بلهجة المعلم وسأل، وهو يرفع مكنسة : " من المؤسف لا يمكن الطيران على مكنسة مثل الساحرة بابا ياغا، أليس كذلك، يا تيوما؟"، كنّا جلسنا معاً الآن- ووداعاً أيّها الرفاق!".

أجاب أرتيوم: "بابا ياغا على المقشّة ".

لم يوافق أفاناسييف: " أيّة مقشّة؟ مكنسة!".

لقد صنعا بالفعل مئة وخمسين مكنسة، وكان يجب صنع خمسين مكنسة أخرى.

كان أفاناسييف يسلّي نفسه: "تعال لنصنع مقشّضة مع عصا، ربّما سنطير؟".

ذهب إلى الأغصان الكثيرة المكسورة، واختار الأطول، وربط منها مكنسة قبيحة، نصف طول الإنسان.

"أه؟" - ضحك أفاناسييف، وهو يحاول الجلوس عليها والجري، هكذا.

قال أرتيوم ضاحكاً: "لقد نفدت عندنا الحبال. لا يوجد شيء لربط المكانس به. إذا لم ننهي المهمّة، فسيعطوننا ثلاثمئة غرام من الخبز فقط، وقد نفدت من عندي بالفعل".

فكّر أفاناسييف على الفور، وقال: " إنّني أعرف بماذا سنصنع المكانس المتبقية، لقد رأيت سلكاً شائكاً ملقى هناك.

سأل أرتيوم، وهو ينظر برقة إلى رفيقه الجديد ذي الشعر الأحمر: "هل تعتقد أنّ ذلك ضروريّ؟".

أجاب أفاناسييف: "لماذا لا يجب؟ قالوا: نحتاج إلى مكانس- سيكون لديهم مكانس ثوريّة قويّة".

ذهب ليبحث عن الأسلاك الشائكة- وعاد وهو يجرّ وراءه ذيلاً طويلاً بإجهاد. بعد أن قطع السلك الشائك وهو ينفجر بالضحك، رابطاً أغصان البتولا المورقة به، وصنع "مكنسة سولوفكي".

صنع أرتيوم مكنسته مماثلة لتلك.

ألقى أفاناسييف بيتاً من الشعر، وهو يلوّح بمنتجه الجديد: "... مكنسة الفجر الملطخة بالدماء!.." - هل تعرف بيت الشعر هذا ؟ - "وتضرب مكنسة الفجر الملطخة بالدماء مؤخرتهم السمينة!" - "كما لو أنّ سيريوجا[1] نظر في الماء ورأى ذلك!".

---

(١) سيرغي يسينين: من أشهر الشعراء الروس في القرن العشرين (١٨٩٥-١٩٢٥). وهو أبرز شعراء الحركة التصورية. عرف بأنّه شاعر متدين وقد لاقى الكثير من التضييق بسبب تدينه في ظل الثورة.انتحر شنقاً.

اعترف أرتيوم، وهو غير مصدّق، ربّما كتبه أفاناسييف نفسه: " لا، أنا لا أعرف مثل هذا البيت من الشعر".

بعد أن ربط الفروع بالسلك الشائك، وأخفى بمهارة شوكة طويلة حادّة من الأسلاك الشائكة بين الأغصان العطرة، صنع أفاناسييف "مكنسة زنزانة العقاب".

صرخ أفاناسييف: " أه، كيف تجرف! إلى عمق الكبد!"- لقد جربها على نفسه وقد أعجب بها كثيراً.

لم يتوان أرتيوم.

بعد أن أخفيا مكانس سولوفكي والزنزانة داخل أعماق البقية العادية، واصل أفاناسييف وأرتيوم عملهما.

صنعا "مكنسة عنصر الأمن" باثنين من الأسلاك الشائكة. سميّت مكنسة بثلاثة عروق ذات قرون حادة، من قطع الأسلاك الشائكة، "ذكرى الرفيق دزيرجينسكي الذي غادر قبل الأوان".

انفجر أفاناسييف بالضحك، وهو يهز رأسه الأحمر، وأمسك بقبضته غرّته. كانت ضحكته حمراء إلى حدٍّ ما، ومنمشة، ومتناثرة أيضاً- " تخيّل، يا تيوما، تخيل فقط! جاء عنصر أمن قبيح إلى الحمام! يقول لعامل الحمام هيا، أغل الماء أكثر ليتصاعد المزيد من البخار! أحمى العامل الحمام ، بحيث امتلأ بالبخار، ولا يمكن رؤية أيّ شيء! ويصرخ عنصر الأمن من وسط البخار هيا، أفرك بمكنستين! وبدأ العامل يخفّ بهما ويضرب، وبدأ!.. وعنصر لأمن يصرخ! والعامل يحاول بكلّ عزيمته! عنصر الأمن يصرخ! والعامل يقوي! رجل الأمن يصرخ، وبدا كأنّه يحاول أن ينقلب على الجهة الأخرى! والعامل بقوّة أكثر! وأصبح أكثر غضباً! وبدأ بسرعة أكثر، وبقوّة أكثر! وهو يشدّ على المكانس.. صمت عنصر الأمن منذ فترة طويلة! والعامل يحاول ويحاول بكلّ عزيمته، وهدأ بالتدريج أيضاً... وبعد فترة تلاشى الدخان، يقف العامل ويرى: حوله كومة من الدم..

قطع من اللحم!.. بدلاً من رجل الأمن - ملفوف بلون الدم!.. أين العين، أين الخد!.. أين الظهر، أين المؤخرة!.. كما في دكان الجزار!.. وبقي في يدي العامل بدلاً من المكنسة، سيخان بأشواكهما معلّق بهما قطع من اللحم الممزق!.. وفي هذه اللحظة يدخل عنصر أمن آخر- تخيّل يا تيوم هذا المشهد! يدخل! عنصر أمن! آخر! وهو ينظر إلى كلّ ذلك بعيني طفل ضخمتين! لوحة "عامل الحمام وعنصر الأمن"، اللعنة! تشبه لوحة "لم يتوقعوا"! لو رآها الفنانون المتجولون لبكوا بأعلى أصواتهم!..".

كان أرتيوم يضحك بشدة، لدرجة أنّ رأسه بدأ يدور: وضع قبضته في فمه وعضّ عليها حتّى لا يصاب بالجنون من شدة الضحك.

صنعا معاً مكنسة " مؤخرة رجل الأمن القاسية " التي أخذت منهما وقتاً طويلاً. كانت ضخمة وسميكة- كان من الممكن إمساكها بيدين اثنتين فقط، ولم يكن من السهل رفعها أيضاً. كان فيها نحو عشرة أسلاك شائكة. بشكل عام، هذه المكنسة يمكن أن تسبب تشوهاً حقاً، والشيء الرئيس هو أن تهوي بها بشكل صحيح.

كان يطلق على اثنين من أغصان البتولا الضعيفة، المجدولة بسلك شائك واحد " تاج من أشواك أعداء الثورة".

كان الأمر مثيراً للضحك، لدرجة كان من الممكن ألّا يلاحظا رئيس المجموعة القادم.

بينما كان يقترب منهما بوجهه الرمادي الأزرق، تمكّنا من إخفاء إبداعاتهما قليلاً.

قدّم أفاناسييف تقريراً، وهو يحاول كبح الضحك بجهد لا يطاق، لدرجة بدا أنّه سينفجر كلّه:"كلّ شيء جاهز أيّها الرئيس!".

قال رئيس المجموعة بعد صمت: "يبدو هنا إنّ العدد أكثر".

أفاد أفاناسييف بصوت رنان غير عادي: "أكثر بكثير! عملنا بوتيرة عالية، كما لو كانت مهمّة قتالية!".

نظر أرتيوم جانباً، وجرت على وجهه أسعد دمعات في الأشهر الأخيرة.

اقترح أفاناسييف بصوت عالٍ، كما لو كان رئيس المجموعة يقف على الجانب الآخر من النهر: "خذ لنفسك مكنسة حمام!".

سأل رئيس المجموعة: "لماذا تصرخ؟".

خفض أفاناسييف عينيه، وعضّ شفته بشكل مؤلم. وأصبح النمش على وجهه ساطعاً كما لو كان مقلياً.

تفحّص رئيس المجموعة المكانس قليلاً، واختار ثلاثة منها، وشمّ كلّ واحدة منها، بشكل، كما لو كانت قطعة القماش التي يلف بها قدمه، أمامه: كان الاهتمام بالذات واللطف بالنفس ممزوجين هنا بالتساوي مع اشمئزاز ملحوظ قليلاً.

وصلت دفعة جديدة من السجناء إلى سولوفكي، نظر السجناء القدماء بمتعة إلى القادمين الجدد الذين يسيرون من رصيف الميناء. خوف الآخرين، منحهم الحرارة والسرور.

امتلأت سريّة الحجر الثالثة عشرة بالكامل. وبدأ منها نقل من أمضوا شهراً أم شهرين إلى سرايا أخرى. نقل أربعون شخصاً على الفور إلى السريّة الثانية عشرة.

عندما ظهر أفاناسييف وأرتيوم في السريّة، حام الجناة بفضول مثل الغربان، حول اثنين من القادمين الجدد الأكثر تميّزاً - كانا هذان هندوساً، كوريز شاه وكبير شاه.

كانا في الواقع، لا يكادان يمكنهما نطق أيّ شيء عدا اسميهما. لم يكن الأوّل يعرف اللغة الروسية على الإطلاق، أمّا الثاني فبدا أنّه يفهم، لكنّه فضّل الابتسام.

سأل الوثيقة، مرتدياً سترة فوق جسده العاري كالمعتاد: " ألا تعرف ولا كلمة واحدة بالروسية؟.

فكّر أرتيوم بنفور: "استفاق...".

بعد مضايقات مملّة بالنكات الغبية، اعترف كبير شاه الذي لم يتوقف عن الابتسام للجناة، بأنّهما سجنا بتهمة التجسس.

ضحك أفاناسييف، وهو يتسلّق إلى مضجعه: "ليس سيئاً، أليس كذلك؟ جاسوس، لكنّه لا يعرف اللغة الروسية. كيف كان يتجسّس؟ هل كان يعدّ، كم عدد الكلاب والخيول الموجودة في موسكو؟ لفهم إلى متى سيتحمّل سكان موسكو حدوث ثورة أخرى؟".

هزّ أرتيوم رأسه لنكات أفاناسييف.

أخذ كرابين الهندوسين من بين الجناة، وحدد مكانهما ليس بعيداً عن أرتيوم. وأشاروا إلى شاب صغير، ما زال يرتدي قبعة جامعية، إلى مكان قريب جداً من أرتيوم.

قال له كرابين: "ستعيش هنا".

نظر أرتيوم وساقاه متدليتان، إلى الشاب بابتسامة.

سأل الشاب في همس، بمجرّد أن استدار كرابين: "هل هو رئيس الفصيلة؟". أومأ أرتيوم برأسه.

مدّ الشاب يده وقدم نفسه: ميتيا شيلكاتشوف. كان كرابين يغادر، لكنّه استدار فجأة ونظر إلى أرتيوم.

فكّر أرتيوم، وهو يضغط فكّيه: "ماذا بعد؟".

تقدّم كرابين ثلاث خطوات بحزم، وأصبح جنبه بالضبط تقريباً- صدرت منه رائحة سمك مملح طفيفة- ارتبك أرتيوم، ولم يكن يعرف كيف عليه أن يتصرّف: هل يبق على المضجع، أم يقفز للأسفل.

قال كرابين بصوت منخفض: "اجلس"- وبعد انتظار، تحدّث ببطء وبصوت أبحّ:" أنت لست من النوع السيء، فلماذا تتصرّف بهذا الشكل؟ أنت لست نصاباً، ولست لصاً، ولست إباحياً. هل تريد أن تتحوّل بسرعة إلى محطّم؟أمامك شتاء كامل للتحوّل إلى ذلك".

أومأ أرتيوم برأسه، وهو لا يزال غير مدرك لماذا تحدّث كرابين بهذه الطريقة معه.

غادر كرابين، وظل أرتيوم جالساً، وأحياناً يتنشق من أنفه وهو يفكّر.

لم يستطع تصديق أن كرابين، كما يبدو، وحسب كلّ المؤشرات، لا يريد له الشرّ نهائياً. وإلّا لماذا قال له كل ذلك؟.

ناداه فاسيلي بيتروفيتش هامساً، وهو ينهض عن مضجعه: "عزيزي. بالمناسبة، لديّ شاي حقيقي. إذا كنت لن تصرخ على السريّة بأكملها بهذا الشأن، فيمكننا بالتأكيد الاستمتاع معاً".

تحرّك أفاناسييف في الأعلى، فقد أصبح واضحاً أنّه سمع ذلك. لكنّه بكلّ الأحوال لن يشرب مع فاسيلي بيتروفيتش، فكّر رتيوم.

قال فاسيلي بيتروفيتش عندما جلسوا وشربوا الشاي على مضجعه، وهما يتنشّقان الرائحة بحماسة كبيرة، وكأنّهم يريدون امتصاص كل شيء: "أرى كيف تلمع عيناك- أرى عينيك، وسمعت كرابين. لقد خمّنت مسبقاً، أنّ الأمور ستجري على هذا النحو تماماً. أنت محظوظ يا أرتيوم. لقد كان هناك نجم جيد يشرق فوق جرن معموديتك.

سأل أرتيوم: "كم رأس له ؟"- ضحكا قليلاً، مرّة أخرى، وهما يحتسيان الشاي.

بدأ فاسيلي بيتروفيتش الحديث بهدوء: " لقد عرفت قليلاً عن مصير كرابين. عندما كان يخدم في الشرطة، استجوب في أحد المرّات بانفعال شديد أحد قطاع الطرق الذي مات في أثناء الاستجواب. أعتقد أن ذلك يسمّى الآن:

"تجاوز صلاحية". كان يمكن في زماني، جلد الإنسان، لكنّني لا أتذكّر حادثة واحدة، بأنّ الشرطة قتلت أحداً ما في أثناء الاستجواب. ومع ذلك، لم يكن هناك جناة، كما هو الحال اليوم، في ذلك الوقت أيضاً.

استنشق فاسيلي بيتروفيتش رائحة الشاي وواصل، لافظاً بعض الكلمات بصوت هامس، وينهيها بتحريك شفتيه فقط، دون صوت:

"إذن، بخصوص قائد فصيلتنا. انتقموا من كرابين، بسبب قاطع الطريق الذي قتل على يديه بشكل رهيب: ذبحوا ابنه البالغ من العمر عشر سنوات. عندها تجاوز كرابين صلاحيته مرّة أخرى - هاجم وكراً للجناة، وأطلق النار دون داعٍ، وقتل العديد من الأشخاص هناك، بما في ذلك امرأة، وموظف إداري سوفييتي جاء للاستمتاع".

استمع أرتيوم باهتمام، ولم يعرف أيّ استنتاجات يجب استخلاصها.

فجأة غيّر فاسيلي بيتروفيتش الموضوع بطريقته الخاصّة: "هذا مذهل. قتلوا الآلاف في الحرب الأهلية! وهناك العديد ممّن علّقت برقبتهم جثّة أم ثلاث، أم حتّى عشرة! لقد كان يصيح هنا أحد الحراس بأنّه أطلق النار على مئة من الحرس الأبيض فقط عام ١٩٢٠! وفجأة انتهت الحرب! والآن من غير المسموح قتل أيّ شخص على الإطلاق! لكنّ الناس اعتادوا ذلك!أعتقد أنّ كرابين لا يفهم بصدق، كيف جرى سجنه كجندي سابق في الجيش الأحمر، لأنّه قتل عدّة جناة، وشخصاًآخر بالصدفة، حتّى لو كان موظفاً إدارياً- فإنّه كان يسير على طريق الرذيلة!".

تحدّث أرتيوم بابتسامة خفيفة، حتّى لا تبدو كلماته كأنّه يطلب النصيحة: "فاسيلي بيتروفيتش أنا لا أفهم شيئاً واحداً: كيف يمكنني قياس كلّ هذه القصة على نفسي؟".

أجاب فاسيلي بيتروفيتش بقسوة مصطنعة: "حسناً، أنت أرتيوم، تستطيع حفظ الشعر عن ظهر قلب فقط - نعم، نعم، لقد لاحظت هذه الخطيئة لديك، لا تخجل، أنت تحرّك شفتيك بشكل ملحوظ، وتردّد نفس العبارة ، طوال

الوقت... تحفظ الشعر، ولكن يمكن قراءة شيء ما في النفوس البشريّة أيضاً. ها أنا أقول لك: قائد فصيلتنا كرابين يكره الجناة. هل لاحظت: في سولوفكي نادراً ما يضربون أعداء الثورة، أمّا كرابين، فلا يمسهم على الإطلاق. لكن مع الجناة، فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو في مواجهة مستمرة معهم... ولست على يقين، أنّه سيخرج منتصراً دائماً. بالنسبة للسلطة الحالية، من الغريب أنّ الحثالة واللصوص مقرّبون من وجهة نظر اجتماعية. لكن كرابين لا يستطيع أن يستوعب ذلك: لماذا هذه الحثالة الاجتماعية يمكن أن تكون مقرّبة ؟ على عكس البلاشفة الحالمين، إنّ كرابين متأكد من أنّه لا يمكن إعادة تربيتهم. ولا يجب إنقاذهم أيضاً. لكن، أنت يا أرتيوم ربّما يستحق إنقاذك. هكذا على الأقل، يعتقد كرابين. عندما ضربك بالعصا، هو أراد كما تعلم، أن يرشدك إلى الطريق الصحيح، مثل ثور صغير. حسناً، لم يكن عليه أن يشرح ذلك لك بالكلمات- هذا لا يتناسب مع موقعه. لكن نظراً لأنّ العصا لا ترشدك، فقد قام كرابين بفعل قويٍّ جداً: لقد تحدّث إليك بهذا الشكل. قدّر يا أرتيوم.

استمع أرتيوم بانتباه شديد، لدرجة أن أصابعه كادت أن تلتصق في العلبة المعدنية الساخنة.

تحدّث فاسيلي بيتروفيتش بانتعاش: "هل تعرف ماذا لدي أيضاً؟- لن تصدّق، كعك. الأصح كعكة واحدة. إنّها جافة بعض الشيء، ولكن إذا عملنا بهذا الشكل"- قام فاسيلي بيتروفيتش بقسم الكعكة إلى نصفين متساويين نسبياً، مع بعض الجهد، وبعد مقارنتهما بالنظر، أعطى أرتيوم النصف الأكبر.

فكّر أرتيوم المسترخي والشاكر: "على كلّ حال، من العبث أفاناسييف تحدّث عنه بهذا الشكل. إنّ شاعرنا لا يفقه شيئاً. إنّ فاسيلي بيتروفيتش شخص رائع وعزيز... ".

قال فاسيلي بيتروفيتش: " إنّني أنظر إلى الكعك وأتذكّر بمرارة في قلبي، كلّ شيء لم أتناوله في وقت ما، بسبب الشبع والغباء- أتذكّر أنّه كان وقت صيام،

وجئت من الشارع لتناول طعام الغداء، تلكأت ولم أتناول عصيدة الحنطة السوداء المقلية مع البصل! بدا لي أنّ البصل غير مريح! كانت العصيدة - مقلية قليلاً! وكان هناك توت بري مجمّد مع سكر أيضاً على المائدة - حلويات. وكنت قد أكلت قبل ذلك كعكة في السوق. لقد طردني والدي عن المائدة- صيام، فليكن صيام!.. أه، يا أرتيوم، يا لها من مصيبة. أيّ غباء رهيب ارتكبته. كم أتندّم، كم أتندّم...".

غمس فاسيلي بيتروفيتش الكعكة في الشاي وجلس دون أيّ حركة. ظلّ أرتيوم ينظر بطرف عينه، هل ستبدأ في التفكك في الماء المغلي- عندها لن يكون طعمها لذيذاً.

"لا أزال أتذكّر كنت أتجول في السوق، عندما كنت صبياً. لقد أطعمتني امرأة تبيع مخلّل الملفوف، ساق الملفوف- لقد أخرجته من برميل عبق، مثل سمكة سحريّة! - قالت اقضمه، فيما لو خلعت أسنان الحليب لديك- فستنمو أسنان جديدة. وأنا كنت خائفاً جداً أن أبقى بلا أسنان، لم آكل. شكرتها، وابتعدت قليلاً عنها، وألقيت الساق على الثلج. كنت الآن سأدفن وجهي في هذا الثلج بحثاً عنه، مثل الكلب، ولكنت وجدته عن طريق الرائحة. أيّ سعادة يمكن أن تكون! وهو يقرقش بين الأسنان! آه، آه. يا أرتيوم".

"كم عدد البيض الذي لم أتناوله في عيد الفصح!- كان فاسيلي بيتروفيتش يتكلّم بحزن- "ستملأ جيوبك بالبيض الملوّن، من أجل المراهنة مع الأطفال على أيّ بيضة تكسر الأخرى. تربح عشر، وتصبح جميع جيوبك ملأى بالقشر الأحمر. وبعد ذلك، تقوم بإطعام الطيور بالبيض... وكانت الطيور شبعانة كثيراً في عيد الفصح، وليس كما نحن الآن. أمّا كعك الفصح نفسه! فقد كانت أمّي تعمل كعكاً بالشوكولاتة! والفستق! تأكل قطعة من هذه، وقطعة من تلك- تشبع. بعد ذلك كانت أمّي تطعم جميع الجيران، ولم أكن أندم على ذلك - لقد كنت متخماً بالطعام. ثمّ تخرج في الصباح - وهناك في خزانة المطبخ طبق به كعك

الفصح الذي أصبح جافاً، وتفكّر: آه، لا أريد ذلك، يكفي... كنت سألتقط هذا الصبي الآن- الذي لم يرد أن يأكل- من أذنه وافتلها بالكامل!".

قام فاسيلي بيتروفيتش، وهو يضحك دون فرح، بحركة مثل تلك التي تُمْسَك بها الأذن.

"أم، حتّى أتذكّر، سمكة أبراميس مع الفطر... كانت رائعة!.. لقد كانت مثل الفارس الأبيض، يا أرتيوم!".

احتجّ أرتيوم، وهو يعض على الكعكة مع بعض الحنق: " يكفي، يكفي، يكفي- توقف! فوراً!".

امتدت يدٌ قذرة من تحت المضجع، وفتحت الكف.

قام فاسيلي بيتروفيتش، بقضم الكعكة، بندم واضح، تاركاً القليل منها، وكان على وشك وضع ما تبقى في راحة اليد الممدودة، لكنّه غيّر رأيه فجأة.

ناداه: "اسمع، أخرج، تعال إلى هنا. دعنا نتعارف. أنا أطعمك دون أن أراك".

أنهى أرتيوم أكل الكعكة بسرعة، وفكّر: "من غير المعروف، ما الذي سيخرج من هناك، ربّما كلّه قرف".

لكن لا، كان المشرّد لا يزال له شكل بشري، لكنّه قذر فقط ، بشكل مستحيل، ونحيف جداً، والأهم من ذلك أنّه عارٍ تقريباً. استخدم كملابس خارجية، رقعاً- كيس به ثقوب لذراعيه ورأسه، ولم يكن يرتدي شيئاً في قدميه- علبة كبيرة من الصفيح فقط ، جرى ربطها بحبل في أسفل بطنه. على ما يبدو، حلّت محلّ سرواله الداخلي.

قال فاسيلي بيتروفيتش: "ما هذا الذي لديك...آه- آه-... درع. اجلس على المقعد في هذه الزاوية، لن يراك أحد هنا".

بدا أن المشرّد من شكله لا يتجاوز اثني عشر عاماً. كان شعره متسخاً، لدرجة أنّه لم يعد من الممكن تمييز لونه. كان هناك شيء مستحيل يحدث بأذنيه أيضاً، حاول أرتيوم عدم النظر إليهما- بدتا مليئين بالأوساخ بالكامل.

سأله فاسيلي بيتروفيتش: "هل تريد الشاي؟. لكن أيّها الشاب ليس في علبتك هذه. لدي احتياط. أرتيوم، هل تستطيع أن تأتي بالماء المغلي أيضاً؟".

ذهب أرتيوم حاملاً علبة فاسيلي بيتروفيتش الاحتياطية، إلى الموقد، كان المناوب الشيشاني هناك- هو نفسه الذي ذهبوا معه لإزالة المقبرة قبل أيام.

قال الشيشاني باستخفاف، وهو ينظر إلى أرتيوم: "لم يكن الشيشان مسيحيين قط".

أجاب أرتيوم: "كما تريد- هل يمكنني غلي بعض الماء؟".

وجد فاسيلي بيتروفيتش كعكة أخرى، وحفنة من الفواكه المجففة. ألقاها المشرّد على الفور كلّها في الماء المغلي، وبدأ يشرب، كأنّه لا يخشى أن يحرق نفسه بالماء.

قال له فاسيلي بيتروفيتش: "قل لنا شيئاً ما على الأقل".

سأل المشرّد، دون أن يظهر أيّ تعبير:"ماذا؟".

سأل فاسيلي بيتروفيتش: هل لديك أم؟ أومأ المشرّد برأسه.

"وأب؟".

فكّر المشرّد، وأومأ مرّة أخرى.

" وما اسمك؟".

"سيري".

"من أين أنت؟"

" من أرخانغيلسك".

" ماذا تعمل والدتك؟".

"كيف لي أن أعرف، فأنا موجود هنا".

" حسنا، ماذا كانت تعمل؟".

" أمي؟ كانت تعمل في حمّام".

"ووالدك؟".

" لدي أب".

"ماذا كان يعمل؟".

"كان كلّ يوم يسكر. ويطردنا أنا وأمي في البرد القارس إلى الشارع- وكنّا نتدفأ في الإسطبلات.

صمت سيري مدّة طويلة، بعد ذلك، تعب على ما يبدو من مثل هذا الحديث الطويل، وقرّر اختصار الطريق.

" ذات مرّة كان والدي يسكر مع رجل- تشاجرا وقتل الرجل. لقد وجدت مالاً مخبّئاً في عبّه. قلت لأمي: "حسناً، ماذا يمكننا أن نفعل- فلنعتد على هذا العمل!".

أصيب فاسيلي بيتروفيتش بالإحباط، حتّى إنّه وضع علبته على المضجع، وسأل بهدوء، ولسبب ما تحوّل إلى "أنت":

" هل تعودت ذلك؟".

"في أحد المرّات ضربنا رجلاً مدّة طويلة جداً، لم نتمكّن من قتله، بأيّ شكل من الأشكال. لقد كان يصرخ كثيراً، ولطخنا كلّ شيء بالدماء. وغادرت أنا بعد ذلك. أعطني كعكة أخرى، لقد رأيت ،لا يزال يوجد لديك".

تنهّد فاسيلي بيتروفيتش، وأخرج كعكة.

"وأنت ماذا فعلت؟ كنت تسرق ؟".

أجاب سيري بثقة: "يمكن سرقة الأغنياء".

" وماذا عن سرقة الفقراء؟".

فكّر سيرغي ولم يجب. يبدو أنّ لديه أسلوباً رائعاً- لا يجيب ببساطة عن الأسئلة التي لا تعجبه.

لم يستكن فاسيلي بيتروفيتش، وسأل:"كم كان عمرك عندما بدأت تسرق؟".

"بقدر ما أتذكّر نفسي، كنت أسرق دائماً. اكتب - مذ كان عمري ثلاث سنوات".

قال فاسيلي بيتروفيتش بهدوء: "نحن لا نكتب".

" لكن لماذا تسأل؟ أيّ مصلحة ؟".

استمع ميتيا شيلكاتشوف إلى الحديث أيضاً، وتحرّك إلى طرف المضجع لينظر بطرف عينه إلى رأس سيري الأشعث.

في هذه الأثناء، غاص أرتيوم في مشاعره: "هل أشعر بالشفقة عليه؟ أم لا؟ يبدو ليس لدي أيّ شفقة تجاهه تقريباً. هل أصبت بالطرش تماماً؟ "

لم يكن سيري غبياً على الإطلاق - كان ذلك واضحاً، من أسلوب كلامه، وقد اندهش أرتيوم: كيف ذلك؟.

وفقط عندما فكّر في الكلام، أدرك فجأة شيئاً غريباً ومهمّاً جداً لديه: ليس لديه أيّ شفقة تقريباً في الواقع - جرى استبدالها بما يسمّى أحياناً إحساس بالرائع، وكان من الممّكن أن يسميها أرتيوم إحساساً باللباقة فيما يتعلّق بالحياة.

لقد أخذ الجراء من الأطفال الذين كانوا يعذبونهم في الشارع، أم دافع عن تلاميذ المدارس الضعفاء، ليس من باب الشفقة، بل لأنّ ذلك كان يخالف تصوراته عمّا يجب أن يكون عليه الحال. تذكّر أرتيوم أفاناسييف وأكمل فكرته بما قاله:"...هذا ليس مقفّى!"

بدأ أرتيوم في سولوفكي يدرك فجأة، أنّه على الأرجح تبقى المشاعر الفطرية التي نمت في الداخل فقط، مع العظام والأوردة واللحم - وأوّل من تنهار التصورات.

قطعت الحديث مع الصبي، جلبة غضب في الزاوية، حيث يعيش الجناة متكتلين. اختفى سيري على الفور، كما لو أنّه لم يكن، وأخذ معه علبة الشاي الذي لم ينته من شربه.

استمع أرتيوم، وفهم بعد دقيقة لأمر.

كان الجناة يخفون أغراضهم أم يمزّقون سراويلهم وقمصانهم حتّى أحذيتهم باستمرار- حتّى لا يذهبوا إلى العمل: كان يمنع أخذ العراة إلى العمل.

أجبر كرابين الغاضب، القادمين من النوبة النهارية، على خلع ملابسهم بالكامل، من أجل توزيع هذه الملابس للذاهبين إلى النوبة الليلية.

"ثيابي كلّها رطبة! وستكون في الصباح أكثر رطوبة! هل سأذهب في ثياب رطبة؟"- صرخ أحدهم.

صاح كرابين، وهو يقنع هذا وذاك بالعصا: "سيعرفون كيف يمزّقون ثيابهم! متصنّعون، فاسدون!". بدا كأنّ بورتسيف يساعده، ولكن كما تهيأ لأرتيوم، كان أكثر تحفظاً مع الجناة، منه مع الصيني.

عندما خلع كرابين السروال بنفسه من شافيربيكوف الذي كان مستلقياً على المضجع، أصبح من الواضح للبقية، أنّه لا مناص. خلع الوثيقة سترته- وكان رئيس المجموعة سوروكين قد مزّق قميصه. طارت الأحذية والقمصان والجزم إلى أقدام كرابين.

قال شافربيكوف، وهو يغطي ساقيه بمعطف، من الواضح أنّه مأخوذ من رجل بائس: " ستتحاسب".

دون أن يكشف عن نواياه بأيّ شكل، وكأنّه كان يعرف مقدماً أنّ شافيربيكوف لن يصمت، ضربه كرابين على وجهه بالعصا بقوّة، ثمّ تلاها مرّات عدّة على يديه- عندها قام شافربيكوف الذي انحنى من الألم، بتغطية رأسه بيديه.

قال كرابين وهو يتنفس بصعوبة: "ستتحاسب". - أحسب أسنانك الآن. جمع كومة الملابس بقدمه، وأمر المجموعة الليلية:

"ارتدوا هذه الملابس، ما زالت دافئة".

من الواضح أنّه لم يكن هناك ما يكفي للجميع، وأمر كرابين، وهو يسير بين الصفوف، لاجيتشنيكوف وسيفتسيف والصيني الذين تألّم كثيراً، بخلع ملابسهم. لم يلق حتّى مجرّد نظرة على أرتيوم وأفاناسييف وفاسيلي بتروفيتش. تظاهر مويسي سولومونوفيتش بشكل مقنع للغاية بالنوم، كما لو أنّ ذلك سينقذه - لكن فعلاً أنقذه ذلك.

كان يمكن أن ينتهي اليوم عند ذلك. لكن لسوء الحظ، كان هناك وقت لحدث آخر.

بعد التفقد المسائي الممل، غادرت الدفعة الليلية، وبدا كلّ شيء هادئاً.

أحضروا إبريقاً من الماء وقطعة قماش لشافيربيكوف - غسل وجهه مطولاً، ومسح الدماء الجافة عن حاجبيه، ووضع كفيه اللتين اصطبغتا برطوبة وردية بالكامل، على شفتيه. نظر الجناة إلى شافيربيكوف باهتمام شديد، كما لو كان بإمكانه استخراج الذهب بهذه الطريقة.

اعترف أرتيوم بينه وبين نفسه، بأنّه يشعر بشماتة، طبيعية، وضخمة، وصادقة للغاية، وسعيدة للغاية.

ربّما كان هذا هو سبب هلاكه.

التقط شافيربيكوف، الذي ظلّ يلمس أسنانه المتخلخلة مدّة طويلة، نظرة أرتيوم الذي استدار على الفور، وصعد إلى مضجعه، وهدأ، واستعد للنوم، حتّى إنّه غفا - كان اليوم طويلاً، وطويلاً، وطويلاً، بدأ ذيله بالضياع، كان من المستحيل الوصول إلى بدايته تقريباً: كان سيري المشرّد، الذي امتلأت أذناه بالرماد الأسود، يشرب الماء المغلي، ابتسم الهندوسيان وتمايلا بهدوء، وكانت المكانس عطرة وتصدر خشخشة. ضحك أفاناسييف بقوّة، وهو يهزّ رأسه الأحمر، كما لو أن قشّاً في شعره، قش وشمس، وحتّى قبل ذلك، كان الرجل المشنوق يغيظ بلسانه، والذبابة التي عليه...

في هذه الأثناء، استدعى الجناة أفاناسييف، ولم يرغب أرتيوم في التفكير بذلك، فقد كان قد نام بالفعل وبصدق وعمق... لكنّهم دفعوه على أيّ حال.

فتح عينيه. مضغ فمه الجاف. كانت لمبة واحدة مضاءة، وكان الضوء يدخل من خلال الباب المفتوح، من ممرّ غرفة المناوبين.

كان العديد من السجناء نائمين، لكن بعضهم كان يتجوّل بين المضاجع، والبعض الآخر كان يشتم بكسل، أمّا ميتيا شيلكاتشوف فكان يلعب الشطرنج مع أحد الهندوسيين.

سأل أرتيوم الذي كان ما يزال يحاول العثور على اللعاب في فمه: "ماذا؟".

قال أفاناسييف بسرعة، كما لو كان يريد إنهاء عملٍ مملٍّ بأسرع ما يمكن:" يا تيوما، الاتفاق بشكل عام، على الشكل التالي:" تقسم طرد والدتك الذي ستستلمه فيما بعد، مناصفة مع الوثيقة. فقد تأذّى".

قال أرتيوم الذي جلس على مضجعه: " أيّ طرد ؟- طردي ؟ ليذهب الوثيقة إلى الجحيم".

قال أفاناسييف خافضاً صوته: "اهدأ - الطرد لم يصل بعد. انتظر. لا تعرف ماذا سيحدث إلى حين أن يصل. لا تستعجل".

كشّر أرتيوم- لقد أراد أن يشتم حقاً. من الواضح أنّ أفاناسييف كان مضطرباً أيضاً.

حاول أفاناسييف أن يشرح، متخذاً تلك النبرة الغريبة والمخادعة، التي يختارها الكبار مع الصغار أحياناً، عندما يدركون مسبقاً عدم صواب رأيهم المهتز والمخزي: "ما كان يجب أن تضربه يا تيوما. هل تفهم، لا يجوز ضرب أحد من هذا الوسط هكذا. يجب أن يكون هناك سبب وجيه ! لاحظ، يا تيوما، يمكن أن يصرخ الجناة بعضاً على بعض بكلمات فظيعة: يتهيأ أحياناً أنّهم على وشك أن يمزقوا بعضهم بعضاً. لكنّها مثل لعبة التحمّل. يمكن الضرب فقط من أجل

ضغينة حقيقية دموية. أمّا أنت فقد ضربته من أجل شيء تافه تماماً. كان يمزح! والآن يتقيأ من أيّ طعام! لم أستطع أن أشرح تصرّفك بشكل، يفهمون منه إنّك كنت على حق".

"لا يهمّني فهمهم نهائياً" - غضب أرتيوم الذي طفح لديه الكيل، ليس لأنّه يبخل بسجق لحم الحصان، على الرغم من أجله أيضاً، بل بسبب الزعل غير المتوقع والمؤلم والرهيب من أجل أمّه: فهي تذهب إلى السوق هناك، تجمع له، لأبنها، طعاماً كهدية بما تبقى لديها من روبلات- أمّا هو فسيعطي هذا الطعام للوثيقة القذر ليأكله.

همس أفاناسييف وهو يمسك أرتيوم من ركبته: "إنّهم كثر، يمكنهم قتلك، أنت تعرف كل ذلك،يا أرتيوم". ولكن في هذه اللحظة، ظهر الوثيقة نفسه الذي جذبه الحديث عارياً حتّى الخصر وراضياً جداً.

استدار أفاناسييف ووقف في طريقه، بحيث لا يتمكّن الوثيقة من الوصول إلى مضجع أرتيوم.

قال الوثيقة لأفاناسييف: " الأمر لا يخصّك، لا تقف في الطريق".

أجاب أفاناسييف برزانة شديدة: " أنا أقف في مكاني يا وثيقة. أنت لم تفتح الطريق إلى هنا".

سأل الوثيقة أفاناسييف، وهو يتمايل من جانب إلى آخر، وينظر بسخرية إلى أرتيوم: "هل نقلت له ؟ دعه يقسم الطرود كلّها مناصفة معي، خلال عام كامل. أمام عيني".

" واحدة فقط" - كرّر أفاناسييف بعناد، ولكن ليس بنفس الحدّة التي أجاب بها للتو.

اهتاج الوثيقة، شاعراً كيف قوّته تزداد أمام ذوبان الأخرى: "ما تقول، اللعنة عليك يا أفاناس، واحدة! يكفي! يكفي يا أفاناس! ونصيحتي لك: لا

تتدخّل كثيراً في أمور الآخرين! أنت لست لصّاً. أنت لست من وسطنا، مع أنّه يوجد لديك ورق لعب".

لم يتزحزح أفاناسييف من مكانه. وواصل الوثيقة التمايل من جانب إلى آخر، كما أنّ شفته المتدلية كانت تتمايل أيضاً، وغادر دون انتظار الجواب.

بقي أرتيوم صامتاً، ينظر إلى مكان ما جانباً، بطرف عينه- لا يرى المكان الذي كان ينظر إليه، ولا يفهم ما الذي كان يجذبه إلى هناك.

أدرك أخيراً أنّها كانت قدم مويسي سولومونوفيتش.

كان مويسي سولومونوفيتش مستلقياً، ويغطي نفسه بالكامل حتّى رأسه أيضاً بشرشف، لكن ساقه كانت ترتجف بطريقة لا ترتجف فيها ساق النائم.

كان أفاناسييف منذ الصباح الباكر يتجوّل في مكان ما - وقد التقى أرتيوم في أثناء التفقد فقط، أومأ لأرتيوم برأسه، فردّ أرتيوم، متذكّراً على الفور ببعض الاشمئزاز كيف سماه الوثيقةأمس "أفاناس".

ردّد بينه وبين نفسه مرّات عدّة:" أفاناس، أفاناس"، وكأنّه يبحث عن قافية.

كان وجه شافيربيكوف فظيعاً. عطس في أثناء التفقد- وبصق أحد أسنانه. ثمّ وقف مزمجراً بهدوء، وهو يضغط بيده على شفتيه.

بحث أحد المحطمين المستعدين لفعل الخير عن السن، وأعاده إلى شافيربيكوف، ولقاء ذلك تلقى ضربة على وجهه مباشرة.

حاول أرتيوم ألّا ينظر باتجاه شافيربيكوف، وظلّ قريباً من رئيس الفصيلة كرابين، وبشكل عام، من القيادة.

فكّر أرتيوم بحزن، وهو يمشي بعد التفقد، وينظر إلى مؤخرة رأس كرابين "... الحياة مثل بندول الساعة الحائطية... تتأرجح ذهاباً وإياباً... تهزّني... وأنا أتمسّك بالبندول بكلتا يدي... سوف أطير عن قريب شقلبة...". وفي الوقت

نفسه كان يبذل جهداً لعدم الالتفات: من المؤكّد أنّ الوثيقة كان يقف في مكان ما قريب بابتسامته المتكلّفة، القذرة، والمريضة، بلا أسنان..."

عندما عادوا بعد التفقد إلى السريّة، جرى سحب المشرّد من ساقيه، من تحت المضجع.

وقف أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش جامدين في مكانهما، وهم يريان ذلك.

بدا الأمر غريباً بالنسبة لأرتيوم، أنّ الصبي المشرّد لم يقاوم ولم يصرخ بأيّ شكل من الأشكال- لقد استعد بالفعل لإلقاء نكتة حول ذلك، حتّى إنّه التفت قليلاً إلى فاسيلي بيتروفيتش- وأدرك على الفور من وجه رفيقه الأكبر، أنّ الضحك في غير محلّه.

كان الصبي المشرّد مخنوقاً: كان فمه الطفولي مفتوحاً باعوجاج، وبدت رقبته الرقيقة كأنّها مكسورة، وكانت عيناه، مشدوهتين... ولا تزال الرائحة تفوح منه... وطارت العلبة مع مكانها تحت بطنه، وبانت أعضاؤه التناسلية التي لا تزال صغيرة، ووسخة بشكل رهيب.

فكّر أرتيوم سريعاً: "هذا هو الثاني خلال أربع وعشرين ساعة. وماذا لو أنّهم سيجرونني هكذا غداً؟ يا للشيطان،لا،لا يمكن. لماذا أنا؟".

جلس إلى جانب فاسيلي بيتروفيتش على المضجع، مشتّت الذهن ومتعباً.

حمل الشيشان المناوبون الصبي- من ذراعيه وساقيه- كان واضحاً أنّه خفيف الوزن، كما لو كان فارغاً من الداخل.

فكّر أرتيوم متعجباً: " كان القلب يخفق وتوقّف عن الخفقان، ببساطة".

ظلّ فاسيلي بيتروفيتش، يبحث لبعض الوقت، عن شيء ما في كيسه، ويبدو أنّه لم يكن بحاجة إليه على الإطلاق... ثمّ توقّف عن البحث فجأة، وسأل:

"أرتيوم، ماذا تعتقد أنّ يسوع المسيح يفعل الآن؟ يجب أن يكون لديه ما يفعله، أليس كذلك؟".

ابتلع أرتيوم ريقه ونظر بانتباه إلى فاسيلي بيتروفيتش، وفكّر: "... حقاً؟ ماذا؟".

أضاف فاسيلي بيتروفيتش:"أعاد لي الملعقة في الليل إلى مكانها، هو إنسان أيضاً. أعاد الملعقة المسروقة... أم أنّه أراد ببساطة المزيد من الثمار". اعتقد أرتيوم في البداية، أنّ الحديث يتعلّق كلّه بالمسيح.

جلس أرتيوم في صمت وكان يتمايل قليلاً.

واختتم فاسيلي بيتروفيتش كلامه بهدوء: "أصبح لديّ الآن ملعقتان، يا أرتيوم"، على الرغم من أنّه، كان واضحاً من نغمة صوته، أنّه لم يكن يفكّر في الملاعق على الإطلاق، وإنّما في شيء آخر.

سمع صراخ كوتشيرافا: كان يوبّخ كرابين.

لديك مشرّد يعيش تحت المضاجع! ربّما لديك هناك مقرٌّ لأعداء الثورة ؟ لا تولي أهمية للانضباط ! ولا للخدمة! ماذا تفعل بشكل عام يا كرابين؟ سأقدّم تقريراً عنك اليوم! انزل تحت المضاجع الآن، وادرس الوضع! بعد ذلك تخبرني، من يوجد هناك أيضاً!

كان كوتشيرافا يسخر، وكان صوته مليئاً بالتهكّم. وقف كرابين صامتاً.

دفع فاسيلي بيتروفيتش أرتيوم: بمعنى يجب الخروج إلى الشارع حتّى لا يطالنا شيء ممّا يحصل.

أصبحت سماء سولوفكي أثقل وأقرب- ارتفعت النوارس إلى الأعلى، كما لو كان بصعوبة. غالباً ما كان يهزّ الأيل ميشكا جوانبه باستمرار، كما لو كان يتجمّد من البرد.

كان الكلب بليك يشمّ.

كانت تهب الكآبة والخطر من كلّ مكان.

فكّر أرتيوم بينه وبين نفسه: " يجب أن أنتقل من هذه السريّة، لكن إلى أين؟".

قال فاسيلي بيتروفيتش وهو ينظر حوله: " بشكل عام، كلّ شيء هنا ليس على ما يرام وثقيل... واحدة تلو الأخرى، واحدة تلو الأخرى...".

في انتظار فرزهما للعمل، ابتعدا قليلاً عن الحشد، إذ كما هي العادة، كانوا يشتمون ويتصايحون كثيراً.

كان فاسيلي بيتروفيتش يتنهّد، أمّا أرتيوم فكان يومئ برأسه، محاولاً ألّا ينظر إلى المساجين في سريته- إذ كان أعداؤه وسط الحشد.

بدأ فاسيلي بيتروفيتش يتحدّث بحذر: " لقد سمعت أمس، عندما أتى الوثيقة...".

قال أرتيوم: "يجب البحث عن مكان آخر للعيش فيه "- وتابع على الفور، دون أن يتاح له الوقت ليندهش، كيف خمّن فاسيلي بيتروفيتش أفكاره- "ما هي السرايا الأخرى الموجودة هنا؟ لنعدّها معاً، ربّما تخطر لنا فكرة ما".

لم يكن محتاجاً إلى إقناع فاسيلي بيتروفيتش الذي قال:

"لقد كنت في السريّة الثالثة عشرة سابقاً - سئمت من السريّة الثانية عشرة، عليك أن تتركها، أوافق معك. الحادية عشرة، عبارة عن سريّة للعناصر السلبية، وهي زنزانة عقابية، ولا أنصح أيّ شخصٍ بالذهاب إليها. السريّة العاشرة- الأعمال المكتبية. باعتبارك متعلّماً وهذا واضح، هناك المكان المناسب لك. لن تقع في التاسعة- هذه تسمّى سريّة الشرطة وهي لعناصر الأمن المجندين السابقين فقط، أي إنّهم غير صالحين للعمل الإداري في المعسكر، لذلك يعملون في الحراسة والإشراف".

أومأ أرتيوم برأسه: كان في الواقع، يعرف كل ذلك، وكان فاسيلي بيتروفيتش يعرف أنّه يعرف، لكن التحليل ساعد على تهدئته، ووضع كلّ شيء في مكانه، وبعث فيه الأمل أيضاً، ولو كان ربّما أملاً كاذباً، لكنّه لا يزال هناك أمل: لكن ربّما فجأة يتمّ اكتشاف ثغرة غير ملحوظة عند التعداد، جرى نسيانها بمحض المصادفة.

قال فاسيلي بيتروفيتش:" السريّة الثامنة- مكان للأشرار الراسخين، يعيش الفهود هناك، كما تعلم. السريّة السابعة- للفنانين، ليست أسوأ مكان في دير سولوفكي. أنت بالمناسبة، ألم تكن في إحدى الحلقات المسرحية في المدرسة؟ قد تناسبك بعض الأدوار الكلاسيكية" - لم يكن من الواضح أنّ فاسيلي بيتروفيتش يمزح أم لا - "السادسة– سريّة الحراسة. هناك من الجيد أيضاً، لكن في السادسة، وبناءً على أوامر إيخمانيس، لا يقبل فيها إلّا الأشخاص من رجال الدين السابقين. وأنت كما ترى، لست ابن كاهن، يا أرتيوم، أليس كذلك؟".

لوّح أرتيوم بيده، وقال: "ولا حتّى ابن نيكيتا".

تابع فاسيلي بيتروفيتش: "في السريّة الخامسة، رجال الإطفاء- هناك بشكل عام شيء رائع، ولكن إذا كان من الممكن أن تنضم إلى الفنانين لوجود الموهبة، وإلى الأعمال المكتبية- بفضل معرفتك الحساب بشكل صحيح، والكتابة بشكل جميل، على سبيل المثال، فإنّ الخدمة في الإطفاء تحتاج إلى الواسطة فقط. أم كما يقولون هنا – الحظ. الحرائق هنا قليلة، وهم ليسوا منهكين من العمل، يلعبون أغلب الوقت الداما. ليس لدينا وساطة لذلك دعنا نواصل. السريّة الرابعة- موسيقيو فرقة الأوركسترا في سولوفكي. هل خبأت عنّي أيّ موهبة موسيقية؟ ربّما أنت، يا أرتيوم، تعزف على البوق؟ ألا تعزف؟ من العبث. السريّة الثالثة - لضباط الأمن من الرتب العليا، وموظفي قسم التفتيش والتحقيق. لذلك نحن لا نأخذ في الحسبان الثالثة على الإطلاق. الثانية - الخبراء الذين كانوا في المناصب المسؤولة، والذين يمكنهم إثبات أنفسهم، على سبيل المثال، من الناحية العلمية "- هنا نظر فاسيلي بتروفيتش مرّة أخرى باهتمام إلى أرتيوم، لكنّ أرتيوم لم يتجاوب مع النظرة، عندها تابع بيتروفيتش الحديث: "الأولى- سجناء من كبار القادة في إدارة المعسكر: قادة السرايا ومديروا الإنتاج ومساعدوهم. أمامك شوط طويل للوصول إلى السريّة الأولى... أم ربّما لا داعي لذلك".

سأل أرتيوم: "هذا كلّ شيء؟".

قال فاسيلي بتروفيتش: " لا ليس؟- هناك أيضاً الرابعة عشرة - هناك الممنوعون: السجناء الذين يعملون داخل أسوار الدير فقط - حتّى لا يهربوا. هم الطهاة، والخدم، وسوّاس الخيل لدى عناصر الأمن. عملياً، أرادوا معاقبتهم بحرمانهم من فرصة التجول في جزيرة سولوفكي، لكن جاء المنع لمصلحتهم. قارن بنفسك: أن تذهب إلى نقل جذوع الأشجار شيء، وأن تمشّط ذيل حصان المفوض شيء آخر. السريّة الخامسة عشرة- الحرفيون: النجارون، وعمّال المنجور الخشبي، وصنّاع البراميل الخشبية... وهناك فصيلة أخرى لا تعمل على الإطلاق - ومن السهل الوصول إليها دون أيّ محسوبية، وهي تسمّى...؟".

أجاب أرتيوم دون ابتسامة: "أنا أعلم أنّها المقبرة - مقبرة سولوفكي".

لم يكن هناك ثغرة للدخول عبرها. على العموم، كانت تناسبه سريّة الأعمال المكتبية، العاشرة فقط - لكنّ أرتيوم لم يعرف أيّ شخص هناك، ولماذا يستدعونه إلى هذا المكان المميّز. لم يكن الوحيد في المعسكر الذي يعرف قراءة الكتب وحساب الكسور. هنا، قد تصادف في كلّ خطوة من هو أذكى منه.

قال أرتيوم وهو يفكّر: "من المؤسف أنّني لست من الحرس الأبيض، هنا يجري نقلهم على الفور إلى حيث يجب".

سأل فاسيلي بتروفيتش مرة أخرى: "ومن أنت؟".

لوّح أرتيوم بيده: " لا أحد - من سكان موسكو، طائش، وقارئ للكتب - ليس هناك ما يستحق الإلحاح لمعرفته ".

تنهّد فاسيلي بيتروفيتش، بمعنى نعم، يا أرتيوم، لا يوجد ما يستحق الإلحاح لمعرفته: منذ فترة نحن أصدقاء، لكنّك ما زلت لم تخبرني شيئاً عن حياتك.

أدرك أرتيوم من نظرة فاسيلي بيتروفيتش أنّ أخباراً سيئة تقترب، ونظر حوله ورأى على الفور الوثيقة - كان يتهادى في مشيته، وهو يقترب، منفعلاً، ويلبس سترته التي أعادوها له منذ الصباح على جسده العاري. لم تختف بعد الدوائر السوداء

تحت عينيه. وعلى رأسه قبّعة مهندس مأخوذة من مكان ما. رفع يده بحدّة- ارتعش أرتيوم قليلاً، لكنّ الوثيقة، كشّر أكثر، وصوّب حافة قبعته، وسأل:

"هل فهمت كلّ شيء؟ لدي شخص في مكتب البريد، لذلك إذا حاولت أن تحتال..."

قال فاسيلي بيتروفيتش فجأة: " لقد فهم كلّ شيء ".

قطع الوثيقة كلامه، وقاس بنظره فاسيلي بيتروفيتش من الأعلى إلى الأسفل، واستدار نحو أرتيوم، ومع ذلك أنهى جملته:

"... إذا حاولت أن تحتال- سيحولونك، أنت نفسك، إلى سجق لحم الحصان. يا حصان!".

جاء بعد الوثيقة، ثلاثة جناة آخرين، ووقفوا وراءه على بعد نحو خمسة أمتار. كانوا يتحدّثون عن شيء آخر، واثقين من أنفسهم.

فكّر أرتيوم، وهو ينظر إلى عيني الوثيقة، ولا يجيب بشيء: "هل سيقترب منّي كلّ ساعة الآن؟"

تذكّر أرتيوم فجأة، كيف رأى ذات مرّة في طفولته، رجلاً يركض عبر النهر على قطع الجليد الطافية، في بداية ذوبان الجليد. لقد كان هذا التصرّف مخيفاً وجريئاً - بدا السقوط في المياه الجليدية أمراً بسيطاً للغاية. إلى أين كان هذا الرجل في عجلة من أمره، لم يكن أرتيوم يعرف أم أنّه نسي مع مرور السنين- لكنّه تذكّر بوضوح أفكاره الطفولية: أنّه هو نفسه، بغض النظر عن مدى إعجاب الأولاد الآخرين الذين كانوا على الشاطئ بشجاعة وتهوّر العدّاء، لم يكن هو نفسه يرغب في تكرار ذلك.

وجد نفسه هنا يؤدي هذا الدور- لكن دون إرادته: كما لو جرى دفعه وقيل له: اركض! - ولم يكن هناك خيار آخر. لكن إلى أين يركض: الشاطئ الآخر غير مرئي؟

كان يقف الآن على طوف جليدي - وكان بإمكانه القيام بقفزة، لكنّه لم يفعل. ذهب الوثيقة.

قال فاسيلي بيتروفيتش بعد دقيقة بهدوء: "نعم، هذا غير سار".

فكّر أرتيوم في فاسيلي بيتروفيتش بحقد غير متوقع، على الرغم من أنّه لم يكن يوماً يؤمن بالخرافات: "لقد أصابني بالعين. لقد قال للتو كيف أنّ كلّ شيء يسير بسلاسة بالنسبة لي... لقد أصابني بالعين، الكلب العجوز!".

سأل فاسيلي بيتروفيتش: " إلى أين فرزت اليوم؟".

صمت أرتيوم، وفكّر في كيفية التهرّب من الإجابة، ولكن كان التزام الصمت أمراً سيئاً للغاية.

قال بهدوء: "أعتقد في الدير... لا أعرف أيّ نوع من العمل".

قال فاسيلي بيتروفيتش: أنا إلى جمع الثمار مرّة أخرى، ها هم زملائي ينتظرون. سأذهب. نظر وهو يغادر إلى الوراء، وأضاف:

"أرتيوم، لا تيأس. الله موجود. سوف يعتني بنا، صدقني".

لم يكن لدى أرتيوم أيّ عمل حتّى وقت الغداء.

كان معه ميتيا شيلكاتشوف وأفدي سيفتسيف.

لقد انتظروا مطولاً رئيس المجموعة في الفناء. كان شجرة الروان تضج، وأوراقها تتلألأ وتلمع في أشعة الشمس، ولا سيّما عند النظر إليها من خلال عيون نصف مفتوحة. كان الأيل ميشكا يتجوّل ويرفع رأسه إلى ضجيج الأوراق.

جلس أرتيوم على المقعد، مكتئباً، وأغمض عينيه، وحاول إن لم يكن أن ينسى، فعلى الأقل أن يدفئ نفسه في الشمس. لم يخرج الوثيقة من رأسه. بالإضافة إلى ذلك، لم يرغب سيفتسيف بالجلوس على المقعد - لقد كان يتململ، محاولاً الذهاب والعثور على رئيس المجموعة، لكنّه لم يكن يعرف إلى أين؟

عندما رأى سيفتسيف أنّ شريكه جالس وعينيه مغمضتان، بدأ الحديث، ولكن كما لو أنّه لا يتوجّه إلى أرتيوم مباشرة وإنّما آخذاً في الاعتبار أنّه يسمعه.

قال سيفتسيف بصوت منخفض: "سنجلس ننتظر، ولكن على الرغم من ذلك، سنكون نحن المذنبين...". لكنّه لم يذهب إلى أيّ مكان، كان يثقل على أرتيوم المرهق بالفعل.

فكّر أرتيوم بمرارة: "فلاح بليد...".

لم يستطع ضبط نفسه، وسأل دون أن يفتح عينيه:

"هل ترغب في العمل؟".

بدأ سيفتسيف يتحدّث من حيث توقّف بالضبط: "سنجلس منتظرين هنا، ولكن على الرغم من ذلك، سنكون نحن المذنبين!".

قال أرتيوم بصوت أجشّ لسبب ما: "حسناً، اذهب وافعل شيئاً ما- أكنس الممرات...".

سأل سيفتسيف بسرعة وثقة: "هل أمروا بذلك؟ أغلق أرتيوم عينيه بإحكام، كما لو كان من الألم.

فكّر مرّة أخرى: "بليد". ولكن لسبب ما دون غضب.

لم يكن هناك مزاج للسخرية من سيفتسيف- لم يكن لدى أرتيوم مثل هذه الميول على الإطلاق، ولم يكن مزاجه مناسباً للسخرية، ولكنّ الشيء الأكثر أهمية: لقد شعر بالتفوّق على هذا الرجل... وكان سيشعر بالتفوّق على الوثيقة أيضاً- لو كان الوثيقة بمفرده.

لقد حلم أرتيوم كطفل:"كم كان الأمر رائعاً، لو أنّ كلّ شخص كان بمفرده، ومسؤول عن نفسه فقط. ما كانت لتقع الحروب قطٌّ، لأنّ العراك الكبير، ممكن أن يقع فقط، عندما تتجمّع حشود ضخمة وغاضبة... وهنا، في سولوفكي، من كان سيضايقني؟ وأنا ما كنت لأضايق أحداً بالتأكيد. وكان ليعم السلام في كلّ شيء ودائماً...".

فكّر أرتيوم في ذلك وفكّر، محاولاً جعل تفكيره يتحرّك في خط بسيط ومستقيم، لأنّه هو نفسه فهم جيداً، أنّه إذا بدأ يفكّر في كلّ هذا بشكل أعمق قليلاً وأكثر جدية، فسوف يتضح على الفور أنّ لديه رعونة كاملة في رأسه، ساذجة وعديمة الجدوى.

تجوّل ميتيا شيلكاتشوف ذهاباً وإياباً، ناظراً إلى مباني الدير، والجدران المتسخة، مثل ظهور المشرّدين، والقباب المحطمة مثل البيض. لم يذهب بعيداً- فقط إلى الحدّ الذي يرى منه زملاءه، كان يعود في كلّ مرّة لتأكيد وجوده، لكن أرتيوم كان لا يزال منزعجاً، ومنه أيضاً.

"اجلس، يا ميتيا- قال أرتيوم بهدوء، عندما عاد شيلكاتشوف مرّة أخرى، مبتسماً ومنتعشاً بالكامل، لدرجة أنّ النظر إليه كان يثير الانزعاج- "اجلس بهدوء ولا تتجوّل هنا وهناك- فيما لو رأتك الإدارة، ستضعك في زنزانة العقاب بسبب التسكع، وعندها ستعرف "- وجد أرتيوم نفسه يفكّر أنّه يقلّد فاسيلي بيتروفيتش، مخاطباً شخصاً أصغر منه كثيراً بـ"أنتم".

قال شيلكاتشوف، وهو يواصل الابتسام: "لكنّنا لسنا مذنبين".

كرّر أرتيوم وهو يغمض عينيه: "مذنبون".

جلس سيفتسيف، الذي كان واقفاً حتّى هذه اللحظة أيضاً - أدرك أرتيوم فجأة أنّ هذين الشخصين يطيعانه.

حسناً، شيلكاتشوف أصغر سناً، وإن لم يكن كثيراً، ربّما خمس سنوات - هل هذا فرق كبير؟ ولا سيّما أن شيلكاتشوف، كما يبدو كان مثقفاً حقاً، على عكس أرتيوم: كان يمكن الشعور بذلك مباشرة من خلال كلّ تصرفاته وكلامه.

أمّا سيفتسيف فكان أكبر منه بخمسة عشر عاماً بالتأكيد - كان أرتيوم تقريباً مثل ابنه، إلى جانب ذلك، يبدو أنّه جلس لفترة أطول، وكان يتمتّع بحذاقة رجالية أكثر، وخبرة حياتية أغنى... لكنّه كان يطيع أرتيوم أيضاً.

اعترف شيلكاتشوف فجأة، بطريقة صبيانية ساذجة تماماً: "أنّني أرتكب الكثير من الأخطاء، بشكل عام. لقد تعرضت للضرب في سريّة الحجر. أشعر بخوف شديد عندما يضربونني. حسناً، أنّهم نقلوني من هناك إليكم. ولكن لو شرح لي أحد ما كيف عليّ أن أتصرّف. وما الذي يجب ألّا يفعل.

قال أرتيوم، دون أن يفتح عينيه مرّة أخرى: " لا يجب عليك أن تتمشى".

أدرك أرتيوم من خلال صمت سيفتسيف وشيلكاتشوف، أنّهما يستمعان إليه، وينتظران ماذا سيقول أيضاً. سيفتسيف- مع حذر الفلاحين الطفيف، ومحاولاً الوثوق إلى حدٍّ ما،أمّا شيلكاتشوف فقد انفتح على مصراعيه تقريباً.

فكّر أرتيوم بهدوء وبنوع من المعرفة المخجلة، أنّه في وضعه الحالي، ليس لديه الحق في تعليم أيّ شخص كان، وبدا أرتيوم في نفس الوقت، كأنّه يتفوّق على نفسه.

أراد في البداية بحقد أن يخيف شيلكاتشوف، لكنّه لم يفعل: إنّه أمر سخيف وغبي، عندما يخيفونه هو نفسه- وكادوا يجعلونه يخاف تقريباً.

قال أرتيوم: "لا تظهر أنّك مستريح- حتّى لو كنت لا تفعل شيئاً - تظاهر أنّك مشغول. لا تعمل ببطء، ولكن ليس بسرعة أيضاً. كما تتنفّس، اعمل، لا تحبس أنفاسك، فلن تتأخر إلى أيّ مكان هنا. لا تكن منفتحاً، ولا تظهر شخصيتك، ولا تحاول أن تكون قوياً- من الأفضل أن تكون غير ملاحظ. لا تكن فظّاً. اخف نفسك، وكن صبوراً لا تشتك"- تحدّث أرتيوم وعيناه مغمضتان، كما لو كان يملي، أم أكثر دقة، كما لو كان يستمع إلى شخص ما ويردد بعده.

" لا تأكل الخبز كلّه دفعة واحدة منذ الصباح، لقد رأيتك أكلت الخبز كلّه في أثناء الإفطار. اترك منه: ستأكله في النهار، سيكون لديك المزيد من القوة. عندما تتضوّر جوعاً - تريد أن تسرق. إذا بدأت في السرقة، فسوف تتوقف عن احترام نفسك، على الرغم من أنّ ذلك ليس مصيبة. الأسوأ إذا جرى القبض عليك. إذا قبضوا عليك فيمكن أن يقتلوك. ممنوع اصطياد النوارس وأكلها، أنت

تعرف ذلك؟ مع العلم أنّ هناك رغبة في ذلك. عندما ذهبنا اليوم، للاصطفاف من أجل التفقد الصباحي- حث كرابين السريّة بالعصا وهو على وشك أن يصيبك، لقد رأيت ذلك. حسناً، إذا أصابوك على ظهرك، فسوف يشفى الظهر، الأسوأ عندما يضربونك على الرأس. بمجرّد أن يبرد الجو، ارتد قبعة، وضع شيئاً طريّاً تحت القبعة. عندما يضربونك على الرأس- لن يكون هناك جرح. لا ترتد قبعة في الصيف: لأنّك ستخلعها بالتأكيد وتعلقها في مكان ما على غصنٍ، فسوف يسرقونها. أم ستنساها. لكن على الغالب سيسرقونها، قبل أن تنساها. أنت تحمل سجائر في علبة سجائر- خبئ علبة السجائر بعيداً، وإلّا فسوف يأخذونها. والغريب أنّهم لم يأخذوها في سريّة الحجر".

قال ميتيا بسرعة: "لم أرها لأحد".

واصل أرتيوم دون صرف انتباهه: "من الأفضل تدخين التبغ بشكل عام، ولا تضعه في كيس- لأنّهم ممكن أن يأخذوه منك أيضاً- ضعه في جيوبك".

تبيّن إنّ إعطاء الدروس ممتعاً للغاية. لم يستطع أرتيوم نفسه أن يخمّن متى وأين فهم كل ذلك - لكنّه فهم وشعر أنّه كان يقول الأشياء اللازمة.

لعب دور الساكن القديم، فلم يكن أرتيوم يشعر بأهميته فقط، بل بدا كأنّه اكتسب القوة، وأصبح يعتقد شيئاً فشيئاً أنّه متماسك، وبارع، وقادر على التعامل مع كلّ شيء.

بعد أن صمت للحظة، شعر أرتيوم أنّ الهدوء قد تغير- أصبح الهدوء بطريقة ما أكثر كثافة وأكثر توتراً.

فتح عين واحدة – هو كذلك، فتجهّم.

اقترب كرابين بهدوء واستمع إلى أرتيوم.

فتح أرتيوم عينه الأخرى ونهض ببطء.

قال كرابين بصوت غير مألوف: متعب، وهادئ- ليس كقائد فصيلة، ولكن مجرّد إنسان: "لنبتعد قليلاً، سأقول لك شيئاً".

"أنت لا تعط دروساً لسيفتسيف. أنت بتعليمك له تضرّه. هو يعيش بشكل صحيح. أمّا الطالب فيحتاج للتعليم، وما تقوم به صحيح" - قال كرابين ذلك، بمجرّد أن ابتعدا لخطوات عدّة، وعلى الفور، ودون أيّ مقدمات، بدأ يتحدث عن شيء آخر: "سيقيلني كوتشيرافا - ولكن من سيأتي ليحل محلّي، لا أعرف. لقد رتبت لك عملاً في الدير لشهر كامل... وشلكاتشوف أيضاً. هذا كلّ ما استطعت. لا أستطيع أن أتوسّط لكما بعمل آخر. أنت ستتدبر أمرك بنفسك فيما بعد" - تحدّث كرابين بسرعة، وبشكل متقطع، كما لو كان هذا التصرف جديداً بالنسبة له - "أمّا الجناة فقد أرسلتهم لنقل الجذوع. وشافيربيكوفا، والوثيقة، وكلّ هؤلاء الأنذال أيضاً. عساهم يغرقون هناك. لكن إذا لم يغرقوا، فأنت خلّص نفسك بمعرفتك. هناك ما يجب تعلمه في السجن أيضاً. تحتاج إلى شحذ زواياك. الكرة تتدحرج - فيجب التدحرج مع الحياة. هذا كلّ شيء".

غادر كرابين، وبقي أرتيوم يراوح مكانه، راغباً في تهدئة نفسه، لكنّه لم يستطع، وعاد إلى سيفتسيف وشيلكاتشوف بابتسامة على وجهه، مسروراً، وكأنّه دافئ من الداخل.

كأنّه لم يحدث شيء مميّز: كان من الواضح، منذ وقت ليس بالبعيد، أن كرابين لم يكن يعامله بشكل سيّئ لكنّه تحدث معه مباشرة الآن.

"وبشكل عام: جاء بأخبار سيئة، سيتم نقله"

- حاول أرتيوم إقناع نفسه بألّا يبتهج كثيراً، ومع ذلك لم يستطع.

سأل سيفتسيف أرتيوم المبتسم: "هل أهداك روبلاً، أم ماذا ؟ "أعتقد أرتيوم، دون أن يتوقف عن الابتسام، ما كان ينبغي عليه، أن يؤمن كثيراً بطاعة سيفتسيف له - كان المكر الفلاحي لدى سيفتسيف المنغلق، أقوى من أيّ شيء آخر لديه.

"قال كرابين إنّ القانون نشر في الجريدة: جميع الذين أصولهم من طبقة الفلاحين سيمدّد سجنهم سنة إضافية، لأنّهم يعرفون كيف يعملون ويحبون عملهم، وسيطلق سراح سكان المدن، لأنّه لا فائدة منهم. أنت من أيّ طبقة يا آفدي؟"

- سأل أرتيوم، مسلّياً نفسه.

نظر سيفتسيف باهتمام وتوترلدقيقة، ثمّ لوّح بيده باستياء، وقال: " نكتة غبية، لا لزوم لها".

ضحك شيلكاتشوف: " لقد صدّقت!، صدّقت وفرحت! من المخجل!".

ظهر رئيس المجموعة سوروكين قبل الغداء مباشرة وبدأ بالصراخ: "لماذا تجلسون؟ لماذا لم تناموا مباشرة هنا؟".

نهض سيفتسيف، وقفز شيلكاتشوف، لكنّ أرتيوم بقي جالساً، ينظر إلى رئيس المجموعة من الأسفل إلى الأعلى، وهو يزرّ عينيه قليلاً.

سأل سوروكين، وقد بدأ صوته الأجشّ يتحول إلى نشاز: "هل شلّت رجلاك؟".

أجاب أرتيوم، وهو يقف على رجليه: "لا تصرخ، وإلّا فسأخبر كوتشيرافا بأنّك تركتنا دون عمل".

صمت سوروكين فجأة.

سأل أرتيوم بلهجة خطابية، وهو في الوقت نفسه يشعر بمدى رائحة سوروكين المثيرة للاشمئزاز: "أليس وقت تناول الغداء الآن؟"، وتوجه مباشرة، وبخطوات بطيئة إلى السريّة.

بعد نصف دقيقة، رأى ظلّي سيفتسيف وشيلكاتشوف يلحقان به.

صاح سوروكين وراءهم: "يجب أن تكونا بعد الغداء هنا، يا بلّاعي القاذورات!".

" حاضر!" - أجاب أرتيوم دون أن يستدير وأومأ بيده... وخلال ذلك، لاحظ بطرف عينه، أن شيلكاتشوف كان ينظر إليه بإعجاب حقيقي.

"لقد تغلبت على رئيس المجموعة في هذه اللحظة، لكنّه بالتأكيد سيفوز علي بعشرة أضعاف" - حسبها أرتيوم بينه وبين نفسه، وهو يبتسم، واستخلص النتيجة كما اعتاد أن يفعل في الأيام الأخيرة: أنا أحمق. أحمااااق".

قال شيلكاتشوف: "سمعت ما جرى، عندما اقترب منك ذاك المجرم أمس - لم تخف".

لم يجب أرتيوم.

باعتبار الوثيقة يعمل الآن في نقل الجذوع ، فلن يكون موجوداً، على الأقل، وقت الغداء.

فكّر أرتيوم بسخرية حزينة: " لولا ذلك لكان لدى ميتيا كلّ الفرص ليصاب بخيبة أمل منّي على الفور".

قال شيلكاتشوف ضاحكاً بسعادة أكثر بقليل ممّا ينبغي:" لكنت أعطيتهم الطرد على الفور - كنت أعطيتهم كلّ شيء مباشرة!".

عندما خرجوا بعد الغداء، لم يكن سوروكين موجوداً من جديد، حتّى إنّ أرتيوم بدأ يقلق، على الرغم من أنّه لم يظهر ذلك. ومع ذلك، لم يعد يجلس على المقعد - وقف في منتصف فناء الدير، موحياً أنّه مسترخٍ.

مرّ كاهن يرتدي خوذة الجيش الأحمر، متوجهاً إلى مكان ما. بعد ذلك مرّ رجل أنيق يرتدي حذاءً من الجلد اللامع يحمل عكازاً، من الواضح أنّه من سريّة الفنانين. "أم من المجلّة "- توقّع أرتيوم. جرى اقتياد ثلاثة فهود إلى مكان ما، تحت الحراسة - ضعفاء، قذرين، وجوههم مليئة بالجرب، مثيرة للاشمئزاز، أفسدوا المزاج بالكامل.

لاحظ سيفتسيف أحد معارفه، وذهب ليسأله عمّا إذا كان قد رأى رئيس المجموعة سوروكين... تمعّن شيلكاتشوف مرّة أخرى في الهندسة المعمارية... رأى أرتيوم الأيل الصغير وأراد أن يتدفأ بلمس فروه اللطيف ورائحته الذكية.

لقد حدث أنّه اتجه نحو الأيل، ولم يلاحظ المرأة التي كانت تقترب منه باللحظة نفسها.

كانت هذه غالينا من قسم المعلومات والتحقيقات، وكانت تحمل سكّراً في يدها. عندما رآها أرتيوم قادمة من الجانب الآخر، من اليمين، كان من المحرج

التظاهر، أنّه يسير في الاتجاه الآخر. لقد اقتربا من الأيل في الوقت نفسه تقريباً، وفي هذه الحالة كان أرتيوم مجبراً على القول "مرحبا!".

بشكل عام، لم يكن لديه أيّ حق بإلقاء السلام عليها – تماماً، كما جميع سجناء السريّة الثانية عشرة، لا يسمح لهم حتّى بالتواصل المباشر مع قيادة المعسكر، لكن ربّما لم تكن تعرف من أين هو. ربّما رجل إطفاء من السريّة الخامسة.

كانت غالينا ترتدي سترة وتنورة، وجزمة بكعب عالٍ منظفة جيداً. كان واضحاً جداً، أنّ لديها نهدين كبيرين تحت السترة.

سألت غالينا بحزم، ونظرت إلى أرتيوم بسرعة: "هل تلقي التحيّة عليّ أم على الأيل؟".

قال أرتيوم، وهو يمسّد جلد الأيل ميشكا، في مكان واحد، كما لو كان يشعر بالحكة هناك: " لقد سبق أن التقينا".

أعادت السؤال غالينا ببساطة: "هل هذا صحيح ؟. لم أنتبه إليك".

فكّر أرتيوم برقة لا يمكن تفسيرها: "يا لها من عاهرة".

أطعمت الأيل سكّراً وغادرت دون أن تومئ إلى أرتيوم.

لم يستطع أن يرفع عينيه عنها. يبدو أنّ غالينا شعرت بذلك - كانت مشيتها مثيرة له.

تقدم الأيل خطوة للأمام، ويبدو أنّه كان غير راضٍ من أنّ أرتيوم كان يحكّه في مكان واحد فقط.

قال أرتيوم بصوت منخفض، من أجل التخلّص من الإثارة الثقيلة والخانقة، بطريقة ما: "أود أن أتناول السكّر أيضاً".

تخيّل أنّه يأكل سكّراً من يد دافئة، ويرى الخطوط في راحة اليد والرسغ، ويشم رائحة عرق الأنثى النقيّة التي لا تكاد تكون محسوسة. إذا قمت بلعق راحة اليد، إذا كان فيها سكّر، فستكون حلوة.

صرف انتباهه عن السكّر سوروكين- لم يصرخ هذه المرّة، لكنّه ظلّ ينظر إلى أرتيوم.

قال بضجر: " جلستم اليوم كلّه دون عمل - ألا تؤلمكم عظامكم؟".

لم يستطع أرتيوم السكوت، فقد أتته موجة من التحدي: " ماذا؟ كان لدينا عمل- جاء المواطن إيخمانيس اليوم، وأمر بإحصاء عدد نوارس الدير".

غصّ سوروكين للحظة، لكنّه أدرك بعد ذلك أنّه يخدعه.

قال سوروكين: " تواصل المزح؟ من الآن سوف أتذكّرك ".

لكن شيئاً ما منعه من سحق أرتيوم على الفور.

لم يكن العمل الذي كلفوا القيام به هو الأصعب، لكنّه متسخ: تنظيف مكب النفايات بالقرب من المستشفى وهو عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق، ليس بعيداً عن بوابات الدير.

كان بالقرب من المستشفى، أرائك عدّة رهبانية صفراء- يبدو أن المرضى أنفسهم، جلبوها بناءً على تعليمات الأطباء، للاستلقاء عليهم تحت أشعة الشمس، وكشف أرجلهم المصابة بداء الإسقربوط. لم يعجب ذلك كثيراً النوارس، لسبب ما.

فكّر أرتيوم باستخفاف: "بعد هذا العمل، لن تطعمك بالتأكيد سكّراً"- محاولاً عدم النظر إلى الضمادات المليئة بالقيح، والخرق التي تفوح منها رائحة اللحم البشري نصف الميّت.

نقلوا كلّ هذه الأوساخ على عربة يدوية، كانوا يسحبوها بالتناوب خارج البوابة، أحياناً ميتيا، ثمّ سيفتسيف، ثمّ أرتيوم: مع العربة كان الأمر أكثر متعة - بكل الأحوال نزهة، ونسيم.

عندما استدار أرتيوم ، وهو يسحب عربة قمامة أخرى، لاحظ فجأة وجوه نسائية تطلّ من نوافذ الطابق الثالث- وحدّق فيها.

لقد أخافته النوارس: فقد اندفعت بعد كلّ عربة، مهتاجة قليلاً من رائحة الرجس المزعج - لا بدّ أنّها اعتقدت أنّ شيئاً ما صالحاً للأكل، يجري إبعاده عنها.

كان عليه المغادرة. حيّا النساء الشابات بإصبعين، وهنّ ضحكن.

سأل سوروكين فجأة أرتيوم عندما كان عائداً ببطء، يجرّ العربة الفارغة: "كيف يمكنك إبلاغ كوتشيرافا عنّي. أنتم أيّها الشياطين ممنوع عليكم التواصل مع القيادة مباشرة؟". ربّما كان يفكّر طوال هذا الوقت في التهديد الذي وجهه له أرتيوم تقديم شكوى ضده لقائد السرية.

خمّن أرتيوم: "ربّما كان يقوم ببعض أعماله الدنيئة قبل الغداء. وهو خائف الآن."

قال أرتيوم، وهو يحاول التحدّث بطريقة يفهم منها أنّه غير جاد: "كتابة".

قال سوروكين وراءه، ولكن ليس بثقة كبيرة: "سأجعلك تتعفن".

فكّر أرتيوم: "إلى هذا الحدّ رائحته كريهة، أنقل نفايات المستشفى، لكن رائحة سوروكين الكريهة أقوى. هل من المعقول أنّ أحداً ما يستطيع أن يحبّه؟ أمّه ؟ زوجته؟ أطفاله؟ الله أخيراً؟ ".

كان المساء يقترب- عادت الأفكار تتوارد حول الوثيقة. والتقط أرتيوم فكرة، تخيّل بالتفصيل، كيف انزلق الوثيقة واختفى في القاع... وبدأ في الظهور- وقد فجّ رأسه غصن حاد على الجذع، وبقي معلقاً به......أم كما هي العادة أغاظ رئيس المجموعة، الذي لم يقدر قوّة الضربة - ضرب الوثيقة على مؤخرة رأسه ما أفقده ذاكرته وعقله. يمشي الوثيقة الآن، ويسيل لعابه حتّى السرّة، ولا يتعرّف على أحد... أم حرّض الجناة الوثيقة ليجهّز نفسه للهروب، وهذا يحدث أيضاً. لكن الحراس اكتشفوا بسرعة نواياهم، وعندما حاولوا الهرب... رأى أرتيوم بوضوح كيف أصابت الرصاصة الوثيقة، في عموده الفقري،على سبيل المثال، وهو مستلقٍ الآن، يرمش بعينيه، غير قادر على الحركة.

فكّر أرتيوم: "آه، يا لها من سعادة!".

ثمّ لوّح بيده، طارداً أفكاره هذه: يا لها من حماقة! إنّها حماقة!.

حاول أن يفكّر بجدية: "حسناً، إنّهم لن يقتلوني. سأفكّر لحين وصول الطرد، في حلٍّ ما. أم ربّما سأعطيهم قسماً منه؟ ولماذا أنت تغضب من فاسيلي بيتروفيتش وأفاناسييف؟ هل سيفقدان حياتهما من أجلك؟ هما بطريقة ما يتدبران أمر أنفسهما. وأنت يجب أن تتعلّم. لقد قال كرابين: هناك ما يجب تعلّمه. فتعلّم ".

التقى أفاناسييف أرتيوم في السريّة، ابتسم أفاناسييف له، وكان أرتيوم سعيداً للغاية بذلك. لدرجة أنّه كاد يعانق الشاعر - حتّى إنّه مدّ يده، لكنّه اقتصر بربت أفاناسييف على كتفه.

حدّث أفاناسييف أرتيوم، بعد دقيقة، عن آخر الأخبار: "في الواقع، دفع الجناة لكوتشيرافا لإزاحة كرابين. وماذا عن كوتشيرافا؟ لديه امرأة في القسم الإداري، بشعة للغاية - مثل لعي النفس بعد صداع الكحول. يحتاج للنقود من أجلها: يجب إرضائها بطريقة ما. جاهز لفعل أيّ شيء مقابل المال. وقد ضايق كرابين الجناة كثيراً- لقد رأيت بنفسك. أرادوا في البداية ذبح كرابين، لكنّهم قرروا فيما بعد، من الأسهل الاتفاق مع كوتشيرافا".

أمسك أفاناسييف غرّته مبتسماً.

سأل أرتيوم: " إذن من هو قائد الفصيلة الآن؟".

استغرب أفاناسييف السؤال، وأجاب: "ألا تعلم؟ كلّف بورتسيف بالقيام بمهامه. فقد جرى إزالة كرابين مؤقتاً. لكنّه لن يعود بالطبع. سينقل إلى مكان آخر".

استغرب أرتيوم: " بسبب المشرّد؟".

ضحك أفاناسييف، وأجاب : "حسناً، أعتقد كان من الممكن إيجاد عشرة فهود أموات تحت المضاجع - ولم يكن ليحدث شيء...على الرغم من أنّه لا، بالطبع: القتل المباشر في السريّة ليس مزحة أيضاً. أعتقد بشكل عام، أنّ

كوتشيرافا وصف كلّ شيء بشكل صحيح في تقاريره لرؤسائه. الشيء الرئيس، كما تفهم، هو أن تكتب كما يجب".

سأل أرتيوم: "ماذا عن إيخمانيس؟".

ضحك أفاناسييف، وقال:" هل ترى أنت، إيخمانيس كثيراً؟ إنّه مشغول بحواضنه، والصيد، ويذهب إلى المسرح... إنّه لن يقوم بالتحقيق في كلّ هذه القصص التافهة، لن يهتم بما حصل مع أحد رؤساء الفصائل!".

سأل أرتيوم: "ولماذا جرى تكليف بورتسيف؟".

أوضح أفاناسييف: "أنّ كوتشيرافا ماكر. على الرغم من أنّه أزال كرابين بتحريض من الجناة، إلّا أنّه لا يريد البقاء بمفرده وجهاً لوجه مع الجناة: فيما لو كانت يدهم هي العليا في السريّة، فسيكون الأمر صعباً عليه هو نفسه. لذلك يوفر الدعم لنفسه في شخص بورتسيف".

سأل أرتيوم سؤالاً وراء سؤال، وفكّر في نفس الوقت: "إنّها حياة كلاب! كنت دائماً مشغولاً بأشياء أكثر أهمية: ما هو الكتاب الذي صدر لغوركي، أيّ فتاة جميلة في عجلة من أمرها بشارع نيكيتسكايا، هل ألحق بها؟ - يجب العثور على آخر مجموعة شعرية لبالمونت- والدتي تخبز شيئاً مع اللبن الرائب، سأذهب وأرى- يقولون، ظهر بيلنياك ما - لم أقرأه لحدّ الآن... أمّا هنا كرابين! وهنا بورتسيف، ليأخذه الشيطان! فأيّ أهميّة لكلّ ذلك؟".

قاطع أرتيوم نفسه: "أصبح من الواضح لماذا سوروكين وديع للغاية اليوم. لقد تمّت إزالته كقائد فصيلة، يجب التصرف بشكل أكثر تواضعاً، حتّى تنحسر الضوضاء... أمّا هو فقد غاب نصف يوم في مكان ما...".

ذهب أفاناسييف إلى مكان ما، ولكن ظهر فاسيلي بيتروفيتش يحمل ثماراً، وتحدّث بنفس الموضوع.

قال وهو يضحك بصوت لا يكاد يكون مسموعاً: "هل لاحظت كيف يحوم خادم الجنرال حول بورتسيف منذ الصباح؟".

كان تصرّف خادم الجنرال السابق، مشابهاً لتصرّف الجنرال نفسه- على الرغم من أنّه لا يمتلك اللياقة الأرستقراطية، لكنّه مغرور ومتكبر، ولذلك أطلق عليه لقب السماور.

ضحك أرتيوم بالنبرة نفسها التي ضحك بها فاسيلي بيتروفيتش:إنّه "سماور"؟- وهذا صحيح يشبهه تماماً!".

قال فاسيلي بيتروفيتش، رغم ضحكه، ولكن بشيء من المرارة، وهو يطعم أرتيوم ثمار التوت البري: "ومستيسلاف الذي لدينا ليس ضد. لم تتح له الفرصة أن يكون جنرالاً عندما كان حرّاً- سيتمتع بالسلطة الجنرالية في سولوفكي. كُلْ ثمار التوت البري. يقولون إنّها تتوفر هنا حتّى شهر تشرين الثاني"- ونظر إلى أرتيوم بمعنى: عبثاً تهرّبت من مثل هذه المهمّة المباركة.

عند رؤية جارهما عائداً، سأل فاسيلي بيتروفيتش بصوت منخفض: "هل انتهت علاقتك بأفاناسييف؟ لا يزال الفشل يتتبع أثارك- لا تغتر قبل الوقت المحدد".

ربت أرتيوم على ركبة فاسيلي بيتروفيتش حتّى دون تكلّف: جي- ي- يد! كلّ شيء على ما يرام!

هزّ فاسيلي بتروفيتش رأسه بحزن: حس- ناً، حس- ناً.

حس- ناً، حس- ناً

لقد كانت ثمار التوت البري حامضة.

فكّر أرتيوم مرّة أخرى، وهو يعبس: " لو كان هناك سكّر".

رنّ جسده، وطالب بالحياة.

لم ير أرتيوم الوثيقة عندما عاد- في أثناء التفقد المسائي، لم تكن قد عادت المجموعة التي ذهبت لنقل جذوع الأشجار.

ومع ذلك، في الصباح، وبغض النظر عن ما كان يحلم به أرتيوم، ظهر الوثيقة على قيد الحياة، وإن كان من الواضح أنّه متعب من العمل، وعلاوة على

ذلك، كان مريضاً: كان يخنخن وهو يتحدّث، وكان يستنشق مخاطه بصعوبة، كأنّه يزن نصف كيلو.

تذمّر الوثيقة، وهو يمسك بقميص أرتيوم الذي كان يسير مع قصعة نظيفة، إلى مضجعه: "لقد انتظرت طوال اليوم: ولا يوجد طرد لحّد الآن، وصحتي تزداد سوءاً، أعطني المعطف".

أجاب أرتيوم: "خذ اللعنة". وباعتبار أنّه كان يمسك القصعة بيده اليمنى، ضرب الوثيقة على جبهته بهذا القصعة بالذات- صدر صوت رنين وأصبح الأمر مضحكاً.

لم يكن الوثيقة وحيداً- فاندفع العديد من الجناة نحو أرتيوم الذي قفز جانباً، كما لو كان يلعب، ثمّ إلى جانب الآخر، ولسبب ما قفز بشكل جانبي إلى مضجعه، كما لو كان لديه مسدس مذخّر ملقى تحت معطفه.

لكن لم يكن هناك أيّ مسدس، وكان الهروب بلا فائدة.

على الرغم من إدراكه لذلك، كان أرتيوم يبتسم، وقد رمى مقعداً صغيراً تحت قدمي أحد الجناة بيده اليسرى، وفي نفس الوقت تمكّن من ملاحظة ميتيا شيلكاتشوف الذي صعد إلى مضجعه، وأفاناسييف الذي كان يستعد للقفز من مكانه، ولكنّه لم يقفز، وفاسيلي بيتروفيتش الذي لم يفهم بعد ما الذي عليه فعله، ومويسي سولومونوفيتش الذي فتح فمه كما لو كان يريد الغناء، وحتّى السماور الذي سارع تحسّباً، بوجه متجهّم غير طبيعي، لحماية مضجع بورتسيف من التأذي.

لم يرَ أرتيوم بورتسيف نفسه، لكنّه كان هو الذي أمسك بأرتيوم من ياقته. الشيء الجيد أنّ أرتيوم عرفه على الفور، وإلّا لكان بورتسيف قد حصل على ضربة قصعة على خدّه الشاحب.

"ماذا يجري، ما هذا الرقص؟ بسرعة إلى أماكنكم!"- صاح بورتسيف.

صاح المناوب اليومي خاسايف: "اصطفوا، ليقف كلّ واحد جنب مضجعه! اصطفوا، ليقف كلّ واحد جنب مضجعه!".

دخل كوتشيرافا وعدد من المسؤولين في قسم المعلومات والتحقيقات، وجنود الجيش الأحمر من سريّة الإشراف، بسرعة إلى السريّة. وبدأ التفتيش.

بحثوا تحت المضاجع، وفتشوا أكياس الأوعية، ونبشوا الثياب، ولم يتركوا قطعة إلّا وقلبوها رأساً على عقب.

صرخ أحدهم من الفصيلة المجاورة: " أيّها القائد، لماذا تمزقون البطانة ؟".

ضربوا شخصاً ما على أسنانه.

حاول شخص ما، مستغلاً حالة الهرج، البحث في أغراضه، وإخفاء الممنوع - أمسكوا به من ساقه، وجرى سحبه من المضجع إلى الأسفل، وعاقبوه بركله بالأحذية على جانبيه.

كان أرتيوم يتنفس بعمق، ويفكّر بشكل محموم، وينقّل نظره بين الجناة، أم إلى بورتسيف لسبب ما، والذي كان يسير وراء كوتشيرافا، متخذاً مظهراً جاداً للغاية، وكان من وقت لآخر يبحث بين أغراض الأشخاص الذين نام بجوارهم أشهراً عدّة.

كان سوروكين هنا أيضاً، ويتململ مثل الآخرين - على الرغم من أنّ هذا الأمر لم يكن يخصّه على العموم.

تساءل أرتيوم : "هل سيذبحونني اليوم أم لا؟" - ولكنّه لاحظ، وليس دون رضا، أنّه لسبب ما لم يكن خائفاً.

أجاب من نفسه: "ولماذا يجب أن تخاف - هم لن يذبحوك. أنت تقع تحت حراسة جنود الجيش الأحمر... سأرى عندما يبدؤون فعلاً بذبحك... لو يستمر التفتيش حتّى المساء. ويبدأ تفتيش جديد منذ الصباح الباكر".

شيئاً فشيئاً، وصل الدور إلى أرتيوم - حتّى إنّه لم ينظر عمّا كانوا يبحثون لديه: كانت أغراضه قليلة، ولم يكن قد جمع الكثير منها.

سأل جندي أحمر من مكان ما في الأعلى - "هذا الكيس لمن ؟". كان أرتيوم في ذلك الوقت ينظر إلى حذاء بورتسيف. كان يمكن من أجل تلميع الأحذية

للقادة، استخدام برميل زيت السمك الذي يقع بالقرب من قسم المعلومات والتحقيقات. لم يكن من المفترض أن يستخدم بورتسيف هذا البرميل، بصفته مكلّفاً بالأعمال، لكن من الواضح أنّه استخدمه بالفعل.

أعاد كوتشيرافا السؤال، بصوت عالٍ: " هذا الكيس لمن؟".

دفع بورتسيف أرتيوم من صدره:

"هل نمت؟"

تطلّع أرتيوم إلى الوراء، ورأى جندي الجيش الأحمر يمدّ يده بأوراق اللعب من الأعلى. اتخذ فاسيلي بيتروفيتش خطوة إلى الجانب.

قرّر أرتيوم لسبب ما، أنّه يناوله أوراق اللعب، ودون أن يفكّر لماذا هو يفعل ذلك، أخذها، على الرغم من أن كوتشيرافا كان على وشك أن يأخذها بأصابعه المشعرة.

أمسك أرتيوم أوراق اللعب بيديه لعدّة ثوانٍ، مدركاً تلقائياً أنّ المنجل والمطرقة المرسومين على ورقة اللعب الموجودة فوق الرزمة تعني الآس، وأمّا الورقة التي تحتها والتي رسم عليها بدقة جندي الجيش الأحمر، كان الولد.

انتزع بورتسيف الرزمة من أرتيوم، وسلّمها إلى كوتشيرافا، إذ وقع منها أوراق عدّة.

قال بورتسيف: "التقطها".

هدّده كوتشيرافا: "ستذهب إلى زنزانة العقاب".

قال أرتيوم وهو واقف ويبتسم: "هذه ليست لي".

وافق كوتشيرافا قائلاً: "هذه لي إذاً، كنت أحتفظ فيها بكيسك فقط".

ضحك رئيس المجموعة سوروكين، والشيشاني المناوب، وجنود الجيش الأحمر الذين كانوا يقفون في مكان قريب.

كرّر بورتسيف: "التقطها".

قال أرتيوم، وهو يلفظ كلّ كلمة بدقة، وغاضب ومرتبك في نفس الوقت: " أذهب إلى الجحيم أيّها الملازم".

كان أوّل من ضرب أرتيوم سوروكين الذي كان جاهزاً للانتقام. كانت الضربة ليست قويّة، هوى بها على أرتيوم لكنّها كانت غير موفقة.

تحرّك الشيشاني خاساييف وأمسك بأرتيوم من الخلف، من تحت إبطيه، محاولاً تثبيته: ليضرب كل من يريد؟ نطحه أرتيوم بمؤخرة رأسه بقوة، فأصاب المناوب في مكان ما على وجنته...

ثمّ جرى كلّ شي بسرعة مضاعفة ثلاث مرّات: ضرب بورتسيف أرتيوم، بشكل مؤلم ودقيق ومهين على وجهه- خفّت قبضة الشيشاني للحظة، وردّ أرتيوم على بورتسيف بنفس القوّة، وبشكل مهين من الأسفل، ليصيبه بدقة...... ثمّ بدء الجميع بضرب أرتيوم، حتّى كوتشيرافا، على ما يبدو، اشترك معهم...

أدرك أرتيوم فجأة، أنّهم قد يعطبونه، استطاع أن يقع على الأرض، وأن يلتف حول نفسه على الأرض المتسخة، وتخبئة رأسه على الأقل تحت المضجع، لكنّهم سحبوه من ساقيه... فتح عينيه مرّات عدّة، ورأى الجزمات والأحذية، وأيدي شخص ما، ثمّ أغمضهما مرّة أخرى، تحمّل، ولم يصرخ، وحاول حماية نفسه... إلى أن أصابوه بمجرى تنفسه- اضطربت أنفاسه- ظهرت نجوم منكسرة في السماء السوداء الخالية من الهواء، ثمّ أصابه بوز جزمة ثقيلة على صدغه بالضبط.

كرّر أرتيوم بسرعة: "هكذا، هكذا، هكذا إذن..."، كحجر يغوص إلى القاع.

كان أرتيوم، مثل بقية المرضى والمقعدين، مستلقياً على أريكة من الدير ذات ظهر مرتفع. لم يكن الاستلقاء مريحاً جداً، لكنّ الأريكة كانت طرية: كان على كلّ أريكة فراش محشو بالقش.

كان قد استيقظ في الطريق.

فكّر بذهول: "هل يأخذونني للدفن؟ - قتلوني ويحملونني لكي يدفنونني؟".

كان وجهه مغطّى بأكمله بعصيدة دموية، وكان صدره، كما لو أنّ وتداً قد دقّ فيه، ومال الفم من مكانه إلى الجانب والتصق، وكان صدغه ينبض كلّ ثانية، وينتقل الألم بشكل رهيب إلى العين. لم تنفتح عيناه أيضاً. كان صدغه يخفق، بحيث بدا أنّ رأسه مكسور والدماغ يسيل شيئاً فشيئاً، مثل العصيدة الساخنة من وعاء مقلوب.

حرّك أرتيوم لسانه في فمه، ووجد أسنانه، حتّى إنّه اندهش: الأسنان موجودة، يا للغرابة كان من الممكن ألّا تكون على الإطلاق... لكنّ الشفتين كما لو أنّهما خيطتا. رطبهما باللعاب قليلاً- افترقتا- وشعر بقوّة أكبر بلحية ضخمة على وجهه- لحية دامية وخشنة.

خمّن من خلال صراخ النورس، أنّه في الشارع. وخمّن من خلال الأصوات: أنّ الذين يحملونه، المناوبون الشيشان.

كان يشعر بالغثيان والعطش.

سمع صوت: "من هذا؟ أحد آخر مضروب؟". كان الصوت لأحد سكان آسيا أم القوقاز.

أجاب المناوب بأسى شديد، كأنّه يتحدث عن طفل: "لا دكتور علي، لقد سقط".

سأل علي: "عن الشجرة؟". حسب التعب الذي قيلت فيه هذه النكتة، أدرك أرتيوم أنّ الطبيب كان يكررها للمرّة المئة.

أجاب المناوب بجديّة شديدة: "لا، عن الأرض، وطقطق بلسانه".

وضعوا أرتيوم في غرفة الاستقبال، عاينوه لفترة طويلة ولمسوه في كلّ مكان، حتّى إنّ ذلك بدأ يطمئنه- على الأقل هناك من يهتم به.

وجدوا جرحاً متهتكاً على صدغه، وكدمات متعدّدة. أعرب الدكتور علي عن شكوكه في وجود كسر في الضلع، وارتجاج في المخ.

أعطوه كأساً من الكحول، شربه أرتيوم لاوياً حنكه- وقاموا على الفور بخياطة الجرح على صدغه، بعد أن غسلوا جزءاً واحداً من رأسه فقط، وذلك حول الجرح فقط. عمل د. علي بسرعة - تحمّل أرتيوم، وتحمّل، وعندما أراد أن يصرخ، أمروه : انهض واذهب من هنا.

وقف- أراد أن يتقيأ بشدة. من الجيد أنّه رأى حوض المغسلة، بصق فيه عصيدة الدخن مع الملفوف، فاحت رائحة الكحول بشكل يثير الاشمئزاز من كلّ ذلك.

أحضر فاسيلي بيتروفيتش أغراض أرتيوم. عندما كان أرتيوم يسير ببطء في الممر، إلى غرفة المرضى، ناداه فاسيلي بيتروفيتش، ورفع الكيس إلى الأعلى، مشيراً بإيماءة إلى أنّه سيسلّم الأغراض إلى الأطباء.

شقّ أرتيوم شفتيه، ووجد في نفسه قوّة للمزاح ، فسأل: "هل أعادوا ورق اللعب؟"، لكن فاسيلي بيتروفيتش لم يسمع.

لم يكّرر أرتيوم السؤال: من صوته كاد يفقد وعيه مرّة أخرى.

في اليوم الأوّل، لم يعالجوا أيّ شيء آخر، أجبروه على الاغتسال فقط - في بانيو كبير بالطابق الأرضي، ملئ بمياه لا تكاد تكون دافئة. كاد أرتيوم أن يغرق هناك، لم يزل الصابون بشكل كامل، خرج مسرعاً، حتّى إنّه نسي أن يغسل وجهه، بعد ذلك لم يتذكّر أيّ شيء...

... أعطته ممرضة مسنّة، كانت تقوم بجولة على المرضى مرتدية معطفاً أبيضّ ووشاحاً، مقياس حرارة وثلجاً لوضعه على صدغه.

عادت من أجل مقياس الحرارة بعد نصف ساعة، تمكّن أرتيوم من النوم خلال هذا الوقت. ذاب الجليد على صدغه، وكان الحلم لزجاً وضيقاً وخانقاً ومتأرجحاً.

" ماذا لدي؟" - سأل أرتيوم، وهو ينظر إلى مقياس الحرارة.

أجابت الممرضة: "حرارة".

سأل أرتيوم "عالية؟". كانت إمّا عيناه وإمّا فمه يلتصقان طوال الوقت. وكان الدم الذي يتدفق في صدغه، كثيفاً يشبه العلقة.

أجابت: "نعم ".

وغفا مرّة أخرى.

ثمّ استلقى وأخذ يلمس ظهر الأريكة الخشبي العالي بيده - ذكّره شكلها بالموجة. تذكّر أرتيوم على الفور، أنّه كان لديه أريكة مماثلة في طفولته، إذ كانت في غرفة الضيوف. كانت المكان المفضل للعب، إذ قاد أرتيوم قوافله على طول حافة الجزء الخلفي من الأريكة: حصان لعبة صغير وثلاثة جنود من ألوان مختلفة. هذه المجموعة بأكملها، كما لو أنّها كانت تسير على الجبل وفي بعض الأحيان كانت تفقد أحداً ما: إمّا قاذف قنابل يدوية ذو عيون بارزة، وإمّا رامياً مع رمح مكسور، وإمّا جنديّاً رومانيّاً. كان الحصان ينجو دائماً، لسبب ما.

كانت الأفكار التي خطرت على رأس أرتيوم في المساء غير متوقعة.

"هل من أجل ذلك قمنا بالثورة ؟" - فكّر، وهو ينظف الصابون الجاف عن صدره بأظافره، رغم أنّه لم يشارك قطّ في أيّ ثورة - هل من أجل أن يضربني عدو الثورة بورتسيف على وجهي؟ هذا الحرس الأبيض القملة التي لم يتمّ التخلص منها؟ هؤلاء الشيشان - من أجل ماذا هم في السجن؟ بالتأكيد هؤلاء الكلاب كانوا يتكالبون ضد السلطة السوفييتية! أمّا سوروكين، فهو آكل لحوم بشر حقيقي! لماذا لم تعدمهم الثورة جميعاً؟ لماذا يجرؤون على ضربي؟".

فكّر أرتيوم بالكلمات نفسها، لفترة طويلة جداً، ربّما ساعة أم أكثر. لقد وصل إلى النقطة التي حلم بها بشكل ضبابي، كيف سيكتب ويبلّغ الإدارة عن كلّ شيء. لم يكن أرتيوم يعرف، ما الذي سيبلّغ عنه الإدارة، لكنّه أراد الانتقام حدّ

البكاء، كما الطفل- كان يحلو له تخيّل، كوتشيرافا، وسوروكين، وبورتسيف، والمناوبين- يأخذونهم جميعاً، والوثيقة أيضاً، وشافيربيكوف، إلى الإعدام.

يطلقون في سولوفكي على الإعدام رمياً بالرصاص أسماء مختلفة. ألبعض يقول سيأخذونهم إلى اليسار، والبعض الآخر يسميه تحت الضرب، والبعض الثالث يقول إرسال إلى القمر، والبعض الرابع إرسال إلى السريّة السادسة عشرة. وبشكل عام، كان يطلق على أيّ موت إرسال إلى السريّة السادسة عشرة - سواء كان ذلك بسبب المرض أم الانتحار أم أيّ شيء آخر.

شعر أرتيوم بقوّة إنّه يريد الموت لهم جميعاً، إذ اختلط الغضب الحار والشفقة على الذات التي لا تطاق، وكان يعطي الأوامر في عقله: كوتشيرافا؟ تحت الضرب!- وبدأ كوتشيرافا يبكي، ويمسح الدموع عن ذقنه غير الحليق. سوروكين؟ إلى اليسار!- بدأت تفوح من سوروكين رائحة أقوى وأكثر إثارة للاشمئزاز، وهو يتمسّك بالمضجع، وهم يسحبونه إلى الشارع. بورتسيف؟ إلى القمر! - ورأى كيف يشحب بورتسيف ويصرخ فجأة: "من أجل ماذا؟ ما الأمر؟ أيّ قمر بحق الجحيم!- لكنّهم لا يستمعون إليه.

فجأة، تذكّر أرتيوم رواية جول فيرن: "من الأرض إلى القمر".

تساءل أرتيوم: "انتظر، ما هو اسمها الكامل؟"- وبعد لحظة من التردد، تذكّر: "من الأرض إلى القمر عبر طريق مباشر خلال ٩٧ ساعة و٢٠ دقيقة."

فكّر أرتيوم: "هل يوجد هنا في سولوفكي ولو شخص واحد آخر على الأقل، قرأ هذا الكتاب؟"- معتبراً بالطبع أنّ معرفة جول فيرن دليل على تفوقه الواضح الذي لا يمكن إنكاره. وفي الجوهر، فإنّ هذه المعرفة وحدها كافية لإطلاق سراح أرتيوم على الفور من هنا- وأكثر من ذلك، عدم السماح بضربه أمام السريّة بأكملها! من أجل ورق لعب لأشخاص آخرين، جرى وضعه بين أغراضه!".

"أفاناسييف هو من وضع الورق لي!

"- أدرك أرتيوم ذلك بحدّة، لدرجة أنّه شعر بألم في صدغه من جديد، ومن هناك انتقل إلى عينه.

أقترب بهدوء منه، كاهن سابق، حسب ثيابه، وطلب:

"هل لديك قطعة خبز؟"

لم يفهم أرتيوم: "ماذا؟".

طلب الكاهن مرّة أخرى بشفقة: " قطعة خبز". كان يرتدي سترة نسائية فوق الغفارة، على الرغم من الجو الحار.

قال أرتيوم مكشّراً: "ليس لدي أيّ شيء". واختبأ بالكامل تحت الشرشف.

كرّر أرتيوم لنفسه في الظلام: "إنّه أفاناسييف! ومن غيره؟ هذا الشاعر الحثالة. إنّه حثالة. يا له من حثالة. سأقتل هذه الحثالة!".

لمس شخص ما مباشرة رأس أرتيوم، من فوق الشرشف. لعن، وأخرج من تحت الغطاء رأسه، ورأى الكاهن من جديد: لم يغادر. سأل مرّة أخرى:

" ماذا عن السكّر؟ - ألا يوجد سكّر؟"

صرخ أرتيوم "اذهب! - اذهب أيّها الكاهن!" - ومرّة أخرى غطّى نفسه بالشرشف، واستطاع أن يلاحظ كيف قام الكاهن بضرب كف بكف- بشكل مصطنع بعض الشيء- وبدأ يضع إشارات صليب صغيرة.

" ابتعد أنت!"- هناك أحد آخر طرد المتسول، لكنّ أرتيوم لم يعد يتطلّع.

لم يخرج من تحت الشرشف حتّى وقت العشاء. كان أرتيوم في حالة هستيرية. فقد اجتاحت أرتيوم، في الظلام، وهو يستنشق رائحة جسده، ودمه الجاف، حالة من الرعب اللّجوج جداً: لقد بدأ الآن يشعر أنّهم سيأتون إليه.

فكّر وتساءل:"وإلّا كيف عدا ذلك؟ لقد ضربت رئيس الفصيلة! ووجدوا لديك أوراق لعب ممنوعة! لقد عملت معركة مع القيادة. يمكنهم بسهولة إطلاق النار عليك!.. يا إلهي، يا إلهي!"- همس أرتيوم، وهو يبكي

تقريباً، ومستعد للصراخ بصوت عالٍ: "أمّي! سوف يقتلونني! سيخرجونني من البوابة ويطلقون النار علي. ويطمرونني بالتراب. وسوف تبدأ الديدان بأكلي. من هنا، من ثندوتيْ[1]. من هذا المكان، حيث البطن. من هنا، حيث يوجد الوجه "- لمّس أرتيوم نفسه في كلّ مكان: الأذنين والشفتين وأسفل بطنه وساقيه- وكلّ ذلك بسبب هذا الحثالة! بسبب أفاناسييف! بسبب هذا الذي ينظم الشعر! الغشاش! كان يجب خنقه! قتله في الليل! وإذا ما أبلغت عنه بأنّه سلّم مكانس فيها عيوب، هل من الممكن أن يغفروا لي بسبب ذلك؟ لكن أنا بنفسي، بنفسي سلمتها معه! سوف يعاقبونني أكثر منه... ولكن كيف، كيف، أكثر من ذلك؟ ماذا يمكن أن يكون أكثر من إطلاق النار عليك أيّها الأحمق؟ أحمق ملعون!.. ماما!" – كرّر أرتيوم، وضغط فكيه بكلّ قوّته حتّى يصمت، ولّا يجذب انتباه أحد ما: "أمّي لينقذني أحد ما!"- ولمّس نفسه من جديد.

قال أحدهم، وسحب الشرشف عنه:"إيه! هل أنت تمارس العادة السريّة؟". حاول أرتيوم إمساك الشرشف بأسنانه ولم يستطع، فضغط نفسه إلى ظهر الأريكة.

قال الشخص الذي سحب الشرشف عن أرتيوم، ويبدو من مظهره،أنّه من الجناة: "ما هذا الوجه. امسح وجهك. كلّه دم... هل لديك دخان؟".

"لا"- لم يلفظها أرتيوم حتّى، بل تنهدها.

تحرّك المرضى، وبدؤوا في النهوض من على أرائكهم: كان هناك قرع أوعية طعام.

نهض أرتيوم فجأة، ولعق شفتيه.

أحضرت الممرضة التي وضعت له ميزان الحرارة، الكيس الذي فيه أغراض أرتيوم: فتّش فيه ووجد القصعة.

---

(١) ثندوة: طرف الأنف. [المترجم]

خمّن أنّ فاسيلي بيتروفيتش هو الذي وضع القصعة - بالتأكيد أرتيوم لم يضعها، فقد ألقاها على مضجعه عندما أعطوا أمراً بالاصطفاف من أجل التفتيش. لسبب ما بحث في أغراضه عن ورق اللعب...

لقد أحضروا على العشاء، سلطة من البطاطس والشوندر والجزر والملفوف وسمك القد وعصيدة الدخن. كان كلّ شيء لذيذاً بشكل لا يطاق.

غاضباً من خفقان الصدغ، أكل أرتيوم، متجمّداً من شدّة الفرح، والذي بطريقة غريبة، تبيّن أنّه أقوى من خوفه من الموت، الذي سيطر عليه للتو. لقد شعر بلسانه بقطعة شوندر سميكة، وقطعة ملفوف مقرمشة وقطعة بطاطس لينة- خلط كلّ ذلك مع طعم الدخن، وأكل وراء ذلك الخبز. كان رأسه يدور، كما لو كان من الحب والعلاقة الحميمة. كانت تتناثر فتافيت الدم الذي جمد، من لحيته المغطاة بالدماء.

ظلّ المريض الذي على السرير من يمينه، ينظر كلّ الوقت بطرف عينه إلى أرتيوم - وبدا لأرتيوم بطبيعة الحال، أنّه فضولي وينظر إلى طعامه، وقد ضيّق عينيه بشدة، ليشعر بطعم قطع سمك القد والجزر العفن بشدة.

قال هذا المريض، بعد أن ملّ من انتظار التفاتة مقابلة من أرتيوم: "أتذكّر أنّك دافعت عنّي".

نظر أرتيوم بطرف عينه باتجاه الصوت. آه، نعم، هذا فيليبوك. حتّى إنّ أرتيوم بحث عن الأرومة التي كتب عليه سوروكين الرسالة في مكان قريب: ماذا لو كانت لا تزال توجد تحت السرير فجأة، منتظرة أن تشفى ساق فيليبوك.

استغرب أرتيوم كلمات فيليب: لقد نسي دفاعه عنه تماماً. قال: "أنا؟ هذا لم يحصل". واستدار.

لقد نام طوال الليل- كما لو أنّه طمر بتراب ثقيل. حتّى إنّ ضلعه لم يزعجه- لأنّه كان مستلقياً بشكل مسطح، ووضع وسادة على رأسه، ورقد بهذا الشكل.

لم يكن هناك بق الفراش أم قمل في المستشفى.

فكّر أرتيوم في الصباح، وهو يلامس بحذر الخيوط التي على صدغه: "غريب جداً - كنت كلّ هذه الشهور آكل قليلاً. كنت أقوم بالأعمال الصعبة دائماً. عندما كنت أعمل حمّالاً في الميناء، كنت أظل أياماً كاملة في الهواء الرطب. عندما كنت أعمل بنقل الجذوع - كنت أظل في الماء من الصباح إلى المساء، ولم أصب بالزكام. لم أمرض إطلاقاً! وحتّى لم يكن هناك أيّ احتقان في أنفي".

في الحقيقة، لم يشعر أرتيوم بالحرارة - بل على العكس من ذلك، شعر بتحسّن بعد الغداء، وبدأ يطمأن، ولا سيّما أنّ أحداً لم يأت من أجله أمس.

حسناً، لقد جرى خياطة الجرح في منطقة الصدغ، وعينه تورّمت ولم يستطيع فتحها، وانتفخ وجه، وكان ضلعه يؤلمه، وكان من المستحيل تماماً الاستلقاء على الجانب الأيسر، وكان لا يزال يشعر بالغثيان- لكن من الممكن تحمّل كلّ ذلك. كان هناك الكثير من الدم، لكنّ كلّ ذلك كان يسيل من الصدغ، ومن الأنف- ولكن ألأنف كان مكانه أيضاً، لم يكسروه.

قرّر أرتيوم عدم إخبار أحد بذلك الآن، وأن يتكاسل قدر استطاعته.

مختبئاً تحت الغطاء، تمطّى بهدوء، وبحث في أفكاره المشوشة، النصف نائمة، عن كلّ شيء جميل وعطر ولذيذ، تمكّن من تذوقه مؤخراً.

كان في طرد أمّه فواكه مجففة، ولوح شوكولاتة، وسجق من لحم الحصان... تشرّبت الشوكولاتة برائحة السجق أيضاً، لكنّ هذا لم يفسدها على الإطلاق. نقع الثمار المجففة من الطرد الثاني في الماء المغلي، وذلك بناءً على نصيحة فاسيلي بيتروفيتش- فقد شربوا الماء وهم يتصببون عرقاً لطيفاً.

ثمّ دهن الخنزير المقدد، والقشدة الحامضة مع البصل- أخ، لقد اتضح أنّ ذلك كلّه نعمة.

ولكن بورتسيف... كان بورتسيف هناك. ليذهب بورتسيف إلى الشيطان.

كان هناك بيضة مسلوقة أيضاً.

...أين كانت؟ لم تكن موجودة نهائياً، لقد حلمت بها أحد المرّات، قبل ثلاثة أيام. أخ، أيّ بيضة رأيت في الحلم! كان من الممكن أن يفقس من هذه البيضة ديك صغير ذهبي.

سلطة أمس...

قاسوا درجة حرارته للمرّة الثالثة - ومرّة أخرى كتبوا(٣٩.٢)، في السجل.

أحضروا على الإفطار، سمكتين مقليتين بدهن الفقمة، وبطاطس بقشرها - في الحقيقة حبّة واحدة فقط. ولكن كان هناك فرح وسحر ودوار من الإعجاب من جديد.

حاول أرتيوم أن يهدأ نفسه: "ما كنت لتأكل ذلك في البيت، بل كنت لترمي هذا السمك من النافذة" - لكنّه حاول ألّا يصدّق نفسه.

بعد أن اعتاد أرتيوم في المستشفى، بدأ في دراسة جيرانه المباشرين والوضع حوله.

رسمت لوحة جدارية كاملة على حائط غرفة المستشفى الضخمة، التي بقيت غير مطلية، كما هو الحال في معظم غرف الدير الأخرى.

كانت اللوحة تصوّر مرضى - ولكن كان بينهم المسيح على ما يبدو. كان يسند أحد المرضى - رجلاً عجوزاً ذو لحية بيضاء.

لم يكن أرتيوم على دراية جيدة بقصص الكتاب المقدّس، ولم يكن يعرف هذه القصة. تطلّع لدقيقة بإعجاب إلى اللوحة الجدارية، ثمّ حوّل انتباهه إلى الناس.

بصرف النظر عن الأحمق فيليب، والكاهن المتسول الذي يتنقل بين الأرائك الرهبانية بين الحين والآخر، بدا جميع نزلاء المعسكر المرضى تقريباً، لأرتيوم متشابهين، مثل السمكة المجففة.

لقد تذكّر أنّه جاء أمس أحد الجناة يطلب تبغاً، ولكن أرتيوم يتطلّع الآن في أرجاء الغرفة، ولم يتمكّن من التعرّف عليه- على العكس من ذلك، كان من الممكن لأرتيوم أن يعتقد تقريباً، أنّ أياً من الموجودين هنا يمكن أن يكون هو.

رفع نفسه بعناية على يديه- لا تزال تؤلمه ضلوعه- جلس أرتيوم، محاولاً ألّا يحني ظهره، ونظر إلى الطرف الخلفي لظهر الأريكة المرتفع.

كانت هناك أريكة مماثلة، وكان الأب إيوان جالساً على الأريكة، هو الأب الكاهن نفسه الذي أطعم فاسيلي بيتروفيتش القشدة الحامضة مع البصل.

كان الأب يخيّط ردّة أسفل غفارته. التقت نظراتهما.

قال أرتيوم، بشكل غير متوقع بالنسبة له: "صباح الخير يا أبانا".

سأل الكاهن، ببساطة ولطف: "كيف صحتك يا عزيزي؟. أرى أنّهم خاطوا جرحك أيضاً!".

لم يجد أرتيوم الكلمات التي قد تبدو له مناسبة، فابتسم ببساطة، وهزّ كتفيه: يبدو أنّ كلّ شيء على ما يرام، نعم خاطوه.

قال إيوان، وهو يقطع الخيط بأسنانه: "ليس هناك حاجة للبحث عن كلمات خاصّة للحديث مع الكاهن، قل الكلمات التي تصدر من القلب- والتي تخطر على بالك مباشرة. الكلمات الخاصّة- غالباً تأتي من الشيطان" - وابتسم الكاهن.

"هكذا إذن..."- فكّر أرتيوم بدهشة، ولمس الخيوط على صدغه، ولسبب ما كان الأمر لطيفا تقريباً.

سأل أرتيوم: "وماذا عن الشعر؟ الشعر هو دائماً كلمات خاصة".

قال الأب: "هل تعتقد ذلك، يا عزيزي؟ أنا أعتقد أنّ أفضل الأشعار هي تلك التي تصدر من طبقة القلب العليا. ولكن عندما يجري اختيار كلمات خاصّة فقط، فإن القصائد تصبح عبثية".

حكّ أرتيوم خدّه قليلاً، بأظافره غير المشذبة منذ فترة طويلة. ألقى نظرة خاطفة على أصابعه، ورأى قشرة من الدم الجاف تحت أظافره: كشطها أمس.

سأل أرتيوم: "وما هي الكلمات التي تخطر على بالك الآن؟": لسبب ما أراد التحدّث إلى الكاهن.

قال الكاهن مبتسماً: "لا يستحق الحزن مظهرنا المؤسف، وبما أنّنا قد اجتمعنا هنا، فهي إرادة الله حقاً. ليس كلّ الذين اجتمعوا هنا أبرياء، أليس كذلك؟ كلّ واحد يعتقد أنّه بريء بالتأكيد- وليس كلّ واحد وحتّى بينه وبين نفسه يعترف بالذنب الذي أتى به إلى هنا. أحدهم بسبب كلمات افتراء، وآخر بسبب اللصوصية، والثالث بسبب خطأ فادح آخر. ولماذا نحن، سكان سولوفكي نشتكي الآن ؟ لقد جرى إحضارنا إلى هنا ضد إرادتنا، أمّا الجد سافاتي، مؤسس الدير، فقد أبحر إلى هنا بنفسه. ولم يكن شابّاً! ما رأيك يا عزيزي، هل تعتقد أنّ الأمر كان سهلاً لسافاتي هنا؟ ظهر الجد في جزيرة فارغة- عاش لست سنوات، لم يكن ينمو هنا أيّ شيء سوى اللفت، ولم يطعمه أحد، ولم يكن هناك سقف فوق رأسه، ولم يشعل له أحد مدفأة في كوخه المتهالك، ولم يكن هناك أيّة عوامل للراحة على الإطلاق. وقد عاش، وحاول! أمّا نحن فماذا؟ فقط استياء وحسرة في القلب، بدلاً من التوبة- وإن لم يكن بسبب الخطايا التي نسبها إلينا قضاة غير عقلانيين، فمن خطايا أخرى".

تلمّس أرتيوم رأسه، ووجد بأصابعه، تحت شعره، ورماً كبيراً، ورطباً قليلاً، لسبب ما، كان يتلمّسه، ويكشّر أحياناً، ومع ذلك استمر في الاستماع إلى الكاهن.

قال الأب إيوان: "كأنّه لا يوجد خطيئة لدى الإنسان، إذا لم ير أحد هذه الخطيئة!- أليس هكذا، يا عزيزي؟ إن لم يقبض عليه، فليس سارقاً. الله هو الوحيد الذي يعرف أيّ لص، ولديه سولوفكي خاص به، لجميع غير التائبين، أسوأ مئة ألف مرّة من سولوفكي هذا.

سأل أرتيوم: "لماذا إذاً على الأرض سولوفكي، إذا كان يوجد هناك أيضاً؟ بطبيعة الحال، لم يؤمن بأيّ كلمة قالها الكاهن، لكنّه حصل على متعة روحية من حديثه الهادئ واللطيف.

"أقول لك، يا عزيزي: سولوفكي التي عند الله هي لغير التائبين- إذن، من الأفضل التوبة في الوقت المناسب، وأن سولوفكي الأرضية ليست أسوأ مكان لذلك. عاشوا هنا لما يقرب من خمسمئة عام، وكانت حياتهم صعبة مثلنا. أنت تعرف ما كتب في النصوص الدينية في سولوفكي عن تلك الحياة: (العمل والصيام والصلاة والعمل اليدوي أيضاً... كانوا يحرثون الأرض بالمعاول أحياناً... وكانوا يقطعون الجذوع ويجهزونها من أجل الدير، ويأتون بالماء من البحر... ويقومون بأمور أخرى، ويصطادون السمك... وهكذا أطعموا أنفسهم بعرقهم، وما كانوا ينتجونه بتعبهم). ما الذي تغيّر؟ هل هناك اختلافات كثيرة عن أيامنا هذه؟ المحن هي نفسها، والمسار هو نفسه".

قال الكاهن: " لا زلت أتذكّر. قرأت أمس عن أرشمندريت سولوفكي فارفولومي: تفوح من جسمه رائحة زكية.

وهنا غمز الكاهن- حتّى إنّ أرتيوم جفل من الدهشة- لكنّه في اللحظة نفسها استعاد مظهره الهادئ، وإن كان مع ابتسامة.

أمّا هو فقد كان قد مضى على وفاته في تلك الساعة، أحد عشر أسبوعاً ! ماذا عسى أن نقول حول ذلك، يا عزيزي؟

رائحتنا أسوأ من بعض الموتى! نعم، نادراً ما يسمحون لنا أن نغتسل هنا، ويطعموننا بشكل سيئ، والقمل يعيش علينا، والمرض فينا. لكن أسوأ رائحة، يا عزيزي، تأتي من خطيئة لم تحصل على التوبة! وغسلها أصعب ما يمكن!".

حاول الكاهن الآخر، الذي كان يحوم في الغرفة طالباً الخبز، ألّا يقترب من أريكة الكاهن إيوان. لكنّ إيوان لاحظ أنّ طريق المتسوّل لم تكن بعيدة، ومن

الممكن الوصول إليه- إن لم يكن باليد، فرمية بحذاء- خلع الكاهن إيوان الحذاء من قدمه، وأظهر نيّة جادة وواضحة لرميه به. اختبأ الكاهن المتسوّل خلف يده، وركض على بعد خطوات قليلة- ووقف بعيداً، مادّاً رقبته الرقيقة، مثل طائر خائف، تماماً حتّى ألقى الكاهن إيوان حذاءه على الأرض عند قدمه.

هدّد الكاهن إيوان، الكاهن المتسوّل: "سوف اريك!".

حاول أرتيوم بصعوبة، أن يكبت ضحكته، ولكن لفت انتباهه بشكل عابر، أنّ يد الكاهن إيوان المليئة بالنمش، عندما هدّد بها، لم تكن على شكل قبضة كما هي العادة، ولكن ضمّ أصابعه، وكأنّه يرسم إشارة الصليب. وهذه الإشارة وجهها الكاهن إلى نفسه، وهزّها كما لو كان يرش الملح على نفسه بسرعة.

أظهر مقياس الحرارة أنّ درجة حرارة أرتيوم بعد الغداء هي نفسها (٣٩,٢).

سألت الممرضة المسنّة، وهي تلمس برفق خدّ أرتيوم، بإصبعها: " لماذا لم تغسل وجهك حتّى الآن؟ - أذهب واغتسل وإلّا سيوبخك الطبيب".

اللمسة كانت خفيفة- لكنّ شيئاً لاذعاً تأرجح بشدة في روحه، والآن يتمايل. كان لدى أرتيوم لعبة في طفولته المبكرة- على شكل ميزان صغير. أنت تهزّه وهو يبحث عن التوازن مدّة طويلة: يمكنك مراقبة ذلك مدّة طويلة، حتّى يصيبك دوار في الرأس.

حتّى إنّ أرتيوم وضع يده على خدّه، حتّى لا تختفي اللمسة بهذه السرعة.

اعتقد أرتيوم: "هي على ما يبدو سجينة أيضاً؟ وقد حكموا عليها ويجب إعلان التوبة عن شيء ما، كما يقول الكاهن ؟ هذا مضحك!".

قالت الممرضة المسنّة: "لا تقف تحت الدوش- لا يجب أن تبلّل رأسك. لا سيّما إنّ حرارتك مرتفعة جداً.

ذهل أرتيوم:"هل يوجد دوش هنا؟".

لكنّه لم يذهب ليغتسل، كان يتكاسل ويتمطّى - يا لها من متعة: عدم الذهاب إلى أيّ مكان، تستلقي، وتستلقي فقط.

الاستلقاء ليس مملًّا على الإطلاق، بل ممتع.

فكّر أرتيوم مازحاً: "من الغريب أنّني عندما كنت طفلاً، كنت أفضل اللعب على الاستلقاء، ويجب الاستلقاء والاستلقاء. من أجل أن تلعب مدى الحياة بعد ذلك... ".

جاء الطبيب. تسبّب مجرّد ظهوره، باهتزاز طفيف وتيار هوى.

كان شكله شرقياً- وسيم جداً، وله لحية سوداء كثّة، وله عينان ذكيتان داكنتان، وكرزيتان، تذكّر بعيني الكلب. ربّما كان لديه أم روسية، وأب من دم جنوبي. أم العكس.

كان الطبيب يتنقل بين أرائك الدير، سريعاً وأبيض مثل ذورق شراعي.

تخيّل أرتيوم حسب العادة، ما الذي كان من الممكن أن يقوله أفاناسييف: "مثل ذورق شراعي، ذي عينين كرزيتين...".

كان المسعفون والممرضات يتبعون الطبيب باحترام.

كان هناك حوالي مئة مريض. تحدث الطبيب مع البعض منهم لفترة طويلة، بينما لم يقترب من آخرين على الإطلاق. لكنّ الجميع كان ينتظره، وحتّى الذين كانوا منهكين من المرض حاولوا النهوض على أكواعهم، لإيصال طلب ما أم شكوى...

كانوا ينادونه، أحياناً من هذا الجانب أم ذلك الجانب : "دكتور علي". لم يردّ الطبيب.

من الملاحظات المجتزئة للطبيب ومرافقته، خمّن أرتيوم أنّ الجزء الأكبر من السجناء الموجودين هنا، كانوا مريضين بالسل والزهري والإسقربوط.

النصف الآخر تعرّض للضرب والتشويه من قبل الحراس ورؤساء المجموعات والقادة : تبيّن أنّ أرتيوم لم يكن وحيداً. كان هناك عدد قليل من

الذين قاموا بعطب وكسر شيء لديهم، مثل فيليب، وهناك اثنان من الجرحى حاول الجناة ذبحهما ولكنّهم لم يجهزوا عليهما.

سأل الأب المتسّول الدكتور علي: " ألا يوجد قطعة خبز، يا دكتور؟".

كان الكاهن يعاني من طفح جلدي صديدي رهيب في جميع أنحاء صدره، كشف عنه بفخر- مثل ميداليات سولوفكي.

أجاب الطبيب بجديّة: "لا يوجد خبز- يوجد حقنة شرجية. ألا تريد حقنة ؟".

أثار ذلك استياء أرتيوم.

أجاب الكاهن باستياء واستهزاء: "من الشيوعية- حقنة شرجية ". ونطق الكلمات بطريقة رفعت من نبرة الاستهزاء.

أجابه الدكتور علي بالنبرة نفسها: "إذا كنت تريد الخبز أيّها الأب، اسأل السماء". يجب الاعتراف أنّ أرتيوم أعجب بالجواب، على عكس كلامه السابق الذي كان قد قاله للتو. وقد أعطت بالطبع، لهجته الشرقية الناعمة سحراً خاصاً.

"أوه، أوه، أوه،"- ردّد الكاهن إيوان ، وهو يستمع إلى هذه الحديث الفارغ.

جاء دور أرتيوم.

سأل الدكتور علي بسرعة: "هل يؤلمك هنا؟ وهنا؟. أعتقد لا يوجد أيّ شيء. هل تشعر بالغثيان ؟ دعني أر بؤبؤ العين".

"كيف يمكنني أن أريك ذلك ؟ تطلّع"- ضحك أرتيوم ، رغم أنّ الطبيب كان قد أمسك به من ذقنه.

سأل الدكتور علي الممرضة المسنّة التي تتبعه، وهي فاتحة دفتر المرضى: "ما هي درجة حرارته".

كانت أصابعه قويّة وساخنة. فكّر أرتيوم: "إذا كانت حرارتي (٣٩,٢)، فكم درجة حرارته هو إذن؟ اثنتان وأربعون؟".

قال الطبيب ليس لأرتيوم، ولكن لكلّ من كان يقف خلفه: "لماذا لم يغتسل؟. بالتأكيد لديه قمل. مع وجود الكثير من القمل، يمكن أن يبدأ انتشار حمّى التيفود من المستشفى نفسها، وسيكون ذلك معيباً جداً!".

كان من الواضح أنّ الدكتور علي، كان يتحدث ليس لمرافقيه فقط، ولكن من أجل الأهمية العامة لإدارته.

بمجرّد أن ابتعد الطبيب قليلاً، لوّحت الممرضة المسنّة بدفتر المرضى لأرتيوم، بمعنى: اذهب واغتسل مباشرة !..

سأل أرتيوم راهب سولوفكي، الذي يخدم الآن في مستشفى السجن: "أين الحمّام؟". كان الرهبان السابقون يلبسون أغطية رؤوسهم بشكل جانبي - حتّى يمكن تمييزهم بسهولة عن الكهنة المنفيين هنا، والذين، بالمناسبة، لم يحبّهم الرهبان.

أشار الراهب بإيماءة إلى أين يجب الذهاب.

صرخ أحدهم من وراءه، بصوت قوي ولكن كأنّه أصيب بالزكام يوماً ما: " اقتصد في الماء!".

لم يكن هناك أحد في غرفة الاستحمام، لأنّه كان وقت زيارة الأطباء.

كان الحمام عبارة عن خزان حديدي مملوء بالماء، وسلسلة حديدية تتدلى من الخزان، على ما يبدو، أنّها كانت تحرّر الماء.

خلع أرتيوم ملابسه بسرعة، وسحب السلسلة بقوة، وانسكبت خيوط ملتوية من المياه العكرة، لكنّها دافئة وممتعة.

كان يميل برأسه، حتّى لا يتبلّل الجرح الذي تمّت خياطته بتأنّ على صدغه، وسرعان ما وقف تحت هذه الخيوط، وهو يضحك بهدوء، ويمسّد صدره بيديه.

انسكب الماء الداكن على جميع أنحاء الجسم.

فكّر أرتيوم، لسبب ما بسرور: " أنا متّسخ إلى هذا الحدّ!. أم أنّ الماء وسخ ؟".

بحث عن لوح الصابون بعينيه، ولم يجده، وبدأ يفرك نفسه بشراسة بيديه- كلّ شيء ما عدا الضلوع التي تؤلمه.

ما وراء هذا الانغماس في الماء، قرّر في البداية أنّه سمع ضحكات نساء... توقف عن الحركة- واقتنع على الفور: لا، لم يتهيأ لي. كانت نساء، شابات وعاريات يضحكن في الطابق الذي يعلو الحمام. كنّ يستحممن هناك أيضاً.

"عاريات وبيضاوات" - فكّر أرتيوم، وهو يستمع بكلّ قوته إلى الضحك وإلى الأصوات: حتّى إنّه فتح فمه. وتناثرت في فمه قطرات من ماء الحمّام.

بيضاوات وعاريات.

نطق أرتيوم ببطء بصوت مسموع شتيمة غريبة وغير مفهومة: " دهنت أفواههن باليود! يود. في أفواههن".

تلمّس نفسه مرّة، مرتين، ثلاث مرّات، وانفجر في يده الكبت الذي تراكم لديه لفترة طويلة، على وقع ضحكات النساء.

رجع أرتيوم عائداً خفيفاً، ومبللاً، ومليئاً بالقوة.

في طريق عودته التقى الراهب مرّة أخرى، ظنّ أنّه سيوبخه لأنّه سكب المزيد من الماء، لكن أومأ برأسه: هناك من جاء لزيارتك. وأشار بإصبع معوجٍّ إلى الزاوية.

كان فاسيلي بيتروفيتش يجلس على مقعد في الزاوية.

كان ثمّة نقالة رثّة، وملوثة بالدماء، مرمية بجانب المقعد، وكان هناك بضعة دلاء، أحدها مليء بالضمادات القديمة، إلى جانب ذلك كان هناك بعض القمامة الطبية الأخرى.

قال فاسيلي بيتروفيتش بصرامة طيّبة: "عبثاً، يا أرتيوم، أنّك لا تبدو تشبه المريض. لو كنت مكانك، لكنت سأحاول أن أكون أكثر ملاءمة لهذا الدور. كلّ شيء فيك، حسب ما أرى، كالماء السائل من الإوزة، لا شيء يدل على مرضك"- حتّى إنّه مدّ يده ليلمس شعر زميله الشاب، لكنّه لم يلمسه بالطبع.

ابتسم أرتيوم.

قال فاسيلي بيتروفيتش: "لقد كادوا بالمناسبة أن يقتلوك هناك - هل تتذكّر ؟".

لم يكن يرغب كثيراً في تذكّر ذلك، وقد تبرّم أرتيوم بتكشيرة غير محدّدة. طالما أنّه يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة وقطب في رأسه، فلن يعيدوه إلى السريّة، وبعد ذلك ليحصل ما سيحصل.

فهم أرتيوم، حسب كلّ المعطيات، أنّهم سيقتلونه، لكنّه لم يكن ليخاف من هذا الأمر منذ مدّة: لم يستمر الخوف لديه سوى ساعات عدّة.

سأل أرتيوم: " ما هي الأخبار التي لديك؟".

صمت فاسيلي بيتروفيتش، لبعض الوقت ولم يرد: على ما يبدو، كان قد جهّز نفسه لحديث آخر.

"كيف حال بورتسيف؟"- سأل أرتيوم، متظاهراً البلادة، ليس أمام فاسيلي بيتروفيتش، ولكن أمام نفسه.

أعاد فاسيلي بيتروفيتش السؤال في استياء واضح: "بورتسيف؟، مستيسلاف - نعم، أوقعني في حيرة. في البداية، عندما حدث ذلك مع الصيني، اعتقدت أنّه... أنّه فعل ذلك مع الصيني، لأنّه كان هناك عدد كبير جداً من الصينيين بين قوات الجيش الأحمر. كان بورتسيف من عناصر كولتشاك. كان لديهم الكثير من المشاكل معهم. ولكن الآن ها أنت...".

تنحنح أرتيوم.

تحدّث فاسيلي بيتروفيتش بحماس أكثر بقليل، وكأنّه لا يزال حتّى الآن يحاول فهم بورتسيف: "لكن بشكل عام، ما كان يجب أن تسميه ملازماً- لقد انزعج عندما ناديته بالملازم.

سأل أرتيوم مبتسماً: " هل تعني، لو ناديته بالعقيد لم يكن لينزعج؟".

صمت فاسيلي بيتروفيتش، وزمّ شفتيه: كان أرتيوم على حق.

قال فاسيلي بيتروفيتش: "لقد قاموا بضرب لاجيتشنيكوف للتو" - عندما خرجت لزيارتك، جلبوه إلى السريّة، وكان ملقى خلف كومة الحطب... كلّ جسمه بقع زرقاء. وليس من المعروف من ضربه. يبدو ليس للقيادة علاقة بهذا الأمر".

قال أرتيوم، متذكراً الحديث الذي دار بين خاساييف والقوزاقي في المقبرة: " أعتقد أنّني أعرف من الذي ضربه".

لسبب ما، لم يسأل فاسيلي بيتروفيتش من كان يقصد أرتيوم.

قال فاسيلي بتروفيتش، بعد أن صمت قليلاً مرَّة أخرى: "الجميع هنا يصبحون شيئاً فشيئاً أكثر وحشية - إنّه لأمر مخيف - إنّها روح".

فكّر أرتيوم في الأمر، وأجاب بحزم شديد:

"لا يهم. حالة نفسية ".

عند ذلك بدأا يفترقان.

أحضر فاسيلي بيتروفيتش ثماراً، وضيّفها لأرتيوم.

قال أرتيوم بصدق، وهو يزن الكيس بيده بسعادة: "شكراً لك - ربّما يجب أن نعطي الراهب الذي يقف عند المدخل، بعضاً منها ؟".

قال فاسيلي بيتروفيتش بهدوء وبشيء من النشافة: "لقد أعطيته - بشكل عام، ممنوع القدوم إلى هنا، كان عليّ رشوته، أتمنى أن تكون فهمت الآن كلّ شيء عن أفاناسييف؟" - سأل فاسيلي بيتروفيتش وهو ينهض.

رمش أرتيوم بعينيه - بمعنى، فهمت. فهمت. لقد فهمت كلّ شيء منذ فترة طويلة.

تحدّث فاسيلي بيتروفيتش فجأة، ما بدا أنّه موضوع غريب ليس له علاقة بالحديث: "هل تعلم، يا أرتيوم، كيف تحصل الإصابة بالعين؟. عندما يكون في الإنسان بذور المرض، عندها ينسلّ إليه نفس الرجس أم الداء. كان كلّ شيء

جيّد لديك هنا، قدر الإمكان، لأنّه كان كلّ شيء في داخلك مرتّباً بشكل صحيح. لقد أعجبت بك. حتّى تعلمت شيئاً منك. لقد فكّرت، هل من المعقول، لا توجد فيك علامات على التراخي البشري أم الضعف أم النذالة. ثمّ بعد ذلك حدث شيء ما، وتدحرج. هل تعرف كيف ضربوك كلّهم؟ لو حدث معي ما حدث معك لكانوا قتلوني. أمّا أنت، فلا زلت حيّاً تركض. ربّما خذلك تظاهرك بالشجاعة يا أرتيوم؟ فكّر في ذلك... لا يمكنك الانتصار هنا، هذا ما تحتاج إلى فهمه. لا يمكنك الانتصار في السجن. لقد أدركت أنّه حتّى في الحرب لا يمكن الانتصار، لكنّني لم أجد الكلمات المناسبة لهذا بعد...".

نهض أرتيوم وصافح فاسيلي بيتروفيتش. لقد قرّر ألّا يفكّر الآن، في هذه اللحظة بكلماته- سيفكّر فيها فيما بعد: لنقل، محاولة تفسيرها، قبل النوم. تفهم أهم الأشياء على عتبة النوم- هكذا بدا أحياناً لأرتيوم. هناك عقبة واحدة: عدم تذكّر ما فهمته في الصباح. لقد فهمت على الأغلب شيئاً ما، ما هو؟ - نسيت.

لكن ربّما لا يجب أن تتذكّر؟

قال فاسيلي بيتروفيتش وهما في الممر: "أرتيوم، تنتظرك زنزانة العقاب، هل تدرك ذلك؟.

عكّر المزاج كلّه.

سخر أرتيوم من نفسه، في طريق العودة: "ماذا كنت تعتقد- هل سيعطونك حصّة طعام مزدوجة؟. فطيرة بالملفوف؟ ".

قال الجاني، وهو يلتقي بأرتيوم في مدخل الغرفة: "ماذا جلبوا لك، تقاسمه ".

لو نطق كلّ ذلك بطريقة الآمر، لكان أرتيوم ردّ بغضب: ما الذي سيخسره بعد كلّ ما حدث. لكن الجاني طلب ذلك بابتسامة- إلى درجة التملّق حتّى. كان يمكن رفض طلبه والقول بمرح: "هذا ليس من شأنك!" - وكان أرتيوم متأكداً أنّ كلّ ذلك كان سيفهم كما ينبغي، على الأقل لأنّ الجاني كان موجوداً وحده هنا وليس وسط أمثاله من الجناة: لقد حاول أن يلعب الورق مع

أيّ شخص- حتّى إنّه اقترح على الأب إيوان في إحدى المرّات، وعموما كان يشعر بالملل.

سأل أرتيوم: "هل تريد ثمّرة"".

أجاب الجاني: "بالطبع "، ومباشرة فتح يديه كالمغرفة.

كانت لدى أرتيوم رغبة كامنة بإرضاء إله الجناة، إذا جاز القول: هل إذا أطعمت هذا الجاني، سيكف الوثيقة عنّي؟.

قال أرتيوم، وهو يسكب حبات مختلفة من الثمار في كفّه القذرة: " من الجيد، ليس لديك أربع أياد."

لم يفهم الجاني: "ماذا؟".

لاحظ أرتيوم على معصميه وشم غير واضح، كما رأى من فتحة قميصه، التي كانت أكبر بثلاثة أحجام ممّا هو مطلوب، رسماً أزرق آخر على صدره.

خداه غائرتان، وعيناه متقيحتان قليلاً، وبدا وجهه يشبه السمكة: شفتاه ممدودتان إلى الأمام، وعيناه متباعدتان، وكان ذقنه مائلاً بالكامل تقريباً، فيما لو ضربت شخصاً مثل هذا على ذقنه، فسوف تكسر تفاحة آدم لديه.

كان لقب الجاني الخيشوم.

قال الجاني الذي سكب كلّ الثمار دفعة واحدة في فمه على الفور، كما فتح فمه كالسمكة أيضاً "هل تريد امرأة"- حاول أرتيوم ألّا ينظر إلى فم الجاني، حتّى لا يرى أسنان السمكة الصغيرة الحادة.

قال أرتيوم بسخرية واضحة ومتعمّدة، ناظراً إلى جبين السفّاح المائل والضيق: "أوه، من أين لديك امرأة ؟".

بدأ الجاني يقول بنبرة فظّة إلى حدٍّ ما:"ليس لدي امرأة"- عرف أرتيوم أسلوبهم الفظ هذا- لكسب أيّ كلمة في أيّ حديث مع كلّ شخص، لصالحهم، بحيث في أوّل فرصة، يسحقون محاورهم مثل بقة الفراش.

سأل أرتيوم بمرح: "ومن لديه؟"- مهما كان الأمر، فهو أراد أن يبصق على هذا الأسلوب - وكان من الواضح أنّه أراد أن يبصق على ذلك، وحتّى هذا ذو الجبهة الضيقة كان يمكنه أن يخمّن ذلك.

خمّن الجاني، وواصل، لكن بمزيد من ضبط النفس :

أشار الجاني بإصبعه إلى الأعلى: "هناك يوجد قسم للنساء- يوجد نساء بروبل، وهناك بخمسين كوبيكاً، ويوجد بخمسة عشر كوبيكاً. يمكن أن يقوم الراهب المحلّي بترتيب لقاء لك. نصف روبل له، ونصف روبل لي- سأقوم بالمراقبة، ومن بعدك سأجامعها أنا. أمّا المرأة فحسب ما تختار أنت.

قال أرتيوم على الفور: "ليس لديّ مال".

سأل الجاني "وماذا لديك؟"، حتّى إنّه أمسك بطرف كم أرتيوم، بإصبعين ملوثتين بعصير الثمار إلى جانب ذلك.

قال أرتيوم بلطف: "اسحب يديك بسرعة".

قام المجرم بسحبهما ولكن ببطء أكثر ممّا يجب، لكنّه عرض مباشرة على أرتيوم :

"هل تلعب الورق؟".

لم يردّ أرتيوم حتّى: كان الحمالون ينقلون مريضاً جديداً في الممر، وكانت وجوههم مألوفة، فقد قامت السريّة الثانية عشرة برفد المستشفى بمرضى جدد مرّة أخرى.

كان يسير أمامهم راهب، مشيراً إلى الطريق. كان هذا لاجيتشنيكوف، الذي يبدو من مظهره بلا حياة، يحمله خاساييف وشريكه، وشخص آخر، لم يكن يرى جيداً بسبب الراهب الذي يسير أمامه كلّ الوقت.

هذا هو الشخص الذي لم يتوقع أرتيوم رؤيته- لكنّه ظهر، إنّه أفاناسييف. علاوة على أنّه، عندما مرّ بجانب أرتيوم ،وهو يسير بخطى قصيرة، ويمسك

بطرف النقالة التي كان لاجيتشنيكوف دون وعي ملقى عليها، غمز بطرف عينه. واضح أنّه لم ينم - يبدو أنّه كان يلعب الورق من جديد مع الجناة.

كانت الممرضة المسنّة تسير وراء هذا الموكب.

همس أفاناسييف، وهو يخرج من الغرفة: "لقد أردت رؤيتك! لذلك فرضت نفسي على الشيشان كمساعد لهم!- لا يمكن القدوم إلى هنا. لكنّ المسعفين المحليين لا يريدون حمل المرضى لذلك...، كيف حالك ؟ لقد ضربوك بشدّة - وكلّ ما لديك أنف متورم، وخيوط على صدغك! هل خاطوا الجرح؟".

"خاطوه"- كرّر أرتيوم، محاولاً تهييج كراهيته لهذا المخلوق ذي الشعر الأحمر، لكن الأمر لم ينجح بأيّ شكل.

أمسك أفاناسييف بغرته، كالعادة، كما لو كان يجرّب متانة رأسه: ألن يقع؟ ألن أخلعه؟.

غنّى أفاناسييف، وهو ينظر بحنان إلى أرتيوم: "أنا لا أمشي على القطيفة، لا أمشي على المخمل، لكنّني أمشي، وأمشي على سكين حادٍّ...".

ومضت فكرة لأرتيوم ضدّ إرادته: "لا، ليس هو، لا..."- كما لو أنّ أرتيوم أراد أن يقنع نفسه، على الرغم من إنّه لا يمكن خداع النفس: أفاناسييف هو الذي وضع له ورق اللعب، ومن غيره؟.

صاح له خاساييف: "لنذهب، أفاناس ".

أجاب أفاناسييف، دون أن ينظر: "نعم، سآتي حالا".

سأل أرتيوم، مشيراً إلى الشيشان بعينيه: "هل هم من فعل ذلك مع القوزاقي؟".

أجاب أفاناسييف بصرامة مفتعلة: "ومن إذن؟" - وقرّر على الفور أن يسأل: "ربّما تعتقد أنّني أنا من رمى لك ورق اللعب؟- أقسم بالله، يا أرتيوم...".

خطرت فكرة فجأة لأرتيوم، كيف سينهي كلّ ذلك :

" أفاناس، هل يمكنك إقراضي روبلاً؟ والأفضل اثنين".

لم يكن أرتيوم ليطلب في الحالة الطبيعية أيّ شيء على الإطلاق- لم تكن لديه هذه العادة، ولكن في هذه الدقيقة بدا الأمر بالنسبة له بسيطاً، بل حتّى منقذاً.

أعطاه أفاناسييف بكلّ سرور، وغمز له مرّة أخرى مودّعاً.

قال، وهو يمسك بغرّته: "سآتي مرّة أخرى!".

أجاب أرتيوم: "نعم. لكن لا تحمل أيّ أحد من السريّة. لم يعد يوجد أسرّة فارغة هنا".

انفجر أفاناسييف ضاحكاً، لأنّه سُرّ جداً بالنكتة، وعلى ما يبدو لأنّه أعطاه روبلين أيضاً.

رجع أفاناسييف من منتصف الطريق: "خذ، وهذا روبل آخر، امسكه. اشتر لنفسك شيئاً ما تأكله...".

استيقظ لاجيتشنيكوف، لكنّه لم يستطع الكلام، رمش فقط، وتنفس. لقد قبعوا له بعض الخصلات من لحيته، وكان الدم يسيل من جلد فكيه الممزق. كان حاجبا القوزاقي الأشعثان يقفان تقريباً، كما لو كان في حالة رعب. كان من الصعب النظر إليه.

سأل أرتيوم، تيموفي ستيبانوفيتش:"ربّما تريد أن تشرب؟".

طردت الممرضة المسنّة أرتيوم :

اذهب إلى مكانك، يعرفون ما يجب عليهم فعله من دونك، سنعطيه كلّ شيء.

غادر، ودسّ نفسه تحت الشرشف، وسرعان ما أتته أفكار ساخنة ومملّة: ماذا تعني مغامرة واحدة في الحمّام لشاب مثله.

لم يستطع الانتظار، رفع الشرشف عنه. أخرج روبلاً مجعّداً من جيبه، وعاينه بشعور، كما لو كان صورة لفتاة عارية.

كان الروبل يعد بفرح مذهل طال انتظاره- فرح ضخم لدرجة أنّ الوعي لا يكاد يستطيع احتواءه.

فكّر أرتيوم بشكل محموم، ما لون شعرها: "داكن؟ أشقر ؟ أحمر؟ من فئة الروبل يمكن أن تكون جميلة جداً... هل شعرها مجعّد أم سابل؟ وماذا- هل يمكن خلع ملابسها تماماً؟ خلع جميع ملابسها؟".

كتب على الروبل: "معسكر الأغراض الخاصّة التابع للإدارة السياسية الحكومية الموحدة". كتب تحت هذه التسمية: "إيصال حساب". أسفل ذلك: "تقبل كمدفوعات من السجناء في مؤسسات وشركات ومشآت معسكرات الأغراض الخاصّة التابعة للإدارة السياسية الحكومية الموحدة حصريّاً".

مزح أرتيوم بينه وبين نفسه: "لماذا لم يكتب أيّ شيء عن الدفع للجميلات من فئة الروبل؟".

كان في الحقيقة، يشعر بالخجل قليلاً، لكن هذه الفرحة الحيوانية التي طال انتظارها- كانت أقوى بكثير، أصمّت أذنيه حتّى بدا أن وعيه أحياناً كان يغرق تحت الماء.

فكّر أرتيوم بينه وبين نفسه، وهو يلامس الخيوط على صدغه: " ثمّ، ألا تحتاج هي إلى روبل؟- لا أحد يجبرها، أليس كذلك؟".

استغل القس المتسوّل، إغفاءة الأب إيوان، واقترب مرّة أخرى من أريكة أرتيوم الذي أسرع إلى إخفاء الروبل في جيبه.

عند رؤية الحالة المزاجية غير الوديّة لأرتيوم، بدأ القس في دفع فيلبوك الذي كان يغفو:

"هل بقي من الغداء ذيل سمكة ؟ ربّما بعض قشور البطاطس؟".

طلب فيليبوك منه بشفقة، بخلاف كثيرين آخرين: "ابتعد أيّها الأب، أنا نفسي جائع" لكن الأب غضب منه بالتحديد.

لقد قلّده ليغيظه: "أنا نفسي جائع... - لا شيء، لا شيء. لو كان هناك خنزير - لكان هناك شعر خنزير".

اشتكى فيلبوك وعيناه دامعتان: "عن ماذا تتحدّث أيّها الأب؟ على ماذا توبخني؟". لكن لم يعد أحد يستمع إليه.

قد يبدو القس المتسوّل مريضاً نفسياً للوهلة الأولى فقط: لا، عند التمعّن الدقيق به، يصبح من الواضح، إنّه على الأغلب سليم - بالتأكيد ليس أغبى من أيّ نزيل في المعسكر. كانت كلماته تؤكد ذلك.

غالباً ما كانوا يضيّفون القس، لا سيّما عند وصول مرضى جدد من تلك السرايا التي كانت الحياة أفضل، وحيث كانوا يدفعون لهم رواتب مضاعفة أم حتّى ثلاثة أضعاف أحياناً- حرفيون من السريّة الخامسة عشرة، ومكتبيون من السريّة العاشرة، واختصاصيون من الثانية. وعندها يصبح دقيقاً في كلماته وقوي الملاحظة.

كان اسمه زينوفي.

أحب الكاهن السكّر بشكل خاص.

لقد انجذب إليه نزلاء المعسكر المرضى، المؤمنون منهم بشكل أساسي- إلى أن يتعرفوا على الأب إيوان وينتقلوا إلى رعاية أخرى، إذا جاز التعبير.

كان من الواضح أنّ القس زينوفي يشعر بالغيرة.

كان وجهه غير مقروء، كما لو كان مرشوشاً بالرمال، وصغيراً، كما لو كان قد جمع في قبصة. أمّا شعره- فكان خفيفاً، وأشقر، وطويلاً، ومتناثراً.

كانت الوقاحة والاشمئزاز يحلّان بسهولة محلّ تسوله المزعج – لا سيّما فيما يتعلّق بالمرضى الذين لم يطعموه أبداً ولم ينووا إطعامه في المستقبل- على ما يبدو، كان فيليبوك ينتمي إلى هؤلاء.

على أيّ حال، كان القس المتسوّل يخاف من أيّ عنف، وإذا كان هناك تهديد بعقاب قاس، كان يتراجع على الفور ويختبئ.

كان حديثه يتصف دائماً بالسباب والقلق: لم يكن يحب السلطة السوفييتية بشكل مبتكر ومتنوع ولم يخف ذلك.

ومع ذلك، كان يتناول هذا الموضوع في كلّ مرّة عن بعد.

أوضح زينوفي لمريض إسقربوط مصاب بجروح خطيرة في لثته، والتي لم تزعج الكاهن على الإطلاق: "كيف جرى ترتيب كلّ شيء بشكل صحيح في الكتاب البشري- غيّر مكان حرف واحد في الكتاب، وضعه محلّ الأخر- وسيتحوّل الكلام إلى رطانة. هكذا هو الوعي البشري. إنّه هش! يفكّر الإنسان ظاناً أنّه يفكّر، في حين أنّه غير قادر على فهم وعيه. وهذا الذي غير قادر على التعامل مع وعيه، يخاطر بالتفكير في الله وتفسيره. أمّا الله فيجب الاستماع إليه فقط. غيّر مكان حرف واحد في وعي الشخص- سيحتفظ الإنسان بمظهره الخارجي االلائق، ولكن سرعان ما سيتضح أنّه يعاني من الارتباك والجحيم في كلّ المفاهيم. هكذا البلاشفة"- تابع الكاهن وهو يتحوّل إلى الهمس- "لقد خلطوا كلّ الحروف، وأصبحنا دون عقلٍ. تبدو الأفعال نفسها، والمحن نفسها، ولكن إذا نظرت بتمعّن، فيمكنك أن ترى على الفور أنّنا نحمل أعيننا من الوراء، وآذاننا قلبت إلى الداخل".

جاء راهب نحيف معرورق من دير سولوفكي السابق، دون أن يشعر به أحد، ليأخذ أغطية سرير أحد سجناء المعسكر الذي شفي وأعيد إلى سريته، علّق مثل الأرقطيون على كلمة واحدة للقس الذي كان يتحدّث، وارتفع صراخه كما لو أنّه كان مستعداً لذلك منذ فترة طويلة، وجهّز كلماته :

قال، وحتّى إنّه خبط بجزمته المتسخة: "من ماذا تشتكي؟ - نحن قبلك،عشنا هكذا هنا في سولوفكي، وحتّى أكثر صعوبة. كنّا نستيقظ في الثالثة صباحاً- وأنتم هنا تستيقظون في السادسة! وكنّا نعمل حتّى يخيّم الظلام. كان الرهبان يجبرون الناس الذين أتوا لخدمة الدير على العمل، ليس أقلّ ممّا يفعل عناصر الأمن معكم!".

هدأ القس زينوفي على الفور، ولم يجادل.

نهض أرتيوم على أريكته، ونظر إلى الأب إيوان. أراد أن يسمع شرحاً لما حدث.

استجاب الكاهن بسرعة لنظرة أرتيوم، كأنّه كان ينتظر.

قال الأب إيوان بعد دقيقة: "كانت تسمى سولوفكي جزيرة النوارس البيضاء، والرهبان السود. كان الأمر صعباً عليهم حقّاً هنا".

سأل أرتيوم بهدوء عن الراهب: "هل أنت إذن توافقه؟".

أجاب الأب إيوان: "لا، لا توجد جوانب هنا، يا عزيزي. الشمس تدور، هي في كلّ مكان. والله في كلّ مكان. من كلّ جانب".

سأل أرتيوم، ولم تعجبه إجابة الأب كثيراً: " وإلى جانب البلاشفة؟".

ابتسم الأب إيوان، ويبدو أنّه قرّر أن يبدأ من جديد:

"كان الرهبان، حتّى في الأوقات الماضية أيضاً، يفتقرون إلى حبّ الكهنوت. إنّهم يعيشون في عزوبة، في عمل دؤوب، وفي فقر مدقع. ربّما اعتقدوا أنّ من حقهم أن يوبخوا أحدنا، لأنّه يتّبع شهواته. حسناً، لن أقول إنّ كلّ هذا هراء. لكن هنا، في سولوفكي، ذهب العديد من الرهبان، بمجرّد إغلاق البلاشفة للدير، إلى خدمة رجال الأمن. هم الآن، يا عزيزي، يخدمون في الإدارة السياسية الحكومية الموحدة، كمساعدين في الإدارة الاقتصادية، ويتصرفون بوقاحة تجاه الأساقفة المسجونين، كما لو كانوا ينتقمون سرّاً. لماذا الانتقام منّا؟ كلّ واحد منّا في مكانه. نحن في السجن وهم أحرار".

قال أرتيوم: "هذا الراهب الذي كان يصيح، أنّ حريتهم كانت دائماً مثل سجنكم".

أومأ الأب إيوان برأسه، مبتسماً بدفء، ودون حقد.

أجاب كما لو أنّه يغنّي عبارة موسيقية صغيرة: "ستكون معجزة عظيمة، إذا أنهت السلطة السوفييتية كلّ المظالم وقطعت كلّ الروابط الزائفة، وفيما لو استطاعت بناء مجتمعٍ صحيحٍ!".

بدأ أرتيوم ساخراً: "حيث ستكون حريتهم مثل سجننا..."- لكن الأب إيوان وضع إصبعه على شفتيه: هس.

خمّن أرتيوم أخيراً، إنّ الكاهن لا يريد ببساطة، التحدّث حول كلّ هذه الموضوعات الصعبة، أمام الآخرين.

" اسمع ما يقوله هذا المجدّد!" - صرخ الأب المتسوّل من مكانه فجأة، والذي، كما اتضح أنّه يمتلك سمع حيوان مفترس- "قام جنود الجيش الأحمر باغتصاب زوجته- أمّا هو فيواصل الحديث عن السكن الجماعي! استمع إليه، فسيقول لك الكثير من الكلام الفارغ !".

كان أرتيوم خائفاً من النظر إلى الكاهن، ولكن عندما أدار رأسه رغم ذلك، رأى الأب إيوان جالساً بهدوء، يشبك أصابعه ويهمس بشيء ما. لقد انتظر حتّى توقفت الشتائم رفع عينيه وابتسم لأرتيوم من جديد بمعنى: يحصل مثل ذلك.

سأل الخيشوم في المساء كما لو أنّه شعر: "هل وجدت روبلاً؟".

قال أرتيوم بصوت مختلف لا يشبه صوته: " لقد وجدت "، وشعر مباشرة بقلق خانق وثقيل.

عندما جرى إحضار وجبة العشاء، تحرّك الجاني مرّة أخرى باتجاه أرتيوم، لكن تبيّن ليس إليه.

جلس الخيشوم على الأريكة بجوار فيليبوك، أمسك قصعته بأصابعه، وطلب منه:"انتظر، لا تأكل! أعطني".

أعطاه فيليب الذي لم يفهم شيئاً، قصعته، نهض الخيشوم وذهب وهو يحملها إلى مكانه. أكل كلّ ما كان في القصعة، واستدار بجوار أريكته مباشرة، وأعاد القصعة فارغة، ووضعها بين يدي فيليبوك.

جرى كلّ شيء بوقاحة وببساطة، لدرجة أنّ أرتيوم ابتسم، رغم إرادته- ابتسامة مائلة ومندهشة.

ملاحظاً هذه الابتسامة، أومأ المجرم لأرتيوم، كما لو كان شريكاً له. كان الوضع سيئاً وسخيفاً.

من المستبعد الآن أن يخطر على بال أرتيوم، أن يدافع عن أيّ شخص مهما كان... لكنّه بالتأكيد، لا يريد أن يتصرف كشريك للخيشوم. ولكن جرى الأمر، كما لو أنّه قام بهذا الدور.

كان أرتيوم منزعجاً: "كما لو أنّني صمت حيال ما جرى، من أجل المرأة من فئة الروبل!". نظر فيليبوك إلى قصعته للحظة، ثمّ بكى بهدوء.

نهض الأب إيوان الذي لم ير شيئاً، ولكن لاحظ الجار الذي يبكي، وجاء إليه وهو يعرج، من مكانه.

سأل الأب إيوان فيليب: "ما الأمر، يا عزيزي؟".

أجاب أرتيوم: "لا شيء"- فكّر أنّه سيشعر بالعار أمام الكاهن، من كلّ ما جرى- "خذ، كلْ"- ودفع بقصعته التي لم يأكل منها شيئاً لفيليب.

وقبل ذاك الهدية.

سأل الأب أرتيوم: "ما الأمر؟".

أجاب: "جائع".

أكل فيليب بسرعة، وهو يشهق أحياناً، كلّ شيء إلى آخر لقمة.

"عصيدة الدخن "- تساءل أرتيوم، محاولاً ألا يرى كيف يأكل الآخرون.

قال فيليب بصوت عالٍ فجأة: "إذا وصل اللص إلى الهدف، فسوف يقودونه إلى الذبح".

لم يفهم أرتيوم في البداية إلى من كان يتوجه، وما الذي كان يتحدّث عنه. فكّر في الأمر، وخمّن أنّ الكلمات كانت موجهة إلى الخيشوم. ولكن كان الأمر الأكثر غباءً، هو أن فيليب اعتبر أرتيوم تقريباً كشفيع له- ولهذا رفع صوته. لم يخمّن الخيشوم ذلك لحسن الحظ.

مدّ فيليب يده بالقصعة إلى أرتيوم.

سأل أرتيوم بانفعال: "لماذا تعطيني؟ - اذهب واغسلها، وأعيدها نظيفة".

وفقط عندما بدأ فيليب ينهض، تذكّر أرتيوم ببطء كأنّما فيليب لم يقم من مكانه حتّى الآن. ومن المؤكّد أنّه لم يتجوّل في الغرفة، وكان كلّ الوقت إمّا نائماً وإمّا يحدّق دون هدف في السقف.

كان هناك عكاز مصنوع بشكل غير احترافي تحت أريكة فيليبوك: نهض متكئاً عليه، والتقط القصعة بشكل غير ملائم، واتخذ الخطوة الأولى. لقد بترت ساق واحدة لديه من أسفل الركبة.

شتم أرتيوم: "عاهرة"!، ونهض بسرعة، وشعر بألم حاد في ضلوعه – كرّر: "عاهرة!"، لكن هذه المرّة من الألم.

توقف فيليب الخائف، ونظر إلى الوراء، ليرى ما إذا كان هو المقصود بالشتيمة. عقد الكاهن إيوان حاجبيه بحزن شديد وألم، كما لو كان قد دفع بشكل مؤلم في صدره. الخيشوم فقط، الذي عاد على عجل من مكان ما في الممر، تجاوز فيليب بمهارة، وكأنّ شيئاً لم يحدث، وجد طريقة للمزاح، متكئاً على أريكة أرتيوم:

"تطلبها؟ ممنوع إحضارها إلى هنا. سيكون عليك الذهاب إليها بنفسك".

في انتظار أن يزول الألم، جلس أرتيوم لفترة، ثمّ سأل:

"ماذا، الآن؟".

أجاب الخيشوم الذي كان فمه يشبه السمكة: "هل تعتقد أنّ عليها أن تستعد لفترة طويلة؟ - ترفع مؤخرتها وتحملها".

فكّر أرتيوم، وهو ينظر إلى ذلك الفم: "يمكن صيده بصنارة ودودة".

كان الراهب ينتظر في نهاية الممر، كأنّه يصلح إطار النافذة، الذي نسيه على الفور، بمجرّد أن اقترب أرتيوم والخيشوم.

قال الراهب: "أعطني نصف روبل".

كان صوته ، كأنّه ينبعث من صدره، ويسمع من هناك.

سأل أرتيوم، دون أن يظْهر المال: "أين الفتاة؟". يبدو أنّه لم يعد يريد أيّ شيء. لم يعد هناك فرح، بل كأنّه واجب، لكن من غير الواضح تجاه من.

سأل الراهب من داخل صدره: "هل أتيت إلى بيت الدعارة؟ - ماذا يمكنني أن أريك أيضاً؟".

قال الخيشوم، الذي شعر بقوّته مرّة أخرى، لسبب ما: "أعطه نصف روبل، يا رجل".

استنشق أرتيوم من انفه، ولم يعرف كيف يتصرّف: كان عليه أن يغادر، لكن كان يريد بشدّة أن يرى: هل شعرها أحمر أم أشقر أم داكن؟ رؤيتها، وهذا كلّ شيء.

مدّ أرتيوم يده بروبل سولوفكي: "خذاه واقسماه فيما بينكما ". أخذ الراهب قطعة الورق في قبضته، وأخفاها في مكان ما، بحركة سريعة، وذهب.

دفع الخيشوم أرتيوم بألم في جنبه: "اتبعه".

فكّر أرتيوم: " يجب اقتلاع خياشيمه"، لكنّه مشى وراء الراهب.

قال الراهب الواقف أمام الباب: "هذه غرفتي - المرأة هناك. لا تشعل الضوء. يجب أن تنتهي قبل عودتي من رمي القمامة - لا تستلقيا على السرير. قوما بالأمر، وأنتما واقفان".

كان أرتيوم صامتاً.

دفع الراهب الباب: تبيّن أنّه مفتوح. كان هناك شبه ظلام في الداخل، لا يكاد يمكن تمييز أيّ شيء، وتصدر من هناك رائحة عبقة.

كرّر الراهب وهو يغادر: "أقول لك لا تشعل النور - عقوبة العلاقة مع امرأة ثلاثين يوماً في زنزانة العقاب".

قال أرتيوم كما لو كان لنفسه: "وحرق في الجحيم إلى الأبد".

تمتم الراهب بصوت عميق مغادراً: "وعقوبة التكرار نصف عام في زنزانة العزل- وهذا حق".

فكّر أرتيوم، وهو لا يزال لا يجرؤ على الدخول: "يا له من تقي منافق".

دفعه الخيشوم، وتألم من جديد: "ماذا تنتظر، ادخل".

استدار أرتيوم: "أنت، أيّها الكلب، إذا لمستني مرّة أخرى... هل تفهم، أيّها الكلب؟".

كان الخيشوم يمسك بشيء ما بفمه، لكنّ عينيه كانتا غبيتين، ووقحتين: استطاع أرتيوم أن يرى أمامه مباشرة البياض العكر فيهما.

خطا إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب خلفه، وبحث عن الخطّاف- وجده، وأسقطه. استدار محاولاً أن يرى شيئاً على الأقل، اعتاد على شبه الظلام.

وهنا صدر صوت امرأة: "أنا هنا".

كانت تجلس على كرسي بجوار النافذة.

خطا أرتيوم خطوتين- نهضت هي لمقابلته.

قالت: " سأتكئ هنا على عتبة النافذة، وأنت ابدأ ". كانت تفوح من أنفسها، رائحة الدخن. لم يستطع أرتيوم أن يرى وجهها نهائياً.

قالت، وهي ترفع ثيابها في الظلام، والتي تشبه الكيس المعاد خياطته، وربّما هو كذلك: " يجب الإسراع".

سأل أرتيوم، وهو يمسك خصلة شعر في يده: " ما لون شعرك؟". لم يكد ضوء المصباح الذي في الشارع، يمر عبر النافذة المغطاة بشيء ما، لكن كان لا يمكن تمييز لون شعرها.

ضحكت، وقالت بصوت خشن نتيجة التدخين: "هل أتيت لتقص شعري".

قال أرتيوم: "اصمتي"، وبدأ يمرّر يده اليمنى على وجه المرأة: فوق الحاجبين والأنف والشفتين...

شتمت، وهي تضرب أرتيوم على يده: "لماذا تتلمّسني مثل الأعمى".

كان الأنف رقيقاً، والجبهة نظيفة، والجلد جافاً لفحه الهواء، والشفاه كانت أنثوية وناعمة.

وضع أرتيوم الروبل في يدها وغادر.

لقد نسي مكان الخطّاف على الباب، بحث عنه- صدرت عن المرأة ضحكة قصيرة، وغير سارّة، خلف ظهره.

سألت وهي تفوق، عندما فتح أرتيوم الباب أخيراً: "هل هناك أحد آخر؟".

أجاب: "لا".

رأى في الممر على الفور الخيشوم، كان واقفاً مستعدّاً.

قال الخيشوم وهو يسرع في الدخول مزيحاً من أمامه أرتيوم: "الآن دوري".

أمسكه أرتيوم من ياقته، وهمس في أذن الجاني بإصرار شديد: "خذ هذا الروبل، واتركها من فضلك. تعال معي".

شتم الخيشوم، لكنّه أخذ الروبل، ووضعه في جيبه.

كرّر أرتيوم، وهو يشد الخيشوم من سترته: " لنذهب، لنذهب".

هو نفسه لم يعرف لماذا فعل ذلك.

كان مزاجه منذ الصباح سيئاً جداً: كلّ شيء انهار وسحقه مرّة أخرى- تنتظره زنزانة العقاب، والوثيقة، وبورتسيف، وسوروكين، وكوتشيرافا...أم يعدمونه؟ على أيّ حال، يمكن أن يعدموه؟ سيأتي طرد من أمّه، بعد أن يكونوا قد دفنوه. يوجد سجق في الطرد- من سيأكله؟ أم أنّهم سيعيدونه لأمّه؟: " نعتبر من الضروري إبلاغك، أنّه بسبب إعدام ابنك، فإنّنا نعيد الطرد باعتباره، ليس له لزوم".

أمسك أرتيوم بغطاء السرير بيديه بقوة، وجلس على هذا النحو.

كانوا يغيرون الضمادة لشخص جديد قطع إصبعين من أصابعه، كان يزأر.

قال أحدهم من مكان قريب: "هناك قليل من يؤذي نفسه في الصيف، حالة نادرة، أمّا في الشتاء فهم يأتون إلى هنا كالقطيع - في أحد المواقع في الشتاء الماضي، كان هناك رئيس مجموعة: كان يقطع لكلّ من قطع أحد أعضائه، أذنه أيضاً، ويعلقها فوق الباب. لذلك كان لديه قلّادة كاملة معلقة. جاءت سلطات سولوفكي للتحقيق، وقد أفاد: جرى معاقبة أربعين من الذين قطعوا أحد أعضائهم، قطع آذانهم! وقد قرروا مكافأته!".

فكّر أرتيوم: "كلّ ذلك كذب".

لم يكد يستعيد لاجيتشنيكوف وعيه، ولم يأكل أيّ شيء، ولم يستطع الكلام. أصبح صدره أسود، وتدلّت لحيته، كما لو كانت مقطوعة من جذورها.

تذكّر أرتيوم كيف اصطاد دعسوقة، عندما كانوا يحطمون المقبرة، وقد رأى لاجيتشنيكوف ذلك، وقال: "يسمون عندنا مثل هذه الحشرة أليونكا ". وغمغم فوق الدعسوقة: "أليونكا، أليونكا، طيري إلى السماء، هناك أطفالك يجلسون جنب السلّة".

كان يلفظ "طيري"، " تيلي، تيلي"- كان الأمر مضحكاً: قوزاقي ضخم بلحية وحاجبين، ويهمس فوق دعسوقة صغيرة.

ضحك أرتيوم: "ما هذه السلّة".

قال لاجيتشنيكوف، وهو يزرّ عينيه: "هو مكان الخطيئة عند المرأة- ولكنّ الصحيح هي - سلّة من أغصان الصفصاف. هذه نكتة".

ووبّخ أرتيوم نفسه، وكان ينتقل بأفكاره بسرعة من فكرة لأخرى: "كان يجب أن أفعل كلّ شيء أمس مع هذه العاهرة- كان يجب تمزيقها إلى قطع، وخلع ملابسها كلّها، وتفحّصها، وشمّها، وتلمّس كلّ مكان فيها... لأنّه لن تكون هناك فرصة أخرى! قطّ!".

في الوقت نفسه، لم يشعر أرتيوم بأيّ إثارة، وكان جسمه مرتخياً وناعساً.

كان فيليب سابقاً يخفي ساقه تحت الغطاء، لكنّه الآن أخرج ما تبقى من ساقه للتهوية. وكان الذباب يحلق فوقها.

لم يغسل قصعته: ربّما كان يأمل أنّ الخيشوم لن يسطو على طعامه بسبب ذلك.

كان مريض الإسقربوط، الذي كان يستلقي بالقرب منه، ينبش أسنانه من فمه، بعد كلّ وجبة. بعد أن لاحظ أرتيوم ذات مرّة الجروح الرهيبة على لثته، لم يستطع أن ينسى أبداً هذا المظهر.

جرى قياس درجة حرارة أرتيوم- هذه المرّة كانت **(٣٩,٣)**.

فكّر: "ربّما أعاني من الحمى؟ لماذا لا أشعر بأيّ شيء؟ لو كانت حرارتي بهذا الشكل لكان أصابني هذيان- ربّما وقتها لن يعاقبوني. اذهب أيّها الوعي اللعين!".

ظهر الخيشوم، الذي لم يكن واضحاً على الإطلاق أنّه مريض. كان سلوكه، كما لو أنّ أرتيوم الآن قملة، وبقي أن يسحق هذا القملة بظفره.

بدأ الخيشوم على الفور: "قالوا لي إنّهم سيضعونك في زنزانة العقاب- هل تعلم إلى أين أنت ستذهب؟ إلى مطحنة الصلصال.

بقي أرتيوم صامتاً.

"هل تعرف ما هي مطحنة الصلصال؟ هي السرداب تحت الجدار الجنوبي. في أسفلها طين، والذي يجب أن تعجنه بقدميك. الطين حتّى الركب من الصباح إلى المساء. الوجبة طوال النهار-٣٠٠ غرام من الخبز. وفقاً للعقل، يتسع السرداب لحوالي ثلاثين شخصاً، لا أكثر من ذلك، ولكن يضعون هناك نحو مئة شخص في العادة. يرقد الجميع على الأرضية الإسمنتية- دون أغطية، ودون أيّ شيء. يتركونهم في الثياب الداخلية فقط. وإذا لم يكن هناك ثياب داخلية يبقونهم

عراة. يطعمونهم في حوض واحد، لا يعطونهم أطباق ولا ملاعق، لذلك يأكلون بأيديهم. يكفي للموت أسبوع واحد هناك. سوف يعطونك شهراً بالتأكيد، وربّما على الأغلب أكثر".

سأل أرتيوم: "لماذا تحدّثني عن كلّ ذلك؟".

قال الخيشوم :"أعطني سترتك، أنت لست بحاجة لها، على أيّ حال".

قال أرتيوم: "إليك عني".

ابتسم الخيشوم: فتح فم السمكة، وظهرت أسنان سمكة صغيرة وقذرة حقاً.

قال الخيشوم : "إضافة إلى ذلك، ابحث عن خمسة روبلات أخرى. وإلّا سأخبرهم بأنّك كنت مع امرأة. وسيضيفون لك شهراً آخر. يجب أن يكونوا جاهزين عند الغداء".

عند سماع هذه الكلمات، دفن فيليبوك قدمه تحت الغطاء.

نهض الأب إيوان الذي لم يسمع الحديث كاملاً، لكنّه خمّن حول ماذا يدور، من مقعده، وبطريقته الحنونة طلب من الخيشوم:

"عزيزي، اذهب إلى مكانك، استلق واسترح، أنت لا تهدأ كلّ الوقت، لا تستطيع أن تهدأ في مكانك".

أطاعه الخيشوم، وذهب، لكنّه تذكّر شيئاً ما، وعاد ليقول كلمتين:

" قالوا لي في سريتك أن أخبرك: أنّ الطرد وصل، وهو بانتظارك في مكتب البريد. يجب استلامه وإحضاره إلى هنا، وسأرى كيف ستتصرّف به... أليس كذلك؟ لك سلام من الوثيقة، هل فهمت؟ اكتب رسالة من أجل أن يستلموا الطرد، وسنجد الشخص المناسب لذلك. اكتب: أنا في المستشفى وأطلب منك إعطاءه الطرد. هذا ممكن. وسأرسل رسالتك إلى الراهب فيقوم هو بترتيب كلّ شيء".

انتظر الأب إيوان نهاية الحديث، واستلقى من جديد، لكنّه كان قلقاً، وكان يتقلّب.

وسرعان ما نهض من دون انتظار الإفطار، وغادر الغرفة، وهو يعرج بشدّة. لقد غاب لفترة طويلة، لكنّه ظهر مبتهجاً.

لقد أكل فطوره الذي لم يلمسه أحد وقد برد بالطبع، وبعد أن أكله تورّد، وغنّى عن شيء ما، بصوت لا يكاد يسمع.

جرى استدعاء الأب إيوان بعد نحو ساعة ونصف- لقد خرج بصعوبة إلى الممر، وهو يتمسك بأريكة بعد الأخرى، ولكن بعد دقيقة واحدة فقط، عاد بكيس وضعه لأرتيوم على الأريكة.

مدّ أرتيوم يده لالتقاط الكيس- شعر بوخزة في ضلوعه- وعندها استدار، وأمسكه بيده اليسرى، ووضعه على ركبتيه: حسناً، نعم، إنّه طرد والدته.

يا لها من رائحة! إنّها ببساطة، مستحيلة. نظر أرتيوم حوله: يجب أن يشعر الجميع بهذه الرائحة المدهشة، والمتنوّعة والمدوخة.

حتّى دون أن يتطلّع إلى ما في الكيس، ولكن أغلق عينيه للحظة فقط، استطاع أرتيوم أن يسمّي كلّ ما كان في الكيس تقريباً: الخردل دغدغ أنفه، وكانت رائحة دهن الخنزير المملح الأبيض تنتشر بكثافة، وكانت رائحة الليمون الصفراء رقيقة وتلفّ بحدّة، وطغت رائحة الفواكه المجففة المتعددة الألوان، وكانت رائحة الأرز مغبرّة ومتفتتة، وفاحت رائحة الشاي بشكل ضبابي وثقيل، وكانت رائحة السكّر خفيفة، ومتوهجة قليلاً، وكانت رائحة السمك المقدد المتوهج باللون الذهبي، تسبح في رائحة السكّر والخردل، والسجق- آه، سجق لحم الحصان- لم تكن تفوح منها رائحة الحصان على الإطلاق، كانت تفوح برائحة فجور اللحم، والجسم، والحياة...

التفت أرتيوم إلى الكاهن، متأثراً ومندهشاً: "الأب إيوان، كيف عرفت؟ كيف استلمته؟".

أشار الكاهن لأرتيوم بإصبعه، ألّا يتكلم بصوت عالٍ حتّى لا يسمع الجميع.

غطّى أرتيوم الكيس ببطانية، وذهب إلى أريكة الكاهن.

تحدّث الكاهن بصوت خافت، وهو يبتسم: "في مكتب البريد يعمل شقيقنا طويل الشعر فقط- لقد أقنعته!.. إنّني أرى أنّ الكثير من الأيدي تمتد لأخذ طردك. الشيء الرئيس هو أن يصل إليك، ثمّ بعد ذلك تقرّر يا عزيزي بنفسك، من يستحق أن تضيّفه منه، ومن لا يستحق الضيافة. ولا تغضب منهم! لا تغضب من فيليب- فقد حمل أرومة ضخمة من المكان الذي كان يعمل فيه، وهو جريح، وساقه مكسورة، وقد سقط، وفقد وعيه من الألم والتعب. نام يوماً كاملاً. اعتقدت إدارة السجن، أنّه هرب، بحثوا عنه بمساعدة الكلاب. عندما وجدوه- مزّقت الكلاب ساقه مرّة أخرى. ثمّ جرى استجوابه لمدّة يومين، وبعد ذلك ألقوا به في طاحونة الصلصال. وعندما اكتشفوا أنّ العقوبة لا تتناسب مع ذنبه، مرض بشدّة، ممّا أوجب قطع ساقه. والآن عليه أن يقفز على ساق واحدة حتّى موته! أنت طيّب، لا تلومه على حديثه الفارغ. من خلال حديثه الفارغ هو يتحرّك أيضاً نحو الله... ولا تغضب من الخيشوم! هل من السهل أن يعيش شخص يحمل مثل هذا اللقب؟ هو خلق أيضاً في صورة وعلى شاكلة الرب- بينما يسميه الجميع الخيشوم، أسوأ من الكلب- حتّى الكلب لا يسمونه هكذا، يا عزيزي... ولا تغضب من كلّ هذه الفوضى من حولك. إذا أظهر لك الرب كلّ هذا العبث، فهذا يعني أنّه يريد أن يدفعك إلى استعادة النظام في قلبك. كلّ ما نراه معاً- هو تنوير لوعينا. ومن أجل ذلك، ما عليك سوى أن تشكر الرب، ولا تلومه!.. حسناً، اذهب، اذهب إلى هديتك".

اعتبر أرتيوم أنّ إخراج الطعام من كيس الطرد أمام الجميع غير ضروري تماماً، لكنّه لم يستطع مقاومة أكل سجق لحم الحصان.

قضم قضمة واحدة، وتناول قضمتين، والتقت نظراته بنظرات الخيشوم الذي بدا عليه الاستغراب الشديد.

لم يحوّل أرتيوم نظره عنه، وقام بقضم قطعة أخرى من السجق بأسنانه. ودون أن ينظر، بحث في الكيس بيده، ووجد صرّة من التفاح المجفف، عن طريق الرائحة - أخرجها وأكل منها بعد السجق.

أومأ الخيشوم لأرتيوم، مشيراً إلى الباب المؤدي إلى الممر.

أومأ أرتيوم، بابتسامة سعيدة بمعنى: قادم، قادم على الفور، أيّها الرفيق العزيز.

دعاه الكاهن: "لا تذهب إلى أيّ مكان، يا عزيزي"، لكنّه فات الأوان. خرج أرتيوم إلى الممر ومعه السجق والتفاح المجفف.

بدأ الخيشوم : "أنت لم تفهم، أيّها الساذج...".

استغرب أرتيوم: "ماذا يعني لم أفهم- لقد فهمت كلّ شيء. وضع صرّة التفاح المجفف بين أسنانه، حتّى لا تضايقه.

تجنّب الخيشوم الضربة الأولى ببراعة، لكنّه تلقى الثانية باليد اليسرى. كان لسوء الحظ في اليد اليسرى سجق، ولذلك كانت الضربة ضعيفة. تلقى أرتيوم الضربة الجوابية على ضلوعه- يبدو أنّ الخيشوم عرف أين عليه أن يضرب. كان الأمر مؤلماً للغاية، كما لو أنّ إحدى الأضلاع قد انكسر، وغرز في مكان ما في اللحم الأكثر ليونة.

فقد أرتيوم وعيه بصق التفاح، وغامت عيناه. حاول الخيشوم أن يوجه ضربة إلى صدغ أرتيوم، متخذاً من أصابعه وضعية مخالب الطائر.

أدرك أرتيوم، بخوف مجنون: "يريد فكّ الخيوط التي على الصدغ...- ينفك الخيط، ورأسي... مثل الحذاء... سيفتح...وكلّ شيء سوف يسقط... ".

سقسق التفاح تحت الأقدام.

قفز شخص ما من الغرفة، وأخذ يصيح : "أنتما ! أيّها الحمقى! أنتما!".

لاحظ أرتيوم أن الراهب يسير في الممر، وفي يده قطعة خشب - قادم إليهما أيضاً وقطعة الخشب في يده.

أخافه أرتيوم الخيشوم بيده اليسرى، وانحنى من تحت يده متجنّباً الضربة، وظهر من وراء، وضربه باليد اليمنى المثنية كالخطّاف على مؤخرة رأسه.

كان باب الغرفة مفتوحاً، وطار الخيشوم إلى الداخل، وسمعت قرقعة في مكان ما هناك.

التقط أرتيوم السجق من على الأرض، ولم يكن هناك إمكانية لجمع التفاح المجفف، وأسرع للحاق بالخيشوم.

بعد أن أدرك الراهب أنّ ليس بمقدوره اللحاق بهما، رمى قطعة الخشب باتجاههما، كما لو أنّها كانت معه مدى الحياة وكرهها، وقرّر التخلّص منها الآن.

اصطدمت قطعة الخشب بقوة في الجدار، لدرجة إنّها انكسرت.

كانت حرارة أرتيوم مرتفعة كالعادة.

لكنّه نام مثل سمكة في الجليد: بعمق، لم يسمع شيئاً، ولم يتذكّر أحداً.

في الصباح، جمع بعض الطعام من طرده، وحمله إلى الأب إيوان.

رفض الكاهن بحزن: "لست بحاجة إلى أيّ شيء، يا عزيزي - أعطه للمتسوّل. أمّا أنا فلست بحاجة إلى أيّ شيء. كيف يمكنني أن أردّ لك هذا الدين، يا عزيزي؟ أنا آخذ عندما أستطيع أن أضيّف الآخرين فقط، أمّا هنا فيمكنك إطعام كلّ من تريد إطعامه. لن أعطي بوجودك هدايا والدتك للآخرين الذين معي هنا في هذه الغرفة؟ سيكون الأمر غير جيد. من الأفضل أن تذهب أنت وتطعم بنفسك الشخص الذي آخر من تفكّر في أن تسعده: الآن أصبح من الممكن ذلك، الآن أنت الذي هزمته، كن لطيفاً معه، إنّ ذلك يناسبك، يا عزيزي".

قال أرتيوم: " يستطيع أن يستغني".

أزالوا غرز أرتيوم هذا الصباح، وعلى العكس من ذلك، جرت خياطة جروح الخيشوم أمس: عندما سقط جرح جبهته ونصف وجهه الذي يشبه

السمكة، بما في ذلك شفتيه. لقد بدا الآن شكله لا مثيل له، وأصبح شكله غريب، يشبه سمكتين في وقت واحد.

سأل أرتيوم وهو يحاول أن يجلس جانب الخيشوم على أريكة الدير، بينما كان في طريقه إلى المرحاض:" لقد انقسم لسانك الآن إلى قسمين أيضاً، أيّها الأفعى؟". تحرّك الخيشوم مفسحاً في المجال ليجلس ضيفه، وظل صامتاً، يعاني الألم، وفكاه يرتعشان.

نظر أرتيوم في طريق العودة، مرّة أخرى إلى الخيشوم، ومسح يديه الرطبتين بشرشفه، ونفّ به.

تطلّع بعض الوقت إلى الجاني.

كان أرتيوم مستمتعاً بالجرح، الذي يمتد على طول وجه المجرم.

اقترح أرتيوم عليه ساخراً: "أقترح عليك تغيير لقبك. لن تكون خيشوم ، بل مشدُّ".

ابتلع الخيشوم ريقه بصمت: كان يتألم وهو يبتلع ريقه.

أخذ أرتيوم في أثناء وجبة الغداء قصعة الخيشوم المملوءة بسلطة الخضار.

قال: "لا يمكنك المضغ على أيّ حال- ستلوكه فقط، وتنزع الطعام. أيّها الخيشوم سأحفر في الروث، وأجمع لك الديدان. سوف تبتلعها دون مضغ".

لم يفهم الخيشوم بغبائه ما كان يقوله أرتيوم، ولم يحاول حتّى الدفاع عن وجبته من الطعام.

لم يكن أرتيوم بحاجة إلى أن يُفْهَم، فقد كان يسلّي نفسه فقط.

أعطى وجبة السلطة إلى فيليبوك الذي رفض أخذها، عندها صبّ أرتيوم ببساطة، وجبة السلطة من قصعة الخيشوم في قصعة فيليبوك، وأعاد القصعة الفارغة إلى المجرم.

مدّ القصعة له : خذها. أراد الخيشوم أن يظهر شخصيته، في الوقت غير المناسب، فلم يمد يده لتناول القصعة.

لم يستطع أرتيوم ضبط نفسه، وضرب بحدّة الخيشوم على رأسه بالقصعة الفارغة.

لوى الخيشوم شفتيه من المفاجأة، وافترقت الغرز، وفتح الجرح على شفتيه، فسال الدم.

بعد أن استمتع أرتيوم، ذهب إلى أريكته، واستلقى، وراح يراقب أحياناً، الجاني الذي كان يرتجف، وأصبح محموماً.

لقد فقد عقله وهرع إلى أريكة أرتيوم، لكنّه خاف أن يلمسه، وبدأ يصيح فقط:

"سيقتلونك! سيقتلونك!"- كان الخيشوم عند لفظ حرف "س" يبصق دماً، في كلّ مرّة - اندهش أرتيوم كالطفل- لم تسل الدموع من عيني المجرم، بل كانت تطفر طفراً، هل هذا معقول.

سخر أرتيوم بخبث، دون أن ينهض من مكانه: "لقد تمزّق فمك- اذهب إلى الدكتور علي، واطلب منه أن يخيط شفتيك في مكانها. وإلّا ستصاب خياشيمك بالزكام.

كان الخيشوم يصيح دون أن يلفظ الكلمات "أ - نحن!".

كان الكاهن الذي لم يستطع أرتيوم رؤيته بسبب ظهر الأريكة، يهمس: "يا إلهي، أنت الرحيم- يا إلهي، يا إلهي!"- سرعان ما جرى أخذ الخيشوم لخياطة جرحه.

بعد دقيقة، ظهرت الممرضة المسنّة- وعلى الفور توجهت إلى أرتيوم.

لقد فكّر أنّها ستبدأ بتأنيبه بسبب الخيشوم، ولكن جاءت لغرض ثان، لمست بيدها جبهته، وصاحت بصوت ليس أخفض من صوت الخيشوم:

"درجة حرارتك طبيعية! أنت في صحّة جيدة! لماذا حرارتك تسعة وثلاثين دائماً ؟ أين تسخّن مقياس الحرارة ؟ هل تعرف ما يعني ذلك؟.. إنّه

تظاهر بالمرض! أنت! تتظاهر!"- كانت تخرج الكلمات منها بشكل عشوائي ومشوّش.

حتّى هذه اللحظة، كانت تبدو لأرتيوم مثقفة فعلاً- كان يعتقد أنّها سجينة لأنّها معادية للثورة، وغير سعيدة- وكانت كنيتها تدل على أنّ عائلتها من النبلاء، فيروملينسكايا أم شيء من هذا القبيل، والآن كأنّها اسْتبْدلتْ.

استغرب أرتيوم: " من أين لي أن أعرف لماذا حرارتي ٣٩؟- لا أقوم بتسخين مقياس الحرارة في أيّ مكان! أنت تسخنيه بنفسك في مكان ما!"- لم يكن ليتحدّث مع ممرضة مسنّة بصيغة المفرد، لكنّها كانت تصرخ بشكل هستيري.

كاد الكاهن يبكي، نهض وجاء لتهدئة الصياح: "ماذا تفعلان!"

بينما كانت الممرضة المسنّة توبخ أرتيوم، ظهر الدكتور علي، فقد فتح الباب بقوة، وشكله أشعث وغاضب، حتّى إنّ لحيته شاركت في انفعاله.

قال في تذمّر، وهو على بعد عشر خطوات من مكان أرتيوم: "لن يكون هناك أشخاص مثلك لدي في المستشفى!- اجمع أغراضك! وستطير من هنا مثل رصاصة!"- لوّح بمريوله الأبيض مثل الشراع، وغادر.

جلس أرتيوم دون أن يتحرّك، ممسكاً بكيسه في يديه.

كان قلبه ينبض بصوت عالٍ، وهو في حالة من الذهول.

حاول أن يبلور ولو فكرة واحدة حتّى النهاية- في حدود عبارة واحدة- لكنّ أفكاره كانت تتأرجح بين مقياس الحرارة والدكتور علي، ومن هناك إلى شفتي المجرم، ثمّ تعود من جديد للوراء، ولم يستطع فهم أيّ شيء.

جلس الكاهن إيوان بجانبه.

قال بتسرّع وشفقة: "أنت مثل الطفل، يا عزيزي- لكنّهم هنا فقط لا يجبرون الأطفال على الوقوف في الزاوية، إلّا أنّه يضعونهم على الفور في النعش!

صل بنفسك، وأنا أصلّي من أجلك نهاراًوعلى الجانب الآخر، جلس المريض الذي كان مستلقياً دائماً بهدوء في مكانه، بجوار الكاهن إيوان، رجل ضخم، لم يحلق لحيته منذ زمن طويل، له أنف كبير، وشفتان كبيرتان، ووجنتان مجعدتان.

قال وهو يمسح العرق عن وجهه، ويتنفس بصعوبة: "أنا فنان، واسم عائلتي هو شلابوكوفسكي"- ولكن ليس هذا هو الأمر... لقد سمعت كيف كانوا يوبخونك... ولاحظت شيئاً لم تنتبه له- فهي تعطيك دائماً مقياس الحرارة من بعدي... وهي لا تقوم بنفضه... أعاني من حمّى... حمّى منذ أيام عدّة... وهم يقيسون درجة حرارتك- ويكتبون لك درجة حرارتي.. لقد أدركت ذلك للتو... هؤلاء الناس- هل يستطيعون أن يعالجوا أحداً؟ هذا الطاقم يمكنه دفن الجميع فقط. ضع ذلك في اعتبارك- أنا على استعداد لتأكيد أنّ مقياس الحرارة، كان يؤشّر إلى درجة حرارتي...".

لم يكد أرتيوح أن يبتهج، حتّى جاء جندي من الجيش الأحمر من سريّة الحراسة من أجله. وكانت بندقية معلقة على كتفه.

سمّى بصوت عالٍ كنية عائلة أرتيوم، مخطئاً في لفظها وواضعاً الشدّة في غير مكانها. جفّ فم أرتيوم، وضعفت ساقاه.

كان يعرف بالضبط أنّه يناديه، ولا يوجد أيّ لبس في ذلك.

لفظ جندي الجيش الأحمر الكنية مرّة أخرى، وارتكب خطأً آخر في لفظها، واضعاً الشدّة بشكل واضح على حرف آخر مرّة أخرى- التي كان مكانها غير صحيح من جديد.

كانت تسْمع هذه الأخطاء، كما لو بدؤوا يقلّبون أرتيوم في مفرمة للحم. شتم جندي الجيش الأحمر، ولفظ الكنية للمرّة الثالثة، مضيفاً:

"... الذي، وضعت والدته العصا في حلقه، اسمه أرتيوم!".

قال فيليبوك وهو يجلس ويشير إلى أرتيوم بيده: " هذا هو، يجلس هناك! هنا! هذا هو!".

أخذ أرتيوم كيسه، وذهب نحو الباب، دون أن ينظر إلى أيّ أحد كان.

آخر ما لاح له: رسم الكاهن شارة الصليب بيده المليئة بالنمش، على ظهره .

قال جندي الجيش الأحمر، مبتسماً: " لماذا تحمل الكيس؟ - خذ الشرشف والمخدّة معك أيضاً، وممكن أن تجر الأريكة. ستكون مثل إيفان الأهبل على الموقد".

كان وجهه مثل البطاطس في قشره، ينفجر بابتسامة.

خطرت في ذهن أرتيوم كلمة واحدة : "ثرثار..."، لكنّها ولّدت القدرة على التفكير.

كان على أرتيوم العودة إلى أريكته. أخذ الكاهن الكيس بيديه، وقال بثقة:

"سأحافظ عليه حتّى تعود".

كانت السماء تمطر في الخارج، وجرى إحضار أرتيوم إلى قسم المعلومات والتحقيقات، وقد ابتلّ قليلاً، وهدأ، وتنفس بعمق.

حتّى الآن، لم يكن قد دخل هذا المبنى - ولم يسع للدخول إليه.

مرّ من جانب المناوبين الذين جلسوا يشربون الماء المغلي في الطابق السفلي، صعد إلى الطابق الثالث، صاح جندي الجيش الأحمر، بعد أن فتح الباب الذي لم يكن مكتوباً عليه أيّ شيء :

"أحضرت السجين من المستشفى!" - ونطق الكنية للمرّة الرابعة بشكل مشوّه.

حتّى إنّ أرتيوم ضحك - بهدوء، لكن بصدق. من المؤكد أنّهم لم يحضروه ليعدموه - وهذا ما كان قد أسعده بالفعل.

جلست غالينا في المكتب وراء طاولة ضخمة وقبيحة.

ربّما كانت هي نفسها صغيرة الحجم وجديّة بطريقة أنثوية، لدرجة بدت الطاولة خشنة، إلى حدٍّ مفرط.

كانت على المنضدة آلة كاتبة، كبيرة وثقيلة، مثل الجرار.

كانت الغرفة بأكملها، باستثناء النوافذ والجدار الذي يقع وراء غالينا، مليئة بالرفوف. كانت على ما يبدو، تحتفظ فيها بملفات سجناء المعسكر.

نطقت كنية أرتيوم دون أن تخطئ بحرف واحد:

"غوريايتوف؟".

"نعم. أنا".

"أرتيوم؟".

" نعم، أرتيوم غوريايتوف".

لمست غالينا الأوراق التي على الطاولة، لكن كان من الواضح أنّها تتذكّر كلّ شيء بشكل ممتاز.

قالت بعد دقيقة: "أجلس" - وكأنّها نسيت أنّه ظلّ واقفاً منذ لحظة دخوله.

فكّر أرتيوم: "إنّك لم تنث أنّني بقيت واقفاً..."

- وجلس على كرسي من دون ظهر بجانب الطاولة.

وكان الكرسي غير ثابت.

لقد حاول، وهو يقف قليلاً، تثبيت الكرسي بشكل أكثر أماناً، لكنّ غالينا طلبت منه :

"أجلس بهدوء".

جلس أرتيوم، لكن كان عليه أن يبْقي ساقيه متوترين - بدا له طوال الوقت أنّه على وشك أن يقع هو والكرسي على الأرض. حتّى إنّ صدغه وجعه، وانتقل الألم إلى ضلعه.

فكّر أرتيوم: "كان من الأفضل لو بقيت واقفاً...".

قالت غالينا: "هذا هو التقرير..." - كانت تقرأ إحدى الأوراق، وعبست، على ما يبدو من التشطيبات وسخف الكلام المكتوب - "... في أثناء التفتيش، جرى اكتشاف أوراق لعب في كيس غوريايتوف...".

قال أرتيوم بسرعة: "أوراق اللعب ليست لي. لا أعرف كيف ألعب بها، لقد وضعوها بين أغراضي".

رفعت غالينا عينيها- كانتا خضراوين- وبهدوء شديد، تقريباً ودون عاطفة، قالت:

" إلى حدّ الآن لم أسألك، عن أيّ شيء ".

صمت أرتيوم.

حكّت غالينا جبهتها بقلم الرصاص بسرعة، كما لو أنّ ذبابة قد جلست للتو هناك، والآن هناك دغدغة من كفوف الذبابة.

عُلِّقَت وراء ظهر غالينا على الحائط، صورتان نظيفتان لامعتان، على ما يبدو جرى مسحهما- تروتسكي، ودزيرجينسكي. ولسبب ما، لم تكن صورة لينين هناك.

في محاولة لعدم لفت الانتباه، كان أرتيوم ينظر من جانب إلى جانب آخر- من الممكن أن يكون البلشفي الرئيس في مكان ما هنا، وأنا لم ألاحظه حتّى الآن... على كلّ حال، لم يكن عليه أن يفتل رأسه- قامت غالينا بإزاحة الأوراق قليلاً، ورأى أرتيوم على الطاولة، تحت الزجاج، صورة لينين من مجلة "أوغانيوك"، وبجانبها صورة إيخمانيس، مقصوصة من جريدة وملصقة على ورقة سميكة، أم كرتونة: حتّى لا تتجعّد ولا تبهت.

سألت غالينا: "من أين لك بأوراق اللعب؟".

كرّر أرتيوم بصبر: "سأشرح لك - ليست لي. دسوها لي".

سألت غالينا بسرعة: " أفاناسييف؟".

سأل أرتيوم، وهو يترنّح على الكرسي، وثبّت نفسه بصعوبة: "لماذا؟".

"أفاناسييف يلعب الورق".

هزّ أرتيوم كتفيه: "ربّما، إنّه يلعب الورق، لكنّه لا يرسم".

سألت غالينا: "لكن ربّما لديه أوراق لعب؟".

هزّ أرتيوم كتفيه من جديد، ولم يقل شيئاً هذه المرّة.

قدّرت غالينا هذه الإيماءة بنظرة ساخرة. شعر أرتيوم بالغباء: "أهزّ كتفي كما لو أنّني طالب في المدرسة الثانوية...".

جاء سؤال غير متوقع: "هل الهندوسي كوريز شاه، حقاً لا يتكلّم اللغة الروسية؟".

ابتسم أرتيوم: "لا أعرف. عندما جاء، مباشرة... نقلت أنا إلى المستشفى".

" ألم يقل فاسيلي بيتروفيتش أيّ شيء عن ماضيه؟".

"كان هناك شيء من هذا القبيل...".

"ماذا؟".

"كان يذهب إلى الصيد. كان لديه كلب اسمه فيت. هو من عائلة مثقفة، كان والده يتحدّث لغات عدّة..." - أدرك أرتيوم فجأة أنّه لا يعرف أيّ شيء عن فاسيلي بيتروفيتش.

"ماذا كان يفعل خلال الحرب الأهلية؟"- سألت غالينا بحيادية، وهي تواصل تفحّص أوراق مختلفة على الطاولة، ومن وقت لآخر كانت تلمس صدغها بالقلم الرصاص. أراد أرتيوم نفسه، وهو ينظر إلى ذلك، أن يحك حقّاً مكان الخيوط التي كانت أمس.

أجاب أرتيوم غير واثق: "لقد حارب".

"مع من؟".

صمت أرتيوم حائراً. بطريقة ما كان عليه أن يجاوب بشكل صحيح دون أن يزعجها: معكم؟ مع البلاشفة؟

أجاب أرتيوم: "اسمعيني، اسأليه هو، أنا في الواقع، لا أعرف الكثير عنه. لقد كنت دائماًعلى يقين من أنه محكوم، لأنّه مناهض للثورة ".

كان أكثر قلقاً من رائحة الغرفة التي يفوح منها عطر نفّاذ. حتّى إنّه أصيب ببعض النشوة، من هذه الرائحة: لم يشمّ أيّ عطور منذ فترة طويلة.

سألت غالينا: " وأنت لماذا لم تحارب؟".

سأل أرتيوم هذه المرّة: "مع من؟".

كانت غالينا، على عكسه، لم تكن تختار الكلمات مدّة طويلة.

أجابت ببساطة: "معنا أو ضدنا".

لاحظ أرتيوم بمحاكمة عقلية أنّ "معنا" و "ضدنا" يمكن أن تعني الشيء نفسه، ولم يكن هناك الكثير من الخيارات.

" كما تعلمين، لم استدع للخدمة الإجبارية، بسبب السن".

سألت غالينا: "ألم يحدّثك أفاناسييف، ما إذا كان قد التقى الشاعر سيرغي يسينين عشية انتحاره؟".

فكّر أرتيوم بسرعة أنّها: " تقفز من مكان إلى آخر"

- وأجاب على الفور: "لا لم يحدثني".

أمسكت غالينا بعناية بطرف القلم الرصاص بأسنانها. في إحدى الغرف المجاورة، أطلق أحدهم صرخة مؤلمة قصيرة - كما لو أنّ شخصاً ما ضرب، وفقد وعيه على الفور.

لم تتفاعل غالينا مع الصرخات، ولم ترفع عينيها، لكنّها، لعقت شفتيها بطرف لسانها بسرعة فقط، بعد أن أزالت القلم الرصاص.

قالت بصوت أعلى بقليل من الصوت الذي كانت تتحدث به من قبل: "انظر يا غوريباينوف". لقد جرى العثور على أوراق لعب لديك- وهذا شيء ممنوع. كيف وجدت لديك، أنت لا تعرف. هذا أوّلاً. أنت بسبب ذلك تستحق أسبوعاً في زنزانة العقاب... دخلت في عراك مع قائد فصيلة وقائد سرية. عصيان أوامر موظفي الإدارة - وهذا من أسبوع إلى ستة أشهر في زنزانة العقاب.

والهجوم على موظفي الإدارة، عقابه أعلى مستوى من الحماية الاجتماعية، أي الإعدام. هذا ثانياً".

قال أرتيوم: "أنا لم أهاجم"، ورداً على ذلك، رفعت غالينا القلم الرصاص عمودياً بمعنى: أصمت، مفهوم؟.

تابعت: "كان من الممكن أن ننهي حديثنا عند هذا الحد، لكن هذا ليس كلّ شيء، عقوبة إجبار امرأة على المعاشرة - السجن شهراً آخر في زنزانة العقاب".

فكّر أرتيوم، وقد غمره عرق كريه: "من الذي وشى بي، هل الراهب ؟ أم الخيشوم ؟"

- فكّر للحظة: أن يقول إنّه لم تكن هناك أيّ "مساكنة"، أم لا يجب أن يقول ذلك؟

- لكنّه تأخر.

" تزوير توقيع عند استلام طرد نتيجة تواطؤ مع سجين من رجال الدين المناهضين للسوفييت. وبسبب ذلك يضاف ثلاثة أيام إلى أسبوعين في زنزانة العقاب" - رمش أرتيوم، كما لو كان هناك شيء غير ضروري يسْكب على رأسه، مثل غبار القش - "أخيراً، التظاهر في أثناء وجودك في المستشفى. ثمّ قرأت غالينا ما كتب في إحدى الأوراق: "... المريض غوريانوف... تظاهر بالحمّى...".

أجاب أرتيوم بسرعة وبوقاحة ساخرة، لم تكن متوقعة بالنسبة له: "لماذا أتظاهر فيما أنا مريض؟ أنت ترين ماذا يكتبون؟- هناك هذه الممرضة- إنّها ليست طبيبة، الشيطان يعرف من تكون...".

فجأة قالت غالينا ببساطة: "أخرس". توقف قلب أرتيوم من صوتها. وعلى الفور بدت شفتاها اللتان كانتا للتو جميلتين ومثيرتين، كشفتي امرأة عجوز نحيفة وغاضبة- "يمكن إعدامك على الفور. ويمكن وضعك في زنزانة العقاب حتّى نهاية فترة حكمك بالضبط".

لم يستكن أرتيوم: " من أجل أن أموت هناك؟ حتّى نهاية حكمي؟ يمكنني أن أشرح كلّ حادثة على انفراد". كان رأسه يدور، لقد فهم أنّ عليه أن يسرع بكلّ قوته، أن يسرع بشكل رهيب.

كرّرت غالينا مرّة أخرى، ولكن بصوت أعلى وأكثر غضباً: "أخرس".

أغلق أرتيوم فمه في منتصف الكلمة، كما لو كان قد اصطاد ذبابة. وجلس وهذه الذبابة في فمه: كانت لديه رغبة لا تطاق في أن يفتح فمه، وينطق مئة كلمة أخرى- بل إنّه ألّف كلمة من الكلمات الضرورية التي يجب أن يقولها، كلّها كانت تئزّ وتخفق في فمه.

ظلّا صامتين لثلاث دقائق.

كرّر أرتيوم: "هذه هي النهاية. هذه هي النهاية... هذا هو التظاهر بالشجاعة الذي قيل لي عنه... هذه هي النهاية، بالتأكيد. أم إنّه يجب أن أقول شيئاً ما؟ لا، هذه هي النهاية. لماذا لا يغمى عليّ من الخوف؟ إنّها نهايتي...".

سألت غالينا: " أنت خائف"؟. ومضت ابتسامة في زاوية شفتيها القبيحتين العجوزتين.

ابتلع أرتيوم لعابه وظل صامتاً.

في زاوية المكتب وراء ظهرها، كان هناك صندوق مغلق بقفل، بدلاً من الخزنة. ربّما جرى تخزين أهم الوثائق فيه.

"أم إنّها تحتفظ بسراويلها الداخلية هناك؟" فكّر أرتيوم بشراسة.

قالت غالينا: "هناك طريقة أخرى للخلاص لأنّك ما زلت شاباً، وسلسلة الصدف... يمكن أن تؤدي إلى ذلك".

فكّر أرتيوم: "ليس أصغر منك كثيراً، أيّتها الكلبة"، وواصل التفكير، دون توقف: "أيّتها اللطيفة ، عزيزتي، أقرب الناس، أعزّ الناس، اقرب الناس، لا تقتليني، سأقبل قدميك، من فضلك!".

"يبدو لي أنّه يمكنك أن تسلك طريق إعادة التربية، لكي تخرج بعد انقضاء فترة حكمك مباشرة، أم حتّى قبل ذلك- شخصاً سوفييتياً طبيعياً، جيداً، وصحيحاً. لكن عليك ألّا تكرّر مثل هذه الحالات، أليس كذلك؟"- من الواضح أن غالينا تحدثت بكلمات كانت غريبة عنها، لكن لم يكن هناك كلمات أخرى بمثل هذه المناسبة.

قال أرتيوم: "بالطبع".

تنفّس من فمه. كان لسانه جافّاً. شعر بجفاف لسانه، وبرودة في سقف حلقه.

"حتّى لا يقوم أحد بدسّ أوراق اللعب لك مرّة أخرى - نحتاج إلى معرفة من يمكنه دسّها، أليس كذلك؟".

أجاب أرتيوم "بالطبع"، وقد بدء يفهم بالفعل كلّ شيء.

"حتّى لا يكون هناك من يتظاهر بالمرض. حتّى لا يقوموا هنا بترتيب السفاد سراً للسجناء، كما هو الحال بالنسبة للكلاب. حتّى لا يضاعف الأشخاص الذين جاؤوا إلى هنا، ذنوبهم ضد السلطات السوفييتية. من الأفضل منع كلّ هذا مقدّماً، حتّى لا يصل بهم الأمر إلى زنزانة العقاب أم أقسى عقوبة، وهي الحماية الاجتماعية، أليس كذلك؟".

كرّر أرتيوم "هكذا"، وفكّر بحماسة في ما يجب عليه القيام به بعد انتهاء كلّ هذا التعداد.

"سنوقّع معاً على ورقة أنّك سوف تساعدني! لي شخصياً! وستساهم وتساعد في جميع الحالات الصعبة. إنّهم كثر! لأنّ رؤساء المجموعات والفصائل والسرايا الذين هم من عداد السجناء، غالباً ما يسيئون فهم مهامهم، وفي أثناء سعيهم لإنجاز المهام الموكلة لهم، والحفاظ على الانضباط، فهم أنفسهم ينتهكون الانضباط بشكل فظّ. لأنّ المعارضين للثورة، الذين أعطتهم السلطة السوفيتية الفرصة لتصحيح ذنوبهم، يفاقمونها بخطبهم المناهضة للسوفييت، التي يمكن أن تتحوّل، كما في الحرب الأهلية، إلى أفعال. لأنّ اللصوص والقتلة هم

مجرمون!- يستخدمون دون خجل، قرابتهم الوثيقة من الطبقة العاملة، ويتحولون إلى عنصر معاد متحمّس للمجتمع، مؤازرين بعضهم بعضاً ويمارسون السكْر والمقامرة. هل أنت تريد أن تعيش وسط كل هذا؟.. كم بقي من فترة حكمك هنا في سولوفكي؟".

أجاب أرتيوم: "أكثر من عامين ونصف".

قالت غالينا: "فكّر كيف ستقضيها- هل في زنزانة العقاب؟ أم... تخرج بعفو مستحق، بعد أن تقضي نصف هذه المدّة؟ من تركت في البيت؟ أمّاً ؟ خطيبة ؟".

" أمّي ".

" أمّك تنتظرك... لماذا لا تكتب رسائل لك؟".

تردّد أرتيوم.

أجاب: "هكذا حصل. ترسل طروداً. لقد أرسلت للتو". وتذكّر على الفور أنّ غالينا على علم بالطرد، وحتّى عن كيفية استلام أرتيوم له.

قالت غالينا، كما لو بطريقة منزلية تماماً، عندما رأت ورقة أخرى على الطاولة: " آه، لديك عراك أيضاً في المستشفى. لقد ضربت أليكسي ياخنوف.

فوجئ أرتيوم: "من؟ هل تقصدين الخيشوم؟".

سألت غالينا دون اهتمام كبير: "أيّ خيشوم؟"، ومدّت يدها بأهم ورقة لأرتيوم، بأحرف مطبوعة- "هذا هو النموذج، ما عليك سوى التوقيع".

"أسمعيني"- حتّى إنّ أرتيوم قام بحركة غير واعية لدفع الكرسي إلى الوراء، لكنّه كاد يسقط مرّة أخرى. نهض وحاول تثبيت الكرسي أكثر:"ليس لدي ما أقوله على الإطلاق عن الانتهاكات. لكنّني موافق على كلّ شيء، على كلّ كلمة قلتها. هذا عمل ضروري!".

"حسناً، وقعها"- قالت غالينا ذلك، وكانت لا تزال تمسك بالورقة في الهواء. حتّى إنّها نهضت ليتمكن أرتيوم من الوصول إليها، وقامت بإصلاح تنورتها من الخلف بيدها اليسرى.

ألقى أرتيوم، رغماً عنه، نظرة إلى جسم غالينا. كان جميلاً... وهذه التنورة أيضاً... وذلك العطر... وبطنها - ما هو رائحته؟ وما هي رائحة بطنها دون ثياب ؟.

طلب أرتيوم، مبتسماً وواضعاً كلّ قوته، كلّ كيانه، كلّ حنانه، وكلّ إنسانيته، وكلّ صدقه، وكلّ ما في قلبه، في طلبه: "لنفعل على الشكل التالي. سأذهب وأفكّر في الأمر، وسأكون بالتأكيد مفيداً لك. سوف أساعدك. واستدعيني - ولو، حتّى، غداً... أم بعد غدٍ - وسآتي بالفعل..." - فكّر أرتيوم: "كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ مع تقرير وشاية؟ يا له من عمل رجس! مع قصّة ؟ولماذا لا تكون رواية؟ أو قصيدة؟ -... آتي وأخبرك بشيء... مهم. حتّى تري أنّني قادر على العمل. وأنّني مفيد. وبعد ذلك سأوقع على كلّ ذلك. والآن كيف لي أن أوقّع قبل أن أفعل أيّ شيء. ماذا لو لم أستطع فعل أيّ شيء؟".

" يمكنك، إنّني أرى ذلك، يا أرتيوم "

- لقد لفظت اسمه لأوّل مرّة، بدا ذلك عارياً للغاية، وحادّاً جداً، ولطيفاً للغاية، كما لو أنّها أظهرت له بطنها، بطنها العاري قليلاً... أم رأت القليل من جسده العاري، ولفظت هذا الجسد بالاسم...

لم يكن أرتيوم يعرف كيف يخاطبها: "لا، أتوسل إليك - أتوسل. وأعدك. حسناً، سأوقّعه الآن... لكن لن تكون هناك أيّ فائدة مني؟ يجب أن تكون هناك فائدة أوّلاً. وفي اللقاء القادم أنا...".

"لقاء..."

- قلدته غالينا بهدوء، وعادت لتجلس مكانها.

ظلّت صامتة لدقيقة أخرى، وبدا بوضوح أنّها غير راضية.

قالت غالينا بقليل من عدم الارتياح: "حسناً، آمل ذلك. والآن خذ أشياءك وعد إلى السريّة. أنت بصحة جيدة أليس كذلك؟".

أجاب أرتيوم: "بصحة جيدة"، رغم أنّه فكّر بثقة: "أنا مريض للغاية. سأموت قريباً".

لمست غالينا مرّة أخرى صدغها بالقلم الرصاص.

كان صدغها شاحباً، ومقعّراً قليلاً. سقطت خصلة داكنة على قلم الرصاص.

سألت غالينا: "إذن أوراق اللعب ليست لك؟".

"ليست لي. أقول لكِ، لا أعرف اللعب بها".

"ما الذي تستطيع القيام به؟

- تكلّمت غالينا بشكل منفصل، وهي تفكّر بشيء آخر.

"لا أعرف..."- نظر أرتيوم إلى الخصلة، ودون أن يتوقع ذلك من نفسه، أجاب مازحاً، بأشد نكتة غبية قد تتبادر إلى ذهنه الآن:" أعرف كيف أقبّل".

أبعدت غالينا القلم الرصاص عن صدغها، كما لو أنّه منعها من رفع عينيها المندهشتين.

تفحّصت أرتيوم بسخرية. الوذمة في النصف الآخر من وجه، إذ جرت خياطته ولم يلتئم بالكامل بعد... هذا الأنف المتورّم، والجبهة المتعرّقة، والشعر المتسخ، والشفتان الجافتان... العينان اللتان تنظران بشكل مباشر إلى الأمام، إذ تختلط الوقاحة مع الخوف الطفيف في الوقت نفسه...".

قامت بحركة قصيرة بالقلم الرصاص: اخرج من هنا، أيّها الأحمق.

على عتبة مبنى إدارة المعلومات والتحقيقات، والتي كانت وسخة، ومشادة من كتلتين خشبيتين متراصتين، نظر أرتيوم حوله لبعض الوقت، باحثاً عن جندي الجيش الأحمر.

بعد التفكير، قرّر العودة إلى الوراء، حتّى لا يرتكب مخالفة أخرى.

فكّر أرتيوم بضجر: "ماذا سيسمون ذلك؟ هروباً من الحراس؟".

جرى إيقافه عند المحرس في الأسفل:

"عمّن تبحث؟".

كان جندي الجيش الأحمر الذي يرافق أرتيوم جالساً هناك، يتحدث عن شيء ما مع الأقدم في المحرس.

أشار أرتيوم: " عنه ".

سأل جندي الجيش الأحمر: "ماذا تريد؟".

قال أرتيوم: "سمحوا لي بالعودة إلى المستشفى".

سأل جندي في الجيش الأحمر، وهو يدفع الأقدم في المحرس، بمعنى انظر إلى غريب الأطوار هذا: "وما المطلوب منّي؟ حملك؟".

قهقه كلاهما، وظهر فماهما الداكنان، وأسنانهما السوداء.

صرخ الحارس وراءه: "هل أعطيك بوصلة؟" - وبدؤوا في القهقهة مرّة أخرى.

"إنّهم من البحارة" - توقّع أرتيوم غير مبال، كما لو إنّه جمد.

كانت شمس مساء سولوفكي هناك في الخارج، تخترق أشعتها الغيوم. تحركت الأشعة بهدوء وبشكل زلق على جدران الدير، وبدا كلّ شيء في الهواء حلواً.

فكّر أرتيوم في الطريق إلى المستشفى، في كلّ شيء في الوقت نفسه، كما لو كان يتجنب التفكير في الشيء الرئيس، لكن هذه المحاولات دون جدوى.

تذكّر أفاناسييف وقلّده: "... تشرق الشمس هكذا... ما أجمل التزلج في مثل هذا الغروب...".

ضحك من أفاناسييف، دون ابتسامة "... إنّه خائف من أن أشي به... أعطاني ثلاثة روبلات! حقير، ماكر، هذا الأحمر الشعر... ".

لكن بكلّ الأحوال، لم يكن لديه غضب تجاه الشاعر الينينغرادي هذا.

تذكّر الأب إيوان، والكيس الذي كان فيه الطرد، وفكّر: "... سآكل كلّ شيء على الفور... سأختنق، ولكن سآكل كلّ شيء- بكلّ الأحوال سأذهب إلى السريّة... ربّما يتركونني أبات الليلة في المستشفى؟.. سوف أستجدي الدكتور علي وأنحني عند قدميه؟.. لا، لن يوافق... ".

ثمّ فكّر: "كيف يمكن للناس أن يحبّوا الله، إذا كان وحده يعرف كلّ شيء عن لؤمك وسرقاتك وخطاياك؟ نحن نكره جميع من يعرف الأشياء السيئة التي فينا؟ أنا أكره هذه الكلبة غالينا. إنّها تعرف أنّه يمكن الضغط علي. وقد ضغطت علي! والآن ما العمل ؟".

ثمّ فكّر قليلاً بشكل مرتبك حول بورتسيف، والوثيقة، وحول الخيشوم أيضاً - وضحك بصوت مسموع، وتذكّر كيف أصبح الخيشوم مثيراً للشفقة، وشكله الغبي، بوجهه المخيّط الذي يشبه السمكة.

لقد أثار ضحكه الاشمئزاز لديه- هذه الابتسامة غير الضرورية والمستحيلة، التي ظهرت على وجهه الآن، جعلته يعود إلى ما كان يجب عليه أن يفهمه: "سوف يجعلونني مخبراً، أم يقتلونني في السريّة. كيف يمكنني الخروج من هذا الوضع؟ ربّما سيحل الأمر من نفسه، بشكل طبيعي؟

وأجاب نفسه: " سيقطّعك الجناة إلى قطع هذا المساء- ويحلّ الأمر...".

أعطى العقل البشري الضعيف حلًّا لأرتيوم: العودة إلى غالينا، والتوقيع على كلّ شيء تريده والطلب منها نقله إلى سريّة أخرى على الفور.

أقنع أرتيوم نفسه، بجزء واحد من وعيه، أنّ هذا الفعل مخجل، وأنّه لن يفعل ذلك، لأنّه ليس واشياً، ولأنّه لا يريد أن يطلب من أيّ شخص أيّ شيء، ولا سيّما من هذا الكائن... ولكن أدرك في الوقت نفسه، أنّه لن يعود إلى قسم المعلومات والتحقيقات لسبب آخر تماماً.

وقال لنفسه بصوت عالٍ ما هو هذا السبب: "لن تنقلك هي إلى أيّ مكان، أيّها الأحمق! على من ستتجسّس في السريّة الجديدة، حيث لا تعرف أحداً؟ ولماذا

تنقلك؟ لأنّك جبّنت ؟ أليس لديهم شيء آخر يفعلونه، غير نقل كلّ الخائفين من مكان إلى مكان؟.. ".

لعن أرتيوم نفسه بشدة: "ماذا يعني أنّك جبّنت؟. سيقتلونني اليوم أم غداً!" سيطعنونك! كيف سأستقبل ذلك؟ بقلب مفتوح، يا للشيطان ؟ هل أنا ثور للذبح؟ ".

سقط علي الأريكة في المستشفى، نتيجة لهذا العناء من التفكير المزدوج.

أحضر الكاهن إيوان، بعد دقيقة، الكيس الذي فيه الطرد. جلس بصعوبة بجانبه - على ما يبدو، كانت تؤلمه ركبته.

قال أرتيوم، وهو يأخذ منه الكيس: "شكراً لك أيّها الأب ".

كان عليه، بشكل عام، أن ينهض ويجلس على الأريكة - ليس من الجيد أن يبقى مستلقياً بجانب الكاهن - لكن لم تكن لديه القوّة: لم يكد يحرّك يده، ثمّ غيّر رأيه.

قال الأب إيوان: " ابق مستلقياً، دعك مستلقياً. أنت ستحتاج إلى القوّة...".

وصمتا لفترة.

بمجرّد أن أراد أرتيوم سماع صوته، تحدث الكاهن، كما لو أنّه فهم أفكاره مرّة أخرى.

"أنت ما زلت تبحث يا عزيزي عن الحقيقة أم الشرف. الحقيقة أم الشرف هما هنا" - وأخرج الكاهن الإنجيل - "خذه، سأهديه لك. أنت بحاجة إليه، كما أرى. بمجرّد أن تفهم بكلّ روحك أنّ ملكوت الله بداخلك، سيكون الأمر أسهل بالنسبة لك كثيراً".

قال أرتيوم بقوّة: "لا - لا حاجة".

قال الكاهن، وهو يخفي الإنجيل: "أوه، أنت مخطئ يا عزيزي - حسناً، أعانك الله إذن... أعانك الله على التغلب على كلّ شيء".

ما إن غادر الكاهن، ظهرت الممرضة المسنّة، وراهب في الغرفة. فهم أرتيوم: "جاءا من أجلي".

"أنا قادم، أنا قادم "- قال بصوت عالٍ من مكانه، لأنّ الممرضة فتحت فمها لتؤنّب وتحث أرتيوم.

لم يكن لديه ما يأخذه معه: كانت أغراضه لا تزال في الكيس، لم يخرج منه سوى القصعة والملعقة.

ربط الأب إيوان الكيس الذي فيه الطرد، وعقده.

كان فيليب مستلقياً، وعيناه مغمضتان، ووضع ساقه المقطوعة فوق الغطاء. نظر لاجيتشنيكوف إلى أرتيوم، لكن يبدو أنّه لم يعرفه تماماً. اتجه أرتيوم نحوه في طريقه، وفكّ الطرد مباشرة - كان في الطرد سكّر، وملأ صحن القوزاقي بالكامل.

سأل لاجيتشنيكوف بصوت لا يكاد يسمع: " أنت؟". سمع حرف "أ" كما لو كان مستلقياً على لسانه ودفعه للخارج.

لم يجب أرتيوم.

اختبأ الخيشوم تحت الشرشف، أراد أرتيوم أن يسحب عنه الشرشف بشدّة قبل أن يغادر، لكن أرتيوم تكاسل، ولا سيّما أنّ الممرضة المسنّة كانت تتحرّك في مكانها، كما لو أنّها كانت تقف على أرضية ساخنة.

سأل الكاهن زينوفي، وهو يلاحظ كيف يسكب السكّر للاجيتشنيكوف- " هل هناك شيء آخر؟".

نظر أرتيوم، في الكيس، أخرج قطعة من سجق لحم الحصان، لم يتناولها بالكامل، ووضعها في يد الكاهن.

سأل الكاهن عندما أدار أرتيوم ظهره: "ماذا عن السكّر؟ لو تسكب سكّراً أيضاً؟".

أوقفوا أرتيوم على الحاجز في مدخل المستشفى: كانوا، على ما يبدو، يبحثون عن بطاقة التسجيل الخاصّة به، ثمّ بعد ذلك عن الدكتور علي، لتوقيعها- جرى كلّ شيء على عجل، لإخراجه في أسرع وقت ممكن.

خرج الأب إيوان، على الرغم من عرجه المؤلم، لوداع أرتيوم، وهمس على عجل، كما لو أنّهما قد لا يريان أحدهما الآخر:

"أنا أفكّر هكذا: أنت لم ترتكب خطيئة اليوم- وصمدت روس".

كان كما لو أنّه خمّن ما حدث مع أرتيوم في قسم المعلومات ولتحقيقات، وهذا ما أثقل على قلب أرتيوم وجعله أكثر انفعالاً.

أجاب أرتيوم بسرعة: "يرتكب الجميع خطايا هنا". لسبب ما شعر كأنّه في محطة قطار، وحان وقت المغادرة، وأصبحت كلّ الكلمات الآن غير ضرورية، لكنّه لسبب ما نطقها- "... يرتكبون خطايا أكثر منّا بمئة مرّة".

تحدث الكاهن إيوان بسرعة: "أنت لا تحمل وزر خطاياهم، بل وزر روسيا - أنّهم يرتكبون خطايا، أنت لا ترتكب. العمل الصالح يزن أكثر من الذنب!".

أجاب أرتيوم، وهو يكبح غضبه بصعوبة: "لا! عندما ترتكب خطيئة، عليك أن تنقذ نفسك، وعندما تقوم بعمل صالح لن يرفعك عن الأرض خطوة واحدة، وإنّما يسحبك إلى القاع".

أصبح الكاهن عاجزاً تماماً، حتّى إنّه لم يتكلّم، وإنّما يطلب: "الله يرى الحقيقة، لكنّه لن يقولها قريباً".

أجاب أرتيوم بابتسامة بدت غريبة على وجهه- حتّى انشدّا فكيه: " يجب أن يكون موجوداً في قسم المعلومات والتحقيقات، دعه يقول كلّ شيء هناك".

"ليساعدك الملاك يا عزيزي"- قال الكاهن عندما فتح الراهب الباب لأرتيوم، بمعنى انقلع من هنا

تحدث أرتيوم بسلاطة عند الوداع: "حيثما يكون الأمر بسيطاً، هناك مئة من الملائكة، وحيث يكون الأمر صعباً، لا يوجد أحد منهم". قال ذلك بصوت عالٍ، لكن دون أن يستدير. لم يرغب في رؤية الكاهن مرّة أخرى.

ذهب أرتيوم إلى السريّة بثقة، كأنّه ذاهب إلى صيد السمك. أخرج السكّر الذي أرسلته له والدته من الكيس،وأكله بيده: أصبح خلال دقيقة حلواً ولزجاً وخشناً- كان الذباب يحوم بالقرب من وجهه، ويضرب إمّا على الخدين، وإمّا على جبهته نتيجة الجشع والدهشة. كان أرتيوم يلوّح بيديه، ثمّ بدأ يمسح وجهه بيده التي كان فيها السكر.

شاكس أرتيوم الكاهن الغائب بصوت مسموع، وهو يطحن حبات السكّر بأسنانه: " تحمل وزر روس! غداً سأستدعى إلى غالينا- وسأجيب عن روس بأكملها. سأخبرها بكلّ شيء عن روس هذه".

وقهقه - تناثرت حبّات السكّر من فمه على جميع الجوانب.

لفتت القهقهة انتباه عنصر الأمن الذي سار بالقرب منه، خارجاً من الحمّام، والذي كان مرتدياً سترة من جلد الفقمة على جسده العاري، على الرغم من أنّ الجو كان دافئاً، لكنّ أرتيوم لم يهتم.

وبّخ أرتيوم بصوت مسموع: "إنجيلكم لم يصالح حتّى الكاهن إيوان مع المتسوّل زينوفي. ولم يصالحهما معاً مع الراهب،

مع من يمكن أن يصالحني؟".

التقى مع الأيل ميشكا، الذي انجذب إلى السكّر أيضاً.

"هل سأعيش هذه الليلة أم لا؟"- فكّر أرتيوم ، جالساً على الأرض مباشرة، وهو يقرّب مرّة وجهه ومرّة يديه للأيل الذي كان يلعق أرتيوم بسرعة، وهو يرمش كثيراً.

كانت النوارس تحوم فوقهما، وتصرخ بشكل هستيري.

ابتسم الشيشان المناوبون في المدخل، لأرتيوم، كما لو كان قد طال انتظاره.

قال خاساييف حتّى ربت على كتفه: "مرحبا يا أخي! لماذا لست في زنزانة العقاب؟".

تنحنح أرتيوم متذمّراً، ولم يرد بأيّ شيء، وخطا بثبات إلى السريّة الثانية عشرة، التي تفوح منها الرائحة الكريهة، إلى إسطبله، وبيت الكلاب، والمسلخ، وفرامة اللحم.

بمجرّد دخول أرتيوم إلى السريّة، بدأ مويسي سولومونوفيتش الغناء.

كانت الأغنية غير مألوفة وحزينة: "كان يرتدي سترة جلدية وكان هناك ثلاثون جرحاً في صدره...".

لم يتوقع أرتيوم رؤية الوثيقة، لكن نظراتهما التقت على الفور. ابتسم الوثيقة، وهو ينظر إلى الأكياس في يدي أرتيوم، مع بعض اللطف.

توجه أرتيوم بسرعة إلى مضجعه، وهو يدفع السجناء جانباً، ولم يرد على تحيات أولئك الذين كانوا يسلمون عليه.

وقف فاسيلي بيتروفيتش لاستقباله، ويبدو أنّه أراد أن يعانقه، لكنّ أرتيوم تمتم بشيء غير مفهوم، وصعد إلى الأعلى، وبدأ هناك القيام بما أراد أن يفعله.

نادى شيلكاتشوف: "ميتيا، أنت لا تستمع إليّ، عش بعقلك... خذ، وكلْ، هذا أفضل".

أخرج سمكتين مجففتين، دون عيون من الكيس.

سأل شيلكاتشوف: "وأنت؟ وأنت؟".

أجاب أرتيوم: "إنّهم سينقلونني إلى سريّة أخرى، هناك المؤونة أفضل، الحصص ثلاثة أضعاف! تعال يا مويسي سولومونوفيتش، تعال إلى هنا. توقف عن الغناء لدقيقة".

لم يجعله مويسي سولومونوفيتش ينتظر، جاء بسرعة.

"أنت تغنّي جيداً يا مويسي سولومونيتش. لا تفسد الأغنية. غنّي لي، أتعلم ماذا؟ "أنا لا أمشي على القطيفة، ولا أسير على المخمل، لكنّني أمشي، وأمشي على سكين حاد...". كان لدي سروال من القطيفة وقميص مع أنّه ليس من المخمل، ولكنّه من الحرير. وقام والدي الذي حفّ أزرار سترتي المدرسية، بوضع لوح مع قواطع، حتّى تلمع. تخيّل أنّه كان لدي أب. غنّي؟".

سرّ مويسي سولومونوفيتش واستوضح من جديد، وهو يومئ برأسه ويبتسم: " أنا لا أمشي"؟. نعم، نعم"- لكنّه لم يبدأ في الغناء، وحمل بسرعة، علبة حديدية محكمة الغلق من زيت عباد الشمس بالكامل، قبل أن يغيّر أرتيوم رأيه.

سرّ أرتيوم، عندما تدلّت الغرّة الرائعة من رأس الشاعر الأحمر الذي غلبه النعاس، من الطبقة الثالثة: أفاناسييف! حقير أحمر!. لديّ مفاجأة لك!:" ماذا لدينا في عبوة القصدير هذه؟ سكاكر! اقضمها! خذ!".

حصل كوريز شاه وكبير شاه معاً، على بقايا سكّر من كيس منفصل، وابتسما وانحنيا مدّة طويلة. وأعطى لأفدي سيفتسيف آخر قطعة من السجق.

تمنّى له أرتيوم: "أرجو أن ينتظرك حصانك يا سيفتسيف!".

كان كاتب المقالات الساخرة غراكوف يقف بالدور، وقد حصل على رزمة كعك.

فوجئ أرتيوم: "أوه، وأنت هنا يا سماور، خذ الدقيق، ولا تقتسمه مع جنرالك. فهم يطعمونه جيداً الآن".

سأل السماور، وهو يتقبّل الهدية بهيبة: " أيّ جنرال؟".

"المارشال"- أجاب أرتيوم ،لإزعاجه: " المارشال بورتسيف".

أظهر السماور، من خلال تقطيب حاجبيه، إنّه شعر بالإهانة، لكنّه لم يعد الدقيق.

همس أرتيوم، وهو ينظر إلى المساجين: "كلوا أعزائي، سأسلمكم جميعاً مع أحشائكم قريباً. فيما لو بقيت حيّاً".

لقد بدؤوا حقاً في تناول الطعام على الفور: من المستهجن أن يخبئوا ما جرى تضييفه لهم.

قفز أرتيوم بسهولة إلى الأسفل: " أنظر فاسيلي بيتروفيتش، كم من الشاي أحضرت لك! يكفي بكلّ تأكيد حتّى الشتاء... وجوز أيضاً. أين أرنبنا؟ أين الصيني ذو الوجه الأصفر؟ لدي رزّ له أيضاً.

أجاب فاسيلي بيتروفيتش وهو ينظر إلى أرتيوم بحزن أكثر منه فضول: "الصيني؟.. قائد الفصيلة مستسلاف بورتسيف أرسل الصيني إلى زنزانة العقاب".

أجاب أرتيوم بنفس النبرة، كما لو كان قد أبْلغ ببعض أخبار عليّة القوم المثيرة للاهتمام: "هكذا إذن...". قال أرتيوم في همس أقرب إلى الصفير: " فاسيلي بيتروفيتش، كنت أعطيتك الطرد بالكامل، لكن سيزبحك الجناة في سريتنا من أجله".

تجهّم فاسيلي بيتروفيتش : يبدو أنّ الموقف الذي أجبر فيه أرتيوم على لعب دور المهرج كان مؤلماً بالنسبة له. لم يستطع إيقافه، لكنّه لم يرغب في تحمّله أيضاً.

فهم أرتيوم على الأقل، الأمر بهذه الطريقة، لكنّه لم يعد قادراً على التوقف.

عندما ظهر الوثيقة الذي تأخر بسبب البحث عن رفاقه، كان الكيس قد فرغ.

قال له أرتيوم: " لقد أردت أن أعطيك نصفه، ولكن لسوء الحظ : لقد أخذوا كلّ شيء. خذ الكيس الفارغ على الأقل. ربّما تخيط فستاناً لك منه".

نظر الوثيقة بصمت، وهو يحرك عضلات فكيه، وتدلّت شفته عند ذلك في حيرة وكانت تختلج قليلاً.

جرى الإعلان عن التفقد المسائي، وسمع صوت كوتشيرافا العنيف والمخمور. سار بورتسيف بين الصفوف، وكان يحمل خنجراً بيده، ويلوّح به.

قال الوثيقة لأرتيوم: "سيأتي إليك زاغيب إيفانوفيتش في الليل- هل ستنتظر؟ أم يمكنك شنق نفسك الآن".

سأل أرتيوم: " لماذا أشنق نفسي؟ سأنتظر".

جلس أفاناسييف على مضجعه، وراقب كلّ ذلك دون أن ينبس ببنت شفة. كانوا يسمون الموت هنا زاغيب إيفانوفيتش.

لم يأت الموت إلى أرتيوم: جرى إرسال الوثيقة وشافيربيكوف للعمل الليلي، لم يكذب كرابين... نظر الجناة من ركنهم مرّات عدّة باتجاه أرتيوم.

لقد انتظرهم طويلاً- على ما يبدو، حتّى بزغ الفجر: كان خائفاً، يشدّ فكيه، ويتخيّل كيف سيصرخ إذا اقتربوا منه... أم يبدأ في الركض على المضاجع، وهو يدوس على الجميع، ويندس تحت غطاء شخص آخر...

... كان يسحق بق الفراش، وفي كلّ مرّة كان يفكّر: سيفعلون معك هكذا كما تفعل مع بق الفراش... ويسحقونك هكذا أيضاً...

... أحياناً كان يغفو، ويعْلق شيء ما يصدح في رأسه، وتصرخ النوارس فوق رأسه مباشرة.

كان يرتجف ويستيقظ على صوت سعال أم صرير المضاجع، متصبباً عرقاً: لكن لم يكن هناك أحد يقف بالقرب منه، ولم يكن هناك نوارس، شخير وصرير الأسنان فقط.

فكّر أرتيوم: "يجب إحضار أوزّة"- كانت أفكاره بطيئة، كما لو كان يسير في الوحل، وكان لا بدّ من استخراج كلّ كلمة، مثل القدم من الطين اللزج- "إحضار أوزّة... وربطها بخيط... عندما سيأتون لذبحي، ستصيح الأوزّة وتضرب بجناحيها... وتوقظ الجميع".

بدأ خاساييف في الصباح الباكر، يقعقع بالبرميل في دهليز المناوبة، وبدا أنّ هذا يهدئ من روع المرعوب من الأرق والتعب: حسناً، بما أنّهم يقرعون شيئاً ما، ماذا سيحدث بعد الآن؟ لا شيء... هل يحتاج المناوبون لأن يقوم أحد ما بذبح شخص ما؟ ليس لهم مصلحة في ذلك على الإطلاق...

عند ذلك فقط ، نام بعمق، وحلم أنّه في قسم المعلومات والتحقيقات لدى غالينا من جديد، ووقّع على كلّ شيء.

وغمرت الراحة روحه، بشكل لطيف جدّاً.

وقف أرتيوم في أثناء التفقد الصباحي، مشدوّهاً. كانت تصله الأصوات مشوّهة، من بعد، كما لو كان من تحت الماء. تهيأ له أنّ الناس يسيرون مكفهرين، ولم يكن هناك هواء من الخارج، من الداخل فقط، انْتظر قليلاً وستبدأ الأسماك السولوفكية الناعسة تسبح بين الساقين.

لقد ظهرت الأسماك في الواقع.

أتوا بلصٍّ سرق سمكة رنجة من المطبخ، وأوقفوه أمام المجتمعين. من المؤكّد أنّ كوتشيرافا هو من فكّر بهذه العقوبة، ونفذها سوروكين: جرى ضرب الجاني على وجهه بسمكة رنجة. لم يحاول تجنّب الضربات، وتحمّل، أغمض عينيه فقط. بعد الضربة الثالثة بدأ خده ينزف.

فكّر أرتيوم بشكل محايد ودون شفقة: "ماذا لو عرضوا عليّ أن يضربوني بسمكة رنجة لعامين ونصف بدلاً من ذبحي؟ لكنت قد وافقت على ذلك. ما المشكلة: الضرب بسمكة رنجة ".

سأل شخص بالقرب منه: "هل سيرمون سمكة الرنجة أم سيضعونها في الحساء لاحقاً؟.

ظهر رجل غير معروف، قوي، وشاب، يرتدي نظارة طبية. كان في أثناء العقوبة، ينظر في اتجاه آخر، وكان يلمس نظارته أحياناً: يبدو لم يعجبه كلّ ذلك.

بعد كلّ الشتائم التقليدية الغبيّة التي كان يصرخ بها كوتشيرافا، أعطوا الكلمة للشخص الغريب.

قال بنشافة وبصوت ليس عالياً، ولكن بصوت جهير: "اسمي بوريس لوكيانوفيتش، أقوم بالإعداد لمسابقات رياضية في المعسكر، بمناسبة ذكرى ثورة

أكتوبر المقبلة. أنا مهتم بأولئك الذين مارسوا الرياضة بشكل جدي: الجري، والقفز، والسباحة، والملاكمة، ورفع الأثقال، وكرة القدم.

سأل أحدهم: "هل الجري إلى ما وراء الحدود مقبول؟" - تعالى الضحك.

صدر سؤال في مكان آخر: "والسباحة وراء الجذوع ؟" - صهلوا بمرح أكثر.

"هل عدّ البعوض رياضة أم هواية خاصّة؟".

كان ذلك مضحكاً جداً للجميع.

فهم أرتيوم: " جاءت الفرصة " - خرج من الصف :

"أنا!".

همس بورتسيف: " عُدْ إلى الصف!".

لم يتحرّك أرتيوم من مكانه: يمكن لم يتتبهوا إليه بعد، لكنّهم يجب، يجب، يجب أن ينتبهوا، وينادوه، وينقذوه.

"نادني بسرعة، أنت الذي تضع النظارات! سأقفز من أجلك في كلّ الاتجاهات! مع كرة على رأسي، وكتل حديدية بساقي! بسرعة!".

همس بوريس لوكيانوفيتش لكوتشيرافا بشيء ما.

أشار كوتشيرافا بإصبعه الغليظة المنحنية إلى أرتيوم: " تعال إلى هنا! انظر، إذا كنت تكذب!" - وأضاف مخاطباً الجميع "كلّ مدّعٍ سيحصل على ثلاثة أيام في زنزانة العقاب!".

عبس بوريس لوكيانوفيتش: بدت له الكلمات حول زنزانة العقاب غير مناسبة أيضاً.

نظر أرتيوم الآن إلى المجتمعين، ووجد نفسه يفكر في أنّه لم ير السريّة من هذا الجانب من قبل.

فكّر أرتيوم مندهشاً: "من اللطيف أن أقف هكذا..."- لقد أحبّ على الفور أن يشعر أنّه مسؤول.

ابتسم أفاناسييف، وبدأ يغمز لأرتيوم.

فكّر أرتيوم بسخرية انتقامية: " هكذا يا أفاناس، لا يأخذون إلى هناك السحرة ولاعبي القمار".

رأى شيلكاتشوف وأضاف: "... يا ميتيا، ولاعبي الشطرنج أيضاً!".

كان كاتب المقالات الساخرة غراكوف يتحرّك مكانه، محاولاً على ما يبدو أن يتذكّر نوعاً من الرياضة التي مارسها ذات مرّة، لكنّه نسيها بشكل غريب. ملاكمة؟ لا، بالتأكيد لا. أثقال؟ منطقياً لا. سباحة؟ لا تكاد تكون. كرة القدم؟ لم أر، كيف تبدو. ربّما القفز؟ لكن ما هو القفز؟ كيف يقومون به ؟.

عاش المشاعر نفسها مويسي سولومونوفيتش الذي حاول بالفعل الانتقال إلى سريّة الفنانين، ويبدو أنّهم كانوا يستعدون لنقله، لكنّهم لم يقرروا بعد. كان الآن يقرّر ما إذا كان سيسبح أم لا - وهل هناك مباريات سباحة في المسابقات الرياضية، لا سيّما في الذكرى السنوية لثورة أكتوبر - وهل ستسبح بعيداً في شهر تشرين.

وقف سيفتسيف مكتئباً ومعزولاً، كما لو أنّه لا يفهم عمّا يدور الحديث: حتّى إنّه لم يضحك عندما كان المازّحون يضجّون حول الجري والجذوع.

كان هناك ثلاثة فقط يريدون- لكن على ما يبدو، كان لتهديدات كوتشيرافا تأثير عليهم.

توجّه مباشرة بعد فض الاجتماع، الذين أعلنوا عن المشاركة مع بوريس لوكيانوفيتش لاختبار مهاراتهم الرياضية.

لم يشعر أرتيوم بالقلق، بل بعدم المبالاة غير المناسبة تماماً. كان، لسبب ما، على يقين من أنّهم سيأخذونه. كان يتنفس من أنفه، ويلطّخ البعوض على وجهه، ومشى، وهو ينظر تحت قدميه.

عندما كان أرتيوم صبياً، مارس رياضة الملاكمة لفترة قصيرة، نحو ثلاثة أشهر. بشكل عام، نجح في ذلك، ولكن اشتدّت الحرب... وحصل الكثير من الأشياء.

نظراً لعدم وجود أيّ ميول لديه للاعتداء أم لقمع الضعفاء والمتهيبين، كان أرتيوم مع ذلك الأقوى في صفه المدرسي، والأفضل على المتوازي والعارضة، وفي بعض الأحيان كان يتباهى إلى حدٍّ ما بمهارته الطبيعية وقدرته على الدقّة في توجيه لكمات شديدة على الأسنان مباشرة، والإيقاع أرضاً.

في الوقت نفسه، لم يعرف الغضب قطّ كما ينبغي.

بعد أن أنهى المدرسة، أصبح قليلاً ما يضطر للعراك.

حاول اثنان أكبر منه بقليل ذات مرّة، وكان في سن التاسعة عشرة، سرقته - خلع معطفه. قدّر أرتيوم الفرص، وقرّر الهروب بحكمة. ركض في البداية بسرعة، لكنّ المعطف أربك ساقيه، وأعاق جريه - استدار فجأة وضرب بقوّة أوّلهم، إذ كان قد لحق به، لدرجة أنّه بدا خده قد انفجر.

كان يجب، كما يبدو، ألّا يحصل ذلك، لكن أرتيوم رأى ذلك بوضوح، وبشكل مقنع، لدرجة أنّه هو نفسه خاف، وركض في النهاية بسرعة مضاعفة.

لقد دخل أيضاً في عراك عندما كان يعمل حمّالاً. كان هناك رجل، حمّال أيضاً، أكبر حجماً منه بمرتين - كان من الممكن أن يقتل أرتيوم، لو لم يكن مخموراً جداً، ومن ثمّ لم تكن ضرباته مركّزة. لقد ضربه أرتيوم حتّى نزف الدم من قبضته، لكنّه بعد أن ضاق تنفسه، وشعر بالإرهاق، أنتصر عليه أخيراً... صحيح أنّه لم يذهب إلى العمل بعد ذلك. وكان قبل ذلك قد قرّر أن يترك هذا العمل، وهنا كان عليه التعامل مع هذا الثور من جديد. على الرغم من أنّه، بالمقارنة مع ما يحدث الآن مع أرتيوم، بدا هذا الحادث مضحكاً جدّاً.

بشكل عام، لم يكن سجلّ إنجازاته مقنعاً كثيراً - لكنّه لم يمنع أرتيوم من أن يكون هادئاً الآن.

إلّا أنّه لم ينم جيداً، إضافة إلى ذلك هذا الجرح الذي على صدغه. وفيما لو أصابوه في المكان نفسه، وفتح الجرح من جديد؟ هل سيستقبلونه في المستشفى مرّة أخرى؟ على الأرجح لا. سوف يمشي ودماغه مكشوف حتّى يخرج كلّه.

فكّر أرتيوم: "مع من سيتعارك ؟- هل من المعقول مع هذا الشخص الذي يرتدي النظارة؟ هل هو سيخلع نظارته؟ سيكون من الجيد أن يكون لا يرى بتاتاً دون النظارة ".

قرّروا إنشاء قاعة رياضية خلف الدير. بالقرب من المستودع الطويل الجديد، الذي لا يزال دون سقف، كان هناك مرج يبدو مناسباً لألعاب الكرة، ثبّتوا بعده بقليل عارضة... في الواقع، هذا كلّ شيء.

كان البناؤون يعملون- بطبيعة الحال هم من سجناء المعسكر: كان اثنان يرفعان من الأسفل الألواح الخشبية، واثنان يلتقطانها من الأعلى. استلقى رئيس المجموعة الذي جلب أعشاباً يابسة من مكان ما، داخل المستودع وراقب. كانت يحمل بيده عصا بيلياردو مكسورة في المنتصف.

"سنلعب هنا..."- قال بوريس لوكيانوفيتش، وهو ينظر حوله بقصر نظر: كان معه مصنّف، ولم يكن هناك مكان لوضعه.

جلس القرفصاء، وأعاد كتابة قائمة كلّ أولئك الذين جرى إحضارهم من السريّة الثانية عشرة في المصنّف بأصابعه المتسخة. نظر أرتيوم إلى القائمة - كان هناك بالفعل ثلاثون اسماً أو نحو ذلك.

سأل بوريس لوكيانوفيتش: "بمن نبدأ؟"، واختار على الفور، مومئاً برأسه إلى أرتيوم: "لنبدأ معك... أنت تقول، مارست الملاكمة؟ إلى أيّ مدى كان ذلك جدياً؟.. على كلّ حالٍّ سنرى الآن... ربّما يجب خلع السترة ؟ ليس لدينا قفازات ملاكمة، لكنّني وجدت هذه الكفوف الرائعة... جربها. جيدة؟ ومن جانبي سوف أرتدي فوقها قف- از- ي العمل، بسبب عدم وجود عدّة الرياضية- فسنستعمل عدّة العمل، خا- خا".

فكّر أرتيوم بسخرية لطيفة: "يا له من شخص مثقف، هل سيضربني على وجهي الآن؟ بما أنّنا سنستخدم عدّة العمل، لو أنّه يعطيني مقبض المجرفة، لكانت الغلبة لصالحي...".

الشيء الوحيد الذي لم يعجب أرتيوم بشكل جدي، هو الاهتمام الزائد الذي استحوذ على البنائين الذين تركوا عملهم وبدؤوا يضحكون على شيء ما.

سأل أرتيوم رئيس مجموعة العمال:" هل لديكم استراحة": غالباً ما كان يتصرّف كالمخمور، بسبب قلّة النوم.

أجاب رئيس المجموعة باستياء: "اهتم بشؤونك الخاصّة، فلديهم فترة راحة للتدخين ".

قال بوريس لوكيانوفيتش بهدوء: "لا تعرهم اهتمامك". كان بشكل عام، في حالة مزاجية ودودة للغاية ولطيفة، ولكن وراء كلّ كلمة من كلاماته كان هناك شعور قوي بالكرامة. كان أرتيوم يحترم مثل هؤلاء الناس.

عندما ارتدى بوريس لوكيانوفيتش الكفين وفوقهما قفازات العمل أيضاً، خلع نظارته بعناية بيديه اللتين يرتدي فيهما القفازين، وأعطاها لسجين من السريّة الثانية عشرة، كان يقف بالقرب منه، والذي تظاهر بأنّه عدّاء ووثّاب. سأل أرتيوم: "هل سنلعب هنا؟".

قال بوريس لوكيانوفيتش:"يمكننا الخروج إلى الشارع "، وبدأ يحمّي جسمه وتفرقع عظامه.

كانت الفرقعة مثيرة للإعجاب.

فكّر أرتيوم بقشعريرة: "إذا كان جسمه يفرقع بهذا الشكل، فيمكن تصوّر أيّ فرقعة ستصدر منّي الآن."

ومن أجل الإيهام، قفز على إحدى ساقيه، وبعد ذلك على الأخرى، وأدرك على الفور أنّه يكاد يفقد توازنه، وبدأ في فرك رقبته ورأسه، كما لو كان يحاول أن يلفّ أم يدير رأسه.

فكّر أرتيوم في النهاية: "كان يجب أن أقول إنّني كنت عدّاءً، على الأقل لن يضربونني على رأسي...".

بدأ بوريس لوكيانوفيتش النزال ببطء وحذر، كان يلامس بضرباته فقط. بعد نصف دقيقة، هدأ أرتيوم بالفعل، وبعد دقيقة فكّر مع بعض الانزعاج، بخصمه: "... يتصرّف بثقة كبيرة، كما لو أنّه لا يستطيع حتّى التفكير... أنّني أستطيع أن أصرعه...".

بشكل غير متوقع بالنسبة له، تحوّل أرتيوم إلى الهجوم، وقوبل بضربة مباشرة على رأسه، لكنّه لم يهدأ، وبحركة حادة، قام بضربة مزدوجة.

لم يتحرّك بوريس لوكيانوفيتش، ولكن على العكس من ذلك، أومأ بابتسامة راضية: واصل، واصل، جيد جداً.

بعد ثلاث دقائق، بدأ أرتيوم يشعر بالتعب.

قال بوريس لوكيانوفيتش: "أنت تتحرّك كثيراً"، وبقي في موقف دفاعي كالسابق، وترك أرتيوم يواصل الهجوم.

اقترب السجناء الذين كانوا يعملون على السطح من الحافة، لرؤية المبارزة بشكل أفضل.

أدرك أرتيوم أنّ قوته لن تدوم طويلاً، فبدأ في محاصرة بوريس لوكيانوفيتش بشكل واضح - تحرّك لوكيانوفتش بخفّة، وهو يرفع يديه إلى موازاة الوجه، و يحدّق بنظرة استدعاء من خلال الفجوة بين القبضتين القويتين...

كرّر أرتيوم: "... ولكن كيف يمكنني أن... ولكن كيف يمكنني الوصول إليك... ولكن كيف... يمكنني أن...".

ثمّ اختفى الهواء من صدر أرتيوم، وتشكّلت سحابة ضخمة خانقة، ملأت دواخله كلّها، في وقت واحد. نظر أرتيوم حوله بعينين مليئتين بالدموع، وفتح فمه، وانتظر بألم متى يستطيع التنفس أخيراً.

لقد فوّت ضربة واحدة قصيرة جداً، وغير محسوسة تماماً، أصابته في الضفيرة الشمسية.

بدأ اثنان من السجناء كانا يشاهدان المعركة يضحكان الآن، أمّا بوريس لوكيانوفيتش فقد اختفى تماماً.

فكّر أرتيوم بكرب بطيء وخانق: " يضحكان منّي ؟. هل أنا مضحك إلى هذه الدرجة؟".

لقد وجد القوّة ليستقيم قليلاً، وينظر في اتجاه الضاحكين. لا، لم يكن الأمر يخصّه، الحمد لله... في تلك اللحظة التي تلقى فيها أرتيوم الضربة، لم يستطع السجين الذي كان جالساً على حافّة الجدار الصمود، وسقط على رئيس المجموعة مباشرة.

هرع بوريس لوكيانوفيتش على الفور إليه، خائفاً من أن يكون رئيس المجموعة قد سحق... لكنّ كلّ شيء كان على ما يرام.

استعاد أرتيوم تنفسه، وبطريقة غريبة عاد إليه سمعه أيضاً- كان رئيس المجموعة يشتم بشدة- ولسبب ما عادت حاسّة الشم: فاحت رائحة ألواح الخشب التي جرى قشطها حديثاً، والتي لم يلاحظها من قبل - حتّى عادت قدرته على التفكير: لقد أدرك فجأة أن بوريس لوكيانوفيتش الذي لفت انتباهه سقوط السجين، لم يلحظ حالة أرتيوم التي يرثى لها- بعد أن تلقى الضربة على صدره مباشرة.

سأل بوريس لوكيانوفيتش عندما عاد، حتّى أنّ تنفسه لم يتغير: "ماذا لديك على صدغك ؟ هل هو جرح ؟ حديث؟ حسناً، لا شيء، سيلتئم خلال شهر ونصف. حاولت ألّا أضربك عليه".

فكّر أرتيوم بامتنان: "لقد حاولت ألّا تضرب على الإطلاق ".

خلع بوريس لوكيانوفيتش قفازي العمل والكفين، ولوّح لمرشحين آخرين: تعالوا أنتم الآن.

سأل أرتيوم، وهو يخلع على عجل كفيه المبتلين بالعرق، ولم يكن قد استقر تنفسه بعد: " بالنسبة إليّ؟ ماذا عني؟.. هل يمكنني البقاء معك حالياً؟".

قال بوريس لوكيانوفيتش، وهو يخرج إلى الشارع: " لماذا حالياً، سنقبلك". وأضاف وهو ينظر إلى الوراء: "سيتعين عليك التدرّب بالطبع، لديك مهارات طبيعية، لكن المهارات المهنية أقل".

خمّن أرتيوم على الفور: " قال أقل، بمعنى أنّه لا يوجد نهائياً، وعلى الرغم من هذا الفهم، أصبح خلال لحظة سعيداً لدرجة أنّه أراد بشدّة، القيام بحركة سخيفة.

استمر رئيس المجموعة بتوجيه الشتائم وأراد العراك، لكن السجين الذي سقط، صعد إلى الأعلى من جديد، بعيداً عن الأذى، وانتظر هناك.

أراد أن يسرع مع الجميع، لمشاهدة العداء أم الوثاب، لكنّه تذكّر فجأة أيّ سعادة خبّأ لنفسه. كأنّه كان يعرف!.

عندما كان يوزّع الطرد، لم يتشجع على إعطاء قطعة الدهن المملح والخردل والليمون لأحد. بغض النظر عن حالته عند عودته من المستشفى، واستعداده للموت، لم تمتد يده إلى هذه المأكولات اللذيذة : أخفاها في سترته.

جلس بالقرب من جدار المستودع، بصق لعاباً طويلاً في البداية، ثمّ بصقتين... نظر إلى الشمس، وبدأ يأكل، دهن الخنزير ويمزّق الألياف الصلبة بشراسة، ويأكل بعده الليمون. انكب الخردل في جيبه، وكان أرتيوم أحياناً يدخل أصابعه إلى هناك، ويسحب يده ثمّ يلعق كلّ هذه المادة المرّة، ويعصر الليمون مرّة أخرى في فمه، ويمزّق الدهن بأسنانه.

كان طوال هذا الوقت، ينظر إلى السماء، ويزرٌّعينيه...

كان يعصر في فمه كما الشمس: الحامض، والدهني المالح، والمرّ.

قال بوريس لوكيانوفيتش: "ستعيش في غرفة منفردة- تعال إلى التدريب بنفسك، لن يكون لديك رئيس مجموعة، لا يوجد رؤساء مجموعات هنا- بعد ذلك تمارين، و..."

"هل هذا ممكن اليوم؟".

"ماذا؟"

" إلى الغرفة؟".

"ومتى إذن؟".

حتّى إنّ أرتيوم لم يذهب إلى السريّة الثانية عشرة من أجل جلب أغراضه: لقد قرّر إنّه سينتظر عودة فاسيلي بيتروفيتش من جمع الثمار، ويطلب منه إحضارها.

يجب ألّا يضيع ما جلبه له الحظ.

لم يبتعد أرتيوم، خلال نصف الساعة الأولى، خطوة واحدة عن بوريس لوكيانوفيتش: أصبح ضمانة حظّه الرائع. ولا سيّما أنّ بوريس لوكيانوفيتش أعاد الاثنين الآخرين من السريّة الثانية عشرة: قال لهما: " بمجرّد أن يكون هناك حاجة لكما، فسيستدعونكما "- يبدو أنّ هذين الأحمقين صدقاه، لكنّ أرتيوم فهم كلّ شيء، وأدرك أنّه يعاني من الشماتة الهادئة والرضا عن النفس: أمّا أنا فأخذوني، أمّا أنا فأخذوني!.

بينما كان بوريس لوكيانوفيتش يتفقد المستودع ويحصي لفترة طويلة، وهو يعض على شفتيه، ما كان مسجلاً لديه، تعلّق أرتيوم على العارضة، رغم أنّه لم يكن لديه رغبة في القيام بذلك الآن.

تعلّق أرتيوم بالعارضة، منتظراً أن يظهر بوريس لوكيانوفيتش في المدخل، ليقوم بقفزة والتأرجح عليها- لقد عرف في وقت ما فعل ذلك. فكّر أرتيوم: "أنا أتصرّف كما لو كنت أبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وأحاول نيل إعجاب فتاة".

سرعان ما تألمت كفاه، وأصبح من المستحيل أن يبقى معلّقاً، واضطر إلى اعتلاء العارضة، دون انتظار لفت انتباه المسؤول عن الرياضة.

تساءل أرتيوم، وهو يقفز من أعلى العارضة: "إنّه سجين مثلي، ومن المثير للاهتمام، كيف أولوه الثقة للقيام بكلّ ذلك...".

فاحت رائحة الحديد والدهن والخردل من يديه.

بينما كان أرتيوم يلعق شفتيه مثل القط - وتحترق خداه بشكل لطيف وحلو من الليمون ودهن الخنزير- لم يكد يلحظ بوريس لوكيانوفيتش الذي كان يتوجّه للقيام ببعض أعماله.

على الرغم من جاذبيته البشرية، يبدو أن بوريس لوكيانوفيتش لم يكن يحب الكلام كثيراً، وبعد نحو ثلاث دقائق ألقى نظرة سريعة ومدروسة على أرتيوم الذي كان يستعجل اللحاق به.

"قد يعتقد أنّني واشٍ ويعيدني إلى السريّة "- هكذا فكّر أرتيوم بمثل هذا الخوف الخانق المثير للاشمئزاز، والذي لم يشعر به، على ما يبدو، حتّى من تهديدات الوثيقة وشافيربيكوف.

لكن ماذا كان عليه أن يفعل؟.

لقد توقفا عند مدخل كنيسة الثالوث، إذ كانت السريّة الثالثة عشرة المألوفة لأرتيوم. يبدو أنّ بوريس لوكيانوفيتش جاء إلى هنا بحثاً عن المحظوظين التاليين: لقد اقترب وقت الغداء.

قال بوريس لوكيانوفيتش بصرامة:" يمكنك تناول الغداء في سريتك، ثمّ تتوجه للاستقرار في سكنك الجديد ".

سأل أرتيوم: "هل سيسمحون لي بالدخول؟".

أجاب بوريس لوكيانوفيتش: "اللعنة، حقاً "، وابتسم بلطف لدرجة أنّ أرتيوم، لو كان قد أومأ له، لكان قد ألقى بنفسه على رقبة هذا الرجل الذي يرتدي نظارة طبية، كما لو كان أخاه الأكبر المكتسب حديثاً

وبّخ أرتيوم نفسه: "كان عليك أن تترك الليمون وتضيّيفه، أيّها الأحمق!".

سأله بوريس لوكيانوفيتش مرّة أخرى عن كنيته، وقام بكتابة البيانات التي أملاها أرتيوم عليه، على شكل مقاطع، في ورقة موقعة من قبل الرؤساء دون أن

يعرفوا ما سيكتب فيها- سلّمها لأرتيوم: " فلان الفلاني يوضع تحت تصرف... وتنفيذ ما ورد أعلاه...".

قال أرتيوم بصوت عال وهو يأخذ الورقة: " سينفّذ!"، رغم أنّه لم يأمره أحد بشيء.

صاح بوريس لوكيانوفيتش وراءه: " ومع ذلك عليك أن تتناول طعام الغداء على أيّ حال!. ويمكنك غداً، على ما أعتقد، النوم جيداً "- عند هذه الكلمات تطلّع أرتيوم وراءه - أضاف لوكيانوفيتش: "لدي الكثير لأفعله! يجب اختيار مجموعة من مكان ما!".

كانت الغرفة التي أعطيت لأرتيوم، تقع في مبنى ممثل البطريرك السابق في الطابق الثاني. بناء أبيض صارم، ونوافذ عالية، ذكّر أرتيوم بشكل ما بالمدرسة الثانوية.

شرح له المناوب في المحرس بالتفصيل إلى أين يذهب.

عندما فتح أرتيوم باب غرفته، رأى شخصاً. كان مستلقياً على سرير خشبي، غير متناسق، ودون فرش، وقد وضع كيساً به أشياء تحت رأسه. شكله يشير بوضوح إلى أنّه غير قادر على المشاركة في أيّ مسباقات. وقد يكون، في أفضل الأحوال، قد لعب الكرة في صغره مع بنات أقربائه، على الرغم من أنّ هذا غير مرجّح أيضاً.

بعد قليل من التردد، جلس الرجل ونظر إلى أرتيوم،على الأغلب بانزعاج أكثر من الخوف.

كان يرتدي بقدميه حذاء ضخماً دافئاً لا يتناسب مع هذا الوقت من العام، كما لو كان قد جاء لتوّه من الشارع... لكن وجهه كان نعساً وشعره أشعث.

سأل بشكل غير ودي: " من أنت؟".

قال أرتيوم:"لقد أرسلوني للعيش هنا "- تفحّص الغرفة، مثل ميزيرنيتسكي تماماً، ولاحظ في الوقت نفسه جزرة نصف مأكولة وغير مقشّرة في يد محاوره.

قال الشخص بصرامة، حتّى إنّه مدّ يده، كما لو كان يشير إلى أنّه ممنوع حتّى الجلوس على السرير الثاني، خشبي، وغير مفروش أيضاً: "هذا السرير مخصص لأمي".عندها فقط لاحظ أنّه يمسك جزرة، وحاول أن يضعها على طاولة خشبية صغيرة بالقرب من السرير، وقد نجح بذلك بصعوبة بعض الشيء، لأنّ الجزرة كانت ملتصقة بكفه. على ما يبدو، بعد أن جاء لتناول الغداء، نام الرجل مع هذه الجزرة، قبل أن يتاح له الوقت لأكلها.

فكّر أرتيوم: " هكذا إذن "- نظر إلى الجزرة وحاول معرفة عن أيّ أمٍّ يدور الحديث، ومع ذلك، كان ارتباكه مبهجاً تقريباً: من الواضح أنّه كان هناك نوع من الهراء الذي كان لا بدّ من أن يحلّ بشكل جيد.

سأل أرتيوم: "أين والدتك؟".

"لم تصل بعد"- أجاب الرجل بوقار، وهو يمشّط شعره الأشعث بأصابعه الخمسة الوسخة واللزجة التي كان يحمل بها الجزرة، الأمر الذي جعله أكثر انتشاراً في اتجاهات مختلفة.

سأل أرتيوم بابتسامة: "ربّما سأبقى هنا حتّى تصل؟".

أجاب الشخص الأشعث: "لا، أعرف ما سيحدث بعد ذلك: أوّلاً ستأخذ المكان، وبعد ذلك لن يكون لأمي مكان تعيش فيه".

قال أرتيوم: "لكن لديّ ورقة. ومع ذلك سأجلس. ولن نخبر والدتك بأنّني جلست على سريرها".

عندما جلس أرتيوم، وقف الأشعث على الفور، وبدا من شكله غاضباً للغاية، كما لو كان سيطرد الضيف على الفور، وبدا بالطبع مضحكاً من عدم تناسق صدره الغائر، وذراعيه الطويلتين والرفيعتين.

قال أرتيوم، وهو يبتسم ويمدّ يده بالورقة: "تطلّع".

أخذها بيده.

سأل: "هل اسمك أرتيوم؟ غوريايِنوف؟".

"نعم. وما اسمك أنت؟".

"ونحن أوسيب"- أجاب الشخص الأشعث باستياء شديد، ولوّح بالورقة، وأعلن بحزم: "هذا خطأ! عليك أن تذهب وتستوضح الأمر على الفور، قلْ لهم إنّ المستند المذكور أعلاه لا يتطابق مع الواقع !".

طلب أرتيوم بلطف، لأنّ أوسيب كان يلوّح بيده التي يمسك بها الورقة بقوة:" أعطني... المستند المذكور أعلاه. سأستوضح عن كلّ شيء بالتأكيد، دعني ألتقط أنفاسي فقط".

"ستستوضح ؟ هل تعد؟"- سأل أوسيب بنفس الصرامة التي يتصنعونها عندما يتعاملون مع طفل.

سأل أرتيوم: "متى ستأتي والدتك؟".

أجاب أوسيب: "قريباً"، وأضاف بسرعة: "لكنّك يجب أن تخرج قبل ذلك بكثير حتّى يكون لديّ الوقت الكافي"، وأشار بيده إلى الغرفة- طول أربع خطوات وعرض ثلاث خطوات - " لتجهيز كلّ شيء قبل...".

وعد أرتيوم: " سيكون ذلك".

ظلّا صامتين لبعض الوقت. لم يكن لدى أرتيوم أغراض، ولم يكن لديه ما يفعله، ولم يرغب في مغادرة الغرفة.

لكنّه كان على قناعة بأنّ ثمّة خضاراً في الغرفة، إلى جانب الجزر الذي على الطاولة.

سأل أرتيوم مباشرة: " يبدو أنّ لديك وجبة جافّة؟ اسمح لي بتحضير سلطة لشخصين، ثمّ أعيد لك كلّ شيء بمجرّد حصولي على حصّتي؟".

تظاهر أوسيب أنّه يفكّر، ورفع عينيه إلى السقف، وبعد وقفة، أجاب بشكل حاسم:

"لم لا"- وعند ذلك أخرج صندوق الطعام من تحت الأريكة.

كانت هناك بطاطس، وحبوب، وأسماك مملّحة- وقد أشار أوسيب بشكل معبّر، إلى أنّه سمك الشبوط- جزر وبصل وملفوف ومعكرونة ودقيق ولحوم معلّبة.

حتّى إنّ أرتيوم أصيب بالدوار.

"لا أعرف ماذا أفعل بكلّ هذا "- اعترف أوسيب فجأة، وهو يأخذ جزرة في يده وحبّة بطاطس في الأخرى مذكّراً أرتيوم بالمْلك الذي يحمل رمز السلطة، الكرة الذهبية والصولجان.

لكنّ أرتيوم عرف.

سرعان ما شارك أوسيب فيتاليفيتش ترويانسكي بصوت عالٍ وكاسح أرتيوم ملاحظاته واستنتاجاته في العديد من المسائل.

"غيروا أسم البحيرة التي تقع في الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة من البيضاء إلى... الحمراء!" - أصبح وجهه الذي يبرز منه أنف ضخم، والمغطى بالبثور، وغير الجميل ملهماً وجذاباً تقريباً- "البحيرة المقدسة بالقرب من الدير"- هنا رفع أوسيب إصبعاً رفيعاً وطويلاً، مثل القلم الرصاص- " يسمونها الآن العماليّة! ارتباك مستمر! من الصعب بالنسبة لي ترتيب تصوراتي حول الجزيرة. لكنّ الأهم من ذلك هم!" - ورفع أوسيب إصبعه أعلى، وكأنّه يحاول وخز شخص يحوم فوق رأسه- " إنّهم يعتقدون إذا قاموا بإعادة تسمية العالم، فإنّ العالم سيتغيّر. لكن إذا لم يطلق عليك اسم أندري، ولكن، لنقل، سيرافيم، هل ستصبح شخصاً مختلفاً؟".

صحّح أرتيوم: "أنا اسمي أرتيوم ". وضع على الطاولة سلطة مفرومة إلى قطع كبيرة من الملفوف والجزر والبصل، وبدأ بتنظيف السمك بمهارة.

وافق أوسيب: " نعم، بالطبع، المعذرة منك "- وواصل الكلام، وهو يلعق شفتيه من وقت لآخر، ممّا جعلهما على ما يبدو ناشفتين حتّى في الصيف: "بدلاً من

تغيير الأسماء، من الأفضل توفير الطعام لنا. ليس لديك فكرة كم نوع من الأسماك يمكن العثور عليه في هذه المياه. الرنجة والقد- هذا واضح، وهذا يقدمونه لنا أحياناً هنا، وإن كان قد جرى تحضيره بشكل سيء، لقد أكلت منه في سريّة الحجر. ولكن هنا، كما ترى، تعيش ثلاثة أنواع من السمك المفلطح، وسمك البكلاة والقرموط، والقشقوش، والقوبيون- يطلق عليهم أهل الشاطئ اسم "كيرشاك"، ما يصل إلى عشرة أنواع من اللواتش - وهو نوع نادر بين الأسماك يلد أسماكاً! وكذلك السلمون، ونوعان من أبو شوكة- ثلاث أشواك وتسع أشواك... والبحيرات؟ يوجد هنا عدد كبير من البحيرات- أكثر من ثلاثمئة! وفيها يعيش سمك الراف، والشبوط، والفرخ، والكراكي، والروش. وهناك حتّى سمك السلمون المرقّط ! ويمكن أن تؤكل كلّها! لكنّنا لا نأكل! لماذا؟".

قبل أن يجد أرتيوم الجواب، بدأ أوسيب في طرح أفكاره الجديدة:

" يجدر التفكير في السراب الذي يحصل هنا. أنت لم تشاهد السراب المحلي بعد؟ أوه، إنّه لأمر مدهش. عادة ما يكون غير مرئي، ولا سيّما من الأماكن المنخفضة بالجزيرة، يظهر ساحل كيم أحياناً في الأفق ويبدو قريباً! تبدو أحياناً الجزر الصغيرة التي تقع على مسافة ما من هنا، كأنّها سويّت ومرتفعة إلى الأعلى. وتأخذ جزيرة كوتوزوف أحياناً، مظهراً خيالياً كاملاً- وأحياناً كأنّها قبعة عملاقة، أم على شكل فطر، أم منطاد يحوم في الهواء!.. يجدر التفكير: ربّما نحن أيضاً سراب؟ يتهيأ لنا أنّنا في السجن بينما نحن سكان الفطر؟ أم ركاب المنطاد؟".

قال أرتيوم، كما بدا له إنّ ذلك مناسب: "أم قمل تحت القبعة ".

لكن أوسيب نظر إليه بصرامة، وعلى الفور وضع كلّ شيء في مكانه:

" لقد أوضح المهندس الفرنسي مونج منذ فترة طويلة ما الأمر هنا. تكمن الأسباب في الكثافة المختلفة للطبقات العليا والسفلى من الهواء- وفي انكسار أشعة الضوء الذي يحدث نتيجة لذلك!".

بغض النظر عن هندسة مونج، شعر أرتيوم بنفسه وكأنّه في سراب. كان يجب التمسّك بقوّة بيديه بالمنطاد، حتّى لا يسقط.

اتضح الآن إنّه جرى نقله إلى السريّة الثانية.

قال فاسيلي بيتروفيتش إنّها تجمع الاختصاصيين الذين كانوا في المناصب المسؤولة، لكن الوضع كان مختلفاً إلى حدٍّ ما. فبالإضافة إلى رجال الأعمال التنفيذيين والاقتصاديين، وكانت أغلبيتهم من المناهضين للثورة، كان هناك علماء أيضاً، مثل أوسيب، بالإضافة إلى محاسبين وكتاب من القسم الإداري وقسم التربية والتنوير. وكما فهم أرتيوم فإنّ المهرجان الرياضي الذي سيجري فيما بعد، اعتبر جزءاً من التربية والتنوير- لذلك، جرى نقل المشاركين فيه، والذي اختارهم بوريس لوكيانوفيتش من مختلف السرايا، إلى هنا.

كان استيقاظ السريّة الثانية في التاسعة صباحاً.

ظهرت بعض الصعوبة في تهدئة أوسيب في المساء، لأنّه كان يتحدث بلا انقطاع. ولكن في الليلة الأولى، غفا أرتيوم، دون أن يعذبه ضميره، في منتصف المونولوج التالي لرفيقه المثقف، الذي على ما يبدو لم يلاحظ أيّ شيء.

ولكن في الصباح استيقظ أوسيب مع معاناته الحقيقية: بدا وجهه كلّه وكأنّه ملطّخ بغراء النجارة.

ذهب أرتيوم لجلب الماء المغلي، وفي نفس الوقت تطلع حوله بانتباه بالغ.

كانت غرف الرهبان على جانبي الممر الفسيح. ولاحظ أرتيوم أن التدفئة كانت جماعية. وكان الحطب مرتباً بعناية في تجاويف الجدران- على ما يبدو، كان الرهبان يضعون الحطب هنا أيضاً.

بالقرب من الحطب كانت هناك أحذية: جزم وكنادر وكالوشات.

فهم أرتيوم مستغرباً: "هنا لا يوجد سرقات!".

بدأ اليوم بهدوء ورتابة، واستمر بشكل جيد للغاية.

جاء بوريس لوكيانوفيتش المشغول، مسرعاً لدقيقة واحدة، وأعطى أرتيوم ٨ روبلات و٢٧ كبيكاً من عملة سولوفكي- وإضافة إلى ذلك إذناً خاصاً للذهاب إلى المتجر الذي يقع خارج أراضي الدير بحرية دون حارس.

كان لدى أوسيب مثل هذه الورقة، ولكن إضافة إلى ذلك سمح له الخروج بحرية إلى شاطئ البحر، أمّا في ورقة الإذن التي أعطيت لارتيوم، لا يوجد فيها مثل هذ السماح.

"أنا لست بحاجة للخروج إلى الشاطئ "- فكّر أرتيوم وهو يتطلع إلى الإذن الذي كان يمسك به بيده اليمنى، ويضغط على النقود بيده اليسرى.

أمر بوريس لوكيانوفيتش، وهو في عجلة من أمره: "أذهب غداً إلى الشؤون الإدارية، ووقع على كلّ ذلك، فأنا أوزّع كلّ ذلك على مسؤوليتي الشخصية".

لسعادة أرتيوم دعاه أوسيب لشراء حاجيات من كشك سولوفكي- كان يقع مباشرة في الدير، في مصلى القس هيرمان.

لكن تبيّن أنّ الكشك كان مغلقاً.

عندها ذهبا إلى الحانوت الذي يقع خارج الدير.

شعر أرتيوم بنفسه مهاباً، وقلقاً، مثل العريس تقريباً.

تهيأ له أنّ الحراس الموجودين على البوابة، يجب أن يسحبوا منه الآن جميع الأوراق، على أنّها مزيفة، ويرسلوا المحتجزين تحت الحراسة إلى قسم المعلومات والتحقيقات، حيث، على الأرجح، ملّت غالا من انتظار أرتيوم... ولكن لا، لقد جرى السماح لهما بالمرور بهدوء، وحتّى بشكل عادي.

اعترف أرتيوم بينه وبين نفسه وهو يشعر بحكّة مستمرّة في صدره: "كم هو مذهل كلّ شيء".

حتّى النوارس كانت تصرخ بفرح وإعجاب.

كان يحدث أن يذهب أرتيوم لجمع الثمار دون حراسة- ولكن كان هناك مهمّة، ولم يكن يخطر على بال أحد أن يترك العمل ويذهب لقضاء حاجاته الشخصية. أمّا هنا فكان يسير، ولم يكن مديناً لأيّ شخص، ودون أيّ مرافقة.

بالمناسبة، لم يكن أوسيب يدرك هذه الروعة: فقد أبقوه في سريّة الحجر، في العمل العام، أسبوعاً ونصفاً فقط، وجرى نقله على الفور إلى استخلاص اليود من أعشاب البحر، كما شرح لأرتيوم.

كان يذهب أوسيب، كلّ يوم، إلى المختبر الموجود على شاطئ ميناء السلامة، والذي بالمناسبة انتقده لعدم وجود أكثر الأشياء لزوماً من أجل العمل.

فكّر أرتيوم دون أن يضمر له الشر: "كان يجب أن يرسلوك لنقل الجذوع ، يوجد هناك كلّ ما تحتاجه".

تبيّن أنّ الحانوت كوخ خشبي أنيق يقف على مرج أخضر، بعيداً عن جميع المباني الأخرى: كان هناك شيء أسطوري في كلّ ذلك.

كان يعبق من الداخل برائحة طرد أمه: رائحة الطعام والصابون والشبع والرعاية.

كان يعمل في الداخل أربعة بائعين، وهم سجناء أيضاً، يشعرون بأهميتهم - لم يكن من الممكن الحصول على هذا العمل دون وساطة كبيرة.

قال فاسيلي بيتروفيتش ذات مرّة: "إنّ التشكيلة لا تبهر، ولكن بسيطة، وموثوقة، مثل الحكومة السوفييتية".

واتضح أن ذلك صحيح.

كان ثمن كيلوغرام سمك الرنجة روبلاً وثلاثين كبيكاً، والسجق روبلين ونصفاً، والسكر ثلاثة وستين كوبيكاً، وقنينة الكولونيا خمسة روبلات وخمسة وعشرين كوبيكاً، والدبابيس الإنكليزية سعر الواحد ثلاثين كوبكاً.

كان هناك نوعان من السكاكر والمرملاد - تلك التي ضيّف أفاناسييف منها أرتيوم. وخبز القمح والشاي. وأطباق وملاعق وأكواب من القصدير. ومسحوق أسنان وبودرة وأحمر الخدود وأحمر الشفاه وأمشاط. وكان يوجد بريموس وموقد حديدي وقدر وطنجرة ضخمة أيضاً.

وكان يوجد في قسم الملابس، جزم وأحذية لباد، وسراويل، وسترات، وقبعات، وعدد كبير من الأحذية المتنوعة جرى وضعها عشوائياً في صناديق عدّة.

قال أرتيوم: " هل نشتري كولونيا؟ وسكاكر إضافة إليها. سوف نرش الكولونيا، ونأكل السكاكر. ما رأيك بهذا الاقتراحللمساء؟".

دعمه أوسيب بجدية كاملة : "نعم، من الممكن ذلك". وأعلن بسرعة: "ليس لديّ المال. ألا تشتري لي؟.. هذا..." - وبحث بإصبعه مشيراً إلى الدبوس.

فكّر أرتيوم: " إنّه إبليس..." ، لكنّه اشترى له بالطبع: هو نفسه أتى به إلى المتجر. وضع أوسيب على الفور، دون أن ينظر، الدبوس في جيبه.

اشترى أرتيوم نصف كيلو سجق، وست حبات من السكاكر، وصحناً مع ملعقة أيضاً - إنّه لم ير فاسيلي بيتروفيتش أمس.

فكّر آرتيوم: "كان يجب شراء مدفأة حديدية "- وفي اللحظة نفسها جادل نفسه بسخرية: "هل أنت متأكد من أنّك ستعيش في هذه الغرفة ؟ سوف تذهب يا عزيزي، إلى العمل العام من جديد! وستحمل معك المدفأة شتاءً إلى الغابة!".

في طريق العودة، التقيا ثلاثة سجناء محطّمين بالقرب من المطابخ، في انتظار أن يأخذوا بقايا الطعام إلى القمامة. كان عليهم الانتظار إلى الحين الذي يضع فيه الطاهي البرميل الذي فيه بقايا الطعام في الخارج، ووفقاً للتقاليد سيعود لدقيقة إلى المطبخ. في هذا الوقت، يبحث المحطمون في البرميل، ويجدون إمّا ورقة ملفوف وإمّا رأس سمكة.

كانوا هم أنفسهم يشبهون إمّا الأسماك التي نما عليها شعر خفيف زلق، وإمّا الطيور ذات الوبر القليل والريش القذر.

كان أرتيوم منزعجاً قليلاً لأنّهم أفسدوا مزاجه.

قال أوسيب مرعوباً: "لماذا يفعلون هذا؟ اسمع يجب إعطاؤهم السجق "
- أمسك أرتيوم من كمّه: "هؤلاء الناس جائعون، ونحن لا يزال لدينا طعام".

سحب أرتيوم كمّه بغضب لم يتوقعه هو نفسه: "نعم، سأعطيهم الآن. من الأفضل أن تعطيهم دبوسك".

لم يهدأ أوسيب: " لماذا يحتاجون إلى دبوس؟ إنّهم جياع!".

قال أرتيوم له: "اذهب إلى الشيطان"، وسار مسرعاً.

وخلال دقيقة، لحق به أوسيب.

وضع يده في الجيب، إذ يوجد الدبوس.

فكّر أرتيوم بقليل من الإزدراء: " هل كان يريد فعلاً إعطاءهم".

سأل هو بعد أن هدأ قليلاً: "ألم تر سجناء محطّمين من قبل؟".

كرّر أوسيب: "محطّمين؟". وعندما أدرك القصد من الحديث، أجاب: " لا، لم يحصل هذا".

بدت كلمة "هذا"، كما لو أنّ أوسيب حمل شيئاً مزعجاً بأصابعه الطويلة، مثل قماط طفل.

قال أرتيوم: "حسناً، تخيّل أنّ هذا سراب حسب مونج".

كرّر أوسيب : " حسب مونج؟ "، وبعد برهة صمت، أضاف: "لا، هذا ليس سراباً".

سأل أرتيوم بسرعة: " لماذا أنت هنا؟".

أوضح أوسيب: "لقد وضعوني في السجن".

قال أرتيوم: "غريب، كيف هذا".

كانا قريبين من المبنى الذي يقيمان فيه.

" إيه، أنت، توقف "- على ما يبدو ينادون على أرتيوم.

التفت ورائه، ورأى الوثيقة وشافيربيكوفا والخيشوم، يسارعون إلى قطع الطريق عليه.

حسب أرتيوم بسرعة، وهو يدفع أوسيب إلى مدخل البناء، ماذا يمكن أن يفقد على الفور: "ستة روبلات و٢٢ كوبيكاً، ونصف كيلو سجق، وست حبات سكاكر ".

دون أن يحسب حياته التي نسيها.

قال أوسيب، متلكئاً قليلاً عند محرس المناوبين: " كأنّهم ينادوننا".

"لا، لا، لا، ليس إيانا"- همس أرتيوم، دافعاً أوسيب بشكل مؤلم، وكان مستعداً لإلقاء أوسيب على كتفه، والركض به إلى الطابق الثاني: كان العالم ضعيفاً ومرناً بشكل مقرف تحت ملابسه، كما لو كان مصنوعاً من عظام سمك الرنجة.

انحنى أرتيوم من فوق فتحة الدرج، إذ لا يظهر من الأسفل، وسمع قعقعة الأبواب، وعلى الفور صراخ المناوب.

"إلى أين؟"- سأل المناوب، الذي نهض من مكانه، كما كان واضحاً من صوته.

" نحتاج إلى هذين الشخصين... اللذين مرّا الآن"- قال شافيربيكوف، الذي يخلو فمه من الأسنان، بصوته الكريه بسرعة وهو يلثغ قليلاً".

كان قلب أرتيوم يخفق، وكأنّه أصيب بنوبة.

سأل أوسيب أرتيوم الذي يمسك بكمه: "هل أتوا من أجلي؟ ربّما من المختبر؟".

أمره أرتيوم بهمس: "قف مكانك!".

سأل الحارس في الطابق السفلي: "من أين أنتم؟".

قال الخيشوم: " يلزمنا أرتيوم غوريباينوف".

حتّى إنّ أرتيوم جفل. لم يكن من الصعوبة معرفة أسمه، لكنّه عانى نوبة قصيرة من القرف، عندما سمع كنيته من فم الخيشوم. أن يبحث هذا الحثالة عن شخص يشبه أرتيوم شيء، وشيء آخر عندما يحصل ذلك بهذا الشكل مباشرة. شعر كما لو أنّ الخيشوم أمسكه من ياقته بمخالبه الطويلة.

أجاب المناوب:"لا يهم من يلزمكم، اذهبوا للحصول على تصريح". انحنى أرتيوم ورأى المناوب يدفع الجناة إلى المخرج.

كما لو كان يعلم أنّ أرتيوم يسمعه، استدار الخيشوم وصرخ:

"لن تستطيع الهروب أيّها الجبان، هل تفهم".

فكّر أرتيوم في الليل، على صراخ النوارس الذي لا ينقطع، وأحاديث أوسيب اللاذعة: "بماذا أنا أفكّر؟! لماذا أتصرّف كطفل؟ يمكنني الذهاب إلى غالينا، وأشي بالخيشوم، وبالوثيقة، وبشافيربيكوف، من أجل أن يضعوهم جميعاً في زنزانة العقاب... ولكن عمّ يمكنني أن أشي بهم، لا أعرف شيئاًعنهم؟ لا يهم، يجب أن أسأل أفاناسييف. أم ببساطة أكذب. الكذب شيء فظيع، وسيهلك هؤلاء الحثالة في مطحنة الصلصال... ".

حرك أرتيوم شفتيه قليلاً، مقنعاً نفسه، ولم يستمع إلى إحدى مفارقات أوسيب حول شكل سطح الأرض الملحي والجليدي والقمامي والغريني في سولوفكي.

بالحماس الذي أقنع من خلاله أرتيوم نفسه، بدا أنّ كلّ شيء لديه كان جاهزاً للقيام بهذه الخطوة، وسيذهب في الصباح على الفور إلى قسم المعلومات والتحقيقات...

... لكنّ أرتيوم، لم يذهب إلى أيّ مكان بالطبع، وشرب في الصباح الماء المغلي وأكل بعض السجق الذي اشتراه الحانوت وجزرة من حصّة أوسيب الجافّة، ولم يتذكّر إلهامه الليلي وغمغمته المحمومة على الإطلاق.

أجرى في العاشرة صباحاً، بوريس لوكيانوفيتش، عملية إحماء لجميع الذين سيعانون من أجل رياضة سولوفكي في المستقبل. ثمّ جرى فرزهم إلى مجموعات: العدّاؤون- يركضون، والقفازون- يقفزون، ولاعبو كرة القدم- يجرون وراء الكرة المكونة من خروق: كانت الوحيدة- فلم يحصلوا بعد على كرة حقيقية. ظهر اثنان من المصارعين، و١٢ من الأقوياء الأشداء، جرى تجميعهم

من جميع السرايا لرفع الأثقال. كان هناك عدد قليل من الأثقال أيضاً، وكانوا ينتظرون في الطابور، ولكن دون الكثير من الحماس.

بالإضافة إلى المصارعين ورافعي الأثقال، جرى جمع فريق من الشباب والطلاب، من سكان المدن - ولهذا السبب كان الجو صاخباً ومضحكاً، وكان هناك الكثير من العبث.

بطريقة ما طارت الكرة بعيداً، وفي هذه اللحظة مرّ الأب زينوفي، الذي ظهر من مكان ما غير معروف. وصرخوا عليه: "أنت في الثياب الطويلة، أرمها!" - لكنّه بصق على الكرة، مما أبهج الجميع بشكل كبير. وعلى الفور، اقترح أحدهم إجراء منافسة بين رجال الدين في رمي المبخرة- قهقه الطلاب مرّة أخرى.

لاحظ أرتيوم فجأة أنّه لم يضحك هو وبوريس لوكيانوفيتش فقط.

بالنسبة للعمر تبيّن أنّ أرتيوم متوسط العمر بين البقية - كان جميع الطلاب أصغر منه بخمس إلى سبع سنوات، ورافعو الأثقال أكبر منه من سبع إلى عشر سنوات.

من خلال نظرة فاحصة، أدرك أنّ بوريس لوكيانوفيتش كان أيضاً في عمره نفسه تقريباً، وربّما أكبر منه بسنتين. ومع ذلك، كان من الواضح أنّ لديه خبرة أكثر في التواصل مع الناس، بما في ذلك مع المسؤولين البلاشفة.

اعترف أرتيوم بينه وبين نفسه، بتفوق بوريس لوكيانوفيتشعليه، لكنّه لم يظهر ذلك: لقد تصرّف بكرامة، وبعيداً عن الرسمية كما لو كانا على قدم المساواة ولم يبق سوى خطوة واحدة لرفع الكلفة بينهما تماماً. يبدو أنّ بوريس لوكيانوفيتش قد لاحظ ذلك، وطلب من أرتيوم مساعدة صغيرة مرّة، وطلب مرّة أخرى- تبيّن أنّ أرتيوم دقيق وسريع وحاذق. في المرّة الثالثة، مازحه بوريس لوكيانوفيتش، تحدّث عن الآخرين في الساحة بصيغة الغائب. لم يطوّر أرتيوم النكتة وضحك من القلب، ولكن باعتدال: لقد شعر أنّه يجب أن يكون الأمر كذلك.

فهم أرتيوم: " يملك بوريس لوكيانوفيتش الحق في أن يضع نفسه أعلى قليلاً من البقية، أمّا أنا فلا داعي لأن أفعل ذلك".

قبل الغداء، غادر بوريس لوكيانوفيتش، وطلب من أرتيوم مراقبة النظام العام.

ولم لا؟ لم يتدخّل أرتيوم برافعي الأثقال والمصارعين باحتراس، وكان الطلاب أنفسهم يلعبون من تلقاء أنفسهم، مسرورين حتّى حان موعد الغداء.

عاد بوريس لوكيانوفيتش في الساعة الرابعة مع شاب يميل إلى البياض.

أومأ برأسه إلى الشخص الجديد: "يبدو أنّني وجدت لك شريكاً، في زنزانة العقاب! لم يسمحوا لي بعد بالذهاب إلى مبنى سيكيركا.

لاحظ أرتيوم ليس دون متعة، وهو ينظر إلى الشخص الذي يميل إلى البياض: "لقد تحوّل إلى الحديث معه من "أنتم" إلى "أنت". لم يقل له بوريس لوكيانوفيتش حتّى الآن، "أنت" سوى مرّة واحدة فقط، عندما كانا يتلاكمان- ولكن كان الأمر هناك يتطلّب بعض التقارب".

تبيّن أنّ الوافد الجديد أطول بنصف رأس من أرتيوم، وشعرات ذقنه خفيفة ومتناثرة، وكان خائفاً ومتعرّقاً.

فكّر أرتيوم، ورعش كتفه باشمئزاز: "هل من المعقول أنّني كنت أبدو بهذا الشكل؟".

اقترح بوريس لوكيانوفيتش، ومدّ القفازات إلى أرتيوم: " جرّب أنت معه، لماذا أنا، أنت ملاكم لدينا".

ألقى أرتيوم نظرة خاطفة على منافسه، وأدرك تفوقه عليه. لقد كان شعوراً قليل اللطف، لكن من الصعب تجاوزه بكلّ الأحوال. لم يكن الأبيض على الأرجح، يعلم أنّ أرتيوم نفسه، كان هنا لليوم الثاني. وعلى العكس من ذلك، كان على يقين من أنّه وقع في مجموعة من الأساتذة المتمرسين، والذين جرى

إعفاؤهم من العمل العام منذ فترة طويلة. زاد خوف الذي يميل إلى البياض الواضح، من شعور أرتيوم بتفوقه، وأكد بكلّ مظهره المستقل: نعم، نحن نستمتع هنا، نعم، سأضربك أيّها الضعيف العرق الآن على جانبيك النحيلين الواضحي الضلوع.

لم يكن أرتيوم محرجاً هذه المرّة، من انتباه المحيطين، بل العكس العكس من ذلك أثاره ذلك قليلاً. كان رافعو الأثقال أوّل الآتين بعد أن تركوا أثقالهم، وسرعان ما جاء المصارعون. كان لاعبو كرة القدم لا يزالون يلعبون، لكنّ الكثير منهم كانوا قد تباطؤوا بالفعل وبدؤوا يتطلعون إلى أرتيوم وإلى ذلك الذي يميل إلى البياض.

سأل بوريس لوكيانوفيتش: "هل أنتما جاهزان ؟".

لمس أرتيوم جبهته بالقفاز.

فجأة تذكّر بوريس لوكيانوفيتش: " ألا يزعجك صدغك ؟".

أجاب أرتيوم: "سأدير له الجانب الآخر". أومأ بوريس لوكيانوفيتش، كابحاً ابتسامة.

حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة: أخافه أرتيوم من جهة اليسار، ثمّ من جهة اليمين، وسرعان ما أدرك أنّ الأبيض يفقد توازنه: على الرغم من أنّ يديه كانتا في وضعية صحيحة، ويبدو أنّه قادر على التحرك بشكل صحيح، إلّا أنّه كان لا يزال خائفاً للغاية... وبمجرّد أوّل فرصة بسيطة، وجه أرتيوم له ضربة إلى أسنانه، أقوى مما ينبغي.

سقط على أثرها الأبيض.

قهقهت النوارس، التي كانت بطبيعتها تتصرّف بشكل بشعٍ.

شهق ساخراً أحد الطلاب الذين ركضوا ليشاهدوا ما يجري، لكنّ الآخرين لم يجاروه، فقد بدا الأبيض مثيراً للشفقة.

بقي مستلقياً، واتكأ على كوعه الأيمن، وخلع القفاز من يده اليسرى، ممسكاً بحافته بين فكه وكتفه، ولمس شفتيه بهدوء بالكف.

كادت في البداية، أن ترتسم ابتسامة ابتهاج على فكّي أرتيوم: هكذا أنا فعلت، لكنّه سرعان ما أدرك أنّه لا يوجد شيء يفرح به.

ساعد بوريس لوكيانوفيتش الأبيض على النهوض. أدرك أرتيوم أنّه كان عليه أن يفعل ذلك.

قال بوريس لوكيانوفيتش، وهو يغمز لأرتيوم: " كن أكثر حذراً في المرّة القادمة "، وقاد الأبيض إلى المستودع.

طمأنت الغمزة أرتيوم قليلاً.

قال لنفسه: "ماذا في ذلك. قالوا لي أن أمتحن الشاب - لقد امتحنته...".

لكنّ أرتيوم أدرك فجأة، بعد مرور عشر دقائق أخرى، إلى أيّ حدٍّ هو أحمق.

وبّخ نفسه بمرارة وغضب: "كان عليّ أن أرقص حوله لخمس دقائق على الأقل، وبعد ذلك فقط إسقاطه! فمن غير المعروف بمن سيأتون بديلاً عنه!".

عاد بوريس لوكيانوفيتش، بعد أن أعطى الرجل الأبيض الماء ليشربه، واقترح عليه أن يأكل.

ربت على كتف أرتيوم الذي ابتسم ، دون أن يقول أيّ شيء.

طلب منه بوريس لوكيانوفيتش: "أمسك النظارة؟"، ودخل بخفة بين لاعبي كرة القدم.

أراد أرتيوم بشدّة أن يطمئنه بوريس لوكيانوفيتش بدلاً من التسلية الحمقاء بالكرة. لكن على الأقل أعطاه النظارة وهذا جيد.

داعب إطار النظارة، واستمر في الغضب بهدوء من نفسه.

اختلط شعور آخر مخزٍ هنا: "على ما يبدو جرى إخراج الأبيض من زنزانة العقاب، إذ كما قالوا دائماً، الشيطان يعرف ماذا يحدث - ربّما حتّى من طاحونة

الصلصال نفسها التي كان الخيشوم يخيفني منها... كان لديه فرصة نجاة للبقاء في قسم الرياضة- وهنا أرتيوم".

كرّر أرتيوم همساً: "هذا مقرف! خسّة!"، وفي الوقت نفسه تمنّى أن ينتهي الأبيض من أكل ما تبقى في علبة الكنسروة ويخرج من هنا.

سأل أرتيوم نفسه: "إلى أين سيعود ؟. هل إلى زنزانة العقاب؟".

ظهر كاتب المقالات النقدية الساخرة غراكوف في الوقت المناسب، وليس من الواضح متى ومن أين أتى.

سأله أرتيوم، هو يستعجل التحدّث، ليس بسبب الاهتمام بغراكوف كثيراً، ولكن لأنّه أراد أن يصرف انتباهه: " ما الذي تفعله هنا؟ هل قررت أن تصبح أولمبياً أيضاً؟ ".

أجاب غراكوف: "لا بالطبع ؟ أنا الآن أعمل في مجال الكتابة: جريدة، مجلة...

"هل أخذوك إلى سولوفكي الجديدة؟"- كاد أرتيوم أن يفرح بشكل جدي، على الرغم من أنّه تحدّث مع غراكوف بضع مرّات فقط، ولم يشعر بأيّ جاذبية خاصّة نحو مثل هذا النوع الصامت وغير الملحوظ، وكاد يضيف: "... اسحب أفاناسييف معك، كلاكما من بيتر[1]"، لكنّه تذكّر بعد ذلك أنّ الشخصين المذكورين قد تجنبا التواصل فيما بينهما.

سأل غراكوف: "أين بوريس لوكيانوفيتش؟ أنا أتيت من أجله. أقوم بإعداد مقال عن المسابقات القادمة".

---

(١) بيتر: مدينة بتروغراد سابقاً، الأن سانت بطرسبورغ. أسسها بطرس الأول في العام ١٧٠٣، وقد كانت عاصمة روسيا لمدة قرنين من الزمان.

أشار أرتيوم: "هناك ".

بدا بوريس لوكيانوفيتش، وهو يحدّق بقصر نظره، بحثاً عن الكرة، لطيفاً ومضحكاً. يبدو أنّه دون نظارة لم يكن يرى شيئاً في الطرف الآخر من الملعب، وكان يحدّد مكان الكرة حسب تجمّع الطلاب المبتهجين فقط.

لاحظ أرتيوم منذ الصباح أنّ الطلاب، على الرغم من تعليمهم الجاد، وإن كانوا قد انقطعوا قسراً عن التعليم، يعرفون كيف يشتمون بشكل فاحش. كان بوريس لوكيانوفيتش فقط، وحتّى في خضم اللعب، يتحدّث بطريقة مؤدّبة بشكل استثنائي.

ركض، وهو يلهث قليلاً، وقال بود: " هل جئت من أجلي ؟".

قال أرتيوم، وهو يعطيه النظارة: "من الصحيفة، الرفيق غراكوف".

نظر بوريس لوكيانوفيتش إلى غراكوف، في البداية دون نظارة، ثمّ بنظارة، كما لو كان يتحقق من انطباعه.

بدأ غراكوف: "أكتب مقالاً عن..."، لكن بوريس لوكيانوفيتش سرعان ما لوى حنكه بملل:

"اسمع، لا أعرف كيف أعبّر. هذا أرتيوم يتحدّث بشكل جيد. قل له شيئاً ما، يا أرتيوم.

تفاجأ أرتيوم، ومع ذلك، كان سعيداً: "من أين يعرف ذلك ؟". فتح غراكوف على الفور دفتر ملاحظاته، وأخرج القلم الرصاص من خلف أذنه: كان عليه أن يجيب على الفور.

بدأ أرتيوم بثقة كبيرة: "مشاركة السجناء في المسابقات الرياضية هي..."، محوّلاً نظره إلى بوريس لوكيانوفيتش الذي أومأ برأسه الكبير ببطء، كما لو كان يستمع ويترجم لنفسه على الفور كلاماً أجنبياً إلى اللغة الروسية- "... هذا ليس ترفيهاً. هذا هو انعكاس للعمل الثقافي المنظّم جيداً في معسكرات سولوفكي. هو

انعكاس للمسار الذي سلكه أعضاء المجتمع الذين يجري إعادة إصلاحهم، لكنّهم ما زالوا مذنبين".

قال بوريس لوكيانوفيتش، وهو أكثر من راضٍ (هو ذا!)، وبدأ يمسح نظارته بقميصه.

واصل أرتيوم، مستخرجاً مجموعة كلمات من مكان ما لم يفكّر فيها أم يتكلّم بها في حياته: "الرياضة هي تنقية الروح، لا تقل أهميّة عن العمل. في الرياضة، كما في العمل، هناك جمال. الرياضة أيدي الأقوياء، التي تدعم وتقود الضعفاء. يقول الرفيق تروتسكي: "لو لم يسقط الإنسان لما كان قادراً على النهوض". تعلّم الرياضة نفس ما تقوم به معسكرات سولوفكي - الوقوف بعد السقوط".

أشاد بوريس لوكيانوفيتش باستهزاء لطيف: "آه، ما أجمله من كلام. إنّه بستان عنادل. أنت يا أرتيوم، كان يمكن أن تصبح داعية رائعاً. غليان عالٍ!".

"هل هو يحب تيوتشيف أم سيفريانين؟"- فكّر أرتيوم للحظة ببعض الخجل من الثناء الذي تلقاه منه، بغض النظر عن مدى السخرية التي قد تكون عليه- "على الغالب تيوتشيف، وبلوك بالطبع".

طلب غراكوف منه:"انتظر"، وبدأ يخربش في دفتر ملاحظاته، هذه الخربشة تذكرنا بوضوح بزخرفة خوخلوما(١)، لكنّها ليست حروفاً قطّ. "الآن... نعم، أنا أستمع".

واصل أرتيوم حديثه لنصف ساعة أخرى، حتّى امتلأت صفحات دفتر غراكوف.

قال غراكوف عند الوداع : "جاؤوا من أجلك إلى السريّة الثانية عشرة من قسم المعلومات والتحقيقات أمس. كنت أحزم أغراضي لأنتقل إلى مكان جديد... هل وجدوك؟".

---

(١) خوخلوما: زخرفة على المصنوعات الخشبية ذات طابع متميز اشتهرت بها بلدة خوخلوما في مقاطعة غوركي. [المترجم].

نظر أرتيوم إلى غراكوف دون أن يرمش، حتّى إنّه نسي الإجابة.

لم يتذكّر غالينا طوال اليوم.

غنّى بينه وبين نفسه: "حان الوقت لتعمل مخبراً، يا أرتيوم، حان وقتك "، ودون أن يقول وداعاً لغراكوف، سار ببطء إلى المستودع، وجلس بالقرب من الجدار البعيد الذي أكل بجانبه دهن الخنزير المملح مع الليمون آخر مرّة، هناك مكان رائع للتفكير في كيف ستتصرّف الآن... كما لو أنّ شيئاً ما يعتمد على أفكاره.

قال أرتيوم لنفسه: "هذه عقوبة من أجل الأبيض".

أجاب من نفسه: " نعم. لو لم يكن الأبيض، لكانت غالينا قد نسيتني... ربّما أسألها: ألا يعفى المشاركون في القسم الرياضي من واجبات الواشي والمخبر؟ " - حاول أرتيوم أن يبهج نفسه، لكنّه لم يكن الأمر مبهجاً.

في الطريق التقى بوريس لوكيانوفيتش.

قال لوكيانوفيتش: "اسمع، يا أرتيوم، ما زلت نحيفاً نوعاً ما، هل نطلب لك المزيد من الحصص الجافّة؟ ما رأيك

من الغد؟ بدل نقدي كمقاتل وحصص جافّة كداعية، أليس كذلك؟".

لم يتحدث بوريس لوكيانوفيتش مع أيّ شخص آخر بهذه النبرة اللطيفة والهزلية.

توقّع أرتيوم، وهو يشعر بثقل في قلبه: " لم يأتوا أمس، هذا يعني أنّهم سيأخذونني اليوم مباشرة من الغرفة ".

لسبب ما، خاف من الاستدعاء إلى قسم المعلومات والتحقيقات، أكثر من احتمال لقاء الجناة عند مدخل مبنى ممثل البطرق.

" لأنّ العار أسوأ من الموت "- قال أرتيوم لنفسه بحماس، مدركاً مسبقاً أنّ ذلك، عبارة عن كلمات غبيّة، ورعونة.

في الطريق إلى الدير، عرج أرتيوم بحزم إلى الحانوت واشترى قدراً : "... على الأقل أطعم نفسك شيئاً ساخناً قبل السقوط الأخلاقي".

كان يحمل النقود الآن معه : وهذا منحه القوّة بشكل ما - ظهر لديه شعور خادع بالحرية والأهمية.

حثّ أرتيوم نفسه باستهزاء: "إذا بدأت بالوشاية، فسيخصصون لك حصّة إضافية ثالثة. سيكون هناك دائماً روبلات في جيبك. وسوف تصبح ثميناً، لامعاً، وبطيئاً، مع وجنتين كبيرتين وسميكتين... ".

لقد تخيّل نفسه ثمّيناً كتاجر يعبر فناء الكرملين وهو يحزق، ما خفّف الغم عنه قليلاً.

في المطبخ الرئيسي، وفقاً لورقة بوريس لوكيانوفيتش، قدّم له كبير الطهاة حصّة جافّة، وإضافة إلى ذلك ملفوفاً، ورأس ثوم، وسمنة حيوانية...

كان الطباخ الذي تفوح منه رائحة الحساء، والسمك، والدخن، وعصيدة الحنطة السوداء، بشكل لا يطاق، رجل حليق الرأس، بعين واحدة - نظر بدقة إلى رتيوم، محاولاً فهم ، من هذا الشخص الذي يقف أمامه، ولماذا منح حصّة محسّنة.

غمز أرتيوم للطباخ. كان الأمر غريباً أن يغمز لشخص أعور.

واصل أرتيوم السخرية من نفسه، وهو يأخذ حصّته: " دعه يعتقد أنّني المخبر الرئيس في المعسكر... دعه يخمّن من خلال وجهي الوقح، أنّني أنهيت فترة حكمي، وبقيت حراً في الدير لميلي الطبيعي إلى الخسّة والتملّق! ولهذا يطعمونني!".

لم يكن الجناة، ولا جنود الجيش الأحمر ينتظرون أرتيوم بالقرب من المبنى.

لقد أسرع إلى مدخل سريّته كما لو أنّ أربعين شقيقة حنونة ينتظرونه بحزن في الغرفة.

... أم من الأفضل واحدة، وليست شقيقة على الإطلاق.

فكّر أرتيوم، وهو يقضم أوراق الملفوف ويصعد بسرعة إلى طابقه الثاني قبل يناديه أحد ما: "ربّما نسيتني غالينا؟ أم أنّ قسم المعلومات والتحقيقات لا يستطيع العثور عليّ ؟ لن يجدوا اسمي في الأوراق، وسيعتقدون أنّ السجين غوريياينوف قد جرى إرساله في مهمّة عمل بعيدة، وسينسون حتّى نهاية مدّة الحكم ؟ يحدث مثل ذلك؟".

لقد كان مستعداً للإيمان في أيّ شيء، المهم ألّا يلتقي نهائياً بهذه المخلوقة رفيعة الشفاه مرّة أخرى.

كان أوسيب في الغرفة، نصف مستلقٍ على أريكته غير المفروشة مكتئباً مع بعض الكتب دون أغلفة.

لاحظ أرتيوم بشعور دافئ: "أوسيب في البيت "، كما لو أنّ رفيقه المثقف يمكن أن يشكّل حماية له أيضاً. في الوقت نفسه، لاحظ أنّه يسمّي هذه الغرفة الصغيرة بيتاً، لكنّه لم يطلق هذه التسمية قطّ على السريّة الثانية عشرة سكنه السابق المليء بالقمامة و ببق الفراش".

اقترح أرتيوم، وهو لا يزال في المدخل: "تعال نطه حساء الملفوف يا أوسيب؟".

سأل أوسيب مشككاً، وهو يلعق شفتيه: " هل تعرف؟".

كان أرتيوم يعرف.

لاحظ أرتيوم أنّ أوسيب كان يلعق شفتيه، عندما يكون في حالة مزاجية جيدة فقط. وفي حال كان مزاجه سيئاً، على العكس من ذلك، يبقى فمه مغلقاً وجافاً.

كان شخص ما قد أشعل الموقد في الممر، وضع أرتيوم بعض الحطب فيه، وسرعان ما وضع قدره الجديد عليه، قبل أن يشغله أحد ما .

في غضون ساعة ونصف، كان كلّ شيء جاهزاً.

تحدّث أوسيب عن عمله، وهو يمسك قصعته بكلتا يديه من أطرافها، كما لو أنّها يمكن أن تقفز إلى مكان ما: "ترمي العواصف الأعشاب البحرية إلى الشاطئ، تتجمّع أكوام على الشاطئ بطول كيلومترات عدّة. كلّها صالحة للأكل، ولا توجد أعشاب بحريّة سامة. في إنكلترا، واليابان، وإسكتلندا، يصنعون منها الكثير من الأشياء اللذيذة. حلويات، ومربيات، والجيليه.

مزح أرتيوم الذي تعرّق نتيجة وقوفه الطويل بالقرب من الموقد، وهو يسكب الحساء: "إذن، أنت تفعل ذلك؟ هل يمكنك إحضار جيليه من الأعشاب البحرية لتجربتها؟".

أجاب أوسيب، وهو ينظر باهتمام، إمّا إلى قصعته وإمّا إلى القدر: "لا، ليس ذلك... نعم، يصنعون الجيليه ، والآيس كريم، والمخلّل، والبسكويت أيضاً. لكن نحن في الوقت الحالي نقوم بشيء آخر، لأنّ البسكويت ليس الأهم بالنسبة للسلطة السوفييتية. إنّها بحاجة إلى اليود المذكور أعلاه لتضميد جروحها".

كان أوسيب يمزح دائماً بشكل لاذع، دون أن يبتسم نهائياً. أكدت الدعابة أن هذا الرجل لم يكن مشتتاً وضائعاً، كما قد يبدو للوهلة الأولى.

تابع في النبرة نفسها: "بالإضافة إلى ذلك، يمكنك صنع المادة اللاصقة الألجينيك، والسليلوز، وأملاح البوتاسيوم من اليود.

أوضح أرتيوم: "لكنّكم تستخلصون اليود فقط حتّى الآن؟".

أجاب أوسيب باقتضاب: " نعم "، وملأ الملعقة بالحساء، وأمسك فيها لبعض الوقت فوق القصعة، دون أن يعيرها اهتمام- " تحرق الطحالب ويغمر الرماد بالماء، وفي هذا الماء يحرّر اليود من يوديد البوتاسيوم. الأمر بسيط للغاية. لا توجد الآن إمكانية للقيام بهذا العمل على نطاق أوسع. على الرغم من أنّ لدى الرفيق إيخمانيس، خططاً ضخمة بالطبع.

تذوق أوسيب حساء الملفوف أخيراً، كان أرتيوم متأكداً من أنّه لن يلاحظ أنّه أكل، لكن كلّ شيء حدث عكس ذلك تماماً.

قال أوسيب بمهابة : "إنّه لذيذ للغاية، هل تعلمني طهيه؟".

أومأ أرتيمو برأسه بقوّة. وقد جاءه مزاج عال من مكان ما.

تابع أوسيب قائلاً، وهو يقرّب الملعقة الثانية من فمه: "يحبّ البلاشفة عموماً التخطيط لكلّ شيء، يصنّفون ويوزّعون. هذا نوع خاص من الأمراض النفسية: مجانين، ولكنّهم يتعاملون مع كلّ شيء بطريقة علمية بحتة".

نظر أرتيوم بمرح إلى الباب، وغيّر الموضوع:

سأل ببساطة حسب استطاعته، وحتّى بخفّة، من أجل ضبط إيقاع أوسيب: "هل تحدّثت مع إيخمانيس؟".

" تحدّثت بطبيعة الحال. وطلبت منه على الفور إحضار والدتي إلى هنا".

"إلى السجن؟"- أراد أرتيوم أن يمزح، لكنّه لم يفعل.

وسأل: "وماذا كان جوابه؟".

قال أوسيب بفخر: "وافق مباشرة".

" ولماذا تحتاج إلى أمك، يا أوسيب؟".

أجاب بثقة: "إنّها تشعر بالضيق من دوني، وأنا بحاجة إليها من أجل أن يجري العمل بنجاح".

سأل أرتيوم: " وكيف بدا لك إيخمانيس؟".

أجاب أوسيب بكلّ بساطة: " رئيس المعسكر، وهذا يعني أنّه نذل، وإلّا كيف أصبح في هذا الموقع؟ ".

"هكذا إذن..." - قال أرتيوم، ورفع الملعقة بشكل عمودي، كما لو كان على وشك أن يضرب أوسيب على جبهته الذكية- "ما هي الأطعمة اللذيذة التي يصنعونها من الأعشاب البحرية؟".

جرى استدعاء بوريس لوكيانوفيتش في أثناء التمرين الصباحي، إلى قسم الثقافة والتربية.

" اوصلني، يا أرتيوم؟ "- طلب باقتضاب كما لو كان شيئاً مسلّماً به.

أمر بسيط - أوصلته.

عاد بوريس لوكيانوفيتش بعد ساعة، ولكن لدقيقة فقط، وطلب من أرتيوم مراقبة نصب القضبان المتوازية في مكانها، وليس بشكل فوضوي.

جرى إحضار القضبان بسرعة.

أمر سهل، مراقبة نصبها.

أجهد أرتيوم نفسه بقية الوقت باللعب على العارضة الأفقية. هذا الجهد لا يمكن مقارنته بنقل الجذوع.

استمتع أرتيوم: "... لا أحد يراقبني، أتصرّف كما أريد، أريد أن أتعلّق، فأتعلّق، وأريد أن أجلس فأجلس، أريد أن أنظر إلى السماء فأنظر".

ومع ذلك، حتّى عندما كان يتأرجح على العارضة الأفقية، كان ينظر أكثر فأكثر إلى الطريق القادمة من ناحية الدير: هل يستعجل جنود الجيش الأحمر من فوج الحراسة لمرافقته إلى قسم المعلومات والتحقيقات، حيث ملّت غالينا الانتظار.

رأى بدلاً من جنود الجيش الأحمر، الوثيقة الذي كان يسير ببطء من العمل في الغابة، بين السجناء المتعبين مثله، تحت الحراسة، لتناول الغداء.

لم يكن من الواضح من بعيد، ما إذا كان الوثيقة ينظر إلى أرتيوم، أم أنّ الأمر لم يكن يهمّه وقتها.

بعد الغداء، هدأ حماس القسم الرياضي: كان من الصعب رفع الأثقال بمتعة والركض بنشاط حتّى وقت المساء، متناولين حصّة جافة فقط، مضافاً إليها خبز وجزر. ولكن عندما عاد بوريس لوكيانوفيتش، قرّر أرتيوم بكلّ سرور، أنّ ذلك لم يعد يشكّل صداعاً له: دع الأعلى يراقب الجميع ويحثّهم.

ظهر بوريس لوكيانوفيتش دون لاعبين جدد، ولكن بخبر طيب.

أعلن: " أيّها الأصدقاء والرفاق! من اليوم فصاعداً، بالإضافة إلى البدل النقدي، سنتناول وجبة ساخنة يومياً على الغداء!".

صرخ الطلاب بفرح، لم يستأ أرتيوم أيضاً- كان يريد أن يأكل كما في السابق طوال الوقت.

"لكن لسبب ما لم يأتوا بالوجبة إلى الآن"- رفع بوريس لوكيانوفيتش المزاج السيئ بابتسامة. وطلب: "ربّما تذهب يا أرتيوم، وتستوضح الأمر؟".

على أمل أن يكون الوثيقة في السريّة وأنّه لن يلتقيه، أسرع أرتيوم إلى الدير عبر بوابة نيكولسكي ومنها إلى المطبخ الرئيس.

سار من المدخل الرئيس، من جانب نقطة الحراسة، والوجوه القصديرية، حتّى إنّهم لم ينادوه، على الرغم من أنّه كان ممنوعاً على السجناء بالطبع ، الدخول إلى قاعات العمل في المطبخ الرئيس.

كان رئيس الطباخين يسير نحوه مرتدياً جزمة، ومريولاً قذراً أسود، يحمل فأساً، عرف أرتيوم ونظر إليه ببعض التوتر، دون أن يرمش بعينه الوحيدة مع رموشه المحترقة، وغياب أحد حاجبيه.

لم يقدّم أرتيوم نفسه مرّة أخرى، لكنّه سأل على الفور ما هو الأمر، وأين وجبة غداء القسم الرياضي الذي يستعد للأولمبياد بأمر شخصي من رئيس المعسكر، بمناسبة ذكرى الثورة؟ ربّما نرفع مذكّرة إلى فيودور إيفانوفيتش؟.

قال أرتيوم عمداً، "فيودور إيفانوفيتش" - بدا الأمر أكثر إقناعاً: كما لو كان قد جلس للتو على الطاولة نفسها معه، وجاء ليعرف أسماء ومناصب المخربين.

قال الطباخ بصوت أجشّ: " ما هذا؟ أنا أمرت!".

كانت كلماته كما لو أنّها مقطوعة بفأس، مثل قصاصات اللحم: "... ما هذا ؟ أنا مرت!"

ابتعد أرتيوم عن الشرّ، وذهب ينتظر في الشارع: كأنّه منزعج كمسؤول، وأراد أن يدخن.

جرى إرسال براميل الغداء الساخنة بعد ثلاث دقائق.

قال أرتيوم لنفسه، وهو يستعجل اللحاق بعمال المطبخ: " في المرّة القادمة، عندما يجتمع الجناة وبورتسيف ورئيس المجموعة سوروكين لضربك، سينضم إليهم الطباخ ذو العين الواحدة حاملاً المغرفة، وسيفجون رأسك أخيراً ".

كانت الساحة فارغة تقريباً- عدا الأيل ميشكا الذي كان ينتظر أحداً ما معه سكّر، وكان الكلب بليك يراقب الغزال.

لم يترك الجناة أنفسهم ينتظرون: سمع أرتيوم أصواتهم والتفت إلى الوراء، كانوا قريبين منه جداً.

كشّر الخيشوم عن أسنانه الصغيرة مثل أسنان السمكة قائلاً: "لاحظت هذا الكلب من النافذة". على ما يبدو، في الوقت الذي ذهب فيه أرتيوم إلى المطبخ، استطاع الخيشوم أن يجد الوثيقة وشافيربيكوف في السريّة الثانية عشرة. وكان يسرع معهم رابع، فهد ما، والذي كان يرغب كثيراً في أن يرى الرجل الذي سيقطعونه إلى قطع أم على الأقل يطعنونه بسكين.

صرخ أرتيوم أيّها الرفيق الحارس! الرفيق جندي الجيش الأحمر! واصفاً الجندي بـ "الرفيق"، وهو ما كان ممنوعاً وقتها - كان يجب مناداته، "أيّها المواطن" فقط! - وركض إلى بوابة الدير، وسمع وقع الأقدام وراء ظهره.

تذكّر أرتيوم أنّ: "حذاء الوثيقة بالٍ، غير مريح في الجري!".

نبح الكلب بليك وراءه، ثمّ ركض، وسرعان ما لحق بأرتيوم.

صاح أرتيوم به وهو يركض: "أنت مهلاً، لا تعض! أنت!"، لأنّ الكلب كان يندفع عند قدميه بالضبط، ويكشّر عن أسنانه. لكن الأيل ميشكا، لم يركض إلى أيّ مكان، ولكنّه كان يقفز في مكانه، ويرفع مؤخرته.

الفهد، الذي كان يركض حافي القدمين، لحق بأرتيوم عند البوابة تقريباً، ومسك بسترته، ممزقاً الكم.

سأل جندي الجيش الأحمر، غير مستوعب ما يجري: " ماذا يجري؟ قفوا جميعاً! سأطلق النار بين العينين!" - وسحب بالفعل مزلاج بندقيته ورفعها.

توقف عمال المطبخ الذين كانوا يحملون برميل الطعام فقط، في حين أنّ شافيربيكوف، والخيشوم ، والوثيقة، وصلوا إلى المحرس مباشرة، ووقفوا بالقرب من أرتيوم الآن.

كان أرتيوم يحوّل نظره من وجهٍ قذرٍ إلى آخر بسرعة.

كان بليك يتحرّك بين الأرجل، وينبح على الناس بين الحين والآخر.

قال أرتيوم، وهو يناول الجندي أمر تصريح المرور: " يجب عليّ الخروج الآن"، ودفع الفهد الذي لا زال ممسكاً بكمه، في جبهته".

سأل الجندي أرتيوم، وهو يعيد له تصريح المرور: "ولماذا كنت تصرخ؟".

لم يجب أرتيوم بشيء، وخرج من البوابة، وأخذ ورقته، ووضعها في جيبه دون أن ينظر.

على الجانب الآخر من البوابة توقّف، وتنفّس بصعوبة، والتفت نحو الجناة الذين كانوا يقفون بالقرب من المحرس.

شعر أرتيوم أنّ ظهره كان ساخناً، وأنّ مؤخرة رأسه كأنّها محترقة. لكنّه أدرك على الفور، كم كان الوضع مضحكاً: كان يقف هنا، وهم كانوا هناك - ولم يتمكنوا من الخروج، فلم يكن لديهم تصاريح مرور: رغم أنّ الوثيقة كان يذهب للعمل في الغابة برفقة رئيس المجموعة.

سمحوا بمرور عمال المطبخ مع براميل الطعام - وأسرعوا بعد أن كان قد وبخهم كبير الطباخين، نحو القسم الرياضة.

صاح أرتيوم بلطف: "خيشوم، تعال إلى هنا، سأعطيك سكّرة. هل تريد سكّرة؟" - وأخرج حقاً سكّرة من جيبه والتي كان قد اشتراها في الصباح- " امسكها! –وقذفها نحوه - "... احرص فقط على ألّا يتمزّق فمك مرّة أخرى!".

التقط الفهد السكّرة، وابتلعها على الفور دون أن يمضغها.

صاح أرتيوم : "وثيقة لا ثقة!".

تذكّرأرتيوم: أنّ أفاناسييف، تحدّث عندما كانوا يصنعون المكانس، كيف أنّ شافيربيكوف قطّع زوجته ووضع القطع في سلّة وأرسلها إلى شيماخي.

صاح أرتيوم ماطّاً الاسم: "شافيرب- ي- كوف! يقولون إنّ زوجتك أرسلت لك طرداً من شاماخي؟ أم أرسلوا لك زوجتك في طرد؟ لم أفهم! اذهب إلى مكتب البريد، واستوضح الأمر؟".

وقف الخيشوم والوثيقة، فاتحين فاهيهما، وكادا ينفجران مع الغضب- حتّى إنّ أنف الوثيقة أصبح لونه أزرق. ابتسم شافيربيكوف وزرّ عينيه، كما لو أنّ أرتيوم قد أعماه.

أمر جندي الجيش الأحمر الجناة: " بسرعة ابتعدوا من هنا "، ثمّ نظر إلى أرتيوم، وأضاف: " وأنت أذهب من هنا، أيّها المزّاح ".

انسحب الجناة، وجلسوا بالقرب من سور الدير.

"هل هذا أفضل لك يا متهوّر سولوفكي؟"- تساءل أرتيوم، مرتجفاً من السعادة، كما لو أنّ فتاة جميلة بنهدين كبيرين، وبأظافر طويلة مطليّة، حكّت ظهره ونفخت في رقبته.

أجاب من نفسه بقلق:"نعم، بالطبع !... ولكن كيف يمكنني العودة؟ هل من المعقول أن أطلب من جندي الجيش الأحمر أن يرافقني إلى غرفتي؟".

أمسك قطرة كبيرة من العرق تدحرجت على جبهته من تحت شعره وسحقها بإصبعه.

سارع بوريس لوكيانوفيتش لملاقاته- ونظراً لعدم وجود شيء يفعله، تأمّله أرتيوم بالتفصيل: فردتي بنطلون واسعتين من الأسفل، وسترة بحريّة مقلّمة، كلّه قوّة، وأكتافه منتفخة، ورقبة قوية، وأذنين صغيرتين، مثل جميع الأشخاص الأصحاء.

بدأ بوريس لوكيانوفيتش يقول، حتّى قبل بضع خطوات من وصوله: "اسمع!، أنظر إليك بإعجاب حقاً! أرى أنّهم يجلبون الغداء مسرعين! ماذا قلت لهم في المطبخ؟".

دون أن يجيب، انتظر أرتيوم حتّى يقترب بوريس لوكيانوفيتش منه، وابتسم فقط.

قال بوريس لوكيانوفيتش، وهو يقترب منه: "كنت أبحث عنك، إنّه لأمر رائع أنّني وجدتك". لم يلاحظ بعض التوتر على وجه أرتيوم، لكن لفت انتباهه شيء آخر:" كمّك ممزق... أسمع سيكون هناك اجتماع عند إيخمانيس الآن. سأقول إنّك مساعدي وسندخل معاً، أليس كذلك؟ أنت تتحدث جيداً. ستتحدث إذا دعت الحاجة. لا سيّما، وأنّ غراكوف سيكون هناك وسيستمع إلى كلّ شيء مرّة أخرى ويسجّل. لذلك هناك حاجة لكلام صحيح. أنا لا أتقن ذلك".

"وأنا لا أتقن أيضاً" - أجاب أرتيوم، ولم يكن قد هدأ بعد الذي حدث معه.

قال بوريس لوكيانوفيتش باقتناع: "أنت تتقن كلّ شيء بشكل ممتاز!-... هل يمكنك أن تصبر، دون أن تتناول الغداء الآن؟

أنا جائع أيضاً. وبعد الاجتماع ستذهب لترتاح على الفور".

كان أرتيوم يأمل أن يكون الجناة قد غادروا: لكن لا، كانوا لا يزالون جالسين هناك. نظروا إلى الأعلى متفاجئين، ووقف الفهد وحكّ بين فخذيه.

سأل جندي الجيش الأحمر أرتيوم: "ما الأمر، عدت مرّة أخرى؟".

بحث أرتيوم عن التصريح، ووجده في جيبه، ملطخ كلّه بالخردل، وعليه بقع دهنية.

قال جندي الجيش الأحمر، وهو يعيد التصريح: "يمكنك وضعه في الحساء".

تنهّد أرتيوم، وخطا وراء بوريس لوكيانوفيتش.

نهض الجناة، وتحركوا نحوهما ببطء.

صرخ فيهم بورتسيف، الذي انقض عليهم فجأة مثل زوبعة: "لماذا لستم في السريّة؟ هل جرى إلغاء مهمّة العمل؟ هل جرى الإعلان عن استراحة هنا؟ أم فتحت هناجادّة؟".

تراجع الوثيقة خطوتين إلى الوراء عند رؤية بورتسيف، أمّا شافيربيكوف فتراجع خطوة واحدة.

صاح بورتسيف على الخيشوم، من أنت؟ من أيّ سريّة ؟".

استنشق الخيشوم، وسار بسرعة نحو المستشفى، وكان وجهه متوتراً كلّه، وكأنّه كان يعدّ الأسنان في فمه.

لم يمس بورتسيف الوثيقة وشافيربيكوف، لكنّه لوّح بخنجره على الفهد:

"اذهب بعيدا أيّها الوغد!".

بعد نصف دقيقة، تفرّق الجميع، وبقي بورتسيف فقط، ومرّ أرتيوم وبوريس لوكيانوفيتش من جنبه.

كان بورتسيف ينتعل جزمة جديدة، ممتازة لامعة.

لم يلق السلام على أرتيوم.

مرّا بساحة الدير وخرجا من الجهة الأخرى- كانت إدارة المعسكر تقع في مبنى على رصيف الميناء. لم يسمح للسجناء بالمرور عبر هذه البوابات، لكن يبدو أن بوريس لوكيانوفيتش كان لديه وثيقة خاصّة.

كان مكتب إيخمانيس فسيحاً ومليئاً بالهواء. كان هناك دورق من الماء النظيف على المنضدة. لم يكن هناك صور على الجدران، خريطة محلية الصنع لجزيرة سولوفكي فقط، عليها أعلام عديدة.

أعتقد أرتيوم: "بالتأكيد أحد السجناء رسمها".

عندما دخلا، رفع إيخمانيس عينيه، ولم يقل شيئاً.

كان من الملاحظ ، في ضوء النهار الساطع، أنّ بشرته مالت إلى الاسمرار. كان شعره ممشطاً للخلف بشكل متساوٍ، وجبهته عالية عارية مع خطّ أبيض بمحاذاة الشعر تماماً- على ما يبدو، في بعض الأحيان، عند ارتفاع الحرارة كان يرتدي قبعة أو طاقية. يوجد تجعّد عميق بين الحاجبين. شفّة كبيرة مذمومة. نظرته الثابتة كانت موجهة مباشرة إلى بوريس لوكيانوفيتش.

كان هناك شيء ما فيه... بحث أرتيوم عن الكلمة الصحيحة... بدا الأمر كأنّه أجنبي! كان من المتوقع، في كلّ دقيقة أن ينتقل فجأة إلى لغته الأصلية، وليست قطّ اللغة اللاتفية أم الألمانية أم الفرنسية على الإطلاق- وإنّما أخرى، كلمات آمرة حادّة ومقرمشة، مثل الزجاج المكسور.

كان غراكوف جالساً في زاوية وحده، يدوّن ملاحظات في دفتره، ويوحي مظهره أنّه غارق في التفكير.

قال بوريس لوكيانوفيتش، محرجاً بعض الشيء، ولكن في الوقت نفسه بإصرار، كما لو كان يجبر نفسه على قول كلّ ما يراه ضرورياً "... فيدور إيفانوفيتش، أعلم أنّه يحق للفنانين الحصول على حصّة إضافية الآن، وجرى إعفاء الفنانين من العمل... لكنّنا، نحن الرياضيين، نحتاج إلى حصّة ثلاثية، على ما أعتقد. على الأقل لحين المنافسات. يعاني الكثير منهم من نقص الوزن... هذا يمكن أن يؤثر...".

أجاب إيخمانيس بصوت عالٍ وبقسوة متعمّدة، كما لو كان في ساحة عرض عسكري، على الرغم من أنّ كلّ ما كان يحدث، حسب كلّ المؤشرات، بدا ممتعاً له: "بوريس لوكيانوفيتش، هناك مشكلة واحدة فقط مع فريقك. ثلاثة وعشرون من سبعة وعشرين، محتمل أنّهم سيشتركون في المنافسات، موجودون هنا تحت بند الإرهاب".

لمس بوريس لوكيانوفيتش إطار نظارته، كما لو كان يريد خلعها، لكنّه غيّر رأيه، كما لو كان قد قرّر: ماذا لو لم أر شيئاً مهماً؟.

لاحظ أرتيوم: "كم يبدو بوريس لوكيانوفيتش صغيراً بجوار إيخمانيس.أم أنّها السلطة ؟، وماذا لو أن بوريس لوكيانوفيتش كان يجلس مكان إيخمانيس؟.. هل كنت سأرى ذلك بشكل مختلف؟ ".

كرّر إيخمانيس "إرهاب!"، ورفع قلم الرصاص إلى الأعلى، ودوّره في حركة دائرية طفيفة، كما لو كان يستعد لإلقائه في الزاوية البعيدة من المكتب، أم على غراكوف الذي لم يكن يلاحظه ببساطة.

تذكّر أرتيوم، وليس في الوقت المناسب، أنّ غالا كانت تتحدّث طوال الوقت، وقلم رصاص في يدها أيضاً.

سأل إيخمانيس:"ألا يوجد لدينا جناة آخرون؟". أرخى أصابعه قليلاً، انزلق القلم الرصاص إلى الأسفل، أمسكه إيخمانيس من طرفه، وهزّه في الهواء، كما لو كان عقرب ساعة. كان في لعبته التي ليس لها معنى شيء من الصبيانية الظريفة- "ألا يوجد لصوص؟ يوجد. ألا يوجد حرامية؟ يوجد. ألا يوجد محتالون؟ يوجد الكثير منهم! فلماذا اخترت الإرهابيين فقط؟ هل هي المادة المفضّلة لديك في قانون العقوبات؟ أم أنّك تحضّر لنا مفاجأة في ذكرى ثورة أكتوبر؟".

سعل بوريس لوكيانوفيتش ونظر حوله- خمّن أرتيوم أنّه كان يبحث عن كوب: إنّه أراد أن يشرب الماء. لكن كان هناك كوب لدى إيخمانيس فقط.

صرخ إيخمانيس باتجاه ما، وهو يضرب بكفه على الطاولة برفق: "إيفان!"، وارتجف بوريس لوكيانوفيتش وأرتيوم، وتمايل الماء قليلاً في كوب إيخمانيس: "احضر كوباً من فضلك!".

على الرغم من أنّ إيخمانيس، كان يعشق التدريبات والتشكيلات والاستعراضات العسكرية، كان يرتدي ملابس مدنية. وفي كلّ مرّة يراه أرتيوم فيها- كان يلاحظ ذلك. بينما كانت إدارة المعسكر بأكملها ترتدي الزي

العسكري، كان إيخمانيس يظهر أمام الناس إمّا في كنزة محبوكة بشكل جميل، وإمّا في سترة بحارة فقط، والآن كان يجلس وهو يلبس سترة أنيقة، كانت الأزرار الثلاثة العلوية على قميصه مفكوكة، وكانت ترى رقبة قوية- وفي الوقت نفسه كان لديه شيء شبابي، مراهق تقريباً.

وجد أرتيوم نفسه يشعر بالخجل بلا ريب: فقد كان معجباً في تلك اللحظة بإيخمانيس كإنسان.

كان يقوم بإيماءات مقنعة، ومقنعة للغاية، ووراء كلّ كلمة كان يقولها، ثقة بالنفس غير عادية وقوّة.

لو اضطر أرتيوم للمشاركة في الحرب، لكان أراد أن يكون شبيهاً بهذا الضابط.

أحضروا كوباً، أزاح إيخمانيس، بطريقة حادّة كصاحب ملك، دورق الماء من طاولته إلى طاولة المجتمعين التي كانت بجانبه مباشرة.

"كما ترى..." - بدأ بوريس لوكيانوفيتش، وهو يملأ الكوب بالماء ويشربه بحرص. كان من الواضح أنّه يواجه صعوبة في التعبير –"تحت بند "الإرهاب" غالباً ما يقع... الطلاب. فيما لو انضم طالب إلى الإرهاب، فهو، كقاعدة عامّة، في حالة بدنية جيدة. أي أنّ العديد منهم يعدّون أنفسهم...".

قال إيخمانيس بنبرة بوريس لوكيانوفيتش، ويبدو دون أيّ نفور: " نعم، إنّهم يعدّونهم"- ولكن أرتيوم شعر أنّ الرياضي يخشى أن يرفع نظره باتجاه قائد المعسكر.

صمت بوريس لوكيانوفيتش من جديد لبضع ثوان.

أنهى حديثه أخيراً: "لا يمكن قول الشيء نفسه عن العمال، ولا عن الفلاحين... ولا عن التجار ولا عن أغلب الجناة الذين تدهورت صحة الكثير منهم. أعتقد، بين المعارضين السياسيين أشخاص يمكنهم أن يكونوا بالنسبة لنا...".

ضحك إيخمانيس: "نعم، نعم، إرهابيون شباب ومعارضون سابقون". قرّر أرتيوم أخيراً إلقاء نظرة سريعة عليه، والتقت على الفور نظراتهما: كانت عيني رئيس المعسكر رماديتين، متغطرستين قليلاً وتعبتين قليلاً، لكن مع رمشين كثيفين وطويلين: كيف استطاع المحافظة عليهما إلى هذه السن، من غير الواضح. ألم يدخن نهائياً في أثناء هبوب الريح؟.

كان واضحاً من ضحكته: أنّه كان الوحيد الذي يضحك في مكتبه، ولم يكن من الضروري أن يقوم الآخرون بذلك.

كانت أسنان إيخمانيس متساوية، وأذناه قاسية، كما لو كانت منحوتة بإزميل، وكان هناك غمّازة ملحوظة على ذقنه... وكان هناك فقط ، خطٌ ما منحني ومنحدر من عظام الوجنتين، والذي لاحظه أرتيوم من جديد، الأمر الذي أفسد الانطباع عنه قليلاً. بدا رأس إيخمانيس مع عظام الوجنتين تلك، ليس كبيراً بما يكفي، بالنسبة لجسمه، وذكّر بما يشبه الصخرة البحرية التي نحتتها أمواج البحر لفترة طويلة، ثمّ بصفتها، مساوية ما كان يجب أن يكون أكثر بروزاً وأكثر حدّة.

أنهى إيخمانيس حديثه: "... ستكون رفقة رائعة "، وسأل على الفور أرتيوم، وهو يحوّل نظره إليه لأوّل مرّة: " لماذا أنت في السجن يا أرتيوم؟".

كاد أرتيوم يختنق عندما سمع اسمه. لقد تذكّر بوضوح، أنّ بوريس لوكيانوفيتش قدّمه ببساطة كمساعد له، دون أن يذكر اسمه، وسيكون من الغباء تعريف رئيس المعسكر بسجين عادي.

قد تعني معرفة إيخمانيس، أيّ شيء يخطر على البال- لكن من الواضح أنّ أرتيوم شعر بالفخر الذي يصم الآذان: إنهم يعرفونه! لقد جرى تمييزه!.

كرّر أرتيوم السؤال: "أنا؟"، الأمر الذي لم يكن من عادته على الإطلاق.

أومأ إيخمانيس برأسه لفترة وجيزة وانتظر: نعم، أنت.

قال أرتيوم: " بسبب جريمة قتل".

سأل إيخمانيس بسرعة: "أسريّة ؟".

أومأ أرتيوم برأسه موافقاً.

سأل إيخمانيس بنفس السرعة، وبشكل عادي: "من قتلت؟".

أجاب أرتيوم ، وهو يفقد صوته لسبب ما: "أبي".

استدار إيخمانيس نحو بوريس لوكيانوفيتش: "كما ترى!، هناك عاديون أيضاً!
نظر بوريس لوكيانوفيتش إلى أرتيوم، ولم يقل شيئاً، فقط شرب ماءً مرّة أخرى.

لم يرفع غراكوف عينيه عن دفتر الملاحظات، ويبدو أنّه لم يكن يكتب، بل كان يرسم أم يخربش شيئاً ما.

فكّر أرتيوم فجأة في كيفية تحويل انتباه إيخمانيس وبوريس لوكيانوفيتش إلى شيء آخر: "لدي اقتراح، ربّما سيكون من المنطقي إشراك قسم المعلومات للبحث في الأضابير؟ قد تكون هناك معلومات عن الأشخاص الذين مارسوا الرياضة، لكن لسبب أم لآخر لم يعلنوا عن رغبتهم في المشاركة في المنافسات. يمكن الطلب منهم بشكل إفرادي وبإصرار". لكن يجب معرفة من بالتحديد ".

صاح إيخمانيس: "إيفان!"، وظهر، على الفور، وجه السكرتير على باب المكتب: "أرسل المراسل إلى قسم المعلومات والتحقيقات، دعه يستدع غالينا".

قال إيخمانيس بكلّ بساطة: "الفكرة بديهية، لكنّها لم تخطر ببالي. شكراً لك، يا أرتيوم "- لم يكد يحمر أرتيوم من الشعور بالسعادة، لكن رئيس المعسكر كان قد توجّه بالفعل إلى بوريس لوكيانوفيتش، وقال: " وهكذا سنؤمّن الحصص. وسنحدّد من سيشارك في المنافسات. والآن تحدّث عن العمل التنظيمي العام. أستمع بانتباه إليك...".

تحدّث بوريس لوكيانوفيتش بالتفصيل: قبل كلّ فقرة دلالية، كان يتنشق الهواء، كما لو كان عليه أن يسبح في كلّ مرّة إلى التي بعدها.

لم يقاطعه إيخمانيس بعد ذلك.

فكّر أرتيوم ببعض الشك، فيما إذا كانت مبادرته ستتطلب لقاء آخر منفصلاً مع غالينا، التي لا يريد رؤيتها على الإطلاق.

لم تأت هي حتّى الآن.

كان عليه الدخول في الحديث مرّة أخرى، عندما بدؤوا الحديث عن العبء التربوي للمسابقات، وهنا اتخذ غراكوف وضعية جديدة، وقلّب رسوماته وخربشاته مصدراً ضوضاء، وفتح ورقة بيضاء.

كان أرتيوم قد ابتكر بالفعل شعارات عدّ طنانة للمنافسات، وعرضها عليهم على الفور للاختيار. لم يضع روحه ولا قلبه في ذلك، باعتبار هذا النوع من النشاط كان سهلاً بالنسبة له. لكنّ إيخمانيس أخذ هذه الاقتراحات المقدّمة على محمل الجد، وكتب لنفسه كلّ شعار على حدة، مختصراً كلماتٍ وجملاً كاملة، ممّا أظهر مهارات الطالب الذي كان يذاكر المحاضرات بجديّة.

لاحظ أرتيوم أنّ غراكوف كتب بشكل أكثر اكتمالاً، ولم يلحق يسجل كلّ شيء، عبثاً معتمداً على ذاكرته.

في نهاية الاجتماع، ودون أيّ حماس، لخّص إيخمانيس الصورة العامّة، وحدّد بعض الموضوعات التي يجب أن يفكّر فيها بوريس لوكيانوفيتش.

بيّنت كلماته أنّه شخص متوازن ومتيقظ. عندما نهض الجميع، سأل إيخمانيس مرّة أخرى:

"أنت، يا أرتيوم، مسؤول عن الانضباط العام، هل ستشارك أنت في المنافسات أيضاً ؟".

أجاب أرتيوم بهدوء، بعد أن اعتاد الجو بالفعل: "نعم بالضبط ".

تطلّع إليه إيخمانيس بنظرة فاحصة، وخمّن أرتيوم على الفور، عن ماذا يريد أن يسأله رئيس المعسكر.

قال أرتيوم مبتسماً قليلاً: "الملاكمة".

أومأ إيخمانيس برأسه.

وقال: "يبدو أنّ غالينا مشغولة بشيء ما. سيأخذونك إليها الآن، وهي في غضون ذلك، ستعدّ المعلومات اللازمة عن الكوادر الرياضية.

أراد أرتيوم أن يقول: " أنا أعرف غالينا!"، لكنّه غيّر رأيه مباشرة.

جلس في الممر في انتظار أن ينادوا عليهم، كاهن، وشاب يوحي مظهره أنّه من الفهود، ومعارض للثورة حسب هيئته ونظرته.

تفحّص الثلاثة بوريس لوكيانوفيتش وأرتيوم وغراكوف بدقة.

لم يكن أرتيوم، قادراً على ضبط نفسه، كان وجهه يشير إلى أنّه على دراية بالمواضيع غير المعروفة للسجناء العاديين.

أمّا بخصوص بوريس لوكيانوفيتش، فإنّه لم يلاحظ الزوار الآخرين على الإطلاق، لكنّه كان قلقاً ببساطة.

اقترح غراكوف على أرتيوم في الشارع: "هناك لقاء اليوم عند ميزيرنيتسكي، هل ستذهب؟ إنّه تحدّث عنك بشكل جيد".

لقد كانا ينظرون نحو البحر، حيث كان نورس يطير فوق الماء، ينخفض أحياناً وأحياناً أخرى يرتفع، كما لو كان يتأرجح في أرجوحة غير مرئية.

اعتبر أرتيوم حديث غراكوف المحترم معه، دليلاً آخر على وضعه الجديد.

أجاب أرتيوم مرحّباً: "نعم؟ في أيّ وقت؟".

فجأة غير رأيه بسبب خوفه من الجناة - من الذي يعتدي عليه، بعد أن ناداه إيخمانيس باسمه؟ يستطيع أرتيوم أن يسحقهم جميعاً.

طمأن أرتيوم نفسه: "أمّا بشأن معرفة بوريس لوكيانوفيتش، سبب وجود غوريايونوف في السجن، فما المشكلة في من ومن أجل ماذا يجلس هنا ".

على كلّ حال فقد افترقا بشكل طبيعي. قال بوريس لوكيانوفيتش الذي لم يكن واثقاً جداً، حسب ما يوحي مظهره الخارجي، ضمن ما قاله : " كانت فكرتك جيدة فيما يخصّ البحث عن كوادر جديدة".

قرّر أرتيوم، نعم، حسناً. الشيء الرئيس أنّ إيخمانيس أعجب بها.

تساءل مرّة أخرى: "أمّا بشان أنّهم سيأخذوك إلى غالينا مرّة أخرى؟ هل هذا يعني أنّك أحمق كامل مع كلّ اقتراحاتك؟".

أجاب أرتيوم على نفسه ببعض التحدي:"ولماذا تجعلني مخبراً، إذا كنت أعمل بالفعل حسب التعليمات الخاصّة لرئيس المعسكر؟".

هدأ من روعه بشكل عام : " يبدو أنّ الوضع ليس سيئاً - بل إنّه جيد".

سار باتجاه البناء الذي يعيش فيه، واثقاً وقوياً. كان نورس يحوم فوق رأسه بعناد، وقفز إلى أعلى وكاد يصيب ذيله بكفه.

بقي سؤال واحد: هل يأخذ معه أوسيب.

تساءل أرتيوم : "هل أحتاج إلى هذا العصابي أم لا؟ هل من الجيد إذا كان كلّ واحد سيأتي مع أصدقائه؟..".

قرّر بتعقل، ألّا يتذكّر هو كيف دعاه فاسيلي بيتروفيتش المرّة الماضية لزيارة ميزيرنيتسكي.

"علاوة على ذلك، تحدث بشكل سيئ، وبغباء عن إيخمانيس، لم يفهم أيّ شيء عنه "- فكّر أرتيوم، قاصداً أوسيب، وهو يحاول البحث عن سبب وجيه للذهاب بمفرده. على الرغم من أنّه لا علاقة لإيخمانيس هنا. فلن تذهب إلى إيخمانيس لحضور سهرة، ساخراً من نفسه بهدوء.

لقد دعا أوسيب بالطبع.

عاد أوسيب من العمل منزعجاً كالعادة: علم أرتيوم مسبقاً أنّ أوسيب سيبدأ الآن الشتم لعدم وجود الأداة اللازمة، أم بسبب قيود المخيم الغبية، أم بسبب وقاحة الإدارة، لذلك قطع كلّ شيء مباشرة:

أعلن رسمياً، وهو يقضم جزرة، إذ لم يكن لديه الوقت لتناول الغداء اليوم: " أوسيب، لقد تمّت دعوتنا كضيوف!".

زرّ أوسيب عينيه وهو ينظر إلى أرتيوم لبعض الوقت. ثمّ أجاب:

"هل تعتقد أنّ هذا مناسب؟.. على الأرجح لا أريد الذهاب إلى أيّ مكان".

قال أرتيوم بثقة: "لنذهب... سوف يطعموننا بشكل ممتاز هناك... ونحن سنأخذ معنا شيئاً ما" - بهذه الكلمات أخرج حصّته الغذائية الجافة من تحت الأريكة.

نظر أوسيب إلى الحصّة الجافة، كما لو أن شيئاً جديداً وغير عادي يمكن العثور عليه هناك.

... كان يجلس في غرفة ميزيرنيتسكي، كاتب المقالات الساخرة غراكوف، وفاسيلي بيتروفيتش: غراكوف على الأريكة، وفاسيلي بيتروفيتش بجوار النافذة على كرسي، والمضيف نفسه كان يتكلّم أمامهم".

لم يكد أرتيوم يمنع نفسه من الضحك مثل طفل، لقد كان سعيداً للغاية لرؤية رفيقه القديم. ولمعت عينا فاسيلي بيتروفيتش: مثلما يحدث عندما يجري النفخ في الفحم.

كان مظهر فاسيلي بيتروفيتش بالكامل يقول: "آه، يا أرتيوم، عزيزي أرتيوم".

"كانت هناك إمبراطوريّة مزدهرة "

- جادل ميزيرنيتسكي، وهو يلوّح بذراعيه، وكانت أظافره لا تزال غير مشذبة وذات إطار أسود- "وها هنا سولوفكي. ويعتقد الجميع أنّ البلاشفة هم الذين أفسدوا كلّ شيء. لقد قلبوا معطف فرو هذه الإمبراطورية بالمقلوب! حيث القمل، وكلّ أنواع الصئبان، وبق الفراش. كان يوجد كلّ شيء هناك! أمّا الآن فيلبسون المعطف بالعكس البطانة من الأعلى! هذه هي سولوفكي!"- نظر غراكوف إلى الطاولة، وهو يستمع إلى ميزيرنيتسكي، وكان حاجباه يرتجفان قليلاً كما لو كان لديه رعشة.

نظر أوسيب حوله لدقيقة، ثمّ ركّز انتباهه: لقد جرى وضع أنواعٍ مختلفة من الأطعمة على الطاولة.

وقف فاسيلي بيتروفيتش، داعياً أرتيوم بصمت ليجلس مكانه، وكان مظهره يوحي كما لو أنّه هو نفسه كان جالساً هناك منذ وقت طويل، وكان قد سئم بالفعل من الراحة، بينما أرتيوم، المتعب من الطريق، يحتاج بالتأكيد للجلوس.

ترك كل ذلك، تأثيره في أرتيوم بالطبع. وضع السمكة المغلفة بالورق على الطاولة، واحتضن فاسيلي بيتروفيتش بحرارة.

سأل ميزيرنيتسكي بشكل جدي، مع سخرية لا تكاد تلحظ:" ألم ير بعضكما بعضاً في السرية؟ ".

أجاب أرتيوم: " جرى نقلي... هذا صديقي أوسيب، عالم".

قال ميزيرنيتسكي وهو يمدّ يده لأوسيب: "... يسير القط العالم المربوط في سلسلة نهاراً وليلاً في دائرة...". مدّ أوسيب يده ببعض الاستياء.

قال فاسيلي بيتروفيتش بهدوء: " لقد أحضرت لك أغراضك، يا أرتيوم. منذ مدّة لم تأت. على كلّ حال، أنت تفعل الشيء الصحيح".

شعر أرتيوم أنّ هناك رائحة تفوح من فاسيلي بيتروفيتش. كانت الرائحة كريهة، لكنّها مألوفة بشكل غريب.

خمّن أرتيوم: "نعم، هذه رائحة الثكنة! سريتي الثانية عشرة!. متى استطعت أن أنساها؟".

وحتّى بطريقة ما أصبح الأمر عادياً، وأكثر راحة: "... نعم، رائحة عادية!.." - حتّى إنّ أرتيوم لم يفكّر بالأمر، بل أمر نفسه على الأغلب. أمر وأطاع.

واصل ميزيرنيتسكي حديثه نفسه، ووضع الطعام الذي أحضره الضيوف في أماكن مختلفة على الطاولة: هذا يجب تقطيعه، وهذا يجب تنظيفه، هذا من أجل

السلطة، وذاك في وقت لاحق: "... كانوا يكتشفون أيّ شعب هو، ربّما هو كذلك؟ربّما هو غير ذلك ؟ وجرى إحضارهم أخيراً ليروا أيّ شعب هو. لقد رأوا ! رأوا الآن فقط - لكن في الظلام! رأوا- في الظلام! يرون الظلام ! ويحاولون الآن وصفه بطريقة مناسبة: الشعب، هو كما تعلمون، إمّا جاهل وإمّا صامت. نعم، جاهل حتّى مخيف! حقاً، جاهل، ومخيف ورائحته خانقة إلى حدٍّ ما!، وإضافة إلى ذلك شائك! رائحته كريهة وشائك!. وهذا المعطف مقلوب من الداخل إلى الخارج! كانوا يرتدون معطف الفرو هذا على أنفسهم، ولم يكونوا يعرفون ما هي الرائحة التي كانت هناك في الأكمام، وتحت الإبط!".

سأل أوسيب مشيراً بإصبعه: "ما هذا؟".

توقّف ميزيرنيتسكي عن الحديث وأجاب: "هذا لحم فقمة ". وبالمناسبة، لم ينزعج على الإطلاق من أنّه جرت مقاطعته، وسأل أرتيوم على الفور: "إلى أين جرى نقلك ؟".

قال أرتيوم مبتسماً: "إلى السريّة الثانية".

سأل ميزيرنيتسكي: "وماذا تفعل الآن؟".

أجاب أرتيوم: " أبتكر شعارات"، واستمر في الابتسام.

زمّ ميزيرنيتسكي شفتيه بطريقة غريبة، وأومأ برأسه: بما معناه ليس سيئاً.

وسأل: " أسهل من نقل الجذوع؟ ".

أجاب أرتيوم بنفس الجدية: "أسهل إلى حدٍّ ما".

قال فاسيلي بيتروفيتش بابتسامة: " أنت ميزيرنيتسكي تقول: نضجت في سولوفكي. في رأيي، كان من الممكن رؤية وفهم الشعب في الحرب الأهلية؟ أليس ذلك؟".

"لا، لا تقول ذلك "- أجاب ميزيرنيتسكي، صارفاً انتباهه على الفور عن أرتيوم، وبدا ذلك لأرتيوم لطيفاً ورائعاً: كان الجميع يتحدّث مع الجميع في

الوقت نفسه- "أوّلاً، في أثنا الحرب كان هناك ظروف أخرى، كانت ظروف الحياة مختلفة. ثانياً، حتّى في أثناء الحرب، إذ كان هناك ما يكفي من جميع أنواع الرعاع، لا يمكن العثور على تجمّع متنوّع كهذا كما في سولوفكي، ولا سيّما أنّ بعض أنواع البشر لم تكن موجودة حينئذٍ على الإطلاق. نعم، لقد عرفوا جزئياً الفلاح والعامل، والقوزاقي والأوسيتيني والكاهن واليتيم، وآخرين. لكن في الحرب، الأمر الغريب، أنّ الناس دائماً ما تظهر بشكل أفضل بقليل ممّا هم عليه: يجري قتلهم بشكل متواصل، وهذا يؤثر كثيراً- كما أتذكّر كان يجري قتلنا أكثر مما كنا نحن نقتل، ولم أنس إبداء الاستياء بهذا الشأن. ربّما لأنّنا لم نعرف أولئك الذين قتلناهم على الإطلاق، وأحياناً لم نكن نرى عن قرب موتهم، لكن أولئك الذين قتلوا منّا، عرفناهم عن كثب، ورأينا نهاية كلّ روح".

جاء مويسي سولومونوفيتش، الذي لم يكن يتوقع أرتيوم مجيئه على الإطلاق، وأشار بيديه وعينيه للجميع بشكل ساحر، بمعنى: اجلسوا، اجلسوا، اجلسوا، سأكون غير ملاحظ تماماً.

أومأ له ميزيرنيتسكي برأسه، كشخص يعرفه، وبدأ في تقطيع لحم الفقمة ببراعة.

حتّى إنّ غراكوف نهض لرؤية ذلك.

انتبه أرتيوم إلى خديه الذين بدوا دائماً، كأنّهما مسترخيان، كخدي النائم.

وقف مويسي سولومونوفيتش، بجانب الباب، يلعق شفتيه، كما لو كان يستعد للغناء، ويكافح ضد هذه الرغبة.

واصل ميزيرنيتسكي: أقول هنا سجن... والناس يظهرون الجوانب الأخرى. نادراً ما يقتل بعضنا بعضاً هنا، لكنّنا نحفّ ونحفّ ونحفّ بكلّ جوانبنا، غير قادرين على الابتعاد بعضنا عن بعضٍ، ونرى فجأة الجوهر. يبدو الأمر كما لو أنّه جرى وضعنا في تراموای ممتلئ، وقد أصيب بالجنون وسار بنا لعام كامل أم لثلاثة. ونضطر لا إرادياً، أن يعتاد بعضنا بعضاً... هنا تعرّفنا عن

قرب، على أعداء الأمس، وحتّى بدأنا نتشارك الخبز معهم. هنا تركنا شبه عراة- معظمنا ليس لديه ألقاب، ولا أوسمة، ولا شارات، أحكام فقط. هنا تعرّفنا على التاجر السوفييتي، والمشرّد السوفييتي - لم تكن هذه الأنواع من البشر، معروفة لي شخصياً حتّى الآن. رأيت هنا حراس المعسكرات وسرايا المرافقة- وهذا عيّنة مثالية للشعب العامل الذي ترك وألم في قلبه لفترة من الوقت، المحراث وأدوات الخراطة".

حوّل غراكوف نظره، عند سماع هذه الكلمات، بسرعة من لحم الفقمة إلى ميزيرنيتسكي للحظة.

فكّر أرتيوم بعيداً عمّا يجري: "... عيون سريعة للغاية، مع وجود مثل هذه الخدود البطيئة...".

كان أوسيب، على العكس من ذلك، يستمع باهتمام الآن إلى ميزيرنيتسكي، ناسياً لحم الفقمة.

قال مويسي سولومونوفيتش، بصوته الجميل والعميق: "ألا تعتقد أنّ هذا ليس هو الشعب، بقدر ما العفن الذي عليه؟ هل يمكننا الحكم على مذاق الجبن من العفن الذي عليه ؟".

قال ميزيرنيتسكي:" يوجد هناك نوع من الجبن مع عفن".

قال مويسي سولومونوفيتش: "أخشى أن تعدّ السلطة السوفييتية نوعاً مختلفاً من الجبن، إذ لا وجود للعفن... حليب فقط! شعب جديد- حليب وقشدة فقط. دون أيّ عفن".

نظر فاسيلي بيتروفيتش باهتمام إلى مويسي سولومونوفيتش. كان هناك شيء ما في نظرته... ليس جيداً.

بدأ مويسي سولومونوفيتش، بعد أن طلب الإذن، بمساعدة ميزيرنيتسكي في الطهي وتجهيز الطاولة، وفعل ذلك ببراعة ومهارة.

سأل غراكوف أوسيب، كيف تجري لأمور في دراسة الأعشاب البحرية: أصبح من الواضح أنّهما التقيا سابقا، وتحدثا حول هذا الموضوع.

وبّخ فاسيلي بيتروفيتش أرتيوم ، بصوت منخفض، ولكن مسموع، رغم الضجيج العام: "... لن تعيش بهذا الشكل حتّى انتهاء فترة حكمك. إنّهم يريدون قتلك بالتأكيد. لقد ذهب عبثك بعيداً. حتّى إنّني لا أعرف كيف أساعدك".

قال أرتيوم ، وحتّى إنّه نطح جبهة رفيقه الحكيمة جداً، الأمر الذي لم يسمح لنفسه به حتّى الآن: " فاسيلي بيتروفيتش! لا تفسد مزاجي التموزي الأخضر! فلن يحدث لي أيّ شيء...".

نظر فاسيلي بيتروفيتش باهتمام مباشرة في عيني أرتيوم، وتنهّد فقط.

بحث أرتيوم في الكيس الذي أحضروه له: عن الشيء الذي كان يخشى فقده، وهو الوسادة الصغيرة التي أرسلتها له والدته من البيت- لسبب ما كانت عزيزة عليه: حتّى إنّه لم يكن يضعها تحت رأسه، ولكن كان يضعها تحت قلبه وينام عليها هكذا، وحتّى إنّه لم يفعل ذلك دائماً. كانت الوسادة في الغطاء المرقّط مكانها، ولكن كانت تفوح منها رائحة المهجع أيضاً.

في هذه الأثناء، غنّى مويسي سولومونوفيتش دون أن يلاحظ ، بهدوء:

"... أصبحت مانيا تشعر بالملل: أريد، أريد ، فضاءً... وعربة فاخرة... وتدخل الفناء بأناقة...".

فرك ميزيرنيتسكي يديه بشدة، ناظراً بإمعان إلى الطاولة.

واصل مويسي سولومونوفيتش الغناء، بصوت أخن جميل: "آه، أصبح كلّ شيء مملّاً بالنسبة إلى مانيا: الفستان خفيف مثل الزغب، سئمت مانيا من الصور الإيطالية فجأة".

لقد غنّى مويسي سولومونوفيتش هذه الأغنية كما لو أنّ الفاسقات والعاهرات من جميع أنحاء روسيا طلبن منه: تحدّث عنّا، أيّها العم، أشفق علينا.

شعر العم بالأسف عليهن لبعض الوقت، وبعد ذلك، بدأ بشكل غير محسوس، يغنّي شيئاً مختلفاً تماماً وغير متوقّع.

عندما صادف مويسي سولومونوفيتش أغنية روسية، بدا كأنّ الفلاحين الصامتين يقفون وراء أكتافه - جيش ممدود إلى الأفق تقريباً. أصبح الصوت هائلاً وعالياً، لدرجة أنّه يمكن في فضائه رؤية شعاعاً من الشمس رقيقاً، وطائر سنونو يقطع هذا الشعاع.

عندما يكون هناك أغاني رومنسية، كانت تظهر ملامح أرستقراطية لدى مويسي سولومونوفيتش، وإذا نظرت إليه عن كثب، يمكن رؤية شارب أنيق فوق شفته، ويغيب في وقت آخر.

شيء واحد فقط كان يوحّد أداء كلّ هذه الأغاني- أم بالأحرى، من كلّ أغنية مقطعاً، أم حتّى أقل- كانت دائماً تسمع نوتة، بعض المقاطع منها منخفضة جداً أحياناً، وساحرة وجانبية أحياناً أخرى: بغض النظر عمّا يغنّي مويسي سولومونوفيتش، كان يعيش ليس داخل الأغنية، بل خارجها.

قال فاسيلي بيتروفيتش لأرتيوم: "لقد جرى نقل مغنينا. الآن هو في القسم التعاوني".

بالمناسبة، لقد أحضر مويسي سولومونوفيتش معه، اثنتي عشرة فطيرة من الملفوف، والعدد نفسه من البيض.

لم تكن الطاولة غنيّة جداً بالطعام إلى هذه الدرجة، ولكنّها كانت متنوعة ومليئة وعامرة أكثر من المعتاد.

أعلن ميزيرنيتسكي: "إنّ تناول كلّ هذا الطعام في الوقت نفسه، ليس علامة على حسن سلوك الإنسان ذو التربية الحسنة، ولكن إذا كان مع الشاي، فهذا أمر آخر. عندها يصبح مزيج السمك وفطائر الملفوف ولحم الفقمة والتوت البري والجزر مناسباً تماماً. لذلك، يا غراكوف، اذهب واحضر السماور - إنّه يغلي على الموقد في الممر.

سأل أوسيب ميزيرنيتسكي: "وماذا، هل لديك منبر؟.

أجاب ميزيرنيتسكي: "إنّه ليس منبراً بالضبط، إنّها منضدة! جرى تكييفها!".

ضحك الجميع.

بدا أن السماور قد احتل بشكل كامل المساحة المتبقية في الغرفة، ولكن عندما ظهر، "متناغماً مع المنبر"، كما اعتقد أرتيوم، ظهر الكاهن إيوان، وهو لا يزال يعرج كما في السابق، تراصّ الجميع عن طيب خاطر، أكثر.

قال الكاهن: " وها أنا... حلويات "، باحثاً عن مكان لوضع الحلوى.

قال ميزيرنيتسكي: "احتفظ بالحلويات معك الآن. سنطلب من الضيوف تذوّق لحم الفقمة، ويمكن وضعها... في المكان الذي سيفرغ...".

رسم الكاهن إيوان وفاسيلي بيتروفيتش فقط، علامة الصليب قبل تناول الطعام، ولم يلحظ أرتيوم أحداً آخر يفعل ذلك.

تبيّن أنّ لحم الفقمة على الرغم من رائحته الساحرة المدخّنة والمالحة، ليس له طعم كالليف. لكن تبيّن أنّه فيما لو جرى أكله مع فطائر الملفوف، وشرب الشاي الساخن وراءه، لا بأس به تماماً.

كان الجميع يمضغون، وكانت هناك دموع من التوتر والتأثر في عيون الجميع.

قال فاسيلي بيتروفيتش الذي سقطت منه دمعة، وهو ينتهي من أكل لحم الفقمة: "مدّة حكمك يا ميزيرنيتسكي على وشك الانتهاء".

"لا تقل ذلك، فاسيلي بتروفيتش" - أجاب ميزيرنيتسكي، كما لو كان ذلك في غير محلّه، ومن ثمّ فأنّ الأمر مثير للسخرية.

سأل غراكوف: "وإلى أين ستذهب، إلى شبه جزيرة القرم مرّة أخرى؟".

نظر ميزيرنيتسكي بروح الدعابة الحادة إلى غراكوف، وفي الوقت نفسه لم يحرم نفسه من فطيرة الملفوف. وقد أجاب وفمه ممتلئ:

"حسناً، إلى شبه جزيرة القرم، لدي زوجة، بزواج مدني هناك... من هناك إلى تركيا، ومن تركيا إلى باريس، ومن هناك إلى موسكو، ومرّة أخرى إلى سولوفكي... لذا سأكون في دائرة"- وأبتلع كلّ ذلك مع الشاي.

ضحك مويسي سولومونوفيتش بصمت، من كلمات ميزيرنيتسكي، كما وجدها أرتيوم مضحكة أيضاً. لكنّ فاسيلي بيتروفيتش لم يبتسم على الإطلاق.

سأل الكاهن إيوان: " ومع ذلك إلى أين أنت ذاهب يا عزيزي؟".

أجاب ميزيرنيتسكي بهدوء: " بالطبع إلى موسكو، إلى أين يمكن أيضاً؟".

قال الكاهن إيوان: "إلى أيّ موسكو، أهرب إلى القرية، وإلّا سيمسكون بك من ياقتك مرّة أخرى، ويضعونك في الظرف"- حتّى إنّه رسم بيده كيف سيمسكون بميزيرنيتسكي من ياقته. وهنا ضحك الجميع، حتّى أوسيب الذي لم يكن الضحك من طباعه بشكل عام: جاءت الكلمات من فم الأسقف، غير متوقعة نهائياً ومن ثمّ كانت أكثر تأثيراً.

سأل أرتيوم الكاهن إيوان بعد دقيقة: " هل شفيت من مرضك أيّها الأب ؟".

كان الجميع قد أكلوا وشبعوا. تبيّن أن شهية مويسي سولومونوفيتش وأوسيب، مفتوحة أكثر من الجميع. كان أوسيب قليل الكلام اليوم، كان، على ما يبدو، يفضل محاوراً يقظاً، على محاورين عدّة يصخبون في وقت واحد.

أجاب الكاهن: "لا يا عزيزتي، لقد خرج زينوفي من المستشفى. أمّا أنا فقد سمحوا لي بالتمشي في الخارج فقط، لتحريك ركبتي. وها قد أتيت إليكم بدعوة من فاسيلي بيتروفيتش"- وأومأ برأسه لفاسيلي بيتروفيتش.

فتح الباب، وكان على أرتيوم أن يتفاجأ مرّة أخرى- هذه المرّة جاء بورتسيف.

قال أرتيوم لنفسه، وهو ينظر بهدوء إلى بورتسيف: " من ناحية أخرى، كان هنا سابقاً- لماذا يجب ألّا يأتي. لا أحد هنا على علم بمشاكلك معه."

قاس بورتسيف جميع الضيوف بنظرة في الحال، وبهذه الطريقة الخاصّة التي تجعل من غير الممكن أن تلتقي نظراته نظرات شخص معيّن.

قال: "العدد لديكم هنا... مكتمل ".

لم يكن هناك مكان لبورتسيف حقاً، لكن يبدو أنّ هذا لم يضايق ميزيرنيتسكي على الإطلاق.

حاول الكاهن إيوان النهوض، أمّا مويسي سولومونوفيتش فحاول أن يبتعد عن الطاولة كلياً، وحقيقة أخذ قطعتين من الحلوى، لكن ميزيرنيتسكي وقف أمام بورتسيف بطريقة، توقف أيّ حركة خلف ظهره.

قال ميزيرنيتسكي: " لم تأت إلى هنا منذ مدّة طويلة، يا أخي". شعر أرتيوم على الفور أنّ طريقة كلامه فيها نوع من الحدّة تقريباً، كما لو كان مخموراً من الشاي- " هل أنت مشغول بالعمل؟".

نظر بورتسيف مباشرة إلى ميزيرنيتسكي، ولم يجب بشيء.

قال ميزيرنيتسكي: "يقولون إنّ لديك منصباً جديداً الآن. وكما أعتقد، أتيت في زيارة، حتّى أشاركك فرحتك".

أجاب بورتسيف بهدوء: "عرض عليّ الانتقال إلى قسم المعلومات والتحقيقات".

لقد تصرّف بوقار.

قال ميزيرنيتسكي: " إنّك تترفع بسرعة- قريباً ستحل محلّ إيخمانيس، مع هذه السرعة في الترقي...".

نظر بورتسيف مرّة أخرى إلى رفيقه السابق الآن، وأجاب:

"أنا لست مهرّجاً يا ميزيرنيتسكي".

فقط عندما غادر بورتسيف، خمّن أرتيوم حول ماذا كان يدور هذا الحوار.

لقد وصف موظف الإدارة بورتسيف، عازف الفرقة النحاسية ميزيرنيتسكي بالمهرج.

قال بوريس لوكيانوفيتش لأرتيوم: " دعني أفعل ذلك بنفسي".

خلع أرتيوم بكلّ سرور كفوفه التي على شكل قفازات، حيث كان من المقرّر أن تجلب القفازات الحقيقية، كما وعد إيخمانيس بالأمس، على أقرب باخرة من قادمة من كيم.

قال بوريس لوكيانوفيتش: "بطل أوديسا"(١)، وأومأ برأسه، إلى المرشح الجديد الذي جرى إحضاره إلى قسم الرياضة تحت الحراسة.

لم يجب أرتيوم بشيء، حتّى لا يظهر مخاوفه الحزينة من خلال كلماته. من مظهر بوريس لوكيانوفيتش الحائر، كان من الواضح أنّ مدرسة أوديسا لم تكن مزحة.

كان واضحاً من الجبين والأنف والكتفين والذراعين، وكلّ شيء فيه، أنّ هذا الشاب ملاكم بارع. وعندما خلع سترته المتسخة، أصبح الأمر غير سار تماماً: كانت عضلاته تشبه تلك القمصان المبتلة التي جرى عصرها مرّات عشر، والتي كان أرتيوم يعصرها مع والدته في وقت ما.

بالإضافة إلى ذلك، كان الشاب غاضباً لأنّه جرى سحبه من السريّة. لم تكن لديه رغبة في التنافس مع أيّ شخص. لكنّه لا يبدو أنّه يريد الاستسلام أيضاً.

نظر إلى بوريس لوكيانوفيتش بنفور. لم ينظر إلى أرتيوم على الإطلاق.

بدأ القتال سريعاً لدرجة أنه بدا كأنّه على وشك الانتهاء.

بوريس لوكيانوفيتش الذي كان حتّى الآن، كأنّه مزيج مثالي من السرعة والقوة بين جميع الرياضيين، بدا الآن بديناً وبطيئاً ومرتبكاً.

كان بطل أوديسا يضرب على الفور من جميع الجهات، كما لو كان لديه ست أذرع، وتنازع كلٌّ منها على الحق في أن يكون الأسرع والأكثر حدّة.

---

(١) أوديسا: مدينة في جمهورية أوكرانيا تقع على ساحل البحر الأسود.

بدأ بوريس لوكيانوفيتش بعد دقيقة، لدهشة أرتيوم، ينزعج قليلاً، لكنّه لم يكن قادراً على فعل أيّ شيء: كان يكفي أنّه لم يسقط، على الرغم من أنّ إحدى عينيه كانت متورمتين بالفعل، وأذنه تحترق كأنّها مقليّة.

بشكل عام، لم يمنعه شيء من القول: شكراً لك يا عزيزي، نحن نأخذك، لكن يبدو أنّ بوريس لوكيانوفيتش فقد عقله قليلاً بسبب الضربات المتكررة على أسنانه.

كان البطل يتنفس من أنفه، وكانت أنفاسه غاضبة وعصبية ومتشوقة لإذلال الخصم.

قال بازدراء: "ألا توجد حبال هنا. ألن تلتزم، على الأقل بالمربع النظري ؟ أنا لست عدّاء للحاق بك".

بعد أن شعر بوريس لوكيانوفيتش بالإهانة الشديدة من هذه الكلمات، اندفع نحو البطل وفي لحظة استلقى مهزوماً، وفتح ذراعيه ورجليه على مصراعيهما.

جلس أرتيوم بجانبه، وربت على خده، وقال الحمد لله، بدأ لوكيانوفيتش في استعادة وعيه، مدركاً تدريجياً معنى الأشياء والأصوات والألوان، وسبب وجود أرتيوم بقربه.

جلس بعد دقيقة، وهو يضغط على صدغيه بقبضتي يديه.

خلع البطل، القفازات مع الكفوف وألقى بهما باشمئزاز غير عادي، مباشرة على الأرض، وقف وظهره إلى بوريس لوكيانوفيتش، ولبس سترته ووضع يديه بشكل جميل في جيوبه.

طلب بوريس لوكيانوفيتش بإيمائة، من أرتيوم نظارته كما لو أنّه لا يستطع التحدث دون نظارة.

قال بصوت عالٍ: "أنت تعمل بشكل ممتاز- لا بدّ لي من طلب التماس لنقلك إلى القسم الرياضي.

قال البطل: " تثير استعراضاتكم لديّ الاشمئزاز ".

سأل بوريس لوكيانوفيتش:"هل ترفض؟".

صمت البطل لبعض الوقت.

تمكّن بوريس لوكيانوفيتش من الوقوف في هذا الوقت، دون أن يرفض مساعدة أرتيوم الذي مدّ له يده.

قال البطل "بالنسبة إليّ الأمران سيّان ".

قال بوريس لوكيانوفيتش غير مبالٍ:" إذن اتفقنا" - ودخل إلى صالة الرياضة التي كان قد جرى سقفها. لوّح لأرتيوم بيده بما معناه: تعال لبضع كلمات.

قال بوريس لوكيانوفيتش ببساطة: "أنت أرتيوم، لست ندّاً له. أوّلاً أثقل منك وزناً... ولكن الأمر، ليس في ذلك فقط... يجب عليك البحث عن ندٍّ مناسب لقوتك وإعدادك. وإلّا فسيحصل ضرب سريع وغير متكافئ من طرف واحد. وفقاً لذلك، نحتاج إلى ندٍّ له أيضاً ".

استمع أرتيوم بصمت : ماذا كان يمكن أن يقول؟.

واصل بوريس لوكيانوفيتش كلامه بهدوء، وهو يتغضّن قليلاً، في بعض الأحيان، من ألم في رأسه: "على ما يبدو، هناك ندٌّ له. وصل جاسوس بريطاني إلى هنا. لقد وقع عليه اختياري منذ وصوله: ربّما...".

قرّر أرتيوم أخيراً أن يسأل: "وإذا تعذّر إيجاد ندٍّ لي؟".

أجاب بوريس لوكيانوفيتش: "من الأفضل عندئذ أن تبقى في قسم الرياضة كمدرّب ومساعد لي". وأضاف، وهو ينظر إلى أرتيوم: "لن تذهب إلى السريّة الآن، لا تقلق. على كلّ حال، أنت نفسك تفهم أنّ كلّ ذلك ليس لفترة طويلة".

أجاب أرتيوم بكثير من الرضا : " هنا لفترة ليست طويلة، وهناك لفترة طويلة - والحكم ليس للأبد كم تعلم أيضاً".

لم يكن يحاج إلى الكثير حتّى يفرح.

حاول بوريس لوكيانوفيتش أن يضع نظارته بشكل أفضل - كما لو أنّ وجهه قد تغير شكله، ونتيجة لذلك أصبحت النظارة صغيرة، وكما لو أنّها مائلة أيضاً.

قال، وهو يلمس أنفه و أذنه بالتناوب: "أعتقد عليك في هذه الحالة الذهاب إلى قسم المعلومات والتحقيقات، واسأل هناك من يمكن أن يقترحوا علينا أيضاً. سأكتب لك اسم الجاسوس الآن، أنّني أنسى اسمه دائماً...".

ذهب أرتيوم إلى الدير وشعر أنّ لديه مزاجاً رائعاً.

لم تكن هناك حاجة لتفكيك مكوناته. عندما يكون هناك الكثير من الحقارة الدنيوية حولك - يبقى أن تصنع ابتسامة حنونة بعرض وجهك فقط.

فكّر أرتيوم كما لو كان نصف غافٍ: "... ها أنا بنفسي ذاهب إلى غالينا..." - كان النهار دافئاً، ومناسباً، وأشعة الشمس لطيفة، وحركة البعوض بطيئة - "... أنا ذاهب إلى غالينا، وسيكون هناك شيء ما... وفي الطريق يمكن أن ألتقي الوثيقة ومعه سكين... والخيشوم مع قضيب، وشافيربيكوف مع غصا... وأنا ذاهب... أنا ذاهب".

على نقطة الحراسة في مبنى قسم المعلومات والتحقيقات، كان يجلس البحّار نفسه، بوجه الوقح، وأسنانه السوداء.

أدرك أرتيوم فجأة، أنّه لا يعرف كنية ولا منصب غالينا.

لم يكن هناك وقت للتفكير، ولذلك قال:

" أنا ذاهب إلى غالينا".

أجاب البحار: "إنّها ليست هنا"، ونهض ليدخن في الشارع. مشا باتجاه أرتيوم مباشرة- لم يكن هناك معنى للوقوف أمامه، وأسرع أرتيوم، أراد ذلك أم لا، للخروج من الممر إلى الشارع. وبكلّ الأحوال دفعه البحار، بدافع الفظاظة والوقاحة فقط.

فكّر أرتيوم ، دون أن يشعر بالمهانة: "كم من الجيد أن يستدير ، ويوجه له لكمة على أسنانه".

ومن أجل إرضاء نفسه بشكل كامل، قرّر فجأة: "سأذهب إلى المكتبة! ولن يلاحظ أحد أنّني غير موجود...".

طوال فترة وجوده في المعسكر، لم يأت أرتيوم إلى المكتبة، وكان متأكداً أنّ الدخول إلى المكتبة ليس بالأمر السهل.

لكن لا، لم يوقفه أحد.

دخل إلى قاعة القراءة. كان يجلس هناك إمّا سجناء وإمّا موظفون مدنيون، يتصفحون المجلات، ولم يعر أحد منهم اهتماماً لأرتيوم. كان كلُّ شيء عادياً جداً، ولذلك كان الأمر مدهشاً.

اقترب أرتيوم من مدير المكتبة، كان حسب مظهره الخارجي، كاهناً.

قال: "نهارك سعيد أيّها الشاب. ماذا تريد؟ أنت، كما أفهم، غير مسجّل في جدول القراء هنا بعد؟".

أجاب أرتيوم بصوت منخفض، حتّى إنّه أقشعرّ من الرضا: "لا، إنّها المرّة الأولى".

سأل مدير المكتبة: " من أيّ سريّة ؟".

جرى تسجيل أرتيوم بسرعة، وملؤوا المعلومات التي تخصّه.

قال أرتيوم، كما لو كان يطلب الحلوى: "أود الشعر".

سأله أمين المكتبة: "شعر من؟".

أجاب أرتيوم في نفس الهمسة السعيدة: "لا فرق".

أحضروا له عدّة كتب ممزقة: نيكراسوف[1]، ونادسون[2]، ومجلداً من مجموعة بريوسوف[3]، وكومة من "الجديد الأحمر، وأيضاً شيئاً آخر بأحرف مختلفة الحجم، إمّا بشكل قائم وإمّا شاقولي مرصوفين على رؤوس بعضهما بعضاً.

---

(١) نيكولاي أليكسيفيتش نيكراسوف: شاعر، وكاتب، وناقد، وناشر روسي، معظم قصائده تتحدث عن طبقة الفلاحين في روسيا.

(٢) سيمون نادسون شاعر روسي.

(٣) فاليري بريوسوف شاعر وناشر وكاتب مسرحي ومترجم ومؤرخ روسي، وهو أحد مؤسسي الرمزية الروسية (١٨٧٣-١٩٢٤).

جلس بالقرب من النافذة. غطّا نورس ونقر على النافذة: بمعنى أعطني طعاماً، ناظراً بعين وقحة.

لم يقم أرتيوم بقراءة كلّ شيء، ولكنّه بدأ ببساطة يتصفّح ويتصفّح كلّ هذه المجلات والكتب- يقرأ سطرين أم ثلاثة أسطر، ونادراً أربعة أسطر حتّى النهاية - ثمّ يبدأ بالتصفّح مرّة أخرى. كما لو أنّه أضاع سطراً ما، وأراد العثور عليه.

كان يردّد جملة شعرية، محركاً شفتيه فقط، لا يفهمها ولا يحاول فهمها.

همس أرتيوم، وكان وجهه كما لو كان يقول بصوت مسموع مسألة هندسية غير قابلة للحل: "... أيّ أقدام ستعبر على صدئنا..؟".

ولم يكن ليلاحظ كيف بدأ الظلام يزحف- لو لم يذكّر الجوع بنفسه.

وهكذا خرج وهو يكرّر هذا السطر إلى الشارع: "... أيّ أقدام ستعبر على صدئنا؟ آخ تفو. أقدام، صدئة. ماذا سأقول لبوريس لوكيانوفيتش؟ سأقول له شيئاً ما. سأذهب وأشتري سكاكر لشاي المساء... ".

كان الكشك قد أغلق في الدير.

لم يجرؤ على الذهاب إلى الحانوت الذي يقع خارج الدير، إذ اعتاد أرتيوم الذهاب إليه- كان الطريق إليه يمر بالقرب من قسم الرياضة، ربّما يلاحظونه- وسيكون الأمر غير مريح.

تذكّر أرتيوم أن حانوتاً آخر يوجد في الميناء، جانب مبنى إدارة معسكرات سولوفكي للأغراض الخاصّة: لقد لاحظ ذلك عندما ذهب مع بوريس لوكيانوفيتش إلى إيخمانيس.

صحيح أنّ الحانوت كان يبيع للعاملين المدنيين وفوج المرافقة وعناصر الأمن. لكنّ أرتيوم شعر بنفسه وكأنّه حر بعد المكتبة... أراد، على الأقل، أن يشعر بذلك حقاً، وكان راضياً أن يخدع نفسه.

حسب التصريح الذي لديه، يمنع من الوصول إلى البحر، لكنّه لن يذهب إلى البحر، هو ذاهب إلى الإدارة، إذ كان هناك من قبل.

كان هذا الحانوت أكثر ثراءً: لقد تقطعت أنفاس أرتيوم للحظة، من مجرّد رؤية شكل الكبد

- أوه، كم أريد الكبد المقلي!

- والزبدة الحيوانية، والسجق المدخن، وعلب شاي.

على أيّ حال، كان عليه ألّا يظهر تعابير وجهه، لقد اندفع بسرعة إلى طاولة البائع، وكان يقف أمامه جندي واحد فقط من سرية الحراسة، سكب البائع سكاكر له، دون أن ينظر إلى أرتيوم.

عندما خرج الجندي، بعد أن سكب السكاكر في جيبه، تقدّم أرتيوم بحزم إلى المنضدة، ولكن قبل أن يتمكن من فتح فمه، كبحه البائع:

" من أين أنت يا فتى؟".

كذب أرتيوم بشجاعة فجأة، الأمر الذي لم يتوقه من نفسه حتّى منذ لحظة: "أُفْرِجَ عنّي بعفو، وبقيت عاملاً مدنياً!- دعنا نتعارف! أريد سكاكر".

في الواقع، هو أراد كبداً، لكن شراءه بدا لأرتيوم خطوة أكثر جدية، وكانت من الممكن أن تكشف خداعه على الفور، أمّا السكاكر، السكاكر فمحض هراء.

يبدو أنّ شيئاً منطقياً كان في ذلك كلّه، لأنّ البائع الذي ظهرت على وجهه ابتسامة عدم ثقة، ألقى السكاكر المتبقية مع الورقة، إذ التصق بعضها ببعضٍ على كفّة الميزان.

قال البائع غير راضٍ عن نفسه في سرّه: "في الواقع، كنّا قد أغلقنا المتجر ".

شكره أرتيوم:"شكراً!"- وسرعان ما دسّ له النقود، حتّى لا يطلب البائع، لا قدر الله، شيئاً: لنقل، وثيقة أم يسأل عن مكان العمل على الأقل.

وهذا ما حدث: سأل البائع وهو يعطيه ما تبقى من نقود، متجهماً أكثر فأكثر:

"أين حصلت على عمل؟".

مدّ أرتيوم كفّه لأخذ النقود الزائدة، لكنّ البائع لم يتركها من مخالبه.

أجاب مبتسماً بكلّ قوّته: " في جزيرة الأرانب".

"وما هو العمل؟".

أمسك أرتيوم، وهو لا يزال يبتسم، بالروبل الورقي من طرفه وسحبه باتجاهه. خفّف البائع قبضته.

قال أرتيوم، ملتفتاً وهو يخرج: " أربّي أرانب الشنشيلة". سلالة سولوفكي! تأكل أعداء الثورة فقط".

في الشارع، بعد أن أغلق الباب وراءه، لم يستطع الانتظار، وضحك.

"أوه! "- معجباً بنفسه- "أوه، أيّ شخص أنا!"

وضع قطعة سكاكر في فمه، وسحقها بأسنانه على الفور، واستمتع بشمس المساء والمياه الذهبية: كان هناك مثل هذه الحلاوة في كلّ شيء.

سمع صوت إطلاق رصاصة من مكان قريب.

ارتجف أرتيوم.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليدرك ما حدث: لقد خطر له في الحال وتأكد.

كان هناك سجن تحت الحانوت. كانوا يسجنون فيه لارتكاب أخطر انتهاكات نظام المعسكر. وكان تجري عمليات إعدام بالرصاص، من وقت لآخر.

عملية الإعدام كانت تسمّى في سولوفكي- "الذهاب إلى تحت الحانوت".

كانت الشمس مشرقة، والنوارس تصيح، والخليج يصخب.

بحث أرتيوم بعينيه، حيث طارت الروح البشرية. يجب أن تكون طارت إلى مكان ما؟".

كانت قطعة السكاكر ضخمة ومثيرة للاشمئزاز، ولزجة. ملأت الفم كلّه. شعر أرتيوم ، بوضوح، أنّ قطعة صابون في فمه.

لقد أيقظوه في الليل - كان الطرق على الباب فظيع، ولم يكن أرتيوم ليظن قطّ، إنّ العرق سيغمره إلى هذه الدرجة، وبهذه السرعة.

أم إنّه كان مبللاً عندما نام ؟.

وفقط عندما جلس على السرير، أدرك أنّهم لو جاؤوا لأخذه إلى تحت الحانوت فلن يطرق أحد بحذر، وإن كان بإصرار - فالباب لا يقفل من الداخل.

سأل أرتيوم بصوت ناشف بعد النوم: "من هناك؟".

كان أوسيب نائماً وكأنّ شيئاً لم يحدث. لقد أكل قبل النوم السكاكر التي أعطاها له أرتيوم بكلّ سرور.

أجاب أحد من وراء الباب، دون أن يذكر اسمه: "هذا أنا" - لكنّ أرتيوم خمّن : بوريس لوكيانوفيتش.

فتح الباب على عجل.

" اعذرني يا أرتيوم، بحق الله، لكنّني لا أستطيع فعل أيّ شيء. يجب علينا أن نذهب. جهّز نفسك على الفور".

"ماذا حدث؟" - لم يكن أرتيوم متعرقاً بشكل كامل فحسب، بل، بالإضافة إلى ذلك، كان قلبه يقفز مثل الكرة، ويلامس بألم جميع أضلاعه.

"جاء بعض ضباط الأمن إلى هناك، إمّا من كيم وإمّا، حتّى على ما يبدو من موسكو، كضيوف إلى إيخمانيس..." - قال بوريس لوكيانوفيتش هامساً، وهو ينظر إلى أوسيب. فكّر أرتيوم مدّة وجيزة، ودون أن يعرف بعد، في أيّ دقيقة بالتحديد، وما الذي ينتظره: "... يخشى في هذه الدقيقة، إيقاظ هذا... الشهواني...". أوضح بوريس لوكيانوفيتش: "على ما يبدو، تفاخر رئيس المعسكر بالمنافسات الرياضية، وطالبوا برؤية ذلك للتسلية على الفور. سيكون عليك المشاركة في المبارزة".

سأل أرتيوم، متوقفاً عن ارتداء سرواله: "مع من؟ مع بطل أوديسا؟". على الرغم من أنّه هو نفسه لحق أن يبتهج: "... حسناً، على الأقل ليس إلى الإعدام...".

أومأ بوريس لوكيانوفيتش برأسه فقط ، بمعنى نعم.

بعد ذلك ارتدى أرتيوم ثيابه بصمت. أشرقت شمس سولوفكي الليلية عبر النافذة، ممزوجة بضوء الفوانيس. كانت الشمس مثل جبن القريش الذي كانت تعلقه أمّه في الشاش، وكان يسقط منه سائل شاحب في وعاء وضعته تحته. كان لون هذا السائل نفس لون ليل سولوفكي.

اتضح أنّ الشارع منعش وهادئ وواسع. وفكّر أرتيوم أنّه لم ير الدير في الليل قطّ.

لم يكن هناك نوارس على الإطلاق.

ركض الكلب بليك باهتمام لمعرفة من يسير. هزّ ذيله. جاء وراءه الأيل ميشكا الذي كان يقف تحت شجرة الغبيراء.

خمّن أرتيوم: " لا شك أنّ الضيوف أيقظوا حيواناتنا. كان يجب أن أترك سكاكر للأيل. لقد أطعمت أوسيب كلّها...".

سأل أرتيوم بوريس لوكيانوفيتش: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

أجاب: "إلى المسرح. الجميع هناك...".

كان المسرح يقع في جزء من مبنى الطهي السابق.

وقادوا أرتيوم على الفور إلى غرفة الملابس.

سمع ضجّة على المسرح.

سأل أرتيوم بوريس لوكيانوفيتش: "من هناك؟".

أجاب باقتضاب: "المصارعون".

كان بطل أوديسا يجلس في زاوية غرفة تبديل الملابس، مغمضاً عينيه. كان وجهه شاحباً وشفتاه مزمومتين بشدة. كان شدقه ينتفخ أحياناً.

فكّر أرتيوم بهدوء، وحكم على نفسه: "سيقتلني الآن دون أيّ (حانوت)".

وقف أمام المرآة رافع أثقال مألوف لدى أرتيوم، كلّه عرق، وتفوح منه رائحة كريهة. على ما يبدو، كان قد أنهى عمله وأصبح منزعجاً الآن من مدى نحافته مؤخراً- لم ير مثل هذه المرايا الكبيرة منذ زمن طويل.

كان على الأرض، شمعدان في غير مكانه، إلى حدٍّ ما.

أدرك أرتيوم: "أنّها أدوات التمثيل. ماذا لو قمت الآن بضرب بطل أوديسا بهذا الشمعدان على مؤخرة رأسه، فهل يمكن أن يؤثر ذلك بشكل ما على نتيجة المبارزة؟".

لقد أحضروا فناناً آخر - هذه المرّة لاعب سيرك.

ظهر في القسم الرياضي هذا الصباح فقط، ووعد بإعداد فقرة خاصّة: تكسير حجر صلب على صدر رياضي قوي.

فكّر أرتيوم، محاولاً الجلوس، لكنّه لم يكن يريد الجلوس نهائياً: "ولماذا دون حجرٍ؟ ودون رياضيٍ آخر؟ هل سيطلب من عنصر أمن في الصالة الاستلقاء لدقيقة؟ ويضرب بمطرقة على صدره بقوة..."

أراد أن يشرب.

لكن ليس إلى ذلك الحد.

اقترح بوريس لوكيانوفيتش على أرتيوم، دون الكثير من الحماس: "ربّما يجب عليك الإحماء ؟".

قال أرتيوم: " على ما أعتقد "، ووقف بحزم.

توجه، في الظلام إلى وراء الكواليس، نحو الضجيج وشريط الضوء المزعج: على الأقل ليرى ماذا يجري هناك.

كان عناصر الأمن يصفرون هناك، وسرعان ما رأى أرتيوم المصارعين: كانوا عراة حتّى الخصر، وقذرين، الشيطان يعرف إلى أيّ درجة.

كان أحدهم مستلقياً على بطنه، ورجلاه مطويتين تحته، ورفع مؤخرته الضخمة، وكان الثاني يجاهد لرفعه، ووضع يديه تحت صدره.

تقدّم أرتيوم خطوة إلى الأمام، ورأى الضيوف.

وضعوا طاولة بالقرب من خشبة المسرح. كان على الطاولة عدد كبير من الزجاجات، ورأى طعاماً مفروماً: أعشاباً خضراء، وخياراً، وسجقاً، وخبزاً.

جلس ستة أشخاص على الكراسي. كان إيخمانيس وآخر غير معروف لأرتيوم، يقفان بالقرب من الطاولة وفي أيديهما كوبان.

كان إيخمانيس يرتدي الزي العسكري، وياقته مفكوكة، كان يشعر بالحرارة. والثاني دون سترة على الإطلاق، ومن الواضح أنّه كان مخموراً أكثر بكثير من إيخمانيس.

كان بحوزة الجميع سلاح.

أكتئب أرتيوم: "يا إلهي، لماذا فعلت كلّ هذا؟. كان يمكن حلّ كلّ شيء بسهولة، لا يمكنك أن تتخيل كم كان الأمر سهلاً. إعطاء الطرود إلى الوثيقة، وهذا كلّ شيء! هل كنت تحتاج إلى هذه الطرود؟ لن تموت من الجوع! لماذا سعيت إلى هنا؟ هل أنت تجيد هذه الملاكمة؟ أنت لا تجيدها بتاتاً!".

أجاب بصوت مسموع على نفسه: "اخرس".

ذهب إلى مكان ما - كان عليه أن يذهب إلى مكان ما، لا أن يقف في مكانه.

لكن لم يكن هناك مكان يذهب إليه، وإضافة إلى ذلك، كان الظلام شديداً، تعثر أرتيوم بالكرسي على الفور، وكاد يسقط معه.

استقام، ونفض الغبار عن نفسه، وشعر بساقيه ترتجفان بشدة.

كيف ستتحرك على هذه الأرجل؟.

التقط الكرسي وجلس عليه. يبدو أنّ ذلك كان أفضل - تبدو في الظلام وكأنّك غير موجود، بقي التفكير فقط، ولكن إذا أطفأته، فسيكون الأمر بسيطاً جداً.

حاول أن يتذكّر قصيدة اليوم، أو بالأحرى أمس. ذلك السطر منها الذي كرره لبعض الوقت. كان هناك شيء ما عن الصدأ وعن الأرجل. حول الصدأ وحول الأرجل. حول الأرجل وحول الصدأ.

فكّر أرتيوم بتوتر:"كيف يمكن الجمع بينهما؟ في سطر واحد؟ الأرجل! والصدأ! والأهم من ذلك أنّها لم تفاجئني على الإطلاق! لكن هذا شيء رهيب ! هراء! ذكرني يا رب، ما هو هذا السطر! هذا مهم للغاية! لن أحقق أيّ شيء، إذا لم أتذكره!".

"يا للشيطان"!- قال أرتيوم لنفسه بصوت عالٍ مرّة أخرى- "يا للشيطان، توقّف أخيراً".

نهض من على الكرسي، وهو يوبّخ نفسه بصمت وغضب.

فكّر أرتيوم: "الشخص الذي أطلقوا النار على رأسه، بينما كنت تأكل السكاكر- هل كان الأمر أبسط بالنسبة له؟ هل كان ذلك أسهل بالنسبة له؟ ألم يقلق على الإطلاق؟ عليك فقط أن تصعد على خشبة المسرح، وتتلقى لكمات على وجهك! لكنّهم لن يقتلوك! لن يجري إطلاق النار عليك!

ناداه بوريس لوكيانوفيتش في الظلام: "أرتيوم! أرتيوم أين أنت؟ حان الوقت!".

أسقط الكرسي على الأرض مرّة أخرى، وتبع أرتيوم الصوت على عجل.

كان بوريس لوكيانوفيتش يتململ بالقرب من أرتيوم الذي كان يخلع قميصه: " لا توجد قفازات. ولن يجلبوها. خذ، لقد جرى خياطتهم من جوخ معطف، جرّبها".

جرّبها أرتيوم. أعجبه أنه سيضرب بمثل هذه القفازات. أمّا أن يضرب بها - لا.

ارتدى البطل قفازاته بلا مبالاة بالكامل. لم ينظر إلى أرتيوم ، كما من قبل، ولا مرّة واحدة.

همس بوريس لوكيانوفيتش، بينما كانا يسرعان إلى المسرح: "لا يوجد حلٌّ آخر، اصمد. أنا سأكون بدلاً من الحكم. سأحاول مساعدتك ".

أجاب أرتيوم: "حسناً، نعم. وفكّر بإمكانك أن تضربه على كبده بقوة، حينما لا يستطيع أحد أن يرى ذلك".

تبيّن إنّ الإضاءة على خشبة المسرح أقوى ممّا كان يود، استغرق الأمر بعض الوقت ليعتاده.

كان أربعة من ضباط الأمن يقفون بالفعل بجانب الطاولة، جميعهم ما عدا إيخمانيس، ذوو وجوه سمان حمراء، وكانوا جميعاً يمضغون.

كان إيخمانيس يشير بكوب فارغ إلى بطل أوديسا، ويقول شيئاً ما بصوت منخفض.

لم يستمع أرتيوم متعمداً.

لكنّه سمع كيف يطلب بوريس لوكيانوفيتش من خصمه:

"...لا تستعجل، هل من الممكن؟ جولة على الأقل".

لم يرد الخصم، ضارباً قفازاً بقفاز.

بدأت المعركة، كما كان متوقعاً، بشكل رهيب: شعر أرتيوم بنفسه في وسط مفرمة اللحم، وحقيقة عدم سقوطه على الفور، كان معجزة بكلّ موضوعية.

أنقذ بوريس لوكيانوفيتش أرتيوم، إذ تدخّل عند أوّل فرصة، وقف بين الخصمين، محاولاً بصوت منخفض مرّة أخرى، تأنيب البطل:

"أطلب منك، هل تسمع؟".

دفع البطل ببساطة بوريس لوكيانوفيتش بكلتا يديه، ضاغطاً بشدة على كتفيه.

قال أرتيوم للبطل:"اذهب إلى الجحيم أيّها الكلب!".

لم يرد البطل بأيّ شكل من الأشكال. بدا كأنّه يفهم اللغة الروسية بصعوبة.

قرّر أرتيوم يائساً: "لقد صمدت لنصف دقيقة- وهذا يكفي!"- واندفع نحو الخصم.

بعد سبع ثوان، أدرك بإعجاب وجيز، أنّه تمكّن من الانحناء وتجنّب الضربة التي كانت من الممكن أن تسقط رأسه من على كتفيه مثل الإجاصة الناضجة. لم يصل إلى البطل، لكنّه على الأقل تظاهر أنّه يحاول بشدة.

كان من المستحيل إبقاء الخصم على مسافة ذراع ممدودة- وجّه البطل بسهولة لكمة طويلة، حتّى من على بعد ثلاث خطوات.

بذل أرتيوم قصارى جهده- وشعر بعجزه المذهل.

تدخل بوريس لوكيانوفيتش مرّة أخرى.

صرخ أحد الحاضرين من مكانه: " أنت! أخرج! يا فيدور، لا تدعه يتدخل، إنّه يعيق فقط!".

ابتسم إيخمانيس للرجل الذي صرخ، وأمر:

"بوريس، تنحى جانباً الآن. هذه ليست مباراة !".

حاول أرتيوم، مستنداً بيديه إلى ركبتيه، أن يلتقط أنفاسه، وهو ينظر من تحت حاجبيه إلى البطل الذي وقف مستقيماً في مكانه، ويبدو أنّ تنفسه كان طبيعياً.

أومأ بوريس لوكيانوفيتش برأسه إلى أرتيوم، قبل أن ينسحب بمعنى: لا أستطيع فعل شيءٍ، تدبّر أمرك بنفسك لآن.

نظر أرتيوم مرّة أخرى إلى القاعة، ورأى فجأة غالينا التي لم يلاحظها من قبل. كانت تجلس في مكان بعيد، ممسكة بتفاحة في يدها. كان لا يمكن رؤية تعابير وجهها.

تذكّر أرتيوم بعد ذلك، لقطات فقط.

ظهر وجه البطل، صرخ أحدهم من مكانه: "هيا!"، أخفى أرتيوم رأسه، وتلقى ضربة تلو الأخرى، واندفع إلى الأمام مرّة أخرى، بنيّة حازمة قضم حلق

هذا اللقيط، لقد لاحظ أنّه نجح في توجيه ضربة واحدة مؤكّدة- من الأسفل، إلى الذقن- لدرجة تراجع البطل خطوة إلى الوراء، وهزّ رأسه، كما لو كان يحاول وضع عينيه في مكانهما- ويبدو أنّه وضعهما.

لكنّ أرتيوم رأى بعد ذلك السقف ودوائر من الضوء فقط.

لم يلحظ الضربة.

في البداية كان الضوء تحت الجفون، وكانت الدوائر حمراء.

ثمّ فتح عينيه، وبقيت الدوائر. تحوّلت إلى اللون الأصفر فقط.

وكانت المنصّة تموج تحته.

كان رجال الأمن ذي الوجوه السمينة، والثملة، يصرخون مثل النوارس الكبيرة- وكانت أصواتهم تعبّر عن رضاهم.

ميّز أرتيوم صوت إيخمانيس، كان مسروراً ومنفعلاً أيضاً.

قال إيخمانيس: " إنّهما من أوزان مختلفة! هو وزن أثقل! هذا أخف ! لكنّه صمد!".

أجابوا بنغمة إيخمانيس: "صمد، صمد، ثمّ انبطح أرضاً".

قهقه الجميع.

سمع قرع الأكواب.

ساعد بوريس لوكيانوفيتش أرتيوم على النهوض.

كرّر لوكيانوفيتش: "لا بأس، لا بأس- لا بأس. حتّى إنّه جيد".

لاحظ أرتيوم أنّ غالينا لم تعد في القاعة. وأصبح عدد رجال الأمن أقل، بشكل عام، كما لو أنّ اثنين أم ثلاثة قد خرجوا. ربّما ليدخنوا...

صاح إيخمانيس: " بوريس، أرتيوم، انزلا إلى هنا، لتأكلا. استدعي المصارعين، ولاعب السيرك...".

بدأ بوريس لوكيانوفيتش بنغمة اعتذار: "شكراً، نحن..."، لكنّ إيخمانيس، كما لو كان متفاجئاً، ألقى ببساطة رأسه إلى الخلف كأنّه تفاجئ: "... ماذا؟" - ركض بوريس لوكيانوفيتش على الفور إلى غرفة الملابس، بعدما لاحظ الإيماءة رغم قصر نظره.

شعر أرتيوم بالغثيان قليلاً.

قال لإيخمانيس: "سأرتدي القميص فقط ".

أجاب إيخمانيس : "تعال، تعال".

عندما عاد أرتيوم، كان الجميع، باستثناء بطل أوديسا، يقفون بالقرب من الطاولة. لم يمس أحد أيّ شيء.

اقترح إيخمانيس على المصارعين: "اسكبوا شراباً لأنفسكم"، وسأل بوريس لوكيانوفيتش: "أين هذا؟ سريع الإطلاق؟".

كذب لوكيانوفيتش: "يغتسل، سيأتي في الحال". ولكن أرتيوم رأى أنّ البطل جالساً في غرفة تبديل الملابس، في مكانه، مغلقاً عينيه.

لم يكن من الضروري إقناع المصارعين بالشراب، فيما سكب لاعب السيرك لنفسه كأساً دهاقاً، على الرغم من أنّ أرتيوم لم يتذكّر متّى تمكن من أداء فقرته.

قال ضباط الأمن الأكثر سمنة بينهم، وهو يمد الكوب نحو إيخمانيس: "سنشرب نخب المنافسات الرياضية القادمة! لقد بيّن الاستعراض، أنّ... "- لم يكمل الجملة وشرب كأساً ممتلئة تقريباً في جرعة واحدة.

قرع إيخمانيس على عكس ضيفه، كوبه بكوب كلّ لاعب من لاعبي المعسكر، وقال شيئاً لكلّ منهم:

"كان شيئاً جميلاً... كيف تفعل ذلك ؟.. بوريس، شكراً لك، كان كلّ شيء على ما يرام... أرتيوم، أنا أفهم مع من كنت تتعامل! سنشرب كأس

جرأتك! يفهم رجال الأمن ثمن الجرأة. في بعض الأحيان تكون مكلفة جداً! ولا سيّما أنّك كدت تطرحه أرضاً".

لم يكن أرتيوم قد استعاد رشده بعد، ولم يتمكن من معرفة ما الذي يجب أن يفكر فيه، بنفسه و بهزيمته: هل كان ذلك عاراً تامّاً أم لم يكن كذلك؟.

قال إيخمانيس عند الوداع: "حسناً، تناولوا الطعام هنا ". غادر رجال الأمن، إلّا أنّ الأكثر سمنة فقط، عاد بعد أن أبتعد خمس خطوات، وأخذ زجاجة الخمر غير المفتوحة عن الطاولة.

ضحك إيخمانيس: "لدي هناك... مستودعات". ظلّت عيناه عند ذلك دون حراك.

أجاب ضابط الأمن الأكثر سمنة: "سيسكرون. هذا كثير عليهم ".

لاحظ أرتيوم نظرة بوريس لوكيانوفيتش، لقد نظر إلى المتحدث بكراهية. كان يحمل في يده كوباً من الفودكا، لم يذقه حتّى.

تابع إيخمانيس حديثه، بعد أن عاد ضابط الأمن الذي أخذ الزجاجة، وقبل مغادرتهما معاً: "ها أنا أسرد، مصارعة، ملاكمة، تمارين الجمباز على المتوازي والعارضة، وفي هذه الأنواع لاعبون أيضاً، وكرة القدم. وفي ختام المنافسات سيتشكّل هرم من كلّ المشاركين...".

وضع بوريس لوكيانوفيتش الكأس على الطاولة بارتياح.

سأل أحد المصارعين: "ألن تشرب لوكيانوفيتش؟".

كان على الطاولة، بالإضافة إلى الخيار والسجق، صحن كافيار أحمر وآخر كافيار أسود، ووضع في علبة، كان فيها سابقاً كاكاو، سمنة حيوانية- لم تلْمس على الإطلاق.

لكنّ أرتيوم كان يعرف أنّه فيما لو جرى دهن السمنة على الخبز ووضع الملح عليها، فستكون ألذّ من الزبدة.

كان هناك ملح أيضاً.

أخذ قطعة خبز ودهنها بطبقة من السمن تقارب عرض الإصبع، ووضع فوق السمنة كافياراً أسود، وفوقه كافياراً أحمر، ورشّا عليها بعض الأعشاب الخضراء المفرومة، وزيّنها بخيارة. كانت الخيارة مقضومة من قبل ضابط أمن، لكن بدا له ذلك غير مهم.

اقترح لاعب السيرك شرب كأس أخرى من الفودكا.

شربوا، لكنّ بوريس لوكيانوفيتش لم يشرب هذه المرّة أيضاً ، ولم يأكل شيئاً، لفّ كسرة خبز وأمسكها بأصابعه.

سأله أحد المصارعين، وكان قد أصبح مخموراً: " لوكيانتش، ماذا بك ؟".

أجاب بهدوء: "أنا شبع "، لكن أرتيوم رأى أنّه كان مشمئزاً.

تذكّر أرتيوم، أنّه عندما رفعه بوريس لوكيانوفيتش، وجلس على خشبة المسرح، ظهر عقب الدوائر الصفراء وجه ضابط الأمن الذي كان يغرف بيده كافياراً أحمر من الوعاء، ثمّ يلعق أصابعه بعد ذلك.

"وماذا في ذلك..."- قال أرتيوم لنفسه وهو يقضم الخبز، ويلطّخ نفسه ملتقّطاً حبات الكافيار التي سقطت على قميصه بيده الأخرى.

قال بوريس لوكيانوفيتش وهو يلتقط سجقاً، وكان الخبز قد أنتهى : "سأذهب... سأعطيه له في غرفة تبديل الملابس...".

فكّر أرتيوم بسرور: "إنّني ثمل". لم يتذكّر مذاق أوّل كوب من الفودكا، ولا الكوب الثاني، ولكن اجتاحته موجة عكسية، وأصبح الأمر بالنسبة له مفرحاً وودوداً على الفور، وتشكّلت كرة قطنية مدغدغة وحنونة في صدره- أراد أن يعانق شخصاً ما، وأن تصدح أغنية جميلة.

نفدت الفودكا بعد شرب الدفعة الثالثة، وكادوا يلعقون الكفيار من الصحون، وأكلوا الأعشاب الخضراء حتّى آخر بتلة.

خرجوا إلى الشارع - كانت أشعة الشمس تتأرجح وترتجف.

سُمِعَت أصوات رجال أمن، في مكان ما بالقرب من بوابات الكرملين[1]. كانوا يشتمون بأصوت عالية، وكان أحدهم يهدئ شخصاً ما.

تصرّف أرتيوم في الغرفة بشكل صاخب عمداً، على أمل إيقاظ أوسيب، لكن دون جدوى.

قال أرتيوم بصوت عالٍ: "سيكون من الجيد تناول كوباً آخر من الفودكا الآن، أم كوبان من البيرة... أليس صحيحاً، يا أوسيب؟".

لم يتحرّك أوسيب.

غادر هذا المزاج الرائع أرتيوم ، كما جاء، في لحظة.

فجأة شعر بنفسه مضروباً ومهاناً ومغتاظاً وبائساً في الوقت نفسه.

قال أرتيوم بصوت مسموع، وهو مخمور، وتفوح منه رائحة كريهة، ومحتقراً نفسه: "أنا أكره الخَسارة! أكره! سأدفع.

للوثيقة ليذبحه؟ لقد انتهى حظي! بدأ للتو وانتهى على الفور! دع الوثيقة يذبحه...".

بدأ أرتيوم يشعر بالغثيان فجأة، وسرعان ما استلقى على جانبه، من أجل أن يحافظ على كلّ ما أكله بعد ضباط الأمن.

لم تكن لديه القوة لخلع ملابسه. أراد أن يبكي.

بحث أرتيوم بيده في الكيس الذي كان بالقرب من السرير، وأخرج الوسادة التي أرسلتها له والدته، ووضعها تحت قلبه، وعض غطاء الفراش بأسنانه، وتنفس من أنفه، وشعر بالبلل تحت جفنيه.

كان كلّ شيء حوله رطباً، حام ضباب أسود، ولم يكد يميّز أرتيوم نفسه في الضباب، وتخيل إنّه جالس على نتوء في وسط المياه الضخمة.

---

(١) كانوا يسمون الدير، كرملين أيضاً، ومعناها القلعة أو الحصن.

أدرك أرتيوم: "إذا ما تحركت، فسوف أسقط على الفور في الماء، وأغرق ".

سمعت طبطبة ماء.

خرج قارب من بين الضباب: في البداية مقدمته، ثمّ انزلق جانبه بهدوء، دون صوت، ورأى أرتيوم رجلاً عجوزاً يقف في القارب. كان لدى الرجل العجوز مجداف في يديه.

كان لا يمكن تمييز وجهه، لحيته فقط، وجبهته العالية، وعلى ما يبدو أعمى.

كانت ملابسه الطويلة رطبة من الأسفل.

كانت المياه القذرة تتأرجح في القارب نفسه. وقف الرجل العجوز وسط الماء الذي كاد يغمر ركبتيه.

فكّر أرتيوم: "إلى أين يمكن أن نبحر في هذا القارب ؟ سنغرق...". أمسك القارب من حافته، ودفعه بقوة، ليواصل الإبحار.

بقي جالساً وحده.

كان إيخمانيس مبتهجاً، مخموراً قليلاً- كان من الواضح من عينيه، أنّه ذهب للنوم عند الصباح، واستيقظ مبتهجاً ونشيطاً في الساعة العاشرة، وشرب فودكا على الفور، وعندما ودّع ضيوفه، شرب أيضاً، على رصيف الميناء.

ذهب على حصانه إلى قسم الرياضة، وشاهد كيف يستكمل العمل في ساحة الرياضة وفي المبنى، وقفز عن حصانه، وتحدّث عن شيء ما، مع بوريس لوكيانوفيتش.

لاحظ إيخمانيس أرتيوم : "أوه، يا أرتيوم. لقد قاتلت بشكل جيد. كان بودي أن تفوز".

شعر أرتيوم برائحة الكحول، لكن ليست فاسدة وقديمة، ولكنّها طازجة وقوية، مثل قاع برميل مخلل الملفوف في الشتاء.

بدأ بوريس لوكيانوفيتش يوضّح: "الحقيقة هي أنّ أرتيوم خرج كبديل. لدينا الآن خصم آخر من الوزن الثقيل...".

سأل إيخمانيس:" الجاسوس الإنجليزي، روبرت؟".

"نعم روبرت".

سأل إيخمانيس بسرعة، وهو ينظر إلى لاعبي الكرة: "ألا يوجد أحد من الوزن المتوسط ؟".

سارع بوريس لوكيانوفيتش إلى الإضافة، دون أن يفهم إلى ماذا يرمي رئيس المعسكر: "ليس بعد. لكن أنا بحاجة إلى أرتيوم في قسم الرياضية".

قال إيخمانيس: "حسناً، إذا كان الأمر هكذا، فيمكنك أن تدير الأمور لوحدك ".

شعر أرتيوم ببرودة: لقد تقرّر مصيره، ويبدو في غير صالحه.

نظر بوريس لوكيانوفيتش بصمت إلى إيخمانيس.

قال إيخمانيس باقتضاب:"سيذهب معي في مهمّة اليوم. أحتاج إلى أذكياء، لكن ليس معارضين للثورة. بضاعة نادرة نسبياً!" - ضحك، ثمّ كشّر قليلاً: يبدو أنّه شرب كثيراً أمس، ويعاني من صداع الكحول.

سأل بوريس لوكيانوفيتش:"إذن، ماذا علينا أن نفعل؟".

"أنت؟" - كرّر إيخمانيس بنبرته القيادية المميزة، والتي تشعرك على الفور بعدم الارتياح قليلاً: " لا شيء، واصلوا التدريب. أمّا أنت يا أرتيوم، اذهب إلى سريتك، احزم أمتعتك، وانتظرني في الخارج. يجب عليّ أن آخذ معي شخصين آخرين. يقولون يوجد رسّامي خرائط في السريّة الثانية عشرة؟ ما اسمه كبير شاه؟".

أجاب أرتيوم: "نعم، يوجد ". محاولاً بشكل محموم أن يقرّر ما حدث: جيد أم سيئ؟.

صرخ إيخمانيس في الحصان، واندفع نحو الدير.

قال بوريس لوكيانوفيتش: "لا أعرف حتّى بماذا أفكّر".

مدّ أرتيوم له يده، وودعه وغادر.

لم يكن أوسيب في الغرفة.

قسّم الأموال المتوفرة لديه إلى قسمين: أخذ أحدهما معه، ولفّ الآخر وخبأه في وسادة والدته، هناك حيث انفكت الخيوط...

فكّر، هل يأخذ معه أم لا يأخذ حصّته الجافّة.

استقر على أن يأخذ بطاطساً، وجزراً، وملحاً في علبة، وشاياً. عمل صرّة من قطعة قماش، ورتّب كلّ شيء فيها، ولفّها، وكيّف هذه الصرة بشكل يستطيع حملها على كتفه، وعقد أطرافها.

لم يأخذ ملابس بديلة، أخذ سترة فقط، ربط كميها على خصره، ووضع قبعة على رأسه، تحسباً لسقوط المطر.

فيما لو كان هناك حظ، فسوف يطعمونك ويدعونك تنام تحت سقف.

وإذا لم يكن هناك حظ... فهذا يعني لم يحالفك الحظ.

خمّن أرتيوم، وهو لا يزال يخشى أن يخيف حظّه: " أمّا الحظ، فقد عاد على أيّ حال".

غنّى بصوت منخفض: "أنا لا أمشي على القطيفة، أنا لا أسير على المخمل، لكنّني أمشي، وأمشي...على سكين حادٍّ...".

في الشارع، عرف مباشرة إلى أين يجب أن يذهب: كان كبير شاه وشقيقه كوريز شاه، وميتيا شيلكاتشوف وسجين شاب آخر لا يعرفه، يقفون عند برج تقديس الماء.

كان الوثيقة، على بعد مسافة قصيرة، يتحرك مكانه.

تجاهله أرتيوم، وأومأ برأسه إلى ميتيا، واقترب من البرج، وجلس على العشب.

لم يضطروا إلى انتظار إيخمانيس طويلاً- ظهر، وهو يسير على قدميه هذه المرة ، ويبدو أنّه شرب مئة غرام من جديد، ولكن برفقة غالينا واثنين من جنود الجيش الأحمر، ونظر إلى المجتمعين بإمعان.

وقف الجميع على الفور، ونهض أرتيوم بالطبع أيضاً، ولاحظ كيف أنّ الوثيقة قد اختفى، كما لو أنّه لم يكن.

حاول شيلكاتشوف أن يصرخ: "مرحبا، أيّها المواطن، القا..."، لكنّ إيخمانيس قاطعه بيده: لا حاجة.

أمر إيخمانيس أحد جنود الجيش الأحمر: " لنذهب، العربة عند البوابة ".

قالت غالينا، وهي تومئ برأسها إلى أرتيوم، بصوت خفيض، لكنّه سمعها: "لقد كنت أبحث عنه منذ أيام عدّة".

سأل إيخمانيس: " لشيء عاجل؟".

رفعت غالينا حاجبيها، بمعنى: لماذا نناقش ذلك بوجود السجناء.

لوّح إيخمانيس بيده قائلاً: "أين سيختفي؟ ستنهي عملك فيما بعد. لقد عفوت عن فريقي السابق. لا يوجد من..."

من الواضح أنّ رئيس المعسكر كان في عجلة من أمره للتملّص من صديقته، كما خمّن أرتيوم. لقد مشى ببطء نحو العربة، متوقعاً أن ينادوه ويعيدوه.

ولكن لم يحدث ذلك.

عندما صعد إلى العربة، رأى غالينا تسير بوجه غير راضٍ، باتجاه قسم المعلومات والتحقيقات.

أحد السجناء، كان يسير في الفناء، ولم يقدم التحية كما ينبغي إيخمانيس الذي كان قبل دقيقة في مزاج طيب، فصرخ فجأة بهياج حقيقي :

"من؟ من هؤلاء ؟ من أيّ سريّة! لا أسمع؟ قائد السريّة إليّ !.

اندفع جندي الجيش الأحمر الذي كان يقف أقرب من جميع الجنود، على الفور راكضاً، دون أن يفهم بعد إلى أين يركض.

وقف السجناء شاحبي الوجه، محملقين في إيخمانيس.

لم يظهر قائد السريّة متبصراً ماذا سيحدث، لكن ظهر قائد الفصيل، أمسكه إيخمانيس من ياقته.

صرخ إيخمانيس بصوت معدٍّ جيداً وغاضب أجشّ: "ما هذا الانضباط لديك؟ ألا يعرفون كيف يحيّون رئيس المعسكر؟ ما الذي يحدث عندكم في السريّة ؟ استمع إلى أمري! نقْل قائد السريّة إلى جندي في السريّة الثالثة عشرة! وإرسال هؤلاء كلّهم إلى زنزانة العقاب! جمع السريّة كلّها بعد العمل، وإجراء تدريب على النظام المنضم لثلاث ساعات!".

فكّر أرتيوم، وهو يجلس بشكل مريح في العربة: "هكذا إذن تعلّموا، كيف تحيّون قادة المعسكر، نعم...".

لقد اعتقد أنّ كلّ كلامه هذا ليس جاداً، ولكن أقرب إلى السخرية من نفسه. لكن مع ذلك فكّر.

ولم يخجل من نفسه.

كان العمل الذي قاموا به غير متوقع وغريب.

ساروا في البداية، على طول السدّ الذي كان الرهبان قد أقاموه، ووصلوا إلى جزيرة موقسولما الكبيرة. فقد جرى تربية الماشية هناك، منذ عهد الأباتي فيليب، بعيداً عن الدير. لم يخالف إيخمانيس التقليد: سُمِعَ خوار الثيران من بعيد، بانت إسطبلات الماشية الضخمة، وكانت هناك رائحة.

سأل ميتيا شيلكاتشوف أرتيوم بصوت هامس: " إلى أين نحن ذاهبون، هل تعلم؟.

هزّ أرتيوم كتفيه.

قال بعد لحظة صمت: "على أيّ حال، لا أرى أيّ سبب للقلق. من غير المحتمل أن يجري نقلنا برفقة إيخمانيس إلى مناجم سولوفكي السريّة".

ابتسم ميتيا، لكنّه لم يتوقف عن النظر حوله بمختلف الاتجاهات.

كان إيخمانيس كلّ الوقت، إمّا يمضي إلى الأمام بعيداً، وإمّا يعود إلى الوراء. لاحظ وجود شجرة غبيراء على الطريق، قرّب حصانه منها، وقطع عنقود.

فكّر أرتيوم وفكّر، وانتظر ليبتعد إيخمانيس، وقفز من العربة وركض إلى شجرة الغبيراء أيضاً. على الرغم من وجود شكوك لديه: كان قطف الثمار بعد رئيس المعسكر... فيه بعض التحدي...

أقنع أرتيوم نفسه: " شجرة رماد الجبل ليست ملكه..."

- لحق بالعربة ورأى كيف ينظر إليه جنود الجيش الأحمر المرافقين لرئيس المعسكر بعبوس.

أعطى لكلّ واحد حبات عدّة من الثمار. كان ميتيا يلتوي كلّه وهو يمضغ أحدها، لكن كبير شاه وكوريز شاه لم يقدما على ذلك: وهكذا احتفظا فيها في أيديهما، وكانا يشمانها أحياناً.

لم يذهبوا إلى إسطبلات الماشية، لكنّهم تركوا العربة هناك. كان طريقهم النهائي يقود إلى جزيرة موكسولما الصغيرة.

اختفى إيخمانيس في مكان ما مرّة أخرى.

كان المدّ منحسراً، وساروا من الجزيرة الكبيرة إلى الصغيرة مشياً على الأقدام، على حجارة القاع.

نظر الجميع إلى تحت أقدامهم باهتمام.

لم يستطع أرتيوم كبح عاداته الصبيانية، وكان من وقت لآخر يلتقط الحجارة الصغيرة ويرميها في الماء على الفور، كما كان يفعل في طفولته.

كان من الملاحظ أنّ شيلكاتشوف أراد أن يفعل الشيء نفسه، لكنّه لم يجرؤ.

كان جبل فافور يرى من جهة اليسار، وشعر أرتيوم لأوّل مرّة تقريباً بجمال جبال سولوفكي القاتمة. أعشاب طويلة متكسّرة بدأت تجف، وصخور نادرة بين الأعشاب، وغابة صنوبر صغيرة...

لم يكن في الجزيرة سوى ثلاثة أكواخ ومصلى.

جلس إيخمانيس على أرومة شجرة بالقرب من أحد الأكواخ. كان يقف بجانبه رجل عجوز ملتح ، كان يوحي مظهره أنّه أحد الرهبان السابقين. كانا يتحدثان ببطء شديد. كان من الواضح من طريقة حديثهما، أنّها ليست المرّة الأولى التي يلتقيان فيها.

كان حصان إيخمانيس، الذي لم يكن مربوطاً، يقضم العشب في مكان قريب.

لم يوح مظهر الرجل العجوز، على أنّه خانع.

يبدو أنّه لم يجر تحذير الناظر المحلي حول قدوم إيخمانيس، وتعرّف على الضيوف بعد تأخر ملحوظ.

ركض، وهو يصلح قميصه على عجل في الطريق، بعد أن لاحظ السجناء وجنود الجيش الأحمر، ولم يلاحظ بينهم رئيس المعسكر.

"الناظر غورشكوف..." – صاح الجندي من بعيد، راكضاً نحو إيخمانيس بعد أن لاحظه.

لوّح إيخمانيس له بيده، متبرماً باستياء، ليصمت، وقام على الفور بحركة دائرية بإصبعه في الهواء: بمعنى استدر، وعدْ من حيث أتيت.

تعثر غورشكوف وهو يركض، ووقف مفكراً للحظة في ما يجب فعله. لم يجد مخرجاً آخر للموقف، استدار ولم يكد يتحرّك عائداً، متوقعاً في سرّه ، أن يناديه أيخمانيس ليعود.

قال رئيس المعسكر، في إثر الناظر: " أكمل نومك ".

"لم أكن نائماً، أيّها المواطن إيخم..."

- استدار بحدة، وبدأ في تدوير عينيه الصغيرتين، لكنّ إيخمانيس كرّر بحركة قصيرة قاطعة بكفه، وكأنّه يقطع أيّ كلام موجه إليه، باستثناء كلام الراهب.

واصل الناظر الابتعاد مرتبكاً، لكنّ ظهره ومؤخرة رأسه كانا ينمّان عن أنّه كان لا يزال يتوقع بألم، أمراً ما من الرئيس.

سامحه إيخمانيس: "غورشكوف!... وزّع الناس".

عاد الناظر بسرعة، وقال بهمس، جنود الجيش الأحمر إلى الكوخ الثالث، وقاد البقية إلى كوخ الرجل العجوز.

تكاسل أرتيوم الذي كان يجلس على العشب ولم يتحرّك - يستطيع أن يرى باب الكوخ بنفسه.

خمّن أرتيوم: "أنّ إيخمانيس يريد استدعاء غورشكوف إليه ".

شيء ما كان يحثه على أنّه لا داعي للعجلة. كان من حين لآخر، ينتزع ثمرة غبيراء، ويدحرجها في فمه من سن إلى آخر، لفترة طويلة، كما لو أنّه يتلهّى.

صاح غورشكوف لأرتيوم: " أنت، لنذهب"، من الواضح أنّه كان يشعر بالحرج بحضور إيخمانيس من أن ينادي السجين أنت ابن آوى، كما كان معتاداً.

تظاهر أرتيوم بأنّه ينهض.

استدار غورشكوف، وجلس أرتيوم في مكانه.

مدّ الرجل العجوز يده إلى جيب سرواله المتصلّب، وأخرج مشرب مع كيس تبغ.

سأل إيخمانيس، وهو ينظر باهتمام إلى يدي الرجل العجوز: "هل مازلت تدخن يا عمدة الفقمة؟".

أجاب الرجل العجوز دون ابتسامة، وماذا تبقى لنا فعله، على الأقل لقتل الرائحة الكريهة!.

أومأ إيخمانيس كعادته.

فكّر أرتيوم أنّ هذه الإيماءة يمكن أن تعني أيّ شيء: على سبيل المثال، أنّ رئيس المعسكر يقدّر ذكاء الرجل العجوز، أم إنّه يدعوه للتحدث أكثر قبل إرساله إلى قبو الحانوت، حيث المكان المناسب للرجل العجوز.

نظر إيخمانيس إلى أرتيوم الذي ندم للحظة لأنّه لم يغادر، لكن الوقت قد فات الآن ليتحرك.

نظر رئيس المعسكر بطريقة، وكأنّه ميّز أرتيوم فجأة، عن الطبيعة المحيطة بهم.

قال إيخمانيس، دون أن يرفع عينيه عن أرتيوم: "أبانا فيوفان، أحضر لنا كوبين".

لم يغض أرتيوم بصره، وأجاب بنظرة مباشرة وهادئة، مبتسماً قليلاً.

" كان من الغريب جداً أن يسْمع هذا التعبير " أبانا فيوفان" من فم إيخمانيس"- فكّر أرتيوم ببطء، دون أن يتحرّك. كان هناك الآن شيء ما على وشك الحدوث.

قال إيخمانيس لجندي الجيش الأحمر: "اخرجها".

فكّ الجندي الكيس الذي أحضره معه، وأخرج منه زجاجة فودكا.

سأل بصوت منخفض: " هل أخرج الطعام ؟".

هزّ إيخمانيس رأسه على نحوٍ لا يكاد يلحظ وبنفاد صبر طفيف، يفهم منه على النحو التالي: صبّ بسرعة.

أحضر الأب فيوفان كوبين، وربطهما بعضهما ببعض بإصبع السبابة الطويل المدهش وكأنّه مقلي، وبالإضافة إلى ذلك، كان ينتهي بأظفر سميك ومنحنٍ.

وبهذا الشكل ملأ الكوبين بالفودكا دون أن يزيل إصبعه.

وفقط عندما امتلأ كلّ واحد منهما حتّى حوافهما، سحب الأخير بعناية، وسلّمه إلى إيخمانيس.

دعا رئيس المعسكر: "أرتيوم، تعال...". وأضاف وهو ينظر إلى رجال الجيش الأحمر: " أمّا أنتم أيّها المقاتلون غير مسموح لكم "، رغم أنّهم لم يأملوا في مثل هذه الشراكة.

قبل أرتيوم الدعوة بهدوء خارجي، رغم أنّه ابتهج في داخله.

أضاف إيخمانيس، وهو يزرّ عينيه وينظر إلى الرجل العجوز: " فيوفان لا يشرب الخمر... أم أنّك بدأت تشرب؟".

لم يبتسم الرجل العجوز ولم يجيب، هزّ رأسه فقط لفترة وجيزة وبشكل غير محدد.

قال إيخمانيس: "أنا أعرفكم أيّها الرهبان. كنتم دائماً تصنعون المشروب من الثمار هنا. مذنبون!".

أجاب الأب فيوفان بهدوء: "حصل ذلك".

شرب إيخمانيس كوبه في جرعة واحدة، دون أن يقرع كوبه بكوب أرتيوم. ثمّ، مدّ يده دون أن ينظر- سرعان ما خمّن أرتيوم معنى هذه الحركة، وأعطاه عنقود ثمار الغبيراء. أومأ أيخمانيس، برأسه راضياً، قطف حبّة واحدة وأكلها.

شرب أرتيوم أيضاً، دون أن يغمض عينيه- كان يجب ألّا يفوّت أيّ شيء.

رفع إيخمانيس الكوب الفارغ، وهنا خمّن الأب فيوفان ما يجب فعله، ومدّ إصبعه الطويل الذي أدخل فيه رئيس المعسكر إذن الكوب مرّة أخرى.

أومأ إيخمانيس برأسه نحو فيوفان، متوجهاً إلى أرتيوم: "خمسة وعشرون عاماً في سولوفكي، ربع قرن، صحيح؟"- رمش الأب فيوفان جفنيه الثقيلين موافقاً- " كان راهباً لأربع سنوات في الدير، ثمّ انتقل إلى هنا... إلى موكسولما الصغيرة... بنى كوخاً لنفسه، وبدأ... يجمع واجبات الصلاة مع..." - وهنا، قطف إيخمانيس ثمرة آخرة من عقود أرتيوم وألقاها في فمه- "... صيد السمك وحيوانات البحر... وعندما ظهر البلاشفة، لم يغادر مكانه، إلّا أنّه بدأ فجأة يدخن التبغ. قلنا له "- وهنا ابتسم إيخمانيس لا لفيوفان ولا لأرتيوم، ولكن بسبب الدفء الكحولي الرائع في صدره ورأسه- " كمختص حددنا لك، راتباً قدره ثمانية عشر روبلاً... على أن يقوم بما كان يفعله من قبل: الصيد، ويرسل الأسماك لمطبخ سولوفكي، ولحوم الفقمة إلى الجمعية الزراعية لإطعام خنازيرنا.

لذلك أطْلق عليه عمدة الفقمات". وهو يستجيب. هل ما زلت تذهب إلى المصلى حتّى يومنا هذا، يا عمدة الفقمات؟".

أجاب الأب فيوفان ببساطة: "لماذا يجب أن يفْرغ؟".

استوضح إيخمانيس: "هل يذهب غورشكوف معك للصلاة؟".

أجاب الأب فيوفان: "لم يلاحظ"، ممّا جعل رئيس المعسكر يضحك: ضحك إيخمانيس بحرارة.

كانت ضحكة رئيس المعسكر غير مريحة كثيراً، لكن أرتيوم ضحك أيضاً- بصوت أخفض قليلاً من صوت إيخمانيس، لكن أعلى قليلاً من جنود الجيش الأحمر الذين كانوا يقفون في مكان قريب.

قال إيخمانيس: "اذهب، يا أرتيوم، واختر لنفسك مكاناً تنام فيه ".

كانت جميع الأواني في كوخ فيوفان، من صنعه. كان في الركن الأحمر مجموعة من الإيقونات: " العليقة غير المحترقة" ووالدة الإله "سوسنوفسكايا" و"تهدئة أحزاني"، وعدد من إيقونات قازان لوالدة الإله. كانت جلود الفقمة تجفف على الجدران. وكانت هناك رائحة ثقيلة، وخانقة، لكنّها ليست رائحة إنسان، وهذا شيء جيد. تركت الأيقونات انطباعاً غريباً، وسط رائحة السمك هذه كلها، لا يمكن أن تمحى والثقيلة: اعتقد أرتيوم أنّه فيما لو جرى نقل أصغر أيقونة "كازانسكايا" من هنا إلى منزل آخر، فإنّ هذا المنزل ستنبعث منه رائحة الصيد في غضون ساعة. تأخذ من أسفل آخر صندوق، أصفاد الدانتيل وستر تجف: كما لو كان فيها سمكة تزيّنت في عيد الأسماك.

... لم يسْمح لهم بالراحة، ولماذا الراحة، إذا كانوا لم يبدؤوا العمل بعد.

ظل السجناء يحفرون حتّى المساء، في الأماكن التي حددها إيخمانيس.

حفروا في مكان واحد في البداية، ثمّ انتقلوا إلى مكان آخر على بعد نصف كيلومتر- وفعلوا الشيء نفسه.

أصبح واضحاً في وقت قصير جداً، لماذا وقع الاختيار على كوريز شاه وكبير شاه: اتضح أنّهما رساما خرائط. جرى إعطاؤهما مازورة ومنظاراً وخريطة قديمة، وأرسلوهما دون حراسة لدراسة المنطقة: على ما يبدو، لوضع خريطة جديدة أكثر تفصيلاً.

عمل أرتيوم بكفاءة وسرعة، وحتّى باستمتاع. ولم يشعر بالتعب. لاحظ إيخمانيس ذلك، الأمر الذي تأكد أرتيوم منه، ولذلك صار يعمل بشكل أفضل.

كان ميتيا شيلكاتشوف على العكس من ذلك، يتعب باستمرار - لقد كان شاباً من بتروغراد، رجل كتبٍ، غير معتاد العمل.

أمّا السجين الثالث، وعلى الرغم من صغر سنه، فقد تميّز أيضاً بحذاقته الفلاحية، وثباته الهادئ الذي لا يتزعزع في العمل. كان اسمه زاخار.

خمّن أرتيوم ما الذي كان يفعله الجميع، عند غروب الشمس فقط، وذلك عندما بدأ يبرد ظهره المبلل بالعرق.

كانوا يبحثون عن كنوز الدير القديمة.

... خمّن ولم يخبر أحداً.

"كان هنا دائماً مكان مسلخ، لذلك لم يغادر الرهبان المكان، لقد اعتادوا ذلك!" - ضحك إيخمانيس وهو يودّع بنظره الأب فيوفان.

لم يتناول الأب فيوفان الغداء مع الجميع: أعرب عن شكره، وتحجج بأنّ عليه الذهاب ليرى ما علق في المصايد.

لم يحاول إيخمانيس إقناعه.

يبدو أنّ إيخمانيس أصبح ثملاً، على الرغم من أنّ هذه الثمالة كانت غير عادية ولم تذكّر أرتيوم بأيّ حال من الأحوال بالثمالة القاتمة لوالده.

كان من الصعب اكتشاف علامات الإدمان على رئيس المعسكر من النظرة الأولى: عدا عن أنّ بشرته التي أصبحت شاحبة وعيناه ثقيلتين. ظلّ كلامه موزوناً. المستغرب فقط ، أنّه أصبح يتكلّم أكثر بشكل ملحوظ.

كانوا الآن يجلسون على الشاطئ ويأكلون الطعام: أرتيوم، واثنان من جنود الجيش الأحمر، والسجناء...

كان أرتيوم يجلس أقرب من الجميع إلى إيخمانيس.

بقي رجال الجيش الأحمر على مسافة حذرين، وكانوا ينظرون من وقت لآخر باستياء إلى أرتيوم الذي اعتاد ذلك تماماً في اليوم الماضي. قام أرتيوم الذي لاحظ الفوضى على المائدة، بتقطيع كمية كبيرة السجق والخضار. لم يعجب جنود الجيش الأحمر بحرية تصرفه، ولم يعجبهم السكين في يد أرتيوم أيضاً. لكنّ إزعاج السجين الذي أجلسه رئيس المعسكر لتناول الطعام بجانبه كان غير مناسب.

كان إيخمانيس، من وقت لآخر، يومئ له إلى الكؤوس الفارغة، وعندها كان أرتيوم يسكب الفودكا لنفسه ولفيودور إيفانوفيتش. أمّا الباقون فإمّا كانوا يرفضون مباشرة، وإمّا لم يعرض عليهم.

لم يجرؤ كوريز شاه وكبير شاه على الجلوس على المائدة بوجود رئيس المعسكر، على الإطلاق، فإمّا كانا يجلسان بشكل غير مريح، وإمّا بوضع القرفصاء وإمّا كانا يقفان عند أيّ حركة لإيخمانيس.

حتّى إنّهما كانا يقفان،عندما كان يبدأ الكلام، كما لو أنّهما لا يستطيعان حتّى تخيّل أنّه يمكن الاستماع لمثل هذا القائد الكبير جلوساً.

رأى إيخمانيس ذلك بطرف عينه، وبدا الأمر له مضحكاً، لكنّه لم يظهر ذلك.

حاول شيلكاتشوف والسجين الشاب الآخر، أن يجلسا بشكل لا يحجبان عن إيخمانيس منظر الماء، ولا يزعجان جنود الجيش الأحمر بالجلوس بالقرب من القائد.

كان أرتيوم يأخذ من وقت لآخر، لا أحد يعرف بأيّ حق، قطعة من السجق، وخيارة، و قطعة خبز، من المائدة - ويناول ميتيا شيئاً ما.

كان ميتيا يقتسم ذلك مع رفيقه، ويمضغان ببطء شديد وبصمت.

كان أرتيوم مقاوماً للكحول، وإذا ما وصل إلى حالة من السكر، فذلك نتيجة للوضع غير الطبيعي، الذي يدعو للدهشة.

كان يريد أرتيوم أن يرى الجميع ذلك. وسمّى عقلياً من هم هؤلاء الجميع: أفاناسييف... بورتسيف... سيفتسيف... القوزاقي لاجيتشنيكوف، إذا لم يمت... ميزيرنيتسكي... مويسي سولومونوفيتش... الشيشان والجناة... وغراكوف بالطبع. كوتشيرافا وكرابين... والدكتور علي! وتلك الساقطة غالينا أيضاً...

لم يرغب لسبب ما، أن يصبح أوسيب، وبوريس لوكيانوفيتش شاهدين على ما يحدث - لكنّ أرتيوم لم يفكّر في هذا الموضوع، وقام عقلياً وببساطة ، بإزالة أولئك الذين جرى تسميتهم من بين الشهود على الوليمة الفاخرة.

بقي فاسيلي بيتروفيتش ضمن دائرة الشك أيضاً، وأرتيوم في تأملاته السعيدة، إمّا أجلسه في الجهة المقابلة له، وإمّا أبعده.

ربّما، للمرّة الأوّلى خلال فترة سجنه بأكملها، كان أرتيوم سعيداً حقاً. إضافة إلى ذلك هذه الشمس التي تسطع في عينيه مباشرة. وكانت تفوح منه كلّه رائحة السجق المدخن الذي لم يستعجل تضييف شيلكاتشوف منه، محاولاً ألّا يعترف بذلك بينه وبين نفسه، وتلذذ هو نفسه، مبتهجاً بالمتعة الطبيعية.

كان جنود الجيش الأحمر يريدون، من بين الأشياء الأخرى، تناول السجق أيضاً- لكنّك لن تتحرك ذهاباً وإياباً أمام إيخمانيس، وتشحد من على مفرش المائدة: لقد أخذ كلٌّ منهم بيضة وسمكة، وكونوا سعداء أيّها الرفاق المقاتلون.

أكل إيخمانيس نفسه القليل. شرب الفوتكا وأكل بعدها إمّا شمرة وإمّا بقدونس، وكان يقول وهو يحدق في الشمس:

"الدير: قطره ٥٠٩ ساجن، ارتفاعه تسعة أمتار، وعرضه ستة أمتار. له ثمانية أبراج. حصون!.. قام الراهب المعماري بعمل كوات حجرية في سور المدينة، وداخل الأبراج: أرادوا في البداية جعلها أقبية للبارود والقذائف، لكنّهم غيروا رأيهم، وفعلوا ذلك بشكل مختلف. كانت هذه الأقبية مخصصة للسجناء! الكوة: بطول أرشينان وعرض ثلاث أرشينات[1]. مقعد حجري - وهذا كلّ شيء. يمكن

(١) أرشين هو مقياس روسي قديم للطول يساوي ٧١.١٢ سم، وبالتالي فإن الأرشين بالأمتار يساوي٧١م.

النوم بوضع نصف مقوّس! كان على النافذة ثلاثة إطارات وشبكتان من الحديد. نصف ظلام أبدي. وسلسلة حديدية على الحائط أيضاً... لم تنطبق إصدارات العفو على نزلاء سولوفكي: لم يكن هناك أيّ عفو!.. كانت المراسلات مع الأقارب ممنوعة! كان الأحكام على الشكل التالي "إلى الأبد" ، "حتّى إعادة التشكّل" و"حتّى انتهاء حياته، لا يذهب إلى أيّ مكان". لا إلى أيّ مكان!"

أنهى إيخمانيس مضغ البقدونس مع الساق، وتفل.

"كان هناك سجون تحت الأرض أيضاً" - تحدث بصوت منخفض وواضح، متوجهاً إلى أرتيوم، على الرغم من أنّ أرتيوم شعر أنّ ميتيا شيلكاتشوف، الذي كان يجلس خلفه، كان يستمع بكلّ قوته أيضاً - "هل تعرف كيف كانت تبدو؟ كان السقف أرضية الرواق. وكانت هناك فجوة في السقف لتقديم الطعام. وضع بيوتر، إيفان بويانوفسكي الذي جرى تجريده من منصبه الكنسي، في السجن عام ١٧٢٢. وفي عام ١٧٥١ كان لا يزال في السجن! وكان يقضي حاجته تحته في الحفرة نفسها على مدار ثلاثين عاماً! أكلت الفئران أذنه! أشفق عليه الحارس، وأعطاه عصاً لإبعاد الفئران عنه، لذلك تعرض الحارس للضرب بالسياط!.. كان السجن تحت الأرض ضخماً جداً، كما كتبوا في ذلك الوقت: "مخيف أصم تماماً". كان سجن سالتيكوف يقع في الزاوية الشمالية الغربية، تحت برج كوروجان، تحت أرضية رواق الخروج من كنيسة الصعود. كان هناك حفرة أخرى في الأرض في برج كولوفلينكوف، عند مداخل أرخانغيلسك. كان سجن كيلار يقع، تحت قاعة إعداد الطعام. سجن التجلّي تحت كنيسة التجلي... ماذا كانوا يطعمونهم في هذه السجون؟ الماء والخبز وأحياناً حساء الملفوف وشراب الكفاس(١). أصروا في الوقت نفسه: "على عدم تقديم السمك لهم قطّ!".

نظر أرتيوم إلى مفرش المائدة، وتحسباً، أخذ ذيل سمكة وبدأ يمصه، وهو ينظر باحترام إلى إيخمانيس.

---

(١) كفاس هو مشروب سلافي تقليدي مخمر يصنع عادة من خبز الجاودار، والمعروف في العديد من دول أوروبا الشرقية وخاصة في أوكرانيا وروسيا باسم الخبز الأسود.

قال إيخمانيس:"هل تعلم ماذا حدث بعد ذلك؟. لقد حظر السينودس السجون تحت الأرض- لأنّها قاسية! أمّا رهبان سولوفكي فلم يردموها! لأيّ غرض؟ مريحة لهم! ليست هناك حاجة لنقل أحواض البراز!.. أقول: كان هنا مسلخ دائماً! فلم يكن هناك مكان ليذهب الأب فيوفان إليه! لا يمكنك تخويفه بسجن سولوفكي.

خطر على بال أرتيوم سؤال: إذا كان هنا مسلخ من قبل، فهل هذا يعني أن فيودور إيفانوفيتش يعتقد أنّه بقي كذلك الآن؟

لكنّه لم يسأل- فهو ليس أحمق.

قال إيخمانيس: "اجلس يا غورشكوف".

وصل غورشكوف على حصان، نزل عنه بصعوبة.

كان واضحاً من مظهره، أنّه قضى نصف الليلة على الأقل مع إيخمانيس على طاولة واحدة.

جلس، وهو ينظر بارتياب إلى أرتيوم الذي سكب الفودكا هذه المرّة دون أن يسأل.

كان غورشكوف، مثل معظم رجال الأمن الآخرين، ذا وجه كبير وقوي البنية. لاحظ أرتيوم، منذ فترة طويلة، أن خدود سلالتهم رائعة- كان من المستحيل قرص مثل هذه الخدود بالتأكيد. كان لحم الخدين مشدوداً، وتصلّب نتيجة العمل المتواصل، كما لو كانت هذه الوجوه تقوم بقضم الدماغ من أقوى العظام.

قال إيخمانيس لأرتيوم، وهو يشرب، دون أن يقرع كأسه مرّة أخرى، ودون أن يعير أيّ اهتمام لغورشكوف:"أنا أعرف بماذا تفكّر". أنت تفكّر بماذا يختلف نظامنا عن النظام السابق؟ هل تعرف الجواب أم أقول لك؟".

قال أرتيوم: "أعرف ".

أمر إيخمانيس: "هكذا إذن؟ قل".

أدار غورشكوف خده في اتجاه أرتيوم.

فهم أرتيوم: "إذا أخطأت القول، فسوف يقضم حلقي. سوف يقلونني ويأكلونني."

أجاب أرتيوم بحزم: "هنا ليس سجناً. هنا ينشؤون مصنعاً للناس. كانوا في ذلك الوقت يضعون الناس في حفر تحت الأرض، ويبقونهم هناك كالديدان تحت الأرض حتّى الموت. أمّا هنا فلك أن تختار: إمّا أن تصبح إنساناً، وإمّا...".

أضاف إيخمانيس: "نعم، أم سنطحنك ونعمل منك مسحوقاً. هل تعتقد ذلك حقاً؟".

صحا أرتيوم من سكرته. كان هناك طنين خفيف في أذنيه. كان كلّ شيء في هذا النهار يرن أيضاً: الأشجار كلّها، وحركة الهواء، وأصوات الطيور.

كسر جندي من الجيش الأحمر غصناً في مكان قريب: كان يتحضّر لإشعال النار.

قال أرتيوم:"أعتقد أنّ لديكم هنا دولة داخل دولة. ممتلكاتكم، وديركم، وقاعاتكم، ورهبانكم، وجيشكم، وأموالكم، وجريدتكم، ومجلتكم، وإنتاجكم، وحلاقكم، ونساء لترفيهكم وجلادوكم" - هنا ارتجف خد غورشكوف وحوّل نظره إلى إيخمانيس، لكن لم يكن هناك ردّة فعل من قبل إيخمانيس. تابع أرتيوم: "لكم مسارحكم وموظفوكم وأخيراً مساجينكم... لقد سمعت عندما يأتي سجناء جدد، يقولون لهم : "إنّ السلطة هنا ليست سوفييتية، بل سولوفيتية". هذه حقيقة. الدين هنا عام- سوفييتي، لكنّ القرابين محليّة. وأنتم على هذا الأساس تصنعون إنساناً جديداً. هذه حضارة!".

صمت أرتيوم وجلس ينظر إلى مفرش المائدة، ولم يجرؤ على رفع عينيه إلى إيخمانيس الذي ضحك فجأة:

قال إخمانيس: "واللغة أيضاً، أليس كذلك؟ تظهر شيئاً فشيئاً لغة خاصّة هنا "- لم يكن واضحاً ما إذا كان إيخمانيس يمزح أم لا، وتحسباً أومأ أرتيوم

برأسه- " مزيج من لغة الجناة والنبلاء، واللغة البلشفية الجديدة، وقاموس الحرس الأبيض، لغة هواة المسرح والبغايا.

"كلّ شيء ممزوج: معطف النبلاء، ومعطف الفلاح وبلوزة الفنانين!" ربّما يضيف كوريز شاه وكبير شاه شيئاً. أليس كذلك أيّها الضحايا الأبرياء للديكتاتورية البلشفية؟".

أومأ كوريز شاه وكبير شاه برأسيهما.

راقب إيخمانيس اتفاق آرائهما مع رأيه بالكامل دون جدال، بسرور واضح لثوان عدّة، ثمّ أصبح جاداً في الحال، واستدار باتجاه أرتيوم، وواصل بوضوح أكثر:

"لدينا طبقاتنا الخاصة هنا، وصراعنا الطبقي، وحتّى نظامنا الخاص- أعتقد أنّه شبيه بشيوعية الحرب. الهرم على هذا النحو: نحن رجال الأمن في القمة. بعد ذلك يأتي معارضو الثورة، ثمّ رجال الدين السابقون والكهنة والرهبان، وفي الجزء السفلي، العنصر الإجرامي، وهم القوة العاملة الرئيسة وهذه هي البروليتاريا التي لدينا. صحيح، أنّها فقدت صلاتها بطبقتها ومحبطة، لكن يجب علينا إعادة تربيتها ورفعها إلى الأعلى".

تكلّم غورشكوف فجأة: "لماذا يحتلّ المعارضون السياسيون هذه المكان العالي، رفيق إيخمانيس؟".

أجاب إيخمانيس بسرعة: "مَن الذي يقود العلم؟ هم المثقفون البرجوازيون والمعادون السابقون للثورة. من يجسد الأدوار على خشبة المسرح؟ إنّهم هم. من الذي ينظيم التدريب في النادي، ومن ينظّم العمل التربوي في الحلقات، ومن يلقي المحاضرات؟..".

استدار إيخمانيس عن غورشكوف وأكمل فكرته، وهو ينظر في عيون أرتيوم:

"هذا ليس معسكراً، إنّه مختبر!".

استيقظ أرتيوم في الليل مع هذا الشعور الرائع، عندما لا تعرف أين تنام، لكن تتذكّر أنّه على ما يبدو لا يحدث شيءٌ فظيعٌ- بل على العكس.

كان الكوخ نصف مظلم، لكن تمكن أرتيوم في دقيقة من تمييز عيني والدة الإله في إيقونة قازان، ودون أن يرف عيناه راقب الليلة البيضاء.

تخطى ميتيا وزاخار وذهب إلى الفناء.

عند سماع ضجة، استيقظ كبير شاه على الفور وجلس: كان يمكن ملاحظ حدقتي عينيه الخائفتين في نصف الظلام.

فكّر أرتيوم بسخرية: "... تلمع، عيناه مثل إيقونة قازان، إنّه غير مسيحي"، وقال بصوت مسموع:

هذا أنا، واصلوا النوم. لا يزال الوقت مبكراً.

كانت نافذة غورشكوف لا تزال مضاءة، يبدو أنّها مفتوحة قليلاً : كانت تسمع الأصوات بوضوح شديد- لم يكن واضحاً على الفور، من يتكلّم وماذا يقول، لكن كان يمكن تمييز الضحك المتكرر: هذا إيخمانيس هو الذي يضحك. ينبح بحدّة، كما لو كان يستهزئ.

نسي أرتيوم مكان المرحاض، تبوّل على زاوية الكوخ.

فكّر، وهو يتثاءب: " مثل الكلب...".

كان رأسه صافياً بشكل خاص: لم يبق المشروب طويلاً في جسده - كان يحفر ويتعرّق ويشرب الكثير من الماء، وحتّى إنّه سبح في المساء، على الرغم من أنّ الماء كان بارداً، كما هو الحال في الخريف...

... في الطريق وهو عائد، جفل: كان الأب فيوفان يقف بالقرب من الكوخ. لو لم يكن يشعل غليونه، لكان أرتيوم تجاوزه: كان الراهب يذكّر بشكل كبير، بشيء جامدٍ تماماً لا تدب فيه الحياة، مثل شجرة، على سبيل المثال.

فكّر أرتيوم: " تبّاً، شيء مزعج. لا بد أنّه سمع أنّني هنا... على الزاوية... من منعني من الابتعاد والتبول على العشب؟ يا إلهي إنّني أحمق ".

قال أرتيوم بصوت أجشّ:"ليلة سعيدة"، وقتل بعوضة على خده.

أجاب الراهب السابق بهدوء: "سعيدة ".

"اسمع، أيّها الأب فيوفان "- لقد فرح أرتيوم لأنّهم يتحدثون معه، وغفر لنفسه على الفور بهيميته- يسهل على الشباب مثل هذه الأشياء- "هل حقاً إيخمانيس يبحث عن الكنوز؟".

أجاب الرجل العجوز: "وهل هذا سر؟ يبحث في كلّ مكان. لقد نبش سولوفكي كلّها. وها هو يبحث هنا. ويسألني أين المكان الأفضل للبحث".

"ولماذا لم تجدهم أنت أيّها الأب فيوفان؟ إذا كنت تعطي النصائح؟ أبحث أنت".

" لماذا ينبغي لي؟ لا أنوي ألذهاب من هنا إلى أيّ مكان. عندما تخرج الذهب إلى النور، فسيسألك لماذا أخرجته. لدي الكثير غيره عمّ سأسئل عنه أيضاً. أمّا إيخمانيس فلا يخشى أن يسألوه. دعه يبحث بنفسه".

صاحوا من نافذة كوخ الناظر: "فيوفان!"، وعرف أرتيوم أنّه غورشكوف من صوته.

وخمّن أرتيوم، في اللحظة نفسها، أنّ الرجل العجوز لتوّه خرج من كوخ غورشكوف- كما لو كان ليدخن، لكنّه في الواقع أراد الهروب إلى كوخه، لأنّه كان مرهقاً من الحديث الليلي مع ضباط الأمن. لم تكن تفوح من الرجل العجوز ليلة سولوفيتية، بل تيقّظ بشري، وكان لا يفوح من ملابسه الهواء والمساء، بل رائحة الناس والنبيذ.

تمكّن أرتيوم من التفكير من جديد: "... مثل الكلب، أشم رائحة كلّ شيء مثل الكلب...".

أجاب الأب فيوفان: " نعم؟".

سأل غورشكوف، مطلاً برأسه من النافذة: " مع من تتحدث؟".

أجاب أرتيوم بعد تفكير: "السجين أرتيوم غوريباينوف!". وسمع مباشرة إيخمانيس يقول بوضوح في مكان ما خلف ظهر غورشكوف: "دع كليهما يأتيان!".

أمر غورشكوف: "تعالا أنتما الاثنين!"، وعاد بصخب إلى الطاولة. سمعت قعقعة الأطباق، قام أحد ما بتحريك كراس عدّة، محدثاً جلبة.

ذهب فيوفان طائعاً إلى كوخ غورشكوف، دون أن يقول أيّ شيء لأرتيوم.

مدفوعاً بهواجسه الجيدة فقط، عاد أرتيوم إلى مرقده ليرتدي قميصه، وسارع وهو يرتديه في الطريق، ليلحق بالعجوز. لحسن الحظ، ترك العجوز الباب مفتوحاً وراءه، وإلّا لكان الأمر محرجاً، وأنت تدخل إلى منزل غريب، لا سيّما منزل رجل أمن، وأنت تتعثر - هناك، في الطريق يمكن أن تستضدم بدلو ماء شيطانية، وسيكون من الجيد إذا كانت فارغة، وليست مملوءة بمياه وسخة.

عاش غورشكوف بشكل متواضع: كان الموقد في منتصف الكوخ، وكان السرير بجنب الموقد، ولكن، حسب الفراش الموجود على الأرض بالقرب من الباب تقريباً، فإنّ إيخمانيس كان يشغل اليوم مكان صاحب البيت. لم يكن هناك من الأساس، باستثناء الطاولة والكراسي، سوى صندوق. علّقت فوق النافذة، حزمة من السمك المجفف، وعلّق فوق السرير على مسمار في الحائط سيف وساعة، بحيث كان من الممكن الوصول إليهما في حالة الاستلقاء.

جلس إيخمانيس على رأس الطاولة- لم يكن كما توقع أرتيوم بشكل غامض، متعباً ومترهلاً من ليلة السكر، على عكس غورشكوف. بل على العكس من ذلك، بدت حركاته ونظراته أكثر حدّة وسرعة. كان من الواضح أنّ غورشكوف، بمظهره الهادئ البطيء وخديه المشدودين، لا يتوافق مع مزاج الرئيس.

سأل إيخمانيس الأب فيوفان: "هل توصلت إلى إجابة؟".

قال الراهب: " لا يوجد لدي، يا فيودور إيفانوفيتش".

قال إيخمانيس بسرعة وكأنّه لم يسمع الأب فيوفان:"البروليتاريا أفضل من المسيح. لقد طرد المسيح الصيارفة من المعبد، أمّا البروليتاريا فقد أسكنت الجميع

هنا: هناك من خان، ومن قتل، ومن سرق ما ليس له... الثورة كذا وكذا، ولكن أين هي الحقيقة الهائلة التي يمكن أن تحل محل الحقيقة البلشفية ؟ لماذا الحفاظ على روسيا التي انهارت كلّها إلى أشلاء، متعفنة من الداخل، ومن الخارج- مغلفة بأوراق ذهبية؟ من أجل من الحفاظ عليها بهذ الشكل؟".

نظر إيخمانيس سريعاً إلى كلّ المجتمعين من حوله، واستقبل أرتيوم نظرته بهدوء.

"سولوفكي هو دليل مباشر على أنّ الجميع مذنب في المذبحة الروسية: هل قادة السرايا والفصائل من "السابقين" أكثر لطفاً من رجال الأمن الحاليين؟ قل يا أرتيوم ؟ كما لو أنّ فيوفان لا يعرف.

قال أرتيوم بعد وقفة مدروسة: "الكل... جيدون ".

هزّ غورشكوف وجنتيه المشدودتين، ونظر مرّات عدّة بحنق، أوّلاً إلى أرتيوم، ثمّ إلى إيخمانيس: بمعنى كيف يجرؤ هذا ابن آوى؟..- لكن إيخمانيس تجاهل من جديد نظرة غورشكوف.

نظر إيخمانيس إلى أرتيوم بصمت، دون أن يرمش.

بدت لأرتيوم للحظة، أنّ عينا رئيس المعسكر كانتا مجنونتين تماماً: لم يكن هناك أيّ إنسانية فيهما. حوّل نظره إلى يديه، ورأى أنّ معصمي رئيس المعسكر ليستا فلاحية، بل كأنّها لموسيقي، وأصابعه رقيقة، وأظافره شاحبة ومقلمة ونظيفة.

سأل إيخمانيس غورشكوف: "لماذا لم تسكب له ؟. أسكب، إنّه ضيف".

قام غورشكوف، دون أن ينظر إلى أرتيوم، بتقريب زجاجة وكوب منه، ممسكاً بهما معاً بيد واحدة، وأصابع دهنية وتقريباً حمراء دون أظافر.

ابتسم إيخمانيس. كان فيوفان ينظر إلى الطاولة.

سكب أرتيوم لنفسه جرعة كبيرة، وشربها على الفور.

كان في الطبق سمكة رنجة مقطعة بشكل غير متساو. كانت رائحتها جذابة وشهية. لم يجرؤ أرتيوم على مدّ يده إليها، ولكن بطريقة غريبة شعر بقرابة هذه الرنجة مع المعجزات الأنثوية... التورّم نفسه والإفرازات نفسها، بشكل لا يصدق.

حتّى إنّه عضّ على شفتيه ليصرف انتباهه عن هذا التصور.

واصل إيخمانيس، من مكان ما، لا أحد يعرفه غيره: " في الآونة الأخيرة، هرب أحدهم من الفوج إلى فنلندا. وأصدروا مباشرة كتاباً هناك، باللغة بالروسية، تصور... لقد أحضره لي بوكي للتو" - وأوضح إيخمانيس، وهو يلقي نظرة سريعة على غورشكوف- " كتب هذا الحثالة في كتابه، أنّه في غضون عام أعدمنا هنا ستة آلاف وسبعمئة شخص. هناك، على الأرجح، يغمى على الشابات عندما يقرأن ذلك. يمكننا إعدام ستة آلاف وستة وستين ألف. لكن كان يوجد هنا سبعة آلاف سجين فقط، في ذلك العام! من أعدمت ؟ ثلاث فرق موسيقية، و مسرحان، وسريّة إطفاء وحاضنة الثعلب؟ مع الثعالب!".

فكّر أرتيوم وفكّر، ومدّ يده إلى الفطيرة الموجودة على الطبق بالقرب من غورشكوف.

تبيّن أنّ الفطيرة من الملفوف: منتفخة وحلوة، ويبدو أنّ قشعريرة سرت في جسم أرتيوم من المتعة.

أمسك، بعدها مباشرة، بقطعة من سمك الرنجة، وألقى بها في فمه: أخ، أخ، أخ. مضغها بعيون مليئة بالبهجة.

ابتلع غورشكوف لعابه، تنهد بشدة، كانت تعابير وجهه توحي بأنّه يقول: " ألم تكتف بعد ؟".

فكّر أرتيوم: " ألا يكفيك كل ذلك؟ ".

تابع إيخمانيس، وكأنّه لا يلاحظ ما كان يحدث حول الطاولة، ولكن في الواقع كان يلاحظ ذلك بدقة: " يكتبون أيضاً، أنّ السجناء يتعرضون للتعذيب هنا. لكن لا يكتبون على الإطلاق، أنّ السجناء أنفسهم يتعرضون للتعذيب من قبل سجناء أيضاً. المشرفون على العمال، ورؤساء مجموعات العمال، والمشرفون على الإنتاج، والمشرفون على السكن، وقادة السرايا، والذي يوزعون المهمات، ومديرو الإمدادات، والجهاز الطبي والثقافي- التربوي، والجهاز الإداري بأكمله-

جميعهم من السجناء. من يعذبكم؟". نظر إيخمانيس من جديد إلى أرتيوم الذي توقف عن المضغ على الفور، ليس بدافع الخوف، بل على الأغلب كان يلعب دور الأحمق بهدوء- "أنتم تعذبون أنفسكم أكثر ممّا يعذبكم أيّ رجل أمن!".

يبدو أنّ إيخمانيس بدأ يتوسع بالحديث- خمّن أرتيوم ذلك من حركة غورشكوف الذي أزال يديه ببطء عن الطاولة واستعد.

قال إيخمانيس بصوت عالٍ- بالنبرة نفسها التي يقرؤون بها الشعر على خشبة المسرح: " عراة ! يكتبون، إنّهم يذهبون عندنا هنا إلى العمل عراة ! وإذا كان هؤلاء جناة خسروا ملابسهم باللعب؟ هل أنا أخلع ملابسهم بنفسي؟ يا لها من حماقة ؟ هل تعلمون ماذا سيحدث إذا أعطيتهم جميعاً جزماً الآن؟ غداً نصف أولئك الذين لديهم جزم سيكونون حفاة!".

تجهم إيخمانيس، كأنّه يضبط نوبة غضب.

"يكتبون إنّنا نسكّن العاهرات مع الراهبات! وكيف تريدون؟ بحيث يكنّ الراهبات وحدهنّ، والعاهرات وحدهنّ؟ وأيضاً البارونات بشكل منفصل؟ وبعد ذلك، ستتفاجؤون إنّ العاهرات يسرن عاريات؟ أنا أقوم بإسكانهن معاً، لأنّ ذلك يقلل من عدد المشاجرات، والإصابات بمرض الزهري، والفجور، والانحلال، والقباحة مباشرة!"- أخذ إيخمانيس كوباً وضرب به على الطاولة بشدة عند لفظ كلمة "القباحة ".

وبّخ إيخمانيس شخصاً ما، إمّا من الذين كانوا حاضرين هنا، وإمّا غائباً: " نحن فصلنا السياسيين فقط!. والكهنة أيضاً! ونحن نحفر، ونكسب المال بأيدينا، بحيث يكتفي الجميع ! لأنّ ما ترسله موسكو يكفي فقط لشراء التوابيت! وهذا صحيح! يجب أن نكون قادرين على كسب المال بأنفسنا، فنحن لسنا في الجنة. وماذا تريدون؟. البلد كلّه يعيش هكذا! البلد تنتظرها حرب! يجري عصر الفلاح إلى آخر نقطة! ويضغطون على البروليتاريا! هل يجب ترككم في حالة راحة ؟.

كان أرتيوم ، لحسن الحظ، قد مضغ نصف الفطيرة، وجلس ينظر إمّا إلى الزجاجة التي بقي فيها النصف، وإمّا إلى سمكة الرنجة التي لم يلمسها أحد على الإطلاق، لكنّه كان شكلها يثير بشكل طبيعي، كلّ ما هو ذكوري بالتحديد.

كانت سهرة هذه الليلة مذهلة. كان أرتيوم يقرص نفسه أحياناً من ساقه: هل كان يحلم؟. كانت تسري في رأسه من جديد حالة من السكر الحلو، وكان يريد أن يشرب أكثر.

لم يكن أرتيوم يخاف من إيخمانيس على الإطلاق. ولم يفهم سبب خوف غورشكوف منه.

قيل إنّ إيخمانيس أعدم شخصاً ما، في عيد ميلاد دزيرجينسكي. ربّما أعدم شخصاً ما- لكن لماذا يجب أن يعدم أرتيوم؟.

قال إيخمانيس: "عند قراءة ما يكتبونه من قصص عنّا، يتبيّن أنّه لا يوجد سوى سياسيين هنا- وكلّهم يجلسون على الأعمدة والعوارض. أمّا هنا فيوجد نهابو البيوت ولصوص وسارقون وحرامية، ونشّالون ومسممون، ولصوص السكك الحديدية ولصوص المحطات الحديدية، وسارقو الدراجات، وسارقو لخيول ولصوص الكنائس ولصوص المتاجر ومحتالو صرف العملات، واللصوص الذين يسرقون ضيوف صديقاتهم العاهرات، والذين لديهم خمارات وبيوت دعارة، ومشترو البضائع المسروقة، والمحتالون والنصابون الذين يخدعون الفلاحين، بالعملة المزيفة... لكنّهم يكتبون أنّ أفضل الناس في روسيا يجلسون هنا، ويتألمون. بالمناسبة، هل تعلم أنت يا أرتيوم، أنّه يجلس هنا رجال أمن أكثر من عناصر الحرس الأبيض؟ألا تعلم ؟ أعلم إذن!"- انفجر إيخمانيس فجأة بالضحك، وهو ينظر إلى غورشكوف.

هذا الضحك لم يرحْ أحداً.

كان الراهب الآن ينظر من النافذة، كما لو كان ينتظر الفجر. يقال مع بزوغ الفجر، تختفي أيّ أرواح شريرة. كان غورشكوف ينظر إلى الطاولة.

قال إيخمانيس بنوع مع بعض الإلهام أيضاً : " يعيشون في ظروف أفضل بكثير من غيرهم!. يعرف أرتيوم في أيّ نوع من الغرف يعيش المعارضون للثورة والكهنة! أمّا عناصر الأمن فلا تعطى غرف لهم! يعيش جميعهم في ثكنة واحدة. من خدم الثورة أكثر؟ رجال الأمن أم المعارضون للثورة؟ ما رأيك يا غورشكوف؟".

عض غورشكوف شفته، وبدأ في التحديق إلى الأمام مباشرة، كما لو كانت الإجابة مكتوبة بحروف صغيرة على الحائط المقابل.

أجاب إيخمانيس باستهزاء بدلاً عنه. لا يهم من خدم الثورة أكثر!. جرى إل-غا ؤ- ها ! بدأت حسابات جديدة! من يعمل- يأكل الفطائر! ومن لا يعمل تأكله الديدان! هذا أرتيوم اليوم يجلس هنا- وفجأة سيهرب غداً؟"- هنا قفز غورشكوف مرّة أخرى، وحتّى إنّه بحث عن مسدسه على خصره- كان مكانه- هل يطلق النار على الهارب؟- لكنّ إيخمانيس مازال لم يعطه إشارة، وواصل الكلام: سيهرب ويخبر الجميع هناك بالحقيقة كاملة. ما هي الحقيقة التي يعرفها؟ كان في سريتين، وذهب خمس مرّات لنقل الجذوع، وخمس مرّات لجمع الثمار، وتحدّث مع عشرين سجيناً مثله. سيصف سكنه- كما لو أنّ العالم يقتصر على سكنه... وهنا ليس معسكر فقط بقدر ما هو مؤسسة إنتاجية ضخمة. عدّ على أصابعك!"- أمر إيخمانيس أرتيوم: "قطع الأشجار. النشر والنجارة. صيد الأسماك والفقمات. تربية الماشية وإنتاج الألبان. معامل الجير والمرمر والفخار والمصانع الميكانيكية، وورش البراميل الخشبية، والحبال، والصنفرة، وصناعة القوارب. هناك ورش أخرى أيضاً: الجلود، الأحذية، الخياطة، الحدادة، الطوب... بالإضافة إلى مصنع الأحذية. كهربة الجزيرة. ومصنع التقطير. أوه، انتهت أصابعك. لنبدأ من جديد...".

سكب إيخمانيس كأساً لنفسه، واعتقد أرتيوم أنّ الجميع هنا يشربون في اتجاه عقارب الساعة، ما عدا فيوفان... الآن سيأتي دوره.

"... سكة الحديد، واستخراج الخثّ، واستخراج الملح ، ومزرعة الفراء، والإنتاج الزراعي. لم يستطع الرهبان أن يزرعوا أيّ شيء، قالوا "المناخ غير مناسب"، أمّا نحن فنزرع البطاطس والشوفان! النقل يالقوارب والسفن. تشييد مبان جديدة، وترميم القديم. إصلاح وترميم القنوات التي حفرها الرهبان. محمية وحاضنة الحيوانات. إنتاج القطران، محطة إذاعية ودار الطباعة. مسرح، بل اثنين. أوركسترا، بل اثنتين أوركسترا. وصحيفتان. ومجلّة. ولدينا أيضاً مستشفى، وصيدلية، وثلاثة أكشاك... بالمناسبة، أنت من أين اشتريت هذه القبعة، يا غورشكوف؟".

أجاب غورشكوف بسرعة: " من الكشك".

نظر إيخمانيس إلى أرتيوم، وأومأ برأسه، كما لو أنّ قبعة غورشكوف كانت بمثابة دليل على كلّ ما قاله.

" يكتبون أنّهم يطعمونهم بشكل سيئ. من أين سآتي بالطعام ؟ الطبيعة فقيرة والموارد الطبيعية شحيحة. يمكن أن تقدم جميع هذه الأعمال والمنتوجات العون فقط. للاحتياجات المحلية. للاحتياجات الداخلية. للمعسكر. لكنّنا نتدبر ونطعم عدداً، لم يستطع الرهبان إطعام هذا العدد قط. لو أتوا بهذا العدد من لسجناء إليهم، لكانوا ماتوا بعد أسبوع... يكتبون يعالجون بشكل سيء. لكن نحن في كل عام نطلب أدوية بقيمة (٢٠٠٠) روبل! أين هي؟ أسألك! أين؟ يسرقوها، ربّما؟ لكن إذا قمت بوضع رجال الأمن في زنازين عقابية لهذا السبب، فلن يكتبوا عن ذلك! لن يكتبوا أنّ لدينا مدرسة لمحو الأمية! لن يكتبوا أنّني فتحت كنيسة، وسمحت لكهنة ورهبان سابقين بارتداء الغفافير".

فتح فيوفان فمه المغلق بشدة فجأة، وقال :

"في البداية، منع لبس الغفافير ثمّ جرى السماح بلبسها: كأنّه حسب عملاً صالحاً ؟ ممكن أيضاً جلد شخص ما، ثمّ دهن عظامه بالزيت، وهذا عمل صالح آخر".

ابتهج إيخمانيس فجأة، وكان قد بدأ يشعر بالملل أكثر فأكثر كلّ دقيقة.

قال إيخمانيس: "هذا هو "- كما لو أنّ فيوفان، مثل قبعة غورشكوف، أكّد صحة ما يقوله مرّة أخرى- " قال لا يوجد لديه أجوبة. كنت أعلم أنّه يوجد".

صمت فيوفان، لكنّ أرتيوم، بطريقة غريبة، كان لا يزال يستمع إلى ما قاله. نطق العجوز حرفا "ج" و "ش"، كما لو كان شيئاً مستديراً وأشعثاً- يمكن جمعهما بكفٍّ واحدة وتمسيدهما.

حذق غورشكوف بأسنانه مرتين، وكاد يختنق بسبب غضبه المكبوت، لكنّ إيخمانيس أوقفه بأقصر نظرة ممكنة.

" من الموكد أنّ فيوفان، لم يقرأ شيئاً عدا حكاياته الخيالية المقدسة، لكنّ أرتيوم قرأ دوستويفسكي، على ما أعتقد. أتذكّر عندما كان دوستويفسكي محكوماً بالأشغال الشاقة، كان الجميع هناك مقيدين بالأغلال، وجرى جلدهم لارتكابهم ذنوب. مثل الأطفال. هل جرى جلدك هنا؟".

تذكّر أرتيوم كيف ضربه كرابين بالعصا، لكن لماذا يجب أن أتحدّث عن ذلك ، لذلك رفع رأسه ببساطة بمعنى: لا، لم يجلدوا. لم يجلدوا حقاً.

قال إيخمانيس، وهو يرفع صوته: "أنا لا أرى أيّ أصفاد في أيديكم. هل تفكونها في الليل؟".

قام فيوفان من جديد بفتح فمه مرّة أخرى- بدا أنّ لديه كلمة جاهزة أخرى مع هسهسة في الحرفين"ج"و"ش"، لكنّ إيخمانيس أوقفه أيضاً هذه المرّة:

" ما قلته، يعجبني. وإذا قرّر غورشكوف أن يضغط عليك من أجل هذا، فسيتعين عليه هو نفسه أن يصطاد الفقم. لكن أسكت الآن. أنتم ذوي الأثواب الطويلة يجب أن تصمتوا من الآن وإلى الأبد. سأتحدث مع أرتيوم، فلن يشرح له أحد ذلك. يا أرتيوم، هل تحب الشعر؟ أنا أحياناً أقرأ الشعر. يقولون إنّ الشعراء يمكنهم التعبير أكثر من... نعم. إذا كانوا سيكتبون عنّا قصائد ويغنون الأغاني

عنّا، فهذا يعني سيمنحوننا براءة لقرون. وقد بدؤوا يكتبون عنّا ويغنون. ولكن ما يجب ملاحظته، ياأرتيوم. لم يقرأ الناس البسطاء في القرى الروسية الشعر قطّ. الشيء الأساسي بالنسبة لهم أنّ القس شرح لهم - عن الله، وعن روسيا، وعن القيصر. كان عدد نسخ أيّ كتاب من كتب بلوك[1] لا يتجاوز الألف نسخة. ولكن كان لدى كلّ قس ثلاثة آلاف من الرعايا في أيّ قرية. هذا أقوى من المسرح! يوجد سينما الآن، لكنّ القس أقوى من السينما، لأنّ السينما صامتة، ويجري هناك كلّ شيء... على عجل. أمّا القس، فليس في عجلة من أمره. والراهب لا يستعجل مطلقاً".

نظر إيخمانيس إلى فيوفان، ليتحقق ممّا إذا كان في عجلة من أمره للنوم قبل الفجر، أم إنّه مرتاح هنا.

"وإذا قال القس إنّ السلطة السوفييتية من المسيح الدجال - وهم يقولون هذا بلا كلل! - هذا يعني لن نبني أيّ اشتراكية في هذه القرية، ما دامت الكنيسة قائمة هناك!" - قال إيخمانيس ذلك، وهو ينظر بطرف عينه إلى فيوفان بمكر خبيث، كما لو كان مسروراً بصمته - "إنّها ليست حتّى عصا في العجلة! القس يسحب عربتنا في الاتجاه المعاكس، ويسحبها بنجاح كبير! في أفضل الأحوال، قوانا متساوية. لقد استمع الفلاح إلى القس، منذ ما يقرب من ألف عام، أمّا نحن فيجب أن نعلّمه خلال عشر سنوات كيف يستمع إلينا! هذه مهمتنا!.. وسننفذها!".

جلس إيخمانيس لنصف دقيقة، ينظر إلى الطاولة، ويدحرج الكوب الفارغ بين إبهامه وإصبعه الأوسط قليلاً.

وتابع بصوت منخفض: "يقولون إنّنا قتلنا الكهنوت الروسي. والعكس هو الصحيح. يوجد في روسيا أربعون ألف كنيسة، وفي كلّ كنيسة كاهن، وفوق

---

(١) ألكسندر بلوك: شاعر وكاتب روسي شهير ولد وعاش في القرن التاسع عشر في مدينة سانت بطرسبرغ. [المترجم].

كلّ كاهن رؤساؤه. أمّا في سولوفكي، فتوجد الآن سريّة واحدة من ذوي الثياب الطويلة، مؤلفة من١١٩ شخصاً! وهم أكثر عنداً وخبثاً. أين البقية؟ إنّهم جميعاً هناك. يعظون عن ملكوت المسيح الدجال. أليس كذلك يا فيوفان؟" - صرخ إيخمانيس فجأة ؟ وأمر بصوت أعلى: "أخرس!..".

واصل إيخمانيس مبتسماً بامتعاض، وأصبح صوته حانقاً وغاضباً: " حسناً، لو أنّهم يعظون فقط ! لا أحد يتحدث ما الذي جرى اكتشافه في دير سولوفكي عندما وصلنا إلى هنا عام ١٩٢٣. فما الذي جرى اكتشافه؟. ثمانية مدافع عيار ثلاث بوصات، ورشاشان، و٦٣٧ بندقية من أعيرة مختلفة، مع احتياط ضخم من الذخيرة. فيوفان!"- صاح إيخمانيس من جديد، بشكل غير متوقع وغاضب- " ما الذي كنتم تريدون اصطياده ؟ الفقم؟ بالمدافع ؟آه؟ أخرس!".

"نحن نفهم ما الذي يعنيه ذلك؟"- سأل إيخمانيس، سأل بالضبط ليس الذين يجلسون هنا، بل أحد ما يجلس وراءهم- "حصن منيع لم يستطع البريطانيون الاستيلاء عليه، وحاصره القيصر أليكسي الأهدأ لعشر سنوات. وكان مليئاً بالأسلحة، مثل فرقاطة قرصنة. بالمناسبة، كان الرهبان هنا، منذ فترة طويلة متخصصين ليس فقط بالصلاة، ولكن في الرماية أيضاً. وبماذا كنتم ستنصحون السلطة السوفييتية أن تفعل؟ ترك الدير هنا؟ هذا... رائع!.. لطف رائع. لكنّني أعتقد أنّه يكفي أنّنا لم نطلق النار عليهم جميعاً على الفور، لا بل تركناهم يعيشون هنا أيضاً... لكن في الحقيقة، أخذنا المدافع... ولكن إذا كتب فيوفان ورقة إنّه يحتاج إلى مدفع، فسأنظر في الأمر...".

هزّ إيخمانيس علبة السجائر، وسكب التبغ، أخرج أخيراً آخر سيجارة.

بحث عن النار بعينيه، لكنّه وجد الراهب العجوز، وأرتيوم الذي شعر بشيء ما غير لطيف مباشرة.

قال إيخمانيس بضجر واستياء: "... اذهبا إلى النوم".

لكنّ وجهه كان كما لو أنّه لم يكن يريد الراحة بشدة، بل على العكس من ذلك: استيقظ فجأة ولاحظ أشخاصاً غرباء، وغير مألوفين.

عندما كان أرتيوم يغادر، نام غورشكوف في اللحظة نفسها فجأة.

سمع هو والراهب في الشارع، خبطة قوية، وصرخة شخص.

توقف أرتيوم،أمّا فيوفان، على العكس من ذلك، فأسرع أكثر.

سمع ضحك إيخمانيس في البيت.

فكّر أرتيوم ولحق بفيوفان، وأدرك، بعد بضع خطوات، ماذا كان هذا الضجيج: قام إيخمانيس بإزاحة الكرسي من تحت غورشكوف.

لم تخرج سمكة الرنجة، بكلّ ما تحتويه من زيت وذهب، من رأس أرتيوم قطّ. مع العلم ما علاقة رأسه هنا.

شعر في البداية، بعد خروجه من كوخ غورشكوف، بالأمان، ثمّ شعر فجأة بألم مزعج في أسفل بطنه مرّة أخرى، كما لو كان هناك خيطٌ يفتل من تلقاء نفسه، ويصبح المكان في داخله أقل وأقل، أقل وأقل. ونتيجة لذلك شعر براحة نفسية، وخوف، وإثارة، دون خجل.

استدار فيوفان، بعد أن دخل منزله، وسأل:

" هل ستذهب إلى النوم؟".

أجاب أرتيوم بصوت أجشٍّ، وهو يعلم مسبقاً ما الذي سيفعله: "سأستنشق الهواء لبعض الوقت".

أصبح بعد الكحول، فاسقاً وجريئاً.

قال فيوفان: "حسناً، استنشق. وأنا سأغلق الباب... وإلّا فسيدخل البعوض".

كان البعوض يلتف حول وجهه، لكنّ هذا الخيط في الداخل كان يشتد أكثر، ولم يكد ينتظر حتّى أغلق فيوفان الباب، ذهب أرتيوم بسرعة إلى

خلف الكوخ، بعيداً عن النوافذ- كان كلّ شيء حياً، وحاراً، منتفخاً، ومليئاً بالدماء التي تغلي.

ضحك إيخمانيس من جديد عند غورشكوف، لكنّه لم يهتم.

ابتهجت الغابة القريبة، والمليئة بالطيور المغردة.

كأنّ مصنعاً ضخماً كان يعمل هناك. شخص ما كان يخيط بشكل واضح على ماكينة خياطة. ضرب شخص إبر الحياكة الفضية بعضها ببعض- إبرة بإبرة، إبرة بإبرة. كان أحدهم يغسل أكواباً من الكريستال في حوض. كان أحد ما يدير الترباس الذي يصدر صريراً. كان أحد ما يهزّ بندول الساعة الحائطية المتوقفة. كان أحد ما ينقر مكبات الخيط بعضها ببعض. ألقى أحد ما خواتم رنانة على إصبع خشبي. كان أحدهم يسحب الماء من البئر، ويلف السلسلة. نقر أحد على المقص، وهو يستعد ليجربه بقص ورقة. كان شخص ما يخف بالمسوي، كان أحد ما يدحرج حبات جوز في راحة يده، كان أحدهم يحاول حف عملة ذهبية على سن نحاسي، أحد ما كان يصفق كحدوة حصان، شخص ما كان يحث الآخرين، ويلوّح بالسوط في الهواء، وشخص ما كان يحث كسولاً، وأخيراً شخص ما، كان يصفر- بدا أنّ الغابة بأكملها تغنّي مع أرتيوم، وابتهجت كلّ دمائه.

فكّر أرتيوم بشكل غامض، كما لو كان بآخر قوته: " من أين هذا العدد الكبير من الطيور هنا؟ غابات سولوفكي دائماً هادئة جداً، كأنّها منقرضة... وماذا يجري الآن؟".

بمجرد وصوله إلى الزاوية، بدأ أرتيوم بتسلية نفسه: حلّق البعوض حول يديه العاريتين، ولم يستطع الإرتكاء عليهما بأيّ شكل من الأشكال- كان الأمر مضحكاً، لكن ليس إلى ذلك الحد الذي يضحكه: لأنّ في داخل البطن كان يسقط خيطاً وراء آخر دون ألم وبهدوء، أصبح هناك المزيد والمزيد من الحرية والفضاء. وفي هذه الحرية أزهرت زهرة ضخمة وتفتحت بسرعة، لزجة، ومشمسة، ومليئة بالعسل.

وإضافة إلى ذلك، هذه الطيور المجنونة...

تخيل امرأة بيضاء في تلك الأماكن، إذ يوجد لديها بياض في الأماكن التي يجب أن تكون بيضاءً، وتكون داكنة، إذ توجد أماكن داكنة، وتتنفس من فمها المفتوح، ولا تعرف كيف وما الذي يجب أن تفعله، لتظهر ما يخفى من مفاتن.

... لم يستطع أرتيوم التحمّل في اللحظات الأخيرة، وسحق ثلاثة بعوضات كانت تمتص دمه، وضغط خده بحدة على كتفه، وشعر في الوقت نفسه، كأنّ النجوم تسقط في يده المتحركة...

شعر بموجة فائرة ناعمة عبرت جسمه كلّه: من الدماغ إلى الكعبين- وذهبت إلى مكان ما في الأرض، إلى صميمها.

أدرك أرتيوم فجأة، كما لو أنّه صرخ بهذه الفكرة داخل نفسه: "هكذا ولد العالم! هكذا! ولد! العالم!".

... لقد تناثر كلّ شيء!- لقد تناثر لفترة طويلة بشكل غير طبيعي- هكذا، مثل هذا، نعم، مثل هذا... هل سيتوقف أخيراً!- لم يعد الأمر ممتعاً، وليس مزعجاً، ولكنّه مؤلم قليلاً، ومثير للغثيان، وبارداً، وكانت الزهرة التي تفتحت للتو، بدأت تنغلق، وتبرد، وتختبئ- لكنّ البعوض تضاعف أكثر بمرّات سبع، وكان إيخمانيس يضحك بلا توقف - وفي المنزل، إذ كان ينام أرتيوم، تقلّب أحد ما: واتضح أنّ ذلك كان قريباً جداً، ومسموعاً جداً.

جلس أرتيوم، وكان رأسه يدور، ولمس الأرض براحة يده، وأحس على الأرض بشيء ما لزج ورطب، كما لو كان أحدهم استنثر هنا.

وقف أرتيوم بحدّة، ومسح يده بسرواله.

لم يولد أيّ عالم. شوْهدت، في ليلة سولوفكي البيضاء، قطرات بيضاء على العشب. سحقها بقدمه.

لم يرى أحد إيخمانيس منذ الصباح.

لم يكد استيقظ أرتيوم، وذهب ليغسل وجهه، لم يستطع الانتظار، وذهب إلى الزاوية، ونظر هل بقي هناك أثار من ليلة أمس؟.

ضحك أرتيوم من نفسه:"... فربّما سيظهر إيخمانيس الآن، ويلاحظ على الفور كلّ شيء، ويسأل مهدداً:" من فعل ذلك في الليل هنا ؟ ".

شعر بقرف إلى حدٍّ ما. لكنّه يمكن تحمله، تحمله...

وضع فيوفان على الإفطار، ستاً من سمك الرنجة دفعة واحدة. لم تعد تشبه أيّ شيء أنثوي في الصباح، لكنّها كانت لا تزال لذيذة كما في السابق.

أكل الجميع بشراهة وبسرعة وبشهية. لعقوا أصابعهم وابتسم بعضهم لبعضٍ. لم يتحدثوا في أثناء تناول الطعام تقريباً. كان الجميع منغمساً في الأكل.

لاحظ أرتيوم أنّ بياض عيني كبير شاه، احمرّ من التوتر.

أكل شيلكاتشوف بأناقة أكثر من أيّ شخص آخر: لوحظت تربيته. كان في بعض الأحيان ينظر باهتمام، ويحدّق قليلاً في الأيقونات المعلقة في كوخ فيوفان.

قال شيلكاتشوف فجأة، محوّلاً نظره إلى أرتيوم: "أعتقد، فيما لو جرى تناول مثل هذه الرنجة يومياً، فسيكون ذلك صورة عن السعادة الحقيقية البشرية".

أومأ أرتيوم بابتسامة: لقد قدّر ما قيل.

"شكراً لك أيّها الأب فيوفان!" - شكر أرتيوم بصوت عالٍ ، أخذاً دور الأكبر الذي لم يمنحه له أحد، وذلك عندما جرى الانتهاء من أكل سمك الرنجة.

كان سيخجل أن يعترف لنفسه، أنّه يريد أن يسمع الأب فيوفان يتحدث معه. بدا له لسبب ما، أنّ فيوفان فهم بالضبط كيف كان أرتيوم يستنشق الهواء أمس بالتحديد - وهذا ما جعل أرتيوم يشعر بعدم الارتياح.

بدلاً من الإجابة، ألقى فيوفان بخرقة على الطاولة، بدت أنّها سروال داخلي قديم له. بدأ الجميع على الفور يمسحون بها أيديهم التي جرى لعقها أربعين مرّة، ولم يتأفف أحد من ذلك.

خرج فيوفان من الكوخ.

فكّر أرتيوم "... إلى الجحيم، أيّها الشيطان العجوز، لا أحد يعرف ما تفعل هنا طوال حياة عزوبيتك...".

عندما خرج البقية بالتدريج إلى ضوء الشمس، ابتسم شيلكاتشوف بلطف شديد لأرتيوم، لدرجة أنّهما بدأا الحديث على الفور. ولا سيّما أنّ أرتيوم لم ينم بشكل كافٍ ، ولا يزال يشعر أنّ الكحول يتخمر في داخله. وفي هذه الحالة، لسبب ما، كان دائماً كثير الكلام، ومنفتح بالكامل وفضولياً على الآخرين. أراد التحدث، بشكل مضاعف، بسبب فيوفان: كان هذا الخجل الهادئ والملحّ، يتطلب تشتيت الانتباه.

سأل أرتيوم، هامساً بمرح : "هل أدركت ما نفعله؟.

هزّ شيلكاتشوف كتفيه بنفس الطريقة المرحة، بمعنى أنّه من الصعب عدم التكهن.

ومع ذلك، فتح أرتيوم عينيه على وسعهما، متسائلاً بمعنى: كيف خمّنت ذلك؟.

انفجر كلاهما من الضحك عند ذلك، لأنّهما أدركا في الحال، حقيقة أنّه بعد أوّل سؤال لأرتيوم، كانا قادرين على تبادل بضع جمل دون أن ينبس ببنت شفة.

قال شيلكاتشوف: "لقد أتوا بي إلى هنا لأنّني أعمل بالأيقونات".

لم يفهم رتيوم: "أين؟".

أجاب شيلكاتشوف: " لقد جرى نقلي من السريّة الثانية عشرة، إلى المتحف الذي أنشأه إيخمانيس".

تعجّب أرتيوم:"هل يوجد متحف هنا أيضاً؟ متذكراً ما عدده في الأمس رئيس المعسكر: لم يذكر المتحف، عندما كان يحني أصابعه".

قال شيلكاتشوف:"نعم، نعم. في كنيسة البشارة. هناك ألفان وخمسمئة أيقونة. من بينها الأيقونتان المعجزتان سوسنوفسكايا وسلافيانسكايا...".

هنا نظر بانتباه وسرعة إلى أرتيوم الذي خمّن على الفور.

بنظرة ذات معنى: حاول شيلكاتشوف أن يفهم ما إذا كان كلّ هذا مهمّاً بالنسبة لأرتيوم أم لا. يبدو أن شيلكاتشوف نفسه، كان مؤمناً، والذي لا يمكن قوله عن أرتيوم، لكنّه لم يظهر ذلك، بل على العكس من ذلك، أومأ برأسه باحترام واهتمام.

تحدث شيلكاتشوف: "يقولون إنّ الأيقونة السلافية هي من عمل أندريه روبليف[1]، وكان رئيس دير سولوفكي فيليب نفسه يصلّي أمامها، والذي أصبح فيما بعد مطران كلّ روسيا، ثمّ جرى خنقه بأمر من إيفان الرهيب".

أومأ أرتيوم من جديد مرّات عدّة، موحياً بأنّه سمع هذه القصص. وكان في الحقيقة يعرف شيئاً عنها، لكنّه نسيها منذ فترة طويلة.

سأل: "ماذا تفعل في المتحف؟".

" أنا أجلس في مذبح البشارة، وأرسم المعروضات بالنظر: أنا أحدد القرن والقيمة والمحتوى... لقد استبدلني رئيس المتحف بثلاث حبريات كنسية أعطاها لكوتشيرافا"- ضحك شيلكاتشوف، و قهقه أرتيوم أيضاً- "أفهم القليل عن الأيقونات وغيرها من الآثار الأخرى- لقد درست ذلك. لذلك خمّنت بسرعة لماذا يحتاجني... فيودور إيفانوفيتش. سنعثر على شيءٍ بشكل عشوائي- يحتاج إلى أن يفهم على الفور ما إذا كانت تبلغ من العمر ثلاثين عاماً أم ثلاثمئة، هل هي ذات قيمة أم... التقطها وإفلتها، هل يستحق ذلك مواصلة التنقيب هنا أم لا".

سأل أرتيوم: "هل تعرف ما إذا كان قد وجد شياً بالفعل؟".

هزّ شيلكاشوف كتفيه: "من سيخبرنا بذلك. ربّما وجد. هناك مثل هذه الإشاعات... كما لو إنّه وجد ورقة مكتوباً فيها أنّ الكنز هناك، إذ أثر الرأس

---

(١) أندريه روبليف (١٣٦٠ - ١٤٢٨): لا تزال هويته غامضة حتّى اليوم، وهو رسام وأيقونة روسيا للإيمان الأرثوذكسي. [المترجم].

الثالث الذي ظهر منتصف يوم الثالوث- ويجب الحفر على عمق ساجن[1]. افترضوا أن يكون تحت الرأس قبّة معبد. أوه، لقد بحثوا عن الرأس المطلوب هنا، وحفروا كثيراً في يوم الثالوث- لقد بذلوا جهداً كبيراً خلال يوم كامل، ولم يجدوا أيّ شيءٍ... لكنني سمعت أنّه بحث في جميع أوراق الكنيسة، وأنّه يستدعي رهبان سولوفكي إليه للحديث معهم".

جاء شاب ثالث، الأصغر في فريقهم، زاخار.

كان قصير القامة، مقوس الساقين، ضخم الأنف، لا تتناسب خشونة لحيته مع سنه- كان من الواضح أنّه لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أيام، لكن الشعر نما عليها بكثافة، فيما لو ترك لحيته ولم يحلق ذقنه لأسبوع، ففي سنه العشرين، أم كم هو عمره الآن، فسيكون لديه لحية حقيقية مجعدة قليلاً.

أراد أرتيوم أن يسأله أمس أين التقيا من قبل، لكنّه نسي أن يسأله.

ابتسم زاخار: "ألا تذكر؟". عندما زرّ عينيه وابتسم، بدت عيناه تختفيان تحت الجفن: "لقد أتوا بنا على نفس الباخرة، وكدنا نختنق في قاع السفينة: وبدافع الغباء صعدنا أوّلاً، لكن كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس: عندها ستكون أمكنتنا بالقرب -

من المخرج، على الأقل يمكن شمّ الهواء هناك.

أومأ أرتيوم: نعم حصل ذلك.

" وكنّا معاً في السريّة الثالثة عشرة أيضاً، لكن بسبب الازدحام نادراً ما كنّا نلتقي معاً، وكنت أنا بلا لحية، ودائماً كنّا موزعين على أعمال مختلفة... وبعد ذلك جرى نقلي إلى السريّة الثانية عشرة- في نفس الوقت عندما أنت..."- نظر زاخار إلى أرتيوم وضيّق عينيه من جديد، وأضاف: " تقاتلت أنت هناك مع الجناة، ثمّ وضعوك في المستشفى".

---

(١) ساجن يساوي ٢,٤٨ متر. [المترجم].

أعجب أرتيوم بنفسه، أنّه تقاتل مع الجناة كما بدا للشهود، ولم يهرب منهم، من مضجع إلى آخر، مثل قملة مجنونة...

سأل شيلكاتشوف أرتيوم: " كما فهمت نقلت إلى قسم الرياضة؟". وتذكّر أرتيوم على الفور،أنّه يتحدث مع شيلكاتشوف بصفة المفرد، منذ فترة طويلة، أمّا هو فلا يفعل ذلك. "حسناً!" - قرّر أرتيوم بسرعة.

أومأ برأسه، نعم.

لفظ شيلكاتشوف باحترام: "ملاكمة؟".

ابتسم أرتيوم. كان الأمر مضحكاً بشكل مضاعف لأنّ زاخار، حسب مظهره الخارجي، سمع كلمة "ملاكمة" لأوّل مرّة، ولم يفهم معناها.

أرتيوم الذي لم يفكّر في الناس الذين من حوله قطّ، خمّن بسهولة الآن: " أنّ زاخار يبحث عن صداقة معه، وأسباب ذلك بسيطة: أن يصادق الجناة فهذا يعني أن يبيع نفسه ويفقدها. أمّا مصادقة شيلكاتشوف فصعبة، لأنّه ذكي. كان زاخار يبحث عن تقارب مع شخص يفهمه، على أمل ربّما يساعده في لحظة صعبة.

لكنّ أرتيوم من جانبه لم يبحث عن التقارب مع أيّ شخص منذ فترة طويلة، لأنّه خمّن: أنّ لا أحد يستطيع مساعدته. علاوة على ذلك، من الأفضل ألّا تكون عبئاً على أحد: فلماذا كان على فاسيلي بتروفيتش، وعلى أفاناسييف، أن يشاهدا كيف كان الجناة يطاردون أرتيوم، وكادوا يقتلونه أخيراً، لو لم يكسر بورتسيف رأسه أوّلاً.

فجأة فكّر أرتيوم، أم بالأحرى فهم أرتيوم: "ما زلت غاضباً من بورتسيف! يجب الحصول على سمكة رنجة وتقديمها كهدية له. لو لم يكن هو، لكانوا... مزقونني... ".

لم يكن شيلكاتشوف ضد أن يصبح أرتيوم صديقاً له، على الأقل لكونهما يستخدمان نفس قاموس اللغة، ونفس الجمل، ونفس التعابير، وكان من

الواضح أنّهما ينتميان إلى بيئة الكتاب. لكن أرتيو لم يكن بحاجة إلى شيلكاتشوف، ولا سيّما أنّه تحدث معه فقط ، لأنّه كان يريد الترويح عن نفسه، والتسلية، ولا يبدو اليوم أنّ أحداً ما يجب أن يقتله. أليس ذلك سبباً لآن يفرح؟.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الصباح الذي يبدأ بسمك الدير، هو صباح لطيف غير عادي.

عملوا قبل الغداء قليلاً. هناك من كان يحفر، وهناك من كان يرسم، أمّا أرتيوم فكان أغلب الأحيان يطرد آلاف البعوض المختلفة بمجرفته.

كان جندي الجيش الأحمر معهم، لكنّه لم يتدخل في أيّ شيء، ولم يجبرهم على العمل، ربّما أمر بذلك: مراقبتهم، وعدم التدخل.

بحلول موعد الغداء، ظهر غورشكوف، بوجه متورم، وكدمة جديدة، تمتد من عظمة وجنته إلى صدغه. كان هناك شيء ملفوف في يديه.

نظر أرتيوم إلى غورشكوف بحذر قليلٍ: من يدري ما يدور في ذهنه بعد عار أمس.

صاح أرتيوم تحسباً، ولحق أن يحيّي شيلكاتشوف، لدعمه: "مرحبا أيّها المواطن القائد!". تمكّن زاخار من القول فقط"... القائد".

قال غورشكوف، كما لو أنّه لم يسمع التحية: "ستحلقون وتغتسلون الآن، لقد جلبتم القمل لعندنا، إلى الجزيرة. لا نحتاج إليه، بحق الجحيم".

ظهر فيوفان بعده مع الفطائر.

صنعت هذه الفطائر أمس، أم أمس الأوّل، أم حتّى قبل أسبوع - ولكن ماذا في ذلك، إذا كنت طوال اليوم مع المجرفة في الهواء. اندفع الجميع لتناول الطعام، يختنقون به ويتنفسون من أنوفهم، وينظرون من وقت لآخر حولهم: ليروا ما إذا كانت زجاجة حليب أم حتّى ماء، قد نمت من الأرض بالقرب منهم.

قال غورشكوف: "اشربوا من البحيرة الآن".

... إلى جانب ذلك، لم يكن هناك فطائر من الملفوف فقط، وإنّما كان هناك فطائر مع مربى الفواكه- وعندما وقعت نطفة من المربى على أصابع أرتيوم، أغلق عينيه: أين أنا؟ من أنا؟ لماذا أتناول المربى، هل أنا نائم؟.

خلع أرتيوم وزاخار كلّ شيء عنهما بسرعة، على شاطئ البحيرة، ودخلا إلى الماء. فكّر شيلكاتشوف، أنّ الهندوسان تجمدا بالكامل.

سرعان ما خمّن أرتيوم، لماذا تردّد شيلكاتشوف: كانت هناك حول رقبته وخصره وعلى كاحليه أكياس صغيرة فيها كرات النفتالين وثوم. كان فاسيلي بيتروفيتش أيضاً يزين نفسه بهذه الطريقة، لتخويف القمل. لكنّ التمائم ذات الرائحة، على ما يبدو، لم تساعد كثيراً. حاول أرتيوم ذات مرّة أيضاً ارتداء واحدة، لكنّه سرعان ما قرّر أن تناول الثوم أفضل بكثير.

صرخ غورشكوف على الهندوسين: "ماذا جرى لكم أيّها الغبيان؟ هيا إلى الماء!".

سبح أرتيوم بعيداً، ولم يشرب، بل مضمض فمه بالماء، وقرقره في حلقه، وبصق مرّات ثلاث، كما لو كان قد شرب.

عدما عاد، كانوا وزعوا ألواح الصابون على الجميع، أمّا الأب فيوفان فقد مشى على الشاطئ مع موس حلاقة، وكأنّه كان ينتظر الشخص الذي سيكون أوّل من يقرّر العودة.

وقف كوريز شاه وكبير شاه في الماء حتّى خصرهما، وهما يرشقان ماءً خفيفاً على نفسيهما، وينظران إلى الأب فيوفان ببعض الخوف.

... كان زاخار أوّل من قرّر الخروج من الماء. على ما يبدو، لم يكن يحب السباحة، وسرعان ما شعر بالبرد.

أقترح زاخار: "ربّما سأحلق ذقني بنفسي؟ وأنت أيّها الأب تحلق لي رأسي؟".

مزح الأب فيوفان فجأة: " لا تخاف، لن أقطع لك سوى أذناً واحدة"، وضحك الجميع واحداً بعد الآخر: حتّى إنّ غورشكوف ابتسم، ولكن شعر بألم كدمة الأمس، فعوج حنكه على الفور.

مزح أرتيوم بينه وبين نفسه: "من المثير للاهتمام، هل يسمّي غورشكوف بينه وبين نفسه إيخمانيس ابن كلب، أم أنّه لا يجرؤ على ذلك؟ أم إنّه أقنع نفسه إنّه سقط من على الكرسي بإرادته؟".

أصبح زاخار بلا شعر مثل الولد المراهق، لكنّ أنفه استطال وأصبح مدبباً.

"هل أنت من القوقاز" - سأله أرتيوم، دون أن يخرج من الماء، وكلّه مغطى بالصابون، وهو يواصل فرك نفسه بسرعة.

أجاب زاخار: "من قرب ليبتسي..."، كأنّه كان يتوقع استهزاءً، ولم يكن يريده كثيراً - "نحن فلاحون. لكنّنا نسكن الجبل أيضاً. صغير لكنّه جبل".

ظلّ كلّ الوقت يمسد رأسه بيده، متفاجئاً من مظهره: في القرى، لم يكن من المعتاد أن تحلق رأسك. كان يجري التعرّف في السابق عل المحكومين بالأشغال الشاقة، من خلال الرأس الحليق - والآن أصبح مثلهم.

شعر أرتيوم أنّ الشاب تحسس من نكتته، ولم يواصل.

نظر إلى شيلكاتشوف وهو يخرج من الماء، كان نحيفاً، لكن بنيته لم تكن سيئة. وجد أرتيوم نفسه يفكّر، وهو يخرج من الماء وراءه مباشرة، ويزيل الصابون عن جسمه، ربّما هذه الفكرة غير مناسبة، لكنّها خطرت له: إنّه كان الأبرز، والأكثر وسامة هنا.

كان من الضروري تركهم دون عمل ليومين فقط، وتناول فطائر وسمك الرنجة، بحيث تدخل كلّ الحماقات في رأسه...

لم يتغيّر شكل شيلكاتشوف كثيراً، بعد أن حلق رأسه بالكامل - كان فتى ذا رأس كبير بعيون متيقظة من مدينة بيتر، وبقي كذلك. بدت أذناه فقط على رأسه أكبر، وكانت جمجمته المزرقة تثير الضحك.

جاء دور أرتيوم للحلاقة أيضاً - قام فيوفان بعمله ببراعة وتأني.

ظل أرتيوم ينتظر، ولا سيّما اللحظة التي سيمسك فيها فيوفان ذقنه بإصبعين بقوة، ويحلق تحت شفته، ليقول له بصوت هامس: "هذا لأنّك عديم

الأخلاق، ولأنّك أفسدت الأعشاب بالقرب من شباكي سأجدع أنفك... " - ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل.

بدأت الشمس تفقد حرارتها بالفعل، عندما اغتسل أرتيوم، مزيلاً الشعر القصير، والقشرة عن كتفيه، وفجأة، نظر إلى انعكاس صورته في الماء، وكاد يضحك بصوت عالٍ: كان وجهه كلّه يلمع بمثل هذا النقاء والشباب، ويشعر جسده بمثل هذه البهجة، أيّ سجن هنا، وما علاقته!- إذا كان كانت الحيات بأكملها، وصولاً إلى الشمس أمامه. طفت الشمس بجانبه في الماء مثل قطعة زبدة.

في هذه الأثناء، كان الهندوسان لا يزالان غير قادرين على تسليم وجوههما وشعرهما إلى الراهب الملتحي الذي يمسك الموس بيده. وقفا في البحيرة هكذا، يغمرهما الماء حتّى خصرهما، تغطيهما قشعريرة، وقد بردا بشدة.

كان أرتيوم على وشك أن يستمتع بمنظر حلاقة الهندوسان، ولكن وبشكل غير متوقع، ظهر إيخمانيس، غير مخمور ونشيطاً

صرخ أرتيوم، بصدق شديد: " مرحبا "!- كعادته إيخمانيس قطع الصرخة بحركة من بيده: أسكت.

سأل إيخمانيس:" أنت في أيّ سريّة يا أرتيوم، لقد نسيت؟". أجاب أرتيوم في البداية، في أيّ سريّة هو، ثمّ لبس قميصه بسرعة- ليس من الجيد التحدث عارياً مع الرؤساء- فكّر وهو يرتدي قميصه، أنّهم لم يعودوا يتحدثون معه كسجين، لكن كمقاتل، وجندي، وعسكري. "... إنّه لأمر رائع"، هذا ما قاله أرتيوم، وهو يخرج رأسه من القميص بحماس شديد لدرجة أنّه كاد يقطع أذنيه- "إنّه لأمر ممتع للغاية...".

سأل إيخمانيس: "وأين تعيش؟ في غرفة؟".

أجاب أرتيوم بنعم، في غرفة لشخصين. ولسبب ما سمّى الشخص الآخر: مع عالم النبات أوسيب تروينسكي.

قال إيخمانيس: "آه، أنا أعرف عنه".

" قال إنّهم يجب أن ينقلوني قريباً من هناك، لأنّه طلب السماح لوالدته بالمجيء إليه من البر الرئيسي، والعيش معه في الغرفة "- أوضح أرتيوم، معتقداً لسبب ما، إنّ ذلك سيكون مثيراً لفضول إيخمانيس.

سأل إيخمانيس مبتسماً، ونظر إلى غورشكوف: "أمّه في الغرفة؟ كم هو ممتع"- أومأ غورشكوف برأسه تحسباً- أضاف إيخمانيس: "أعتقد أنّه أساء الفهم "- وأومأ لغورشكوف مرّة أخرى برأسه، لكن هذه المرّة بمزيد من الاقتناع.

تابع إيخمانيس:"بشكل عام، يا أرتيوم، أنا راقبتكم جميعاً. ستعمل معي، وسأشرح المهام، وستكون أنت رئيس المجموعة".

كان يمكن أن يقوم أرتيوم بدقّ قدميه في الأرض، وقد أخذ وضعية الاستعداد، لو لم يكن حافياً، لكنّه على أيّ حال قرّب كعبيه ببطء، ورفع ذقنه أعلى قليلاً.

أمر إيخمانيس غورشكوف، دون أن ينظر إليه: "أكتب له ورقة، لارساله إلى الدير والعودة من هناك. وأنت، ياأرتيوم، ستستلم لباساً للجميع، ومؤناً. وبعض الأدوات. سيكتب غورشكوف كلّ شيء في الطلب".

فكّر أرتيوم بهدوء تام، وجدية شديدة: "من المؤسف أنّ اللوائح العسكرية لا تنص على أنّه، بالإضافة إلى جواب"سيتم التنفيذ!"، يمكن في الحالات المهمّة الخاصّة القفز... القفز والصياح بصوت عال.".

جهّز نفسه على عجل، وهو يستنشق رائحة الطعام - من الواضح أنّ فيوفان أعد طعاماً لذيذاً من الفطر، وكانت تخرج من الموقد رائحة زكية.

عندما خرج من الكوخ، جاء جميع السجناء الآخرين، ويظهر من وجوههم أنّهم تعبوا من الضحك الطويل: فقد جرى إجبار كوريز شاه وكبير شاه غلى الخروج من الماء إلى اليابسة، وحلقا شعرهما.

وعد الأب فيوفان، وهو مبتهج بعض الشيء أيضاً: "سيكون هناك حساء بالفطر لكم، أيّها المحكومون بالأعمال الشاقة".

جلس الجميع حول الطاولة مع بعضهم، وهم ينتظرون بوقار: كانت وجوههم ممدودة ومركزة.

قرّر أرتيوم البقاء: لم يكن يريد أن يحرم نفسه الغداء، حتّى إنّ الحليقين الهندوسين، واللذين أصبح شكلهما يشبه الروس، لم يثيرا لديه الضحك.

كانت رائحة الحساء مثل حفلة الغابة. نمت هذه الفطريات اللعينة، تحت ضجيج صوت مئة ألف طائر، والآن بدؤوا هم أنفسهم في الغناء: أصواتهم تدفقت حولهم، وأقلقت بشكل لا يصدق...

ولكن ظهر غورشكوف في هذه اللحظة.

قال بصرامة ضمن الحدود لأرتيوم: "لماذا أنت تجمّدت هنا؟ هل سأركض ورائك؟".

تلعثم أرتيوم، لا يعرف بماذا يجيب- من الجيد لم يكن يجلس على الطاولة بعد، ولم يبدأ أكل الحساء.

قال غورشكوف باستياء: "أمسك ورقتك. ينتظرك الحارس، طر مثل الرصاصة".

"... أراد مرّات عدّة أن يناديني بالثعلب، لكن لأنّني رئيس المجموعة، لم يجرؤ من جديد "- خمّن أرتيوم، وضحك من نفسه على الفور: " لقد أصبحت تخمّن كثيراً. ربّما تخميناتك كلها هراء؟ كلّ شيء ليس بهذا الشكل، وأنت أحمق يا أرتيوم".

لم يقم بالتعرّف على جندي الجيش الأحمر، ركب الفرس، وسار وراءه.

يجب القول إنّه يركب الفرس لأوّل مرّة. خاف في البداية، أن تكون الفرس جامحة ويسقط أرتيوم على الأرض- ووقتها ماذا سيقال عنك يا "رئيس المجموعة!"- لكن لا، اتبعت الفرس بهدوء فرس جندي الجيش الأحمر.

كان يهتزّ، بالطبع، ولكن إذا ما اعتاد، فسيكون الأمر عادياً. لم يكن جندي الجيش الأحمر في عجلة من أمره، شكراً له. هدأ أرتيوم بعد بضع دقائق.

سأل نفسه مشاكساً:"متى ستصبح مثل بورتسيف، يا صديقي؟ هل ستبدأ بضرب شيلكاتشوف بالمجرفة على ظهره ؟.. ".

... ضحك من نفسه، لكن لم يعرف الإجابة النهاية.

لا، بالطبع، ولم يستطع أن يتخيل نفسه في مثل هذا الموقف، ولكن - فجأة؟.

" وفيما لو طلب إيخمانيس ذلك، على سبيل المثال ؟. ماذا سيطلب؟ وهل سيطلب ضرب شيلكاتشوف بالمجرفة؟.. ".

عندما لم يتوصل إلى أيّ نتيجة، توقف أرتيوم عن التفكير نهائياً، لكنّه كان ينظر حوله فقط، ويمسّد بكفه على رأسه: لقد كان شعوراً لطيفاً.

عندما كان يصادف في الطريق سجناء، من بين أولئك الذين يعملون خارج الدير، كان أرتيوم يستقيم، وتصبح تعابير وجهه مستقلة - لقد أراد بشدة أن يظهر أنّه لم يعد مجرّد ابن آوى الآن، مثل الجميع - وإنّما ابن آوى على ظهر حصان، وحتّى إنّ جندي الجيش الأحمر الذي كان يسير أمامه لا يراقبه، بقدر ما يرافقه.

انطلاقاً من أنّ أغلب السجناء كانوا ينظرون إلى أرتيوم، بشكل غير ودي، فهذا يعني أنّهم خمّنوا شيئاً ما من هذا القبيل. على سبيل المثال، أنّ هذا الشاب الحليق بالكامل، حالفه الحظ. أم حتّى إنّه محظوظ كثيراً.

وصلا إلى الدير قبل الليل.

أراد أرتيوم بالطبع، أن يصل، وأن يصادف فاسيلي بيتروفيتش أم أفاناسييف، كم كان جميلاً أن يتفاخر أمامهم. لكنّ جندي الجيش الأحمر أجبر أرتيوم على النزول عن الفرس عند البوابة، وأخذ اللجام، وذهب في طريقه.

صاح له أرتيوم بصوت منخفض: "مهلاً، إلى أين سأذهب أنا؟".

قال الجندي، دون أن يستدير: "أنا، لا أعرف. اذهب إذ أمروك".

مع ذلك، فيما بعد، تكرّم واستدار.

ستجمع غداً كلّ ما أمروك به، ونعود أدراجنا. عندما تكون جاهزاً، قف في الساحة وانتظرني. يجب أن نغادر قبل الظهيرة.

أظهر أرتيوم تصريح مهمّته على البوابة، سمحوا له بالدخول، وقد أسرع إلى غرفته.

تمتم أرتيوم بصوت مسموع: "آمل ألّا تكون والدة أوسيب قد وصلت بعد، وعندها سيضطر أوسيب للنوم على الأرض...

خطرت له فكرة، يمكن أن تكون والدة أوسيب امرأة بكامل شبابها... ولماذا لا؟ إذا كان ،على سبيل المثال، في العشرين من عمره أم أكثر بقليل، وأنجبته وهي صغيرة... لكنّ أرتيوم قاطع نفسه على الفور: ما تفكّر فيه أمر شنيع، توقف عن ذلك.

كان فناء الدير فارغاً. فكّر أرتيوم وقرّر، ربّما لم يحدث قطّ أنّه كان هنا وحيداً تماماً.

"ماذا لو غادر الجميع؟"- إمّا إنّ أرتيوم كان يسخر، أم إنّه كان يتعلّق بالأمل- "بقي هناك حارسان، ولا أحد غيرهما؟..".

"... ولم يكن أصلاً"- أجاب من نفسه.

كان هناك نورسان فقط، يصرخان و يحلقان فوق الفناء، يعانيان من الأرق والصداع النصفي.

تحرّك الأيل ميشكا والكلب بليك، من مكانين مختلفين في الفناء، باتجاه الإنسان الوحيد، كلٌّ على طريقته الخاصّة. بليك بهيبة، لكنّه يرقص قليلاً بجسده العضلي، وهو يلّوح بذيله قليلاً. أمّا الأيل ميشكا، فكان أكثر إرتباكاً، وفي عجلة من أمره، كما لو كان يخاف إذا تأخر، سيحصل الكلب على كلّ شيء لذيذ.

أضحك أرتيوم نفسه: "... ها هم المساجين"... سأذهب إلى أيّ سريّة الآن، وسأجد المضاجع هناك مليئة بجميع أنواع الحيوانات. الخلود، والجرذان،

والثعالب- كلّهم يعضون بعضهم بعضاً، ويمزقون بعضهم بعضاً، ويشمون بعضهم بعضاً... من تفقّد مستنداتي هناك على البوابة، لقد نسيت بالفعل"- ونظر أرتيوم بجدية في اتجاه المحرس - "ربّما كان هناك تيسان يجلسان، بأعين تيوس، ولم ألاحظهما...".

كان ميشكا وبلاك يقتربان منه.

فكّر أرتيوم في خيبة أمل معتادة، وهو ينظر إلى الحيوانات: "لكن لا يوجد لدي أيّ شيء "- ثمّ توقف قليلاً، ولمس قطعة فطيرة في جيبه: لم يتذكّر حتّى متى أخذها ووضعها في جيبه. ربّما بعد الحلاقة على البحيرة... يبدو ذلك... كانت هناك بقايا طعام لأحد ما ملقاة هناك، فشبع وتركها. أم ليس بقايا، وإنّما تركها أحد ما، عندما كان يحلق شعره، وسرقها أرتيوم دون تردد.

كسر الفطيرة، وقدم اليسرى للكلب، واليمنى للأيل، وأخذ كلاهما ما قدّم له دون أن يشمّا. بقيت لمسة شفاه الحيوانات المبللة على كلتا يديه.

ذهب أرتيوم إلى مبناه بهذا الشعور: دفء خفيف ورطب قليلاً.

أكل الحيوانان ما أطعمهما، دفعة واحدة، وتقدّم وراءه الأيل خطوات عدّة، لكنّه أدرك أنّه لا يوجد شيء آخر، وتوقف، أمّا بليك فعرف على الفور، أنّه إذا قدموا له مرّة واحدة وغادروا، فهذا يعني لم يتبق شيء آخر لديهم. انتظر بامتنان حتّى اختفى أرتيوم خلف أبواب المبنى، وذهب ليواصل النوم.

كانت رائحة الغرفة حامضة، نام أوسيب، كالعادة، بعمق، خلع أرتيوم حذاءه، دون تكلّف، وبدأ بخلع سترته عن كتفيه. وهنا قفز جاره فجأة، خائفاً من الضوضاء. حتّى إنّ أرتيوم جمد في مكانه، وهكذا وقف، وهو يمسك بيديه بالنصف المخلوع من سترته.

صرخ أوسيب: " من؟ ماذا؟- كان الرعب في عينيه، ولم يتعرّف على رفيقه، وكان يحرّك ساقيه، زاحفاً نحو الزاوية- "أخرج!"- إمّا أنّه كان يأمر وإمّا يتوسل- "أخرج! لا أحتاج لذلك!".

صاح أرتيوم: " أوسيب! أوسيب!"- أراد أن يلوح بيده، لكنّ سترته أعاقت ذلك- " هذا أنا، أرتيوم!".

حاول أوسيب، لبضع لحظات ، فهم معنى ما قيل.

قال هامساً: "كنت خائفاً... اعتقدت عنصر أمن".

ثمّ فرك بعد ذلك صدغيه مطولاً.

تحدث أوسيب في الصباح، وقت الإفطار: "... صمّمت جهازاً لترسيب اليود وترشيحه، حوض كبير مع مصفاتين. يعمل الخلاط والأنبوب على الكهرباء. الأنبوب مجهز بمروحة. هل تعرف كيف كان ذلك من قبل؟".

سأل أرتيوم: "كيف؟". بكلّ الأحوال هو لم يفهم شيئاً وفكّر فقط من وقت لآخر: هل يفاجئ أوسيب بكلمات إيخمانيس، حول أنّه من غير المحتمل أن يسمح لوالدته بالعيش معه في الغرفة، أم لا يتدخل فيما لا يخصه. بالمناسبة، أمام من، أمام من، ولكن ليس أمام أوسيب، رغب أرتيوم حقاً، أن يتباهى بمنصبه الجديد. لكنّه على الرغم من ذلك، وعلى عكس الفطرة السليمة، لم يكد يمسك نفسه عن ذلك.

أوضح أوسيب: "حتّى الآن، كانت تجري عملية الترسيب يدوياً، في زجاجات"- لسبب ما، عندما تحدث عن الزجاجات، أظهر جزرة مرفوعة إلى الأعلى، كان يمسك بها بيده- " أوّلاً العملية صعبة على العمال، والأهم من ذلك إنّها ضارة - أبخرة البروم، وأكاسيد النيتروجين، وأبخرة الأحماض، وأبخرة اليود. وكان الناس يتنفسون كلّ ذلك".

وافق أرتيوم: "شيء مرعب"- وكرّر- "أكاسيد وأبخرة".

أومأ أوسيب: "نعم"، وهو مسرور لأنّ أحد ما يسمعه. " لقد عملت، بحيث لا توجد رائحة تقريباً، ولا يلزم بذل أيّ جهد- كلّ شيء يسير من تلقاء نفسه"- وهنا دون أيّ مقدمات، ضحك بشكل مقتضب، حتّى إنّه قفز قليلاً على أريكته- "كم كنت خائفاً البارحة! لماذا حلقت؟ دخل أحد ما بلا شعر، مثل

الشيطان، لا تظهر يداه، كما لو أنّ عباءة تتدلى. ظننت أنّهم جاؤوا لأخذي... وحتّى ليس أخذي أنا، وإنّما روحي".

توقف أوسيب عن الضحك فجأة كما بدأ.

"كُلْ الجزرة "- قال أرتيوم له، وهو يشير لأوسيب برأسه إلى الجزرة التي كان يمسك بها بيده.

أجاب أوسيب فجأة، واستعد: " حان الوقت ".

لم يصبر أرتيوم: "وماذا عن أمّك؟ هل ستأتي قريباً".

"أوه "- بدا أوسيب شاكراً- "شكراً للتذكير"- لقد غادرت أمي بالفعل. أنت بحاجة للذهاب إلى قسم المعلومات والتحقيقات، والإعلان عن الحاجة إلى مكان جديد لك.

غصّ أرتيوم، لكنّه لم يقل أيّ شيء، فكّر للمرّة الألف فقط: " ما هذا الإبليس... ستأتي إليه أمّه. أمّا أنا فسأذهب إلى قسم المعلومات والتحقيقات. يا للجحيم، لن أذهب إلى هناك ".

... بينما كان أرتيوم يفكّر، كان أوسيب قد غادر بالفعل، ونسي أن يودعه.

غسل أرتيوم وجهه مرّة أخرى، وحتّى إنّه قرّر أن ينظر إلى نفسه بالمرآة. كان في بنائهم مرآة مشتركة. نظر إلى المرآة بعيون محمومة ومشرقة، ورأى شاباً بالغاً، عركته الحياة- سمرة ملطخة قليلاً بالأبيض، مثل قطعة خبز صبّ عليها ملحاً، ورأس جميل- آه، لو كنت أسير به في شارع أربات بموسكو.

فكّر أرتيوم بسرور، حتّى إنّه كان ينقر على أسنانه قليلاً: "لقد سمنت مؤخراً مثل الذئب".

أعجب بنفسه كثيراً.

كان مليئاً بالطاقة الصيفية.

... وفقاً للمهمّة التي في التصريح، استلم ثياب لمجموعته من مستودع المعسكر: حدّد القياسات بالنظر، ولم يجادله أحد، لقد سمحوا له أن يختار بنفسه.

وبطبيعة الحال، أختار لنفسه على مقاسه: جزمة مستنقعات طويلة، وسروالاً مع خطوط جانبية، وسترة ذات جيوب مائلة.

ارتدى الملابس الجديدة على الفور، وخرج مغتسلاً وواثقاً من نفسه، بشعور أنّ جنود الجيش الأحمر سيقدّمون له التحية الآن.

وبسبب فرحته، نسي أن يأخذ الأدوات اللازمة. عاد إلى المستودع، واستلم ثلاث مجارف، ومعولاً، وفأساً، ومغرفة، وقطعة قماش كتّان، ودلواً، وفرشاةً، ومكنسة طلبها شيلكاتشوف.

ضحك أرتيوم: "... من أجل أن يمسح التراب عن الحلي الذهبية، ووضعها في الدلو مثل السمكة". كان أيّ شيء يضحكه.

وأقلام رصاص، وورقاً للهندوسين أيضاً، من أجل رسوماتهما.

اغتاظ أرتيوم، الذي كان يشتم، وهو يحمل كلّ ما لديه من أغراض- كيس من الملابس، ودلو ومجارف، ومقابض المجارف التي كانت تبرز في مختلف الاتجاهات، ويقع بعضاً منها بالتناوب، ولم يكد يصل إلى فناء الدير، أوقعها هناك كلّها مرّة أخرى.

ركض أفاناسييف، واندفع لمساعدته، وهو مبتهج، وبغرّته الطويلة، وسكّرة في فمه، ربح على ما يبدو، أمس بأوراق اللعب.

قال أفاناسييف، وهو يحرّك السكّرة بأسنانه: " تيوما، ألم يقتلوك بعد؟".

قال أرتيوم على الفور: "لا، أنا تحت قيادة إيخمانيس الآن". إلى متى كان يمكن أن يخفي ذلك في نفسه.

"بأيّ صفة؟"- سأل أفاناسييف بمرح، وأمسك بغرّته، على ما يبدو ليمنع رأسه من السقوط.

أجابه أرتيوم بنفس النبرة، عابثاً قليلاً: "إنّه سر يا أخي!"ً.

"لكنّك لا تمزح؟"

مزح أرتيون ساخراً: "وحق سولوفكي!". ما ليخطر له قبل شهر من الآن قطّ، أن يسخر بهذا الشكل - "وأنت؟".

تباهى أفاناسييف قائلاً: "أنا أستعد للنقل أيضاً. إلى الأعمال المسرحية. لكنّك أنت فتى تعرف كيف تدبر أمورك أكثر، وأكثر حركة، وعموماً أنت فتى جسور ومقدام ؟ أيّ لباس أنيق عليك؟ ليمزقني الشيطان!".

كان أرتيوم يرمش بهيبة فقط، رداً على ذلك : نعم، جسور، نعم ليمزقك الشيطان.

لوى أفاناسييف لسانه عمداً: "حسناً، سأذهب. لدينا بروفة. العرض الأوّل قريباً. سيحضر المواطن إيخمانيس بنفسه. هل ستجلس على يمينه أم على يساره ؟".

قهقه أرتيوم، وأفاناسييف أيضاً - لقد دفع بعضهما بعضاً لمرّة واحدة، مثل المراهقين، وافترقا، لكنّ أفاناسييف نظر إلى الوراء ثلاث مرّات أخرى.

عندما أصبح أفاناسييف على مسافة معينة، سرعان ما نظر إلى الوراء بحزر، وصرخ:

" لماذا المجارف؟ والدلو؟ هل ستغسله به ؟ أم تطمره ؟"

كانت هذه نكات سيئة للغاية بالفعل، لا سيّما أنّه لا أحد يدري من يتجوّل في الأرجاء، لكنّ أرتيوم ما زال غير مهتم: بصق بشكل معبّر في اتجاه أفاناسييف، واستدار.

إلى إذ استدار، ظهر الوثيقة في مجال الرؤية. كان يحمل شفته المتدلية إلى مكان ما.

بحث أرتيوم الذي كانت كلّ أغراضه ملقاة عند قدميه، بقدمه عن ما يمكن أن يكون أكثر فائدة له الآن، وتوقف عند المعول.

وقرّر: "... سوف أقطع رأسه " - دون أن يدرك حقاً ما إذا كان جاداً أم لا.

يبدو أنّ الوثيقة قد خمّن أيضاً، إلى ماذا يقود ذلك، وقام على الفور بتقييم الموقف، وبدلاً من ذلك ذهب على عجل في اتجاهه، وحتّى إنّه شدّ شفته.

وقف أرتيوم لفترة، يلعب بمعوله، بمعنى، حسناً، من هنا؟ تعالوا أيّها الشياطين، سبعة مغليين مقابل واحد مقلي أكثر من اللازم.

... بعد أن عاد إلى كيس الملابس، جلس عليه: "... وإلّا فسوف يأخذونه الآن، كيف ستشرح ذلك...".

فكّر للحظة، إنّه مضحك بعض الشيء، في جزمة المستنقعات، في منتصف الفناء، لكنّه لم يرغب في التفكير في هذا الأمر، وتجاهله.

جاء بليك، وفرك جنبه به، وحكه أرتيوم في المكان نفسه، الذي من الممكن أن يكون للكلب لحية، لو كان لهم لحى. أغلق بليك عينيه الأسودين بامتنان. شمّ أرتيوم رائحة الكلاب الحلوة- لقد أحب أرتيوم هذه الرائحة منذ طفولته.

وقفت الأيل ميشكا ينتظر في مكان قريب: هنا يحكّون فقط، أم يمكن أن يقدموا له قطعة سكّر؟.

بدت حتّى جدران سولوفكي الكئيبة، والمتهالكة، والسوداء، ونوافذ الدير الفارغة، كما لو كانت تفوح منها رائحة عناصر الأمن الثملين الكريهة، والنجوم السخيفة على القباب- وحتّى هذه كانت تلعب وتتمايل قليلاً، وإذا ما أغمضت عينيك، تتضاعف مرّتين وثلاث مرّات تحت شمس اليوم.

... ولكن عندما تتجاوز مصيبة واحدة، ستظهر مصيبة أخرى بكلّ الأحوال، إذا كان قدرك يقتضي ذلك.

كان يدق، في مكان ما في القاع، مثل هذا الهاجس الخافت، بأنّه من الأفضل الاختفاء والذوبان في مثل هذا الصباح، ولكن كيف كان يمكن الاستجابة لهذا الشعور.

ظهر رئيس المجموعة سوروكين من مكان ما من العدم- بإبطيه المتعرقتين، اللتين تفوح منهما رائحة كريهة كما سمكة جرى اصطيادها في الصباح، وخمّت تحت الشمس، وبشعره المتسخ مثل غبار القش، واللزج مثل شعر الطفل، ونظرته

الغائمة مثل الكلب المسعور، وشفاه مملوءة باللعاب، كما لو كانت شفتيه ظرفاً جرى تلطيخه بالغراء، لكن لم يلصق.

كان مخموراً جداً.

من الواضح أنّ حدثاً مهماً قد جرى في حياته. كان الإحساس بهذا الحدث يدور حوله مثل سرب من براغيش القمامة.

رافقت النوارس سوروكين بصيحات مسعورة: ربّما اعتقدت أيضاً أنّه يحمل سمكة تحت كلّ أبطٍ.

كان سوروكين أوّل من رأى أرتيوم، ونظر إليه لنصف دقيقة، وهو يرمش عينيه من وقت لآخر، محاولاً أن يتذكّر متى وأين رأى هذا الشخص. كما لو انّ جزمة المستنقعات الطويلة والسروال المزيّح والسترة ذات الجيوب المائلة أربكته، لكنّ سوروكين ركّز وتذكّره أخيراً.

كان أمامه ابن آوى نفسه، الذي أهانه ذات مرّة أمام السجناء. وعد سوروكين أنّه لن ينسى له ذلك. وها هو تذكّر.

" ما زلت بحاجة للحصول على المواد الغذائية " - فكّر أرتيوم في لحظة غير مناسبة، وبقليل من القلق، وهو يتلفّت حوله: من غير المناسب الذهاب مع هذه المجارف إلى الكشك... أم إلى المطبخ؟ ماذا كتب في ورقة المهمّة؟.

بدأ سوروكين من بعيد: "هل ظننت يا ابن آوى أنّني عفوت عنك وانتهى الأمر؟" - كان يترنّح، ولكن ليس كثيراً، وفكّر أرتيوم، أنّ رئيس مجموعة العمل رجل قوي بشكل عام. صرخ سوروكين مكشّراً، وهو يقترب أكثر فأكثر: " سأكسر أنفك، وأخنقك بمخاطك".

عندما اقترب سوروكين لمسافة خطوة ونصف، وقف أرتيوم الذي كان يجلس على الكيس المليء باللباس، بسرعة، دون أيّ جهد ، ودون أن يفكّر في أيّ شيء، وضرب رئيس مجموعة العمال السابق على ذقنه من الأسفل.

سقط سوروكين أرضاً.

عاد أرتيوم، وجلس على الكيس من جديد.

جلس ونظر إلى السماء، وكانت ملقات جنبه على الأرض، المجارف والمعاول، والفؤوس، و سوروكين، وكان هناك الدلو، وعلى بعد ثلاث خطوات جمد بليك مستغرباً، وأذناه مرفوعتان، أمّا الأيل ميشكا، فعلى العكس من ذلك، ابتعد قليلاً، ولكنّه بكلّ الأحوال، وقف في طريق جنود الجيش الأحمر الذين رؤوا، وسمعوا كلّ شيء، وهرعوا إلى أرتيوم.

أمسكوه من ياقاته، مثل جرو مذنب، رفعوه عن كيس الثياب وصفعوه على وجهه.

أراد أرتيوم أن يضرب جندي الجيش الأحمر أيضاً، لكنّه برد بالفعل، مثل قدر رفع عن النار، ووضع في الماء- كان لا يزال يصدر هسهسة ويخرج منه البخار، ولكن مع كلّ لحظة كان يصبح أكثر برودة.

سأل جندي الجيش الأحمر رفيقه: "ماذا نفعل به ؟".

جثا الجندي على ركبته فوق سوروكين وهزّه: "هل مات؟".

لم يسمع أيّ إجابة، نهض مع صرير، ونظر حوله بقليل من الحيرة، وتوقع على ما يبدو أن يرى على الفور الدكتور علي في مكان قريب، الذي لم يكن هناك لسبب ما.

جرى اللعاب من فم سوروكين. جلست ذبابة كبيرة على اللعاب، وكادت تعلق هناك.

قال أرتيوم بغضب: "لدي مهمّة رسميّة من إيخمانيس"، لكنّه في الوقت نفسه كان ينظر إلى سوروكين على أيّ حال:"... هل من المعقول؟".

أجابه جندي الجيش الأحمر: "أغلق فمك"، مع أنّه بدأ يتحدث في الوقت نفسه مع أرتيوم، وتمكّن من التفوه بتهديده، حتّى عندما كان أرتيوم ينطق

مقاطع: " مهمّة رسميّة "- ولكن عند نطق كنية " إيخمانيس"، فهم جندي الجيش الأحمر شيئاً ما، ولم يتبعه بصفعة ثانية على وجهه.

قال الجندي: " يجب أخذه إلى قسم المعلومات والتحقيقات".

أعلن أرتيوم، وهو يشعر بطعم كلّ كلمة مثل الصفيح: "سوف تسألون عن ضياع الأغراض أمام رئيس المعسكر". نظر سوروكين نحو السماء بعيون نصف مفتوحة، التي لا تشير إلى أنّ هذا الشخص لا يزل على قيد الحياة.

سأل الجندي الثاني رفيقه، وهو يومئ برأسه إلى سوروكين: وهذا إلى أين؟".

أجابه: "خذ المجارف الآن، سنضعها في الطابق السفلي بقسم المعلومات والتحقيقات". أمّا رئيس المجموعة فسنستدعي الطبيب له".

بطريقة غريبة، ذهب أرتيوم فارغاً إلى مدخل قسم المعلومات والتحقيقات، وسار وراءه جنديا الجيش الأحمر يحملان كيس الملابس والأدوات والدلو. لقد أدركا بأنفسهما أنّهما يبدوان مضحكين، لكن بعد فوات الأوان. لا يمكن رمي كلّ ذلك الآن.

استدار أرتيوم، عند المدخل، وكاد يصرخ من السعادة، كما لو إنّ أحد ما وخزه : جلس سوروكين فجأة، وبدأ يمسح وجهه بيديه. رأى ذلك بليك وبدأ ينبح، كما لو كان غاضباً لأنّ الحياة دبّت في الجثة.

كان شكل سوروكين وكلّ حركاته، تشير إلى أنّه لم يفهم شيئاً، ولا يتذكّر شيئاً. مجرّد لعاب علق فقط...

قال أرتيوم لجندي الجيش الأحمر بفرح: " إنّه حي".

ردّ جندي الجيش الأحمر على أرتيوم: " اذهب"، ودفعه إلى الباب.

تركا الأدوات، والثياب، بالقرب من المناوب- وعندما قادا أرتيوم إلى الأعلى، توقع، وهو في الطابق الثاني من سيرى.

... حسناً، هذا هو الطابق الثالث، معروف إلى أين، لا يوجد أحد آخر...

حاول مساعد المناوب الإبلاغ، لكنّ صوت نسائي مألوف أجابه:

لا داعي، لقد رأيته من خلال النافذة.

كانت غالينا جالسة وراء الطاولة. وكانت، صورتا تروتسكي ودزيرجينسكي لا تزالان معلقتان على الحائط.

قالت غالينا، وهي ترفع عينيها للحظة إلى أرتيوم: "أجلس". بطبيعة الحال، كانت تكتب شيئاً ما، لكنّها رفعت عينيها وخفضتهما على الفور، ولم تستطع منع نفسها، ونظرت إليه مرّة أخرى.

اقترب أرتيوم من طاولتها - كان الكرسي نفسه دون ظهر، لقد تذكّره، وفي أثناء جلوسه، تمكّن من ملاحظة أنّ صورة لينين ظلّت في مكانها، تحت زجاج الطاولة، ولكن لم تعد موجودة صورة إيخمانيس، التي كانت هناك أيضاً...

أدرك أرتيوم على الفور: " أم ليس كذلك، لا تزال في نفس المكان، لقد قلبتها غالينا ببساطة... حتّى لا تراها!".

قالت غالينا: "أخيراً، عدت، يا غوريواينوف" - ولحست شفتيها بسرعة بشكل مصطنع - "أوراقنا تنتظرك هنا منذ أيام عدّة، حول المساعدة الطوعية لقسم المعلومات والتحقيقات، التي يجب عليك أن تقدمها".

لم تكن في الزي الرسمي، كانت ترتدي قميصاً بأكمام مطوية، كان الزران العلويان مفكوكين، رقبتها قصيرة إلى حدٍّ ما، لكنّ وجهها جميل، متعرقٌ قليلاً وبشرتها سمراء، وعيناها متباعدتان، ونظراتها كانت مركّزة وغاضبة بعض الشيء، شحمة أذنها مثقوبة، لكن لم يكن هناك أقراط، وعظام وجنتيها قوية، وأسنانها بيضاء، وشفتاها معضوضتان، مثل شفتي مراهقة، ومقشرتان.

فكّر أرتيوم بهدوء تقريباً: " هل علقت؟ أم لا؟ ".

أجاب أرتيوم: "أرسلني المواطن إيخمانيس بتكليف"- ومدّ يده إلى جيبه لأخرج ورقة المهمّة...

قاطعته غالينا: "أنا لا أسألك يا غوريباينوف، من أرسلك وإلى أين"- وطارت قطرة من اللعاب لا تكاد مرئية من شفتيها، وسقطت على الأوراق الموضوعة أمامها- "إنّ الحديث يدور حول أنّك انتهكت مراراً وتكراراً الانضباط والنظام، في أثناء قضاء فترة حكمك في معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، الذي يجب أن تعاقب بسببه على الفور. غرفتك الآن هي زنزانة العقاب، هل هذا واضح؟"- دوّى صوتها وارتفع. "... علقْت، علقْت،علقْت، علقْت"- دوّت هذه الكلمة في رأس أرتيوم.

بدأ بصوت أجشّ: "أحاول أن أشرح، أنّ رئيس المجموعة السابق سوروكين حاول عرقلة تنفيذ أمر الرفيق إيخمانيس...".

قاطعته المرأة الغاضبة: " المواطن!. المواطن إيخمانيس! إنّه ليس رفيق لك، ألم يشرحوا لك بعد؟ هل قضيت هنا فترة قصيرة ؟ ربّما يجب مضاعفة فترة حكمك؟ علماً أنّك لن تبقى حياً إلى آخر فترة حكمك في زنزانة العقاب!".

حتّى إنّ غالينا وقفت من وراء الطاولة، وظلت تنظر إلى أرتيوم بشكل متواصل، محاولة حرقه بالكامل، وقتله على الفور، والآن- كما لو كان أرتيوم بالذات يجسّد كلّ ما هو مثير للاشمئزاز، وما تكرهه، وما كانت تتمناه بشدة وهو موته.

شعر أرتيوم بذلك، وأصبح خائفاً أكثر فأكثر.

فكّر أرتيوم بشكل محموم: "... يا إلهي، دعني أذهب، إلى الجناة، إلى الوثيقة، إلى الخيشوم، إلى أيّ مكان... ".

صرخ أرتيوم تقريباً: " عينني المواطن إيخمانيس"- ونسي على الفور، أم لم يفكّر في هذه العجالة بالكلمة التي من المفترض أن تشير إلى معنى تعيينه- "لقد عينني مراسلاً ! ويجب أن أنفذ أمره!".

صرخ كلّ شيء في داخله: "... ما الذي أقوله، يا إلهي...سيقتلونني من أجل كلّ هذا!".

وكلاهما،على ما يبدو، كانا يصرخان: هو بصوت طفل، يحمي وجهه بيده، من الرعب، وهي بصوت امرأة مهجورة ومهانة، تطلب أن يثبتوا على الفور أنّها حبيبة وبحاجة لها، ومن دونها العالم فارغ، أمّا معها...

سألت، وهي كانت مستعدة للقهقهة: " من ؟ من قلت ؟ أعد!"- واستدارت حول الطاولة، واقتربت من أرتيوم، كما لو كانت ستنشب أظافرها في وجهه. كانت ترتدي تنورة ضيقة.

لقد وقفت أمام أرتيوم، وأسندت ظهرها إلى طاولتها.

كرّر أرتيوم بعناد وبصوت عالٍ، وهو ينظر إلى هذا التنورة: " مراسل. كيف تجرؤين على تأخيري؟".

ظهرت في رأسه عبارة غير مفهومة تماماً بالنسبة له، من مكان ما من خارجه: " هي تفعل ذلك بشكل متعمّد".

فكّر أحدهم بدلاً من أرتيوم الخائف والمتجمّد:" هي تفعل ذلك بشكل متعمّد. هي تفعل ذلك بشكل متعمّد. هي تفعل ذلك بشكل متعمّد. يجب عليك أن تخمّن. يجب عليك أن تخمّن. وإلّا فإنّها ستذهب وتجلس وراء الطاولة، وينتهي كلّ شيء...".

دون أن يحسب النتائج، وهو جالس على الكرسي نفسه، انحنى قليلاً فجأة، وأمسك بساقها، وتسلّق، وتسلّق، وتسلّق بيده المجنونة من تحت تنورتها الضيقة، بقدر ما استطاع، لكنّه لم يستطع الوصول سوى إلى الركبة- لكنّ ذلك كان... لقد كان ذلك بالفعل كابوساً، وإعدام، وحفرة دودٍ.

صرخ شيطان ما داخل أرتيوم: " لقد خمّنت؟ هل خمّنت ؟!".

قال غالينا بوضوح، وكما بدا، دون شعور تماماً: " آخ، أيّها الحقير!".

لكنّ أرتيوم كان قد قام، وتمايلت الغرفة، وتجمدت بطريقة ما بشكل مائل... ورأى بشكل خاطف، كما لو كان قد سقط من السماء المفتوحة، وطار مع هذه الغرفة بأكملها بسرعة كبيرة جداً، وظهرت شفتاها الرقيقة والغضة وخدّها المتعرّق من مكان ما- وتشبث بهاتين الشفتين، محاولاً النجاة وعدم التحطّم إلى قطع صغيرة.

شعر على الفور كيف أمسكته من سترته بيد واحدة، وجمعت القماش في قبضتها، وأمسكت بالأخرى رقبته، وغرزت بشكل مؤلم للغاية، ليس أظافرها وإنّما مخالبها، في جلده: "أيّها الحقير، أيّها الحقير، أنت حقير!- هكذا كانت تصرخ يدها.

... كان لسانها الحانق النحيف مثل لسان الأفعى في فمه، يقاوم هناك، ويتلوّى مثل المحروق...

فكّر أحد ما بدلاً من أرتيوم ، الذي فقد عقله: "لقد شربت الشاي مع السكّر للتو".

انتزعت مخالبها من رقبته، وبحثت بنفس الحدة عن شيء ما بين فخذيه، ولم تتمكن من العثور.

أمرت بصوت هامس وحانق: " فكّ هذه الأزرار، أين...".

كانت جزمة المستنقعات هذه، غير مناسبة: كانت ساقاه، وهو ينزل على الدرج من الطابق الثالث، لا تنحنيان. كانتا ترتجفان.

"حذاء مستنقع، لأنّك أنت في مستنقع"- جاءته أوّل فكرة، وحملها، وكانت تتأرجح في دماغه، مثل ورقة سقطت على الماء.

خرج إلى الشارع، لا يتذكّر سوى أنّه عندما نزل على الدرج، كانت الآلات الكاتبة تزقزق في مكاتب عدّة، تذكّروا بنوع من الطيور. كانت الطيور تنقر على الحروف. كانت الحروف مبعثرة.

كان مندهشاً جداً، من أنّ الشمس كانت تسطع في الخارج. كانت تعمي العينين. بدا له أنّه ينبغي أن يكون قد حلّ المساء. تهيأ له أنّ الكثير قد حدث بالفعل. طارت حياة كاملة إلى الأعلى، وانهارت مثل الألعاب النارية، واختفت.

... وكانت يداه ترتجفان أيضاً.

لعق شفتيه. كانت رائحة شفتيه شيئاً ما غريباً.

طار نورس في وجهه تقريباً، ونبح بشيء ما.

أخذ نفساً ونظر حوله وتذكّر شيئاً ما.

في البداية كان سوروكين هنا، ولم يعد موجوداً.

ثمّ كان لديه معاول، ومجارف، ودلو، وفأس، وكيس ملابس، وجزم مستنقعات، وورق للرسم، وأقلام رصاص.

استدار أرتيوم، ودخل إلى مبنى قسم المعلومات والتحقيقات.

دون أن يقول أيّ شيء، خطا باتجاه الأدوات، الملقاة مباشرة، عند المدخل.

صاح جندي الجيش الأحمر المناوب " أنت، اتركها!"

ثمّ دخل جندي آخر من الجيش الأحمر إلى مبنى قسم المعلومات والتحقيقات، عرفه أرتيوم أنّه الجندي الذي رافقه أمس.

صرخ الجندي: "أنت أروم البتولا، أين أنت، هل فمك مدهون باليود؟".

نظر أرتيوم إليه، كما لو كان مصدوماً.

أمر المرافق: "خذ الأدوات، لماذا تركتها هنا؟".

أجابه المناوب: "بيترو، لا يمكن ، جرى حجزها ".

صفق المرافق يديه: " ماذا يعني ممنوع. الرفيق إيخمانيس ينتظر هناك".

تحيّر الجندي المناوب قليلاً من هذا الخبر، لكنّه لم يتنازل عن موقفه.

سأل المناوب أرتيوم: "ماذا قالوا لك في المكتب؟".

تذكّر أرتيوم: " لقد طلبت منّي الخروج "- لكنّه لم يتحدث عن ذلك. كان صوتها أجشّ، وخصلة من شعرها تدلت على صدغها.

أجاب أرتيوم بصوت منخفض: "لم يقولوا شيئاً". حتّى إنّ صوته أرتجف.

قال الجندي المناوب: "سنفهم الآن"، ثمّ صاح لمساعده الذي كان غرفة المناوبة، وأمره: "اركض إلى الطابق الثالث، واسأل غالينا عمّا يجب أن نفعله بالأدوات المصادرة".

قال المرافق: " قرف!". عرف أرتيوم الآن أنّ اسمه بيترو.

خرج بيترو، الذي أطلق على أرتيوم اسم : "أروم" مرّة أخرى، ليدخّن، ولف سيجارة مباشرة.

انتظر أرتيوم لدقيقتين، وكان من حين لآخر يلمس الجدار البارد بأصابعه.

عاد بيترو وسأل:

"ماذا؟".

لم يجبه أحد.

نزل أخيراً، مساعد المناوب، وقال:

" تنقل الأدوات إلى إيخمانيس، وأمروا بأن يبقى أرتيوم غوريباينوف في الدير حتّى إشعار آخر، ويعود إلى سريته.

كان أرتيوم يتنفس بشدة من خلال فمه، محاولاً ألّا ينظر حوله، حتّى لا تلتقي نظراته بنظرات بيترو.

كان يفكّر بوضوح شديد وثقة: "أنت نفسك حقيرة".

سأل نفسه حانقاً: "ألا تخشى أن أخبر الجميع الآن أنّني...".

أجاب من نفسه: "سوف يطلقون عليك النار الليلة، أيّها الأحمق".

صرخ بترو في أرتيوم: "لماذا تقف يا شقي؟ على الأقل أحمل هذه النفايات إلى الحصان"- لحث أرتيوم شفتيه، نكزه بيترو في خاصرته.

جمع أرتيوم ما في وسعه، وأمسك بيترو الباب، وتركه يخرج إلى الفناء.

سأل بيترو، وهو ينظر إلى ما ألقى به أرتيوم بجانب حصانه: " كيف يمكنني أن آخذ كلّ ذلك بمفردي، هل فكّرت بذلك؟".

أجاب أرتيوم بصوت غير واضح: " يجب استلام مواد غذائية أيضاً".

قال بيترو: "أعطني الورقة".

ذهب للحصول على المواد الغذائية، وانتظره أرتيوم نصف ساعة، وشعر كأنّه حثالة، وغبار، ووسخ تحت الأظافر... وإضافة إلى ذلك، لا زال يلبس جزمة المستنقعات هذه.

صرخت النوارس في أذنيه مباشرة.

"... لِتُحْرَق!" - فكّر أرتيوم بنفسه، ليس بسعار، ولكن بنوع من الشفقة التي لا يمكن تفسيرها، أنّه لا يستطيع أن يحترق على الفور - " لتموت، وتتعفن على الفور! كيف ولدت مثل الخشبة! يا لك من خشبة عوجاء! خشبة عوجاء ومليئة بالديدان! برأس فارغ! برأس قذر فارغ! إلى أيّ حدٍّ؟ إلى أيّ حدٍّ أكرهك! إلى أيّ حدٍّ أكره! ".

نظر حوله، باحثاً عن نوع من الخلاص على الأقل... وفجأة وجد نوافذها - ها هي!. هذه الحقيرة تقف عند النافذة، هذه الحقيرة الكريهة الفاسدة!.. لكنّها ابتعدت فوراً، واختفت بمجرّد أن لفتت نظره.

أراد أن يرمي حجراً إلى هناك، بسعادة لا توصف! أيّ هستيريا كان من الممكن أن يفتعلها هنا! كيف كان يمكن أن يصرخ إنّ هذه الكلبة خلعت ملابسها الداخلية أمام سجين للتو، سأكون عاهراً إن كنت لا أقول الحقيقة! افتحوا بطنها، بذرتي هناك! ماذا تفعلين أيّتها العاهرة، أنت تدمرين شخصاً حياً! انظروا إلى هذه النافذة! أين أنت، أيّتها الحقيرة، أين اختفيت؟ لقد سألتْ: "أين ما لديك هناك؟" هل أريك ؟ هذا ما لدي هنا! هل أريك مرّة أخرى؟ هاهنا!

... من الغريب - أنّ أرتيوم شعر فجأة بالإثارة مرّة أخرى: إثارة ذكورية محمومة، حادة وقوية للغاية.

... بطبيعة الحال، لم يصرخ بأيّ شيء، وأدرك فجأة فقط، أن دمعة ضخمة غير منتظرة وقعت منه. التقطها بسرعة في الهواء، مثل حشرة باردة، وشدّ عليها بقبضته.

قال لنفسه: "... أنّ جسدك قد جنّ!" - دون أن يفهم ما العلاقة بين ما يجري بين رجليه، مع ما يجري في رأسه.

عاد بيترو ومعه كيس طعام.

حلّق حشد من النوارس فوق رأسه، كما لو كان يحمل فضلات لحوم على رأسه.

نظر إلى كلّ ما كان عليه أن ينقله مرّة أخرى، ونصح أرتيوم:

"أهرب، أيّها الوغد".

استدار أرتيوم، وذهب.

بعد ثلاث خطوات تذكّر، وردّ دون أن يلتفت إلى الوراء:

" أنت نفسك وغد".

انتظر سبع خطوات أخرى ليلحقوا به، لكن لم يلحق به أحد.

... يبدو أنّه غفا - كما لو كان يمشي، ويمشي على جليد هشٍّ وسقط في فجوة، لكن تبيّن أنّه لا يوجد ماء في الفجوة، وإنّما تراب - وهو ساخن، كما لو كان مسخناً، وخانقاً جداً".

نام في هذا التراب الخانق.

ثمّ استلقى وعيناه مغمضتان، وحاول ألّا يسمع شيئاً، ولا يفهم شياً، ولا يتذكّر شيئاً.

قال متوسلاً: "الآن سأفتح عيني وأرى أمّي، ويتبيّن أنّني في البيت، وعمري اثنا عشر عاماً، وينتظرني مربى الفواكه، وقد اصطاد عنكبوت ذبابة في

الزاوية، وتصدر أزيزاً هناك، وسأقوم بسحب كرسي، وأقف على رؤوس أصابعي، وسأشاهد كيف يلفّ العنكبوت خيوطه حولها هناك، من أجل أن يسحبها بعد ذلك إلى الشق بين جذعين في الجدار. وتقول أمي: "تيومكا، ألا تشعر بالأسف تجاهها؟ أنا أشعر بالأسف تجاه الذبابة! يا رب، لماذا هي تصدر هذا الأزيز القوي! تعال بسرعة واشرب الشاي! ".

سأل أرتيوم بصوت مسموع : " ماما، لماذا هي تئز هكذا ؟".

فتح عينيه. لم تكن هناك أيّ أمٍّ

طرقوا الباب.

جلس أرتيوم. كانت هناك جزمة المستنقعات على الأرض- كان يريد أن يقطعها إلى قطع.

"لماذا هم بحق الشيطان، لا يفتحون الباب "- فكّر أرتيوم، ومن غير المعروف من يعني بكلمة "هم"- "الباب غير مغلق!".

سأل بصوت عال: "من هناك؟".

فتح الباب ببطء، ولكن مع صرير، وظهر فاسيلي بيتروفيتش على العتبة.

زفر أرتيوم، كما لو أنّه تخلّص فجأة، إذ لم يكن من كلّ ما يحمله من همٍّ في صدره، فمن جزء منه على الأقل.

غمغم فاسيلي بيتروفيتش من على العتبة، زارّاً عينيه مثل صياد السمك: "رأيتك تسير في الفناء. جميلاً، مشدود القوام وتبدو أصغر سنّاً... لو كنت في موسكو، لكانت ستذوب السيدات الشبيبيات فيك... ولا سيّما في مثل هذه الجزمة!".

قال أرتيوم، وهو ينظر إلى الجزمة: "اللعنة عليها!" – وشعر مرّة أخرى بقرب انهمار دموعه.

تفاجأ فاسيلي بيتروفيتش، ولاحظ الجزمة في طريقه أيضاً: "لماذا اللعنة؟ سأحتاج إلى مثلها كثيراً- لقد اقترب الخريف، وقد بليتْ جزمتي تماماً".

تذكّر أرتيوم فجأة، وأغمض عينيه بقوة من شعوره بألم داخلي يعتصره، بأنّه وضع ملابسه في ذلك الكيس، إذ وضع ثياب الآخرين. و أخذها معه الآن جندي الجيش الأحمر إلى إيخمانيس. كلّ ذلك يجري معي !.

هرع إلى النافذة: ربّما بترو هذا لا يزال يقف في الفناء؟ - لكن بالطبع لا. كان الأيل ميشكا لا يزال يتحرك في المكان نفسه.

كان من الواضح أن اليوم قد مرّ بالفعل: كان مساء سولوفكي المائل للبياض يزحف.

سأل فاسيلي بيتروفيتش، في حيرة: " ما هذا يا صديقي؟ لماذا أنت قلق، مثل تشاتسكي؟".

استدار أرتيوم ونظر إلى فاسيلي بيتروفيتش لبرهة، دون أن يقول شيئاً.

قرر أخيراً، وقال بصوت عالٍ، وهو يلوح بيده: "إلى الشيطان!".

قال أرتيوم لنفسه: "يمكن أن يطلقوا عليك النار غداً!، وأنت حزين بشأن سروالك القديم!".

في الحقيقة، لم يعد يصدّق كثيراً أنّهم سيقتلونه: من أجل ماذا؟ فقد أوقفوه في قسم المعلومات والتحقيقات، وهو غير مذنب. لأنّه ضرب رئيس مجموعة؟ هو لم يعد رئيس مجموعة أصلاً، بل سجيناً سابقاً أطلق سراحه بموجب عفوٍ، وإضافة إلى ذلك كان مخموراً أيضاً.

كلّ هذه الحقائق، بدت مهزوزة بالطبع، لكنّها كانت موجودة.

"فاسيلي بيتروفيتش كيف جئت إلى هنا؟" - سأل أرتيوم، وكان لا يزال لا يبتسم بعد، لكنّه عاد إلى الحياة تدريجياً.

أجابه رفيقه الأكبر سناً:"أطعم الثمار لهذا وذاك. هناك معارف في كلّ مكان، لا يجوز البقاء دون علاقات مفيدة هنا- لن يذهبوا جميعاً إلى السريّة الثانية عشرة من أجل ثمار التوت البري، لذلك أوزع عليهم من وقت لآخر... وها قد

جلبت لك". كانت كلّ كلمة من كلمات فاسيلي بيتروفيتش اللطيف، مليئة بالسخرية، والسخرية الذاتية، والطيبة، والمكر، والحكم التي ظهرت حديثاً في حياة سولوفكي.

وضع كيساً من عنب الثعلب الممزوج بتوت العليق على الطاولة. لم يتذكّر أرتيوم متى أكل هذه الثمار آخر مرّة.

سأل: " هل تسمح لي؟".

احتج فاسيلي بيتروفيتش بشدة مصطنعة: "لا، لا،لا. انظر إليها فقط. تمتع بها. سأحمل الثمار إلى السرايا الأخرى، لإغاظتهم كثيراً "- وضحك- "كلْ ! كلْ! يا تيوما".

جلس فاسيلي بيتروفيتش مقابل أرتيوم على مضجع أوسيب.

أمسك أرتيوم بالكيس، وأخذ حفنة منه على الفور ووضعها في فمه.

كشخص مهذب، دعا فاسيلي بيتروفيتش الذي كان لا يتوقف عن زرّ عينيه كأنّه ينظر باتجاه أشعة الشمس، لكنّه رفض رافعاً كفه المفتوحة وهزّها يساراً ويميناً مرّات عدّة.

سأل أرتيوم وهو يلحس شفتيه: "كيف هو الحال في سريتنا؟".

أجاب فاسيلي بيتروفيتش: "كلّ شيء على ما هو عليه... في حالة من الضيق والاضطراب. مات لاجيتشنيكوف. هل من المعقول لم تعلم؟ عندما كنتما في المستشفى، وقتها مات؟ جرى نقل أفاناسييف إلى فرقة الفنانين. يواصل الجناة افتعال المشاحنات ويتعاركون أحياناً. أطعمهم الثمار يا أرتيوم، هل يمكنك أن تتخيل العار الذي يلحق بالعجوز؟ بشأن بورتسيف... حسناً، أنت فهمت بنفسك كلّ شيء عن بورتسيف. إنّه لا يتحسّن، بل أصبح أسوأ. يبدو أنّه أهلك الصيني الذي كان في سريتنا نهائياً. غادرنا وذهب إلى زنزانة العقاب، ولا يعرف عنه شيء من وقتها... وكرابين موجود في جزيرة الثعالب، يربّي شيئاً ما، لا أعتقد ثعالب تماماً...".

سأل أرتيوم، كما لو كان يتابع المحادثة: " وأنت لا زلت تجمع الثمار؟"- كان يتلذذ بالثمار كثيراً، ولا يريد التحدث.

أكد فاسيلي بيتروفيتش ذلك بقوله: "أنا لا زلت أجمع الثمار. وأنت؟..".

بحركة معينة أفهم محدثه أنّه الآن سيمضغ ما في فمه ويجيبه، وهو كان يفكّر: "الآن سأخبر عزيزي فاسيلي بيتروفيتش إنّ رئيس المعسكر، إيخمانيس، عينني رئيس مجموعة البحث عن الكنوز- نعم- نعم- نعم، كنوز! - في جزر سولوفكي، بعد أن شربنا سوية ليومين ساموغون[1]. نعم- نعم- نعم، شربت معه سماغون!- واليوم أتيت إلى هنا وفي الطابق الثالث في قسم المعلومات والتحقيقات، اغتصبت في أثناء الاستجواب موظفة في المعسكر... أم إنّها اغتصبتني.نعم- نعم- نعم، خلعنا ملابسنا بالكامل تقريباً، وبقيت في جزمة المستنقعات التي أعجبتك كثيراً، وسروالها الداخلي، الذي سقط، وبقي عليها قميص بأكمام مطوية فقط، ودخلنا فجأة في علاقة جسدية شيطانية. لو قلت له ذلك، سيقرّر فاسيلي بيتروفيتش أنّني أصبت بالجنون. وسيكون على حق... نسيت أن أقول، يا فاسيلي بيتروفيتش، إنّ غالينا هي عشيقة إيخمانيس".

بعد أن أدار هذا المونولوج في رأسه، شعر أرتيوم بدوار طبيعي وغثيان مؤلم.

قال لنفسه: "هذا لا يدخل في أيّ باب..."- قال ذلك، وهو يشعر بقطرات عرق تظهر على جبهته وصدغه.

نظراً لأنّ أرتيوم لم يرد، ولكن كان يقوم بإشارات غريبة بعينيه فقط- بمعنى، أنا آكل، وما زلت آكل، والآن لا زلت أمضغ، والآن أنا أبتلع، قرّر فاسيلي بيتروفيتش أن يجيب عنه بنفسه:

"اعتقدت أنّك أصبحت في... ماذا يسمونه؟ دورة الألعاب؟.. لكنّني أمرّ منذ أيام عدّة بالقرب من ملعب الرياضة- ولم أرك هناك.

---

(١) ساموغون: مشروب كحولي قوي يحضر في المنزل عن طريق التقطير. [المترجم].

أجاب أرتيوم بحزم شديد: "نعم"، لكنّه لم يقل شيئاً أكثر من ذلك.

ولم يلمس الثمار، ممسكاً الكيس في يده. وكانت يده مبتلة.

أومأ فاسيلي بيتروفيتش اللبق برأسه: "حسناً. فيما بعد ستحكي لي. لماذا أتيت: بما أنّك هنا، دعنا نذهب إلى أثينا[1] السولوفكية؟ نحن سنجتمع اليوم. سأل عنك ميزيرنيتسكي مرّة أخرى. وكان الأب إيوان مهتماً بأخبارك".

نقذ أرتيوم: "متى؟".

قال فاسيلي بيتروفيتش، وهو ينهض: "الآن. أنت كما أرى لست مشغولا كثيراً. صدقني، سيكون هناك، كمية معينة من المشروبات المسكرة. هل لديك بعض الطعام ؟".

قال أرتيوم: "لدي؟" - وبحث تحت سريره، دون أن يترك كيس الثمار من يده.

اقترح فاسيلي بيتروفيتش عليه: " أعطني الكيس، أنا سأمسكه".

دون أن ينظر، مدّ له أرتيوم كيس الثمار. وبعد ذلك أعطاه المعلبات التي وجدها في الصندوق.

قال فاسيلي بيتروفيتش باهتمام: " أوه، لحمه مع بازلاء... وواحدة أخرى. من أين حصلت عليهما؟".

أجاب أرتيوم من أسفل التخت: "... لا أتذكّر".

قال فاسيلي بيتروفيتش: "أنت تعيش بشكل جيد".

ردّد أرتيوم: "جيد".

سأل فاسيلي بيتروفيتش عندما كان أرتيوم يرتدي جزمته: " أليس لديك حذاء آخر؟ كما تعلم لا يوجد هناك الكثير من الرطوبة ".

---

(1) كان المعارضون السياسيون في معسكر سولوفكي يسمون اجتماعاتهم في غرفة زميلهم ميزيرنيتسكي امسيات أثينا. من غير المعروف من أين أتت هذه التسمية. [المترجم].

سأل أرتيوم ببعض الألم: "فاسيلي بيتروفيتش، توقف عن ذلك".

قال فاسيلي بيتروفيتش يسترضيه: "حسناً، كما يحلو لك، كما يحلو لك".

التقيا مرّة أخرى عند ميزيرنيتسكي.

قال المضيف بصوت عال، مشيراً بيده، إمّا إلى الطاولة وإمّا إلى الضيوف وراء الطاولة: " نحن نرحب بك، يا أرتيومي، رفيقنا العزيز في المصيبة!".

أجاب أرتيوم، وهو يفكّر، وينظر إلى الطاولة "لماذا...".

أعاد ميزيرنيتسكي السؤال بصوت عالٍ: "لماذا "رفيق" أم لماذا "بالمصيبة؟".

كما لو أنّ أرتيوم، لم يفهم أيّ شيء، لكن ابتسم للجواب: وانتهى الأمر عند ذلك الحد.

كانت الطاولة بلون قوس قزح. وكان يوجد عليها المشروبات التالية: كحول مشوه أرجواني اللون، سائل طلاء اصفر، وورنيش شيرلاشني مكرر بالملح، مليء بالرواسب السوداء. وجنبه كان يوجد وورنيش غير مكرّر- "...لمن يرغب"- أوضح ميزيرنيتسكي. وفيجيتال أخضر. وكولونيا الأزهار للسيدات، رغم عدم وجود سيدات.

وأعلن ميزيرنيتسكي عن آخر مشروب: "باقة جدتي".

بالمناسبة، كان تباع حتّى الفوتكا، من وقت لآخر، في أكشاك سولوفكي، بما في ذلك للسجناء، مقابل ٣ روبلات و٥٠ كوبيلاً لكلّ زجاجة. ولكن كان يلزم الحصول على تصريح خاص لشرائها، الذي نادراً ما كان يعطى، وللمقربين فقط، لذلك كان سجناء سولوفكي يكتفون بما يحصلون عليه.

سأل أرتيوم بنية حسنة، وهو ينظر من فوق كتف ميزيرنيتسكي، ليرى من كان في الغرفة أيضاً:" ما مناسبة هذا الاحتفال؟".

سأل ميزيرنيتسكي: "هل يشرب الروس من أجل أن يحتفلوا؟".

قال غراكوف بحياد متعمد: "إنّهم يحتفلون من أجل أن يشربوا". قام ومدّ يده بالسلام إلى أرتيوم.

قال ميزيرنيتسكي، وهو يستدير باتجاه الكاهن: "سيباركنا الأب إيوان".

قال الكاهن، وهو يبتسم لأرتيوم، لكنّه كان يتحدث إلى ميزيرنيتسكي: " لا سمح الله، يا عزيزي. أدعو الله ألّا يؤذيكم هذا السم ".

همس فاسيلي بيتروفيتش لأرتيوم: " اليوم عيد أسم ميزيرنيتسكي".

أجاب أرتيوم في حيرة: "لماذا لم تخبرني، لقد أتيت خالي الوفاض!".

هزّ فاسيلي بيتروفيتش رأسه، بمعنى ليس هناك حاجة.

أجاب ميزيرنيتسكي على الكاهن: " تمرّ عجلة التاريخ بالقرب من شعوب بأكملها، لكنّها أثرت فينا أحياء. نحن نعالج الجروح "- وأشار مرة أخرى إلى الطاولة بلون قوس القزح، وإلى المشروبات التي كانت تتمايل.

أضاف غراكوف بنفس نغمة ميزيرنيتسكي: "... طحنتنا!"- كان يعني، على ما يبدو، عجلة التاريخ.

تابع ميزيرنيتسكي، وهو يومئ برأسه لغراكوف في إشارة إلى أنّه يوافقه الرأي:" لقد لفونا جميعاً على هذه العجلة. من الصعب فهم أين هو الرأس، وأين المؤخرة، وتبرز الذراعان والساقان في اتجاهات مختلفة، وقد فقئت إحدى العينين، والأخرى امتصت إلى داخل الجمجمة، وتسبح هناك، بين الدماغ والبلعوم الأنفي، خائفة أن تنظر إلى الخارج، ولكن!.. لكن يا أصدقائي!".

سأل فاسيلي بيتروفيتش ميزيرنيتسكي بلطف: "هل تقود حصاناً يا عزيزي؟".

أجاب ميزيرنيتسكي بجدية شديدة: "لا!. لكنّني أضع حداً، "لكن"!. لأنّنا كنّا نتحدث في مرحلة الشباب كلّها،عن الشعب. عن الشعب، كما عن السكان البدائيين. عن عظمته ومصيره. وعن عدم اكتشافه. حتّى إنّنا تعرفنا على

فكرة الله..."- هنا ألقى ميزيرنيتسكي نظرة سريعة على الكاهن- "اكتشفنا، ودمرنا، لكنّنا لم نصل إلى الشعب قطّ. وهذا ما حصل! جرى تحديد مكان اللقاء! لقاء الشعب مع العصر الفضي! والعصر الفضي يحتضر، والعامة يستيقظون. ماذا علينا أن نفعل؟ ما لم يفعله التولستويون[1] والشعبويون، هو نفخ روح التنوير على شفاه السكان المحليين، والانسحاب بسلام.

قال فاسيلي بيتروفيتش بابتسامة ناعمة: " وجهة نظر ميزيرنيتسكي متناقضة إلى حدٍّ ما. قال منذ وقت قريب في اللقاء قبل الماضي، إنّ الطبقة الأرستقراطية، بل إنّه عبر بوضوح أكثر- الحرس الأبيض والمعارضون للثورة- بسبب تفوقهم الطبيعي، قادرون على استبدال البلاشفة بالتدريج، لسبب بسيط وهو أنّ البلاشفة ليس لديهم المعارف الكافية، أمّا الأرستقراطية المحطمة والمهينة فتعرف كلّ شيء. وهو أمر يسهل إثباته من خلال مراقبة الكوادر الإدارية في معسكر سولوفكي، إذ كما عبّر ميزيرنيتسكي، لا يوجد سوى "كوادرنا".

وافق ميزيرنيتسكي: "... نعم، كلّ شيء يتغير. الشخص يتغير، أنا أتغير، هناك استقلاب مستمر، شعوب بأكملها تستبدل الدم بالدم، والعين بالعين، والنار بالنار- ماذا تريد منّي؟ كلّ شيء يتدفق! أنا أتدفق أيضاً".

في أثناء إلقاء خطابه، تحايل ميزيرنيتسكي وغمز بعينيه لأرتيوم إلى المشروبات بمعنى: هذه؟ أم هذه؟ ماذا تفضّل؟

قال أرتيوم بصوت مسموع: " لا فرق. الشيء نفسه!".

أجاب ميزيرنيتسكي: " ألن تقول"، وصب شيئاً أخضر لأرتيوم.

قال فاسيلي بيتروفيتش: "هناك شيء واحد لم أفهمه. لماذا يجب نفخ روح التنوير هنا بالتحديد؟ ألا يوجد مكان آخر أكثر ملاءمة في روسيا؟".

---

(١) الحركة التولستوية هي حركة اجتماعية مرتكزة على التوجهات الفلسفية والدينية للأديب الروسي ليو تولستوي. تأثرت وجهات نظر تولستوي بدراساته المفصلة لكهنوت المسيح، خصوصاً العظة على الجبل. [المترجم].

أجاب ميزيرنيتسكي بثقة، بل هزّ رأسه قليلاً: "لا!. نحن هنا، من فم إلى فم. هناك جندي الجيش الأحمر، والبروليتاري، والمشرّد- سيهرب أيٌّ منهم، ويخفي رأسه في تنورة أمّه أم زوجته، وفي الطحالب، وبين الجذور- كيف ستدير وجهه نحوك؟ أمّا هنا، فوجهه في كلّ مكان، أينما تتنفس".

قال فاسيلي بيتروفيتش مع خيبة أمل لطيفة: "إنّك تتحدث... مثل البهلواني".

قال ميزيرنيتسكي، وكأنّه لم يسمع، ولكنّه في الواقع كان يجيب عن ما قيل:" هنا يجري أفول ليس العصر الفضي فقط، هنا ينهي هارلي كوين(١) رحلته. آخر االمهرجين الأرستقراطيين الأنيقين. ألقي نظرة، على سبيل المثال، إلى جزمة المستنقات هذه..."- وأشار ميزيرنيتسكي إلى جزمة أرتيوم، وهو يقرع كوبه معه في الوقت نفسه.

طلب أرتيوم بابتسامة، ولدهشته شعر أنّه يحمر خجلاً: "أسمع ، توقف. لم أقصد...".

وافق ميزيرنيتسكي على عجل: "حسناً، حسناً"- وبحث بعينه عن شخصٍ كمثال: لم يكن الأب إيوان مناسباً كثيراً. وغراكوف لا يناسب أيضاً. وفاسيلي بيتروفيتش... للأسف، نهائياً.

كان المثال حاضراً حسب الطلب.

تذكّر أرتيوم على الفور، من هو الشخص المناسب، وما اسمه، أنّه شلابوكوفسكي، فنان. هو الذي كان يرقد في المستشفى مصاباً بالحمى، وهو الذي شرح لأرتيوم ، إنّهم كانوا يضعون له مقياس حرارة مع درجة حرارة شخص آخر، كل يوم. أم بالأحرى درجة حرارة شلابوكوفسكي نفسه...

---

(١) هارلي كوين هي شخصية خيالية تظهر في القصص المصورة، عادة كعدوة للبطل باتمان. ابتكر الشخصية بول ديني وبروس تيم. [المترجم].

لكن كان شخصاً آخر! كان أوّلاً، يرتدي قفازات سوداء مع خطوط بيضاء. وثانياً، مع عكاز. وثالثاً، كان يرتدي حذاء جزؤه العلوي من جلد الغزال ، وسروالاً ممتازاً، مفصّلاً حسب الطلب عند الخياط. وأخيراً: يرتدي سترة من الجوخ.

قال ميزيرنيتسكي: "لقد حملت كلّ دعائم المسرح على نفسك مرّة أخرى، يا روحي".

لوّح شلابوكوفسكي بيده بلا مبالاة، وبفرح خفي. يبدو أنّه كان يعرف أرتيوم أيضاً.

سأل شلابوكوفسكي: " حسناً، هل انخفضت درجة حرارتك؟".

أجاب أرتيوم: "لدينا درجة حرارة مشتركة. بالحكم عليكم، انخفضت!".

قهقه شلابوكوفسكي دون أن يصدر صوتاً تقريباً، ويبدو أنّه كان مسروراً جداً بالنكتة. لم يرى أرتيوم مثل هذا الضحك من قبل - غير مسموع، لكنّه معدٍ.

ضايقه ميزيرنيتسكي: " توقف عن نوبة ضيق تنفسك. متى ستتعلم أن تضحك بصوت مسموع أخيراً". لكن يبدو أنّهما كانا صديقين جيدين لدرجة كان لهما الحق في عدم إيلاء الانتباه بعضهما إلى بعضٍ.

قال شلابوكوفسكي بهيبة عظيمة:" لديك فطيرة تحترق هناك"، ووضع عكازه في الزاوية، ووضع قفازاته فوقها.

قال ميزيرنيتسكي بخصوص الفطيرة:"يا للشيطان!"، ورسم الأب إيوان علامة الصليب، وشرب ميزيرنيتسكي قرفه بجرعة واحدة. أدرك أرتيوم أنّه حان الوقت ليشرب أيضاً، لكنّه سأل شلابوكوفسكي: "وأنت؟". نظر شلابوكوفسكي إلى الطاولة، وأجابه: "بعد قليل!"- كما لو أنّه سيتم إحضار شمبانيا ١٨٤٩ المفضلة لديه، بعد سبع دقائق.

شرب أرتيوم. كان شعوره، كما لو أنّ طلاءً ممزوجاً بالحمض قد نثروه في فمه وفي عينيه في الوقت نفسه - كان من الصعب ابتلاعه، لكنّه كان يحرق ويخنق.

كان لديه ثقة بسيطة لبعض الوقت، إنّه على وشك الموت.

فتح فمه، وحاول الزفير: اختفى الهواء.

ظهر ميزيرنيتسكي بأعجوبة، كما لو كان يعرف مسبقاً كيف ستنتهي المسألة. كان يحمل في يديه أربعة أكواب من قهوة الشعير، دفعة واحدة.

كان يتململ حول أرتيوم: " خذ، خذ. اشرب، لقد برد.

سرعان ما أخذ أرتيوم رشفة: تحلّل الطلاء.

ولكن، من المدهش أنّه بمجرّد أنّ الهواء لم يكد يتسرّب، أصبح من الداخل أكثر دفئاً، كما لو أنّه أنظف.

نظر إليه الأب إيوان، كما لو كان طفله، وبمجرّد أن تنهد أرتيوم، تنفس الكاهن نفسه.

كان يتمتع بصفات مذهلة ، دون أن يتكلّم مع أيّ شخص، كان يشترك في أيّ حديث: لدرجة أنّ نظراته كانت مليئة بالتفهم والتفاعل.

ذهب ميزيرنيتسكي مرّة أخرى، وعاد مع طبق كان فيه شيء منتفخ وعطر للغاية، على الرغم من كونه محترقاً قليلاً - على ما يبدو، الفطيرة نفسها.

صفق فاسيلي بيتروفيتش يديه: "يا إلهي، لم أصدق. اعتقدت أنّها كانت مزحة. كيف طبختها، يا عزيزتي؟".

أجاب ميزيرنيتسكي: "في سولوفكي، كما نعلم، كلّ شيء ممكن"، ووضع الطبق على الطاولة، والتي كان يجب إخلاؤها على عجل. كانت الزجاجات والقوارير معلّقة بألوان مختلفة بأيدي الضيوف الممدودة، مثل طائر يبحث عن مكانٍ لنفسه، وفقط عندما وجد الكحول والطعام بعض الهدوء، تحدّث بصدق قائلاً: "اشترينا إجاصاً برياً جافاً، يا فاسيلي بيتروفيتش- هذا نصف العمل.

وجدنا زبدة، ومربى، ودهن الفقمة، والكعك الأسود أخيراً. هذا لكم، تفضلوا. هل تريد يا أرتيوم، كوباً آخر؟ الجميع هنا لا يشربون".

قال فاسيلي بيتروفيتش: " كنت لأغامر مع الفطيرة".

قال ميزيرنيتسكي: "حسناً، لنغامر!"، وسكب ثانية لنفسه ولأرتيوم، ولفاسيلي بيتروفيتش كاختراق.

قال فاسيلي بيتروفيتش بشكل مثير للشفقة، على الرغم من وجود مكر واضح في عينيه: "أرتيوم، أنت وأنا كم...".

أكمل أرتيوم: "... أكلنا ثماراً ".

وافقه فاسيلي بيتروفيتش، كما لو كان قد ثمل مسبقاً: "نعم. ولم نشرب معاً قط. من غير الطبيعي!".

قال أرتيوم، بتأثر قليل ، قدر ما يستطيع: "سنشرب، وليس مرّة واحدة".

"هل تعتقد؟": سأل فاسيلي بيتروفيتش بجدية شديدة، كما لو كان أرتيوم يعرف شيئاً غير معروف له.

أجاب ميزيرنيتسكي بدلاً عنه، تعباً من الانتظار، وهو يحمل الكوب المليء بالمشروب في يده: " يعتقد!Ergo bibamus!"

- وترجم لنفسه من اللغة اللاتينية: " إذن فلنشرب!".

وشربوا.

توقفت أنفاس أرتيوم للمرة الثانية، وتجمد مرّة أخرى، منتظراً أن تعاود من جديد. من المثير للدهشة أنّ فاسيلي بيتروفيتش تحمل بسهولة، المشروب الثقيل المليء بنتف الرواسب السوداء، وبحث على عجل عن كوب من قهوة الشعير لرفيقه الأصغر، وفي الوقت نفسه قسم قطعة فطيرة لم يمسها أحد له، وليس لنفسه.

في هذه الأثناء، جعل ميزيرنيتسكي الجميع يفكرون للحظة.

"هل تعلمون يا أصدقائي المتعلمين، أنّ عبارة "ergo bibamus" - "لذلك دعونا نشرب"- تعني إيقاف أيّ جدل وتحويل أيّ عبارة إلى نخب؟".

شرب أرتيوم في البداية رشفة من القهوة، ثمّ حاول فهم معنى ما قيل. انهار وعيه كموجات الرمال، وبدأت تقترب حالة من السكر الشديد.

سأل ميزيرنيتسكي، كمثال يؤكد كلماته: "غراكوف هل تشرب؟".

قال غراكوف وهو خائف قليلاً: "أنت تعلم أنّني لا أشرب الخمر".

أنهى ميزيرنيتسكي "... أنا لا أشرب، ergo bibamus!"، وفعلاً سكب مرّة أخرى.

لم يستطع الأب إيوان السكوت أكثر، وقال: "يا عزيزي، دع الطفل يلتقط أنفاسه، لقد فقدت ضبط النفس!".

بعد أن شرب الكأس الثالثة، صاح ميزيرنيتسكي:" نعم، بالضبط!.. فقدت ضبط النفس، ergo bibamus!".

انفجر الجميع بالضحك، وضحك الكاهن بصوت منخفض أيضاً، وهو يغطي عينيه بيده.

اشتكى فاسيلي بتروفيتش، مع دمعة، بصوت ماكر: " من غير الممكن التحدث بهذا الشكل "- وبطبيعة الحال، وقع في الفخ.

كرّر ميزيرنيتسكي: "... لن يكون من الممكن التحدث نهائياً، ergo bibamus!".

شربوا مرّة أخرى.

جمد الجميع مثل الأطفال في أثناء اللعب، ينظرون بعضهم إلى بعضٍ، ويضبطون الضحك؛ وفجأة شعر أرتيوم بشيء حلوٍ في داخله: إيخمانيس، وجندي الجيش الأحمر بيترو، وحزمة الملابس، ورئيس المجموعة سوروكين بإبطيه المتعرقتين، وهذه العاهرة ذهبوا بعيداً، بعيداً في البداية، ثمّ العاهرة نفسها،

عادت متقلبة في الهواء الناعم والساحر، وشعر فجأة برائحتها، وأنفاسها، وشفتيها المتشققتين...

كان الباقون، في غضون ذلك، يحاولون العثور على بعض الكلمات، على الأقل، التي لا يمكن أن تؤدي إلى شرب كحول قوس قزح على الفور.

بدأ ميزيرنيتسكي، يتمعّن بالضيوف، إمّا بشكل صارم، وإمّا ساخر، كما لو كانوا في كمين، ولكن في الوقت نفسه قطّع الفطيرة. لاحظ أرتيوم بارتياح أنّ أظافره كانت نظيفة ومقلمة هذه المرّة.

أوضح لنفسه: " عيد يوم مولده !".

كان الأب إيوان مستعداً لقراءة الصلاة، قبل بدء العشاء المشترك، لكن يبدو أنّه كان يخشى بشدة، أن يسمع على الفور عن " ergo bibamus ".

قال ميزيرنيتسكي بصرامة، لكن بنغمة ساخرة، أراحت الجميع: " كما قلت، يمكن التحدّث عن أيّ شيء! لكن، نتيجة أيّ نزاع محددة سلفاً!".

وبدأ الجميع، في الحال، الكلام بوقت واحد، كما لو كانوا يريدون التحدّث إلى ما لا نهاية، حتّى يوقفوهم ممسكين بهم من أكمامهم.

"... كنت في شبه جزيرة القرم: كانت هناك حينها سيدات، وضباط أيضاً، لكن لم يعد هناك شيء من هذا موجود بالفعل، هذه الحياة ماتت!.. هناك مدن ميتة، إذ لم يعد أحد يعيش هناك، أطلال فقط. كانت هذه مدينة ميتة بأناس أحياء!"- تحدّث ميزيرنيتسكي الذي ثمل بطريقة غريبة، كما لو أحاطت به سحابة دافئة ضبابية قليلاً، وطغت على جميع الأصوات، وكان ينطق كلّ كلمة ببعض الصعوبة- " هل هذا شيء محزن؟ شيء محزن! ولكن لماذا لا نحزن الآن؟ كلّ هذا لن يكون قريباً أيضاً".

لم يفهم شلابوكوفسكي "ماذا؟".

أشار ميزيرنيتسكي بيديه: "كلّ شيء: السرايا، والجذوع، والفهود، ورؤساء مجموعات العمال، وإيخمانيس... لا شيء! ألا تفهمون أنّنا انتقلنا على

الفور من خرافة إلى أخرى؟ طروادة، وقرطاج، وإسبرطة... وحقل كوليكوفو، وبورودينو، والباستيل... والقرم، وسولوفكي. هل تفهمون؟".

قال شلابوكوفسكي: "لا أريد الخوض في الأسطورة. أريد سريراً مزين بكريات حديد، ومرسوم عليه عند الرأس آلهة الحب. وأن أكون مرتدياً بيجامة... ولا سيّما، أنّني لا أرى أيّ فرق بين شبه جزيرة القرم وسولوفكي. في رأيي، في اللحظة التي اخترقها البلاشفة والمخنويون[1]، جرى انتزاعها من البر الرئيسي، وجرى حملها على طول البحار، ثمّ وصلت إلى هنا. الجمهور هنا متماثل معها تقريباً، لكنّه نسي الإبحار إلى تركيا، في الوقت المناسب".

قال ميزيرنيتسكي: "أنت يا شلابوكوفسكي فوضوي وبورجوازي صغير في الوقت نفسه. مع أنّه، من ناحية أخرى، من يجب أن يكون هذا الشخص أيضاً، لينضم إلى الفنانين.

كان غراكوف يبحث في الكتب الموجودة على الرف.

جلس فاسيلي بيتروفيتش، وراء الطاولة، وكان يفكّر وهو يمضغ شيئاً لا يزيد حجمه على ساق من العشب.

صعد أرتيوم بقدميه على سرير ميزيرنيتسكي، بعد أن خلع جزمته التي كانت قدماه فيها حامية جداً، واستمع إلى كلٍّ من شلابوكوفسكي والكاهن إيوان الذي كان قد ارتشف للتو كوباً من شيء أرجواني.

قال الكاهن إيوان بصوت منخفض: "الكنيسة هي إنسانية المسيح، وأنت دون الكنيسة، يتيم. من يؤمن بالمسيح ويحيا في المسيح هو إله الإنسان. وأنت مجرّد إنسان، هذا صعب عليك.

---

(١) الجيش الثوري المتمرد بقيادة نستور ماخنو الذي أسس مجتمع لاسلطوي، دون دولة في جزء من أوكرانيا المعاصرة خلال الحرب الأهلية في أوكرانيا (١٩١٨-١٩٢١). [المترجم].

استمع أرتيوم إلى الكاهن، وبدا له أنّ رأسه ينظّف، مثل بصلة- طبقة تلو الأخرى... وكان الأمر في البداية سهلاً وأسهل ثمّ أسهل، كما لو أنّه تعلم التنفس بكامل كيانه على الفور، و أصبح كلّ شيء من حوله أكثر شفافية... ولكن نما لديه قلق، في الوقت نفسه: ماذا يوجد هناك، بداخله، في صميمه. ما هو؟

كان أرتيوم واضحاً للكاهن كما لو كان على كفه- نطق الكاهن كلمة أخرى، وهذه ا كلمة ثانية وثالثة أيضاً - ماذا لو انفصلت البتلة الأخيرة الآن فجأة. وهناك دودة تتلوى؟ دودة!.

شعر أرتيوم كما لو أنّه قد جرى تجنب مصيبة، عندما ترك ميزيرنيتسكي، الذي على ما يبدو كان قادراً على التحدث والاستماع في الوقت نفسه، على الرغم من سحابة الضباب التي كانت تلفه، موضوعه وقاطع الكاهن :

"لكنّني أفكّر أحياناً، أيّها الأب إيوان: أيّ مسيحية بعد هذا الرعب؟".

نظر الكاهن إيوان إلى ميزيرنيتسكي بعيون متعبة قليلاً، ولكن بشكل مسالم جداً. كانت عينا الكاهن غافيتين تماماً: لقد كان متعباً المسكين.

"ماذا عن المسيحيين الأوائل؟"- سأل بصوت منخفض، ولكن بنبرة، كما لو أن المسيحيين الأوائل كانوا للتو في مكان ما هنا- لقد مزقتهم الأسود. وماذا عن المسيح؟ لقد جرى تسميره! وهو ابن الله! قدّم الله ابنه".

قال ميزيرنيتسكي: "كلّ روسيا تسمّر بعضها البعض. هي لا تريد الآن أن تؤمن بالله. دع الله يؤمن بها، حان دوره".

ابتسم الكاهن عنوة عنه، كما لو كان ينظر إلى طفله الذي أصبح شقياً، لكنّه سيهدأ الآن.

وافق الكاهن بقوله: "إنّه يؤمن. إنّه يؤمن. دوره موجود دائماً، وهو لا يترك دوره. لقد قال: الذي يحب روحه - سيدمرها، أمّا الذي يكره روحه- سيجدها. روسيا تكره روحها من أجل أن تعثر عليها".

فجأة رفع ميزيرنيتسكي صوته مضاعفاً: " هي تعثر عليها. تعثر!". حتّى إنّ غراكوف التفت إلى جهة هذا الصوت، وتوقّف فاسيلي بيتروفيتش عن مضغ ساق العشب.

قام ميزيرنيتسكي بحركة بكلتا يديه، كما لو أنّه مزّق هذه السحابة نفسها غير المرئية، وخرج في النهاية إلى خارجها متعرّقاً ومعذّباً.

قال ميزيرنيتسكي بوضوح شديد: "أبانا لا يقرأ الكتب. القساوسة في روسيا، بشكل عام، ليسوا مغرمين جداً بقراءة الكتب، إذ يزعمون أنّها مرشحة لاحتلال المكان الذي شغلوه هم... إلى لمكان، إذ يعظون"- رفع فاسيلي بيتروفيتش عينيه بقساوة عند كلمة " قساوسة "، ومع ذلك ظل صامتاً- "لكن مع ذلك، فإنّ روسيا تعيش على ديانتين منذ مئة عام. البعض في الصلاة، والبعض الآخر- يتغذى على بوشكين وتولستوي. ماذا لديك أنت، يا غراكوف؟ تولستوي أم بوشكين؟ تورغينيف؟ وتورغينيف جيد! لأنّ القراءة المحايدة للأدب الروسي، التي كتبها النبلاء بالمناسبة، ستمنحنا معرفة واحدة، لكنّها صلبة جداً: "الفلاح هو إنسان أيضاً!". ما هي أهم كلمة هنا؟ لا، ليس "الإنسان! أهم كلمة هنا "أيضاً"! الكاتب الروسي - نبيل، وأرستقراطي، وعبقري - دخل إلى العالم الروسي، كما يدخل المرء إلى حديقة حيوانات! واعتصروا قلبه. هؤلاء- في الأوساخ، وفي الرجس، وفي البهيمية - هم مثلنا تقريباً. أي: مثل الناس تقريباً! انظروا، امرأة فلاحة، إنّها مثل سيدة شابة تقريباً! انظروا، يستطيع الفلاح أن يتحدث، لقد قال ذات مرّة شيئاً ذكياً، تقريباً بنفس مستوى ابن أخي البالغ من العمر ست سنوات! انظروا، إلى أطفال الفلاحين هؤلاء، أنّهم جميلون ومرحون تقريباً مثل كلابي السلوقية!.. هل قرأت الحكايات الخيالية والقصص التي ألفها ليف تولستوي لهذا... ما اسمه ؟..للشعب؟ لو جرى قراءة مثل هذه الحكايات لتولستوي نفسه عندما كان طفلاً، ما كان ليصبح حتّى مثل نادسون[1]!".

---

(١) سيميون ياكوفليفيتش نادسون: شاعر وكاتب مراسلة روسي (١٨٦٢-١٨٨٧) حقق شهرة في عصره. [المترجم].

سأل فاسيلي بيتروفيتش في حيرة إلى حدٍّ ما: "إلى ماذا ترمي؟".

أجاب ميزيرنيتسكي: "انتظر فاسيلي بيتروفيتش. لا يزال Ergo bibamus ينتظرنا، فهذا أمر لا مفر منه. يدور الحديث الآن عن تولستوي، كمثال فقط. يمكن استبدال تولستوي بتشيخوف- ضع غراكوف الكتاب في مكانه، يكفي ضمه - القصة نفسها. لا يحب تشيخوف أحداً على الإطلاق؛ لكنّه لا يحب الجميع كبشر، أمّا الفلاح عنده، هو نوع من الخضار التي تتكلم والخطرة... هو شيء ما كالشجرة الحية والشريرة ، التي يمكن أن تلحق بك وتخدشك. يتصفح فلاحونا أدبنا، مثل هنود فينيمور كوبر[1]، لكن أسوأ من الهنود. لأنّه يوجد لدى الهنود الفخر والشرف. لكنّهما لا يوجدان لدى الفلاح الروسي ولم يمتلكهما يوماً. يوجد لديه، في أحسن الأحوال، الدهاء فقط... لكن لا يوجد شرف، لأنّه يمكن أن يسقط سرواله في أيّ لحظة. فأيّ شرف هنا".

سأل فاسيلي بيتروفيتش، الذي لم يعجبه مونولوج ميزيرنيتسكي منذ البداية، " ومع ذلك؟".

قال ميزيرنيتسكي وهو يختصر الكلام، من الواضح كان لديه احتياطي كبير من الكلمات:" يمنح البلاشفة الشعب الإيمان بأنّه عظيم! ويصدقهم الشعب. قال له البلاشفة إنّه "إنسان أيضاً "، فقط هو الإنسان. وتريده ألّا يصدق ذلك؟ مصيبة البلاشفة واحدة فقط: الشعب متوحش. ربّما ليس مجرّد إنسان، ولكنّه أكثر من مجرّد إنسان، لكنّه في كلّ الأحوال متوحش. نتحمل نحن الذنب بالطبع، لكن هذا لم يعد مهماً. ماذا يجب على البلاشفة أن يفعلوا؟ ألّا ييأسوا، ولكن أن يقولوا للفلاح: سنعيد تشكيلك كما يجب، ونصنعك، بالطبع هو لا يريد أن يصنعوه مثل الحديد. كما ترون، جلدوه لما يقرب من ألف عام،

---

(١) جيمس فينيمور كوبر (١٧٨٩–١٨٥١): روائي أمريكي وناقد اجتماعي شهير. عرف كوبر أيضاً ناشطاً في مجال تطوير الثقافة الأمريكية المحلية. اكتسب شهرته من سلسلة روايات "الجوارب" التي تتحدث عن الرواد المكتشفين في الغرب الأوسط الأمريكي. [المترجم].

وقرروا الآن استبدال القضيب بمطرقة. هذه ليست مزحة. ومع ذلك، فقد فات الأوان. هو نفسه وافق على ذلك".

سأل فاسيلي بيتروفيتش: "ما علاقتنا بذلك يا عزيزي؟".

فوجئ ميزيرنيتسكي بصدق: " نحن؟. ليس لدينا أيّ علاقة، لم نعد موجودين. نحن غاضبون من المعلّم الألماني لأنّه يصرخ فينا: كيف يجرؤ؟ يجب أن نقتله! نركض حول المرج ونلتقط الفراشات بشبكة. ثمّ هم يرقدون ويجفّون في علب نسيناها. نحن نغوي الخدم ولا نخجل من ذلك كثيراً. نحن نسرق السجائر من علبة سجائر والدنا... نحن نحمل كتافيات الرتب، وفي الوقت نفسه نتعالج من مرض السيلان- في شبه جزيرة القرم هذه، في الحرّ جياع، ومرضى بالكسل المميت للدماغ... وما زلنا نريد أخذ موسكو، ما زلنا نريد ونريد، رغم أنّنا لا نريد القتال بشكل فظيع- لا نريد القتال نهائياً، يا إلهي. ولا سيّما، أنّ الهنود انتصروا علينا- تبيّن أنّ لديهم غضباً وإيماناً وقوة أكثر. ربح الهنود، ودفعونا إلى المحميّة: إلى هنا".

جلس ميزيرنيتسكي، وسكب في الأكواب بيد شديدة الصلابة- في كلّ كوب نوعاً من المشروب.

فكّر أرتيوم: لماذا يصمت الكاهن، واستدار في اتجاهه. كان نائماً.

نظر أرتيوم إليه لبعض الوقت بحنان، وإن كان مخموراً، وإلّا لما كان نظر إليه بهذا الشكل، وفجأة فتح الكاهن عينيه، كما لو أنّه شعر أنّهم ينظرون إليه.

في اللحظة نفسها التي فتح فيها عينيه، ابتسم الكاهن لأرتيوم، كما لو أنّ الموقف الطيب تجاهه كان ينتظر ليعبر عن نفسه، وانتظر بصعوبة لينتهي حلمه.

رسم الكاهن علامة الصليب بسرعة ونهض بهدوء قائلاً: "... حان الوقت، حان الوقت، لن أستيقظ غداً..." - وكان مظهره الخارجي، كما لو كان كلّ شيء حوله في الزجاج، وكان من الضروري أن يختفي بهدوء قدر الإمكان. أخذ ميزيرنيتسكي نفساً، وواصل في الوقت نفسه يقول شيئاً ما، ولسبب ما

اختار كمستمع غراكوف الذي كان يعبّر عن موافقته بكلمات مختلفة: "هذا منطقي!.. نعم، نعم... بالطبع!.. لم لا!..".

أعتقد أرتيوم:" بالتأكيد في مخزون الكاهن الكثير من الكلمات الرائعة رداً على ذلك، ولكن لم يكن هناك فائدة من إهدارها على أشخاص مخمورين ومحطمين ".

"أعزائي الذين ضلوا طريقهم..." - هذا ما كان يقوله مظهر الكاهن كلّه، المعتذر والهادئ.

قال ميزيرنيتسكي، دون أن يتوجه إلى الكاهن الذي يغادر، هذه المرّة، بل خاطب الجميع: " لا تعتقدوا فقط أنّني أهذي".

أجاب شلابوكوفسكي: " لا أحد يعتقد ذلك". أسكب لي أيضاً.

سأل أرتيوم بمجرّد مغادرة الكاهن، لم يكن يريد المشاركة في النقاش بوجوده: "... هل سيعاد تشكيل الفلاح في المعسكر أيضاً ؟ لا يمكن أن يجري ذلك خارج المعسكر؟".

سأل ميزيرنيتسكي: "وهل رأيت الكثير من الفلاحين في سولوفكي؟ ينتظر البلاشفة أن يفهمهم الفلاح دون ذلك... إذا لم يفهم، فسوف يحضرونه إلى هنا لإكمال تعليمه... إذا فهم بنفسه- ذلك أفضل بالنسبة له. ولكن بكلّ الأحوال، يا تيوما من الأفضل إعادة تشكيله في ورشة الحدادة "Ergo bibamus !".

قال فاسيلي بيتروفيتش في طريق العودة، وهو يودع أرتيوم: "هذه الأحاديث مؤلمة.. ممزّقة! لكن قدّرها، يا أرتيوم. لقد جرت هذه الأحاديث في بطرس بورغ. وأحياناً في موسكو، ولكن أقل... موجودة الآن هنا فقط، ولن تجري في أيّ مكان آخر... يا لها من حرقة حقيرة من هذه المشروبات...".

"والكاهن؟"- سأل أرتيوم عمّا كان سيسأل عنه في المرّة الماضية- "لماذا هو معكم؟هل هو حقاً يحتاج إلى ذلك حسب...؟"- لقد بحث أرتيوم عن الكلمة الصحيحة ولم يجدها، وأضاف:"...مرتبته؟".

ضحك فاسيلي بيتروفيتش: "بالنسبة له ؟ لا، لم يكن هذا بالنسبة لنا مرتبة في حياتنا... كما تعلم، عندما كنت طفلاً، وكان والدي - كان والدي رجلاً نبيلاً، وإن كان مبدداً- عندما كان يدعو الكاهن إلى منزل العائلة للصلات، لم يجْلسوا الكاهن على طاولة الحضور. لا عندنا ولا عند الجيران، ولا في أيّ مكان، لم – يج- لي- سوه) ! كان ذلك فظاظة. كانوا يطعمونه بشكل منفصل... كانوا يقدمون له وجبة خفيفة، حتّى كأساً من الفودكا في بعض الأحيان. وقد كان يأكل هناك بمفرده. مثل الخادم... وأنا لا أتحدث عن بيئات سانت بيتربورغ: كان من الأسهل إحضار الشيطان على خيط هناك. أوه، كان الجميع سعداء بشكل غير عادي أكثر من الكاهن... كلنا كنّا نستطيع، ونتمنّى! أن نتحدث بغياب الكاهن... ونريد الآن بوجوده ومعه، هكذا انقلبت الأمور! من أجل أن يسمعنا! ويشفق علينا!".

فكّر فاسيلي بيتروفيتش في شيء ما، ولكن بعد ذلك أخذته فكرة أخرى في اتجاه آخر، وأسرع وراءها، وتحدّث عنها على الفور بصوت مسموع:

"ومع ذلك، سأقول: لدى ميزيرنيتسكي سبع جمع... في الأسبوع. لن تفهم قطّ ما هو جوهر موقفه. يقول بالتتابع، أشياء متناقضة".

قال أرتيوم وهو يفكّر بتمعّن: "... هو محق في شيء ما... على سبيل المثال ورشة الحدادة". لقد أصابه غثيان خفيف، لكن كان من الممكن تحمّل ذلك.

انتفض فاسيلي بيتروفيتش، كما لو إنّه طائر ألقي عليه حجر، لكن من غير المعروف بعد من الذي ألقى عليه.

تابع أرتيوم يقول، كلمات غريبة سمعها مؤخراً، على الرغم من أنّه لاحظ إيماءة فاسيلي بيتروفيتش: "يمكن القول بطريقة أخرى. إنّه مختبر".

قال فاسيلي بيتروفيتش متوقفاً: " تيوما، يا روحي الطيبة جداً، ما الذي تتحدث عنه، لا أستطيع أن أفهم".

هزّ أرتيوم كتفيه ونظر مباشرة إلى فاسيلي بيتروفيتش.

سأل فاسيلي بيتروفيتش: " أرتيوم، هل كنت في السيرك؟ ألم تكن هناك؟... أعني، إنّ هذا ليس مختبراً وليس جحيماً. إنّه سيرك في الجحيم".

صمت وأضاف: " فانتازماغوريا(١)".

قال أرتيوم بهدوء شديد: "لقد تحدثت مع إيخمانيس. هو يقول الكثير من الأشياء المعقولة. ويرى كلّ شيء من الجانب الآخر".

وافق فاسيلي بيتروفيتش مع بعض الاستعداد للسخرية: "هذا صحيح. وأنت هل ترى ذلك من جانبك يا تيوما؟".

"لا حاجة لأن تحتد، فاسيلي بيتروفيتش، أنت نفسك تعرف جيداً ما أراه".

فوجئ فاسيلي بيتروفيتش بصدق: " أنا ؟ اعتقدت أنّني أعرف، نعم. لكن الآن لست متأكداً! ماذا تفعل قرب إيخمانيس؟ هل سبق لك أن سمعت مثل هذه المقولة: بالقرب من القيصر - قرب الموت؟".

نظر أرتيوم بصمت في عيني فاسيلي بيتروفيتش ولم يجب.

"جيد- جيد- جيد"- ليس من المعروف على ماذا وافق فاسيلي بيتروفيتش. وأضاف:"أخبرني فقط ماذا قال باختصار...ماذا؟ شيء ما عن إعادة التشكيل؟ حول الصهر؟".

كان أرتيوم لا يزال صامتاً.

"بالطبع، لا أعرف بالضبط، لكن يمكنني أن أخمّن". قال فاسيلي بيتروفيتش بهمس: على الرغم من حلول المساء، كان المساجين وجنود الجيش الأحمر، يتحركون ذهاباً وإياباً، في الفناء- أضاف:"لكنّني أعلم على وجه اليقين ما لم يقله لك"- هنا، أخذ فاسيلي بيتروفيتش أرتيوم من كتفه، وقال: " لنبتعد" - وضغطه بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى،على أقرب جدار.

---

(١) فانتازماغوريا" تعنى باللغة العربية تتابع فنتازي أو تصادفي لصور متداعية كتلك التى تظهر فى الأحلام أو حينما يصاب الإنسان بالحمّى. [المترجم].

كان فوق رأس أرتيوم قوسٌ نصف دائري من الحجر الأبيض، وخلف ظهره، صخرة ضخمة من الجدار تفوح منها رائحة ماء كريهة وعشب، والزمن الطويل جداً الذي كان يحتويه.

سأل فاسيلي بيتروفيتش، وهو ينفخ أنفاسه في وجه أرتيوم: "هل ناقشتم مواضيع مثل وضع السجناء في ملابس داخلية فقط، في زنزانة العقاب، التي هي عبارة عن حفرة، لا يزيد ارتفاعها على متر، وسقفها وأرضيتها عبارة عن أغصان شائكة؟ هل أبلغك إيخمانيس أنّ السجين لا يتحمّل في هذه الحفرة أكثر من ثلاثة أيام، وبعد ذلك يموت؟ هل أضحكك بنكتة عن الدلفين؟ هذا حينما يسمع السجناء، أمر جنود الجيش الأحمر "دولفين!"، فيجب عليهم القفز، دعنا نقل، من أعلى الجسر في الماء، هذا إذا كانوا يقودونهم على جسر، وإذا لم يكن هناك جسر، فإنّ الحراس يوزعون السجناء أحياناً، على الصخور الشاطئية- ويقوم هؤلاء بالغوص بعد سماع الأمر. ومن الجيد إذا حصل ذلك في شهر أب، وليس في شهر تشرين الثاني! وإذا لم يقفزوا، ضربوهم بشدة، وبكلّ الأحوال بعد ذلك يرمونهم في الماء!.. ألم يتذكّر فيودور ايفانوفيتش، كعقوبة، كيف يجبرون السجناء على نقل الماء من حفرة في الجليد إلى حفرة أخرى في البحيرات المحلية؟ ألم يقل لك كيف عاش السياسيون هنا، في دير سافاتي، أولئك الذين قاموا بالثورة مع البلاشفة، ثمّ اختلفت وجهات نظرهما، وجرى إرسالهم إلى سولوفكي مباشرة. نعم، إنّهم لم يعملوا هنا، نعم، كانوا يتجادلون ويتشاجرون فقط. ومع ذلك، عندما رفض السياسيون ذات مرّة العودة من التنزه المسائي قبل الوقت المحدد، استدعت قيادتنا فصيلة من الجيش الأحمر، وأطلقوا رشقات عدّة من الرصاص على ناس أحياء غير مسلحين! على أبطال، أقول لك، أبطال ثورتهم !.. أنت، يا أرتيوم بأيّ معجزة، جرى إعفاؤك من العمل العام، الشيطان يعرف ما الذي تفعله في الأسابيع الأخيرة، وتوقفت عن فهم أشياء بسيطة للغاية. هل أذكّرك بها؟ هل تعتقد أنّه إذا لم تعد ترسل إلى نقل الجذوع، فهذا يعني أنّ لا أحد يحمل الجذوع على ظهره؟ هل تعتقد إذا كنت أنت بخير، فقد أصبح الأمر أسهل

بالنسبة للجميع؟ هنا الناس يم - وت - ون ! كلّ يوم يموت أحد ما ا! وهذه هي حياة معسكر سولوفكي. ليست مأساة، ولا دراما، ولا سوفوكليس(1)، ولا يوربيديس(2) وإنّما عيشة يومية. روتين!".

ضغط فاسيلي بتروفيتش على كتف أرتيوم أكثر فأكثر، ثمّ أرخى أصابعه فجأة، وأزال يده واستدار.

بقيا نصف دقيقة أخرى، صامتين.

قال فاسيلي بيتروفيتش بصوت تعب للغاية: "... أنت نفسك كادوا يذبحوك. كادوا يدوسوك حتّى الموت. كيف ذلك؟".

قال أرتيوم فجأة: "هذا ليس كلّ شيء، تحدث عن شيء آخر. قال إنّنا نحن أنفسنا من يقتل... نحن أنفسنا نقتل بعضنا بعضاً. وأرى أنّ الأمر كذلك".

وسرعان ما استدار فاسيلي بيتروفيتش، وكانت عيناه جاحظتين ولامعتين تقريباً.

تابع فاسيلي بيتروفيتش، مخمناً على الفور، حول ماذا يدور الحديث: " نحن أنفسنا بأنفسنا - نعم!. ولكن لماذا جرى وضعه

قائداً علينا؟ لنعذب بعضنا بعضاً أكثر؟".

في مكان قريب، صاح نورس بشكل مؤلم، كما لو قد داسوا على ذيله، وصاح العديد من النوارس رداً عليه.

استند فاسيلي بيتروفيتش بكلتا يديه على الحائط، بالقرب من رأس أرتيوم، وتدلّى فوقه.

---

(1) سوفوكليس: أحد أعظم ثلاث كتاب التراجيديا الإغريقية، وقد ولد حوالي سنة ٤٩٦ ق.م. في أثينا، وتوفي سنة ٤٠٥ ق.م. [المترجم].

(2) يعتبر يوربيديس (٤٨٠ ق.م - ٤٠٦ ق.م) ثالث شاعر مسرحي تراجيدي اغريقي، حسب التسلسل الزمني لظهور هؤلاء الكتاب. [المترجم].

أمال أرتيوم رأسه قليلاً جانباً: إنّ النظر في عيني رجلاً مخموراً وغاضباً وبالغاً، عمره خمسين عاماً - ليست أعظم متعة في الحياة.

لم يعد يريد الرد.

صرخ فاسيلي بيتروفيتش في همس صافر، كما لو أنّه فهم، وانتقل فجأة إلى "أنت":

" لقد وقعت تحت سحره، يا أرتيوم! إنّه لأمر سهل، أنا نفسي أعرف ذلك! لكن لا تنس أتوسل إليك، شيئاً واحداً، إيخمانيس تابوت مزيّن. هل تعلم من هو ؟ تابوت جميل ملوّن. لكنّه مع ذلك داخله مملوءاً بالرجس والعظام!".

رفع أرتيوم يده أخيراً وحرّر نفسه، دافعاً فاسيلي بيتروفيتش تقريباً.

وقف على بعد خطوة منه، متفحصاً قبعة رفيقه التي يرتديها دائماً، والتي انزلقت إلى الجانب.

قال فاسيلي بيتروفيتش بكلّ بساطة، ومن قلبه: "لقد أحببتك لأنّك كنت الأكثر استقلالية بيننا جميعاً. كنّا جميعاً محطمين بطريقة أم بأخرى، إن لم نكن روحياً فنفسياً. لقد أصبحنا جميعاً أسوأ، وأنت وحدك فقط أصبحت أفضل. كانت لديك شجاعة، لكن لم يكن لديك حقد. كان هناك ضحك، لكن لم تكن تسخر. كان لديك عقل، لكن كانت هناك طبيعة أيضاً... وماذا الآن؟".

أجاب أرتيوم، مثل الصدى الذي أكتسب الذكاء فجأة: "لا شيء".

وماذا كان بإمكانه أن يجيب أيضاً؟.

بحث بعينيه عن مكان سريته، وتوجه بحدة إلى هناك. تقيأ بعد خطوتين، بكلّ الأحوال. لم يتوقف أرتيوم حتّى، وفقط عندما تخطى بركة قذرة، مسح شفتيه بكمّه - وقد فاحت من كمه رائحة كولونيا وعصير معدة كريه - وهرع إلى مبناه.

توافدت النوارس لتنقر على ما تبقى بعد أرتيوم.

جاء في الصباح جندي من الجيش الأحمر وقال له : "جهّز نفسك!".

نام أرتيوم بشكل سيئ، وقليلاً، واستيقظ قبل الفجر، واستلقى ووجهه إلى الحائط لفترة طويلة، دون أن يتحرّك. حاول في البداية ألّا يفكّر. لكن لم يستطع، ثمّ حاول أن يفكّر - نفس النتيجة.

بينما كان أوسيب يستعد للذهاب إلى العمل، تظاهر أرتيوم أنّه نائم.

سأل أوسيب مرّات عدّة، وهو يشم الهواء: " لماذا تفوح رائحة العطر؟ أرتيوم! أرتيوم، هل أنت نائم؟.. أم هذه رائحة كولونيا؟".

أجاب أرتيوم عقلياً: "لا، اللعنة، أنا لست نائماً. أنا أقوم بتقطيع الحطب "، متمنياً أن يصبح صوت أوسيب، كما في تلك المقولة المجازية أجشّاً، ويختفي في الجحيم.

... ثمّ ظهر جندي الجيش الأحمر.

كان أرتيوم جالساً على المضجع، وحاول من مظهر الجندي أن يفهم ماذا سيحدث الآن.

كان من المستحيل فهم أيّ شيء، واضطر أن يستعد.

أوه، جزمة المستنقعات هذه.

كان جندي الجيش الأحمر يراقب بانتباه كيف يرتدي أرتيوم جزمته.

كان ارتداء جوارب نسائية، بالنسبة لأرتيوم، أقل إثارة للاشمئزاز.

فكّر أرتيوم: "لماذا يتطلع هكذا. ربّما سينزعها منّي، بعد الإعدام مباشرة؟..".

كان أرتيوم. في بعض الأحيان، ينعش نفسه، بمثل هذه الأفكار، بشكل مدهش، ولكن اتضح هذه المرّة العكس تقريباً: شعر فجأة أنّه يريد أن يتقيأ من جديد، وفقدت يداه قوتهما، ولم تدخل الجزمة في رجله، ولم تدخل، ولم تدخل - لقد كان ذلك مضحكاً، ونوعاً من العار...

نهض أرتيوم - ولم تدخل مقدمة رجله إلى داخل الجزمة، سار بضع خطوات مثل حصان أعرج.

قال جندي الجيش الأحمر بلامبالاة: " شدَّ فردة جزمتك جيداً. ألا يوجد لديك حذاء آخر؟".

أجاب أرتيوم: "لا"، ولم يكد يسمع هو نفسه صوته.

... كان الطريق يؤدي إلى قسم المعلومات والتحقيقات.

التقى أرتيوم في الطابق الثاني بورتسيف الذي كان ينزل بسرعة إلى الأسفل، وتحت إبطه ملف فيه أوراق، لم يفسح المجال لهما ليصعدا، وكان على جندي الجيش الأحمر وأرتيوم التنحي جانباً: وهكذا مضى هذا اللقيط، دون حتّى أن يومئ برأسه، كما لو إنّهما لم يعرفا بعضهما قطّ.

كانت غالينا، في الطابق الثالث، وفي نفس المكتب، تنتظره، بشفاه مزمومة، ونظرة جليدية... لكن تفوح منها رائحة العطر.

أومأت برأسها إلى الكرسي دون مسند ظهر. جلس أرتيوم.

لاحظ باستغراب، أن صورة إيخمانيس تحت زجاج الطاولة قد انقلب وجهها إلى الأعلى.

فكّر أرتيوم من سرداب روحه الخانق: " عبثاً لم ترسم له قروناً ".

اقتربت غالينا من الطاولة أكثر بمواجهته- بحيث جمد نهداها الضخمان على الطاولة تماماً.

قالت غالينا بشفتيها فقط:"فيما لو أنت تحدثت، ولو بكلمة واحدة- فستعيش قدر ما يلزم لتوصيلك إلى القبو تحت الحانوت، لا تنتظر أيّ زنزانة عقاب- هناك تقارير عنك تكفي لإعدامك ثلاث مرّات. يكفيك رصاصة واحدة".

رفع أرتيوم عينيه إلى غالينا، وأومأ برأسه.

أومأت هي أيضاً: حسناً.

سألت بصوت أعلى قليلاً: "ألم تتفاخر أمام أحد ما، حتّى الآن؟ حول ماذا كنت تهمس أمس لصديقك فاسيلي بيتروفيتش في الفناء؟".

ابتلع أرتيوم لعابه، ولم يعرف ماذا يقول.

اعتصر من داخله :"عن شيء آخر".

تفحّصت غالينا أرتيوم هنيهة.

قالت بعد أن عادت تنظر إلى الورقة التي على طاولتها: "باعتبارك أصبحت دون عمل لدينا، كان عليّ... تكليفك بعمل جديد... يرسل ابتداء من اليوم، أرتيوم عورياينوف... للعمل ناطوراً في منشأة استخلاص اليود. يعمل هناك جارك أوسيب تروريانسكي، لذا... ستعملان الآن معاً. عندما تصل سيشرحون لك كلّ شيء... يعمل عادة رجال الدين بجدٍّ في مثل هذه المواقع... ستكون مثل ابن القس".

جلسا صامتين هنيهة.

نقرت غالينا بقلم الرصاص على المنضدة.

لاحظ أرتيوم أنّ خديها بدأا بالاحمرار.

تغيّر تعبير عينيها تدريجياً من جليدي إلى أكثر حيوية قليلاً- كما لو كانت قد فكرت القيام بعمل أنثويّ شقي.

قال أرتيوم بهدوء ووضوح: "شكراً".

ردّت غالينا بصوت خالٍ من الهموم، والذي تتحدث به، على الأرجح، الشابات في شارع أربات في موسكو: "نعم".

... ركض أرتيوم وهو ينزل على الدرج تقريباً، كما كان يفعل في المدرسة، قبل سنوات عديدة، من الصعب تحديدها.

كان يكرّر : "حي، حي، حي. أنا حي. أنا على قيد الحياة. لا أريد أن أكون رجل إله. أريد أن أكون يتيماً حياً. بلا صليب وبلا ذيل... نعم!".

ظلّ لبعض الوقت يتحرّك في الغرفة ذهاباً وإياباً- مثل العاشق قبل موعد اللقاء مع حبيبته. بكلّ الأحوال لم يكن هناك تقريباً ما يجمعه: لم يعد يأخذ

حصصاً غذائية، كمشارك في الألعاب الرياضية، ولم يتبقّ لديه ملابس سوى الشتوية الدافئة، وكان الطقس لا يزال لطيفاً، وكانت الشمس لا تزال ترسل أشعتها عشية شهر آب.

"... ماذا عليّ أن أفعل الآن، أن أبقى جوعان؟"- تذكّر أرتيوم، ونسي بسعادة، لو أنّهم قالوا له قبل نصف ساعة: لن نطعمك على الإطلاق، لكنّنا لن نعدمك - لكان وافق ممتنّاً، وفي غاية السعادة.

أراد أن يأكل بشدة. وتذكّر أرتيوم أنّه تحت السرير كانت هناك خضروات، على الرغم من وجود الكثير منها، لكنّه أراد أن يأكل شيئاً آخر، مثل قطعة كبيرة من اللحم.

دون تردد، أخرج صندوقاً من تحت سرير أوسيب.

كان أوسيب ثرياً: يبدو أنّه تلقى طرداً للتو. كرز مجفف. إجاص مسلوق مع السكر. معكرونة في كيس من الشاش. أرز وحنطة سوداء وبازلاء. خردل ودهن مملّح. جوز... خبز.

قرّر أرتيوم بحكمة أن يأكل: " عدد قليل من حبات الكرز فقط..."- وعلى الفور ملأ فمه منها بالكامل.

سمح لنفسه بأكل: " دهن مملّح... قطعة واحدة".

لحسن الحظ كانت مقطّعة وغير مأكولة.

خمّن أرتيوم: "ربّما، أمّه، أرسلت له الدهن المملح والمقطع إلى شرائح بهذا الشكل. وإلّا لكان أوسيب نفسه قضمه وخلع فكه."

لكنّ أرتيوم لم يكتف بقطعة واحدة، ولا حتّى بثلاثة، لو لم يأمر أرتيوم نفسه: يكفي، حان الوقت، حان الوقت، أخرج. ومع ذلك، فإنّ الكرز المجفف ودهن الخنزير، شيء رائع.

قرّر أرتيوم: "عندما أعود إلى المنزل، سوف آكل هذا فقط".

... كانت المسافة إلى منشأة استخلاص اليود كيلومترين عبر غابات الصنوبر.

عرف أرتيوم هذا الطريق، وكان طريقاً غير معقّد. من الدير إلى الشمال، على طرف أهدأ بحيرة، مثل أليكسي ميخائيلوفيتش[1]، على طول شاطئ الغرانيت، عبر مسارات السكك الحديدية الضيقة، بعد بضع دقائق، فأنّ السجناء والحراس الذين يعملون في أماكن مختلفة، لن يعودوا مرئيين على الإطلاق، لأنّ الطريق بعد ذلك مستقيمة، مباشرة مباشرة، مباشرة ، هناك غابة على اليسار، وغابة على اليمين، هدوء تام، وصمت كامل تقريباً، إلّا إذا أصغت السمع، إلى جداول البحيرة المقدسة التي تتدفق

غنّى أرتيوم بصوت منخفض، وهو يسير على الطريق: "أنا لا أمشي على القطيفة، ولا أسير على المخمل... لكنّني أمشي، وأمشي على سكين حاد...". كان يعتقد إنّها أغنية مرحة للغاية.

فكّر أرتيوم:"... لو كنت أستطيع التأمل، لأصبحت مثل ميزيرنيتسكي: لكنت واثقاً من كلّ شيء فوراً، ولا سيّما من أكثر الأشياء غير السارّة، وهذه الثقة لما كانت لتجعلني مغموماً...".

فكّر أرتيوم: "... جميع الناس غير مفهومين. لا يوجد أحد مفهوم. يوجد داخل الإنسان الخارجي دائماً إنسان داخلي. ويوجد داخل الإنسان الداخلي، أحد ما آخر".

"مثلاً شلابوكوفسكي، أيّ إنسان هو؟ أفاناسييف- أيّ إنسان؟ غراكوف- من بداخل غراكوف؟ مويسي سولومونوفيتش- هل هونفسه- الذي يغني أغانيه التي لا تعد ولا تحصى؟ وبورتسيف؟ وكرابين؟ وكوتشيرافا؟ وبوريس لوكيانوفيتش؟وشيلكاتشوف ؟ وزاخار؟، ولاجيتشنيكوف؟.. لا،

---

(١) القيصر أليكس ميخايلوفيتش (١٦٢٩- ١٦٧٦) :إمبراطور روسيا الثانى وحاكمها من ١٦٤٥ وحتّى وفاته. تولى الحكم خلفا لوالده المتوفى القيصر ميخائيل. [المترجم].

لاجيتشنيكوف مات...والوثيقة؟ والخيشوم؟ كان كلّ واحد منهم طفلاً يجلس في حضن أمّه؟ متى نزلوا من تلك الأحضان؟ ".

لم يكن يريد كثيراً، أن يتذكّر كلمات فاسيلي بيتروفيتش التي قالها أمس، على الرغم من أنّه، قال من ناحية أخرى، إنّ أرتيوم أصبح أفضل هنا- كم الأمر غريب، فهو نفسه لم يلاحظ أيّ شيء من هذا القبيل في نفسه. هو لم يلاحظ نفسه على الإطلاق- كان هنا فقط ، وفعل كلّ شيء، حتّى لا يموت.

فكّر أرتيوم: "لكن الآخرين يفعلون الشيء نفسه، أم ليس نفس الشيء؟.. وكيف يفعل الآخرون؟ بماذا أختلف عنهم؟ يجب أن أسأل فاسيلي بيتروفيتش، وإلّا فأنا لا أفهم".

لم يتذكّر أرتيوم عمداً إيخمانيس وغالينا- لأنّ هذه الأفكار كانت صعبة، فقد جعلته قلقاً، بطرق مختلفة، لكنّها أقلقته، لكنّه لم يكن يريد أن يقلق.

ولا سيّما إذا ترك أرتيوم وعيه يتحرّر للحظة. كان سيشعر على الفور بنهد غالينا في راحة يده، والذي بحث عنه داخل قميصها، وقبع الزر الرابع من الأعلى، وأخرجه، وكانت حلمة نهدها، صلبة للغاية استراحت بالضبط في منتصف كفه.. إلى أين يذهب بمثل هذه الأفكار؟..

... إذا ما داهمته هذه الأفكار، كان يجب الهروب منها، مثل الهروب من البعوضة، حتّى لا تلتهمه. والآن ركض أرتيوم قليلاً، قافزاً من مكانه. وشعر مرّة أخرى كم هو خفيف، وشاب، وجميل. كان لديه قناعة إذا ضرب كتفه في جذع شجرة صنوبر، فسوف تصيح الشجرة وتقع..

بعد مئة متر، أبطأ من سرعته، وكان تنفسه طبيعياً تقريباً، ولكن هذا الوسواس الشرير أصبح وراءه، وكفّاه فارغتان مرّة أخرى. أمسك بهما الهواء، وتابع السير.

كان هناك شجرة بتولا مرتمية على الطريق. كانت أوراقها حمراء ، وكأنّها مشبعة بالدم.

... من الطريق إلى اليسار، إلى البوابة الخشبية. وهناك، على الرابية، يقف بناء أبيض، أنيق مثل قالب كاتو، له ثلاث نوافذ على الجانب، وأربعة من الأمام، وفي المنتصف شرفة مع درجات. هنا، في منسك فيليب كانت توجد منشأة استخراج اليود الآن: لقد كانت من قبل في مكان آخر، على ما يبدو، انتقلوا إلى هنا للتو.

بالقرب من المبنى، في الحديقة الأمامية، يمكن رؤية شيءٍ مثل حظيرة دجاج خشبية، مع نافذة صغيرة، وباب صغير- ربّما كوخ فيليب نفسه، من يعرف. لكن كيف كان يدخل من هذا الباب؟ إلّا إذا كان ينحني في كلّ مرّة حتّى الأرض.

كان يوجد، غير بعيد عن المبنى صليب عالٍ، وتحت الصليب كانت بئر.

ذهب أرتيوم إلى هناك بثقة كساكن ، ليشرب ماءً.

سيكون هنا الآن مكان إقامته.

لم يفكّر في الأمر بصوت عالٍ، لكن روحه كلّها كانت تتضرع أن يبقى هنا حتّى نهاية حكمه- في وسط الغابة، غير مرئي لأحد، لا أحد يحتاج له، ومنسي من قبل الجميع.

فكّر أرتيوم: "ربّما تريد ألّا أتواصل مع أحد، وأن أصمت. أنا على استعداد أن ألصق فمي وأعطي عهداً بالتزام الصمت...".

كان الماء بارداً ولذيذاً.

قال أرتيوم بصوت مسموع : "حسناً، أيّها الجد فيليب، أستقبل الساكن الجديد ! دون صليب، وبلا ذيل".

... تفاجأ أوسيب عند لقائه بأرتيوم، حتّى إنّه سأل، كما لو كان مازحاً، لأنّه لم يكن يجيد المزاح كثيراً، فبدت مزحته حادة:

" أرسلوك لمراقبتنا، أليس كذلك؟"

حمحم أرتيوم.

خمّن أوسيب نفسه، إنّه كان غير لبق إلى درجة ما، لذلك غيّر الحديث على الفور:

" انتقلنا مؤخراً إلى هنا. هنا لا بأس. تعال، لأريك كيف نعيش".

لم يظهر زملاء أوسيب أيّ اهتمام بأرتيوم. ناس علماء مشغولون، ولم يسعى أرتيوم نفسه للتعرّف عليهم.

حذّره أوسيب: "لا تلمس أيّ شيء هنا". وأومأ باتجاه جميع أنواع أجهزته وأدواته، الأمر الذي أثار بالطبع رغبة هادئة لدى أرتيوم ، بكسر وخلط كلّ شيء بعضه ببعض، حتّى الغد.

كان في مبنى المختبر ست غرف : ثلاثة منها مخابر، واثنتان فارغتان. قال أوسيب: "... سوف نجعلهما للسكن وسننتقل إلى هنا بشكل نهائي، حتّى لا نضيع الوقت في الذهاب والإياب". كان يوجد مطبخ أيضاً، تعيش فيه ستة خنازير غينية.

سأل أرتيوم بجدية كاملة: "هل تأكلونها؟".

أجاب أوسيب:"لا-لا، إنّهم يربّونها. هنا ليس فقط منشأة استخلاص اليود فحسب، بل حاضنة حيوان أيضاً... يربّون فيها الحيوانات... وبالمناسبة، أخبرونا أنّ الناطور سيعتني بها. لذا، هل تريد أن أعرّفك على هذه المخلوقات؟".

رفض أرتيوم: "فيما بعد، فيما بعد. سيكون لدي الكثير من الوقت.

لاحظ أرتيوم أنّ هناك ضجيجاً متواصلاً وضوضاء في السقيفة.

سال أرتيوم: " من هناك؟ هل يبنون مرصداً؟".

أجاب أوسيب: "لا. تعيش هناك أرانب. اثنتا عشرة واحدة. هل تريد أن تراها؟".

قال أرتيوم:"في وقت لاحق.أريد أن أرى غرفتي".

شعر فجأة إنّه لم ينم بشكل كافٍ ، وسيغفو الآن مع حلم لا يصدّق، إذ لم ينم بهذا الشكل، أيام لا يمكن عدّها. دائماً كان هناك من يعرقل نومه، أم أحد ما يشخر بقربه، ليكن أوسيب، و كان من الممكن أن يدخل أحد ما من الحراس في أيّ دقيقة، يوقظه ويهينه، وكان المناوبون يصرخون. وقائد الفصيلة يستعجله بالعصا - أمّا هنا أرانب فقط في السقيفة... وهذه الخنازير أيضاً...

أشار أوسيب، وهو يفتح الباب: "لا يوجد شيء هنا، شرشف فقط... ربّما ستحل هذه السترة القطنية محلّ الوسادة". لكن أرتيوم، دون انتظار نهاية كلامه، استلقى على الأرض، وأزاح السترة إلى الزاوية، ووضع رأسه داخلها وغفا هناك، على الرغم من أنّه كانت تفوح منها رائحة كريهة مستحيلة التحمّل: طلاء، وعلى ما يبدو فضلات أرانب، ورائحة بشرية - وليكن ذلك. لقد نام أرتيوم كالقتيل.

...سمع في الحلم، كما لو لم يكن من خلال باب واحد، وإنّما من خلال أربعين باباً، كلاماً بشرياً بعيداً جداً، ومسموع في الوقت نفسه.

"وماذا يوجد هنا؟ وهذا؟ وهنا؟" - كرّر الصوت نفسه الذي كان غليظاً وكريهاً، كما لو كان يتحدّث أسروع أصيب بنزلة برد.

أدرك أرتيوم إنّ أحداً في منصب عالٍ قدم من الكرملين، ومعه جنود من الجيش الأحمر، لأنّه كان يسمع وقع أقدامهم باستمرار، ذهاباً وإياباً، وكانوا على وشك الدخول إلى غرفة الحارس، والحارس نائم ، ولا يقوم بأيّ عمل، وهذا سبب ممتاز لإمساكه من قفا رأسه وطرده على الفور، أم حتّى إرساله إلى زنزانة العقاب. لكن رغم ذلك، لم يستطع أرتيوم فعل أيّ شيء مع نفسه، وظل مستلقياً دون حراك، مطموراً بمدّة حكمه، والتراب الأسود الذي كان يبحث فيه عن الكنوز، وبعض كلمات وإيماءات إيخمانيس، وحرارة غالينا ورائحتها الفائحة الرطبة، وتمتمة فاسيلي بيتروفيتش، وشفّة الوثيقة المتدلية، وساق فيليب المقطوعة، والجذوع، وصليب الأب إيوان، والأجاص المسلوق مع السكر من طرد أوسيب...

كذب أوسيب في مكان قريب، فوق أذنه تقريباً: "لا يوجد شيء هنا في هذه الغرفة حتّى الآن، مغلقة"- وزحف الأسروع وراءه، وعمّ الهدوء من جديد تقريباً، كانت الأرانب فقط تبحث عن شيء ما في السقيفة، وجدوا شيئاً ما وأكلوه، وبدؤوا بالبحث من جديد، كما لو أنّهم كانوا يتحركون ليس على أرجلهم، وإنّما على عجلات مربعة.

زمجر فجأة شخص ما داخل أرتيوم: "أم إنّ هذا هو إيخمانيس؟! ماذا لو كان إيخمانيس؟ يدخل ويسأل: "من هذا؟ أرتيييوم! ما الذي تفعله هنا؟.

... أدخل أرتيوم رأسه في كمّ السترة، وكأنّه مات: لم تعد لديه أيّة قوّة ليخاف.

هذّه أوسيب: "إيه، ما الذي يجري معك. هل ستقوم بواجباتك أم لا؟ حان وقت أن تعمل ناطوراً. تعال معي، لقد سخنت الشاي لك. وسأعلمك ماذا تطعم الخنازير".

نهض أرتيوم، مخموراً تماماً لسبب ما، ورأسه يغلي من حلم غير متوقع وقوي. وتبع أوسيب، بخطوات غير ثابتة.

حتّى إنّه لم يسأل عمّا إذا كان إيخمانيس هو الذي جاء أم شخص آخر. إنّه فضّل أن يفكّر إنّ ذلك كان هذياناً.

قال أرتيوم بصوت أجشّ: "سأطعم الخنازير أرانب، والأرانب خنازير".

كان أوسيب رجلاً يتذكّر أنّ الاستقامة والنظام كلمتان متقاربتان.

علّق أوسيب في المطبخ، إذ تعيش الخنازير في صناديقها خلف سياج خشبي بسيط، ورقة كتب عليها أسماؤهم: ريجي، تشيغانوشكا، تشيرنيافي، جيلتيتسا، دوتشكا، و ماماشكا.

فكّر أرتيوم بسخرية قاتمة: "هل يعتقد، أنّني سأتحدث معهم؟".

لكن أوسيب أشار له في الواقع، إلى مكان إبريق الشاي- على الرغم من أنّه لم يسخنه، خلافاً لما وعد به.

كان ينبغي إطعام الخنازير الغينية الشوفان والملفوف وسلجماً.

كما كانت تعيش ثلاثين فأرة بيضاء في قفص منفصل. بحث أرتيوم بعينيه: ألا توجد ورقة أخرى هنا، كتبت فيها أسماء جميع الفئران، لا سمح الله سأخطئ بأسمائهم - سيموتون من الزعل.

فكّر أرتيوم بنفس النغمة: "آمل ألّا يكون هناك شرط زنزانة عقاب، من أجل كلّ فأر يموت. وإلّا سأطلب إرسالي إلى نقل الجذوع".

أجاب عن نفسه بقليل من الجدية: "وما المشكلة في نقل الجذوع؟. يمكنني الآن".

دون أن يدرك، تحدّث مجادلاً فاسيلي بيتروفيتش، فيما يخص كلماته التي قالها أمس.

لم يعد أرتيوم يتذكّر بالضبط ، البعوض الذي يلتهم الناس، ولا قوافي كوتشيرافا الفاحشة، ولا العمل الوحشي، ولا الشعور بشجرة زلقة ثقيلة بشكل لا يطاق على كتفه.

"... أريد العثور على شيء أشرب الشاي به فقط. هذا جزر. من المحتمل أنّه مخصّص للأرانب. ستبقى الأرانب دون جزر اليوم ".

شاي الآس الأسود الساخن مع الجزر، في منزل فارغ، وسط الغابة، على بعد كيلومترات عدّة من قسم المعلومات والتحقيقات، والحراسة والمراقبة".

حلم أرتيوم مرّة أخرى، وهو يلقي نظرة سريعة الآن على الملفوف: "... لا، ماذا بإمكاني أن أفعل، حتّى ينسوني...".

ورداً على أفكاره هذه، هناك من طرق على النافذة.

اتضح أن ذلك يمكن أن يخيف شاباً بالغاً وقوياً.

شعر أرتيوم أنّ ساقيه يلتويان، رغم أنّه كان جالساً على كرسي.

قفزت الأفكار في رأسه مثل البراغيث: "من هذا؟ إليّ ؟ أنا ناطور. كيف يجب أن أنطر؟ أموت من أجل إنقاذ الخنازير الغينية؟ ربّما يجب ألّا أستجيب على

الإطلاق؟ من يحتاج هنا إلى التمشي في المساء؟ ربّما أوسيب نسي شيئاً ما؟.. أو جاء القديس فيليب لزيارتي؟ "من يشرب من بئري؟"...

... طرقوا مرّة أخرى.

وضع أرتيوم الكوب، وأخذ سكيناً من على الطاولة، وذهب إلى الباب.

سأل بصوت عالٍ: "من هناك؟".

أجاب صوت أنثوي بهدوء شديد: "افتح".

كانت هذه غالينا.

قالت بصوت عميق: " أسرع. لا أستطيع معرفة المفتاح المناسب".

فتح أرتيوم على عجل.

كانت غالا وحدها، ودخلت بسرعة وسهولة إلى المبنى، دون أيّ صوت، وكأنّها حيوان صغير لم يجر تسجيله في حاضنة الحيوانات هذه.

قالت وهي تمسح خديها اللذين عضهما البعوض، وتتجه نحو المطبخ دون أن تخطئ: "انتظرت حتّى يذهبوا جميعاً. يتحركون ببطء شديد مثل كل العلماء".

كانت تتحدث مع أرتيوم، كما لو كان أحد معارفها القدامى. صمت هو، وكان كلّ شي بداخله يرتجف من جديد.

قال بينه وبين نفسه: "... قريباً سأتحوّل إلى هلامي، مع هذا التوتر العصبي...".

بمجرّد دخولها إلى المطبخ الصغير، وضعت غالينا يديها على إبريق الشاي، ووقفت هكذا لبعض الوقت، دون أن تستدير، كما لو كانت تنظر إلى الحيوانات، ولكن كأنّها لا تراها.

سألت: "هل كنت تعرف أنّني سآتي؟".

أجاب أرتيوم: "كنت أعرف"، رغم أنّه لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، ولم يكن يجرؤ حتّى على التفكير بأنّها ستأتي.

قالت وهي راضية: "أيّها الحقير"، واستدارت وقبلته على شفتيه.

لم يتذكّر أرتيوم بدقة متى غادرت ، على ما يبدو، بعد ساعة... أم أكثر بقليل.

أمرت في البداية، وهي ترتدي ملابسها في الظلام، بصوت حازم، وبقليل من السخرية والإصرار، مثل مراهقة:

"تكلّم معي الآن. أنا أريدك أن تتكلم".

رمش أرتيوم وتردد، فقد نسي الكلمات كلّها.

لقد همس بصوت مخنوق من الإعجاب الخارق، قبل عشر دقائق، وقبل خطوة واحدة من فقدان الوعي شبه الحتمي: "غالا..." - وعضّها بشكل خفيف بكتفها.

لن يجرؤ الآن أبداً ولا في حال من الأحوال، على نطق اسمها. من هو، كيف يجرؤ.

قالت، دون انتظار كلمة واحدة منه: " لا، في البداية يجب إطعامك. أين وضعت حقيبتي - كانت معي حقيبة؟".

قال أرتيوم بصوت منخفض: "لم أرها".

أجابت: "لم أر... ابحث عنها الآن ".

كانت الحقيبة عند المدخل مباشرة. كان في الحقيبة لحوم معلبة، وأربع برتقالات، يا إلهي.

قالت وهي تقشر برتقالة: "سآكل واحدة. وأنت البقية. هل أكلت مثلها؟".

سأل أرتيوم دون أن يلمس الفاكهة الصفراء المذهلة: "من أين هذه ؟".

أجابت غالينا بجدية: " تدحرجت".

جلست في المطبخ على كرسي، ووقف أرتيوم بقربها.

أرخت شعرها غير الطويل الذي يصل إلى أسفل كتفيها بقليل، وعندما كانت تتحدث، كانت تنفخ أحياناً على خصلات الشعر المتدلية من الأمام، أم كانت تزيحها بيدها، وتنظر بسرعة إلى أرتيوم.

قالت، وهي تومئ برأسها إلى خنازير غينيا: "... إنّها تقرقر مثل الحمام"، ومدّت يدها ببرتقالة إلى أرتيوم على الفور: "كلْها. هل تعرف؟".

أخذ أرتيوم البرتقالة.

لقد وقف حافي القدمين. ليس من المعقول أن يلبس جزمة المستنقعات.

ولا سيّما، أنّهم كانوا يشعلون الموقد في مبنى استخلاص اليود. على ما يبدو، كان العلماء بحاجة إلى الدفء من أجل العمل.

سألت باهتمام، أكثر منه استهزاء: "ألا يوجد لديك حذاء آخر؟ لماذا ترتدي الجزمة طوال الوقت؟.. هل يأخذ خلعها وقتاً طويلاً؟".

هزّ أرتيوم كتفيه. ثمّ قال بصوت منخفض:

"لا".

نظرت إليه مرّة أخرى، لفترة أطول قليلاً من المعتاد، وقالت:

"حسنا، سأذهب. أنطر".

تحرّك أرتيوم لتوديعها، إلى المخرج، لكن غالا أوقفته:

"إبق هنا حتّى أغادر. لا داعي... لتوديعي. اقفل الباب فيما بعد على نفسك".

... أغلقت الباب بعنف.

لم يطفئ النور، وجلس مدّة طويلة في المطبخ.

نامت خنازير غينيا.

أكل أرتيوم برتقالة واحدة- كانت لذيذة، لكن طعم هذه المرأة في فمه، كان لا يقل لذّة عن البرتقالة. بشرتها وعرقها.

لم يكن لديه فرح ولا مفاجأة- كان من السهل جداً عدم التفكير في أيّ شيء: وعندما كان يدخل إلى نفسه، محاولاً أن يجد على الأقل بعض المشاعر، أم فكرة معينة، كان يجول في خاطره، كما لو كان في منزلٍ فارغٍ، يبحث في كلّ غرفة ولا يجد سوى تيار هواء هادئ.

لم يكن هذا تياراً سيئاً ولا فراغاً رهيباً- كما لو أنّه انتقل إلى مكان ما، أم أنّه سافر من مكان ما إلى الأبد. ولكن إلى أين؟.

نام قليلاً عند الصباح. كان هناك حلم على هذا النحو - كما لو كان يقوم ببعض الأعمال المذهلة والنادرة طوال الليل مع صخب رهيب وأضواء متقطعة، والتي لا تتطلب القوة فقط، ولكن التحمّل والفرح الغامر أيضاً... بحّار في المناطق الاستوائية؟ شيء من هذا القبيل. تواصل في المنام، كلّ هذا الضجيج الاستوائي وومضات النار، ونقر العصافير، بلا انقطاع، يحلق بشكل دائري، ويصعد إلى السماء.

استيقظ على أصوات العلماء. لم يغلق الباب خلفها - يعمل ناطوراً!.

استغرب أحدهم: " برتقال!. ناطور يتغذى على البرتقال!".

خرج أرتيوم بسرعة من غرفته. يبدو أنّ أوسيب كان متجهاً إليه: اصطدما وجهاً لوجه.

"... يسأل الرفاق إذا كان من الممكن استخدام قشور البرتقال. سنضيفها إلى الشاي عند التخمير. أعتقد إنّه... سيعطي نكهة غير عادية".

"بالطبع " - قال أرتيوم بصوت منخفض، وهو يحاول أن يتذكّر ما إذا كان قد بقي هناك أيّ شيء آخر بالمصادفة.

... بحلول الصباح، انخفضت درجة الحرارة في منشأة استخلاص اليود - كان الجو بدأ يبرد، ورأسه يؤلمه قليلاً.

سأل أوسيب: "من أين حصلت عليهم؟".

كرّر أرتيوم الصدى العائد: "لقد تدحرجت".

ذهب بعد خمس دقائق، إلى غرفته، ليستكمل نومه.

في الطريق إلى الدير، أصبح أفضل قليلاً - فقد هبّ نسيم، أخرج من رأسه فوضى قلّة النوم، ممّا أنعش لديه عدم الامبالاة التي كانت تبدو مستحيلة، لكنّها كانت مع ذلك ملموسة بالكامل.

وقفت الأشجار متأملة: تحول الصيف نحو الخريف.

فكّر أرتيوم: "الخريف هذا شيء جيد".

فكرته عن غالينا كانت حلوة، ومرة، وحامضة، مثل الحميض: شدّت فكيه بهدوء.

فكّر أرتيوم بحزر: "غالا... شيء جيد أيضاً"، وراقب باهتمام كيف سيستجيب وعيه لهذه الكلمات المنطوقة من داخله.

نبض وعيه.

فكّر أرتيوم بمرح تقريباً:"كان يجب عليك أن تنقّب عن الكنوز. وعندما يعود إيخمانيس، سوف يدفنوك أنت نفسك، ولن يبحث أحد عنك... لكن أمّي؟ ".

لم تجعله هذه الأفكار كلها يحزن على الإطلاق. وذلك لسبب واحد فقط، لأنّه وحيد في هذه الغابة، ومن الصعب للغاية تصديقها.

أدرك فجأة أنّه لا يزال يحمل في يده برتقالة واحدة أخذها من المطبخ.

بدأ بتقشيرها بأسنانه مباشرة، وحاول مضغ القشرة أيضاً، لكن لا، ليست لذيذة، طعمها مر. لكن البرتقالة - نعم، إنّها رائعة، شكراً لك يا غالا.

بدأ يدور رأسه من تكرار اسمها، في عقله، للمرّة الثانية في الصباح، وظهرت لديه رغبة في الصراخ...

"... هل يعقل، أمامي السجن، وهناك في الواقع - فاسيلي بيتروفيتش محق - يقتلون الناس... أمّا هنا فيسود الهدوء، أمشي وحيداً - حراً. كيف ذلك؟ هل أذهب إلى مكانما آخر أيضاً؟ ".

سمعت ضوضاء في الغابة.

ثمّ خرج جنديان من الجيش الأحمر إلى الطريق. دخنا، وهما يقفان بالقرب من صخرة سوداء كبيرة، وأخذا ينظران إلى أرتيوم من وقت لآخر.

عندما مرّ بالقرب منهما، كان رجال الجيش الأحمر قد نسوه بالفعل، وتحدثا عن شيء ما، كانت تخرج الكلمات من بين أسنانهما غاضبة، وثقيلة، ومريرة، مثل التبغ الرديء.

سمع صوت فؤوس وشتائم رهيبة، في مكان قريب. يبدو أنّ شخصاً ما يتعرض للضرب.

أسرع أرتيوم الخطوة.

التقى عند مدخل بوابات الدير، مع كوتشيرافا الذي حدّق في أرتيوم للحظة : يبدو أنّه لم يعرفه.

حتّى إنّ أرتيوم تلمّس وجهه، ومسح بكفه على رأسه المحلوق: ربّما تغير شيء ما فيه، وأصبح مختلفاً تماماً.

كان هناك ناس يتجولون في فناء الدير، لكنّه لم يشأ أن يصطدم بأحد ما منهم، ونظر إلى طريقه المرصوف بالحجارة، وأسرع الخطا.

كانت السريّة فارغة: كان الجميع في العمل- أرتيوم وحده...

سقط على المضجع، ووجهه إلى الأسفل، ولا يزال مذهولاً كما في السابق، من كلّ ما كان يحدث معه، وابتسم في وسادة والدته، غير مرئي لأيّ شخص في العالم.

فتح الباب بعد دقيقتين، أم ربّما بعد دقيقة واحدة، وتطلع بسرعة نحو الباب.

سألت غالا: " ألا يغلق؟. نعم، لا يسمح لكم. لنضع جزمتك هنا...".

أزاحت بسرعة جزمة المستنقعات نحو الباب بساقيها، وعادت إلى مضجع أرتيوم، وهي تخلع تنورتها بصعوبة.

وقفت بجانب المضجع، مستندة بركبة واحدة على حافة المضجع - بقيت غالا مرتدية جزمة بنية بكعب عالٍ، وبكلات فضية اللون.

كان كلّ شيء مغرٍ بشكل رهيب، لدرجت التشنج في الصدر.

قالت بحزم: "بسرعة فقط. هل تستطيع أن تفعل ذلك بسرعة.".

"لا أعرف" –أجاب أرتيوم وهو ينظر إليها من الأسفل إلى الأعلى.

نطقت فجأة، وهي تتنفس، وتوسّع حدقتي عينيها، وتتشبث بألم في مؤخرة رأسه، "تيومكا" - بشفتيها فقط، في مكان ما في الصدغ - لكنّه سمع كيف يندفع اسمه مع أنفاسها في جلده...

حدث هكذا، كما لو أنّه قال لها الليلة الماضية، ما لم ينتظره من نفسه، "غالا"، وبذلك سمّى الجزء الأوّل من كلمة المرور، وهي الآن تنطق الجواب.

لفظا أسماء بعضهما بعضاً. وبعد ذلك فقط تعلّما أن يتحدث بعضهما إلى بعضٍ قليلاً. على الأقل أرتيوم.

وقفت عند الباب تنظر إليه بعينين مخمورتين.

سألت: "هل لديك ماء؟".

" لا... يوجد هناك في الإبريق".

"ناولني".

ناولها أرتيوم.

"بر - ر" - كشرت بشكل مضحك، وأعادت له الإبريق.

قال أرتيوم وهو يومئ برأسه إلى الباب: "إنّهم يجرون تفقداً أحياناً".

سألت هي: " وماذا في ذلك؟ لقد أجريت تفقداً، وتحققت..."- وضحكت بهدوء، بشكل جميل للغاية.

اتضح أنّ أرتيوم لم يسمع أبداً كيف تضحك. ابتسم بهدوء، محاولاً تقليد خط شفتيها بشفتيه الخشنتين والخرقاوين.

"هل أنت قلق عليّ أم علي نفسك؟" - سألت، وأصبحت صارمة مباشرة.

"عليك" - أجاب بحزم، مختاراً "أنت" من بين "أنت" و"أنتم".

" ومن أجل نفسك؟".

هزّ أرتيوم كتفيه، دون أن يرفع عينيه عنها، مستمتعاً بشكل خارق، إنّه يستطيع النظر في عينيها.

" هل تتصورين ما الذي يمكنه أن يفعله معي؟"- قال لها وهو مبتسم، على الرغم من أنّ ابتسامته كانت على الأغلب ابتسامة منتظر الجواب.

أجابت غالا: "سيقتلك"- كان هناك شيء طفولي في صوتها: هكذا تقول الطفلة سيأتي أبي ويعاقب الجميع.

أومأ أرتيوم برأسه.

خرجت غالينا.

صاح شخص ما في الممر: "مرحبا!".

كاد أرتيوم أن يقفز من هذه الصرخة.

جلس لدقيقة، ثمّ استلقى مرّة أخرى حين لم يسمع صوت كعب جزمتها الصارم.

كان يستلقي ونبضات قلبه تدق بقوة، وكان فمه جافاً، وعيناه جافتين- ويصفر تيار هواء جاف في رأسه.

فكّر: "... وماذا لو أعدموني بسببها فعلاً ؟".

"...من أجل ماذا؟".

"... كيف لماذا؟ عقوبة معاشرة السجينات من ثكنة النساء، زنزانة العقاب، أمّا هنا... ".

"... ماذا هنا؟ لم يقلْ أيّ شيء، في أيّ مكان، فيما يخص موظفات قسم المعلومات والتحقيقات...".

"... أجل، أليس هذا مضحكاً بالنسبة لك ؟ يا غبي".

حاول أرتيوم ألّا يتذكر رئيس المعسكر. بدا نطق اسم "إيخمانيس" نفسه، وكأنّه صليل المقص الذي يقطعون به الرأس.

بعد أن ظلّ راقداً لدقيقة، شعر إنّه مغطى بالعرق، قطرات صغيرة، كما لو كان محموماً.

طمأن نفسه قائلاً: "... لا- لا- لا، كلّ شيء سيكون مختلفاً: هي لا تريد أن أبقى هنا، وستصدر لي عفواً- تخفّض بموجبه مدّة حكمي إلى النصف أم حتّى مرّات ثلاثة... وسأعود إلى البيت ".

ثمّ فكّر بها من جديد: "هل فقدت عقلها؟ هل جنّت تماماً؟".

وخطرت له كلمة " فانتازماغوريا " - لقد لفظها أحدهم مؤخراً... لكن من؟.

من، فاسيلي بيتروفيتش.

قفز أرتيوم: لقد أحضر فاسيلي بيتروفيتش ثماراً أمس، لكنّه لم يأكلها كلّها. أين هي؟ أم أكلها كلّها؟ أم إنّه تركها في الغرفة؟.

على الطاولة المشتركة، بالقرب من سرير أوسيب، كان هناك كيسٌ فارغٌ ملقى: هذا هو من أكل ما تبقى منها.

"آه، هكذا إذن" - قال أرتيوم، ناسياً بنجاح، إنّه هو نفسه، من أكل دهن الخنزير المملّح والكرز من مخزون أوسيب أمس فقط.

أخرج صندوقاً فيه طعام: لم يتبق به شيء سوى بعض الحبوب وإجاص مسلوق. توقّع أرتيوم، أن يكون أوسيب أخذ البقية إلى مكان عمله.

لم يكن يرغب في أكل الإجاص كثيراً- أراد من جديد أكل الدهن المملّح أم الجبن في أسوأ الأحوال- أم على أيّ حال، شيئاً ما حيواني له علاقة باللحم، والدم، والحليب.

تذكّر أرتيوم: " كان لدي نقود!" - أمسك وسادة أمّه، إذ أخفاها فيها، وتحقق بأصابعه: نعم، لا زالت مكانها.

" سأذهب إلى الكشك الآن... سأشتري بها كلّها... ماذا يوجد هناك؟ أتمنّى أن يكون سجقاً، أخ... هل تكفي للسجق؟".

كان عليه من أجل أن يخرج أن يرتدي بقدميه، هذه الجزمة اللعينة مرّة أخرى.

"ماذا لو أمرني إيخمانيس بتسليم ملابسي؟ بالتأكيد سيفعل. لنفترض أنّ لدي قميصاً وسروالاً احتياطيين. ولكن من الأحذية لدي جزمة لباد فقط. سوف أضطر إلى شراء حذاء. ربّما لا يجب إنفاق النقود على السجق ؟ وإلّا فستتجول حافي القدمين، مثل الفهد... ليس من المعقول أن أتجوّل في جزمة اللباد... ولكنّني أشتهي السجق بشدة... سأذهب إلى شراء السجق بالتأكيد. وإذا كان هناك الوثيقة؟ والخيشوم؟ وشافيربيكوف؟ لقد وعدوا أن يصنعوا منك سجقاً...إلى الشيطان، إلى الشيطان. أنا بحاجة إلى السجق بسرعة... بالمناسبة هل يحق لي حصة غذائية أم لا، من أسأل عن ذلك؟".

سارع أرتيوم إلى الأسفل، وساقاه لا تكادان تنثنيان في الجزمة، وبمجرّد أن خرج من المبنى إلى الشارع، رأى ميتيا شيلكاتشوف.

شهق من الفرح، وحدّق فيه مباشرة: ماذا، ماذا، ما هو الخبر الذي جاء به؟.

هتف ميتيا، مسروراً جداً: "حمداً لله! فالمناوب لديكم لا يسمح لي بالدخول، ولا يريد الصعود لمناداتك أيضاً! وها أنا... قد أحضرت لك أغراضك! أحضروها إلينا - الزي و... ها هو كيس ثيابك، خذه. أين اختفيت؟ لم نفهم شيئاً".

لوّح أرتيوم بيده: "لا يهم، لا يهم. كيف... فيودور إيفانوفيتش؟.. كيف إيخمانيس - هل قال شيئاً عنّي؟".

كرّر شيلكاتشيف برضا: "إيخمانيس! لم يظهر إيخمانيس من وقتها- من وقت أن أرسلك لم يظهر. يقولون إنّه سافر إلى كيم".

سأل أرتيوم: "وماذا فعلتم؟".

ضحك شيلكاتشيف: "لم نفعل أيّ شيء. لقد استمعنا إلى شتائم غورشكوف. يشتمون هنا بشكل، لدرجة أنّني قررت وضع قاموس للشتائم...".

أخذ الكيس ونظر إلى ميتيا، كما لو أنّ وجهه يؤكد كلّ ما قاله للتو- شعر أرتيوم بنفسه كطفل استيقظ فجراً بعد ليلة رأس السنة: ركض الطفل حافي القدمين إلى شجرة عيد الميلاد، وكان هناك حصان خشبي ملوّن- ضخم كما لو كان نصف حقيقي. ومجموعة ضخمة من الجنود لثلاثة جيوش، هذا عدا عن الفدائيين، وثلاث زجاجات عصير، وساعة ميكانيكية، وسيف، وشيء آخر مدفون في زخرفة شجرة عيد الميلاد- وإذا ما مددت يدك إلى الداخل قد ينفجر قلبك من فرح المفاجئة.

قال أرتيوم بصوت مختنق:"ميتيا، انتظرني دقيقة. سأخلع الآن هذه... الجزمة، وأغيّر ملابسي، وسنذهب إلى الحانوت، إنّني أرغب جداً في أن أضيّفك شيئاً ما".

لوّح شلكاشوف بيده: " يكفي. لا داعي".

أمره أرتيوم: " أسكت "، واندفع مسرعاً إلى الوراء.

... كم الأمر مريح في حذائك، في قميصك: تشعر كما لو كنت محميّاً بدفئك الذي سخنته في وقت ما، ولم يزول هذا الدفء بأعجوبة.

لم يكن في الحانوت سجق، انتهى عند المساء. اشتريا من الحانوت جبنة ماعز. قال أرتيوم:"... بكلّ هذه النقود!"- وفي طريق العودة بدأا يأكلان، دون أن يعيرا أيّ انتباه لأحد.

ركض نحوهما اثنان من الفهود على الفور، قطع لهما أرتيوم قطعتي جبن، دون أسف، لكنّه أمر: "لا تقتربا مرّة أخرى، سأركلكما". أجاب الفهد: "سأبصق في وجهك!". وكان فمه مليئاً بالجبن.

قهقه أرتيوم، ودفع ميتيا، بما معناه أنّ الأمر مضحك. لكن ميتيا ابتسم باعتدال، على ما يبدو، لم يكن الأمر مضحكاً بالنسبة له إلى هذه الدرجة.

في صخب فناء سولوفكي، ميّزا ميشكا وبلاك أرتيوم بسرعة. حصلا على طعام ومداعبة أيضاً. لكنّ النوارس فقط كانت تزعجهم، وتطالب بشكل محموم ومستمر بحصتها.

كانت جبنة الماعز رائعة، وطرية، وحامضة، ولها نكهة الحليب، إلى درجة لا يمكن تصورها.

سأل أرتيوم: "كيف حال مسلمينا؟". فكّر شلكاتشوف لثانية وضحك بسرور، مدركاً أنّ الحديث يدور حول كبير شاه وكوريز شاه.

ربت أحد ما في الخلف بشكل ملحوظ على كتف أرتيوم.

نقذه قلبه" " الجناة...".

كان هذا بوريس لوكيانوفيتش.

صاح: "أرتيوم!"- وحضن بعضهما بعضاً بشعور صادق- "أين أنت؟ كيف حالك؟ هل أعفاك رئيس المعسكر؟ أعاني قليلاً من الصعوبة من دونك- قلّة الذين يمكن الوثوق بهم هنا".

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه أرتيوم، وأجاب: "أوه، أنا بخير، هل تريد جبناً؟.. جرى نقلي إلى عمل جديد، لكنّني سأطلب إذا كان من الممكن نقلي إلى عندكم"- كان يجيب وهو يشعر أنّه كان يكذب قليلاً- من كلّ قلبه لكنّه يكذب قليلاً: أيّ منافسات رياضية بحق إبليس، إذا كان لديه كلّ ذلك... ماذا؟.. عمل؟ حياة؟ أغنية؟.

...عندما يكون لديه مثل فانتازماغوريا هذه.

قال بوريس لوكيانوفيتش: "نعم، نعم، اسأل. ولا سيّما أنّهم لم يلغوا كلّ هذه الأيام مخصصاتك من الطعام. لم أتلق أمراً بخصوص نقلكم. لذلك يمكنك أن

تأخذ ما هو مستحق لك. أمّا بخصوص دعوتك لأكل جبنة الماعز، مع أنّها لذيذة، بالطبع شكراً لك... ستحصل على حصّة جافّة غداً، أليس كذلك؟".

أغمض أرتيوم عينيه وفتحهما، وأمسك بأذنه وسار هكذا لبعض الوقت.

"لا، أنا لست نائماً ".

" بماذا نعتّني؟".

" دجّالة".

" يا لها من كلمة طيبة. مثل مصّاصة في الفم، تتدحرج على الأسنان... أنعتني بشيء آخر أيضاً".

" زعرة".

"ما هذا؟".

"مثل الشاب الأزعر. ولكن امرأة".

" زعرة... زعرة. شيء جيد أيضاً... لماذا رفضت النوم مع العاهرة؟ لقد أعطيتها روبلاً. ولم تفعل شيئاً. يا أحمق".

ظل أرتيوم صامتاً هنيهة، يرسم نقشاً على الحائط بإصبعه، لا يستطيع رؤيته هو نفسه. كانا يرقدان في الظلام بغرفة الناطور.

تذكّر أرتيوم: " أعطيتها روبلاً ، وبشكل عام دفعت ثلاثة روبلات ".

قال بعد صمت: " لم أفعل ".

ضحكت بهدوء: "يا لك من فخور... والآن وصلت إلى مبتغاك؟".

توقف أرتيوم عن الرسم على الحائط للحظة: ماذا لو غضبت منّي الآن فجأة؟ كانت راحة يده الثانية فوق يدها. لم يضغط ولم يحاول أن يشبك أصابعه بأصابعها، فوقها فقط. كانت أيديهما الشيء الوحيد المتلامس الآن.

حاول أرتيوم أن يشعر من خلال راحة يده: كيف حالها- هل هي غاضبة أم تمزح فقط؟ أم تكايده؟ أم أنّها تتظاهر بالانزعاج، عن قصد؟.

وتحسّباً لم يرد بشيء.

أمرته غالا: "إذن، اذهب وحضّر الشاي لي".

محا أرتيوم رسوماته غير الموجودة على الحائط أصلاً، وذهب إلى المطبخ.

شيء غريب: عندما يتركها لدقيقة واحدة، يفقد على الفور أيّ إيمان بحقيقة ما يحدث، ولا سيّما، فيما يتعلق بمشاعرها الإنسانية، بل لنقل أكثر من ذلك الأنثوية.

قال، وهو يعود على عجل: "صنع أوسيب ترمس، بنفسه... لدينا الآن دائماً ماء مغلي.

بعد أن غاب دقيقتين فقط، عاد إليه شعور الخوف: كيف مزاجها الآن- ألم يتعكّر مزاجها، ألم يتحوّل إلى شيء مستحيل ورهيب. شعر أرتيوم دائماً أنّ احتمال حدوث ذلك كان هائلاً: أطرف عين فقط - ولن تتعرف على العالم من حولك.

بدا أرتيوم ، وهو ينطق الكلمات بصوته، في ظلام الغرفة، وكأنّه يحاول معرفة ما إذا كانت هناك حياة هنا، وإذا كانت موجودة- فما هي: دافئة، و ثديّة- أم باردة، وسخيفة، وتأكل الناس بالكامل.

هكذا يضيئون بمصباح يدوي مرتجف أم شعلة مصباح تهسّ في سرداب، يخشون في أيّ لحظة رؤية شيء يشيب شعر رأسك منه إلى الأبد.

سألت غالا من الظلام: "ترويانسكي؟".

لم يفهم أرتيوم في البداية، ماذا تقصد.

" آه. نعم، أوسيب. ترويانسكي ".

قبل بضع ساعات، تشاجر أرتيوم مع أوسيب نفسه، وسحب إلى غرفته الأريكة من الغرفة التي كان العلماء بصدد جعلها غرفة للتدخين.

سأل ترويانسكي بغضب، بخمخمة قليلة : "أين سيدخن أصدقائي عندما يبرد الجو؟" أجاب أرتيوم بصوت منخفض، وهو يدفع الأريكة: "واقفون! يجب

التدخين وقوفاً!". لم يساعده أحد منهم، وبشكل عام، كان يظهر العلماء عدم رضاهم، من وجوده، أكثر فأكثر كل يوم.

كما أنّ أوسيب لم يقترح على أرتيوم استخدام الترمس أيضاً، لكن أرتيوم نفسه كان يستخدمه دون أن يطلب ذلك.

أخذ أرتيوم إلى غرفته، بعد أن غادروا مرّة أخرى، المنضدة التي كانوا يدونون عليها في السجلات، وزن خنازير غينيا وغيرها من الملاحظات عن حياتهم المزدحمة، لاستخدامها كطاولة لتناول الشاي.

عندما عاد للمرة الثانية، كانت غالا تجلس مرتدية ملابسها بالكامل، ولكن كان شعرها لا يزال مسدلاً فقط، وكانت تلمس الأريكة نفسها بيدها.

سألت: " ألا يوجد لديك قمل هنا؟".

سأل أرتيوم بابتسامة: "وهل من الضروري؟".

لم تضحك.

قالت: "أحضرت فطيرة بسمك القد، هيا نأكل. أنا نفسي لم أتناول أيّ شيء طوال اليوم. أشعل الضوء! لكن أحجب النافذة بشيء ما.

فعل أرتيوم كلّ شيء، كما أمرت.

جثا على ركبتيه بجانب الطاولة، وصبّ كوباً لها وآخر لنفسه. في هذه الأثناء، مدّت يدها إلى حقيبتها.

لم تكن الحقيبة أنثوية بالكامل - جلدية، عسكرية، فيها حزام - ليست كبيرة فقط ، وجديدة تقريباً. لكن كان يوجد في داخلها مجموعة أدوات نسائية: بودرة، وأحمر شفاه، وعطر - لاحظ أرتيوم ذلك عندما فتحتها وبدأت، بطريقة نسائية، مستعجلة وبقليل من الانفعال تبحث: أين هو؟.

يبدو أنّها كانت تبحث عن مشط، ولم تجده - لكنّها وجدت شيئاً آخر.

قالت: "أنظر أيّة كتابات لدي".

" لمن ؟"- سأل أرتيوم، وهو ينفخ في الشاي، على الرغم من أنّه لم يعد ساخناً إلى هذه الدرجة.

" ليست لأحد. يكتب السجناء. صادرتها منهم. أسمع. "سأذهب إلى الممرض، وأنت تعال إلى هناك. أنا أذوب من دونك مثل الحلوى. سأبقى مخلصة لك لقبرك ". آ؟ هذا هو الحب. لكن اسمع أيضاً- " بدأت تبحث في حقيبتها، كان هناك الكثير، وليس من الواضح سبب حمل ذلك كلّه معها- " غالا الم عروفة(١) لكم تريد أن تتعرّف عليكم". هل فهمت؟ غالا! المع عروفة!- بدت كأنّها كانت تتوقع منه أن يضحك.

أجاب أرتيوم بجديّة: "نعم".

نظرت إليه لثانية، ولم تجد شيئاً معبّراً في وجهه، فزفرت:

"حسناً..."- نحيّت الملاحظات- "... ماذا في الشاي؟ تنبعث منه رائحة عشبة معينة".

"لقد أضفت إليها فرعة صنوبر" - قال أرتيوم، وهو ينظر إليها بتوتر: كان هناك شيء ما يحدث، وكان لا بد من إيقافه.

"هل هذا صحيح؟"- سألت، وانحنت على الكأس- "... شيء ممتع... لا أريد هذا. سأذهب".

نهضت فجأة، والتقطت حقيبتها، فتحت الحقيبة، وسقطت ورقة واحدة، لم تلاحظها غالا، تخطّت أرتيوم الذي كان جالساً، وأسرعت إلى المخرج.

وقف هو أيضاً وتبعها، معتقداً بحزن إنّها النهاية على ما يبدو، هذه هي النهاية- وماذا سيحدث بعد ذلك، لن يشرح له أحد، لكن لن يكون هناك شيء جيد على الأرجح.

سوف تغادر الآن- وداعاً أيّها الحظ غير العادي.

---

(١) كلمة (المعروفة) باللغة الروسية (ايزفيسنايا) و(الربيع) باللغة الروسية (فيسنا). [المترجم].

وإذا ما حاول، لنقل، تقبيلها على خدها عند الوداع - فسيحدث شيء رهيب.

لكن في حال لم يخرج لتوديعها - فسيكون الأمر سيئاً للغاية.

بشكل عام، الخيارات قليلة ومحزنة.

"غالا المع عروفة - أوضح بهدوء - فهمت الأمر على الشكل التالي، إنّها مصنوعة من الربيع".

توقفت، وهي تمسك بإطار الباب، ونظرت إليه مرّة أخرى.

كانت الردهة مظلمة، ولم يستطع أرتيوم تبيّن عينيها.

عندها أضاف بشكل عشوائي:

"أنت".

... كان كل ذلك مؤلماً ومستحيلاً، تعلّق بنوع من الخيوط المهترئة غير المرئية، والتي إن تنهدت فستنقطع... ولكن استمرت ببعض المعجزة.

خطا نحوها، ولم تكن لتستطيع التهرّب، خلفها الباب وأمامها هو.

بعد ذلك وجدا أنفسهما في مكان ما في المطبخ، أخافا خنازير غينيا بشكل رهيب- اختبأت الحيوانات، فقد أوقعا كلّ شيء من على الطاولة، الغلاية والترمس، وكان كلّ شيء في الماء المغلي... وجدا مكاناً لأنفسهما في زاوية جديدة، على كنبة قديمة، عضعض بعضهما بعضاً، وهكذا تصالحا.

لم يثب أرتيوم إلى رشده على الفور، وكان عقله لا يزال ضبابياً ويغيب- أرتيوم الآن، بلا عقل تقريباً، وشعر بنفسه لسبب ما، وكأنّه عوّامة ماء ترتجف، وترتجف، وترتجف- ولديه سمكة هناك في الأسفل، اصطادته، أم إنّه اصطادها، من غير المعرون الآن، وعليه الآن أن يسحب هذه السمكة من تحت الماء إلى ضوء الشمس- رطبة بالكامل، ولونها ذهبي، وغير مسبوقة، وجشعة- أم على العكس من ذلك، هي ستسحبه إلى القاع، وسوف يختنق هناك تماماً- واستمر هذا الشعور بعدم القدرة على الوصول إلى حلٍّ، وطال، وطال، وطال، وهذا الاهتزاز، اللعنة،

استمر، وكانت الدوائر على هذه المياه تتكرّر أكثر فأكثر، وأكثر صلابة، وفي الوقت نفسه أصبحت المياه أكثر كثافة، مثل القصدير، لا يمكن العيش في هذه المياه، في هذه المياه يموتون إلى الأبد، نعم، هذا مؤكّد، نعم، نعم...

وفجأة قلب أحد ما النهر بأكمله بلحظة واحدة، مع انعكاس الشمس فيه، أم النجوم، أم الأسماك، وكلّ شيء طار من الأعلى، كما لو كان من حوض- الشمس، والسمك، والنجوم.

... كانت يداها سمراوين، عليهما زغب. أمّا الصدر و...وجزء آخر من الجسم - فأبيض باهر، مثل البوظة...

" أريد شايك، مع الصنوبر"- قالت بصوت أجشّ من الصراخ. ولم تستطع النهوض بعد- كان يجب أن يفعل ذلك هو أوّلاً.

وقف وخرج، وشعر لأوّل مرّة، بثقة أكبر في أنّه سيعود، وسيكون كلّ شيء على ما يرام الآن. فلا يمكن أن يكون الأمر سيئاً بعد الآن. على الأقل في الحال.

لم ينكسر الترمس، لحسن الحظ.

نادت من الغرفة، إذ كانت ترتدي ملابسها، كما بدا من صوتها: "الفطيرة. لقد نسيت الفطيرة. أحضر الفطيرة!".

... شربا الشاي، وقالت غالا:

"اسألني: لماذا أنت. يجب أن أوضّح".

أجاب أرتيوم: "ليس لدي الحق أن أسألك دون إذن".

ضحكت، بهدوء ودفء.

بعد أن انتهت من الضحك، قالت:

" أنت ضربت سوروكين. لقد أدركت أنّهم من أجل هذا سيضعونك في زنزانة العقاب وسيقتلونك قريباً. كنْت ذاهب إلى قسم المعلومات والتحقيقات-

كلّك شباب، ومتعرّق- حتّى إنّني شعرت برائحتك، مع أنّه كيف ذلك، من الطابق الثالث... وانكمش كلّ شيء لديّ. كلّ شيء".

كان أرتيوم ينظر إلى الكوب.

"لقد رأيتك من قبل، لكنّك لم تكن هكذا. عندما قاتلت هناك أمام إيخمانيس وضيوفه". لقد لفظتْ كنية " إيخمانيس" بشعور معيّن، وانتقامي، كما بدا ذلك لأرتيوم... ولكن ربّما بدا الأمر له كذلك فقط- "... لم أشفق عليك حينها. وبشكل عام كان كلّ شيء مثيراً للاشمئزاز هناك. فقط... حسناً لا يهم".

رفع أرتيوم عينيه، ونظر بهدوء شديد وعناية إليها، حتّى لا يقطع هذه النغمة، وهذا الصوت... رغم أنّه فكّر للحظة:"... كم ذلك مهم".

"لا، لقد دعوتك قبل ذلك. عندما لعبت دور الأحمق، وفي النهاية قلت إنّك تعرف كيف تقبّل. لقد فكّرت:"الآن سأستدعي تكاتشوك، وسيكسر لك أسنانك كلّها. على الأقل الأمامية من الأعلى ومن الأسفل... وبعد ذلك ستقبّل". عيناك الوقحتان الخضراوان... المرقطتان... "- ونظرت فجأة في عينيه وكأنّها تتأكد.

ابتلع أرتيوم لعابه بصمت، ولم يفكّر في أيّ شيء يسمعه الآن. " نعم، هكذا"- كان يمكن، في هذه العبارة، اختزال ما شعر به بخصوص تكاتشوك، وبخصوص عينيه.

تابعت هي: "وبعد ذلك كان يجب عليّ أن أجعلك... تعمل معي. ليس بسبب عدم وجود عدد كافٍ من المخبرين. يوجد هنا بين كلّ خمسة أشخاص مخبر. ولكن ببساطة... كان ذلك ضرورياً. وغضبت أنا أيضاً. ربّما أكثر ما أغضبني هو أنّني بدأت في الإعجاب بك. لم يعجبني أحد... من الموجودين هنا في وقت من الأوقات. كنتم جميعاً بالنسبة إليّ...على سبيل المثال، مثل بنات آوى أم الخيول- نوع مختلف".

صمتت غالا لبعض الوقت. بدت لأرتيوم أنّها وجدت نفسها تعبّر عن شعورها الصادق في مكان غير مناسب، لكنّها لوحت بيدها على الفور: ما العمل الآن؟ بعد كلّ هذا؟ بعد الكنبة التي كادت أن تنكسر إلى سبع قطع؟.

قالت بابتسامة غير محسوسة، كما لو كانت داخلية، مخفية في عظام وجنتيها: "لو لم تتقرّب منّي، لما كان حدث شيء. وهكذا كنت ذهبت إلى زنزانة العقاب. لكنّك خمّنت بالضبط متى يجب فعل ذلك... يتقرّب الجميع عندما لا يكون ذلك ضرورياً. وعندما يكون ذلك ضرورياً، على العكس من ذلك، لا يتقرّبون... عليك أن تتحمل بعضهم، وتهزّ بعضهم الآخر. كلاهما مزعج. أنت خمّنت - أنت أوّل من خمّنت. ألا تصدق؟" - سألت بصوت عال غير متوقع.

قال أرتيوم: "لماذا، لماذا، أصدّقك. هل يمكنني أكل الفطيرة الآن؟".

ضحكت مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة ألقت رأسها إلى الوراء - ورأى رقبتها: عارية، وغير محميّة. وكانت ضحكتها كما لو كانت دائماً مجمّدة قليلاً، وذابت الآن. ولم تضحك بمثل هذه الضحكة المذابة منذ فترة طويلة جداً. طوال اليوم. أم شهر كامل. أم طوال الصيف. طوال الوقت لم يكن الأمر مضحكاً بالنسبة لها - ثمّ فجأة أصبح الأمر مضحكاً بالنسبة لها.

قالت: "كلْ، كلْ. أنا أريد أيضاً. هل أطعمت الحيوانات اليوم؟".

قال "نعم"، وهو نفسه غير متأكد ممّا إذا كان يكذب أم لا - "لماذا هم هنا؟".

" كيف لماذا؟" - أكلت الفطيرة وشربت الشاي، وأصبحت منزلية تماماً وخالية من الهموم - " هنا حاضنة حيوانات".

"أنا أعرف. وما هذا؟".

هزّت غالا رأسها - بمعنى أنّها تعبت من الضحك بالفعل، كما أنّ الشاي والفطيرة يعرقلان... لكن بكلّ الأحوال الأمر يثير الضحك.

قلّدت أرتيوم بشكل لا يثير الزعل لديه: "... أعرف. وما هذا؟". هذا أمر من فيدور إيخمانيس".

بطريقة غريبة، لفظت كنيته الآن بلا شك بشعور من الاحترام.

"في أيار... متى؟ العام الماضي، أم العام الذي قبله... منذ وقت طويل جداً. جرى إعلان الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة بأكمله، محميّة طبيعية. لقد دخل كلّ شيء ضمن المحميّة - البحيرات، والمستنقعات، والغابة التي يمنع قطعها".

"لماذا؟".

"لأنّه جرى قطع الكثير من أشجار الغابات، بدأت الحيوانات تختفي. لا نريد أن تكون الجزيرة صلعاء وبلا حياة. فقد أسس فيدور مشتلاً لشجر اللاريس... ثمّ بعض الأشجار الأخرى. وهكذا ظهرت حاضنة حيوانات. يحتاج فيودور إلى تربية الغزلان، وأيضاً هذه...الخنازير الغينية... ويريد أن يربّي فئران المسك، لتعيش هنا، وأطلقوها في البحيرة عندكم من أجل أن تتأقلم وتتكاثر- هل رأيت البحيرة القريبة؟.. وأولئك الذين كانوا هنا، وأولئك الذين لم يكونوا هنا قطّ - يجري إحضار جميع أنواع الحيوانات إليها من مكان ما..."- أدارت رأسها مرّة أخرى: إمّا إنّها نفضت شعرها، وإمّا خطرت لها فكرة معينة، وإمّاأنّ كلّ ذلك بدا لها مسلياً وغير ضروري- على الرغم من أنّ الأمر، ربّما قد يكون العكس: كل ذلك جدي للغاية وضروري.

" في البداية، عندما جرى تنظيم المعسكر هنا- كان هناك صيد من الصباح إلى المساء. كان نوغتيف يحب الصيد... كان هو رئيس المعسكر قبل فيدور، تعرف ذلك ؟ ثمّ منع فيودور الصيد... حتّى إنّه منع إبادة النوارس- لكنّني كنت سأقتلهم جميعاً، كاد رأسي ينفجر عند المساء، لا يمكن فتح النافذة... على الرغم من أنّ فيودور نفسه يصطاد أحياناً. ولكن تلك الحيوانات التي يوجد منها الكثير فقط... ليس مثل نوغتيف الذي كان يمكن أن يصطاد من الصباح إلى المساء.

قال أرتيوم وهو يقضم الفطيرة: "لقد أطلقوا النار على السياسيين، عندما كان نوغتيف، هكذا قالوا لي...". لقد اعتاد الاسترخاء والراحة".

غالا على العكس، توقفت عن المضغ ، وسألت بصوتها الآخر، الذي نسيه أرتيوم بسرعة:

"من قال؟".

جلس أرتيوم الذي كان نصف مستلقٍ، وأنهى مضغ الفطيرة، وبعد ذلك فقط أجاب بهدوء شديد، ولطف قدر استطاعته:

"الجميع هنا يعرف ذلك. هذا ليس سرّاً لأحد".

تنهدت غالا.

فكّر أرتيوم بسرعة: " عن ماذا يجب أن أتحدث معك ؟ لا أعرف أيّ شيء سوى المعسكر. ويبدو أنّك، أنت يا غالا، لا تعرفين شيئاً سوى المعسكر. ربّما من الأفضل أن تسأليني لماذا قتلت والدي؟ أم يجب أن أسأل أنا، لماذا أنت تعملين في سولوفكي، ولا تتجولين في الساحة الحمراء، وأنت تمسكين بذراع شخص يرتدي سترة وسروال عسكريين؟.. ".

عضت شفتها السفلية متأملة.

قالت: "حسناً، اسمع. إذا كان الجميع هنا يتحدّث عن ذلك، فمن الضروري أن يعرف أحد ما، كيف كان الأمر في الواقع...كانوا يعاملون معاملة خاصّة- لأنّهم ليسوا جناة وليسوا من أعداء الثورة. نعم، هم شخصيات ثورية لم يفهموا صوابية البلشفية - وأصروا على ذلك... لكن لم يكن أحد مضطراً إلى إطلاق النار عليهم. لقد سعوا إلى ذلك بأنفسهم عام كامل. لو كان فيدور لما تحقق ما سعوا إليه. لكنّهم حققوا ذلك مع نوغتيف. لقد فعلوا الكثير للوصول إلى ذلك. كانوا يعيشون في سافاتيفو. لا عمل ولا حراسة، حكم ذاتي كامل. لقد كانوا يقرأون المحاضرات بعضهم لبعض هناك، وانقسموا إلى فصائل... وجرى

صراع بين الفضائل"- ابتسمت غالا بشكل لاذع - " كانوا يشتمون بعضهم بعضاً، ثمّ يتصالحون، كان يجري الكثير فيما بينهم. يتنزهون على مدار الساعة، ليلاً ونهاراً. لم تنقطع الكهرباء حتّى الصباح عندهم. كانوا يسمح بزيارتهم سبع ساعات في الأسبوع! لم يكونوا يتحدثون مع نوغتيف، بل يصرخون في وجهه: "أخرج أيّها الجلاد!"- وكان يغادر. كان فيودور آنذاك نائبه، وكان يأتي إليهم بدلاً من نوغتيف، لكن كان يتواصل معه العرفاء فقط، أمّا البقية فكانوا يظهرون الازدراء أيضاً... وكان الجنود على الأبراج هم الوحيدون الذين يرون السياسيين. لكن فيدور منع الجنود من التواصل مع السياسيين. لذلك كانوا هم أنفسهم يأتون إلى الأبراج - في البداية نادراً، ثمّ أصبحوا يأتون كلّ يوم، ثمّ مرّات عدّة في اليوم. كانوا يصرخون، من غير اللائق تكرار ما كانوا يصرخون به... ولم يخاطبوا الجنود إلّا با"الكباش". وبعد ذلك- أليس هذا غريب بالنسبة لك؟ هنا يعمل الناس، وأحياناً يموتون، يأكلون سمكة قد واحدة فقط- على الأقل السريّة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة تعيش حياة صعبة، أنا أعلم... أمّا هؤلاء فكانوا يتناقشون- أيّ نقاشات، كلّها فارغة، كلّها خلافات لأسباب تافهة... هنا الأرض كلّها قلبتْ، وهم...".

يبدو أنّ غالا هدأت من جديد، وحتّى أنّها قضمت قطعة من الفطيرة، وارتشفت بعدها الشاي، وتذكّرت، كما لو بالمناسبة:

"هل تعلم أنّ حصصهم الغذائية كانت أكبر من حصص جنود الجيش الأحمر؟ كانوا يأكلون أفضل من حراسهم! وكانوا يتلقون الطرود أيضاً، أمّا جنود الجيش الأحمر فلا! هل تعلم كم جائهم طرود: ستة آلاف بود[1] في السنة! ولم يسْرق منها حتّى قطعة خبز يابس قطّ. لكن لم يعان جنود الجيش الأحمر من داء الإسقربوط، أمّا السياسيون فقد أصيبوا به. أقول لك لماذا؟ لأنّهم كانوا

(١) البود: هي وحدة قياس قديمة للحجم في نظام القياس الروسي، منذ عام ١٨٩٩، تساوي ١٦.٣٨٠٥ كغم. [المترجم].

يستلقون أيام متتالية، صدؤوا من الكسل... هل تعرف ماذا كانت مطالبهم؟ أن يقوم عرفاؤهم بفحص كلّ دفعة تأتي من السجناء، وتحديد من هو سياسي ومن ليس كذلك. فكر! ماذا يعتقدون، هل كان لسيمح لهم بفعل ذلك في

فرنسا أم في فنلندا أم في أيّ مكان آخر؟.. كان العرفاء يتواقحون مع فيودور. وكانوا يصرخون قائلين، علينا أن نوفّر لهم كلّ ما يحتاجون إليه، وحتّى أكثر بثلاث مرّات. كانوا ينتقدون علناً السلطة السوفييتية".

أنهت غالا شرب الشاي، وسحبت من الكوب قطفة الصنوبر.

يبدو أنّها بدأت تروي كلّ ذلك، فقط لأنّ إيخمانيس كان متورطاً في هذه القصة كلّها.

يجب الاعتراف، أنّ أرتيوم نفسه لم يكن سعيداً جداً، لأنّه أثار الحديث عن ذلك.

ولكن، من ناحية أخرى، كان كلّ ما قالته غالا مثيراً للغاية- يمكنه الآن أن يرد على فاسيلي بيتروفيتش.

ولاحظ شيئاً آخر: إنّ هذه القصة كانت تقلق غالا نفسها، وهي تتحدث عنها، كما لو أنّها تريد تبرئة إيخمانيس- كان ذلك محسوساً.

واصلت غالا: "... ثمّ جاء أمر من موسكو بتحديد مدّة التنزّه بست ساعات. قرأ فيدور الأمر عليهم، إذ ذهب إلى المنسك بمفرده، دون حراسة- كان يذهب إليهم بهذا الشكل دائماً. ولديهم بالطبع فؤوس وسكاكين... لقد كان مكتوباً في الأمر: التنزّه من التاسعة صباحاً إلى السادسة مساءً. يمكن أن يملّ الشخص من المشي حتّى السادسة مساءً، فيما لو بدأت تتمشّى في التاسعة صباحاً، أليس كذلك؟ لا سيّما إذا كنت لا تعمل؟ هم أعلنوا أنّ هذه المدّة لا تكفيهم. حسناً، و بأمر من موسكو أيضاً بدؤوا بقطع الكهرباء عنهم في الثانية عشرة ليلاً... لقد رفض السياسيون الاعتراف بهذه الأوامر".

رمت غالا القطفة مرّة أخرى في الكوب: ملّت منها.

"اتخذ نوغتيف القرار النهائي. كانوا يفعلون كلّ شيء نكاية: لقد جرى الإعلان عن ضرورة التفرّق ثلاث مرّات. لكنّهم كانوا يتمشون تحت المصابيح عمداً. أمر أحدهم، وبدأ إطلاق النار، مع العلم إنّ جنود الجيش الأحمر كانوا يطلقون النار إلى الأعلى. أطلق ثلاثة أشخاص فقط النار على الحشد، وأنا أعرفهم جميعاً، مساعدين لنوغتيف: أحدهم، غورشكوف، نقل بعيداً عن الأنظار إلى أحد الجزر هنا، والآخر إلى كيم... بقي تكاتشوك هنا فقط. لو أطلق جميع جنود الجيش الأحمر النار على الحشد، لكانوا قتلوا جميع السياسيين دون استثناء، لم يكن الأمر صعباً".

رفعت غالا عينيها ونظرت إلى أرتيوم.

فكّر أرتيوم، بمرح أكثر منه خوفاً: "لا يمكنك أن تتحدث هنا عن غالا الم عروفة".

وتذكّرت غالا: "وبعد ذلك، أضربوا عن الطعام، مطالبين بنقلهم إلى البر الرئيسي. جرى نقلهم. لكنّني لا أعتقد أنّه سيكون أفضل لهم هناك - لقد عاشوا هنا، كما في حضن المسيح. كل عملهم قطع الحطب لتدفئة المنزل الذي يعيشون فيه. وحتّى هذا كانوا لا يريدون! اعتبروا تجهيز الحطب لأنفسهم، انتقاص من كرامتهم. أمّا حرق الحطب الذي كان يقطعه السجناء الآخرون من أجلهم، أمر طبيعي بالنسبة لهم. كانوا يقطّعون الحطب ويجلبونه لهم ليطبخوا عليه، أمّا هم فلم يرفضوا أن يأخذوه منهم! كل ما تبقى هو أن يطلبوا خفراء من أجل التنزه على الخيل في الجزيرة... هذا غباء منهم، يا تيوم".

...إذا كانت هي قد نطقت " تيوم " - فلماذا لا أتحلى بالشجاعة: أعتقد أنّه من الممكن.

قال أرتيوم: "يقولون إنّ نوغتيف شخصياً قتل مرّات عدّة، إمّا واحداً وإمّا اثنين على الأقل ممّن كانوا ينزلون من السفينة" - كان ينطق كلّ كلمة بحزم، ولكن كما لو كان تلميحاً، ليترك لنفسه الفرصة للتراجع عن أيّ منها في حال ستتسبب في الاستياء.

هزّت غالا كتفيها، كما لو كانت متعبة إلى الحد الأقصى:

"كيف تتخيل ذلك؟ هل تعرف ما يسمونه بالشائعات هنا؟ حوض براز! كلمة بشعة ودقيقة للغاية. يمكن أطلق رصاصة، على الأرجح، مرّة واحدة في الهواء. قتل!.. ربّما قتل أحداً في وقت ما. لا أعرف، ولم ير أحد ذلك- لا تصدّق. فيما لو رآه أحد، لكان دفن في أرض سولوفكي... وأين نوغتيف الآن؟ ستكون نهايته وخيمة، تذكّر هذه الكلمة".

كان أرتيوم على وشك أن يسأل: "وأنت غالا، ستكونين جيدة ؟".

... ذهب بعد التفقد المسائي في المعسكر، إلى منشأة استخلاص اليود.

كان الوقواق[1] يوقوق ورائه، لكنّه لم يعد عدد الوقوقات.

كان في عجلة من أمره، كما لو أنّ غالا كانت تنتظره هناك.

حتّى إنّه لم يلاحظ طول الطريق كما يجب- كانت كلّ يوم تصبح أقصر وأقصر: في متناول اليد، ألفي متر، إنّه أمر مثير للسخرية، يمكنك أن تقطعه ركضاً دون أن تتوقف.

ثمّ بعد ذلك غضب جداً من العلماء - لم يرغبوا بأيّ شكل، التخلي عن خنازيرهم.

تمتم أرتيوم بصوت مسموع، وهو يغلق باب غرفته على نفسه: "خذوهم إلى المعسكر، إلى غرفكم، وناموا محتضنين خنازيركم الغينية "- كانت حماسته الروحية عظيمة لدرجة إنّه لم يستطع فعل أيّ شيء.

استلم حصته الجافة، وسكبها على أرض الغرفة، وقام الآن ببناء برج من البصل والأطعمة المعلبة.. سقطت البصلات. أخذها في يده، واستنشقها، وكانت رائحتهم أيضاً رائحة جسد وتراب، وحياة مفعمة بالحيوية.

---

(١) في الفأل الروسي، يجب في الغابة أن تسأل طائر الوقواق عمّا تبقى لك من سنوات العمر. [المترجم].

غاضباً إلى أقصى حدٍّ من العلماء، أراد رمي بصلة على الحائط، لكنّه أوقف نفسه- تذكّر كيف كانت معدته تؤلمه من الجوع لأسابيع، وتدفق اللعاب من رائحة الدخن المحمّض...... نعم، لقد مرّ بالصدفة هنا بالقرب من المستشفى- شعر برائحة كريهة، حتّى إنّه شعر بدوخة، لكنّه بعد لحظة تذكّر: نعم، هذه سلطة خضار، أكلها وتلذذ بها، عندما كان يتعالج هناك. هكذا تفوح رائحة سلطة الخضار!..

نهض فجأة وذهب إلى العلماء.

كان ترويانسكي خارجاً على رؤوس أصابعه تقريباً من المطبخ، وضغط بإصبعه على شفتيه:

" صه! إنّهم يخافون جداً".

تنحنح رتيوم.

وضع ترويانسكي ورقة بيديه- هي نفسها التي كتب فيها أسماء الخنازير- على الأرجح ، من أجل أن يحفظ أرتيوم، جميع أسماء الخنازير، عن ظهر قلب خلال الليل، أم على الأقل أن يعيد قراءتها.

قال أرتيوم: "ريجي، تشيغانوشكا، تشيرنيافي، جيلتيتسا، دوتشكا وماماشكا، أتذكّر".

قال أوسيب: "لا، لقد كتبت العلامات اللافتة لكلٍّ منهم باختصار، فأنت لا تعرف بماذا تتميز عن بعضها بعضٍ. نحن نحاول أن نسميهم بأسمائهم فقط".

سأل أرتيوم: "وهم... ؟".

لم يرد ترويانسكي- ربّما اعتقد أنّها مزحة غير موفقة.

رأى أرتيوم من مدخل المطبخ، أنّ الخنازير كانت مستلقية على الرف الكبير للنافذة، على ما يبدو كانت تأخذ حمّاماً شمسياً.

اقترح ترويانسكي: " تحدّث معهم أكثر ".

أجاب أرتيوم: "بالتأكيد، أنا أقرأ لهم الشعر، وأغنّي هناهين، وأحكي النكت لهم...".

نظر ترويانسكي بسرعة إلى أرتيوم.

أضاف أرتيوم: " المؤدبة".

"لم ألحظ قطّ عادة التجهّم لديك".

هزّ أرتيوم كتفيه: كان الأمران بالنسبة له سيان.

فكّر دون مبالاة تقريباً: " كنت لأضربه على جبهته...".

أجاب على نفسه: "... لقد سبق أن ضربت سوروكين مؤخراً".

... وبمجرّد أن غادر العلماء، دون أن يودعوا أرتيوم كالعادة.

انتظر دقيقة أخرى: ربّما بقي أحد منهم، انشغل بصنع المربيات من الأعشاب البحرية؟.

لا، هدوء.

قلق أرتيوم: " وماذا عن الخنازير؟ لا زالوا راقدين على رفّ النافذة؟ وإذا ما تجمدوا من البرد؟ فسيتهمونني بالإهمال".

سارع إلى المطبخ، وفتح الباب على مصراعيه، اندفعت الخنازير الخائفة في فوضى، رغم أنّهم كانوا على الأرض، نحو بعضهم بعضاً- خافوا.

لقد أرادوا أن يتكوموا بعضهم فوق بعض، لكنّ الذين كانوا في الأعلى، لم يرغبوا في أن يبقوا من فوق على الإطلاق وسعوا جاهدين للانزلاق إلى الأسفل، ولذلك لم تنجح الخنازير في التكوّم.

صرخ أرتيوم، وهو مبتهج إلى أقصى حدٍّ "آه-آه-آه!. خفتم!".

استمتع لبعض الوقت بهياج الحيوانات وصخبها، ثمّ أغلق الباب بهدوء.

انتظر دقيقة، حتّى يهدأ كلّ شيء، ثمّ كرّر ذلك من جديد، وكان ذلك يبعث لديه سروراً مسكراً صبيانياً للغاية.

صرخ، وأطبق الباب بشدّة: "لماذا نائمووون!": خافت الحيوانات أكثر، لم تنجح في التكوّم حول نفسها كما في المرّة السابقة، كان هناك خوف، لا يمكن كبته، وصادق، ومتنقل.

ابتهج أرتيوم، ضاحكاً بصوت مسموع: " يمكن قضاء مدّة الحكم بهذا الشكل! فقط ألّا يموتوا جميعاً بسبب توقف قلوبهم...".

كاد هو نفسه أن يصاب بجلطة في هذه اللحظة، لأنّه كان هناك صراخ ودوي رهيب من الأعلى.

لعن أرتيوم، واندفع نحو الضوضاء: " هل أتوا بأيل، وسحبوه إلى السقيفة!".

تمكّن، وهو يركض، من ملاحظة أنّ الخنازير قد اندفعت للتكوّم بعضها فوق بعضٍ للمرة الثالثة، ولديهم كلّهم الرغبة الغبية نفسها التي فقدت سحرها، في أن يكون كلّ واحد من الخنازير تحت الجميع.

كان الأمر أسوأ في السقيفة: ظهرت صورة الجريمة على الفور.

كان قط أحمر كبير يجلس داخل شبك الأرانب ويضع أرنباً كبيراً إلى حدٍّ ما بين أسنانه.

كان من الواضح أنّ الأرنب يلفظ أنفاسه، ولم تكد فقاعات من الدم تسيل بهدوء من الأرنب، ويرتجف قبل الموت.

كان لدى القط عينان شريرتان تماماً. نظرت تلك العينان بشراسة إلى أرتيوم.

بدا أنّ هناك فكرتين نافذتين ذواتي معنى تعيشان في عيني القط : الأولى- "من أنت ؟"، والثانية - "أوه، لن يكون لدي وقت لالتهامه ولا إخفائه!".

شتم أرتيوم من قلبه: " ابن الزانية!": هكذا كان جده يشتم، والذي كان تاجراً من الفئة الحرفية الثالثة في موسكو.

رمش القط، لكنّه لم يفلت الأرنب، وإنّما شدّ عليه بأسنانه أكثر.

بدا لأرتيوم الآن أنّ القط موافق على التفاوض، شيء من هذا القبيل: "... دعنا نأكل مناصفة، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا الصراخ...".

كانت باقي الأرانب، في رعب كامل، وتجمعوا على أنفسهم في زوايا مختلفة ضمن الشبك، حتّى إنّ بعضهم أغلق أعيناه. كانت الأرانب سوداء ورمادية.

وعد أرتيوم القط بثقة: "سوف أقتلك الآن"، باحثاً حوله عن شيء ينفذ به وعده.

عثر على مغرفة حديدية، كانوا يجمعون بها فضلات الأرانب.

عند رؤية المغرفة في يد إنسان، ترك القط على الفور فريسته الهادئة- اعتقد أرتيوم للحظة، أنّ هذا الحقير المفترس سوف يهجم عليه مباشرة، وحتّى إنّه شعر بالخوف قليلاً... لكنّ القط كان يحتاج فقط، إلى فجوة في السقيفة خلف ظهر أرتيوم، تركت مفتوحة.

هرع القط هارباً من جنب أرتيوم، وهو ينشب مخالبه بالجدار ويزمجر مثل المقاتل- وطارت المغرفة خلفه، ولكن لا يمكنك أن تصيبه هنا.

هرع أرتيوم إلى الأرنب الذي توقفت أنفاسه، وأمسكه من رقبته وركض وراء القط .

لكن، إلى أين يسرع: لقد اختفى القط.

سأل أرتيوم الذي اخضرّ لونه من الغضب الحقيقي، بصوت عالٍ: "أين اختفيت؟ ومن أين أتيت؟ لم أرك هنا ولا مرّة واحدة! تعال، وكل أرنبك الذي رميته. تعال أيّها الوغد!".

بحث مرّات ثلاثاً في جميع أرجاء منشأة استخلاص اليود- دون نتيجة. كانت جميع الأبواب والنوافذ مغلقة، الشيطان يعرف أين اختبأ هذا اللقيط. أزاح

الأريكة، ونظر تحت جميع الطاولات والخزائن والكراسي، وأزعج خنازير غينيا مرّة أخرى - هدوء.

... خطا في الممر بلا تفكير، ناظراً إلى مكان ما في السقف، على طريقة بطل مأساة يونانية قديمة:

"وماذا سأفعل الآن؟ كيف سأشرح موت حيواني الذي أنا مسؤول عنه؟ أجب!".

فكر أرتيوم بجدية: "ربّما اصطاد أرنب في الغابة؟ هل أنصب فخاً وأقبض عليه؟ من الصياد عندنا؟ كأنّ، فاسيلي بيتروفيتش كان يمارس الصيد. ربّما هو سيقول لي كيف أنصب فخاً؟.. لا، أيّ صياد هو بحق الشيطان، لقد قال إنّه لم يستطع أن يقتل أيّ حيوان، ولو مرّة واحدة... ".

"... أم سأطلب من بورتسيف؟ "أخ بورتسيف، دعنا ننسى الماضي! أمسك لي أرنباً! لن أنسى لك ذلك الفضل مدى الحياة! يجب أن يكون ذا أذنين طويلة هنا! لا أحد يستطيع تمييزه. دع أوسيب يتوصّل إلى نظرية حول كيفية تحوّل الأرانب الأليفة الموجودة في الأقفاص، تدريجياً إلى أرانب برية... ".

خطر اقتراح على بال أرتيوم، وقاله بصوت مسموع: " أم نزع جلد أرنب وإلباسه على قطٍّ؟ هل تسمع أيّها الوغد؟ سألبسك جلد أرنبٍ، وستمشي بأذنين طويلتين، أيّها النذل...".

عاد خالي الوفاض إلى المطبخ، وفتح الترمس، وسكب لنفسه كوباً من الشاي. وقرّر إطعام الخنازير، على الأقل - لقد كانت شرهة للغاية.

قدّم لهم الجزر والملفوف - لم يرفضوا.

سأل أرتيوم، متفاجئاً: "لماذا تأكلون إلى هذا الحد، أيّها الأوغاد؟".

عادت حاضنة الأرانب للحياة في الأعلى مرّة أخرى: جلسوا على دراجاتهم بعجلاتها المربعة، وبدؤوا يتحركون ذهاباً وإياباً، بشكل دائري أحياناً، وبشكل منحرف أحياناً أخرى.

فكّر أرتيوم: "أوه، لقد أكلوا واحداً منهم، ظلوا خائفين لثلاث دقائق، ودعونا نبحث من جديد، عن شيء ما يمكن أن نقضمه هنا... كلّ شيء يشبه ما لدينا في سولوفكي، لا فرق".

أطلق أرتيوم على القط ذهنياً تسمية " رجل أمن". إنّه يشبهه تماماً.

ناداه أرتيوم: " بيس- بيس- بيس!"- ربّما يستجيب للمداعبة.

"سأقتل ولو رجل أمنٍ واحداً على الأقل."

"لن يأتي بالتأكيد.

رجال الأمن لا يحتاجون إلى المداعبة.

النساء منهم يحتجن فقط إلى ذلك أحياناً.

... لم تأت غالا حتّى الآن.

الأرنب- إلى الشيطان. كان أرتيوم مع كلّ دقيقة، يشتاق إلى غالا بشكل أكثر وضوحاً.

حاول إلهاء نفسه، حاول تذكّر كلّ شيء يخطر على باله، لكن إحساسه بالمرأة وجد كيف يعبر عن نفسه. ثمّ فجأة، ظهر إحساس إنّه يمسك جسدها بيديه وكفيه، هوس يشبه الحكّة- لوح كتفها، ورقبتها، ومناطق أخرى- وعندها أخفى أرتيوم يديه في جيوبه، وشدّ على قبضتيه، بحيث ستختفي الحكّة. ثمّ شعر بمذاقها على شفتيه، وبعرقها الحلو، وبالقشعريرة على رقبتها- وعضّ أرتيوم على شفتيه ولعقهما، مثل ذلك القط نفسه.

طلب: "اغربي يا غالا! وإلّا سأبدأ بالعواء هنا... وستموت كلّ الحيوانات من الرعب...".

لم تتركه غالا.

تسللت الأفكار من جديد غير محسوسة، ودافئة، ومتطفلة.

سأل أرتيوم نفسه: "لماذا، اعتبرت طلب العاهرة منّي " بسرعة " في ذلك الوقت، شيء بغيض؟ أمّا سؤال غالا..."- تنشق الهواء من أجل أن ينهي فكرته... - " أمّا عندما سألت غالا،"هل يمكنك بسرعة؟ "- خفق قلبي؟ لماذا؟ هو الشيء نفسه؟".

لقد اكتشف أنّه يفكّر بغالا، بغالا، بغالا، مرّة أخرى- وانتقل بسرعة بعيداً، إلى الحرية في مكان ما، إلى موسكو، إلى منطقة زارادية، إلى أيّ حانة – إذ يوجد أطباق البازلاء على الطاولات- أم إلى السينما...

... تخيّل فجأة بشكل دقيق وواضح، كيف يجلس في دار سينما، وحمل معه زجاجة بيرة، وظهرن نساء على الشاشة (بالطبع، يشبهون غالا)، يحركن أيديهن، ويفتحن عيوناً سوداء - بيضاء ضخمة، ويصرخون بصمت...

... غادر السينما، عازماً أن يتمشى- "إلى أين، إلى أين، إلى أين أريد أن أذهب؟"- سأل نفسه بسرعة، على سبيل المثال، إلى شارع بريتشيستينكا للتسكّع ببساطة، كان يعيش صديق له هناك.

عندما أقابله سيسألني: "... أين كنت؟ لم أرك منذ فترة طويلة، يا تيوما!".

سيجيب أرتيوم، كما لو كان على مضض:" لقد كنت في سولوفكي... ألم يكن لديك علم؟".

كان الجميع يعرف عن سولوفكي منذ عام١٩٢٣ تقريباً. شيء جميل أن أقول إنّني كنت في سولوفكي، في ذلك يوجد رعب وكرامة رجولية قاتمة.

على الرغم من أنّ صديقي... سيبدأ يسأل عن سبب سجنهم لي - من الأفضل ألّا يجري مثل هذا الحديث.

حلم أرتيوم: " ليكن الأمر بشكل آخر، سأتعرّف على فتاة... صغيرة، ترتدي تنورة، وخاتماً في إصبعها الصغير. تسأل: "كيف كنت تعيش؟"، وهي تتطلع إلى شعري الذي كان قد نما... ".

كان سيجيب أرتيوم بصوت متعب، وعيناه نصف مغمضتين: "كان هناك الشيء الكثير... كان هناك سولوفكي... من الأفضل ألّا تسألي...".

لقد أكتشف أنّه هو نفسه مستلقٍ الآن، وعيناه نصف مغمضتين، ومنتشٍ كلّه، كما لو كان قد شرب بيرة مثلجة في جوٍّ حارٍّ جداً.

جلس، وضحك بصوت مسموع من نفسه. وأنعش نفسه بسؤال:

" وماذا عن غالا؟ أيّ فتاة أخرى ترتدي خاتماً- إذا كانت غالا موجودة؟ ربّما سنعود ونبدأ العيش معاً ؟ وماذا في ذلك؟ سننجب أطفالا. سوف يكبرون. ويسألون ذات يوم: "بابا وماما، أين عرف بعضكما بعضاً؟" - "في السجن. قتل أبوكما جدكما وذهب إلى السجن. وأرادت أمكما أن تضع والدكما في زنزانة العقاب وقتله أيضاً. ولكن بعد ذلك غيّرت رأيها ونادته إلى مكتبها، وقالت: "... أين... ؟.." ما رأيكما بهذه القصة يا أطفال؟".

ضحك أرتيوم من جديد

قرع الباب. كان هذا ممتعاً جداً وواعداً جداً:

أمر نفسه: "افتح أيّها اليتيم... بلا صليب وبلا ذيل!".

لاحظ أرتيوم أنّها تستطيع التحدث عن إيخمانيس في أيّ لحظة ومن أيّ مكان- بمجرّد أن يتطرّق الحديث إليه - وحتّى إذا لم يلامسه الحديث - أيضاً.

يمكنه أن يظهر من وراء كلّ حدث، كما لو كان العالم مليئاً بانعكاساته وآثاره المميزة.

قالت غالا، وهي تنظر إلى السقف:"... لقد نسيك"- على ما يبدو كانت تحاول طمأنة أرتيوم، ولكن في الواقع كان هناك بعض الاستخفاف في كلماتها بمعنى: من أنت حتّى يتذكرك فيودور- "...لا يهمّه: سجين، أم لا. لا لأنّه يعتبرك بشراً- فهو لا يعتبر أيّ شخص بشراً. لهذا السبب يبدو أحياناً إنسانياً- لأنّه لا فرق لديه.يعمل هنا، في كلّ مكان سجناء فقط، هو يتواصل معهم- وهل

هناك غيرهم ليتواصل معهم؟ هل تعتقد أنّك الشخص الوحيد الذي دعاه إيخمانيس إليه- أوه، لقد دعاك إيخمانيس إليه. لا شك إنّك كنت تعتقد ذلك؟ ببساطة كان يشعر بالملل من بهائم الجيش الأحمر- معظمهم بهائم. فيما لو جرى سجن جميع جنود الجيش الأحمر غداً، وجرى تعيينه لإعادة تربيتهم، فلن يحرّك هذا الأمر فيه شيئاً. لماذا؟ لأنّ إيخمانيس هو بهيمة أكثر منكم جميعاً...".

فكّر أرتيوم: " في رأيي، أنت تحبينه فقط "، لكنّه صمت: وما علاقته بهذا الأمر.

أوجزت غالا كلامها الصعب والمؤلم: "في حقيقة الأمر: إنّه لا يريد التحدّث مع أحد- إنّه يستخف بكلّ ذلك. لكنّه رأى كيف كان يتصرّف تروتسكي مع الناس- ويريد أن يكون مثله. لقد عمل معه... ونحن التقينا هناك أوّل مرّة..."- لقد أرادت على الفور أن تتوقف عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع- وتوصّلت إلى النتيجة في الحال: "ولكن إذا احتاج إلى إعدامك - فلن يرمش له جفن. لقد قتل فيدور مئات الأشخاص".

لم يفعلوا اليوم أيّ شيء بعضهم مع بعضٍ: جاءت غالينا على غير طبيعتها، لم تقبله- وبطبيعة الحال، لم يجرؤ أرتيوم على الاقتراب منها.

استلقت على الأريكة- كان من الواضح أنّها متعبة، وعندما جرى الحديث عن بهائم الجيش الأحمر، وتروتسكي، خطر لأرتيوم أنّها: أنّها ثملة.

شعرت غالا أنّه خمّن.

سألت: "هل تريد فودكا؟".

صمت أرتيوم، ونظر إلى غالينا- لم تنتظر إجابة.

تذكّر هو، أنّه في كلّ مرّة، كان هناك شيء ما في حقيبتها- لم تأت غالا يوماً دون هدايا.

تفاجأ برؤية الزجاجة التي أخرجتها وعليها ملصق متعدد الألوان: "من أين مثل هذه الفودكا؟". لم ير مثلها منذ زمن السياسة الاقتصادية الجديدة،

وبعد ذلك كان لا يزال هناك حظر على الشراب، لقد شربوا كلّ ما هو لذيذ منذ فترة طويلة.

نظرت غالا باستهزاء إلى أرتيوم، وأجابت:

" الفودكا الجيدة متاحة دائماً من أجل أنشطة التحقيق - الفعّال".

أومأ أرتيوم برأسه، رغم إنّه لم يفهم شيئاً.

شرحت له بعد دقيقة: " للإعدامات..."، ولم تجد كوباً، ناظرة حولها في جميع أنحاء الغرفة، وهي تدير رأسها بالكامل كما تنظر الطيور.

ذهب ليأتي بكوب.

عندما عاد، كانت غالا تجلس على الأريكة، وهي تتمايل قليلاً.

شرحت وهي تسكب الفودكا في الكوب: "بعد تنفيذ عمليات الإعدام، هناك رغبة بالشراب: عمل رجالي صعب".

استنشق أرتيوم الهواء من خلال أنفه، وهو يشعر برائحة الفودكا المثيرة للاشمئزاز.

سأل بشكل غير واضح: "ما العمل الآن؟"- مع العلم أنّها خمّنت،على أيّ حال، ما المقصود من السؤال.

أجابت غالينا: " سيقومون بعمليات الإعدام دون أن يشربوا الفودكا. سيشربون ماءً ". وبحركة غير متوازنة دفعت الكوب في يديه- تمايلت الفودكا، وسقط قليلاً منها على يده. كان هناك شعور كأنّه حرق خفيف. وكان يرغب أن ينفخ في نفس المكان.

شرب كوبه في جرعة واحدة.

كأنّه بلع حجراً.

وعلق في مكان ما في منتصف الصدر.

تذكّرت غالا فجأة، وبدأت من مكان ما، إذ توقفت: "... ضحك إيخمانيس بشدّة اليوم. لقد جمع في القسم الإداري، أوغاد من الحرس الأبيض فقط - هو نفسه اختارهم. ويقومون هم أنفسهم الآن بتعيين المسؤولين في مجالات العمل المختلفة. أنت تعرف ماذااخترعوا؟ إنّهم يوزعون المناصب حسب الكنية. ألم تفهم معنى ذلك؟ أنظر.المحاسب- بطبيعة الحال، سيريبرينيكوف (سيريبرو- فضة)، هو من الحرس الأبيض. رئيس محطة علم الحيوان- زفيروبويف (زفير- وحش). رئيس محطة الكهرباء- بودتوكوف(توك- لدعة كهرباء). أنشؤوا مرصداً فلكياً- وعينوا ميدفيديتسين(مدفيد- دب) مديراً له، وهو يعرف فقط كيف ينظر بالمنظار". هنا ضحكت غاليا نفسها، إذ تذكّرت شيئاً ما. هل حذرت لماذا ميدفيديتسين؟ أنا نفسي لم أحذر على الفور- مجموعة الدب الأكبر النجمية. لقد خمّن إيخ على الفور- كان الأمر مضحكاً بالنسبة له!..".

لاحظ أرتيم: "إذن،" إيخ "؟.

تذكّرت غالينا:"يوجد أيضاً مشتل شجري!. يعمل فيه فلاديمير دندياريف(دنديار- شجرة باللغة اليونانية) هناك... هذا محتال أيضاً. لكن على عكس زفيروبوف وميدفيديتسين،على الأقل يعرف عمله. هو يشعر أنّهم يقدرونه. لقد أصبح وقحاً لدرجة إنّه طالب بعربة نقل! لذلك أمر فيدور بإعطائه تيساً! لم يرفض دندياريف- ويقود الآن التيس إلى بوابة نيكولسكي، ثمّ يجلس عليه ويدخل الدير. وبعد ذلك يترجّل عنه، ويعطي اللجام لجندي الجيش الأحمر الذي يربط التيس قرب نقطة الحراسة!..".

ضحكت غالا من جديد، على الرغم من أنّ ضحكها كان شريراً، وبدت كأنّها تسكبها من داخلها مثل الفودكا، من داخلها بشكل غير منتظم.

لسبب ما، لم يكن الأمر مضحكاً لأرتيوم على الإطلاق. لا بدّ أن بعض الفودكا غير المضحكة قد نزلت في حلقه على الأغلب.

قالت غالا بانزعاج، تزايد بالتدريج: "لقد أضعف الانضباط. لقد أعطى لهذا تيساً، ليكن. أمّا سيليتسكي الذي يترأس مصنع الخشب، وهو رئيس سابق

للسجن الملكي- قال إنّه بحاجة إلى مسدس. وأعطوا السجين مسدساً، فيودور أمر بذلك! أمّا بورتسيف الذي جرى نقله من سريتك إلى قسم المعلومات والتحقيقات، أراد مسدساً أيضاً - أعطوه أيضاً. وأوسيبك طلب أن يأتوا بأمه إلى هنا- سوف يحضرونها له. هو غير مرتاح أن يجلس في السجن دون والدته! كما طلب إرساله بمهمّة عمل إلى البر الرئيسي- سيتم إرساله قريباً، دون حراسة!.. لقد تحدث غراكوف..." - بدأت قصة جديدة هنا، ارتجف جفن أرتيوم قليلاً، لكنّه لم يظهر ذلك، قطعت غالا الحديث، وبدأت على الفور تتحدث عن شيء آخر: "جميع المتخصصين من بين السجناء الذين يديرون مصانع- الطوب وغيرها- يعيشون مع النساء: سمح فيودور بالزواج المدني. وهل تعتقد أنّ أيّ منهم يقدّر ذلك، ويتحدث عن ذلك بعد أن يطلق سراحه؟ "كنت سجيناً في سولولوفكي، وسمحوا لي بالعيش مع زوجة مؤقتة، وإمكانية التنزّه في الجزيرة، ودفعوا لي راتباً، يكفي لشراء أفضل السجائر والحلويات للشاي من الكشك، وإطعام الكلب والقط، اللذين لطّفا حياتي في المعسكر"؟ لا، لا أحد يتحدث عن ذلك! لدى الجميع زوجات حقيقيات في منازلهم! ولكنّ الجميع مستاؤون رغم ذلك! أنا متأكدة من أنّ الجميع يصفون معاناتهم الشديدة- البلد بأكمله بات يعرف سولوفكي، إنّهم يخيفون الأطفال بسولوفكي! ولكن عناصر الأمن المحليون يكتبون تقارير ضد فيدور كلّ أسبوع... ولولا علاقته بغليب- غليب بوكي، هل تعرفه؟.. - لكانوا سجنوا فيدور منذ فترة طويلة".

بدأت غالا من جديد، تبحث عن شيء ما، وهي تدير رأسها مثل الطائر، وخمّن أرتيوم أنّها الآن بحاجة إلى طبق.

ذهب إلى المطبخ من جديد- وعاد يحمل جزرة وخبز وكوبين: في أحدهم شاي والآخر فارغ. عندما اقترب من غرفة حراسته، تفاجأ، عندما سمع إنّ غالا تواصل الحديث، وكأنّها لم تلحظ غيابه.

"... لأنّكم جميعاً بشر وهو نصف إله "- اختتمت حديثها، ورفعت عينيها الفارغة والسوداء ناظرة إلى أرتيوم.

قال أرتيوم: "لقد ألغوا الله"- وزّع الطعام بعناية، ووضع الكوبين بهدوء.

قالت غالا، وهي تلفظ كلّ كلمة على حدة مع وقفة، حتّى لا يلتصق الكلام بعضه ببعض، في حنجرتها المخمورة: "لم يكن هناك آلهة على الإطلاق. لم يكن هناك سوى أنصاف الآلهة ".

فكّر أرتيوم بشيء مختلف: "يمكنك أن تصنع إلهاً واحداً من نصفي إلهين اثنين، لينين وتروتسكي- وسيكون جاهزاً فوراً... على الرغم من أنّ تروتسكي، على ما يبدو، قد انتزع بالفعل من حائط الأيقونات - مثل السن".

كان قلقاً.

وفكّر، وهو ينظر إلى غالا: " كان من الأفضل لو أنّها غادرت".

سكبت غالا الفودكا، وألقت بها على الفور في جوفها.

اعتقد أرتيوم أنّها ستسعل الآن - لكن لا، ابتلعتها، وجلست نصف دقيقة، مغمضة عينيها دون أن تتحرّك.

هو لم يتحرّك أيضاً.

ثمّ زفرت، وبعد ذلك فقط، بدت كأنّها استيقظت.

فتحت بهدوء، وصعوبة عينيها- وهنا أمامها أرتيوم، تيومكا.

ابتسمت غالا.

كانت الابتسامة غريبة وخطيرة أيضاً.

سألت غالا باستعطاف: "هل صحيح أنّهم يستخدمون الشباب الصغار في السرايا؟".

قال أرتيوم، وهو ينظر إليها: "لا أعرف. لم أرى". لكن لم يكن ينظر إلى عينيها، وإنّما إلى شفتيها اللتين فقدتا شكلهما بشكل غريب، وكانتا طوال الوقت تلتويان بشكل غير مريح، كما لو أنّ أسنانها في فمها أصبحت ساخنة، وتحرق.

قالت غالا بصوت خافت، وواثق: "هذه حقيقة. استخدمني أنا. أنا لك... ماذا قلت ؟ أزعر! قلْ تعال، كما لو أنّني شاب صغير مستلقٍ على المضجع هنا... خائف".

طلب أرتيوم بصوت منخفض جداً: "لا حاجة. هذا لا يعجبني. أنت لم تر ماذا يجري هناك. لا تلعبي في ذلك. من فضلك".

لم تكن مهتمّة، واستمرت شفتيها في الالتواء.

قالت: " إذن أنا سأستخدمك ".

انزلقت ببطء عن الأريكة، وأزاحت الكرسي الذي أصدر صريراً، وكانت في طريقها إلى أرتيوم- سقط الخبز، وتدحرجت الجزرة، ورنّت الأكواب ألتي كانت تتقافز وتصطدم جوانبها بعضها ببعض...

وفجأة زعقت غالا بصدق شديد، غير مخمورة على الإطلاق- كان هناك رعب رهيب في صوتها لدرجة أنّ أرتيوم نفسه جمد.

نظرت إلى مكان ما خلف الأريكة.

صاح أرتيوم قافزاً: "غالا! ماذا هناك؟".

"أنت..."- تنهدت بدل أن ترد، دون أن تصدر صوتاً، إذ لم تعثر على الهواء، ويبدو أنّها لم تكد تبدأ تستعيد وعيها- "أنت تأكل لحماً نيئاً؟.. هل فقدت عقلك تماماً يا بن آوى؟".

أدرك أرتيوم ما الأمر أخيراً- فقد رأت الأرنب الذي تركه في مكان ما، بينما كان يبحث عن القط ، جنب الأريكة.

كان الرعب، من أنّ نصف الأرنب غير موجود - كان على ما يبدو، دون ساق واحدة، وجزء من بطنه، حيث تتدلّى منه أمعاء الأرنب الصغيرة.

أمسك أرتيوم الأرنب من أذنيه، وتدلّت الأمعاء أكثر.

صرخت غالا: "أيّها الحقير، سوف أتقيأ الآن!".

صرخ أرتيوم: هذا ليس أنا! رجل الأمن هو الذي أكله!"

صاحت غالا في الجواب:" أيّ رجل أمن؟. سأطلق النار عليك الآن، يا عدو الثورة!" - مدّت يدها بالفعل إلى الحافظة التي لم تكن موجودة على جنبها، وعندما لاحظت هي ذلك، ركلت الكوب الملقى بالقرب من ساقها.

صرخ أرتيوم مغتاظاً: "إنّه القط! اصمتي، أخيراً!"- وفي ذلك الجزء من اللحظة عندما صمت كلاهما، سمعت ضوضاء.

طرق على الباب.

هرع أرتيوم بسرعة نحو الباب، وتذكّر في طريقه غالينا- أين هي؟ كيف حالها؟- عاد مسرعاً، لم تعد هناك، طرق الباب مرّة أخرى...

" يا للش ش- شيطان !" - شتم أرتيوم واندفع مرّة أخرى إلى الباب وفتحه.

كان يقف اثنان من الحراس هناك- لا يمكن القول إنّهما كانا يقفان- كان يمسك أحدهما بالآخر.

سأل الأوّل: " ابن آوى! أين كنت؟"- ودفع أرتيوم من صدره.

كانت تفوح منه رائحة كريهة، كما لو كان شرب فودكا، وأكل معها كافيار من الضفدع مع طمي المستنقعات.

أجاب أرتيوم على الفور: " كنت أتفقّد الأرانب في السقيفة ".

قال الثاني، ودفع أرتيوم أيضاً: ها! لقد قلت لك".

ذهبا إلى حيث كان الضوء مضاء- تركه أرتيوم مضاء، عندما ركض ليأتي بالكوبين- لكنّهما لم يجدا في المطبخ ما كانا يبحثان عنه.

قال جندي الجيش الأحمر بصوت عالٍ: "لا يوجد هنا سوى فئران مائية". لفظ كلمة "هنا" "هينا "، أمّا كلمة "مائية" فمطّها من فمه، كأنّها طويلة ومثيرة للاشمئزاز، مثل دودة.

صاحا لأرتيوم: "أين الأرانب يا غبي؟".

تذكّر أحد الجنود: "لقد قال في السقيفة".

أمرا أرتيوم: " أشعل الضوء، يا بن آوى. لا نرى أيّ شيء".

فكّر أرتيوم وأشعل الضوء.

"هكذا، اللعنة!" - ابتهج الحارسان بالنور، وصعدا إلى السقيفة وهما يقعقعان.

بقي أرتيوم واقفاً في الأسفل.

كان هناك صوت دربكة في السقيفة، وشتم، ودربكة من جديد، يبدو أنّ شخصاً ما قد وقع... ثمّ صدر ضحك بعد ذلك.

قال جندي، وهو ينزل على السلّم ويتقشّع: "يكفي واحداً".

تنحّى أرتيوم جانباً، حتّى لا يبصقوا عليه. ثمّ رجع خطوة أخرى إلى الوراء حتّى لا يدفعوه من جديد.

سأل جندي الجيش الأحمر، دون أن ينظر إلى أرتيوم: " هل يوجد أحد ما غيرك هنا؟".

قال "لا".

ثمّ سأل أحدهما: "هل يوجد نساء؟".

كرّر أرتيوم "لا".

قال جندي الجيش الأحمر، وهو يعطي لأرتيوم الأرنب الذي كسرت رقبته: "خذ قطّعه إلى قطع واقله ".

فكّر أرتيوم بشكل محموم: "سيبقون هنا طوال الليل...".

ظهر الجندي الثاني، وتعثّر على درجات السلّم السفلى، ووقع مصدراً ضجيجاً.

جلس على الأرض، ثمّ قام وهو يئن. لاحظ الأرنب بين يدي أرتيوم، فأخذه بصمت وصرخ لصديقه الذي اختفى في المطبخ:

" اللعنة. لماذا أعطيته له ؟ هل سنجلس معه هنا، أم ماذا؟ دعنا نذهب إلى سكن النساء ونعطيه لأولغا، وهي ستطبخه".

وقف أرتيوم ثابتاً مكانه، مصليّاً من أجل أن ينتهي كلّ هذا.

تمتم الحارسان بشيء ما في المطبخ، لثلاث دقائق أخرى، ثمّ غادرا دون أن يقولا وداعاً، تاركين جميع الأبواب مفتوحة.

تحرّك أرتيوم وراءهما ببطء، خائفاً من النحس، ورأى ليلة بيضاء ضخمة من خلال الباب - في هذا الضوء بدا كلّ شيء كما لو كان عارياً، أغلق الباب على عجل.

صاح بصوت هادئ: " غالا!".

لم تكن في غرفة الحراسة. ولا في المخبر، ولا في أيٍّ من الغرف الأخرى أيضاً.

سحب أخيراً الستارة في المطبخ، هي وراءها. جلست على رفّ النافذة، وهي تمسّد ظهر القط.

كان القط يخرخر، مغمضاً عينيه، لكنّه ألقى نظرة خاطفة على أرتيوم بعين واحدة.

همست وهي تومئ برأسها إلى القط: "لقد أراد أن يأكل الخنازير أيضاً ".

فهم أرتيوم: " إنّ الجنديين كانا يقفان بجانبها تماماً". كان الأمر مضحكاً بالنسبة له تقريباً. من الجيد أنّ الستائر سميكة - ماذا كان سيحصل لو لم تكن كذلك؟.

لقد كانت غالا صاحية تماماً.

قالت بصوت واضح: " لقد خدشْت. هناك مسمار في مكان ما"- وأظهرت إصبعها وعليها قطرة دم قانئة.

أمسك أرتيوم غالا من معصمها ولعق الدم، ومسح لسانه على الفور بظهر يده، ولعقها مرّة أخرى.

قالت وهي تستمع: "الماء يغنّي مثل طائر الطيهوج الأسود".

إنّها تتسرّب من الصنبور، ثمّ بصوت لا يكاد يسمع، تجري في مكان ما تحت الأرضيات.

نسي أرتيوم الشيء الرئيس عندما فتح الباب في الصباح للعلماء.

في ذلك المساء نفسه، في منشأة استخلاص اليود، قابله ترويانسكي، وكان شكله يوحي كما لو أنّه انكشف كلّ شيء له عن أرتيوم - الأكثر فظاعة والأكثر استحالة. والآن لا يعرف أوسيب كيف يتصرّف بهذه المعرفة.

قال أرتيوم في همس سريع معتذراً: " أسف، لم أخبرك صباحاً بما حدث". أخذ ترويانسكي من يده إلى غرفته، وقصّ عليه أبرز التفاصيل، أغلبها من صنع خياله، عن الحارسين المخمورين.

وكذب في نفس الوقت أنّهما أخذا أرنبين وليس أرنباً واحداً.

قال أوسيب على الفور: "يجب أن تكتب تقريراًحول ذلك، إلى القسم الإداري، وإلّا ستتعرّض للاستجواب".

أجاب أرتيوم بهدوء: "ماذا تقول؟- لن أكتب أيّ شيء. سيأتون غداً ويخلعون رأسي".

سأله أوسيب: " هل أنت جبان؟"، ضاغطاً على كلمة "جبان" لدرجة أنّه بدا الحرف الأخير، كأنّه بقي معلّقاً على شفتيه.

فكّر أرتيوم: " أنت الأحمق"، شاعراً بالملل بصدق من هذا الحديث الغبي، وفكّر فقط في كيفية إخراج هؤلاء الأوغاد في أسرع وقت ممكن.

قال رجل آخر عالم، وهو يدخل الغرفة: "أوسيب، هل سألت الرفيق؟..". كان يحمل بيديه رأس أرنب بأذنين وعمود فقري وبعض النتف الصوفية الأخرى.

صفق أوسيب يديه: "نعم ، بالمناسبة، ما هو هذا الشيء إذن؟".

كان أرتيوم قد ألقى الأرنب مع القط من النافذة أمس. بدأ القط على الفور بقضم لحم الأرنب الميّت. كان أرتيوم متأكداً من أنّه لن يبقى أيّ أثرٍ له هناك.

ولا سيّما، كان هناك شجيرات تحت النافذة- من غير الواضح، عن أيّ عفريت كان يبحث الرجال العلماء بين هذه الشجيرات.

فكّر أرتيوم: "... لو أنّ هذا الوغد رجل الأمن قضم أذنيه ". وسأل مبتسماً:

"هل تريد أن تقول أنّني أكلت أرنبين؟ نيئين؟ مع جلودهما؟ ولم أكمل أكل رأس الثاني؟".

سأل أوسيب: "هل تريد أن تقول إنّ رجلي الأمن أكلا الأرنبين نيئين؟".

عند سماع لفظ رجال الأمن، غادر العالم الثاني وهو يسعل. وأخذ معه رأس الأرنب ممسكاً به من أذنيه.

كرّر أرتيوم بصبر: "لم يأكلاهما، بل أخذوهما معهما".

عوج أوسيب وجهه ساخراً: "نعم. قطعا رأس أرنب واحد، وألقوا به من النافذة. هل يمكنك أن تصف لي بالتفصيل كيف بدا ذلك ؟".

"لم أراقب ماذا جرى يا أوسيب، لا أعرف" - قال أرتيوم، ناظراً في عيني أوسيب ، ويأسف جداً لأنّه لم يشعر بأيّ قوّة لضرب هذا الرجل النحيف والساخر على وجهه. سيكون ذلك تصرفاً لئيماً تماماً - هو ليس سوروكين، وليس الوثيقة بشفته الرطبة.

قال أوسيب، بطريقة، كأنّه يقف على منبرٍ: "هكذا إذن. إمّا أن تكتب تقريراً للقسم الإداري، وإمّا سنضطر نحن بأنفسنا لكتابته".

أقترح أرتيوم بلطف:"أكتبوا أنتم. أخرجوا من هنا فقط، في أسرع وقت ممكن".

صرخ أوسيب: " ما المقصود باخرجوا ؟ اخرج أنت، ليس لديك ما تفعله هنا! أمّا نحن فلن نذهب إلى المدينة بعد الآن. نضيّع الكثير من الوقت جراء ذلك".

لم يفهم أرتيوم: "إلى أيّ مدينة "؟.

قال أوسيب بسرعة: "إلى الدير، إلى الكرملين - إلى هناك، إلى ذلك السجن".

ظهر الرجل العالم من جديد في مدخل الغرفة، هذه المرّة دون الأرنب، لكن لمع خلفه رأس أصلع حكيم لعالم ثالث.

كرّر أرتيوم مرّة أخرى: "ليس لديكم الحق، اخرجوا"، مدركاً إنّه الآن يبدو غبياً تماماً.

نظر العلماء إلى بعضهم البعض وتنحنح واحد بعد الآخر - ظهر شعور إنّهم يتواصلون بعضهم مع بعض بهذه الطريقة.

قال أحد العلماء مشيراً بإصبعه: "انظروا ماذا يوجد لديه، يا أصدقائي!".

حدّق الثلاثة في شيء ما غريب.

نظر أرتيوم، متوقعاً رؤية خنزيراً غنياً مأكولاً هذه المرّة.

لكن لا، كانت زجاجة الفودكا التي لم تشرب كلّها.

ضحك العلماء بصوت عالٍ - إلّا أوسيب.

فقد خرج ، وهو يلوح بحافتي مريوله الأماميتين بازدراء.

اندفع أرتيوم، فاقداً السيطرة على نفسه، وراءهم، إلى غرفهم العلمية، وأمسك بأقرب قارورة ورماها بكلّ قوته على الحائط.

لا يجب القول إنّ العلماء أظهروا استعدادهم لمبارزة فورية، حتّى مع تفوقهم بالقوة. ولكن، لم يكن هناك خوف في عيونهم.

قال أحدهم: " إنّه، ما زال مخموراً".

"سيتم غداً، كتابة بيان مفصّل بشأنك" - وعد الرجل الآخر، الذي كان يجلس وظهره إلى أرتيوم، بصوت عميق، وحتّى إنّه لم يستدير نحوه.

ركض أرتيوم إلى الشارع، وأراد أن يذهب على الفور إلى الدير - لكنّه غيّر رأيه مباشرة: يجب أن يقابل غالا، ويخبرها بكلّ شيء!.

قرّر أرتيوم، وهو يتطلّع حوله: " أين تنتظر عادة ؟". كان قلبه يخفق، وشفتاه ترتجفان - كان كلّ شيء مثيراً للزعل وعبثياً بشكل مستحيل.

أدرك فجأة أنّ عليه الصعود إلى السطح - إذ يمكنه أن يرى من هناك أفضل.

عاد إلى المبنى، وصعد إلى السقيفة على الفور. ومضت له فكرة، أن يخنق الأرانب المتبقية، ويرميها إلى الأسفل، نكاية بالعلماء...

لم يرى غالا في أيّ مكان.

المثير للدهشة أنّ الطيور كانت لا تزال تغنّي - في ضوء المساء الهادئ، وفي الدفء الرقيق مع اقتراب ليل سولوفكي الأبيض - وكان الغناء هادئاً ودافئاً أيضاً.

طار وقواق في مكان قريب جداً، ووقوق مرّات عدّة. بحث أرتيوم بعينيه عنه: إنّه يجلس مباشرة على عمود في الفناء - يا له من طائر كبير! كان أوّل مرّة في حياته يرى وقواق.

لاحظ الوقواق أرتيوم أيضاً، وطار على الفور من مكانه، وهو يخفق بجناحيه الكبيرين بسرعة.

اتضح أنّ البحر كان مرئياً من الأعلى.

كان البحر بلا حراك، كما لو كان غير حيٍّ. كانت الجزر الصخرية مرئية في البحر. نظر أرتيوم مطولاً إلى المياه البعيدة.

هدأ قلبه.

كانت الشمس تغرب ليس نحو الأسفل، كما هو الحال هناك في روسيا- بدت كأنّها تتدحرج بالضبط على طول الأفق وتغيب تدريجياً هكذا.

بدت الشمس كأنّها تذوب وتسيل مثل البوظة- وبحلول الوقت الذي يجب أن تغادر فيه الأفق، لن يتبقى أيّ شيء منها. سوف تشرق غداً- وبدلاً من الشمس الضخمة، سيكون هناك كرة صغيرة لا تكاد تكون دافئة، شعثة من الخجل.

يقال إنّ الشمس هنا تشرق وتغرب في الشمال تقريباً. هذا يعني الشمال هناك.

تأمل أرتيوم ، ملاحظاً الكوخ الخشبي في الحديقة الأمامية: "... وإذا ما ذهبنا إلى كوخ فيليب؟ دعنا أيّها الجد فيليب، نخطئ هنا، لن يسمعنا أحد... ".

اختفى البعوض نهائياً.

كانت الغيوم وردية وأرجوانية ،وترغي بشكل جميل، وعبقة مثل الصابون الفرنسي.

كانت البحيرة مرئية أيضاً. كانت تظهر دوائر سريعة على المياه من وقت لآخر- ربّما كانت تسبح فئران المسك نفسها التي جلبها إيخمانيس.

لولا لم يكن هناك دوائر، لكانت البحيرة تبدو ثابتة ومتينة، مثل الفولاذ. وكانت الشمس الغاربة تلعق هذا الفولاذ، كما يلعق الأطفال الحديد في طفولتهم الروسية شديدة البرودة - لكنّ اللسان فقط لم يلتصق بالبحيرة.

خاف أرتيوم فجأة:"لكنّهم سيحرمونني من هذا العمل- ماذا أحرس هنا؟ هل العلماء؟.. وإضافة إلى ذلك التقرير الذي سيقدمونه، يا للهول...".

كان من الضروري أن تأتي غالا قريباً، وتزيل شكوكه

بحث أرتيوم بعينيه هنا وهناك، ثمّ هدأ من جديد، حابساً أنفاسه. فيما هو على السطح - لم ولن يحدث شيء. الأرانب تضج في الأسفل فقط.

سمع أرتيوم، أحد ما يصعد إلى السقيفة: "... إنهم يتأكدون من أنّني لا ألتهم أرنباً أخر، وعيناي تلمعان في شبه الظلام...".

ولم يكد يهدأ، بدأ يشعر بضيق في صدره من جديد: لماذا لا يستطيع أن يعيش بهدوء، ولو لأسبوع على الأقل. تخيّل أرتيوم نفسه إمّا حيواناً، وإمّا إنساناً يزحف على صخرة - ثمّ ينهار أحد الأحجار تحت قدمه ويسقط إلى الأسفل، ثمّ آخر... وإمّا طير ما يبدأ في بالدوران مستهدفاً كبده - ولا يمكنه أن يبعده بيده، ولا يبصق عليه...

شعر بذلك بحدّة، لدرجة إنّه وجد نفسه يتمسك بالسطح بيديه بكلّ قوته.

ومن الجيد أنّه تمسّك به، لأنّه رأى شخصاً في الغابة فجأة.

حدّق لدقيقة - ربّما تهيأ له... لوح بيده، لكنّ الشخص لم يجب.

" هل هي غالا؟ لا؟ لو كانت غالا - فلماذا هي على الجانب الآخر من الطريق؟ وفي قميص غريب غير مألوف له...".

نزل أرتيوم إلى الأسفل، محاولاً عدم إحداث الكثير من الضوضاء... اتضح أنّ جميع العلماء نيام بالفعل. أكثرهم قلقاً، تفقّد الأرانب للتو على ما يبدو، ورقد أيضاً.

ذهب أرتيوم إلى الغابة من جانب البئر، تخطّى السياج، وصعد إلى الأعلى، إلى المكان الذي رأى فيه الشخص.

قرّر:"على الأرجح غالا، ومن غيرها ؟ حتّى إنّني لن ألقي التحية عليها، بل سأقبلها على الفور".

كان في ا لغابة ظلام أكثر بكثير من على السطح، لكن بدا أنّه يتذكّر الاتجاه بشكل صحيح.

... من المفاجأة، صدر عن أرتيوم صوتٌ جديدٌ تماماً بالنسبة له :" خك" - خرج منه : كما لو أنّ عظم داخلي صغير قد سقط من حلقه.

وقف أمامه رجل عجوز.

... ربّما عجوز.

حاول أرتيوم بعد ذلك فقط، أن يتذكّر كيف كان مظهره، وبدا ما تذكّره على الشكل التالي، كما لو أضافوا على لون الليلة البيضاء، طلاء سميك أبيض باهت أيضاً، وأضيف أيضاً، ومرّة أخرى أيضاً - حتّى طمست الصورة بأكملها.

لم يكن عارياً- كان يرتدي قميصاً، ويبدو أنّه كان يرتدي سروالاً في ساقيه، لكن هل كان يرتدي حذاءً أم خفّاً، أم جزمة؟ على الأغلب، بدا كأنّه متجذّر في الأرض، مثل شجرة - أم شيء آخر؟.

... على الأغلب كانت قدماه غارقتين في العشب.

كان من طول أرتيوم، وكانت لحيته مائلة إلى البياض، مثل ليلة سولوفكي. ولم يكن من الممكن تمييز عينيه.

لقد كان نحيفاً جداً أكثر من أيّ هزيل . لكنّه وقف بحزم .

لم تكن لديه عصا بيديه، ولم يكن يتمسك بأيّ شيء.

"من أنت؟" - نفث أرتيوم، قبل بضع خطوات منه، لكنّه هو نفسه لم يكن يريد أن يعرف من هو - لقد تحدث فقط ليشعر إنّه لم يتخدّر من الرعب.

غمر العرق أرتيوم مباشرة حتّى خصره، واستدار على بعد نصف خطوة، دون انتظار إجابة، وركض نحو النوافذ، ربّما هناك أشخاص- أحياء، أناس عاديون، بشر.

لم يناده أحد.

... بحلول الصباح، بعد حلم عشوائي وسخيف وقصير، بدأ أرتيوم يشعر أنّه عندما ركض، مدّ الرجل العجوز يده، وكانت في يده ثمار. لكن كيف استطاع رؤية ذلك؟.

عندما أشرقت الشمس، أصبح كلّ ما جرى أمس غير مخيف، وسخف، بكلّ صدق.

ذهب أرتيوم إلى نفس المكان، وبطبيعة الحال، لم يجد أيّ آثار، ولم يبحث كثيراً- كان يجب عليه أن يرى غالا بشكل عاجل.

سأل نفسه وهو يركل الطحلب والعشب بقدمه: "ربّما غيّرت رأيها؟".

أجاب نفسه: "غيّرت رأيها بماذا ؟".

كان لا يزال العلماء نائمين.

كيلا يلتقيهم، قرّر أن يذهب على الفور إلى المدينة - كما أصبح معتاد القول.

عند خروجه، سمع صرير خنازير غينيا- اعتادوا أن يطعموهم في الصباح، لكنّه لن يعود - فليطعمهم العلماء.

رافق طيرٌ أرتيوم، وهو يطير من شجرة إلى أخرى.

بدأ نبات بلومينج سالي الذي كان يغطي كلّ شيء قبل فترة، يتساقط ، وتقف سسيقانه عارية في كلّ مكان.

لكن كانت تفوح رائحة الفطر بشكل محسوس.

كان الناس يسيرون نحوه، ربّما إلى العمل الصباحي. فوجئ أرتيوم، بعد دقيقة واحدة، برؤية أشخاص من سريته السابقة - لم يكن شعوره هذا هو الأفضل.

بدا له الآن أنّهم جميعاً، سيبدؤوا كشخص واحد، يشيرون إليه ويصرخون: "ها هو الكسول! هو يتهرّب من العمل! دعه يذهب معنا إلى نقل الجذوع !".

كاد أن يجفل: أراد أن يستدير ويذهب في الاتجاه المعاكس. كان سيبدو الأمر غبياً حقاً...

لقد عرفوه أيضاً: ظهر على وجوههم نوع من الانتعاش.

أدرك أرتيوم فجأة إلى أيّ درجة يبدو أفضل بكثير من أولئك الذين كانوا يسيرون نحوه. كانوا - كما لو أنّهم معصورون، مع تجاويف سوداء حول عيونهم، وأفواه غائرة - عجائز رمادية.

هزّ الوثيقة شفته، بحيث بدت كأنّها تتأرجح من جانب إلى آخر، مثل المبخرة، وظل كلّ الوقت يشدّ شافيربيكوف الذي كان يسير أمامه، لكنّه لم يتجاوب معه: لقد رأى هو نفسه أرتيوم جيداً.

كان شافيربيكوف يفكّر بشيء ما، لكنّه لم يستطع التوصل إلى حلٍّ.

نظر سيفتسيف إلى أرتيوم ، كما لو كان بأمل: أن يحمل له فجأة خبراً جيداً أم يعطيه فطيرة.

"والسماور هنا أيضاً!"- فوجئ أرتيوم برؤية خادم الجنرال السابق، والذي بدأ يخدم بورتسيف بأمانة وصدق، لكن معلمه الجديد، الذي انتقل إلى قسم المعلومات والتحقيقات، لم يأخذ الخدم معه - رواسب: لذا اذهب، أيّها العم، إلى نقل الجذوع، فالناس السوفييت أنفسهم يعرفون كيفية تلميع جزاميهم.

قرّر أرتيوم على عجل: " هل يسلّم أم لا ؟". في أثناء ذلك، اقتربوا منه، أومأ أرتيوم برأسه إلى سيفتسيف. أمّا الخادم فقد تجاوزه دون أن يسلّم، بوجهه الذي يشبه السماور. "... عجوز أحمق " - ضحك أرتيوم، دون أن يرفع عينيه عن شفة الوثية وخدّ شافيربيكوف المزرق.

لحسن الحظ، كان يرافق السجناء رئيس مجموعة وجنديان من جنود الجيش الأحمر، وإلّا من غير المعروف كيف كان سينتهي الأمر...

كان الدير يزحف، مع كلّ خطوة، نحو أرتيوم ، مثل سلحفاة أحفورية عمياء.

... لكن تبيّن إنّه أقرب، وأصبح الانطباع مختلفاً بعض الشيء: رأى قباب الدير الحمراء، المرصعة بالذهب- إذا قمت بزرّ عينيك، سيظهر شعور بأنّ الشمس تتدفق في موجات دافئة فوق القصدير الأحمر.

وضع أرتيوم ملاحظة لنفسه: "يجب أن أقول لأفاناسييف ذلك، فربّما يكون ذلك مفيداً".

لم يتجه إلى البوابة من أقصر طريق بل عمل دائرة واسعة - حتّى يرى المبنى الذي تعيش فيه غالا- بالقرب من الدير، في فندق بتروغراد السابق، في الطابق الثاني إذ يوجد فيه جميع رجال الأمن. مرّ أرتيوم بالقرب من هذا المبنى مرّات عدّة، لكنّه لم يعرف نافذتها. وإنّما كان يعرف أشياء أخرى كثيرة، وكانت هذه المعرفة تدوخ الرأس.

طلب جندي الجيش الأحمر منه: " تصريح الدخول".

أجاب أرتيوم وهو يقدّم له الورقة: " خذ تصريح الدخول".

لم تعجب جندي الجيش الأحمر هذه اللهجة، لكن ما الذي يمكنك فعله، لا يمكنك أن تأكل ورقة رسمية.

ها هو السهم الأخضر لكاتدرائية التجلّي. قال أفاناسييف إنّ هذه الكاتدرائية مبهجة وخفيفة وحتّى إنّها ضحوكة أيضاً. وقال أيضاً إنّ قبّتها مليئة بالمشروب الهلامي.

تساءل أرتيوم: "فيما لو قلت لغالا ذلك؟ هل ستفهم؟".

كان المطران السابق لسولوفكي يقطّع الحطب لعمال لمطابخ.

سمع صفير أجشّ- هذا يعني أنّ سفينة "نيفا" جاءت، وتذكّر أرتيوم صوت هذه السفينة، منذ أن كان يحمل براميل سمك القد على الرصيف.

فهم أرتيوم، وهو ينظر إلى المطران، ويسمع صفير "نيفا:"... أريد أن آكل فقط ".

لقد حصل على حصّة غذائية، كمساعد لبوريس لوكيانوفيتش- كان هناك ما يمكن أكله.

قال أرتيوم لنفسه: " تقوم سريتك السابقة بتقليب الجذوع في الماء البارد"، وأجاب على نفسه: "وماذا عليّ فعله؟ هل أحترق من العار؟ لقد قلّبت أيضاً ".

بعد تأخير قليل، قاد فاسيلي بيتروفيتش مجموعته.

كان أرتيوم يقف على الطريق بالفعل- لا يمكن تجاوزه: أراد أن يبدأ صباحه بمسامحته، وعندها سيبدأ يومه بنجاح.

هزّ فاسيلي بيتروفيتش رأسه، ولمس قبعته، وكان من الواضح أنّه لا يزال غاضباً منه كما في السابق، ولكن ما العمل الآن- تجاوز هذا الوغد محلوق الرأس الذي لوحته الشمس؟.

قال أرتيوم، وهو يحتضن فاسيلي بيتروفيتش، ويتحدّث بصوت منخفض وبسرعة: " دقيقة واحدة، دقيقة واحدة فقط. فاسيلي بيتروفيتش أنا لا أعرف متى

وكم عدد المرّات التي تلتقون فيها في أمسيات أثينا، وعن ماذا تتحدثون هناك، لكنّني رأيت غراكوف هناك... كونوا أكثر انتباهاً في حضوره، حسناً؟ لأنّه يسرد ما يدور بينكم من أحاديث لأيّ شخص لا على التعيين".

أومأ فاسيلي بيتروفيتش الذي لم يقل لأرتيوم أيّ شيء، بصرامة، وضغط على مرفق أرتيوم، وعاد بسرعة إلى فريقه بجمع الثمار.

تذكّر أرتيوم، وهو ينظر وراءهم: " كان بإمكاني جمع الثمار إلى حدّ الآن! لقد حاول فاسيلي بيتروفيتش إقناعي... هل كان من الممكن أن يكون ذلك جيداً؟ وما كان ليحدث ما حدث. ماذا تختار يا أرتيوم؟".

كان اختياره واضحاً، لكن في الوقت الحالي غير متاح.

لم يذهب لتناول الطعام- ماذا لو ظهرت غالا فجأة، ذاهبة لشأن معيّن، أم تسافر إلى كيم أم إلى موسكو، ولا تعود- هذه الدجالة، هذه الزعرة، هذه... تجمّد قلب أرتيوم مرّة أخرى، وظهر للحظة يعسوب أسود متداعٍ يرفرف بأجنحة كثيرة أمام عينيه.

كاد يضحك بصوت مسموع: تقريباً: "ما الذي يجري لك...".

بالعقل، كان يجب عليه أن يذهب من الفناء قبل وقت طويل، لكنّ أرتيوم كان يتجوّل عمداً تحت نوافذ قسم المعلومات والتحقيقات. فكّر وهو يشعر بقشعريرة تسري في جسمه، "... ربّما يأخذونني... أم أذهب وأعترف بذنبي...أيّها الرفيق جندي الجيش الأحمر، أكلت أرنبين في المنشأة التي كلّفوني بحراستها، أطالب باقتيادي إلى مكتب غالينا، هي ستعاقبني.".

"سيأخذونك الآن، ولكن ليس إلى هناك، ستكتشف..."- وبّخ أرتيوم نفسه مرات عدّة، ولم يطع نفسه.

كانت الساحة مزدحمة للغاية، لكنّ الجميع كانوا في عجلة من أمرهم للقيام بأعمالهم، ولم يتجوّل أحد دون أيّ معنى أم بلا هدف.

مرّ ثلاثة جنود من الجيش الأحمر دون أن ينظروا إلى أرتيوم. كان يعتقد أنّ كلاً من جنود الجيش الأحمر والجناة يشبه بعضهم بعضاً- مثل الصينيين. الجناة : متسخون

مثل بقايا الصابون، وأسنانهم بالية. وجنود الجيش الأحمر: بوجوه الكلاب وعيونهم الغائرة. كيف يمكن تمييزهم؟ كان من الأسهل تمييز نورساً عن الأخر.

حاول نورس طار بالقرب منه، أن يصرخ بأعلى صوت ممكن في الأذن. كانوا دائماً جائعين وغاضبين في الصباح. لقد نسيت هذه المخلوقات في الآونة الأخيرة تماماً كيف تصطاد، وكانوا يأكلون من مقالب القمامة أم بالقرب من المطبخ حصرياً. كما أنّهم أصبحوا يمارسون السرقة أم السطو بشكل واضح، مثل القوزاق الحقيقيين القديمين، قبل حكم يكاترينا[1].

كان بلاك وميشكا يلفان الفناء وراء أرتيوم، ثمّ تخلّفا عنه: لقد كانت تفوح منه رائحة الشمس، والحماقة، والرغبة: لكن لم تكن هناك رائحة طعام.

عرفه أرتيوم: "أوه، أنا أعرف هذا الشخص...".

لاحظ فيولار، القنصل المكسيكي السابق، الذي تحدّث عنه فاسيلي بيتروفيتش. ذهب فيولار لزيارة أقارب زوجته في تفليس، ومن هناك جيء به مع حبيبته إلى سولوفكي.

لم يكن فيولار في عجلة من أمره أيضاً، لكنّه كان ينتظر شيئاً ما، وكان من الواضح أنّه قلق للغاية. وقف بالقرب من زاوية أقرب مبنى، يتنقل من قدم إلى أخرى يعاني من تعب الانتظار.

ضحك أرتيوم: "ربّما هو ينتظر غالا أيضاً ؟" - وشعر على الفور أنّ نكتته، ضربة خفيفة على بطنه: لا، لم يكن الأمر مضحكاً على الإطلاق.

أوضح لنفسه: "... الآن سيقودون النساء السجينات، أيّها الأحمق". ولتأكيد ما توقعه، ظهرت أرتال من النساء متجهات إلى العمل العام: "... على الأرجح إلى استخراج الخثّ " - توقّع أرتيوم.

في الصف الأقرب إلى فيولار، كانت تسير امرأة طويلة رفيعة - كان مظهرها يشير إلى أنّها معتزّة بنفسها، وكانت تشمخ برأسها، لكن عينيها كانتا تنضحان بالكرب لدرجة أنّ قلبه آلمه.

---

(١) يكاترينا الثانية إمبراطورة روسية، حكمت بلادها مدة ٣٤ عاما من ١٧٦٢ حتى وفاتها ١٧٩٦، بعد أن أطاحت بزوجها الإمبراطور بيوتر الثالث. [المترجم].

من المثير للدهشة أن النساء اللواتي كنّا يسرن في أرتال، ويشتمن عادة أسوأ بكثير من الذكور، عندما رأين فيولار، صمتن - يبدو أنّ الجميع كنّ يعرفن أنّ لديهما موعداً، ولم يردن إعاقة اللقاء. حتّى إنهنّ تباطئنا قليلاً - بما في ذلك الحراس.

استند فيولار بيديه على الزاوية الحجرية، وكان يلامسها بأصابعه الرفيعة، ويبتسم - وهنا من المناسب القول: كان يبتسم بكلّ قوته. لو أن الرتل سار بمحاذاته دقيقة إضافية أخرى، لكان وجه فيولار قد انفجر بالعرض فجأة، وتشققت زوايا فمه...

ولكن بمجرّد أن مرّ الرتل، ذهب فيولار فجأة إلى عمله بارتياح إلى حد ما - أعتقد أنّه كان يعمل في مكان ما في الحانوت.

لكنّ أرتيوم أصبح أكثر كآبة.

قال صوت امرأة منخفض من خلفه: "أراك، أراك. تقف مثل الأحمق. كان ينقص أن تلوح بيدك لي: "أنا هنا، إيه!".

كان الصوت يعبّر عن الكثير من الرضا.

لم ينظر أرتيوم إلى الوراء حتّى لا يخيف هذه المعجزة. كان الأمر كما لو أن قطيعاً من الطيور الصغيرة ترفرف بداخله.

"اذهب إلى كاتدرائية التجلّي، إلى السطح، حيث النوافذ المحترقة. قلْ جرى تكليفك بالعمل هناك... جمع القمامة. هذا هو المفتاح، إنّه في جيبك، هناك قفل. اذهب من خلال الرواق المغطى، وليس من خلال السرايا.

غنّت غالا بهدوء ومداعبة، وهي تنفض تنورتها، وركبتيها."أنقذونني، أم لا تنقذونني، لأنّ الحياة ليست حلوة بالنسبة لي، بل من الأفضل أن تحضروا لي منْ أنا مغرمة به...".

كانت اليوم مثل المدجّنة.

لم يقل أرتيوم أيّ كلمة، بل كان ينظر إليها فقط. لم يكن جتى ليفكّر، في أنّها مغرمة به - فلماذا تغرم به؟ لكنّه لم ينزعج: ما المشكلة أن تكون مغرمة في أحد ما، لكنّها تغنّي لي هنا،على أيّ حال.

لم يكن حتى ليفكّر، في أنّها مغرمة به- فلماذا تغرم به؟ لكنّه لم ينزعج: ما المشكلة أن تكون مغرمة في أحد ما، لكنّها تغنّي

لي هنا،على أيّ حال.

... لو أنّها، أيّها الناس الطيبون، غنّت فقط...

قالت غالا: " لا تنظر، كلّ شيء أحترق هنا، كانت كنيسة، هل تفهم؟".

أومأ أرتيوم برأسه.

وافقت غالا: " أنت تفهم كلّ شيء".

كان الضوء خافتاً هنا، ومغبرّاً، وهناك رائحة أشياء محترقة، وكانت غالا تحدّق في أرتيوم بشكل، كما لو أنّها أزمعت أن تأخذه بعيداً من هنا، وتحمله إلى منزلها.

كانت الرسوم لا تزال على الجدران: كان المسيح ينظر من زوايا مختلفة، أحياناً بعينه اليسار، وأحياناً بعينه اليمين، وكانت خصلات من لحيته تتدلى، وكان الكعب ذو اللون الوردي للطفل مرئياً بوضوح.

قالت غالا: "هناك أشخاص أفكارهم عبارة عن رغبات، ورغباتهم عبارة عن أفكار. أمّا أنت، فليس لديك رغبات، ولا أفكار. أفكارك هي أفعالك. لكن أفعالك كلها عشوائية. تحملك الريح على طول الطريق. أنت تعتقد أنّها ستأخذك- لكن ماذا لو أخذتك إلى مكان ما آخر؟".

هزّ أرتيوم كتفيه وهو يبتسم قليلاً.

قالت غالا: "إنّ إدراكك يعيش منفصلاً عنك. أنت لا تبذل أيّ جهد، وعادة لا تدرك ما تفهمه. لكن إذا سئلت، ستبدأ بالإجابة، وفجأة يتبيّن أنّك تفهم كلّ شيء مرّة أخرى".

ابتسم أرتيوم مرّة أخرى- لقد كان سعيداً جداً بكلّ ما قالته، لكنّه كان يستمع أحياناً ليرى ما إذا كان هناك شخص ما قد صعد إلى السقيفة.

سألت غالا، ولكن ليس أرتيوم وإنّما نفسها: " أي سعادة أنت فيها لأنّك أتيت إلى هنا ؟". ولذلك لم يجب أرتيوم، رغم أنّه فكّر: "... هناك الكثير من

الناس الذين أتوا إلى هنا...". قالت: " يجب أن يكون لديك مكان... بجوار البحر، حتّى تغوص، وتخاف الشابات من أنّك غرقت أم لا".

أراد أرتيوم أن يجيب : "أنا أغوص هنا"، لكنّه لم يجبْ مرّة أخرى.

اختتمت غالا كلامها، وهي تنظر إليه مرّة أخرى: " لكن فهمك قد يعرقل فرحك، لذلك لا تفكّر في أيّ شيء. ما زلت لا أستطيع أن أقرر: هل أشرح لك أيّ شيء أم أتركك في حالة نسيان رائعة؟".

نظر أرتيوم إليها، وعضّ على شفته السفلية قليلاً. كانت قطرة عرق تتدحرج على رقبة غالا. أغمضت عينيها فجأة وعطست، وبعد ذلك ضحكت مباشرة.

أنصت أرتيوم مرّة أخرى لمعرفة: ما إذا كان هناك شخص قادماً إلى هنا.

قالت غالا، وهي ترفع إصبع السبابة إلى الأعلى: "كان سقف الكاتدرائية على شكل رقعة شطرنج: عندما بدأت تحترق، حملت الرياح القطع حتّى البحيرة المقدسة! فيرستا، على الأرجح! يقولون أنها كانت جميلة جداً... عندما أبحر الرهبان إلى هنا قبل خمسمئة عام، كان هنا مرج أخضر. وعندما أتينا نحن قبل خمس سنوات إلى هنا، كانت موجودة آثار الحريق".

فكّر أرتيوم بعيداً، وحتّى بحسن نيّة، دون أي استياء من مصيره: " إنّهم شيدوا المعبد، وأنتم شيدتم السجن".

قالت غالا: "أنا أعرف بماذا فكّرت".

كان أرتيوم متأكداً من أنّها لا تعرف، لكنّه مع ذلك خاف بعض الشيء: "...ستبدأ من جديد الآن" - قرّر بشكل غير محدّد.

"قال إيخمانيس: كان هنا سجن دائماً" - قال أرتيوم بشكل تصالحي، تحسّباً: ماذا لو أنّها كانت تعرف.

سألت غالا بسرعة، وكأنّها كانت تنتظر - لماذا أنت قلق بشأن إيخمانيس؟".

اندهش أرتيوم بصدق: "لماذا؟ لم أقلق".

"أنت تتذكّره طوال الوقت".

كادت أن تخرج من فم أرتيوم: "لا أتذكره، أنت نفسك تتذكرينه "- لكنّه صمت، وامتنع عن قول ذلك.

لم تستمع إليه غالا، وأسرعت تقول:" في أثناء حكم القياصرة- حسناً. هل تعرف من قام ببناء سجن جديد هنا؟ بعد الثورة؟ "الحلفاء"- إنّهم رفاق الحرس الأبيض: أرسلوا إلى هنا ممثلي الإدارة المؤقتة من أرخانغيلسك، اللذين بدوا بالنسبة لهم "حمراً" للغاية. أ؟".

كان الأمر بالنسبة لأرتيوم لا يهم تقريباً، لكن من الواضح بالنسبة لها، غير ذلك.

تحدثت غالا، عمّا كانت تريد قوله، على ما يبدو، منذ فترة طويلة: " يهينون الآن سبعة آلاف شخص هنا. وقبل ذلك، جلدوا روسيا بأكملها على مدار ألف عام! جلدوا الفلاح وجلدوه!"- اقشعر أرتيوم: بالتأكيد سيسمعونها الآن، كيف تشرح كلّ ذلك؟ هل هي تقرأ محاضرة على السجين غوريباينوف؟ كانت غالا تصرخ تقريباً:"لقد مرّت خمس سنوات فقط - ولكن على بال من يخطر الآن، أن يأخذ رجلاً بالغاً إلى الإسطبل، ويخلع سرواله، ويضربه بسوط على مؤخرته؟ هل فكّرت أنت بذلك؟ كيف نسي الجميع بسرعة كلّ شيء!".

قال أرتيوم بصوت مكتوم: "لكنّهم يضربون هنا بالعصا على الرأس". هذا أكثر شيء كان بإمكانه أن يقوله.

سألت غالا بتحدّ، وهي تزرّ عينيها المسعورتين:"وماذا في ذلك؟".

قال أرتيوم دون أن يفكّر بشيء، ولماذا يجب عليه أن يصمت الآن: "بدا لي أنّه لا ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو في ظل السلطة الجديدة":

صرخت غالا، بكلمات شخص آخر: "لم يجر الأمر كما كان متوقعاً!". كان وجهها غاضباً وغير مريح، لقد نهضت قليلاً بشكل، كما لو إنّها أرادت أن تضرب أرتيوم على وجهه، وتخدش خديه وعينيه إلى أن يخرج الدم منهما، حتّى يتألم ويتألم، ويتألم، أكثر منها.

وقف أرتيوم أيضاً. صرخت هي: "أنت!.."- ربّما أرادت أن تضيف كالمعتاد هنا، كلمة "...ابن آوى!" - لكنّها لم تفعل. أثارا الغبار بأقدامهما،

وأصبح التنفس مثيراً للاشمئزاز. "...حقير!"- فكّرت أخيراً، وضربته ليس بقبضتها، وإنّما كما لو بأظافرها، على صدره تحت كتفه الأيسر. صرخ هو تقريباً أيضاً: " توقفي!"- ومسكها من يدها، وسحبها نحوه، كان من الواضح أنّه أقوى، لكن اتضح أنها متماسكة أيضاً، في البداية قاومت، ثمّ فجأة وبغضب وبشكل جدي،عضّت معصمه بأسنانها. لم يستطع أرتيوم فعل أيّ شيء: لا يمكن أن يصرخ، أغمض عينيه، وكزّا على أسنانه، وتحمّل، كان مؤلماً حقاً، وخرج الدم على الفور من يده - لقد اخترقت أسنانها الجلد، إلى هذه الدرجة...

تراجعت غالا بحدّة إلى الوراء، أمسك هو معصمه على الفور بيده، وضغط على الجرح.

وقفت هي، بعيون لامعة: ماذا؟ هل فهمت؟ أنت تفهم كلّ شيء- حسناً، هل فهمت مرّة أخرى؟

لسبب ما، لم يكن هناك دم على شفتيها.

تنفّس أرتيوم من أنفه.

قالت غالا، بشعور عميق كأنّها تنتقم: "لقد أفسدني، ويثير حديثاً معادياً للثورة أيضاً".

نظر أرتيوم في صمت لدقيقة تقريباً، ثمّ ضحك: كان الأمر مضحكاً بالنسبة له بشأن الحديث.

حاولت أن تضحك هي أيضاً، لكنّها انفجرت بالبكاء فجأة. رأى أرتيوم دموعها لأوّل مرّة وخاف.

صاح: "غالا"، وعانقها، متوقعاً أن تدفعه بعيداً عنها، إلّا أنّها لم تدفعه، ولكن لم تحتضنه أيضاً. بكت بهدوء، ليس للاستعطاف، ولكن بثقة - كما لو كان عليها أن تبكي دفعة واحدة على الفور.

حاول أن يدير وجهها نحوه، استسلمت أخيراً، واستدارت.

قال لها فجأة، ومباشرة في فمها الذي تخرج منه رائحة دمه:

"أحبك".

سمعت، لكنّها تصرفت، كأنّ شيئاً لم يحصل.

ابتعدت قليلاً، ومسحت وجهها بيديها: لم يظهر الانزعاج عليه، ولكن لم يكن قد روّض بعد - ولكن مجرّد وجه.

قالت دون أن تنظر إلى أرتيوم، وهي تمسّد جفنيها المبتلة بالدموع، وتفرك خديها: " من أجل المرأة، يجب السعي، يا عزيزي. بالمناسبة، هل تذكر، يمكن إعدامك في أيّ يوم؟ وماذا سأفعل حينئذٍ؟ عندما أريد وشاحاً مزركشاً، وحذاءً مع أربطة، وبودرة "زغب البجع "؟".

قال أرتيوم بصوت منخفض مع التشديد على كلمة "أنت": " اسعي أنت، وبعد ذلك ستكون حياتك كلّها مثل زغب البجعة".

" لقد سعيت. كان من المفترض أن يكون الكاهن إيوان هو الناطور، لكنّك ذهبت أنت. أمّا الكاهن فيعمل ناطوراً في المستشفى، وينظف الفناء القريب منها".

كرّر أرتيوم:" حرريني - وسأعمل مثل آخر عبد".

أجابت ببساطة فجأة: "سأحررك "، ثمّ أضافت في اللحظة نفسها: "هل سنذهب إلى المسرح غداً؟ العرض الأوّل".

ودون انتظار إجابة، أخذت حقيبتها، وتوجهت إلى المخرج.

سأل أرتيوم، وهو يشعر بالضيق والخجل: "غالا. أين يجب أن أعمل؟".

أجابت دون أن تنظر إلى الوراء: " أنت ناطور؟ إذن إعمل ناطوراً، هذه مسؤوليتك". ثمّ غادرت، وبدأت تنزل الدرج بسرعة.

تبعها أرتيوم، بعد بضع دقائق. عندما بدأ يغلق باب السقيفة، كاد يصاب بجلطة - كان يجلس بالقرب من المدخل، على الأرض مشرّد "فهد"، نصف عارٍ، ترفّ عيناه، وبسبب الجوع والتوحش لم يعد يخاف من أيّ شيء. بدا بين كلّ هذه اللوحات المحترقة والقديسين الذين يغطيهم الشحّار، كأنّه شيطان طبيعي صغير.

"كش، اللعنة!"- لعن أرتيوم من الخوف، وكاد يسقط المفتاح من يده- لم يتحرّك المشرّد، ملأ فمه بكمية كبيرة من المخاط وبصق.

من غير المعروف ماذا كان يريد. هل كان يستمع، أم لا؟ لقد حصل الكثير هنا.

غادر أرتيوم بحذر مسرعاً: ربّما يقفز هذا الشيطان على ظهره فجأة.

غادره الخوف، بمجرّد أن رأى السجناء الكبار في النور: الجناة، المحطمون، النفايات البشرية - ناسه، أمر جيد.

سأل المناوب في الأسفل: " هل نظفت كلّ شيء، أيّها الشيطان؟".

أجاب أرتيوم من فوق كتفه: "اذهب وتفقّد. نظافة كما في غرفة أطفال".

خرج إلى الشارع، ورفع رأسه.

نافذتان في الكاتدرائية المحترقة.

لقد التقت نظراتها عندما دخل إلى قاعة المسرح. كان مكان أرتيوم بالضبط أمام غالا، في الصف الثالث.

خمّن أرتيوم: "لقد فعلت ذلك عن قصد. حتّى أفكّر فيها خلال العرض المسرحي بأكمله".

في اللحظة الأخيرة قبل أن يجلس، رفع أرتيوم عينيه، ورأى إيخمانيس في الشرفة الجانبية السفلية. لحسن الحظ، كان يتحدث مع شخص ما، ولم يلاحظ أرتيوم.

جلس أرتيوم بسرعة، وشعر برأسه يطن من اندفاع الدم. قاوم رغبته بصعوبة، في أن ينزلق بين الصفوف ويختبئ هناك.

في أثناء ذلك، لم تهدأ غالا. كان عليها أن تنادي لشخص ما، وبدا أنّها تشعر بعدم الارتياح من مناداته وهي جالسة، وقفت، وفي أثناء ذلك لامس فخذها مؤخرة رأس أرتيوم.

كان ذلك ممتعاً دون شك. لكن ليس أمام عيني إيخمانيس.

قام أرتيوم بإمالة رأسه قليلاً، لإفساح في المجال لغالا بالاستدارة بحرية، ولكن بمجرّد أن استقام وجلس منتصباً، شعر على الفور بيدها على كتفه، وفي

أثناء ذلك دغدغت مرّتين بسرعة رقبته بإصبعها الصغير. قالت وهي منحنية فوق لشخص يجلس أمامه:

"فرنكل، يبحث عنك إيخمانيس، اذهب إليه إلى الشرفة " - وبعد ذلك فقط سحبت يدها عنه.

نهض الرجل الذي كان يبحث عنه إيخمانيس بسرعة، واستدار، ولم يكد يومئ برأسه لغالا، تفحّص أرتيوم - بالضبط في اللحظة التي انزلقت فيها يد غالا عن كتفه - لاحظ هو هذه اليد، لكنّه تظاهر بعدم رؤية أيّ شيء، أدار وجهه إلى جهة أخرى، وطلب الإذن، وتحرّك نحو بداية الصف.

لقد كان قصير القامة، ولم يكد يمكن ملاحظته، لكن شيئاً ما في حركاته، في شفتيه المضغوطة بشدة، والرطبة قليلاً، كانت توحي أنّ الرجل ذو إرادة رهيبة وعنيدة.

سمع أرتيوم صوت إيخمانيس يصيح: "نفتالي أرونيتش، تعال إلى هنا، علينا أن نتحدّث بسرعة".

رفع فرنكل رأسه، وابتسم بحذر، ثمّ أومأ برأسه مرّة أخرى - ولكن بطريقة مختلفة قليلاً، بأسلوب عسكري.

بالتزامن مع فرنكل، سار مويسي سولومونوفيتش ببطء على طول الصف الأوّل. لقد لاحظ أرتيوم منذ فترة طويلة، ولوّح بيده له، بلطف غير عادي.

سلّم على الجميع تقريباً، بأساليب متنوعة، كما لو كانت تحياته هدايا تذكارية من الكشك - وكلّ شخص حصل على ما يخصّه.

بعد أن سلّم مويسي سولومونوفيتش على الجميع كما بدا، غنّى بشكل جميل: "... مارا، مارا، ماذا سأفعل عندما يقودونني إلى جزيرة سولوفكي! أنت سوف تستمتعين هنا بكل جوارحك، وأنا سأهلك، وأموت من الشوق...". كان أرتيوم متأكداً تقريباً أن هذه الأغنية تخصّه أيضاً: لإظهار مدا تأقلم جار أرتيوم التعيس السابق مع الوضع الآن - يمكنه أن يغنّي أغنية مشبوهة أمام رجال الأمن، ولن يحدث له شيء.

رأى أرتيوم، كيف ألقى فرنكل، نظرة خاطفة على مويسي سولومونوفيتش، وكان هناك نفور في هذه النظرة- لكن كان هذا النفور سريع لدرجة من المستبعد أن يكون لاحظه أحد آخر.

امتلأت القاعة بسرعة - جرى تصميمها لتتسع لخمسمئة شخص.

لاحظ أرتيوم بالمصادفة، أنّ فيولار وزوجته يجلسان بجانب بعضهما بعضاً: كانت أيديهما متشابكة، ويتطلعون إلى الأمام مباشرة، ويبدو إنّهما لا يريان أم يسمعان أيّ شيء.

جلس الجميع مختلطين بعضهم ببعض- جنود الجيش الأحمر والسجناء، لكنّ القيادات العليا كانت تجلس على شرفتين جانبيتين، وكانت الصفوف الأمامية مليئة بموظفي الإدارة والمديرين.

ولم يكن بالقرب منه أحد من السرايا التي كانت ترْسل إلى العمل العام- ولكن على بعد ثلاثة أماكن من أرتيوم، كان بورتسيف يتلمّس خده بإبهامه - " هل حلقت ذقني جيداً، أم لا ؟" - وبالقرب منه، على الجانبين، نصف صفٍّ تقريباً، كان يوجد الذين يطلق عليهم أرتيوم عقلياً، كلّ أنواع النجاسات من قسم المعلومات والتحقيقات.

فكّر أرتيوم دون الكثير من الارتياح : "على الأغلب، أنّ بورتسيف سيتبيّن كيف ظهرت هنا". كان من الأفضل أن تجلسه غالا في أبعد زاوية.

كانت من الممكن أن تجلس غالا في الصف الأوّل، لكن من هناك، كما خطر لأرتيوم، لن تتمكن من رؤية إيخمانيس.

وربّما أرتيوم نفسه.

أم أرادت رؤيتهما معاً في وقت واحد.

نظر أرتيوم إلى الستارة الرمادية المرسوم عليها نورساً أبيضاً. كان المعسكر كلّه مملوءاً بهذه النوارس، وقد اعتادهم منذ فترة طويلة، وعندما بدؤوا في فتح الستارة تذكّر: النورس نفسه كان رمزاً لمسرح موسكو للفنون.

لم يفهم على الإطلاق ما كان يجري في الدقائق الأولى من العرض: كانت غالا خلف كتفه، وبورتسيف ليس بعيداً عنه، وكان إيخمانيس على يساره... نظر أرتيوم بطرف عينه مرّات عدّة إلى هناك، إلى شرفة القيادة، ورأى أنّ فرنكل لم يغادر- ظل جالساً بالقرب من رئيس المعسكر. لقد رأى فرنكل هذا بشكل ما في اجتماع التفقّد - سجين عادي، لماذا يجلس هناك في شرفة القيادة.

ركضت فتاة ذهاباً وإياباً على المنصة وهي تلوّح بيديها، على ما يبدو ابنة التاجر الذي كان يجلس في المنتصف، ويمشّط لحيته بيده بانفعال، لدرجة بدت أنّها ستتساقط الآن.

ولا سيّما كانت لشلابوكوفسكي لحية، لم تكن موجودة في الأوقات العادية.

اتضح أنّ صوت شلابوكوفسكي، بعكس لحيته، كان حقيقياً، وجهورياً: يكفي لقاعتين- حتّى إنّه عندما كان يهمس، يسْمع بوضوح.

كانت المفاجأة الأخرى لأرتيوم، هي أنّ الجالسين حوله، ولا سيّما خلفه، لم يتابعوا العرض فحسب، بل كانوا يفهمون كلّ جملة ملتبسة بمعنيين.

سأل التاجر الشاب الذي ظهر على المسرح: "على ماذا تعوّل، قل من فضلك؟".

بالإضافة إلى البنات الأربع، كان لدى التاجر ولدان أيضاً - أصغرهما كان أوّل من ظهر للجمهور.

هتف الابن، وهو يستدير نصف استدارة نحو الجمهور: "أعطني حرية النوم، والتنزّه، وتناول الطعام عندما أريد!"- وسمع جواباً على ذلك قهقهة وهمهمة استحسان.

نظر أرتيوم حوله قليلاً، ورأى على الفور إيخمانيس الذي كان يضحك أيضاً، ويشير لفرنكل بيده إلى القاعة. أحنى فرنكل رأسه باحترام، لكن لم تكن هناك ابتسامة على وجهه.

لم يبتسم بورتسيف بالمناسبة أيضاً، لكنّه بدا كأنه يتفحّص باهتمام بنات التاجر. أغضبه الجمهور.

قال شلابوكوفسكي، بعد وقفة ضرورية: "لن يكون هناك نظام" - ابتسم إيخمانيس من جديد، وانفجر أحدهم ضاحكاً في الصفوف الأمامية.

بعد ذلك جاءت الأم، كما هي العادة في الأدب الروسي، رحيمة وهادئة، تحاول بكلّ ما في وسعها حماية أطفالها من مصير شرير وأبٍ يعاقب على الفور.

"كلّهم لدينا هادئون ومتواضعون": همست لأحد أبنائها، وهي تحاول حبس دموعها، وتشير بيدها بإيماءة واسعة، شملت القاعة أيضاً.

قاطعا ابنها، وكاد يشير إلى إيخمانيس: "بوجود الأب فقط ! وفي الواقع لدى الجميع سكاكين في عبّهم!".

ضجّ الحضور مرّة أخرى، راضين عن أنفسهم لسبب ما، وسمع صرير المقاعد، وساد انتعاش رائع - كما لو أنّ كل الموجودين في مبنى الطهي السابق، في الدير السابق، استعدوا للجلوس في الترام، بعد إسدال الستارة، أم حتّى في السيارة الخاصّة، والتوجه إلى حيث يريدون.

من الواضح إنّ إيخمانيس كان معجباً بكلّ ما يجري: لقد كان يصرف انتباهه عن المسرح، فقط عندما كانت القاعة تتجاوب بصخب مع كلام الممثلين.

صاح التاجر: " معه الحق!".

أجاب الابن البكر: "حقك، قضيب له طرفان!".

صرخ أحدهم له، بنفس نبرة صوته: "عصا!" - وأصبح ذلك سبباً لانفجار الضحك الذي خمد على الفور، لأنّ الجميع كان يحرص على متابعة كل ما كان يجري على خشبة المسرح، وكان التعاطف واضحاً وصادقاً.

لم يستطع أرتيوم أن يقول إنّ التمثيل كان لا يضاهى - لكن بلا شك، كان مسرحاً حقيقياً، وليس مسرح هواة.

من الواضح أنّ إيخمانيس لم يبخل على أدوات التمثيل: كان الأثاث في المسرح حقيقياً وقوياً كما في منازل التجار، والستائر المعلقة على النوافذ، يمكن أن يصنع منها حتّى فساتين، وفي نهاية المسرحية فتحوا الشمبانيا - حتّى إنّ الرغوة خرجت منها، وأعطت نكهة حقيقية.

صدّق الجميع ما كان يجري من أحداث على المنصّة بشكل كامل.

في المشهد الأخير، كانت بنات التاجر والابن الأكبر مع عروسه، واقفين وظهورهم نحو الجمهور، ويلتصقون بالنوافذ غير الحقيقية، وهم ينظرون برعب إلى الأب الذي أطلق النار على نفسه للتو- سمع خلف الكواليس، صوت إطلاق نار يشبه صوت إطلاق النار من مسدس حقيقي- ولمعرفة أنّ ما حدث خلف الكواليس لم يكن حقيقياً، وقف الكثيرون، ولا سيّما الذين في الصفوف الخلفية... في هذه الأثناء، كان هناك من يصفّق بالفعل، وهناك من كان يصرخ "برافو!"، أسرعت بنات التاجر إلى خلف الكواليس، لكنّهن ركضن عائدات على الفور، وهم يقودون شلابوكوفسكي من يديه- الحمد لله، لم يقْتل، وكان الجميع سعداء للغاية برؤيته، وإيخمانيس أيضاً. فقط فيولار الذي لم يكن يفهم كثيراً اللغة الروسية، نظر إلى خشبة المسرح بعيون مندهشة، دون أن يترك يد زوجته.

لم يستطع أرتيوم التحمّل والتفت إلى غالا، كما لو كان له علاقة بكلّ ما كان يحدث، ابتسمت، وغمزت له بكلتي عينيها كشخص قريب وعزيز ومحبوب. ارتبك أرتيوم، واستدار بسرعة، والتقت نظراته بنظرات أفاناسييف الذي كان ينظر من وراء المنصة، ممسكاً بيده خصلة شعره الحمراء، وبدا من خلال عينيه إنّه فهم، وهو ما لم يكن أرتيوم بحاجة له على الإطلاق.

... على الرغم من إنّه، ربّما بدا له الأمر كذلك.

عندما وقف الجميع استعداداً للخروج، ظهر أفاناسييف من جديد وصاح: "تيوما! تيوما، لا تخرج الآن".

معتذراً، دون أن ينظر إلى وجوه القادمين تجاهه، تحرّك أرتيوم نحو المنصة، محاولاً الابتعاد عن شرفة إيخمانيس.

احتضن أفاناسيف وأرتيوم بعضهما بعضاً، بصخب.

دعاه أفناسيف: "لنذهب، سأعرفك على شلابوكوفسكي!". لم يتح لأرتيوم في المجال ليجيب، فقد كان أفاناسيف المتورّد والمحمرّ يتكلّم بلا انقطاع. " هل رأيت كيف لعب دور التاجر؟ لقد راقبت إيخمانيس- حتّى إنّه كان يفرك يديه"- وأظهر أفاناسييف كيف فعل إيخمانيس ذلك.

لقد كان غوريباينوف في غرفة الملابس هذه.

قدّمه أفاناسييف: "هذا هو صديقي أرتيوم". مع العلم أنّ أرتيوم لم يتمكن حتّى من رؤية الشخص الذي يجري تقديمه له، بسبب كتف رفيقه. أضاف أفاناسييف بهمس واضح : "إنّه يعمل مع فيودور إيفانوفيتش".

اتخذ أرتيوم خطوة إلى الجانب أخيراً- ضحك شلابوكوفسكي بلا صوت، مرهقاً قليلاً: رفع ذقنه وفتح فمه، وزفر مرّات ثلاث.

فهم أرتيوم الآن، لماذا كان يضحك بهذه الطريقة- دون صوت. لأنّه إذا ضحك بصوته الجهوري هذا- فيمكن أن تنكسر الأطباق من شدّته.

أوضح أرتيوم: " نحن نعرف بعضنا بعضاً ".

ضحك أفاناسييف: "آه، يا للشيطان"، وأمسك بخصلة شعره، وتوجه إلى الطاولة، إذ جرى تقطيع السجق والجبن بسخاء، ما يكفي لصحنين، وكان الخبز بجانبهما، وكان أحد ما يحمل السماور، أمّا شلابوكوفسكي فقد قدموا له قدحاً به شيء أخضر خلسةً.

قال أرتيوم وهو يبتسم: "كان الأمر رائعاً، ومبهجاً".

رفع شلابوكوفسكي إصبعين، مشيراً إلى الشخص الذي أحضر له القدح: "أيضاً...".

ظهرت أقداح على الفور، مجموعة كاملة ترن، للممثلين الاثنين الذين لعبا دور الأبناء، ولأفاناسييف ولأرتيوم ولشخص آخر.

لم يكن هناك نساء، يبدو إنهنّ كنّ في غرفة أخرى لتبديل الملابس. حتّى كانت تسْمع أصوات نسائية أحياناً.

قال أحدهم كان يقف بالقرب من الباب: " إنّهم قادمون، إنّهم قادمون!".

أفرغوا جميعاً أقداحهم، وكؤوسهم، وأكوابهم في أجوافهم في الحال، وألقوا بها في السلّة التي وضعت على الفور.

عندما دخل إيخمانيس إلى غرفة الملابس، جرى إزاحة السلّة إلى تحت الطاولة. دخل فرنكل وبوريس لوكيانوفيتش خلف إيخمانيس.

كان أرتيوم يحاول الابتعاد، على أمل أن يتمكّن من الزحف إلى الزاوية البعيدة، والبقاء هناك دون أن يلاحظه أحد- لاحظ لحية شلابوكوفسكي، ومضت فكرة مجنونة له، أن يرتديها: سيكون شكله غريباً بلحية سوداء، ولكن دون شعر.. رأى أرتيوم فجأة، كيف ظهرت غالا في المدخل، متعمّدة الهدوء.

فكّر أرتيوم بوضوح: " يا للشيطان. ياللشيطان. ماذا تريد؟".

سأل إيخمانيس بوريس لوكيانوفيتش، مواصلاً الحديث الذي بدأه للتو: "والمسرح؟ هل رأيت الأعمال التي تقدّم على خشبة مسرحنا؟"- رجف شلابوكوفسكي، لكن لم يتنبه إليه أحد- "نصف الأعمال المسرحية التي تقدّم هنا، لا يمكن أن تعرض في البر الرئيسي. هل رأيت الرسوم الكركتورية في مجلتنا؟ والأوركسترا السيمفونية؟"- ابتسم إيخمانيس- "هل تعتقد أنّني لا أفهم أنّهم يعزفون موسيقا راخمانينوف الذي يكره روسيا السوفييتية وغادر البلاد ؟ والأوركسترا نفسها تعزف نشيد "وداعاً للأصدقاء": النشيد الذي أعرفه منذ صغري، لكنّه كان يسمّى آنذاك - "النسر ذو الرأسين(1)!".

أجاب بوريس لوكيانوفيتش بصوت عميق: "سمعت. أنا أعرف هذا النشيد أيضاً".

تابع إيخمانيس: "هل تعرف هذا التعبير: " النير هو نعمة لي"؟". أدرك أرتيوم فجأة، أنّ رئيس المعسكر كان مخموراً- لقد وجده بالفعل في مثل هذه الحالة. توجه إيخمانيس إلى شلابوكوفسكي هذه المرّة: "أم كما قال التاجر لعبتم دوره الآن؟". نهض شلابوكوفسكي على الفور، محاولاً أن يتذكّر ويفهم أيّ مقطع يقصد. اقتبس إيخمانيس من ذاكرته: "... أريد قبل كلّ شيء، أن أفكّر في أرواحكم...".

أنهى شلابوكوفسكي جملة إيخمانيس: "... يبدو لي أنّ فيها طمعاً، حدّ العداوة ".

قال إيخمانيس: "نعم، هكذا"- ودون أيّ توقف، استفسر ببشاشة: " أرتيوم، هل استلمت الأمتعة ؟".

---

(1) النسر ذو الرأسين، يرمز لروسيا القيصرية، ينظر إلى شرق وغرب روسيا. [المترجم].

أجاب أرتيوم: " نعم استلمت "، ونظر إلى إيخمانيس بعيون مستديرة تماماً، كما تهيأ له، من الخجل والرعب.

توجه إيخمانيس إلى الجميع: "حسناً، أجلسوا"، ثمّ التفت فوراً إلى فرنكل بسؤال هادئ: "هل جئتم بها؟". بدوره أعطى فرنكل، إشارة لشخص ما خلف ظهر غالا، من هناك، من فوق رؤوسهم، سلّمت زجاجات نبيذ - اثنان، ثلاثة، أربعة... قال إيخمانيس وهو يفتح ذراعيه على مداهما: " احتفلوا. كان العرض..." - شعر أرتيوم أنّ كلّ الذين شاركوا في العرض قد توقفت قلوبهم قليلاً، ولا سيّما شلابوكوفسكي الذي يبدو أنّه من أخرج العرض أيضاً... - "جديراً بمسرحنا".

دون أن ينبس ببنت شفة، استدار إيخمانيس، وسار ببطء نحو المخرج. سار فرنكل إلى جانبه، مزيحاً الفنانين الذين كانوا يقفون بطريقه بيده.

رأى أرتيوم كما لو أنّ غالا سمحت لإيخمانيس على مضض بالمرور، دون أن تنظر إليه، وفي الوقت نفسه، لا يمكن تفسير كيف كانت متوجهة نحوه تحديداً.

شاعراً بذلك إيخمانيس، مرّ بجانب غالا، كما يمرون بجانب مصباح كيروسين عاري، دون زجاج.

عادوا إلى غرفهم وهم مرحون جداً: شلابوكوفسكي ممسكاً بذراع أرتيوم، ووراءهم كان يخبط قدميه أفاناسييف بشكل عشوائي، وهو يغنّي، مع فترات متقطعة طويلة، إمّا إنّها ذات مغزى، وإمّا ببساطة لأنّه مخمور:

" ضمّ أيّها الجندي حبيبتك التي تنتظرك بقوّة!".

بدا لأرتيوم أنّ الشاعر كان ينظر إلى مؤخرة رأسه مباشرة عندما كان يغنّي.

"... هل خمّن حقاً؟ ولكن كيف؟".

أبلغ شلابوكوفسكي المجموعة، مشيراً بعصاه: "انظروا، لدى ميزيرنيتسكي ضوء. سنباغته الآن! أليس كذلك يا أفاناسييف؟ ما رأيك يا تيوما؟".

تذكّر أرتيوم الآن فقط : "آه، لدي عمل. لقد تأخرت كثيراً.

لوّح له شلابوكوفسكي بيده: "سينتظرك عملك. أنت تعمل لدى إيخمانيس، هكذا قال أفاناسييف. وإيخمانيس قال لنا: "احتفلوا!"، إذا سمحت، كان هذا أمراً!".

من الغريب أنّ أرتيوم وجد كلمات شلابوكوفسكي مقنعة.

تجاسر:"ماذا سيحدث؟ من سيسألني؟ العلماء؟ سأطعمهم جميعاً للأرانب...".

إلّا أنّ أفاناسييف تمنّع :

"لا، لا، أنا لا أذهب إلى هناك".

قال شلابوكوفسكي، وهو ينحني فوق الشاعر- كان أطول من أفاناسييف، وأكثر فخامة، وكان فارعاً عموماً: " أسمع! لم تذهب إلى هناك لأنّك كنت تتسكّع مع المجرمين فقط ، وكنت عملياً مستلق في القاع بين السرطانات و... العلق. لكن الآن- أنت ضممت إلى معبد الفن، ويمكن القول، لك الحق- في الصعود...".

أجاب أفاناسييف بحماس غير متوقع، ووقاحة: " كان لي الحق دائماً، لكنّني لست بحاجة للذهاب إلى هناك".

بمجرّد فتح شلابوكوفسكي فمه لينطق بمونولوج آخر، قال أفاناسييف "وداعاً!"، وذهب بطريقه- صفر فجأة، بشكل جميل، وصاح لبليك، وهرول معه بشكل دائري في الفناء، ملوحاً بالسجق الذي خبأه.

قال شلابوكوفسكي وهو يفكّر: "كان علينا أيضاً وضع سجق في جيوبنا". ولكن حسناً- سيقبلوننا دون شيء- لقد أطعمتهم بما يكفي".

يبدو أنّ المناوبين كانا على علم بالمكانة الخاصة لشلابوكوفسكي: لم يسأله أحد عن أيّ شيء – كان يدخل مبناه، كما كان يفعل قبل مدّة ليست بعيدة، إلى أفضل مطاعم موسكو، وبيتر بورغ.

كانا بالفعل بالقرب من غرفة ميزيرنيتسكي، عندما خرج من هناك فاسيلي بيتروفيتش.

قال متفاجئاً، بضجر، وقليل من الود: "أوه، ضيوف غير متوقعين... أمّا نحن فمنصرفون ".

سأل شلابوكوفسكي: " لم يتبق حتّى فطيرة من الفواكه؟" - ودخل بجرأة إلى الغرفة.

بقي فاسيلي بيتروفيتش واقفاً في طريق أرتيوم.

سأل فاسيلي بيتروفيتش، دون أن يتحرّك من مكانه: "ما الأمر؟".

"كنت في المسرح"- أجاب أرتيوم، ولم يدرك تماماً بعد الحالة المزاجية لرفيقه الأكبر سناً.

سأل فاسيلي بيتروفيتش بنفس النبرة: "وكيف؟".

أجاب أرتيوم بصدق: "لقد أعجبني كثيراً". وبما أنّ فاسيلي بيتروفيتش كان صامتاً، ويمكن اعتبار هذا الصمت انتظاراً، تابع أرتيوم: "... لقد لعب إيفان كوميساروف دور الابن البكر للتاجر، وهو قاطع طريق سابق، قام بسرقة بورصات العملة الصعبة السريّة، مستخدما رشاشاً- لكنّه يعرف كيف يلعب دور السيد النبيل جيداً" - ضحك أرتيوم وسأل- " ألم تذهب إلى هناك ولا مرّة؟ وبعد العرض، عزفت الأوركسترا المحلية مقطوعات عديدة.. مثيرة للإعجاب أيضاً".

" أوركسترا، يا للشيطان!"- حسب ما يتذكّر أرتيوم ، أوّل مرّة يشتم فاسيلي بيتروفيتش، متطلعاً جانباً إلى مكان ما- "كان لدى ملّاك الأراضي مسارح خاصّة بهم أيضاً! لماذا بحق إبليس كان يجب استبدال أحدهما بالآخر؟".

فكّر أرتيوم بأسف، لكن في الوقت نفسه بمرح:" لقد اتضح أنّني في موقف سخيف، غالا تعضّني لأنّني أتذكّر العصا، وفاسيلي بيتروفيتش يمزقني إلى أشلاء من أجل مسرح الأقنان. ماذا أفعل في الوسط بينهما؟ أنقلوني إلى حافتيّ من جديد...".

سأل فاسيلي بيتروفيتش بمجاملة ساخرة: " لمن الأعمال الموسيقية التي قدمتها الأوركسترا الرائعة لكم؟.

أجاب أرتيوم وهو يستنشق من أنفه: "راخمانينوف". لقد فهم كلّ شيء، كان عليه إنهاء الحديث بطريقة ما، لكنّه لم يعرف كيف- هل يتملّص ويذهب إلى ميزيرنيتسكي، أم إلى غرفته، أم عدم الذهاب إلى هناك، ويسرع إلى منشأة استخلاص اليود.

تظاهر فاسيلي بيتروفيتش أنّه تفاجأ: "رحمانينوف؟".

نعم. وأيضاً:"... النشيد الأممي، أيّها الموصوم باللعنة."

" وكيف؟".

قال أرتيوم:" عزفوا بشكل جيد".

واصل فاسيلي بيتروفيتش بشكل انتقامي: "سمعت، سمعت صوت البيانو هنا. جرى نفيه إلى سولوفكي أيضاً، وهو يغنّي من خارج النوتات. الصم فقط لا يمكنهم معرفة ذلك!..".

هزّ أرتيوم كتفيه- لكن كان من غير الممكن رؤية هذه الحركة في الظلام، وإلى جانب ذلك، لم يكن أحد يهتم بإيماءاته هنا.

تابع فاسيلي بيتروفيتش: "لو إنّهم استمعوا، لكانوا أدركوا على الفور: إنّ كلّ شيء من حولكم هو نشاز! نشاز وحكايات هراء! والبرابرة الذين يتحدثون بلغة غير معروفة، قرروا أن يعلمونا - نحن! - لغتهم البائسة! لقد سرقوا كلّ شيء - البلد، والحرية، والله... الآن هم يسرقون اللغة أيضاً - هذه الكلمات مكدّسة في رأسي، بارزة في الزوايا... " الموصوم باللعنة" - ما هذا؟ هل هي أوبرا من حياة الهنود؟ "دكتاتورية البروليتاريا"- ماذا تعني؟ ربّما طبخة؟ ممّ تصنع؟ "مكائد الوفاق" و"ربيع الثورة" و"مستقبل مشرق" و"ظلم القيصرية" و"صراع الطبقات"- ماذا تعني؟ أسماء زورق حربي؟ أيّ نوع من الرطانة ؟ هل تعرف معنى هذه اللعنات؟ في أيّ ظرف يمكن استخدامهم؟ هل يمكن أن تسأل بهذه اللغة: "كم الوقت الآن؟" أم لنقل الانحناء والقول: "صباح الخير!" من أجل ماذا أهدونا هذه اللغة المشوهة؟ "لجنة الطوارئ!"- آ؟ مقهى- أعرف. محل بيع المعجنات- أعرف. محل شرب الشاي - أعرف. ولكن الطوارئ- ما هي؟ هل هي أهم محل لشرب الشاي؟ أم أنّه لا يوجد أيّ عمل لدينا إلى حدّ الآن، وظهرت فجأة أشياء مهمّة كهذه - يا إلهي! فهي ليست مهمّة فقط، ولكنّها مهمّة طارئة! تجحظ العيون من شدة أهميتها! كلّ شيء جديد حولنا، في شقفة النسيج الحمراء- كانوا من قبل عرّابين، والآن قماش أحمر في كلّ مكان! حينها كانا وعاشا شير وماشير- وضموا لهما الآن أعداء الثورة... آمل أن يكون قد جرى إعدام ابنة التاجر في نهاية المسرحية؟ هل هي من الأعمال الدرامية الجديدة؟ عن المصاعب والاستغلال؟".

أجاب أرتيوم: "لا، هي عمل درامي قديم".

"باضبط !" - رفع فاسيلي بيتروفيتش إصبعه إلى الأعلى - "مسرحية قديمة! كلّ شيء حولنا مسرحية قديمة! قيل في أقدم مسرحية: " يجب ألّا يخاف المرء من الذي يقتل الجسد، ولكن لا يمكنه قتل الروح، بل يجب أن يخاف المرء ممّن يستطيع تدمير الروح والجسم في الجحيم". هل تعرف من هو المؤلف، أيّها السيد الرفيق أرتيوم؟".

استدار أرتيوم ليغادر، لكن فاسيلي بيتروفيتش أمسكه من كمه. كانت أصابعه حديدية.

بدأ فاسيلي بيتروفيتش يهمس له في أذنه؛ بدا أنّه كان مخموراً إلى أقصى حدٍّ، لكن لم تفوح منه رائحة كحول على الإطلاق: "ضابط الأمن، الذي رفع لأوّل مرّة العلم الأحمر فوق دير سولوفكي، جلس فيها بعد هنا كسجين. لم تفهم أيّ شيء حتّى الآن، يا أرتيوم؟ سيتم وضع الجميع في سجن هنا. وسيفنونهم هنا. الله قريب هنا، لا يدع الله الأطفال الضالين يبتعدون عنه. لا يترك هذا الدير قطّ ! كان هناك تمرّد عام ١٦٦٦ - قمعه إيفان ميشرينوف، وقام الرماة التابعون له برجم الرهبان بالحجارة، ونفذوا مذبحة هنا، ثمّ لم يجر دفن الجثث. وإيفان ميشرينوف نفسه سجن هنا! واليوناني أرسيني، الذي صحّح الكتب الكنسية - والذي بسبب ذلك بالتحديد تمرّد الدير - سجن أيضاً! وسجنوا جميعاً معاً! وأكلوا من وعاء خنزير واحد! وستجلس أنت هكذا: وصديقك إيخمانيس" - هنا بدأ فاسيلي بتروفيتش يتحدث محركاً شفتيه فقط - "وكلّ عاهراته، وأنت أيّها الأحمق معهم! هذا الدير - هذا الدير له أسنان! هل رأيت أبراج الحراسة فيه ؟ إنّها أنياب حجرية! سوف تسحق كلّ من إغترّ بنفسه!".

قال أرتيوم بوضوح شديد: "فاسيلي بيتروفيتش، اترك يدي. وإلّا فسأضربك".

وافقه فاسيلي بيتروفيتش، وترك يده بلين شديد: "نعم، بالطبع. ستضرب بالتأكيد. مضطر أن أخبرك قبل أن تغادر: طلب ميزيرنيتسكي ألّا تزوره الآن".

"ما الأمر؟" - لم يفهم أرتيوم.

"أنت مقرّب من إيخمانيس، أليس كذلك؟ وأنت فخور بذلك. وكلّنا سعداء من أجلك. لقد نقل إليّ أحد ممّن كنت تجلس في المسرح قبل برهة. يقولون أيضاً،إنّك كنت تشرب الفودكا مع إيخمانيس بعد منتصف الليل بكثير، وتناقشان قضايا هائلة. هذا شيء مبهج... لا زلت شاباً وحققت مثل هذا النجاح، أوه!.. لكن، مثل هؤلاء الناس، لا مكان لهم وسطنا".

صرخ أرتيوم تقريباً: "ما هذا ال..." - ولكن لوّح بيده، وركض تقريباً إلى الأسفل، في حالة من الغضب.

صاح فاسيلي بيتروفيتش وراءه: " ليس لك مكان هناك!".

تمتم أرتيوم بشكل محموم، وهو يصدر ضوضاء على الدرجات: "ما هذا بحق الجحيم!، أيّها الفريسيون[1]! فريسيون وحمقى بلا عقول! ميزيرنيتسكي نفسه عضو في الفرقة النحاسية! وشلابوكوفسكي يلعب في المسرح! وغراكوف موجود في الجريدة.. لكنّني، ليأخذهم الشيطان، حذرتهم من غراكوف، والآن ممنوع عليّ الدخول إلى هنا؟ عليّ! لأنّني حفرت الأرض مرتين لإيخمانيس، وجلست مرّة واحدة في المسرح بين الأوغاد من قسم المعلومات والتحقيقات ؟ ليذهب الجميع إلى الجحيم! لا أريد أن أعرفهم! وهذا الأحمق العجوز، أيضاً! دعه يجمع ثماره، حتّى يموت...".

حتّى إنّ أرتيوم توقّف، ولم يكد يتغلب على رغبته في الركض إلى الأعلى، سحب فاسيلي بيتروفيتش من أذنيه القديمتين ذات العروق الزرقاء، وإمساكه من ياقته ودق أنفه في الزاوية التي يتبوّل عليها القط.

... كان يجب أن أذهب إلى العمل، للعمل - هناك يمكنك أن تهدأ، أمّا هنا لا يوجد ما تفعله، و بشكل عام، من الممكن ألّا اتعوّد إلى هنا بعد الآن.

ركض أرتيوم بسرعة إلى نقطة الحراسة، ودسّ التصريح لجندي الجيش الأحمر، وكان يتحرّك مكانه بفارغ الصبر، بينما كان الحارس يحاول توجيه الورقة باتجاه نور المصباح.

---

(١) فريسيون هم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأوّل داخل المجتمع اليهودي في فلسطين يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية. ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين.

سـأل أرتيوم بصوت مخنوق من الغضب: "ربّما يجب أن أقرأها لك بصوت عالٍ؟".

قال جندي الجيش الأحمر: "ستعطي دروساً لامرأتك بصوت عالٍ، وسأل دون أيّ احترام:" أين نمت، أيّتها الفقمة ؟".

رمش أرتيوم عينيه، وسكت هنيهة، وسأل بغباء:

"م...ن؟".

طوى جندي الجيش الأحمر ورقة إذن الدخول أربع طيات، ووضعها في جيبه، وبصق جانباً بصوت عالٍ.

"الخروج من المعسكر ممنوع الآن. أنت متأخر ساعتين وبعض الدقائق. سأسلّم ورقتك في مبنى التحقيق صباح الغد. سوف تشرح لهم كلّ شيء. أمّا الآن اذهب إلى سريتك من هنا، وأبلغ قائدك بما قلته لك هنا. دعه يفكّر. لأنّه بسبب التغيّب عن العمل، سترسل إلى زنزانة العقاب على أيّ حال".

كزّا أرتيوم على أسنانه، وعاد إلى مبناه.

لو أنّه أرخى أسنانه للحظة، لكان سيعوي.

لقد رأى في منامه، هذه الليلة، مرّات عدّة شبه الهراء نفسه: كيف يذهب إلى غالا، يخبرها بالتفصيل عن تعسّف جنود الجيش الأحمر، تأخذ مسدساً، ويندفعان مسرعين معاً إلى البوابة، و- بوف! بوف! - الدخان يلف المكان، وجندي الجيش الأحمر ملقى على الأرض، ويلتقط أرتيوم بندقيته. الحارس الثاني، يخلع خوذته عن رأسه، ويضغطها على صدره، ويقع على ركبتيه.

لم يكن أرتيوم يرغب في أن تفلت منه هذه الرؤية التي تخيلها هو نفسه، لدرجة إنّه عضّ غطاء السرير بأسنانه. استيقظ وهذا الشرشف في فمه، مع صداع كحول سيئ - كما يبدو ليس من نبيذ أمس، مع أنّه، ربّما منه أيضاً.

كان لا يزال الصباح - وعلى الفور، بمجرّد أن فتح عينيه، عوت صافرة محطة توليد الكهرباء. اتضح الآن، أنّ الاستيقاظ ليس في الساعة الخامسة، وإنّما في السادسة، ولم يعودوا يوقظون بقرع الجرس.

بدأ أرتيوم ، وهو يشعر بضيق، وغثيان، في ارتداء ملابسه، لكن توقف بعد ذلك، فجأة.

سأل نفسه: "إلى أين أنا؟. إلى أين؟ من أجل أن يصرخ في وجهي رئيس السريّة؟ من هو؟ يجب أن أكون في منشأة استخلاص اليود، بشكل عام، ما الذي عليّ فعله أثناء التفقد؟ بمجرّد أن يتفرّق الجميع - سأذهب إلى غالا، ودعها تعيد لي التصريح... مجرّد ذلك! أيّ جحيم كان في رأسي في الليل! لم يحدث شيء!".

كانوا في الممر يجهزون الفطور، وتفوح منه رائحة الطعام. أخرج أرتيوم الصندوق من أسفل سريره بقدمه، وشطر قطعة خبز، وبدأ يأكل - دون أي شيء... ثمّ فكّر،وبحث عن الملح - وملّح قطعة الخبز، وأصبح طعمها جيداً تماماً.

فكّر أرتيوم: " لقد كشف المعسكر عن صفات جديدة في حدّ ذاته: اتضح أنّ هناك فرصة للموت ليس فقط خلال العمل بنقل الجذوع، ولكن الوقوع في فجوة معينة أيضاً، والاختفاء - وقد لا يلحظونك، وينسونك.

أنعش أرتيوم نفسه، وهو يقضم الخبز: "ولم لا؟. يوجد سبعة آلاف شخص هنا، هل سيأسفون لأنّ أحدهم سيبقى جالساً في غرفته؟ ألا يستطيع الباقون الاستغناء عنّي؟ ".

أجاب على نفسه بصوت مسموع : "سيستغنون"- وسقط على السرير. سحب الغطاء من تحته، وانسل تحته بالكامل. بقي لبعض الوقت في الظلام، يأكل ما تبقى من قطعة الخبز - لقد كان شعوراً جديداً وممتعاً. كما بدا له أنّه حتّى عندما كان طفلاً لم يأكل تحت الغطاء قطّ.

كان الجميع يعرف قادة السرايا والفصائل وقادة المجموعات والمناوبون، أنّ لدى أرتيوم عملاً خاصّاً، وأنّه ينام في الصباح.

قال أرتيوم لنفسه: "وها، سآخذ حاجتي من النوم!"- ونام حقاً.

... صحا أرتيوم محبطاً: كانت في الغرفة امرأة تتحدث باهتمام، بالتأكيد ليست غالا - كان صوت امرأة عجوز، وحنون، ومتسرّع.

لا يمكن أن يكون ذلك بالتأكيد. جلس أرتيوم على المضجع بسرعة.

صرخت المرأة من الخوف: "أوه".

لم تكن امرأة عجوز- كان صوتها يرتجف من الاضطراب فقط. كان مظهرها يوحي أنّ عمرها يتجاوز الخمسين بقليل، وبدت أصغر من سنها. حدّد أرتيوم على الفور، من خلال جبهتها العالية، ووجهها الطويل، إنّها أوّلاً، شخص مثقف، وثانياً، وهو الأهم، والدة أوسيب تروينسكي- الذي كان يقف أيضاً، غير راض تماماً عن وجود أرتيوم.

سألت والدة تروينسكي، وهي تبتسم لأرتيوم في نفس الوقت: "هل هذا جارك؟ ولكن بنظرة كما لو أنّ حيواناً غريباً، كان ينام على مضجع ابنها، ما يشبه فأر المسك الذي ربّما لا يتكلّم بلغة البشر.

قال تروينسكي:" دون شك. وكان يجب عليه أن يجد لنفسه مكاناً آخر، منذ وقت طويل.

أجاب أرتيوم، وهو يفرك عظام وجنتيه بقبضتيه:"نعم، أريد شقّة من طابقين في شارع بريتشيستينكا".

سألت والدة أوسيب، وهي لا تزال خائفة- "هل تتشاجران؟".

حتّى إنّ أرتيوم شعر بالأسف تجاهها، ولا سيّما أن تروينسكي المتأفف لم يرد.

أوضح أرتيوم، بلطف إلى حدٍّ ما "يتضايق أوسيب منّي طوال الوقت. برأيه ليس لي مكان هنا، وحيث نعمل، أنا أشكّل عبئاً عليه...".

أجاب تروينسكي: "حيث نحن نعمل"، مشدداً على "نحن"- "أمّا ماذا تعمل أنت هناك، إلى حدّ الآن لم أفهم".

نظر أرتيوم إلى والدة أوسيب : كما ترين، أنا أشرح لك ذلك.

اتخذت الأم موقفاً إلى جانب أرتيوم، بشكل غير متوقع.

قالت بحزم شديد: "أوسيب، لا يجوز ذلك. يعلموننا الآن أنّه توجد قوانين العيش المشترك - وأنت، على ما يبدو، سيتعين عليك الامتثال لها لبعض الوقت، حتّى يتوضّح كلّ شيء".

والمثير للدهشة، كان لذلك تأثير على أوسيب - على الأقل، كما لو أنّ درجة الحرارة قد انخفضت، واستمر في فعل ما كان يفعله حتّى الآن: نقل الأطعمة من أكياس والدته إلى صندوقه.

اقترحت المرأة: "من الأفضل، دعاني أطعمكما - اسمي إليزافيتا أفيريانوفنا، لدي بورش[1] - تدبرت أمري في كيم، طهيته وأحضرته معي إلى هنا. سخّنه المناوب هنا، أعطيته بيضة مقابل ذلك.

فكّر أرتيوم، موضحاً لنفسه بمكر رضاه الصباحي: "... شيء جيد، هذا بورش. وعلاوة على ذلك، يجب توضيح كلّ شيء لترويانسكي فيما يخص الأرانب... وإلّا فإنّ الأمر يبدو نوع من الهراء...".

" وأنا أسمي أرتيوم" - قدّم نفسه، ورفع الغطاء عنه، الأمر الذي أحرج المرأة للحظة - فيما لو أنّه لفظ اسمه، ورفع الغطاء عن نفسه فجأة، وظهر عارياً من تحت الغطاء؛ لكانت قد حدثت فضيحة. لكنّ أرتيوم كان ينام مرتدياً ملابسه، وحتّى الجوارب.

أوضحت إليزافيتا أفيريانوفنا لأرتيوم كأمّ، سبب سلوك أبنها، ببساطة: "إنّه لم يرغب قطّ في ركوب القطار - لأنّ هناك ناساً غرباء، فكيف هنا..." - وألقت نظرة حولها على الغرفة.

نظر أرتيوم حوله أيضاً: نعم، غرباء... يزدحمون...

في هذه الأثناء، كانت تفوح رائحة البورش، لدرجة أنّ أرتيوم، لم يعرف إلى أيّ مدى يسمح له احتياط إرادته، في منع نفسه من الرغبة في خطف القصعة المليئة بالبورش، والركض بها إلى الممر.

طلبت الأم بترقّب: "أوسيب؟".

---

(١) البورش: شوربة خضار مع اللحم.

أزاح تروبانسكي أخيراً الصندوق الذي يحتوي على احتياط من الطعام، والذي تضاعف ثلاث مرّات في الصباح.

قال بوقار، مشيراً إلى الطاولة: "نعم، أرتيوم، أنا أدعوك ".

جلس أرتيوم، باستعداد غير عادي، من جديد على أريكته، بالقرب من الطاولة.

قال أرتيوم بشكل رسمي، وهو ينظر إلى البورش، إذ تطفو قطعة لحم كبيرة منفوشة، بحجم نصف قصعة: "أوسيب، أريد أن أعترف لك. أخذ جنديان من الجيش الأحمر أرنباً واحداً بالفعل. لكنّ الآخر قتله القط".

صفق أوسيب بيديه:"لماذا بقيت صامتاً! كنّا اتخذنا الإجراءات اللازمة!"- حتّى إنّه ضحك، وهو أمر غير معتاد بالنسبة له بشكل عام- "هذا المحتال تعلّم التسلّق عبر نافذة السقيفة، هل يمكنك أن تتخيّل ذلك؟ لقد خنق أرنباً آخر اليوم. كنّا مستعدين لقتله! لكن لا أحد وسطنا، للأسف، قادر على ذلك".

سألت إليزافيتا أفيريانوفنا بابتسامة: " عمّا تتحدثون؟"- ووضعت القشدة الحامضة في البورش.

تراكم الكثير من اللعاب على الفور في فم أرتيوم، لدرجة أنّه لم يستطع الكلام.

لقد ثمل أرتيوم من الملعقة الأولى، كما لو أنّه شرب الفودكا الرائعة، والحارقة في جرعة واحدة، على المائدة القيصرية، ثمّ قام القيصر نفسه بتقبيله بحماسٍ، لنقل، على جبهته.

تعرّق أرتيوم، وأصبح سعيداً تماماً، حتّى آخر وريد فيه في الوقت نفسه. أراد أن تطول وتطول هذه السعادة.

لم يكن هذا البورش مجرّد طعام- لقد كان استيعاب للطبيعة واستيعاب للذات، واستمرار للإنجاب، والبحث عن الذات الإلهية، واكتساب السلام الداخلي، والبهجة الحماسية لجميع القوى البشرية الموجودة في الجسد الحار والمزدهر، والروح الخالدة.

أكل كلّ واحد منهما صحوناً ثلاثة مليئة، حتّى أصبحت الصفيحة فارغة.

كاد أرتيوم يعض ملعقته، ثلاث مرّات.

في هذه الأثناء، أخرجت إليزافيتا أفيريانوفنا حلاوة من أكياسها - التي تنبعث منها رائحة حلوة وهادئة، تشبه أنقاض معبد بوذي منهار، مغطى بغبار السكر.

بعد أن شرب من حافة الصحن آخر ما تبقى فيه من البورش، والتقط ورقة ملفوف بأصابعه، مدّ أرتيوم يده الأخرى إلى الحلاوة، وفعل أوسيب من جانبه الشيء نفسه.

لقد كسرا هذا المعبد بأيديهم الأربع، وبدءا على الفور بأكل حطامه المتداعي. شعر أرتيوم بالملح والدهن وسحر الحلاوة اللزجة والبهجة والنشوة على شفتيه.

أكلا بعد الحلاوة أيضاً، ثلاث صمونات طرية وشهية، مع مربّى التفاح المصنّع في البيت وأخيراً شبعا.

سألت إليزافيتا أفيريانوفنا بحذر: "كيف تعيشون هنا، أخبروني الآن". كان من الواضح أنّه تجمّع لديها مئة أم حتّى ألف سؤال، لكنّها طرحت الآن سؤالاً واحداً لكلٍ منهما فقط.

تذكّر أرتيوم: " كان يجب أن تأكلي أنت شيئاً ما ". اسمحي لي أن أغلي أبريق الشاي.

قال أوسيب: لا داعي، لقد أحضرت الترمس..."، وأخرج الترمس من حقيبته، وفتحه، وشمه: " دافئ... بما يكفي".

أشاد أرتيوم باوسيب: "لقد صنع هذا الترمس بنفسه".

قالت إليزافيتا أفيريانوفنا، وهي تمسح الأكواب: "لقد كان يخترع دائماً. حتّى عندما كان في المدرسة...".

قاطعها أوسيب فجأة: "لم تكن هنا حياة عميقة للعقل في أيّ وقت من الأوقات". نعم، كان هناك جمعية تعاونية، إدارة محلية مشتركة. كان يظهر المسيح؟

ربّما. لكن الفكر الروسي كان نائماً دائماً هنا - يوجد صخور في كلّ مكان فقط، فأيّ فكر يمكن أن يكون. ولن يستطيع إيخمانيس إيقاظ هذا الفكر: إنّ كلّ ما يفعله تصنّع.

زمّ أرتيوم شفتيه بشكل مقصود، ونظر باهتمام إلى الباب.

نظرت إليزافيتا أفيريانوفنا إلى ابنها بابتسامة، ثمّ إلى أرتيوم بعد أن توقفت عن الابتسام، وبعد ذلك ، إلى أوسيب، بعيون فيها توسل وحزن.

قالت إليزافيتا أفريانوفنا: "لكنّك تعمل، وبنجاح كبير".

سأل أوسيب: "هل تعلم يا أرتيوم، أنّ سولوفكي تشبه في الشكل إفريقيا؟". على ما يبدو، كان لديه نوع من الصراع الداخلي المستمر مع والدته، ممزوجاً بشدة بالعشق - "ألم تلاحظ؟ سولوفكي هي صورة طبق الأصل عن إفريقيا. ونحن هنا عبيد سود لدى البلاشفة".

قالت الأم بصوت منخفض، وهي تحاول أن يكون كلامها ذا أهمية، وأن يسمعه ابنها، ولكن لسبب ما وجهت حديثها إلى أرتيوم: "تحدّث معي فيودور إيفانوفيتش اليوم. يقول فيدور إيفانوفيتش أنّ أوسيب يحتاج إلى أن يذهب في مهمّة عمل، من أجل أن يواصل عمله العلمي. وهو مستعد للسماح له بالذهاب - بناء على كلمة شرف منّي".

هتف ترويانسكي على الفور، كما لو أنّه فكّر بالإجابة مسبقاً، وبسخرية شديدة: " يعجبني ذلك. أنا هنا معلّب. عمليّاً لا يوجد عمل ذو أهمية. والآن كاللحوم المعلبة سيضعون الطبعة، ويقولون: " طير يا طائر!" سوف أطير قليلاً، ثمّ أعود، وسيعلبونني مرّة أخرى. كم هو رائع يا أمي".

فكّر أرتيوم مبتسماً، وهو شارد الذهن: "لماذا يغْضب والدته، يا له من أبله... يفسد مثل هذا الغداء ".

كانت إليزافيتا أفيريانوفنا تنظر إلى أرتيوم من وقت لآخر، كما لو كانت تحاول الابتسام أيضاً، وهي تنظر طوال الوقت، وغير قادرة على الانتظار، عندما يتحوّل كل ما يجري إلى مزحة.

تابع ترويانسكي، وعلى ما يبدو، شاعراً بالمتعة من جرأته، وإن كان ذلك أمام والدته: "أقتبس إيخانيس، منذ فترة، لن تصدقا ذلك، من رسالة بوشكين إلى جوكوفسكي. يكتب بوشكين... الآن..." - وحرك ترويانسكي أصابعه في الهواء، متذكراً - "... تنبعث من هذه النكتة رائحة الأشغال الشاقة. أنقذني، إلى القلعة، أم على الأقل إلى دير سولوفكي". هل تعلم لماذا أقتبس ذلك ؟ لأنّه، يعتقد بصدق أنّه ينقذنا. يأكلنا – هكذا ينقذنا!".

نظر ترويانسكي إليهما، كما لو كانا على وشك الانفجار من الضحك، لكن لسبب ما لم يضحكا.

لم يلمس أحد الشاي. كان على المنضدة، بارداً، دون أدنى بخار.

تذكّر ترويانسكي فجأة: "أمّا المتاهات، يا أرتيوم؟ هل تعلم أنّه يوجد متاهات هنا في جزر عدّة مبنية من الحجارة؟ ليست كبيرة بطول الإنسان، ولكنّها صغيرة، بارتفاع حجر واحد - حتّى بالنسبة لقطٍّ، ستكون مثل هذه المتاهة صغيرة. أعتقد أنّ هذه المتاهات قديمة جداً. على الأرجح - القرن الخامس قبل الميلاد. في البداية بنيت من قبل الجرمانيين، ثمّ اقتبسها شعب سامي قديم... لا يهم. لا أحد يعرف الغرض منها... لقد افترضت أنّه يوجد مدفن في وسط كل المتاهة. والحجارة المرصوفة، هي طرق صعبة حتّى لا تستطيع روح المتوفى الخروج إلى الحرية".

نظر ترويانسكي مرّة أخرى إلى والدته، لكن عبثاً توقّع أن تفهمه - كانت مجرّد امرأة. حاول أن يجد اهتماماً من قبل أرتيوم، لكن أرتيوم دحرج قطعة حلاوة صغيرة على الطاولة.

لذا، اختتم ترويانسكي حديثه بشكل حاسم: "أصبحت سولوفكي الحالية مثل هذه المتاهة. يجب ألّا تخرج روح واحدة من هنا. لأنّنا نحن - أموات. والآن يخرجون روحي المدفونة هنا من المتاهة. فيودور إيفانوفيتش الطيب والوصي، والقيّم، والرحيم. أمي، ألم تطلبي بعد إقامة قداس إلهي على شرفه حتّى الآن؟".

رمشت إليزافيتا أفيريانوفنا، كما لو أنّ ابنها قد أمسك بها، وهي تقوم بعمل قبيح - على سبيل المثال، دخل غرفته، في الوقت الذي كانت تقرأ فيه مذكّراته هناك.

ابتسم الابن لاوياً حنكه، بمعنى: كلّ شيء واضح يا أمي، كلّ شيء واضح.

"أرفرف بجناحي على طولها، وسأحلق فوق البر الرئيسي، وأستنشق بعمق رئتيّ..." - سعل تروويانسكي فجأة، قامت والدته بحركة لمساعدته، لكنّه أوقفها بحركة من يدهو بمعنى لا داعي. تابع، وهو يسعل، ويفرد ذراعيه قليلاً مثل طائر: "سأحلق، وبساقي مربوط سلك طويل غير مرئي، يبلغ طوله ألف فيرست. وحالما تظهر رغبة لديهم - وأنا في منتصف الكلمة... أم في منتصف الصياح - قاق! - يسحبوني للخلف.

كرّرت الأم من جديد، بهدوء وبشكل واضح: "لقد ناشدت، يا أوسيب، جميع الجهات، ومن الممكن مراجعة القضية".

قال تروويانسكي، كأنّه أصمّ: "والأهم، ألّا تتحدث لأحدٍ هناك بما يحدث هنا. أنا كالطائر، أبدو حرّاً، لكن عليّ أن أبقي منقاري مفتوحاً قليلاً.

فكّر أرتيوم في انزعاج شديد: " لقد شبعت، أيّها الباشا الصغير، وبدأت تزعج والدتك".

همس تروويانسكي، بثقة وقسوة: "كنت لأتحدث، نعم. أم على الأقل أسرد. حساء الكلب! أكياس حجرية! إنّهم يطلقون النار علينا! إنّهم يضعوننا في زنازين جليدية!".

قاطعه أرتيوم بشكل غير متوقع، مصعّراً وجهه، ولأوّل مرّة يتكلم مع تروويانسكي بصيغة المفرد (أنت بدل أنتم):"... من سجنك، لماذا تكذب. يريد الجميع أن يتحدث عن الزنازين الانفرادية، إذ لا أحد منهم سجن فيها ولا مرّة واحدة- لكن لا أحد سيتحدث عن أنّ السجناء هنا يذهبون إلى المسرح، ويتجوّل السياسيون في جميع أنحاء الجزيرة، ويتمشّى أعداء الثورة بطرابيشهم وأحذيتهم الجلدية اللامعة، وهم يأكلون السكاكر. لو أنّك تشفق على أمّك".

فتح تروويانسكي عينيه المتفاجئتين، ونظر إلى أرتيوم لدقيقة، دون أن يرمش.

اختتم فكرته الطويلة والمعقّدة بصوت مسموع: " ديماغوجي، وفظ، وعبد. اذهب من هنا. سيطعمونك هناك، السكاكر بأيديهم".

سارع أرتيوم إلى الشارع، وهو يمسّد يده برفق، لقد ضرب ترويانسكي على شفتيه، كما أراد، فألقى ترويانسكي رأسه إلى الوراء بقوّة، لدرجة أعتقد: أنّ رقبته انكسرت! - تدلّى رأسه بشكل حاد دون إرادة منه، وإلى جانب ذلك، اصطدمت مؤخرة رأس أوسيب بالجدار الحجري. شهقت الأم، وأوقع شخص ما الصفيحة التي كان يوجد فيها البورش، وفي الوقت نفسه، سمعت رصاصة بوضوح شديد في الشارع، ورداً على ذلك صدرت رصاصات عدّة...

كرّر أرتيوم: " تسو تو بيندزي، تسو تو بيندزي"- محاولاً أن يتذكّر أين سمع هذه العبارة... وتذكّر: قال لي ميتيا شلكاتشوف إنّه في طفولته كان يقلّد هكذا بتهكم البولنديين الذين كانوا يعيشون في البلدة المجاورة. وتعني" تسو تو بيندزي": أنّ شيء ما سيحدث ".

ركض باتجاهه من الأسفل، جنود الجيش الأحمر، مثيرين ضجة فظيعة، انحنى أرتيوم نحو الحائط للسماح لهم بالمرور، لكن اتضح أنّهم أتوا مسرعين من أجله. لقد ضربوه بشدّة على صدغه مباشرة، وأمسكوه من رأسه على الفور، خادشين جلدة رأسه، ودفعوه من على الدرج إلى الأسفل:

" اخرج، ابن آوى! إلى اجتماع التفقد في الساحة!".

تدحرج أرتيوم على رأسه، وجرح وجنته في الدرابزين الحديدي، ويبدو أنّه خلع ذراعه.

حاول فهم ما يجري بكلّ قوته: "لماذا تفعلون ذلك معي؟ لماذا؟".

كان أرتيوم يسأل، وهو ينهض بصعوبة، ويشعر بالدم يسيل على وجهه: " هل سيضربونني، ويقتلونني أمام المجتمعين؟ أمام الجميع؟ وغالينا؟".

لكنّ أرتيوم لاحظ في الأسفل، عند الباب، أنّه جرى إخراج الجميع من الغرف، ودفعهم إلى الشارع أيضاً بالضرب، والشتائم، والتشويه، والكسح.

كانت الساحة بالفعل مكتظة بالسجناء- العشرات... وبعد قليل تجمّع المئات، جرى إخراجهم من السرايا وإمّا ساقوهم من أقرب مواقع العمل، ومن

الميناء، والسكك الحديدية الضيقة، ومن المباني الإدارية، والمغاسل والمطابخ، وورش النجارة، والحرف. وركض العديد من الموسيقيين، مع أبواقهم من الخوف، وأحدهم مع كمانه... أخرجوا الممثلين الذين كانوا يتدربون على شيء تاريخي إلى الشارع- وقف شلابوكوفسكي في البداية وعلى رأسه تاج، ثمّ خلعه وأمسكه في يده، لا يعرف أين يضعه. وازدحم بالقرب منه الوصفاء في سراويلهم المضحكة.

بدأت السماء تمطر، ووضع شلابوكوفسكي التاج على رأسه دون تفكير- كأنّه يستطيع إنقاذه من المطر.

وقف أرتيوم ضمن صفوف الذين جرى ضربهم، ينظر حوله من تحت حاجبيه، ويبتعد عن الحراس المهتاجين، ورؤساء المجموعات الذين كانوا يضربون بعصاهم من يقع تحت أيديهم باستمرار. لقد وقف في الصف الثاني- إذ من الصعب الوصول إليه، لأنّ الصف الأوّل كان يجري ضبطه، بقبضات اليد والعصي إلى ما لا نهاية، ويجري رصّ الصفوف الخلفية بنفس القدر من الضرب لضبطهم بالشكل المطلوب أيضاً.

... كان هناك من يصرخ، ومنهم من كان يبكي، ومن كان يعوي، وهناك من كان يسأل بشكل هستيري: "من أجل ماذا، يا رئيس؟".

كانت الصرخات الهستيرية للنوارس معلقة فوق الجميع- ومن خلال هذا الصراخ، كانت تعلوا أقذع الشتائم والمسبات الفاحشة البشرية، ومن خلال البكاء والزئير، ومن خلال صوت المطر الذي اهتاج على فناء سولوفكي، سمع أرتيوم الشيء الأكثر أهمية أخيراً:

"أطلق ميزيرنيتسكي النار على إيخمانيس!".

لم يفهم أرتيوم:"هل جنّ؟. لماذا؟".

سألوا على الفور بهمس، وهم يديرون رؤوسهم السوداء المتشابهة المتسخة:

" قتله ؟ لم يقتله؟".

لم يكن من الواضح ما هي الرغبة التي تكمن في هذا السؤال: أمل سري بموت إيخمانيس، أم على العكس من ذلك، الرغبة الشديدة في أنّ كلّ شيء على ما يرام، لأنّ موت رئيس المعسكر كان يعني موت الجميع على الفور.

فوجئ أرتيوم فجأة: "كيف لم ألاحظ!..".

كان ميزيرنيتسكي ممدداً في وسط الميدان جثة هامدة. أطلقوا النار على وجهه، لأنّ أحد خديه لم يكن موجوداً، ثمّ أطلقوا النار عليه، في ظهره. كان مستلقياً في بركة من الدماء، وكان بلاك ينبح في مكان قريب- ولم يكن من الواضح من يطرد: جنود الجيش الأحمر، أم السجناء، أم الموت...

عندما امتلأت الساحة بالناس، طار إيخمانيس مباشرة على ظهر حصانه إلى البوابة الجنوبية التي كانت مغلقة دائماً.

خلع رجال الجيش الأحمر أسلحتهم عن أكتافهم، جاهزين لأيّ أمر.

صمت الجميع.

كانت الأرض مليئة بالفقاعات المطرية، كما لو أنّها كانت تغلي.

قام المطر بجولة أخرى، وذهب إلى مكان ما تحت الأسطح الحمراء، والتفّ حول المسلّة الخضراء لكاتدرائية التجلّي...

كانت النوارس فقط تصرخ، وتسكب باستمرار فضلات على المجتمعين. لم يكن أحد يمسح ما يقع عليه.

صرخ إيخمانيس في قمّة الغضب: "على الركب!"، وسحب سيفه من غمده.

خرّت الصفوف، كما لو أنّه جرى قطع أوتار الجميع دفعة وحدة- آلاف عدّة من الأوتار، بشفرة واحدة لا ترحم.

جلس الجميع على ركبهم، رجال الدين، والفلاحون، ولصوص الخيول، والبغايا، وميتيا شيلكاتشوف، وقوزاق الدون، وقوزاق الأورال، وقوزاق تيريك، وكوتشيرافا، والملالي، والصيادون، وغراكوف، والنشالون، وأصحاب

الأعمال الخاصّة، والعمال، وفرنكل، ولصوص المنازل، ولصوص خلع الأقفال، والوثيقة، والحاخامات، وسكان الشواطئ، والنبلاء، والفنانون، والشاعر أفاناسييف، والرسام براز، ومشترو البضائع المسروقة، والتجار، وأصحاب المصانع، والخيشوم، والفوضويون، والمعماديون، والمهربون، والكتبة، ومويسي سولومونوفيتش، وأصحاب بيوت الدعارة، وشظايا العائلة القيصرية، والرعاة، والبستانيون، والسائقون، والفرسان، والخبازون، ورجال الأمن المذنبون، والشيشان، والبلطيقيون، وشافيربيكوف، وفيولار وأميرته الجورجية، والدكتور علي، والممرضات، والموسيقيون، والحمالون، والعاملون في الدير، والحرفيون، والقساوسة، والمشردون، الجميع.

كان إيخمانيس يرتدي قميصاً فقط، ولم يكن يبدو أنّه يشعر بالبرد- على الرغم من أنّ البخار الجليدي كان يتصاعد من الأرض، وكانت تصطك أسنان الكثير من الموجودين، غير قادرين على الصبر، وكانوا يتّكئون بأيديهم على الأرض، كما لو أنّهم في بحر هائج.

تمكّن أرتيوم من ملاحظة، أنّ ترويانسكي لم يرغب في أن يركع على ركبتيه، وعلى الفور تلقّى ضربة بأخمص بندقية على مؤخرة رأسه... وهو الآن يستلقي على بطنه، وراء الصفوف... من غير المعروف أين بقيت والدته.

ركع بورتسيف على ركبتيه أيضاً، ثابت بوقار، نصف مغمض العينين، كما في أثناء قسم اليمين.

فكّر أرتيوم، وهو يتنفس بشكل متقطع، ويحوّل نظره من بورتسيف إلى ميزيرنيتسكي: "إذن من هو المهرّج الآن؟..".

لم يلاحظ أرتيوم نفسه، كيف ركع.

وأدرك فجأة، بعد دقيقة واحدة فقط ، أنّه يركع هو أيضاً، مع الجميع هنا، ويلعق المطر من على شفتيه، ويريد شيئاً واحداً فقط - الحياة.

على الرغم من أنّ هناك شعوراً مدهشاً كان يعيش فيه: إنّ كلّ من كان جاثياً الآن على ركبتيه، مذنبون، وهو وحده فقط- ليس من أجل أيّ شيء: ببساطة لا يرغب في عدم الطاعة، ومستعداً لتقاسم الذنب المشترك.

طار إيخمانيس على حصانه على طول الصفوف، دون أن يقول أيّ شيء- بشراسة، وسيفه مجردٌ من غمده.

كان الحصان تحته متهللاً ويشخر.

كان الخوف الذي انتشر في أثناء طوافه حقيقياً، وكاد يكون مرئياً: هذا الخوف كان يمكن تقطيعه إلى أجزاء، إلى جانب الناس.

لم تعد النوارس تصرخ فحسب، بل تقلّد أصواتاً بشرية أم حيوانية.

عرف بلاك الكلام المفهوم بالنسبة له، ونبح فجأة بشراسة، رداً على ذلك - ونبحت النوارس عليه.

قطع إيخمانيس سلسلة غير مرئية بسيفه- وفي اللحظة نفسها، انتقل المطر من حول المسلّة، إلى فوق الرؤوس متساقطاً بقطرات كبيرة، بحجم الثمار.

همس أحدهم بجوار أرتيوم: " أصبح شيطاناً".

يبدو أنّه صوت الأب إيوان.

حاول أرتيوم رفع عينيه، ليتطلع إلى الأعلى.

وضربت قطرة مطر ثقيلة، نؤبؤ عينه بالضبط.

الكتاب الثاني

طارت آخر النوارس بعيداً عن الجزر، وأخذت معها فراخها، إذ نما الريش المرقّط عليها، وأصبحت وقحة في فصل الصيف.

كان صيف هذا العام، على الرغم من سقوط الأمطار الباردة في فترات متقطعة، طويلاً على نحوٍ غير متوقع، وتأخرت النوارس قليلاً في هذه الجزر، وتنعّمت، على الرغم من أنّهم يقولون، كانوا يغادرن الجزر في شهر آب، بعض الأحيان.

سأل أفاناسييف: " هل يحدث أن تغادر النوارس قبل الشتاء- ولا تجد طريق العودة؟ تتوقف في الربيع المقبل في مكان ما في ياروسلافل... أم حتّى في الكرملين في موسكو. ويقولون: ليس الأمر سيئاً في هذه الأماكن، دعنا نبق هنا، ونصرخ!".

ضحك أرتيوم، وهو يشمّ غصناً صغيراً مقطوعاً من شجرة صنوبر: لم تكد تصدر رائحة منه. ومن الغريب حتّى الزهور هنا لا تصدر منها رائحة في الربيع، ولا من الأشجار في الخريف. بدا أنّ سماء سولوفكي الضخمة تمتص كلّ الروائح، ولا تترك سوى دوار رأس خفيف.

تنظر في بعض الأحيان إلى اليسار، ثمّ إلى اليمين - ولكن يبدو أنّ كلّ شيء هو نفسه في كلّ مكان، إذ تدور حولك السماء ذات الغيوم المتعدّدة الألوان، وكأنّك تقف وسط دوامة أطفال، مذهولاً.

كانت الغيوم الأكثر تشبعاً هنا دائماً، كما لو أنّها لم تمتص جميع ألوان سولوفكي فحسب، بل امتصّت الروائح أيضاً.

واصل أفاناسييف حديثه: " تخيّل فقط. كنت طوال هذا الوقت على يقين من أنّ مثل هذه النوارس القذرة، لا يمكن أن تكون إلّا في سولوفكي. يجب أن يكون في هذا المكان الملعون، كلّ شيء ملعونٌ. هنا فقط يمكن العثور على هذا الطائر السيئ، بطبيعته الجشعة والأنثوية الوقحة. لكن فيما لو طارت بعيداً، فهذا يعني، أنّ هناك مكاناً آخر من هذا القبيل على الأرض، إذ يصرخون أيضاً من الصباح إلى المساء، ويعذبون بعض الأشخاص التعساء بصرخاتهم. وأين يمكن أن يكون هذا، يا أرتيوم، أين ؟ في إفريقيا؟".

نظر أرتيوم بجدية في عيون رفيقه، كما لو كان يوشك أن يجيب، وانتظر أفاناسييف في المقابل، متوقعاً أن يوضحوا الأمر له. بدلاً من ذلك، ضحك أرتيوم. لا، كان لا يزال سعيداً جداً بأفاناسييف.

وافق أفاناسييف: "حسناً". كانت العفاريت ذات الشعر الأحمر، تتأرجح على المراجيح في عينيه: "أم ربّما هناك جانب آخر من العالم، إذ يظهر كلّ شيء بشكل مختلف؟ ولهذه النوارس هناك طبيعة ملائكية؟".

وافق أرتيوم: "نعم - نعم. يوجد معسكر هناك أيضاً، إذ يأتي كوتشيرافا إلى السريّة مع صفيحة حليب دافئ، ويسقي الجميع بيديه، من فنجان أبيض.

وهنا انفجر أفاناسييف نفسه ضاحكاً.

أوضح أرتيوم بعد أن شبع ضحكاً: "في الواقع، وجدوا حلقة على مخلب أحد النوارس، كتب عليها روما. إنّهم من روما".

اهتم أفاناسييف بالأمر، وأمسك كعادته بغرته الحمراء: "ماذا تقول ؟ معقول...".

لسبب ما تفاجئ بذلك. لكنّه أعطى اتجاهاً جديداً لفكرة مهوسةٍ.

اقترح أفاناسييف: "دعنا نواصل. تفككت الإمبراطورية الرومانية، وتمزّقت إلى قطع وكتل، أمّا النوارس هي نفسها فطارت إلى سولوفكي - إذ لم

يكن هنا أيّ شيء على الإطلاق! ولم يكن الناس الروس قد ولدوا بعد، ولم يكن المسيح قد جاء إليهم، لأنّه لم يكن العفريت ولا الخلد بحاجة للمسيح".

وافق أرتيوم: "نعم. ونحن بالنسبة لهم- مخلوقات ضالّة! كان يسود سولوفكي صمت وصفاء وسلم. كانوا يبقون الشتاء في روما مع مسيراتهم وعروضهم ومصارعيهم، أمّا في الصيف فيبقون في مزرعة سولوفكي بهدوء – حياة رائعة؟ ولكن فيما بعد ظهر راهبان. ثمّ مئة. كانوا يأتون بالحجارة، وبدؤوا يدقون، وينشرون، ويقومون الصلاة من الصباح إلى المساء، وبنوا الجدران، ووضعوا الصلبان. وفيما بعد- أكثر من ذلك: جاءت مقصورة كاملة مع بنادق وبلالايكي[1] إلى الرهبان، وبشكل عام، الله أعلم ماذا حدث... والسؤال الذي يطرح نفسه، من أزعج من ؟".

كانت كلمات أرتيوم مصدر إلهام لأفاناسييف، كما لو أنّه دخّن سيكارة من هذه الكلمات: "ربّما، تعودت هذه النوارس، والآن يقولون بعضهم لبعضٍ: أوه، أنت ذي الذيل الأبيض انظري- كلّ شيء كما في روما القديمة مرّة أخرى: نفس الوجوه، نفس الرجس، نفس البهيمية والعبودية...".

أخذ أرتيوم نفساً عميقاً من أنفه، وقرّر التوقف حالياً عن الحديث في هذا الموضوع الذي ذهب بعيداً.

كانت هناك في جزيرة الثعالب، رائحة قوية تفوح من الثعالب وفضلاتهم.

كانت هذه الجزيرة على بعد فرسخين من جزيرة سولوفكي الرئيسة، وكانت توجد فيها حضانة ثعالب.

كانت يديرها كرابين الذي كان سابقاً قائداً لفصيلة أرتيوم، في السريّة الثانية عشرة. اتفقا تماماً في الطباع، وعاشا بسلام.

يعيش أرتيوم هنا للأسبوع الخامس. قام، بالإضافة إلى العناية بالثعالب، بعمل صحيفة حائطية سخيفة، وقدّم في الاجتماعات معلومات سياسية، وجرى

(١) البلالايكا:آلة موسيقية روسية تشبه العود. [المترجم].

إدراجه كعامل نظافة ومنظّف للأرضيات- كان هناك ما يكفي من العمل، ولم يكن هناك ما يشكو منه.

ظهر أفاناسييف قبل ساعة ونصف- ارسل بدل أحد سجناء المعسكر، الذي عضته الثعلبة ذات اللون الأسود- الفضي غلاشا في يده. تقيّحت يده، فاضطر أرتيوم لإرسال شريكه إلى المستشفى- لكن أرتيوم لم يتوقع بالتأكيد رؤية شاعر سانت بطرسبرغ هنا: لماذا ظهر فجأة؟.

أرسلت غالا أرتيوم نفسه إلى هنا مباشرة بعد حادثة ميزيرنيتسكي، في اليوم التالي.

قالت غالا، دون أن تنظر إليه، كما بدا له بانزعاج:" أنت كنت تذهب أيضاً إلى أمسيات أثينا. الآن سيجرّ الجميع إلى قسم المعلومات والتحقيقات، سيحققون ما إذا كان هناك مؤامرة... اذهب إلى جزيرة الثعالب...آمل أن ينسوك".

شعر أرتيوم بالامتنان حينئذٍ لدرجة، كان من الممكن أن يجثو على ركبتيه ويقبّل قدمي غالا، لو كان الأمر مناسباً ولو قليلاً، في مكتبها، المليء بالأرفف مع الأضابير.

طلب أرتيوم من أفاناسييف: " حسناً، حدثني ما هي أخبار الكرملين؟". ذهبا عمداً إلى الشاطئ ليتحدثا.

ترك أفاناسييف غرّته أخيراً - بقيت خصلته واقفة، مثل شجيرة حمراء فوق جرف.

فاجأ أفاناسييف أرتيوم على الفور: "لدينا الآن رئيس جديد للمعسكر. لقد ظهر قبل يومين".

"من أين؟"

- سأل أرتيوم، تنهّد، وحملق عينيه، ورمى غصن الصنوبر، باعتباره زائداً تماماً في مثل هذا الحديث.

أجاب أفاناسييف: " من أين لي أنا اعرف؟ من العالم السفلي، مثلهم جميعاً. كنيته نوغتيف. لقد سبق له أن حكم هنا في وقت من الأوقات، قبل إيخمانيس، لكن قبل أن نكون هنا أنا وأنت".

سأل أرتيوم: "وأين إيخمانيس؟"- كان هو نفسه يفكّر في غالا: ماذا جرى لها؟ هل غادرت مع إيخمانيس؟ وماذا سيحدث الآن - مع أرتيوم نفسه. الأمر الغريب، و لسبب ما، ربط وضعه الجيد نسبياً، بالرئيس السابق للمعسكر، ودونه بدا عارياً وغير محميّ.

ابتسم أفاناسييف ساخراً وهو يعوج حنكه: " لقد وجدت ما تسأل عنه. أعتقد أنّ إيخمانيس احتل ذلك المكان في العالم السفلي الذي يبرد بعد نوغتيف... من الأفضل أن تستمع إلى شيء آخر. بعد حادثة إطلاق ميزيرنيتسكي النار، أخذوا على الفور كلّ من كان يذهب إلى سهراتكم الليلية أثينا. لديك حظ كبير، يا تيوما، لأنّك أتيت إلى هنا- ولا أعرف حتّى أيّ نجمة تدفئك. لقد أطلق ميزيرنيتسكي النار من المسدس الذي اعْطِي لشلابوكوفسكي لأداء أحد العروض المسرحية- للاحتياجات المسرحية فقط، وليس لإطلاق النار على رئيس المعسكر. إمّا أنّ شلابوكوفسكي نسي تسليمه تسليمه، أم شيئ آخر- لكنّه ظهر في ذلك المساء عند ميزيرنيتسكي مع المسدس في جيبه. أنا وأنت، إذ كنت تذْكر، رافقناه معاً. أنا غادرت، وذهبت أنت إلى هناك، إلى غرفته".

قال أرتيوم بسرعة: "لم أصل إلى هناك".

أجاب أفاناسييف، دون ثقة كبيرة في صوته: "ماذا تقول؟ من حسن حظّك... وهناك، كما لو أنّ شلابوكوفسكي نسي المسدس. أم أنّ ميزيرنيتسكي سرقه وإمّا أنّ شلابوكوفسكي سلمه عمداً المسدس. لكن بغض النظر عن كلّ ذلك، يجري تنفيذ حكم الإعدام بهذه الحالة ".

سأل أرتيوم بهدوء:" هل أعدم شلابوكوفسكي بالرصاص؟"- لكن كمية الهواء التي بقيت في مجرى تنفسه، سمحت له بنطق منتصف الكلمة الثانية فقط.

قاطعه أفاناسييف: "انتظر لحظة"- حرّك فكه، كما لو كان يبعد أسئلة أرتيوم المتسرعة: " في البداية، كسروا جزءً من أسنان شلابوكوفسكي في أوّل تحقيق حول هذا الأمر. ولكن بعد ذلك، يا تيوما استدعاه إيخمانيس- تخيّل تركوا شلابوكوفسكي! وأطلقوا سراحه بعد أسبوع بعفوٍ مشروطٍ، وأرسلوه إلى بيته: لأنّه قضى في السجن نصف مدّة حكمه!.. هكذا يتحوّل مصير الشخص! آه؟".

حوّل أرتيوم نظره باتجاه البحر، حتّى إنّه قام بحركة، وكأنّما جرى دفعه قليلاً في جبهته: كان الأمر كما لو كان يحاول إعادة دماغه إلى مكانه، لأنّ مظهر أفاناسييف لم يوضح أيّ شيء بكلّ الأحوال.

سأل أرتيوم، ليس أفناسييف أبداً، بل أحداً غير مرئيٍّ- الرغوة القذرة بالقرب من الشاطئ: "لماذا أطلقوا سراحه؟".

هزّ أفاناسييف كتفيه، وتوقّع بعد مدّة من الوقت:

"ربّما لأنّه أسس المسرح هنا... ربّما صدّق إيخمانيس شلابوكوفسكي، أنّ لا علاقة له بالأمر. من يعرف. لكن نوغتيف فور ظهوره ، وعد مباشرة، أنّه لن يكون هناك عفوٌ بعد الآن، لأنّ المكان الذي يطلق فيه النار على قائد المعسكر غير صحي، وأنّه سيعالج الأمر. والحكيم نوغتيف يعرف كيف يفعل ذلك، بالحكم من وجهه القذر... هكذا إذن أبحر الأنيق شلابوكوفسكي بعيداً، في آخر باخرة!".

تذكّر أرتيوم:"وماذا عن فاسيلي بيتروفيتش؟". لم يكن يحمل أرتيوم أيّ ضغينة ضد فاسيلي بيتروفيتش على الإطلاق، ولا ضد أفاناسييف أيضاً- على الرغم من أنّه كان لا يزال يتذكّر أوراق اللعب التي رماها له. لكن يحدث هناك الكثير في الحياة- لا يمكن أن تستاء من الجميع. سأل: "وماذا عن الأب إيوان؟"

- أراد بالطبع، أن يسأل عن غالا أيضاً- هل غادرت أم لا، ولكن كيف يمكنك أن تسأل، لم تحضر غالا أمسيات أثينا.

"أخذوا فاسيلي بيتروفيتش أيضاً، ووضعوه في زنزانة العقاب، لكنّهم أخرجوه منها مع وصول نوغتيف... في رأيي، أنّ فاسيلي بيتروفيتش قد ضعف.

أمّا الكاهن، كما كان ينظف أرضيات المستشفى، لا يزال ينظفها. على الرغم من أنّه ربّما جرى استجوابه أيضاً، لا أعرف".

سأل أرتيوم: "وغراكوف أيضاً"؟. ولكن بالطبع، دون أيّ اهتمام ودي، ولكن في سياق السؤال عن المجموعة.

قال أفاناسييف بسهولة، كما لو كان الأمر بديهياً: "غراكوف مخبر. لقد كان مخبراً عندما كان حراً، وكان يحوم حول منتدانا الشعري في بيتر بورغ - وكلّنا كان يعرف ذلك".

سأل أرتيوم: "لماذا لم تقل ذلك لأحدٍ ؟" - لم يستطع أرتيوم حقاً فهم مثل هذا السلوك لأفاناسييف.

تفاجأ أفاناسييف بصدق بالرد: "أنا؟ لماذا؟ هل أشبه المجنون لأشير بإصبعي وأصرخ: انظروا، إبليس!.. ثمّ كان لديكم أمسيات أثينا. وأمّا أنا لست من أثينا. لقد أتيت إلى بيتر من بلدة صغيرة، إذ لم يكن هناك سور واحد متساوٍ، وكانت جميع المراحيض خشبية. ودرست ثلاث سنوات فقط - أنّني أرتكب أخطاء عندما أكتب".

أجاب أرتيوم بسرعة: "لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. لم يكن أيّة أثينا".

أصرّ أفاناسييف على موقفه: "لقد كان، لقد كان. أنت من سكان موسكو، أنت أنهيت المدرسة، ونشأت وأنت تنظر إلى الكرملين في موسكو، لقد كنت تذهب إلى المسرح منذ سنّ الخامسة، لديك نشأة خاصّة، أنت كنت من هذا الوسط بحق، أمّا أنا فلست من هذا الوسط...".

كرّر أرتيوم، ببعض الانزعاج: "أنت تقول هراء، وهذا كلّ شيء". حسب إدراكه، كان هذا في الواقع مجرّد هراء مطلق.

تنحنح أفاناسييف.

وقال باستعطاف: "بما أنّك ذكي جداً، يا تيوما، إذن اشرح لي حظي. أربعة... نعم، قبل أربعة أيام أخبروني: أعادوا مكانسنا التي صنعناها أنا وأنت،

المجموعة بأكملها، إلى الدير. ويطلبون توضيح الأمر، وفرض عقوبة.هل تذكر، أنت وأنا صنعنا مكانس مختلفة بالأسلاك الشائكة؟ مكنسة ضابط أمن، ومكنسة سولوفكي، ومكنسة الفجر الدموية ؟".

صعد الدم إلى رأس أرتيوم: مصيبة جديدة! أيّ نوع من الحمقى كانا، كيف يمكن لمثل هذه النزوة أن تدخل رؤوسهما! لم ييكد ينمو شعره بعد منذ أن حلقوا له، ولكنّه يمكن أن يشيب من مثل هذه الأخبار.

تحدث أفاناسييف: " اعتقدت، أنّها النهاية. وداعاً، منصّة المسرح، سأذهب إلى زنزانة العقاب!.. مرّ الليل، وعرفت أنّهم بسبب هذه المكانس أخذوا اثنين من السريّة الثانية عشرة، أفدي سيفتسيف وواحداً أخر، زاخار، من منطقة ليبيتسك... هل تتذكره؟".

أجاب أرتيوم: " أتذكّر، أتذكّر"- بمعنى: واصل، دون كلل.

قال أفاناسييف: "ربّما كان لديهم مهمّة صنع مكانس أيضاً، لا أعرف. على الرغم من أنني استبعد أن يكون قد خطر ذلك ببالهم، مثلنا، ربط المكانس بأسلاك شائكة... لا يمكن أن يفعل سيفتسيف ذلك على الإطلاق. لكنّهما الآن هما اللذان يجلسان بالتحديد في زنزانة العقاب بسبب هزارنا".

انفجر أرتيوم رغماً عنه: "اللعنة، سأقتلها!". لقد فهم بالطبع كلّ شيء: لقد مرّت هذه القصة على غالا، وسرعان ما اكتشفت من هو المذنب في صناعة المكانس المضحكة، وغطت على أرتيوم مرّة أخرى - لأنّه لا يمكن معاقبة أفاناسييف لوحده على هذا الفعل. اضطرت إلى إبعاد الشاعر عن الأنظار أيضاً- وفي الوقت المناسب، عضّت الثعلبة السجين في جزيرتهم، وظهر مكان شاغر.

على الرغم من أنّ القصة، كانت أكثر تعقيداً بالطبع: كان بإمكان غالا أن ترسل أفاناسييف إلى أيّ مهمّة بعيدة، إلى نقل الجذوع أم استخراج الخث. لكنّها أرسلته إلى أرتيوم كتحية: انظر، أيّها الحقير، أتذكّرك.

لم يكن هناك سوى شيء واحد يفرحه في هذه القصة بأكملها، وهو أنّ : غالا لم تغادر.

سأل أفاناسييف: "من ستقتل يا تيوم؟"، وامسك مرّة أخرى بغرّته وشدّ عليها، حتّى لا يتدحرج رأسه، فيما لو حدث أيّ شيء.

سأل أرتيوم: "ألم يكن هناك مجال للتغطية علي بشكل مختلف يا غالا؟". كادت تنهمر دموعه، وتنهّد مرّات عدّة لتهدئة قلبه القلق. نادا "غالا!" عقلياً مرّة أخرى، وهو يتطلع نحو البحر.

لم يكن هناك جواب، لكنّ أفاناسييف ظل ينظر إلى أرتيوم.

أجاب أرتيوم بنشافة، وهو ينهض: "الثعلبة غلاشا. هل رأيت، أيّ حقيرة هي؟".

... لحق به أفاناسييف خلال دقيقة، وتبعه وكأن شيئاً لم يحدث - غلاشا لتكن غلاشا - ونسج أنماطه اللفظية المعتادة.

"يا تيوما، هل تعرف ما لاحظته؟ تغرب الشمس في موسكو- مثل السماور الذي نقلوه بعد أن برد. وفي بيتر بورغ "- وهنا لوّح أفاناسييف بيده في اتجاه ما- " تغرب الشمس مثل خمس كبيكات في زمان القيصر بيتر، خبأوها في الأكمام. وفي أوديسا"- وهنا طارت يده في الاتجاه الآخر- " مثل الأرنب الذي دحرجوه على طبل... وفي أستراخان- غروب الشمس كما لو أنّ سمكة حمراء يتمّ قليها. وفي أرخانغيلسك، مثل السمكة المجمّدة التي وعدوا بتقديمها للضيوف، لكنّهم تجاوزوهم. في ريازان - مثل جذع شجرة أكله النمل. وفي ريغا، أشبه بوضع حبّة دواء تحت اللسان. لكن هنا- مثل الشفرة" - وهنا مرّر أفاناسييف إصبع سبابته بسرعة بالقرب من رقبته، أسفل الحلق...

لم يهتم أرتيوم بكلّ هذه المقرنات الشعرية.

لم يعد هناك شعر في العالم.

تقدّم أفاناسييف خطوتين ولحق بأرتيوم، أمسكه بهدوء من كمّه، وقال مع ابتسامه في صوته:

"بكلّ الأحوال سأهرب من هنا".

كان يجب التعود على الرائحة.

كانت هناك رائحة ثعالب كريهة في الجزيرة، كانت يحملها أحياناً الهواء المالح باتجاه البحر- ولكن كأنّه كان يعيدها مباشرة من جديد: لا، نحن لسنا بحاجة إلى ذلك، عيشوا أنتم وحدكم مع رائحة حيواناتكم.

من الواضح أنّ أفاناسييف كان شاب غير متأفف، على الرغم من أنّه شاعر: تبيّن مباشرة أنّه لا يهتم بذلك.

وكان أرتيوم قد تعوّد ذلك أيضاً.

جرى إحاطة الجزيرة الصغيرة بسياج من الألواح، حتّى لا تهرب الثعالب نحو البحر.

لا أحد كان يراقب الناس هنا - لم يكن هناك مراقبون على الإطلاق.

في حضانة الثعالب، كان لكلّ ثعلب شقته الخاصّة، التي تدفئ بالمصابيح ، وفسحة من الأرض صغيرة مسيجة، أطلق عليها كرابين الذي تبيّن أنّه فلاح عقلاني وعملي، مازحاً "ملّاك الأراضي الصغار".

سمحوا للثعلبة فوريا فقط بالتجول- كانت واحدة من الثعالب، المحبوبة لدى كرابين، وكمكافأة لها على حسن التصرّف الأليف تقريباً. سماها أرتيوم، بالطبع فوريا(الشريرة). لم يكن لأرتيوم صداقة معها، على الرغم من أنّه كان يطعمها سمك بانتظام، ولكن الثعلبة كادت أن تقفز فرحاً إلى رقبة كرابين تقريباً عندما كان يظهر.

لم تعد تبدوان لأرتيوم الآن شحمتي آذني كرابين كما في السابق، علامة على عقل محدود، ولكنّهما كانتا الآن دليلاً على شخصية موثوقة، وذلك إضافة إلى قفا

رأسه الأحمر العريض. إنّه أحمر، كما لو كان قد أخرج من شوربة البورش بالملفوف الأحمر.

عرّف كرابين وأرتيوم أفاناسييف على حضانة الثعالب، لإعداده للعمل الجديد.

ربّما لم يتعامل كرابين بلطف شديد مع أفاناسييف، انطلاقاً من ما رسخ في ذاكرته عنه، تذكّر صداقته مع الجناة وشغفه بلعب الورق. ولكن هنا، في جزيرة الثعالب، إذ لا يوجد جناة، كان كرابين مستعداً لإعادة النظر في علاقته مع المحتال الأحمر.

قال كرابين، وهو يلفظ الكلمات بصرامة:" ثلاثة وسبعون ثعلباً عجوزاً، وستة وسبعون شاباً، وعشرون ثعلباً أزرق، وخمسة سمامير... واثني عشرة قطة".

سأل أفاناسييف: "القطط من أجل صنع القفازات؟".

لم يجب كرابين، كما لو أنّه لم يسمع.

أوضح أرتيوم بهدوء: "عندما يختفي الحليب من الثعالب، تقوم القطط بإطعام صغارها".

أوضح كرابين الذي سمع كلّ شيء بالطبع: " القطط الصغار طعام إضافي للثعالب". ولخّص: "مزرعة!".

جرى تقسيم الحضانة إلى ممرات.

جرى عمل مدخل إلى كلّ شقة على شكل أنبوب لتذكير الثعلب بالجحر، وإلّا لكانت الحيوانات ستقلق وتخشى النوم.

تحاول الثعالب، مثل الناس، أن تعيش في أزواج دائمة، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الذكور في الجزيرة، وهذا هو السبب الذي جعلهم مضطرين إلى مخالفة الطبيعة: لقد أدخلوا الذكور ذوي اللون الأسود مع الفضي إلى شقق مختلفة.

شعر أرتيوم بالخجل من الاعتراف، بأنّ تزاوج الثعالب أثّر فيه، لدرجة أنّه كان يحبس أنفاسه.

حلم رفيق أرتيوم بصوت مسموع: " لو يسمح لنا بمعاشرة النساء السجينات بهذا الشكل. لماذا يريدون تكاثر الثعالب، ولكن لا يريدون تكاثر الشاعر أفاناسييف؟".

تظاهر كرابين مرّة أخرى، أنّه لا يسمع حديث الموظف الجديد الماكر.

لقد كان من الناس الذين لا يحبون النكات اللفظية الفارغة ولا الحيل- على الرغم من أنّه يعرف كيفية الرد عليها، وأحياناً بدقة مدهشة - لكن كرابين كان يشعر بشكل جيد بالجانب الساحر من الحياة نفسها.

لقد أجاب على أفاناسييف الذي كان يحسد بشكل واضح أسلوب حياة الثعالب:"... ماذا نطعمهم؟ نطعمهم الأسماك والخضروات التالفة التي يأتون بها من مطبخ الدير الرئيس. في البداية كانت مهمّة صعبة: ماذا نطعمهم. ولسبب ما، قررنا إطعامهم غرباناً. هناك الكثير من الغربان هنا، ما عليك سوى ترتيب صيدها. وأنت تعرف أنّ الغراب طائر ذكي - واي- واي! وللتجربة جرى نصب فخٍّ لها، إذ وضع طعم على قطعة قماش وحول الطعم غراء. لم يكن علينا الانتظار كثيراً، جاء غراب على الفور، ونقر الطعم وعلق من منقاره. اعتقدت سأمسكه في الحال. وهنا جاء غراب آخر إلى المصيدة – ونقر قطعة القماش، وأفلت منقار صديقته. وطار المحتالان كلاهما.

صنع كرابين سيجارة لنفسه، وعملت أصابعه الضخمة التي صبغت باللون البني من الدخان ببراعة، وكانت تلمع من طبقة الدهن التي كانت تغطيهم.

كان هناك شيء دافئ في مثل هذه الأحاديث الكثيرة التي كانت تجري هنا، ولم تكن المرّة الأولى التي وجد أرتيوم نفسه يفكر في هذا الأمر. أحياناً كان يستيقظ في الليل ويسأل نفسه: أين الوثيقة ؟ أين شافربيكوف؟ - وينظر من إلى سريره، إلى الأسفل - وأمام عينيه الأرضية.

... جرى في كلّ شقة من شقق الثعالب، تركيب مضخم صوت من اختراع كرابين الذي كان يفتخر بذلك. من أجل عدم الجري والتحقّق ممّا يجري في مئة وخمسين شقة، طلب كرابين معدات من قيادة المعسكر - لإجراء تنصّت على كلّ ثعلب.

أوضح كرابين لأفاناسييف: "وأنت جالس في المكتب، فيما لو أردت أن تعرف كيف أمور غلاشا. تقوم بالضغط على رقم شقتها، وتستمع إلى مضخم الصوت. إذا كان أطفالها ينبحون ويضجون، هذا يعني أنّ كلّ شيء على ما يرام. أمّا إذا كانوا يعوون، فهذا يعني لا يوجد ما يكفي من الحليب لدى غلاشا".

أكمل أفاناسييف بنفس نغمة كرابين: "وإذا كان هناك صمت- فهذا يعني أنّ الجميع قد مات". في أثناء عمله في المسرح، استرخى قليلاً، رغم أنّه لم يتميّز بالطاعة كثيراً في السابق.

واصل كرابين بنفس نغمته: "... أمّا إذا مات الجميع- العامل المسؤول عن الحضانة، أي أنت- سيذهب إلى زنزانة العقاب. بعبارة أخرى: سيلحق بالثعالب التي ماتت. وبالقريب العاجل".

فكّر أرتيوم: "هكذا!"- وغمز لأفاناسييف ، بمعنى: هل سمعت؟ وأنت تعتقد أنّك الوحيد الذي يمزح هنا، أيّها الشاعر ذو الشعر الأحمر؟

حتّى إنّ كرابين قرأ الكتب- الأمر الذي كان مفاجأة جدية بالنسبة لأرتيوم. لم يكن كرابين ليسمح لنفسه بذلك في الدير قطّ، أمّا في الجزيرة فلم يكن هناك الكثير من العيون- فلماذا إذن لا تقرأ. على الرغم من أنّ كرابين يحاول القيام بذلك هنا،عندما يكون وحيداً، وقد لاحظ أرتيوم بالمصادفة كتاب جاك لندن في يد الشرطي السابق، وذلك عندما هرع إلى كوخه الأسبوع الماضي ليبلغه أنّ غلاشا ولدت ثمانية أشبال دفعة واحدة - وهو أمر غير مسبوق.

بطبيعة الحال، لم يعمل مضخم الصوت بشكل صحيح - وكان أرتيوم يجول على شقق الثعالب ليتحقق من أنّها على ما يرام. بصراحة، لم يحب هذه الحيوانات كثيراً، وكان يخاف منها قليلاً.

اشتكى أرتيوم من مصيره ضاحكاً: "كان من الأفضل لو قاموا بتربية الماعز. يجب أن أسأل غالا إذا كانت هناك حضانة ماعز هنا... كنت سأشرب الحليب، وسأكون أجمل...".

أشار كرابين بفخر: "لدينا عيادة بيطرية هنا". كان أفاناسييف يتفاجأ باستمرار، وهذا على ما يبدو كان يعجب كرابين، بينه وبين نفسه.

كانت العيادة البيطرية، عبارة عن غرفة واحدة. كانت الغرفة تحتوي على خزانة مليئة بالأدوية الأجنبية، وجميع أنواع الزجاجات، وطاولة لكتابة الملاحظات، التي علّق فوقها ورقة من الكرتون المقوى رسم عليها صورة ثعلب تشريحية، وفي منتصف الغرفة كان هناك مقعد عريض ناعم، مزود بأحزمة لفحص الثعالب.

... جاءت غالا إلى الجزيرة مرّة واحدة فقط، قبل أسبوعين. وعلى نفس القارب الذي أحضرها، ذهب كرابين، بعد أن حلق ذقنه على عجل، ليبلّغ في الدير عن إنجازاته، وتحدثت غالا مع نائبه عن جميع الأعمال ألورقية، وبينما جلس عمال الحضانة لتناول الغداء، ذهبت مع أرتيوم لتفقّد شقق الثعالب.

على هذا المقعد احتضن بعضهما بعضاً بقوة، كما لو كانا قد فقدا عقليهما. على كلّ حال، عرف أرتيوم بالطبع، أنّ الغرفة الطبية هي الوحيدة التي تغلق من الداخل.

في منتصف لقائهما طرق أحدهم على النافذة...

... تقطعت أنفاس غالا التي نظرت إلى أرتيوم بعيون واسعة، وشعر بأظافرها الحادة تنغرز في ظهره...

...اتضح أنّ نورساً أتى يطلب الخبز- كانت هذه عادتهم في سولوفكي: طرق، طرق، أطعموني.

أثار ذلك الضحك فيما بعد فقط، في البداية - لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق.

كان أرتيوم لا يزال ينظر إلى هذا المقعد باشتياق وتوق هادئ.

تابع كرابين: "حتّى إنّ هناك مجهراً... نوع رايشرت" - وسأل، دون أن ينظر إلى أفاناسييف: "هل تعرف كيف تستخدمه؟".

أجاب أفاناسييف بسرعة: "رايشرت لا، ولكن..."- مع أنّه كان يلعب دور الأحمق ذي الشعر الأحمر.

قاطعه كرابين: " لا داعي، سوف تستخدم هذا الشيء "- استدار ووجه إلى جبين أفاناسييف فزاعة على شكل مسدس حقيقي.

نظر أفاناسييف إلى أرتيوم: بما معناه، ما هذا؟ هزّ أرتيوم كتفيه بمعنى: يمزحون هنا بمثل هذه الأشياء.

قال أفاناسييف: "أنا أستسلم "، لكنّه لم يرفع يديه.

أوضح كرابين: "يوجد ديدان في جميع الثعالب. تساعد الرقائق الأمريكية في علاج الديدان. لكنّ الثعلب لا يعرف أنّ عليه ابتلاعها، لذلك يجب استخدام هذه الأداة.

أدار كرابين الفزاعة باتجاه صورة ثعلب وضغط على الزناد. قفزت رقائق بيضاء من الحائط، وسقطت على الطاولة.

أوضح كرابين، وما زال كالسابق، لا ينظر إلى أفاناسييف: "الشيء الرئيس هو التكيّف مع هذا العمل. كان عاملنا السابق لص منازل متمرساً، لذلك كان يذهب إلى شقق الثعالب مع الفزاعة. يطرق الباب، وجواباً عن السؤال "من هناك؟" يطلق رقاقة في فم صاحبة الشقة التي تظهر. لكن ذلك لم يعجب غلاشا التي سئمت من هذه المعاملة، وعضته... وعضوني أنا أيضاً قبل ثلاثة أيام "- قال كرابين، متوجهاً حصرياً إلى أرتيوم –"جرى نقل ثلاثة ثعالب شابة بالطائرة من كيم... نتيجة الاهتزاز، ورائحة البنزين- على ما يبدو، إحداهن أصيبت بالجنون تماماً. عندما وصلوا إلى الجزيرة، فتحنا لهم القفص ليخرجوا- عضتني بيدي. كنت خائفاً من أن يتفاقم الألم، ويتقيّح مكان الجرح- لكن يبدو أنّ

الجرح التأم" - ثنى كرابين كمّه، وظهرت آثارٌ جافة لفكي الثعلب. التفت كرابين إلى أفاناسييف أخيراً وسلّمه الفزاعة، وقال: "لذا فكّر في كيفية القيام بعملك بشكل أفضل".

اقترح أفاناسييف، على محمل الجد:" يمكن إلقاء سمكة للثعلبة، وعندما تفتح فمها، تطلق رقاقة في فمها مباشرة : توف!".

أجاب كرابين على نحو لا يقل جدية: "هذا ممكن. لكن لقاء فقدان رقيقة واحدة، يتلقى العامل عصا على ظهره، ولم أنس جلب العصا من الجزيرة... ومن أجل فقدان رقيقة ثانية، يغادر إلى زنزانة العقاب المنصوص عليها مسبقاً، ويجلس على العارضة، ويتوب بعد فوات الأوان.

تظاهر أفاناسييف أنّه استوعب الأمر، رابطاً حاجبيه من زاويتهما، وزمّ بأسف شفتيه الورديتين دائماً، كما لو كانتا منتفختين قليلاً، وكانتا تعجبان الفتيات البعيدات.

دفع كرابين الباب المجاور: "لدينا هنا عيادة أسنان هنا". صفر أفاناسييف، وواصل كرابين: " لكن لا يجري معالجة أسنان الثعالب السيئة بل السليمة - القواطع الحادة...".

كان يوجد في كوخ منفصل، جهاز تصوير أيضاً: خاص للثعالب. التقط كرابين الصور بنفسه: ظهرت لدى الشرطي السابق العديد من المهارات المفيدة.

سأل أفاناسييف، وهو يشد سرواله القطني الجديد، لسبب ما: " التقط لي صورة، أيّها المواطن القائد. لا أتذكّر آخر مرّة التقطتْ لي صورة ".

أجاب كرابين دون ابتسامة، وهو يلف سيجارة جديدة: "بعد التقاط الصور لدينا، يسلخون الجلد".

بالقرب من كوخ التصوير، كانت الثعلبة تلعب مع جرو محلي، ولد في السجن، ومن المستبعد أنّه خمّن ذلك.

كان الكلب يقفز كما لو أنّه الأكثر قوة وحماسة، ولكن في كلّ مرّة كانت الثعلبة تستدير بصمت. وفي الوقت نفسه، كانت ترفع ذيلها الجميل إلى الأعلى بشكل مستقيم كما العصا حتّى لا يتسخ:غنج، لا أكثر.

قال كرابين: "الكلب سعيد لأنّه يعتقد أنّه الأقوى" - الكلب غبي. يعتقد أنّه يستطيع العض فقط. وهي قاتلة بالفطرة. وإذا حدث خطأ ما - تقتلْ على الفور".

كان أرتيوم كلّ الوقت يمسّد بإبهامه اصبعه الوسطى والسبابة بشكل غير محسوس، كما لو كان يحاول تذكّر شعوره عندما أمسك بالمقعد بأصابعه بقوة... ونظر إلى غالا وتنفّس.

كانت الثعلبة تتمشى على السطح ليلاً.

جرى تدفئة المنزل أيام عدّة. لم يقتصر الأمر على صوت طقطقة الموقد القديم فحسب، بل استجابت الجدران أيضاً للطقطقة، وتأوّهت السقوف مندهشة، والأرضيات معاتبة.

عادت الليالي المظلمة، كما لو كانت مغطاة بالشحار ومتجمدة حتّى النخاع، في الوقت الذي ظلوا فيه محبوسين طوال لصيف.

كان الليل يفوح إمّا برائحة ذيل الثعالب، وإمّا برائحة ذيل سمكة الرنجة، وإذا ما اضطررت للخروج إلى الفناء بدافع الضرورة- فإنّ ريحاً رطبة كريهة تدفعك من مؤخرة رأسك.

ظهرت النجوم - لم يرها طوال الصيف، مغطاة بالنمش، مثل يدي الأب إيوان، لكن بدا أيضاً، أنّ رائحة سمك رنجة خفيفة تفوح منها.

كان هناك رغبة دائمة في الذهاب من الشارع إلى الكوخ، إلى الدفء. لكنّ الأمر المؤسف لم يكن هناك شاي على الإطلاق، ولم يكن هناك ثمار أيضاً- كم كان من الجيد شرب الشاي،عندما تنعكس النجوم على النافذة، والرياح العكرة المالحة تعوي، ذهاباً وإياباً، كما لو أنّها فقدت طوقها.

استقر أفاناسييف في الغرفة نفسها مع أرتيوم، وشغلا فرشة مشتركة على الأرض.

تحدث أفاناسييف الذي لم يستطع النوم: "... لقد قبضوا بالقرب من منشأة استخلاص اليود، لن تصدق، يا تيوما، على رجل عجوز. اتضح أنّه راهب عاش في وكر ما، وكان يأكل جذور النبتات والثمار... ربّما كان يطعمه شخص ما - لكنّه هو نفسه قال، إنّه كان يعيش على الصلاة".

فتح أرتيوم الذي كان يستعد للنوم عينيه، ورأى على ضوء مصباح الشارع سقفاً متصدعاً لم يجر طرشه منذ فترة طويلة.

ضحك أفاناسييف بهدوء: "يقولون إنّ الجد لم يكن يعرف أنّه يوجد معسكر هنا الآن، ولم يخرج إلى الناس في سبع سنوات- احتجزوه ثلاثة أيام في قسم المعلومات والتحقيقات، ولم يتوصلوا إلى أيّ شيء، فأرسلوه إلى كيم: اذهب للعمل، أيُّها الجد، جاء المسيح الدجال، لن تستطيع أن تختبئ منه في الغابة... لكن من غير المعروف، كيف عاد إلى الجزيرة من جديد، بهدف الدخول إلى عمق الوكر، وعدم الخروج منه نهائياً... ولكن سرعان ما جرى القبض عليه وإرساله هذه المرّة إلى السريّة الرابعة عشرة".

كان أفاناسييف يروي هذه القصة وهو يسند رأسه الأحمر إلى يده، لكن تخدرت يده، وسقط على ظهره.

سأل أرتيوم، بعد فترة من الوقت: " وماذا بعد؟ ".

استجاب أفاناسييف بلا مبالاة: "الجد؟ قرّبت نهايته. اتضح أنّ العيش في الوكر أسهل من العيش في السريّة الرابعة عشرة".

فكّر أرتيوم: "إنّني أعرف هذا الناسك" - لكنّه لم يقل شيئاً.

وبدلاً من ذلك سأل:

"كيف حال أصدقائك؟ ألم يموتوا بعد؟".

صمت أفاناسييف كأنّه يفكّر.

سأل وكأنّه لم يخمّن من المقصود: "أيّ أصدقاء؟".

أجاب أرتيوم: "الجناة". كان يحلم في سرّه، أن تأتي ذات يوم موجة سريعة وحشية تحمل كلّ أعدائه، وترميهم في البحر دفعة واحدة.

تنهّد أفاناسييف.

" لا، تيوما، هم ليسوا أصدقائي. لا يمكن أن يكون لدى اللص أصدقاء على الإطلاق. ربّما تعتقد أن صفات الجاني- أخذ ما ليس له، وشخصية وضيعة، وعادات حقيرة؟ وحديثه أيضاً- حسناً، نعم. هل سمعت كيف يتحدثون؟"- سمع أرتيوم الحديث، لكنّه نسي. ذكّره أفاناسييف على الفور، بشكل مختصر وبصوت أخن تقريباً:"بسبب الغسيل، وقعت في مشكلة: لقد أعطيت عامل الغسيل كومة كاملة من الأشياء القديمة. ولكن بعد ذلك اقترب شخص خشن، ثمّ علا صياح الشخص الذي ليس من وسطهم. كدت أفعلها في سروالي!" أنا، يا تيوما، أعرف كل هذه الكلمات، ويمكنني أن أتذكّر عاداتهم، وأفسد شخصيتي، واكتساب عادة أخذ ما ليس لي، وعدم الشعور بالذنب من وراء هذا الفعل. لكن، يا تيوما، لن أكون قادراً على إعادة صباغة شخصيتي التي لا تنتمي إلى هذا الوسط! اللص نبتة مختلفة عني وعنك! لديه بدلاً من الروح، دمية، وتبتسم هذه الدمية بعنجهية وتظهر لسانها القذر. لا يمكنك أن تصبح لصّاً لفترة من الوقت، ولا يمكنك لعب هذا الدور أيضاً، فاللص يبقى لصاً إلى الأبد. إنّهم لصوص ليس لأنّهم يتصرفون مثل اللصوص، ولكن لأنّهم لا يعرفون كيف يتصرفون بطريقة أخرى... أنا، بالنسبة لهم، في أفضل الأحوال، فاسد. هل تعرف هذه الكلمة يا توم؟ الفاسد ليس إنسان طبيعياً ولا لصّاً، ولكنّه مجرّد مزيّف. لقد غادرت الإنسان الطبيعي، ولم أصبح لصّاً، إنّهم يأكلون مثل هذه الكعكة أوّلاً... من الأفضل أن تظل إنساناً طبيعياً ولا تتظاهر".

على ما يبدو، تذكّر أفاناسييف شيئاً مهماً وممتعاً، ولهذا السبب نهض واتكأ على مرفقه.

" أنت، يا تيوما، هل تعرف ماذا أطلقوا عليك ذات مرّة؟ سمعت بالمصادفة!" شخص خارج بيئتنا منتهٍ!" هكذا! شخص منتهٍ، يا تيوما - هذا شيء جيد، إنّه احترام تقريباً. سوف يذبحونك، برغبة أكثر من أيّ شخص عادي، لكن في حالتك سيكون لديهم بالفعل ما يتباهون به... تستحق ذلك، يا أرتيوم، أقول لك ذلك بالتأكيد. أنا نفسي، يا أخي" - هنا خفض أفاناسييف صوته - "لم أكن أتوقع أنّك ستعيش طويلاً... لديك نجم جيد. ربّما تضعه في جيدك ؟".

أرتيوم، نفسه لم يفهم حركته، إذ وضع يده على صدره، كما لو كان لديه حقاً شيء تحت قميصه.

مشت الثعلبة على السطح مرّة أخرى، وكأنّها كانت تبحث عن فتحة لتدخل إلى الغرف الدافئة، حيث تفوح رائحة طعام.

نظر أفاناسييف إلى الأعلى وسأل:

" ربّما أنت لا تخاف الموت؟ تعتقد أنّه غير موجود؟".

لاحظ أرتيوم ، في شبه الظلام، أنّ صديقه أومأ برأسه نحو الأعلى، كما لو لم تكن ثعلبة تتجوّل هناك، وإنّما الموت نفسه.

سأل أرتيوم: " هل يوجد موت؟".

لا بدّ أنّه كان يعلم أنّها ثعلبة.

سقط الشاعر ذو الشعر الأحمر على ظهره مرّة أخرى، لكنّه مدّ يديه أمامه، وبسط أصابعه وبدأ يتفحصها.

" حدثني كبير شاه... أم كوريز شاه؟.. أحدهم، أنّ الموت رحلة. هو الشيء الأكثر فضولاً في الحياة. فضولي لدرجة - اجلس فقط وابتهج، كما قبل العرض المسرحي..." - أرخى فاناسييف يديه، وصمت، يجمع أفكاره. زفر وقال: " تنتظرها، تنتظر هذه الرحلة، وتخرج رأسك إلى ما وراء الستارة، وتس تسيك! - ويقطعون رأسك بالمقص - ضخم وصدئ، ويسقط رأسك، هذه هي

نهاية الرحلة. و في النهاية فقط ينزف الجسم الذي قطع منه الرأس سوائل مختلفة، من الأمام والخلف".

بدأ أفاناسييف يحك خده فجأة - بحركة كلب سريعة، كاد الشرر يتطاير من تحت مخالبه، نتيجة هذا السحق القاسي.

نظر أرتيوم إلى هذه الحركة، باعتبارها خدعة من خدع أفاناسييف المألوفة، وفي الحقيقة، هكذا كانت.

أمّا بالنسبة للكلمات التي قالها أفاناسييف- فقد بدا أنّ أرتيوم فهم معناها، لكنّه لم يستطع إلّا أن يقدّر جمال الأسلوب، لأنّ رفيقه كان على حق- ولم يشعر بأيّ مقص، ولم يتعلّم أن يتخيل صوته، وهو يحز رقبته، رغم أنّه كان من الممكن أن يحدث ذلك مؤخراً، أكثر من مرّة. يجب أن تكون معرفتك بموتك - ليس أهم علم على وجه الأرض.

أكمل أفاناسيف كلامه، بعد أن أنتهى من حكّي خده:"... بشكل عام، مثل هذه الرحلات ليست على ذوقي- لدي اقتراح آخر من مجال الجغرافيا. هل أنت مستعد للاستماع إليّ يا تيوما؟".

قال أرتيوم: "تكلّم، يا أفاناس"- على الرغم من أنّه كان يعلم مسبقاً، بطريقة ما، أنّ ما سيقوله الآن سيتضح أنّه لا لزوم له وزائد.

وقف أفاناسييف، الذي كان مستلقياً على ظهره، ومن ثمّ انقلب على بطنه، وذهب إلى النافذة، محدثاً صريراً في أرضية الغرفة الخشبية- نظر مطولاً، حتّى إنّه كان يلمس إطار النافذة.

ثمّ عاد ووقف عند الباب، وهو يتسمع.

سأل: "هل أنت متأكد من عدم وجود أحد هنا؟".

قال أرتيوم: " لا يوجد غير الثعلبة ".

"وماذا بشأن جهاز مضخم الصوت للثعالب، أليس من الممكن أن يكون كرابين قد وصله إلى هنا؟".

أجاب أرتيوم: "كلّ ما ستقوله الآن، يذهب على الفور عبر الإرسال الإذاعي إلى قسم المعلومات - وسييث، بشكل مختصر، عبر إذاعة سولوفكي في الصباح".

تحرّك أفاناسييف لدقيقة أخرى، وهو يتعثر في شبه الظلام، إمّا بالكرسي، وإمّا بحذائه، الذي وضعه داخل الغرفة، كما كانت العادة في المعسكر، ولم يتركه، كما كان يفعل رفيقه، عند العتبة.

جلس أخيراً، جلس بجوار أرتيوم، وقال بصوت لاهث، إمّا من الابتهاج وإمّا من القلق، تقريباً ما يلي.

عيّن بورتسيف مشرفاً على معسكر سولوفكي قبل شهر من الآن.

عندما سمع أرتيوم ذلك، أكتفا ببرم رأسه: بمجرّد أن غادر المعسكر، الشيطان يعرف ماذا بدأ يجري هناك. وليس من الواضح، هل عليه أن يبتهج أم ينزعج من ذلك.

واصل أفاناسييف: بينما كان إيخمانيس يتهيأ للرحيل، ولم يكن نوغتيف قد تولى منصبه بعد، تمكّن بورتسيف من الارتقاء بالمنصب. في أثناء عمله في قسم المعلومات والتحقيقات، استطاع أن يجمع أدلّة ضد القيادة الأمنية في المعسكر،التي، كما اتضح من هذه الأدلة، أنّ نصفهم مدمنون على الكوكايين، ومصابون بمرض الزهري. وباستخدام هذه المواد، حصل بورتسيف على سلطة واسعة، وأعْطي صلاحيات مختلفة.

وصل الأمر إلى حدّ أنّه وضع ضباط الأمن من الحلقة الوسطى في زنازين عقابية - ولم يتمكّن أحد من رفع شكوى ضده، لأن جميع الشكاوى كانت تمر من خلال دائرته السابقة، في قسم المعلومات والتحقيقات، إذ زرع بورتسيف شخصاً مقرباً منه هناك، من ضباط كولتشاك السابقين أيضاً.

خطرت على بال أرتيوم فكرة سريعة حول أفاناسييف: " لم يتحدث عن الأشياء الأكثر إثارة للاهتمام عندما كانا على الشاطئ، ترك أهم الأخبار إلى الليل... الخبر الساخن... "

- ونتيجة لهذه الأخبار، بدأ أرتيوم مثل رفيقه، ينظر إمّا إلى النافذة وإمّا إلى الباب.

كان جنود الجيش الأحمر الحراس، يعيشون في حالة رعب حقيقي من بورتسيف: لقد أدخل عقوبات الضرب بالعصا، للذين يضبطون في حالة سكر، أم الذين يرتكبون انتهاكات جسيمة للنظام القائم. وفي الوقت نفسه، يسحق بورتسيف كلّ من يقع تحت يده- المجرمين والمعارضين السياسيين للثورة، ومرتكبي جرائم جنائية، والاشتراكيين السابقين الذين لا يتسامح معهم، بشعور انتقامي خاص.

جاءت حادثة ميزيرنيتسكي لصالح بورتسيف أيضاً: لقد تولى بنفسه الاستجوابات، حتّى تبقى شؤونه الغامضة في الظل. فعلى سبيل المثال، أنّ مستيسلاف هو الذي كسر أسنان شلابوكوفسكي.

أنقذ إيخمانيس شلابوكوفسكي، لكنّه بشكل عام لم يتدخل في كلّ ما كان يحدث. في الواقع، لم تكن هناك أسباب لذلك: توقّف الحراس عن اغتصاب النساء السجينات، أمّا رجال الأمن فلم يعودوا يقومون بحفلات سكر صاخبة، والتعذيب للتخويف- مثل التعريض لعض البعوض على ضفاف البحيرة المقدسة، وإطلاق النار في حالة سكر فوق الرؤوس في أثناء جمع السرايا.

إنّ الفكرة الرئيسة لبورتسيف كانت اختيار مجموعة قتالية للهروب. لكن ممّن جرى اختيار هذه المجموعة، لم يكن أفاناسييف يعرف، لكنّه خمّن أنّهم على الغالب من الحرس الأبيض السابقين، وبعض عمال الموانئ. ستقوم هذه المجموعة في القريب العاجل، وقبل توقف الملاحة، وفي ليلة واحدة، بنزع سلاح سريّة الحراسة، وتفجير المنارة، وتدمير نقطة البث الإذاعي، وقطع الاتصالات الهاتفية، والاستيلاء على باخرة " غليب بوكي"، والتوجه إلى كيم، ومن هناك إلى فنلندا.

ظلّ أرتيوم صامتاً.

سأل نفسه: "إذن من هو المهرّج هذه المرّة؟". بدا له أنّه يفكّر هامساً.

جلس أفاناسييف دون أن يتحرّك، وهو ينظر إلى أرتيوم بترقّب.

وجدت الثعلبة على السطح، المكان الأكثر دفئاً بالقرب من المدخنة، وهدأت أيضاً.

قال أرتيوم: "لن أهرب ".

صمتا قليلاً.

كرّر أفاناسييف السؤال، كما لو أنّ شيئاً ما، يمكن أن يتغير في دقيقة واحدة " ألن تهرب؟".

ردّ أرتيوم "لا. لماذا حدثتني عن كلّ ذلك؟".

"حسناً، إذا كنت لن تهرب، إذن..."- بدأ أفاناسييف، لكنّه تعثر... فكّر ثمّ تابع: " تيوما، أنا أعلم بالتأكيد: أنّ لديك وساطة. أنا بحاجة إلى أن أخرج من هنا. وكلّ ما كان ذلك أسرع، كان أفضل. لا أستطيع أن أفكّر بطريقة تخرجني من هنا- لن يستمع كرابين إليّ. االلّهمّ أن أقطع... أم أكسر شيئاً لدي- ولكن كيف سأهرب بعد ذلك بساق مكسورة أم دون أصابع يدي؟.. ساعدني يا تيوم. انقلني إلى الشاطئ الآخر من فضلك. بحجّة جلب أدوية، أيّا شيء. حتّى لو وضعوني في زنزانة عقاب في الجزيرة الكبيرة، سأتحمّل. عندما سيهدأ كلّ ذلك- سيخرجونني من هناك... يا تيوم؟".

"دع الثعالب تعضك يا أفاناس، وستذهب إلى المستشفى"- أراد أرتيوم أن يمزح، لكنّه لم يفعل- أيّ نكات هنا: أصبح كلّ شيء من حولهم غير مضحك.

قال أرتيوم: "سننام حتّى الغد"، وانسل تحت اللحاف.

غطّى رأسه واستدار إلى الحائط ونام بسرعة.

نام بعمق: لسبب ما أعجب أنّ الثعلبة ألتفت حول المدخنة، وتحرس منزلهم الهش. على الأقل لن ينزل أحد من المدخنة الآن.

في الصباح، وهو يرتدي سرواله، أوقع أرتيوم من جيبه حزمة مطوية إلى نصفين، من عملة سولوفكي - حصل في جزيرة الثعالب على أعلى راتب، طوال وقت وجوده في سولوفكي، ولم يكن هناك مجال لإنفاقها: فقد كانت جميع المتاجر في الجزيرة الكبيرة.

قال بمرح: "أنا مدين لك بثلاثة روبلات، يا أفاناس". لم يكن أفاناسييف قد استفاق تماماً بعد، لكنّه أغمض عينيه بشدّة كرد فعل على صوت بشري، وحاول الاندساس بعمق أكثر تحت اللحاف. لم يكفّ أرتيوم:"هل تتذكّر عندما أعطيتني في المستشفى؟".

تمتم أفاناسييف، وهو يضع فمه على الوسادة: "أتذكّر".

قال أرتيوم: "خذ ". وانتظر حتّى يستدير أفاناسييف، ويفتح عينيه ويمد يده ليأخذ المال. طلب بوضوح ولطف: "خذ. ولا تكلمني في موضوع أمس بعد الآن".

فرك أفاناسييف عينيه وجلس، وهو ينظر إلى رفيقه من تحت حاجبيه. نفض أرتيوم سترته القديمة التي تفوح منها رائحة الثعالب مرتين، ولوّح بها فوق كتفه، وأدخل يده في الكم على الفور.

سأل أفاناسييف بصوت عميق: "هل يمكنني الذهاب إلى الدير؟".

أجاب أرتيوم بسهولة، كما لو كان الأمر يتعلق بكوب من الشاي، الذي وعد بتقديمه له: " عندما يكون هناك فرصة، فستذهب، وسأساعدك، لكن لن أخترع شيئاً عن قصد، آسف، يا أفاناس".

أومأ أفاناسييف برأسه، وفرك عينيه مرّة أخرى.

سأل أفاناسييف: "كم الوقت الآن؟ لم أسمع جرساً أم بوقاً...".

أجاب أرتيوم: "إنّها الساعة الثامنة، يكفيك نوماً، يا عزيزي. لا يوجد أجراس ولا أبواق هنا - هنا حرية ومساواة وتطفّل! دعنا نذهب لإطعام

الثعالب، وبعد ذلك سنفرش الطاولة لأنفسنا... اليوم هو يوم الاستحمام- علينا أن نتوسّخ كما يجب بحلول المساء، حتّى لا نهدر الماء عبثاً".

استيقظ أفاناسييف أخيراً، وسأل:" هل يوجد حمّام هنا؟".

ضحك أرتيوم: " كيف لا. هل تعرف كيف يفرك كرابين الظهر بعصاه".

قال أفاناسييف مازحاً: "يجب أن نطلب مكانسنا من الدير".

ضحك أرتيوم أيضاً. بدأ الصباح بمرح، ولم يكن هناك أيّ سبب للهرب إلى أيّ مكان من هنا.

منذ أن توقف سوقهم- إلى العمل تحت تهديد العصا- نهائياً، شعر أرتيوم أنّه نضج كثيراً، ونمت روحه، وبدا أنّ كلّ شيء في داخله كبر بمقاسين. لقد تذكّر كيف أنّه في شبابه المبكر، في سن الرابعة عشرة، وجد نفسه يفكّر في أنّه عندما كان يدخل إلى غرفة المونة، كان عليه أن ينحني قليلاً- لقد زاد طولاً أخيراً. هو يتجوّل الآن حول العالم، بشعور راسخ، أنّه في مكان ما يجب عليه أن يحني رأسه قليلاً، وإلّا فإنّه سيفقد رأسه، أم يمر بشكل جانبي، لأنّ الفتحة لا تتناسب مع عرض صدره - ولكن أين تنحني، ومتى تنحني جانباً ؟.

اتضح أنّ العمل المنهك، الذي يستنزف الشخص،لا يساعد على الارتقاء، بل على العكس من ذلك، يضغط الإنسان إلى الأسفل، داخل الأرض، حتّى عنقه. يرتقي الشخص إذ يمكنه أن يركض ويقفز ويخيف الطائر الذي يقف على غصن عالٍ، ويقترب من الإمساك به من ذيله.

هطل المطر في الصباح الباكر، بشكل غير متناسق وصاخب، أجبر الثعلبة على النزول عن السطح، وعجن الأوساخ، وزادت كثافة الرائحة- لكنّ أرتيوم كان مستمتعاً بكلّ ذلك. كان لديه حذاء مطاطي، وحصل لأفاناسييف على حذاء مطاطي أيضاً، ومشى الاثنان في الطين، وهما يتعثران ويشتمان، حتّى وصلا إلى حضانة الثعالب، حيث سمعا عواء متوتراً: نريد أن نأكل! نريد أن نأكل!... لا يوجد حاجة إلى مضخم الصوت.

كانوا يطعمون الثعالب مرّة واحدة يومياً، وقت الظهيرة، ولكن جرى إطعام الإناث المرضعات، والثعالب الصغيرة في الصباح أيضاً.

كان يجري تجهيز طعام الإفطار لهم مسبقاً، ثمّ يوزّع عليهم. كانت صغار الثعالب تعيش في الشرفات المغطاة بشباك معدنية، للتنزه في الشمس، وعدم البقاء في الجحور دائماً.

وفي الحقيقة، كانت الشمس اليوم بعيدة جداً، وكأنّها بردت قليلاً، وأصيبت بقشعريرة برد.

تشاجر أرتيوم بشكل غير جدي مع أفاناسييف الذي تسلّح بالفزاعة وعرض أن يجربها على أرتيوم على الأقل كبداية - "... يمكن أن يكون لديك ديدان أيضاً، أليس كذلك؟"- حاول أرتيوم ألاّ يفكر في بورتسيف، لأنّه حتّى مجرّد نطق هذا الاسم عقلياً، كان يسبب له اضطراب، وارتباك، وإن كان ذلك مختلطاً مع الاحترام: فقد تبيّن أنّه- ضابط طائش، وفخور، وعنيد، ومتهور- لكنه متهور منظّم ، لا يسمح بالارتجال، وحديدي مثل السيارة.

" ما كنت لأستطيع فعل ذلك"- هذا كل ما فهمه أرتيوم، وربّما فهم لأوّل مرّة في حياته- فقد خمّن، وهو يراقب الناس الآخرين، ويتعرّف أفعالهم، إمّا أنّه يعرف أن يفعل مثلهم، بل أفضل منهم، وإمّا لا يريد أن يكون مثلهم على الإطلاق.

... سقط إيخمانيس من هذه المقاربة للناس بالطبع. لم يخطر ببال أرتيوم أن يقارن نفسه بإيخمانيس قطّ- بالقدر نفسه، إذ لا يسمح أن يقارن نفسه مع قيصر أم روبسبير.

كان إيخمانيس يكبر أرتيوم بخمس أم سبع سنوات- ومن الجدير القول، أنّه في هذه السنوات، وقعت الحرب العالمية والحرب الأهلية- لكنّ الجوهر كان يكمن في مكان ما أعمق... اعتقد أرتيوم بينه وبين نفسه أنّ إيخمانيس كان أكبر سناً منه- إلى الأبد.

لم يكن من الضروري فهم، ما هو مخفي في مثل هذه الكلمة الرنانة: إلى الأبد، مدى الحياة، لروح واحدة مبتورة، لجحيم واحد، في نهاية الأمر... لكنّ

هذه الكلمات أيضاً، لكي نكون صادقين، لم تكن تعني أيّ شيء بالنسبة لأرتيوم، ولم يستطع أن يقدّر معناها: حسناً، روح، حسناً، جحيم - لقد وضع كلّ كلمة براحة يد - لا وزن لهما، والراحتان فارغتان وتبردان.

تزن البطاطس مع سمك القد، أكثر من الضمير، وبق الفراش أكثر وضوحاً من الجحيم.

... ومع ذلك، فإنّ الشعور الصبياني الذي لم يبد، في هذه الأماكن الباردة، حتّى هنا كان هذا الشعور يثير سؤالاً داخلياً: من سيكون أقوى إذا التقيا - فصيلة لفصيلة أم واحد لواحد - إيخمانيس أم بورتسيف؟ ليس في مشاجرة تقليدية، ولكن في مبارزة أخرى ما، إذ يستخدم فيها كلّ شيء: الحربة، والجرأة، والعقل، والماضي الغامض لكل منهما.

ابتسم أرتيوم وفتل رأسه - بدا أنّه نضج، وغيّر جلده القديم، بجديد أكثر سمكاً من السابق، وأمّا الفكرة الصبيانية الغبية - لا، لا، نعم تلوح بذيلها.

لم يستطع أن يعترف حتّى لنفسه، لمن يتمنى الهزيمة، ولمن الانتصار، في تلك المعركة.

سأل أرتيوم نفسه: "... ربّما كان ترويانسكي على حق، أنت أصبحت عبداً، أحببت عبوديتك؟".

واصل أرتيوم التفكير: "... إذا احتاج مستيسلاف بورتسيف إلى إطلاق النار عليّ الآن - لا لشيء، ولكن ببساطة من أجل تحقيق فكرته الرائعة - فهل سيفعل ذلك؟".

ألفى أرتيوم نفسه، متعلقاً بهذا السؤال، لدرجة أنّه ارتجف، لأنّ الإجابة كانت واضحة: بالطبع، كان سيعدمه.

واصل أرتيوم التحليل: "... لماذا علي إذن أن أتمنى حظاً سعيداً لبورتسيف؟".

سخر أرتيوم من نفسه "... لأن إيخمانيس دفئك لدقيقة، قامت روحك البشرية البائسة بوضع حلقة في شفتك - وتركض خلف ظلّ المالك، الذي، علاوة

على ذلك، غادر، تاركاً لك عاهرته السابقة كهدية...". وأبعد مرّة أخرى كلّ هذه الأفكار عنه، لأنّ حياته لم تكن بحاجة إليها على الإطلاق، فحياته كانت بحاجة إلى استمرار الحياة فقط.

طلب من نفسه: "... لا تتحدث بهذه الطريقة عن غالا". لسبب ما، تألم من أجل غالا أكثر من البقيّة كلهم - أدرج أرتيوم نفسه بين البقية.

واصل أفاناسييف حماقاته، التي بدا أنّ أرتيوم استمع إليها لدقيقتين تقريباً، لكنّه لم يكن يستمع إليه في الواقع، سائلاً عن كلّ شيء على التوالي، مثل الولد ذي الشعر الأحمر، الذي بقي في الصف نفسه يعيد للعام الثالث.

من المحتمل أنّ الشاعر قد انجذب روحياً إلى أرتيوم على وجه التحديد، لأنّه يمكن معه أن يكون طبيعياً- طفل عابث- وهو ما لا يستطيع أن يسمح لنفسه به مع أحد في المعسكر.

أوليس من أجل ذلك نفسه، قدّر أرتيوم أفاناسييف؟.

استفسر أفاناسييف، برعب مصطنع: "لماذا هذه الثعلبة بثلاث أرجل لديكم ؟ هل أكلت أنت وكرابين ساقاً واحدة؟ هل أعتقدتما أنّ لا أحد سيلاحظ ذلك؟ هل قررتما أنّ ضباط الأمن يمكنهم العد حتّى الثلاثة فقط؟".

"هذه مارتا"- أجاب أرتيوم ممتناً لأنّ أفاناسييف أنقذه مع تلك الأفكار المملّة- "لقد هربت الشهر الماضي"- وهنا نظر أرتيوم بشكل هادف إلى أفاناسييف- "وسقطت في الفخ. لقد قضمت ساقها حتّى قطعتها لتواصل الهرب. تخيّل أيّ قوّة إرادة لديها؟".

أصبح أفاناسييف جاداً لمدّة وجيزة، ومع ذلك، فإن جديته مشكوك فيها- لأنّه، وهو يقدّر ذلك، كان يتفحّص يده، كما لو كان يتساءل: ماذا لو وقعت أنا في فخٍ؟ فكيف سأتصرف؟.

جرى إحضار ذكراً مؤخراً إلى مارتا- وأصبحا يعيشان معاً، وسارت أمورهما على ما يرام: لقد شاهدهما أرتيوم أمس، واستمتع بهما نحو الدقيقة، حتّى إنّه شعر بتقلصات طفيفة في صدره.

سأل أفاناسييف باهتمام وشك: "ألا يتضايق الذكر من جود ثلاث أرجل لها فقط ؟".

أجاب أرتيوم: "لا".

فكّر أفاناسييف للحظة، وقال لأوّل مرّة دون أدنى ابتسامة :

" ما كنت لأستطيع".

وافقه أرتيوم: "حسناً، نعم... على الرغم أنّه من النادر أن تلتقي امرأة بثلاث أرجل الآن ".

... ضحكا كثيراً بشأن الأرجل الثلاث- ويبدو أنّ أفاناسييف مع خياله الخصب، تصور تماماً ذلك- لدرجة أنّهما في البداية أخافا مارتا وذكرها، ثمّ أنّهما لم يلاحظا كرابين.

صرخ أفاناسييف، حسب العادة في المعسكر الكبير: "مرحبا أيّها المواطن القائد!" - لم يكن من المعتاد الصراخ بهذا الشكل في جزيرة الثعالب.

عبس كرابين، وقام بحركة كأنّه سيكرمش أفاناسييف ويخفيه في جيبه، من أجل أن يرميه لاحقاً في الموقد.

سأل كرابين، مشيراً إلى البحر: "أرتيوم، من تعتقد هناك؟".

كان هناك قارب آلي يسير في البحر. كان لا يزال من الصعب تمييز الأشخاص الموجودين في القارب.

لاحظ أرتيوم أنّ أفاناسييف سعد كما لو أنّ بورتسيف أرسل من أجله القارب: حسناً، هل سنبحر إلى فنلندا أم لا؟

من جانبه كان كرابين قلقاً بعض الشيء: لقد أبلغ مؤخراً عن وضع جميع الثعالب، وأعطاهم صوراً، وماذا بعد أيضاً؟ ربّما يطلبه رئيس المعسكر الجديد نوغتيف الآن؟.

نظر ثلاثتهم معاً، وعلى الرغم من أنّ عيون أفاناسييف وأرتيوم أصغر سناً، إلّا أنّ الشرطي السابق كان أوّل من ميّز الضيفة.

قال كرابين: " غالينا قادمة إلينا- لقد جاءت لغرض ما. ربّما قررت السافلة أن تختار لنفسها معطف فرو مسبقاً.

نظر أفاناسييف بطرف عينه إلى أرتيوم، دون توقّف، وهو يرعش شفتيه قليلاً.

تحمّل أرتيوم هذه النظرة في البداية، ثمّ استدار، وسأل دون ارتياح:

" لماذا تنظر يا أفاناس؟ ستصاب عينيك بالبرد".

همس أفاناسييف بلطف، دون أيّ استياء، محوّلاً بصره إلى ظهر كرابين، الذي كان يغادر إلى الرصيف الخشبي الصغير: " كنت أريد أن أقول لك يا تيوما- أنت تعرف ماذا جرى في المعسكر أيضاً- يمكن أن يصاب المرء بالجنون، ولا شيء سوى ذلك".

قال أرتيوم :" تحدّث بسرعة "- رسا الضيوف بالفعل، ونهضت غالا، لكنّ القارب بدأ في التأرجح، وجلست مرّة أخرى على المقعد في القارب.

قال أفاناسييف بمرح، وهو يزرّ عينيه: "لدى صديقك تروينسكي زميل في منشأة استخلاص اليود. عريض الجبهة مثله. جاءت والدة تروينسكي، وجاءت على نفس السفينة معها ابنة زميله للقائه. لقد رأيتها: جمال لا إنساني، كأنّها ولدت من زهرة الربيع...".

تنهّد أرتيوم: حسناً، تحدّث بسرعة، مالي وتروينسكي هذا بشكل عام، وهذه الأبنة من الزهرة.

تابع أفاناسييف على مهل، ولسبب ما مقتنعاً أنّ أرتيوم يجب أن يسمع ذلك: "بعد أسبوعين، استدعى المواطن إيخمانيس الفتاة إليه، وقال لها:" فيما لو قبلت أن تتزوجيني، فسأطلق سراح والدك على الفور!". أمّا والدها فلم يقض في السجن سوى ثلاثة أشهر، من أصل خمس سنوات. أجابت هي على الفور: "أوافق على الزواج، دع والدي يخرج فقط !".

رجف أرتيوم، وحدّق في أفاناسييف غير مصدّق. بدت هذه القصة، للوهلة الأولى، لا تمسّ أرتيوم على الإطلاق- ولكن من الناحية الأخرى، غير المفهومة تماماً- كانت تمسّه كثيراً. وقد عرف أفاناسييف الحقير ذلك من مكان ما.

"وماذا بعد؟"- سأل أرتيوم، وهو ينظر إمّا إلى غالينا التي نزلت من القارب، وإلى كرابين الذي يستقبلها، وإمّا إلى أفاناسييف.

قال أفاناسييف: " تركه يخرج".

قال أرتيوم من بين أسنانه: "أنت تكذب".

أجاب أفاناسييف بهدوء: "المعسكر كلّه يعرف ذلك". لقد غادر والد هذا الجميلة المعسكر مع شلابوكوفسكي، على نفس السفينة، وهي غادرت مع إيخمانيس، قبل أيام فقط. ويقولون إنّهما تزوجا بالفعل في كيم، حتّى لا يؤجّلا ذلك، لحين وصولهما إلى موسكو...".

ضغط أرتيوم بأصابعه على صدغه، وهو يفكّر على عجل كيف سيقيّم الخبر الجديد المحبط القادم من الجزيرة.

كاد يئنّ أرتيوم: " أخ، يا أفاناس، آمل، أنّه لم يتبقّ لديك أخبار أخرى؟ ألم يحطّ الحلفاء بالمنطاد في الدير؟ ألم يعد لينين إلى الحياة؟ ألم يطرْ نيزك تونغوسكا إلى السماء عائداً؟".

فكّر أفاناسييف، وأجاب:

" لا، لم يحدث ذلك".

كرّر أرتيوم طوال اليوم: "مدوختي. دافئتي. عزيزتي، قلبي كم أحتاجك". لم يقل مثل هذه الكلمات لأيّ شخص كان في أيّ وقت من الأوقات".

ولم يستطع أن يقول مثل هذا الكلام لغالا. بقي كرابين معها، ولم يتركها على الإطلاق- فارقها مرّة واحدة لدقيقة، دخل إلى كوخه، وعاد من هناك منظفاً جزمته وقد رشّ كولونيا على نفسه!.

لقد اغترّ بنفسه، لأنّه خمّن أسباب مجيئها- على ما يبدو، همست غالا لكرابين على الفور، عندما كانا لا يزالان على رصيف الميناء، بشأن معطف الفرو. وجد كرابين دقيقة، وتباهى أمام أرتيوم في همس ساخر: "أرى بوضوح- هذا هو الواقع: جاءت السافلة لاختيار ثياب شتوية...".

فكّر أرتيوم: "أوه، أنت يا بينكرتون. كم قبضت على محتالين، وامرأة غرّرت بك...".

كانت غالا ترتدي إيشارباً عقدته بشكل جميل. كان يليق بها كثيراً.

في الواقع ، كان يصدر عن غالا، ماس كهربائي نسائي، لدرجة أنّ هذه المرأة كانت مليئة بالاستعداد للمتعة البشرية الساخنة، إلى حدّ أنّ جميع العاملين الآخرين في الحضانة- وطاهي الثعالب، وهو أيضاً مورّد - أحد الأصحاب السابقين لـ بيت دعارة سري، والمختلس السوفييتي الصلب لبيت المال، نائب كرابين بالأعمال الإدارية- كان مسؤولاً عن الاتصالات اللاسلكية مع الجزيرة، التي، بالمناسبة، لم تعمل كما هو مطلوب، وسائق القارب الذي أحضر غالا- له شكل المجرم تماماً، بسنين مكسورين في فم مفترس، كيف لم تكن خائفة من الركوب معه، وحتّى كرابين الذي وسّع صدره- كان واضحاً أنّ الجميع كان مبتهجاً، وأصبحوا كما لو كانوا ثملين قليلاً.

ظلّ أفاناسييف وحده منعزلاً، مع أنّه نظر بطرف عينه إلى التنورة التي مرّت بمحاذاته، ودرس كيف تبدو وما تحتها.

غضب أرتيوم، ناظراً إلى الرجال بكره: "هل أعلنوا عن حفلة رقص مسائية؟".

لقد فكّر دون أيّة متعة: "لا أحد يخمّن، أنّ كلّ هذا... أحضروه لي... لذا امسحوا وجوهكم!".

لقد تذكّر كيف تخلع غالا سترتها، بشكل محموم وغاضب تقريباً، من خلال رأسها- ويظهر إبطاها الأبيضان، مغسولين بالصابون النقي، ولكن رغم

ذلك تفوح منهما رائحة العرق قليلاً، ونهداها يخفقان، كما اللبن الطازج في أوعية ضخمة - وبيدها الجشعة، العنيدة، والشريرة، تشدّ أرتيوم نحوها، وتلمس بيدها الأخرى ظهره، وعنقه، ومؤخرة رأسه، وفخذه بحركات سريعة - حتّى إنّها لا تمسح، ولكن كأنّها تبحث: أين؟.. أين ما لديك ؟.. أين كان ما لديك؟.

... بدأ قلب أرتيوم في التشنج، ووقف مدّة من الوقت، ونظر حوله، كما لو كان أصيب بضربة شمس. وقف أفاناسييف أيضاً، وانتظر بصمت، وهو يتحدث بكلام فارغ أحياناً، وكعادته يخلط الكلمات الجميلة بكلمات خرقاء، معجب بالصورة الناتجة عن ذلك، وأحياناً يصمت وينظر إلى أرتيوم بحنان ساخر.

صحح أرتيوم لنفسه: "... كيف يمكن أن لا يخمّن أحد، إذا كان أفاناس يعرف كلّ شيء! من أين يعرف هذا الكلب؟".

.. وانتبه لكرابين من جديد. شعر أرتيوم لأوّل مرّة في حياته بالغيرة - هو كذلك إذن، ولم يكن يعرف عن نفسه ذلك من قبل. كاد أن يحذق بأسنانه - وشعر بالحرارة والبرودة، عندما ذهبت غالا إلى كوخ كرابين لشرب الشاي. لقد تضايق بكلّ كيانه، عندما أخذها كرابين إلى العيادة البيطرية... هناك إذ يوجد ذلك المقعد... من يعرف ماذا تفعل هذه السافلة المجنونة؟.. أراد أن يركض عبر الشجيرات إلى النافذة ويطرق على البلور كما كان يطرق النورس بمنقاره.

ظلّ طوال اليوم لا يشبه نفسه. لم يتناول طعام الغداء.

سأل أفاناسييف:" ألا تريد؟"، مومئاً برأسه إلى قصعة الدخن، وذيل السمكة المقلي. وقال: " وهذا هو الصحيح" - أكله كلّه وحده.

كرّر أرتيوم، وهو يخرج إلى الشارع ، يشد بطنه ويبتلع لعابه بصعوبة: "هل ستغادر حقاً دون أن يحدث شيئاً؟".

هبّت بحلول المساء، رياح قويّة قاتمة، وقعقعت الدروع التي تحيط بالجزيرة، وسقط بعضها. جرى رفعهم من جديد، وتثبيتهم، تجمدوا من البرد خلال عملهم... اختبأت الثعالب في الشقق...

كان البحر يقفز، كأنّه ينظر: ماذا يوجد خلف الدروع، هل هناك شيء حي؟

قال سائق القارب إنّ العودة خطيرة - يمكن أن ينقلب.

انتظرت غالا أن يعرض عليها كرابين البقاء - وفعل ذلك على الفور- وبدت كأنّها تفكّر في الأمر، ووافقت.

هتف أرتيوم: "الحمد لله!"، وكاد أن يصك أسنانه فرحاً- هذه الريح الهائجة: كان ليعانقها لو استطاع احتضانها.

نظر إلى كرابين، وأدرك أنّ هذا الذئب العجوز كان يفكّر في الشيء نفسه، لكن دون شكر الرب - من المثير للاهتمام، إلى من يتوجه رجال الشرطة السابقون بالشكر؟..

قال كرابين بصوت عالٍ، وهو يحدّق بمودة: "هذا هو القرار الصائب، والعقلاني- لأنّه يوجد لدينا الآن حمّام. هل تحبّ الحمّام؟"- ونظر في عيني غالا بشكل كما لو أنّ مسألة من سيرافقها إلى الحمّام وفرك ظهرها جيداً قد حلّ نصفها- وأضاف كرابين: "لقد صنعنا المكانس مسبقاً ". بدا الأمر كما يلي: لقد انتظرتك منذ فترة طويلة، وجهزت كلّ شيءٍ.

فكّر أرتيوم أن يثب على أكتاف كرابين ليخلع رأسه الأحمر الأصلع من على رقبته العريضة المغلية في البورش.

لم تقل غالا، أيّ شيء بخصوص الحمّام ، كامرأة شابة حسنة التربية، إلى جانب أنّها ضابط أمن... لكنّها ذهبت إلى هناك قبل الجميع- عكس عادة أهل القرى، إذ كانت النساء يذهبن بعد الرجال.

لم تهدأ الرياح بعد، لكنّ الرجال كانوا لا يزالون جالسين على شرفة العيادة البيطرية المغطاة، مقابل الحمام بالضبط. خرج كرابين للتدخين في الشارع، ولكن في مثل هذه الرياح، احترقت سيجارته خلال نصف دقيقة، رغم محاولته إخفائها في كمّه، وعاد.

أخذ الباقون يتناوبون النظر إلى الحمّام، على أمل أن تنسى غالا، وتخرج عارية على الشرفة للتنفس، أم يجري اكتشاف شق فجأة في الجدار، لم يلاحظه أحد من قبل، أم ينهار ركن كامل من الحمام فجأة من الريح... وما الغريب في الأمر، ألا يحصل مثل ذلك أحياناً؟.

بصق أرتيوم، وذهب ليراقب ما يجري حول الجزيرة - ربّما أسقطت الريح الدروع مرّة أخرى.

اسودت السماء، وغلى البحر رصاصه، وكان الجو بارداً حقاً- بدت الريح في المساحات الفارغة، كأنّها تحاول نزع ملابسه: تجرّد أيّها الشاب من ملابسك بالكامل، سأمزقك، وأرميك قطعاً للأسماك...

شتم أرتيوم بصوت مسموع، وهو لا يكاد يخطو:" لتذهب أيّتها الريح إلى جميع شياطين سولوفكي المالحة!".

استغرق أرتيوم في التفكير، لأوّل مرّة، وهو يلّوح بيده: "كيف يبقون على قيد الحياة هنا في الشتاء؟".

كانت الدروع مكانها تخفق.

بالقرب من رصيف الميناء، خرج إلى البحر الذي أصيب بحالة هستيريا عنيفة سوداء، تشتد أكثر فأكثر. لقد وجد نفسه في حالة خوف طفيف- أنّه بقي وحيداً تماماً أمام هذه الهالة الضخمة. وقف على مسافة، مسحوراً ومتجمداً.

... رأى فجأة، في المياه التي ترغي، جذعاً ضخماً. قذفته، بعد نصف دقيقة، بسهولة إلى الشاطئ.

كان طول الجزع حوالي ثلاث ساجين(١).

اقترب أرتيوم بحذر من الجزع، ناظراً إلى البحر: إنّ الذي قذفه يقبع في مكان ما هناك.

---

(١) ساجين: وحدة قياس تساوي ٢,١٦ متر. [المترجم].

لمس الجزع بيده بحذر- كما لو كان بإمكانه أن ينبض بالحياة، ويصرخ.

لاحظ نقشاً محفوراً بفأس عليه. أزال بثقة الآن، الطحالب الملتصقة به بيده، وقرأ: "أنقذونا. سولوفكي". كان حرف "س" حاد مثل رأس السهم.

فكّر قليلاً، ودحرج الجذع، بغضب غير متوقع، إلى الماء، كما لو أنّ أحد ما سيلاحظه، وهو يقرأ هذه الكتابة، وكان من الضروري التخلّص من الأدلّة في أسرع وقت ممكن.

همس: "لا أعرف القراءة. لذا فهي ليست لي...".

دفع الجذع في الماء، ومشى بسرعة دون أن ينظر إلى الوراء. شعر في البداية أنّ الجذع الملقى في البحر من جديد، يمكن أن يلحق به وتضرب نهايته ظهره... ثمّ انتهى ذلك.

لا يوجد بحر، ولا ريح، ولا شيء، نافذة صغيرة في الحمام فقط.

حلم أرتيوم: كم كان الأمر جيداً، لو لم يكن هناك أحد هنا، في جزيرة الثعالب، ويستقبل غالا وحده على الشاطئ، ويقبلان شفتي بعض على الفور- أوه، كم هو رائع تقبيل المرأة التي تحبها على شفتيها- فهل يوجد أفضل من ذلك في هذا الكون؟.

تكون القبلة في البداية مالحة بسبب ملوحة مياه البحر، ثمّ بعد ذلك، عذبة بسبب الانتظار الطويل، ثمّ على الفور حلوة وحلوة، ومرّة أخرى حلوة بسبب السعادة.

... دخل أرتيوم الحمام جاهزاً للحرارة، والجّلْد بمكانس سولوفكي دون أيّ هوادة.

كان الرجال يتدفئون هناك.

لم تناد غالا كرابين، لذلك حاول تفريغ غضبه بطاهي طعام الثعالب الذي سرعان ما صاح، وهرب ليبرد قليلاً. صمد مختلس الخزينة لدقيقة أم دقيقتين تحت

ضربات المكنسة، ولكن كرابين الغاضب من ثباته، رشّ المزيد من الماء على حجارة الموقد، لصعود المزيد من البخار، ورسم بضربات المكنسة دائرة من اللهب جديدة على جسده، حدّق ذاك بعينيه المنتفخة أيضاً، وهرع نحو حوض الماء البارد، حيث أدخل رأسه في الماء مباشرة، على أمل أن لا يغلي عقله حتّى النهاية...

أفاناسييف الوحيد الذي تحمّل هذا العذاب- فقد أصبح لون جسمه أحمر كلّه مثل غرّته، ولكنّه رغم ذلك لم يصدر أيّ صوت، وتحمّل، عاضّ أعلى يده، ومغلقاً عينيه بشدة...

خرج مترنحاً، ومتشبثاً بالجدران السوداء من الشحار، وهو عارٍ، إلى الشارع مباشرة.

حاول طاهي الثعالب إيقافه: "إلى أين أنت ذاهب، هناك هذه... المرأة "، لكن أفاناسييف لم يسمع أيّ شيء.

لم يعد هناك قوّة كافية لدى كرابين من أجل أرتيوم

صعد أرتيوم إلى الرف العلوي المليئ بأوراق البتولا المتناثرة، واختفى في النعيم، مدّ ساقيه، وغطّى رأسه بيديه، وتنفّس كما لو كان يسبح في مياه نهر مغلية... خطرت له فكرة فجأة، أنّه سعيد على أيّ حال- في سولوفكي البعيدة هذه، إذ تنعدم الحرية، ومحاطاً بألم بشري، على جزيرة صغيرة تفوح منها رائحة الثعالب، وليس بعيداً عن امرأة مجنونة، وقع في حبّها- لقد أحببتها أليس كذلك؟..- وهي كانت مستلقية هنا، منذ قليل، على هذا المقعد، عارية...لو يجد قطرة تدحرجت منها، على الأقل...

شعر بالسعادة حتّى من وجود أفاناسييف الذي عاد من الشارع، ملفوحاً من الريح هذه المرّة، ودخل إلى غرفة البخار وضرب أرتيوم على فخذه، بيده البارد المبللة :

" تحرّك، أفْسِح لي!".

انقلب أرتيوم على ظهره، ثمّ جلس، وأنزل ساقيه، وهو يفرك العرق والوسخ من على صدره بيده اليمنى، من وقت لآخر، ويستمع إلى دقات قلبه المتناسقة.

رشّ أفاناسييف المزيد من الماء على الحجارة.

هسهس الموقد، مثل الثعبان غورينيش، الذي جرى القبض عليه، وقيّد بالسلاسل وعذّب من قبل الناس، الذين، لو كان حراً لقلاهم. كانت أنفاس هذه الأفعى ساخنة، وعطرة، لأنّهم كانوا يطعمونها منذ أن جرى أسرها، العشب واللحاء فقط.

شعر أرتيوم أنّ ناصيته حامية، انحنى قليلاً، وتحمّل، وشعر بعد وقت قصير أنّ قلبه يدق بسرعة أكثر، كما لو كان يفتح لنفسه طريقاً للخروج من صدره. انسكب العرق في أربعة جداول جديدة، وأصبحت السعادة أكثر كثافة وحرارة.

قال أفاناسييف بصوت أجشّ: " خبزت الروح مثل البطاطس المخبوزة. ستكون الحياة مع مثل هذه الروح أسهل الآن...".

كان المساء رائعاً للغاية.

قدّم الطاهي طعام العشاء في كوخ الإدارة، على طاولة كبيرة - ربّما أمر كرابين بذلك، وكان من الممكن فهم ذلك: لن يدعو غالينا وحدها لتناول العشاء عنده؟ كما أنّ إرسالها إلى كوخ فارغ، لشرب الشاي وحدها- ليس من أصول الضيافة أيضاً.

لم يكن هناك نبيذ على المائدة- يبدو أنّ كرابين لم يشرب، ولن يسمح للآخرين - ولكن بعد الاستحمام كان الجميع في مزاج رائع ورائق ولطيف وطيب.

دخل أرتيوم عندما كان أصدقاؤه، ورفاقه، قد اجتمعوا بالفعل، وجلست غالا مبتسمة على نحو غير عادي، وكان طاهي الثعالب يدور حولها، يحمل الفطائر- بالتفاح، والملفوف، والسمك، وحتّى إنّ واحدة كانت بالجبن- شيء مذهل وفقط.

تخيّل أرتيوم فجأة: "هذا هو بيتي. وهي زوجتي. يمكنني ألّا أغار عليها من أحد، ولا أتعذب جراء ذلك، لأنّه عندما ينتهي الجميع من شرب الشاي، وينهون أحاديثهم، ستبقى معي، وسأتنفس طوال الليل عنقها الدافئ...".

سأل نفسه: "... هل ذلك ممكن في الواقع ؟".

أجاب: "... ممكن - وسيحدث. لكن لن أشرب شاي الآس الأسود من ثمار سولوفكي قطّ بعد الآن".

وأبعد الكوب الفارغ عنه.

وبدا كرابين الذي كان يتحدث دون مبالاة، بشكل مختلف، حتّى إنّ عينيه أشرقتا وأصبحتا أكثر وضوحاً.

قال كرابين: "... أمس الأوّل " - ضحك بصوت خشن، ثمّ سعل، ولكن بطريقة ما مرحة أيضاً، وواصل حديثه الذي بدأه- " أخذت صنارة وذهبت لأصطاد سمكاً لأقليه. ذهبت فوريا معي، فوريا هو اسم ثعلبة" - أوضح كرابين خصيصاً لغالا-"اصطدت أوّل سمكة. كانت فوريا تدور بالقرب مني: أطعمني. قلت لها: "لا، لن أطعمك، لقد أكلت". نبحت، لكنّني واصلت الصيد، لا يوجد شيء أتحدث معها عنه. اصطدت الثانية. أصرّت فوريا مرّة أخرى. كان جوابي هو نفسه. قالت: هكذا إذن! - أمسكت كيس التبغ، وركضت عبر الشجيرات. تركت الصنارة، وركضت وراءها. جعلتني أركض وراءها، رمت كيس التبغ بين الشجيرات- وذهبت لشأنها. لحسن الحظ، رأيت المكان الذي رمت فيه الكيس- وجدته بسرعة. صنع سيجارة- رجعت وأنا أضحك. عدت إلى الشاطئ- تصوري، أنّها أكلت ما أصطده. كانت تعلم مسبقاً، بينما كانت تحمل الكيس، أنّها ستعود وتنتقم مني! وما هو مميّز، بعد كلّ شيء: لقد استلقت بالقرب مني- لتتمتع، في كيف سأقفز من الغضب. لكنّها اختارت مسافة، بحيث إذا قررت إلقاء حجراً عليها، ستكون هناك لديها فرصة للهرب... ما رأيك؟"- ونظر كرابين إلى غالا من جديد: " حتّى الإنسان نفسه لا يفكّر بهكذا خدعة!".

لقد تحدّث أيضاً عن اثنتي عشرة قصة أخرى حول طبيعة الثعالب، وكان الطباخ يسانده، ويضيف كلمة مناسبة أحياناً، رأى أرتيوم فجأة في عينيه الزيتيتين انعكاسات الحياة البرجوازية السابقة، في مناطق اللهو في موسكو، نائب كرابين للشؤون الإدارية، لا يجيد الحديث، لكنّه لم يشوّه المشهد العام اللطيف. كان من الممتع حقاً الاستماع إلى كرابين، ضحكت غالا باعتدال، كما لو كانت تراعي التراتبية التي لم تتأثر بالحمّام ولا بالشاي بعد الاستحمام- ولكن بكلّ الأحوال من صميم قلبها- لكن أفاناسييف انفجر في الضحك حدّ البكاء، ويبدو أنّه قد تشبّع بالمشاعر الأكثر رقّة تجاه المواطن، الشرطي السابق- لم يكن يتوقّع مثل هذه الملاحظة والطيبة من كرابين. ومن يرى الحيوان ويعرفه- فهو شخص حكيم حتماً في الشؤون الإنسانية.

لقد أكلوا الفطائر كلّها، ونظفوا الأطباق- بالطبع لم تلمس غالا الأكواب الفارغة، ولم تسمح لكرابين أن يناولها السترة الأمنية الجلدية: شكرا لك، أنا بنفسي.

حددوا مكان نوم غالا في غرفة أرتيوم - إذ كان ينام سابقاً مع السجين الذي تعرض للعض، والآن تقاسم هذا السقف مع أفاناسييف. كان لدى المورّد شراشف، وأغطية وسائد نظيفة للضيفة.

نام سائق القارب في الحمام. وكرابين في كوخه، إذ كان يعيش بمفرده، كمشرف.

أمّا بالنسبة لأرتيوم وأفاناسييف، فقد أرسلهما كرابين إلى كوخ السكن الثالث في الجزيرة، إذ كان يعيش نائبه لمختلف الشؤون الورقية، والطباخ الذي هو مورّد أيضاً.

كان لهذا المنزل سقيفة مغبرّة، ولكنّها مناسبة للنوم لمرّة واحدة. استلقى أفاناسييف الذي ضحك كثيراً وشبع من الفطائر، وغفا على الفور.

حاول أرتيوم قصارى جهده عدم الإتيان بأيّ حركة، وكان كلّ الوقت يستمع إلى ما يجري هناك في الأسفل. كان من الممكن النزول من السقيفة عبر الكوخ، أم يمكن أيضاً الصعود على السلم عبر نافذة السقيفة. لكنّه كان يريد بكلّ الأحوال الانتظار حتّى يهدأ كلّ شيء، حتّى لا يقلق من أيّ ضوضاء محتملة، التي ستحدث حتماً. بدأ الطباخ، كما هو معتاد بالنسبة للطباخين الشخير على الفور، وأضاء النائب للشؤون الورقية المصباح ساعة كاملة- رسم شيئاً مستوحى من وصول غالينا، ووضع جداول وأحصى ذيول الثعالب.

أخيراً، أطفأ المصباح وهدأ هو أيضاً.

مع وجود ثقل على صدره - كما لو كان مستلقياً تحت كيس دقيق- انتظر أرتيوم بعض الوقت، محاولاً قراءة الشعر بينه وبين نفسه- لكنّه توقّف في منتصف الطريق، بعد السطور الأولى، ولم يصل إلى الجلاد مع الجلادة، ولا إلى الشيطان الذي يشخر عند الأرجوحة، ولا إلى عيون الأرانب، ولا إلى الفضولي الذي يعبث تحت الهياكل...

... أمل أن يكون مضى أكثر من نصف ساعة، لكن على الغالب لا يزيد على خمس عشرة دقيقة مملّة.

نهض أرتيوم محاولاً ألّا يحدث ضجيجاً، وتحرك نحو نافذة السقيفة... وبطبيعة الحال، صرّت الأرضيات، بحيث بدا الكوخ كأنّه سينهار الآن... تجمّد أرتيوم، وقرر القيام بخطوتين ثابتتين صلبتين، سيكون الأمر أكثر هدوء بالنتيجة - ومباشرة رقع بجبهته عارضة- وكاد يصرخ من الألم... جلس مستمتعاً بالنثرات الذهبية التي وقعت في عينيه لدقيقة... لمس جبهته، ولعق يده - كان متأكداً من أنّه قد شق نصف رأسه، وكلّ شيء عنده ملطّخ بالدماء... لكن لا، كانت يده جافة...

دفع النافذة في السقيفة- أصدرت صوتاً باكياً قوياً في الظلام- من الجيد، أنّ المطر كان لا يزال يتساقط قليلاً- صوت ضرباته الخفيفة وطبطبته طغى بعض الشيء.

أم ربّما ليس كثيراً...

هبّت من النافذة نسمة باردة، لم تكن خريفية.

بصق على كلّ شيء: "وإذا كان علي أن أخرج لقضاء حاجة بدافع الضرورة- فهل عليّ أن أأتسلّل، أم ماذا؟" ونزل بشكل حاسم إلى الأسفل، مصدراً قعقعة عن عمدٍ تقريباً.

في أثناء نزوله السلم، رفع وجهه إلى الأعلى، بحيث تسقط القطرات على جبهته المصابة- كان المطر شبه أبيض اللون- لكن لم يشعر بأيّ شيء في موقع الكدمة، كما لو أنّ الماء قد تبخّر قبل أن يقترب منها.

عندما دعس على الأرض، شعر بنفسه كأنّه وحش يهرب من قفصه- حرية، ولا يوجد شيء آخر.

دون أن ينظر إلى الوراء، أسرع إلى الكوخ إذ تنام غالا. لم يكد ينقر بإصبعه، نظرت من النافذة مباشرة.

خفق قلبه: "لم تنم!".

سألت مبتسمة: "ألم تر كرابين؟"- كان صوتها مسموعاً بوضوح من وراء الزجاج- "جاء قبل ساعة ومعه تقرير عن عمله".

سأل أرتيوم، وهو يقف بالقرب من النافذة، كأنّه لا يستعجل الدخول إلى البيت:" وماذا قلت له؟".

"ماذا، ماذا...سألته ما إذا كان يريد أن يذهب إلى زنزانة العقاب- وهناك سيقدّم تقريره حول جميع المسائل".

...تصرّفت بجنون: طلبت أن يلمسها، ويخدشها، ويعجنها، وكانت هي نفسها تخدش، ولم تستحي أن تفعل أيّ شيء، كأنّها لم تقابل قطّ شخصاً من تركيبة فيزيولوجية أخرى، وأرادت أن يذكرها إلى الأبد، بأدق التفاصيل التي لا يمكن تصورها...

كانت غالا معه عارية تماماً لأوّل مرّة: لقد أصابه ذلك بالجنون.

فكّر أرتيوم بعد ذلك، ليس بحزن، ولكن باستغراب ووقار وشكر فقط: "كيف ذلك، في البداية تلتصق المرأة في أثناء التواصل الجسدي أكثر بكثير من التواصل الروحاني. وتتشبع بالتواصل الجسدي قبل التواصل الروحاني بكثير. ألا ينبغي أن يكون الأمر بالعكس؟ ".

ضحك أرتيوم من نفسه: "وكيف يمكن أن يكون الأمر هنا بالعكس. هل كان عليك أن تأخذها من ذراعها في نزهة إلى البحر لثلاثة أشهر متتالية؟"

لم تكن هناك إمكانية لفعل العكس. كان عليهما ليتعرّف بعضهما بعضاً، أن يتجردا من ملابسهما بالكامل.

تحركت الثعلبة مرّة أخرى على السطح، وغالباً ما كانت تغيّر مكانها - لم تسمع مثل هذا الضجيج والتمرّغ من قبل.

" من هذا؟"- لاحظت غالا خطوات الثعلب متأخرة: قبل ذلك، كانت تسمع فقط ما يحدث داخلها.

" إنّها ثعلبة، ثعلبة".

"لماذا هي على السطح؟".

" هناك دفء ".

"... نعم، أشعل كرابين المدفأة..."- ألقت اللحاف عنها.

كانت مستلقية بهدوء كقديسة. لكنّها كانت مضحكة قليلاً- وحاولت ألّا تنظر في عينيه. أمّا القديسون فينظرون- دائماً في العيون.

نهض أرتيوم على مرفقه، ومسّد بطنها بيده.

أيّتها الوديعة. حلوتي.

ابتسمت- التصقت شفتاها قليلاً، ونظرت إليه أخيراً، زارّة عينيها قليلاً في الظلام، كما لو كانت قصيرة النظر- وشعر أرتيوم بحنان رهيب، تجاه هذين العينين وهاتين الشفتين، وبألم، وحياة في داخله.

كانت تعرف بماذا كان يفكّر.

قالت غالا: "عندما تجردني من ملابسي، أبدو كما لو أنّني أخرج من البحر، أصبح نظيفة - لا أشعر بالخجل. أنا نظيفة الآن أكثر من أيّ وقت مضى.

قال أرتيوم: "نعم": ليس بمعنى أنّه موافق، وإنّما يسمعها.

ثمّ فكّر، وأحنى رأسه على وجهها مباشرة، وهمس في أذنها - لأنّه كان من المحرج أن يقول ذلك بصوت مسموع:

"سعادة... لا يمكن تحمّلها... على الرغم من أنّه في داخلي... في داخلك..." - وبعد ذلك تحدّث بسرعة- " جزء صغير مني فقط..."- ثمّ توقّف، وأكمل: " لو كان من الممكن أن أكون بداخلك- بالكامل؟ تجري كلّ دمائي فيك، كلّ...هناك جنّة!".

أجابت غالا، بعد تفكير، كما لو كانت تستمع إلى الحرارة التي بداخلها، عابسة قليلاً، ولكن بشكل لطيف للغاية: "...غباء، غباء، غباء... لا يوجد هناك جنّة. هناك درجة حرارة لا أحد غيري يستطيع تحملها...".

ضحك أرتيوم، دون أن يصدر صوتاً، ونفخ أعلى قليلاً من نهديها، وكان فمه يكاد يلامس جلدها- هكذا اعتاد أن ينفخ على النافذة عندما كان طفلاً، محاولاً أن يتطلّع إلى الشارع، ليرى سائق العربة، والنصب الذي ألصقت عليه الإعلانات عند تقاطع الشوارع.

لقد تذكّر فجأة ذلك اليوم الذي استدعته فيه غالا وأخافته: " لماذا سألتني عن يسينين وقتها؟".

أجابت غالا ببساطة: "أحبّه. وأحب اوتكين، ومارينغوف، ولوغوفسكوي.. وتيخونوف أيضاً[1]".

---

(١) شعراء وكتاب روس نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بعضهم كانت لهم مواقف معارضة للثورة. [المترجم].

سأل أرتيوم: "هل هذا صحيح؟".

قالت باستياء لا يكاد يحسّ:"ولم لا؟ وماذا يمكن أن يحب الإنسان أيضاً؟".

نظر إليها بدهشة وفرح، كما لو أنّه في كلّ مرّة يخلع عنها ليس الملابس نفسها، وإنّما ملابس جديدة، ثمّ - وهي عارية خلع ثياباً أخرى- ثمّ - مرّة أخرى وهي عارية - وفي المرّة الثالثة خلع عنها غطاءً غير مرئي- وتبيّن أنّها هي نفسها في كلّ مرّة، لكن أفضل وأفضل.

عثرت غالا على سترتها العسكرية، وطلبت منه الانعطاف.

أطاع، وفكّر:" منذ لحظة كانت مستلقية دون أيّ شيء، ولم تطلب أن يستدير، لكنّها عندما بدأت في ارتداء ملابسها و- "استدر!". بدت مضحكة".

تجلس غالا في سترتها العسكرية الآن - ولا ترتدي شيئاً أخر غيرها، وكان يليق بها ذلك بشكل ممتاز.

بحثت حولها بعينيها، ولم تجد أيّ شيء بالقرب منها، غطّت نفسها حتّى خصرها باللحاف- على ما يبدو، كانت ستقول شيئاً لم يكن من المناسب أن تقوله وهي عارية.

"لدي خبر سار جداً لك" - قالت غالا بمهابة، وبصوت غير مألوف تماماً، ليس أنثوياً لاهثاً وباكياً، وليس متسلطاً لا يطاق وبارداً، ولكن بصوت ثالث- "... جاءت والدتك إليك. لقد كتبت طلباً للحصول على موعد للقائك- ووافقت عليه". نظرت غالا في عيون أرتيوم.

رمش أرتيوم، واستدار.

كرّرت غالا: "لقد جاءت على الفور". وسألت دون انتظار إجابة: "ماذا بك؟".

"نعم، هذا جيد"- قال، لكن هذه الكذبة كانت مسموعة جداً، لا سيّما أنّ أرتيوم كان يكرّر بينه وبين نفسه، بحزن ونفور:"...لماذا كلّ ذلك؟ ماذا تفعلين

طوال الوقت يا غالا! وأنا لم أحاسبك بعد بشأن سيفتسيف وزاخار- نسيت على الفور كلّ شيء عندما وصلت إلى ثدييك الأبيضين - أنا حيوان، حيوان !.. ".

"ما بك؟" – استوضحت غالا، ولكن بنبرة مختلفة، وبصوت أعلى- " ألا تريد أن ترى والدتك ؟". رفع أرتيوم عينيه وظلّ صامتاً. "لقد أخذت قارباً عمداً وأتيت من أجلك- من أجل أن... أفرحك! والدتك تنتظرك! وأنت ألا تريد الذهاب؟"- استمرت في طرح الأسئلة، كما لو كانت غير قادرة على تصديق ما يحدث، ولكن بدلاً من الإجابة، قام أرتيوم بتمسيد خده، وكان خده خشناً، وقاسياً، لكنّه ساخن من القبلات. "ماذا بك أيّها المسخ؟"- سألت غالا عاجزة بغضب، وحتّى إنّ يديها - كانتا جاهزتين قبل لحظة لضربه على خده - بدت كأنّهما ضعفتا.

بدت أسئلتها كما لو أنّه، يرفض لقاء غالا، وليس والدته. كما لو أنّها عرفت شيئاً عنه، يستبعد تماماً إمكانية التقارب بينهما نهائياً- أيّ حق يملك بعد سلوكه هذا، في أن يراها وينفث في جلدها تماماً؟.

أدرك أرتيوم: " كلّ شيء سينتهي الآن بشكل سيئ مرّة أخرى... لماذا في كلّ مرّة ينتهي الأمر بشكل سيئ...عندما أبدأ أشعر بالسعادة، وبأنّ كلّ شيئ جيد- وعلى الفور يصبح كلّ شيئ سيئاً".

قال على عجل: "سأذهب، سأذهب"، على الرغم من أنّه فهم بشكل غامض، أنّه لا يجب الذهاب إلى أيّ مكان، وكان لديه شعور داخلي، يقول له، إنّه لا ينبغي أن يفعل ذلك، لكنّه لم يسمع هذا التلميح، و كرّر مرّة أخرى: "سأذهب- سأذهب- سأذهب. ببساطة لقد دهشت جداً. لم أنتظر قدومها على الإطلاق. كيف لا تفهمين- هذه مفاجأة. أنا هنا- وفجأة أمي"- كان أرتيوم يقنع غالا، وحتّى هو نفسه بدأ يؤمن بكلامه المتسرّع: كيف كان عليه ألّا يتفاجأ، لكنّه الآن أدرك كلّ شيء، وهو ممتنٌّ لها- لا يسمح للجميع باللقاءات، لكنّها فكّرت كيف تفرحه- غالا جيدة، جيدة، جيدة، ولطيفة وحنونة، يجب القيام بكلّ شيء، حتّى لا تتكدّر.

في البداية لم تصدّقه على الإطلاق، ثمّ صدّقته قليلاً، ثمّ بعض الشيء، وفيما بعد استسلمت وصدّقت أكثر من ذلك بقليل، ثمّ وبعد ذلك سمحت له بتقبيلها على مضض، نصف ملتفتة تجاهه... لكن القبلة التالية كانت على شفتيها، وفتحت شفتيها، وكان فمها متعباً، لكنّه حار... ألقى أرتيوم هذا اللحاف الذي غطت به نصفها، والذي ملّ منه بالفعل، واكتشف أنّ كلّ شيء لديها كان ساخناً ويتدفق- عيناها فقط بردتا، لكنّني سأقبّل هاتين العينين الآن، سأقبلها وأدفئها، لكنّ اللحاف... لا حاجة له على الإطلاق، حتّى على قدميها.

في الوقت الذي كان لا يزال موجوداً عند غالا- تساقط الثلج بشكل غير متوقع- تساقط على ما يبدو، بلا انقطاع، بينما كانا يخدشان بعضهما بعضاً هناك- لم تكن قد تشكّلت طبقة كثيفة بعد، لكنّها مستوية وهشّة.

سقط الثلج، وذهب أبعد من ذلك إلى الجزيرة الكبيرة.

كان كلّ شيء جديداً حوله، لم يسبق له مثيل من قبل.

قرّر أرتيوم، معجباً بذلك: "حسناً، ليس سيئاً. النجوم من فوق، والثلج في الأسفل".

كرّر: "شيء جيد !"، وقرّر تأجيل التفكير بخصوص والدته حتّى الغد، وهرع إلى غرفته.

بعد خطوات عدّة، نظر إلى الوراء على أمل: ربّما غالا تنظر إليه- وهنا خفق قلبه مباشرة من الرعب: آثار أقدامه الواضحة تنطلق مباشرة من الكوخ، ووقف في نهاية طريقه، مثل علامة تعجب.

شتم أرتيوم بصوت مسموع: "يا للشيطان. ليأخذني الشيطان!".

عاد إلى الوراء وهو يحاول أن يزيل آثار دعساته بقدميه.

بقي وراءه مسار أسود عكش يؤدي إلى الكوخ. كان الأمر كما لو أنّ أرتيوم طار على عصا مكنسة، وقفز بالقرب من المنزل، وزحف بقية الطريق: خذي خادمك، أيّتها النبيلة، ودفئيه في تنانيرك.

"ماذا، ماذا يفعلون في مثل هذه الحالات؟" - فكّر أرتيوم، مخموراً بفرحه المطلق وشبابه، وهو واثق إلى حدّ الآن، من أنّه سيتوصل إلى ما يجب فعله - "ربّما أخلط آثار الأقدام؟ لنفترض أن أعود وظهري إلى الوراء...".

حاول أرتيوم - اتضح أنّ الأمر أصبح أسوأ - كما لو كان قد جاء إلى غالا - وقرّر عدم العودة.

"سيخرج كرابين في الصباح، إنّه شرطي خبير - سيحدّد على الفور من خلال فردتي الحذاء من أمضى الليلة عند غالا. سيسأل: "ماذا تفعل آثارك هناك؟". سأجيب: "كيف لي أن أعرف؟ ربّما ارتدى أفاناسييف حذائي ومشى به...".

" هكذا بالضبط!" - ابتهج أرتيوم - "إنّه ينام بعمق، سألبسه حذائي. وهكذا سأنتقم منك يا أفاناس من أجل أوراق اللعب!..".

"لكن ماذا عن غالا؟ ستكون غالا موضع اشتباه في أنّ الشعراء ذوي الشعر الأحمر يزورونها ليلاً".

حاول أن يمشي مرّة أخرى، كما يسير جميع الناس، وجهه إلى الأمام - حدث كما في السابق: لا أحد يعرف كيف جاء إلى غالا، ومن هناك ذهب إلى السقيفة. سيراقب كلّ من في الحضانة هذا المسار في الصباح.

فكّر أرتيوم: "ربّما آخذ الآثار باتجاه البحر؟ وسيعتقد الجميع أنّني غرقت. وأنا - فجأة! - مستلقٍ مكاني نائماً!. "ما الأمر؟" - سيسأل كرابين مستغرباً عندما يظهر رأسه الضخم في السقيفة صباحاً. "لماذا أنت لست في البحر؟" - سيسأل كرابين كشرطي، لا تتوافق الأدلة معه. "ولماذا يجب أن أكون في البحر، هل أنا باخرة غليب بوكي؟".

... لا، هذا لا يصلح أيضاً.

أمسك أرتيوم بالمجرفة التي كانت بالقرب من العتبة، وسار على مهل نحو سقيفته، وهو يجرف الثلج خلفه في الوقت نفسه.

اتضح أنّ ذلك مجرّد هراء كامل. فالثلج في كلّ مكان لم يلمس- أمّا بالقرب من المنزل الذي تنام فيه غالا كما لو كان قد سار عليه جرار.

"... دعهم يكتشفون من جاء إليها على جرار في الليل..."- حاول أرتيوم أن يبهج نفسه، لكنّ الأمر أصبح غير مضحك. لا بكلّ الأحوال سلك الجرار مسار من درج السقيفة إلى كوخها بالضبط.

تخيّل: "ربّما سأجرف الثلج في جميع أنحاء الجزيرة؟ سأنهي ذلك حتّى الصباح بالضبط. أم على الأقل بالقرب من منزل غالا. سيخرج كرابين ويقول: يا لها من معجزة، تساقط الثلج في جميع أنحاء الجزيرة، أمّا هذا البيت فكأنّه غطّي بقبّة... ربّما سيؤمن شرطينا بالله...".

... لم يكن هناك من حلٍّ - قرّر أرتيوم أن يقلب أكبر قدر ممكن من الثلج باستخدام المجرفة، والعودة بممرات ملتوية، عبر العيادة البيطرية- الشيء الرئيس ألّا يظهر أحد، وإلّا فسوف يكون مضطراً للتوضيح: قرّر القيام بالتنظيف، فالثلج في كلّ مكان- غير مرتّب.

منجذبين نحو الحركة، ركضت ثلاث قطط جائعة دائماً، وكلب على أمل أن أرتيوم سيلعب معه، لذلك حمل مجرفة، وفي الوقت نفسه نزلت فوريا من على السطح، وهي تلعق الثلج الذي علق على خفيها... وقف أرتيوم وسط الحيوانات مثل بابا نويل الشاب الذي ضلّ الطريق. حاول إخافتهم- لكن لم ينجح، فالكلب، على سبيل المثال، أبهجه ذلك وبدأ ينبح، ولم تفقد القطط إيمانها أنّ أرتيوم سيخرج السمكة من جيبه، وأمّا فوريا فلم تخف من أيّ شيء على الإطلاق، وكانت تنظر إلى القطط كلّ الوقت وتخفي شيئاً ما في سرّها- كلّ الوقت سمك وسمك فقط...

صدر صوت نافذة تنفتح، نظرت غالا وهي في السترة العسكرية، إلى الخارج مندهشة.

رفع أرتيوم المجرفة، وحياها، محاولاً الابتسام. كان يجب قول شيء ما، لكن ماذا؟.

"هل جننت؟" - سألت بغضب، ناظرة إلى الحيوانات وحبيبها في وسطهم - "ماذا تفعل مع المجرفة هنا؟".

لم يكن هناك جواب.

ذاب الثلج كلّه بحلول الصباح: كما لو أنّ سحابة عاصفة ضائعة نقلت إلى الجزيرة أمس أربعين دلواً من الثلج، واختفى أثره اليوم.

لم يلاحظ أحد. وبقيت آثار أقدام القطط والكلب في الطين المتجمد، وهذا كلّ شيء.

كانت شجرة الصنوبر فقط، تقف بالقرب من العيادة البيطرية مثل الحمقاء، في غطاء أبيض متسخ غير ذائب، وفي مريول بالٍ.

قالت غالا لكرابين: "يجب أن نذهب، فقد تهبّ عاصفة فجأة مرّة أخرى".

التقيا في ساحة صغيرة بين العيادة والحمام وكوخ ألإدارة.

جلس أرتيوم وأفاناسييف على شرفة العيادة المغطاة. كان أفاناسييف صامتاً ومتوتراً. لقد انتظر كثيراً موافقة أرتيوم على طلبه.

أجاب كرابين على طلب غالينا: "بالطبع".

يبدو أنّه كان غير مرتاح بشأن تصرفه أمس- هو نفسه لم يستطع أن يفهم كيف خطر له ذلك: مع التقرير...في الليل... كلّ شيء كان واضحاً ببساطة: لم يصدر عن هذه المرأة اليوم، الصعق المسْكر الذي صدر عنها أمس.

لكن رأسها الأسود الصغير، على خلفية السماء العكرة، أقلق أرتيوم.

قالت غالينا: "جاءت والدة غوريياينوف لزيارته، وسيغادر على قاربي".

ابتسم كرابين، ولوّح بيده لأرتيوم:

"هل سمعت؟".

نهض أرتيوم، وابتسم بتكلّف قليلاً، ردّاً على ذلك:

"نعم سيدي!".

صاح كرابين: "لماذا لم تقل شيئاً حول ذلك!". كانا يتحدثان عموماً بصوت أعلى من اللازم- رغم أنّه كان يمكن أن يسمعا بعضهما بعضاً دون أن يرفعا صوتيهما - "أحضر الطرد إلى هنا، لا تأكله في الطريق!".

أومأ أرتيوم برأسه موافقاً، ولم يكلّف نفسه هذه المرّة عناء الابتسام.

لم يكن لديه شيء ليجمعه- كان يأمل في العودة قريباً- وماذا يفعل هناك، على الجزيرة الكبيرة، من الأفضل انتظار غالا هنا. أخذ ورقة إذن فقط للمرور عبر بوابة نيكولسكي، وارتدى جواربه الصوفية، لأنّ قدميه قد بردتا.

كانت غرفته مرتبة بأيدٍ نسائية- لم يفهم كيف تجلّى ذلك، لكن قلبه أصبح دافئاً. أمسك أرتيوم بالوسادة بسرعة وهو على وشك الخروج، واستنشق رائحتها: تنبعث منها! تنبعث منها رائحة شعر أمّه!- وألقى الوسادة على الأريكة من جديد، لكنّه عاد بعد ذلك، وأخفاها تحت اللحاف: ربّما تحتفظ بالرائحة.

"وداعاً، سأسلّم تقاريرك إلى نوغتيف"- قالت غالا بنشافة لكرابين الذي همّ لتوديعها. خمّن أرتيوم أنّها لا تريد أن يذهب معها إلى رصيف الميناء- لماذا التظاهر بإظهار المشاعر...

كان كرابين نفسه مثقلاً بما يحدث، قدّم التحية العسكرية، واستدار، وهرع باتجاه الحاضنة. ركضت نحوه فوريا الحنونة إلى درجة الخنوع.

ابتهج أرتيوم: "من الجيد أنّها لا تتكلم. وإلّا لكانت فضحت الأمر الآن...".

سارا إلى رصيف الميناء بصمت، بقي أرتيوم متأخراً عنها قليلاً.

كان قائد القارب قد جلس في مكانه.

قالت غالا أخيراً، بصرامة تخفي وراءها متعة واضحة، دون أن تنظر إلى الوراء:

"سر أمامي. أنت تتفحّصني".

ابتسم أرتيوم، سبقها واستدار بسرعة لينظر في وجه غالا. وفي الوقت نفسه رأى أفاناسييف. كان يسير على مسافة، دون قبعة، مفكوك الأزرار، لا يجرؤ على المناداة - مثل كلب متروك.

عندما بقي عشرون خطوة للوصول إلى رصيف الميناء، وقف أرتيوم على جسر المشاة، وظهره إلى البحر، وكأنّ شيئاً لم يحدث، وقال بصوت عالٍ حتّى يسمعه صديقه، الذي شعر بشيء ما، وزاد من وتيرة سرعته:

" يجب أخذ أفاناسييف معنا!- وأشار لغالينا بيده إليه: هذا هو - أرسله المواطن كرابين إلى الدير من أجل أن يأتي بالأدوية.

"هل لديك أوراق بهذا الشأن؟"- سألت غالينا، وهي تنظر إلى أفاناسييف غير المرتّب من رأسه إلى أخمص قدميه، لكنّها تجاوزت نظراته الفضولية.

ربت أفاناسييف على جيبه، راسماً ابتسامة عريضة على وجهه: "هنا!"

جلست غالا في الأمام بوجه خال من أيّ تعبير كعادتها، دون أن تقول شيئاً.

لم يكن لدى أفاناسييف أيّ أوراق بالطبع.

عندما تحركوا بالفعل، وهدر المحرّك، ركض كرابين إلى الشاطئ، ولوّح بذراعيه، لكن رآه أرتيوم الذي كان جالساً ووجهه نحو الشاطئ فقط، وهو أيضاً استدار على الفور.

كان جذع أمس مستلقياً مرّة أخرى على الشاطئ، في انتظار شخص متعلّم.

... بعد وقت قصير من الإبحار، شعر أرتيوم ببرد شديد حتّى الازرقاق.

لم تنظر غالا إلى أرتيوم ولا مرّة واحدة، كانت تتجاوزه بنظراتها.

تساءل أرتيوم، وهو يرتجف: "هل هي غاضبة إلى هذا الحد... من أجل والدتي؟ لا، لا... إنّها لا تريد أن يلاحظ أفاناسييف فقط... هذا الشاطئ الملعون، متى سيظهر".

ظهر الكرملين في الضباب كتهديد.

غادرت غالينا رصيف الميناء بصمت، دون أن تودّع أحداً، كما لو أنّها كانت وحدها في القارب. وإذا ما كان هناك شيء ما، فبعض رزم الثياب القذرة الملقاة هناك، دع الآخرين يتعاملون معها.

لقد فهم أرتيوم كلّ شيء بالطبع، لكنّه انقبض رغم ذلك - من البرد الذي اكتسبه في الطريق، ومن استيائه السخيف.

"العاطفة تجعل الإنسان مشبوهاً "- صاغ لأوّل مرّة في حياته فكرة غير مكتسبة، لكن من خبرته وإن كانت قليلة.

وهما في الطريق إلى بوابة نيكولسكي، لمسه أفاناسييف من كتفه وأوقفه، قاطعاً عليه الطريق.

قال: "لقد جلبتني معك، أنا مدين لك يا تيوما".

لم يشعر أرتيوم بأصابع قدميه على الإطلاق. لو كان هناك حمّام مرّة أخرى، كحمّام أمس.

"هراء"- قال أرتيوم، وهو يفتح شفتيه بصعوبة، ويتطلّع نحو جنود الجيش الأحمر، وهم يتحركون في نقطة الحراسة- كانت أحذيتهم لا تزال صيفية. لوّح برأسه بمعنى: دعنا نذهب بسرعة، يا أفاناس.

تغضّن أفاناس، بمعنى: انتظر، اسمع، هذا شيء مهم.

قال أفاناسييف، وهو ينظر جانباً: "تيوما، عليك أن تعرف، عندما أرسلوني إلى هنا... أمرني بورتسيف أن أحاول أعرف منك، بشكل غير ملحوظ، بخصوص غالينا. فيما لو جاءت إلى جزيرة الثعالب- وعلم بورتسيف بطريقة ما أنّها ستأتي- أمرني أن أتلصّص عليكما".

جعل ذلك أرتيوم يهتزّ قليلاً - وأصيب بدوار على الفور، كما لو كانوا قد قلبوه رأساً على عقب، وبعد ذلك وضعوه على الأرض فجأة.

"هل راقبت؟"- سأل أرتيوم، وأدرك فجأة أنّ أفاناسييف لم يكن نائماً أمس، وإنّما صمت عمداً على الفور، واستدار ليوهم أرتيوم أنّه نائم، حتّى يخرج.

قال أفاناسييف، وهو يواصل النظر جانباً: "إنّه يعرف كلّ شيء عنكما، يا تيوما. يجب أن تكونا حذرين. ولا سيّما أنت. هي يمكن أن يطردوها من هنا فقط، أمّا أنت فسيضيفون لك خمس سنوات أخرى، ويضعونك على الفور في زنزانة العقاب... سيقتلكونك، يا تيوما".

"هذا ليس شأنك، أيّها الأحمر"- قال أرتيوم، وشدّ فكيه المذرقين، حتّى آلمته لثته.

"ليس شأني"- وافق أفاناسييف دون زعل.

دفعه أرتيوم بكتفه قليلاً، ومشى بخطوات خشبية نحو بوابة نيكولسكي.

تحرّك أفاناسييف في اللحظة نفسها وراءه، مغمغماً بصوت ضعيف وواضح، ولكن كما لو أنّه دون علامات ترقيم:

"لو كنت أنت حراً، لما كنت لتنظر إليها. إنّها عادية جداً. إنّها جميلة لأنّها- سلطة. لو كانت سائق ترامو، لكنت استدرت ونسيتها. احترس، يا تيوم".

نظر أرتيوم خلفه بحدّة، لكن أفاناسييف الذي خمّن كلّ شيء على الفور، رجع خطوتين إلى الوراء، رغم عدم وجود خوف في عينيه:

"أعلم، أعلم، أنّك تستطيع. لقد رأيت. لا تفعل ذلك يا أخي. فأنا أحبك".

" تحبني؟"- سأل أرتيوم بصوت أجشٍّ غير متوقع - مثل ضمادة قديمة نزعت عن الجرح- " أنت الذي وضعت لي أوراق اللعب، أيّها الكلب؟".

تغضّن أفاناسييف، كما لو أنّه شعر للحظة بألم حادٍّ تحت ضلوعه، ولم يجب.

أمر أرتيوم: "إذن أذهب إلى...".

في فناء سلوفكي، لو لم أراه لقرن من الزمن، على أساس جرت تغييرات، لكن غير مفهومة حتّى الآن.

نعم، بقي القليل جداً من النوارس، وكان صراخها أضعف بكثير. نعم، جرى كنسها وتنظيفها - قبل وصول رئيس المعسكر الجديد. وأصبح عدد السجناء الذين يتسكعون في الفناء دون عمل أقل بكثير، كما لو أنّهم وجدوا عملاً للجميع.

كان بليك لا يزال على حاله، وعرف أرتيوم، أمّا ميشكا فقد نحف قليلاً وبدا كأنّه يشعر بالبرد.

بالقرب من مدخل قسم المعلومات والتحقيقات، وقف جندي من الجيش الأحمر، من فوج الحراسة، وبجانبه بورتسيف الذي كان يمسك بجندي الجيش الأحمر من ذقنه، كما لو أنّ يده متشنجة.

كان بورتسيف يكرّر: " ما هذه الذقن الخشنة؟ لما ذقنك خشنة يا خنزير؟ ربّما تخدم في جيش فاتحي أميركا؟".

سارع أرتيوم للدخول إلى مبناه السابق بسرعة، مدركاً حقيقة وجود فكرتين خطرتا له في الوقت نفسه:"كان أفاناسييف على حق، أنّ هذا الرجل المتعنجه، حصل على الكثير من السلطة- إذ كان يؤدّب الحراس !.." - و: "... ربّما يكون جندي الجيش الأحمر مقتنعاً أنّ "الفاتحين" شتيمة باللغة الألمانية...".

كان أرتيوم يعاني من البرد كثيراً لدرجة أنّه نسي بما كان يفكّر فيه، حتّى عندما كان يصعد الدرج: الأهم أن يتدفأ، الأهم أن يتدفأ، وإلّا فإنّه سيمرض، ويبدو أنّه قد مرض بالفعل.

في غرفته السابقة- يا لها من معجزة- جرى تدفئتها تقريباً كما الحمّام، وكانت نظيفة، وتنبعث منها السعادة.

نظرت والدة تروويانسكي إلى ابنها غير فاهمة، لم يلاحظ أرتيوم نظرة أم إيماءة أوسيب الجوابية، لأنّه خلع مباشرة حذاءه المتجلّد من البرد، وانهار على السرير مباشرة، ووجهه إلى الأسفل.

قال تروويانسكي بشراسة: " هذا هو سرير أمي".

فكّر أرتيوم بهناء: "اضربني بالوسادة على ظهري، أيّها الفارس".

لقد تذكّر فجأة، كيف ضرب تروويانسكي على شفتيه قبل شهر ونصف من الآن- ليس بقوّة، ولكن بشكل ملموس، بحيث كادت رقبته تنخلع.

على كلّ حال، وحسب نطق أوسيب، فقد شفي فمه.

قالت الأم بصوت منخفض: " نحن سنغادر على أيّ حال يا أوسيب".

إنّهما يتحدثان عنه كشخص مخمور وغير طبيعي.

فكّر أرتيوم: "إلى أين هما ذاهبان؟هل حقاً سيتركونه يذهب في مهمّة عمل دون حارسٍ؟..".

"أوه"- صرخ أوسيب فجأة.

توتر أرتيوم قليلاً، لكنّه رغم ذلك لم يستدر.

سمع صوت الأم: "ماذا هناك ؟".

أجاب أوسيب بعد بعض الوقت: "دبوس. كان في جيبي".

قالت الأم بتأنيب: "لم تدعن أغسل لك سروالك، يا أوسيب. من أين لديك دبوس في جيبك، لماذا؟".

"لقد اشتريته له"- قال أرتيوم، وهو يحرّك أصابع قدميه التي بدأت تدفئ بالتدريج، ويستنشق رائحة غطاء السرير النظيف والمغسول ليس قبل أمس.

توقع أرتيوم بشكل مدهش، حسب الصمت الذي ساد،، أنّ كلٍّ من الأم والابن ينظران إلى أصابعه المتحركة في الجوارب الرطبة. أوسيب بنفور مقزز، ووالدته- برغبة لا شعورية، خلع جوارب أرتيوم وتجفيفها فوق الموقد.

سخر أرتيوم بينه وبين نفسه : "يبدو أنّني تعلمت أن أرى من مؤخرة رأسي".

من الجيد أن تستلقي ، ووجهك على الوسادة - يمكنك حتّى أن تري لسانك للناس، أمّا هم فلا يرون أيّ شيء.

بعد دقيقة غادر ترويانسكي وأمه الغرفة. يبدو أنّ أوسيب ذهب ليودّع زملاءه في منشأة استخلاص اليود، أمّا الأمهات فيجدن دائماً لأنفسهنّ أعمال نسائية يقمن بها.

أدار أرتيوم رأسه، ونظر بطرفي عينيه، ورأى حقيبة سفر ضخمة، وأخرى قماشية صغيرة: إنّهما يغادران حقاً! ماذا يحدث...

... لن يتمكّن أرتيوم فيما بعد قطّ، من فك شيفرة، كيف أتته هذه الفكرة البسيطة والرهيبة في آن معاً، التي ألقته بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى على السرير.

بدأ الأمر على الأرجح، من إدراكه لواقعة رحيل عائلة ترويانسكي، ثمّ فكّر أنّه سيبقى هنا، فلتذهب إلى الجحيم عائلة ترويانسكي، وهو سيبقى ينتظر هنا، بعد ذلك تذكّر أنّ نذل بيتر بورغ الأحمر يستعد للهروب، وليذهب للجحيم هو أيضاً، ولكنّه مباشرة تخيّل بوضوح بورتسيف الذي كان يؤنب جندي الجيش الأحمر، وخطرت له كلمات أفاناسييف حول أنّه سيجري الاستيلاء على مستودع الأسلحة في أثناء الهروب... وسيقتلون جميع رجال الأمن!- اخترقت أرتيوم هذه الخواطر- وأخيراً، الأهم: سيقتلون غالا! سيقتلون غالا بالتأكيد! جميع رجال الأمن الذين يعملون في قسم المعلومات والتحقيقات يعيشون في المبنى نفسه- في فندق بتروغراد السابق، وراء مبنى الإدارة! سيذهبون إلى هناك ليلاً، ويطلقون النار على الجميع!.

ازدحمت جميع هذه الأفكار بلحظة واحدة، في أقلّ من لحظة- تمكّن أرتيوم أيضاً من تخيّل أنّ غالا تفتح بابها، عندما تسمع الضوضاء وإطلاق النار- لقد

اعتادت، في الغالب، عربدة رجال الأمن المخمورين، ولكن هنا هذه الحثالة الحقيقية زادت عربدتها أكثر من المألوف - وفي عجلة من أمرها، ألقت معطفاً على جسدها نصف العاري، وخطت، خطوة في الممر المشترك، غاضبة، ونعسة، تلتفت نحو أصوات خبط الأحذية والضجيج، وهنا مباشرة تطْعن بحربة في بطنها على الفور، لأنّ السجين المذهول والملطخ بالدماء لم يلحق أن يلقّم بندقيته - ولم يكن لدى غالا الوقت حتّى تتبيّن وجهه.

أمسك أرتيوم برأسه حتّى لا ينفجر.

كرّر: "أب - له! أبله! أيّ أبله أنت! إنّ عادة عدم التفكير في أيّ شيء، والعيش حسب التيار، ستقتلك! حسناً، إذا كانت ستقتلك وحدك - ستقتلها هي أيضاً!".

كان لا بد من فعل شيء. هذا ليس تجريف ثلج بالمجرفة بالنسبة لك. بدت مخاوف أمس حمقاء وطفولية... ما قيمة الآثار على الثلج، تجاه هذا الشيء الذي يجري التحضير له! ما هو هذا- الشيء؟ جريمة؟ لكن أرتيوم لم يعتبر ذلك جريمة- لم يشك لدقيقة واحدة في أنّ السجناء لا يحق لهم الهرب- إنّهم يقتلونهم هنا- إنّهم يهربون بعيداً من هنا، في سبيل أن يبقوا على قيد الحياة- من يمنعهم؟.

لكن- غالا؟ ماذا بشأن غالا ؟ لا بدّ أنّها تسبّبت في الكثير من الأذى للعديد من الناس هنا- بالتأكيد يريدون قتلها. أولئك الذين جعلتهم مخبرين- يريدون قتلها. وأولئك الذين سلمتهم ل.. ما اسمه؟.. تكاتشوك الذي يكسر الأسنان؟ هل من الممكن أن يكون قد حصل ذلك؟ أم أنّها كذبت على أرتيوم بشأن ذلك؟.

لكن ما الفرق- بكلّ الأحوال سيطلقون عليها النار وسيذبحونها ويطعنونها ويدوسونها.

فكّر أرتيوم بشكل محموم:" كيف سأتصرف؟ هل أخبر غالا أنّه يجري التحضير للهروب؟ هل من أجل أن يجري القبض على الجميع وإطلاق النار عليهم؟ شيء مرعب. إنّه ببساطة أمر مرعب. لا يمكن حتّى التفكير بذلك".

هل أقول لغالا إنّ عليها العودة بشكل عاجل إلى جزيرة الثعالب؟ وهل ستطيعني؟.

هل أقول لأفاناسييف، ألّا يجرؤ على قتل غالينا؟.

"ها! ها! ها!"- أجاب أرتيوم على نفسه بصوت مسموع، متذكراً لسبب ما شلابوكوفسكي.

هل أقتل بورتسيف؟ أستدعيه إلى غرفتي وأخنقه؟.

هراء، هراء، هراء، يا له من هراء.

طرق الباب، ففتح على الفور. وقفت والدة ترويانسكي على العتبة.

قالت: "آسفة، هذا ليس شأني بالطبع، لكن والدتك جاءت لرؤيتك. لم يسمحوا لها الدخول إلى هنا، أعطاني فيودور إيفانوفيتش تصريحاً لي فقط للدخول إلى الدير. أنت يمكنك الحصول على تصريح للخروج وزيارة والدتك من قسم المعلومات والتحقيقات. كلّ من أتى للزيارة يرسلونه للإقامة في ثكنة، ليست بعيدة عن الدير. يمكنك حتّى الحصول على إذن لقضاء الليل مع الأقارب. لديهم غرف خاصّة لذلك".

أومأ أرتيوم برأسه مرّات عدّة بمعنى: جيد، جيد، جيد. فهمت، فهمت. فهمت. جيد- جيد- جيد.

انطبق الباب.

فكّر أرتيوم، وهو يضغط على رأسه بكلّ قوته:" أمّي أيضاً، أمّي أيضاً، أمّي أيضاً".

عندما جرى الإعلان عن التفقّد المسائي، أراد أن يختفي ولا يذهب لحضور التفقد، لكن جاء مناوب لا يعرفه، صاح بكلمات بذيئة، حتّى إنّه حاول أن يضرب. نظر أرتيوم إليه مندهشاً بعض الشيء: هل فقد عقله تماماً؟.

" سأحطمه إلى قطع الآن، وأضعه في صندوق الطعام "- فكّر بضجر، وتجنّب بحركة كسولة يد المناوب التي لوّح بها.

لم يتوصل أرتيوم إلى نتيجة بشأن غالا - كيف يستطيع مقابلتها والتحدّث معها: هل يذهب إلى قسم المعلومات والتحقيقات ويأمر:" نادوا لغالينا"؟ سيضربونني على أسناني بالتأكيد.

كما أنّه لم يذهب إلى والدته. على أيّ حال، كان يعلم منذ البداية إنّ لقاءهما لن يحصل.

كان الاجتماع عامّاً لجميع السرايا.

ملّ السجناء الوقوف. لحسن الحظ، أصبح الجو دافئاً قليلاً من جديد، وجرى نسيان ثلج أمس، كما لو كان حلماً غير مناسب.

طارت النوارس الصغيرة فوق الرؤوس. كانت النوارس القديمة النادرة، التي كان من المفترض أن تأخذهم اليوم أم غداً، إلى الجنوب بعيداً عن طبيعة سولوفكي التي جنّ جنونها هذا العام، تتجوّل في الفناء ولم تهدر قوتها.

لم يكن أرتيوم يعرف جيداً أيّ شخص من السريّة التي كان يقف فيها، إذ وقف بالمصادفة في الصف الثاني.

... كما أنّه رأى في بقية السرايا، العديد من الوجوه الجديدة أيضاً- ربّما جرى استقدامهم في الوقت الذي كان في جزيرة الثعالب.

حاول العثور على فاسيلي بيتروفيتش في السريّة الثانية عشرة، لكنّه رأى الوثيقة على الفور- ورآه الوثيقة أيضاً، وكشّر...

استدار أرتيوم إلى الاتجاه الآخر.

"لماذا أتت بي غالا إلى هنا؟ ما عليّ فعله هنا؟"- سأل نفسه مرّة أخرى، ولكن بضعف شديد، كما لو كان بصوت أجشّ مكتوم، وهو يعلم مسبقاً أنّه لن يكون هناك إجابة.

حاول أحد ما التحدث، فتراكض قادة المجموعات والفصائل على الفور، ورفعوا أعصيتهم - كانوا يضربون بكلّ عزيمة وقوة وغضب.

أدرك أرتيوم: " أصبح النظام أكثر صرامة". لقد رأى كلّ ذلك، كما لو كان بحياد، ولم يصدّق أنّه هو نفسه مثل جميع سجناء المعسكر الآخرين. لا، أنّه يوجد هنا عن طريق المصادفة، ومكانه في الجزيرة الصغيرة، مع فوريا على السطح، مع كرابين وطاهي طعام الثعالب من بيت الدعارة... غالباً ما كان يتذكّر أرتيوم:" معقول، جرى سجن كرابين لأنّه قتل كلّ من كان في بيت الدعارة... والآن يعيش مع هكذا شخص جنباً إلى جنب ".

ارتجف أرتيوم، وتذكّر من جديد أين هو الآن، ونظر في اتجاه بوابة نيكولسكي التي كانت قريبة جداً- لدقيقة واحدة. اذهب إلى كوخك، يجب الحصول على قارب فقط.

سار بورتسيف على طول الصفوف مرّة واحدة، كان متعجرفاً ولا ينظر إلى أيّ شخصٍ.

لم تكن غالينا موجودة.

وقفوا ساعة كاملة. حاول الكثيرون أن يغفوا وهم يقفون على أقدامهم، مستندين بأكتافهم على جيرانهم. لكن أولئك القائمين على النظام لم يعجبهم ذلك أيضاً، وتلقى أحد ما ضربة عصا مرّة أخرى، وصرخ أحدهم من المفاجئة، وكان الصراخ يائساً، لدرجة أنّ الواقفين في الصفوف ضحكوا: من المضحك أن يتألم شخص بشكل مفاجئ.

... بعد أكثر من ساعة ونصف، ظهر نوغتيف، لم يستطع أرتيوم تفحّصه بأيّ شكل من الأشكال- بدأ الظلام يخيم بشكل ملحوظ.

حيا سجناء سولوفكي رئيس المعسكر بصوت عالٍ.

"مرحباً!"- صرخوا عشوائياً.

لم يصرخ أرتيوم.

على ما يبدو، كان نوغتيف غير راضٍ عن التحية، ولوّح لضابط أمن، الذي حيّا السجناء بدلاً عنه مرّة أخرى. "مرحبا!"- صرخ السجناء بشكل

أفضل مرّة أخرى - ومرة ثانية - "مرحبا!" - وثالثة- "مرحبا!"- طارت جميع النورس التي كانت في الفناء، وركض قادة المجموعات على طول الصفوف، بحثاً عمّن كان يصيح دون بذل العناء المطلوب. بدأ أرتيوم تحسباً يفتح فمه، ويهمس"مرح..." – وفيما لو أنّ هناك مخبرون بالقرب؟..لا يهم، لن يبقى هنا طويلاً على أيّ حال... ولكن في المرّة العاشرة قرّر أرتيوم الصراخ بصوت عالٍ مرحبا، وصاح الجميع بعد المرّة العشرين بشكل جيد جداً، وصاحوا بعد ذلك أثنتي عشرة مرّة أخرى لتعزيزها، وأنهوا بالتحية.

لقد تعبوا للغاية، لدرجة أنّه كان بإمكانهم أن يناموا في الساحة.

مرّت ثلاث ساعات منذ بدء التفقّد.

لقد كان نوغتيف يتحرك متهادياً على طول الصفوف، ويشير بسرعة من وقت لآخر بسوطه إلى شخص ما: وعندها كانوا يسحبون السجناء من أعناقهم من الصفوف، ويأخذونهم مباشرة. كان على ما يبدو هناك، من يجب وضعه في زنزانة العقاب فوراً ، لارتكابات، معروفة لقائد المعسكر فقط.

"ارفع لحيتك إلى الأعلى، أيّها الكاهن، سترى الله قريباً"- نصح نوغتيف الأب زينوفي، الذي أرسل إلى العمل العام.

كان زينوفي يرمش باستمرار، ويهمس بشيء.

وصل الدور إلى السريّة الثانية.

قرّر أرتيوم ألّا ينظر إلى نوغتيف. نظر إلى مؤخرة رأس السجين الواقف أمامه.

"من سيذهب في مهمّة عمل دون حارس؟"- سأل نوغتيف بصوت جهير.

جرى دفع ترويانسكي خارج الصف. ثمّ وخزوه في ظهره بشكل مؤلم، وأخيراً قال:

"أنا".

" أوه، وأوسيب هنا..." - عرف أرتيوم ذلك للتو، لكنّه لم ينظر إلى جاره السابق في الغرفة أيضاً. تجمّد بلا حراك، دون أن يتنفس، حتّى لا يلاحظه أحد، ولا يميزه، ولا يتذكّره.

"إذا لم تعد بحلول السابع من تشرين الثاني- فسنطلق النار على كلّ واحد من عشرة في السريّة" - قال نوغتيف لترويانسكي مباشرة في وجه- " هل فهمت ؟".

وخز ترويانسكي في ظهره مرّة أخرى، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر بأيّ شكل، الحرف الذي يبدأ فيه الجواب المطلوب، وتساقطت هذه الأحرف منه مختلطة ومشوشة وسريعة جداً:

" في... بز... نعم!".

واصل نوغتيف، الانتقال من سريّة إلى أخرى، وهو يتفوّه بأقوال ساخرة وكلمات بذيئة، ولكن في الوقت نفسه أنهى محكمته بشكل مملٍّ وكئيبٍ- لقد فاحت من كلّ ذلك رائحة الكآبة والزنا الروحي.

أشار منظر السجناء الخانع والمهزوم إلى أنّ عمليات التفتيش ومعاقبة السجناء، كما حدث اليوم، لم تكن المرّة الأولى.

تذكّر أرتيوم فجأة: "... يمكن مثل هذا الشخص أن يطلق النار من مسدسٍ على الدفعة الواصلة حديثاً ".

انضم، مع بداية الساعة الرابعة، طيار قلق إلى حاشية نوغتيف، وفي أوّل نظرة إليه من رئيس المعسكر، أشار بخجل إلى الساعة.

أمروا بالانصراف.

بقي الجميع واقفين في أماكنهم لبعض الوقت: أليست مزحة؟ ألن يجري إعادتهم إلى الصفوف بالعصيّ؟.

أخيراً، ذهب السجناء الذين لم تعد تحملهم أقدامهم، وهم يتعثرون ويتدافعون، إلى سراياهم.

أرتيوم الذي يحاول أن يكون غير ملاحظ تحرّك أيضاً في عجلة من أمره، نحو غرفته: لم يكن لديه القوة ولا الرغبة في لقاء الوثيقة وشافيربيكوف، لكنّه كان لا يزال لا يعرف كيف سيتعامل مع عائلة ترويانسكي - سيأتون لقضاء آخر ليلة أم لا.

عند مدخل السريّة، أمسكه المناوب من كمّه:

"غوريايونوف؟ هناك أمر بأن تذهب إلى "ي س و" - وقد سمّ قسم المعلومات والتحقيقات- "ي س وس"، ملتقطاً حرف "س" الأخير بإحراج، كما لو أنّه خمّن أن هذا الحرف لا لزوم له هناك، ولكنّه لا يعرف كيف ينهي الكلمة بحرف العلّة.

تشنج أرتيوم قليلاً: "ماذا هناك أيضاً؟ بورتسيف، أليس كذلك؟.. هل أنا أخطأت بشيء ما ؟..".

أجاب على نفسه كعادته:"لا بشيء بالطبع، باستثناء أنّني استحقيت قبل فترة طويلة أن أقضي ما تبقى من مدّة حكمي في زنزانة العقاب...".

في قسم المعلومات والتحقيقات، على عكس المعتاد، كان ينبعث الضوء من نوافذ عدّة: إمّا أنّ صرامة بورتسيف أجبرت زملاءه الجدد على العمل لفترة أطول، وإمّا أنّ رئيس المعسكر الجديد طلب العمل بطريقة جديدة، وربّما كلاهما معاً.

قدّم الحارس نفسه. أصيب بالغثيان قليلاً من القلق.

خرج جندي من الجيش الأحمر لمرافقة السجين إلى الطابق العلوي.

الطابق الثاني، الثالث. أخيراً، مكتب غالا.

فتح الجندي الباب وسأل: "هل تسمحين؟" - ودفع أرتيوم إلى الداخل.

كانت غالا تجلس وراء الطاولة.

ناظراً إليها الآن، نسي أن يفكّر من جديد، أنّها المرأة نفسها التي...

كانت الغرفة معتمة: انتهت الليالي والأمسيات البيضاء، لم يكن المصباح الكهربائي الضعيف كافياً للغرفة.

لم يكن أرتيوم هنا في مثل هذا الوقت المتأخر.

"أيّها الحقير، لماذا لا تذهب إلى والدتك؟"- صدر سؤال على الفور. تكلّمت غالا من بين أسنانها، كأنّها تنفث الكلمات بصعوبة- "ابن آوى! ألا يوجد لديك ضمير؟".

فكّر أرتيوم، وهو يزرّ عينيه: " لا تستطيع فتح فمك. أعرف كيف ينفتح لديك...".

كان لا يزال عند الباب.

قالت غالا: "اجلس على الكرسي"، ووقفت هي في الوقت نفسه.

اقترب من طاولتها، ولاحظ، أنّه لا يوجد الآن أيّة صور تحت الزجاج على الإطلاق- بعض الأوراق التي تحتوي على ملاحظات فقط. كان خط يدها جميلاً وواضحاً للغاية.

"من المؤسف أنّني لا أستطيع قراءته رأساً على عقب"- استاء أرتيوم بشكل جدي تقريباً- "ربّما مكتوب هناك: "تحديد موعد إعدام غوريياينوف"- وثلاث علامات استفهام".

شربت غالا الماء- لتهدئ نفسها.

سألت بصوت مختلف تماماً: "هل تخجل، يا تيوم من والدتك؟".

لم يكن يريد التحدّث عن ذلك - لدرجة الغثيان الجسدي. ولم يكن يريد حتّى أن يتذكّر ذلك- ولم يتذكّر ولو لمرّة واحدة على الإطلاق في أثناء مدّة وجوده كلّها في سولوفكي.

لم يكن هناك حاجة لقدوم والدته أيضاً، لأنّ قدومها كان صدى وذكرى، في آن معاً - فلماذا هو؟.. ولماذا هي ؟..

لكن كان من المستحيل عدم الإجابة عن سؤال غالا، ولا سيّما في مكتبها، إذ توجد قضيته في إحدى خزائنها، وربّما كلّ التقارير المرسلة ضده، والتي تكفي ليقطع موت صغير حياة ضخمة واحدة.

قال:"لا، لا أخجل"، وشعر أنّه لا يوجد لعاب في فمه، وكانت كلماته جافة ومتكسرة.

"ماذا حصل؟ كيف حدث ذلك؟".

ابتلع أرتيوم لعابه- أوه، هل هي حقاً لا تفهم إنّ طرح مثل هذه الأسئلة، وكل هذا الحديث الحساس غير مناسب في السجن، في مكتبها، إذ ربّما يكسرون العامود الفقري للناس ويخرجون أحشاءهم من داخلهم...

" أنا ووالدتي... ومعنا أخي... رجعنا إلى البيت... من البيت الريفي. مرض أخي، ووصلنا منتصف شهر آب، بشكل غير متوقع"- بدأ يتحدّث كما لو كان واجباً، ويجب أن ينتهي منه في أسرع وقت ممكن- " دخلت أنا أوّلاً إلى البيت، وكان والدي مع امرأة. كان عارياً... بدأت الشتائم... والصراخ، والتدافع... كان الأب ثملاً، وأمسك بسكين، كان أخي يصرخ، اندفعت أمي لخنق تلك المرأة، وهجمت المرأة عليها، وأنا هجمت على أبي، وهجم أبي على النساء... وفي هذا العراك..." - هنا صمت أرتيوم لأنّه قال كلّ شيء.

"هل قتلته لأنّك تألمت من أجل والدتك؟"- سألت غالا مرّة أخرى، وهي تعقد حاجبيها.

تغضّن أرتيوم بشكل مؤلم مرّة أخرى، كما لو كان هناك ليس القليل من الضوء، بل على العكس الكثير منه، أكثر ممّا يحتمله النظر.

"هذه المرأة... لم أشعر بالإهانة لأنّه كان معها... كان الأمر فظيعاً لأنّه كان عارياً... لقد قتلت والدي بسبب التعرّي.

أفرد أرتيوم ركبتيه فجأة بشكل أوسع، وبصق خيط لعاب طويل لزج على الأرض مباشرة، ولم يفركه بقدمه.

نظرت غالا إلى كلّ هذا، لكنّها لم تقل شيئاً.

لقد كانت بحاجة حقّاً إلى أن تفهم أرتيوم.

قالت بهدوء: "ليس لديك أيّ شيء في ملفّك عن المرأة".

أجاب أرتيوم: "لم أقل في أثناء التحقيق أنّه كانت هناك امرأة". ألقت غالا ظهرها على كرسيها: كيف ذلك؟ ما أنت؟. واصل هو: "وأمي لم تقل ذلك: خجلت... أمام الناس.إنّها غبية".

" وأنت أليس لديك إدراك؟" - سألت غالا فاتحة عينيها على وسعهما. فهم أرتيوم ما تعني بالطبع: لو قال هو ووالدته إنّ امرأة كانت هناك، كان ذلك كفيل بتغيير نتيجة القضية. لكنّه لم يكن يريد أن يخبر غالا أنّ والدته ليست وحدها التي شعرت بالخجل- بل كان يخجل هو من قول ذلك أيضاً: لكن ليس أمام الناس. إذن أمام من- لم يعرف أرتيوم. ربّما أمام الأب المقتول؟..

لم يكن هناك جواب عن هذا السؤال، وهل كان يهم أحداً ؟ بالتأكيد لم يكن يهم أرتيوم.

"يوجد "- أجاب عن سؤال غالا لإنهاء الحديث.

ظلّ يفكّر طوال الوقت، ما إذا كان هناك داع ليتحدث لآن عن حكايات أفاناسييف التافهة.

في أثناء التفقّد المسائي، بدا لأرتيوم فجأة، عندما رأى نوغتيف، أنّه من غير المعقول تماماً ما تحدّث عنه أحمر الشعر في جزيرة الثعالب. أيّ استيلاء على مستودعات الأسلحة؟ أيّ هروب؟ جنود مسلحون من الجيش الأحمر في كلّ مكان. تسير وراء رئيس المعسكر حاشية كاملة بسترات جلدية وأعين كلاب. هل سيسحب بورتسيف مسدسه الآن ويأخذهم أسرى؟ أيّ حماقة هذه!.

ستغادر السفينة صباح الغد، وبالمناسبة، ستأخذ ترويانسكي - ولن يكون هناك شيء ليستولي عليه المتآمرون- وسيتبيّن أنّ كلّ ما أخاف وعذب أرتيوم كثيراً، هو من خيال الشاعر ذي الشعر الأحمر، الذي أصيب باضطراب الدماغ نتيجة تيارات هواء سولوفكي.

لكن يجب على الأقل أن يقول إنّ بورتسيف - يعرف كلّ شيء عنهما.

كما يجب ألّا تنسى أفي سيفتسيف وزاخار، حتّى تفكّر بطريقة ما، وتخرجهما.

من أين سأبدأ ؟.

"غالا، عليك أن تعرفي..." - بدأ أرتيوم، وعلى الفور، قفز وأوقع الكرسي، مصاباً بالذهول من سماع إطلاق نار، صدر إمّا في مكان ما قريب جداً، وإمّا في الطابق السفلي مباشرة...

"اجلس!" - صرخت غالا عليه، على الأغلب حسب العادة، كما كانت تصرخ على الكثيرين في مكتبها.

قفز في رأس أرتيوم فكرة: " بدأ الأمر بالتأكيد! لقد حسموا أمرهم !".

" غالا، توقفي!" - صاح لها، وهي تركض نحو الباب- "إنّه هروب! هذه مؤامرة!".

"اخرس!"- نظرت إليه بوجه غاضب، وكادت تصرخ بصوت حاد، كما لو أنّها نقرت جبهته، وخرجت إلى الممر.

كان رجال الأمن يصرخون بأصوات مختلفة في الممر، كما لو كان حريق شبّ هناك.

"إنّه هنا! هنا! انتهى!".

"قُتِل؟".

"قُتِل؟".

"هل قُتِل؟".

"جُرِح! كاد العاهر يصيب تكاتشوك!".

تمشّى أرتيوم في الغرفة ذهاباً وإياباً!: ماذا بالنسبة له؟ إلى أين يذهب؟ مع من هو؟.

عادت غالا بعد دقيقة شاحبة، لكنّها هادئة، بنظرة غائمة. وضعت المسدس في درج الطاولة.

قالت: "جرى القبض على بورتسيف في مكتبه. ردّ بإطلاق النار. ذهبوا الآن إلى السرايا- لاعتقال آخرين. لا أعرف أيّ شيء عن ذلك. ابق هذه الليلة في الغرفة، وغداً سأرسلك إلى جزيرة الثعالب. سأطلب جندياً من الجيش الأحمر الآن".

أوصله جندي الجيش الأحمر إلى مخرج مبنى قسم المعلومات والتحقيقات فقط.

كانت هناك رائحة أسلحة، وبارود، وقلق، واهتياج، وخوف، والكلس الذي عليه أثار الرصاص.

كان كلّ رجل أمن يركض باتجاه أرتيوم ينظر في وجهه، كما لو أنّهم اشتبهوا به متآمراً مقبوضاً عليه.

" يجب أخذ جميع القضايا من مكتبه"- قال اثنان بقلق، وهما يصعدان الدرج. خمّن أرتيوم أنّ الحديث يدور عن بورتسيف، وجميع المواد التي جمعها.

كان أفاناسييف محقٌّ، محقٌّ، محقٌّ.

تبيّن، بشكل غير متوقع، أنّ هناك عدداً كبيراً من رجال الأمن في المبنى، كما لو كانوا يخرجون من الخزن، ومن تحت الطاولات، و من تحت الأرائك التي اختبؤوا تحتها.

"من هذا؟"- سأل شياطين آخرون في الأسفل يرتدون سترات جلدية، جندي الجيش الأحمر. ارتجف أرتيوم. كان رجال الأمن يبحثون عمّن يقتلونه.

أجاب الجندي: " اوصله بعد التحقيق معه، أمروني أن أتركه ".

دفعوه إلى الفناء.

كان هناك صراخ في كاتدرائية التجلّي، كما لو أنّه دخل قرود إلى هناك ويجري مطاردتهم الآن بالسياط في الجحور والجدران.

نبح بليك الذي ربض قدميه الأمامية، بشراسة في اتجاه الكنيسة.

كان جنود الجيش الأحمر يركضون أحياناً عبر الفناء.

سارع أرتيوم نحو مبنى ممثل البطرك السابق، ولكن من هناك كانوا يجرّون كاهناً من شعره، وكان أحد ما يصرخ داخل المبنى، كما لو أنّ إنساناً يتألم كثيراً جراء حصر أعضائه التناسلية بالباب... ربّما كان الأمر كذلك.

كان رجل الأمن الذي كان يجر الراهب مخموراً- دون أن يترك شعره من قبضته، تقيأ على حجارة الفناء، وعبر هذه البقعة النتنة، واصل جرّ أسيره. كانت لحية الأب الطويلة ملتوية بشكل غير طبيعي، وثقيلة بشكل واضح، كما لو أنّها ليست من الشعر، بل كانت أحد أجزاء الجسم الخالية من العظام.

اخترق أرتيوم حدس: أنّ لحيته متشربة بالدماء- ممتلئة بالدماء، مثل ليفة دعكت بالصابون. كان الدم يسيل من الفم والأنف والجبين والأذنين.

اتخذ أرتيوم خطوة إلى الوراء، ونظر حوله بتردّد مؤلم وواهن: إلى أين أذهب؟ لا يمكنك دخول المبنى- سيقتلونك هناك ولن يسألوا من أنت وبأيّ مؤخرة رأس تنفست الليلة الماضية.

لماذا لم يذهب إلى والدته؟ كان الآن نائماً في حجرها.

"مستودع الحطب!"- أوحى له أحدهم، وهو وثق به.

ركض أرتيوم بجانب الجدران، متجنباً ضوء الفوانيس، إلى مستودع الخشب، وتقطّعت أنفاسه على الفور، لقد تنفّس كما لو أنّه كان يبكي.

بدا له أنّ الأرض تميل تحته، ودير سولوفكي، مثل عربة حجرية على عجلات ملتوية، كانت تندفع إلى أسفل الجبل، وستصطدم بجسم قاس بشكل رهيب الآن، وسيتحطم كلّ شيء ويتبعثر إلى قطع صغيرة، وهذا الحطام سوف يجري امتصاصه في ثقب أسود، دون أن يبقى منه أثر.

.. تسلّق بين أكوام الخشب، ممسكاً عن الحشرجة، التي تنطلق من حلقه.

كانت الأخشاب طويلة - من أجل مواقد الدير. خدش خده، امتلأت كفاه بأشواك مؤلمة، تسلّق إلى أقصى حدٍّ ممكن، وهمد هناك، ورأى نجمة واحدة فوق رأسه.

أطلقوا عيارات نارية مرّات عدّة، في مكان ما خارج جدران الكرملين. صلية. وصلية أخرى. ثمّ طلقات منفردة مرّات عدّة.

صرخت امرأة في مكان ما، وسرعان ما انقطع الصراخ.

ركض أحد ما على مسافة قريبة جداً، لكنّهم سرعان ما لحقوا به، وسمعت أصوات ضربات.

أغمض أرتيوم عينيه: ماذا لو أنّهما لمعا في الظلام - أم يعكسان ضوء النجم؟.

كان هناك أحد ما يطلق شتائم مختلفة من وراء الزاوية الأقرب- كانت الشتائم تنسكب من الشخص مثل القشور وبقايا القطع من كيس القمامة.

... توقّف الضجيج بشكل غير متوقّع.

أصبح الأمر هادئاً بشكل غير طبيعي، كما لو أنّ كلّما كان يضج ويصرخ في الساعات الماضية- كان يضجّ ويصرخ في رأس أرتيوم فقط.

فتح عينيه: ربّما حلم؟

كان النجم يقف في المكان نفسه.

تكلّم شخص في مكان قريب، لكن الصوت كان هادئاً تماماً: كما لو أنّ إنساناً استيقظ، وخرج إلى الشارع وبيده كوب من الحليب، وسأل أحد المارّة،

كم الساعة الآن، دهش وبقي وحده، غنّى أغنية غير واضحة، وشرب الحليب مرّة أخرى.

استمع أرتيوم باهتمام: يمكن أن يهدّئه هذا الصوت، ويجعله يفهم أنّه لا يوجد شيء مخيف في العالم، وإذا كان هناك ما هو مخيف - فقد انتهى.

بدأ أرتيوم في استخراج الأشواك، مستخدماً أحياناً أسنانه وأحياناً أظافره، وهذا الانشغال ضبط روحه أيضاً، لأنّه خلّصه من آلامه على الفور: منذ لحظة فقط كان يؤلمه أكثر مكان ضعيف بين الإبهام والسبابة، والآن لم يعد هناك ألم. وكان لعابه في كفّه - يهدأه أيضاً. وكان وجه أرتيوم كلّه ملطخاً، لأنّه كان من الصعب قبع الشوكة من منتصف راحة اليد بأسنانه، لكنّ الأمر كان مسلياً - كان يتدفق اللعاب من فمه، كما لو كان قد أصبح كلباً - لكن لم يكن هناك شيء أم أحد يخجل منه: رجل مليء بالأشواك بين الحطب تحت نجم نادر، الأمر بسيط، لا شيء يدعو للاستغراب.

فتّش في جيوب سرواله ليجد شيئاً يمسح به يديه ووجهه - لم يكن لديه منديل في أيّ وقت من الأوقات، لكن ماذا لو فجأة؟.. لم يكن لديه في السترة أيضاً.

تذكّر أرتيوم: "ها هو كرابين، قصّ قمصانه القديمة بعناية، وعمل منها مناديل... لقد كنت أعتبره دائماً أقل مستوى منّي - إنّه شرطي، وأنا أحفظ عن ظهر قلب العديد من القصائد الطويلة لأندريه بيلي - لكن يوجد لديه مناديل، بينما لا توجد لدي".

كانت الفكرة حول كرابين دافئة، وعزيزة...اقتنع أرتيوم بطريقة ما في الحال، أنّه سيعود إلى هناك غداً، لا تزال أريكته مغطاة بالملاءات التي نامت عليها غالا - لم يستعيدها طباخ الثعالب بالتأكيد - وكلّ هذا سينسى، ولن يعرف أحد، ولا إنسان على الإطلاق، كيف جلس بين الحطب، وهو يختنق من الخوف.

مسح أرتيوم يديه بسرواله، ونصت مرّة أخرى، ولم يسمع سوى صوت البحر فقط - من الغريب، إنّه لم يكن مسموعاً في النهار.

نهض وخرج من هناك، وأحياناً كان يتوقف ويلتفت: لقد هدأ كلّ شيء، ألم يتهيأ له؟.

لم يتهيأ له.

خرج من هناك، وتحرك متجهاً إلى غرفته، دون همٍّ، كما لو كان يسير في شارع بريتشيستينكا في موسكو.

"آه، أنت، تعال إلى هنا! من أنت أيّها العاهر؟".

نادوا عليه من باب حمّام الدير المفتوح.

اقترب أرتيوم، ووقف عند حافّة لسان الضوء المربّع الذي سقط في الشارع.

كان البخار يلتف في الضوء.

كان ملقى بالقرب من الباب إمّا شخص ثمل، وإمّا جثّة إنسان.

لا، من المؤكد، إنّها جثة.

خرج شخص من الحمام، ووقف على العتبة.

طرفا كمي المعطف العسكري أسودان. القبعة بإطار... وجه مألوف. غورشكوف.

كان غورشكوف يرتدي ثياباً عسكرية، لكنّه حافي القدمين. كان يترنّح، لكنّه تمسّك بإطار الباب.

عرف هو أرتيوم أيضاً.

سأل بسخرية شريرة: "هذا أنت الذي كنت تبحث مع إيخمانيس عن الكنوز؟ هل عثر إيخمانيس على كنز؟.. نحن نعرف الكثير من الأماكن هنا، إذ يمكن الحفر!"- نظر غورشكوف إلى الوراء، ورداً على ذلك ضحكت حناجر عدّة لشيء متعدد الرؤوس ومرعب.

" أمروا من وراء ظهر غورشكوف: "دعه يأت إلى هنا!".

اتخذ أرتيوم أربع خطوات على طول المربع المضيء حتّى العتبة.

كان في غرفة الملابس، عند المدخل مباشرة، كومة من الجزم الملقاة، كلها قذرة للغاية وتلمع بلون كريه غير مألوف.

رفع أرتيوم عينيه، ورأى رجال عدّة عراة تماماً، مبللين، ومتعرقين بعد الحمّام، يجلسون على مقاعد.

كان يتدلى من أحدهم كيس صفن طويل، كما لو أنّ ثقالة ربطت به منذ طفولته، وكان يسير هكذا، معتاداً ذلك. كان الثاني يمسك بيده عضوه الذكري، يشدّ بقبضته عليه، وأحياناً يرخيها- بدا من العتبة كأنّه يمسك بضفدع ضخم، مسلوق، كثيف الشعر. وكان الثالث يسكب الفودكا في أكواب، وهو أيضاً عارٍ تماماً، لكن لم ير جزؤه المخزي من وراء الطاولة والزجاجات الفارغة. وكان هناك أحد آخر يزأر ويصرخ في غرفة البخار.

خرج رجل آخر من غرفة الملابس، ضخم ويرتدي سروالاً داخلياً. وقف في منتصف الغرفة، وحدّق في أرتيوم.

سأل: "هل وجدتم واحداً آخر؟- هل يجب إعدامه أيضاً؟".

لم يسمعه غورشكوف الذي قال: " تكاتشوك، دع ابن آوى هذا يغسل الجزم"- وأشار بيده الحرّة باتجاه أرتيوم.

أجاب تكاتشوك: "دعه يغسلها مؤقتاً"- ودخل إلى غرفة البخار.

قال غورشكوف لأرتيوم: " أغسل الجزم، يا بن آوى".

كانت جميع الجزم مغطاة بالدم البشري، وهذا هو سبب لمعانها الغريب.

دون أن يتذكّر أرتيوم، أيّ شيء، ودون أن يفكّر ولا يعرف، أخذ فردة جزمة، وبحث عن الفردة الأخرى، وحتّى إنّه وجدها. وتوجه، حاملاً هذه الجزمة إلى غرفة البخار، لكن أحد الجالسين ركله على ساقه بغير اكتراث، دون أن يفلت الضفدع المشعر من قبضته:

"إلى أين أيّها العاهر؟ هكذا سوف تمشي ذهاباً وإياباً حاملاً الجزم ؟ عبء الحوض بالماء واغسلها في الشارع أيّها العاهر... بلا عقل".

أمسك الرجل بيده الأخرى كوباً من الفودكا، انسكب منه القليل من الفودكا عندما كان يشتم.

رأى أرتيوم بوضوح: كيف تنسكب الفودكا على يدٍ حمراء كثيفة الشعر.

تذكّر أرتيوم الرجل الذي كان يصرخ: كان هو الذي جاء إلى منشأة استخلاص اليود، وأخذ الأرنب.

ذهب أرتيوم إلى غرفة البخار، وأخذ حوضاً، وبدأ في صبّ الماء الساخن فيه. ثمّ غيّر رأيه، ورفع الحوض من حافة واحدة وسكب منه الماء ببطء، محاولاً عدم إحداث ضوضاء. فتح صنبور الماء البارد. كان الماء ينهمر ويهتاج في الحوض.

كانت على عتبة غرفة البخار، قطعة قماش لمسح الأقدام. ذهب أرتيوم لجلبها، وانتظر حتّى امتلأ الحوض، ودفعه جانباً، ودون أن يغلق الصنبور، غسل وعصر قطعة القماش مرّات عدّة تحت صنبور الماء.

دفع باب غرفة الملابس، وحاول ألّا يمسّ أحداً، وخرج مع الحوض والخرقة فيه إلى الشارع.

وضع الحوض على الأرض، وجلس على العتبة، بشكل يسقط الضوء من وراء كتفه. نظر بطرف عينه إلى الجسد الملقى بالقرب من الحمّام. وتفحّصه أخيراً، ورأى أنّ الجثّة عندما كانت لا تزال إنساناً حيّاً، أصيبت برصاصة في الرأس، وعندها أصبحت جمجمة الشخص الذي تحوّل إلى جثّة هامدة، كما لو مالت إلى الجانب.

أم ربّما تهيأ لأرتيوم ذلك في شبه الظلام، وفي الهذيان الليلي الذي بدأ.

كان الدم الممزوج بالطين يفوح، وينظّف بصعوبة. أصبحت الجزم لزجة وتفوح منها رائحة أحشاء إنسان قويّة - على الأقل هكذا كان قد فكّر أرتيوم، لو كان بإمكانه أن يفكّر الآن - أنّ أحشاء الإنسان تفوح منها مثل هذه الرائحة بالتحديد.

نظر إلى الظلمة، وكأنّه يفكّر بنفسه من الخارج، وليس من داخل رأسه، وأدرك أنّه يستطيع أن يقفز ويهرب.

ومن غير المحتمل أن يلاحقه هؤلاء العراة الذين يغتسلون بعد قتل ناس آخرين.

حاول غورشكوف إقناع تكاتشوك الذي خرج من الحمام: "غريغوري، يجب إنهاؤه. فيما لو بدأ نوغتيف استجوابه... لا أحد يعرف... يبدو أنّه قد جرى حرق أوراقه... من الجيد أنّ نوغتيف قد طار إلى كيم...".

نهض أرتيوم، وأحضر أوّل زوج من الجزم إلى الغرفة. لم يستطع الهرب إلى أيّ مكان. كان بإمكانه تنظيف زوجٍ آخر من الجزم الملطّخة بالدماء.

وقف تكاتشوك في منتصف الغرفة من جديد - ضخماً، بحاجبين كثّين مبللين، وأسنان كبيرة - كما لو أنّه نما بدل كلّ سن كسره لإنسان آخر، اثنان في فمه الكبير مع شفتيه الضخمتين.

توقّع أرتيوم، وكأنّ أحداً ما أوحى له: إنّ الحديث يدور حول بورتسيف الذي يجب إطلاق النار عليه، حتّى لا يستجوبه نوغتيف، الذي سافر إلى كيم.

قرّر رجال الأمن وقادة فوج الحراسة مسبقا، كشف المؤامرة وقمعها في غياب رئيس المعسكر. وبعد ذلك ترتيب كلّ شيء بطريقة لا يستطيع أحد معرفة المعلومات التي جمعها بورتسيف حول معظم الكوادر القيادية في المعسكر.

قال تكاتشوك بنبرة، كما لو أنّه اقترح عليه أن يذهب ويخلع رأس ملفوف: " سنلطّخ جزامينا مرّة أخرى".

"حسناً، هو واحد فقط ، وفي الوقت نفسه سنحْضر فتيات نظيفات من ثكنة النساء" - كان حديث غورشكوف ذا مغزى، رغم أنّه كان مخموراً.

جلس أرتيوم ينظّف جزمة جديدة في الحوض، ويحدّق في الظلام أحياناً.

خرج بليك من الظلام، وشمّ الهواء، وهرب، وهو يزمجر.

دون أن ينهض أرتيوم، وكما لو أنّه اعتاد ذلك- ماذا في ذلك، أنا أجلس وأغسل الجزم، عمل عادي- أعاد زوجاً نظيفاً إلى الحمّام، وأخذ فردتين، حتّى ثلاثاً، ولم يعد يهتم بأنّ يكنّ متماثلات- سيفرزوهن بأنفسهم.

كأن أحد ما أوحى لأرتيوم: "ستطلق النار على بورتسيف فقط ، ولن يطلقوا النار عليك، لأنّ لا علاقة لك بذلك. إلى جانب ذلك، يتذكّر غورشكوف، رغم أنّه مخمور، كيف كنت تبحث عن الكنوز لإيخمانيس. لذا اجلس واغسل الجزم".

خرج رجلان من الظلام يجرّان بساطاً وراءهما.

عرفهما أرتيوم ، بينما كان يمسح يديه الزلقة مثل السمكة بسرواله، إنّهما آفدي سيفتسيف وزاخار.

توقّع أن يكون وراءهما حارس، إلّا أنّه لم يكن هناك أيّ حارس.

كان مظهر كليهما سيئاً، تفوح منه رائحة الموت. بدا كلاهما مثل كلاب القمامة. كانت عيونهما بارزة، وبدا وجهاهما كأنّهما تقلصا من البرد.

نظرا إلى أرتيوم: لماذا هو هنا، ماذا يفعل بالقرب من الحوض المليء بالدماء؟.

كانت أيديهما وسراويلهما وقمصانهما وجباههما وشفاههما ووجنتاهما- كلّ شيءٍ لديهما كان ملوّثا بالتراب.

" هل دفنتوهم؟" – ارتفع صوت تكاشوك فوق رأس أرتيوم.

"جرى إخراجهما من زنزانة العقاب لدفن الجثث"- همس أحدهم مرّة أخرى في أذن أرتيوم- رجف خدّ أرتيوم قليلاً.

هزّا آفدي وزاخار، وجهيهما الملتوية بالتناوب. سقط التراب الجاف من شعريهما.

"حسناً دعونا نذهب إذن"- توجّه تكاتشوك إلى أصدقائه- " دعهما يدفنا هذا المأفون"- وأومأ برأسه نحو الرجل الميّت الملقى بالقرب من الحمّام.

"قم اعمل معهما، ابن آوى!" - أمر تكاتشوك، أرتيوم.

بسط أفدي وزاخار البساط، سحبا الجثة نحوهما متعثرين. وضع أرتيوم قدمه على البساط حتّى لا تنطوي حافته.

" حسناً، هل نحمله؟" - سأل آفدي بصوت منخفض. كان صوته يرتجف.

نظر بعضهما إلى بعض، انحنيا وحملاه.

حمل أرتيوم البساط من جهة الرأس، كان يتأرجح من جانب إلى آخر. كانت يدا أرتيوم تنزلق، وسرعان ما فلتت يداه وسقط... ما كان يحمله.

مسح كفيه بنفسه، وأمسك بقوّة، وحاول مرّة أخرى.

كان آفدي وزاخار قد عرفا الطريق - سارا بأقصى قدر ممكن من الحزم، إلى البوابات المقدّسة.

سرعان ما لحق بهم رجال الأمن وقادة من فوج الحراسة. كان ثلاثة منهم قد ارتدوا ملابسهم - كانت معاطفهم تصفق بساقي جزمهم المغسولة. وكان الرابع يرتدي سرواله العسكري فقط، ويمشي عارياً حتّى الخصر، بديناً وسميناً.

كان بورتسيف يمشي متثاقلاً بينهم، ويداه مقيدتان وراء ظهره. كان من المستحيل معرفة مكان إصابته - كانت سترته ملطّخة بالكامل بالدماء من الأمام، وسال الدم نحو الأسفل، لذا كان سرواله حتّى الركبتين متشرباً بالدم ومسوداً.

انضم إلى مسيرهم البطيء، أشخاص عدّة من الحمّام ، واحد تلو الآخر، يرتدون ملابسهم على عجل، وجنود من الجيش الأحمر، من غير المعروف من أين أتوا، وشخص آخر، على ما يبدو، من إدارة المعسكر - كان يرتدي معطفاً مدنياً وقبعة أنيقة وسار بالقرب، ينظر إلى وجه بورتسيف، كما لو كان ينتظر أن ينتبه إليه - كان المرافق على ما يبدو غير المدعو قد جهّز خطاباً بهذه المناسبة، أو على الأقل عبارة مسيئة.

حمل أحد جنود الجيش الأحمر شعلة يخرج منها دخان.

اشتعلت النار أقوى في الشعلة وهسهست في الممر الحجري، إلى البوابة المقدّسة النصف الدائرية، التي تذكّر بشكل خوذة الأمير.

رافق بورتسيف عندما خرج من البوابة، حشد كبير - كأعزّ ضيف مسافر.

أصبح من الواضح إلى أيّ مدى باتوا يكرهونه هنا.

لم يلاحظ بورتسيف شيئاً، فقط كانت ترتبك خطواته في بعض الأحيان، ويتعثّر، وينظر كما في السابق، إلى الأرض، كما لو كانت تزحف تحت قدميه كتابة معقّدة، التي يحاول إنهاء قراءتها، دون عناء كبير.

بدأ الهواء يصبح شفافاً.

بدأ أرتيوم، مع بزوغ الفجر، يميّز فجأة كل الأشياء بشكل واضح وقاطع. عادت له المشاعر، وعاد إلى التفكير الذي كان مخدراً لساعات عدّة.

لم يكن عليه انتظار الدفعة الثالثة من صياح الديوك، لكن هذه الليلة كان يجب أن تنتهي بكلّ الأحوال.

"لن يقتلونني بالتأكيد" - أدرك أرتيوم لأوّل مرّة في تلك الليلة، دون أن يقول له أحد.

لم يعد يخيفه رأس الرجل الغريب الميّت. لم يعد يخيفه شيء. لقد حدث كلّ شيء. وما سيحدث أيضاً - أمر لا مفرّ منه.

" إيه، أنت"- صاح الشخص نفسه الذي يرتدي الملابس المدنية لبورتسيف.

كان أرتيوم متأكداً من أن بورتسيف لم يكن بكامل وعيه، لكن لا، لقد رفع رأسه وبصق بعنف في اتجاه الشخص الذي ناداه.

" من هذه المرأة التي هنا؟" - علا صوت تكاتشوك فجأة.

وقفت والدة أرتيوم غوريانوف على الطريق، مقابل أولئك اللذين يمشون.

كانت تقف بلا حراك ومستقيمة، فقط كان يتحرّك طرفا منديلها مع الريح.

عرفها أرتيوم دون أن يتفاجأ، توقّف دون أن يرمش، ناظراً إلى وجه والدته الذي أصبح نحيفاً.

عرفت ابنها هي أيضاً ونظرت إليه: كيف حال عينيه في وجهه، وما إذا كان ثقيل عليه ما يحمل بيديه، وما إذا كان هو نفسه ينوي الموت الآن.

قال أرتيوم هامساً:"لم أنوِ. سامحيني يا أمي، إذا كنّا نستحق- فسيرى بعضنا بعضاً لاحقاً".

لم تسمعه، لكنّها نظرت مباشرة إلى شفتيه.

"من أين أنت يا امرأة؟" - سأل تكاتشوك.

قال غورشكوف الذي كان يحب أن يشعر بنفسه يقظٍ ويتذكّر كلّ شيء: "ربّما مستخدمة مدنية- غسّالة".

" اذهبي من هنا،أيّتها الحمقاء!" - قال تكاتشوك ذلك، وأطلق رصاصة من مسدسه في الهواء، فوق رأس المرأة.

انحنت في البداية، ثمّ ركضت بشكل بشع بعيداً. أخرج غورشكوف، الذي ارتبك بحافظته، مسدسه أيضاً، وأطلق النار نحو الأعلى.

نظر أرتيوم إلى الأسفل، إلى الرأس المغطى بالدماء، حتّى لا يرى أيّ شيء آخر.

انتظر بورتسيف ما يحدث، خفض ذقنه وأغمض عينيه. كان بين الحين والآخر، يجعّد جبهته، وكأنّه يطرد البعوض- رغم عدم وجود البعوض نهائياً.

جرى إيقافه في مكان ليس بعيداً عن الثكنة النسائية، بالقرب من خندق حفر بشكل سيئ، وبدؤوا على الفور إطلاق الرصاص عليه، من ثلاث جهات- دون اصطفاف وبشكل عشوائي، دون إعطاء أوامر. أراد كلّ واحد منهم القيام بذلك أوّلاً، وبأكبر قدر ممكن من الألم. لم يستطع أحد أن يشبع من موته، لذلك أطلقوا النار على وجه بورتسيف مباشرة مرّات عدّة، مقتربين من جسده تماماً. تحطّم الوجه إلى أجزاء.

استيقظت النساء من جديد، وزعقن نساء سولوفكي: كان عليهن أن يسمعن طوال الليل عمليات الإعدام البشرية.

تذكّر رجال الأمن على الفور، ولم يكادوا يمسحون عرقهم كريه الرائحة، سبب مجيئهم إلى هنا، إلى جانب القتل.

بينما كان أرتيوم، وزاخار، وسفتسيف، يدفنون بورتسيف - واضعين وجهه نحو الأسفل، حتّى لا يرى أيّ شيء، بحيث يبدو أنّه لا يشبه الإنسان على الإطلاق، وإنّما أيّ شيء آخر - أخرج رجال الأمن فتيات عدّة من الثكنة إلى النور العكر.

أخذوا مصباح من أحد جنود الجيش الأحمر، وقربوه من وجوه الفتيات، لاختيار الأفضل بينهنّ.

وبّخ تكاتشوك ممانعاً: "إلى أين هذه؟ إنّها عجوز. اذهبي للنوم، عجوز شمطاء".

بعد أن أهالوا التراب على بورتسيف، عاد غورشكوف وسأل: "هنا؟" - وأطلق ثلاث رصاصات أخرى على التراب، وبعد ذلك ركض وراء النساء ذوات الحواجب والغرّر المحترقة.

قال أرتيوم بصوت لا يكاد يسْمع " اعذرني يا مستيسلاف".

أوقف زاخار حركة معوله، حتّى لا يعرقل، ويترك الناس يتكلمون.

عندما كان آخر جندي في الجيش الأحمر عائداً بالقرب منهم حاملاً شعلة، لاحظ أرتيوم قطعة صغيرة من جمجمة عليها شعر، بحجم خمسة كبيكات على الأرض. أدار وجهه على الفور. وقف لبعض الوقت كاتماً أنفاسه.

عاد حفارو القبور إلى البوابة المقدسة.

ركض بليك نحوهم، بشكل غير مستقيم، كما لو كان قد أصبح ضعيف البصر في أثناء الليل، وهو يشمّ الأرض.

قال زاخار مومئاً برأسه من فوق كتفه: "الغسّالة لا تزال تتطلع إلى هنا. لكنّها ابتعدت قليلاً فقط. تعتقد، على الأغلب أنّ الرصاصة لن تصل إليها الآن".

عرف أرتيوم أنّها تنظر إليه، ولم يلتفت إلى الوراء.

كانت أصابع يديه متشنجة، وحاول فتحها وثنيها مرَّة أخرى. انفجرت قشرة جافة من دم شخص آخر على أصابعه.

قال سيفتسيف في فناء الدير: "يجب تسليم المعاول، وهذا... نسأل ماذا بعد".

كان الأمران بالنسبة لأرتيوم سيّان، تسليمها فليكن نسلّمها - لقد تذكّر بدقة أنّه سيبقى حياً اليوم.

فكّر أرتيوم فقط:"... سأل فلاح روسي بعد أن قام بالدفن: "ماذا بعد؟". وإذا قالوا: "احفر!" – سوف يحفر مرّة أخرى...".

عادوا إلى الحمّام.

سمعت أنّات نسائية مؤلمة في الداخل، كما لو أنّ كلّ واحدة كان معها رجل غير بشريّ، وإنّما شيطان أسود متفحّم على هيئة ثور هائج تفوح منه رائحة كريهة.

تذكّر أرتيوم كيف سمع في صباح أحد الأيام من برج سباسكايا فجأة ليس "حفظ الله القيصر"، وإنّما "النشيد الأممي". جلس حينئذٍ على السرير بحدّة ، ونظر بدهشة إلى والديه اللذين كانا قد استيقظا.

قال والده لأمه ممازحاً: "أنظري من النافذة، ربّما تكون الشمس قد أشرقت... على شكل زوايا".

لم يحلم ارتيوم الآن، وإنّما تهيأ له أن برج سباسكايا الذي كان يتحوّل باستمرار إلى كاتدرائية التجلي المحترقة، يعزف موسيقى جديدة، تشبه صرير عجلة العربة، ووراء هذه الموسيقا كان يسرع الطبل الذي لا يكاد يواكب الإيقاع، ينفخ خديه المشدودين، ويصفق على البطن العاري لرجل الأمن، بشكل غير متناسق.

كان يرقد كهنة عراة متكومون في العربة. جاء حمار يركض وراء العربة. وكان برقبة الحمار جرس يرنّ.

نام أرتيوم قليلاً، واستيقظ ببطء، يشعر بصداع ضخم يغلي، أكبر من رأسه.

كان هناك، ما يشبه هذه المظاهر المضحكة لهذه الاستيقاظ في صباح يوم بداية العشرينات، عندما ذهب أرتيوم وأصدقاؤه إلى البيت الريفي، وثملو بشكل رهيب هناك، وأشعلوا حريقاً، لا يكادوا يخمدونه وهم مخمورون- فتح الحريق في غطاء البيانو ثقباً رهيباً، بانت من خلاله الأوتار، وتفحّمت السجادة التي كانت على الحائط، والتي كان يحبّها والده، وجلبها من القوقاز، وكانت الأسقف مغطاة بالشحار، وكسروا الأطباق، وكانت تسحق تحت الأقدام - طقم الشاي- ميراث الجدة، ومزهرية الكريستال، وإبريق حليب، وصحون الحساء من متجر"مور و ميريليز". كسر أحدهم بحزم النافذة بالكرسي من أجل عدم الاختناق، وعلق ساقي الكرسي فوق الشارع، وبقي ظهره في الغرفة.

فكّر أرتيوم وقتها، متغلباً على الغثيان الكحولي، واكتشف وهو متفاجئ أنّه يرتدي معطفاً من جلد الراكون الطبيعي، وأنّه إذا شنق نفسه بمعطف الفرو في منتصف غرفة المعيشة الصغيرة والرائعة الخاصّة بهم، فستكتمل الصورة تماماً.

واليوم عانى أرتيوم أيضاً، من صداع كحولي طبيعي، كما لو كان قد وقع بنوبة شراب طائشة تسعة أيام متتالية، والآن، في اليوم العاشر، قد خرج من تحت الجليد، مرتجفاً، فاقداً عقله، محاولاً الإمساك بحافة الجليد القاسية والخشنة.

كانت عيناه تؤلمانه. ويداه ترتجفان متخشّبة. كان فمه جافاً. وملابسه قذرة، تفوح منها رائحة كريهة لا تضاهى.

...عندما حضر بعد التفقّد، كانت والدة ترويانسكي جالسة عند قدمي ابنها. كان أوسيب نائماً. ربّما اعتقدت أنّ أرتيوم قد خرج من القبر، لأنّه كان بارداً وغير مريح، أمّا الغرفة فدافئة ونظيفة.

استلقى أرتيوم تحت اللحاف في ملابسه وحذائه، وثنى رجليه حتّى بطنه كما كان يفعل في طفولته.

غادرت عائلة ترويانسكي على الأغلب عند الفجر: فقد كان فاقداً للوعي ولم يسمع شيئاً.

ربّما قررا، بعد أن أصبح التصريح في أيديهما، انتظار وقت مغادرة سفينة "غليب بوكي" الميناء، حتّى لا يحضرا التفقّد الصباحي.

ذكّره الشعور بالوقت الذي تكوّن في رأس أرتيوم عبر السنوات التي قضاها يسمع فيها دقات برج سباسكايا بوضوح، أنّه سيرتفع في أقلّ من دقيقة، صوت بوق يمزّق القلب، وسيأمرون بالاستيقاظ.

يبدو أنّهم الآن، يسوقون الجميع إلى الاجتماع - حتّى تلك السرايا التي يبدأ عملها في الثامنة أم حتّى في التاسعة صباحاً.

كان عليّ أن أشرح، وأبرّر بطريقة ما لنفسي الليلة الماضية، حتّى أجد القوّة للنهوض والإرادة للعيش، والنظر إلى العالم.

لم يجد لا القوّة، ولا الإرادة، كان هناك ألم صاخب لا يمكن كبحه فقط، يضغط ويضغط من داخل الجمجمة. كان يمكن لأرتيوم أن يسد أذنيه بيديه، لو كان يعتقد أنّ أصابعه قادرة أن تستقيم.

لم يتمكّن من التغلّب على أيّ شيء في نفسه، ومع ذلك نهض وجلس ببطء على السرير. تماوجت مياه حوض أمس ببطء في رأسه. استطاع أرتيوم ملاحظة أنّ الملاءة كانت سوداء تقريباً ورطبة، كما لو أنّ بقرة لاكتها في فمها المريض، الذي ينزف دماً.

"هل أطلقوا النار على أفاناسييف أيضاً؟"- سأل أرتيوم نفسه: اتضح أنّه يمكن للمرء أن يفكر بهمس- " كان يجب أن يقتلوه أيضاً. ربّما مشيت فوق الخندق المردوم، وكان هو مستلقياً في الأسفل".

لم يستطع أرتيوم التفكير طويلاً وبشكل متماسك حول كلّ ذلك، كما لو أنّ ثقباً قد تشكّل في روحه، كما في ذلك البيانو، وإذا ما خرج إلى الشارع- سيسقط

الثلج على الأوتار العارية، في روحه مباشرة. تضغط على الأزرار - فيصدر صوت قصير، وغريب أجشّ، وينقطع على الفور.

صدر صوت بوق طويل، وغير متوقّع دائماً- اخترق الصدغ، وخرج من الجانب الآخر للجمجمة، عند النهاية الحادّة لرقائق العظام، وهو لا يزال يدور.

" استيقاظ!"- صرخ رجل في مكان ما في المبنى، كما لو أنّهم دلقوا أسفل بطنه العاري فجأة دلواً ملأى بالعلق.

كان يستطيع أرتيوم استعادة فهمه للعالم المحيط، من خلال صوته وكلامه الهادف فقط.

قام بالاستنشاق والزفير مرّات عدّة. حرّك جلدة جبهته، وحرّك عظام وجنتيه، وفتح عينيه أخيراً. وشدّ بجهد، قبضتيه ثمّ فتحهما، وهو يهدئ من ارتعاشه. دقّ بحذائه على الأرضية. لعق شفتيه كأنّه يستعد للغناء.

قال لنفسه: "صباح الخير، يا أرتيوم. أنت على قيد الحياة. وستستمرالآن بالحياة".

كانت عيناه تحرقانه من قلّة النوم: أضاؤوا شمعة في كلّ منهما، وسال الشمع الساخن داخل العينين. كان الرأس كما لو كان ملفوفاً بضمادة صنفرة خشنة قاسية: وضع الضمادة ممرّض مجنون يمتلك قوّة وحشية.

أخذ أكبر قدر ممكن من الهواء وزفر ببطء من خلال أنفه.

"لو جرى الأمر أمس كما كان يريد بورتسيف..."

- بدأ أرتيوم يحدّث نفسه بكره لاذع تجاه نفسه.... كان بحاجة إلى التخلي عن الشعور بالضغينة في نفسه، وتناول الدواء...

" لو حصل كلّ شيء كما كان يخمّن، لكانت غالا تتمدّد في الخندق. ولو كنت أنا في مكتب غالا حينها- وأنا كنت هناك- لدفنوني بجوار غالا- قال أرتيوم ونهض.

... جرت عملية التفقد كالمعتاد، ووقف الناس نعاس بصمت. تظاهر الجميع، كلّ واحد منهم على قدر استطاعته، بأنّ الأماكن الفارغة في الصفوف ليست سبباً للمفاجأة، والسؤال، أين فلان وفلان.

أفاناسييف - لم يكن هناك.

لاحظ أرتيوم أنّ الناس في الصفوف يلقون نظرة إلى بعضهم البعض. يبدو أنّ السجناء يرغبون اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، بالذهاب إلى العمل في أسرع وقت ممكن ، وإلى أبعد منطقة.

مرّ تكاتشوك بالقرب من فصائل العمال، باحثاً عن شخص ما.

"هل من المعقول يبحث عنّي؟" - فكّر أرتيوم، شاعراً بقلبه يقع نحو الأسفل مرّة أخرى، ويتحوّل إلى قطعة لحم مملحة.

كان تكاتشوك مطاطاً، وواسع الوجه، وواسع الوركين، وسريع الحركة، ومتورداً ومنتعشاً، كما لو أنّه عندما كان أرتيوم مستلقياً في حالة نصف هذيان، ساعة ونصف الساعة، انهار نائماً بعمق ثلاثة أيام، كما لو أنّه في وجار شتوي لدبٍّ، تحت سبع طبقات من الثلج.

"يا لهم من شعب قوي"

- فكّر أرتيوم دون أيّ احترام، ولكن بألم فقط.

نكز تكاتشوك بإصبعه الضخمة أرتيوم: "ستكون هناك حاجة إليك مرّة أخرى اليوم. لقد أخبرت المسؤول عن توزيع العمل. اجلس بالقرب من قسم المعلومات والتحقيقات، حتّى لا يبحثوا عنك".

... كان بالقرب من المبنى، زاخار وافدي سيفتسيف، من غير المعروف ماذا كانا ينتظران. كان لون وجهيهما سيئاً، وشفاهيهما جافّة، ومتلبّدة، ومتشققة، وعيونهما في تجاويف سوداء.

لم يسلّما. إمّا لأنّه لم يكن لديهما شعور بأنّنا افترقنا، وإمّا التحية كانت تشير بوضوح شديد إلى العمل الذي قاما به أمس: ومن يحتاج إلى تذكّر ذلك؟.

جلس أرتيوم على الأرض.

وقف زاخار وأفدي بالقرب منه، ينتظران بملل، وفي الوقت نفسه لا يريدان أن يتذكرهما أحد ما.

"لا تعرف أين أفضل، في زنزانة العقاب أم هنا "- قال سيفتسيف وهو يمصّ شفتيه.

بدا بليك في الصباح كما لو أنّه غير طبيعي، ولم يقترب من الناس، وظلّ يبحث عن شخص ما.

" يرسلوننا نحن لليوم الثاني، حتّى لا يرى آخرون غيرنا أيّ شيء، ثمّ سيدفنوننا نحن؟"- استنتج سيفتسيف، وهو ينظر إلى أرتيوم.

فكّر أرتيوم، وهو ينظر إلى بليك: "أين غالا؟ أخرجيني من هنا على الفور، يا غالا!".

ظهر غورشكوف، وقد بدا شكله أسوأ من شكل تكاتشوك، لكن لا بأس أيضاً- وجه نظيف حليق، وقد أكل جيداً. ودون أن ينظر إلى حفاري القبور اللذين كانوا يقفون بالقرب من القسم، دخل بسرعة من الباب، ولكن تذكّر شيئاً ما على الفور، ورجع إلى الوراء.

اقترب من أرتيوم الذي وقف على الفور.

قال غورشكوف في أذنه: "إذا أخبرت إيخمانيس أنّنا سخرنا منه، فسوف تجد نفسك في خندق أمس".

أجاب أرتيوم بهدوء: "أنت لم تسخر ".

مخط غورشكوف على حجارة الفناء، ثمّ غادر.

كان هناك لطخة دم على فردة جزمته من الخلف- لم ينظّفها أرتيوم جيداً.

بليك الذي فكّر منذ بعض الوقت في شيء ما، وتصرف بشكل غير عادي، كمن فجأة، وقفز ممسكاً بأحد النوارس الذي صرخ طالباً المساعدة، لكن الكلب

الغاضب، بمساعدة مخالبه، سرعان ما عضّ رأسه، وفي دقيقة لم يلتهمه،لكنّه مزّق الطائر إلى أشلاء.

كان كلّ شيء حوله ملآن بالريش، وبأحشاء الطير الصغيرة.

لم يقرّر أحد إبعاد بليك، كانت تصيح النوارس الأخرى بكلّ قوتها فقط، وتقوم بحركات سريعة ومتعرجة في الهواء، منزعجة من خيانة الكلب، وإطلاق النار أمس، والتغيّر الحاد في الطقس- قبل ثلاثة أيام كان لا يزال هناك دفءٌ، سقط الثلج أمس، أمّا اليوم فعكر وهناك هواء - كان يجب المغادرة على الفور- وها قد جرى تمزيق أحد أقدم النوارس إلى أشلاء.

كان رجال الجيش الأحمر يتحركون ذهاباً وإياباً على عجل، خرج تكاتشوك إلى الشارع، ودخل مرّة أخرى إلى المبنى، لفظ أحدهم كنية رئيس المعسكر الجديد- وخمّن أرتيوم أنّ نوغتيف قد عاد من كيم.

ظهر رئيس المعسكر بمعطفه الجلدي، في الفناء- بدا بليك كأنّه كان ينتظره فقط: قفز من مكانه، وهجم على نوغتيف.

تبيّن أنّ رئيس المعسكر كان أكثر رشاقة من جندي الجيش الأحمر المرافق له، الذي استطاع فقط خلع بندقيته من كتفه- استطاع نوغتيف من أوّل طلقة من مسدسه الذي انتزعه من محفظته ببراعة، إيقاع الكلب أرضاً، وأطلق الثانية على مكان ما في رقبته.

طار أحد النوارس الذي اضطرب من إطلاق النار من جديد، فوق رأس نوغتيف وترك علامة بيضاء على كتفه.

أطلق النار على النورس، لكنّه لم يصبه هذه المرّة.

"اقتلوا النوارس كلّها، حتّى تنسى الطريق إلى هنا"- أمر نوغتيف ضاحكاً. على الرغم من فشله في إصابة النورس، كان راضٍ عن نفسه.

ركض رجال الجيش الأحمر على الفور، متحمسين، كما هو الحال قبل الاستحمام. بدأ إطلاق النار بجنون.

لم تستطع النوارس التي كانت تصرخ بكلّ جوارحها، أن تصدّق أنّهم يزمعون القضاء عليها جميعاً- أقلعت لبعض الوقت، ثمّ اندفعت إلى المطبخ الرئيس مرّة أخرى، ولا سيّما أنّ الطاهي الذي جرى إخطاره، أخرج بقايا الطعام مراراً وتكراراً، ثمّ رمى لهم بعد ذلك، متحمساً، طعام غداء أحد السرايا بأكمله تقريباً - على الغالب السريّة الثالثة عشرة.

هجم نورس بالغ، بعدما أدرك ما يحدث، بغضب شديد على جندي الجيش الأحمر- أخافه بشكل جدي- لكنّه أسقط عندما كان يحلق للمرّة الثانية، بإطلاق النار من ثلاث بنادق من أمكنة مختلفة.

ضحك جنود الجيش الأحمر، ولم يأسف السجناء كثيراً أيضاً على النوارس.

"لن يطير أحد منهم من هنا"- فكّر أرتيوم مبتسماً، من خلال الألم الذي يغطي وجهه. كان الأمر لا يعنيه أيضاً.

نظر إلى بليك مطولاً، ولكن بعد ذلك ظهر المناوب في قسم المعلومات والتحقيقات، ودفع زاخار، مشيراً له إلى الكلب وشتم. فهم زاخار كلّ شيء، قام ونظر إلى الوراء خائفاً من أن يطلقوا عليه النار، وركض نحو بليك، وأمسك الكلب من رجله وجرّه.

تبيّن أنّ بليك الميّت، كلب صغير الحجم، ليس جميلاً جداً، وليس أسود كثيراً.

خرجت غالا على صوت فرقعة إطلاق النار، وشغب الحراس، ونحيب النوارس- من دون سترة، بالزي الرسمي، متعبة وغير جميلة أيضاً.

كان هناك صخب وضجيج في الفناء، خرج الناس من المبنى الإداري، الممرضات من المستشفى والطهاة - بدا الأمر كأنّه عيد: ذبح الطيور الخريفي.

وقفت غالا بجانب أرتيوم وسألت، وهي تنظر إلى ظهر جندي الجيش الأحمر الذي كان يصوّب على نورس:

" لماذا تبدو هكذا؟".

صمت أرتيوم مؤقتاً، مع اقتراب الدفعة الثانية من إطلاق النار - كان عليه أن ينتظر صدور صوت إطلاق النار قربه - أجاب:

" لقد غسلت جزم رجال الأمن الملطّخة بالدماء. ثمّ دفنت جثّة بورتسيف.

" ألم يضربوك؟" - سألت غالا بسرعة، ونظرت إلى وجه أرتيوم بالسرعة نفسها.

قال: "لا".

حوّلت غالا نظرتها الغائمة، إلى جندي آخر من الجيش الأحمر، وأخبرت أرتيوم:

"أعدموا ستة وثلاثين شخصاً بالرصاص ليلاً. لن يكون هناك إعدامات أخرى. لقد منعها نوغتيف".

"هو...لم يعرف بها..." - قال لها أرتيوم.

"كان يعرف كلّ شيء، لقدغادر عن قصد" - أجابت غالا بغضب.

"تبيّن أنّ بليك يخمّن أكثر منّا!" - ومضت هذه الفكرة لدى أرتيوم.

نظر بطرف عينه إلى غالا - هل يشاركها هذا الاكتشاف أم لا. قرّر عدم القيام بذلك.

توقّع أرتيوم أنّ غالا لا تريد العودة إلى المبنى، لأنّها كانت معجبة بالوقوف بجانبه.

... لكن لم يصبح الأمر أسهل بالنسبة له بوجودها بجانبه، تمنّى أن ينتهي إطلاق النار فقط.

"هل أعدموا أفاناسييف؟" - سأل أرتيوم، ملاحظاً مدى صعوبة الجمع بين الكلمتين الأخيرتين اللتين كانتا تتنافران مثل المغناطيس مع أقطاب مختلفة.

نظرت غالا مرّة أخرى إليه: "لماذا؟ لا. لم أره في القائمة. لأيّ سبب أفاناسييف؟".

"أحمق، ماذا أفعل!" - وبّخ أرتوم نفسه نادماً.

" ليس هناك سبب" - أجاب بصدق قدر استطاعته - "كلّ ما في الأمر، إنّه لم يكن موجوداً في أثناء التفقّد الصباحي، وكنت خائفاً عليه".

صمتت غالا. لم تكن قلقة على أفاناسييف.

"سأحاول إرسالك إلى جزيرة الثعالب اليوم" - قالت بعد بعض الانتظار.

عضّ أرتيوم على شفته السفلى: لو كان الأمر صحيحاً، لو ينجح الأمر - سأضع صورتك أمامي، يا غالا، وسأصلّي أمامها. يبدو أنّ كرابين تمكّن من تصويرها مع مجموعة الثعالب التي حدّدتْ لتدفئة أكتاف غالا في شتاء سولوفكي القادم.

وقفا في صمت نصف دقيقة أخرى. كان أرتيوم يرتجف في بعض الأحيان أم يجعّد وجهه عند إطلاق النار، لكن غالا - لم يرف لها جفن.

عاد سيفتسيف وزاخار. وقد خمّنت غالا ما كانا يفعلانه على الأغلب، من وجود بقع الدماء على ملابسهما، ولأنّ أرتيوم أفسح لهما ليقفا بجانبه، ولم يتفاجأ بقدومهما نهائياً.

"ألم تأكلوا بعد؟" - سألت هي سيفتسيف.

نظر سيفتسيف مستفسراً إلى أرتيوم، بمعنى: ماذا عليّ أن أوجيب؟ هل يجب أن أقول الحقيقة، أم لا؟.

لم يلتفت أرتيوم نحوه.

فكّر أرتيوم ببطء: " لقد اشترك بالحرب، أمّا أنا فلا. ومع ذلك فهو ينتظر لأشير له كيف عليه أن يتصرّف...".

"ليس من الواضح لمن نتبع نحن الآن - لسنا في السريّة، ولا في زنزانة العقاب" - قال سيفتسيف في حيرة، وهو ينظر أحياناً إلى غالا، وأحياناً أخرى إلى أرتيوم، ثمّ أخيراً إلى زاخار أيضاً.

"اذهبوا إلى المستشفى" - أمرت غالا، وهي ترفع ياقتها لسبب ما، وتدخل إلى المبنى - "سأتصل من أجل أن يطعموكم ويسمحوا لكم أن تغتسلوا. اغسلوا ملابسكم".

" أمرنا المواطن القائد تكاتشوك أن ننتظر" - صاح سيفتسيف بصوت باك وراءها.

"سأخبر تكاتشوك أيضاً" - أجابت غالا دون أن تستدير.

تناولوا على الغداء أم أصبح وقت العشاء، حساء البازلاء وكستليت الدخن، وسحلب.

نظر أرتيوم مطولاً إلى الأطباق التي جرى إحضارها، ثمّ ألقى الكستليت في الحساء، وأكل كلّ شيء في أقلّ من دقيقة.

كان في بعض الأحيان يرفع عينيه وينظر إمّا إلى سيفتسيف الذي كان يأكل دون استعجال، مستغرقاً في التفكير، وإمّا إلى زاخار، الذي كان يحاول أن يأكل ببطء أكثر، ولكن دون جدوى. ظهرت لدى أرتيوم حكّة خفيفة نتيجة رغبته في إخبارهما أنّ غالا هي من وضعتهما في زنزانة العقاب - لكنّها الآن أطعمتهما - كما تريان، إلى أيّ مدى هي تعتني بكما. إضافة إلى ذلك، إنّهما سجنا في زنزانة العقاب بسبب الذنب الذي ارتكبه هو، السجين غوريانوف، وسجين آخر... عازف البلالايكا المتهوّر.

لم يكن هناك أيّ شخص آخر في قاعة طعام الأطباء. لقد اصطحبهم الدكتور علي بنفسه إلى هنا، متظاهراً أنّه لا يتذكّر أرتيوم - على الرغم من أنّه قد لا يتذكره فعلاً - فقد تعالج الكثير من السجناء المليئين بالقمل هنا.

"دعوني أطلب لكلّ واحد منكم صحناً آخر؟" - اقترح بلكنة لطيفة جداً، الدكتور علي الذي أطلّ من جديد إلى قاعة الطعام، وهو يمسّد لحيته.

نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض، وكدليل على الموافقة، ضرب أرتيوم برفق نهاية الملعقة التي في قبضة يده على الطاولة.

ضحك الدكتور علي، كما لو أنّه لا يعرف فرحة أكبر من إطعام حفاري القبور القذرين الثلاثة - لا شك أنّه خمّن أيضاً ما كان يفعله هؤلاء الأشخاص الثلاثة التعساء طوال الليل، ولماذا طلبوا منه من قسم المعلومات والتحقيقات إطعامهم.

فكّر أرتيوم شاعراً بوهن وتعب كما في السابق: "يا له من شخص لطيف، بينما أنا أتذكّر أنّني غضبت منه...".

على الرغم من أنّ الدكتور علي، ربّما، أراد ببساطة إكرام ضابطة الأمن التي تدعى غالينا وأراد خدمتها: ربّما، تتذكّر في وقت من الأوقات هذه الخدمة البسيطة، وتساعده في يوم صعب، أم على سبيل المثال، تفك الزرّين العلويين من قميصها في وقت ما، مانحة البياض والنور.

لقد أحضروا لكلّ واحد منهم ثلاثة من كستليت الدخن أخرى، وكوباً من الشاي - شاي حقيقي، وليس من الثمار- لكن لم يكن هذا ما أثار استغرابهم!- وإنّما كان على حافة كلّ وعاء كرة من الزبدة، طريّة، مشمسة، جرى انتزاعها بسخاء بملعقة من قطعة كبيرة...

بدأ الثلاثة أكل الكستليت دون أن ينبسوا ببنت شفة، انحنى كلّ واحد منهم على صحنه، وظلّ ينظر بطرف عينه نحو الزبدة، كما لو أنّها قد تذوب فجأة.

التقط أرتيوم الذي كان أوّل من أنهى طعامه، الكرة السحرية بعناية، ووضعها على ظاهر يده، وبدأ يلعق وهو يعبث ويحاول في كلّ ثانية إدراك النعيم الذي يفتل الرأس كلّ ثانية.

... ولم يلاحظ ، كيف أكل زاخار وسفتسيف حصتهما من الزبدة.

لم يظهر الدكتور علي مرّة أخرى، لكن عامل الدير السابق، المعروف لأرتيوم أيضاً، أحضر كومة من السراويل والقمصان والسترات المغسولة ومعطفاً قديماً، وعلى الرغم من وجود ثقوب فيه، إلّا إنّه من جلد الغنم.

قال العامل: "ليسوا لأحد، أعطوني ثيابكم- ستغسلها النساء، وغداً تأخذونها".

بدا زاخار كأنّه يفكّر: إذا ارتداها فقد يشعر بالاشمئزاز، يمكن أن تكون قد خلعت عن الأموات.

ربت أرتيوم على كتفه برفق: " من من إذا لم تكن منهم أنفسهم، يا زاخار. هنا مستشفى- يعالجون هنا من يمكن علاجه- ومن لا يمكن علاجه – يدفنونه".

لم يهتم أرتيوم للأمر: لقد كان يشعر بقشعريرة منذ الصباح، وهنا- كلّ شيء جاف، ومغسول ومعصور ومجفّف بأيد نسائية.

خلع ملابسه كلّها عدا الداخلية، واختار على الفور، بالعين المجردة، ما يناسبه- ولم يخطئ ولا مرّة واحدة. وارتدى فوقها سترته مرّة أخرى.

حذا زاخار حذوه.

افترق سيفتسيف عن خرقه على مضض، وظل طوال الوقت يبحث عن شيء في الجيوب، إذ لم يكن هناك من ضيوف منذ فترة طويلة، إلّا بق الفراش.

قال العامل: "لا تخف. ستبقى هذه لديك، وسيعيدون ثيابك لك. الشتاء قادم- كلّ شيء سيلزم ويمكن ارتداؤه".

التذكير بالشتاء أثّر في الرجل مباشرة.

لم يغتسلوا، وعادوا مرتدين الثياب الجديدة بسرعة إلى القسم: ربّما فجأة يبحثون عنهم.

كانت النوارس قد أزيلت من الفناء، وساد الهدوء بشكل جديد، وكأنّ كلّ شيء قد جهّز لقدوم الثلج، لأنّ الشتاء في أوّل ظهور له يحب الصمت.

رجال الأمن الذين كانوا يبحثون في السرايا طوال اليوم - إمّا أنّهم كانوا يبحثون عن شخص ما، وإمّا للتخويف من أجل عدم القيام بأيّ شيء في المستقبل، جلبوا ممثلاً هذه المرّة، كان خائفاً بشدة وظلّ ينظر حوله، ربّما يظهر أحد من المسؤولين الذين يعرفونه، والذين صفقوا له كثيراً في المرّة الأخيرة.

وقف زاخار وأرتيوم جنباً إلى جنب، ولم ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، لكنّهما كانا يفكران في الشيء نفسه، في الوقت نفسه: ألن يضطروا إلى دفنه اليوم...

كان سيفتسيف ينظر جانباً، كما لو كان يعذبه الخجل، ولم يكن يستطيع أن يتخلّص من هذا الخجل.

فكّر أرتيوم دون أيّ رغبة حتّى ضدّ إرادته، ليس بالكلمات، بقدر ما بنثار أفكار، أم بالأحاسيس، التي حلّت محلّ الكلمات: "... كنت غاضباً من بورتسيف، كنت أتمنّى له السوء- والآن هو جثّة تحت الأرض. ممّن غضبت، من جثّة؟ وغضبي كلّه - جرى دفنه مع بورتسيف، أم شعوري المر تجاهه، الذي أصبح يتيماً الآن، عاد إليّ؟ يجب أن أحمل كلّ هذا الصدأ بداخلي، لأنّه لا يوجد مكان آخر له، ومن المستحيل كشطه ؟".

حاول الأيل ميشكا الذي رأى لكثير خلال النهار، تجنّب الناس، وكان يركض عبر الفناء هنا وهناك فقط، يشمّ، ويمدّ رأسه نحو الهواء، إذ كان لا يزال يشم رائحة حريق وموت رفيقه الكلب، ويحرّك أذنيه: هل سينطلق نباح مألوف له أو نداء النوارس.

لم يميّز ميشكا بين السجناء ورجال الأمن من قبل، على الرغم من أنّه تمنّى أن يشمّ بلطف ويلعق السجناء، وأن يضرب رجال الأمن بحافره على أبطنهم- والآن أصبح الأمر أسوأ: لقد اعتبر الأيل الجنس البشري بأكمله على أنّه شر. أقترب ميشكا من البوابة مرّات عدّة، وهو يهزّ جانبيه من الانفعال، لكنّ الحراس طردوه إلى الخلف، وهم يلوحون بأيديهم الثقيلة. كانت تصدر من هذه التلويحات رائحة الجوخ الرطب والتبغ وشحم البنادق.

قاد غورشكوف، الذي كان إمّا مرحاً، وإمّا غاضباً، ولكنّه منفعل وكثير الكلام بشكل غير عادي، مع جنديين من الجيش الأحمر سجيناً آخر. كان غورشكوف يسير في المقدمة، ولم يستطع أرتيوم ، في البداية تبيّن الشخص الذي جرى أخذه تحت الحراسة.

" كم عام لي هنا، لكنّي لم ألاحظك، أيّها الوغد "- كان غورشكوف غاضباً أو يضحك، كان مخموراً من جديد، ووجنتاه المشدودتان ترتعشان-

ارتديت قبعة، أيّها الوغد. من حسن حظك أيّها الوغد، أنّني أرسلت في مهمّة، وإلّا لكنت قد تعفّنت في المستنقع لدي!"- وكان غورشكوف، الذي ينظر حوله ومن ثمّ يتعثّر، يروي لجندي الجيش الأحمر ما كان قد قاله قبل دقيقة- " لقد تذكرت هذا اللقيط طوال حياتي! كان في جهاز مكافحة التجسس بجيش كولتشاك، انتزع اللحم قطعاً من ظهري! وشاءت الأقدار أن نلتقي هنا! مثل كورتين دفعا بضربة واحدة إلى سلّة البلياردو! لم ينسك إلهك أيّها الوغد، فقد دحرج القرص إلى حيث يجب!".

تذكّر أرتيوم في البداية، أنّ غورشكوف لم يخلع ملابسه في الحمّام أمس، ثمّ رأى أنّهم يقودون فاسيلي بيتروفيتش.

كان بلا قبعة، حملها غورشكوف في يده لسبب ما- على ما يبدو، كدليل مقنع على حظّه الجيد غير المتوقّع.

"لقد اختلطت عليك الأمور، أيّها المواطن الرئيس رجل الأمن"- قال فاسيلي بيتروفيتش في عجلة، ومكشّراً بغرابة.

لكن حتّى أرتيوم عرف بطريقة ما، أنّ المواطن الرئيس لم يخلط بين أيّ شيء.

معرفة أنّ فاسيلي بيتروفيتش كان يفعل، أم تقريباً كان يفعل ما فعله تكاتشوك أم غورشكوف أمس، لم يفتح ثقباً أسود آخر في روح أرتيوم.

كان يمكن أن ينهار الكثير الآن في الثقب المفتوح، ويختفي دون أن يترك أثراً.

"... كيف لم ألاحظ سابقاً عيونه الشمعية "- فكّر أرتيوم لكن دون أيّ أسف، ولم يكن هناك ما يفكّر فيه بعد ذلك.

كان من الأفضل أن أتذكّر الزبدة، وأن أشم من حين لآخر يدي: فجأة شعر بهذا الطعم مرّة أخرى.

لم يعرف أرتيوم، من الذي أوحى له سابقاً، أنّ كلّ شخص يحمل في قاعه القليل من الجحيم: حرّك المحراك- سوف يصعد الدخان النتن.

هو نفسه لوّح بالسكين وذبح حلق والده مثل الخروف. أمّا فاسيلي بيتروفيتش فمزّق غورشكوف بالملقط - حسناً، ما العمل الآن. كلّ شخص بقدر ما يستطيع، يكسب ملكوت السموات.... بعد نوبات العمل النهاري، بدأت مجموعات السريّة الثانية عشرة في العودة واحدة تلو الأخرى.

لاحظ أرتيوم الوثيقة وشافيربيكوف، وهما رأياه في أثناء مرورهما أيضاً.

استنشق أرتيوم، عضّ خده من الداخل، وظل واقفاً في توقع فارغ وصامت لما ستقدّمه الحياة له هذه المرّة.

عاد الجانيان في وقت قريب جداً، وسارا بالقرب من قسم المعلومات والتحقيقات، ذهاباً وإياباً.

كان زاخار الذي عرف الضيفين، يتطلّع إليهما، لكن أرتيوم لم يفعل ذلك.

وقف الجانيان على مسافة منه. حدّق الوثيقة بأرتيوم، أمّا أرتيوم فلم يستدر. ولكن حان وقت العشاء، وغادر الجانيان بلا شيء.

حلّق نورسان أم ثلاثة صغيرة متبقية، فوق الفناء بحثاً عن عائلتهم أم عن أكبر سناً، وكانت صرخاتهم هزيلة ومثيرة للشفقة.

ركض جنود الجيش الأحمر المؤذوون، وأطلقوا النار مرّة أخرى.

... ظهرت غالا من جديد، عندما حلّ المساء، مرتدية سترة جلدية، وقفازات.

"عودا إلى سريتكما، لقد حررتكما من زنزانة العقاب"- قالت لسفتسيف وزاخار، وشبكت أصابعها مدخلة القفازات بشكل أكثر إحكاماً.

"لم نكن نعرف أيّ شيء عن تلك المكانس التي..."- تمتم سيفتسيف فجأة بسعادة وضحكة خفيفة- "التي من أجلها دخلنا السجن! ولكن حسناً! ليس في كلّ مرّة يعاقب الإنسان من أجل خطيئة ارتكبها هو، ممكن أن يعاني لخطيئة أرتكبها غيره، يبدو أنّ الدور قد حان!".

"يا له من رجل متململ وخائف" - تفاجأ أرتيوم بهدوء.

لقد تذكّر أنّ سيفتسيف لم يكن هكذا في شهر تموز، عندما أرسلوهم إلى تحطيم المقبرة. لقد قتل ناس في الحرب، وكان بإمكانهم أن يقتلوه - ماذا يوجد هنا في سولوفكي، حتّى بدأ سيفتسيف ينحني؟.

"... لقد جاء إلى هنا مع الحقيقة التي يؤمن بها، والتي لم تخذله طوال حياته - وفجأة بدأت تخذله " - وجد أرتيوم الإجابة، كما لو كان الجواب قد قيل له مسبقاً في هذه المرّة أيضاً.

"... وأنا بدأت أفكّر كثيراً أيضاً" - وبّخ نفسه، ناسياً على الفور أمر سيفتسيف - من سيفتسيف بالنسبة له، إذا كان لم يتذكّر حتّى والدته طوال اليوم - "لا داعي للتفكر، وإلّا فأنهم سيبدؤون بتحطيمك، وسرعان ما سيحطمونك".

لم ينس أرتيوم، أنّه منذ مدّة قريبة جداً، حتّى من المضحك القول أمس، عندما خاف على غالا، عاتب نفسه بشكل مؤلم في غرفته بسبب افتقاره لعادة التفكير - ولكن هل فكّر كثيراً حينئذ؟ هل أنقذه عقله المرتبك؟.

انتظرت غالا بصمت حتّى ينهي سيفتسيف كلامه.

كرّرت دون انتظار: "اذهبا إلى سريتكما".

صمت سيفتسيف، لكنّه لم يتوقف عن الابتسام، ونظر حوله مرّات عدّة، وسارع للحاق بزاخار الذي لم يكلّف نفسه عناء الكلام.

كان سيفتسيف يعرج على ساق واحدة، لسبب ما - ربّما لأنّه وقف هنا طوال ليوم.

"فرض نوغتيف حظراً على استخدام القوارب" - قالت غالا دون أيّ تغيير بنبرة صوتها، ودون أن تنظر إلى أرتيوم - "لكن الاعتقالات توقفت، وعاد جميع رجال الأمن إلى منازلهم، غورشكوف فقط لم ينه حديثه مع صديقك فاسيلي

بيتروفيتش، ولا بشكل من الأشكال. يمكنك أن تهدأ قليلاً.."- هزّت رأسها- "انتظر حتّى الغد"- أضافت غالا، بصوت أكثر دفئاً، بأصغر قياس في ميزان الحرارة، من كلّ ما قيل سابقاً، وغادرت أيضاً دون أن تودعه.

كان يجب، إذا لم يشفق على فاسيلي بيتروفيتش، فعلى الأقل تذكّره- ما إذا كانوا يعذبونه الآن، أم يحرقونه، أم يقطعونه إلى أشلاء - لكن أرتيوم لم يرد، لم يرد، لم يرد.

"غداً،غداً،غداً"- كرّر أرتيوم إمّا بلا معنى، وإمّا يدعو على شكل صلاة، وهو ينظر إلى ظهر هذه المرأة التي حملت خلاصه داخلها. وهناك، بالقرب من حقه في الحياة، جرى الاحتفاظ بالموت الذي ترك لوقت لاحق.

مؤمناً يشكل محموم بحظه، ربت أرتيوم على جيوبه، وعلق، كما لو كان على خطّاف، بفكرة حادّة ومؤلمة: فقد أضاع تصريحه الذي يسمح له بموجبه العمل في حضانة الثعالب.

"غداً سيتعيّن على غالا كتابة تصريحاً جديداً" - فكّر بشكل محموم وخيبة، وحاول على الفور تهدئة نفسه، وليس دون شماتة:"أوقف الهستيريا! لم يعد بورتسيف بحاجة إلى أيّ تصاريح الآن. هل أنت في وضع أسوأ منه؟"- لكن حتّى هذا أثّر عليه بشكل ضعيف- "إنّهم يضعون ختماً على التصريح - ويقوم بذلك رئيس قسم المعلومات والتحقيقات - وهذا يعني أنّ غالا ستضر للذهاب إليه: لماذا عليها أن تفعل ذلك؟"- سأل أرتيوم نفسه- "وإذا سئلت غالا لماذا اهتمت فجأة بجزيرة الثعالب؟ وماذا لو لم يعودوا يوقّعون مثل هذه التصاريح؟ يا لها من سخافة! أيّ سخف كلّ ذلك الذي يجري!".

خمّن أوّل الأمر أنّه نسي التصريح في سرواله، الذي تركه في المستشفى لغسله - لكن لا، لقد تذكّر تماماً أنّه قلب جيوب سرواله من الداخل إلى الخارج - وبعد ذلك فقط، أعطى ملابسه، مسروراً جداً أنّه لم ينس أيّ شيء- لأنّه تبيّن أن النقود معه. لم يتذكّر رأسه الأرق، حينئذ التصريح : لحس الزبدة وأصيب بالذهول.

أخرج أرتيوم من جيب سرواله الجديد الذي جرى خلعه من رجل ميّت غير معروف في المستشفى، رزمة من المال مطوية إلى نصفين- ربّما اختلط التصريح بين أوراق سولوفكي النقدية- على الرغم من أنّه كان يعلم مسبقاً أنّه ليس هناك.

ولم يكن هناك.

وقف مثل البيانو نفسه بغطائه المحترق وأوتاره الخشنة، ولوى وجهه في ازدراء لنفسه.

كان يجب عليه الذهاب إلى الغرفة - للبحث هناك، ربّما فجأة سقطت الورقة عندما كان نائماً- لكن أرتيوم كان يعرف أنّه لم يتحرّك ولا مرّة واحدة في كلّ تلك الساعة والنصف التي كان فيها نائماً، ولم يكن من الممكن أن يسقط شيئاً، ولا يوجد أيّ تصريح هناك.

"... وأنت إلى جانب ذلك سخرت من ترويانسكي الذي حمل دبوساً في جيبه لأكثر من شهر"- أشار أرتيوم إلى نفسه بانزعاج شديد- " كان يجب عليك أنت أن تشبك تصريحك بدبوس على جلدك وتحمله، أيّها الأحمق".

"... لا يمكن أن أكون قد أضعته في الحمّام أم بالقرب منه "- أدار أرتيوم في رأسه يوم أمس من جديد، جاهزاً لأن يذهب ويتبع ظلّه في جميع أنحاء الفناء، حتّى إلى الخندق والعودة مرّة أخرى... وهنا تذكّر أخيراً: كان بإمكانه أن يسقط التصريح عندما اختبأ في مستودع الحطب، وبحث بجيوبه عن المنديل الذي لم يكن بحوزته قطّ.

ذهب أرتيوم إلى مستودع الحطب، في عجلة من أمره، وخائفاً من إخافة حظّه، وهاجسه، واضح للغاية، يمكنك حتّى إخفائه في راحة يدك، مثل عملة معدنية.

نظر حوله، لم ير أحداً، جلس أرتيوم القرفصاء، وتسلّق في الاتجاه الذي اختبأ فيه أمس.

كان خوفه عميقاً وحاداً ولكنّه لم يدم طويلاً: كان يجلس في المكان نفسه شخص آخر، بقبعة جامعية، فتح عينيه على وسعهما محملقاً.

كان أرتيوم أوّل من ضبط أعصابه: لقد عرفه أنّه ميتيا شيلكاتشوف.

"لماذا أنت هنا؟" - سأل أرتيوم بصوت منخفض، شاعراً بالتساهل تجاه الشاب - كما لو أنّه لم يكن هنا أمس.

عرف ميتيا أخيراً أرتيوم، لكنّه مع ذلك لم يهدأ بعد.

قال شيلكاتشوف، دون أن ينطبق لديه سن على سن: " أعدموا أربعمئة شخص بالرصاص".

قال أرتيوم: "ستة وثلاثون".

"أ؟" - لم يفهم شيلكاتشوف - "يبحثون عنّي".

قال أرتيوم:"اخرج، كلّ رجال الأمن نائمون. لا أحد يبحث عنك. لا أحد يهتم بك".

"أ؟" – لم يسمع شيلكاتشوف مرّة أخرى، رغم أنّهما كانا يتحدثان وجهاً لوجه.

كان ميتيا يرتجف.

"أزح"

- طلب أرتيوم، ودفع شيلكاتشوف في جبهته: لم يفهم أيّ شيء على أيّ حال.

رجع شيلكاتشوف إلى الوراء بارتباك، متوقعاً على الأرجح أنّ أرتيوم يريد التسلّق إليه.

بحث أرتيوم بيده، إذ كان يجلس ميتيا - حسناً، هو كذلك. هذا هو التصريح.

تحسباً فقط، قرّب أرتيوم الورقة إلى عينيه.

لقد تنهّد بسهولة، وبهدوء شديد، وبغاية الامتنان، كما لو كان ليس تصريحاً للسفر إلى جزيرة الثعالب، بل مرسوماً بالعفو الكامل.

دون أن يودّع شيلكاتشوف - يجلس وحده، دعه يجلس - زحف أرتيوم عائداً. كان المخرج ضيقاً وغير مريح، لكنّه ظلّ يبتسم إلى أن خرج، ولم يتوقف

عن الابتسام حتّى عندما وقف بكامل طوله، ورأى بنظرة جانبية الوثيقة وشافيربيكوف يقفان على مسافة قريبة منه، لقد تعقباه، ويبدو على الأرجح، أنّهما فقداه، ولاحظاه الآن مرّة أخرى.

قال أرتيوم بصوت مسموع:"سيكتبون لك تصريحاً آخر الآن". دون أن ينظر، سحب قطعة حطب من الصف الأخير على طرف الكومة، وضغطها بشكل عمودي على صدره - مثل طفل كبير - وهكذا، دون أن يلقي نظرة، ذهب باتجاه مبناه.

غطّت الحافة السفلية من الجذع أسفل بطنه، وحفّت الحافة العلوية على الصدغ.

خيم الظلام حوله، ولم يكد يصل نور فوانيس الدير إلى هنا، وكان يجب السير بحذر حتّيلا يقع.

حاول أرتيوم المشي بسرعة، ولكن ليس إلى درجة أن يغطي ضجيج خطواته، وصوت نبضات قلبه الذي يدق، على وقع أقدام اللذين يلحقان به.

كان لديه من الصبر- أم البلادة بسبب الإرهاق في اليومين الماضيين- يجعله ألّا يستعجل. أرخى في اللحظة الأخيرة، ذراعيه- انزلقت قطعة الحطب إلى الأسفل- أمسك بها أرتيوم من نهايتها، والتف وضرب، الشخص الذي لحق به، على رأسه.

خطى خطوتين جانباً، مندفعاً بسرعته السابقة، ساقطاً على ركبته، مُعرقلاً شافيربيكوف الذي طار فوقه متشقلباً.

حمل شافير بيكوف سكيناً في يده التي تدحرجت على الحجارة.

رأى أرتيوم الذي رمى مباشرة بعد الضربة الخشبة جانباً، وتراجع بمقتضى العادة، كلّ شيء- شافيربيكوف والسكين، لكنّه كان يفتقر إلى الغضب والشجاعة لارتكاب مذبحة هنا.

ركل السكين بقدمه ليسقط بعيداً، واستدار وركض.

لا أحد كان يطارده.

همس أرتيوم: " شخص منتهٍ! أنا شخص منتهٍ! شخص منتهٍ يقتل جناة اثنين غير منتهيين!".

اجتاحه ضحك يائس.

أبطأ خطوته غير بعيد عن المبنى،، وتلمّس التصريح مرّة أخرى: هنا، أم لا ؟ ألم يسقط؟.

إنّه في مكانه، في مكانه، اذهب من الفناء.

في الصباح، فور سماع صوت البوق، جاء جندي من الجيش الأحمر مألوف لأرتيوم تقريباً، ورائه: مرّة أخرى إلى قسم المعلومات والتحقيقات.

"إنهّم يأمرون جندي للقدوم من أجلي كأنّه مراسل"- ضحك متسائلاً عمّا إذا كان الأمر يستحق أخذ شيء معه إلى جزيرة الثعالب أم يترك كلّ شيء هنا. لم يأخذ الطرد من والدته بعد. حسناً، ستحضره غالا لاحقاً.

قال جندي الجيش الأحمر: "اسرع".

"سأجعلك تسرع الآن يا غبي"- أجاب أرتيوم بينه وبين نفسه- كان بإمكاني أن أقول ذلك بصوت مسموع، لكن لا داعي.

لقد نام جيداً. رغم أنّ الحياة مشوهة الوجه، وتفوح منها رائحة العار، أعادت حقوقها بعناد. لم تكن لديه رغبة بالرد على أيّ شيء، أولئك الذين يفرون من الجزيرة وجاهزون لقتل الآخرين، يعرفون أنّه في المقابل يمكن قتلهم. يتذكّر أولئك الذين يقطّعون الآخرين إلى قطع أنّه يمكن قطعهم أيضاً، ويملحوهم في بحر سولوفكي. أراد أرتيوم، أكثر من أيّ شيء آخر، أن ينظّف وسخ الثعالب.

كانت لأوعية طعام الثعالب في جزيرة الثعالب أغطية، وكان يجب إغلاق الأغطية جيداً، لأنّه كان لدى الثعالب عادة سيئة، وهي التبرّز في الوعاء الذي تأكل منه.

كانت لدى أرتيوم معرفة، بأوعية طعام الثعالب، وطبيعة الثعالب، ما يكفي لمواصلة حياته. لم يكن بحاجة إلى أيّ معارف أخرى.

دخل أشخاص عدّة إلى الغرفة في الحال: المناوب، وقائد السريّة، وأثنان من السجناء مع حقائبهما القماشية - ربّما نقلوهما للعيش فيها.

"ماذا تفعل هنا يا بن آوى؟" - صرخ قائد السريّة الثانية على أرتيوم من العتبة.

" يبدو أنّهم أصبحوا متوحشين منذ الصباح الباكر" - فكّر أرتيوم، وهو يرمش عينيه بكثرة، كما لو أنّ براغش هاجمته.

" إنّه يأتي إلى هنا لليوم الثاني على التوالي كما لو كان إلى بيته - لم أكن أعرف أنّه نقل من هنا" - تحدّث المناوب بتملق، وفي الوقت نفسه ينظر بطرف عين كلب غاضب إلى أرتيوم - "أتذكّره، هل نقلوه، لم يقل لي إنّه نقل، يدخل إلى السريّة، كما لو كان يدخل إلى شقته".

" أين مكانك، يا بن آوى؟ في حضانة الحيوانات!" - خطا قائد السريّة خطوة نحو أرتيوم، من أجل أن يوجه له لكمة بقبضته بين عينيه، لكن جندي الجيش الأحمر الذي كان يقف، ومن غير المعروف لماذا أتى، عرقل تنفيذ حكم سريع - "هل وجدت نزلاً لنفسك؟ أخرج من هنا بسرعة الرصاصة!".

أراد أرتيوم نفسه الخروج.

من خلال تعبيرات وجهي السجينين المنفصلة، لقد لاحظ اللّذين أرسلوهما للعيش هنا، إنّهما لم يشعرا بأيّ تعاطف معه - وإنّما على العكس من ذلك، كانا سيدعمان في دخيلتهما قائد السريّة، لو جرى رمي أرتيوم على الأرض، والدعس عليه.

"لقد نام كما لو في جحر، وجه بن آوى" - صرخ وراءه قائد السريّة. سحب الملاءة التي كان عليها تراب من على السرير وألقى بها وراء أرتيوم.

أمسك بها أرتيوم، ولم يعرف أين يضعها، فلفّها حول يده.

استهزأ أرتيوم: "لا أحد يجرؤ على ضرب، الشخص المنتهي- حتّى إنّهم أعطوني الملاءة...".

فتحها أرتيوم ونفضها قليلاً، وألقى بالملاءة على كتفه، وسار كما لو كان يرتدي معطفاً أبيض، حتى ولو كان متسخاً.

لم يعر جندي الجيش الأحمر أيّ اهتمام للأمر، ولم ينتبه أحد في فناء الدير- يرتدون أسوأ من ذلك في سولوفكي... ربّما يضع الشاب كلّ ما يملك على نفسه.

مزحَّ أرتيوم: "... هذا هو منديلي، دع كرابين يحسدني عليه".

دخل جندي الجيش الأحمر الذي كان يسير أمام أرتيوم إلى مبنى قسم المعلومات والتحقيقات، ولم يصعد على الدرج نحو الأعلى، وإنّما سار نحو الجهة الأخرى في الطابق الأسفل، ووقف أرتيوم ينتظره: ربّما احتاج الجندي إلى أن يذهب إلى رفيقه لطلب تبغ.

مع أنّ قلبه دليله، فقد فهم كلّ شيء.

حتّى إنّه فهم عندما كان يعبث بالملاءة.

" لماذا توقفت؟"

- صرخ جندي الجيش الأحمر الذي عاد راكضاً نحو أرتيوم، وأمسكه من رقبته ودفعه أمامه، وإضافة إلى ذلك لكمه بين كتفيه بقبضته.

نزلوا على الدرج الحجري القديم إلى قبو البناء، وطرق جندي الجيش الأحمر الباب الحديدي بقبضته، سألوا من هناك: "من؟". "لقد أحضرت غوريناينوف"

- أجاب جندي الجيش الأحمر، دون أن يخطئ بأيّ حرف في كنيته.

جرى حبسه فوراً، خلف الباب الحديدي في غرفة مظلمة بلا نوافذ تفوح منها رائحة الرطوبة.

وقف أرتيوم عند المدخل، يعتاد على الظلام ويستمع: ما إذا كان يوجد أيّ شخص آخر هنا. حسب صوت الباب الذي غلق خلف ظهر أرتيوم، كانت الغرفة صغيرة وفارغة.

استرخ - وعش.

"لقد استيقظ ، اجلبه"- قالوا بصوت عالٍ في الممر.

فتحوا الباب مرّة أخرى، وأمروا أرتيوم بالخروج.

قال أرتيوم: "بدأت للتو التأقلم مع ذلك".

لم يرد جندي الجيش الأحمر، بل راكم غضبه للضربة التالية.

عادوا بالطريقة نفسها.

"سيعيدونني الآن إلى غرفتي ويقولون:" استلق، ونمْ، يا فتى، آسفين على إزعاجك! قريباً سوف نرسل لك القارب... مباشرة إلى فناء الدير. هل تريده آلياً أم شراعياً...؟" - تحدّث أرتيوم، كما لو كان يقرأ قصة ما، قبل النوم.

جلس غورشكوف في المكتب الكائن بالطابق الثاني، ويبدو في حالة سيئة، ونّعساً، ووجنتاه الضيقتان مترهلتان، لكن معنوياته عالية، حتّى مع نظرة خبيثة في عينيه.

حاول أرتيوم أن يبهج نفسه: " من الجيد أنّها ليست غرفة تعذيب".

كان هناك ثقوب على الجدران، في أماكن عدّة.

خمّن أرتيوم بسهولة: "هذا هو مكتب بورتسيف. وهذا من انتقل إليه الآن".

كانت الغرفة مرتّبة بشكل سيئ: من الواضح أنّ أدراج الخزائن قد جرى خلعها، أم حتّى كسرها بالكامل، ثمّ جرى إعادتها بطريقة ما، أوراق عدّة على الأرض دعس عليها، وتركت هكذا ملقاة على الأرض، وألقيت كومة من المجلدات في الزاوية اليسرى خلف ظهر غورشكوف.

" جاء مع ملاءته مسبقاً "- قال غورشكوف، لكن كما لو لم يكن لغورياينوف، ولكن لشخص آخر غير مرئي - "سيجمع فيها أسنانه!".

فكّر أرتيوم: " كأنّه يتحدث إلى بورتسيف، حثالة بنصف عقل".

أومأ المالك الجديد للمكتب برأسه نحو كرسي بالقرب من الطاولة.

جلس أرتيوم، طاوياً الملاءة المجعّدة على ركبتيه.

"ما كنيتك؟".

ذكر اسمه. والمادة التي حكم بها. ومدّة حكمه.

"فيرشيلين فاسيلي بيتروفيتش- هل تعرف مثل هذا الشخص؟"- سأل غورشكوف، وهو يتنهّد بتعب قليل، ولكن مع الشعور نفسه حينما يضعون أمامك صحن حساء ثانٍ، أم حتّى ثالثٍ، وسيتعين عليك أكلهم.

" فاسيلي بيتروفيتش؟" - كرّر الاسم أرتيوم - "كيف لا أعرفه: لقد كنت في السريّة نفسها معه. ونمنا جنباً إلى جنب".

" ميزيرنيتسكي سيرغي يوريفيتش؟" - كان غورشكوف يضع علامات على بعض الأوراق التي أمامه أحياناً.

"ميزيرنيتسكي؟"- كرّر أرتيوم السؤال عن قصد، من أجل أن يفكّر في الجواب، على الرغم من أنّه كان من الصعب التفكير في شيء مميّز هنا- "رأيته".

"هل التقيت به قبل الحكم عليك، وإرسالك إلى معسكر سولوفكي للأغراض الخاصة ؟".

"مع ميزيرنيتسكي؟ بالطبع لا. رأيته في المعسكر فقط".

" كم مرّة؟".

"مرتين".

" في أيّ ظروف؟".

" في أيّ... في البداية حيّاً، ثمّ ميّتا".

زمّ غورشكوف شفتيه بما يشبه ما تحت ذيل الدجاجة، لم يكن يفكّر بل يستريح. لم يكن مهتمّاً بنكات غوريايينوف.

"بورتسيف مستيسلاف أركاديفيتش... هل كنت تعرفه؟"- لفظ غورشكوف هذا الاسم، بعد فترة من الوقت، وليس دون متعة: كان هناك شعور بأنّه، عندما يلفظ كلّ كنية، يبني جداراً من المكعبات.

سعل أرتيوم، رغم أنّه لم يكن يريد ذلك.

قال: "كان بورتسيف في سريتنا أيضاً، مثل فاسيلي بيتروفيتش".

"أن أسأل: هل عرفته شخصياً؟"- كرّر غورشكوف، مصوّباً عينيه الصغيرتين على أرتيوم.

قال أرتيوم: "كنت أعرفه شخصياً، لكنّني لم أكن على علاقة وثيقة به".

"هل قابلت بورتسيف في غرفة ميزيرنيتسكي خلال الجلسات التي كنتم تسمونها..." - بحث غورشكوف في الأوراق على الطاولة- "... ليالي أثينا؟".

صحّح أرتيوم: " أمسيات ".

نظر إليه غورشكوف بعيون صغيرة دون أن يرمش. صمت أرتيوم لبرهة وكرّر:

" أمسيات أثينا. التقيت به لمرّة واحدة".

"أم مرتين؟"- سأل غورشكوف.

سعل أرتيوم مرّة أخرى.

"من المثير، هل تعرف غالا أين أنا؟ يقع مكتبها فوق هذا مباشرة. ربّما أصرخ بصوت لا إنساني، وسوف تسمعني؟".

"هل ناقشت مع بورتسيف عمله في قسم المعلومات والتحقيقات؟"

- حفر غورشكوف للحصول على معلومات.

"إنّ المواطن القائد يحفر مؤامرة جديدة، حتّى يقدّره نوغتيف ويعيّنه أفضل رفيق له "- خمّن أرتيوم دون أيّ جهد. بقي من غير المفهوم ما الذي يجب عليه فعله في هذه القصة بأكملها. ربّما الثعالب جائعة. على الأغلب لم تغطّ الأوعية التي بها أطعمة الثعالب. يتطاير الشرّ من كرابين. "من ناحية أخرى" - قام أرتيوم بمحاكمة عقلية، وهو يحاول التفكير ببطء، كما لو كان يخطوا على نتوءات في مستنقع - "أنا لست متورطاً في أيّ شيء، ولست مذنباً في أيّ شيء. ليس هناك ما يمكن اتهامي به، عدا أنّني رأيت بورتسيف عند ميزيرنيتسكي".

إنّ الذي ساعد أرتيوم، هو أنّه رأى غورشكوف في جزيرة موكسولما الصغيرة حينها، وعرف الحركات التافهة لرجل الأمن هذا، وتذكّر كيف قام إيخمانيس بقلب الكرسي من تحته. لم يكن أرتيوم خائفاً من غورشكوف وكان هادئاً قدر الإمكان، وإن كان ذلك ربّما من العبث.

قال أرتيوم أخيراً: "لا، أبداً. كانت لدينا علاقة سيئة. لقد ضربني في إحدى المرّات. وبسببه دخلت المستشفى. لم نتحدّث بعضنا مع بعض مطلقاً".

حرّك غورشكوف حواجبه القليلة الشعر، ويبدو أنّه لم يصدّق كلمة واحدة ممّا قاله أرتيوم.

" إذن كيف عرفت أنّ غراكوف عميل سري لقسم المعلومات والتحقيقات؟" - سأل غورشكوف، وبسعادة غامرة سند ظهره على كرسيه.

كانت تعبيرات عينيه لطيفة، وفيها دهاء.

"لقد وشى بي فاسيلي بيتروفيتش" - قال أرتيوم لنفسه، وحتّى إنّه من المفاجأة الصامتة والصادقة، نسي بما عليه أن يجيب عن السؤال.

"من أين عرفت عن المخبر؟" - صرخ غورشكوف فجأة، ووقف على الفور.

"لم أكن أعرف شيئاً عن أيّ مخبر!" - أجاب أرتيوم بصوت عالٍ، كما لو كان ذلك أكثر إقناعاً.

دار غورشكوف حول الطاولة، وهو يشدّ قبضتيه، ووقف بجانب أرتيوم، منحنياً قليلاً.

"ربّما يجب أن أمسك بساقه أيضاً، مثل غالا، وقد يصحّ تخميني، مثل تلك المرّة "- كان لدى أرتيوم من القوّة ما يكفي ليمزح قبل النهاية.

"فكّر مرّة أخرى وأجب، يا بن آوى".

"...وهذه الملاءة المزعجة أيضاً..."

- ومضت في رأس أرتيوم.

كان غورشكوف يرتدي جزمة، وركل بفردة من هذه الجزمة الكرسي من تحت أرتيوم.

"... لم ينس كيف ركل إيخمانيس الكرسي من تحته..."

- سقط أرتيوم على الأرض، وتلقى ضربة من مقدمة فردة جزمة على رقبته، على الرغم من أنّها كانت تستهدف أسنانه على الأرجح. وجاءت الضربة الأخرى على أذنه: صرخ أرتيوم: لأنّ الضربة كانت موجعة! موجعة حقاً!- جاءت الضربة الثالثة على يده التي حاول تغطية رأسه بها، على الرغم من أنّها كانت تستهدف الأذن نفسها.

"... سأصاب بالصمم، ولن أجيب عن أيّ سؤال"

- كان أرتيوم مدركاً بشكل رائع لكلّ شيء إلى حدّ القرف، وسأل نفسه بسخرية متواصلة وغضب: "... ماذا يفعلون في مثل هذه الحالات؟ ما العمل؟ هل أمسك بفردة الجزمة وأقبلها؟ أقول إنّ غالا هي التي حكت لي عن المخْبر؟ ويتركونني في الحال؟.. حاول أن تقول شيئاً عن ذلك فقط، أيّها العاهر، جرّب فقط...".

رفع غورشكوف الكرسي من على الأرض وهوى بها في ثلاثة ضربات قويّة، كما لو كان يقطّع الحطب في صباح يوم مشمس جميل، وكسرها على العمود الفقري لأرتيوم.

" إنّها واهية" - شتم، وألقى بالكرسي الذي كسر إلى جزأين على الأرض- "إنّهم يصنعونها هنا بهذا الشكل، معلمون بنات آوى اللعين...".

استقام غورشكوف، وذهب إلى كرسيه، وعاد، ووضعه مقابل وجه أرتيوم مباشرة.

راقب أرتيوم جزمة غورشكوف. ثمّ لاحظ كرسيّاً مكسوراً آخر ملقى في الزاوية البعيدة من الغرفة.

فكّر، وهو يتنفّس بصعوبة: "...أي خسارة... للأثاث...".

كان يشعر بالألم في أذنه، ومؤخرة رأسه... وظهره

- كان يلعب مثل دبٍّ يعزف على الأكورديون...

قال غورشكوف، وهو يلتقط أنفاسه: "كان السؤال على الشكل التالي: من أين عرفت أنّ المواطن الصحفي في جريدة سولوفكي، السجين غراكوف، يتعاون سرّاً مع قسم المعلومات والتحقيقات؟".

سحب أرتيوم الطرف الطويل للملاءة ، وقرّبه من رأسه: مسح الدم عن وجهه... من أين سال؟.

"لم أكن أعرف، لقد خمّنت" - أجاب بهدوء واستعطاف، وهو يشمّ رائحة الملاءة.

نظر إلى غورشكوف من الأسفل- شيء مذهل: لم يكن مخيفاً على الإطلاق، كما في السابق...

لماذا إذن، آلمته أذنه بهذا الشكل؟..

فتح الباب. تحرّك الكرسي الذي كان يجلس عليه غورشكوف قليلاً. خمّن أرتيوم أنّ غورشكوف استدار نحو الشخص الذي دخل إلى الغرفة.

نظر أرتيوم بطرف عينه، ورأى فردتي جزمة رجالية أيضاً، لكن فقط مقاسهما أكبر بثلاث نمر.

قالت الجزمة الجديدة: " هو لديك مع ملاءة ، لماذا دون وسادة؟".

كان هذا تكاتشوك- كان من الصعب عدم معرفة صوته الذي يخرج من بطنه، ويعيش بين عقدة ضخمة من الأمعاء وطحال المهر.

اقترب تكاتشوك من أرتيوم المرتمي على أرضية المكتب - كانت خطواته ثقيلة، لدرجة أنّ ألواح الأرضية الخشبية كانت تنحني.

شدّ أرتيوم ساقيه حتّى بطنه، أمّا يديه- كان يكمش بهما نهاية الملاءة المجمعّة على شكل كرة، فقرّبهما - إلى وجهه تماماً.

قال تكاشوك: "إنّه يتحرّك مثل أسروع... هل أخبرك بشيء؟".

لم يجب غورشكوف: على ما يبدو عبّر بحركة على وجهه.

عرف أرتيوم تماماً أنّه حان الوقت لإغماض عينيه بشدّة - وأغمض عينيه بشدّة.

كانت الضربة قوية لدرجة أنّها ألقت به، قرب الحائط ، مثل كيس عظام.

لم يعد أرتيوم يفكّر في أيّ شيء، وانكمش فقط ككرة، مثل قرص عجين، رطب وزنخ.

اقترح غورشكوف:" دعنا نجلسه من جديد، أنا لا أرى عينيه. في عينيه يمكن دائماً رؤية- هل هو خائف أم لا".

" لماذا عليه ألّا يخاف. إنّه خائف جداً"- قال تكاتشوك بصوت إنسان لم يضرب أحداً، ولم يكن لديه نيّة ليفعل ذلك.

صحّح غورشكوف نفسه:"...إنّه يكذب،أم لا".

قال تكاتشوك: " لماذا عليه ألّا يكذب. إنّه يكذب طول الوقت... لقد رأيت كرسيّاً آخر في الممر".

فتح الباب، وعلى الفور مكشّراً، سلّم على شخص ما.

" ماذا لديكم هنا؟"- سأل صوت أنثوي.

أزال أرتيوم الملاءة عن وجهه، ورأى غالا. وقفت على عتبة الغرفة، وحاولت أن تتطلّع وهي تقف أمام تكاتشوك، ماطّة جسمها، وهي تقف على رؤوس أصابعها، ولكن بكلّ الأحوال لم تصل حتّى إلى كتفيه.

" ها هو ذا " - قال تكاتشوك بلامبالاة، واستدار جانباً وأشار إلى أرتيوم.

حرّك أرتيوم ساقيه، ورفع نفسه على مرفقه، ثمّ جلس وظهره إلى الحائط.

نظر في عيني غالا - دون طلب، ولا يأس، ولا شيء.

" نحن نعمل، يا غالينا" - قال غورشكوف دون مودّة من على كرسيه، ولم ينظر إليها، بل نظر إلى أرتيوم الذي استعاد وعيه - "هل لديك عمل لدينا؟".

تردّدت غالينا للحظة وفكّرت:

" كان نوغتيف يبحث عنك".

" لقد وجدني" - قال غورشكوف- " يعرف رئيس المعسكر أنّني أعمل... وماذا بعد؟"- والتفت إلى غالينا.

قالت: "لا شيء".

تتبّع تكاتشوك غالا بنظراته، وتطلّع إلى الجانب الآخر من الممر وقال:

" لا يوجد كرسي. دعه يتحدث واقفاً... قف، أيّها الشقي".

كان السجناء يتحدثون بصوت منخفض، مثل الأطفال المسروقين في منزل غريب.

جلس أرتيوم في ملابسه الداخلية مكانه، واستمع إلى الريح التي لا تنتهي.

في كوّة جنب الباب، كان مصباح يدخّن لا يكاد يضيء.

أقيمت على طول جدران الكنيسة الباردة مضاجع عارية من طبقتين.

أخذ أرتيوم مكاناً في الأعلى على الفور حسب العادة.

دون أن يلحق يفكّر، فيما إذا جرى إشعال الموقد في الكنيسة، فسيكون الهواء أكثر دفئاً في الأعلى، لكنّه اختار ببساطة مكاناً لنفسه، وعلى عكس الآخرين

اللذين جرى إحضارهم إلى زنزانة العقاب معه، لم يرتبك عند المدخل، ولم يتردّد، وإنّما حدّد على الفور أين سيعيش. لأنّه كان ينوي أن يعيش.

كان فاسيلي بيتروفيتش في نفس الرتل. كان قميصه ممزّقاً بشدة على صدره وظهره. وقد لاحظ أرتيوم، عندما خلع فاسيلي بيتروفيتش ملابسه في الشارع، كدمات متباينة ومتعدّدة من خلال الفجوات الممزقة - كما لو أنّه جرى رميه بكلّ أنواع الثمّار وجرى عصرها عليه: جفت البقع، وأصبحت الآن تتألق بشكل جاف بألوان مختلفة.

بدا دون قبعته المعتادة، وبشعر ذقنه البائس الذي أصبح طويلاً، كأنّه رجل عجوز. بعد أن نظر حوله بعينين كأنّهما قصيرتا النظر، رأى فاسيلي بيتروفيتش أرتيوم يتسلّق الطابق العلوي، فسارع هو لأخذ مكانه في الأسفل. لم تكن حالته طبيعية تماماً.

"... ربّما أصيب بالجنون، ويعتقد أنّنا في السريّة الثانية عشرة؟" - سأل أرتيوم نفسه دون أيّ شعور، وهو ينظر إلى رأس فاسيلي بيتروفيتش الأصلع من الأعلى، الذي بدا أنّه نحف أيضاً.

كان الرأس يرتجف قليلاً، في بعض الأحيان.

"...عندما يبدأ البرد، كيف يمكن العيش هنا؟"- سأل أحدهم بصوت خافت في مكان قريب.

"عِشْ حتّى الشتاء" - قال أحدهم ممّن كان في الكنيسة قبل وصول المعاقبين الجدد- بصوت أجشٍّ وخافتٍ- ولكن سمعه الجميع. كان مكانه مرئياً من مضجع أرتيوم.

اقترب أشخاص عدّة من المضجع الذي في الأسفل - نحو الصوت الذي صدر. سأل أحدهم:

" كيف الحال هنا؟ ماذا"؟.

لكنّ الشخص الذي كان يرتدي سروالين أم ثلاثة داخلية، وعدّة طبقات من الثياب الممزقة التي لا يمكن تصورها، لم يقل شيئاً أكثر من ذلك، كما لو كان يحرص على كلّ كلمة، ويعرف أنّه بقي لموتهم أيام معدودة.

"... خلع هذا الشخص ملابس الأموات التي أعْطيت له "- فهم أرتيوم.

كان الأمر هنا سيئاً، حتّى قبل قدوم البرد: قاعة رطبة، تيارات هوائية لا تنقطع. لم تكن درجة الحرارة أكثر من عشرة في الخارج.

كان الكثيرون يرتجفون، وتصطك أسنانهم- رغم أنّه من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك بسبب البرد أم الرعب. كان آخرون، يسيرون في الكنيسة ذهاباً وإياباً، حتّى يدفئوا أنفسهم. ومع ذلك، لا تفهم حتّى هنا ما إذا كانوا قد دفئوا...

ليس بعيداً عن مضجع أرتيوم كان هناك نافذة- تسلّق نحوها، ربّما دون معنى- لأنّه كان يسقط القليل من الضوء من هناك، من خلال الدرع الذي يغطي النافذة من جانب الشارع- بينما كان شبه ظلام يخيّم في كلّ مكان.

أشعل شخص ما في الأسفل عود ثقاب - أطفأه تيار هواء على الفور.

"آي - آي"- قال الشخص، كأنّه غضب من عود الثقاب.

كان هذا هو الشيشاني خاساييف، المناوب السابق في السريّة الثانية عشرة، عرفه أرتيوم. كان خاساييف مشعراً وقوياً، وعلى عكس معظم الآخرين، لم يشعر بالبرد، لكنّه كان ينحني فقط وينظر حوله، كما لو كان يعرف على وجه اليقين: وجود مخرج من هنا أيضاً، لكن يجب أن يخمّن مكانه.

بعد أن اعتاد أرتيوم المكان قليلاً، أدرك أنّه في الشتاء سيندم على المكان الذي اختاره- لم يكن هناك موقد في الكنيسة، ولكن إذا حدثت رياح مائلة شريرة، فإنّ غبار الثلج سيتطاير من النافذة إلى مضجعه بالضبط.

"... لاحقاً، كلّ شيء لاحقاً "- فكّر أرتيوم، وهو يمسح بيده على الجدار.

كأنّه كان لا يزال يعاني من الثمالة، ولم ينته تأثير الكحول الذي لا زال يخدّر وعيه- لم يكن وقتها قد صحا بما يكفي ليتذكّر ما حدث أمس.

كانت الجدران مغطاة بطبقة خشنة من الجير- لا بدّ أنّ البلاشفة قد طمسوا اللوحات الجدارية، بصفتهم مالكين جداً.

"كان من الضروري فهم بماذا وكيف يمكن الحصول على الدفء هنا- حتّى اللحظة التي ينتهي فيها كلّ شيء- في آخر الأمر يجب أن ينتهي ذلك: ستفكّر غالا بشيء ما، وستصلي والدتي، من الممكن أن يحدث أيّ شيء- المهم ألّا أتجمّد الآن. لم يخطر ببالي شيئاً حتّى الآن".

أجبروا الجميع على خلع أحذيتهم، وخلع ملابسهم عدا الداخلية، عند مدخل الكنيسة. رموا كلّ شيء في كومة، ووعدوا بحرقها. "لن تحتاجوها بعد اليوم على أيّ حال، لا حاجة لتجميد بق الفراش!" - صاح الحراس من جنود الجيش الأحمر مبهجين بعضهم بعضاً.

سمحوا بإدخال الملاعق فقط- اللذين كانت بحوزتهم. كان لدى أرتيوم واحدة- عندما كان لا يزال في الجزيرة، بناءً على نصيحة كرابين، قام بخياطة ملعقة إضافية في بطانة سترته- عندما خلع ملابسه، أخرجها.

كان لديه أيضاً، عكس الكثيرين، جوارب صوفية، أخذها معه من جزيرة الثعالب أيضاً، وبقيت الملاءة معه- من حسن حظّ أرتيوم، عندما أخرجوه من مكتب غورشكوف، أمسك بالملاءة بيديه الملتوية.

بعد ذلك، وهو مستلقٍ في زنزانة العقاب، متغلّب على الألم في جسده بالكامل، أنزل أرتيوم سرواله الداخلي، ورفع قميصه الداخلي، ولفّ نفسه بالملاءة لتدفئه.

"ضربوا العجين وعجنوه... العريس والعروس" - ظلّ أرتيوم يردّد، وهو يشعر أنّه يبكي، حتّى إنّ وجهه كان يؤلمه من الدمع.

لم يقل أيّ شيء لغورشكوف، لكنّه، مجرّد أن بدؤوا ضربه، صرخ وكأنّه أصيب بنوبة:

"لم أكن أعرف أنّ غراكوف كان مخبراً! لم أعرف! لقد خمّنت! مكتوب على جبهته أنّه مخبر! من يمكنه العمل في صحيفة سولوفكي! لم أعرف!.. لقد خمّنت!..".

قضى غورشكوف، على ما يبدو، ليلة بلا نوم مع فاسيلي بيتروفيتش- ولم يعد تركيزه كافياً لأرتيوم.

انتهوا من ضرب أرتيوم عند حلول وقت الغداء فقط- ستّ ساعات، لا أكثر، حتّى دون إلهام وبشكل متقطع- ذهب تكاتشوك إلى المطبخ الرئيس لإحضار الفطائر، ثمّ تناولوها مع غورشكوف وناقشوا النساء المناهضات للثورة واللواتي جلبوهنّ مع دفعة السجناء الجديدة، ووضعوهنّ في ثكنة النساء، دون أن ينسيا خلال ذلك، من النظر بطرف أعينهما إلى أرتيوم: ما إذا كان واقفاً باستقامة.

لم يعودوا يستدعون أرتيوم للاستجواب من الزنزانة المنفردة، لكن في اليوم التالي،عند الغسق، قبل البوق، اقتادوه إلى هنا.

لم يسلّم ولم يتحدث أرتيوم مع أحد في أثناء الطريق- ولم تكن هناك إمكانية أصلاً: إمّا أنّه بدأ ينهمر مطر غزير كما لو كان يغيظهم بقسوة، وإمّا يهدأ، واعتقد كثيرون أنّهم كانوا يقودونهم إلى الإعدام، إلى أن بدء يسري همس مبلل ومرتجف في الرتل، أنّهم يتحركون نحو زنزانة العقاب.

كان كل سجين يعرف أنّ جبل سكيرنايا، إذ تقع زنزانة العقاب- يعني أنّ الموت يقترب ولكن ليس الموت نفسه.

تيقنَّ أرتيوم أنه ثمة جفاف.

أراد التخلّص من هذه الرطوبة، والوحل غير المسبوق الذي يزحف تحت قدميه بأسرع وقت ممكن.

تمكّن أرتيوم ، في أثناء الطريق، ملاحظة قبّة المصلى بين الشجيرات على قمّة جبل سيكيرنايا تماماً... تصعد الطريق من المصلى نحو الأعلى- هناك صليب أحمر لم يكْسر، ينشر ذراعيه، مستقبلاً القادمين الجدد... درابزين أبيض منحوت بشكل

ناعم، والحافات الحجرية على طول الممرات مدهونة بالجير... و كانت تقف على جبل سكيرنايايا بارتفاع سبعين متراً الكنيسة البيضاء، مغطاة بصفيح أحمر- وهي معبد الصعود مثمّن الأضلاع... كانت تغطي نوافذ الكنيسة الغشاوة: دروع حمراء ملتصقة، وبرج أجراس يشبه الطبل مع أربع فتحات للرنين...توّج المعبد بقبّة مغطاة بألواح خشبية صغيرة، وعليها فانوس منارة زجاجية.

برز ليس بعيداً عن الكنيسة، مثل شخص مريض عقلياً بين الشجيرات، منزل صغير أصفر، تومض نافذته كعين سيئة ومخيفة- يبدو كانت فيه إدارة القسم الرابع لمعسكرات سولوفكي. ثمة غرفة خشبية عند مدخل الكنيسة في الجهة الغربية.

في ردهات الكنيسة أدراج تقود عبر برج الجرس إلى المنارة، لكنّ الممرّات كانت مغلقة بإحكام. قال أحدهم هذه المنارة ترى من مسافة خمسين كيلومتراً...

نبح كلب أسود مربوط بجنزير على السجناء.

كان المطر، الذي يجري من زنزانة العقاب نحو الأسفل، يتلمّس الأشجار على عجل واحدة تلو الأخرى، كأعمى يبحث عن طفله. كانت روحه مثقلة. عصر أرتيوم جواربه وسرواله الداخلي، ووضعهم تحته، ولفّ نفسه في الملاءة، واستلق فوقها ليجفّف جسده.

غرق في نومٍ جليدي صعب، ساعة أم ربّما ساعتين، أيقظته صرخة:

"ما هذا! إذا لم يطلقوا النار علينا، فسيقتلوننا من البرد والجوع!".

بدا أنّ الجميع أصبحوا أكثر جرأة بعد الصوت الغريب، وبدؤوا بالصراخ بصوت واحد على الفور- ليس هناك خوف من الصراخ وسط الحشد.

هرع الأكثر جرأة إلى الباب، وبدأ بطرقه بيديه وقدميه.

جلس أرتيوم الذي تجمّد كلّه من البرد، على مضجعه، وكانت يداه ترتجفان، إمّا من الضرب الذي تلقاه أمس، وإمّا نتيجة العمل بحفر القبور أمس

الأوّل، وظهرت عليهما فقاعات جلدية- كما لو كان يقبع نبات القريص طوال اليوم، وكان صدره يؤلمه، كما لو شرب ماءً من قاع بئر أسود، وكاد مرفقاه يقعان من مفصليهما نتيجة الاهتزاز، وكانت رجلاه ترقصان...

لكن سرواله الداخلي جفّ.

مزّق أرتيوم الملاءة إلى قطعتين، وخلع قميصه، وظلّ عارياً تماماً لدقيقة، وشدّ عضلاته كلّها، حتّى تطيعه يداه، ولفّ جسمه المطحون ولكن غير المطحون تماماً، بقطعتي الملاءة مرّة أخرى:

طلب أرتيوم ، وأسنانه تصطك: " لقد قمّطت نفسي، يا أمي- اجلبي الرضّاعة مع الحليب".

ارتدى ملابسه الداخلية وجواربه مرّة أخرى، وصرخ مع بقية السجناء المتحمسين:

"موقد! موقد! طعام! طعام! موقد! موقد! طعام! طعام!".

ارتفعت نتيجة الصراخ، درجة حرارة الدم قليلاً، كان الكثيرون يصرخون وهم يرقصون أم يدقون على المضاجع بقبضاتهم. قال أحدهم فيما بعد:

"هدوء!هدوء! ما هذا الصوت؟ هل إنّهم قادمون؟".

كان ألطف رنين يقترب أكثر فأكثر. قعقع صوت المزلاج.

ظهر في المدخل جندي من الجيش الأحمر، ورجل أمن يرتدي سترة جلدية. ابتسم رجل الأمن بلطف وبشكل مطمئن، كما الذي جاء يخطب بنتاً من أهلها. كان يحمل جرساً كبيراً في يديه، ويرن به، ولم يجرؤ أحد على قطع هذا الرنين بالصراخ أو بكلمة.

أمسك جندي الجيش الأحمر أوّل سجين كان يقف عند الباب من رقبته وجذبه وراءه.

وانغلق الباب. وذهب الجرس في الاتجاه المعاكس.

استمع الجميع، كما لو كانت علامة نقيّة تبشّر بشيء مجهول.

كان الجميع يعلم أنّه ما دام الجرس يرن، فلن يحدث شيء.

صمت الجرس - سرعان ما انطلقت رصاصة.

أصبح الجو أكثر برودة في الليل: نام أرتيوم، مثل الجميع تقريباً في جناح العزل، نام بشكل متقطّع: في غضون ساعة أم ساعتين برد لدرجة أنّ ذهنه أصبح مشوشاً.

اضطر إلى النهوض، والسير في الظلام الدامس على شكلٍ دائري، متدافعاً مع السجناء الآخرين.

استلقى مرّة أخرى، وخلع جواربه، وارتداها على يديه مثل القفازات. وحلم ، في الوقت نفسه، أنّه شدّ جوربه لدرجة أنّه دخل فيه بالكامل - كان هذا آخر حلم جيد في تلك الليلة.

سرعان ما اضطر إلى النهوض مرّة أخرى - فقد أصبح الجو أكثر برودة بثلاث مرّات، على الرغم من أنّه بدا قبل ذلك - لا يمكن أن يكون أسوأ.

فكّر أرتيوم: "ماذا لو تساقط الثلج؟ درجة الحرارة الآن، ليست أقلّ من ناقص واحد، على الأغلب...".

مشى بشكل دائري من جديد.

عاد بق الفراش، الذي نسيه أرتيوم، بعد السريّة الثانية عشرة. كانوا في السريّة الثانية، يكافحونه إلى حدٍّ ما، أمّا في منشأة استخلاص اليوم، وفي جزيرة الثعالب - لم يكن هناك بق فراش على الإطلاق.

أزعجه بق الفراش الآن، وساعده في مقاومة النوم.

غفا شخص ما، وهو يتمشّى، ووقع على أرتيوم: أمسك بالنائم، وأراد التخلّص من الشخص الغريب على الفور، لكنّه بدلاً من ذلك أمسكه بين يديه لفترة أطول قليلاً - أنّه دافئ.

استيقظ الرجل ودفع أرتيوم في صدره.

"أهمّ شيء- حتّى الصباح، أهمّ شيء- الصبر حتّى الصباح، أهمّ شيء- حتّى الصباح"- ترجّى أرتيوم، وهو يتمشّى.

بعد الاستغراق الثالث في حلمٍ سيئ، فقد حلم أرتيوم بفتات جليد حقيقي علق على جسده من الداخل والخارج، لم يعد يحاول النوم. لم يعد المشي في خطٍّ دائري، ولا التقوّس والقفز، يدفئه لدرجة أن تكفيه الإرادة للاستلقاء على سريره. ما الذي يمكن فعله على المضجع – ربّما الموت فقط.

حال البرد دون أن يشعر بالألم بضلوعه، وأنفه المشوه الذي انتشر على وجه، وبالفقاعات التي تغطّي كفيه، وبفكه المخلوع، الذي بسببه كان لفظ أيّ كلمة بصوت عالٍ، يخرج صداها من مؤخرة رأسه، كما لو أنّ عظمة سمكة تتقلّب في دماغه.

كان وضع أرتيوم بحلول الصباح على الشكل التالي، لو عرض عليه العودة للاستجواب في مكتب غورشكوف، لكان ذهب إلى هناك راكضاً.

اتضح أنّه لم يكن هناك ما هو أسوأ من البرد- حتّى عندما ضربه غورشكوف على وجهه بقبضته، استطاع أرتيوم، الانتظار، كما لو في حالة إغماء، ثمّ الزحف إلى الزاوية، والتذكّر فجأة، من بين الأفكار القليلة التي خطرت له، التوق الوحشي الذي استنشقه بأنفه الدموي، إلى كرابين وعصاه- شيء مضحك! شيء مضحك ولا شيء أكثر من ذلك.

كان البرد أكثر فظاعة من تكاتشوك وغورشكوف - كان من المستحيل المزاح حول البرد، فقد رفض العقل أن يرى في ذلك ايّ شيء مضحك على الأقل، ولم ينتظر العالم المحيط أيّ إجابات ولم يترك أي آمال.

تجمّد الجسد، وتوسل أيّ شيء، ولو بعض الأشياء الدافئة، كما في الحياة الأبدية- لم يستطع أرتيوم حتّى تخيّل كم كان سيعطي لقاء كوب ساخن من الماء

المغلي... لكنت أعطيت الحياة الأبدية هذه- ليس من أجل الماء المغلي فقط، ولكن من أجل كوب فارغ ساخن.

لكن بعد ذلك ظهرت الشمس، وتسلّق إلى مضجعه، وحاول جذب ولو شعاعاً واحداً على الأقل نحوه، لعنده ، داخل نفسه.

أحضروا الطعام بحلول الساعة التاسعة صباحاً- الماء المغلي نفسه الذي حلم به، وثلاثة أرباع الرطل من الخبز غير الناضج حتّى النهاية ، لكلّ واحدٍ.

اقترح خاساييف أن يكون هو المشرف على التوزيع، ولم يعارضه أحد.

سكب الماء المغلي في أكواب عدّة طينية، ولم تحدث أيّ مشاجرة، أم صياح، كان هناك ما يكفي الجميع.

شرب أرتيوم، أرتشف ببطء الماء الساخن السحري، كانت كل رشفة مباركة، ثمّ أكل الخبز دون أن يترك أثراً منه، تاركاً كلّ كسرة خبز ناعمة قطّعت بعناية فائقة في فمه، حتّى تذوب بالكامل.

من المستبعد أن يكون قد شعر بالدفء- لكن الدم عاد إلى الحياة، وكان ممتناً لأرتيوم وللشمس التي أصبحت ملموسة في النهاية، وحتّى أنّه عاد الألم إلى أنفه وظهره وشفتيه وضلوعه ورقبته- لكن كلّ هذا لا شيء، يمكن تحمّله، وسيندمل.

عادت الرؤية والسمع والعقل والقدرة على الابتسام. قرّر أن يحتفظ بالحياة الأبدية معه في الوقت الحالي.

اتضح أنّه كانت هناك زنازين عقابية في الممرات الجانبية أيضاً.

تساءل أرتيوم :"... هل يسجنون هناك الناس عراة تماماً؟ ولا يطعمونهم نهائياً؟".

كان هناك حوض براز في مكان المذبح المقدس- حوض عليه لوح خشبي.

زار أرتيوم هذا المكان أيضاً. عاد من هناك، يفرك جانبيه اللذين كانا يؤلمانه بأصابعه الملتوية، نعساً، لكنّه مبتهجٌ رغم ذلك.

فكّر أرتيوم: "الراهب الذي كان يعيش في الجحر- كيف كانت حاله، لم يجلب له أحد حتّى الماء المغلي...".

أوّل شيء فهمه أرتيوم في زنزانة العقاب- هو أن العمل، على الأقل في الخريف- ليس أسوأ شيء. فيما لو جرى إخراجهم إلى الشارع الآن- لكان الأمر أسهل بكثير.

لفت أحد أقدم المساجين في زنزانة العقاب الانتباه إلى نفسه، إذ كان يرتدي قمصان عدّة وسراويل داخلية، ولفّ على ساقيه المتورمتين، قطعاً من القماش بقوّة، واحدة فوق الأخرى، مثل الملفوف.

استنتج أرتيوم من سلوكه، قانوناً آخر لزنزانة العقاب: من الأفضل النوم في أثناء النهار- لأنّ النهار أكثر دفئاً، والتحرّك والعيش في الليل.

في الصباح، انشغل الرجل القديم في زنزانة العقاب، والذي لم ينم دقيقة واحدة، مثل الحراجي، ودار حول جميع المضاجع، يتلمّس جباه وخدود المعاقبين الذين لم ينهضوا بعد. وكانوا يصرخون عليه أحياناً: كان يبتعد بصمت، دون أن يرد بشيء.

كان ينتظر أيّ موت ليلي- حدث ذلك في هذه الليلة أيضاً: مات أحد السجناء.

ومع ذلك، خمّن فاسيلي بيتروفيتش أيضاً أنّ أيّ ثياب، حتّى ولو كانت منزوعة من أحد الأموات، أفضل من عدم وجود أيّ ثياب، ودون مزيد من اللغط، كان أوّل من خلع السروال الداخلي عن الجار الميّت. كانت الصورة قبيحة، استدار أرتيوم.

شتم بشكل غير واضح السجين الأقدم، الذي كان يقف فوق رأس الرجل الميّت، والذي كان على وشك أن يفعل نفس الشيء بالضبط،، وحاول أن يتمسّك بالسروال الداخلي للميّت.

استقام فاسيلي بيتروفيتش، تاركاً السروال على ركبتي الرجل الميت، وأمسك وجه الرجل الأقدم في الزنزانة بأصابعه الحديدية، ومدّ يده بحدّة- وقع الرجل رافعاً ساقيه إلى الأعلى، على الأرضية الحجرية، واصطدمت مؤخرة رأسه بشدّة عليها: لقد تبيّن أنّه وبعد أن عاش أسبوعاً أم ربّما شهراً في الزنزانة، أضعف بكثير من جامع الثمار، ذي التاريخ السيئ، الذي جرى ضربه ليومين فقط.

ارتجف رأس فاسيلي بيتروفيتش خصوصاً الآن بشكل واضح، لكن كانت حركاته غاضبة ومتهورة وواثقة. أخرج ملعقة من حزامه بحركة حادة، وجلس ضاغطاً بركبتيه على صدر المرمي، وقرّب نهاية الملعقة من عينه التي أغمضها بشدّة، وتوعّد: "فيما لو اقتربت مرّة أخرى فسأقلعها لك"

– وضغط عليها.

كان هذا فاسيلي بيتروفيتش آخر، لم يلتقيه أرتيوم قطّ، ويشك الآن بجد، فيما إذا كان قد أكل الثمار من يديه.

صعد أرتيوم سريعاً إلى مضجعه في محاولة لتدفئة نفسه مرّة أخرى ولو قليلاً- ربّما يكفي كرم شعاع واحد طويل إلى جبل سيكيرنايا نفسه.

بعد مرور بعض الوقت، كما في الأيام الخوالي، ظهر رأس فاسيلي بيتروفيتش بالقرب من مضجعه.

قال بصوت منخفض، كما لو كان يواصل كلامه الذي بدأه في السريّة الثانية عشرة: "... القول مرحبا- غباء. نهارك سعيد: شيء فظيع ببساطة. أرحّب بكم: سخافة. ربّما يتوصل البلاشفة إلى كلمة أخرى، حتّى يتمكّن الناس المحترمون من إلقاء التحية في مثل هذه الأماكن... ما رأيك يا أرتيوم ؟ "لماذا لم تمتْ؟" - هل هذه التحية ممكنة؟ يجب أن تنطق كلمة واحدة. تمتْ! من قبيل ما كان ينطق في مصر، في عهد الفراعنة... لكن مع ذلك، ما زلت أريد أن أقول لك: مرحبا".

التقط أرتيوم شعاعاً من أشعة الشمس في راحة يده، كما لو كان سيجمع الدفء، ويغسل نفسه به.

"مرحبا"

- قال بهدوء: هل كان عليه أن يقلق الآن من أجل ظهر غورشكوف.

"هل تعلم أنّ والدي أنهى حياته كسيّد فاحش" - قال فاسيلي بتروفيتش، وهو يضع يديه على مضجع أرتيوم ويمسّد الألواح الخشبية، كما لو كان يحاول تدفئة نفسه بها- "ربما أنت لا تعرف ماذا يعني ذلك؟ هذا سيّد باع أملاكه وشرب بحقها، لكنّه ظلّ يعيش في الأماكن نفسها، إذ كان يعدم ويعفو فيها في أيامه الخوالي.

كان في البداية، يطعمه التاجر الذي اشترى منه منزل أجدادنا، والحديقة، والإسطبل، وكلّ شيء مقابل سعر زهيد جداً. ثمّ سئم التاجر منه، وبدأ أبي بعد ذلك يدور على بيوت الفلاحين، الذين كانوا يعطونه أحياناً بيضة، وأحياناً مشروب السماغون. وكانوا يطلقون على أبي"السيد الفاحش". كان يشكرهم باللغة الفرنسية، ويشرب، ويمضي... يقولون قتل بالخطأ، من قبل ضيوف التاجر، عندما كانوا يصطادون. لا أعرف. لقد احتقرته بشدّة... ولكن لو رآني ابني الآن!"- وأومأ فاسيلي بيتروفيتش برأسه إلى السروال الداخلي الذي لم يكن مرئياً لأرتيوم.

"هل لديك ابن؟"- سأل أرتيوم.

"ابن؟"- كرّر فاسيلي بيتروفيتش- "يوجد. ولكن، لا. ولم يكن لدي. في البداية بدا لي أنّك يمكن أن تصبح أبني... بمعنى ما أصبحت أنت هو الآن- أنت تحتقرني، كما الأبناء يحتقرون والديهما".

"أنا؟ لماذا؟ لا"- قال أرتيوم، وفقد الأمل في شعاع الشمس، ووضع يديه تحت إبطيه: لقد كانتا باردتين فقط.

"إذن، بالتأكيد أنت لست ابناً لي: هذا لا يعنيك"- اختتم فاسيلي بيتروفيتش حديثه.

من الغريب، أنّ صوته هدّأ أرتيوم، وكان مستعداً بالفعل لتخيّل الحياة اللعينة في السريّة الثانية عشرة، كما في الأيام السابقة الطيبة - سيناديه الآن فاسيلي بيتروفيتش للنزول إلى الأسفل، ويقدم الثمار له، وكعكة أيضاً، حتّى الشاي: كم هو مؤسف أنّ ذلك قد انتهى. تطلّع إلى عيني فاسيلي بيتروفيتش الذي زرّها، وصمت أرتيوم. كان فاسيلي بيتروفيتش محقاً: لم يكن فعلاً يعنيه ذلك حقاً.

"أرتيوم، أود أن أقول لك، إنّ الأمر مهمٌّ بالنسبة إليّ رغم ذلك..." - قال فاسيلي بيتروفيتش ذلك وحتّى إنّه نظر حوله، كما لو أنّ اعترافاته هنا يمكن أن تثير اهتمام أحد ما على الأقل- "عندما... كنّا معاً، وكنّا، كما آمل، أصدقاء... لم أخدعك قطّ. هل تفهم؟ لم أتحدث عن بعض الأشياء فقط".

أومأ أرتيوم برأسه. هل هناك معنى الآن أن يقول لفاسيلي بيتروفيتش، كان بإمكانه أن يصمت بشأن"أشياء معيّنة" في أثناء الاستجواب- لكن لماذا؟ كان ذلك سيؤدي إلى فقدان المزيد من الحرارة فقط.

صهْصهه أرتيوم بألم منضبط ومتفاجئ، فقد دبّت على صدره: بقّة فراش.

بعد التفقّد الصباحي، جاء جندي من الجيش الأحمر، وأمر خاساييف بتعيين مناوبين.

اختبأ أرتيوم، كالعادة، ولم يختاروه.

أمر المناوبين بإخراج حوض البراز.

فرح أرتيوم كعادته نفسها، لأنّه لم يعهد إليه بذلك، وأدرك على الفور أنّه تصرّف بغباء: إنّ نقل الحوض- يعني أن تخرج إلى الشمس، وتتنفّس الهواء، وتنظر حولك، وتحرّك جسمك، وتشم نور الشمس. وإذا قمت بذلك ببطء، فيمكنك أن تتمشّى عشر دقائق- وهذا متعلّق بالمكان الذي يفرغون فيه الحوض، فربّما أكثر من ذلك.

بعد إفراغ الحوض، عاد المناوبون على الفور- هذه المرّة لنقل جثّة المتوفي، التي أبلغ خاسايف عنها جنود الجيش الأحمر.

ألتفّ أرتيوم على نفسه، وغفا من جديد، ونام بعمق: ارتفعت درجة حرارة الهواء قليلاً في النهار. كان هناك الكثير من الأحلام، كان يحل الواحد محلّ الآخر ويختلط بعضها ببعض باستمرار، يزاحم بعضها بعضاً، تذكّر فقط أنّهم أشعلوا الموقد في مكان قريب، ولكن على الرغم من أنّ الحطب كان مشتعلاً بالفعل، إلّا أنّ النار في الموقد كانت باردة- كما لو أنّه يجب تسخينها أيضاً. انتظر أرتيوم بصبر، وأحياناً كان يلامس لهب النار بيده- كان شعوره مشابهاً لما يحدث عندما يرش على يده الكولونيا أم الكحول. ثمّ أدار ظهره إلى النار وبدأ ينتظر حتّى تسخن.

كان الحلم كلّه يجسّد الصبر.

عند الغداء، فقد الجسم الذاكرة عن الماء الساخن وذوبان الخبز في فمه.

صمت السجناء اللذين كانوا يتحدثون، من جديد، كانوا مستلقين متجهمين وجامدين. وكانت عيونهم نصف مفتوحة، كما لو كانت متجمّدة أيضاً.... قدّموا لهم على الغداء مرّة أخرى: حساءً سائلاً.

لم يكن في الحساء سمك، ولا جزر، ولا بطاطس، ولا ملفوف، ولا شيء آخر- سائل مخاطي فقط التصق على جانبي الوعاء وأسفله- لكنّه كان ساخناً كثيراً، وبينما كان آرتيوم يحمل القصعة في يديه، تعرّقت راحتاه وشعر بألم حلو من الفقاعات التي عليهما.

قدموا لهم بعد الحساء، الشاي أيضاً - دلوٌ كاملة من الماء المغلي.

وجه خاسابيف الذي شعر بسلطته، ضربة قويّة إلى صدر أحدهم، وقف بالدور للمرّة الثانية، لدرجة أنّ الشخص الغبي جلس عند الباب حتّى نهاية التوزيع، يفتح فمه مثل السمكة.

إنزعج فقط، عندما سمع ضجيج مزالج الباب بعد الغداء- جمد الجميع، وهم يستمعون إلى ما إذا كان الجرس سيرن- لكن لم يحصل شيء من هذا القبيل، فقد أدخلوا إلى الكنيسة حشداً جديداً نصف عار من السجناء، عشرة أشخاص

تقريباً- عرف من بينهم مباشرة الأب إيوان من غفارته. ضحك أحد ما: " لن يتركونا دون كاهن! لماذا لم يخلعوا عنك ثيابك أيّها الأب؟".

"حتّى رجال الأمن يخافون الكاهن العاري"-ضحك الكاهن جواباً عن ذلك، وأصبح الأمر مضحكاً للكثيرين، وكما لو أنّه انبزغ أمل.

نهض فاسيلي بيتروفيتش على الفور من مضجعه، مبتهجاً أكثر من الجميع، كما لو أنّ أقرب الأقارب جاء إليه- اعتقد أرتيوم فجأة، أنّ رفيقه السابق، ربّما ليس لديه أحد - لا زوجة ولا أهل، ولا من يتذكّره.

"...عدا عن الأشخاص المعوقين الذين يتجولون في هذا العالم، والذين لم يعذبهم إلى النهاية، لكنّه قطع منهم قطعة فقط، كعكة عيد الفصح"- خطر لأرتيوم ذلك.

أخذ الكاهن مكان السجين، الذي مات في الليل.

اقترب منه أشخاص عدّة، من أجل البركة، أشفق على الجميع، ومسح على رؤوسهم بيده.

راقب أرتيوم الذي تدلّى من المضجع دون ضجر ذلك، وكافح رغبة كامنة في النزول إلى الأسفل، ووضع رأسه أيضاً بين يدي الكاهن اللتين يغطيهما النمش.

سمعت كلمات: "... لن نأسف..."، " تركض أرجلهم إلى الشر، وهم يسرعون إلى سفك الدم البريء..."، "...لارتكاب الشرور أصبحوا كباراً، وللقيام بأعمال خيّرة بقوا أطفالاً، كونوا أنتم عكس ذلك..."، "... قام الرب - كلّ عمل دنيوي دنيء وخسيس، دنيوي محكوم عليه بالموت... "، "... يد الرب هي الأقوى..."، "... نحن لا نستحق عذاب المسيح، لكن... ".

كرّر أرتيوم: "... لا نستحق، لكن... لا نستحق، لكن...".

بدا أنّ القاعة امتلأت بأكملها بكلمات الكاهن. خشخشت مثل الأوراق المتساقطة مع دفقات تيار الهواء، كانت الكلمات تطير تحت القبّة، وتدور بهدوء

من جديد. كان يمكن القبض على كلّ كلمة براحة اليد. فيما لو سقطت الكلمة في شعاع من الضوء، كان يمكن أن يرى جسمها الرقيق بعروقه الزرقاء.

انتظر فاسيلي بيتروفيتش بصبر حتّى يفرغ الكاهن. وعندما بقي بمفرده، سأله فاسيلي بيتروفيتش بصوت منخفض ما الذي أتى به إلى زنزانة العقاب.

أجاب الكاهن جاهزاً، بلطف وعن طيب خاطر أيضاً: "أخبروني، أنّني أقنعت ميزيرنيتسكي بقتل إيخمانيس. وتجاهلوا احتجاجاتي. فهل أستطيع أن أقنع إنساناً بأن يضع روحه في نار جهنم؟".

قفز أرتيوم إلى الأسفل ليستمع إلى الحديث الفضولي.

"وأنت هنا يا عزيزي؟" - قال الأب إيوان، وهو يلقي على أرتيوم نظرة- "ظننت أنّ قلبك الخفيف يجنّبك كلّ الشرور- مثل القائد الخفي الذي يعلم أنّ الإله الرب يعتني به. لكن من المبكر أن تيأس: أنّني أرى أنّ الناس يعيشون هنا أيضاً. كيف تعيشون هنا أولاد الله؟".

"شربنا دلوين من الماء المغلي يا أبتاه"- قال أرتيوم، منتظراً أن ينتهي ألم ساقيه، ورأسه وظهره- كان يجب أن يقفز بحذر أكبر، حتّى إنّه نسي ما يريد أن يسأل عنه- "دلو من الحساء... أعطونا خبزاً لامتصاصه".

صفق الكاهن بيديه: "ويطعمون هنا؟ لقد فكّرت: يأتون بنا لنتعذّب ونموت- ويرسلوننا إلى الجبل، من أجل أن تكون الروح المنهكة أقرب إلى الصعود!" - ضحك الكاهن- "إذن، عند الاتكال على الرب، من المنطقي أن يكون هناك أمل في النجاة من مصيبة زنزانة العقاب". تابع منغمساً في حديثه: "في كلّ مرّة"، عندما تمشي بالقرب من أصحاب الإطار الأسود على قبعاتهم أم أصحاب السترات الجلدية، وتحني ظهرك بالقرب من رئيس مجموعة العمال أم قائد السريّة، تعتقد: سيضربونني الآن بالعصا- وستخرج روحي، أمسك بذيلها مثل الحمامة. لكنّهم لا يضربون في كلّ مرّة! قد لا يضربون مرّة، ولا مرّة ثانية، وقد يحدث أن يقولوا كلمة إنسانية، وليس دائماً نباحاً أم خواراً فقط! وتعتاد من جديد الناس طيبون!".

تطلّع الكاهن إلى أرتيوم وفاسيلي بيتروفيتش، كما لو كان يتوقّع منهما مشاركته اكتشافه المذهل، ولكن نظراً لأنّهما لم يكونا في عجلة من أمرهما، فقد وافق هو نفسه على مناقضة نفسه.

"... ولكن بمجرّد أن تعتاد حقيقة أنّ الناس طيبون، تتذكّر على الفور أنّه كان هناك بوتش(١)، ورجال فيشغورود(٢)، تاليتس وإلوفيتس لياشكو، الذين ضربوا القديس بوريس وقادوه إلى الموت بناءً على أمر اللعين سفياتوبولك. كان لدى القديس غليب، كبير طهاة واسمه تورتشين، الذي قطع له حنجرته. كان هناك ناس من موسكو، أحدهم قيّد القديس فيليب- رئيس دير سولوفكي السابق، ومطران موسكو وكل روسيا، وقام الثاني بإدخال ساقيه في قيد خشبي، أمّا الثالث فقام بوضع سلاسل حديدية برقبة الرجل العجوز. وعندما نقل فيليب إلى المنفى، كان هناك مرافق قاسٍ، ستيفان كوبيلين، الذي عامله بطريقة غير إنسانية، وكاد يقتله من الجوع والبرد. وكان هناك ماليوتا سكوراتوف الذي خنق فيليب بوسادة. وكان لدى كلّ من عذب وأهان قديسينا، ولدى جلاديهم ومدمريهم، أطفال. لكن لم يلحق بوريس أن ينجب أطفالاً، ولم يكن لدى غليب أيضاً. وعاش القديس فيليب في عزوبة. أحياناً أنظر حولي وأفكّر، ربّما بقي أطفال بوتشا وسكوراتوف ويلوفتس وكوبيلين فقط ؟ ويتجوّل في روسيا أولاد قتلة الشهداء المقدّسين فقط، أمّا المعذّبون الجدد- فهم أبناء القتلة أنفسهم أيضاً، لأنّه لم يعد هناك آخرون؟".

بدأ الكاهن بالبكاء بصوت خافت فجأة، بلا حول ولا قوّة، مثل رجل عجوز، يخجل من نفسه- لم يجرؤ أحد على تهدئته، وقف فقط أولئك الذين كانوا يتجولون في الكنيسة، وصمت أولئك الذين كانوا يتحدثون على مضاجعهم. استمر الحال أقلّ من ثلث دقيقة. تنهّد الكاهن، ومسح عينيه بكمه. "لكن عليك

---

(١) بوتش: في اللغة الروسية يعني انقلاب. [المترجم].

(٢) فيشغورود: مدينة في في جمهورية أوكرانيا. [المترجم].

أن تحب هؤلاء أيضاً"- قال هو، وجال بنظره إلى كلّ من كان حوله- "لو كان هناك قوّة لذلك". جرى التفقد المسائي في الساعة التاسعة. لم يحضروا العشاء.

جلس أرتيوم على مضجعه، وحضن ركبتيه، وفهم بشدّة أنّ النوم سيكون اليوم أسوأ بما لا يطاق من أمس: كانت السماء تتلبّد بضباب جليدي.

فكّر أرتيوم: "لكن ماذا بشأن أيام الصيف الهندي؟- هل مضت؟".

جواباً عنه غطّت ندفة ثلج على رفّ النافذة.

سحقها أرتيوم بإصبعه.

قال: "هذا هو الشتاء، هذه هي النهاية".

لسبب ما، كان يفقد الأمل بغالا في كلّ ساعة- ولم يتذكّر في اليومين الماضيين وجهها أم حتّى لقاءاته معها، ولو مرّة واحدة- ومع ذلك كانت تتنفّس فيه في البداية، ثقة غير معلنة في مساعدتها السريعة له.

ولكن، بعد أن عاش هذه الأيام في خدرٍ مؤلمٍ للروح، لم يمنعه، من شرب الماء المغلي، والتحدّث، والنظر إلى رأس فاسيلي بيتروفيتش المرتجف، والاستماع إلى كلام الكاهن- لقد تخلّص من هذه الثقة، دون أن يلاحظ، ودون أن يبذل أيّ جهد.

... لقد نظر ببساطة أحد المرّات إلى أوقات الفراغ الجليدية في تلك الزنزانة، إلى تلك الزاوية من قلبه، إذ حفظت الثقة في غالا، ولم يجد شيئاً.

أقنع نفسه على الفور، أنّه في هذا المكان، منذ البداية، كان هناك فراغ. لم تكن هناك غالا في الطبيعة، ولم يكن هناك مكان لتظهر منه.

هكذا بدا لأرتيوم أسهل بكثير البقاء على قيد الحياة.

من أجل أن يسلي نفسه، قبل أن يحين الظلام، قام بقشط الكلس عن الحائط بالملعقة. كانت يداه غير مرنتين وملتويتين من البرد، ولكن على الأقل نوع من إشغال الذات.

ظهرت من تحت طبقة الكلس عين.

قشط أكثر - ظهرت أذن.

كان يمكن القول إنّ شيئاً في الأذن.

واصل أرتيوم الذي جاءه الإلهام فجأة، عمله، لكن انطلق من الأسفل صوت فاسيلي بيتروفيتش المستاء:

"ما الذي يتساقط من عندك طول الوقت يا أرتيوم؟ هل تنفض ملابسك؟".

دون أن يجيب بأيّ شيء، أجّل أرتيوم عمله إلى الغد.

شعر، نحو منتصف الليل، بقشعريرة مستمرّة، ورزاز الصقيع الذي علق حتّى على جذور شعره، نزل أرتيوم إلى الأسفل.

حاول أن يهدئ نفسه، هناك بين المعاقبين العديد من الحفاة- كيف يمكنهم السير على الأرضية... لكن معاناة الآخرين لم ترفع معنوياته.

كان الكثيرون يسعلون في الكنيسة، هناك من كان يعوي من البرد، وهناك من كان يبكي، وهناك من كان يصلّي- كانت هناك همهمة لا تهدأ، كما في قاعة الانتظار بجهنّم.

كان كلّ واحد يبحث عن مصدر للدفء- لو جرى اكتشاف إبرة ساخنة على الأقل في وسط الكنيسة- فأيّ سعادة كانت من الممكن أن تحصل.

محتضناً نفسه بيديه غير الرشيقة، فكّر أرتيوم بجدية، فيما إذا كان من الممكن للإنسان أن يلتفّ على نفسه مثل القنفذ. ولماذا إنسان ما: أرتيوم بالتحديد - هل يمكنه ذلك؟.

يلتفّ على نفسه ويتدحرج في الزاوية، ويرفع أشوكة هناك، ويهدئ، ويسحب أرجله إلى الداخل، ويتنفس رأسه على سرّته، وحوله ظهره فقط.

كيف؟ لكن لماذا لا يمكن فعل ذلك؟ لماذا عذّب أرتيوم عقله بمعارف غير ضرورية، وأبيات شعرية، والدوران على العارضة الأفقية، وشدّ عضلاته، وتعلّم الملاكمة، بدلاً من القيام بالشيء الوحيد الضروري والمهم: أن يكون قادراً على الالتفاف حول نفسه مثل القنفذ؟.

قرقع باب الدخول، توقّف الجميع في ترقّب خائف، يمكن أن يتحوّل في لحظة إلى سعادة.

ظهر جندي من الجيش الأحمر بمفرده في المدخل.

"أيّها الجندي، ربّما موقد؟"- طلب أحدهم، بحزن حدّ السخرية، مثل رجل مرفوض يسأل عن متعة الحب.

أجابه الجندي بقافية: "شمعة للموتى"- وألقى كومة من الملابس على الأرض، بالقرب من المدخل.

كان من الواضح مباشرة، أنّ الثياب لا تكفي الجميع - وحتّى لو جرى تمزيق كلّ ثوب إلى نصفين، فلن يحصل الكثيرون على أيّ شيء.

لم يخطف أحد حتّى الآن قميصاً واحداً من الكومة، ولكن حدثت حركة بين حشد السجناء، حصل اغتراب هائل للعقل البشري في الحال- أراد كلّ واحد أن يأخذ لنفسه فقط.

" إيه"! صاح خاساييف- "أنا المشرف! أنا سأوزع!". لكن لا أحد حتّى أدار رأسه تجاهه.

"الآن ستحصل معركة..."- فهم أرتيوم. كان لديه حظّ كبير وسط حشد السجناء- إلّا أنّه لم يرغب أن يعرّض ضلوعه المضروبة للخطر مرّة أخرى، لكن لم يكن هناك من بدٍّ.

"يا أولادي"- قال الكاهن بصوت منخفض، لكنّ الجميع سمعوا وتوقفوا- " لكيلا نتجمّد، علينا ألّا نعيش فحسب، بل أن ننام مثل الإخوة الحقيقيين في المسيح أيضاً. كما يرى الجميع أنّ هذه الأشياء ليست كافية لنا".

"قل لنا يا أبتي، كيف سنتصرّف" - عبّر أحدهم عن رأي الأغلبية.

قال الكاهن: "نحن نتجوّل ذهاباً وإياباً، ونثير تياراً من الهواء فقط، بينما يجب الحفاظ على الدفء - وعندما يرتدي الأكثر حظاً منّا، أم الأكثر قوّة، أم الأكثر غباء منّا هذه الأشياء- فلن يتمكنوا من تدفئة أنفسهم أيضاً، ولكن يستدعون الصفات السيئة في جيرانهم فقط: الحقد، والحسد، وحتّى عندما يسقط الثلج - وعظامي تشعر بالبرد بالفعل - الرغبة في القتل".

" أسرع، أيّها الكاهن" - طلب أحدهم، على ما يبدو كان الآن بصعوبة يكبح رغبته في طمر نفسه في هذه الكومة، فضلاً عن الغضب والحسد وكلّ ما سبق.

اقترح الأب إيوان وضع الألواح الخشبية التي على المضاجع، على الأرضية والاستلقاء عليها متكوّمين فوق بعضهم بعضاً - أربعة أشخاص في الأسفل، وأربعة بالعرض فوقهم، وأربعة آخرين فوقهم أيضاً، ممّا يخلق شبكة مزدوجة، والأربعة التالون بالعرض مرّة أخرى... وتفرش هذه الملابس فوق الجميع في الأعلى.

ستكون الكومة الواحدة كبيرة وثقيلة، لذا من الأفضل تقسيمها إلى قسمين.

قال الكاهن: " يجب أن يجري التبديل مرّة كلّ ساعة، يستلقي الذين في الأسفل في الأعلى، والأعلى في الأسفل، وإلّا فإننّا سنخنق بعضنا بعضاً".

بدا صوته واثقاً، كما لو أنّ الكنيسة الزنزانة هذه، قد أصبحت سفينة، وصادف أن يكون هو قبطانها.

لم يضطر إلى إقناع أحد. الأكثر تجمّداً، استلقوا أوّلاً بنفاد صبر.

الرجال الذين فقدوا خجلهم واشمئزازهم، ولم يتذكروا سوى الدفء، تكدسوا بعضهم فوق بعضٍ.

التصقت الكومة الثانية بالأولى، جانب إلى جنب، وكعب إلى كعب، ويافوخ إلى يافوخ.

بقي خاساييف إلى الأخير، فقد رمى على الجميع بطريقة ما السترات والمعاطف – وبدت كافية.

قال خاساييف: " بقي رداء واحد هنا. سآخذه لنفسي وأستلقي وحدي، ممكن؟"- طلب بكرامة.

لم يعترض أحد.

في البداية، تفاجأ الجميع، وحتّى بدا الأمر مسليّاً، بقدر ما سمحت الظروف- فقد تحمّل الأشخاص الذين في الأسفل بصبر الثقل مقابل الدفء، ومزح الذين في الأعلى، وهم يحاولون عدم التحرك كثيراً.

طلب أحدهم: " أبانا، هل يمكنك أن تقص علينا حكاية - لن نغفو من دون حكاية ".

قال الأب إيوان: "سأصلّي من أجلكم، أيّها الأولاد- عندما تستيقظون، ستشرق الشمس، وسيبارك الرب الجميع مرّة أخرى".

نام أرتيوم كما في طفولته: مع الأمل في الصباح ودفء يدي أمّه. أمّا بخصوص أمّه نفسها، التي تنتظره بفارغ الصبر في الدير، فلم يتذكّرها ولا مرّة، والآن لم يتذكّرها أيضاً: لن يضعوها في السجن، لكنّهم سيرسلونها إلى البيت، وهناك مكانها. إنّها باتت تعرف أنّ ابنها لا يزال على قيد الحياة، ماذا عليها أن تعرف بعد.

... بعد ساعة، بناءً على كلمة الكاهن، الذي بدا أنّه لم ينم، تفكّكت الكومتان- ولكن بعد ذلك، في شبه الظلام، لم يتمكّن السجناء لفترة طويلة من الاستلقاء مرّة أخرى، تدافعوا، وحاروا، وتشاجروا. اختلطت كومة بأخرى، لدرجة أنّ الكومة الأولى أصبح فيها عشرون شخصاً، واثنا عشر شخصاً في الكومة الثانية فقط.

... بحلول الليلة الأكثر سواداً، تحوّل النوم إلى عمل، كنقل الجذوع تقريباً: آلام العظام، ووجع رأس شديد، وإرهاق، وسحق شخص ما، لدرجة أنّ

شخصاً لم يستطع الوقوف، لقد ساعدوه. ثمّ زحف إلى أعلى الكومة طويلاً، وهو يدوس على الأقدام والرؤوس.

صرخوا من الأسفل: "أيّها الأخرق المعوج، ماذا تفعل، هل تلد هناك".

تنهّد الكاهن، ويبدو أنّه كان حزيناً، لأنّه لم يستطع وضع شارة الصليب، كان مضغوطاً عليه بشدة، وكرّر فقط: "أخ- أخ- أخ...".

بدا لأرتيوم أنّ الكاهن كان يستمع إلى قلب كلّ من كان قريباً منه طوال الليل- يعدّ الناس في الكومة مثل الصيصان: هنا قلب واحد، هنا الخامس، وهذا السابع هنا، وهذا هو العاشر- الجميع يستعجلون، يركضون، لا تتخلّفوا عن الركب أعزائي.

قرب بزوغ الفجر، بدأ شخص ما يسعل في المنتصف- أزعج الجميع من جديد- طلبوا في الأسفل بصوت مبحوح أن يصمت، حاولوا من الأعلى وخزه عشوائياً في جنبه، لكن من المحتمل أنّهم كانوا يوخزون أحداً آخر: كيف يمكنك أن تحدد هنا من.

في صباح اليوم التالي، بدا الجميع كأنّهم سكروا دون انقطاع، واحتفلوا بثلاث حفلات زفاف، وتعاركوا ثلاث مرّات، وكسروا عظام ثلاثة عرسان، وتضرروا هم أنفسهم.

لكن لم يتجمّد أحد منهم من البرد.

قال أرتيوم في الصباح، وهم يشربون الماء المغلي: " أبانا، لقد فكّرت أنت بخلاص الجميع. وإلّا لكانوا قد ماتوا من البرد واحداً بعد الآخر".

"أعلم ذلك "- أجاب الأب إيوان بابتسامته المعهودة،الساخرة من نفسه فقط. ولسبب ما كانت تصدر منه رائحة تفاح مجفّف- "لا أستطيع أن أضمن الخلاص الأبدي، أنا مثلكم، أتّكل عليه فقط، لكنّني على الأقل سأضمن الخلاص مؤقتاً".

"هل تعلم؟"- ضحك أرتيوم.

والكاهن أيضاً، كما لو كان خجلاً، قهقه بشكل مضحك، وهو ينظر إلى أرتيوم بطرف عينه.

"...أنا أعشقه!"- فكّر أرتيوم فجأة، بمثل هذا الشعور المذهل بالنسبة له، الذي لم يشعر به تجاه أيّ رجل أبداً باستثناء والده.

كان لديه شعور جيد، وعلاوة على ذلك، لم يكن يشعر بالبرد كثيراً : في الصباح، دون أن يفكّر كثيراً، استحوذ على إحدى السترات التي كانت للمجموعة بأكملها في الليل.

انحنى الكاهن نحو أذن أرتيوم، وأخبره بسريّة تامّة ومؤثرة:

"تلعب في الرمل في طفولتك، وتفكّر: هذه العمّة القادمة، تنظر إلي وتفكّر: "يا له من طفل طيب!"- تراجع الكاهن إلى الوراء، قبل أن يضحك، لكنّه كان يتنفّس بسرعة، كما لو كان على وشك الضحك، ونظر إلى أرتيوم: بدا مظهره مثل صبيان يروون نكاتاً سيئة.

لم يعترف أرتيوم أنّ ذلك قد حدث معه بالفعل: لم يتطلب الحديث ذلك. لا سيّما الكاهن نفسه تابع حديثه:

"كلّ واحد يفكّر بنفسه حتّى وفاته: " أيّ فتى طيب أنا!". كنت أفكّر أحياناً بنفسي في أثناء الاعتراف: " يا لي من كاهن جيد! أخ، يا لي من جيد!".

نظر الكاهن حوله ليرى ما إذا كان أحد ما يستمع إلى اعترافاته. لكنّه فعل ذلك أكثر من أجل الاستعراض أم حتّى من أجل أرتيوم- لم يعد يهتم الأب إيوان بما يفكرون بشأنه، كان قلقاً، من أن لا يفكروا بشكل سيئ عن محدثه.

لم يستمع إليهم أحد، كما بدا للأب إيوان. على الرغم من أنّ أرتيوم، رأى بامتياز أحد الأشخاص على المضجع المجاور كان كلّ الوقت يزيح نفسه نحوهما، حتّى لا يفوّت أيّ كلمة واحدة. كان هذا، فاسيلي بيتروفيتش بالطبع، الذي كان يشعر بشكل واضح بالغيرة من الكاهن على أرتيوم.

قال الأب إيوان لأرتيوم بصوت هامس مفهوم: "ربّما أكون مخطئاً يا عزيزي، لكنّك تعيش بطريقة إذا جرحت يدك، فسوف يلتئم الجرح مباشرة. أنا أتحدث عن الجروح الروحية، على الرغم من أنّ الندوب الجسدية على بشرتك الفتية تمحى من اليوم الأوّل، مثل موجة على الرمال. هناك أشياء أراها بنفسي، وأشياء أخرى يحدثونني عنها - الشيء الجيد في سولوفكي أنّ الجميع مرئيون هنا كأنّهم عراة، وليست هناك حاجة لخلع ملابسهم. إنّ الحياة غير قابلة للقياس مع المفهوم - وأنت عشت وفقاً للحياة، وليس وفقاً للمفهوم. قادتك روحك بسهولة وبشكل لا لبس فيه، على الرغم من العديد من المصائب والافتراءات والمصاعب. يقال إنّك مع القديس ستكون قديساً، ومع الرجل البريء، ستكون بريئاً، ومع المختارين ستكون مختاراً، ومع الشخص الضال، سوف تصبح فاسداً. لكنّك أنت كنت مع الضالين والمذنبين- كما مع المختارين والقديسين. لست ثرثاراً ولا ساخراً، ولا تسعى لتبرير الذات، واليمين الكاذب، والمكر، والنفاق، والنميمة، والاستهزاء واليأس - كنت مثل طفل بين الجميع. مثل سنبلة لم تنضج ولكنّها مليئة بحليب خال من الحقد- وإذا كان عليك التصرّف بقسوة، فلم يكن ذلك بسبب هوس الحقد الطائش، ولكن بحكم الحفاظ المعقول على جسدك الذي فيه وعاء، إذ توجد روح الله".

حدّق أرتيوم في الأرضية الحجرية دون أن يتحرّك، وشدّ راحتيه شابكاً أصابعه بعضها ببعضٍ بقوّة وكأنّه قفلها.

لم يكن يعرف كلّ ذلك عن نفسه، ولم يكن حتّى يريد أن يعرف، لكنّه بكلّ الأحوال شعر بالدفء في روحه.

يبدو أنّ فاسيلي بيتروفيتش قد توقّف عن التنفّس تماماً.

اعترف الكاهن: "أنا نفسي فهمت سولوفكي كمدرسة قاسية للفضائل- الصبر والاجتهاد والزهد. أشكر الله أنّني جئت إلى هنا- فهنا قبور الصالحين، وقد وضع إشارة الصليب القديسون والنساك أمام هذه الأيقونات - وأنا أصلي أمامها".

"... وصلّى ستيبان رازين أمامهم[1]" - تذكّر أرتيوم فجأة، وهو كان يعرف أنّ القوزاقي[2] المسعور، حبيب سواد الشعب، قد سار مرّتين من نهر الدون إلى سولوفكي عبر روسيا بأكملها، حتّى قبل بدء التمرّد الذي قام به. وهذه الفكرة، بطريقة غريبة، لم تتناقض مع كلام الأسقف، بل كانت متفقة مع صواب ما يقول.

تحدّث الكاهن، كما لو كان يعرف مسبقاً: " كلّ شخص مقدّر له البقاء على قيد الحياة هنا، سيعيش طويلاً. ولن يخاف من أيّ شيء آخر".

"كلّ من قدّر له أن يموت سيموت سريعاً "- ضحك أرتيوم بطريقة طيبة، بهدوء ونقاء، مثل صبي صالح، وإن كان جريئاً.

علّق الكاهن على ضحكته: " بهذا الشكل أم ذاك. ولكن مهما كان طريقك، تذكّر أنّ الرب سيعتني بالجميع ويكافئ الجميع حسب أعمالهم وإيمانهم. قيل: من يحافظ على حياته فإنّه سيخسرها، ومن يخسر حياته في سبيل ربنا- يحافظ عليها. إنّني عندما أنظر إليك، أواسي نفسي على أمل أن يكون هناك من لا يحافظ على حياته- ولا يفقدها. لكن إذا كنت ستقوي نفسك بكلمة الرب وإيمانك به - فسيكون ذلك أسهل لك بمئة مرّة، وستشعر بأجنحة ملاك خلف ظهرك. من الصعب العيش دون الملاك الحارس. إذا كانت الأوساخ تصل إلى الركبة، ولا تستطيع القفز فوقها. وإذا قمت بالصلاة - فسترى أنّه سينقلك. وإذا عدت إلى السريّة، فسترى سروالك جافاً، وحذاءك لم يتلف. إذا تجمدت في المنام، ابحث عن جناحه في منتصف الليل، واقرأ الصلاة- لفّ نفسك به. قد يكون ريشه واهياً عند لمسه، لكنّه يدفئ حسب الإيمان- تستيقظ في الصباح، تتطلع حولك - هناك ثلج في كلّ مكان، وندف الثلج معلقة ليس على الزجاج فقط، وإنّما ترسم أنماطاً في الهواء نفسه، وأنت سالم".

---

(١) ستيبان رازين: قاد تمرداً على القيصر في روسيا. [المترجم].

(٢) يطلقون على الذين يسكنون المناطق التي تقع على نهر الدون في جنوب روسيا قوزاق. [المترجم].

تنهّد أرتيوم.

حتّى عندما كان ينظر إلى الأسفل، إلى الأرضية الباردة التي داسها السجناء، شعر أنّ الأب إيوان ينظر إليه بأمل وحنان.

رفع عينيه إلى الكاهن، وأومأ برأسه: نعم يا عزيزي، يا حبيبي، يا جدي، نعم.

الآن فقط لاحظ أرتيوم أنّ الأب إيوان يمسك بين يديه الإنجيل الذي لم ينتزع منه، وكان يداعب الكتاب الصغير الممزق بأصابعه، كما لو كان حياً، إمّا هو كان يداعب الكتاب وإمّا الكتاب كان يداعبه.

طلب أرتيوم من نفسه: "هل من الصعب عليك؟ خذْ الكتاب، على الأقل هذه المرّة. كم من الكتب الغبيّة أخذت من رفاقك، ولم يحصل لك شيء...".

بدلاً من ذلك، نهض أرتيوم بلين، مثل حيوان مستقل، وأمسك على الفور بحافة مضجعه، وألقى بسهوله جسده الذي تعافى بسرعة إلى الأعلى، إلى تياراته الهوائية، إلى ندف الثلج الخفيفة على حافة النافذة، إلى أذن وعين اللوحة المرسومةعلى الحائط، التي كشف عنها جزئياً، عندما كان يقشط الكلس أمس.

انتقل فاسيلي بيتروفيتش، الذي كان مسروراً بشكل واضح بمغادرة أرتيوم، إلى جنب الكاهن، واستمرّا في الهمس والضحك بشأن شيء مفهوم لكليهما. لنكون أكثر دقّة، في البداية كان يضحك فاسيلي بيتروفيتش فقط، حتّى ولو بشكل مخادع إلى حدٍّ ما، بينما كان الكاهن صامتاً، مشغول بشيء ما، لكنّه انجذب إلى المحادثة فيما بعد، ونسي حزنه.

"... حسناً، جيد" - فكّر أرتيوم.

كان يمكن أن يخيّب ظنّ أيّ شخص، لكن ليس الكاهن.

لم يكن هناك أحد تحت مضجعه، وواصل أرتيوم عمله.

بانت اللوحة أكثر فأكثر. انكشف وجه تحت الجير. خدود غارقة لإنسان، كما لو كان مريضاً يعاني. عينان زرقاوان على خضراوين وصارمتين. البؤبؤان

سوداوان غير مرسومين بشكل متساوٍ في كلتا العينين- كما يحدث غالباً على الأيقونات. الأنف مستقيم، وشفاه جميلة، وجبين عال، وحاجبان- يشبهان جناحي طائر أسود، اللحية إسفينية كثّة، والشعر طويل...

ابتعد أرتيوم، وفجأة أدرك ما كان جذاباً وغريباً في هذا الوجه. لولا الشعر الطويل واللحية، لكان الشخص الذي جرى رسمه في اللوحة يشبهه تماماً.

واصل القشط عن الصورة على عجل، تاركاً خدوشاً على اللوحة في بعض الأحيان، ويتطلّع حوله كل دقيقة ليرى ما إذا كان أحد ما سيعرقله.

سُمِعَت ضجّة عند الباب، استدار أرتيوم، وغطّى بجسده القديس الذي جرى اكتشافه في الكنيسة الرطبة.

أدخلوا دفعة جديدة: ثمانية أشخاص.

كان أوّل من دخل أفاناسييف - لا زال على قيد الحياة، وكأنّه لم يصب بأذى، لاحظ هو أرتيوم أيضاً ولوّح بيده له، وهو ينظر حوله في الوقت نفسه: هل من الممكن التحدّث هنا أم لا؟.

"هل يمكن التحدّث عندكم هنا؟"- دون أن يفهم، سأل أفاناسييف، أرتيوم بصوت منخفض، بمجرّد أن أغْلق الباب.

قال أرتيوم: "ممكن، ممكن. تعال إلى هنا. هنا يوجد مضجع فاضٍ".

لم يتطلّب الأمر فترة طويلة لإقناع أفاناسييف، فقد نظر حوله- ألا يجب أن يسلّم على شخص آخر أيضاً- ودون أن يتكرّم بتحية أيّ شخص، حتّى فاسيلي بيتروفيتش- صعد إلى الأعلى. لكن ليس بخفة أرتيوم، ولكن بطريقة شبابية أيضاً.

اشتكى أفاناسييف:"الجو بارد للغاية في الخارج. لا زال شهر تشرين الأوّل، لكن تتساقط ندف ثلجية قذرة، وتذوب على الفور: لا شتاء ولا خريف، الشيطان يعرف ماذا".

نصحه أرتيوم:" أخلع ملابسك الآن، ودعنا نجففها. وسأعطيك سترة عن كتفي ترتديها، ثمّ تعيدها".

اعترف أفاناسييف، وهو يفعل كلّ شيء كما قيل له: "آه، تيوموتشكا، كم هو جميل أن أراك. لم أكد أراك... أفهم على الفور أنّه يجب أن يصطلح كلّ شيء. لقد فكّرت في وقت من الأوقات: هذا الشاب لن يستمر طويلاً. والآن أفهم أنّ لديك حظاً، لذلك سأتمسك بقدمك عندما تطير من هذا الجبل اللعين إلى... في اتجاه... أين كنت تعيش هناك؟ ما اسمها زاريادیا؟ سوف تنخفض قليلاً فوق مقاطعة ياروسلافل، وأنا س...أقفز... قريتي هناك".

لم يستطع أرتيوم أن يفهم ما الذي تغيّر في أفاناسييف.

كان من الملاحظ على الفور، أنّه يعاني من اختلاج: أغلقت عينه اليمنى فجأة، وبعد لحظة بدأ أفاناسييف بمحاولات متشنجة لفتحها- وهذا يحدث أحياناً للناس عندما يستيقظون- لقد ساعد جفنه برفع الحاجب، وفي الوقت نفسه فتح فكيه قليلاً، وفي انسجام جعّد جبهته- لم ينجح من المرّة الأولى أيّ شيء، ومن الثانية أيضاً، ولكن بعد ذلك فتحت العين أخيراً. مع أنّ ذلك لم يمنع أفاناسييف من مواصلة التحدّث، ممّا خلق انطباعاً مخيفاً تقريباً.

تحدّث لبعض الوقت، ثمّ أغلقت عينه مرّة أخرى، كما لو كان قد وضع عليها خمسة كبيكات معدنية. بعد لحظة- بدأ وجه يعمل على فتحها من جديد.

ألقى أرتيوم نظرة فاحصة مرّات عدّة، واقتنع من جديد: عاش الوجه منفصلاً عن حيات أفاناسييف: لم يلاحظ أيّ اختلاج لديه.

لكن لم يقتصر الأمر على مصيبة عينه- كان هناك شيء آخر، لا يقل إحباطاً... أدرك أرتيوم، فجأة ما الأمر، أمسك رفيقه بشكل قاطع من ذقنه وأداره باتجاهه. نعم، هو كذلك، تبيّن أنّه جرى قبع غرّة أفاناسييف- لم يعد هناك خصلة شعر حمراء كثيفة، ولكن نتف شيح ممزقة فقط.

لاحظ أرتيوم، وهو يحدّق بعينيه، وجود خصلة رمادية على الجزء العلوي الأحمر لرأس أفاناسييف. بدت هذه الخصلة غريبة: مثل الشعر غير الممشّط لكلب مريض أجرد.

سأل أفاناسييف: "ماذا هنالك؟ هل رأيت بقّة فراش؟".

أجاب أرتيوم: "لا، كلّ شيء طبيعي".

نادراً في سلوفكي من كان ينظر في المرآة. لم ير أفاناسييف نفسه بعد.

كان يقوم أحياناً بحركة اعتيادية، محاولاً الإمساك بغرّته- كما لو كان يمسك ذبابة بالقرب من وجهه. لكن الذبابة غير المرئية تطير، فكان يخفض يده ببطء، محركاً أصابعه في الهواء، كما لو كان يعزف مع كلامه الذي لا يتوقف.

بمجرد ارتفاع نغمة صوته من جديد، تنطلق يده، تبحث عن الغرّة... ثمّ تتوقف مرّة أخرى، ناسية في أثناء الطريق ما كانت تريده هناك.

تحدّث أفاناسييف، لافّاً نفسه بسترة أرتيوم: "... كما تفهم، لم يأخذونني في تلك الليلة... نسوني، في الصباح وأنا ذاهب للتفقد، مسكني رئيس فريق الدعاية الجديد الذي جرى إنشاؤه للتو. أنا أعرفه من بيتربورغ: أحمق بالكامل، كان يعمل في الحزب ولكنّه أذنب- لقد كنت أساعده في العمل عندما كنت حرّاً، كتبت شعارات مختلفة لاحتفالات تشرين الأول. بالمناسبة، تعرّفت في فريقه على غراكوف - في تلك الأزمنة القديمة... أقول لهذا الناشط الحزبي:"يجب أن أذهب إلى التفقد ومن هناك، لدي مهمّة إلى جزيرة الثعالب". هو يقول: " ابق هنا! هناك جبهة عمل جديدة، سوف يقدمون طعاماً يكفي لسبعة أشخاص، لن أتركك تذهب ". وأنا لم... أنم طوال الليل من الكابوس - أ... أطلقوا النار، هل تعرف؟.. ولم أكد أستطيع التفكير، وأصبحت مطيع بشكل عام، مثل طالبة مخمورة. هكذا إذن، نذهب معاً إلى نوغتيف الذي تبيّن أنّه غير راضٍ عن الطريقة التي يجري بها تنظيم الدعاية البلشفية في المعسكر، ويطالب فوراً بلافتات جديدة. نحن نغادر، يقول رئيس الفريق: " ابدأ يا أفاناسييف، يجب أن يكون

هناك لافتة جاهزة بحلول المساء، سنعلقها على واجهة كتدرائية التجلّي، من النافذة إلى النافذة". يسألني: "ماذا سنكتب؟". أنا، يا تيوما، أجيب على الفور، دون أن أفكّر - حتّى إنّني لم أرغب في المزاح: "سولوفكي - للعمال والفلاحين!". يقول: " هذا هو المطلوب، يا أفاناسييف! افعل ذلك!" افعل، وأنا فعلت".

ارتجف جفن أفاناسييف، وأغلقت عينه... حتّى إنّه برم رأسه هذه المرّة، كما لو كان يعدّل فقرات عنقه التي تمنع عينيه من العمل بشكل طبيعي.

"أخذت الرسام، وفي ثلاث ساعات، خطّينا اللافتة، وبعد ساعة أخرى علقناها. انتهينا بالضبط عندما حان موعد التفقد المسائي"- تحدّث أفاناسييف بسرعة، وجسده كلّه يرتجف بعصبية، مقدّماً قصته على أنّها كوميدية بالتأكيد.

كان أرتيوم ينظر إليه دون انقطاع، غير مصدّقٍ أذنيه بالكامل، وفي نفس الوقت مدركاً أنّ كلّ ما قاله هو حقيقة مطلقة. وكانت عين أفاناسييف، التي تغلق بقوة خفيّة، ضمانة ذلك.

تابع أفاناسييف:" اصطفت السرايا، أولئك الأكثر ذكاء بدؤوا يضحكون. هنا ظهر نوغتيف، نظر للحظة، وأومأ برأسه... ثمّ توقف، ووجه لكمة قويّة إلى أسنان رئيس فريق الدعاية، الذي كان يتبعه مباشرة".

أراد أفاناسييف الضحك، لكن لم تستطيع كما لو كانت قد سقطت في الطريق في مكان ما في حلق آخر، والآن تتخبّط هناك، ولم تتمكن من الخروج، وحصل ما يشبه القحّة.

"هل أنت أحمق؟"- سأل أرتيوم.

"لم أستطع ضبط نفسي"- أجاب أفاناسييف ببساطة، وهو يرفع عينيه الأكثر صدقاً.

"لا، حقاً، أنت أحمق؟"- كرّر أرتيوم.

"حسناً، لا أعرف"- حاول أفاناسييف التفكير- "فكّرت، سأتصنّع المفاجأة بشكل كبير، س... سأقول إنّ رئيس الفريق أمرني...".

"لم تفكّر في أيّ شيء"- قال أرتيوم غاضباً لسبب ما، كما لو أنّ أفاناسييف وضعه في موقف صعب، وليس نفسه.

غرق أفاناسييف في التفكير، وهو يحك صدره وأحياناً ساقه، وينظر إلى مكان ما غير مرئي في الظلام.

قال: " تيوما، لقد أطلقوا النار على ثلاثة من رفاقي، كنت على استعداد للاندفاع معهم من هنا إلى فنلندا حتّى - على الرغم من أنّني لم أكن أعرفهم جيداً، ولكنّهم ناس أحياء... حسناً، ألا أستطيع، رداً على ذلك، البصق في عيون هؤلاء الكلاب ولو لمرّة واحدة على الأقل في حياتي؟".

أطلق أرتيوم نفساً طويلاً، من خلال شفاه مزمومة، كما لو كان ينفخ على شمعة واقفة في مكان قريب، لا يريد أن يطفئها، بل يهز الشعلة فقط.

" وماذا حصل بعد ذلك؟"- سأل أرتيوم.

أجاب أفاناسييف، وفتح عينه وتلعثم أكثر: "وبعد ذلك، يا تيومكا، أ... أكثر... إضحاكاً - أخذوني بين الذراعين وقادوني إلى أقرب مقبرة ق... قديمة. أرى - التابوت مجهّز لي:ي... يقف، يفتح فمه متثائباً: بما معناه استلق يا أفاناسكا، سأدحرجك تحت الأرض... والقبر محفور. كان رجال الأمن يضحكون - أ... أقدمهم، كنيته تكاتشوك، سأتذكّره إلى الأبد الآن. أسألهم: "ماذا تفعلون، أيّها الرفاق؟ أنا لست مذنباً بشيء! أنا شاعر، يمكنني أن أقرأ لكم أ... الشعر الآن!". أ... أنا نفسي كنت ما زلت آمل أنّه لن يحصل شيء، لأنّ جنود الجيش الأحمر يدخنون، كما لو كانوا ل... لا يريدون إ...إطلاق النار عليّ. ولكن تكاتشوك أخذني من عنقي، وحشرني في التابوت- مثل القط، كما تعلم. حاولت، يا تيوما، ترك قدمي خارج التابوت، لكنّ جنود الجيش الأحمر ركضوا وأدخلوا قدمي وضغطوا على الغطاء، وبدؤوا يدقون المسامير. هل س... سمعت دق المسامير في التابوت؟ إنّه- صوت قبيح. لكن، يا تيموتشكا، لو تعرف ما أصعب سماع هذا الصوت من داخل التابوت. كنت كلّ الوقت أفكّر:

أ... الآن يمزحون وبعد ذلك سيطلقون سراحي. فكّرت، سأتخلى عن لعب الورق، و س... سأصبح بطل إنتاج، وانضم إلى اتحاد الشباب، إلى أيٍ كان. لكن بدلاً من ذلك، رفعوا التابوت - ثمّ بدؤوا في إنزاله".

صمت أفاناسييف، وحاول بصعوبة أن يستنشق الهواء مرّات عدّة - ولكن بدا أنّ الهواء غير مريح للتنفس.

قال أفاناسييف بهدوء: "... سمعت كيف كانوا يهيلون التراب، بدأت بالصراخ...لا أتذكّر جيداً" - هنا قام بحركته المعتادة فوق رأسه، وفهم أرتيوم متى قبع أفاناسييف غرّته - في النعش! هكذا حاول أن يخرج نفسه!.

دون أن يجد غرّته الآن، بدأ أفاناسييف، وهو يجمع أصابعه كمخلب طائر، يحك بأظافره صدغه، كما لو كان يحاول التقاط أحد أوردته، وسحبه من رأسه مع كلّ الألم الذي يلتف حوله.

"لا أعرف كم من الوقت استلقيت هناك، يا تيوما" - بدأ أفاناسييف يتحدث بسرعة، كما لو كان في عجلة من أمره ليفترق عن هذه الذكرى- "ولكن عندما بدؤوا ينتزعوني من هناك، لم أكن بقواي العقلية، لم أفهم أيّ شيء، لقد اختنقت. فتحوه - كانت هناك شمس. وهنا، يا تيومكا، أصبت بالجنون".

نظر أفاناسييف إلى أرتيوم بشكل مباشر- ربّما بالطريقة نفسها التي ينظر بها الناس عند الاعتراف بالخيانة والقتل والخطيئة الفظيعة.

قال أفاناسييف: "جلس تكاتشوك بالقرب من التابوت... كما لو بالقرب من القارب الذي سيأخذني في رحلة مرّة أخرى الآن، ويسألني: أخبرني، ابن آوى، من الذي أقنعك أن تقوم بهذا الفعل المضاد للثورة. وأنا أ.. أعلم أنّه لم يقنعني أحد. وعلى الرغم من أنّني كنت في حالة ضبابية، إلّا أنّني أفهم أنّه إذا ق... قلت لم يقنعني أحد، فلن يصدقونني. أفهم إنّه يجب، أن أقول شيئاً، يبدو لهم إنّه مهم. أخذت نفساً، وهسهست- على الرغم من أنّني حاولت الصراخ: لدي معلومات ع... عن مؤامرة، خذوني إلى قس... قسم المعلومات

والتحقيقات... لم يأخذوني إلى قسم المعلومات والتحقيقات... وإنّما أجبروني على الاعتراف بكلّ شيء عند التابوت مباشرة، أم بالأحرى في التابوت. لقد اعترفت أنّني أردت الهروب مع بورتسيف، وسميت جميع شركائي".

"ألم تورطني في ذلك؟" - ومضت بغتة في رأس أرتيوم.

تابع أفاناسييف: "لم أ...أستطع تسمية ألكثير. قسّم بورتسيف الجميع إلى مجموعات، وكلّ مجموعة من أربعة أشخاص، لا أحد يعرف أحداً بشكل دقيق. أعتقد أنّه كان هناك مئة شخص في المنظمة، أم حتّى أكثر... ولكن جرى إطلاق النار على الأربعة الذين في مجموعتي في الليلة الأولى، وهؤلاء هم الذين حكيت عنهم، أخذني تكاتشوك من أذني وقادني إلى قسم المعلومات والتحقيقات. هناك، حكيت عن الشيء نفسه مرّة أخرى .

" هل ضربوك؟" - سأل أرتيوم.

أجاب أفاناسييف: "أنا؟ لا، لم يضربونني. أوه!.." – تذكّر - "أردت أن أخبرك عن شيء آخر شخصياً. عندما جرى اقتيادي من الاستجواب إلى الزنزانة الانفرادية في الأسفل - بعد نصف ساعة، سمع صوت المفاتيح، ودخل إليّ من خمّن؟ غالينا. أحضرت فطيرة وزجاجة فودكا. لقد سكبت لي كوباً، شربته، وقضمت من الفطيرة. وسكبت كوباً آخر - شربته أيضاً. استدارت وغادرت. لم تقل كلمة واحدة".

ألقى أفاناسييف نظرة ذات معنى على أرتيوم.

"أنت تعرف مثل هذه القصة " - ضحك أفاناسييف، من غير المعروف من أين أتى هذا الضحك، دافعاً أرتيوم بخصره - "هنا، في س... سولوفكي، عندما قرر الراهبان، سافاتي وغيرمان قبل خمسمئة عام العيش، كان هناك زوجان- شاب وامرأة، مثل آدم وحواء... أبحرا من البر الرئيسي واصطادا السمك هنا، ولم يزعجا أحداً. لكن حوّاء، كما تعلم، بدت عقبة أمام الرهبان. ومن أجل عدم تعطيل بناء دير سولوفكي، نزل ملاكان من السماء، وجلدا هذه المرأة. هل

يمكنك أن تتخيل يا توم؟ فهمت المرأة التلميح، وغادرت الجزيرة على الفور. وأخذت زوجها معها. وقد جلدا هذه المرأة - على الجبل حيث نحن الآن بالضبط. ولهذا السبب يطلقون عليه اسم سيكيرنايا- هنا جرى جلد المرأة. هل فهمت التلميح، يا أرتيوم؟".

أجاب أرتيوم بسرعة وباستياء: "لا، لم أفهم ".

أوضح أفاناسييف في الحال: "ضع في اعتبارك أنّ المزح مع النساء في سولوفكي، سيئ".

قال أرتيوم دون أن يبتسم: "بالحكم ممّا جرى لك، فإنّه لا يجب المزاح بشكل عام في سولوفكي".

"ها!- قال أفاناسييف، ولوّح بيده فوق رأسه: لكنّ الذبابة اللعينة اختفت مرّة أخرى.

كما لو أنّ أرتيوم كان يرى نفسه وافاناسييف من جانب، وبدا الأمر مضحكاً بالنسبة له لدرجة انهمار الدموع: كانا يجلسان على المضجع العلوي، وتدلّت أرجلهم إلى الأسفل، وأحياناً كانا يؤرجحونها قليلاً مع إيقاع المحادثة- بالضبط مثل المراهقين على ضفة النهر. يبقى، أن ينظرا جانباً، ويشعلا السيجارة التي سرقاها من والد أحدهما، ويدخناها بالدور، دون أن يبتلعا الدخان، بسبب عدم وجود الخبرة لديهما.

لكن إذا كانت هذه ضفّة، فإنّها ضفة نهر آخر.

كان أفاناسييف، مفعماً بالحيوية وثرثاراً، كما لو لم يتحدث للتو كيف دفنوه حياً في تابوت.

قال بلهجة تصالحية: "أتعلم، تيومكا، لا تغضب من أجل غالا أنا ببساطة أحسدك، أتفهم؟".

لم يجب أرتيوم حتّى: إنّه يكذب على الأرجح، حتّى لا يتوقف لسانه، لكنّه يستطيع أن يقول أيّ شيء.

قال أفاناسييف:"لم أحسد أحد في أيّ وقت من الأوقات، حتّى سيرغي يسينين، عندما جاء إلى أمسيته الشعرية بعد عودته من أمريكا الكثير من الناس، لدرجة أنّ شرطة الخيالة قامت بتفريقهم... أمّا أنت فقد حسدتك ". لم يكف عن الحديث، وظهر شيء غير عادي في صوته- كما لو كان أفاناسييف الأوّل يتحدّث، والآخر كان يعوي بهدوء اللحن نفسه: "هذه قصتي يجب أن تكون: في سولوفكي! ومع صديقة رئيس المعسكر حتّى! يا تيومكا!.. وهي لم تنظر إليّ ولو مرّة واحدة حتّى. هل أنا أسوء منك؟ كنت علّمتها... لعب الورق...".

"أعتقد أنّها تعرف " - قال أرتيوم الذي أصبح أكثر لطفاً لسبب ما. كان يتفاعل مع الحديث حتّى لا يصمت أفاناسييف.

أومأ أفاناسييف برأسه: " تعرف- أعتقد أنّها تعرف الكثير من الأشياء التي لا أذكرها هنا... ولكن عندما تصبح حرّاً، يا أرتيوم؟ ما هي حاجتك إليها خارج السجن؟ هل تريد العيش مع محكمة؟".

فكّر أرتيوم: " تبّاً، كان من الأفضل ألّا أواصل هذا الحديث معه...".

كان من الممكن أن أغضب، ولكن كان من الواضح أنّ أفاناسييف يتحامق، ويقول كلّ ذلك حتّى لا يتذكّر تابوته، ولأنه على ما أعتقد يشعر بالغيرة حقاً، ولا يفهم تماماً لماذا ليس لديه مثلهذا الحظ.

واصل أفاناسييف ثرثرته: "كلّ امرأة هي محكمة علي أيّ حال". وهنا أومأ الشاعر برأسه لجهة الكاهن الذي أنتقل إلى مضجع سجين في الجهة الأخرى من القاعة لمواساته، وواصل: "الله واحد في ثلاثة أوجه. أمّا المرأة كما هي- ثلاثية ثورية. تستجوب وتوقّع الحكم وت... تنفذه. و كلّ يوم هكذا، حتّى تتحوّل كلّك إلى ثقوب. أم أنّك اعتدت على إطلاق النار عليك، بحيث لا يمكنك أن تعيش خارج السجن دون محكمة؟".

"اتركني وشأني أفاناس، دعني، لقد سئمت منك "- لوّح أرتيوم بيده.

سئل أفاناسييف:"سئمت منّي! ليكن سئمت. لكن لماذا تركتُك هنا يا عزيزي؟".

"... لم يكن هناك داعٍ لدعوة أحمر الشعر إليّ" - فكّر أرتيوم بشكل جدي، وقام بحركة من أجل أن يقفز من المضجع إلى الأسفل.

"آسف- آسف- أنا لن أسأل"- وافق أفاناسييف على الفور، ممسكاً بيد أرتيوم- "هذا شأنك. أعتقد أنّها ستخرجك من هنا. وأنت ستقول كلمة طيبة بحقي، أليس كذلك؟".

لم يكن هناك ما يفعله في الأسفل على أيّ حال، وظلا جالسين على ضفتهما: ربّما يبحرون بالقرب منهما، ويأخذونهما معهم؟.

سأل أفاناسييف: " يقدمون الطعام هنا، أم لا؟ أنا لا أستطيع أن أ... أتدفئ بأيّ شكل".

أجاب أرتيوم بعد صمت: "غداً في الصباح سيأتون بالماء المغلي".

وصمت مرّة أخرى، ونزع جواربه الصوفية.

أعطاها لأفاناسييف:"خذ، دفئ رجليك، واخلع جواربك. أعطني لأجففها".

خلع أفاناسييف جواربه فوراً، ووضعها أرتيوم تحته.

حذّره أرتيوم: "سأستعيدها في الليل".

"بالطبع" - وافق أفاناسييف، وهو يرتدي الجوارب الصوفية. بدا شكله، كما لو أنّه ربح الجوارب في لعب الورق. حتّى إنّه وقف على المضجع، وبدأ يدوس على الألواح التي كانت تصدر صريراً- كما لو أنّه يحاول قياس شيءٍ جديدٍ.

نظر أرتيوم بسخرية إلى رفيقه، وفكّر كما مرّات عدّة لا على التحديد: "... خرج من التابوت للتو... وسعيد بالجوارب... الشيطان".

"أوه، القمر" - لاحظ أفاناسييف من الفجوة بين الألواح التي على النافذة- "أس... أسمع، يا تيومكا؟ هناك القمر".

"ألم أرى القمر من قبل؟".

جلس أفاناسييف في مكانه، وبدأ يدلّك قدميه بالجوارب الجديدة.

"هل لاحظت يا تيوما أنّ لدى دوستويفسكي - كلّ الأشخاص الذين انتحروا تبدأ كنيتهم بحرف س... س؟ سفيدريغايلوف، سميردياكوف، ستافروغين؟ لقد نسيت كيفية نطق هذا الحرف. س- مثل القمر. برز هذا الحرف في منتصف كنية دوس... ستويفسكي، وجبل سيكيرنايا يبدأ بحرف س أيضاً. هل فهمت؟".

قال أرتيوم: "لم أفهم".

قال أفاناسييف: "لكنّني لا أفهم كيف وقعت هنا".

أرجح أرتيوم ساقه. ثمّ هزّ كتفيه. حديث طويل. ليس من الواضح من أين نبدأ.

قال أفاناسييف بنبرة صوت، كأنّه لم يسأل عن أيّ شيء: "أريد أن آكل".

... استلقى الجميع للنوم متكومين بعضهم فوق بعضٍ مرّة أخرى، واستمتع أفاناسييف بذلك كثيراً.

كان يثرثر باستمرار، يتحدّث بلا توقف من مكان ما في وسط النسيج البشري البارد:

" تصوروا، أيّها الإخوة، سوف نتعود هذا الأمر، لدرجة أنّنا سنعود إلى المعسكر، ويعلنون عن تفقد- ونحن- نتكوّم في مكدس. يخرج الرئيس المفوض، وهنا أكواخ من أرجل الدجاج متكوّمة:" كومة السريّة الأولى جاهزة!"، "وكومة السريّة الثانية تكدّست!".

ضحكوا بشدة لدرجة أنّ الكومة انهارت وتأذت قدم ورقبة أحدهم.

كان عليهم أن يستلقوا من جديد.

هددوا أفاناسييف بشكل جدي بخلع رأسه إذا لم يصمت. لكنّه لم يفكّر في أن يصمت.

أصبحت الأحلام أكثر إلحاحاً، ودخلت في الرأس، عندما لا تكون نائماً على الإطلاق ولا تكون مستيقظاً- مستلق في الكومة، وتشعر بثقل فوقك، وصدرك مطبق، واستقرت ركبة شخص ما على عمودك الفقري، وفقدت ساقيك تماماً، وشعور غريب: بيدٍ واحدة جليدية تلمس اليد الأخرى، لكنّك لا تعرف على وجه اليقين- ما إذا كانت كلتا اليدين لك، أم إحداهما فقط، وإذا كانت واحدة فقط- أيّهما؟- وفوق كل هذا يأتي حلم. حلم مشترك- يتدفق من رأس إلى رأس، يدخل حلم غريب، غير واضح وسيئ - مع ظهر امرأة، ظهر عارٍ، وبارد، مثل العلجوم، ثمّ شخص ما يكدن حصاناً، وشخص ما يشحذ المنجل، يجرح نفسه، ويحاول وضع يده تحت أبطه للضغط على الدم، لكن يده لا ترتفع، وتر اليد مقطوع، إنّه أمر مخيف للغاية- عندما يصبح طرفك فجأة غريباً وغير مطواع، وفي الحلم التالي- مجرّد غرفة مئونة، مظلمة، ورطبة، ويشعر الشخص بالكآبة في هذه الرطوبة، فهو ليس دودة، إنّه يخشى أن ينطمر في الأرض ولا يؤمن بدفئها.

كان أرتيوم جالساً على طاولة مشتركة، إذ بدا كلّ حلم مثل طبق به بقايا طعام شخص آخر، وقد غادر الضيوف أنفسهم، وبعض الذين بقوا فقط- وجوه، ليست وجوه - تمايلت في الهواء، وحرّكت شفاهها.

كان لدى أرتيوم صحنه الخاص، وكان يود أن يمسكه بيديه حتّى لا يأخذوه، كان في الصحن عسل.

وقفت والدته وراءه تنظف الطاولة. كان على أرتيوم ألّا يراها. لكنّه رآها على أيّ حال. عندما مرّت أمّه بجانب الطاولة، سبحت الوجوه التي بقيت بعد الغداء جانباً، وبقيت معلّقة في الهواء، وظلّوا يحركون شفاههم دون صوت.

قامت بجمع الصحون واحداً فوق الآخر، لتبدو الطاولة أكثر أناقة، ولكن رغم ذلك بقي هناك الكثير من بقايا الطعام، وكان منظرها مثير للاشمئزاز.

طلبت الأم: " كلْ عسلاً، يا بني. العسل مفيد".

كان أرتيوم لا يحب العسل- الجميع كانوا يحبونه، أمّا هو فلم يكن يحبه، كان العسل حلواً كثيراً، وكان من المريح النظر إليه، ولكن أن يأكل- لا، كان الفكان متشنجين.

ومع ذلك، أرد الآن كثيراً أن يأكل عسلاً- ولكن لم يكن هناك الشيء الضروري جداً ليتناوله به- إمّا لم تكن هناك ملعقة ، وإمّا أنّ الصحن غير مريح، حوافه مثنية إلى الداخل- وعندما حاول أن يدلقه في فمه- سقط العسل على جبينه، وانسكب في عينه، ولم يستطع تذوقه.

كانت الأم على وشك أن تأخذ الصحن: إذا كنت لا تريد- لا داعي لذلك، سأعطيك عندما تطلب- وكان من الضروري تحذيرها: أريد أن آكل عسلاً، يا أمي!

"أريد أن آكل عسلاً، يا أمي!".

"أريد أن آكل عسلاً، يا أمي!".

"أريد أن آكل عسلاً، يا أمي!".

كان أرتيوم على وشك إمّا البكاء وإمّا الصراخ، وأصبحت الوجوه حول الطاولة مضطربة، وتحركت شفاههم بشكل أسرع، وانهمر العرق العكر والساخن والقذر من خدودهم، وبدأت الصحون تتساقط من أمه...

عطس أحد ما في منتصف الكومة، ومالت الكومة، وشتم أحد ما، وعندما اكتشف السجين غورياينوف، أنّه يكرّر بصوت مسموع "أريد أن آكل عسلاً، يا أمي!"- كان هناك صخب بما يكفي، كيلا يسمع ذلك بشكل واضح ومضحك.

"... يبدو لي أنّه لم يلاحظ أحدٌ "- فكّر أرتيوم بشكل محموم، وظلّ يلامس بإحدى يديه اليد الأخرى- تبدو أنّها يده أيضاً- لكن لا، اتضح إنّها غريبة، لأنّه جرى سحبها. عندما نهض أرتيوم، كانت يده معلقة، مخدرة تماماً، والآن يمكنك وضعها في النار، أم قطعها بسكين، مثل رقائق اللحمة،

وحتّى، ربّما، يأكل هو قطعة منها- ولكن في حال قدّمها له أحدٌ ما ولم يقل من أين هذه اللحمة".

"... متى سيحضر ماؤنا المغلي، يا تيوما؟"- سأل أفاناسييف بألم: كان يبدو كأنّه نام، تحت كومة حطب - كان وجهه يميل إلى جانب واحد، وعيناه حولاوين، ورأسه مغبراً، وأذناه مدعوكين، وكتف أعلى من الآخر، ورجلاه تتعثران، وأصابعه الخمسة الملتوية في كفّه، تبرز في اتجاهات مختلفة، كما لو أنّه جرى ضرب يده بمرقاق، وكان هو نفسه يفوح برائحة العفن.

"... هل أنا كذلك أيضاً؟"- سأل أرتيوم بارتخاء. في الواقع، كان غير مهتم بذلك - هكذا، ليكن: أعطونا الماء فقط، الماء المغلي والحساء.

لم يستطع الجسد أن يتأقلم مع الجوع والبرد: لقد تمرّد وعذّب وألحّ على العقل: أعثر على الطعام، وأطعمني، ولا تفكّر في أيّ شيء آخر، فكر بي فقط، أنا أهم من امرأتك، أنا أهم من والدتك، أنا أهم من طفلك، أنا أهم منك.

قال أرتيوم: "اخرج أيّها الأحمق! يمكنك الاستغناء عن الماء المغلي".

حتّى إنّه كرّر ذلك بصوت مسموع - منخفض.

سمع أفاناسييف، أمسك بكتف أرتيوم مثل عشبة الأرقطيون، وتبعه وهو يهمس:

" ألا تهمس شعراً، يا تيومكا؟ أمّا أنا فأؤلف القصائد هنا كلّ يوم، ولم أكتب أيّ واحدة منها. حتّى الآن، كنت أتذكّر كلّ القصائد، لكن الليلة اختلطت في رأسي، أقوم بسحب سطر واحد- إنّه يسحب وراءه الثاني، أطول منه بمرتين... إنّهم مثل الخرز عندما ينقطع الخيط ، والآن لا يمكنك أن تدخل الخرز بخيط واحد... لكنّ أيّ موسيقا رائعة ظهرت- لا أفهم بأيّ شكل- هل هذه الموسيقا لي أم لشخص آخر... أغنيها... أحياناً أغنّي قصائدي- وهي، يا تيوما، بطريقة ما تصبح أكثر ذكاءً ممّا كانت عليه على الورق. الموسيقى سحر كما ترى، وكأنّك تنظر وراء الحافة، وهناك حياة أخرى، أوسع من حياتنا... كنت أود

تأليف الموسيقى. أغنياتي، إنّه شعور جميل- عندما تمشي وراء الأغنية في أعماق نفسك غير المكتشفة قطّ. إنّها مثل رحلة البحار إلى الهند... مثل أفاناسي نيكيتين عبر البحار الثلاثة... هل تفهم، يا عزيزي؟ يمكنك الذهاب وعدم العثور على شيء- هناك رماد وخيوط عنكبوت قديمة. لكن الصبي ياروسلافل ذهب من الفارانجيين إلى الإغريق، ومن الإغريق إلى الفرس، وعاد من هناك إلى روس، وأحضر معه الديباج، ومحظيّة، وكذلك حصان بري، برقبة بجعة، كان لونه مزركشاً، ويرتجف- هذه كلها أغنياتي... يمكن للمرء أن يصدّق الموسيقا فقط، يا تيومكا، ولا شيء آخر. الجنة- هي الموسيقى، لقد خمّنت أخيراً... هل تسمع موسيقا؟".

سمع الموسيقا جميع السجناء في الكنيسة.

تجمدوا، كلّ واحد إذ كان يقف، لم يتبق أحد عند الباب قط.

كان أحد ما يمشي مع جرس باتجاه الباب.

ربّما لم يلحق أحد أن يحدّث أفاناسييف عن هذا الجرس، وربّما هو الوحيد تقريباً الذي فرح:

" يبلّغون، أنّهم يحملون الماء المغلي!.." - وقد خطا ثلاث خطوات إلى غاية المخرج.

فُتِحَ الباب، وخمد الجرس في منتصف النغمة- كان يقبض عليه بيده، رجل الأمن نفسه المبتسم ، بلا حواجب، مثل السمكة.

سأل رجل الأمن، ناظراً إلى أفاناسييف: " أنت أفاناسييف؟ إلى المخرج".

رنّ رجل الأمن الجرس مرّة أخرى، مسروراً جداً لأنّه عثر على الرجل في الحال، وأنّه لا ينبغي له جرّه من ساقه إلى الشارع.

"أوه، إنّهم ينادونني إلى الدرس" - قال أفاناسييف، ولم يكن يمزح بقدر ما كان ينعش نفسه، والتفت إلى أرتيوم- "لقد حفظت الدرس... سأجيب الآن".

تراجع أرتيوم خطوة إلى الوراء بشكل لا إرادي، وتعثّر بشخص ما- تنحّى الشخص الذي كان يقف خلفه جانباً، وعندها اتخذ أرتيوم خطوة أخرى.

لوّح أفاناسييف بيده فوق رأسه- ليمسك غرّته، ليجر نفسه عكس التيار...

تطلع مرّة أخرى، من الباب إلى أرتيوم - كانت عيون أفاناسييف مختلفة تماماً، وفهم كلّ شيء خلال لحظة واحدة- قال بصوت فيه قعقعة :

" أنا الذي وضعت لك ورق اللعب، يا تيومكا، اعذرني".

قعقع الباب، واستدار المزلاج باحثاً عن مكانه، وتعشّق.

استمر الجرس في الرنين، لكنّه بدئ يخفت صوته شيئاً فشيئاً.

انطلقت صرخة مجنونة فجأة: "دع أفاناسييف يذهب، أيّها الفم العاهر، ستلْعن من أجله لقرون!".

صمت الجرس، وسمعت شتائم فاحشة، وسرعان ما صدرت طلقة، ثمّ أخرى، وأخرى. لقد هرب الرجل من الموت، وقد لحقت به رصاصة: هل أنت الذي نسيتني؟ ألست لك؟..

... بعد بضع دقائق أحضروا ماءً ساخناً مخفّفاً بالحليب، وعصيدة الدخن، ملعقة لكلّ شخص.

لم ينتظر الأحمر حتّى يأتوا بالماء المغلي.

هرع الجميع لتناول الطعام، ولم يرفض أحد.

كان أرتيوم مستلقياً على الرف العلوي، ووجهه للأسفل، يعض معصمه بأسنانه.

لكن رائحة الدخن وصلت إليه، أيقظته، وأخرجته من حالة اللاوعي.

قفز إلى الأسفل، ودفع الواقفين في الدور، ووقف أوّلاً.

لم يقل خاساييف كلمة واحدة، وصبّ لأرتيوم ملعقة، وأعطاه ملعقة ثانية- أعطاه حصّة مزدوجة. أكلها أرتيوم وهو يقف مكانه على الفور، دون أن يخرج من الدور. وشرب الماء المغلي دون شعور.

لاحظ في طريق العودة إلى المضجع، وهو يلعق شفتيه، أنّ الكاهن، هو الوحيد الذي لم يقف في الدور- كان راكعاً في الزاوية، يصلّي بهدوء.

أحضروا له العصيدة والماء المغلي، ووضعوهما على الأرض بالقرب منه.

" أيّها الكاهن- خُذْ "- نادوه بهدوء، كما ينادون إمّاً مرضعة تغفو وإمّا مريضاً عزيزاً.

كان أرتيوم غاضباً ومحتداً من الداخل: "كان يعرف أنّهم سيحضرون الطعام إلى الكاهن! كان يعرف! كان يعرف ويتصنّع، عجوز غبي...".

حاول أن يقنع أرتيوم نفسه، كابحاً دموعه: "ربّما هذا كلّه خدعة، تهريج؟ سوف يقرعون الجرس- سيخرجون شخصاً ويغمزون له، ويطلقون النار في الهواء. يومئ الشخص برأسه أنّه فهم رداً على ذلك، ويركض إلى الغابة، إلى الجهات الأربع... وهل يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك؟على بال من يخطر أن يأخذ أفاناسييف ويطلقوا النار عليه؟ أحمر الشعر؟ لماذا؟ لأنّه وضع لي أوراق اللعب؟ لقد سامحته على الفور... ولماذا عدا ذلك أيّها الرب؟.. هل أنت موجود يا رب؟".

أراد أرتيوم أن يميل للخلف، وينظر إلى الوجه الذي قشط عنه الجير بملعقة السجن، إلى عينيه، لكنّه لم تكن لديه القوّة، وكان رأسه يدور.

كان فاسيلي بيتروفيتش يتخبّط في الأسفل، ويتحدّث باستمرار عن شيء، ثمّ عن شيء آخر.

" عرض هزلي"... هذا هو عرضنا الهزلي. يخرج منّي عصير التوت البري. جرى دفع العصير الفضي إلى سيكيركا... يقترب من الموت هنا!.. كم من بق الفراش كان لدى الرجل الميّت، يا إلهي"- خلع فاسيلي بيتروفيتش بشكل محرج

سرواله الداخلي، الذي هو لشخص غريب، ليس كما يخلع رجل عجوز سرواله، لكن بطريقة ما، كما تفعل امرأة عجوز، وبدأ ينفضه ويبحث بين الدرز.

"... لن أصافحه مرّة أخرى قطّ "- أقسم أرتيوم في نوبة من الاشمئزاز الذي لا يمكن تفسيره، وهو ينظر إلى فاسيلي بيتروفيتش من خلال الفجوة بين الألواح الممدّدة- "لقد أصيب بالجنون حقاً، رأس الدودة...".

عاد الكاهن إلى مكانه وبدأ يأكل العصيدة بهدوء، لفترة طويلة، كما لو لم يكن في صحنه ما يملأ ملعقة واحدة فقط، بل ثلاث وثلاثين ملعقة: حتّى إنّه كان يتمطّق أحياناً.

تحدّث فاسيلي بيتروفيتش: " أتذكّر، في صغري، بعد أن أقرأ كتاب حياة القديسين، لا أستطع أن أهدأ. أرمي اللحاف عني في الليل: أستلقي أتجمّد من البرد لمجد الله... إلى أن يأتي والدي. كنت أغضب منه، لأنّه كان يغطيني باللحاف. لكن هنا- استلق، وأتجمّد من البرد، لا أحد يغطيك. ولكن لا أريد ذلك الآن".

بدأ الكاهن يتنفس بسرعة: لا يبدو أنّه كان يضحك، لكن هكذا كان يدعم الحديث بأنفاسه.

تابع فاسيلي بيتروفيتش: "... في الكلية العسكرية، بعد نهاية الدورة التي استمرت عامين، قمنا بترتيب جنازة، مزحة، لأحد الطلاب. وضعناه على باب وحملناه. سار أمام التابوت، طلاب بلباس رجال دين، ومن الخلف أقارب يبكون... أوه، كيف استمتعنا. غنّت الجوقة، ودخّنت الشموع وانطفأت... وكانت المبخرة محشوة بالتبغ. لم نستطع التوقف من السعادة، حتّى ظهر المسؤولون في الكلية فجأة، وعندها، أسقطنا الميت الذي كان يقهقه، وتفرقنا... مثل الأطفال فعلاً... أحياناً أغمض عينيّا هنا، وانتظر دخول الضابط المناوب في كليتي العسكرية... وسيكون الأمر مضحكاً من جديد، ونحن سنركض في كلّ الاتجاهات، ونضج بالضحك".

أنهى الكاهن أكل عصيدته التي لا نهاية لها وهدأ.

همس له فاسيلي بيتروفيتش: "حرية الاختيار التي منحنا إياها الله تعالى، هي أهم هدية، كنت أعرف دائماً هذه الحرية، لقد كانت في جيبي الداخلي"- لمس صدره بيده، ضاغطاً على ظرف غير مرئي- "... كانت هنا كدليل ثابت على الحق في حرية الانتقال طوال الحياة. مع هذه الوثيقة، تذكّرت دائماً أنّه يمكنك الاختباء من الموت خلف شجيرة، والعودة للخلف... والاستسلام أخيراً- وستعطف عليك، وتتركك من جديد... أمّا هنا فإنّني أشعر أنّه جرى القبض عليّ- وروحي تتألم وترتجف".

"... عوا الجلاد "- فكّر أرتيوم: لقد اجتاحه شعور لا يمكن السيطرة عليه، مثل الغثيان، أن فاسيلي بيتروفيتش هو من قتل أفاناسييف، والآن يجلس هنا وكأنّ شيئاً لم يحدث، يفتش في سروال داخلي لرجل غريب - أم ربّما خلعه عن أفاناسييف؟ كان هذا الشعور بالكراهية والاشمئزاز أقوى مئة مرّة، لأنّ فاسيلي بيتروفيتش قال نفس الشيء الذي كان أرتيوم يخشى أن يقوله لنفسه.

لم يكن هذا الغثيان ناتجاً عن الملابس الداخلية لشخص آخر فقط، ومن الرأس الذي يرتجف في الأسفل، ولكن من الخوف أيضاً- الذي لم يسبق أن استولى على أرتيوم بلا رحمة مثل هذه المرّة.

همس الكاهن رداً على كلمات فاسيلي بيتروفيتش المطمئنة، التي لم يسمعها أرتيوم. ولم يكن يريد سماعها أصلاً، وإنّما تابع ارتجاف رأس فاسيلي بيتروفيتش فقط، كيف يستمع - كأنّه لا يصدق شيئاً. لكن في الوقت نفسه، كان من الواضح أنّ فاسيلي بيتروفيتش يتفق مع الكاهن في كلّ شيء، لكنّه فقط ، لا يمكنه أن يشبع من كلامه بأيّ شكل، ويريد الاستماع إلى المزيد والمزيد من الحجج الجديدة، حول الرحمة والخير والخلاص الحتمي.

ربّما احتاج أرتيوم إلى الحجج أيضاً، للتخلص من هذا الغثيان المثير للاشمئزاز واللزجة. لكنّه فقط لم يرغب في أن تكون هذه الحجج متشابهة بالنسبة له ولهذه الرأس الذي يرتجف دون توقف.

كان ليكسره مثل بيضة نيئة، لكي تنقر الطيور هذا الدماغ الحقير.

لأنّ... لأنّ: أين أفاناسييف الآن؟ من سيهدئه؟

لم يعد أفاناسييف يؤلّف الشعر، ولا يبحث عن الموسيقا في داخله.

كيف توقف عن تأليفه، وكيف توقف عن سماع الموسيقى، وما الذي يمكن أن يكون قد حدث له؟ هل حقاً أصابت هذا الجسد الشاب رصاصة واحدة، حسناً، اثنتان، ثلاثة- وانكسر على الفور؟ هل هو فونوغراف؟ هل هو أسوأ من فونوغراف؟ ألا يستطيع تغيير الإبرة؟ وضع أسطوانة جديدة، وعندها أفاناسييف، حتّى لو كان يتلعثم ببعض الأحرف، سوف يتحدث من جديد عن ورق اللعب، و سيكيركا، والشعر، وتيارات هواء سولوفكي المالحة.

يوجد أفاناسييف في مكان ما- لا يمكن أن يضيع، أليس كذلك؟ بالتأكيد أنّه يستلقي في مكان ما- تماماً كما كان قبل ساعة، لكنّه يصمت فقط. كيف يشعر بنفسه؟ هل جرى إهالة التراب عليه؟ وهل هو مستلقٍ تحت التراب؟.

... كان الأمر لا يطاق.

كان فاسيلي بيتروفيتش يقول في الأسفل:"... عندما عملت في جهاز مكافحة التجسّس- كنت أضع قطعة سكر في فمي، كنت أهدئ نفسي هكذا...".

أدخل أرتيوم رأسه في الفجوة بين الألواح المتفرقة، بحيث ضغطت على صدغيه.

"اخرس أيّها الشيطان العجوز!"- صرخ أرتيوم في يافوخ رأس فاسيلي بيتروفيتش تقريباً- أخرس! قبل أن أخنقك!".

نظر فاسيلي بيتروفيتش إلى الأعلى بخوف، والتقت نظراته مع نظرات أرتيوم مباشرة. لم يستطع الكاهن أن يفهم من أين أتت الضوضاء، وبدأ ينظر مرتبكاً إمّا إلى هذه الجهة، وإمّا إلى تلك.

أبعد أرتيوم، وهو يرتفع للحظة، الألواح بعضها عن بعضٍ، ثمّ انحنى مرّة أخرى في الفجوة التي تشكلت، ولكن لم يدخل رأسه فقط هذه المرّة، وإنّما صدره بالكامل، وأرخى يده إلى الأسفل، كما لو كان سيلتقط هذه الرأس الكريهة، من الأذن الصغيرة المقشرة.

" كان يضع السكر في فمه، يحب الحلاوة... عندما كان يخنق الناس ويسحقهم!" - صرخ أرتيوم، في حالة غضب شديدة، وهو يلوّح بيده أمام وجه فاسيلي بيتروفيتش الذي نكص إلى الوراء.

كشّر فاسيلي بيتروفيتش ، وهسهس رداً على ذلك:"أنا لم أقتل ولا شخصاً واحداً... على الإطلاق".

زئر أرتيوم: "نعم"! لم تقتل أحداً. قطعتهم إلى قطع صغيرة فقط! وتركت أكبر قطعة للآخرين من كرمك! شنيع! اغرب عن وجهي، أيّها الشنيع!".

مدركاً، وهو يلوح بذراعه بغباء، أنّه من الأعلى لن يطال أيّ شخص، انقلب أرتيوم وهو يصدر ضجة وتدحرج إلى الأسفل.

لم يعد فاسيلي بيتروفيتش موجوداً في مكانه، كما لو أنّه قد ذاب في شبه ظلام الكنيسة، لكن ظهر الكاهن في طريقه، دون أن يقول أيّ شيء، لكنّه كان ينفخ بهدوء فقط، كما لو كان أرتيوم جمرة ملتهبة.

شعر أرتيوم بنفس الحالة: كان بإمكانه دفع الكاهن بعيداً، لكنّه لم يفعل ذلك - ليس بسبب احترام مقامه - لم يكن هناك حتّى ظل من الاحترام في داخله تجاهه - وخشي أيضاً، أنّه إذا لمس هذا الإنسان، فستشتعل لحيته وشعره، وسيتعين القيام بشيء ما... ربّما إخماده أيضاً، حتّى لا تنبعث منه رائحة الاحتراق.

قام بحركة عنيفة بيده بمعنى اغرب!- عاد أرتيوم إلى مضجعه وتشبّث به، كما لو كان على وشك تمزيقه إلى قطع.

قال الكاهن: "أعلم أنّك، لا تسترضي أحداً، لقد غفرت للجميع سبعين ضرب سبع مرّات، بما في ذلك لأفاناسييف الذي بسببه دخلت المستشفى

آنذاك... والفتاة الفاسدة التي لم ترتكب إثماً معها في المستشفى... وفاسيلي بيتروفيتش الذي بسببه أنت هنا الآن... وسامحت جميع من أراد تدميرك في كلّ مرّة... لماذا أنت، يا تيومونكا، تغضب في أصعب ساعة؟ ربّما طيبتك تنقذك وتنعش أصحاب النفوس الضعيفة؟".

نظر أرتيوم حوله، مندهشاً للغاية.

سأل مذهولاً: " من أين أنت تعرف - عن أفاناسييف؟ وعن... كلّ ذلك؟".

تفاجئ الكاهن بصدق - كيف: من أين؟ - كان يقول ذلك مظهره كلّه - كيف يمكنني ألّا أعرف كلّ ذلك؟ إنّه مكتوب بالأسود على الأبيض، لقد قرأته فقط.

تسائل أرتيوم خائفاً: "هل يعرف عن والده؟ هل يعرف أنّني كنت مغرماً بوالدي؟ وأنّني كنت أعتبر والدي أفضل إنسان على وجه الأرض؟..".

قال أرتيوم، وهو يكزّ على أسنانه، دون أن يسمع إجابة: "لا يوجد أيّ طيبة. لا يوجد. فهمت، أيّها الكاهن؟ أنا فشلك".

واستدار مرّة أخرى.

واصل الكاهن الهمس بهدوء، دون أن يتحرّك من مكانه: "عزيزي، أنت تعرف كيف أشعر، سولوفكي هي الحوت الذي ذكر في العهد القديم، والذي استقر عليه المسيحيون. هذا الحوت يغوص تحت الماء. وينغلق الماء الأسود فوق رؤوسنا. ولكن طالما أنّ هناك رأساً واحداً على الأقل، يرتفع فوق الماء الأسود- هناك فرصة لإنقاذ الأجسام الفانية المتبقيّة، وعدم السماح بأن يهلك جميع المجتمعين هنا قبل الوقت المحدد. لا تدخل تحت الماء، يا عزيزي، ولا تغوص في الظلام، فهنا، دون ذلك، كلّ شيء مظلم".

كرّر أرتيوم: "اغرب"، وهو يشعر أنّه على وشك التقيؤ.

أشعل أرتيوم نوبة غضب في داخله، وهو يكزّ على أسنانه بكلّ قوّته: "... يتحدث للجميع عن الطيبة، لكلّ سجين هنا. فيما في كلّ واحد منهم- مخلوق شرير، يحلم أن يختبئ في معطفه المهترئ، وينتظر حتّى يموت الجميع حوله...".

وقف أرتيوم هكذا لدقيقة أخرى، ثمّ نظر حوله، وعندما لم يرى أحداً، وجد نفسه يفكّر في أنّه يود العثور على الكاهن في المكان نفسه- لماذا غادر؟ لم تكن أمّي لتغادر! حتّى لو طردتها مرّات عدّة! كانت أمي لتقف منتظرة، حتّى يناديها ابنها الغبي. الأم أطيب من الله - بغض النظر عن الشخص الذي أنت تقتله، فستنتظرك بيديها الدافئتين. وهذا، ذو اللحية، وعد بكلّ شيء - وربّما لن ينتظرك! يمكن أن ينساك!

... من كثرة الاهتياج الطويل- اصيب أرتيوم بالخمول فجأة.

جلس أوّلاً على مضجع فاسيلي بيتروفيتش، وبقي هناك لوهلة شبه فاقد للوعي.

ثمّ لم يكد يستجمع قواه، صعد متهالكاً إلى مكانه من جديد. قرّب الألواح بعضها من بعضٍ بشكل ما، وتكوّم حول نفسه قدر الإمكان، ضاغطاً ساقيه إلى بطنه، ولافّاً ذراعيه حول نفسه.

متألماً جسده كلّه من الجوع، شعر بدغدغة لا نهاية لها.

كانت رجلاه متجمّدة من البرد تماماً، ولم تنقذه جواربه الصوفية.

شعر أرتيوم وهو يغفو، أنّ ساقيه لم تعد حتّى ساقيه- كما لو أنّهما ساقا أفاناسييف- لقد تدفأ بهذه الجوارب... والآن أصابعه المتسخة الملتوية هناك.

نما أصغر إصبع من القبر، أزرق ومثير للاشمئزاز، حتّى أصبح إنساناً كاملاً، والآن شعر أرتيوم كلّه أنّ مثل هذا الإصبع الصغير، وكان وجهه - مثل ظفر طفل قطع عنه الدم.

...بعد ذلك ظهر له في الحلم شخص قتل برصاصة. استقرّت الرصاصة بين عظام صدره.

كان الرجل في تابوت.

كان من المستحيل معرفة هل هذا الإنسان أفاناسييف أم أرتيوم نفسه- كان الرجل يتحلّل.

... لقد تحوّل إلى تراب، وتحوّل التراب إلى غبار، وصدر صوت قصير داخل التابوت، لأوّل مرّة، وآخر مرّة، وإلى الأبد: خرجت رصاصة من عظمة، تحرّرت من العفن، وسقطت في قعر التابوت: توك!.

... الرصاصة التي سقطت، هي أكثر صوت مرعب في العالم!- قعقعت في عقل أرتيوم- هي الأكثر رعباً! أكثر رعباً في العالم، منذ أن خلقت البشرية ! مستحيل!.

نتيجة سقوط الرصاصة، جرت حركة هناك- وبدأ الصليب الصدري، الذي سقط في القفص الصدري، في التأرجح.

في ظلمة التابوت، يتأرجح المسيح المصلوب، المرسوم على صليب نحاسي، كما لو في أرجوحة.

عندما استيقظ أرتيوم، رأى، دون أيّ مفاجأة، عدداً من السجناء الجدد في الكنيسة- أتوا بدفعة من التعساء الجدد.

كان بينهم الأب زينوفي، الذي كان معه في المستشفى. كانت عيناه ملتهبتين، شغل مكاناً بعيداً عن الكاهن إيوان، وظلّ يعبث بأصابعه في غفّارته الجوخ الممزّقة كما لو أنّ وحوشاً مزقتها...

المشرّد - بدا مألوفاً له أيضاً، بغض النظر عن وسخه كلّه...

بدا وجه غراكوف الذي أصبح هزيلاً، كما لو كان معوجّاً. انزلق فمه الموجود على وجهه إلى مكان ما في الأسفل، وفقد مكانه.

لم يكن لدى أرتيوم القوّة ولا الرغبة في التحدّث مع أحد ما، فقد وجد نفسه في تناقض عقلي بسيط أحياناً: أراد أن يجلس مثل طائر، ويتطلّع إلى القاعة بعين واحدة، ممسكاً رأسه بشكل جانبي. يجب أن يكون أفاناسييف في مكان ما هنا: لماذا يجب ألّا يكون؟ إذا قمت بضبط وعيي ونظري بشكل صحيح، يمكن أن أراه. أم أسمعه على الأقل.

أغلق أرتيوم عينيه، واستمع إلى الأصوات: بالتأكيد ستصدر عن أفاناسييف ضحكة قريباً... أم بعض نكاته الشعرية، الممزوجة بالجرأة، أم حتّى بالوقاحة.

تذكّر أرتيوم، أنّه خرج ذات مرّة مع أفاناسييف من السريّة الثانية عشرة، كان ذلك في إحدى صباحات شهر تموز، الشفافة للغاية- "... انظر، أيّ كنيسة صغيرة تنتصب، كلّها مغطاة بندى الصباح - مثل فتاة ناعمة، اغتسلت للتو... "- قال هذا الأحمر المجنون. هزّ أرتيوم كتفه، ولم يجيب بشيء- وفكّر الآن فجأة، كم من الشباب والنقاء في هذه العبارة الغبية، التي لم تهن الكنيسة ولا الفتاة على الإطلاق. لكن صوت أفاناسييف لم يصدر. كان الجميع مكتئبين وهادئين.

كان يتكلّم فاسيلي بيتروفيتش فقط، بصوت مفهوم وإن لم يكن عال، ومرّة أخرى عن شيء حماسي، وشنيع في الواقع: أدرك أرتيوم أنّ فاسيلي بيتروفيتش لم يكن يتحدث على الإطلاق من باب الشفقة على أولئك الذين يقتلون ويعذبون هنا، ولكن ليثبت لنفسه أنّه لا يزال على قيد الحياة- وطالما أنّه يتكلّم تستمر حياته.

ولكن حتّى عندما كان يتحدّث فاسيلي بيتروفيتش كان في الوقت نفسه يصيغ السمع- وكان الباقون كلّهم تقريباً يصغون أيضاً، لأنّ أيّ صوت جديد يمكن أن يعني موت كلّ واحد منهم شخصياً.

قام شخص ما بقرع الملعقة عن طريق الخطأ، شعر أرتيوم كيف ارتجفت قلوب كلّ من سمعها- وبدا للجميع الشيء نفسه: أنّ الجرس جاء يقرع مرّة أخرى.

أكْتُشِفَ الجاني- شعر بالكثير من النظرات الغاضبة موجهة نحوه، وأخفى الملعقة على عجل في مكان ما في حضنه، إذ لا يمكن أن ترن على لحمٍ بشري خائف.

تجوّل الأب زينوفي في أرجاء الكنيسة، طالباً السكّر والملح والخبز. لم يرد أحد على زينوفي.

بدلاً من السكر، كان هناك خوف واضح هشٍ، مثل الرمل فقط. كان كلّ منهم يقضم خوفه، ويكسر أسنانه بلا صوت.

لم يقترب القس زينوفي من مضجع الأب إيوان، متحاشياً له، راسماً زاوية عن عمدٍ.

ظهر من مكان ما، شعور أنّ كلّ هذا كان قد حدث بالفعل: عاش أرتيوم حياة شبيهة في وقت ما، مع هذا الشعور بالقشعريرة واللامبالاة، ومع هذه الأصوات الهادئة والمملة لناس غرباء، مع هذه الأسقف، والمضاجع التي تتساقط عليها قطع الكلس من السقف- لكنّه نسي كيف انتهت القصة.

لو أنّه مات- فكيف هو من جديد هنا؟ إذا كان قد نجا، فلماذا يحتاج إلى دورة أخرى؟ إنّه ليس نورساً- يقضي صيفاً على جبل حارٍّ مليء بالشجيرات الكثيفة البرية، وصيفاً آخر- بين صخور سولوفكي، وهكذا بلا نهاية.

تمشّى غراكوف بالقرب من أرتيوم مرّات عدّة: كان على ما يبدو، يريد التحدّث معه. أغلق أرتيوم عينيه بسرعة، وتظاهر أنّه نائم، وغائب، ومفقود.

لم يلاحظ إذا ما كان فاسيلي بيتروفيتش وغراكوف قد سلّم بعضهما على بعض- ربّما أومأ بعضهما لبعض برأسيهما... لكنّهما لم يتحدثا.

قال الأب زينوفي لشخص ما، دون أن يحصل على شيء مالح أو حلوٍ- "إنّ الشياطين تحْبك الأرض بالشباك. عندما كنت في الطريق إلى هنا، رأيت طائراً في السماء: اسمه رسول الحزن".

تخيّل أرتيوم في البداية الطائر، ثمّ السماء، ثمّ الأشجار والعشب على الأرض.

فكّر أرتيوم أنّه يمكن أكل العشب. في البداية يجب ألّا يكون لذيذاً، لكن إذا مضغته، ومضغته، ومضغته مطولاً- فسيتشبّع باللعاب البشري، والدفء البشري، وسيصبح مثل الحساء تقريباً. إنّهم يصنعون الحساء مع القراص، ويأكلون الشبت والبصل- يجب أن يكون قد بقي نوع من العشب في تشرين الأوّل، لو يسمحون له بالخروج لتناوله فقط. حتّى الكلاب تأكل العشب، ثمّ تسعل بشكل مضحك. تمضغ الأبقار العشب، ثمّ تعطي الحليب - هذا يعني أنّ العشب شيء مفيد، ما دام يجري الحصول على الحليب منه.

ناقش أرتيوم هذه الأفكار بينه وبين نفسه باستمرار، بدت معقولة جداً، واستغرب كيف لم يخطر بباله مطلقاً أن يجرّب الأعشاب من قبل - لا سيّما في الصيف، عندما يكون هناك الكثير منها وهي خضراء.

حتّى إنّه نهض، وبدأ يحدّق من خلال الفجوات الموجودة في درع النافذة- ما إذا كان يستطيع رؤية العشب. يجب أن يطلب من خاسابيف أن يكلّفه بالمناوبة- وعندما يسمحون له بنقل حوض البراز في الصباح، يجب أن يملأ جيوبه كاملة بالأعشاب. وفي نهاية الأمر، إذا لم تكن لذيذة كما هو متوقّع، فيمكن سحقها وإضافتها إلى الحساء- بكلّ الأحوال لا يوجد شيء في الحساء.

كانت معدته متشنجة، لدرجة، كما لو إنّهم كانوا يعصرون قميصاً بأربع أيدٍ داخل أرتيوم - بدأ الشعور بالجوع من تحت تفاحة آدم، وانتهاء في أسفل البطن- ونتيجة للعصر أصبح الأمر أكثر إحكاماً، وأكثر إيلاماً، وأكثر إزعاجاً.

كان أرتيوم يغمض عينيه أحياناً، ويبدأ بالصلاة من أجل صحن من حساء الحليب الساخن. ثمّ من أجل قطعة خبز مع قطعة لحم مسلوق. ثمّ من أجل وعاء من الثمار- وبجانبه كوب من الكاكاو. كانت الصلوات مرهقة.

... بمجرّد أن رأى غراكوف أرتيوم جالساً، سارع إليه بعجلة غريبة.

لم يكن هناك مجال للتهرّب، نظر أرتيوم بصمت إلى غراكوف الذي يقف في الأسفل، ولم يعتبر أنّ هناك ضرورة للترحيب به- فقد مضى على وجودهما معاً في قاعة مغلقة ساعات عدّة، فأي معنى للترحيب به الآن.

كان الفتى المشرّد في الأسفل، يتحدّث إلى الكاهن إيوان بصوت باك، يشكو له:

"... لقد ضربوني بشدّة- لا يقرعون بها ناقوس الخطر عند الإنذار من اشتعال الحريق. ليست طفولة- لم يكن لدي طفولة بل جنازة ، يا عم...".

"... يكذب في كلّ شيء، هذا الحقير الصغير"- فكّر أرتيوم بلا عاطفة، شاعراً، إضافة إلى ذلك، أنّ هذا الفتى ليست المرّة الأولى التي يكرّر فيها هذه الكلمات.

تقدّم غراكوف خطوة، ووضع يديه على مضجع أرتيوم.

"هل أنت هنا منذ وقت طويل؟" - سأل بفمه الملتوي.

سأل أرتيوم بصمت، وهو يتطلّع في عيني غراكوف: "... كيف أتوا بك إلى هنا، أيّها المخبر؟".

لم يسمع غراكوف السؤال ، ولم يرد عليه.

قال أرتيوم على مضض، وبصوت متصدع: "لا أتذكّر... منذ بضعة أيام".

كان من الواضح أنّ غراكوف أراد أن يسأل: "كيف الحال هنا؟" - أم ربّما هكذا: " ألا يضربون هنا؟" - لكنّه خجل، ولم يستطع، وحرّك وجهه فقط، وكأنّما أراد أن يعيد فمه إلى مكانه.

"اصعد إلى هنا، وحدثني عن أخبار المدينة" - أشفق أرتيوم عليه. لم يكن هناك ما يفعله على أيّ حال، باستثناء الاستماع إلى الدغدغة المؤلمة في داخله، والحلم على الأقل بالعشب الأخضر اللحمي السميك.

بالإضافة إلى ذلك، بدأ الفتى المشرّد يهدس بكلام غير مفهوم في الأسفل - كان عقله غائماً من الجوع، وصرخ وبكى باشمئزاز، ويبدو أنّه عندما كان الكاهن يمسح بيده على رأسه، كان يبحث عن الطعام في هذه الأيدي.

صعد غراكوف إلى الأعلى بصعوبة، وبشكل أخرق، وكان هناك شعور بأنّ ساقيه كانتا لا تتجاوبان معه بالفعل، لأنّه بعد أن رفع نفسه على يديه، لم يستطع رمي ركبته بأيّ شكل من الأشكال وسقط على بطنه على المضجع - جرّه أرتيوم من سرواله الداخلي، مكشّراً من التأفف، وهو يفكّر أن يدفع هذا الجسم المترهل إلى الأسفل، مع الآسف إنّ المضجع ليس عالياً.

سأل غراكوف بعد أن تسلّق:"من أين لك هذه السترة؟. لقد أخذوا سترتي... والجو بارد. كيف تنامون هنا؟".

قال أرتيوم: " ننام جيداً - سترى... يعطون الملابس في بعض الأحيان، شيئاً فشيئاً هنا".

"هكذا؟"- أهتم غراكوف على الفور- "ربّما يمكن كتابة طلب هنا؟ لإعطائنا ثياباً؟ لأنّ الأمر لا يطاق. الخريف فظيع هذا العام، غير طبيعي".

قال أرتيوم، وهو يشعر، باستهزاء صريح وساخر: "...لماذا لا، أكْتب ". كان يود أن يرى من أين سيحصل غراكوف على الورقة والقلم الرصاص هنا، وكيف سيطرق الباب بعد ذلك، في انتظار جرسه.

بدا أنّ غراكوف قد خمّن ذلك: لقد حرّك فمه ذهاباً وإياباً، وأغلق الموضوع.

"لم يكن الأمر هكذا هنا من قبل"- قال غراكوف، وهو ينظر في أرجاء القاعة، إذ كان الناس يتجولون باستمرار بصمت مخيف، متجمدين من البرد، في نصف عتمة، ما يشبه بالأشباح.

خمّن أرتيوم "... على الغالب جاء إلى هنا، ووصف لاحقاً الحياة في زنزانة العقاب، ومعجزات التصحيح في الصحيفة"، لكنّه لم يقل أيّ شيء.

" كما أرى ، زُجّ جميع غير المرغوب فيهم هنا"- قال غراكوف بصوت منخفض، وهو يستدير نحو أرتيوم، وجهاً لوجه: تراجع أرتيوم من المفاجأة- كان فم غراكوف يخيف عن قرب، لدرجة أنّه بدا، يمكن أن يعض بغض النظر عن رغبات صاحبه- "... هناك، في الكرملين، سيتعين على نوغتيف، أن يتحمّل مسؤولية أيّ قمع حصل: هناك الكثير من الشهود، كيفما حاول إخفاء ذلك. أمّا هنا فيمكن انتهاك القانون بالكامل".

فكّر أرتيوم بسخرية: "... كيف بدأت تتحدث الآن...".

"... أم إنّه جرى إرساله إلى هنا في مهمّة سريّة لمعرفة مزاج المعاقبين في الزنزانة؟"- لقد فكّر لبعض الوقت، ولكن دون أدنى تخوّف أيضاً: كان من الصعب بعد الجرس، أن يخاف من غراكوف.

اقترح أرتيوم: "أكتب مقالاً آخر، حول ذلك".

لم يعبّر غراكوف عن دهشته ولا استيائه، نظر إلى السجناء، وهم يسيرون في دائرة، وكان يرمش من وقت لآخر، كما لو كانت دموع غير مرئية، وغير مؤلمة، ثقيلة على رموشه.

قال غراكوف بعد دقيقة: "خدم نوغتيف على طراد "أفرورا": التي انطلقت الثورة منه".

فرك أرتيوم أصابعه التي لم يعد يشعر بها من فوق الجوارب الصوفية، والتي لا تريد أن تصبح دافئة.

أضاف غراكوف بعد دقيقة أخرى: "انطلقت منه - وهنا يمكن أن تنتهي معه".

في أوقات أخرى، لم يكن ليخطر على بال أرتيوم أبداً، أن يصمت عندما يخاطبه شخص ما - ولكن كان ذلك سهلاً عليه الآن: لم يهتم بما سيفكّر غراكوف، وكيف يشعر عندما لا يتجاوبون مع حديثه.

فاركاً ركبتيه الآن، فكّر ببطء وبرودة: "... ربّما أقول لغراكوف... بسببه أنا الآن في زنزنة العقاب؟.. أشكره بطريقة ما... أم أحذره من أنّه إذا بدأ جرس الزنزانة يرن، يجب عليه أن يتحول إلى دخان على الفور، إلى جير، إلى هذيان، إلى قذارة تحت الأقدام، وأن يفقد العمر، والرتبة، والاسم، والمظهر، وينقسم إلى أجزاء ولا يتحرّك، حتّى لو كان هناك تيار قوي... أم أخبره، أنّهم قتلوا أفاناسييف - لقد كان غراكوف يعرف أفاناسييف، دعه يتفاجأ، أنّ أفاناسييف لم يعد على قيد الحياة، إنّه ميّت... شيء ممتع أن تفاجئ الناس... أم أسأل غراكوف لماذا هو نفسه هنا؟ هل هو أخطأ، أفشل العمل، عوقب مع الجميع؟..".

لم يقل أرتيوم أيّاً من هذا، كان ببساطة يأسف أن يطلق مثل هذه الكلمات الدافئة والحميمية في الهواء البارد. كانوا منذ برهة مستلقين في داخله - لكنّه قال الكلمات - وذابوا.

كان هذا الشعور غريباً، لكنّه لم يكن مؤلماً - بجانبه غراكوف، وتحته فاسيلي بيتروفيتش - الأشخاص الذين ربط القدر أرتيوم بهم، لا لزوم لهم في حياته تماماً،

وغريبون عنه - ولكن بسببهم تحديداً، يمكن أن ينتهي وجوده على الأرض. الآن يشعر رجل الأمن المبتسم بالملل في غرفته، وينتهي من شرب الشاي بجرعة كبيرة، ويتأوه، وهو يقف، وينظر حوله في الوقت نفسه: أين جرسي، لماذا صمت؟ - ها هو جرسي، لا يزال في نفس المكان، لا يتحرّك، يمكن رفعه، ورنّه. حاولوا الإمساك به من لسانه، فلديه لسان لاذع، إذا ما حاولتم إمساكه- سوف يظل يرن حتّى يخترق الدماغ بالكامل- ثمّ يصفق على الطاولة- ويمكن التقاط الروح البشرية بقبّة الجرس مثل الذبابة - هل تطنين في الداخل صاحبة الأرجل المليئة بالوبر؟ هل أنت خائفة؟ أنت خائفة، لكنّنا نحن فرحين، نحن نستمتع.

أحضروا بحلول المساء الماء المغلي والحساء، بدأ الأشباح في التململ، فتحوا أفواههم، وارتجفت أنوفهم - استنشق الجميع الروائح الجديدة، محاولين أن يعرفوا، إذا ما كان هناك جزر في الحساء، وحتّى لو كان لا يمكن العثور عليه في الحساء نفسه، ربّما على الأقل ذاب هناك، أم إذا لم يكن قد ذاب، فيمكن الافتراض بتواضع أنّه جرى غسله على الأقل في هذا الماء. أم لنقل، هل يتحقق الأمل بوجود ملفوف- أبيض، مقرمش، مضحك- ربّما سنعسر فجأة هناك على قشوره المغلية أكثر من اللازم...

نسي الكاهن إيوان الفتى المشرّد، الذي بدأ يصرخ:

" آم- آم ! حساء! آم- آم ! حساء!".

لاحظ أرتيوم يديه- صغيرة وحمراء، مثل خف الحمام. لم يكن هناك في كلتا كفيه الإصبعان الصغيرتان.

حاول المشرّد أن يحصل على الطعام دون أن يقف في الدور، وكان يسأل كلّ قصعة تمر من جانبه:

"إلى أين، وأنا؟ إلى أين، وأنا؟".

يبدو أنّه كان يتحدث إلى القصعات، دون أن يلاحظ أنّ هناك ناساً يحملونها - فقد تراءى له أنّ الحساء نفسه كان يطير ذهاباً وإياباً.

لقد نطق: "إلى أين" - " إلى آيان"، ماطّاً جميع أحرف العلّة.

تذكّر أرتيوم ، في الوقت غير المناسب، كيف لعب شافيربيكوف ذات مرّة مع نورس- ربط قطعة من اللحم بخيط قوي وألقى بها. ابتلع النورس الهدية على الفور، ولكن عند الإقلاع مسك شافيربيكوف بالخيط، وسحب قطعة اللحم بسهولة. وقع النورس في حيرة.

عاد من أجل اللحمة مرّة، ومرّتين، وثلاث مرّات، لكنّه خمّن في النهاية أنّها خسّة بشرية، وبعد أن تقاسم الاستياء مع قبيلته، عاد مع اثني عشر نورساً آخر، كادوا ينقرون عيني شافيربيكوف، وثقبوا رأسه حتّى نزف.

أضحك كلّ ذلك الجاني- بدا كأنّه يرى أشباهه، واستمر في الضحك، وهو يمسح الدم عن رأسه. لقد أكل هو نفسه اللحمة التي وقعت في معدة النورس ثلاث مرّات، فك الخيط فقط، وهذا كلّ شيء.

سقطت كلمة "إلى آيان" من فم المشرّد، مثل قطعة اللحم هذه من النورس، كانت تفوح من هذه الكلمة، رائحة الاستياء، وتعجب غبي، وعصارة المعدة الحامضة.

قرّر أرتيوم اليوم أن يفعل العكس- أن يشرب الماء المغلي أوّلاً، لأنّه كان يبرد بسرعة، ثمّ بعد ذلك يرتشف ببطء الحساء ويتذوقه.

لم يدخل الماء المغلي إلى حلق أرتيوم ولا إلى صدره، ولكن لسبب ما، إلى رأسه، إلى دماغه، إلى مؤخرة رأسه، شعر لفترة قصيرة، ولكن إلى حدّ الثمالة تقريباً، أنّ بخار حمّام يسيل عليه. اتضح أنّه من المستحيل تلذذ الحساء: لقد انتهى على الفور، وبغض النظر عن المدّة التي مرّر فيها إصبعه بالقصعة- لم يكن عليها شيء عندما كان يلعقها: إصبع مثل الإصبع، ولو عضّها.

عندما أعاد القصعة، رأى أرتيوم أنّ الكاهن، انتظر حتّى أكل المشرّد طعامه، فأعطاه حصته أيضاً- أمسك بها المشرّد بكفيه الحامية، دون أن يشكره، كما لو أنّ القصعة طارت من السماء.

كان كلّ ذلك، غير سار وغريباً على أرتيوم. هو لم يحترم الكاهن، ولم يشفق على المشرّد.

صعد أرتيوم إلى الأعلى ليتدفأ ولو قليلاً من الحساء والماء المغلي، الذي لم يبرد في داخل جسمه بعد، وتذكّر بوضوح المكان الذي رأى فيه المشرّد: في سقيفة كاتدرائية التجلّي، إذ كان في أحد المرّات مع غالا...

بعد أن أكل الفتى قصعتين من الحساء، بدأ في البكاء مرّة أخرى:

" آم-آم، حساء! حساء، آم!".

لم يقدموا الحساء له، وبعد دقيقة نام على مضجع الأب إيوان.

صدر صوت فاسيلي بتروفيتش في الأسفل: " لم يلحق أن يكبر، وعاد زاحفاً إلى طفولته ".

فكّر أرتيوم بكسل وبرود، وهو يمسح بيديه خدّي القديس الذي كشط عنه الجير على الحائط: "... لقد زحف إلى طفولته... ونحن إلى أين؟ في أيّ اتجاه؟ الطفولة بعيدة... والشيخوخة بعيدة...".

"لكن الموت قريب دائماً"

- نقرت الفكرة رأسه، مثل النورس، ونسي أرتيوم على الفور متى ظهرت، إمّا قبل لحظة من قرع الجرس، وإمّا بعد لحظة من قرعه- لأنّه لم يكن يهمّه ذلك.

اختفى الشعور بالجوع، ودفء الحساء الذي يذوب، وذكرى وجه أمه، والإحساس بتصلّب لزج بأصابعه التي في الجوارب، وغام وجه القديس على الحائط، واختفت أصوات السجناء، لا سيّما أنّهم اختفوا حقاً- الكاهن إيوان وحده كان يصلّي... لا، كان الأب زينوفي يصلّي أيضاً- وهذه هي المرّة الأولى التي كانوا فيها معاً، ويبدو أنّه حتّى صلواتهما كانت متطابقة كلمة بكلمة، صفوها مثل مكعب على مكعب - لكنّ الجرس كان أقوى، لقد كان مثل أحمق بالغ، يلعب لعبة طفولية- يدخل ويدفع المكعبات بجزمته، وكلّها تطير وتتدحرج على

الأرضية الحجرية: أحمر، وبرتقالي، وأصفر، وأخضر، وسماوي، وأزرق، وبنفسجي - كلّ صياد يريد أن يعرف أين يجلس... من ؟ من؟.

... عن أيّ طائر درّاج يبحث هذا الصياد؟.

"في..."

- بدأ رجل الأمن.

دون أن ينظر إلى أسفل، شعر أرتيوم برأس فاسيلي بيتروفيتش يرتجف بشكل أكثر عنفاً، كما لو كان لديه ثمرة عضّ عليها بأسنانه، وهناك أيدٍ غريبة جليدية ذات قوّة وحشية تهزّه، محاولة أن تخرج هذا الثمرة الدافئة من فمه ليدوسها بجزمته.

"فير... اللعنة، غير مقروء..."

- اشتكى عنصر الأمن - "أيّ واحد منكم يبدأ اسمه بفير - موجود؟.." - ثمّ التفت مرّة أخرى إلى الورقة – "فيرشي... لين؟".

" أعتقد، أنا!" - هتف فاسيلي بيتر فجأة بصوت لم يكن صوته.

سقطت الثمرة.

قال فاسيلي بيتروفيتش بصوت عال، وهو يخرج: " أيّها القديس الرب القدير، استقبل روحي بسلام: أرسل إليّ الملاك المسالم من مجدك المقدس، يقودني إلى الإله ذي الثلاثة أقطاب، حتّى لا يوقفني رأس الظلام بقواته في الطريق".

وقف شعر رأسه الخفيف، في كلّ الاتجاهات بطريقة مرعبة: لقد استقام على طوله.

... رَنّ الجرس وراء الباب.

رَنّ الجرس لفترة طويلة، أطول من المعتاد، لم يستطع أحد ما تحمّله، وعوا - في البداية بصوت منخفض، ثمّ أعلى وأكثر رعباً.

هرع سجين آخر إلى الباب، وطلب وهو يضرب جبينه وركبتيه وكل يديه به :

" أوقفوا ذلك! أوقفوا ذلك! أوقفوا!".

قفز غراكوف من مكانه وركض في الكنيسة باتجاهات مختلفة، إمّا محاولاً فهم ما يجري، وإمّا على أمل العثور على فجوة لم يلاحظها أحد، ويدخل فيها مع رأسه. انزلق فمه إلى مكان ما، إلى رقبته تقريباً.

استيقظ المشرّد وبكى:

"الحساء! آم ! آم !".

نهض الأب زينوفي واقفاً، ولوّح بيده الرقيقة:

" هيرودس! اللعنة عليك وعلى أطفالك إلى الأبد!".

صدر صوت إطلاق رصاصة- بعيد، وصغير، ومضحك- مقارنةً بالشخص الكامل المقصود.

انقلب أرتيوم على جانبه، وجمع نفسه في كرة، وصمت.

اشتكى بهمس: "... أطعموه ثمّ قتلوه لاحقاً. كان من الأفضل لو أعطوني حساءه".

كانت المضاجع تحته فارغة، وانتشر هذا الفراغ مثل الضباب أم الغاز حوله.

كانت رائحة الفراغ محسوسة ونفاذة.

بدا لأرتيوم أنّ السجناء كانوا يحاولون عدم التنفس حتّى لا يتسمموا.

لم يترك فاسيلي بيتروفيتش السجناء ينتظرون طويلاً. لقد عاد بسرعة، بعد أقل من نصف ساعة.

قال لأرتيوم بصوت عالٍ إلى حدٍّ ما: "لقد ضيفتك ثماراً".

كان يجلس في مكان قريب.

أغلق أرتيوم عينيه، وحاول عدم تحريك ذراعه أو ساقه، حتّى لا يصيب فاسيلي بيتروفيتش بالمصادفة، والأهم من ذلك- ألا يقلب سلّته.

كانت السلّة ممتلئة بالفعل.

كانت الديدان في السلّة من جميع الألوان: بيضاء، وسماوية، وصفراء، وخضراء، وبنفسجية، بعضها صغير جداً، رشيقة ومتسرعة، وبعضها كبر وأتخم، وأصبح بطيئاً.

تبيّن أنّه من الممكن النوم في كومة وسط العديد من الأجسام الأخرى، والشعور بالوحدة.

أصبح القمل أكثر فأكثر، وكانوا أكثر غضباً نتيجة البرد.

أين غالا هذه، التي لم تكن موجودة ولم تكن قطّ. أين هي؟. غالا هذه، أين؟.

"يمكنني تدميرها!"- قال أرتيوم للقديس الذي في اللوحة التي قشط عنها على الجدار، لقد أطلق عليه لقب "الأمير"- "يمكنني تدميرها، يا أمير! أنا الآن... وماذا أفعل أنا الآن؟ هل أطرق الباب؟ خا!".

من الممكن أن ألعب كما كنت ألعب في طفولتي- عندما كانا يطرقان الباب هو وشقيقه، وعندما يسمعان خطوات والدتهما كانا يختبئان بسرعة- تحت السرير أم في الخزانة. وكانت والدتي تتظاهر بالدهشة: "من الذي يطرق؟". وكانا يختنقان من الضحك، ويضبطان أنفسهما حتّى لا يعطسا.

أقوم بطرق الباب،أسمع الجرس، ويختبئ الجميع. سيدخل عنصر الأمن المبتسم ويتفاجأ: " أين الجميع؟ من طرق الباب؟". ولنقل إنّ غراكوف لم يستطيع ضبط نفسه فجأة، ويبدأ بالضحك تحت المضجع... أليست هذه لعبة؟.

... جلس أرتيوم في الصباح، في الأعلى، وشعر أنّه كيس من العظام جرى استبداله بكيس من العجين- وكانوا يعجنون، ويعجنون، ويعجنون هذه العظام- طوال الليل.

خلع سترته لينفض القمل منها، لكنّه سرعان ما تجمّد من البرد- بقيت الحرارة على حالها في الخارج، على ما يبدو، حوالي خمس درجات، حسناً، ربّما

سبع درجات- لا أحد كان يعرف كم هي- وفي الليل انخفضت إلى درجتين أم ثلاث درجات، ولم يحضروا ملابس أخرى، وكان الماء المغلي قد أصبح دافئاً اليوم، ولم يكن الحساء أكثر كثافة من الماء المغلي، وأعطى الكاهن إيوان قصعته من جديد للفتى ذي اليدين التي تشبه خفّ الحمام، والذي ظل يردد "آيان، آيان؟" ومن وقت لآخر- "ليست حياة، بل جنازة، يا عم".

حاول أرتيوم ارتداء السترة بقدميه، لكن تجمّد ظهره على الفور.

أصبح ممكن فجأة، من خلال الشق في النافذة، تمييزالبحيرة البعيدة والضباب فوقها.

كان هناك شخص ما يسير في الشارع باتجاه الكنيسة- رأى أرتيوم كتفه، وقبعته، وسترته الجلدية.

نكص واستمع بانتباه: هل أصيب بالصمم ؟ هل فاتك الجرس؟.

لا، كان هناك هدوء- وفتحوا الباب بهدوء، ولم يدخل منه سوى شخص واحد- نفس عنصر الأمن، مخموراً، وبابتسامة مبللة ومرتخية، وبدت كأنّها انزلقت كالسراويل من مؤخرة وقحة.

وقف عند المدخل، ممسكاً بإحدى يديه جرساً صامتاً، ومسكه باليد الأخرى من لسانه، حتّى لا يرن.

كان عنصر الأمن يبحث عن شخص ما، ولم يتمكن من العثور عليه في شبه الظلام بين القرود المنحنية والمطحونة، والمكسورة بسبب خوفها.

"جاءت ديدان القبور- تبحث عن شخص تأكله "- انطلق صوت زينوفي المنخفض والمستعطف، خالياً من أدنى رعشة.

تمطّق عنصر الأمن، كما لو كان يستعيد ابتسامة وهي تسقط، وأجاب بكلمات مبتسمة ورطبة مثل شفتيه:

"الحصاد وفير، والعمال قليلون... هل تفكّر في التبرؤ، يا زينوفي؟".

يبدو أنّه كان يواصل حديث سابق.

أجاب زينوفي باقتضاب: "من المسيح الدجال".

لم يفهم أرتيوم في اللحظة الأولى، ما قاله - لكنّه خمّن بسرعة. قال زينوفي إنّ الشيطان هو من يقترح عليه أن يتبرأ.

تمايل عنصر الأمن، وتمايلت الابتسامة على وجهه، مثل سمكة ميّتة في حوض مليء بالمياه النتنة.

"وإذا ما تركت لسانه؟" - سأل عنصر الأمن، وهو يرفع الجرس في يده اليمنى، ويبعد يده اليسرى ببطء.

مال الخيط المعلّقة فيه دمعة رصاصية، ولم يصل إلى الجدار الداخلي للجرس، مسافة لا تزيد عن سماكة رمشٍ.

كان كلّ واحد يتأرجح على هذا الخيط، كما لو كان على أرجوحة، يجري دفع منها بعنف ليس إلى وسط خميلة من نبات القريص، كما في الطفولة، وإنّما إلى حفرة صمّاء مليئة بالدود.

نظر عنصر الأمن حوله في الكنيسة، وكان يلعق شفتيه أحياناً بلسان بطيء وغير مطواع.

كانت عيون ما يقرب ست وثلاثين روحاً حيّةً معلّقة بالجرس، تستمع ولا تتنفّس- ربّما فجأة لا تكفي تيارات الزنزانة سوى لنفس بشري واحد، لدفع اللسان الرنان، وتلقي جواب - أهدأ رنّة موت.

أراد كلّ واحد منهم أن يوقف قلبه، حتّى لا تهزّ حركته الكون فجأة، ويسقط جراء ذلك على جانبه، ويغطي شخصاً ما وقع تحته بتراب رطبٍ.

جرى إحضار برميل حساء، وأرغفة عدّة من الخبز إلى الكنيسة.

تحرّك شيء ما في الهواء واعداً باستمرار الحياة.

وضع عنصر الأمن الجرس في جيبه، وخرج وهو يتمايل.

تنفّس الجميع الصعداء، وكان الانتعاش صادقاً لدرجة، كما لو أنّه لم يستطع العودة فوراً بعد شرب الماء المغلي، وإنّما سافر بعيداً، لدرجة أنّه يمكن أن ينسى الطريق فيما لو فكّر أن يعود.

سأل أحدهم بصوت عالٍ: "الأب زينوفي، هل من الممكن أن نكون الآن في جهنّم بالفعل؟".

"هم الذين في جهنّم، ونحن ننظر إليهم من جانب" - لوّح الأب زينوفي بيده باتجاه الباب، كان من الواضح من هو المقصود، وكالعادة، وقف على رأس الدور.

المثير للدهشة، أنّ كلاً من سلوك الكاهن إيوان الذي رفض تناول الطعام من حين لآخر، ولم يقف في الدور من أجله قطّ، وسلوك الأب زينوفي الذي كان ينهي قصعته فوراً ويعود لعادته، يتجوّل مع كوب فارغ يطلب أن يصبوا ولو نقطة للرجل العجوز - بدا سلوك الاثنين في الجوهر صحيحاً ويتناسب مع كهنوتهم.

كانوا في بعض الأحيان يسقطون لزينوفي بعض القطرات، والبعض الآخر يصب له ملعقة كاملة، وإذا ما صاحوا عليه فعلى الغالب للتظاهر - أصبح الموقف تجاهه، كما لاحظ أرتيوم، أكثر احتراماً وجدية ممّا كان عليه في المستشفى، وتعزّز هذا الاحترام أكثر فأكثر.

"... إنّهم... يأملون سرّاً... أنّه يستطيع إنقاذهم" - هذا ما فكّر به أرتيوم بسخرية تعبة، وكسل لم يعد يتركه.

بعد تناول أرتيوم طعامه، استلقى سريعاً وغفي ملتفاً حول نفسه، وواضعاً كفيه بين ساقيه على أمل واهٍ في تدفئة يديه على الأقل، واللتين لم يدفئهما كوب الماء المغلي.

رأى أرتيوم أنّ زينوفي لم يكن مثيراً للشفقة على الإطلاق كما كان يعتقد سابقاً، على الرغم من أنّ سلوكه ينمّ عن حماقة متعمدة. ومع ذلك، كان واضحاً للعيان أنّ خلف الحماقة، قوّة روحية غير عادية وشجاعة بشرية خارقة، واضحة للعيان.

بكلّ الأحوال، لم يكن ذلك يهم أرتيوم نهائياً- فالذي فقد قوته، لا يستطيع تقييم إرادة غيره. حملته مياه قذرة مليئة بالزواحف على مضجعه الخشبي، ولاحظ من خلال حمّى خفيفة، إمّا شجرة غريبة على الشاطئ، وإمّا نجماً منتشراً مثل بقعة على الماء، وإمّا علق طويل يسعى نحو رائحة جسم تحت الماء.

ها هو غراكوف قد مرّ، مدفوعاً بتيار هواء، كان فمه الملتوي يبحث عن طعم، ولم تتعرّف عيناه على أيّ شيء: يبدو أنّ حادثة الجرس أصمّته حتّى فقدان الوعي.

لو أنّ أرتيوم أنحنى ونظر نحو الأسفل في الماء، كان بإمكانه أن يرى فاسيلي بيتروفيتش أم أفاناسييف في القاع- كلاهما بعيون مفتوحة، الأوّل صامت، والثاني يبتسم، لكن من الأفضل عدم النظر إليهما طويلاً.

لم يعد أرتيوم ينام الآن، ولا هو في حالة استيقاظ، لكنّه كان دائماً في ما بين بين. لم يتجمّد جلده كلّه فقط، بل أعضاؤه الداخلية أيضاً- لقد شعر بمدى البرودة والفراغ في بطنه، في أسفل بطنه، وفي صدره، وبدا دماغه مثل اللحم المذاب بعد تجميده- من ناحية نيئ وأحمر، ومن ناحية أخرى- صلب وفي صقيع أبيض. الفكرة التي تبدأ أحياناً رصينة، كما لو أنّها تزحف على طول تلافيفها في منطقة جليدية، وهناك تعلق، وتصبح غبية، وتبدأ بالتفكك.

رأى فجأة، أمام عينيه نصّ رسالة أمر، التي كانت غالينا تطبعها على آلة كاتبة:

"... أطلب... نقل... أرتيوم غوريناينوف... إلى تكوين... الفرقة الموسيقية النحاسية..."- غرق الحرف "ف"، وتبيّن أنّ الحرف غير واضح، ولا يكاد يلحظ، وفي كلمة الفرقة، خلطت جميع الأحرف الساكنة بعضها مع بعضٍ، ونتج عن ذلك كلمة أخرى، تشبه الموسيقا المزعجة، آلات النفخ على اليسار، والكمنجات على اليمين، وقائد الأوركسترا في حالة يأس- "إلى مكان... السجين أفاناسييف... بسبب مغادرته إلى جزيرة... الثعالب... ".

حاول أرتيوم الصراخ: " هو ليس في جزيرة الثعالب، يا غالا!. لا أريد أن آخذ مكانه!".

لم تستدر غالا وواصلت الطباعة بأصابع ثابتة وواثقة، وأحياناً تضرب على الحرف ليس ببطن إصبعها، وإنّما بظفرها، وبعد صهينة، تقّرب أصبعها من فمها بسرعة، إمّا أنّها كانت تسخّن البقعة المؤلمة بالنفخ عليها، وإمّا أنها كانت تقوّم اعوجاج طرف ظفرها بأسنانها.

شعر أرتيوم أنّ هذا لم يكن حقيقة- ولم يكد يستطيع أن يرى من مضجعه ما كانت غالا تطبعه هناك، لكنّه لم يكن في عجلة من أمره لمغادرة مكتبها، إذ لم تعد هناك غالا. سارع إلى الأسفل وهو يهبط على الدرج، محاولاً ألّا يراه غورشكوف أم تكاتشوك، كانا يحملان تابوتاً ويسيرون نحوه، إمّا أنّه فارغٌ، وإمّا مشغولٌ بالفعل من قبل شخص ما، تنحّى أرتيوم جانباً، وجلس، وزحف بين السيقان، ووجد نفسه في الشارع، وعبر الغابة، بالقرب من منشأة استخلاص اليود، وعبر جزيرة الثعالب التي كان لا بدّ من الإبحار إليها، وانتهى به المطاف في جبل سيكيرنايا، كانت منارة تومض في الأعلى- كان من الضروري صعود الدرج إلى الكنيسة، وأسرع، هو يلهث مئة مرّة، وتسلّق، وسحب نفسه إلى الأعلى- تظهر له مع كلّ خطوة، إذا ما استدار، مناظر غير عادية أكثر فأكثر، لكن لم يكن مهتمّاً بذلك- وقفت غالا في الأعلى، وكانت تتحدث بهدوء مع عنصر الأمن المبتسم، الذي كان غير مخمور، وغالباً ما كان يومئ برأسه، ويحاول المناورة بشكل أخرق ليضع كلمة مخادعة بين نبرتها الآمرة: "...لا، أنا أفهم كلّ شيء... لدي عملي أيضاً... نحن مجبرون لاتخاذ إجراءات... ". "إنّه رجل طبيعي"- فكّر أرتيوم بصدق، وهو يمسح عرقه- "يمكن فهمه". "... ها هو، غوريايونوف..."- أومأ عنصر الأمن برأسه. وقف في مواجهة أرتيوم الذي كان لا يزال يصعد الدرج، نظرت غالينا للوراء، كان هناك ما يشبه الخرّاج على وجهها، لم يكن لطيفاً كثيراً، حاول أرتيوم ألّا ينظر إليه- "انتظر على مضجعك الآن..."- قالت غالا التي لم تكن سعيدة أيضاً بظهور أرتيوم غير المتوقّع- سارع لتنفيذ أمرها، وهو

يعرج قليلاً من التعب، وركض إلى الكنيسة، وهنا قام عنصر الأمن المبتسم كما لو كان يمزح، بدفع غالا - سقطت تدحرجت على الدرج قليلاً من أعلى الجبل - توقع عنصر الأمن أنّها ستتدحرج على ثلاث أم أربع درجات، وتقدّر مزحه الودود، لكنّ غالا تدحرجت على رأسها بشكل أخرق، وبدأت بشكل غير متوقع تسقط بسرعة في الجحيم، وهي تحرّك ساقيها بشكل بشع، كلّها إحراج، وقبح وسخافة- عند المنعطف التالي وفوق رأسه، رأى أرتيوم فجأة أنّها لم تعد غالا، وإنّما أمّه - مع فطائر، أم شيء آخر - وجهها ملطخ بمربى الفواكه، شيء معيب...

لكن لم يكن هناك وقت لمواصلة النظر، كان يجب الإسراع إلى المضجع- عاد، وتسلّق، وفتح عينيه، وفكّر بانفعال لدقيقة أخرى: " إنّها لن تعود لأنّها سقطت من على الدرج؟ ومع ذلك، كانت هذه غالا، وليست أمّي، لقد رأيت غالا بالتأكيد...أمّا فيما يخص المربى فقد تهيأ لي- لم يعد هناك أيّ مربى - ترى مثل هذه التخيّلات السخيفة في الأحلام...".

بقي أرتيوم لفترة طويلة، قبل أن يفترق مع تخيلاته، كما لو كان يساوم شخصاً ما، ويبادل أجزاء من ذكرياته الواضحة والدقيقة، مع عقل سليم. حسناً، لم يذهب إلى الدير، لكنّه قرأ نص الأمر... لكن كيف قرأه، وأين؟.. لم يصعد الدرج بالطبع، لكنّه سمع الحديث الذي دار بين عنصر الأمن وغالا ؟ كان هناك بالتأكيد حديث! آه؟ - شعر أرتيوم بمدى اقتراب سقوط دموعه، وعضّ يده حتّى لا يصرخ: "اللعنة! كان هناك حديث! كانا يتحدثان!".

كان الأب زينوفي يشرح: " الشياطين ثرثارة، والله صامت. الشياطين تكرّر في الأذنين والله يبيّن. البلاشفة نشيطون، شرسون، لا يصمتون- هل لاحظتم ذلك؟".

كان زينوفي يظهر هنا وهناك، وكان الجميع يحاول التقرّب منه، وركع كثيرون على ركبهم طالبين بركاته. بدأوا يرسمون علامة الصليب في الكنيسة بكثرة، وهم يحركون أيديهم بشكل واسع، كما لو أنّ هناك سحابة ذباب في

حظيرة أبقار، وكان الجميع يلوّحون. كان أرتيوم يلوي شفتيه، وهو يرى هذه الحركات الغبية.

"كلماتهم مهلكة، سماعها- يعيب أذنيك وتوسّخ عقلك! اهربوا من كلماتهم!"- تحدّث الأب زينوفي في مكان آخر، وهو ينطق العديد من أحرف العلّة كما لو كانت في شكل مزدوج- " يعيب أذ- نيك"، "اه- ر- ب-و-ا من كلماتهم!"- ممّا جعل ما قاله أكثر وضوحاً ولازعاً.

كانوا يسألونه: " ما العمل يا أبانا؟".

" تهمس الشياطين في أذانكم الآن أنّ الخلاص ممكن إذا أشفق عليك عنصر الأمن، وإذا أعجبته، وغنيت معه، ووقفت في رتل الدبكة البلشفية، ودبكت في دائرتهم، حول رجلهم الميت الرئيس ذي الرائحة الكريهة، هذا إذا سمحوا، بتقبيل الميّت على شفتيه، كدليل على خيانتك التي ارتكبتها. وأنتم لا تستمعوا إلى الشيطان"- ورسم الأب زينوفي علامة الصليب، كما رأى أرتيوم من فوق، السجناء، الذين مالوا آذانهم نحوه بطريقة مضحكة، كما لو كان الجميع جالسين على كرسي الحلاق، وطلبوا أن يحلق لهم أصداغهم- "لا تدعوه يخدعكم، تذكّروا أنّ كلمة الرب فقط هي التي تجلب لنا الخلاص، ومن الأفضل الموت مرّة واحدة، والدخول إلى مملكة الجنّة، من أن تتبع الشياطين التي تقودك إلى نار الجحيم الأبدية، وتموت بلا انقطاع ".

سألوا مرّة أخرى:" وماذا عن ملكوت السموات- ونحن كلّنا خطاة هنا؟".

كان غراكوف يتجوّل باستمرار حول الأب زينوفي والسجناء الواقفين بجانبه، أحمق تماماً، غير مدرك لنفسه ولا لما يحدث، وهو متأكد من شيء واحد فقط: إذا كان هناك أشخاص عدّة يقف بعضهم جنب بعضٍ، فقد يكون الجو دافئاً أم قد يكون هناك طعام.

"لم يأت المسيح ليخلّص الأبرار بل الخطاة. إنّ كنيسة المسيح تتكّون بالكامل من خطاة "- أوضح الكاهن إيوان بدوره: تبيّن أنّه وزينوفي كانا يقفان

جنباً إلى جنب، ظهراً لظهر، وكان يتجمّع المزيد والمزيد من الأشخاص التعساء حول أيديهما الدافئة وأصواتهما.

" ألن نهلك نحن، أيّها الآبوان؟"- صرخ أحدهم فوق الرؤوس، مخاطباً الكاهنين كليهما مباشرة.

أجاب الأب زينوفي: "أنتم - نور العالم. لا يمكن للمدينة التي تقف على قمّة الجبل أن تختبئ. إنّ من يشعل الشمعة، لا يضعها تحت الوعاء، بل على شمعدان، وتضيء على الجميع. نحن معكم على قمّة جبل سيكرنايا، وسوف يكون نورنا مرئياً من الطرف الآخر للأرض".

طلب الصوت نفسه:"لا تتشاجروا بعضكم مع بعضٍ، أباوينا! لا أحد غيركما سيسلّط الضوء على نزاعنا...".

"قال الرسول، يجب أن تكون هناك خلافات في الرأي بيننا"- أجاب زينوفي بصرامة، لكنّ الجواب نفسه كان علامة على أنّه لم يعد هناك مكان للشجار بينه وبين الكاهن إيوان، ولم يتبق وقت لاستمراره.

أصبحت الدغدغة داخل أرتيوم، أكثر فظاعة وإزعاجاً: كان جسده كلّه يقهقه.

هذا الدغدغة - كانت مثل حزمة أجراس تحت الجلد، لن يغادره الرنين بعد الآن.

شعر أرتيوم أنّه ممتلئ بالسمك الميت، الرنان، والعاري، الذي يتدحرج جيئة وذهاباً، كما لو كان في قاع زورق طويل. كان في داخله ضجيج وتململ مثير للاشمئزاز.

أفلت منه صوت الرنين، وبدأت القاعة بأكملها ترن.

سمع الباقون الرنين أيضاً - كان هستيرياً ومتواصلاً ومكث خارج الكنيسة، ملفوفاً بخيوط فضيّة، مثل شبكة عنكبوت.

" يا رب، يا رب، يا رب!" - دعا السجناء واحد بعد الآخر.

وقف رجل عجوز بلحية رمادية ليس بعيداً عن مضجع أرتيوم، وبدأ، وهو يرسم إشارة الصليب دون انقطاع، ينحني للقديس الذي كشط عنه الجير أرتيوم، وأطلق عليه اسم الأمير.

أصبحت الكنيسة، الملتفّة بالرنين، مثل كرة فضية - ادفعها، وسوف تتدحرج من أعلى جبل سيكيرنايا، مليئة بالصراخ البشري الذي يؤدي إلى الجنون.

كان من الواضح أنّ رجل الأمن قد جُنّ - رَنّ الجرس من جميع الجهات دفعة واحدة، كما لو كان يجري من مكان إلى آخر.

بكى غراكوف وهو يسعل، وكان إمّا يمسك بشعره، وإمّا يشد خديه، وهو يحاول أن يغلق فمه الذي لا يصمت، والمليء باللعاب والخوف.

"أريد الاعترف، والقربان!" - طلب أحدهم بشدة، إمّا من الأب زينوفي، وإمّا من الكاهن إيوان.

تمسّك أرتيوم بمضجعه، شاعراً بتأرجح لا يرحم.

لكن نزل العديد من السجناء الآخرين، الواحد تلو الآخر، عن ألواحهم الهشة، وركعوا في وسط الكنيسة، في انتظار الاعتراف والقربان الموعودين بهما.

كان لدى زينوفي صليب صدري، منحوت من الخشب، وكان لدى إيوان صليب فضي. وكان لدى كليهما إنجيل.

لقد خرجوا عبر الأبواب الملكية غير المرئية، إلى المكان الذي كان يطلق عليه في وقت ما المنبر، وبدأا الوعظ بالتناوب الواحد تلو الآخر، وبمجرّد أن يبدأ أحدهما الاختناق، يحل مكانه الآخر.

" بسم الآب والابن والروح القدس. آمين!" - قال الكاهن إيوان. لم يكن صوته عالياً ولكنّه حازماً.

"قال الملك ومنشد المزمور داود: الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر، هل من فاهم طالب الله أو يبحث عن الله؟ لقد انحرفوا جميعاً،وأصبحوا

عديمي الفائدة معاً، ولا يوجد أحد يعمل الخير، ولا يوجد أحد "- تابع الأب زينوفي بصوت شاب رائع وعالٍ.

قال الكاهن إيوان: "هكذا هو الحال الآن، في فواحشهم، نسي الجميع الأعمال الصالحة، ووجهوا قواهم لإنقاذ حياتهم. لكن جهودنا تذهب سدى، والزيت في مصباحنا آخذ في التناقص. وحده الرب يستطيع أن يطهرنا من القذارة، ويجلب لنا الفرح الأبدي".

لم يتوقف الرنين المتلاحق خارج الجدران.

كانت الكنيسة ترتجف مثل صينية مليئة بالأواني الهشّة التي يحملها خادم مخمور يركض على أرضية حجرية لزجة، وعلى الأرضية سكب دم شخص ما كريه الرائحة.

بدأت الأسماك داخل أرتيوم، تنبض بالحياة، وتخدش بذيولها الحادة الأمعاء الضعيفة والكبد والطحال- كان كلّ شيء ينزف ويتألم، كما لو أنّهم سكبوا مغرفة كاملة من الزجاج المسحوق في معدته المفتوحة.

" أيّها الكاهن! أبانا! صلّ من أجلنا!"- صاح أشخاص عدّة.

رفع الأب زينوفي رأسه عالياً مثل طائر، ووسع حدقتي عينيه الملتهبتين، وصرخ بصوت حادٍّ محموم:

"الخطيئة التي تسكتون عنها في الاعتراف ستبقى غير تائبة، ومن ثمّ لا تغتفر- وستجرّكم إلى الجحيم! توبوا!".

زأر السجناء. كان الجميع تقريباً يبكون وينوحون. ولكن وراء هذا العواء، كان يسمع الجرس، يلتقط كلّ واحد منهم بخطّاف جليدي- أحدهم من الشفة، والآخر من تفاحة آدم، وهناك من يلتقطه من عظم الكتف، وآخر من جلد بطنه.

" نحن سنعدّد الخطايا البشرية، أمّا أنتم تتوبون وتقولون" خطيئة "- أمر الكاهن إيوان، ملوحاً بيده التي تقبض على الصليب.

"كرروا بعدي: أعترف للرب الإله ومخلصنا يسوع المسيح، أنّني ارتكبت الكثير من الخطايا...... كلّ خطاياي... كلّ أفعالي الشريرة، لقد ارتكبتها في كلّ أيام حياتي... لقد فكّرت فيها حتّى يومنا هذا" - تابع الأب زينوفي بصوت يرن.

صدرت أصوات حزينة في الكنيسة، متعثرة ومشوشة.

أملى الكاهن "سامحني أيّها الرب، خطّاء، بسبب قلّة محبّة الله، والخوف من الله".

"خطّاء!" - صاح كلّ سجين.

أجاب أرتيوم بصمت: "أنا"، واشتد غضب الأسماك أكثر، محاولين الخروج منه.

صرخ الأب زينوفي: "خطّاء بالغرور، بما في ذلك: عدم تواضع الروح، وعدم الرغبة في العيش وفقاً لإرادة الله، والاستبداد والإباحية والتعسف، والغرور بالذات".

"أنا" - أومأ أرتيوم مرّة أخرى مكشراً.

" خطّاء بعدم تنفيذ وصايا الله!".

"...أتوب !" - صاح كل سجين، دون أن يرى أم يعرف بعضهم بعضاً، لكن في كلّ لحظة كانوا يسمعون جرساً مجنوناً.

" خطّاء بعبادة الصنم!".

"... بالطبع "، وافق أرتيوم، وهو يتقلّب على مضجعه، كما لو أنّ أربعين يداً غاضبة ومبللة غسلته.

"خطّاء بالاعتماد المفرط على طول أناة الله، بما في ذلك السماح لنفسي بارتكاب جميع أنواع الخطايا!" - صاحا الكاهنان اللذان لم يعد من الممكن التمييز بين صوتيهما.

صاح كلّ سجين: " خطّاء! أتوب!.

" خطّاء بسبب الغرور، والكلام الكثير، وحب الرفعة!".

"أنا، هنا! هنا!" - ردّ أرتيوم على كلّ خطيئة، لا يعرف ولا يريد التوبة عنها.

"أنا خطّاء بسبب قلّة الإيمان، بما في ذلك عدم وجود سلام المسيح في روحي!".

ضحك أرتيوم من داخله : "بما في ذلك، نعم! بما في ذلك!".

"خطّاء!" - صرخ السجناء بصوت واحد وبنفس العاطفة التي صرخوا بها "مرحبا!" لقيادة المعسكر.

"... الجحود بالله!".

"... حزن سيء ويأس!".

" خطّاء من عدم الصبر على الامتحانات المرسلة من الرب، بما في ذلك عدم تحمّل الكرب: الجوع، والأمراض، والبرد!".

وافق أرتيوم بفرح شيطاني:"أنا أتجمّد! أريد أن آكل، أتجمّد!".

"خطّاء لأنّني قللت الأمل في الخلاص... بعدم الثقة في رحمة الله...".

"لم يكن لدي ثقة "- أومأ أرتيوم، بذلك الوجه الوقح الذي ينتظر به سكير في حانة ليصبوا له شراباً.

"... بسبب خواطر، ومحاولات انتحار...".

صرخ أحدهم: "سامحني يا ربي! حاولت خنق نفسي! بحبل حول رقبتي!".

" خطّاء بذكر اسم الله عبثاً... إساءة فاحشة وقذرة...".

" خطّاء!" – صرخوا هنا وهناك رداً على ذلك.

بدت كلّ كلمة مدويّة، كما لو أنّها تضاعفت من جراء الصدى الداخلي لكلّ كلمة.

"... نكثت بوعودي أمام الله...".

"... تبرير للذات...".

"... موقف غير موقّر تجاه الأيقونات والمقدسات...".

"...عدم احترام أعياد الكنيسة...".

"... إدانة الكهنة...".

"... التهاون في الصلاة...".

" شعرت بالخجل من اتباع المسيحية، بما في ذلك كنت أخجل من وضع علامة الصليب على نفسي، وارتداء صليب صدري!".

"أنا!"- كرّر أرتيوم بلا كلل- "أنا هنا! أنا! أيّ غنى لدي! كما لو كنت كلّي في الأرقطيون! ولأوسمة! هل هناك خطيئة لم أرتكبها؟".

علا الصراخ كما لو كان في مسلخ.

حتّى إنّ المشرّد وقف وراء الجميع، رافعاً يديه غير مكتملتي الأصابع، يطلب الحساء- تهيأ له بصدق أنّ الجميع يطلبون الطعام أيضاً.

كان خاساييف الذي لم يشارك في أيّ شيء، يتطلّع بعينيه السوداوين عن بعد: كما لو كان هناك حفل زفاف للحيوانات، واتضح أنّه هو نفسه من سلالة مختلفة.

"خطّاء لأنّني لم أكن أحب القريب!"- شق الكاهن إيوان حنجرته بالصياح.

" لقد طردت أمّي!"- هتف أرتيوم وهو يمسك الأسماك المتمرّدة في بطنه وصدره بيديه.

" لم أزر المرضى، ولم أساعد المحتاجين، بخلت بالصدقات، وأدنت المتسولين!".

"نعم، نعم، نعم- والفهود، والضعفاء، والمرضى، واحتقرت الجميع!" - تذكّر أرتيوم وسكب كلّ هذا، مثل عملة معدنية كبيرة، على المنضدة في الحانوت.

" خطّاء!.. أنا خطّاء!.. أتوب!"- تقشّع الناس على ركبهم.

"خطّاء، أهملت إنقاذ قريبي!".

"نعم! أيّها الأب أنقذني! اغفر لي يا رب!" - كان الناس يصرخون، مثبطون بسبب خطاياهم.

"... لعدم احترام كبار السن".

كان أرتيوم مستعداً أن ينقلب على جانبه، ويدلّي رأسه إلى الأسفل، ويبصق في وجه فاسيلي بيتروفيتش الذي كان مستلقياً في القاع - لكنّه كان يخشى أن تمزقه الأسماك التي في داخله إلى قطع.

أنا خطّاء بسبب الكراهية، والحقد، والشماتة. نعم. الغضب. نعم. لعن القريب أم الغريب. نعم. خطّاء بالنميمة. نعم. خطّاء بالحسد. نعم. بالكذب. نعم. بالتبجّح. نعم. بالإدانة. نعم. بالتملّق. نعم. بالبلطجة والوقاحة. نعم. لأنّني تنصّت واختلست النظر إلى أسرار الآخرين. نعم ، نعم، نعم.

أعلن الأب زينوفي: " خطّاء بالقتل العمد أم عن غير عمد!".

"كما في المزاد!"

- ضحك أرتيوم بصوت مسموع - "أنا آخذه! أنا آخذ هذا أيضاً! قتل عن عمد - أنا، هذا لي، ملكي!".

عوى أحدهم، كأنّه أُلقي في النار: "أيّها الكاهن! لقد ذبحت زوجتي!".

صمت الجميع، ولكن ليس لوقت طويل.

حشرج آخر: "أطلقت النار على يهودي!".

اعترف الثالث:"يا إلهي لقد سرقت وقتلت امرأة عجوز!".

" خنقت طفلاً! ارحمني! أيّها القدير!أترجاك!".

أصبح الصراخ كثيف لدرجة أن الطائر لم يكن ليستطيع الطيران من خلاله.

وقف الكاهن إيوان والأب زينوفي وسط الناس كما لو كانا في وسط حريق - كانت أرجلهما تحترق وأعينهما تلتهب من لفح النار.

صرخ الكاهن إيوان، من وسط الحر، وهو يغلق عينيه: " خطّاء لأنّني لم أرحم الحيوانات ".

"حصل يا أبتي!".

اعترف أحدهم أنّه قتل جرواً في سولوفكي من أجل التهامه. واعترف آخر أنّه نتف ريش نورس حياً. اعترف الثالث بارتكاب فاحشة مثيرة للاشمئزاز مع قطّة، أدخلها في جزمة ورأسها إلى الداخل".

لمعت أسنان الأب زينوفي من وميض النار.

"خطّاء، زنيت بامرأة...".

صرخ أحدهم مجيباً: "حياتي كلّها عهارة: لست متزوجاً يا أبتي، اغفر لي!".

كان أرتيوم يتقلّب على مضجعه، كما لو كانت الأسماك تمتصه من الداخل، تسحب كلّ عضو من جسده: لسانه، حلمتيه، عينيه...

" خطّاء، زنيت!".

"حدث ذلك، أتوب!.. أيّها الكاهن!..".

"سفاح القربى!".

" أعترف!..لا تدمرني!".

مسح الكاهن العرق المتصبب عن وجهه.

"خطّاء، زنيت بشكل مخالف للطبيعة، مع رجل!".

لم يعد الكثيرون قادرين على نطق "أنا أتوب"، وكانوا يصرخون مثل الطيور، خار آخرون، وبدا الآخرون كأنّهم ثغاء.

اللعب بالورق. وألعاب أخرى خبيثة. ضحك بلا حدود. دموع كاذبة.

استجاب السجناء لكلّ خطيئة، ودخلوا في حالة هستيرية من الصراخ، وهم يفركون وجوهم القذرة بدموعهم القذرة، ورغم ذلك لم يعْل صوتهم رنين جرس واحد.

العادة السريّة. خواطر فاسقة. استذكار الذنوب. النظرات الشهوانية إلى الصور الإباحية في الكتب.

"وها أنا مرّة أخرى! أنا مرّة أخرى!" - أجاب أرتيوم بصوت عالٍ، وإن كان بفم مغلق- كما لو كان ضائعاً في غابة، وجرى العثور عليه الآن من آثاره العديدة، لكنّه هو نفسه لم يكن في عجلة من أمره، للرد على النداءات، وكان يعبث ويتصنع.

لقد أصيب بالفواق، ولم يتمكّن من التغلب عليه.

صدرت أصوات: أنا سكر غير لائق. أنا تدخين. أنا شراهة. أنا نهب وسرقة. أنا سرقة واختلاس المال العام. أنا رشوة وغش. أنا.

حاول كلّ واحد أن يكون صوته أعلى، وأكثر سماعاً من الآخر، خدش أحدهم جبهته ووجنتيه وسال الدم، ودقّ أحدهم رأسه بالأرضية، يطرد خسته المطلقة بعيداً والرنين النهم والمتلهف. كان أحد ما يزحف على بطنه نحو الكاهنين، ويفرك نفسه في الغبار والهباء.

إهمال عطايا الله: الحياة، الجسد، العقل، الضمير. وهكذا، ومن جديد هكذا، ومرّة أخرى هكذا، وهكذا أيضاً- حذق أرتيوم، وهو يكبح ضحكته.

زحفت مختلف أنواع المخلوقات الكريهة من العدم: الضفادع والرخويات، العقارب والديدان، الحربائيات والسحالي، والعناكب وأمهات أربع وأربعين... وحتّى إنّ هذه المخلوقات كانت ملتوية وقبيحة: كانت هناك ضفادع بساق واحدة، تقفز جانبياً وتسقط على بطنها، وديدان لها عين طائر على ذيلها لا ترف، وأم أربع وأربعين نصفها يزحف للأمام والنصف الآخر للخلف، وسحالٍ خرجت أحشاؤها مثل بهرجان رطب، وبكلّ إصرار جلس متشبثين بأرجلهم عدد كبير البراغيش والصئبان، والعناكب بأجسام حلازين رطبة وملْحمة أم بجسم على شكل عين بشرية، وجرذان مقلوبة من الداخل إلى الخارج، مع بطون معلّقة فيها أطفال جرادين غير ناضجة - عمياء، مفتوحة

للعرض، والرتيلاء بأصابع امرأة عجوز بدلاً فمن براثن... وكان لا زال يدور ذيل مشعر فقد مؤخرته الحيوانية... واستلقت ثعابين على شكل كرة مثيرة للاشمئزاز، ولدت على الفور نسلاً آخر حيّاً، وتتحرّك بشراسة شديدة كأنّها تقوم بتدفئتها، بتدفئة هذه الكرة... الأرضية كلّها مغطاة بالمخاط، والقيء البشري، وكلّ الرجس الذي يمكن أن يطرده الجسم.

خرج أسروع طويل بشكل غير طبيعي، ومشعر، وصوفي من سرّة شخص ما: نظر إليه الشخص متألماً، متوقعاً أن ينتهي، لكنّه لم ينته ولن ينتهي.

كانت آخر دودة تجلس على إصبعه، تمص الإصبع بالكامل، حاول السجين سحبها - لكن اتضح أنّ الدودة كانت مغروسة بعمق في الجلد، وتهضم الإصبع، سكبت عصيرها المعوي الدودي، على اللحم حتّى العظام تقريباً.

كان أحد السجناء، يتألم ويبكي، قام بعد محاولات عدّة، بتجشؤ سرطان كبير، لا يشبه سرطان البحر، ويزحف بسرعة. خرجت من سجين آخر ديدان القز، من فمه وعينيه وأذنيه بوقت واحد - وكانت لحيته بأكملها كما لو كانت كلّها أرز لم يمضغ جيداً، بإمكانك أن تغلي حساءً منه. أمّ السجين الثالث فمخط قذارة لزجة وحيّة، نصف شفافة وبشارب- لكنّ القذارة التي كأنّها سقطت بالكامل، كانت في كلّ مرّة تحتال وتعود من جديد، مع آخر خيط مخاط، إلى البلعوم الأنفي.

فتحت لدى أرتيوم السرّة، مع فواق جديد، وسقط منها مباشرة سمك كبير لزج فاسد، على المضجع مباشرة، وخرج منه سمك أخر أصغر، والذي تمكنوا من التهامه، وخرج من السمك الثاني- سمك ثالث مأكول أيضاً، ومن الثالث- دفعة جديدة، صغيرة جداً، ومن الصغيرة - نثر حبيبية قبيحة لا يكاد تمييزه...

جرفهم أرتيوم، واستعادهم جميعاً: لي،أنا، لي، أنا، عودي، إلى أين أنتم ذاهبون؟..

صرخ الأب زينوفي: "هل ترون كم نحن خطاة! هل ترون! هل ترون؟ انظروا في أنفسكم وارتعبوا!.. انظروا حولكم وابكوا من الخجل!.. هذه أثاركم مليئة بالمخاط والرائحة الكريهة! يستحق كلّ واحد منكم عقوبة لا يمكن تصورها! لكن أبانا الذي في السماوات لا يريد موت أبنائه! ومن أجل خلاصنا، لم يشفق على ابنه الوحيد، بل أرسله إلى العالم من أجل فدائنا، لكي يغفر كلّ ذنوبنا من أجله".

"لن يسامحنا فقط "- قال الكاهن إيوان، لا يكاد يكون حيّاً، ولكن بعيون مطمئنة ونقية- "لكن لكي يدعونا إلى وليمته الإلهية! أهدانا معجزة عظيمة- الجسد المقدس والدم المقدس ابنه، ربنا يسوع المسيح. تجري هذه الوليمة الرائعة في كلّ قداس، كما قال الرب نفسه: "خذوا كلوا. هذا هو جسدي!" و: "اشربوا كلّكم لأنّ هذا هو دمي!".

دعا الأب زينوفي: "اذهبوا بإيمان كامل ورجاء برحمة أبانا، من أجل شفاعة ابنه! تعالوا واقتربوا بخوف وإيمان إلى المناولة المقدسة".

طلب الكاهن إيوان:"والآن، يا أعزائي، احنوا رؤوسكم جميعاً، ونحن، بقوة الله المعطاة لنا، سنقرأ عليكم الغفران".

ترققت رقبته، وكانت ثلاثة عروق زرقاء مرئية فيها، جاهزة لأن تنقطع.

ساد الهدوء.

أحنى الجميع رؤوسهم.

رَنّ الجرس بالقرب من كلّ رقبة، كما لو كانت طارت فراشة لا تخاف من الزواحف والبراغيش والصئبان، وحلّقت للحصول على العسل، واختارت أحلى زهرة.

قرأ الأب زينوفي صلاة الشفاعة.

قام بالتناوب مع الكاهن إيوان، بتعميد الجميع.

قال الأب زينوفي: "أنا أسامح وأسمح".

قال الكاهن إيوان: "بسم الآب والابن والروح القدس".

بدأ القربان.

قبّل الجميع الصليب والإنجيل.

ألقى أحد الكهنة ثمرة توت بري مجففة في الماء العادي- هل جرى حفظها عمداً في كيس على صدره أم أنّها تدحرجت فجأة من تلقاء نفسها؟ - ولكن الثمرة أصبحت دم المسيح. وأصبح الجسم خبز سولوفكي الشحيح المخلوط بالعشب.

كان داخل الكنيسة نظيف ورنّان، كما لو في حقل ثلجي.

الرنين لم يتوقف فقط - كان أحياناً يبتعد، وأحياناً يقترب، وأحياناً أخرى يشوّش ويختنق، كأنّه يتدحرج عن تلٍّ.

جلس أرتيوم، الذي تغلّب على الفواق، عند النافذة، وضحك بصوت عالٍ، غير قادر على كبح نفسه عن الضحك: وضع عنصر الأمن جرساً في عنق الكلب الذي أفلت من قيده، وركض حول الكنيسة، وهو يرن دون انقطاع.

لاحظ أرتيوم من فجوة النافذة إمّا ذيله، وإمّا جنبه الذي يخفق عند تنفسه، وإمّا وجهه الأسود.

عندما كان الكلب يتوقّف، كان جنود الجيش الأحمر يطاردونه على الفور، مبتهجين بتسليتهم البسيطة.

لم يستطع أحد في الكنيسة أن يخمّن ذلك.

صعد غراكوف على الموقد الحديدي البارد، بالقرب من المدخل، وجلس القرفصاء هناك، وهو يحتضن المدخنة. أصبح مجنوناً، ولم يكن لديه فرصة للعودة إلى العالم.

لم يذهب أرتيوم لتلقّي القربان.

كانت يداه جافتين وقويتين وشريرتين، وكان قلبه عنيداً، وأفكاره فارغة.

رَنّ جرس ضخم فوق النائمين في أحلك ليلة- ضربة واحدة ودوي طويل، لأميال عدّة.

كانت تهب ريح شديدة، مع تيارات شبه منتظمة- كما لو أنّ أحداً ما كان يكنس سولوفكي.

كانت كومة الناس مضغوطة للغاية، لدرجة أنّه لم ينهض أحد، ولم يتمكّن من رسم إشارة الصليب على نفسه، على الرغم من أنّ الجميع كان يعلم أنّ - برج الجرس كان فارغاً، ولم يكن هناك الشخص الذي يقرع ولا الجرس نفسه، ولم يكن هناك مكان ليظهر منه - لأنّ الدرج إلى الأعلى كان منهاراً ومسدوداً.

استيقظ الجميع في الصباح بهدوء، ووجوههم مغطاة بالبخار، ومجعّدة قليلاً، لكن عيونهم كانت نظيفة ومليئة بالرطوبة، كما يحدث بعد الاستحمام.

لم يهرع أحد إلى مضجعه، فقد وقف الجميع في منتصف الكنيسة، يتطلعون إلى الأعلى، كما لو أنّ طنين الليل لم ينته بعد.

قال الأب زينوفي بدلاً من الجميع: "روسيا - هي مجيء يسوع". وأضاف مشيراً بيده إلى الأعلى:"هناك منارة. أشعل الله شمعة فوق رؤوسنا عمداً، لنرى أوضح. توجد مشكلة واحدة فقط - نحن نائمون، لكن نحتاج إلى البقاء متيقظين فقط، لأنّه لا أحد يعرف متى سيأتي ابن الإنسانية! هل تسمع أيّها الكاهن ؟".

من سوء حظ الكاهن إيوان إنّه استلقى عند تغيير الوردية الليلية الأخيرة في الصف السفلي.

كان فوقه ثلاث طبقات أخرى- وبينما كانوا يزيلون أرجل وأذرع الآخرين، أصبح من الواضح أنّ الكاهن لم يعد موجوداً- لقد اختنق.

أصبح جسده نحيفاً، ومكسوراً، ومضحكاً، مثل جسد مراهق. تحوّل لون النمش على ذراعيه إلى اللون الأخضر.

أغلق إحدى عينيه، ونظر بالأخرى- وكانت نظرته محبطة وضنينة.

جلس أرتيوم، ومسح رأس الكاهن بيده. تبيّن أنّ شعره قاسٍ وقذر وميّت- كأنّه يداعب قفاز يدٍ قديم.

استنشق يده على أمل شم رائحة التفاح المجفف المألوفة له، لكنّه رأى بقّة فراش تزحف على راحة يده: قفزت من الميّت.

سارع إلى مضجعه، وهو يعلم ما سيفعله- في قفزة واحدة إلى أعلى- سحب ملعقته وفي بضع ضربات قطع وجه أميره إلى أقسام عدّة، معيقاً سجناء عدّة كانوا في تلك اللحظة يصلّون للقديس.

... كان أصعب شيء هو كشط عيني القديس- قام أرتيوم بتجويفهما بنهاية الملعقة الحادة.

قطع أذنيه واحدة بعد الأخرى. ومسح شفاهه. وقبع شعره، خصلة بعد خصلة.

لم يعد هناك رأس فوق جسد الأمير، وعلى كتفيه العريضين: يمكن أن يضع أيّ رأس آخر، كما في استديو التصور في شارع مياسنيتسكايا.

كان يعمل بسرعة، محتداً ومكشّراً.

"يا إلهي..."- زفر أحد الواقفين في الأسفل- "لا يوجد صليب عليه".

زعق الأب زينوفي، وأمسك أرتيوم من سرواله الداخلي وشدّه.

"إنّهم... إنّهم يرقدون تحت الجير، مثل العشب والثمار تحت الثلج... يحافظون على أنفسهم وينتظرون... ينتظرون ساعتهم... كيف خطر لك ذلك، أيّها الوغد، أن تكشف عنهم... وتشوههم؟.. كيف ذلك؟..".

أبعد أرتيوم دون أيّ جهد، يد العجوز الضعيفة، لكنّ العديد من الأيدي الأخرى، المتسرعة والنهمة، امتدت لمساعدة الكاهن في الحال. لم يكن هناك شيء يتمسك به أرتيوم- وبشكل غير متوقع بالنسبة له، وقع إلى الوراء على ظهره، بدا الأمر سخيفاً تقريباً بالنسبة له - لم يكن خائفاً من أيٍّ من السجناء، وشعر أنّه أقوى من أيٍّ منهم على حدة، ماذا يمكن أن يفعلوا به؟..

... لكن في البداية، لم يمسكوا بأرتيوم ببساطة - بعد أن شدوه من على مضجعه، تنحّى الجميع فجأة، دون اتفاق، وسقط على جنبه، دون أن يلحق يستجمع قواه، مباشرة على الأرضية الحجرية، مع فرقعة في ضلوعه وبقع حمراء داخل جمجمته... شعر في الوقت نفسه بحرق حاد في ركبته، اتضح أنّه مرتبط بالدماغ عن طريق أكثر من مئة من خطوط التلغراف السريعة، التي أحدثت فجوة حادة في الوعي: رعب، رعب، رعب، نرسل برقاً عاجلاً، مئة إبراق - هناك ألم، مؤلم، إنّه مؤلم!.

لكن بدا هذا للجميع غير كافٍ، أمسكت إحدى الأيدي بأذن أرتيوم، والأخرى من جانبه، وحاول أحدهم وخزه بقبضة غليظة، مستهدفاً حاجبه... حاول النهوض، لكنّهم ضغطوا عليه للخلف، وركلوه على صدره، وداسوا على بطنه- لكنّ العدد الكبير للناس الضعيفة والمجمدة من البرد إلى درجة الإحراج والغرور البارد، عرقل تمزيقه إلى أشلاء على الفور.

صعد غراكوف الخائف مرّة أخرى إلى الموقد، وعوى من هناك، وأخفى عينيه بين يديه.

صرخ زينوفي:"... غير تائب!.. أنت تتعفّن حيّاً... رائحتك كريهة- روحك تتعفن!.. قليل الإيمان، ولص، ومخادع، ومحتال- سأبصقك... لا سمك ولا لحم- سأبصقك!".

"... تبصقني، نعم " - فكّر أرتيوم بسرعة، مدركاً على وجه اليقين بأنّهم سيقتلونه الآن، على الرغم من ذلك، لم يصبح أقلّ استهزاء وضحكاً- "أمّا السمك واللحوم ما كنت لأبصقها، كنت أكلتها... ".

تحايل أرتيوم، واستلقي على وجهه، محاولاً تغطية رأسه بيديه- دفعوه، نقروه، ضربوه، داسوه، عجنوه، قرصوه، فركوه، هزوه، مزقوه، عضّوه، سحبوه قطعة قطعة...

" الكاهن إيوان!" – نادى بصوت باك ولكنّه مصطنع بعض الشيء- كان خجلاً من الصراخ بشكل جدي- "يقتلونني!".

نظر الكاهن بعينه ولم يتحرّك.

" إيه !"- صدر صوت واثق- "كفى، أيّها الروس!.. ماذا تفعل؟"- كان هذا خاساييف.

شعر أرتيوم أنّ عدد الأيدي التي تعذبه أصبحت أقل، لكنّ خاساييف لم يستطع إيقافهم- صاح للمناوبون، لكنّهم على ما يبدو لم يكونوا في عجلة من أمرهم للمساعدة.

لكنّ المشرّد دخل إلى وسط الحشد، ولم ينس أن يصرخ إمّا "آم، حساء!" وإمّا "إلى آيان (أين)، وأنا؟" - تشبث بيده المشوهة- حسناً، لو كان كفه بخمس أصابع- إنّها بأربع أصابع - بشعر أرتيوم الذي لم يكد ينمو قليلاً، كاشطاً جلد رأسه تحت أظافره المتسخة- كما لو كان أرتيوم هو الحساء الذي جرى اكتشافه أخيراً، والذي يجب اقتسامه.

صرخوا، بشكل، كما لو أنّ جميع الخطايا القبيحة التي انتشرت أمس قد انزلقت إلى داخل أرتيوم واستقرت فيه- ممّا يعني بإمكانهم العودة إلى أيٍّ من جيرانه: للاختباء في أذن أحدهم، وللحفر في سرّة آخر، والغوص في أنف ما.

... كان يجب عدم السماح بذلك- يجب الحفاظ على طهارة الروح وحمايتها...

"لكنّهم يقتلونني في الواقع!"- فهم أرتيوم ذلك، مرّة أخرى، بنفس الشعور المضحك تقريباً.

كان قلبه يقفز داخله فقط، كشيء منفصل، وحيٍّ وغير موافقة: ربّما سيقتلونك، وأنا؟ أنا من أجل ماذا ؟ دعهم يقتلوك، لكن دعني أخرج!..

كلّ ما كان مطلوباً، هو ضربة قوية واحدة في مكان ما على اليافوخ، حتّى تخرج الحياة أخيراً وتندفع بعيداً- فاقدة الريشة الأخيرة أثناء الطيران، بعيون دامعة، ورئتين مليئتين بالهواء الجديد.

جلس ملاك أرتيوم على مضجعه، ينقل الجير المقشّر من راحة يدٍ إلى راحة يدٍ أخرى، مثل طفل في صندوق رمل.

صاح جنود الجيش الأحمر:" بنات آوى، أولاد الزانية، إلى أماكنكم! بسرعة، أولاد الزنا، بنات آوى!".

هناك من أصاب عقب بندقية ظهره، وهناك من تلقّى ضربة جزمة على بطنه.

انفضوا عن أرتيوم خلال لحظة- كان مستلقياً بمفرده، ممسكاً بيديه رأسه كالسابق، ملتصقتين بصدغيه ومؤخرة رأسه، لأنّ كلّ شيء كان مغطى بالدماء.

" إلى أين تسرعون؟"- سأل عنصر الأمن في سترته الجلدية، الذي ظل واقفا عند المدخل حاملاً جرسه- من المؤكد أنّه كان يخشى أن يوقعه ويكسره في الزحام -"هل نجردكم من الحياة بشكل سيئ؟ هل تعتقدون أنّنا لن نلحق إن لم تساعدونا، أيّها المواطنون؟.. في نهاية الأمر، هناك نوع من النظام، إلى الوراء درْ- لماذا تحتشدون؟".

عصر صوته من جديد، بابتسامة مخمورة وزاحفة على وجه- أبيض مع أحمر بني.

"كانوا يصلّون إلى الله هنا!"- فجأة اشتكى المشرّد الذي دون أصابع صغيرة بصوت عالٍ.

حوّل عنصر الأمن نظره إلى زينوفي.

" زينوفي، الكلب المشعر، هل قررت أن تتبرأ من الرب؟".

قال الأب وكأنّه يبصق- "من المسيح الدجال".

وافق عنصر الأمن: "حسناً، انتظر حتّى ننتهي من أكل قطيعك".

أجاب الأب زينوفي فجأة بصوت عالٍ وثقة: "سأضحك على موتكم".

لم يكن عنصر الأمن مستمتعاً بمواصلة الحديث - فأخرج ورقة من جيبه وفتحها في الهواء، وسأل: "غورا...ي ! نوف... أرتيوم!.. من هنا؟".

زحف الأب زينوفي وراء أرتيوم عندما كانوا يقتادونه :

"سامحني يا بني! سامحني!".

التفت أرتيوم وراءه في حيرة: ماذا يقصد؟ ماذا يريد؟

أصبح الأمر فجأة غير مسلٍّ.

توقف العالم، وتحول الوعي إلى هلام، ودفع القلب بقوة غاضبة الدم إلى الرأس، ونزفت السحجات الجديدة أكثر سخونة وأكثر وفرة. كان ظهره مغطى بالعرق البارد. ظهر العرق على الفور بين أصابع القدم واليدين، وتحت الذقن، وبين الفخذين - كما لو أنّه جرى نقل أرتيوم من قبو جليدي - إلى المائدة.

"ماذا لو سامحته؟" – التفت أرتيوم إلى الأب زينوفي مرّة أخرى- "ربّما سيتغير شيء ما ؟.. لم يسمحوا بقتلي هنا، من أجل ماذا؟.. هل من أجل أن يطلقوا النار عليّ- هناك؟".

أغلقوا الباب مع صرير، وراء ظهره، وفاحت في وجهه رياح البحر المنعشة، ورائحة الصنوبر، والأرض المحفورة، وكان هناك شيء ما مفقود في العالم... لكنّ هذا المفقود لم يكن يعني الموت... بل على العكس، على العكس من ذلك- كان يخبئ داخله أملاً قادم غير مرئي، وغير منتظر.

بحث أرتيوم بعينيه - ما الذي تغيّر، ماذا؟.

كان من الضروري على وجه السرعة، وقبل فوات الأوان، العثور على الشيء الذي تغيّر.

كان هناك الكثير من الضوء - لم ير النهار لفترة طويلة، لكن ما علاقة الضوء هنا.

وقف جبل سيكيرنايا مكانه ثابتاً، وكانت السماء تتحرّك فوق الغابات والبحيرات، وكان الكلب الأسود يتحرّك بالقرب من بيته، يهزّ جنزيره بين الحين والآخر، الذي يصدر رني... - زفر أرتيوم، وأكمل -... ناً منخفضاً.

"أين الجرس؟"- سأل أرتيوم بهدوء- "أين جرسي؟".

التفت إليه عنصر الأمن، ودفعه جندي الجيش الأحمر الذي يسير بجانبه:

"انظر، كيف هو معتز بنفسه! دعه يخرج برفقة الموسيقا!".

ضحكا بمرح مثل قطيع كلاب. كانت هناك رائحة فودكا وتبغ كريهة لا تطاق. أمرا أرتيوم بالتوجه إلى العربة، غير مبالين بمصيره اللاحق، أبهجوه على الفور:

"ستذهب إلى الدير، انتهت مهمتك، عذراً لم نلحظ. الوثائق مع المرفق".

لم يكن لدى أرتيوم القوة للضحك- قبل أقل من دقيقة كان سيسمح بقطع يده، وكان سيوافق على العبودية الأبدية المخزية عند أيّ سيد مقابل أن يبقى على قيد الحياة - أمّا الآن، فلم يكن يشعر إلّا بالبرد، ولم يكد ينتظر الدم الذكي، الذي يفهم على الفور كلّ شيء قبل الإنسان بعقله السخيف، كي ينزلق من رأسه إلى الأوردة الصدغية والشرايين السباتية.

برد، برد، برد

- ارتجف جسده واهتزّ، هبّت الرياح من جميع الجهات، كانت غير وديّة تماماً في الجوارب والسروال الداخلي، تجمّد العرق الذي كان قد سال بسرعة، ولم يكن الدم الذي يجف بالتدريج على وجهه يدفئه.

جلس بصعوبة، صرّت أضلاعه، ولم تنحن ركبته- جمع حضن من الحشائش المجففة المفروش في العربة، وضغطها على نفسه: ربّما تنقذه؟.

لا.

صاح جندي الجيش الأحمر: "إيه، أحتاج للدفء...". كان صوته، صوت شخص آخر، كان فكاه ضيقين، لا يكادا يتحركان- أتمنّى أن أتدفأ...

"أرجع إلى الكنيسة، هناك دفئ "- كشف جندي الجيش الأحمر عن أسنانه الملتوية، ونظر إلى أرتيوم لفترة طويلة، منتظراً بسرور إجابة. لقد أقنع نفسه منذ مدّة طويلة بقوته وبحقه اعتبار السجناء ماشية غبية، غير قادرة حتّى أن تجيب بالشكل المناسب.

كان الأمر كذلك في حالة أرتيوم.

ظهر المرافق - ضخم الجثة، وشعر ذقنه خشن.

سأل: " لماذا تجلس، يا وجه ابن آوى ؟".

قفز أرتيوم: شهق من جديد من الألم في مؤخرة رأسه: بدا له أنّ صابونة ركبته كادت تسقط على الأرض.

"هيا - انطلق!" - صاح جندي الجيش الأحمر. سارت العربة، ونبح الكلب.

نظر أرتيوم حوله، وأدرك أنّ عليه أن يركض وراء العربة، وإلّا فسيتركونه هنا، وسيدفنونه هنا بعد ذلك بقليل.

كان يعرج، وانسكبت الدموع من عينيه، واختلطت مع الدم، وفتحت مسارب جديدة بين القشور الجافة. نبح الكلب بغضب أكثر.

أسرع بكلّ قوته، دون أن يفهم أيّ شيء، وهو يئن ويغمغم، ورغم ذلك لم يلحق بالعربة.

لحسن الحظ، توقفت العربة عند بوابة: لحق أرتيوم في أثناء فتحها بالعربة.

ولكن بعد ذلك بدأ الشيء نفسه - بعد دقيقة أخرى من الجري نفسه، كاد ينهار منهكاً، ولم يعد يستطيع التحرك إلّا زحفاً.

سقط تفاح ساخن من الحصان. داس أرتيوم بقدمه على الفور على واحدة، شعر بدفء ناعم.

"توقف!" - شدّ المرافق حبل لجام الحصان.

نظر إلى أرتيوم، وأراد أن يشتم مرّة أخرى، لكنّه تكاسل، ونصح بتكاسل:

"تمسّك بالعربة، يا ابن آوى".

تمسّك أرتيوم بالعربة.

استدار جندي الجيش الأحمر، وألقى أرتيوم بنفسه على الفور في العربة منبطحاً على بطنه، كما في طفولته، ودلّى رجليه - صحيح أنّه غير راكب بالكامل،

لكنّه لا يركض أيضاً، يمكن أن يثب في أيّ لحظة من فوق العربة، ويتظاهر كأنّ شيء لم يكن.

لم يسمع جندي الجيش الأحمر الآن صوت خبط قدمي السجين المتسرعة، ولا تنفسه اللاهث والصافر، لكنّه تظاهر بعدم ملاحظة ذلك.

ولم ينظر إلى الوراء.

كان شخصاً طيباً.

" لماذا اعتقدت أنّ نهايتي ستكون اليوم؟" - فكّر أرتيوم، وهو ينظر إلى أذني ومؤخرة رأس جندي الجيش الأحمر.

... دفي أرتيوم قليلاً عندما كان يجري.

جفّ روث الحصان أسفل قدمه.

جفّت لطخات الدم على وجهه تماماً، بفعل الريح. عندما كان يبتسم - كانت تسقط مباشرة قطعة كاملة من الجير الأحمر-الأسود من على وجهه. كان يبتسم.

"...لو كان يعرف القديسون... تحت الجير... كيف يبتسمون" - فكّر أرتيوم بنفس سرعة حركة العربة - "ربّما، كانت وجوههم أيضاً... مرئية بشكل أفضل لنا...".

في ضباب أيار أم حزيران، يمكن أن يذكّر دير سولوفكي، عندما تقترب منه، بالجرن الذي يجري فيه غسل الطفل. في تشرين الأوّل، تحت سماء رمادية مليئة بالدخان، أصبح يشبه موقد مطبخ مدخّن، مليء بالأطباق القذرة والسوداء - من يدري ما الذي يطْبخ في الداخل هناك.

ربّما لحمٌ بشريٌّ.

شق أرتيوم طريقه من مدخل نيكولسكي سيراً على الأقدام - كتب في لورقة أنّه فرز إلى الفرقة الموسيقية النحاسية.

كان مظهره نادراً، حتّى وفقاً لمعايير سولوفكي- سروال داخلي متسخ وممزق، وجوارب ملوثة بروث حصان، وسترة - مغطاة بالدم وممزقة أيضاً، وقطعة من الملاءة السوداء تبرز من عبّه، وكان صدره، وبطنه، وساقاه ملأى بالقش، وكان وجهه ملّوثاً بالدم، وأنفه متورّماً، وأذن أكبر من الأخرى- لا يمكن لمسها...

تذكّر أرتيوم: "...على ما يبدو أنّ اللقيط المشرّد الحقير، أمسكه بمخالب الحمام المثيرة للاشمئزاز:"... إلى آيانا، وأنا؟ إلى آيا‌ينا، وأنا؟ "(إلى أين ، وأنا).

ظهر، وهو يعرج ومضروب، في المكان المرسل إليه، مبنى الطهي السابق، وسأل عن الشخص المسؤول، قائد الأوركسترا مثلاً، وانتظر وقتاً طويلاً.

كان العالم حوله صاخباً وهشاً، وكان هناك العديد من الألوان والروائح الجديدة، وكان الذين يمشون بالقرب منه يتحدثون بصوت عالٍ ويضحكون على مجرّد تفاهات.

كان منذ وقت قريب، يشبه هؤلاء الناس.

كان في مكان ما هناك موقد يشتغل. كان معرفة هذا الموقد، أشبه بمعرفة الطفل أنّ لديه أم، وستأتي في وقت ما من أجله، وهو لن يبقى دون حبّها ورعايتها. بهذه المعرفة كان يمكن أن يعيش.

... أخيراً، جاء إليه رجل سريع طويل القامة- كان يفكّر مركّزاً في شيء خاص به، لكن على بعد خطوتين من أرتيوم، رأى ضيفاً فجأة، وقف بحدّة كما لو كان قد لاحظ جداراً، وعلى الفور وضع يديه خلف ظهره.

سأل: "بوق؟".

حكّ أرتيوم خده، ثمّ نظر إلى يده بأصابع ملتوية وقاسية، التي تشبه يد القرد، وتنتهي بأظافر سوداء مكسورة في بعض الأماكن.

قال أرتيوم: "أريد أن آكل. وأغتسل. ثمّ بعد ذلك – البوق".

"إنّهم ببساطة يسخرون منّي"

- قال الرجل طويل القامة، مخاطباً مساحات الصدى الرطبة في مبنى الطهي، كان يبدو أنّه على وشك أن يغادر:

"سأقول لهم "- وعد أرتيوم، وهو ينظر إلى أصابعه، التي لم يستطع تقويمها.

توقف الرجل ومسّد رأسه بحركة لطيفة، كأنّه يهدئ نفسه.

... قادوا أرتيوم إلى المغسلة، وكان الماء بارداً، ولكن قاعة الحمّام جرى تدفئتها أمس على أبعد حدٍّ - كان بإمكان أرتيوم الآن، التقاط أدنى وجود للحرارة، مثل الحشرات.

بدأ في غسل رأسه وكشطه، وسرعان ما نفذ الماء. غطّى حوض المغسلة طبقة من أوساخه. وكان يمكن رؤية بق الفراش أيضاً، الذي نجا من فيضان الماء غير المتوقع في هذا الوسخ.

دخل أحد ما دون أن يطرق الباب، ووضع قطعة صابون على حافة المغسلة.

قال أرتيوم دون أن ينظر: "لقد نفد الماء".

أحضروا بعد ذلك بقليل دلواً من الماء، ووضعوه عند المدخل.

أزال أرتيوم غطاء المغسلة، وصبّ، وهو يشتم، نصف دلو فيها- وشعر في الوقت نفسه أنّه أصبح ضعيفاً وهشاً.

فرك أرتيوم بعد أن سكب الماء على يديه، وجهه ورأسه ورقبته بالصابون- وبقي يغتسل لفترة طويلة جداً: كان الماء أبرد قليلاً من البرد الذي أتى به إلى الداخل، واتضح أنّ وجهه كبير جداً ومعقّد ومتنوع - كان يمكن غسله طوال اليوم.

ثمّ سحب قطعة من الملاءة من عبّه - لقد لصقت بجسده، واضطر، ليس دون بعض المتعة، إلى انتزاعها.

مسح عينيه بهذه الملاءة- ولم يمسح وجهه بالكامل من القرف الذي علق به: على الرغم من أنّه أنتزع الملاءة من جسمه، بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى - كانت الرائحة المنبعثة منها، حقيرة وليست مألوفة.

كيفَّ الملاءة الثانية لمسح يديه، اللتين غسلهما للمرّة الرابعة، حتّى المرفقين. لم يعد لديه قوة لغسل أعلى من المرفقين.

"حسناً "- قال أرتيوم بصوت مسموع، وهو يستقيم عند حوض الغسيل- " إليّ ببوقكم. سأعزف لكم... فالس سولوفكي "- ولسبب ما تذكّر أفاناسييف على الفور.

اقترب شخصان على عجل من الركن إذ كان يغتسل- رجل وامرأة: لم يكن من الصعب التعرّف على الكعب والجزمة من الصوت. كان صوت قعقعت الكعب سريع، أمّا الجزمة، كما لو كانت تلحق به على مضض.

"أين هو؟"- سألت المرأة بانفعال وتردد- "هنا؟".

فكّر أرتيوم: "يا لها من حمقاء. لقد فقدت الخوف تماماً...".

أجاب المناوب: "هنا، يغتسل. لكنّه... دون ثياب... في الملابس الداخلية فقط...".

" لقد أحضرت له كلّ شيء".

"حقاً، حمقاء- " فكّر أرتيوم مرّة أخرى.

صمت الرجل الذي يرتدي الجزمة- بدا كأنّه في حيرة: لماذا عاملة قسم المعلومات والتحقيقات تحضر سروالاً لفهد مكتمل النضج.

فتح أرتيوم الباب بهدوء، وتطلّع إلى الممر وقال:

"أنا هنا".

نظرت غالا إليه مباشرة، واتسعت حدقتا عينيها للحظة.

السؤال الذي نشأ بداخلها لم يكن موجهاً إلى أرتيوم- "أنت؟"- وإنّما إلى نفسها هي- "... هو؟".

"... فقط ألّا تهرب غالا مع بنطالي..."- فكّر أرتيوم بسرعة.

مدّ يده، من أجل أن يأخذ الحزمة.

لقد ضبطت أعصابها. أومأت إلى أرتيوم بسرعة، وسلّمته حزمة طرية ملفوفة في صحيفة- يمكن للمرأة فقط فعل ذلك.

قالت: "ارتد ملابسك"- كان عليها أن تقول شيئاً ما.

قال أرتيوم: " الآن"- كان عليه أن يجيب بشيء ما.

تبيّن أنّ في الحزمة سروال وقميص، وسترة محبوكة أيضاً.

قام أرتيوم على عجل، وهو يمسك بأصابع قدمه، بالتخلص من جواربه المتصلّبة والشنيعة، وتركها مرمية على الأرض مؤقتاً، ثمّ بعد ذلك خلع سرواله الداخلي، وأراد رميه في سلة القمامة، لكنّه تذكّر، وهزّ كتفيه في اشمئزاز:"... وماذا لو، مرّة أخرى إلى زنزانة العقاب فجأة؟"- وطوى ملابسه الداخلية القذرة، وألقى بها على الصحيفة نفسها التي كانت مفتوحة على الأرضية، ولفت نظره بعض عناوين الصحيفة السخيفة.

بعد أن عاين ساقيه السوداوين، سرعان ما لبس سرواله على جسده العاري مباشرة... فكّر- ووقف بالقرب من الحوض، وغسل أسفل بطنه بالصابون - وليكن هكذا.

رفع جواربه باشمئزاز، ونفضهم، وضربهم على الحائط، وقلبهم من الداخل إلى الخارج وبالعكس، ولبسهم على أيّ حال- كانت الأرضية حجرية.

... جاء القميص وسترة الصوف في الوقت المناسب: ملابس نظيفة - هناك شيء... إنساني في هذا.

نفض السترة ولبسها فوق سترة الصوف، ليس دون صعوبة، ممسكاً بأكمام الصوف بأصابعه حتّى لا تنزلق.

لفّ ملابسه بالجريدة وتطلع إلى الخارج مرّة أخرى.

كانت غالا واقفة وحدها.

ابتسمت لأرتيوم، ابتسامة خفيفة، وبأمل لا زال غير مفهوم، وزرّت عينيها قليلاً، كما لو كانت تعاني من قصر نظر، وانزلقت عيناها عليه، كأنّها تخشى إن هي ركّزت نظرها على شيء ما على الأقل- فسينكشف شيء صعب، غير سار ومؤلم.

دعته بهمس: "هيا بنا...".

قال وهو يحاول أن يبتسم: "أنا حافي القدمين".

نظرت بقلق إلى قدميه.

قالت بهدوء أيضاً : "سنجد حذاءً".

ذهبا غالا وأرتيوم - هي في المقدمة، وهو يعرج وراءها- إلى غرفة تبديل الملابس- الغرفة نفسها التي كان فيها ذات مرّة مع شلابوكوفسكي وإيخمانيس... كان المناوب يقف عند مدخل غرفة الملابس- على ما يبدو، كان ينفذ أوامر غالينا بعدم السماح للممثلين والموسيقيين بالدخول إليها.

قالت غالينا بنشافة: "شكراً لك".

لم يرد المناوب، وهو ما اعتبره أرتيوم أمر غريب. كانت على المنضدة زجاجة حليب وطبق كامل من الفطائر.

بينما كانت غالا تغلق الباب، كان هو هناك، إذ تفوح رائحة البصل والبيض والملفوف...

يبدو أنّه تذكّر أنّ من الأفضل تناول الطعام بشكل أبطأ، لكن الذي حصل أنّه كان يأكل دون أن يمضغ- و يسكب الحليب في فمه.

في الوقت الذي كان يمضغ فطيرة، كان يمسك الثانية في يده الأخرى، وينظر إلى الطبق بطرف عينه: خوفاً من أن يهربا.

كان الحليب فاتراً.

عندما اقتربت غالا، خمّن أرتيوم فجأة، لماذا تزمجر الكلاب عندما يلقون لحوماً، حتّى على أصحابها- لقد اكتشف للحظة أن لديه حافزاً ليزمجر، ويدفع شخصاً غريباً، لكن ببساطة لم يكن لديه وقت لذلك.

لم يشعر أرتيوم أنّه قد أشبع جوعه. لقد رأى فقط أنّه لم يعد هناك فطائر، وأن زجاجة الحليب فرغت.

حاول من جديد أن يبتسم لغالا - ومرّة أخرى لم يحصل الأمر بشكل جيد.

" توحشت هناك"- قالت بهدوء وحزن، ونظرت إليه مدّة أطول قليلاً.

لعق أرتيوم شفتيه، وكما لو أنّه هزّ كتفيه- ووجد بشكل لا لبس فيه ذلك الجزء من الحائط الذي كان دافئاً بشكل خاص- على ما يبدو، كان هناك موقد في مكان ما على الجانب الآخر من الجدار.

جلس على الأرضية مباشرة، وضغط ظهره على الحائط الذي كان لا يزال ساخناً تقريباً.

"دقيقة أخرى، وسأعود إلى الحياة "- وعد، ولسبب ما غير قادر على رفع عينيه إلى غالا، وهو ينظر إلى ركبتيها وبطنها. وأضاف كلمة لم يحبها كثيراً، ولم يقلها قطّ: "عذراً".

كانت غالا ترتدي معطفاً خريفياً قصيراً، وتنورة طويلة رمادية اللون، مع بعض البقع القذرة على الحافة، وكانت تضع يديها في جيوبها.

"هل تعرضت للضرب هناك؟ ماذا حدث لك؟"- سألت بهدوء، وجلست القرفصاء بجانبه. كانت حركتها هذه- أنيقة وأنثوية محسوبة تماماً، وجميلة جداً، فقد جعلت ركبتيها وخط فخذيها مرئيين للغاية فجأة، على الرغم من أنّهما كانا تحت تنورتها- إذا لم تعد هذه الحركة لأرتيوم، الشعور بوجود حياة سلمية أخرى، خالية من الآلام الجسدية، فعلى الأقل تذكّره بوجودها.

رفع يده ولمس ركبتها بأصابعه التي لا تطاوعه والمفلطحة، مثل المجرفة.

نظرت غالا بسرعة إلى الباب: هل أغلقته؟ - على الرغم من أنّ هذا بالضبط ما كانت تفعله بوعي شديد قبل أقل من دقيقة.

سحب أرتيوم يده بنفس الحركة البطيئة: حمل أصابعه التي تشبه كفّ الحيوان عبر الهواء الدافئ.

قالت غالا: "لا يمكنني أخذك إلى مكتبي بعد الآن. لم يعد لدي مكتب حتّى".

"كيف؟" - لم يفهم أرتيوم.

سرعان ما عضّت شفتها السفلية، وسمحت لنفسها أخيراً بإلقاء نظرة طويلة جداً عليه - عينيها في عيني أرتيوم.

وسألت "هل تحبني؟".

لم يكن أرتيوم في وضع يسمح له الآن بفهم كلّ ما وراء هذا السؤال، وما الذي سبقه، وما يمكن أن يتبعه. للإجابة عنه - بعد شبه فقدان الوعي، نتيجة البرد المتواصل، وبعد الجرس والابتسامة الطيبة لعنصر الأمن نصف الذكي، وبعد الحساء (كوليشكا) الذي كان يطلبه الفتى الذي تشبه يداه كفوف الحمام، وبعد أفاناسييف وغرّته المقبوعة، وعويل غراكوف على الموقد، وبعد اكتشاف جسد الكاهن إيوان النصف محطم والمعوج في الصباح، وعينه التي لا تغلق، وبعد الحلم نفسه - والرجال المكومون على بعضهم البعض، وروائحتهم النتنة، وكعوبهم، ومؤخراتهم النحيلة، وظهورهم العظمية، وركبهم الحادة، وبعد الحساء الحامض، غير المخصص للتغذية، بل لقتل البشرية جمعاء، وبعد صيحات "جرّبت اللحم البشري"! و"لقد اغتصبت أختي"، وبعد القديس الذي هرّ مع غبار الجير، وبعد ضرب أرتيوم، وعدم قتله نهائياً بالمصادفة قبل ساعات قليلة - لم يكن لديه أيّ إجابة عن السؤال: لم توجد مثل هذه الكلمة بلغته.

لم يستطع أرتيوم حتّى أن يرمش رداً على ذلك.

سأل: "هل ذهبت إلى جبل سيكيرنايا؟".

أجابت بحرارة: "نعم، كنت... في البداية لم أكن أعرف أين كنت أنت على الإطلاق، ولم أستطع أن أعرف، بأيّ شكل من الأشكال... ثمّ أتيت، وكان هناك هذا الخنزير الفظ...".

" الذي معه الجرس؟".

" مع ماذا؟.. آه، نعم، كان لديه جرس على الطاولة، نائب رئيس القسم، سانيكوف... كان عليّ أن أعود إلى هنا، و...".

"عرفت ذلك. عرفت أنّك أتيت... وأنّهم سيضمونني إلى الفرقة الموسيقية النحاسية".

"من أين؟ هل أخبرك أحد ما ؟".

"لا، لا أحد... قال: لماذا لم يعد لديك مكتب خاص؟".

قالت: "لا يهم. فيما بعد. عليّ أن أغادر من هنا، هل تفهم؟". صمتت غالينا، ثمّ أوضحت: "اتصل فيودور، وحذّر من أنّه سيكون هناك تحقيق... وهناك... مستندات وتقارير ضدي. يجب ألّا أبقى هنا. أنا أعرف ذلك بنفسي. يمكن أن ينتهي كلّ شيء بشكل سيء للغاية. يمكن أن... لا أعرف... سوف أنقل من القسم إلى ثكنة النساء. يا للشيطان".

سأل أرتيوم، وهو يلصق ظهره بالحائط بهناء، دون أن يشعر بالاستياء على الإطلاق- لماذا يشعر بالاستياء إذا كان يشعر بالدفء وشرب حليباً:

" أتيت بي إلى هنا لتودعينني يا غالا؟".

قالت بحزم، وبهذا الجنون الطائش، الذي يحل محلّ التصميم لدى النساء: "يمكننا الهروب معاً. ولكن يجب القيام بذلك الآن فقط. سيكون الوقت في تشرين الثاني قد تأخر- سيحل البرد. هل أنت... قادر؟ وإلّا سيقتلونك هنا، يا تيوما".

أجاب: "نعم"، وهو يقصد أنّهم - سيقتلونه.

لم يكن لديه من خيار.

"هل يؤلمك سنك؟" - سأل، ولو لم تكن يداه ملتويتين لهذه الدرجة، لكان قد مسّد خدها.

مرّرت إصبعين على وجهها من عظمة وجنتها إلى ذقنها المنحوتة بشكل جميل.

سألت: "هل هذا ملاحظ؟".

كانت مستاءة، من أنّ ذلك ملاحظ.

قال أرتيوم بصراحة: "لا".

أمرته غالا بالذهاب إلى المستشفى ليفحصه الدكتور علي، ووعدته أن تتفق معه.

غادرت هي أوّلاً، جلس أرتيوم بعد ذلك خمسة عشر دقيقة أخرى بجانب الحائط في غرفة تبديل الملابس- ظهر الفنانون والموسيقيون، كانوا يمشون ذهاباً وإياباً، وهم يتطلّعون إلى الشخص الجديد، لكنّهم لم يسألوا من هو.

لم يكن مهتماً.

شعر أرتيوم فجأة، كأنّه كلب ترك بين الناس- لكن لا أحد يعرف بماذا يفكّر. ها قد خشخشت تنورة بالقرب منه. ها قد أتى شخص ما بحذاء مطاطي ترك أثراً وسخاً، وصوته مزعج - ربّما أعضه؟.

يبدو أنّه غفا.

... استيقظ في الوقت المناسب، ونهض وهو يتأوه، وذهب إلى المستشفى- لاحظ مرّة أخرى أنّ عدد الأشخاص في الفناء أقل بكثير ممّا كان عليه في الأوقات السابقة- كان الرئيس الجديد للمخيم قد وضع قواعده الجديدة.

لم تعد غالا موجودة، لكنّه صادف لحية الدكتور علي عند المدخل مباشرة- وقد عرف بعيونه الكرزية، وفقاً للوصف، أنّ أرتيوم قادم إليه.

فحص أرتيوم بسرعة، ولمسه بأصابعه القويّة جداً والكبيرة جداً، واستنتج على الفور بلهجته المميزة:

"لا توجد كسور، لا أستطيع أن أبقيك هنا، وإلّا فإنّهم سيعاقبونني. لكن يمكنني أن أبقيك تنام هنا ليلة واحدة. وتأكل قدر ما تشاء.

كان في مزاج طيب، ويبدو أنّه كان يقول الحقيقة.

أعطوا أرتيوم جزمة قديمة لشخص ما. وأطعموه في مطبخ المستشفى وحده- أكل هذه المرّة ببطء وعناد، أربعة حصص من عصيدة الدخن، وجبل كامل من قطع الخبز المتعفنة - ماسحاً العفن بكمه، وشرب اثني عشر كوباً من الماء المغلي.

دفي أخيراً، لكن لم يستطع الوثوق بهذا الشعور بأيّ شكل من الأشكال- وعلى الرغم من أنّه كان جالساً في مطبخ دافئ مرتدياً سترته الصوفية الدافئة وسترة أخرى فوقها، إلّا أنّ القشعريرة، كانت تزحف فجأة، إمّا من الخصر إلى الرقبة، كما لو كان شخصاً ما كان يجر لسانه البارد على طول الفقرات، وإمّا يلعق بهذا اللسان نفسه من السرّة إلى الإبط، مروراً بالثدي الأيسر، وكذلك بدأت رجلاه وأسفل بطنه في التجمّد.

قال الدكتور علي الذي دخل إلى المطبخ: "لم يتبقّ عصيدة دخن. هل ستستحم ؟".

تطلّع أرتيوم إلى وجهه الداكن الكبير الشفتين- وبياض عينيه الواسعتين، وآذنيه اللحمية- كان هذا الشخص يعرف بشكل رائع متى يكون سيئاً ومتى يكون جيداً، وكانت لحيته إمّا رهيبة، وإمّا لطيفة.

نهض أرتيوم ومال على جانبه.

قال الدكتور علي باهتمام مصطنع نوعاً ما: "أنت بحاجة إلى النوم". تذكّر أرتيوم على الفور كلمات الكاهن إيوان " أنا قسٌّ جيد!". واصل الدكتور:

"سأعطيك سريراً بعد الاستحمام، أم أنّك ستأكل أيضاً، ثمّ بعد ذلك تذهب للنوم؟ لا زال يوجد سمك قدّ".

قال أرتيوم: " سآكل أيضاً ". بعد كلّ كلمة، كان فمه يلتصق، وكان عليه أن يبذل جهداً لفتحه.

... خلع ملابسه بشيء من بعض الأسف والخوف: فيما لو تركتها هنا- هل سيأخذونها؟ هذه سترة صوفية.

متمسكاً بالجدران الرطبة، وقف تحت أوّل حنفية دوش، وفتح الماء، وانصب ماء مغليٌ تقريباً عليه- لكنّه، لاعناً، تحمّل وظل واقفاً، وشعر كم هو لطيف أن يكون مسلوقاً ومحروقاً، وجلده مسلوخاً، وعيونه تكاد تنفجر من الماء المغلي... كانت ركبته المريضة توجعه- وضعها أرتيوم تحت الماء عمداً... كشط نفسه بأصابعه ببطء، ونفّ، وأدخل إصابعه في أذنيه، وخزته إحداها بقوّة عندما لمسها، ولكن واصل إدخال أصبعه على أيّ حال... تبوّل، ولم يكلّف نفسه عناء مساعدة نفسه بيده أم إبعاد ساقه التي تلوثت... ملأ فمه بالماء الساخن، ولم تكن لديه القدرة على بصقه، وقف هكذا وفمه مفتوحاً يتدفق منه الماء...

خرج من الحمام، وهو يترنح، وجفف نفسه بطريقة ما- بكم قميصه، لعدم وجود منشفة لديه. نزل إلى المطبخ مرّة أخرى، إذ كانت تنتظره قصعة فيها سمك القد هناك، وأكل سمك القد غير المملح بشكل كاف، مسلوقاً أكثر ممّا يجب، ليس لذيذاً، غير طاجزج - رشّ عليه الملح بوفرة من مملحة، وكان يجمع القطع المتفتتة، وهو مبتهج ويتلذذ- على الرغم من أنّ عينيه كانتا تلتصقان بعضهما ببعضٍ، ونام على المقعد مباشرة.

كان عامل سابق ينتظر عند الباب، وتذكّره أرتيوم، لقد التقيا هنا في وقت ما.

خمّن أرتيوم دون كلمات، أنّ العامل أرسل ليريه سريره، قام أرتيوم ولحق به بصعوبة، وعندما رأى سريره- نام على الفور، مع أنّه بقي خطوات عدّة أخرى للوصول إليه، وبعد ذلك، خلع جزمته، وربّما فعل شيئاً ما، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر ذلك قطّ.

لقد نام حتّى منتصف الليل: في منتصف الليل، أم نحو ذلك، فتح عينيه، وتذكّر على الفور ما قالت له غالا أمس، واجتاحته نوبة من الخوف- الطفولي والضخم، الذي يشنج الساقين، لكن في الوقت نفسه لم ينس لمس جزمته بيده، هل هي مكانها- كانت الجزمة مكانها هناك- وكانت سعادته الرائعة النوم وحيداً، تحت الغطاء، في غرفة المستشفى المدفئة - تبيّن أنّها أقوى بكثير من أي موت يلوح في الأفق في الغد. كان المرضى يئنون بالقرب منه، دعا أحد ما الممرضة، ولكن نتيجة ذلك أصبح أكثر هدوءاً وضبابية، وزحف أرتيوم مع رأسه إلى مكان ما في العمق، إلى الوكر، إلى دفئه، إلى طفولته، إلى رحم أمّه، إلى بطن والده، إلى نبضات القلب البعيدة والموثوقة مثل الأرض، والغمغمة التي من الصعب تمييزها والنصف حيوانية لأسلافه الذين حملوا حياته المحمومة والمضحكة، من مجاهل الغابات التي تقع مكان وجود قبائل تشود وموردفا، من تحت حوافر أحصنة البيتشينك، وصراخ البولوفتسيين، من الطرق المتقاطعة المعقدة بين نوفغورود، وكييف، وسوزدال، وريازان وتموتاراكان، من تحت عين التتار الدقيقة، وفتنة وعدوى الطاعون، وحرائق ستبان رازين، وعبر فشل المحصول كلّ سنتين أم ثلاثة، من تحت حوافر أحصنة حرس القيصر إيفان الرهيب، من تجنيد بيتر الأوّل، ومن الأتراك والألمان، وطعنات سكاكين الخمّارات، وعقم النساء، والجفاف والفيضانات، وأباليس المياه والغابات، والفرسان، والمشاة، والجلد في الإسطبلات، وغضب الجيران، وأيٍّ من نسله الذي علق في طريق ضوء الله في منتصف الرحم- حملوه إلى هنا إلى جزيرة سولوفكي.

نام أرتيوم، وهو يطبق عينيه بكلّ قوّته، ورأى حلماً، كأنّه على متن قارب ضيّق، يتحرك على طول نهر سريع وساخن من دمه- وقاده تدفق هذا الدم إلى التاريخ البعيد، إذ عند أحد منعطفات النهر جرى شدّ وتر القوس بكلّ قوة، لكنّهم شدّوا القوس أكثر مما يجب - سقط السهم خلف ظهر أحد أسلافه البعيدين،، بسماكة شعرة فقط، وفي منعطف آخر- أطلقوا النار من المدافع، لكن

أي جسم كان يصطدم بالرياح المعاكسة، كان يطير بالقرب من صدغ والد جده بعرض راحة كف واحدة، وفي المنعطف الثالث- تدحرجت من العتبة والدة جدته، عندما كانت فتاة، والأصح من ذلك عندما كانت طفلة، لم يكن عمرها حتّى عامين، بينما كان الجميع في الحصاد، وزحفت تماماً لمسافة، إلى حدّ لا تحترق فيه، عندما اشتعلت النار، واحترق الكوخ، وفي المنعطف الرابع- والدة جدّة والدة جدته، لم تمت من حمّى الولادة الأولى، وولدت بعد ذلك سبعة أطفال، وكان السابع أوّل أسلاف أرتيوم المباشرين، وعلى المنعطف الخامس - الجد السابع لأرتيوم - كان يحصد العشب على ضفة النهر عندما كان لا يزال فتى، وعندما نام من التعب، تلقى ضربة شمس مميتة على قفا رأسه، كان يمكن ألّا يستيقظ، لكنّ الملاك الملحاح دفع جاره المتثاقل، للذهاب إلى نفس المرج في الغابة، وهو لا يعرف لماذا، ووجد الجد السابع لأرتيوم، وأيقظه، وأمسكه من صدره، بينما كان يتقيأ على العشب المحصود حديثاً، وفي جميع المنعطفات الأخرى، فإنّ أسلاف أرتيوم اللاحقين بوجوههم المختلفة وأعينهم الكبيرة، رغم الغرق والانتفاخ من الجوع، والاختناق من دخان المواقد، والتسمم من الكحول، ورغم ضربهم بالسوط، والتشويه، وسقوطهم من على الأسطح وأبراج الأجراس، وسقوطهم تحت حوافر الأحصنة، واختفائهم في العواصف الثلجية، وضياعهم في الغابة، وسقوطهم في أوجرة الدببة، والتقائهم مع قطيع الذئاب، والانتحار، ومعاناتهم من تعذيب الفلاحين، ولكن في كلّ مرّة ليس حدّ الوفاة، على الأقل لم يموتوا حتّى يوم قدوم قارب أرتيوم بالضبط، وبعد ذلك فقط كان من الممكن الآن أن ينزلوا تحت الأرض والذوبان فيها.

كان قدومه إلى العالم نتيجة مباشرة لسلسلة من المعجزات التي لا تعد.

بعد أن عمل دائرة كاملة في جميع أنحاء جسده، عاد أرتيوم إلى المكان الذي سبح منه، في اليوم نفسه، تحت السماء نفسها، وفي سرير المستشفى نفسه - وفتح عينيه.

أمرته غالا أن ينتظر حتّى انتهاء التفقد الصباحي، والقدوم إلى رصيف الميناء. أعطته تصريحاً للمرور عبر بوابة نيكولسكي.

عثر أرتيوم، الذي كان لا يزال مستلقياً تحت الملاءة، على التصريح في السترة وسحبه: كان على المستند أن يثبت أنّ حديث أمس المتسرّع - لم يكن من الخيال.

يبدو أنّه مثل هذه الورقة التي فقدها بالفعل، ووجدها لاحقاً في مستودع الحطب... لكن هذا الاكتشاف هل جلب له السعادة، لم يتذكّر أرتيوم .

ولم يكن يريد أن يتذكّر.

كان يجب عليه هو وغالينا أن يركبا من الرصيف في قارب، كأنّهما يتوجهان إلى جزر الأرخبيل: كانت بحوزتها ورقة المهمّة المناسبة.

لم يكن ينبغي لأرتيوم أن يكون في هذا القارب على الإطلاق- لكنّهم لن يبحثوا عنه لبعض الوقت، وعلى أيّ حال، ليس على الفور. لأنّه جرى إعادة السجين غوريواينوف من عقوبة العزل على جبل سيكيرنايا إلى المعسكر، مع نقله إلى سريّة الفنانين، وأعطت غالا لقائد هذه السريّة وثيقة مزورة أنّ أرتيوم غوريواينوف لن يكون قادراً على العمل الفني، وجرى إرساله إلى المستشفى بسبب المرض. أمّا بالنسبة للدكتور علي- فقد كان متأكداً من أنّ السجين الذي نام ليوم ونصف اليوم على أحد الأسرّة، يعرف إلى أين يجب أن يذهب، ولم يكن لديه أيّ علاقة به على الإطلاق، لذلك لم يبقيه بشكل رسمي في المستشفى، وإنّما تركه لليلة واحدة بتوصية - أم بالأحرى، بطلب من غالا- وعلاقته الآن مع غالا فقط.

أرسلت غالا الميكانيكي الذي يمكنه قيادة القارب إلى ورشة التصليح، لإصلاح محرّك قديم. كانت تعرف كيف تقود القارب بنفسها: على الأقل هي قالت ذلك.

نسي أرتيوم، أن يسأل إلى أين سيتوجهان، ولم يرغب في ذلك كثيراً: أينما أبحرا، سيتم اللحاق بهما، ويجب أن يلحقوا بهما، لأنّ في سولوفكي تحدّث الكثيرون عن الهروب، لكن لم يستطع أحد الهرب على ما يبدو، فقد أعادوا

الجميع وقتلوهم هنا، وأعلنوا ذلك في التفقد المسائي، لكن في أغلب الأحيان كان يجري قتلهم في الطريق.

خرج أرتيوم إلى ضوء سولوفكي الأبيض، كانت ركبته تؤلمه قليلاً، وكانت أذنه تؤلمه أقل، وتنفّس جسده وطلب العيش، مثل كلب مربوط يطلب المشي مع صاحبه، ليعض العشب، ويشم الهواء، وينبح على السنجاب.

لكن كان هناك القليل من القوة، وتجمّد العقل في زنزانة العقاب: كان يدرك كلّ شيء ببطء وبشكل مبهم.

كان يبدو كايّ سجين عادي - لقد اختفت لياقته البدنية التي كانت لديه في حي زاريادي في وسط موسكو، وخمد بريق عينيه، وفقد غروره، وانمحت مشيته - كأن أرتيوم استبدل ورقته الرابحة ببطاقة غير رابحة، القص السري الذي في كمّه إلى ورقة تافهة.

كأيّ شخص مقيم في سولوفكي وخائف حتّى العظم، سار أرتيوم بإحساس أنّهم سيلاحظونه حتماً.

بدا له أنّ عنصر الأمن الذي يقترب منه سيوقفه ويسأل بهدوء: " أنت ذاهب إلى رصيف الميناء، ثمّ الهروب؟" - وعليك أن تجيب: "نعم" - وبماذا عدا ذلك؟.

ضحك جنديان من الجيش الأحمر كانا في الفناء، وهما ينظران إلى أرتيوم، ربّما قال أحدهما للآخر: "انظر، هناك ابن آوى في سترة امرأة - يعتزم الهروب!".

"هل حقاً سترة نسائية؟" - فكّر أرتيوم بلا مبالاة.

سُمِحَ له بالخروج عبر نقطة الحراسة عند بوابة نيكولسكي دون عوائق، على الرغم من أنّه لم يفكّر بماذا سيجيب في حال سؤل: "إلى أين؟".

سار أرتيوم إلى الرصيف، وشعر أنّ شخصين يحملان بندقيتين كانا يتبعانه لإطلاق النار عليه في مكان ما بالقرب من ثكنة النساء، ولن تأتي أيّ أمٍّ إليه بعد الآن - لقد طردوا والدتك منذ فترة طويلة إلى بيتها، أيّها الفتى الغبي، رأتك -

وهذا يكفي، تدبّر أمورك بنفسك - لقد كبرت، وبتّ قادراً على الدخول إلى تابوتك، وإغلاق الغطاء على نفسك.

التفت وراءه: لا أحد.

كان يتذكّر جيداً الخليج الذي كان يسمى السلامة: كان يعمل هنا في بداية الصيف حمالاً.

إلى اليمين منه كانت تقع ثكنة النساء، وهو مبنى خشبي ذو نوافذ، جرى طلاؤها باللون الأبيض مؤخراً، ومن هناك كان يمكن سماع أصوات معارضات الثورة والعاهرات السابقات. عندما كان يعمل هنا حمالاً، بدت هذه الأصوات لطيفة في البداية، ثمّ أصبحت منفرة أكثر فأكثر.

كان الرصيف فارغاً، وجلست مجموعة من سجناء عدّة في مكان قريب، تنتظر رئيسها.

رأى أرتيوم غالا على الفور: كانت جالسة في القارب وحدها، هادئة جداً. كان أحد جنود الجيش الأحمر يقف على الجسر الخشبي، ويسألها عن شيء ما، وهي تجيب- كانت الريح تهب في الاتجاه الآخر، ولم يسمع أرتيوم الحديث.

شعر جندي الجيش الأحمر بحركة ألواح الجسر الخشبي تحت قدميه، ونظر إلى أرتيوم.

"وأنت ماذا تفعل هنا؟"- سأل بوقاحة، على الرغم من أنّ الابتسامة كانت لا تزال تطفو على وجهه، التي بقيت بعد حديثه مع غالينا.

كان جندي الجيش الأحمر وسيماً، بعيون زرقاء، وأنف مستقيم رفيع، وشفاه ورديّة، وبشرة سمراء، وجرح بسيط على خده - كان قد حلق ذقنه للتو، حتّى إنّ الجرح جميل.

" إنّه معي"- قالت غالا، متمسكة بإحكام شديد بحافة القارب.

كان هناك في مقدمة القارب، طنف، على شكل ركن، وهو الآن ملآن بالأغراض المحزومة.

نظر جندي الجيش الأحمر إلى غالا، كما لو كان ينتظر أن يقتنع أنّها مزحة، ونظر مرّة أخرى إلى أرتيوم - باهتمام منفر.

"هل هو ميكانيكي جديد؟" - سأل، ولم يرفع عينيه عن أرتيوم ووجهه المشوه.

لم تجب غالا بشيء، لكنّها نهضت- وقامت بشدّ حزامها، وتلمست حافظتها. اهتزّ القارب. كانت غالا ترتدي معطفاً جلدياً طويلاً، لا يتناسب مع طولها، بدت فيه ممتلئة الجسم، ومن ثمّ غير رشيقة.

تجاوز أرتيوم جندي الجيش الأحمر، وصعد، بساقيه المرتخيتين وأنفاسه المتقطعة، على متن القارب بصعوبة. كان قلبه ينبض- كما لو كان يتدحرج من على جبلٍ، وعلى وشك السقوط في الماء، وسرعان ما سيغرق في القاع.

قالت له غالا: "انتظر، يجب فكّ الحبل... "، ناظرة إليه بعينين غاضبتين. لاحظ أرتيوم الآن فقط مدى شحوبها.

"اجلس، أيّها الأحمق"- قال جندي الجيش الأحمر ساخراً، وهو يفك الحبل ويحرّر القارب.

وقف أرتيوم بكامل طوله، منتظراً.

ألقى جندي الجيش الأحمر بالحبل في وجهه مباشرة، عن قصد- وأصابت نهايته أذنه بشكل مؤلم جداً- وانسحب الألم إلى عينه: كما لو كان معلّقاً على وريد ممتد من الأذن، والآن شدّ هذا الوريد بحدّة.

انفجر شيء ما في أرتيوم الآن.

قال جندي الجيش الأحمر، راسماً ابتسامة استهزاء على وجهه: "اعتني بالمفوّض المواطن، يا وجه ابن آوى ".

"أنت أيّها المشوّه! أيّها القبيح!"- فكّر أرتيوم بشراسة، مغمضاً عينيه من الألم، وأمسك بالحبل ودفع القارب بعيداً عن الشاطئ، وزأر من بين أسنانه، ما لم يتوقعه هو من نفسه:

"سوف أمتص عينيك، أيّها الوغد المتقيّح! سأخرج أحشائك كلّها من فمك، ع-ع-عاهر!" - ولوّح بالحبل الذي كان يمسكه بيديه، في وجه جندي الجيش الأحمر المبتسم باستهزاء، وعلى الرغم من أنّ الجندي كان يدرك أنّ الحبل لم يعد يصل إليه، فقد جفل - ومن خوفه اللحظي المخزي، استشاط غاضباً.

"قف!"

- صرخ بشكل هستيري، ناظراً أوّلاً إلى أرتيوم، ثمّ إلى غالا، وحرّر البندقية من على كتفه - "أعيدي بن آوى هذا إلى هنا!".

" توقف!" - صرخت غالا فجأة بصوت عالٍ وآمر: لم يستطع أرتيوم حتّى تخيل أنّ مثل هذه القوة والغضب يمكن أن يكونا كامنين في هذه المرأة الشابة التي هي دون ذلك ليست ضعيفة - "عد إلى مكانك، أيّها الحثالة! عد إلى موقع سريّة الحراسة!".

توقف جندي الجيش الأحمر عن الكلام على الفور، لكنّه بقى ممسكاً بالبندقية على أهبة الاستعداد، وهو يحرك شفتيه الملتويتين، كما لو كانتا غريبتين ومنفصلتين خيّطت على وجه ولم تلتحم به.

شدّت غالا أرتيوم من سترته بحدّة بمعنى: عد بسرعة للوراء، أيّها الأحمق.

أدارت المحرّك من المرّة الأولى - لم تكن حركاتها بسبب الملابس الثقيلة رشيقة، لكن، على ما يبدو، ساعدها الغضب الثاقب.

" لا زلت تركبينه معك؟" - صرخ جندي الجيش الأحمر من خلال هدير محرّك القارب الذي ابتعد - "ربّما تقبليه أيضاً، أيّتها المفوضة؟ سوف أبلّغ عنك! أيّتها الكلبة القذرة!..".

صرخ بشيء آخر أيضاً، هازّاً بندقيته، لكن لم يعد يسْمع.

نظر السجناء الجالسون على الشاطئ، إلى كلّ ذلك: بعضهم بابتسامة ساخرة، والبعض الآخر بخوف.

سبحت فقمة وراء القارب مدّة قصيرة، كانت تختفي وتظهر، كما لو أنّها كانت تغيظهما وتمتعهما.

كانت دموع غالا تنهمر على وجهها.

أرتجف أرتيوم لدقيقة، لاثنتين، لثلاث.

ثمّ عاد تنفسه، واستكان قلبه المشوه مكانه.

نظر إلى الدير - كان يجب أن يطلقوا شارات في السماء الآن - هناك هروب!- لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل.

حتّى الأشخاص على الشاطئ، الذين لا زالوا مرئيين، بقوا جالسين كما هم.

بدا الدير من البحر في ضوء الصباح، يشبه كعكة سكريّة.

قال أرتيوم: "أمضغوا وحدكم، ستتكسّر أسنانكم كلّها منها..." - على الرغم من أنّه لم يشعر بأيّ تبجح على الإطلاق، وإنّما بكتلة كئيبة في صدره فقط.

تمتمت غالا بهدوء:"أنا أكرههم... أنا أكرههم كلّهم... كان يجب أن أطلق النار عليه. لماذا أنا لم... حثالة. اكرههم".

كان أرتيوم ينظر إمّا إلى غالا، وإمّا إلى الماء. كان الماء بارداً وفظيعاً.

ثمّ عاد ينظر إلى غالا من جديد. كانتا عقدتي فكيها واضحة كما لدى الرجال.

ضغطت على دواسة البنزين حتّى عوى القارب وقفز مجازفاً بالانهيار. كانت تضغط بيدها اليمنى شديدة البياض، ذي الأصابع الرفيعة،غير الطويلة كثيراً، وتمسك بعجلة القيادة - عصا حديدية موجهة نحو صدر أرتيوم.

سأل نفسه بصدق وبساطة: "من هذه المرأة، يا أرتيوم؟ هل تعرفها؟".

كانت غالا تنظر إلى الأمام - تقود القارب، دون أن تنظر إلى الوراء.

كان لديها أكمام فرو من جلد القندوس، وكان الجزء العلوي من جزمتها مصنوعة من الحيوان نفسه.

بعد بضع دقائق، أدرك أرتيوم تماماً، أنّهم لن يلحقوا بهما الآن مباشرة، وسيتعين عليهما العيش بطريقة ما في هذا القارب الآن، والقيام بشيء ما، ومواصلة اللعبة، أنّهما يبحران بعيداً ولن يمسك بهما أحد... وكان من الضروري البحث عن قوّة من أجل ذلك.

... سرعان ما فقدت كتلة الدير الضخمة، حجمها ووزنها، وأصبحت أصغر وأخف- اتضح أنّ العالم من حوله أضخم بكثير. كان الأمر قبل ذلك يبدو العكس- عالم صغير ودير عملاق ثقيل.

مرّ وقت غير طويل، وأصبح الدير يرى بقعةً صغيرةً على الشاطئ. ارفع إصبع السبابة إلى الأعلى، وسترى الدير، بحجم بقّة الفراش، لا يرى من وراء أظفرٍ واحدٍ.

لكن لم يخطر ببال أرتيوم أن يعتبر نفسه حراً. كيف حر- في وسط هذه المياه التي حوله، تحت هذه السماء الثقيلة، التي لا تستعجل اللحاق بهما حتّى- وإنّما معلّقة فوق رأسيهما دون حراك.

فكّر أرتيوم بشفقة لا تطاق على نفسه، وبأمل سخيف: "ربّما أتوسل إليها أن تتجه إلى جزيرة الثعالب؟ نصل إليها، وهناك كرابين، سيبتهج. سوف يشعل الحمام. وسيصنع طباخ الثعالب الفطائر... سيكون هناك حفل... سأعطي غالا لكرابين، دعه يستخدمها. أمّا أنا فيمكنني العيش حتّى ولو في شقة الثعلبة. سوف آكل من وعاء الثعلبة، وافتح فمي لدخول الرقائق لقتل الديدان... ".

نظر أرتيوم إلى غالا مرّة أخرى، ولم يكد يمنع نفسه من قول كلّ ذلك.

أدرك أن ذلك مستحيل.

لا يمكن تغيير أيّ شيء يا أمي. سبحت في الاتجاه المعاكس.

دوّى المحرّك.

نظر أرتيوم بدهشة إلى الصندوق الحديدي: هل يمكن تأمينه على روحين بشريين؟ هل سيحملهم إلى الجزيرة، إلى البر الرئيسي، إلى المياه الأجنبية؟ إلى

حيث أرادا التوجه... كيف يمكنك أن تأمل في ذلك؟ كان لا بد للمحرك أن يتعطّل في أيّ دقيقة.

بدأ أرتيوم يتجمّد بسرعة من البرد، ومن العبث قلب ياقة سترته.

وخزت غالا قدمها في حزمة على أرضية القارب: "هنا ثياب. ارتد بسرعة. لن يكون هناك مكان للتدفئة".

بعد عذاب لبضع دقائق، فكّ أرتيوم الحزمة الثقيلة.

تبيّن أنّ في داخلها ثياب كثيرة.

سترة أمنية من فراء الفقمة- دخل أرتيوم فيها على الفور، مظهراً الاهتمام الحيواني بنفسه. كان هناك أيضاً غطاء رأس جلدي أمني مع أذنين كانت ضرورية أيضاً. قفازات! شتوية... أتت في الوقت المناسب.

سروال مصنوع من القطن... حسناً، جيد أيضاً. خلع جزمته وهو يلعن، ولبسها بصعوبة وهو يشد رقبتها فوق سرواله، القطني أيضاً.

أصبح مهيباً وضخماً- فقد بدا قبل ذلك في مقابل غالا، كأنّه فتى مراهق ضعيف تماماً، يعج بالقمل.

أصبح فجأة أكثر هدوءاً.

نفخت رياح معاكسة في رأسه.

قالت غالا: "هناك شيء ما يقعقع في مقدمة القارب، أنظر".

اقترب من مقدمة القارب ليتحقق من الاحتياطيات: كان عليه أن يشغل نفسه.

عبوات وقود، ومجاديف، ومعهم أغاليق، وخطّاف، ومصباح يدوي، وفأس، ودلو. وغرّاف، ومرساة، ومعولان قصيران، وسكين، وساطور، وبريموس، ومنظار، ولحاف، ورزمة لفّت بإحكام فيها شيء ثقيل مثل البسامير، وخيوط مشاقة.

أعاد بعض الأشياء إلى مكانها من جديد.

أرغفة عدّة من الخبز، وصندوق لحم معلّب، وصندوق سمك معلّب، ومعطفان مطريان، وقطعة من القماش السميك، وقوارير عدّة - هزها أرتيوم - كان هناك شيء ما بداخلها.

ترك قسماً من الأشياء غير مرتّبة في مكانها: سيكون هناك الوقت الكافي للقيام بذلك.

نظر إلى غالا - بأقصى قدر ممكن من المفاجأة، وحتّى الاحترام أيضاً، الذي كان قادراً عليه الآن: لقد جهزت كلّ شيء!.

لم تفهم غالا نظرته وصرخت:

"فودكا. بإمكانك أن تشرب إذا أردت".

"وأنت؟" - سأل وهو يرفع قارورة.

نظرت غالا إلى أرتيوم وأومأت برأسها موافقة.

أبطأت المحرّك قليلاً. أصبح الهدير مستوياً، كاد رأسه ينفجر نتيجة هذا الزئير.

فتح أرتيوم القارورة وأخذ رشفة. لم يشعر بشيء على الإطلاق، في هذه الريح. كلّ شيء اشتعل واحترق في داخله في الأسابيع والأيام والساعات الماضية - ذوبته الفودكا على الفور، أم أيّاً كان هذا الكحول، لم يترك أيّ أثر. شرب أيضاً، وحتّى إنّه أبقاه في فمه...

بينما كان السائل في فمه - مع ذلك أنّه كحول، نعم - شعر به. لكن لم يكد يبتلعه - اختفت طعمته مرّة أخرى. دون فائدة... أعطى القارورة لغالا.

أخذت رشفة سريعة وقصيرة، وأعادت القارورة بصمت إلى أرتيوم.

سأل: " هل تعرف إلى أين نحن نبحر؟".

بانت بعض الجزر البعيدة. سيكون من غير الجيد أن نتعثّر في إحداها، ونكتشف فيها منشأة بعيدة لمعسكر سلوفكي.

نظرت غالا إلى أرتيوم من جديد: لقد ظهرت لديها هذه الطريقة، أن تنظر إليه قبل أن تجيب - هل الشخص الذي أمامها هو نفسه الذي كان من قبل، هل من الممكن التحدّث معه.

"لقد أبحرنا إلى هنا مع فيدور"- أجابت بإيجاز وبصوت عالٍ، وضغطت من جديد، وعلى دفعات، على دوّاسة الوقود.

أومأ أرتيوم برأسه. أبحرا، وليكن سبحا. ما علاقته هو فقط بذلك.

سأل:" هل يمكنني أن آكل شيئاً ما؟".

فكّر: "سيلحقون بنا الآن- لن يعطوني طعاماً مرّة أخرى".

أجابت غالا: "نعم"، ناظرة ليس إلى أرتيوم، لكن إلى مكان ما من فوقه.

أخذ سكيناً، وعلبة سردين. فتحها بسرعة. أخرج السمكة بيديه وأكل. قسم قطعة خبز. لذيذ السمك مع الخبز.

فتح القارورة من جديد، وشرب مرّة أخرى.

شعر أخيراً بشيء مثل الوخز في وريد صدغه: شعر بالحرارة.

لم ينظر إلى غالا- ربّما لا يعجبها ما يفعله- عندها سيكون عليه أن يشعر بالحرج، وفعل شيئاً ما للتغلّب على هذا الشعور.

في هذا الغموض، وآذانه المسدودة، شعر أنّه على ما يرام تقريباً. كلّما تذكّر أقل، من أنت، وكيف أنت، وإلى أين أنت، كلّما كان ذلك أفضل. من الصعب بشكل مضاعف أن تتذكّر، عندما لا تعرف ذلك.

زأر صوت المحرّك، وأحياناً قليلة كانت تتغير نغمة صوته. أم ربّما غيّر أرتيوم وضع رأسه، وبدأت الريح تهب بطريقة مختلفة - بدا عندها أنّ المحرّك يئن، وقد انخفض نصف طن.

إذا زررت عينيك ، وحاولت التفكير والشعور بشيء مثل عظم جبهتك، فإنّ المحرّك يصبح مثل حشرة تطن فوق رأسك.

حشرة ضخمة، لكنّها غير خطيرة- بل إنّها تحمي من بعض الأخطار الأكثر فظاعة.

كانت هذه الحشرة في بعض الأحيان، كأنّها تتأرجح. وفي أحيانٍ أخرى كانت تذهب إلى الأمام قليلاً. ولكن كلما ابتعدت، حافظت بثقة أكبر على وجودها فوق القارب تماماً.

كان هناك شريط من الماء بلون مختلف في البحر- كان هذا، على ما يبدو، تياراً معاكساً وسريعاً جداً.

كانت الدلافين البيضاء تلعب في الشريط. عند سماع القارب، لم تهرب، لكنّها راقبت. نفثت إحدى الدلافين من ظهرها وتراً من الماء مثل حوت.

قالت غالا بشكل غير متوقع، وهي تبطئ سرعة القارب قليلاً: " يقول سكان الشاطئ إنّها تحمل أطفالها على ظهرها. تبرز ظهرها- ويجلسون هناك مثل القطط الصغار".

نظر أرتيوم إلى غالا: كانت هادئة تماماً، بل جميلة- لكن حجمها في الملابس الجلدية أثّر في الانطباع.

ابتسم لغالا فجأة واستجابت هي لابتسامته.

أشار لها، عارضاً عليها سمكة، رفضت بحركة من رأسها دون أن تتكلّم.

غمس أرتيوم الخبز بالسائل الموجود في علبة السمك، وعجنه بأصابعه. كرّر هذه الحركة أربع مرّات أخرى، وأخيراً فحص العلبة وألقى بها في البحر. كان يمد يده ويمسك بالرذاذ، ومن وقت لآخر، يمسح يديه بعضهما ببعض، ثمّ بسترته، ثمّ بعد ذلك بسرواله.

انحنى للخلف، ونظر إلى السماء- كانت ثقيلة وقذرة

بدأ شيء أزرق سميك قاتم يتكوّن في مكان ما في الأمام، حتّى لا يسمح لهم بالذهاب إلى أيّ مكان.

طلبت غالا: "أحضنّي".

كانت تنتظر ذلك منذ مدّة.

قالت غالا: "أنظر إليك - كما لو أنّني خطفت طفلاً، لا يمكنك فعل أيّ شيء.

لم يكن لدى أرتيوم إمكانية هزّ كتفيه أم اصطناع تعبيرٍ ما على وجهه: كانا يجلسان جنباً إلى جنب.

"لكن أنت تعرفين فعل الكثير" - فكّر أرتيوم. ما قالته حقيقة دون شك - هناك أشياء كانت تعرف كيف تفعلها: كانت تقود القارب بثقة، وكانت تخرج البوصلة والخريطة من وقت لآخر، وتقارن بينهما.

كان لأوّل مرّة يرى بوصلة. وركب القارب للمرّة الثالثة في حياتيه. ولم يفهم في الخرائط.

"من أين هذا القارب؟" - سأل، مبتعداً، وهو ينظر إلى أطراف كمي فرو القندس. كان أرتيوم يبحث منذ فترة، عن سبب للابتعاد قليلاً عنها، وكان غير مرتاح ، وتسلّل الحزن إليه من جديد.

اجتاحه شعور غريب لأوّل مرّة في حياته: هناك الكثير من الرياح، والكثير من الفضاء، لكنّه كان يختنق، كأنّه تحت جدار من الطوب.

في فمه أيضاً، طعم الطوب غير المناسب هنا. الطوب والسمك.

بالإضافة إلى ذلك، كان يريد كلّ الوقت أن يلتفت للوراء: ما إذا كان أيّ شخص يلحق بهما. كان من وقت لآخر يستدير ويحدّق إلى حدّ الألم في عينيه.

أمّا هي - فلا.

" لا بأس لو كان لي..." - تابعت غالا، ولم يفهم أرتيوم في البداية ماذا تقصد بكلامها- سألت:" على الغالب أنت لا تعرف كيف تطلق النار، أليس

كذلك؟ أعطني كحولاً أيضاً... تجمّدت من البرد... لقد بدوت لي قوياً جداً في البداية. ماذا تستطيع؟ لماذا أنت تجلس هنا؟".

"ربّما أغرقها؟" - فكّر أرتيوم ببطء وحزن، وهو يعاني من صوتها نفسه، كما الوخز في الإذن المريضة. حاولت هي التحدّث بصوت أعلى، حتّى يتمكّن من سماع كلماتها - وكان في سعيها شيء ما تعليمي، ومدرسي.

بقيا صامتين مدّة طويلة.

أخذت رشفة من القارورة، التي قرّبتها منها بقدمها، فلم يزعج أرتيوم نفسه، وبدأت غالا تتحدّث:"في البداية كنت أرغب في نقلك إلى جزيرة الثعالب، لكن أصبح لدى كرابين مجموعة كاملة..." - شربت أيضاً، واستمرت، دون أن تأخذ نفساً، مستديرة من الريح: " فكرت بعد ذلك بنقلك إلى المستشفى، إلى علي... لكنّه يريد الكثير... كانت هناك مهمّة عمل أخرى - لكن كان من الممكن أيضاً أن تموت بسرعة هناك... ثمّ عرفت أنّهم يبحثون عن موسيقيين بمناسبة ذكرى الثورة، وكان هناك نقص في الأوركسترا، أعدت طبع سيرتك الذاتية ووضعتها في المكان المناسب... هل فهمت؟ هل تفهم كم كلّفني ذلك؟".

انتقل أرتيوم بصعوبة إلى مقعد في منتصف القارب، وجلس بمواجهتها.

فكّر، وهو ينظر حوله: " كان من الممكن أن يتّسع هذا المكان لثلاثة آخرين - كان يجب أن آخذ شخصاً ما معي... بورتسيف، أفاناسييف، فاسيلي بيتروفيتش. كانوا سيبهجونها ".

رفع عينيه، ورأى في نصف ضوء ما بعد الظهر الحزين، أنّها لا تزال تنظر إليه، تنتظر إجابة.

"ماذا كان سيكلفك ذلك؟" - سأل أرتيوم بصمت، بنظرة مباشرة، لكن يبدو أنّها لم تفهم.

قال هو أم شيطانه: "يمكنني تنظيف جزمتك".

كان أرتيوم يفكّر بينه وبين نفسه أحياناً، أنّه قتل والده ليس عن طريق المصادفة، ولكن عن قصد، بسبب لعنة.

" حقيبير" - قالت، ومدّت غالا يدها وأخذت الحافظة ببطء.

تابع أرتيوم حركتها بلا مبالاة تقريباً.

خمّن أنّ بإمكانها أن تطلق النار، وربّما فعلت ذلك مرّات عدّة، أم مرّة واحدة على الأقل.

قال:"أطلقي النار عليّ، وارميني في البحر، وعودي إلى الوراء، ستلحقين أن تذهبي إلى العرض المسرحي في الوقت المناسب".

رأى في هذا الوقت فأساً تحت المقعد، وفكّر إن هي أخرجت مسدسها، فحينئذٍ...

كانت غالا صامتة، ولم ترفع نظرها عنه. عمل المحرّك بهدوء، كما لو كان ينتظر.

" انتعشت أخيراً" - قالت غالا، كما لو بنفور، ولكن كان هناك شيء آخر في صوتها أيضاً - "... مع الأسف، لا أرى عينيك المرقطين الخضراوين. هل تعلم أنّه إذا غرق الشخص في البحر، فإنّ الماء، عندما تدخل إلى عينيه، تتحولان من اللون السماوي إلى الأخضر؟.. لقد نظرت أنت بنفس العيون عندما ذهبت أنا إلى غورشكوف - لا خوف فيهم، ولا شيء، كنت تجلس وتنتظر. هكذا تنظر بعض الكلاب التي لا تعرف الخوف أثناء قتلها. لكن نادراً ما تصادف عيوناً خضراء لديها... لقد نظرت إليك حينها وقررت أنّني سأنقذك. ربّما أنقذ نفسي أيضاً".

يبدو أنّهما قد أبحرا بعيداً بالفعل - لقد حلّا المساء، لكنّ المنارة التي على جبل سيكيرنايا، كانت تضيء وراءهم، هذه التافهة، لم تنفصل.

بدا له، طالما المنارة لا تزال مرئية - أنّهم يمسكون بها، بخيط صيد طويل، وفي أيّة لحظة سيسحبونهما إلى الوراء، مبتهجين بالصيد.

لو كان من الممكن إسقاطها.

"كنت لأصلي من أجلك لو..." - قال أرتيوم دون أيّ حماس في صوته، ودون أن يرفع عينيه عن المنارة.

أومأت برأسها. هي لم تؤمن بأيّ شيء أيضاً.

قالت غالا، وهي تجيب على سؤال جرى طرحه في بداية الحديث: "أمّا القارب، فقد صنعه السجناء، لم يكونوا حرفيين، وإنّما ببساطة... سحرة. أراد فيدور أن ينظم إنتاج قوارب سريعة معهم، لكن كان ذلك سيكون مكلفاً: إنّهم يحوّلون أموالاً قليلة إلى المعسكر... يمكن أن يستخدموا هذا القارب أربعة أشخاص فقط. وضعني فيدور في القائمة منذ فترة طويلة... ولم يلاحظ هؤلاء المغفلون. لم استخدم القارب عن قصد، حتّى لا ينتبه أحد إلى أنّني أستطيع الذهاب عليه إلى أيّ مكان أريده. يكتب الجميع تقارير بعضهما ببعضٍ هنا - كانوا سيكتبون على الفور...".

سأل أرتيوم: "وهذا الذي على الشاطئ - سيكتب أيضاً؟".

" كوليسنيكوف؟ هل هو جندي في الجيش الأحمر؟ لا أعرف... لن يمسك بنا أحد على أيّ حال، يا تيوم".

" هل هذا صحيح؟ - لم يصدق. كان ما يزال لا يصدق ذلك.

"القارب الآخر لا يعمل. لا يمكن اللحاق بنا بالمراكب الشراعية. أمّا سفينة "غليب بوكي" فهي في كيم، وستصل بعد ثلاثة أيام. هناك طائرة، لكنّني أرسلت طلباً وهمياً إلى الفني لفرط المحرّك وإصلاحه قبل قدوم اللجة، وذهبت للتحقق من الأمر بنفسي. لقد جرى وضع قطع المحرك بالكامل على قطعة قماش مشمّع" - ضحكت غالا فجأة، ولم تكن ضحكتها جميلة جداً، إذ كانت من أحد جانبي فمها - "سألت الفني، كم من الوقت سيستغرق تجميعه - شعر بالخوف وقال: يومين، فيما لو بدأت لآن العمل. قلت له: لا تستعجل!".

استمع أرتيوم إلى كلّ ذلك، كما لو كان يستمع إلى قصّة خرافية، خائفاً أن يزفر أم يرمش.

واصلت غالا حديثها، كان هناك شيء انتقامي وأنثوي في صوتها: " يساعدنا إيخمانيس...كانت هناك خريطة جرى تحديد موقع الجزر المحلية عليها، كان قد رسمها رهبان سولوفكي - هناك أكثر من مئة من هذه الجزر. قام إيخمانيس برحلات عدّة استكشافية، دقق الخرائط القديمة، واكتشف جزر عدّة جديدة. لا أحد لديه مثل هذه الخارطة. أمرت كبير شاه بإعادة رسمها".

"هل... هل يمكن أن يحدث شيء ما؟" - سأل أرتيوم، وهو ينظر بطرف عينه إلى المحرّك خلفها.

قالت غالا، دون أن تلمس المحرّك بكفها حتّى:" بدأت ترتفع درجة حرارته. هناك جزر صغيرة... سنتوقف الآن على واحدة منها".

"لماذا؟".

" دعنا ننمْ قليلاً. لا تخف. لن يندفع أحد وراءنا بالتأكيد اليوم... لم أعد أستوعب شيئاً...".

... على مقربة من الجزيرة، تطلّع كلٌّ من غالا وأرتيوم بعضهما إلى بعضٍ، بحيث أصبح من الواضح دون كلمات ما الذي كان يفكّران فيه كلاهما: ماذا لو خدعتهم الخرائط أم البوصلة - ويقعان الآن على أبعد منشأة لمعسكر سلولوفكي للأغراض الخاصّة.

قالت غالا: "فيما لو كان يوجد هناك معسكر، سأقول إنّنا من التفتيش...".

" سنأكل كلّ احتياط الطعام لديهم، ثمّ نواصل مسيرنا "- حاول أرتيوم أن يمزح، لكنّه لم يكن مرتاحاً كثيراً في داخله. لم تعد لديه رغبة في رؤية الحراس بعد الآن.

فكّرت غالا للحظة، وأخرجت شيئاً من جيبها وسلّمته لأرتيوم.

"خذه!"- قالت، وأبطأت المحرك.

كان هذا مسدس.

"لدي آخر. فيما لو كانت هناك مفرزة من الجيش الأحمر... وأرادوا اعتقالنا... فسيتعيّن علينا قتلهم. هل تسمعني؟" - صكت أسنانها بشكل مزعج - كما لو أنّ أسنانها من حديد وسقطت على حديد.

"نعم، يا غالا!" - أجاب أرتيوم، وبدا اسمها من حديد أيضاً.

لم يكن خائفاً على الإطلاق.

وجدا مكاناً مناسباً للوصول إلى الشاطئ المنحدر بشكل تدريجي.

قفز أرتيوم في الماء على بعد نحو ثلاثة أمتار من الشاطئ: كان يعتقد أنّه سيكون أقل عمقاً، لكن اتضح أنّ الماء كانت إلى الخصر تقريباً، وكانت الجزمة إضافة إلى ذلك تنزلق أيضاً - وبينما كان يلعن، قطع هذه الأمتار الثلاثة، ثمّ سحب القارب من الحبل، متعباً كما لو كان عمل ست ساعات بنقل الجذوع - كان كلّه يرتجف، وأراد التقيؤ.

على الرغم من أنّ قوته لم تعد هي نفسها بعد زنزانة العقاب.

كان لا يكاد يلتقط أنفاسه، ويسيل منه لعاب طويل.

تبلّلت قدماه، وكان كعباه يخفقان ويبقبقان.

عندما أوطفئ المحرّك، أصبح الوضع هادئاً على نحو غير عادي. كان الأمر كما لو أنّ قعقعة المحرّك كانت تطرد الأرواح الشريرة، والآن يمكنها أن تتجمّع.

يبدو أنّه لا يوجد أحد على الجزيرة.

كان أرتيوم يرتعش، وأراد الاستلقاء في أسرع وقت ممكن، والنوم لأطول مدّة ممكنة.

لكن كان عليه في البداية، تفريغ القارب، من أجل سحبه إلى الشاطئ. تسلّق ذهاباً وإياباً، كما لو كان في حلم سيئ. قبع أظفره. وضع إصبعه في فمه كأنّه طفل. تسرّب سائل مالح من تحت الظفر.

ذهبت غالا إلى مكان ما لقضاء حاجة. عادت عندما كان قد سحب القارب بمفرده إلى المنتصف تقريباً.

قالت غالا بصرامة: "إنّه ينزلق".

فيما لو أنّ أرتيوم، ذهب لقضاء حاجته، لدقيقتين - وهو ما كان يزمع القيام به منذ فترة طويلة - لكان القارب قد انزلق إلى البحر. ولكانا ماتا على الجزيرة. أم لكانا انتظرا هنا عناصر الأمن، مثل الأرانب التي وقعت في شرك. كانا سيصرخان في حالة رعب فقط...

... بينما كانت غالا تشدّ الحبل بإحكام، مانعة القارب من الانزلاق، دحرج أرتيوم، شبه الميّت، الصخور الكبيرة، ودفعها تحت أسفل مؤخرة القارب.

"سأموت..." - كرّر أحياناً- "سأموت...".

اختارت غالا مكاناً للنوم.

لم يشتعل البريموس.

نظّف أرتيوم البريموس بشعر الحصان ، وهو يقطّب من الألم - ظفري، ظفري اللعين، وأشعله.

خرجت موجات دافئة ورائحة - لكن الدفء نفسه لم يكن كافياً.

قالت غالا: " أشعل النار الآن، نحتاج إلى إشعال النار".

ذهب أرتيوم لتقطيع الحطب بثياب رطبة، وعيون لزجة، وفي جزمة تخفق بالماء - وجد شجرتين صغيرتين، من أشجار البتولا المحلية، كانتا محنيتين على الأرض، ولم يكادوا يستسلمون للفأس...

أم لم تعد يديه تطيعانه.

عندما عاد أرتيوم، كانت بطانية معلّقة على مجرفتين من الجانب الذي تهب منه الريح، وحفرت حفرة - لإشعال لنار بسهولة.

قطع أرتيوم، متعاملاً مع الفأس بطرية ما، شظايا خشبية.

... اشتعلت النار- كان ذلك مبهجاً للغاية، كما لو كان الخلاص نفسه متوهجاً، ويمكنك رؤيته، ولمسه بيد سريعة.

جلسا بجانب النار، لم يتدفئا بقدر ما كانا يحميان النار من الريح.

خلع أرتيوم جزمته، وسلتت فردة من جوربه في الجزمة- اضطر أن يدخل يده لإخراجها- سحبها ولم يكن عملياً جورباً، بل عصيدة مصنوعة من الصوف والروث، كان على سبيل المثال، يمكنك أن تطعم بمثل هذه العصيدة عفريت صغير بملعقة. عصره بيدٍ مرتجفة من التعب، وسال من بين أصابعه شيء كثيف ولزج.

جفّف نفسه طويلاً بشكل أخرق بالقرب من النار.

راقبت غالا كلّ ذلك بسخرية- هذه القدرة التي هي بالمناسبة، دائماً علامة على عقل الأنثى: عرف أرتيوم ذلك من مكان ما، من قبل.

بعد نصف ساعة، وجد أرتيوم نفسه يحمل علبة زبدة في يدٍ وعلبة سكّر في اليد الأخرى.

كان يعطي هذه العلب لغالا بالتناوب، يعطيها واحدة ثمّ يتبادلان، يعطيها الأخرى من جديد. وهكذا أكلا كلّ شيء بملعقة، أصبحت كلّها سكّر وزبدة. كان الطعام رائعاً- فقط الملعقة بدت ثقيلة مثل مغرفة الرصاص.

كانا يشربان الشاي وهما ياكلان، أحرق أرتيوم فمه بالكامل، بعد شرب ثلاثة أكواب. تدلّت أجزاء من الجلد المحروق في فمه. كان يضع أصابعه في فمه ويقطعها دون شفقة.

كان جسده، رغم ذلك، لا يزال بارداً، وأصبح من وقت لآخر أكثر برودة- كما لو أنّ الشاي حرق الحلق فقط، وذلك المكان في منتصف الصدر، حيث جرى، وبرد في أسفل القفص الصدري.

وضعت غالا بطريقة ما، الكوب الذي بقي فيه شاي. وكانت عيناها تغمضان.

اعترفت له: "لم أنم. كنت متوترة".

سأل أرتيوم، بعد أن مضغ ما في فمه ومسح شفتيه بكمّه: "هل هناك من استطاع الهرب... من المعسكر؟".

اعترف بينه وبين نفسه: " يبدو لي، حقيقة أنّني لن أموت الآن...".

قالت غالا: " قبل فترة ليست بعيدة في هذا الصيف... شخص واحد... حسب اتجاه التيارات البحرية، وربط نفسه بجذع شجرة وانطلق عليه. إلى البر الرئيسي".

"وماذا بعد ؟".

"رمته المياه إلى الشاطئ"- قالت غالا، غير متأثرة كثيراً، ولكن ببعض التعاطف- "تكسّرت عظامه كلّها، وتحطّمت جمجمته كما لو أنّها... ضربت بمطرقة. ربّما على الصخور... لم يستطع فك نفسه، أم ابتلع قبل ذلك الماء... لا أعرف".

كان يصعد الدخان من شجرة الخريف.

أراد أرتيوم أن يقوي الثقة لديه بنجاحهما بالهرب، وبدأ من جديد يسأل غالا عمّا يمكن أن يحدث لهما.

قالت غالا: "قد يتعطّل المحرّك. لكن لدينا سارية وشراع، ونحن... في حال حصل ذلك سنحاول الوصول هكذا. أنا أعرف بعض الشيء، وقد علّمني فيودور- لديه أخٌ يعمل بحاراً... وعلّمه الرهبان المحليون... والمسؤول عن الفقمات- علّمه أيضاً... من الممكن أن تهب عاصفة. في هذه الحالة، سنغرق – ولن يجدونا مرّة أخرى"- ضحكت قدر استطاعتها- "... على الرغم من أنّنا سنبحر، خلال يوم أم يومين على الأرجح بالقرب من الشط الغربي، بحيث يمكننا في حال حصول شيء ما، أن نرسو عليه...".

أراد أرتيوم كثيراً تقبيلها على شفتيها، وعناقها: مثل الأخت.

هي لم تر، بقدر ما شعرت بدهشته الطفولية، وابتهاجه غير المتوقع - وتأثرت به، وضحكت لسبب ما مرّة أخرى.

ذهب أرتيوم من السعادة، للبحث عن شيء ما لإشعاله، تجوّل في ظلام دامس، وسقط مرّات عدّة.

"شجرة صنوبر واحدة على الأقل" - فكّر أرتيوم، متخيلاً كيف ستشتعل الفروع. لكن من أين هنا شجرة صنوبر على هذه الرقعة في وسط البحر، ما الذي ستفعله هنا، وما الذي يجب أن تفكّر فيه.

صادف شجيرة قصيرة، قطعها - كسرها، لم يدرك في الظلام حتّى ما هي.

عاد بسرعة إلى ضوء مرتعش لا يكاد على قيد الحياة، كما لو كان هناك حماية وتميمة.

لم تطعه ساقاه.

تدحرجت الأمواج من فوق بروز. هبّت الريح في وجهه، وعندما كان يستدير كانت تهب انتقاماً من الأسفل.

فرشت غالا قطعة من القماش المشمّع على الأرض، وفوقه لحافاً، وغطّت نفسها بالمعطف المطري، وتركت لأرتيوم واحداً أخر.

استلقت ورأسها بالقرب من النار. ووضعت على رأسها طاقية عسكرية شتوية، وربطتها تحت ذقنها- أصبحت مضحكة للغاية. تطلّعت إليه بعينين غائمتين وناعستين.

غنّت غالا: "في المحيط الأزرق البعيد... في مكان ما بالقرب من أرض النار..."- قالت: "استلقي بسرعة".

كان أرتيوم يعاني قليلاً من ألم تحت نصل الكتف.

"ربّما أحبّها حقاً؟" - فكّر، وهو يوازن سؤاله بعناية في رأسه حتّى لا يخيفه من تهكمه من حياته الماضية- "أحبّها؟"- كرّر مرّة أخرى، ونطق هذه الكلمة

دون صوت حتّى يشعر بها على شفتيه – "أم، كما في حالتي، ماذا يسمّى هذا الشعور، الذي يطلق عليه الناس "حبّاً "؟".

أضاف فروعاً أخرى إلى النار.

"إلى أين نحن نهرب؟" - سأل، وهو يزحف تحت معطفه الواقي من المطر، وشعر أنّه لا يكاد يستطيع الكلام.

"لم أقرّر بعد" - قالت غالا بهدوء، بصوت منخفض لا يكاد يصل إليه، وهي شبه نائمة ومرهقة، لكن رغم ذلك، كانت نغمة صوتها كما لو أنّها كانت تختار، إلى أين سيذهبا غداً إلى السينما أم إلى المسرح- "كلّ الذين يهربون- يذهبون إلى كيم. ومن هناك يحاولون الذهاب إلى فنلندا. سيبحثون عنّا هناك أيضاً، على الأرجح... لكنّنا نبحر في الاتجاه الآخر. ربّما نذهب مباشرة إلى فنلندا عن طريق البحر... إنّها تبعد مئتا فيرست من هنا. ربّما سنغيّر مسارنا، ونتوقف على الشاطئ بالقرب من أرخانغيلسك... أم في مكان ما في تلك الأراضي. ربّما سنبحر إلى المياه النرويجية... لا أعرف... لا أعلم إلى أيّ مسافة يكفي الوقود الذي لدينا. لدينا ثلاث عبوات أخرى... أخذتها من الفني... الذي فكك طائرتنا إلى مئة قطعة من الحديد... لكن كما قلت ممكن... تحت الشراع... دعنا ننام".

بحركة غير متوازنة، لكنّها عاطفية، رفعت معطفها الواقي من المطر بمعنى: تعال إليّ، يا تيوم.

ضحك بكلّ ما تبقى لديه من قوّة.

"ماذا حدث؟" - سألت، دون أن تفتح عينيها، وهي تتلعثّم بالكلمات.

" قبّعتك هذه... لا أستطيع. كما لو أنّني استلقي لأنام مع جندي من سريّة الحراسة في الجيش الأحمر...".

قامت غالا بحركة في محاولة للابتعاد عنه، ولكن استعراضية لا أكثر، لاظهار الصرامة.

عانقها أرتيوم ولم يدعها تبتعد.

وغفوا على الفور.

نام بصعوبة - كما لو أنّ الحلم نفسه أصبح عملاً. آلمه جزء من وعيه بشكل متواصل، مثل ألم السن: يجب أن ننهض، يجب أن نواصل الإبحار، يجب أن ننهض، بدأت مطاردتنا بالفعل، يمكن رؤيتنا من المنارة على جبل سيكيرنايا، لقد لاحظونا و...

في رؤية رهيبة وفوضوية، أبحر جنود الجيش الأحمر إلى الجزيرة التي هما عليها، على ظهور الأحصنة - حتّى لا يسمع صوتهم. نخرت الأحصنة، ورفعت رؤوسها بعيون حمراء مجنونة، وكشّر رجال الجيش الأحمر عن أنيابهم...

يجب إيقاظ غالا بسرعة، والزحف - قد لا يلاحظونهما. لكنّ القارب! أين سنذهب بالقارب! يمكن أن نغرقه بسرعة كبيرة... نعم!.. ركض - بساقين طويلتين غير ثابتتين، كما لو رسمهما طفل صغير جداً يمسك بقلم رصاص في قبضته - إلى القارب، دافعاً به إلى البحر - وغرق القارب على الفور تحت الماء... "ماذا تفعل؟" - صرخت غالا بجنون من الرعب.

استيقظ أرتيوم مصاباً بصداع شديد: كما لو أنّ شيئاً غريباً، لزجاً ومملاً قد جرى لصقه بين حاجبيه، على جبهته، وأراد بحركة سريعة فصله، وتمزيقه.

كان ضجيج البحر يقف في رأسه.

كانت غالا قد استيقظت - بقيت مستلقية كأنّها غير قادرة على الخروج من تحت معطف المطر. كان وجهها عابساً وغير جذاباً.

" ما هو الوقت الآن، كم تعتقد ؟" –سأل أرتيوم، لم يكن هناك لعاب في فمه.

" بداية الساعة الخامسة "- أجابت غالا بهدوء وعدم رضا.

كان لديها ساعة معلقة على صدرها تحت المعطف الجلدي، رأها أرتيوم عندما أخرجتها أمس.

اقترح أرتيوم: " دعينا نشرب بعض الفودكا... سيكون الأمر مبهجاً".

نظرت إليه غالا وابتسمت بسخرية فجأة.

فكّر أرتيوم: " الحمد لله. وإلّا كيف سنبحر في مثل هذا المزاج...".

قال بصوت مسموع ما كان يفكّر به بالضبط.

قالت غالا، وهي تتمطّى: "أعطني بعض الفودكا... للسيدة".

بدا نار أمس غير مرتّب، كما لو أنّ شخصاً ما قد أكله، ثمّ تقيأ شيئاً لزجاً في المكان نفسه.

وجد أرتيوم القارورة. شربت غالا قليلاً وأعادتها. عندما أخذ القارورة انحنى وقبّل غالا على خدّها بالقرب من شفتيها. كان خدّها مالحاً، وشفتاها مبللتين.

حمحمت غالا مستاءة: أنت تعيقني عن البلع!- مسحت وجهها بكفها على الفور: إمّا إنّها تخلصت من القبلة، وإمّا من أثار الفودكا على شفتيها.

لم ينزعج أرتيوم.

ابتهجا قليلاً، جمعا أغراضهما. ووضعوها بالقارب بحماس تقريباً. ملئا خزان الوقود ببطء. أزاح أرتيوم الصخور بتأوه متعمّد.

بدأا بتشغيل محرّك القارب في البحر، بعد دفعه عن الشاطئ.

اشتغل من المحاولة الثالثة - لم يلحقا أن يخافا حقاً.

نظر بعضهما إلى بعضٍ، دون أن ينبسا ببنت شفة، تحركا على طول الجزيرة وإلى اليسار - في البحر. زادت غالا السرعة - ومن هدير المحرّك جاءت الصحوة الكاملة.

لم يلحقوا بهما. وفي كلّ دقيقة كانا يبحران أبعد.

أشرقت الشمس بشكل احتفالي - بدا أنّ نوعاً من الموسيقا على وشك البدء.

...ولكن كلما تقدم الوقت، بدا أنّ الموسيقا قد تكون سيئة، وشريرة.

اختفت الجزيرة.

حلّت الوحدة والبرودة.

شرب أرتيوم فودكا أيضاً.

لم تزل الفوتكا هذه المرّة، الضبابية من رأسه، بل على العكس زادت الضبابية.

لو كان هناك أرض من حولهم، لكان وجد القوة ليغضب. من الغضب، تزداد الحياة والإيمان. لو كان هناك أشخاص في الجوار - يمكن أن تغضب عليهم دائماً - أمّا هنا هاى من؟ وإلى أين سيذهب مع هذا الغضب؟.

كان أمس يخاف المطاردة، أمّا اليوم كان هناك شيء آخر مخيف: السماء. السماء والفراغ من حولك. الكثير من الماء - ما المعنى منها، ولماذا صبوا هذا الكم الكبير منها؟.

لم يفرح قلب أرتيوم من الفضاء المائي الكبير قطّ.

جلس هو وغالا معاً على نفس المقعد. كانا صامتين.

كان هناك تموّج هادئ تقريباً. كانا يتقدمان كما لو كانا على طريق سيئ، بصعوبة وتقافز - كان أرتيوم من وقت لآخر يمطّ رقبته بشكل لا إرادي، كما لو كان يساعد القارب في التغلب على الأمواج.

كان ينظر حوله في كلّ دقيقة تقريباً: بدا له أنّ كل سحابة تظهر في السماء ستجد أخرى لنفسها الآن، ومع الثالثة سيجتمعون في شلّة، ويبدؤون في ابتزاز القارب.

اختفت الشمس، وأصبح من الصعب الآن حتّى تخمين مكانها.

كلما ابتعدا، أصبحت السماء منخفضة - كما لو أنّ الفضاء يضيق، وفي نهاية الأمر يجب أن يتحول إلى شقٍّ أفقي ضيق سيسحق القارب.

بدأ هو نفسه يصدق تخيلاته المخيفة، نظر أرتيوم إلى الأمام مدّة طويلة: كيف هو الشق هناك، هل أصبح أقرب؟.

كانت غالا تتحقق من البوصلة أحياناً.

أخذت خريطة على لوح. نظرت إليها، وهي تضغط على اللوح بيدٍ واحدة على ركبتيها، وألقت القفاز من هذه اليد إلى قاع القارب.

كيلا يعيقها، انتقل أرتيوم إلى مقعد آخر. لاحظ من هنا، لأوّل مرّة، مدى صغر يدي غالا: أعطها تفاحة كبيرة- ويبدو أنّها ستضطر إلى تناولها بكلتي يديها.

عندما كانت تجلس وراء الطاولة في مكتبها، وتسجل إجاباته المشوشة- لم يكن ذلك ملاحظا. وبينما كانت تداعب بهذين اليدين ظهره، ورأسه، وأين لم تداعب- أيضاً. والآن، إذ يوجد أغراض رجالية كبيرة حولها- محرّك، وصارية، ومرساة في قاع القارب - أصبح الأمر واضحاً. بالإضافة إلى ذلك، معطفها الجلدي، وهذه الملابس الدافئة التي عليها.

"هل من المعقول أن تقتل بهذه اليد؟"- تساءل أرتيوم. غالباً ما كان يسأل نفسه أسئلة لن يبحث عن إجابات عليها.

حوّل أرتيوم نظره من اليد إلى الخريطة، ونظر إليها أيضاً لفترة من الوقت، رأساً على عقب.

كسر الصمت سائلاً:

"أين نحن؟".

بحركة سريعة وغير متوازنة - رفرفت الريح الورقة - رسمت علامة صليب على الخريطة بأظافرها: هنا.

كان الدير لا يزال قريباً- لكن أرخانغيلسك كانت بعيدة، وفنلندا أيضاً، وكان الوصول إلى المياه النرويجية، وراء حافة البحر عموماً.

"... ومع ذلك، فكرة غبية- الوقود سينفد قريباً: هل هي تعرف حقاً كيف تقود قارباً شراعياً؟ النساء لا يمكن أن يكنّ قادرات على ذلك "- إمّا إنّه شكّ بشكل جدي، وإمّا أنّ أرتيوم أغضب نفسه عن عمدٍ.

جلس على مقعده متجهاً للأمام - لا يمكن أن تظل طول الوقت تنظر إلى غالا، إلى صرامتها.

فرك عينيه بأمل عابث، أن يرى شيئاً ما وراء المسافات البعيدة.

"أتمنى أن أغمض عيني لدقيقة، ثمّ أفتح عيني، وهناك... حسناً، دعنا نقول، أرض- وفوق الأرض كتابة "النرويج"، حتّى لو لم يكن باللغة الروسية... وعلى الرصيف يقف ناس معهم خبز وملح وباللغة النرويجية... باخ!- إطلاق نار من مدفع: لقد كنّا في انتظاركما، أنتما أرتيوم وغالينا، مسافران تعيسان، هاربان، فارّان! هيا لنذهب ونضعكما في شقة دافئة - أحواض الاستحمام مليئة بالشامبو تغمرها الرغوة بالفعل، والماء في حالة غليان، مع همهمة سريعة للرغوة...".

كان يرغب في البحث عن المنظار، لكنّه تكاسل، أم بالأحرى، قرّر أن يجنّب نفسه التأسي: كلّما رأيت الفراغ أكثر، فهمت بشكل أفضل المسار الكئيب الذي يجب أن تسلكه.

مرّ اليوم الثاني فقط، لكنّه شعر بكمية الهواء الجديد الذي استنشقه، التي لم تدخل رئتيه في عام كامل. كان الهواء يضرب وجهه بلا هوادة، وهو ما أصاب رأسه بالدوار، ولكن بطريقة ما ليست أرضية، بطريقة جديدة، ثمالة أخرى، غريبة ورطبة.

خلع أرتيوم قفازاته، ولمس خديه، واستغربت بشرته بصدق شديد وبفرح الدفء - كما لو كان غريباً غير متوقع منذ زمن طويل.

شعر فجأة أنّ غالا لم تكن وراءه، واختفت: نظر خلفه لدرجة أنّ رقبته طقطقت. حوّلت غالا عينيها نحوه باندهاش منضبط.

تهيأ لأرتيوم أنّها كانت تبكي للتو، وبدأ يتحرك عائداً عبر المقعد إليها- دون أن يعرف السبب بعد: لمواساتها بطريقة ما، أم على الأقل لتدفئة خديها بيديه- كما دفأ نفسه منذ قليل.

مدّ يده إلى وجهها بالفعل. قامت غالا بحركة ليست حادة، لكنّها ملحوظة للابتعاد عنه- ما هذا أيضاً؟ لماذا تفعل ذلك يا أرتيوم؟.

قال مبتسماً باعوجاج قليل: " أردت أن أدفئك...ألا تشعرين بالبرد؟".

لم تجب: نظرت إليه ببساطة من أدنى إلى أعلى، وطلبت:

" اجلس. ستسقط".

كانت غالا غير راضية عنه. وشعر هو بذلك. وحتّى إنّه خمّن لماذا هي غير راضية بالضبط: لم يعتن بها، ولم ينظر إليها، ولم يشفق عليها، ولم يطمئنها.

وكيف تعتني بها هنا، على متن قارب؟ يجب الاعتناء، عندما تكون هناك أرض حولك، وهناك مكان للوقوف عليه، وحتّى من الأفضل- الاستلقاء.

عاد أرتيوم إلى مقعده قائلاً عن نفسه: "... جلس، دون أي نتيجة- مثل الضيف الذي قدموا له طعام غير مملّح..."- وابتسم بسخرية على الفور: بدا له هذا التعبير، على خلفية البحر المالح اللامتناهي حوله، لأوّل مرّة في الحياة يدعو للسخرية- اشرب حتّى تشبع ماءً مالحاً.

في مكان ما من بعيد، خلف ظهر غالا، ومض برق- غير مسموع، لكنّه مرئي من خلال اللون الأزرق الداكن، غير المرتّب، والممزّق.

بعد أن ابتسم من أنّ الطقس يتكيّف مع مزاج غالا، أدرك أرتيوم على الفور أنّه لا يوجد شيء مضحك: العاصفة ستلحق بهما على أيّ حال.

نظر حوله في حالة من الارتباك، مرّة أخرى: أين يمكن الاختباء، إذن...؟.

على الأقل لو كان هناك جزيرة صغيرة، على الأقل حديبة. الأمر جيد للسمكة- فهي لا تخاف من المطر. تسمع هدير الرعد - تغوص إلى الأعماق، وتستلقي هناك.

لماذا غادرا الجزيرة؟ كان يمكن الانتظار على اليابسة حتّى يتوقف المطر... وفيما لو هطل المطر لأسبوع كامل؟ وأسبوعين؟.

لو كان يوجد هناك أصغر قطعة من الأرض.

كما لو أنّها شعرت بتململ أرتيوم، نظرت غالا وراءّها.

"عاصفة؟"- سألها أرتيوم بهدوء قدر الإمكان، إنّه رجل في نهاية الأمر: "هل توجد جزر أخرى على طريقنا؟".

يبدو أنّ الرعب الزاحف، جعل غالا أكثر مطاوعة ولطفاً.

قالت: "نعم... يوجد جزر. أنا حسبت الطريق. ولكن، إذا لم نخطئ، فستكون هناك جزيرة في الطريق بحلول المساء فقط. أمّا المطر فقد يبدأ الهطل الآن".

تأكيداً لكلامها، فقد هبّت ريح عاصفة كما لو من وراء كمين، أصبح على الفور من الصعب أكثر على القارب مواصلة الإبحار. نظر أرتيوم إلى المحرّك بحزن وطلب لا يمكن تفسيره: لقد جرّهما لليوم الثاني دون شكوى ودون أن يفقد قوته- ولكن من يستطيع أن يعرف ما الذي يمكن أن يفعله المحرّك تحت المطر.

شعر أرتيوم بألم شديد في داخله، وفكّر من جديد أنّ الأمر أسهل بكثير على اليابسة: حتّى لو كانوا يستعدون لإطلاق النار عليك، يمكنك انتزاع بندقية، والتضرّع، والسقوط على القدمين، والتوسل من أجل أن يبقوك على قيد الحياة، والهرب إلى الغابة، واقتلاع تفاحة أدم للحارس... وأخيراً يطلقون عليك النار، ولكن لا تموت بشكل كامل، وتزحف من القبر لاحقاً- لقد سمع أنّ مثل هذه الأشياء قد حدثت، أم مجرّد التظاهر بالموت - على الرغم من أنّك ما زلت على قيد الحياة، تنزف فقط من خلال ثقب في صدرك... أمّا هنا؟ فعلى قدمي من ستسقط ؟ هل ستتظاهر أنّك ميّت أمام البحر؟ هل تريه الثقب الذي في صدرك؟

لن تخرج من هذا القبر قطّ.

هوى المطر المتجمّد فجأة، من جهة اليسار واليمين، وضرب ظهريهما، بصوت صاخب لدرجة أنّه طغى على صوت المحرّك.

انحرف القارب على جانبه، وكان المحرّك يهدر بصوت عميق، كما لو كانوا يضغطون على صدره.

أمر أرتيوم نفسه بشراسة: "اهدأ! تماسك! المحرّك إلى الجحيم! لقد قالت غالا ستكون هناك جزيرة! يعني توجد بالتأكيد!إذا انطفأ المحرّك - سنبحر شراعياً. سنتدبر أمورنا بطريقة ما. لقد أبحر الرهبان شراعياً، خمسمئة عام ، وأمّا أنت؟ وأنت- هل ولدت بلا ذراعين؟".

كان المطر كثيفاً وغزيراً، لدرجة أصبح من الصعب رؤية غالا بوضوح.

بدا وجهها لأرتيوم مذهولاً، وباهتاً.

صاح أرتيوم: " غالا!عزيزتي! سوف نخرج من هذه الحالة!".

سحب أرتيوم قماش الخيش من الركن المغطّى في مقدمة القارب وألقاه لها :

"غطّي المحرّك! يجب تغطية المحرّك!".

بحث عن مغرفة، وبدأ بمساعدة قدميه، تفريغ المياه المتراكمة بسرعة-بسرعة كبيرة لدرجة أنّ أرتيوم، وهو يمسح عينيه باستمرار، كان يحدّق في قاع القارب وجوانبه ليرى - إذا ما كان هناك تسرّب للماء.

ضرب البرق كأنّه ضجيج صفيح مرعب فوق رأسيهما مباشرة: عمي أرتيوم لثانية واحدة. عاد بصره، وتذكّر على الفور أنّه عندما ضرب البرق، صرخت غالا كأنّها عارية.

" غالا! عزيزتي!"- صاح مرّة أخرى.

" فيما لو المحرّك...؟"- صاحت هي.

أجاب : " الشراع !"- سيتوقف المطر وسنرفع الشراع!".

كان الماء يفور من حولهم - ليس حتّى من المطر أم الريح، ولكن نوع من الغضب الكامن في الداخل.

كانت الريح تندفع حولهما: بدا لأرتيوم أنّه يرى هذه الريح، كيف تندفع مجنونة، من اليسار، ثمّ من اليمين.

كانت الأمواج من الضخامة، لدرجة أنّها بدت أحياناً وكأنّها تتدفق من جوانب القارب، أم هكذا تهيأ له من الخوف، واضطراب المياه من حوله؟.

اعتقد أرتيوم فجأة، إنّه حاول ضرب الماء في القارب بمغرفة على جبهته، وعلى خديه، كما لو كان كائناً حيّاً.

كانت هذه الأمواج التي تحاول التغلب عليهما عبثية محضة: كان يمكن أن ترتفع في بحر ما، أكثر بمرّتين، وثلاث مرّات، وسبع مرّات أكثر.

لم يتذكّر أرتيوم كيف تبلل تماماً: فقد انسكب الماء في صدره، وكان سرواله القطني منتفخاً.

لم يعد يلاحظ البرق ولم يسمع الضجيج.

كان يجرف ويسكب مثل رجل حكم عليه. كان هناك شيء من الجنون في هذا النشاط: جرف الماء، سكبه في الماء، جرف الماء، سكبه في الماء...

استيقظ فقط على صرخة غالا:

" تعطّل! تعطّل المحرّك!".

استقام، ونظر إليها من خلال المطر الغزير، الذي جعل تعبير وجهه خشبياً وغبياً.

لم تبك غالا بالطبع، لكن وجهها كان رطباً ومشوهاً فقط، وشفتاها كأنّهما متشنجتان.

صرخ: " ليذهب إلى الشيطان، يا غالا! ليكن!".

"من لم يكن في البحر- لم يصلّي إلى الله"- تذكّر أرتيوم هذه العبارة التي سمعها في مكان ما، وفي وقت ما.

لم يكن لهذه العبارة أيّ علاقة به.

وجد أرتيوم مغرفة أخرى- وجرفا الماء معاً، وأحياناً كانت أيديهما تصطدمان، ولا ينظران حولهما كثيراً. كان الموت في كلّ مكان حولهما، واحدٌ، وباردٌ.

توقف المطر دفعة واحدة، في ثانية.

واصلت العاصفة طريقها.

عملت الريح دائرة أخرى وذهبت بعيداً، قاصّة الأمواج بذيلها الحاد.

... لم يدم الارتياح طويلاً.

استطاعا فقط أن يبتسما بعضهما لبعضٍ، بوجهيهما اللذين لا يكادان على قيد الحياة، ولونهما المائل للزرقة. تدلّت غرتها- مبتلة، ثقيلة، مثل جناح طائر مكسور. أمّا هو- فلم يكن يعرف ماذا لديه، ربّما كان لديه وجه من القصدير، وخدود محمرّة، كما لو كان لديه تيفوئيد- وكانت المغرفة لا تزال في يده.

كانت الابتسامة لا تزال على وجهيهما، عندما أصبح واضحاً بالفعل أنّ المحرك صامت، فوقفا جامدين في وسط الماء.

لمست غالا المحرّك، ومررت يدها فوقه - في هذه الحركة كان هناك شيء يتكلّم ومؤلم: لماذا أنت هكذا؟ وكيف سيكون حالنا الآن؟.

" ربّما نحاول؟"- عرض أرتيوم بهمس تقريباً لسبب ما.

كان الماء يضرب جانبي القارب.

"كان إيخمانيس يقول دائماً: قبل إصلاح السيارة- دعها تفكّر"- قالت غالا ذلك بصعوبة، كما لو كانت تعاني من ضيق في صدرها.

دوّى الرعد في مكان ما بعيد.

نظر كلاهما في ذلك الاتجاه – إلى الأمام: ربّما يظهر شيء آخر هناك غير الرعد. كان هناك في الأمام ازرقاق داكن، دامس تقريباً.

كان كلٌّ من غالا وأرتيوم يدركان، أنّهما فيما لو حاولا تشغيل المحرّك الآن، ولم يعمل- فستكون النهاية، الانهيار.

كانا يرغبان في تأجيل هذه اللحظة.

ربّما كان يجب تركيب السارية في الصباح، على اليابسة، وربط الشراع بها - والآن كان من الممكن رفعه. حتّى لا يفعلا ذلك الآن في وسط البحر - ناس خائفون ومتجمدون من الريح.

لفّا المحرّك كطفل.

شربا الفودكا.

جرفا الماء كلّه.

ملأا خزان المحرّك بالوقود.

جلسا وشرب كلّ واحد منهما جرعة فودكا أخرى.

نظرت غالا إلى مكان ما في السماء مدّة طويلة، ثمّ سألت، كما لو لم تكن جادة، ودون أن تحوّل نظرها إلى أرتيوم:

"دعنا نطلق النار على أنفسنا".

أجاب أرتيوم على الفور: " أجل، ولكن لماذا حاولت أن أبقى على قيد الحياة في كلّ مرّة".

لم يكن يتحمّل مثل هذه الأحاديث، وأجاب بالنبرة التي تسمح على الفور بإغلاق الموضوع.

... انتظرا بصبر قرابة نصف ساعة.

سحبا حبل مولّدة الكهربا - اشتغل المحرّك.

قهقه أرتيوم. ابتسمت غالا أيضاً. ضغطت على دعسة الوقود بمثل هذا الجنون، كما لو أنّه كلما كان صوت المحرّك أقوى، كان أفضل.

اندفعا في عرض البحر.

ظلا صامتين نصف ساعة، محدقين في جميع اتجاهات العالم.

ثمّ نظر أرتيوم إلى غالا.

شعاع غروب شمس الخريف غير المرئي على وجهها، كأنّه الوحيد في العالم كلّه.

"ومع ذلك، يا غالا؟"- سأل أرتيوم بصوت عالٍ، من أجل أن يرتفع صوته على صوت المحرّك- "إلى أين نحن ذاهبون؟".

حوّلت غالا نظرها ببطء إلى أرتيوم، زارّة عينيها من الهواء، وقالت:

" يوجد لدى النرويجيين امتياز اصطياد الحيوانات البحرية، وهم يبحرون على طول ساحل مورمانسك حتّى مدخل البحر الأبيض، وحتّى إنّهم يدخلون إليه. آمل أن نلتقيهم. ويعيش في مورمان الغربية أيضاً، مستعمرون نرويجيون. لم يفكّر أحد في الهرب إليهم أيضاً... لكن بالنسبة لنا، من السابق لأوانه التفكير في الأمر... من المهم ألّا نفوّت الجزر القادمة...".

فكّر أرتيوم متفاجئاً: " سابق لأوانه أم غير سابق - ربّما لن أعود إلى روسيا قطّ ؟... ماذا سأخسر؟".

أغمض عينيه بشدة لثانية، ورأى نحلة كبيرة على ساقٍ، وحصان يرجف طحاله، وعشّ غراب، وأخاه الأصغر، واستوديو التصوير في مياسنيتسكايا، ورجل ثلج بالقرب من المنزل، وسطر من بيت شعرٍ...

نحّى كلّ ذلك جانباً: كلّ ذلك رغوة.

"لا"- أجاب على نفسه، لكنّه نحّى ذلك من جديد.

"ليس للمرأة وطن. وطنها الرجل- قال ذلك في سولوفكي، إمّا فاسيلي بيتروفيتش... وإمّا بورتسيف... وإمّا ميزيرنيتسكي؟ أحد منهم- أعضاء سابقون في الحرس الأبيض وأحياء سابقون. يظهر وطن للمرأة عندما يظهر لها زوج، أم أبناء. يغادر الأبناء وطنهم- ومن جديد لا وطن لدى الأم. الوطن هناك، إذ يوجد قلب الطفل...".

من قال ذلك؟.

كان نور السماء يساعد على شيء ما من التفكير- ولكن كلّما أصبح النور أقل، أصبحت الأفكار المجرّدة أكثر سخافة وحتّى أكثر خبثاً: تناقص وزن

التفكير مع كلّ لحظة- أيّ وطن، أيّ نحلة كبيرة على ساقٍ، أيّ قلب؟- هناك في العالم ماء وملح، فقط ماء وملح.

" هل تعرفين السباحة يا غالا؟"- سأل حتّى لا يبقى صامتاً.

"لم يعرف الرهبان السباحة، يا تيوما، هكذا قال لي المسؤول عن الفقمات. لكي لا نعيش في رجاء كاذب... لم يعرف الرهبان، ولسنا نحن بحاجة لذلك. لن تسبح هنا بعيداً. درجة حرارة الماء عشر درجات".

حلّ الظلام في وقت أقرب بكثير ممّا كان متوقعاً.

كان الأمر كما لو أنّهم يسكبون عليه من محبرة. فقط استدر- يصبح من جهة اليسار سميكاً، تنقل عينيك- يصبح من جهة اليمين قاتماً تماماً.

بينما كان هناك معنى، ظل أرتيوم ينظر حوله- أين هذه الجزيرة اللعينة...

"هل جزيرتنا كبيرة؟"- سأل أرتيوم غالا مرّات عدّة.

"لا أعلم"

- أجابت هي، لكن دون انزعاج، وإنّما في تأمل وانفعال أيضاً.

حان وقت اقترب الظلام منهما. كانت النجوم غير مرئية تقريباً، ظهرت واحدة أم اثنتان من حين لآخر، وسرعان ما اختفتا. بقي صوت المحرّك، وضجيج الريح، وطبطبت المياه فقط.

كان أرتيوم ينظر في الظلام، وتتهيأ له غابة من وقت لآخر- أشجار طويلة وكثيفة ذات حجم غير عادي.

لقد تذكّر، عندما كان طفلاً، كيف كان يخاف من الغابة ليلاً. كم تبدو مخاوف الأطفال الآن سخيفة: الأشجار القاتمة هي الهدوء، وهي الحياة.

اختفت منارة جبل سيكيرنايا. من كان يظن أنّ اختفاءها، يمكن اعتباره خسارة.

كم تبيّن أنّ الإنسان صغير وضعيف. وكم أنّ العالم ضخم، ضخم وأسود.

هل يمكن مقارنة هذه الليلة شديدة السواد بتلك الليلة- التي طمر فيها أرتيوم بورتسيف، وتلوث كلّه بدماء شخص آخر؟.

وما المشكلة في أنّه طمره- لكنّه في الأرض، أرض صلبة يمكنك الوقوف عليها. وكان هناك أشخاص حوله، على الرغم من أنّهم بعيون الذئاب، لكن كانت لديهم عقول - ويمكن أن تدفعهم هذه العقول إلى اتخاذ أي قرار.

على سبيل المثال، الرأفة بأرتيوم.

كان من الممكن مخاطبتهم. والتحدث معهم. وتحكي لهم عن حياتك.

فكّر أرتيوم: "أنا لا أخاف من الناس.أنا أخاف عندما لا يكون هناك ناس".

بدت الفكرة له عميقة بشكل غير عادي، وتستوعب معاني غير مسبوقة.

كان من الممكن البحث في النهار عن الشمس والأمل فيها- ولكن بماذا تأمل في العمى؟.

نظرت غالا إلى البوصلة، ورفعتها على راحة كفها وقربتها من وجهها.

ربّما يبحران فجأة، في فم مفتوح ضخم؟ يقولون أنّ الحيتان تأكل بهذه الطريقة: تفتح فمها العملاق، وما يتدفق فيه- هو طعام الحيتان.

البوصلة لا تعرف ذلك!.

كان أرتيوم يحدّق إلى الأمام حتّى الألم في جبهته.

"ابحث عن المصباح!"

- طلبت غالا.

رمش أرتيوم عينيه، وحاول أن يتحرّك، وأدرك أنّه برد جداً في الساعات القليلة الماضية، لدرجة أنّه لا يستطع رفع ذراعه.

كاد، يسقط على جنبه، مثل كيس الخيش، فتّش على الأرض بلا معنى، بحثاً عن الفانوس. لم يجد شيئاً. وقد نسيت غالا ما سألت عنه. ضغطت على

دعسة الوقود، وكان المحرّك هو المخلوق الوحيد المعقول والهادئ في كلّ هذا الفراغ.

قال أرتيوم لأحدهم: "انتهى بي المطاف هنا- في وسط البحر البارد، مع امرأة لا أكاد أعرفها. ربّما لديها خطايا فظيعة، وقد جذبها القدر إلى البحر ليغرقها. لا علاقة لي بهذا. أنا هنا بالمصادفة، بمفردي، دون ذنب يستوجب ذلك. لقد قتلت والدي، لكنّني عوقبت على ذلك، لقد عملت بنقل الجذوع، وضربوني، وحاولوا ذبحي. رأيت الموت وحكم عليّ به، تجمدت في زنزانة العقاب، ونمْت تحْت عظام بشرية، وسمعت الجرس... أوه، لو أنّ شخصاً ما يقرع الجرس الآن- في مكان ما في الظلام - كنّا اندفعنا إلى هناك! أليس كذالك ، يا غالا؟".

نظر إلى الوراء، إلى- من هي؟ هل هي صديقته؟ زوجته؟ امرأة مجهولة مصيرها الكامل وراء ظهرها.

من القادر هنا والآن على إنقاذه - هو، هما؟.

ربّما يكون من المفيد نطق اسمك الشخصي- بصوت مسموع: وبعد ذلك ستتم المراجعة والتحقق من فهرس البطاقات لجميع الأسماء البشرية- نعم، يوجد مثل هذا الاسم، نعم، وراء هذا الاسم يوجد مسار جرى اجتيازه، ولكن لا يوجد له مستقبل لسبب ما، دعنا نمنح هذا الاسم، هذا الذي يجري به الدم، لمقلة العين هذه، الحق في الغد.

"يا رب، أنا أرتيوم غوريانوف، انظر إليّ من خلال الظلام. هناك امرأة بجواري- انظر إليها أيضاً. لا يمكنك أن تأخذني بكفٍّ واحدة وتترك الكفّ الأخرى فارغة، أليس كذلك؟ خذها أيضاً. لقد كانت فيها بذرتي- إنّها ليست غريبة عنّي، ولست مستعداً أن أتحمل وزر ماضيها، لكنّني على استعداد لأتقاسم معها المستقبل".

يا رب؟.

لا يوجد أحد هنا- مصيران فقط، وذاكرتان- لها وله. إنّهما يتبعون القارب، ويفقدان شيئاً أم آخر في الطريق- بعض الكلمات، وبعض الأشياء، وبعض الأصوات.

هل فوّتنا الجزيرة؟ فوّتناها؟ فوّتناها؟.

بالطبع كيف لا نفوّتها.

وماذا الآن؟.

أبطأت غالا السرعة، كان المحرّك يعمل بأدنى سرعة له.

أصبح الهواء أكثر حدّة، ومشوّكاً، لا يطاق.

أصبح من الممكن سماع اصطكاك أسنان أرتيوم.

" أرتيوم؟" - نادت عليه غالا.

على ما يبدو، كانت ترتدي ملابس أكثر دفئاً: لا يزال صوتها مسموعاً.

"أنا أموت"- لم يكد يقولها، وهو ينظر إليها ببلادة.

أجابت غالا: " دعك من هذا- لم نبدأ بعد المعاناة".

" لأنّني قد عانيت بالفعل!"- قال أرتيوم بحنق فجأة، وهو يشد على كلّ كلمة بفكيه.

لقد أراد السقوط في قاع القارب، والتكوّر هناك، والنوم بعمق دون أحلام.

طلبت منه غالا بصوت عالٍ: "استدر أنا بحاجة... لقضاء حاجة".

لم يكد يتحرّك، ألقى بساقيه من وراء المقعد، وجلس وظهره لها.

تركت غالا المقود، وخمد المحرّك.

تجهمت فترة طويلة جداً.

سألت غالا:" لماذا أنت صامت؟ تحدّث عن أيّ شيء. غنّي. يجب ألّا تصمت. ابحث عن الفودكا. هناك يوجد فودكا".

فهم من الصوت: أنّ غالا تفعل ذلك في المغرفة.

يا للعجب: امرأة، وينسكب سائل منها. كيف ذلك. من كان يظن. حتّى الآن، لا يمكن حتّى تخيّل مثل هذا الشيء، عند النظر إلى غالا.

... سكبت ذلك خارج القارب في البحر.

طلب أرتيوم: "أعطني مغرفة أيضاً".

" يجب شرب فودكا أوّلاً " - قرّر بشكل غائم وجامد.

تذكّر فجأة المكان الذي وضعا فيه القارورة، بحث عنها.

لم يكد يرفع يده، شرب كثيراً وأعطاها لغالا. إضافة إلى ذلك وجد مصباحاً، أعطاه لها أيضاً. لقد بادلته بالمغرفة.

كانت المغرفة دون جدوى، على أيّ حال: لم تكن يداه تطاوعانه، لم يستطع أن يحمل بهما أيّ شيء، فقد الإحساس بأعضائه من البرد- وعندما انسكب منه السائل، انتشر في كلّ مكان باستثناء المغرفة.

وسواء توقعت غالا ذلك أم لا، لم يكن ذلك مهماً.

عندما التفت إليها- أضاءت المصباح.

ربّما كان الأمر مضحكاً: وجهان أزرقان في ظلام كثيف ورطب.

لو عرفت أمي في أيّ خطّ عرضٍ وخطّ طولٍ ألقْي قلب أبنها.

نظرت غالا إلى البوصلة، وإلى الخارطة، وإلى أرتيوم: التقت عيناهما، مثل ناس غرباء بعضهما عن بعضٍ تماماً، التقيا هنا بالصدفة- سينطفئ الضوء الآن، وسيمضي كلّ واحد منهما، لشأنه.

لم يكن هناك شيء مرئيٌّ على ضوء الفانوس: الماء الداكن فقط.

أطفأته.

نادى عليها أرتيوم: "غالا!".

أجابت: "نعم".

"هل سيأتي الصباح قريباً؟".

أثّرت الفودكا فيه قليلاً: لم تشعر رجلاه بأيّ شيء بالتأكيد، لكن لسانه انتعش.

لم تجب غالا: حرّك أرتيوم لسانه فقط، فاحصاً فمه.

حاول النهوض، والتحرّك، وتغيير وضعيته، لكن غالا أمرته بعدم هزّ القارب.

أغمض عينيه.

لم يبتلعها الحوت.

غفا أرتيوم مرّات عدّة - كان الحلم جليدياً وخطيراً ولا يطاق تقريباً- لكن هدير المحرّك ظل دائماً على حافة الوعي. واندمج هذا الهدير مع هدير دمه، ولم يتركه يتجمّد.

عندما فتح عينيه مرّة أخرى، فوجئ أنّه بدأ يرى أكثر حدّة وأبعد. ثمّ أدرك أنّ الصباح يقترب، والصباح يعود.

"غالا!"- ناداها، ولكن لم يكن هناك صوت- "غالا! غالا!" - حاول، وفي المحاولة الخامسة فقط سمع نوع من الصفير.

"ماذا تريد، مصّاصة؟"- سألت: كان صوتها قاسياً، ومنتعشاً- اتضح أنّها امرأة قويّة.

حتّى لا يجيب، أبقى أرتيوم يده مرفوعة.

وضعت في يده قارورة، بقي فيها القليل من المشروب. شربه كلّه.

كان يعتقد أنّ الصباح سيجلب الراحة، لكن الأمر كان مختلفاً تماماً. لقد أكدت الصورة المبلّلة والمتشرّدة، التي انفتحت أمامه، كل ما شعر به أرتيوم في الليل: لم يكونوا في أيّ مكان، ولا أحد، ولا إلى أحد.

ما هذا يا ترى؟ ما هذا؟ متى سينتهي ذلك؟ ربّما لم يعد هناك أرض في العالم؟.

أجبرت غالا أرتيوم على خلع جزمته. لقد وجدت خرقاً وفودكا بين أغراضها- أمرته "افرك قدميك بالفوتكا!". كانت قدماه غريبة عنه تماماً- مثل قطعة خشب، بيضاء تماماً، يمكنك أن تغرز فيهما مسامير.

كان يفركهما بالفودكا، ثمّ يشرب الفودكا، ويفركهما من جديد.

" أود أن أتمشّى "- اعترف لغالا

لقد كان حلماً جاداً، على عكس لأحلام الكثيرة غيره.

أومأت برأسها، ووجدت القوّة للابتسام.

"لن أضيع معها " - فكّر أرتيوم فجأة بشعور لطيف وامتنان وصدق. "سأشكرها على كلّ شيء".

أكلا طعاماً معلّباً.

حتّى إنّ أرتيوم غسل وجهه.

قال أرتيوم في منتصف فكرته:"... إذا كان الله موجوداً، فإنّه في كلّ الأحوال ينبغي أن يكون على اليابسة، أليس كذلك؟ لا، لقد سار على الماء- ولكن إلى أيّ مدى سيمشي؟ لقد قلت أنّ درجة حرارة الماء عشر درجات، وهو حافي القدمين. لماذا عليه أن ينطلق في البحر الصافي، بمن سيمسك هنا، باستثناء اثنين من الحمقى. هناك العديد من الأماكن في العالم ، إذ يعيش الحمقى أكثر ازدحاماً. أليس كذلك؟".

"نعم"- أجاب غالا بهدوء.

ومع ذلك، الطعام المعلّب شيء رائع. لحم بقري معلّب مع فودكا.

ما زالت ساقاه لا تشعران بأيّ شيء، لكن في الداخل، تحت الجلد، في الأوردة، ما زالت الحياة باقية، عرف أرتيوم ذلك.

لقد شاهد بنفسه كيف قتل أو دفع إلى الموت عدد من المقربين منه:

أفاناسييف، الكاهن إيوان... لم يسمّم حياته ذلك. لم يجعل ذلك الطعام أقل لذة.

فكّر أرتيوم في الأمر قليلاً، لكن طعم الطعام الجاف المعلّب في داخله قطع أيّ تفكير.

"ماذا لو قتلوا والدتك؟"- سأل نفسه.

كان السؤال مزعجاً وغير سار، ولم يرغب أرتيوم في الإجابة عنه أيضاً.

"هل كنت دائماً على هذا النحو، أم إنّك أصبحت قاسياً تماماً هنا؟"- سأل نفسه في النهاية.

ولم يجب مرّة أخرى.

... اختنق المحرّك وخمد.

صمت كلاهما أيضاً. ساد الهدوء الفظيع مرّة أخرى.

" نفد الوقود " - قالت غالا بسرعة- بسرعة كبيرة لدرجة أنّه لم يكن هناك مجال لأيّ توقعات آخرى يمكن أن تصدر.

"ساعدني"- طلبت منه.

أخرج أرتيوم عبوة الوقود من الركن المغطّى في مقدمة القارب، وسحبه بجهد إلى مقعده.

ألقى أرتيوم العبوة وراء المقعد أوّلاً، ثمّ تخطاه. كان في أسفل القارب غطاءان نزعتهما غالا من عبوتي الوقود.

عندما كان يسكب الوقود، ممسكاً العبوة في يديه المتوترتين، رأى أرتيوم ندفة ثلجٍ سقطت على يده، حادة ولم تذوب لبعض الوقت.

هبّت الريح، وتشكل الكثير من ندف الثلج على الفور، واشتدت الريح أكثر- كما لو أنّ الريح والثلج كانا متعلقين بعضهما ببعض أم كانا يتسابقان، من يلحق بالآخر.

كم يوجد في الطبيعة أشياء مروّعة، ومميتة، وجليدية. كم هو قليل ما يمكن يفعله الإنسان العاري.

عندما كان أرتيوم يرفع عبوة الوقود، ويحملها في يديه، شعر بحاجة فسيولوجية - بما أنّه تناول الطعام أمس، ويجب التخلص منه. نظر إلى غالا بعيني الشك... وكيف سيفعل ذلك؟ لم يكن هناك على القارب مثل هذه الأشياء.

"من الأفضل أن تفكّر أنّ المحرّك لن يعمل" - غضب أرتيوم من نفسه، لكن لم يخمّن مرّة أخرى - بمجرّد امتلاء خزان الوقود، صدر صوتاً خشناً ومباركاً مرّة أخرى، وواصلوا الإبحار... ولكن في أثناء حمل عبوة الوقود، تجمّدت يدي أرتيوم. بدأ الثلج يسقط بقوة أكثر، وكانت الرؤية لثلاثين متراً، لا أكثر.

فوجئ أرتيوم: "لماذا يتساقط الثلج في الماء؟ أيّ معنى لذلك؟ عندما يسقط على الأرض - أمر جيد، وجميل... لكن في البحر - إنّه نوع من السخف. من أجل من هنا؟".

أبقت غالا يدها اليسرى على المحرّك - كانت تهدئ الحديد.

حتّى لا يتجمّد تماماً، أخرج الأغراض، وحاول التحرّك قدر الإمكان، فكان إمّا يلتفت إلى غالا، وكانت تلتقي نظراتهما، وكانت غالا في كلّ مرّة تمسح الثلج الملتصق بوجهها، وإمّا يعود مرّة أخرى إلى مخزونهما من الطعام، ويحركه ذهاباً وإياباً.

أصبح الجو أكثر قتامة بسبب الثلج الأبيض - أم ربّما كان اليوم قد بدأ بالفعل يميل إلى الغروب. كانت الساعة لدى غالا.

أعطته المنظار.

قالت له: "أنت سعيد، أنظر" - كان واضحاً من صوتها أنّ غالا بدأت تتجمّد، وكانت متعبة جداً، جداً.

أصيب أرتيوم بسبب المنظار والاهتزاز بالدوار على الفور، لكنّه كان ينظر وينظر. كانت تتمايل هناك مياه رصاصية وبيضاء قريبة بشكل غير متوقع، وزوبعة ثلجية متشابكة بيضاء.

وكانت هناك سماء كبيرة جداً. أكثر بكثير ممّا يحتاجه الإنسان.

بعد مرور بعض الوقت، أصيب أرتيوم بالدوار، لدرجة أنّه كان يفقد وعيه ثمّ يعود إليه، ولم يكد يستوعب التغييرات التي تحدث معه.

لقد كان يشعر أحياناً، أنّه محرّك يحتاج إلى أن يملأ بالوقود. أم أنّ خديه ورقبته وجبهته كانت مغطاة بدهن الفقمة الذي جمد كثيراً- ولكن إذا ما وخز بإصبع بحدة - في جبهته على سبيل المثال، فمن السهل جداً اختراقها. كان هناك داخل رأسه شيء بارد ودهني ومتشابك أيضاً.

كان كما لو أنّه أضاع نفسه تماماً، في الريح التي لم تنقطع خلال اليومين الماضيين- بقي منه بعض الأشلاء والقطع والشظايا- إذ لم يتعرّف أحد من خلالها على أرتيوم السابق.

رفع المنظار، وشعر، ليس هو الذي ينظر إلى الثلج والهواء الأزرق الرمادي، وإنّما العالم العكر المتشنج والمتأرجح من حوله الذي كان ينظر إليه من جميع الجوانب.

أرخى المنظار على صدره، وحاول أرتيوم أن يقرّر- أين كان يشعر بالبرد أكثر : هنا أم في زنزانة العقاب على جبل سيكيرنايا. لكنّ البرد جعل المقارنة أمراً مستحيلاً. كانت أفكاره أيضاً جليدية وذات زوايا- لم تترتّب معاً، مثل المكعبات المقطّعة والزلقة.

أبحر القارب بشكل جانبي : غفت غالا.

انتقل إلى مقعدها، وقاد القارب بنفسه، دون أن يعرف إلى أين، سدّد نحو النجم الأكثر حدّة.

لم تستيقظ غالا.

"غالا! إلى هناك! انظري! هل ترين؟ هناك؟.. يا للشيطان..." - نظر من خلال المنظار، ثمّ بدأ في خلعه من رقبته، جارفاً أذنيه بالحزام من السرعة- "هناك، انظري...".

كان الثلج قد توقف عن السقوط منذ فترة طويلة- لكن بقي الشعور بوجوده في الهواء- كما لو كان في كلّ مسافة قصيرة قطعوها على متن القارب، كان الثلج قد توقف للتو فيها، وترك وراءه مكاناً بارداً. كان على الوجه أن يمزّق الهواء، كأنّه قطعة قماش. وكانت تخشخش أذنيه.

أعطى الظلام الذي كان يقترب الحق الكامل في ارتكاب خطأ- ولكن لم يكن هناك أرض فقط - كان هناك نار- ضوء صغير يومض.

استيقظت غالا، ورأت ذلك أيضاً.

لقد تجمّد وجهها، لدرجة أنّها لم تكن قادرة على إظهار أيّ انفعال على الأقل.

"ماذا هنالك؟"- سألت أخيراً، لا تكاد قادرة على التحكّم في فمها.

"بغض النظر، عمّا يوجد هناك!.."- بدأ أرتيوم، وقطع كلامها، لأنّ كلّ شيء كان واضحاً على أيّ حال. لا سيّما أنّه، شعر بشكل أكثر حدّة، أنّه ليس طبيعياً تماماً، وقريب من الجنون. في هذه الحالة، من الأفضل التزام الصمت.

نظر كلاهما إلى النقطة الوردية الزاهية المتلألئة.

لا، لا، لا: من أين سيأتي عناصر الأمن إلى هنا.

أم جرى إرسال عناصر الأمن للقائهما، من أجل اعتقالهما في الطريق؟

من المستبعد. مستحيل.

أخذت غالا المقود منه، وأدارته ببطء، ووجهت القارب نحو الضوء.

انتقل أرتيوم إلى مكانه، كما لو أنّه هنا أصبح أقرب بكثير- وكان يحدق بلا كلل إلى الأمام، منتظراً الشاطئ.

نادت عليه غالا.

لم يجب، أومأ برأسه فقط.

قالت: "أطلق النار دون تفكير".

قال: "نعم".

لكن كان لا يريد أن يقفز في الماء فقط، لأنّ ذلك سيكون فظيعاً - من سيدفئه لاحقاً. أمّا إطلاق النار - لماذا لا أطلق النار. يمكن أن أتدفأ من إطلاق النار.

قرّر أرتيوم بشكل متقطع، مثل الثمل: "... سأنادي جندي من الجيش الأحمر للمساعدة...وبمجرّد أن يسحب القارب إلى الشاطئ... سأطلق النار عليه في ظهره... أفضل شيء في ظهره ".

.. انتظرهم شخص واحد فقط على الشاطئ.

صرخ الشخص بصوت رفيع – لا يكاد يسحب الهواء ليصرخ أقوى: هكذا يبكي الأطفال الصغارالخائفون، الذين تركوا وحدهم أو الجائعون.

لوّح الشخص بذراعيه، ولم يتوقف عن الصراخ حتّى عندما اتضح أنّهما رأياه، ويبحران نحوه.

تبيّن على بعد عشرات الأمتار أنّ الذي يقف على الشاطئ امرأة. كان صراخها وحركاتها غبية للغاية.

... عندما اقترب القارب منها كثيراً، ألقى أرتيوم لها بالحبل بشكل أخرق: للرسو.

لم يصل الحبل إليها، وسقط في الماء.

ألقى إليها الحبل مرّة أخرى وثانية.

كانت المرأة في كلّ مرّة تلوّح بيديها عبثاً، كأنّها تطرد الطيور. ثمّ رفعت يديها ببساطة ووقفت هناك على الشاطئ، كما لو أنّها تخيف المبحرين أم تستسلم لهم.

شعر أرتيوم أنّ غالا التي كانت تجلس خلفه، أرادت أن تطلق النار عليه.

وصل الحبل إلى الأرض أخيراً - لم تمسكه المرأة بالطبع. جثت بشكل أخرق - بدت كأنّ الثياب عليها سبع طبقات - التقطت الحبل من على الأرض وشدته.

رسا القارب.

كان الضوء يشتعل خلفهم: أضاءت غالا المصباح.

نهض أرتيوم بصعوبة وقفز بطريقة ما، وكاد يسقط، دون أن يشعر بساقيه وذراعيه وجسمه والحياة بشكل عام.

وسحب مع المرأة، وهما ينزلقان ويتمسكان، القارب إلى الشاطئ.

بدا له أنّ المرأة كانت تضحك- نوع من الضحك غير اللائق هنا.

أدرك فيما بعد أنّها كانت تبكي دون توقف بسعادة، وكانت الدموع تتجمد على خديها.

لم يكن يرى هناك أيّ شخص آخر بالقرب - نار وكلّ أنواع الخرق والخردة فقط، متكدسة بجانب النار. ربّما شخص آخر يرقد هناك. لكن ليس أكثر من واحد.

نادت عليه غالا إمّا بصوت غاضب وإمّا بلا حياة: "أعطني يدك".

ساعدها بالنزول على الأرض.

" من أنتم؟"- سألت هي المرأة، ولم تكد ترفع المصباح.

غير قادرة على الوقوف في مواجهة الريح، تراجعت المرأة خطوة إلى الوراء، لكن بدا كأنّ ذلك حدث نتيجة لسؤال غالا وبسبب الضوء.

"نحن... ذاهبون..."- أجابت المرأة، وهي تحاول أن تبتسم- "...From".

وبمجرّد أن فتحت فمها، خمّن أرتيوم أنّ الذي أمامه ليس شخصاً روسياً.

كانت المرأة تنظر إلى غالا، ثمّ إلى أرتيوم، متوقعة أن يساعداها في الإجابة.

يبدو أنّ غالا لم تفهم لماذا لم يشرحا لها بطريقة طبيعية ما هو الأمر.

صعد أرتيوم إلى القارب- لإخراج الأشياء الأكثر ثقلاً، من أجل محاولة سحبه أكثر إلى الشاطئ.

"Do you speak English?"- سألت المرأة وهي تبتسم بصوت متوسل، كأنّها تطلب الخبز أم المال. مسحت دموعها على وجهها وكانت من وقت لآخر تتنشّق.

"هل يوجد أحد آخر على الجزيرة؟" - سألت غالا بحزم وبصوت عالٍ، كما لو أنّها لم تسمع العبارات التي قيلت للتو.

"هناك..."- لوّحت المرأة بيدها- "صديق... زوج!" - أجابت بشيء طويل، قالت شيئاً طويلاً ومرتبكاً بلغتها.

نظرت غالا لبعض الوقت في الاتجاه التي أشارت إليه المرأة.

"French? Deutsch? " - سألت المرأة غالا.

كان واضحاً من صوتها أنّها كانت سعيدة حقاً، وتريد أن تنال الإعجاب: حتّى لا تختفي السعادة، لأنّ الأمل فيها، على ما يبدو، قد ضاع بالفعل.

لم تجب غالا.

... بمجرّد أن سحبوا القارب إلى أعلى، اقترب أرتيوم من النار، كما لو كان يبحث عن صديق وزوج، ولكن في الواقع - إلى الدفء ببساطة. وضع يده في جيبه، وكان المسدس في جيبه، رغم أنّه خمّن لا يوجد أحد ليقتله هنا. كان من الممكن أن يختبئ اثنا عشر جندياً من الجيش الأحمر في الخرق...

جلس أرتيون بالقرب من النار، بصعوبة، ومدّ يديه فوق ألسنة أللهب. بدت للحظة راحتيه فوق ألسنة اللهب ذهبية.

نظر عن كثب، وأدرك أنّ ألواح خشبية تحترق في النار. ليس هناك مكان على الجزيرة فيه ألواح خشبية. وهذا يعني أنّ هؤلاء الناس أحرقوا قاربهم.

أخرج أرتيوم يديه ببطء، من النار، مثل لحم حيوان غريب، كانا يدخنان. أمال وجهه الآن نحو الحرارة وأغلق عينيه. احترقت رموشه مع فرقعة – لم يهتم للأمر.

جاءت المرأتان.

طلبت غالا: "أحضر طعاماً، يا أرتيوم".

أومأ أرتيوم برأسه، لكنّه لم ينهض من مكانه، أبعد وجهه عن النار فقط. احترقت لحيته الخفيفة أيضاً. قرصت شفتيه بلطف. سخن اللعاب في فمه، شيء غريب.

جلست غالا بجانبه. ومدّت هي الآن يديها إلى النار.

أخبرته غالا: " أنّها ليست روسية".

أومأ أرتيوم برأسه.

فكّر، وهو يلامس أطراف فمه بلسانه: "... شفتاي تشققتا أيضاً".

سألت غالا أرتيوم، وأومأت برأسها إلى الأشياء المكوّمة على الأرض: " ماذا يوجد هنا؟ ألم تتفحصها؟".

أجاب أرتيوم: "الآن سألقي نظرة عليها"، ثمّ نهض أخيراً.

"أنا... ماري"- وكزت المرأة نفسها بإبهامها، كانت يداها في قفازات سوداء قويّة.

أجاب: "أنا أرتيوم"، وسأل وهو يتوقف بعد كل كلمة: "أين. صديقك؟".

"نعم!"- أجابت ماري باستعداد، وحتّى بشكل رسمي، وأومأت برأسها، وخطت خطوة نحو جبل البطانيات والقماش المشمّع والكتان. وخطا أرتيوم ورائها.

كان شعر صديقها يبرز في اتجاهات مختلفة، إمّا ملتصق بعضه ببعضٍ من الأوساخ والدم، أم متجمّد... شفتاه متشققتان، فمه مفتوح، يتنفس... لسانه مرئي، وأنفه مليء بالسواد... نكص أرتيوم للوراء قليلاً.

كان الشخص مستلقياً بالقرب من النار تماماً، وكان يمكن رؤيته بوضوح على ضوء النار. خلعت غالا قفازاتها وتحرّكت نحوه قليلاً، ومدّت يدها ولمست جبين الرجل المستلقي.

بعد أن صمتت قليلاً، قالت:

" يمكن التدفؤ عليه...سيموت قريباً ".

حاول الرجل أن يفتح عينيه، وعوج وجهه كأنّه مندهش. لم يستطع فتح عينيه، فتح فمه.

نادى - "ما...".

"ماء؟" - سألت ماري أرتيوم - "ماء؟.. و... حار! صديق - حار! علاج؟".

قالت غالا: "لا يوجد شيء لنعالجه به - أرتيوم، أحضر بعض الماء، وشيئاً لإطعامه، وفودكا لفرك المريض بها. من فضلك".

ولم يستطيعا أن يفهما حقاً، من أين أبحر هؤلاء الناس، ولأيّ غرض.

بدأت ماري في البكاء مرّات عدّة، دون أن تتوقف عن الابتسام، وطلبت في كثير من الأحيان المساعدة وإنقاذهما، وهي تتكلم على عجل، إمّا بلغة واحدة قصديرية، وإمّا بأكثر من لغة في وقت واحد.

حاول أرتيوم أن يتذكّر اللغة اللاتينية التي درسها في المدرسة الثانوية، لكنّه توقف عن ذلك على الفور.

لم يفهم الرجل شيئاً. حاولت ماري أن تسقيه الماء، ثمّ الشاي - سعل المريض، أعاقها، سال كلّ شيء على ياقته.

قدما الطعام لماري - كانت تأكل بشراهة، لكنّها كانت ترفع عينيها الممتنتين والمتوسلتين باستمرار، وحتّى عندما كانت تمضغ، كانت تبتسم مع ذلك.

بدأت غالا على ضوء المصباح، تفتش أغراضهما دون أن تطلب الإذن، وتفحصت الخرائط الغريبة، وبعض الدفاتر.

"... تعتقد أنّهما جاسوسان..." - قرّر أرتيوم، وتناول أوّلاً علبة طعام طويلة، ثمّ وضعها فوق النار، ودفأ يديه عليها.

تململت ماري مرّة أخرى بعد العشاء، حول صديقها أم زوجها، وفركت صدره بالفودكا، وكان يغمغم.

كانت ترغب في إطعامه أيضاً - دون جدوى...

كانت كلّ الوقت تنظر إلى غالا.

بعد مسح وجه المريض، اقتربت ماري منها بحزم، وبدأت تشرح لها شيئاً ما مهماً.

جلست غالا ووضعت المصباح بجانبها، ولم تستمع حتّى، بل كانت تومئ برأسها من حين لآخر، وليس لماري، ولكن لنفسها.

كان تقليب أوراق دفتر آخر في قفاز غير مريح، وضعته تحت أبطها. كانت ملابسها ضخمة، وسرعان ما سقط القفاز. التقطته ماري على الفور وسلّمته إلى غالا، وهي تواصل الحديث.

لم تعد غالا الدفتر إلى مكانه، بل وضعته في عبّها. أمسكت بالقفاز أخيراً، لكن لم تلبسه. كانت ذراع غالا العارية حمراء ومرهقة وذكورية تقريباً. أطفأت الفانوس. جلست بالقرب من أرتيوم. أعطاها علبة الطعام. نظرت غالا، غير فاهمة، في داخلها.

أوضح أرتيوم: "تدفئي".

لم يفكّر أرتيوم في أيّ شيء الآن، وهو واثق من أنّ غالا هي من يجب أن تتخذ القرار بنفسها: من هو أصلاً؟ هو لا أحد.

قالت غالا بصوت منخفض: " كما فهمت، تحطّم قاربهما في أثناء رسوهما- إنّهما يعيشان هنا منذ أسبوع، ولكي لا يتجمدا من البرد- أحرقا القارب. لأنّه لم يتبق لديهما شيء يحترق".

جلست ماري أمامها، وكانت تومئ برأسها عند كلّ كلمة تقولها غالا، كما لو كانت تفهم ما يقال.

لم يجيب أرتيوم بشيء.

واصلت غالا: "قالت إنّهما بقيا في الطريق إلى هنا أسبوعاً. سبعة أيام".

لم يزدهما هذه الخبر انتعاشاً.

نظر أرتيوم حوله- كان هناك ظلام دامس، وكان البحر صاخباً وغير مرئي.

أم ربّما ليس البحر ولكن الرياح تصدر ضوضاء؟ والبحر على سبيل المثال متجمد؟ ويمكن أن تواصل السير مشياً على الأقدام. المشي - أطول وأصعب. لكن لا يمكنك الغرق. تتجمّد فقط. وقريباً جداً...

من الأفضل أن يكون البحر هو الذي يضج.

قالت غالا: "إذا تركناهما هنا- سيموت كلاهما. إذا أخذناهما معنا- فسيموت الرجل في الطريق، لن يتحمّل أسبوعاً".

"أنقذاه!" - طلبت ماري، وهي تومئ برأسها، وبدأت تنبش حبيبها من تحت الخرق مرّة أخرى حتّى يفهما.

لاحظ أرتيوم مرّة أخرى: أنّ حالة الرجل كانت سيئة حقاً.

لكنّه لم يشعر بأيّ شفقة تجاهه.

أنهت غالا حديثها: "... سوف ينفد الوقود أبكر لدينا- لأنّ الاستهلاك سيزداد".

سأل أرتيوم: "من أين أبحرا؟".

قالت غالا: " لم أفهم". ولكن بكلّ الأحوال، سيستغرق الوقت للوصول إلى المياه النرويجية أكثر من العودة. والطقس يزداد سوءاً".

فكّر أرتيوم:" من المثير للاهتمام، هل يوجد في مكان آخر في العالم، مثل هؤلاء المجانين الذين يجلسون في وسط البحر ويفكران كيف من الملائم لهما أن يموتا- في طريقهما في البحر أم بعد أن يعودا إلى ديارهما؟".

"هناك أمل، في أن نصل إلى حيث كنّا ذاهبين، إذا أبحرنا وحدنا. ولكن يجب ترك هؤلاء الناس هنا. على الرغم من أنّ المحرّك لا يعمل في البرد، وإذا حصل صقيع، لن يدور... وإذا ما عدنا... إذا عدنا، لا أعرف ماذا سيحدث. على الأرجح سيكون الأمر سيئاً للغاية" - رمت غالا العلبة الفارغة في النار، ونظرت إلى ماري التي نظرت بدورها إلى غالا أيضاً.

كان بإمكان غالا أن تقول: "لكنّنا سننقذ ناساً"- لكنّ أرتيوم فهم ذلك، ولا داعي للكلام. وفهمت غالا. كانا قبل ساعتين مستعدين لقتل أيّ جندي من الجيش الأحمر، وحتّى كلهم غير مبقين على أحد من الذين سيلتقون

بهم على هذه الجزيرة- أمّا الآن فيدور الحديث عن إنقاذ غرباء مجهولين: هراء، هراء مطلق.

قالت غالا لماري: "يجب علينا أن نبحر إلى هناك"- ولوحت بيدها نحو الجانب المظلم من الأرض الأجنبية.

"!No, no " - طوت ماري يديها أمام وجهها، ولكن من أجل أن تشير في أيّ اتجاه يجب الإبحار، كان عليها أن تفتح يديها.

أشارت إلى اتجاه سولوفكي، إلى جبل سيكيرنايا، غير المرئي من هنا.

استيقظ أرتيوم في الصباح، بمزاج جيد، إذ يستحيل عليه أن يتخيّل ذلك. نهضت ماري مرّات عدّة خلال الليل، تراقب زوجها، وحتّى تحافظ على النار مشتعلة، كانت تلقي فيها آخر الرقائق الخشبية، ثمّ المجداف- لسبب ما قررت ترك المجداف للنهاية.

بشكل عام، كانت تدفئ زوجها، لكنّ أرتيوم كان يعجبه أن يفكّر بأنّ كلّ هذه العناية من أجله، وهو كان ينام بشكل أعمق.

في الجوهر، خمّن أرتيوم بشكل صحيح.

عثرت ماري أمس على جزمة من الفراء جافّة، وعلى جوارب صوفية، وارتداهما.

وبمجرّد بزوغ الفجر، بدأت ماري في طهي نوع من الحساء - بقيت لديها توابل غير معروفة، وحبوب غير مألوفة.

سرعان ما أصبح الحساء جاهزاً، وعلى الرغم من أنّ الريح سرعان ما حملت الرائحة، تمكّن أرتيوم من الشعور بها.

وقبل تذوّق الإفطار، إذ كان تفكيره لا يزال مرتبكاً، تخيّل نفسه رحالة يكتشف جزراً جديدة.

فكّر أرتيوم نعساً:"... سأسميهم بنفسي. جزيرة أفاناسييف، التي نحن عليها الآن... والجزيرة الأولى- جزيرة الكاهن إيوان... يجب أن يكون لبورتسيف جزيرته أيضاً...".

لم يكن لدى أرتيوم أدنى شك في أنّهما سيتحركان نحو سولوفكي.

لسبب ما، بدا له أنّ الطريق القادمة - كما لو أنّها عودة إلى البيت.

ربّما هذا ما كان عليه الأمر.

أصدر هذا الرجل، الزوج أم الصديق أنيناً.

أثبت أنينه، أنّه من الضروري العودة.

كما أثبت أيضاً، أنّ أرتيوم بصحة جيدة، وشابٌّ، وشفتيه غير متقشبتين. حتّى إنّه شعر ببعض الإثارة الذكورية الخفيفة، ممّا جعله يضحك تقريباً: شخص أحمق، يقف في وسط المياه الجليدية، لكنّه رغم ذلك يزمع مواصلة نسله عديم النفع.

... كانت هناك رائحة تعفّن خفيفة تصدر من الأرض، أم من المريض- لكن هذا لم يعرقل أم يمنع رغبته في الأكل.

كرّر أرتيوم هامساً:" جسم من جسم، من جسم في جسم، من جسم على جسم، جسم وراء جسم، جسم، جسم جسم...".

بدأت غالا تتقلّب في مكان ما قريب: بالحكم من خلال حركاتها، تبيّن أنّها لم تكن نائمة الآن، وقضت ليلتها بشكل سيئ. كما أنّ أرتيوم خمّن أيضاً أنّها غاضبة منه - هكذا إذن، لم يبدؤوا بعد في العيش معاً، لكنّه بات يعرف كلّ شيء عن غالا.

... غاضبة لأنّها هي التي يجب أن تتخذ القرار.

على الرغم من عدم وجود حلول احتياطية أخرى في الواقع.

كان يجب النهوض فقط والعودة إلى الوراء، إلى قصرك الحجري.

"... سوف يعيدونني إلى زنزانة العقاب" – فكّر أرتيوم بهدوء، لأنّ الزنزانة كانت لا تزال تبدو بعيدة- "سأقول لهم: مرحبا يا إخوتي. أين مكاني الثالث من الأسفل في الكومة؟..".

بينما كانوا يتناولون الفطور، حاول أرتيوم مرّات عدّة أن يبتسم لغالا، لكنّها لم ترد وحولت عينيها الباردتين جانباً. من الحركة التي لا تكاد ملحوظة

لفكيها الصارمين، أدرك أرتيوم أنّ غالا كانت تعض خدها من الداخل أحياناً. كان حساؤها، الذي كان بالقرب من قدميها يبرد.

كانت قدور الأجانب لامعة وأنيقة.

كانت ماري تنظر إلى أرتيوم وإلى غالا إمّا بأمل، وإمّا برعب، وكانت تخشى أن تتكلّم اليوم، كما لو كانت أمس في حالة سكر، والآن تخجل من نفسها.

اتضح في ضوء الصباح، أنّ ماري لم تكن جميلة، وأنفها كبير، ولكن، عينيها فيهما طيبة.

كان الحساء لذيذاً، وربّما كان ألذ شيء في حياة أرتيوم... على الرغم من أنّه أيضاً، عندما جاءت والدة ترويانسكي... لكن كان معروفاً ما كانت تطعمهما، أمّا هنا فلا.

سقط رذاذ زلق، ووقع في الحساء أيضاً، لكن أرتيوم لم ينزعج.

كانت الجزيرة في الضوء قذرة وسيئة. ليس هناك رغبة في العيش هنا.

نبشت ماري زوجها، لم يكن قد مات بعد، وحتّى على ما يبدو، كانت هناك حاجة لتغيير ملابسه الداخلية، وهو ما فعلته زوجته.

"... لو كنت في مثل هذه الحالة، لكانت غالا أطلقت النار عليّ "- قرّر أرتيوم بشكل كئيب، وواصل التفكير وهو ينهض، وأنهى فكرته: " كانت فعلت الشيء الصحيح".

كان في قاع القارب ثلج رطب. وكان القارب غريباً، وبارداً، وزلقاً - رغم أنّه كان مأهولاً تماماً أمس.

عند رؤية تساقط الثلج في الماء، أصبح الأمر أكثر إثارة للاشمئزاز، وشعر بقشعريرة تدب في جسمه- كما هو الحال قبل القيء أو الزكام.

دفئ وهو ينقل الأشياء إلى القارب. ساعدته غالا. لم يقل أحدهما للآخر كلمة واحدة، طوال الصباح.

قالت غالا عندما انتهوا من التحميل: "يجب أن يكون لديهم أسلحة- ابحث عنها، يجب أخذها. وكلّ ما لديهم من دفاتر مع الخرائط. افعل ذلك بنفسك، حسناً؟ ها هي قادمة".

ركضت ماري نحوهما في خوف وارتباك، وعلى استعداد للسقوط على ركبتيها، والبكاء، والعواء، وقتلهما، وتحطيم محرّك القارب الغريب...

ولكن عندما وصلت إلى القرب منهما، لم تستطع الكلام، كانت تشهق وترتجف فقط.

قالت لها غالا بحزم: "سنذهب معاً، لكما الحياة، والإعدام لنا. أمّ الآن- فمعاً. حضّري هذا الذي معك... من يكون بالنسبة لك...".

كانت عينا ماري تضيئان شرارة جديدة، مع كلّ كلمة تقولها غالا، على الرغم من الطقس الذي لا يطاق، أصبح وجهها أكثر دفئاً وأكثر امتناناً.

قالت غالا، وهي عائدة نحو النار التي شارفت أن تنطفئ، وإلى المكان الذي يستلقي فيه المريض: " لو كان قدري يتطلّع إليّ، كما يتطلّع قدرها إليها ".

استيقظ المريض فجأة ونظر في ذهول إلى الوافدين الجدد، وكأنّهما ليسا أناساً تماماً، ولكن، على سبيل المثال، ملاكان وصلا مملّحين من الرياح المحلية، في الوقت المناسب.

"ربّما هو يتظاهر؟"- سأل أرتيوم غالا بمرح. ابتسمت فجأة.

أمر أرتيوم: "حذار، يا قرصان! وجدت وقتاً للنوم..."

ضحكت غالا.

كانت ماري تتململ حولهما، وهي لا تعرف ماذا تفعل.

لا يجب فعل أيّ شيء، أحملي خطيبك من رجليه، وحملوه.

... عادوا وسط تموّج خفيف. بدا الطريق إلى الدير قريباً. كان يجب رؤية المنارة فقط.

تشاجرا في اليوم الثاني.

كان القارب لا يكاد يتحرّك، كما لو أنّ التيار كان يتحرّك عكسهم.

غضب المحرّك.

كانت الأمواج تتدافع وتكشّر عن أنيابها.

كان هناك دائماً ماء في قاع القارب.

ألقوا كلّ الأشياء التي اعتبروا في البداية، من الضروري أخذها من هذه الجزيرة معهما: قدور، ولحف، ومخل، ومجارف الناس الغرباء- لا يمكنك أخذ كلّ ذلك...

كانت ماري تتنهد وتثب وترافق كلّ غرض بصرخة حزينة لا تكاد مسموعة.

كانت غالا تغضب من هذه الصرخات، لكن بصمت.

تخلّص أرتيوم من الأغراض بسرور، كما لو أنّه لن يقْبل في البيت مع هذه الأغراض.

صرخت غالا فجأة: "لماذا رميت الفأس؟".

أجاب أرتيوم: "لقد أمرت بنفسك".

صرخت غالا: "لم أمر".

سأل أرتيوم: "هل أغوص وراءها؟".

كان لون غالا مخضرّاً، وكانت متعبة جداً- بدأت تصاب بدوار البحر. الأجنبي- كانت تسميه ماري توم، ممّا يعني أنّ اسمه- توم - كانت لا تزال حالته سيئة: راقب أرتيوم ببعض بالاهتمام، كيف تغادر الحياة الإنسان- مثل الساعة الرملية.

كان توم الذي صحا من فقدان النسيان مرّات عدّة، يقول شيئاً ما مهمّاً لماري، لكنّها لم تستطع فهم ما يقول، ووضعت أصابعها على شفتيه. كانت أصابعها طويلة وجميلة: كانت يدا غالا أصغر حجماً وأكثر خشونة وأقوى.

استلقى توم في منتصف القارب على اللحف المكدّسة بعضها فوق بعضٍ. وكان يسند قدميه إلى ركبتي غالا. كانت ساقاه ترتعشان من التأرجح، كما لو أنّهما من جماد ومنفصلتان عنه.

أصيبت غالا بالغثيان، من الهواء المالح، ومن أرتيوم، ومن التأرجح، ومن الناس الغرباء في القارب، لم تعد قادرة على التحمّل - وتقيأت.

"هذا من أجل الفأس" - فكّر أرتيوم، وهو يبعد الماء بمقدميه في قاع القارب. كما أنّه أصيب بالغثيان أيضاً. كان يبحث عن شيء آخر ليلقي به في الماء.

طمأن أرتيوم نفسه، وهو ينظر بطرف عينه إلى ماري: "توم سيغادر قريباً، وسوف نلقي به".

كان يشعر بالشفقة على ماري- بدت غير قادرة حتّى على التسليم بأنّ زوجها يمكن أن يموت.

كلّما راقبهما أرتيوم أكثر، كلّما كان يفهم بشكل أفضل أنّهما ببساطة، مجرّد شخصين غريبي الأطوار رتبا لأنفسهما غباء منافياً للعقل على شكل، على سبيل المثال، رحلة شهر عسل. وربّما كان عمر كلّ من توم وماري ليس أكثر من ثلاثين عاماً- على الرغم من أنّها بدت أكبر بخمسة عشر عاماً، وكان يبدو هو ضعف عمره.

بينما كان أرتيوم يوضّب الأغراض، وقع نظره مرّة أخرى على قطعة على شكل لبنة طوب ثقيلة مربوطة بإحكام- كلّ الوقت كان يريد أن يسأل غالا عنها، وينسى.

حاول فكّها.

" اتركها!"- صرخت غالا، وضغطت بغضب على دواسة الوقود.

تأرجحت فجأة ماري التي كانت تساعد من وقت لآخر في جرف الماء، وكادت تسقط.

نظر أرتيوم إلى غالا بابتسامة، وبدأ بفك العقدة بأسنانه. تركت غالا المقود ووقفت.

انحرف القارب على جانبه، معرّضاً لخطر الانقلاب. جلست غالا، وإلّا لكانت قد سقطت أوّلاً.

انطفأ المحرّك.

صرخت غالا: "أعطني، أيّها الحقير!".

صاحت ماري بصوت ناعم.

فكّر أرتيوم للحظة : "أين يعلمونهم أن يصيحوا... بشكل جميل هكذا...".

" أنت نفسك حقيرة!"- صرخ وألقى بهذه القطعة نحو غالا، بين ساقي توم نصف الميّت.

... انفجرت أعصاب الجميع. بكت غالا.

كان المحرّك صامتاً.

تساقط الثلج من جديد. كانت مقدمة جزمة توم الشتوية الجميلة ابيضت من الثلج الذي غطاها.

كان على بعد عشرين متراً من القارب ظلمة متقطعة. كان من الواضح من بين فجواتها، أنّ التالي هي نفسها ظلمة.

بكت غالا قائلة وهي تشهق:"أنت لا أحد، كان يمكن أن يكون هنا أيّ أحد آخر - لقد اخترتك: مكان فارغ. خسرت كلّ شيء. كيف تجرؤ؟".

كان لديها سكين، قطعت عقدة القطعة التي تشبه لبنة الطوب، وفتحت الرزمة. وتساقطت العملات الذهبية في قاع القارب. التقطت غالا بعضها بينما كانت تسقط، وألقت بها في الماء.

فكّر أرتيوم بعيداً: "هذا يعني أنّ إيخمانيس وجد كنوزاً...".

لم يكن يهمّه الذهب.

نظرت ماري إلى غالا.

لم تستطع كبح نفسها ونهضت باندفاع، ومدّت يديها إلى الذهب، وهي تصرخ مثل الطائر.

" اجلس!" - شدّها أرتيوم من أسفل معطفها إلى الوراء- "اجلسِ، لا تعرقلي! نحن نزرع الذهب. لدينا الحق في ذلك".

انفجرت غالا بالبكاء أكثر، لأنّ أرتيوم لم يكن مهتماً.

"سرقْتها!"- قالت بصوت أجش تقريباً- "لقد سرقْتها من إيخمانيس من أجلك!أنت!.. أخ، أنت!".

"نعم صدقت، من أجلي..."- فكّر أرتيوم بشك، وهو ينظر إلى غالا.

" كنت أكثر تفاهة من الجميع!"- صرخت، والتقطت أنفاسها، وألقت مرّة أخرى بعملات ذهبية في الماء، غاصت بسرعة وكأنّها صنعت لهذا- "أنت أسوأ من الجميع! ولا يوجد أسوأ منك سوى الوثيقة! لو رضيت مع بورتسيف... حاول بورتسيف، هذا الحثالة. وكان من الأفضل مع فاسيلي بيتروفيتش، مع هذا الجلاد المتدين... لو كنت قد أخرجت نهديّ في أيّ لحظة، وقلت: " خذ!- كان سيقف الجميع في الطابور...".

واصل أرتيوم ركل الماء بقدميه، وكان يلقي نظرة خاطفة من حين لآخر، كيف غالا تبحث وتجد قطعة نقدية، ثمّ ترميها بحركة أنثوية خرقاء.

نظرت ماري جانباً بلا اكتراث، لكن كانت مع كلّ حركة تقوم بها غالا تجفل قليلاً وتحدّق.

أوضحت غالا لشخص ما: "لم يكن هناك أيّ تصنّع لديك- كانت هذه الميزة الوحيدة فيك. أرى الآن أنّه ليس لديك ما تتظاهر به".

جرفت غالا حفنة كاملة من العملات الذهبية من تحت المقعد، بين ساقي توم، وألقتها من فوق أرتيوم وماري خلف ظهريهما.

أمسك أرتيوم ببراعة بواحدة، وبحركة خفيفة، أعادها إلى قدمي غالا : من الضروري المحاولة ثانية.

"عاهر، يا لك من عاهر!"- شتمت غالا وهي تنقّل عينيها مثل امرأة عمياء- "كان يعلم أنّني سأكون معك. لقد أخرجك عن قصد لإلهائي. حتّى لا أقلق. هو نفسه كان مع هؤلاء العاهرات..."- قاس أرتيوم، في البداية، هذه الكلمات على نفسه بشكل حصري، وفهم أنّ الحديث لا يدور عنه فقط.

"هل تعرف لماذا لم يقتل النوارس؟"- سألت غالا، وإن لم يكن السؤال موجهاً إلى أرتيوم على الإطلاق- "لأنّه هو نفسه يشبه النورس. ألم تر شكله؟ لقد علّقْت صورة تروتسكي على الحائط عن قصد- لقد كان متأكداً من أنّني نمت معه. وأنا كنت أحاول أن أجعله يغضب!".

" ألم تنامي معه؟"- أراد أرتيوم أن يسأل، لكنّه لم يفعل.

لم يكن يشعر بأيّ حبٍّ تجاه هذه المرأة الغبية.

ولم تشعر هي تجاهه.

وصلوا إلى إحدى الجزر، في اليوم التالي فقط.

كان من المستحيل على الفور معرفة، ما إذا كانا قد صادفا هذه الأرض في الطريق إلى هنا، أم واحدة أخرى.

نفدت المياه العذبة لديهم خلال الطريق.

كان من المفترض أن يكون هناك عبوة ماء أخرى- من غير المعروف أين اختفت. ربّما نسياها على تلك الجزيرة، إذ عثرا على الأجنبيين.

أشعلوا النار، وعلّقوا الأشياء حتّى تجف - كان يقطر منها الماء. وضعوا الأطباق تحتها.

انتظروا، صامتين، عندما يمتلئ نصف الوعاء على الأقل.

... اتضح - أنّ الماء مالح. كان الثلج المالح يتساقط في البحر، وكان ينسكب المطر المالح.

رمت غالا الوعاء الحديدي من الغضب. سقط على الصخور، وتقافز مع صوت قعقعة.

ذهب أرتيوم ليبحث عن حطب على لجزيرة. بالقرب من الماء، كان خالياً من كلّ شيء، وصخرياً- جرفت الأمواج والمد والجزر كلّ شيء حيّ. كان يمكن رؤية العشب الذابل على التلال. وجد في الأماكن المنخفضة شجيرات عدّة غير معروفة له، شجيرات صغيرة.

في طريق العودة التقى مع غالا. على ما يبدو، كانت تبحث عنه، وعرفت مكانه من صوت الفأس.

لقد تصرفت وكأنّ شيئاً لم يحدث.

قالت غالا: "علينا أن نتحرّك على الفور. وإلّا فإنّه سيموت. كيف لم يمت بعد...".

هزّ أرتيوم كتفيه: لا فرق لديه- نبحر، فليكن لنبحر.

قالت غالا مع بعض الاستهزاء الخفيف: " أنظر إليك وأفكّر أنّه لا فرق لديك، الحرية أم السجن، والماء أم اليابسة".

أجاب أرتيوم ببساطة: " تعجبني اليابسة والحرية أكثر".

" يوجد كلمة من هذا القبيل: حب الإرادة "- قالت غالا، وبعد وقفة، أضافت: - " هذه الكلمة لا تخصّك".

حمل أرتيوم الأغصان الملتوية بصمت، وضمها إلى صدره، وكانت تضرب وجهه كلّ الوقت.

" لن نذهب إلى سولوفكي، بل إلى كيم"- تابعت غالا دون أيّ توقف- "سوف ننْزل هؤلاء هناك، وفي البر الرئيسي سيتدبرون أمورهم بأنفسهم. ونحن سنحاول ركوب القطار والذهاب في أيّ اتجاه. ما رأيك؟" - وتوقفت.

توقف أرتيوم. أيضاً، ونظر بعضهما إلى بعضٍ نصف دقيقة.

" نعم، لقد قبّلْت هذا الوجه..." - فكّر أرتيوم. كان شعوره أنّ كل ذلك حدث في الحياة قبل الماضية. لكنّها لم تكن حياة سيئة. أم ليست الأسوأ.

قال أرتيوم: "بالطبع، غالا، سنكون معاً".

وسارا جنباً إلى جنب، دون أن يلمس أحدهما الآخر.

قالت غالا بسرعة: "أرتيوم، أنا آسفة".

أجاب: "لا حاجة، أنا أتفهّم...".

كان توم لا يزال مستلقياً في القارب. وكانت ماري تنتظرهما، من أجل نقل زوجها معاً.

"افركيه بالفودكا، وسنذهب على الفور" - لوّحت غالا بيدها تجاه سولوفكي. فهمت ماري كلّ شيء. أصبحت تفهم من المرّة الأولى.

"أنا لا أمشي على القطيفة... لا أسير على المخمل..." - غنّى أرتيوم، وهو يدفع القارب إلى الماء.

نظرت ماري إليه من القارب بخوف، كما لو أنّ أرتيوم لن يستطيع القفز إلى القارب، وسيبقى على الجزيرة.

غنّى أرتيوم الشطر الثاني، بعد أن صعد إلى القارب، وجازف باحتضان ماري من كتفها. لم تقاوم.

نظرت غالا إليهما وتبسّمت. يبدو دون استياء. كانت الريح مواتية.

بعد ساعة، بدأ الظلام يخيم، وبدا نور المنارة واضحاً.

كانت غالا أوّل من رأى هذا النور، ونادت على أرتيوم الذي كان جالساً في مواجهتها: انظر.

كانت المنارة تضيء كما لو أنّ غصناً صغيراً يحترق أمام مقلة العين.

نظر أرتيوم إلى المنارة لبعض الوقت، ثمّ استدار: آلمته عينه.

لا، ألّا يجب أن أقع في السجن مرّة أخرى. يجب أن نذهب إلى كيم. يجب أن أهرب.

كان التقدم في الظلمة مخيفاً. أضاءت غالا المصباح مرّة أخرى.

وضعه أرتيوم على مقدمة القارب. بدت المياه السوداء على ضوء المصباح عميقة جداً.

فكّر أرتيوم بانزعاج :"تنسى دائماً أنّ الموت يحيط بك... دون ضوء أمر سيئ، ومع الضوء - رعب."

رفّ الفانوس. رفّت المنارة.

كانت ماري تتلمّس رأس زوجها باستمرار، وهذا كان يثير الإنزعاج أيضاً.

يبدو أنّ أرتيوم غفا مرّات عدّة. أدرك في حلم أنّه يسقط، على شظايا من الفوضى الجليدية التي لا معنى لها، والتي كانت تدور في رأسه.

... التقوا مع زورق لجنود الجيش الأحمر بشكل غير متوقع: على ما يبدو، في لحظة ما انتبهوا لضوء الفانوس وبدأوا ينتظرون، من هؤلاء المتجولين.

... لاحظ المتجولون الزورق عندما كانوا على بعد نحو ثلاثين متراً منه.

" أطفئ المحرّك!" - صرخت في آن واحد أصوات عدّة.

أطاعت غالا، وقطعت قرقعة المحرّك.

طاروا بزورقهم مباشرة إلى الزورق الذي توقف. علّقوا الزورق بالخطّاف. ضربت غالا الخطّاف بقبضتها، لكنّها لم تحاول إفلاته.

"هل أطلق النار عليهم؟" - فكّر أرتيوم بشكل محموم، وهو ينظر إمّا إلى غالا، وإمّا إلى الزورق، بقي المسدس في جيبه، وكان في قاع القارب بندقية مع خراطيش احتياط، أخذها أرتيوم من الأجنبيين بناءً على أوامر غالا. مع أنّك لن تلحق بالوصول إليها...

بدت غالا وكأنّها تفكّر في ذلك، واضعة يدها على الحافظة.

لكن كان هناك ثلاثة من جنود الجيش الأحمر يصوبون بنادقهم نحوها من الزورق في وقت واحد. أضاؤوا هناك مصباحاً أيضاً.

"من هؤلاء؟"- سأل عنصر الأمن الذي كان يحمل المصباح، وهو ينظر بتمعّن في أرتيوم- "أخرج يدك من جيبك بسرعة".

في البداية، سعدت ماري بزورق الجنود- ولكن خافت الآن، بعد أن رأت أشخاصاً يحملون أسلحة: شعر أرتيوم أنّها ترتجف. على الرغم من أنّها ربّما كانت ترتجف منذ ساعات عدّة. كان يُسْمَع اصطكاك أسنانها.

"ما الأمر، هل عميتم تماماً؟"- صرخت غالا، وهي تنهض، إمّا بصوت خشن متعمدة ذلك، وإمّا أصبح أجشاً حقاً، بسب الرياح.

عرفها أحدهم: "أوه، مفوضة قسم المعلومات والتحقيقات".

رفع عنصر الأمن المصباح إلى الأعلى.

زمجرت غالا: " قائد المجموعة، أبلغ عن سبب الدورية الليلية!".

ساد الصمت لبعض الوقت- كان هناك صرير الزورق ورياح الليل فقط.

قال عنصر الأمن الذي يحمل المصباح أخيراً: " تجعل نفسها قائدة. أنا لست تحت أمرتك. عن ماذا تبحثين على قاربك؟".

"بأمر خاص من رئيس المعسكر!"- واصلت غالا الصراخ مثل صوت طائر أجشّ- "لقد أمسكنا جاسوسين وسنحضرهما إلى المعسكر. أزل الخطّاف على الفور! واخفضوا بنادقكم، في نهاية الأمر".

" دعيني أر الأمر الخاص!" - قال عنصر الأمن.

أخيراً عرفه أرتيوم: كان هذا غورشكوف لكن بسبب الخوف فقط، لم يستطع لفترة طويلة التعرّف على هذا الصوت المقرف.

صرخت غالا: "قلت: اخفضوا بنادقكم!".

... صراخ مجنون على ضوء مصباحين، كما في الحلم المستمر، وحولهم مياه بلون الفولاذ...

كان أرتيوم يرتجف.

... كان هناك الكثير من الضوضاء أيضاً، وأجبروهم على تقليب الخرق، ورؤية توم - ربّما جرى إخفاء رشاش هناك... وقرروا أن يسحبوا زورقهم.

أبحروا في حالة من الذهول.

حدّقت ماري في الزورق، وفي الوقت نفسه كانت تضع يدها على رأس زوجها، وكأنّها تقول له: انتظر قليلاً أيضاً.

جلست غالا، زامّة شفتيها الجافتين.

قال أرتيوم لنفسه: "إنّها النهاية، عقوبة الهروب الإعدام...".

"... لكن لماذا لا يعرف جنود الجيش الأحمر أنّنا هربنا؟".

ليست المرّة الأولى التي يتفاجأ فيها، أنّه لم يفكّر كثيراً في الأيام العادية، لكنّه تبيّن أنّه قادر على فهم ما كان يحدث في تلك الدقائق التي لم يكن فيها شيء سوى الرعب.

قرّر أرتيوم: "غالا، دع غالا تخلّصنا من هذه الورطة - الأمر أسهل بالنسبة لها... سأقول إنّني كنت أنفّذ أوامرها".

بدت كأنّها تسمع أفكاره، وقالت بحزم:

" تصرّف كأنّ شيئاً لم يحدث. عندما نصل، اذهب إلى سريتك. لا تتحدث مع أحد عن أيّ شيء. يبدو لي أنّهم لا يعرفون أيّ شيء. حتّى إنّهم لم ينزعوا سلاحنا "- ورفعت صوتها فجأة: " إيه، أنتم الذين في الزورق! لا تكادون تسيرون! فكوا الخطّاف - سوف نشغّل المحرّك، وسنصل بأنفسنا إلى هناك!".

ساد صمت طويل قبل الرد.

صرخ غورشكوف أخيراً: "نحن سنوصلكم ".

بدا أنّه يشك في شيء ما.

قامت غالا بسحب سلك المحرّك بشراسة. لم يعمل المحرّك على أيّ حال.

ربّما كان من المفترض أن يطمئنهم ذلك: توقف المحرّك عن العمل، عندما كانوا يسحبونهم إلى اليابسة، وليس في عرض البحر.

لم يطمئنهم ذلك على الإطلاق.

كان الصباح قد حلّ، ونزل أرتيوم وحده، إلى أرض الدير، دون حراس، وهو يحرك ساقيه المتيبستين بصعوبة، متبعاً غالا. وكان قد أعاد لها المسدس على القارب.

"في غضون ثلاث ساعات سأنتظرك في قسم المعلومات والتحقيقات "- قالت غالا لغورشكوف، الذي قفز على عجل من الزورق – وأضافت: "سنحقق في أمركم".

لم يكن بقية جنود الجيش الأحمر، وعدد قليل من الذين يرتدون سترات عناصر الأمن، من فراء الفقمة، في عجلة من أمرهم للنزول إلى الشاطئ لسبب ما.

لم يفهم خفر السواحل كثيراً أيضاً، ما الذي يجري.

فكّر أرتيوم، وهو ينظر بطرف عينه إلى غالا: "... أيّ أعصاب لها. ربّما تمر الأمور بسلام؟".

في هذه الأثناء، نظر غورشكوف إلى أرتيوم. لم يعرفه بالملابس الجديدة التي لا تتناسب مع وضعه.

تذكّر غورشكوف أخيراً: "ومن أين أتى ابن آوى هذا معك؟ ومن أعطاه مثل هذه السترة؟ أم أنت جعلت منه عنصر أمن؟".

قاطعته غالا: "أنتظرك الساعة العاشرة. لنرى من سيقدّم لمن تقريراً. جهّز وثيقة المهمّة التي كلفت بها. سندرس عمّا كنتم تبحثون عنه على بعد خمسة عشر فيرستا من هنا".

قال غورشكوف من بين أسنانه: "سنرى من الذي سيحاسب من".

قدّمت غالا نفسها بشكل رسمي لكبير خفر السواحل.

"ها هي ورقة المهمّة. وها هي الوثائق الخاصّة بالمغادرة بأمر خاص. خلال المهمّة، جرى اعتقال جاسوسين"- قالت بوضوح وهي تشير إلى ماري التي كانت لا تزال جالسة في القارب- " يجب إحضارهما إلى قسم المعلومات والتحقيقات للاستجواب. الثاني مريض فاقد للوعي- يجب نقله أوّلاً إلى الوحدة الطبية بشكل عاجل".

كان أرتيوم يتحرّك في مكانه.

توجهت غالا إليه: "لماذا تقف؟ إلى السريّة على الفور".

"لن يسمحوا لي بالدخول" - أراد أرتيوم أن يقول، لكنّ غالينا كانت قد سارت أمامه، وهي تلوّح بيديها بشكل متناسق مع حركة رجليها.

وقفت جدران سولوفكي مثل الخبز الأسود المغطى بحبوب الطلع الحلوة المتسخة. قدّمت غالا عند البوابة، الوثائق التي بحوزتها، وأومأت برأسها نحو أرتيوم:

" إنّه معي".

في الفناء، دون أن تقول وداعاً، توجهت نحو قسم المعلومات والتحقيقات مباشرة، مشى أرتيوم إلى سريّة العمل الثانية عشرة في معسكر سولوفكي.

كان يجري هناك على ما يبدو، فرز السجناء إلى مجموعات حسب مهمّات العمل، وكانت المجموعات الأولى تتحرّك ذاهبة للعمل، تحت رذاذ الخريف.

كانت تسير باتجاهه مجموعة من عشرة أشخاص، كان اثنان منهم، يسيران في الخلف، يرتديان معطفين عسكريين وسروالين داخليين، أحدهما يرتدي جزمة لبّاد دون قالوش، والآخر يرتدي حذاءً- ولهذا كان يخطو رافعاً رجليه عالياً، متجنباً برك الماء. كلاهما كانا يرتديان قبعات.

كان هناك في الفناء، يوجد كالعادة عدد قليل من الناس، والذين ظهروا بدوا متوترين.

كان هناك ممرضون في الفناء، ينقلون عدداً من المرضى، ولكن لسبب ما، ليس إلى الوحدة الطبية، بل من الوحدة الطبية.

أوضح أرتيوم لنفسه: "إنّهم جثث".

كان الممرضين يرتدون كمامات. لم يكونوا في أيّ وقت من الأوقات يرتدون كمامات.

ليس من الواضح لماذا قرّر أرتيوم أنّهم سيدعونه ينام. لقد كان مجرّد جماد - وبدا له ذلك سبباً كافياً.

بدا له أيضاً، أنّ كلّ ما يحدث، قد حدث في وقت ما، وأن فاسيلي بيتروفيتش أو أفاناسييف، أم حتّى كرابين، ينتظرونه في السريّة، وهذا يعني، كلّ شيء في مكانه، وسيحل كلّ شيء، كما جرى أكثر من مرّة.

في المدخل الخشبي، كان يجلس اثنان من الشيشان المناوبين اليوميين في موقعهما.

عرف أحدهم أرتيوم: "إيه، هل سافرت بالبحر؟ لم تكن منذ وقت طويل. هل اصطدت حوتاً ؟".

أراد أرتيوم أن يبتسم، لكنّه لم يستطع، فأومأ برأسه وحاول المرور.

قال الشيشاني بلا وقاحة، لكن بحزم: "إيه، انتظر لحظة. هل أنت في سريتنا؟".

أومأ أرتيوم برأسه من جديد، ونظر إلى ساعة الحائط، كما لو أنّها تؤكّد، أنّه على حق.

تذكّر فجأة، أنّ هذا هو الشقيق الأصغر لخاساييف - الذي كان يجلس معه في زنزانة العقاب. كانت علاقة الأخوين علاقة مؤثرة دائماً: فقد كان الأكبر يعتني بالأصغر، مثل الطفل.

قال خاساييف الأصغر بشيء من الحزن: " يجب استدعاء القائد. اسمع، ليس لديّ اعتراض لكنّني لم أرك... لم أرك منذ مدّة طويلة. هل لديك ما يثبت

نقلك إلى السريّة؟ قيل لي إنّك الآن تعمل مع القادة فقط، لماذا تريد الانتقال إلى هنا؟ ألست سكران؟ متجمّد؟ دفئ نفسك جنب الموقد".

غادر خاسابيف، شرب أرتيوم على عجل ثلاثة أكواب ماء من الخزان، شبع، وجلس على الأرض مباشرة، واتكأ بظهره على الموقد.

أغلق عينيه ونام.

عاد الشيشاني مع قائد ما.

جرى ركل أرتيوم بشكل خفيف، مثل كلب فناء سدّ الطريق.

نهض- شعر أنّ ظهره قد التصق بقميصه، والقميص على السترة التي أصبحت ساخنة كمكواة.

من خلال حلم لم يغادره، حدّق في وجه القائد... لا، لم يتذكّر هذا الوجه.

سأل أرتيوم: "أين كوتشيرافا؟".

لم يكد يمكن ملاحظة ابتسامة خاسابيف الأصغر الساخرة.

" قدّ- م، نف- سك!" - أمر القائد بغضب يغلي، وهو يلفظ كلّ حرف على حدة.

أفاد أرتيوم: " أرتيوم غوريابنوف" – التبك لأوّل مرّة في حياته، بلفظ كنيته، كما هو الحال في اسم بلد أجنبي- " كنت في مهمّة خاصّة، بأمر من قسم المعلومات والتحقيقات عدت إلى السريّة ".

"أين الأوراق؟".

" الأوراق في قسم المعلومات والتحقيقات ".

لسبب ما شعر أرتيوم أنّه يتدحرج من تلّة، وأرد أن يغلق عينيه بشدة، وأن يغفو من جديد.

صرخ القائد في وجه أرتيوم : " من أين لي أن أعرف من أنت ". وأمر المناوبين:" خذه إلى قسم المعلومات والتحقيقات من أجل للأوراق".

أمسك خاساييف أرتيوم من يده بخشونة إلى حدٍّ ما - ولكن بمجرّد أن خرج القائد الصاخب، خفّف قبضته على الفور.

سأل خاساييف في الشارع، وهو يميل إلى أذن أرتيوم:"ألا تعرف ما الذي يحدث هنا؟ على ما يبدو غادرت المعسكر منذ وقت طويل، أليس كذلك؟ يجري هنا تفتيش منذ ثلاثة أيام، وقد جرى اعتقال الجميع: كوتشيرافا، وعناصر أمن من قسم المعلومات والتحقيقات، ورؤساء مهمّات بعيدة. هذه هي الحالة هنا، يجب ألّا تظهر للعيان كثيراً. وأنت تظهر للأعين. تظهر في هذه السترة أمام الجميع".

كانت تفوح من الشيشاني بقوّة، رائحة البصل والإثارة. كانت رائحة طيبة.

"اذهب، واستوضح الأمر، ثمّ تعال إلى السريّة، وأنا في انتظارك، يا أخي"- قال بعاطفة شديدة – "قالوا إنّك كنت تعمل مع إيخمانيس، أليس كذلك؟ ثمّ قالوا إنّك ضربت عنصر الأمن في الفناء، أليس كذلك؟ ثمّ ضربت الجناة هل هذا صحيح؟ أنت شاب قوي، يجب أن تأتي إلى السريّة بالتأكيد. ما هي المهمّة التي قمت بها، أخبرني بإيجاز؟".

كانت مجموعة جديدة من السجناء ذاهبة ببطء للقيام بمهمّة عمل كلّفت بها، وكانوا جميعاً تقريباً يرتدون أحذية بالية، كانت لدى المناوب خاساييف الذي كان يسير بالقرب من أرتيوم جزمة ممتازة فقط، تشبه جزم القوزاق. لم يستطع أرتيوم رفع رأسه نحو الأعلى.

دخلا قسم المعلومات والتحقيقات، ظهر بعد دقيقة واحدة الحارس المناوب، وكان قلق أيضاً، لكنّ أرتيوم استطاع أن يغفو في هذه الدقيقة، وهو واقف.

شعر أنّه يقف في وسط البحر، تحت الماء، لكنّه جاف.

سبح المناوب نحوه مثل سمكة ذات وجه طويل: كان هذا المناوب يتفلطح كلّه، كما لو أنّ هذا الشخص لم ينم من الأسفل، كما ينبغي، بل استمر في النمو من منطقة مؤخرة الرأس، واستمر، واستمر. فيما لو نظرت في فم المناوب- فسيكون هناك نفق. يمكنك إدخال يدك في هذا الفم، إلى المرفق والعثور على الطعم المبتلع.

بدأ أرتيوم يعاني من الحمى.

لقد كرّر مرّات عدّة، بينه وبين نفسه كلمة "قلّة النوم" لشرح حالته لنفسه. لكن كان من المستحيل فهم معنى الكلمة - فقد ارتبطت بشكل غريب بكوب من الشاي، الذي لم يوضع فيه ما يكفي من السكّر المسحوق، وكان السكّر مرتبطاً بالثلج الذي لم يتساقط على شكل غبار جليدي، ولكن قطع ثقيلة، كما لو كان يجري جرّه إلى حافة السماء - مثل حافة طوف الجليد، ثمّ جرى دفعه إلى الأسفل - في الماء الذي لم يكن حلواً، كما في السابق.

لم يتذكّر أرتيوم بداية الحديث مع الحارس المناوب، رغم أنّه شارك في هذا الحديث.

عندما استعاد رشده بما يكفي لإنهاء الحديث، كان قد تأخر الوقت، وغادر الشيشاني دون أن يودعه، لكن جنديين من الجيش الأحمر اقتادا أرتيوم عبر الفناء. كانت كلمة "زنزانة العقاب" مربوطة بساق أرتيوم، وتدق على حجارة الفناء، مع كلّ خطوة.

اقترح جندي الجيش الأحمر، عندما كانوا لا يزالون في الشارع: " أعطني السترة، سيطلقون عليك النارعلى أيّ حال، وأنا سأعطيك دخاناً. لقد أحرقتها من الخلف. وإضافة إلى ذلك سيثقبونها. شيء غير جيد".

تمتم أرتيوم غير موافق.

أمسكه جندي الجيش الأحمر من رقبته، وضغطه على الحائط، انتهز أرتيوم فرصة وبصق، وعلق اللعاب على شفته - لكنّه أخافه - ثمّ تملّص بطريقة ما، ودفع الحارس الذي أرتبك للحظة في صدره.

هدأ الحارس الثاني رفيقه: حسناً، اتركه، هل تعرف من هو في الأصل، ربّما يجب ألّا تخلع عنه ملابسه؟.

"سيرسلونه بكلّ الأحوال إلى الإعدام، ألا ترى؟"- كشّر جندي الجيش الأحمر غاضباً، لكنّه تركه.

مع ذلك قال لأرتيوم عند النهاية :

" أنا الذي سأطلق النار عليك. من العبث لم تعطنِ السترة. كنت سأفعل ذلك بطيبة. لكنّك لم ترغب في ذلك. سأطلق النار عليك بغضب".

مسح أرتيوم اللعاب عن وجهه.

إلى أين قاداه، نسي في أثناء سيرهم.

سُمِعَ صوت فرقعة حديدية - جرى فتح القفل.

صدر صرير - فُتِحَ الباب.

قعقعة - غُلِقَ الباب خلفه.

فرقعة مرّة أخرى - القفل من جديد.

رنّت في دماغ أرتيوم رزمة المفاتيح بأكملها عندما كان يُفْتَحَ ويُغْلَقَ الباب.

زنزانة، ولتكن زنزانة. كان في الزنزانة أشخاص عدّة، كانت وجوههم مألوفة.

لم يتذكّر اسماً واحداً، لكنّه كان يعرف الناس عن كثب.

المضاجع في ثلاث طبقات.

كان هناك مضجع خالٍ في الأسفل، أسرع أرتيوم إلى هناك.

نادوا عليه: ليس لك، توقف! - لكنّه لم يستمع إليهم.

كان من غير الممكن أن يفكّر في أفضل من ذلك: لقد نام.

كان ينام في مكان لا تصل إليه المياه نهائياً.

لم يكد يغفو، سحبوه من ساقيه، وهم يشتمون، لكنّه دفعهم بقدمه، ونهض على كوعه، ونسي كلّ الكلمات وزمجر - لسبب ما لم يفاجئ ذلك أحداً - لو جرى دفعه إلى الأرض، لما استيقظ. لم يدفعوه.

لم يكن يعرف كم من الوقت قد نام، ولم يخبره أحد بذلك في وقت من الأوقات.

... عندما استيقظ أرتيوم، وضعوا دلواً من الماء الساخن في الزنزانة.

لم يكن لديه كوب، وكان آخر من شرب ما تبقى في الدلو، وهو يرفع حافته إلى فمه. لاحظ بعد أن انتهى من الشرب أنّ الحمّى قد اختفت مباشرة.

سرعان ما أخذوا الدلو الفارغة، لكنّهم دفعوا غورشكوف المذهول والمحمرّ- كانت أزرار سترته، إمّا مفكوكة، وإمّا مقطوعة إلى بطنه تماماً.

فرك أرتيوم عينيه لفترة طويلة، غير فاهم أيّ شيء.

جلس غورشكوف على مقعد، مقابل أرتيوم تماماً، في البداية لم يعرفه في شبه الظلام.

سأل أرتيوم: "هل قدّم تقرير لك ؟".

لقد نام جيداً لدرجة أنّه وقع في نوبة ضحك.

أم ربّما فقد عقله أخيراً.

"ماذا؟"- سأل غورشكوف، وهو يحدّق فيه.

نظر سجين آخر إلى أرتيوم باهتمام، وكان هذا تكاشوك، لم يكن من المتوقع وجوده هنا أيضاً.

أمر غورشكوف: "أغلق فمك يا بن آوى".

أجابه أرتيوم، وهو يبتسم: "هف، هف"، وتوجّه إلى حوض البراز.

ودون أن يفهم أيّ شيء، خمّن الكثير.

في هذه الأثناء، وقف حراس الحصن في المدخل، مرتبكين بقوائم الأسماء، ولم يفهموا بأيّ شكل من الأشكال من عليهم أخذه من هنا.

"آه، هذا... اللعنة ما هذه الكنية. غوريا... غوريا؟".

"غوريانوف!"- قال لهم أرتيوم، وهو يقضي حاجته.

" فعلتها من الخوف قبل أخذك "- تذمّر السجان وهو يرن بمفاتيحه بفارغ الصبر.

ركضت فأرة على الأرضية بشكل منحرف، دون خوف من أحد، ودخلت في فجوة بالجدار بصعوبة، وبقي ذيلها بارزاً لفترة طويلة، كما لو أنّها كانت تثيرهم.

عند خروج أرتيوم، وهو يرتدي سرواله القطني بصعوبة، كان الذيل لا يزال بارزاً.

كان الوقت في الخارج نهاراً، لكن لم يكن من الواضح بالنسبة له، هل هو نفس اليوم، أم اليوم التالي.

كان السجناء يكنسون الفناء بحماس. لم يدخّن أحد منهم، ولم يصدروا ضجيجاً.

التقت به ماري التي كانت خارجة من قسم المعلومات والتحقيقات، وقد سرّت به بشكل لا يوصف. ثمّ خمّنت أخيراً أنّه يقاد من قبل حراس.

سأل الحارس المناوب:"إلى أين تقوده؟".

" من أين لي أن أعرف؟"- قال الحارس المرافق الذي بدا كأنّه على وشك الهروب في أوّل فرصة تتاح له.

قال الحارس المناوب لمساعده: "خذه إلى السكرتاريا، وهناك سيقررون".

كان قسم المعلومات والتحقيقات أيضاً، هادئاً وفارغاً بشكل غير معتاد - إمّا أنّه لم يتبق أحد في المكاتب على الإطلاق، وإمّا ختموا أفواههم وأغلقوا أبواب مكاتبهم عليهم.

" هل غورياينوف إلى هنا؟"- سأل مساعد المناوب السكرتير- شاب عصبي، أحول قليلاً ، وصلع مبكراً: لم يكن لديه شعر حتّى منتصف رأسه بالضبط، وبعد المنتصف، كان شعره كثيفاً وطويلاً. هذا جعل السكرتير يبدو عالماً غبياً في الوقت نفسه.

لم يكن معروفاً لدى أرتيوم. كان هناك شيء في وجه السكرتير، يتحدث عن وصوله مؤخراً إلى سولوفكي. كان الجميع هنا ملفوحين من الهواء وأكثر نضجاً. كانت أعين الجميع هنا تعكس شيئاً من خصوصية سولوفكي.

"دعه يقف في الممر..."- قال السكرتير، على ما يبدو، لم يكن منصبه يسمح له بنطق جمل كاملة.

أجلسوا أرتيوم على كرسي في الممر، وغادر مساعد الحارس المناوب. وترك باب السكرتارية مفتوحاً، كان يمكن لأرتيوم رؤية السكرتير، ويمكن للسكرتير رؤيته.

ركض شخص ما في الطابق العلوي. رنّ الهاتف في الطابق السفلي، لكنّ صوت الشخص الذي ردّ على الهاتف لم يكن مسموعاً.

بقي أرتيوم دون حراسة - كان يمكنه، على سبيل المثال، المشي ذهاباً وإياباً. هكذا بدا له ذلك. لكنّه بقي جالساً.

استدعي السكرتير إلى المكتب المجاور، وغادر. بقي كوب شاي على المنضدة. كان يخرج البخار من الشاي.

بعد نحو عشر دقائق، سمعتْ خطوات - كانت امرأة تسير، وعرف أرتيوم هذه المرأة.

كانت هذه غالا. كانت وحدها.

وقف أرتيوم ونظر نحوها. كان تعبير عينيها يمكن أن يفسّر الكثير. تتطلّع بانتباه، لكنّه لم يفهم شيئاً، حتّى اقتربت منه.

توقفت بالقرب من أرتيوم، وقالت بصوت لا يكاد مسموع، بشفتيها تقريباً، وبسرعة كبيرة:

" أُخْفِيَ ملف هروبنا تماماً. وصلت في اليوم نفسه الذي غادرنا فيه، لجنة تفتيش من موسكو، وألقي القبض على العديد من عناصر الأمن في سولوفكي. الشيطان يعرف ما يجري هنا"- كانت غالا تنظر إلى الأمام، وهي تقف جنب أرتيوم، وكانت من حين إلى آخر تلقي نظرة للحظة عليه فقط - "لا تعترف بشيء. أومئ إليّ إذ كنت لا تعرف ماذا تقول. قل إنّك عملت لدى إيخمانيس،

وبناءً على أمر منه، أتيت للعمل لديّ. قل إنّنا كنّا ندرس جغرافية المنطقة وعالم الحيوانات فيها، لقد دونت الملاحظات، أنت لم تعرف أيّ شيء. قل إنّنا أبحرنا خمسة عشر فيرستا فقط. ثمّ تعطّل المحرّك، أضعنا الوقت. ثمّ اكتشفنا جاسوسين وأحضرناهما إلى هنا".

انفتح باب في عمق مكتب السكرتارية، وصدح صوت ذكوري قوي.

ذهبت غالا بهدوء.

نظر أرتيوم وراءها. شعرت به، ودون أن تنظر إلى الوراء، شدّت مرتين قبضة يدها بإحكام وفتحتها.

كان يمكن أن يعني ذلك أيّ شيء. قرأ أرتيوم هذه الحركة على النحو التالي: اصمد.

عاد السكرتير وأخذ الشاي. من المحتمل أنّه جهزه لغيره.

شعر أرتيوم بقلبه يدق. كان يحصل ذلك معه قبل الامتحان في المدرسة.

فكّر: "شيء غريب، يبدو أنّ الشعور بالخوف لا يمكن أن يكون أعظم من وجود الإنسان نفسه، كان الامتحان- مخيفاً أكثر بقليل من احتمال الإعدام. الأفكار نفسها، الإيماءات نفسها، البلادة نفسها في الجسد كلّه...".

في المكتب الأبعد، بدأ صاحب الصوت القوي بالإملاء. سمع صوت طرق الآلة الكاتبة.

استمع أرتيوم لبعض الوقت. ثمّ نهض واقترب من الباب: حسناً، أدّى باب لم يكن عليه لوحة من غرفة السكرتارية إلى مكتب آخر، وما قيل هناك سُمِعَ بشكل واضح بما فيه الكفاية.

أملى الصوت: "كانت اللجنة تتوقع أن تجد في نظام سولوفكي، المعسكر الأوّل في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، نظاماً مستقراً إلى حدٍّ ما. كما بدا إنّ الإنتاج المستقر، والعمل الكثيف، وبناء المساكن بشكل واسع، ووجود

عناصر أمن صلبين نسبياً- كلّ هذا يبدو أنّه يضمن نظام عمل راسخاً وطبيعياً... في الواقع، اتضح أنّ الأمر مختلف. استناداً إلى البيانات التي جرى الحصول في أثناء سير العمل فقط، توصلت إلى استنتاج مفاده أنّ تنمّر وضرب وتعذيب السجناء قد تحوّل بالفعل من الكم إلى النوعية، أيّ إلى نظام متّبع..." - سعل الرجل بقوة، انتظرت الآلة الكاتبة بحذر حتّى ينتهي السعال- "... كطريقة لدراسة المعسكرات، استخدمت اللجنة الاستجواب الشخصي لجميع المعتقلين في قضايا التحقيقات ومخالفات الانضباط، والسجناء في الثكنات العامة "- تابع الصوت- " من الضروري ملاحظة، كحقيقة مثبتة، الترهيب العام للسجناء: تمكنّا من الحصول على الشكاوى حول قسوة النظام في غياب الإدارة حصرياً، وأعْطِيَت ضمانات أنّه لن يكون هناك ضرب بعد الآن.

ساد الصمت لفترة من الوقت، وبدا لأرتيوم أنه سمع حفيف الأوراق.

" الصورة الموضوعية للنظام في معمل الأخشاب على الشكل التالي- تابع الصوت- " قامت اللجنة قبل كلّ شيء، بفحص زنزانة العقاب. هي عبارة عن كوخ خشبي بمساحة ساجن واحد مربّع، دون موقد، فيه ثقوب ضخمة في السقف، تتسرّب منها مياه الأمطار بكثرة، مع صف واحد من المضاجع. كان في هذه الغرفة، لحظة وصول اللجنة، ستة عشر شخصاً نصف عراة متكومين فوق بعضهم البعض بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، معظمهم مكث هناك من سبعة إلى عشرة أيام. بدؤوا عشيّة وصول اللجنة فقط ، إعطاء الماء المغلي للمعتقلين. كان يعتبر قبل ذلك، ترفاً غير ضروري. وطبقاً للشكاوى الواردة، قابلت اللجنة ثمانية أشخاص، كانت أجسامهم وأذرعهم مليئة بالكدمات والندوب الناتجة عن نزيف في الأوعية الدموية نتيجة الضرب، وهذا واضح بالنظر حتّى لقليلي الخبرة. وبصفة خاصّة، فإنّ مساعد الطبيب الذي يفحص المضروبين، والذي يضع أذنه على أجزاء مختلفة من جسد السجناء كخبير، هو قسٌّ أدين بموجب المادة ٥٨ /١٠ من قانون العقوبات. جرى نقله على الفور إلى العمل العام. دوافع الضرب- مخالفات انضباطية بسيطة، وأحياناً- الهروب ومحاولات الهروب.

الأشخاص الذين يقومون بالضرب هم - حراس، ومرافقون، ورماة، ورؤساء مجموعات عمل، وطاقم قيادة الحماية- غالبيتهم من السجناء".

استمع أرتيوم وأدرك بشكل ضبابي، أنّه لم يفاجئه أيّ شيء ممّا قيل تقريباً. أمّا حقيقة أنّهم لا يطلقون النار على الفور بسبب الهروب، ولكن يمكنهم وضعهم في زنزانة عقابية - فهذا طمأنه حتّى.

سمع أرتيوم في الوقت المناسب، شخصاً ما ينزل على عجل من الطابق العلوي. استدار ووقف جنب الحائط بالقرب من باب السكرتاريا- سجين متواضع ينتظر مناداته.

مرّ اثنان من عناصر الأمن من جانبه، صمتا على الفور بمجرّد أن رأيا أرتيوم. من الواضح أنّ كليهما كانا جديدين في المعسكر. أحدهم - شعره مجعّد، وأنفه كبير، وذي عينين كبيرتين- نظر إلى أرتيوم بشكل، جعله يتوقف عن التنفس تحسباً.

مجرّد مغادرة عنصري الأمن - عاد أرتيوم على الفور إلى مكانه.

سمع أرتيوم: " تميّز قائد سريّة الحجر الصحي الخامسة، السجين كوريلكو، بارتكاب فظائع رهيبة في جزيرة الثورة... أكثر فنون التعذيب تميّزاً: أجبر السجناء على التبوّل في أفواه بعضهم بعضاً، وخصّص غرفة صغيرة للضرب، أجبرهم على الوقوف عراة في الثلج، وأجبرهم على القفز في الشتاء في مياه الخليج، وما إلى ذلك. فقط بعض المسؤولين الإيداريين الآخرين أظهروا أنفسهم بشكل أخف قليلاً. ظهر أفظع مشهد أمام أعضاء اللجنة في المهمّة إلى محطة رازنوفولوكي. على الرغم من الاستعدادات المكثفة لوصول اللجنة - جرى توزيع ثياب على السجناء العراة بشكل عاجل في الليل وإخراجهم من زنازين العقاب، وقتل بق الفراش بمساعدة رجال الإطفاء، إلخ، تمكنت اللجنة من الكشف عن مثل هذه الصور الفظيعة للنظام العام، التي تذكّر بشكل لا إرادي بالتعبير المفضل لكوريلكو الشهير: "هنا السلطة ليست سوفييتية، بل سولوفيتية".

ابتسم أرتيوم: لقد سمع ذلك أكثر من مرّة، هو أيضاً.

"عند شهادة تعرضهم للضرب، لم يعثر على سحجات وندبات وكدمات فحسب، بل جرى العثور على ورام كبيرة أيضاً، وكان أحدهم مصاباً بكسر في الفخذ... لا توجد مضاجع في زنزانة العقاب، ويدخل الثلج إليها من خلال شقوق كبيرة. يجري الاحتفاظ بالمذنبين فيها، بغض النظر عن الطقس، من ساعتين إلى خمس ساعات في ملابس داخلية فقط. يجري إطلاق سراحهم فقط عندما يبدأ الضحايا الذين تجمدوا من البرد، في الصراخ بشكل محموم. قام أحد السجناء في الزنزانة قبل أيام قليلة من التفتيش بشق بطنه بقطعة من الزجاج. كما يشتكي السجناء في الثكنات العامّة من تعرضهم للضرب في بعض الحالات. يجري تعميم نظام التعذيب هذا، من قبل رئيس مركز العزل، وينفّذه الحراس والمرافقون، ويشجع عليه رئيس مهمّة العمل، عضو الحزب الشيوعي لعموم الاتحاد (الأكثرية).

بدا لأرتيوم لسبب ما، أنّ الحديث على وشك أن يدور عن شيء ما يخصّه شخصياً، وكأنّه خمّن ذلك، لكن ليس تماماً.

"...العامل في قسم المعلومات والتحقيقات، بورتسيف، لم يكتف بضرب السجناء فحسب، بل قام بضرب حراس المعسكر أيضاً، كان يرمح بسرعة في المخيم مراراً وتكراراً على ظهر الحصان، وقام بقفز الحواجز، ودخل الثكنات والمطبخ على الحصان، وافتعل المشاجرات في كلّ مكان، وطلب عيّنة من طعام الغداء له ولحصانه. وكان وهو على ظهر الحصان ينظّم تدريبات قاسية للسجناء، ويجبرهم على الجري بالضرب بالسوط. نفّذ مرّات عدّة عمليات إعدام وهمية، بما في ذلك، صف عناصر سابقين في لجنة الطوارئ من السريّة الثالثة، بزعم الإعدام. وفي وقت لاحق، جرى إطلاق النار عليه هو نفسه دون محاكمة أم تحقيق، من قبل بعض من موظفي قيادة إدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، بمن فيهم غورشكوف وتكاتشوك".

"...هذا بورتسيف إذن..." - فكّر أرتيوم باحترام.

"... أجبر الموظف في قسم المعلومات والتحقيقات غورشكوف النساء على معاشرته، وسطى على أموال وممتلكات السجناء. جرى وضع رقماً لكلّ امرأة كان يميل غورشكوف إلى معاشرتها، وكان يجري استدعاء هؤلاء النساء بالأرقام إلى العربدة التي شارك فيها موظف قسم المعلومات والتحقيقات تكاتشوك، بالإضافة إلى عدد من الموظفين الآخرين. وبسبب هذه الحالات، جرى استدعاء واعتقال ثلاثة أشخاص آخرين.

قال أرتيوم بصوت مسموع: "أوه، أعزائي، سوف يشوونكم الآن".

"ضرب قائد سريّة العمل الثانية عشرة كوتشيرافا السجناء بشكل متكرّر، ونقل ثمانية منهم في المستشفى، وتسبب بحالتي وفاة. وكان في حالات السكر، يستولي على أغراض السجناء...".

"إذن، هل جرى احتسابي، أم لا؟" - فكّر أرتيوم بانفعال. كان يحدث شيء ما خارج عن المألوف.

"... في القسم الرابع من معسكرات سولوفكي للأغراض الخاصّة، تعرض السجناء للضرب المنهجي، وجرى احتجازهم لساعات في الشارع، وتمّ ربطهم بعامود. ولم يجري اعتقال أيٍّ من المتهمين قبل وصول اللجنة. أقترح إرسال القضية إلى لجنة الإدارة السياسية الموحدة للدولة" - قال الصوت وأخذ رشفة من الشاي- "قضيّة المشرف على طاقم مهمّة العمل في منطقة بحيرة- إنغ، زولوتاريوف ومعاونيه، الذين عذبوا السجناء بشكل منهجي، ممّا أدى إلى تسجيل ثلاث حالات وفاة. جرى القبض على جميع المتهمين. نقترح إرسال القضية إلى لجنة الإدارة السياسية الموحدة للدولة" - أخذ رشفة أخرى من الشاي، ويبدو أنّه أشعل سيجارة- "قضية رئيس مهمّة العمل غاشيدزه في٦٣ كيلومتر طريق باراندوف، و ١٨ من المراقبين- الرماة، والمناوبين ورؤساء مجموعات: جميعهم- من السجناء. قام المتهمون بضرب السجناء، بجزمات اللباد وبأوزان معدنية فيها على أنغام الموسيقا. أجبروا السجناء على خلع ملابسهم، تحت الجسر في الماء، حيث

احتجزوهم لساعات عدّة. قاموا بربط الحبال حول أرجلهم وجروهم للعمل بهذه الطريقة. في شكل عقوبة خاصّة، أجبروهم على الوقوف في حوض البراز. وضربوا أحد السجناء، حتّى فقد وعيه، وقرّبوه من النار، ممّا أدى إلى وفاته. جهّز غاشيدزه بنفسه زنزانة عقابية لا يزيد ارتفاعها على متر واحد، وغطيت أرضيتها وسقفها بأغصان حادة، ظلّ أولئك الذين وضعوا في زنزانة العقاب هذه، في أحسن الأحوال في حالة سيئة لفترة طويلة. وقد لوحظ حالات قتل مباشر عدّة للسجناء في الغابة. مات أشخاص عدّة في زنزانة العقاب. وصل كثيرون، إلى حالة من الجنون، وانتهى بهم المطاف إمّا إلى الانتحار وإمّا اندفعوا يركضون أمام الحراس، وهم يصيحون "أطلقوا النار"، وقتلوا في الواقع برصاص الحراس. جرى تأجيل هذه القضية مراراً وتكراراً عن وعي، لشهور عدّة دون أن تتحرّك، وجرى إخفاؤها عن اللجنة، عندما علم أعضاء اللجنة بوجودها، جرى إخبارهم في البداية أنّ القضية قد أرسلت إلى موسكو، ثمّ قيل بعد ذلك - أنّها لدى المدعي العام، والآن فقط جرى تقديم هذه القضية مع لائحة الاتهام إلى اللجنة. من الواضح أنّ العديد من وقائع هذه القضية جرى طمسها، وبعض المتهمين، وعلى رأسهم قاشيدزه، لم يجر اعتقالهم. يجري الآن تحقيق مفصّل، في هذه القضية من قبل موظف الإدارة السياسية الموحدة للدولة.

اعترف أرتيوم ضمنياً: "لم أسمع أيّ شيء من هذا القبيل، لو حُكِيَ لي ذلك لما كنت صدّقت كثيراً... سأحكي لغالا ذلك لاحقاً. دعها تفرح".

"قضية نائب رئيس مركز احتجاز سيكيركا سانيكوف، الذي كان المبادر لعدد من عمليات الإعدام الخارجة عن القانون والخبيثة للسجناء. جرى حتّى الآن، التأكّد من ثلاث عشرة حالة. يجري التحقيق في القضية من قبل موظف الإدارة السياسية الموحدة للدولة".

"أليس هذا صاحبنا... مع الجرس؟.. على ما أعتقد ذكرت غالا اسمه..."- فكّر أرتيوم للحظة، وبدء قلبه يخفق بشكل أسرع، وشعر فجأة بالضيق، وفك سترته.

"... جرى تحديد ثماني حالات إنهاء تأديبي غير قانوني بشكل واضح لقضايا مع حالات تعذيب سجناء محددة للغاية. بالإضافة إلى ذلك، جرى اعتبار ثماني حالات مماثلة منتهية أم محوّلة لتقدير إدارة معسكرسولوفكي للأغراض الخاصّة، لم تظهر في الأرشيف على الإطلاق... في ١٥ شهر حزيران من هذا العام، أمر الرفيق إيخمانيس بإجراء تحقيق بشكاوى السجناء، حول حالات الضرب، واعتقال المذنبين في حال تأكد ذلك. وعلى الرغم من ثبوت ذنب الحراس، لم يجر اعتقالهم قبل أمر اللجنة. فيما يخص قضايا قسم المعلومات والتحقيقات، حققت اللجنة مع ٧٤ شخصاً، جرى اعتقال ٤٧ منهم، وسيتم إصدار أوامر باعتقال الباقين".

أبتسم أرتيوم بسخرية: "لهذا السبب لا يوجد أحد في قسم المعلومات والتحيقات. لقد جرى القبض عليهم جميعاً! من سيحمينا بعد الآن؟".

صك الصوت الكلمات بشكل لا تشوبه شائبة، مثل آلة صك العملات:"...انصب اهتمامنا بشكل أساسي على العيوب الرئيسة في خدمة سكان المعسكرات والطلبات والاحتياجات الأساسية للسجناء. لوحظ كظاهرة منتشرة، شكوى السجناء حول عدم وجود أيام عمل وأيام عطل عادية. معظم عمل معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة موسمي: قطع الأشجار، وصيد الأسماك، وشق الطرق، والزراعة، وما إلى ذلك. من المستحيل تنظيم يوم العمل في فروع العمل هذه، بسبب الظروف الجوية الخاصّة. يوزّع العمل من خلال المهمّات، مع العلم ، يجري تلقي الكثير من الشكاوى حول صعوبة هذه المهمّات التي لا تطاق. لا يجري الالتزام بأيام العطل الرسمية، إلّا في الصناعات اليدوية الصغيرة" - هدأ الصوت، وفي جرعة واحدة بصوت عالٍ، كما لو كان حلقه من صفيح، انتهى الذي يُمْلي من تناول الشاي - "... يمكن اعتبار معيار الحصص الغذائية المحددة وفقاً لأمر معسكر سولوفكي، مرضية بشكل أساسي، ولكن نظراً لإساءة استخدام القائمين على الخدمة أم إهمالهم، جرى ملاحظة حالات نقص الحصص الغذائية وتصنيع أغذية رتيبة للغاية في كثير من الأحيان. يجري

تنظيم الخدمات الثقافية والتعليمية للسجناء في هياكل معينة بشكل مرضٍ. توجد في كلّ مكان تقريباً زوايا حمراء، وصحف جدارية لائقة جداً، ويجري إلقاء محاضرات حول مواضيع مختلفة، لكن مرافق الخدمة، نظراً للأعمال الشاقة، غير قادرة على القيام بمهمّتها الثقافية بشكل جيد. بالإضافة إلى ذلك، من الواضح أنّ عمل التنوير الثقافي في معظم مهمّات العمل، لا يتوافق مع قسوة النظام. ظروف السكن للسجناء صعبة للغاية، ولا داعي للحديث عن أيّ معيار، لأنّ سكان الثكنات التي جرى فحصها، بسبب الازدحام الشديد، ينامون في الغالب، متراصين بعضهم إلى بعضٍ. لا يوجد أيّ تلميح للفرش في أيّ مكان. تعطي الثكنات المبنية حديثاً انطباعاً أكثر ملاءمة، ولكن التباين بينها وبين كتلة الثكنات القديمة أكثر حدّة. لا يوجد سوى ٢٨ طبيباً لجميع سكان المخيم، ويتركزون بشكل شبه حصري في أقسام مستشفى معسكر سولوفكي. لم يجر التحقق بشكل كافٍ من مؤهلات مساعدي الأطباء، الذين يقومون بعمل مستقل تماماً. مرض خلال أوّل ربعين من هذا العام ٢٤,٦% من سكان معسكر سولوفكي. توفي في الأشهر الستة نفسها ٦,٨% من السكان".

همس أرتيوم:"... كلّ شيء هكذا، كلّ شيء هكذا، دعنا نحل هذا المعسكر، أيّها الرفيق."

" من أجل الحيلولة دون مزيد من ازدهار النظام القاسي، ومن أجل تحسين سكن السجناء اتخذت اللجنة الإجراءات التالية"- تحرّك الصوت نحو إنهاء عمله- "أوّلاً- يقْترح على الفور إنهاء نظام الحجز في أماكن غير مناسبة، بما في ذلك غير المدفأة. ثانياً- يقترح تجهيز جميع أماكن الاحتجاز على وجه السرعة بمضاجع وأشياء أخرى. ثالثاً- جرى أدراج بند تحسين طعام وملابس السجناء في الاعتمادات: ويقصد هنا الفرش وما إلى ذلك. رابعاً- جرى إيقاف، كما سبق ذكره أعلاه، ٢٤ شخصاً من عداد الإداريين والمراقبين وحراس مهمّات العمل. خامساً- جرى اعتقال رئيس قسم العمل والمحاسبة، ورئيس القسم التجاري، ورئيس قسم الأبنية وشق الطرق في إدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة.

جرى تقديم اقتراح بإقالة نائب رئيس إدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة. سادساً- يتعمّق ويتطور التحقيق في القضايا القائمة، وبدأ التحقيق في قضايا جديدة. سابعاً- جرى إجراء حملة توضيحية بين أعضاء الحزب من موظفي إدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة. ونتيجة للإجراءات الصارمة التي اتخذتها اللجنة، جرى وضع حدٍّ لنظام تعذيب السجناء حالياً".

سمع صوت:" لماذا تقف هنا؟". ارتعش أرتيوم، لماذا ارتعشت: كلّ شيء واضح.

كان يقف أمامه عنصر أمن آخر من العاصمة، حليق الذقن، وسيم، وله أسنان بيضاء- يجب الانتباه إليه الآن، فقد يحصل شيء غير متوقع، قد يعض وريداً ما مهماً.

كذب أرتيوم بجرأة: "قالوا لي أن أقف هنا وانتظر حتّى ينادوني".

تطلّع السكرتير نحو الصوت.

"من هذا؟"- سأل عنصر الأمن، وأومأ برأسه إلى أرتيوم.

قال السكرتير: "محتجز، سنستوضح الأمر الآن".

" أيّ محتجز- أبحرت إلى هنا بنفسي " – كشّر أرتيوم: ما سمعه للتو غيّر مزاجه لدرجة معينة.

نظر عنصر الأمن ذو الأسنان البيضاء إلى أرتيوم مباشرة، وسأل بصوت عالٍ، إمّا السكرتير وإمّا صاحب الصوت القوي والبلعوم القصديري في المكتب المجاور: "هل هذا من فريق غورشكوف الذي ذهب نزهة في البحر بمجرّد وصول لجنتنا؟".

"الآن سوف نفهم، أحضره إلى هنا"- انطلق الصوت الذي استجاب له حتّى زجاج النوافذ.

بدأ أرتيوم بعد دخوله المكتب، يبحث في حالة من الارتباك، عن صاحب الصوت الجهير غير القابل للتدمير، ولكن لم يكن هناك سوى رجل ضعيف يبلغ

طوله متراً ونصف المتر، إلى جانب ذلك، غير حليق الشعر، يرتدي نظارة، وحاجباه أشعثان.

" أين وثائقك؟"- سأل. كان هذا صوته. إمّا أنّه سرق هذا الصوت وإمّا أمسكه في شرك، ثمّ بعد ذلك روّضه مثل حيوان مفترس. وبات الصوت يخدمه الآن.

سأل أرتيوم: "أيّ وثائق؟".

" المهمّة "- في مثل هذا الصوت يمكن للمرء أن يكسر جوزاً.

" اسأل غالينا، كانوا كلهم لديها"- أجاب أرتيوم على عجل، وهو يقنع نفسه بعدم التسرّع في الإجابة.

سأل ذو الأسنان البيضاء السكرتير عن شيء ما، وسرعان ما دخل في أعقاب أرتيوم.

أغلق السكرتير الباب بهدوء ولكن بإحكام.

سأل صاحب الأسنان البيضاء: " من أين هذه السترة؟ من قسم المعلومات والتحقيقات؟".

أفاد أرتيوم: "سجين عادي في سريّة العمل الثانية عشرة"- وهنا خلط على الفور دون معرفة السبب- " جرى نقلي إلى السريّة الثانية مؤقتاً".

" لم أر مثل هذه السترات في سريات العمل. ألم تخلط بين الأشياء يا بني؟"- قال ذلك ذو الأسنان البيضاء إمّا ساخراً، وإمّا لا.

فكّر أرتيوم بسرعة: " من أين أنا، "ابنك". لست متأكداً من أنّك تليق أن تكون أخاً أكبر سنّاً لي...".

كذب أرتيوم دون أن يتوقع ذلك من نفسه: "حصلت عليها من الرفيق إيخمانيس لقاء العمل النموزجي". هناك من قال له أنّ ذلك سيكون أفضل. وماذا يمكن أن يقول غير ذلك، هل أقول: لقد أعطتني غالينا السترة يوم الهروب؟.

"وما العمل الذي قمت به ؟".

أفاد أرتيوم، كما لو كان يصف ورق اللعب: " كنّا نقوم بدراسة المشهد الجغرافي والنباتات والحيوانات تحت قيادة الرفيق إيخمانيس".

كانت الحياة على المحك.

"إلى أين أبحرت مع موظفة قسم المعلومات والتحقيقات... ما اسمها..."- تحدث الرجل الذي يبلغ طوله متراً ونصف المتر وذو الحاجبين الأشعثين، وهو يتوجه للجلوس وراء طاولته. حوّل أرتيوم نظره نحوه ببطء، ولم يفهم ما إذا كان قد جلس بالفعل وراء الطاولة أم بقي واقفاً هناك. من الملاحظ أنّ حامل البلعوم القصديري، لا يعيقه قصره- كان لديه للشعور برجولته الكاملة، ما يكفي من الحبال الصوتية، ومسدس ماوزر على جنبه.

أجاب أرتيوم: "جزيرة على بعد خمسة عشر فيرستا(١) من المخيم...".

" ما هو الغرض من السفر؟" - كان يتكلّم الآن صاحب الصوت القوي فقط.

أجاب أرتيوم بحزم: "بقدر ما فهمت، وضع وتدقيق خرائط أرخبيل سولوفكي".

"كيف جرى العثور على المواطنين الأجنبيين؟"- أشعل الرجل القصير سيجارة، كانت تبدو كبيرة جداً بجوار رأسه الصغير.

"أشعلا ناراً على الجزيرة، فلاحظنا ذلك".

"هل حاولا المقاومة؟".

"لا، كان أحدهما، الرجل، فاقداً للوعي. أصيب بنزلة برد، وكان يرقد وبحالة هذيان. لكن كان لديهما أسلحة. لقد صادرناها".

"هل تحدثتما معهما؟"- نفض الرجل الصغير رماد السيجارة في مكان ما، على الأوراق التي على الطاولة مباشرة.

---

(١) فيرستا: وحدة قياس طول روسية قديمة تم التخلي عنها منذ العام ١٩١٨، تساوي ١,٠٦٦٨ كم. [المترجم].

"لا. إنّهما لا يعرفان اللغة الروسية، ونحن لا نعرف اللغات الأجنبية".

اقترب ذو الأسنان البيضاء من الطاولة أيضاً، ووقف خلف ظهر رفيقه القصير، ونظر إلى الأوراق- على ما يبدو، كان يمكنه ذلك. نظر صاحب الصوت إلى الوراء. أومأ ذو الأسنان البيضاء مستفسراً: بمعنى، ماذا؟.

" حسب الأوراق، كلّ شيء صحيح" - قال القصير، مستديراً إلى الطاولة. عندما خفض عينيه، كان حاجباه يتدليان بشكل كثيف، كما لو أنّ عدداً من النحل الأشعث، والبطيء الحركة، يجلس على حواف جبينه.

رغم ذلك أعادوه إلى الزنزانة. "دعه يجلس لبعض الوقت، حتّى لا يبحر مرّة أخرى فجأة..."- أمر الشخص صاحب الصوت القوي، وهو يقوم من وراء الطاولة باحثاً عن منفضة السجائر التي تركها هو نفسه على الرفّ الصغير لنافذة الدير. أمر السكرتير: "أجلب لي إضبارته! كلّ أوامر التنقلات الداخلية. يجب فهم ما كان يفعله هو وإيخمانيس... قال عالم النبات قال... "- وضحك بصوت عالٍ لدرجة أنّ الملعقة في كوب الشاي ارتجفت.

كانت في الزنزانة رائحة حادة ونفاذة من العرق.

غالباً ما كان غورشكوف وتكاتشوك يتراجعان إلى زاوية، وهناك إمّا كانا يتمتمان وإمّا يقفان في صمت.

انحنى تكاشوك وحكّ كثيراً.

كان في الزنزانة عشرة أشخاص مع أرتيوم، لكن كانت هناك ثمانية مضاجع، وبالنتيجة، تناوبوا على النوم على مضجعين.

على الرغم من أنّ أرتيوم شغل مضجع شخص آخر، لم يشارك في أيّ تناوب، لكنّه استلقى ببساطة على المكان الذي شغله بمجرّد دخوله، ولم يسأل حتّى من كان ينام عليه قبله.

ربّما، أعطته هذه البداية على الفور، الشعور بالوقاحة والحدة. ما سمعه في غرفة السكرتارية عزّز هذا المزاج.

كوتشيرافا- كان هنا أيضاً- لم يستيقظ تقريباً، وبدا كما لو أنّ صداع الكحول الثقيل لم يتركه منذ أيام عدّة. كان وجه منتفخاً، وأذناه متدليتين، وخداه متهدلين، وأنفه تدلى. شرب عشرة أكواب من الماء، قبل أن يبعدوه عن دلو الماء.

لا أحد يحترم هنا الآخر على الإطلاق.

تبيّن أنّ قارع جرس زنزانة العقاب هو الأكثر اضطراباً هنا: على عكس الباقين، كان دائماً يشعر بالحرّ، كان يتمشّى في قميص واحد ملوّن، كما لو أنّهم اعتقلوه من حفل زفاف، وكانت حركات وجهه، كما لو أنّ يرقة كانت تزحف على مؤخرة رأسه، ولكن لا يمكن إسقاطها.

كان ينظر بعيون الجميع، وأحياناً كان يتوقف بالقرب من غورشكوف وتكاتشوك، لكنّهما لم يتحدثا معه.

عندما اقترب، سأله أرتيوم، منتعشاً:

"أنت سانيكوف؟.

ارتجف قارع الجرس:

"نعم، بالضبط. وأنت من، لو سمحت؟".

سأله أرتيوم دون أن يجيبه عن سؤاله: "أين جرسك؟". لقد شعر بقوة، أنّه يستطيع قتل هذا الشخص الآن مباشرة، ومن المستحسن خنقه.

بدأ سانيكوف يحرّك خديه بشكل ما، كما لو أنّه لا يتمكن من السيطرة عليهما.

استدار أرتيوم.

" لا تجرؤ!" - قال سانيكوف له من وراء ظهره.

لم يستطع سانيكوف أن يهدأ، خلال ساعة أخرى، وكان يتحرّك ذهاباً وإياباً، وهو ينظر بطرف عينه إلى أرتيوم، حتّى جرى استدعاؤه للاستجواب.

قال آرتيوم وراءه: " ترن - ترن!".

وعد سانيكوف مغتاظاً:"سأعود من أجلك".

غمز أرتيوم برعونة غير عادية: وكأنّه يقول له، أنا في انتظارك.

لقد أراد كلّ واحد من الموجدين أن يؤمن، بأنّه سيتم إطلاق سراحه هو بالتحديد قريباً: لقد تحققوا وهذا يكفي.

لم يظهر أحد منهم أي تضامن مع أيّ أحد من الموجودين: حتّى إنّ تكاتشوك وغورشكوف كانا يتحدثان مع بعضهما البعض، بصعوبة وعصبية أكثر، مع كلّ دقيقة، كما لو كان كلّ واحد منهما يتهم الآخر أنّه هو السبب في وجوده هنا.

في نهاية الأمر أساء تكاتشوك لغورشكوف مذكّراً له أنّه لم يأخذه معه على الزورق- سمع أرتيوم.

أظهر تكاتشوك دعابة غير متوقعة منه: " كان يجب أن تستسلم للنرويجيين، وتقول لهم إنّك ضحية النظام البلشفي. وترغب بتأليف كتاب هناك أيضاً، تفضح فيه... بعنوان "الأشغال الشاقة الحمراء"، سخيف".

لم يفهم أرتيوم شيئاً واحداً بعد: هل غادر غورشكوف بحجّة تفتيش مختلق، أم قرّر الصيد في تشرين الأوّل، أم سافر دون أن يهتم بالبحث عن سبب مناسب. على أيّ حال، هو لم يدع تكاتشوك للمغادرة معه، مفضلاً الهروب بمفرده.

فكّر أرتيوم: "... هل من الممكن أن يكونوا وضعوني في مثل هذه المجموعة بسبب السترة؟". وذلك على خلفية ما سمعه في غرفة السكرتارية، وبالتالي ثمن رحلته البحرية لن يكون فظيعاً إلى هذه الدرجة.

بعد قليل صدّق نفسه تماماً، أنّه وغالا لم يكونا ينويان الهروب إلى أيّ مكان، ولكن نعم فقط، قاما بوضع الخرائط، ودارا على الجزر، ليس بعيداً عن المعسكر. كان هذا الإيمان مع لون من الهيجان الروحي، لكن ساعده ذلك كثيراً في تهدئة روعه، والشعور بنفسه أنّه أقوى.

إضافة إلى ذلك، إنّ هذه ، ليست زنزانة عقاب، ليست زنزانة العقاب على جبل سيكيرنايا.

أجج أرتيوم شعور القوّة الذي أدركه فجأة، وسط هذا الرعاع الحقير.

تحوّل كوتشيرافا الضخم إلى رجل مسن ومريض، يهمس دائماً بشيء ما. وجد أرتيوم نفسه يفكّر، أنّه رأى قائد السريّة السابق حتّى الآن، في حالتين فقط: سكران ومخمور. أمّا هنا فهو مجرّد مخلوق آخر: رصين، ودون سجائر. توسّل كوتشيرافا الحراس لإعطائه تبغاً، أعطوه مرّة واحدة سيجارة، ثمّ توقفوا عن الاستجابة له.

لم يظهر الحراس أيّ تفهّم للسجناء - لقد حاولوا عدم التحدث معهم على الإطلاق، كما هو الحال مع المصابين بالجذام.

اتضح أن الجميع هنا لا يرضيهم الطعام: وما يأكله أرتيوم بشكل معتاد وبإلهام، كان جديداً بالنسبة لهم. كانوا يستنشقون، ويتطلعون عليه، ويحركون بالملاعق الفريك المخاطي في الأطباق للخلف وللأمام، وكان كوتشيرافا يتحدث مع الطعام المخصص له، وغروشكوف يبتلع الطعام وهو يغمض عينيه. ويسكب تكاتشوك حصته في حوض البراز، ويلقي بصحنه إلى الباب.

أعادوا سانيكوف مساءً، لم ينظر إلى أيّ شخص، ولا سيّما إلى أرتيوم، وكان يستنشق من انفه، ويرف عينيه كثيراً.

ذهب مرّات ثلاثاً في نصف ساعة إلى حوض البراز، وكان يئنّ هناك من فشله.

فتح في المرّة الأخيرة، وهو يتمشّى ويرفع سرواله في الوقت نفسه، حديثاً مع أوّل شخص محاور التقى به :

" أعتقد أنّهم نسوا وجود ما يسمّى، الملاءمة الثورية. سيتعيّن تذكيرهم".

لكن خانه صوته: فمع لفظ العبارة الأولى، التي بدأها بثقة بالنفس وبقسوة، لم يكد يزحف عند نهايتها بصوت ناشز. ومن أجل إنقاذ الموقف، بدأ سانيكوف يسعل وسرعان ما صعد إلى مضجعه.

لم يستطع أرتيوم التحمّل، فنهض ووقف بالقرب من مضجع سانيكوف، دون أن يقول شيئاً، وكاد يصفر. استدار قارع الجرس إلى الحائط.

كان يريد السخرية ولو من شخص واحد هنا على الأقل. لم يكن لثقة أرتيوم بنفسه أيّ تفسير معقول- ولا سيّما، لم يرغب أحد في العبث مع هذا المتشرّد الضال.

لم يكن أحد يشكّل خطراً عليه سوى تكاتشوك، ولو بسبب حجمه فقط - ولكن بحلول المساء نام أم حاول أن يغفو كلّ الوقت.

كانت الزنزانة مليئة بالجرذان- حتّى إنّهم لم يكونوا بهذه الكثرة في المطبخ- على ما يبدو، كانت تفوح بكثرة هنا رائحة القمامة واللحوم المتحللة والجبن والسفالة.

صرخ سانيكوف في الليل، بصوت عالٍ - بدأ الجرذ يقضم أذنه.

قفز إلى أسفل وهو يمسك أذنه بقبضته - كانت تنزف.

... استيقظ أرتيوم في الصباح، ليس بمفرده أيضاً، وإنّما مع جارته: كانت تجلس بهدوء بجانبه، على المضجع مباشرة، تنظر بعينها، واستلقى ذيلها الخشن بلا حراك.

لم يخف على الإطلاق.

كان أرتيوم قد أخفى خبزاً من وقت الغداء، وفقاً لعادة قديمة، وفجأة أصبح كريماً: أخرجه بهدوء من سرواله القطني، حتّى لا يخيف الفأرة، ودحرج لها كرتين.

" خذي. لا تقضمي أذني فقط من فضلك ".

بدأت تأكل ببطء: بطريقة الفلاحين، دون تململ، الفرق الوحيد هو أنّها لم ترسم إشارة الصليب. أظهرت في كلّ حركة كرامة ودقة. لم تكن في عجلة من أمرها، ولم تكن خائفة من أيّ شيء.

طلب أرتيوم بابتسامة هادئة: "علميني كيف أعيش أيّتها الفأرة!".

يبدو أنّ الفأرة كانت حاملاً: كان بطنها الضخم بارزاً.

استدعوا كوتشيرافا بعد الغداء.

وقف في منتصف الزنزانة- وظلّ واقفاً بهذا الشكل، كما لو أنّه نسي على الفور، ما إذا كان عليه الذهاب أم أنّه عاد بالفعل.

قام جنود الجيش الأحمر بسحبه خارج الزنزانة. مشى كوتشيرافا، مبقياً رأسه بعيداً إلى الخلف. ظلّت الرائحة الكريهة تفوح في الزنزانة بعد خرجه.

لكنّهم جلبوا أحد المعارف القدامى، مويسي سولومونوفيتش.

لم يكن في مزاج يسمح له بالغناء، كما في الأيام الخوالي، وكان في حالة عصبية معيّنة.

توجهوا إليه يسألونه عن أخبار المعسكر، لكن لم يكن لديه ما يقوله، أم أنّ مويسي سولومونوفيتش، لسبب ما، لم يرغب في مشاركة أحد بما يعرفه.

لم يتغير تقريباً: الوجه الطويل نفسه، واللسان الكبير الذي يشبه لسان البقرة، والعينان المتنفختان- لكن مويسي سولومونوفيتش أصبح الآن يرتدي نظارة، وأصبح حاجباه أكثر كثافة، ونما شعر كثير في أذنيه أيضاً. وبسبب هذا الشعر، كان يلمس أذنيه وينتف الشعر، من حين لآخر.

لم يكن أرتيوم يشعر بالحاجة للحديث معه، لكن مويسي سولومونوفيتش نفسه كان يبحث عن فرصة للتحدّث مع أرتيوم.

قال وهو جالس على حافة المضجع: " مرحبا أرتيوم ".

سأل أرتيوم، وهو يفرك وجهه بكفيه: "ما الذي أتى بك إلى هنا يا مويسي سولومونوفيتش؟".

قال مويسي سولومونوفيتش بشعور عميق: "لقد احتفظت أنت بالقدرة على الابتسام"- على الرغم، من أنّ لا أحد كان يبدو يبتسم.

بعد بضع دقائق، عرف أرتيوم بالفعل أنّ مويسي سولومونوفيتش- العامل الإداري المسؤول عن الشؤون اليومية في المعسكر، كان على الأقل لا يزال في الصباح، يجلس في المبنى الإداري، في مكتبه الشخصي- "... حسناً، ليس مكتباً، بل يشبه المكتب- غرفة صغيرة خانقة...". "خانقة- هذا يعني مدفئة "- قرّر أرتيوم، لكنّه ظل صامتاً. عند ذلك، وقع مويسي سولومونوفيتش، بسبب عمله الصعب جداً كمحاسب.

أصبح معنى الحديث مفهوماً لأرتيوم من الكلمة الأولى: يقوم شخص خائف بتدوير ما يعتقد أنّه حقيقة في رأسه، ويستعد لتقديمها في أقرب تحقيق- في هذه الحالة، الاستجواب الثاني- ويريد التحقق إلى أيّ حدٍّ مقنعة هذه الحقيقة أم الحكاية التي تحل محلّها.

همس مويسي سولومونوفيتش بسرعة، وهو يشير بعينيه إلى من حوله: "إنّك تتصرف بحرية ولست مثلهم جميعاً"- خلع نظارته وبدأ يمسحها بالجزء السفلي من سترته، كما لو كان يحاول إخفاء حقيقة أنّه أشار لبقية السجناء.

سأل مويسي سولومونوفيتش فجأة: "ما زلت لا أفهم، هل كنت أنت في وقت من الأوقات في القسم الإداري أم لا؟ لم أكن أراك كثيراً".

جلس أرتيوم على مضجعه - كان من غير اللائق التحدث مستلقياً - وكان الآن ينظر إمّا إلى نظارة محاوره- كان أحد أطرافها مربوطاً بخيط – وإمّا إلى سترته، التي كانت تبدو من مظهرها أنّها رأت الكثير أيضاً، رأت لدرجة أنّ ارتداءها كان مقصوداً إلى حدٍّ ما. دون أن يجيب بشيء، هزّ أرتيوم رأسه، بشكل يحمل معاني كثيرة: لقد كنت، نعم، في القسم الإداري، أم ربّما لا، لم أكن، لكنّني ذهبت كثيراً، كثيراً وبعيداً.

همس مويسي سولومونوفيتش، دون انتظار إجابة، ولم ينزعج من هذا الأمر: " هل تعلم، سيحمّلون اليهود مسؤولية كلّ شيء، كلّ شيء، لكن الرفيق غليب بوكي، المسؤول عن كلّ ذلك"- وارتدى موسى سولومونوفيتش نظارته بسرعة، وقام بحركة إيمائية صغيرة بيديه، كما لو كان بوكي يقود حياة زنزانتهم- "أعرف من مصادر ممتازة- إنّه نبيل روسي. الرفيق إيخمانيس- نصف لاتفي ونصف روسي، والجميع يعرف ذلك أيضاً. وكلاهما معمّدان. الرفيق نوغتيف- إنّه بالطبع روسي، مكتوب على جبهته إنّه روسي. نعم، يوجد هنا الرفيق فرنكل- إنّه يهودي، ويهودي بارز، جرى ترشيحه من قبل الرفيق إيخمانيس، هو رئيس قسم الإنتاج والتشغيل، لكنّه أحد المساجين. ماذا نرى؟ مجرّد بدء

الاعتقالات- نحن نفهم أنّها اعتقالات مبرّرة- مباشرة جرى وضع مويسي سولومونوفيتش خلف القضبان! وضع في السجن مرتين، يا أرتيوم!وحتّى ثلاث مرّات! انتهى بنا المطاف في البداية في الجمهورية السوفييتية. بدا ذلك غير كافٍ، فأخفونا في سولوفكي. ولكن تبيّن أنّ سولوفكي غير كافية لمويسي سولومونوفيتش- فوجدوا داخلها سجناً أكثر موثوقية، هذه الزنزانة! وكنت أحاول فقط أن أتدبّر شؤون إدارتهم غير العقلانية!".

هزّ أرتيوم كتفيه. كانت تثير الدهشة الحالة التي كان يتحدث بها هذا الشخص عن نفسه، كما لو أنّه كان سجين وحيد في سولوفكي، وكلّ الموجودين هنا مثلاً- كما لو أنّهم غير سجناء، وأيضاً كيف تغيّر مويسي سولومونوفيتش مع مرور لوقت: تذكّر أرتيوم كيف كان يغني باستمرار، وقد أطلق عليه الجناة لقب "أوبريت" - من كان يعتقد أنّ "الأوبريت" سيكون قادراً على مثل هذه التعميمات الواسعة.

أخرج أرتيوم الخبز، المتبقي من إطعام الفأرة، ولفّ خمس كرات لنفسه. ووضعها في فمه الواحدة تلو الأخرى.

"أيّ نوع من الإدارة كانت هنا - أنت نفسك تعرف؟"- ونظر المحاور إلى أرتيوم من فوق نظارته، فكّر أرتيوم، لا فرق لدى مويسي سولومونوفيتش، فيما إذا كان أرتيوم يعرف أم لا يعرف، ولكنّه ببساطة كان يحتاج إلى ترتيب الكلمات بشكل صحيح في حديثه- " لم يكن من الممكن أن يحدث خلاف ذلك هنا: كان يقود الإنتاج كلّه عناصر الحرس الأبيض السابقون، والسجناء المناهضون للثورة، وفي كلّ مكان، عفواً، قساوسة - كما لو أنّهم رتّبوا كلّ شيء عن قصد، لقد سلّموا الإدارة إلى أكثر الأيدي غير الموثوقة. لقد أبلغت الرفيق إيخمانيس عن ذلك، وأرسلت مذكّرة بهذا الأمر.طلبت أثناء التحقيق أن يجري العثور على هذه المذكّرة، وحفظها في الإضبارة، لكن... هناك الآن الكثير من القضايا دوني".

وصف مويسي سولومونوفيتش مطوّلاً، دوامة إنتاج سولوفكي، على الرغم من أنّ الوصف كان مشوشاً إلى حدٍّ ما، موضحاً بالتفصيل كيف فشل

إنتاج الطوب: أعاد البر الرئيسي طناً من طوب سولوفكي، لأنّه تبيّن أنّه غير مناسب للبناء- وحاولوا إنقاذ موضوع الطوب على حساب الاستخدام غير العقلاني للغابات، التي ذهب الدخل الفائض منها إلى العديد من الحاضنات، إذ جلب الرفيق إيخمانيس حيوانات نادرة، لكن كقاعدة عامّة، ترفض التكاثر عندما يجري حجز حريتها... ومنتجات معمل الأحذية فيها عيوب، وتبيّن أنّ مجلة سولوفكي، التي فيها اشتراكات في جميع أنحاء البلاد غير مربحة، حتّى حجم الصيد- قد انخفض...

"... هذه ليست إدارة، بل سلسلة من الإخفاقات!" أكد مويسي سولومونوفيتش بحماس زائد، منهياً بطريقة خاصّة، ضاغطاً على الحرف "ت".

" أنت تكذب! أنت تكذب! لقد جرى إنجاز الكثير، يا عدو. كان يجب إعدامك قبل الجميع!"- نبح غورشكوف الذي سمع الحديث، من الأعلى.

خلع مويسي سولومونوفيتش نظارته بحركة سريعة. وكأنّه يعتقد، إذا كان هو يرى بشكل سيء بلا نظارة- فإنّهم لن يلاحظوه أيضاً.

نزل غورشكوف على عجل من المضجع العلوي، راغباً في هزّ مويسي سولومونوفيتش من صدره، لكنّه رأى أرتيوم، الذي كان ينتظر شيئاً كهذا، فقام بإفراغ كلّ ما لديه من الشتائم الفاحشة ببساطة، وبشكل مقرف وغزير ومجهد.

استمع أرتيوم، فاتحاً فمه، ثمّ بدأ في لوي وجهه، مغيظاً غورشكوف، كأنّه يقود كلامه، بمساعدة تصعير الوجه وتحريك اللسان والأنف.

هرع غورشكوف، الذي احتدّ، إلى الباب، كما لو كان على وشك المغادرة. دقّ بعظامه الحديد، ناظراً بطرف عينه المصابة، وعاد إلى النافذة الصغيرة التي وضع عليها شبك قضبان حديدية، التي لم يستطع الوصول إليها: حاول أن يستنشق الهواء.

تطايرت الحرارة العالية من غورشكوف لبضع دقائق أخرى، في جميع الاتجاهات: كما لو كان قدر حساء يغلي، لكنّه حمّض.

انتقل مويسي سولومونوفيتش إلى مكان الغائب كوتشيرافا، وهدأ هناك.

... كان أرتيوم يغفو بشكل متقطع قبل العشاء: كان يحلم، بالماء البارد المملّح طوال الوقت، وشعر بمتعة دافئة من حقيقة أنّه لم يعد يبحر إلى أيّ مكان.

" ماذا حصل مع كوتشيرافا؟" - سأل تكاشوك الحراس الذين أحضروا برميل الحساء - "هل أطلقوا سراحه؟".

أجابوه: "لقد دفنوا كوتشيرافا".

صمت الجميع.

بدا الأمر، خلال دقيقة، كما لو أنّ درجة الحرارة في الزنزانة قد تغيّرت.

أكلوا ببطء، محاولين عدم إصدار أيّ صوت.

توقفت جميع الأحاديث، بقي كلّ واحد مع وحدته الثقيلة.

قرقرت مصران بطن سانيكوف لفترة طويلة.

أدرك أرتيوم فجأة أنّه لم يعد لديه القوة على الشماتة. لقد اجتاحه ملل عكر.

في البداية، انتظر دوره في زنزانة العقاب - ولكن كان كلّ شيء واضح هناك: مكان عزل بعيد، سجناء بسطاء - لا أحد يهتم بهم، لو جرى حصد نصفهم، سينمو جدد بدلاً عنهم. لكن الآن وقع هنا - وكل شيء من جديد.

من كان يتوقع أنّ الإدارة سوف يجري تصفيتها أيضاً.

... كان أرتيوم مستلقياً، وجسده يتألم. ظهر لديه شعور أنّ عظامه أصبحت هشة وضعيفة - لن تستطيع أن تمسك بهذين اليدين أيّ شيء، ولن تذهب بعيداً على مثل هذين الرجلين، ولا تحمل رقبته رأسه.

استلقى على جانبه، ووجهه إلى الحائط على أمل أن يغفو، لكنّه استلقى ولم يشعر بالنعاس، وحدّث نفسه بضجر: ربّما ستقف من جديد على رجليك؟ ربّما ستعيش بشكل ما؟ هل ستستمتع بالحياة في النهاية؟.

كان كلّ هذا غباء: بماذا تستمتع؟- بالتخمّر في هذه الزنزانة، وسط هذه الحثالة ذوي الرائحة الكريهة؟.

"هل ستدفن معهم، يا أرتيوم؟ هل في قبر واحد؟ هل سيكون لدينا ديدان مشتركة؟ "- سأل نفسه باستمرار.

لقد فكّر أنّه على الأقل هنا، بين ذوي الإطارات السوداء، سيكون كلّ شيء وردياً، لكنّه اتضح أنّ كلّ شيء يجري بشكل حقيقي".

اشتكى أرتيوم باكياً: "كم مرّة حاولوا قتلي؟ لا تحصى! لقد ذبحني الجناة. أهلكوني بنقل الجذوع. ضربوني حتّى الموت من أجل ورق لعب ليس لي. لقد دفنوني مع المتآمرين. لقد أطلقوا علي النار في زنزانة العقاب. لقد داسني السجناء، ولم يتسامحوا مع تشويه وجه على الحائط. أطلقت غالينا النار عليّ مرّة أخرى في القارب. لقد أغرقني البحر، وما مسحته أمّي على رأسي، أكله السمك. متّ ببطء من البرد والجوع. لماذا يجب أن أموت مرّة أخرى؟ لم يعد دور لدي، لقد وقفت بالدور عشر مرّات! أيّها الإله!".

لم ير، ولم يسمع، ولكنّه شعر بغريزة حيوانية، أنّ الفأرة عادت مرّة أخرى. فتح عينيه: نعم،إنّها هنا.

كان لديه خبز بقي منذ العشاء- وبشكل عام، لم يرغب أرتيوم بالأكل كثيراً في الأيام الأخيرة: كان يأكل حسب العادة، احتياطاً، دون أن يفكّر فيما إذا كان يريد أم لا يريد.

ألقى قطعة كاملة للفأرة: كُلي، لن يطلق عليك أحد النار.

أغلق عينيه. تعاملت الفأرة بعقلانية مع الضيافة: لقد أكلت قسماً منه، وأخذت معها ما تبقى.

سمع أرتيوم جلبتها، لكنّه لم يفتح عينيه.

بدأت أفكاره في التشويش، لقد كان يغفو لدقيقة أم لدقيقتين أم لثلاثة دقائق، ثمّ يرتعش وستيقظ ويفتح عينيه، ويحاول أن يتذكّر ما فكّر فيه للتو، لم يتذكّر أيّ شيء، أيّ شيء،أيّ شيء...

... في حلم آخر للحظة، رأى نفسه فجأة من فوق: كان عارياً- على الرغم من أنّه كان ينام في سترة جلد فقمة وسروال قطني، غير تعب من الحرارة.

" يجب العودة للوراء، سيستيقظ جسدي الآن"- طلب آرتيوم من نفسه، وحاول أن يسقط في نفسه، في هيكله العظمي، مستلقياً على ظهره بشكل أخرق، مخاطراً أن لا يصيب، ويفشل- في الوقت نفسه، كان يزعجه ويعذبه شعور غامر آخر، لم يكن بأيّ حال من الأحوال يستطيع أن يتحدث عنه بصوت مسموع، كما لو أنّه تخدر تماماً عند هذه الكلمات.

أغمض عينيه بقوة، ودفن ذقنه في سترته، وزحف عائداً في شبه إغماء.

كان الأمر جنونياً وعصبياً.

الله، الأب. وأنا قتلت والدي. ليس لدي أيّ إله الآن. أنا فقط، أبنه. أنا نفسي الروح القدس.

"... ما دام هناك أبٌ، فأنا مختبئ وراء ظهره من الموت. مات أبي- تخرج واحد لواحد... إلى أين؟ إلى الله؟ تخرج إلى مكان ما. وأنا نفسي، دفعت والدي بعيداً عن طريقي والآن أخرج- ومن هذا الذي سيقابلني؟ إيه، من هنا؟ هل يوجد أحد؟..".

سمع من خلال حلم ليلي كثيف: لا أحد.

"الله لا يعذّب. يغادر لله إلى الأبد. عُدْ يا رب. اقتلني، لكن عُدْ".

افتح لي أبواب التوبة يا معطي الحياة.

دون ضجيج، ظهرت لا يده حتّى، وإنّما ظهر إصبعٌ ضخم - وسحق بقة فراش.

ظهر ملاك أرتيوم في الصباح الباكر- وضع يده على صدره ووعده، أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام: لن يحدث لك شيء.

أم بالأحرى، لم يعده بشيء، ولم يرَ أرتيوم وجهه- لكنّه عرف على وجه اليقين، أنّ هذا هو رسول جاء ليخبره: مصيرك ما يزال دافئاً، يا عزيزي.

استيقظ أرتيوم، وشعر على صدره، في المنتصف بالضبط، أثراً حامياً- ونام بعمق وهدوء لا يوصف- حتّى إنّه لم ينم هكذا في جزيرة الثعالب.

فتح عينيه- بدت الزنزانة كبيرة، ومشمسة، وواسعة. كان داخل قلبه حريّة لم تحصل من قبل.

دون اختراع أيّ شيء عن قصد، مدفوعاً بشعور عفوي بالوقاحة، قفز أرتيوم من على مضجعه واقفاً- ربّما كانت الساعة حوالي السادسة صباحاً- ووجد نفسه بعد خطوتين جنب مضجع سانيكوف.

ثنى شفتيه، ووضعهما على أذن النائم، وقلّد أرتيوم صوت الجرس بصوت عالٍ جداً:

" بززززين! دينغ دينغ دينغ! سانيكوف! حان وقت الدرس! أخرج وخذ أشيائك معك!".

قفز سانيكوف كما لو كان محروقاً بماء مغلي.

"لا!"- صرخ بشكل غير طبيعي.

"جهز نفسك!"- أمره أرتيوم بمرح وحماسة- "تنتظرك الديدان، إذ تتضور جوعاً. في الجبين- طاق!"- ووكزه أرتيوم بإصبعه بقوة في جبينه- "انقسم الرأس إلى نصفين، رفّ أيّها الذباب، لقد جرى فتح رأس عنصر الأمن مثل علبة الطعام من أجلكم!".

فتح سانيكوف عينيه على وسعيهما، وحدّق في أرتيوم، ولم يكن قادراً بأيّ حال من الأحوال على فهم ما يجري هنا.

استيقظ بقية السجناء المتغضنين، على بقيّة المضاجع - لكن لم يجرؤ أحد بشكل جاد على رفع صوته، والقول كلمة واحدة على الأقل لأرتيوم: ابتسامة مسعورة على وجهه، وبشغف حانق، سمح لنفسه بفعل أيّ شيء- لم يكن هناك حاجة للتدخل في كلّ ذلك. لقد أكلت كلّ واحد منهم حمّته التي لم تهدأ في أثناء الليل.

حام أرتيوم في الزنزانة مثل نحلة كبيرة، يطن مزعجاً الجميع.

في الساعة السادسة صباحاً جرى إعطاء أمراً بالنهوض، ثمّ أحضروا الماء المغلي، أخذ أرتيوم كوباً من أحد عناصر الأمن- يبدو أنّه كان غاشيدزه نفسه، الذي ذكره عنصر الأمن ذو الصوت القوي في تقريره- وقف أوّل الجميع، وبدأ يشرب ببطء، دون أن يبتعد عن الدلو، متعمّداً إعاقة الآخرين. صمت غاشيدزه، مكشّراً، وهو يلقي نظرة خاطفة أحياناً على الدلو.

لم ينهض سانيكوف على الإطلاق، ولكنّه تململ على سريره، وانتظر حتّى يرتوي أرتيوم.

ولكن نظراً لأنّ أرتيوم لم يكن ينوي الابتعاد إلى أيّ مكان، حتّى عندما أعطى فرصة للآخرين بالحصول على الماء المغلي. قرّر سانيكوف النهوض أخيراً، ووقف مختبئاً وراء ظهر الآخرين، وأعطى الكوب لشخص ما أمامه بمعنى: عبئه من فضلك. أخذ أرتيوم الكوب - "... دعني أنا" - وخطا ثلاث خطوات وألقاه في حوض البراز.

صاح سانيكوف: "يا للشيطان! ما هذا؟ هل هذا كوبي؟ ما هذا؟".

" تريد أن تشرب؟"- سأل أرتيوم، وأخذ، بحركة سريعة الكوب من غاشيدزه الذي بقي فيه بعض الماء، ورش بسرور طبيعي، الماء المغلي على وجه سانيكوف المقرف.

... هكذا بدأ اليوم.

رنّت المفاتيح، فتح الباب، لأخذ الدلو، وبالمناسبة أخذوا عنصر أمن آخر. استعد بسرعة، ولم يمش، وإنّما ركض تقريباً. لم ينظر أحد في أثره.

بعد أن استلقى أرتيوم مكانه، بدأ يسحق بق الفراش بمرح، على أقرب جدار- كانوا جميعهم قد أمتصوا دماً، حيث بقي بعد كلّ واحدة منهم بقعة دموية قذرة على الحائط.

أعطى أرتيوم بق الفراش ألقاب، مكرراً بصوت هادئ: "سانيكوف! إلى أين أنت يا عزيزي! دزيييين! هل تسمع، يناديك الجرس تحت القوس! ديلي ديلي دونغ! يجري تنفيذ حكم العدالة الثورية! إطلاق! تفو، يا له من رجس... التالي! غورشكوف؟ انتباه! الذقن أعلى! أين غطرستك، يا رجل الأمن؟ هذا هو! على رأسك أم في بطنك؟ كما ترغب! من البندقية أم بالمسدس؟ أب! طاخ! لحظة لم يقتل بشكل نهائي.أعد! إطلاق!".

صدر عواء من فوق: " توقف، أيّها الوغد!".

ركل أرتيوم بكلّ قوته المضجع الذي فوقه بقدمه.

...قبل الغداء بقليل، عندما ملّ أرتيوم اللعب وصمت وبدأ يغفو، جلس مويسي سولومونوفيتش جنبه وهمس بسرعة:

"اتفق الجميع على خنقك".

ضحك أرتيوم بدلاً من الإجابة.

اقترب تكاتشوك على الفور منهما، ونظر متجهماً إلى مويسي سولومونوفيتش.

تابع مويسي سولومونوفيتش كما لو أنّه من منتصف الجملة: "... وليس فقط الأنشطة الاقتصادية، كان علي المشاركة في الأنشطة التعليمية. قلّة الذين يعرفون أنّه كان هنا ثماني مدارس، واثنتين وعشرين دورة لمحو الأمية، واثنتي عشرة دورة مهنية، وثماني عشرة مكتبة، بما في ذلك المكتبات المتنقلة. من الذي كان عليه توفير الممتلكات والطعام اللازمين لكلّ ذلك؟ بالطبع مويسي سولومونوفيتش!".

سأل أرتيوم تكاتشوك: "لماذا تقف هنا، يا كيس الحصان؟".

على الرغم من أنّ تكاتشوك فقد من وزنه، إلّا أنّه كان لا يزال أضخم من أرتيوم بمرتين، ومن أيّ شخص آخر في الزنزانة.

"سأريك الآن..." - قال تكاتشوك، دون أن يتحرّك من مكانه على أيّ حال.

خلع مويسي سولومونوفيتش نظارته على عجل مرّة أخرى.

لم ينهض أرتيوم عمداً- وإلّا لكان من الملاحظ جداً أنّه أقصر طول رأسٍ ونصفاً من هذا الحصان.

إلّا أنّ تكاتشوك تمايل - كانت يديه ترتجفان، وهذا ما كان يَعِدُ ببعض السبق.

كان هناك كرسي واحد وطاولة واحدة في الزنزانة، لكن كليهما كانا مثبّتين.

عند الاستماع إلى نفسه، أدرك أرتيوم أنّه لم يكن خائفاً بشكل قاطع.

ولم يحدث شيء: كزّ تكاتشوك على أسنانه، وبصق على الأرض، وابتعد.

قال أرتيوم: "بقي أن تتبول هنا، أيّها الحصان"

- نظر إليه مويسي سولومونوفيتش بعيون متوسلة.

... كان الطعام على الغداء، عصيدة الحنطة السوداء، وفي الوقت نفسه، أعادوا عنصر الأمن المعاقب، الذي أخذوه في الصباح.

تغيرت الحالة المزاجية في الزنزانة على الفور: لم يقتلوه- سمحوا له بالعودة، وإن كان قد عاد محطماً، ومضروباً، وخائفاً، ولسبب ما مبللاً: كأنّهم سكبوا الماء عليه.

تكوّم العائد في الزاوية، وكان يرتجف.

عندما طلب الماء بعد نصف ساعة، أحضروا له على الفور كوباً لم يُشْرَبَ بالكامل.

حاول أن يتحدّث عمّا جرى معه- كان الجميع ينتظر منه على الأقل بعض الأخبار- لكنّ الحديث لم ينجح، تعثّر في بداية محاولته تذكّر التحقيق:

"... صاحوا: لقد أطلقوا النار على جبهته، أطلقوا النار على جبهته! أخرجوا مسدساً- وخزوه في جبهته وصرخوا...".

كان لديه بالفعل خدش ينزّ دماً على جبهته.

اعترف العائد، وهو يتكلّم بسرعة: "قلت لهم كلّ شيء، وهل هناك مجال آخر؟ أعترفت بكلّ شيء. لكن كنت أتّبع التوجيهات، التوجيهات فقط. سؤال: من كان بإمكانه أن يعطي لهم - لهم! - مثل هذه التوجيهات ضدنا؟".

... بكلّ الأحوال طمأن هذا سكان الزنزانة بطريقة ما. إنّ الصراخ "أطلق النار على جبهته!" - وإطلاق النار فعلياً على الجبهة - أشياء مختلفة.

كان أرتيوم بسبب الملل - ومن أجل إزعاج الماشية البشرية - يقيس الزنزانة قطرياً ذهاباً وإياباً. تبيّن أنّ قطرها تسع خطوات. لاحظ في إحدى انعطافاته، أنّ المسار الذي يسير عليه يلمع بشكل مختلف: كانت الأرضية في هذا المكان قد داسها، نفس السجناء المضطربين مثله.

تذكّر أشعار وصلوات، بشكل متداخل، والتي كان يجب أن يعرفها، لكن للأسف، لم يكن يعرفها حتّى النهاية.

"... أعلنت التوبة، في ذلك، وفي هذا اليوم! كما لو أنّ مكان التطهّر عمل داخلي!.. بسرعة لا توصف بالكلمات... اعترفت بنفسي... أمام نفسي...".

... ذهب وعاد في المسار نفسه اثنتي عشرة مرّة، وانتقل بشكل غير محسوس إلى سطور جديدة: لا سيّما أنّ أرتيوم لم يتوب أبداً عن أيّ شيء، ولم يكن لديه هذه المهارة، والكلمات التي كان يتذكرها عن ظهر قلب، لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له.

"... تراءت له، أنّها خرجت في الدائرة مرّة أخرى... كلّ الأرواح الشريرة في تلك القرون من الظلام..." - كان أرتيوم يستدير على كعبيه، وهو يهمس: "الدم يتدفق من بوريس غودونوف... أولئك الذين جرى أسرهم... تتكسّر عواميدهم الفقرية... ".

مشى لبعض الوقت بقيت جملة الأرواح الشريرة عالقة على شفتيه، وهو يسحق كلمة "العواميد الفقرية" مثل السكّر. كان كلّ الوقت ينظر بطرف عينه إلى غورشكوف، ولكن غورشكوف كان مستلقياً وعيناه مغمضتان. وفجأة انتقل

من أبيات الشعر إلى مقاطع مجتزئة ممّا سمعه خلال الصلوات الكنسية التي كان يملّ منها، أم من جداته المتوفيات منذ زمن طويل.

"... الساكن في الأعالي، المسيح الملك... في شغف كثير، لقد جاهدت... خلّصنا بصلواتك، أيّها الملاك المجنّح... كلّ الخلق بخدمتك... لأنّك أنت المخلّص...".

ومرّة أخرى منعطفاً

ومرّة أخرى عن الخلق والخلاص.

استمع مويسي سولومونوفيتش إلى غمغمات أرتيوم، محنياً رأسه، وكان يبدأ أحياناً بتحريك شفتيه، كما لو كان يستعد للمساعدة، والغناء معه، لكنّه لم يكن يعرف هذه الكلمات بالتحديد.

كان السجناء في الزنزانة ينظرون إلى أرتيوم بطرف أعينهم في البداية، متوقعين منه متعة شريرة جديدة، ثمّ اعتادوا.

حتّى أنّ أحدهم قال بصوت مسموع، أملاً في أن يفهمه الآخرون:

" لو كان هناك بطاطس مسلوقة مع البصل".

من أجل أن يهدؤوا بطريقة ما، بدأت الماشية البشرية تدريجياً تتذكّر بالطبع الطعام الذي كانت تتناوله في الأيام الخوالي.

طفت في الزنزانة، الفطائر مع اللحم، وشرائح اللحم، وحساء كييف، والكستليت، والسمك المدخن، وجيلي اللحم والسمك، والأحشاء والأضلاع والغضاريف.

نزل غاشيدزه من مضجعه كأنّما ينزل من جبلٍ حاملاً خاروفاً صغيراً مذبوحاً حديثاً.

"... طهيت حجلة في علبة كان فيها سابقاً سكاكر..."- قال الشخص الذي جرى التصويب إلى جبهته قبل ساعتين: كان لا يزال يمسح الخدش الذي لا يزال ينزف بمنديل متسخ للغاية.

مع أنّ مويسي سولومونوفيتش لم يبدأ الغناء، لكنّه لم يستطع الصبر، بدأ في إخراج نوع من اللحن من خلال أنفه، من فتحة أنفٍ واحدة.

"قاطعه تكاتشوك قائلاً: "أتذكّر، أنّنا كنّا محاصرين في الحرب الإمبريالية. أصيب الحصان بالكسح، وكان ذلك في الشتاء- ذبحناه على الفور هناك. ودفئنا أيادينا في بطنه، وسلخناه، وقسمناه... وكيف سنطبخه؟ ذهبنا إلى الكوخ، إذ أمضينا الليل. تملأ القدر بلحم الحصان، تضعه في الموقد الساخن- يكون في الصباح اللحم المسلوق جاهزاً. إنّه ليفي ورائحته كريهة- لكن إذا ملّحته كثيراً، فإنّه...".

لم يتوقف أرتيوم عن السير في الزنزانة لبعض الوقت، لكنّه نسي أبيات الشعر الممزوجة بالصلوات، حتّى إنّه كان يسمع الأحاديث التي تدور من حوله، ولم يتذكّر كثيراً أنّ عدد الناس الذين أهلكهم هؤلاء المتحدثون خلال حياتهم البشرية القصيرة، لا يقل عن عدد رؤوس الخيل والبقر والضأن.

أصيب أرتيوم بالدوار، إمّا من هذه الأحاديث، وإمّا من المشي الطويل والرتيب، فاستلقى على سريره.

ظهرت فأرة أرتيوم، كما لو أنّها انجذبت للحديث- لقد اعتاد عليها، وجهّز نفسه لمجيئها. سكب في أثناء الغداء، لنفسه عصيدة الحنطة السوداء، وأخفاها في جيب سترته، دون أيّ اشمئزاز: فتّش عنها هناك الآن، وجمعها في قبضته، وقدمها لها مرّة، ثمّ مرّة أخرى، كلي.

تطلّع حوله: كان تكاتشوك ينظر إلى أرتيوم بشكل مباشر، وغير مفهوم - لكن بالتأكيد دون حقد.

ناظراً بتمعن إلى الفأرة، وحركاتها، وإلى عينها السوداء الذكية، تذكّر أرتيوم لسبب ما غالا- أين هي؟ ربّما اعتقلوها هي أيضاً؟ ربّما يضربونها؟،

أجاب أرتيوم على نفسه: "لا. لا. كلّ شيء على ما يرام معها. كنت عرفت".

ليس لأنّها كانت مهمّة بالنسبة له- لم يرغب أرتيوم في تذكّرها، فقد تطايرت مشاعره تجاه غالا مع رياح البحر.

لم يكن أحد ينتظر، ولكن في نفس المساء أخذوا تكاتشوك وغاشيدزه والشخص الذي طها طائر الحجل.

صرخ:"لقد جرى استجوابي اليوم! كم مرّة يجب أن يحققوا معي!".

" تكاتشوك!"- صاح أرتيوم، متوهجاً ومبتسماً بأسلوبه الجديد.

كان تكاتشوك آخر من خرج ببطء- يبدو أنّه كان لا يريد أن ينظر إلى الوراء، لكنّه استدار ضد إرادته. كانت نظرته فارغة تماماً تقريباً- لكنّها ما زالت تبحث عن أيّ أمل.

"أرقد بسلام!"- تمنّى له أرتيوم دون شفقة أم خجل.

انقطع آخر وريد داخل تكاتشوك، ورمش عينيه فقط.

أصبحت الزنزانة فسيحة وجيدة.

لم يعد أحد منهم.

نام، الليلة التالية بعمق، ولم يكن خائفاً على الإطلاق من أن يخنقوه في الليل. كان من الممكن أن يفعلوا ذلك بوجود تكاشوك، ولكن من دونه- من يمكن أن يكون بمقدوره هنا؟..

"... كان هناك شيء مهم، وفي الوقت نفسه مخجل، في الكلمات الأخيرة التي قالها تكاتشوك: حول لحم الحصان الذي جرى طهيه في القدر..." - فكّر أرتيوم، وهو يستيقظ قليلاً. كان هذا أوّل ما فكّر به في الصباح.

شعر أنّه بقي نحو سبع دقائق قبل إعلان الاستيقاظ، وجلب الماء المغلي- سمعت أصوات الحراس في الممر، وطرق الدلو الممتلئ بالحائط.

كان هناك هدوء في الزنزانة، وحتّى لم يسمع شخير أحد.

صرخ أرتيوم من مكانه: "سانيكوف! للاعتراف! للتقرّب! تشهّد! دزييين! سانيكوف، لمن الحديث! يكفي نوماً، لقد أخاطوا كفنك! قلوا طائر الحجل، وذبحوا الضأن، وطهوا الحصان- والآن سيقلون سمكة شقراء".

أيقظ صوت أرتيوم المزعج الجميع في الحال- قفز شخص ما، شتم آخر بشراسة، لكن دون أن يحدد إلى من يتوجه بالشتم، جأر آخر من ألم رهيب في رأسه... بكى سانيكوف. بكى وخدش وجهه بأظافره الطويلة. لم يكن لديه ما يكفي من الهواء، فمزّق قميصه- مرّة واثنتين - وتدلّت القطع الملونة.

نظر أرتيوم إليها باهتمام من الأسفل.

قال:"أخيراً، انتظرت المعاملة بالمثل، بعدما كنت أغازلك مثل طالب في المدرسة الثانوية. مزّق سروالك الآن".

كانت عينا سانيكوف ضخمتين، ومخبولتين بعض الشيء، وكانت رقبته معروقة، وتفاحة آدم كانت كبيرة بشكل غير طبيعي، وخداه غائرتين، وشفتاه رطبتين ودائماً مفتوحتين قليلاً، وأذناه كبيرتين ورقيقتين، وحاجباه لم ينمو عليهما الشعر تقريباً، وجبهته كانت قذرة وغير مستوية - كانت تبدو كما لو التصق عليها الغبار أم الرمل.

فكّر أرتيوم بعيداً: " عندما كان طفلاً، لا بد أنّه كان أجمل طفل- فتى مشاغب، وكبير العينين".

شارك أرتيوم بأفكاره جميع من بالزنزانة برحابة صدر:"كم يبدو الأمر أخرقاً، اسمعوا: جرى تنفيذ الحكم. أنت تنظر، على سبيل المثال، إلى سانيكوف- تحاول أن تجرّب هذه العبارة عليه- حرفياً كما لو أنّك تعقد ربطة عنق حول رقبتك: الحك-ك-ك-كم!.. نف- ف- فّذ،أم...- سانيكوف، هل تسمع؟- الشعور نفسه، كما لو أنّ دودة تزحف على البطن وتمد جسدها الحلقي: جرى تنفيذ الحكم... هل تشعرون، أليس كذك؟".

استمع كلّ من في الزنزانة إلى أرتيوم، كما لو أنّه شراً لا يمكن إسكاته، مثل راديو جرى وضعه في فجوة بالحائط.

"على الرغم من أنّ الأمر يبدو غبياً ومغروراً، بشكل لا يوصف " - تمتم أرتيوم ببطء، وهو يتمطّى بعزوبة مرّة أخرى، ويدلّك صدغيه بيديه القويتين-

"أوّلاً، نفّذ الحكم. كيف نفّذ؟ لماذا حصل ذلك؟ ما هو موقع الرفيق غورشكوف، على سبيل المثال، في هذه الكلمات؟ ثمّ بعد ذلك تصدر كلمات أكثر سخافة: "... نفّذ". التنفيذ- ما هو؟ حانوت ؟ مطعم؟ قاعة مسرح؟ لماذا يجري تنفيذ الحكم هناك؟ هل سيكون هناك طعام؟ بعد أيّ رنّة من الجرس سيسمحون بالدخول إلى القاعة؟ بعد الثالثة أم بعد الأولى مباشرة؟ كيف سيكون العرض المنتظر؟ هل سيعْجب غورشكوف بهذا العرض؟ هل سيقدّر هو ذلك؟ ربّما ليس لديه ذوق موسيقي ولن يفهم شيئاً هل سيغادر غير راضٍ؟ هل سيكتب شكوى؟".

"غرغرينا، سوف يطلقون عليك النار أيضاً"- وعد غورشكوف بصوت مخنوق من فوق.

أخذ أرتيوم شحمة أذنه بإصبعين وأمسك بها: لسبب ما، بهذا الشكل بدأ رأسه يعمل أفضل، ولم يهدأ غضبه.

تابع أرتيوم، كأنّ شيئاً لم يحدث:" سأنقل لوالدة سانيكوف أنّه مات بكرامة. سانيكوف! هل تسمع؟ سأقول لها: لقد أنشدت النشيد الأممي قبل إطلاق النار عليك. وبعد ذلك بضع أناشيد أخرى... كان الإعدام طويلاً، غير متسرّع، ومهيب. ألْقيت الخطب، وقدموا التحية، وسكبوا الماء المغلي. "ماما لقد أنشد سانيكوف أيضاً عن الجرس الرتيب: كانت هذه الأناشيد المفضلة لديه..."، لقد تلقى رصاصته والأغنية على شفتيه... لم يقتلوه من أوّل مرّة، لذلك كان عليهم مواصلة إطلاق النار. ثمّ بعد ذلك طعنوه بحربة في بطنه- خذْ! من أجل قتله نهائياً. لقد مات بشكل جميل".

أمسك سانيكوف بفكه، كأنّه يخشى أن يتقيأ شيئاً مهماً.

" ماذا تفعل..." - قال مويسي سولومونوفيتش الذي حتّى هو لم يستطع تحمله، فنهض ووقف في منتصف الزنزانة ليغطي سانيكوف بنفسه- "لماذا أنت، يا أرتيوم، هكذا؟ أليس لديك قلب؟..".

لقد كان مرتبكاً ومستاءً حقاً.

" اهرب بعيداً!"- أمره أرتيوم غاضباً بشدة، وقام بحركة، كما لو كان سيضرب مويسي سلومونوفيتش بقدمه. اختفى مويسي من أمامه.

... عندما فتح الباب، صمت الجميع، حتّى أرتيوم نفسه. توقف سانيكوف عن النحيب، وشفتاه كانتا ترتعشان فقط.

لقد عرف الجميع عدد الأصوات التي يجب أن تصدر: مفتاح، وقلبتين، وصرير- ويفتح الباب.

فيما لو كانوا يحملون الماء المغلي أم الحساء- يأتي حارسان. أمّا إذا أتوا ليأخذوا أحداً، فعندئذٍ يكونوا ثلاثة - الأقدم ومعه اثنان من الحراس يرافقونه. إذا كانوا سيأخذون أشخاص عدّة، يمكنك أن تسمع أصوات مجموعة كاملة من جنود الجيش الأحمر تقف في الممر، لملاقاتهم.

ظهر في هذه المرّة في المدخل، شخصان يحملان دلواً: زفر الجميع، وعلى الفور توقفت قلوبهم مرّة أخرى، بعد أن بدأت تدق- لقد ظهر ثلاثة حراس آخرين وراءهما مباشرة- كان لدى أقدمهم ورقة في يده.

"انتباه! وقوف! من غورشكوف؟".

كان غورشكوف يقف بالقرب من المدخل ومعه كوب.

أنا أسأل، من منكم؟ - كرّر أقدمهم، وهو ينظر إلى ما وراء غورشكوف الذي تجمد أمامه.

"والماء المغلي؟"- سأل غورشكوف بصوت مخنوق.

خمّن الحارس: "أنت؟ أخرج، لا تحتاج إلى الماء المغلي".

عاد غورشكوف إلى الطاولة المثبّتة، ووضع الكوب الفارغ عليها وبحركة متناسقة للغاية. صدر صوت ضعيف من اصطدام الحديد بالخشب.

استدار غورشكوف وقال بصوت عالٍ:

"نعم، نحن نعرف كلّ شيء عنهم جميعاً. كوريلكو، وغاشيدزه، وكوتشيرافا - إنّهم محتالون وحثالة. تكاتشوك - عنصر الأمن الذي عوقب بسبب ارتكاب مخالفات، وبقي بعد انقضاء حكمه يعمل في المعسكر، إنّه سادي وحثالة أيضاً. أمّا أنا؟ أنا بلشفي، وشيوعي، وعضو في الحزب منذ عام ١٩١٨، أنا شاركت في الحرب - كيف يجرؤون؟ خذوني إلى نوغتيف، أنا آمركم. في الحال!". على ما يبدوا، كان يحتاج لشهود على هذا الكلام: لقد قرّر بوجود الشهود سيبدو أكثر إقناعاً.

"أمرك"- قال الأقدم بينهم بابتسامة ساخرة، ولوّح بإصبعه التي عليها أثار التبغ أمام قبعته.

غورشكوف الذي لم يكن يستوعب أي شيء، أومأ برأسه وخرج.

وقف الجميع بلا حراك لدقيقة: ربّما عادوا من أجل أحد آخر.

كان أرتيوم مبتهجاً ومحتداً في داخله.

لم يشعر تقريباً، بأيّ شيء ثقيل وانتقامي الآن: على العكس من ذلك، كان مليئاً بالخفة والفرح.

أخذ كوباً لشخص ما من الذين إقتادوهم من الزنزانة أمس، وذهب لملْئه أه بالماء المغلي - أفسح الواقفون في الدور على الفور.

بعد أن شرب قليلاً، ودون أن ينظر إلى الوراء، سأل أرتيوم بلطف مفتعل:

"سانيكوف! هل ترى كيف تسير الأمور بسرعة؟ يجري تنظيف المسدس من أجلك الآن. اسمح لي أن أحمّمك كما ينبغي. من سيغسّلك هناك: سيتم دفعك إلى الخندق وأنت قذر جداً، وكلّك مخاط. هل هذا جيد؟".

رمى الكوب مباشرة في الدلو، وذهب أرتيوم إلى مضجع سانيكوف.

ضغط سانيكوف نفسه على الحائط. لم يجد كلمة للإجابة، كشّر عن أنيابه وأصبح يشبه الحيوان.

قال أرتيوم، وهو ينظر في فم قارع الجرس: "أوه، يا لها من أسنان جيدة. وسَيُمْلأ هذا الفم غداً بالتراب".

على الرغم من أنّ سانيكوف كان ينام مرتدياً قميصاً فقط، إلّا أنّه، وعلى الرغم من ذلك، كانت تفوح منه رائحة حادّة ونفاذة: كما لو كان يخفي بيضة فاسدة في سرواله أم خلف خده.

انتفض فجأة- لم يفهم أرتيوم في البداية معنى هذه الحركة: اتضح أنّ هذه العاهة، كانت تنهض على هذا النحو.

قفز سانيكوف من السرير، واندفع إلى الباب، وهو يصرخ ويطلب المساعدة.

على الرغم من أنّ كلّ شيء كان يجري بشكل محموم وبجنون، تمكن أرتيوم من التفكير بغضب مفرح: "... وجد ممّن يطلب الحماية!".

في الطريق، أوقع سانيكوف الدلو، وانسكب ما تبقى فيه من الماء المغلي على الأرضية.

ركضت فأرة على الماء المسكوب على الأرض. وتركت وراءها أثراً مبللاً.

لم يظهر أحد على صوت الضجيج.

كان سانيكوف يعوي عند الباب مثل رجل دون مأوى ومتروك. كان ظهره يرتجف.

كان أرتيوم يطلق الآن على عناصر الأمن جيرانه في الزنزانة "جثث". صباح الخير أيتها الجثّث. يا جثة، ابتعد عن الطريق. أيّتها الجثّة، قم عن الحوض، كم من الوقت تحتاج. أيّتها الجثّة، لا تقف عند النافذة، بكلّ الأحوال لن تستنشق ما يكفي قبل الموت. يا جثّة أنت تحجب الشمس عني.

كان أرتيوم طوال صباح اليوم التالي، يسير في زنزانته، يصدر قرقعة طارقاً صحن بصحن أحياناً بإيقاع وأحياناً أخرى بشكل فوضوي- بقي هناك أطباق،

بعد جميع الذين اقتادوهم للإعدام، وخلال ذلك كان يتمتم بشيء حزين، كما لو كان يودّع سانيكوف في رحلته الأخيرة.

كان مويسي سولومونوفيتش أوّل من لم يتحمّل ذلك، وتوسّل إليه :

" توقف يا أرتيوم، أتوسّل إليك".

أجاب أرتيوم باقتضاب: "أخرس".

أوضح، بعد تفكير:

" طلب مني الشباب، إقامة حفل تأبين لهم بطريقة إنسانية".

صمت مويسي سولومونوفيتش لبعض الوقت، وهو يغمض عينيه بشدّة، ممّا جعل حاجبيه يبدوان أكثر كثافة، وانزلقت نظارته إلى طرف أنفه المسامي، كما لو كان دائماً مزيّتاً.

ثمّ سأل: " أيّ شباب ؟".

"طلب أفاناس، على سبيل المثال"- أجاب أرتيوم، قاطعاً لثانية صوته الممدود "دون- دون"، والذي كان يعزفه على الصحون.

يبدو أنّ مويسي سولومونوفيتش لم يفهم أيّ شيء، و نظر فقط إلى أرتيوم مرّات عدّة - أوّلاً من فوق نظارته، ثمّ دون نظارة، ثمّ من خلال النظارة.

كان سانيكوف مستلقياً ووجهه إلى الحائط، وطوى رجليه، ووضع رأسه بين يديه، كما لو كان قد مات بالفعل.

ظهر عند منتصف النهار "فريق الجنازة"، كما بدأ أرتيوم يسميهم الآن.

كان الشيء المزعج، أنّ الأقدم فيهم كان جندي الجيش الأحمر الذي رفض أرتيوم أن يعطيه سترته قبل أيام قليلة- والذي بسبب ذلك، وعد بقتله، لا بطريقة جيدة، ولكن بطريقة سيئة.

ابتلع أرتيوم لعابه الذي جفّ على الفور، وطلب: "لا. من فضلك، لا". وبقي واقفاً والصحون في يديه.

" وقوف! سانيكوف!" - صاح القادم، ولم يول أيّ اهتمام لا لأرتيوم ولا لصحونه.

"هو!"- أشار سانيكوف الذي كان يقف جنب مضجعه ، منحنياً كأنّه مكسور، بإصبعه إلى أرتيوم فجأة: " هذا سانيكوف!".

لم يفهم أرتيوم، للوهلة الأولى أيّ شيء، نظر حوله- ثمّ ضحك وصفق بالصحون، كما لو كان يستعد للرقص. متى توقف هذه الكوميديا اللعينة.

"ما أسمك ؟"- سأل جندي الجيش الأحمر أرتيوم.

"إيفان" - أجاب أرتيوم على الفور بحماقة، مستمتعاً بكلّ ما يجري.

"ما هذا الإيفان، يا شيطان؟ - لعن جندي الجيش الأحمر.

" ميتيا".

"أيّ ميتيا ، بحق الجحيم ؟"

" أليوشا".

خطا جندي الجيش الأحمر نحو أرتيوم: "ابن آوى، سأقتلك! من أنت؟ ما كنيتك؟".

" أنا إنسان روسي. أرتيوم غورياينوف".

صرخ جندي الجيش الأحمر: "الآن سأقتل الجميع هنا في الزنزانة. أين سانيكوف؟"- وشدّ على بندقيته التي على كتفه- "بالمناسبة كانت البندقية مع حربة".

دفعوا سانيكوف، زملاؤه أنفسهم - عناصر الأمن المعاقبون، ذو الوجوه السوداء والعيون المحترقة مثل الكحول.

تقدم سانيكوف خطوة لا إرادية نحو الباب، وجلس على الفور دون سبب واضح. أمسكه جندي الجيش الأحمر من شعره وجرّه إلى الخارج. صرخ سانيكوف.

انتظر أرتيوم نصف دقيقة، ثمّ قفز على الطاولة، دافعاً بقدمه كوب غورشكوف الذي كان هناك لليوم الثاني، وانحنى على النافذة. أراد أن يرى مرّة أخرى - كيف يقودون السجين.

ظلّ أرتيوم يكرّر كأنّه أصيب بالهبل: "خفير مع بندقية. مويسي سولومونوفيتش، هل تعرف أنّهم يسمون البندقية هنا "شمعة". وضعوا الشمعة خا- خا. كان سيعجب أفاناسييف بذلك. تمتّع يا أفاناس. هناك عدالة. توجد عدالة".

أخذوا قبل الغداء، ما تبقى من عناصر الأمن المعاقبين. لم يستمتع أرتيوم بخروجهم: لقد سئم من ذلك. تشييع كلّ واحد منهم - هو شرف عظيم.

عندما أغلقوا الباب فقط، جلس على المضجع، وهو يدق بقدميه على الأرضية ببطء.

لقد بقي هو ومويسي سولومونوفيتش بمفردهما.

جلسا بعضهما مقابل بعضٍ لدقيقة، وهما ينظران بصمت في عيون بعضهما بعضٍ. ولم يقولا أيّ شيء.

في أثناء الغداء، سأل مويسي سولومونوفيتش الحارس شيئاً ما بصوت هامس، فأجاب الحارس بشكل غير متوقع، بل وحتّى بلطف- لم يكن الجواب قصيراً، وإنّما مع بعض التفاصيل.

لقد أحضروا الحساء، إن لم يكن لعشرة أشخاص، فبالتأكيد لستة أشخاص - على الرغم من أنّ أرتيوم، لم يكن يرغب حقاً في تناول الطعام في الأيام الأولى من وضعه في هذه الزنزانة، وبقي على هذه الحال. كان شبعاً بشيء آخر.

ملأ القصعة بالحساء، ثمّ سكب منها في الكوب مباشرة- مثل حساء السمك. مضغ نصف قطعة خبز، وجلس ينتظر الفأرة.

ركض آخرون على الأرضية من وقت لآخر، لكن لم تأت صديقته ذات البطن البارز ألكبير.

كان مويسي سولومونوفيتش، كما اتضح، يخاف كثيراً الجرذان، وعندما رآهم، كان يتحرّك في الزنزانة قافزاً.

غير قادر على تحمّل الصمت الذي ساد الزنزانة، قال:

"إنّ سلوكك بشكل عام، مقزّز ومثير للاشمئزاز. لكن يمكنني إلّا أن أثمّن قدرتك على التحمّل. بدا لي أحياناً أنّك بلا عقل، يا أرتيوم، أمّا الآن، فأنا أدرك أنّك لست كذلك. لكنّي أريد أن أخبرك بشيء آخر. إنّنا نعرف بعضنا البعض منذ فترة طويلة، ولا يسعني إلّا أن أشاركك ما أعرفه... اللجنة تغادر اليوم... لقد جمعوا أغراضهم. اليوم أم صباح الغد. لكن على الأرجح اليوم. لقد جرى بالفعل إطلاق النار على جميع جيراننا. فرغت الزنزانة المجاورة- أقصى حدٍّ، ليلة واحدة- يبقى لدينا... أمل. انظر كيف جرى كلّ شيء؟".

قال أرتيوم وغمز بعينه لمويسي سولومونوفيتش: "سننجو، بالطبع"، وفكّر رغم ذلك أنّ مويسي من النوع اللطيف، وكان يغنّي جيداً.

ابتسم مويسي سولومونوفيتش: لقد عبّرت عيناه ضعيفتي النظر، بطريقة ما ، عن إعجابه الكبير بهذا الشاب الذي يتمتع بصحة جيدة لا تتلائم مع هذا المكان.

طلب مويسي سولومونوفيتش:"ربّما، في هذه الحالة ستكف عن العزف على الصحون؟".

استيقظ أرتيوم في ساعة مبكرة بشكل غير مسبوق، حتّى إنّه لم يفكّر في أنّه- نجا، وصمد، وتعداه الأمر!- كان متأكداً بالفعل من ذلك، كان لا يزال هناك ظلام بالخارج، وكانت هناك فوق عتبة الباب لمبة قذرة تضيء، وكان هناك شيء ما يوصوص ويتحرّك تحت المضجع. نظر إلى الأسفل وعلى الفور ارتدّ خائفاً: كان هناك حضانة كاملة من الجرذان تتقلّب.

لعن أرتيوم صديقته بقلبه: "يا لك من حمقاء! ولدت وقدمتهم لنيل للإعجاب؟ حقيرة بذنب!".

تقلّب مويسي سولومونوفيتش، وصرخ بصوت ضعيف:

"ماذا؟ ماذا حدث؟".

قال أرتيوم: "نمْ، أنا لا أتحدّث معك- لقد غادرت اللجنة، ستعيش الآن إلى الأبد".

بعد أن تخلّص من الاشمئزاز، نظر مرّة أخرى تحت المضجع: نعم، هذه فأرته، هي- لقد نحفت كثيراً، ولديها- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة- فئران.

وقفت الفأرة ، عندما رأت أرتيوم ، على رجليها الخلفيتين.

قال أرتيوم: "فهمت، فهمت- تتعامل معي كخطيب لها. لقد استعدّيت البارحة".

كان على المضجع الأعلى الخالي، صحن مليء بالحساء، مع كثرة من فتات الخبز، ومغطاة بصحن أخر. أنزل أرتيوم ببطء وبحذر صحن الضيافة إلى الأسفل، ووضعه على مسافة قريبة من الفأرة.

وبعد أن انتظر أن تبدأ الفأرة بالأكل- بدأ الصحن في الزحف على الأرضية، كان الصوت مزعجاً، ولكن لسبب ما مهدئ - بدأ أرتيوم يغفو.

لقد خمّن من صوت الحفيف، أنّ مويسي سولومونوفيتش قد ارتدى نظارته وبدأ ينظر إلى الفأرة، وهو يعاني من نوع نادر من الاشمئزاز.

فكّر أرتيوم:" أكل غورشكوف من نفس الصحن أمس، أم متى، أوّل أمس،، حشا خديه الضيقين اللذين شحبا لأوّل مرّة فقط عندما قادوه من هنا، والآن تأكل الفأرة من الصحن نفسه: يوجد عدالة في ذلك، ربّما الله موجود في ذلك".

كان الحلم الذي لم يغادر أرتيوم أكثر حلاوة.

حدث شيء رائع آخر في ذلك الصباح: لم يوقظوهما الساعة السادسة صباحاً.

استعدّ أرتيوم بالفعل للاستيقاظ، وهو يتخلّص من الحلم، كما لو كان من شبكة شمسية حارّة، وأوضح لنفسه: يعود الإنسان إلى داخلي- لم أتحوّل إلى

وحشٍ. ربّما، لأنّنا أنقذنا الغريبين، ولم ندعهما يموتان- أنقذ العمل الصالح روحي، وروحي بين الزهور الآن، وتدغدغها الجنادب.

كانت الفأرة حاضرة في الحلم أيضاً، بطريقة ما، إلى جانب صغارها الفئران- اتضح أنّ أرتيوم وغالينا أنقذا الفأرة أيضاً وجلبوها معهم على القارب. ومن ثمّ، بناء على هذه الحقيقة، فإنّ توم وماري كانا يأكلان حالياً الحساء تحت مضجعه- وهو أمر يجافي الحقيقة إلى حدٍّ ما، مع أنّ ذلك هو شأنهما، هذا شأنهما. الشيء المهم أن الجميع يستمتعون بالدفء: أرتيوم، والفأرة، وتوم وزوجته، أم صديقته، أم خطيبته...

لم يكد يستيقظ قبل الغداء مباشرة، شاعراً بنفسه أصغر سنّاً- كما لو أنّه لم يكن وراء ظهره معسكر اعتقال، وكما لو أنّه لم يمت كل من كان يعرفهم تقريباً هنا.

أحضروا وجبة غداء رائعة: عصيدة الدخن مع الزبدة. كانت تفوح من العصيدة رائحة نوع ما من اللحم.

شعر أرتيوم أخيراً، بمدى جوعه في الأيام الأخيرة. من الصعب التعبير عن ما حصل لمويسي سولومونوفيتش- لقد كاد أن يرقص: لقد ألهمته رائحة العصيدة بشكل غير عادي.

صبّ كلٌّ منهما لنفسه صحنين- لم يمانع الحارس الذي تبادل الغمزات مع مويسي سولومونوفيتش، وبمجرّد إغلاق الباب، أعلن مويسي، وهو لا يزال يحمل الصحنين في راحة يده، فاتحاً عينيه الكبيرتين بطبيعتهما:

" أرتيوم! أرتيوم! غادرت اللجنة! رتّبت الأمور، وغادرت! استأنف الرفيق نوغتيف مهامه من جديد! نأمل أنّنا سنعود للعمل قريباً! هل لديك مهارات تقنية أم محاسبية؟ كنت لأخذك! ما رأيك؟".

لم يكن هناك ما يخفيه أرتيوم : فرح أيضاً- الهاجس شيء- والأخبار التي نقلها الحارس شيء آخر. الحارس أكثر موثوقية من أيّ ملاك.

" يوجد إله، سنأكل، يوجد إله، سنأكل " - كرّر أرتيوم ذلك بسرعة، وهو يحرّك العصيدة.

رأى فجأة لحماً في قاع الصحن: قطعة مدهنة ضخمة، وليست من نوع اللحوم المعلبة، الشيطان يعرف ما هو هذا اللحم، ربّما لحم عجل، أم حتّى لحم خنزير!

أوه، يا له من يوم.

التقط أرتيوم قطعة اللحم في الملعقة وأراد التباهي أمام مويسي سولومونوفيتش: أنظر، تمتّع بهذا. يوجد إله، يوجد، قدّر عطائه، مقابل الصبر والعذاب.

غير قادر على الصبر أكثر، أمسك القطعة بأسنانه. وأدرك على الفور أنّه حجر ساقط متكّون من بعر الجرذان.

فتح فمه - سقط كلّ شيء منه في كتلة رطبة. مسح لسانه بكفه لفترة طويلة.

لم يقل لمويسي سولومونوفيتش أيّ شيء: لماذا تفسد غداء الشخص؟

في هذه الأثناء، كان هناك شيء غير مفهوم يختمر في صدره: يبدو أنّه كان يجب أن يتقيأ الآن. تشنج صدره - كان أرتيوم قد فتح فمه بالفعل: يا للجحيم، على الأرضية، ليكن على الأرضية، ليس لدي وقت لأصل إلى الحوض، لا أبالي- لكنّه فهم أنّه ينتحب.

ينتحب وينتحب، ورأسه يرتجف ويرتعش، وصدغاه يضغطان من الداخل.

قفز مويسي سولومونوفيتش في البداية، ولكن أدرك فيما بعد، بشكل ما، من الأفضل عدم الاقتراب، وجلس في مكانه.

كان أرتيوم يتلوّى وينتفض، تشبث بالمضجع بكلّ قوته. كان هناك شيء ينفجر في صدره ويوجعه، وينزف قلبه دماً مريضاً.

انتهت النوبة بعد خمس أم سبع دقائق.

مسح أرتيوم، الذي كان لا يزال يرتجف من التوتر، وجهه: اهدأ، اهدأ، اهدأ.

... عندما أنزل يديه الضعيفتين على ركبتيه، خمّن على الفور من كفيه: لم تكن هناك دمعة واحدة على وجهه.

بصق بعد عشر دقائق، على الأرض، وهمس:

"حسناً، لا شيء، يا إلهي، لا شيء. أنا لست غاضباً منك. وأنت لا تغضب منّي. أنا قدّرت مزحتك. آمل أن تقدّر مزحي".

لم يعد أرتيوم يهتم لصوت القفل: لقد مرّ الشيء الرهيب، والباقي سيمر، وسيبقى البعر على أسنانك فقط.

أخذوا مويسي سولومونوفيتش مع أغراضه، وأعلن مباشرة أنّه ذاهب إذ توجد سريته.

تعانقا عند الوداع.

ظلّ مويسي سولومونوفيتش يقول: "فكّر، فكّر، سأجد لك عملاً، إذا فكّرت بما يمكنك القيام به".

أصبحت الزنزانة فارغة تماماً.

تساءل أرتيوم: "بأيّ شيء مهم يجب أن أفكّر أخيراً؟".

شعر أرتيوم الآن فقط، عندما أصبح وحيداً، برائحة مقززة هنا: لم يخرجوا حوض البراز اليوم - بقي يتعفّن منذ يوم أمس. لقد أطلقوا النار على الناس ودفنوهم في الأرض الجليدية، ويتعفّن وسخهم هنا، يمكن القول، في الدفء.

"ربّما هذا هو أهم شيء؟" - تساءل أرتيوم.

ومع ذلك فقد تغلّب عليه الإنهاك.

جرى استجواب أرتيوم وغالا معاً.

لم تؤخذ شهادتهما على محمل الجد.

استمر الاستجواب قرابة الساعة، وبدا أنّ اثنين من عناصر الأمن، على الأرجح على معرفة جيدة بغالا، لا يعرفان كيف ينهيان هذه القضية. من ناحية، هناك نوع من القصة السيئة والمربكة، ومن ناحية أخرى- صديقة إيخمانيس السابقة: كان الجميع هنا على علم بذلك.

ربّما، في وقت من الأوقات، كان هذان العنصران، يعجبان بمشية غالا، لكن الآن أنقلب كلّ شيء على هذا النحو.

لم يطرحا الكثير من الأسئلة على أرتيوم- السبب الذي من أجله حكم عليه بالسجن، وسبب احتجازه في زنزانة العزل على جبل سيكيرنايا، وما الذي يتذكره من المنهاج المدرسي، فيما يخص الجغرافيا والعلوم الطبيعية، وما إذا كان لديه مهارات تقنية- ولكن بشكل عام، ظهر لديه شعور، حسب ما فهم عناصر الأمن، إنّ غالا أخذته معها ككلب- وعن ماذا يمكن أن تسأل الكلاب؟

جرى كلّ شيء في مكتب قسم المعلومات والتحقيقات نفسه. إذ جرى استجواب أرتيوم في المرّة الأخيرة. كان لا يزال هناك منفضة سجائر مليئة بأعقاب السجائر على رفّ النافذة. من غير المحتمل أن تكون قد بقيت هناك منذ رحيل اللجنة- لكن لسبب ما كان أرتيوم يحب أن يعتقد، أنّه لن يجرؤ أحد هنا على التخلص من أعقاب سجائر الضيوف الذين قدموا من العاصمة: ربّما يعودون فجأة.

بدت غالا منزعجة، وأكبر سناً، ومترهلة- امرأة غير مرتّبة، ليست شابة. لكنّها كانت تتصرف ليس دون كرامة: لقد رحلت اللجنة- من سيقتلها الآن، من سيمسّها. لن يحدث لها أيّ شيء: على هذا الأساس كانت تتصرّف.

كان أرتيوم نادراً ما ينظر إلى غالا ويفكّر، لم يصدّق تقريباً إنّه كان معها، إنّها نوع من النزوة، نوع من الهراء... وحتّى لو أنّه كان يهذي، فحينها لم تكن زوجة له ولا أخته، ولكن... عابرة.

لم تنظر غالا إلى أرتيوم على الإطلاق. وفعلت الشيء الصحيح: لماذا يجب أن تنظر إليه.

"... لقد سمعت، وفهمت " - غضّن عنصر الأمن الشاب، متطلعاً إمّا إلى غالا، وإمّا إلى زميله، ولم ينظر إلى أرتيوم قطّ - " أوضحي لي شيئاً واحداً، لماذا ذهبت مع السجين الذي كما فهمنا لا يعرف الكثير عن النباتات أم الحيوانات...".

"لقد عمل في محميّة الثعالب. عمل مع إيخمانيس. لقد كانت لدي أسباب للثقة به. لا يمكن أن أخذ أيّ كان معي"- كرّرت غالا، وهي تنظر إلى النافذة الصغيرة، إذ كان يتساقط الثلج، بشكل غير مريح ، في شمس ما قبل الشتاء الخافتة.

بدت كأنّها منزعجة من مخاطبتها بـ "أنت".

وضعتْ أوراق غالا على طاولة عنصر الأمن لذي يطرح الأسئلة، والخريطة التي كانت تستخدمها، مع الملاحظات التي كتبتها بيدها، والدفاتر التي أخذتها من الأجانبيين.

"من الصعب التخلّص من الشبهات، أنّك أردت الهرب..."

- قال عنصر الأمن بعد لحظة صمت، وهو يرفع عينيه عن الخريطة.

إنّ أكثر ما كان يريده، هو أن تبدد غالا نفسها شكوكه.

قالت غالا بصوت منخفض: "أنت بليد، بغض النظر. اكتشفنا جاسوسين- احتجزناهما وأحضرناهما إلى المعسكر. لو كنّا نريد الهروب- فلماذا أتينا بهما إلى هنا؟ كنّا واصلنا الهروب! أتصل بإخمانيس، في نهاية الأمر! سيقول لكم كلّ شيء عنّي".

متجاهلاً اقتراح الاتصال بإيخمانيس، تمايل عنصر الأمن على كرسيه، وقال:

"لا يزال يتعيّن، أن نعرف إذا كانا جاسوسين حقاً أم لا ".

أجابت غالينا، وهي تتغضن وكأنّها تعاني من صداع نصفي:" تأكد من ذلك. وتوقف عن تضييع وقتي في مثل هذه... الأحاديث. لقد جرى استجوابي من قبل اللجنة. هل لديك سبب يدعو للشك بعدم جودة عمل أعضائها؟ أم في نزعتهم الإنسانية المفرطة؟".

نظر عنصرا الأمن بعضهما إلى بعض. ابتسم أحدهما. وتغضّن الآخر.

صدرت ضوضاء في غرفة السكرتارية المجاورة: نهض أحد ما، على الأرجح السكرتير عن كرسيه بحدّة- قعقع الكرسي، واهتزت الأشياء كلّها على المنضدة.

دخل عليهم رئيس المعسكر نوغتيف. كانت نظرته ثقيلة وفي عينيه - كما لو أنّه رشّ بهما رملاً: غائمتان وغير مستقرتين.

إنّه ببساطة لم ير أرتيوم.

" ماذا تقول هذه الحقيرة هنا؟" - سأل نوغتيف، دون أن يتوجه إلى أحد ما بشكل شخصي، اقترب من الطاولة، والتقط ورقة ما، ورماها على الفور.

أجاب شخصان في الوقت نفسه: غالا نفسها وواحد من عنصري الأمن.

قال عنصر الأمن، على عجل، وهو ينهض عن كرسيه: "إنّها تؤكد ما قالته: إنّها كانت تضع الخرائط، وتشير إلى إيخمانيس".

قالت غالا ببطء: "أنا مقاتلة في الجيش الأحمر".

ارتجف فك نوغتيف.

قال دون أن ينظر إلى غالا، وهو يغادر المكتب: "ثلاث سنوات لهذه الكلبة". ثمّ تذكّر شيئاً، وتوقف عند الباب، حتّى إنّه مبتهجٌ قليلاً، وقال:" بين أوراق بورتسيف، تقرير من الفهد، أنّها عاشرت سجين... على السطح مباشرة! معك؟ - وحوّل عينيه المليئتين بالرمل المتحرّك إلى أرتيوم.

تبيّن أنه رآه مع ذلك.

قال أرتيوم: "لا"، وهو يشعر أنّ جدار سولوفكي الضخم ينهار عليه، ولم يكن هناك من مفر. لم يسمع مثل هذا الصوت لديه من قبل - كان صوت شخص له الحق في أن يقول كلمة واحدة فقط ، لكن هذه الكلمة لم تعد تغيّر شيئاً.

" لا فرق هنا أنت أم غيرك" - ضحك نوغتيف، وأظهر أسناناً بيضاء بشكل مدهش وقوية جداً - "بكلّ الأحول ستموت هنا، يا بن آوى".

قالت غالا، وهي تنهض: "ما هذا الكابوس لديكم هنا. سأكتب إلى فيدور. ماذا يحدث؟".

كلّ عبارة نطقتها تمزقت وسقطت.

فهم أرتيوم: "إنّ ما يهمها نفسها فقط...". لم يعد يجري الحديث عنه.

على الرغم من أنّهم لم يعلنوا عن وفاته بعد. لم يقولوا عنه أيّ شيء بعد.

كرّر نوغتيف، دون أن ينظر إلى غالا: " الحكم عليها ثلاث سنوات، "بسبب غيابها دون إذن". دعها تفرح، لأنّنا لن نحقق في عهرها، وإلّا لكنّا قد نقبنا...". وغادر.

اصطدم الباب بالإطار وصرّ مرتداً إلى الخلف، وبقي نصف مفتوح.

اقترب السكرتير ببطء- استمع الجميع لسبب ما إلى هذه الخطوات- وأغلق الباب بإحكام. على ما يبدو كان هذا عمله اليومي الدائم، على الأغلب.

جلست غالا منهكة على الكرسي، وبدأت تعض شفتيها: لم تصدق ما حصل معها.

نظر عنصرا الأمن الشباب بعضهما إلى بعضٍ، مرّة أخرى: لم يستطع أرتيوم تخمين، معنى هذه النظرة المتبادلة.

"ستعاقبون جميعاً على هذا، هل تفهمون؟"- قالت غالا بصوت لا يكاد يسمع، وكأنّ صوتها قد اختفى فجأة.

"اللجنة الإدارية للمخيم، لها الحق في إصدار أحكام بنفسها، أنت تعرفين ذلك، يا غالينا"- قال عنصر الأمن الجالس وراء الطاولة، دون أن ينظر في عينيها. حينما كانت مساوية له تقريباً- كان يخاطبها "أنت". يبدو نقلها السريع من موظفة في المعسكر إلى عداد السجناء، كما لو أنّ ذلك قد رفعها بالنسبة لعنصر الأمن، إذ بدأ يتوجه إليها بلغة الجمع "أنتم"... أم، بشكل أدق، أبعدها عنه.

"أصدر نوغتيف أمراً غير قانوني، وستأتي لجنة إلى هنا، ولن يحصل له شيء مرّة أخرى، أمّا أنتما فسيتم دفنكما في جبل سيكيرنايا "- قالت غالا، وهي تلتقط أنفاسها، وعند لفظ سيكيرنايا عاد إليها صوتها المعتاد، ورنّ تقريباً.

نظر عنصر الأمن الواقف، دون أن يقول كلمة واحدة حتّى الآن، إلى غالينا لفترة طويلة، وأجاب بتجرّد وتثاقل:

"ليست هناك حاجة لتخويف أيّ شخص هنا. وإلّا ستكونين أوّل من ستصلين إلى سيكيرنايا".

نظرت غالا إلى أرتيوم فجأة: ضعيفة، كامرأة، وبوضوح : كان الأمر غير متوقع: "هل ما يحدث حقيقة ؟"- هكذا كانت تقول نظرتها.

" ماذا بشأن هذا؟" - سأل عنصر الأمن الجالس وراء الطاولة، مومئاً برأسه إلى أرتيوم.

شعر أرتيوم أنّ الدم يحوم في رأسه- بشكل سخيف، وعاصف مثل الثلج خارج النافذة، لكنّه حار وحار فقط.

قرّر عنصر الأمن الثاني، متباطئاً قليلاً:

" قالوا: لها ثلاث سنوات - فلنضف له ثلاث سنوات أخرى".

دخّن سيجارة بكلّ سرور. كانت أعقاب سجائرهما على رفّ النافذة.

أصبح كلّ شيء في وجه أرتيوم صغيراً: عيون صغيرة، لا تنظر بشكل مباشرة قطّ، شفاه رقيقتين لا تستعجلا الابتسام. حركة الوجه مجهولة، محيت. ليس مريضاً كثيراً، وليس شخصاً يتمتع بصحة جيدة.

ظهرت لديه عادة غريبة، تتمثل في عدم إظهار جسده العاري: العنق، والصدر، واليدين - اليدين في جيوبه دائماً أم في القفازات القديمة، إذا كان يعمل.

لا يظْهر أسنانه أيضاً.

الكلمات التي ينطقها- نادرة، وقصيرة، مثل أغلفة الحلوى- ليس لها أيّ وزن، لا يمكنك التقاط أيّ كلمة: تهب الريح، وتختفي هذه الكلمة.

من أفضل دون كلمات على الإطلاق.

أيّ حركة له سريعة، لكنّها غير محسوسة، ليس لها علاقة مباشرة بأيّ غرض أم فعل: لنقل أنّه يأكل- لكنّه الآن لا يأكل، ولا يجلس إذ يجلس بشكل عام. يبدو أنّه يخيّط - لكن الإبرة والخيط لم يعودا في يديه، واختفى هو نفسه، كما لو كان قد جرى سحبه من الخيط، وترك.

لا توجد إيماءات.

دائماً ما يكون غير حليق قليلاً، لكن ليس إلى حدّ أن تكون له لحية. غير مغسول قليلاً، ولكن ليس إلى حدّ تصدر منه رائحة كريهة - لا توجد رائحة.

هو مستعد للسرقة، وفي ظروف أخرى يسلب الطعام - ولكن عند رؤية الطعام، لن يظهر موقفه تجاهه قطّ.

إذا عرضت عليه امرأة عاهرة، أن يقف في الدور لمجامعتها - يمكنه أن يوافق، لكن في أيّ لحظة أخرى، لا يشعر بأيّ شيء تجاه النساء ولا ينظر إليهنّ عند مرور سريّة النساء.

لم يعد يقسّم الناس إلى أشرار وصالحين. ينقسم الناس إلى خطرين وآخرين. وليس لديه أيّة مشاعر تجاه أيّ منهما. الناس - هم ناس، لا توجد أيّة أسئلة تجاههم.

يمكنه أن يبتسم لرؤسائه، ويمكنه دفع أيذً منهم إلى فجوة في الجليد، والانتظار حتّى يغرق.

لم يحسب الأيام المتبقية لنهاية حكمه قطّ، فهو مشبع بأيام حياته السابقة. لكنّه لا يتذكّر تلك الحياة أيضاً.

الذاكرة - مثل الزكام، تجعل الرأس يطن والعينين تدمعان.

قطعت حياته بمجرفة مثل الدودة: يعيش جزئها الأخير المتبقي بمفرده. لا تطلب طفولته العودة للوراء.

العالم ما وراء صخور سولوفكي غير معروف له، وفيما لو حلم بالحرية، كانت ستشبه البحر الخريفي الجليدي - لم يكن يوجد للحرية حدود، ولا شفقة، كانت عارية وفارغة.

قال الكاهن إيوان: "السماوات هي نفسها، سواء في السجن أم في الحرية". لكن أرتيوم، فيما لو فكّر في الأمر، كان سيجد كلماته غير ضرورية ولن تشرح شيئاً.

لم يعد موجوداً الكاهن إيوان أيضاً - لأنّه لا يوجد شيءغير موجود أمام عينيه.

كان الأب زينوفي موجوداً، منذ وقت قريب.

لمحه أرتيوم ، كان يقول لنوغتيف:

"ألم تكفك الخيانات التي ارتكبتها - تريد قتل المسيح من جديد. فالجندي الذي طعنته في جنبه بحربة - قديس. والجيش الأحمر إذا ما نظرنا إليه، يريد أن يكون قديساً".

أجاب نوغتيف:

" أحم".

سخر زينوفي، سخر نوغتيف.

لكن نوغتيف سخر بشكل أكثر موثوقية، لأنّه جرى نقل زينوفي مرّة أخرى إلى زنزانة العقاب على جبل سيكيرنايا. يوجد دائماً الكثير ممّن يرغبون في الذهاب إلى هناك، شيء ما يجذبهم هناك، فهم مثل الأطفال.

يرسم السجناء على أجسادهم أشكالاً مختلفة – صلبان، وجماجم، وقباب، ونقوش سيئة عن عناصر الأمن. ما الذي يمكن أن يكون أكثر غباء من هذا العمل غير المرتّب: أن ترسم على جسدك. يمكنك خياطة علبة حديد على ساقك، وتمشي هكذا - فلماذا لا، إذا كان من الممكن أن ترسم أشكالاً على ظهرك.

يبحث السجناء عن الحماية، والمرح، والصداقة، والتحدث، والتسلية، والدفء. هناك حاجة حقيقية، من بين كلّ هذه القائمة، للدفء فقط. حتّى من أجل الوساطة يجب أن تحاسب.

سريته حالياً الرابعة عشرة - المحظورة : جرى جمع الأشخاص الذين يميلون إلى الهروب فيها. ممنوع عليهم مغادرة الدير.

لكلّ شيء وقته.

أفضل مكان، في الظل، وأفضل عمل- في الليل: في الليل، يكون الأشخاص الخطرون أكثر إرهاقاً، والحراس أغبى ويرون أقل. في الليل من السهل أن تضيع بين الآخرين لا تميّز نفسك عن جارك.

من الأفضل عدم التفكير، وعدم التذكّر في الليل أيضاً.

لقد أرسل كرابين من جزيرة الثعالب أغراضه- كانت بينهم وسادة أمه.

شعر بشيء إنساني تجاه هذه الوسادة، اخترق قلبه- وسرعان ما استبدلها بشكل مربح.

كان يقرأ الصحف التي تصل إلى المعسكر، كأخبار من العالم الآخر، الذي لا وجود له في الطبيعة، ولكن تأتي من هناك أخبار.

لم يكن أحد يعرف اسمه في السريّة تقريباً: سمعوا كنيته في أثناء التفقد، وهذا يكفي.

تصرّف أرتيوم، كما لو أنّه ليس له اسم. هو - مواطن سولوفكي.

وصلت الدفعة الأخيرة من السجناء، على متن آخر سفينة خريفية في هذا العام.

كان بينهم الكثير الذين لم تعركهم الحياة بعد، والمتصابون، والسليطون، الذين يبتسمون بشكل أحمق، والخائفون بغباء - كانوا خائفين، وللتغلب على الخوف، كانوا يسألون أولئك الذين، في رأيهم، يمكن أن يجيبوا عن تساؤلاتهم.

اقترب أحدهم من أرتيوم في الفناء بالقرب من الكشك، لقد ميّزه بطريقة ما، أم ربّما سأل الجميع على التوالي، وراكم الإجابات.

سأل: كيف؟.

نظر أرتيوم جانباً. تنفس بعمق وزفر. أومأ برأسه بمعنى: وداعاً.

كان يمكنه الإجابة: هكذا.

إذا كان بالتفصيل، فعلى الشكل التالي.

يوجد إله، لكنّه لا يحتاج إلى إيماننا. إنّه مثل الهواء. فهل يحتاج الهواء لنؤمن به؟.

أمّا ما الذي نحتاج إليه نحن - هذا سؤال آخر.

فيما بعد سيقولون، أنّه كان هنا جحيم. وهنا كانت حياة.

الموت- هو مثل الحياة أيضاً: عليك أن تعيش لتفهم هذه الفكرة، فلن تفهمها فوراً.

أمّا الجحيم - فهو مجرّد شكل من أشكال الحياة، ليس هناك ما يخيف.

لكنّه لم يقل أيّ شيء، هزّ كتفيه، وأومأ برأسه إلى شيلكاتشوف- جاء شيلكاتشوف إلى الكشك من أجل أن يشتري ورقاً وقلماً رصاصاً، فهو يجب أن يشرح كلّ شيء.

اشترى أرتيوم لنفسه كوباً من الحليب، وشرب ببطء- واقفاً ليس وجهاً لوجه أمام الناس، إذ يمكنهم أن يتفحصوا وجهه، ولا ظهره إليهم- يمكنهم دفعه بالظهر، ولكن بشكل جانبي.

كانت تسقط في الحليب ندف ثلجية نادرة.

عاد إلى موقع سريته، واستلقى على مضجعه، لم يكن مضجعه في الأسفل وليس في الأعلى، وإنّما في المنتصف.

قلب أرتيوم بقلب سترته من فرو الفقمة من الداخل إلى الخارج، وخيّط عليها بعض الخرق- فأصبح شكلها غير جميل، وهو ما كان مطلوباً. على الأقل لن يطمع بها جنود الجيش الأحمر. لم يخلعها قطّ، حتّى في السريّة. ونام فيها أيضاً.

على نفس السفينة المسمّاة "غليب بوكي"، أعادوا أوسيب ترويانسكي إلى المعسكر.

لقد اختفى، وكان لا بدّ من البحث عنه في البر الرئيسي، واعتقاله.

وبمناسبة تمكّنهم من اعتقال ترويانسكي، جمعوا السريّة الرابعة عشرة- بما في ذلك قسم النساء المحظورات، وكان هناك عدد غير قليل منهم.

انتهى شهر تشرين الثاني.

وقف السجناء مقابل بعضهم البعض.

جرى جمع سريّة الرجال في صفين، وقسم النساء - في صفٍّ واحد، ووقف الرجال والنساء - حسب الطول.

رسمتْ مداخن مصانع، وطائرة، ونجمة حمراء مؤخراً، على جدار كتدرائية التجلي. وفوق ذلك كلّه علقوا لافتة عليها شعار: "يعيش العمل الحر والمبهج!".

كان أرتيوم يتطلّع إلى الطائرة، في البداية.

فكّر: "طائرة".

ثمّ رأى غالا.

قصّت غالا شعرها. كانت دون قبعة.

قال أحدهم لأرتيوم: " سينمو الشعر، خلال ثلاث سنوات، وسيصبح كما كان من قبل. كما لو لم يكن هناك شيء".

أومأت برأسها إليه.

لم يجب أرتيوم، من أجل ماذا. رمش فقط. بكلّ الأحوال، لن تفهم ما إذا كان قد أجاب عليها أم لا، فهي تقف في الجانب الآخر من الساحة.

... وقفوا مدّة طويلة - تكّون على رأس غالا منديل من الثلج، لم تلاحظ ذلك.

كانت المحظورات تتحدثن ويضحكن في الصف، لكن لم تتحدث أيّة منهنّ مع غالا: يبدو أنّهنّ كنّا يتعاملن معها بفتور وبشكل سيئ.

كانت ترتدي جزمة مطاطية خرقاء وقذرة. لم يراها أرتيوم بمثل هذه الجزمة، في أيّ وقت من الأوقات. على الرغم من أنّ بعض النساء المحظورات كنّ يرتدين ملابس جيدة، حتّى جزماً عصرية، بكعوب عالية - كان من السهل فهم كلّ شيء، على أيّ حال: الكثير منهن عملن في الإسطبلات، رعاية خيول عناصر الأمن، وكذلك خدمن عناصر الأمن أيضاً.

وقف تروويانسكي بعد أربعة أشخاص على يمين أرتيوم. لكن أرتيوم كان يقف في الصف الثاني، أمّا تروويانسكي ففي الصف الأوّل. ظهرت العديد

من الخدوش على وجهه: تعرّض على الأرجح للضرب عند وصوله - على شرف عودته.

كان ترويانسكي محدودباً، وكانت ذراعيه محنيتين بغرابة من المرفقين- كما لو أنّهما لا يستقيمان. كان ترويانسكي بهذه الأيدي، يشبه الطائر. طارت جميع الطيور من هنا، لكنّه طار هو إلى هنا.

بعد أكثر من ساعة ظهر نوغتيف أخيراً يبدو مخموراً، يمشي بتثاقل، كما لو كان محشوّاً رملاً رطباً، لكن بحزم.

صاح السجناء بإيقاع واحد: "مرحبا!". كان معظم السجناء الموجودين هنا من ذوي الخبرة، ولم يعودوا يريدون الوقوف في الفناء.

بدأت عملية التفقد بشكل غير متوقع، قُرِءَ تقرير موجز على السجناء، وعن عمل اللجنة بإزالة الانتهاكات التي ارتكبتها إدارة المعسكر.

عدد الذين اتخذت إجراءات تأديبية بحقهم كذا... عدد الذين حرموا من وظائفهم ، وجرى نقلهم إلى السرايا العاملة كذا... عدد الذين حكم عليهم بالإعدام كذا.

تهيّب سجناء سريّة الحجر وتجهمت الوجوه. بدت الأرقام قاسية وشائكة، مثل الحديد.

قال أحدهم كان يقف أمام أرتيوم، بصوت منخفض: "أتمنّى أن يجري مثل هذا التفقد كلّ يوم".

لم يعجب أرتيوم أن تقال مثل هذه الكلمات قربه: ربّما فكروا أنّه هو الذي يقول ذلك.

بعد ذلك أعْلن أمر إلغاء الارتداء الحر للملابس: يعْتمد من الآن فصاعداً، زيّاً موحداً، لجميع السجناء.

كان نوغتيف وهو يستمع، كيف تقرأ أوامره، يدير رأسه ببطء ويتطلع إلى السجناء. كان يرتدي قبعة ومعطف وجزمة. كانت كلّها متناسقة مع جسمه.

الأمر الثالث كان يتعلق بإخراج جميع سكان الدير السابقين، الرهبان والعمال من الدير. سيجري نقلهم خلال رحلة العودة، إلى البر الرئيسي للمشاركة الكاملة في حياة وبناء الجمهورية السوفييتية.

وجاء في الأمر الرابع، أنّه وبسبب المخالفات العديدة للنظام القائم، وقلّة مؤشرات الأداء العالي في العمل، فلن يكون هناك إفراج مبكّر عن سجناء هذا العام. يجب مع بداية الملاحة الربيعية، أن يحقق سجناء معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، نتائج جديرة بالاهتمام. كلّ من يستحق التشجيع، بما في ذلك في شكل عفو، سيتم تشجيعه وسيجري العفو عنه.

عند هذه الكلمات، ترنّح نوغتيف قليلاً- وبدا أنّ هذه الحركة أيقظته. حرّك فكيه، وسار فجأة على طول الصفوف.

صمت عنصر الأمن الذي كان يقرأ الأوامر، على الفور.

"انضباط!"- قال نوغتيف. بدا صوته قوياً وكثيفاً، كما لو كان من لحم- لم يكن مهمّاً ما يقوله في مثل هذا الصوت- بدت أيّة كلمة يقولها لها وزنها- "الانضباط مطلوب منا!".

وصل رئيس المعسكر إلى المكان الذي كان يقف فيه ترويانسكي، وتوقف. بحث ووجد المطلوب.

أعلن نوغتيف: "أنّ السجين أوسيب ترويانسكي قد أرسل في مهمّة عمل حرة، دون حراسة، كعالم مختص. كان يحتاج للقيام بعمل علمي ضروري، والعودة في عيد السابع من تشرين الثاني، يوم الثورة. قام أوسيب ترويانسكي بمحاولة للهروب. جرى إرسال مجموعة خاصّة وراءه. واعتقل أوسيب ترويانسكي".

كان نوغتيف يدق كلّ كلمة في ترويانسكي، مثل مسمار في بلاطة. كان المسمار ينحني.

شعر أرتيوم أنّ أسنانه الأمامية تؤلمه، كما لو كان يمسك بشيء صلب بأسنانه.

"أعْلن عند مغادرة السجين أوسيب ترويانسكي، أنّه في حالة لم يظهر خلال الفترة المحددة، فسيتم إطلاق النار على واحد من كلّ عشرة في السريّة"- كان نوغتيف يلفظ كلماته الثقيلة بملل - "على إدارة المعسكر أن تفي بوعدها".

لوّح نوغتيف بيده القوية في الهواء: نفذوا. كان يرتدي قفازاً بيده.

ركض اثنان من عناصر الأمن- أحدهما بتردد شديد، وقف بالقرب من قسم النساء، كما لو أنّه عرض عليه أن يختار زوجة لنفسه، وذهب الآخر، إلى صفّ الرجال، يعدّ الناس الذين تجمدوا تحسباً.

بعد بضع ثوان، وخز عنصر الأمن الأوّل بإصبعه المرأة العاشرة وابتعد عنها على الفور، وواصل. صرخت المرأة كما لو أنّه جرى رفع طرف ثوبها- وتحت الطرف معلّق طفلها المختبئ بالحبل السري.

كان عنصر الأمن، الذي يسير على طول صفّ الرجال، قد أخطأ، وبدأ العد من جديد.

رأى أرتيوم الأشخاص الذين وقعت عليهم الأرقام "٧" و "٨" و "٩" قد ذابوا، وأنّ الشخص الذي أدرك رقمه أصبح أبيضاً، لدرجة لا يمكن تمييزه عن الثلج الذي على خده.

وصل عنصر الأمن الأوّل إلى نهاية صفّ النساء، ووخز بإصبعه غالا التي كانت تقف قبل الأخيرة.

فكّر أرتيوم بشكل منفصل: "كم هي صغيرة...".

أدرك- " هي كذلك لأنّها ترتدي جزمة دون كعب".

فكّر أرتيوم بسرعة أكثر وأكثر: "لكن لو كانت ترتدي حذاءً بكعبٍ- لكانوا عدّوا بشكل مختلف".

ودفع قلبه الدم المتجمد.

كان كل من يقف بجانبه يعدّ بشكل محموم، أولئك الذين يقفون على يمينه: لم يكن الأمر صعباً، لكنّ الجميع كان يخطئ، ويعيدوا العدّ من جديد، وأعينهم تتراكض: تتقافز حدقات عيونهم من مكان إلى آخر.

كانت غالا تقف أمام صفّها مرتبكة كطفلة. وكانت المرأة الثانية المحكوم عليها بالموت تعوي بصوت منخفض.

اقتلعوا أحدهم من صفّ الرجال - مثل السن.

بدا أولئك الذين وقفوا أبعد بقليل، كأنّهم أصبحوا أخفّ وزناً- فقد اكتسبت أرواحهم ثقل الحرير، والزغب.

تسمّر جميع الذين كلنوا يقفون بالقرب من أرتيوم، كما لو أنّ أرواحهم انتفخت مسبقاً، وتشرّبت بالدم، وعلقت مثل كيس من الحجارة.

أخطأ عنصر الأمن العدّ مرّة أخرى: لم يستطع أن يفهم بأيّ شكل من الأشكال ما إذا كان عليه أن يحسب ترويانسكي أم لا. وماذا عن قادة الفصائل؟ وماذا عن قادة المجموعات؟ نظر إلى نوغتيف، لكنّه لم يجرؤ على سؤاله- كان قائد المعسكر ينظر إلى مكان ما في الأسفل، إلى الحجر التي تحت قدمه، ويؤرجح جسده الضخم قليلاً. كانت جزمته تعبس متثاقلة، مثل الحيّة المفترسة، عند طياتها.

بدأ عنصر الأمن في عدّ الجميع على التوالي.

قاس أرتيوم مصيره بعينيه مرّة أخرى: كان تعداده الثامن عشر. أمّا العشرون، فكان زميله القديم زاخار، كان يقف بجانبه، وقد فهم بالفعل كلّ شيء منذ محاولة العدّ التالية.

"هذا أنا"- زفر مع أنفاسه الساخنة ما قبل الأخيرة في الثلج بالقرب من وجهه- " هذا أنا، يا إلهي. نعم ما هذا. هذا أنا".

رفع أرتيوم عينيه ونظر إلى غالا.

نظرت غالا حولها كما لو كانت عمياء، وحركت أصابعها، وكأنّها تريد أن تلمس الهواء المجاور لها، وتخجل من فعل ذلك، وحيدة تماماً، كما لو كانت على طوف جليدي. بدا رأسها أشيب.

أمر أرتيوم زاخار فجأة: " قف مكاني، هل تسمع؟ ستبقى حياً".

تبادل زاخار معه، دون أن يستوعب أيّ شيء، الأماكن بإذعان، وشبك يديه كقفل، وحدّق بعينين مجنونتين في الذي يعدّ، من أجل أن يقرأ على شفتيه العدد "الثامن عشر" المنقذ، أم "الثامن" - انطلاقاً من الرقم الذي بدأ به عنصر الأمن عدّ العشرة الجدد.

"أنت!" - أمر الجندي واخزاً أرتيوم بإصبعه.

افترق السجناء فاسحي المجال لأرتيوم باحترام، بشكل لم يفعلوا مثله من قبل.

تقدّم إلى الأمام.

ارتعشت غالا، وأبصرت: رأته.

"... ما هذا الاقتصاص الخارج عن القانون!" - صرخ ترويانسكي، كما لو أنّه بصق كمّامة من فمه فجأة- " ما هذا الاقتصاص الخارج عن القانون؟" - كرّر مرّة أخرى بزعقة: جملتان يجب أن تساويا أكثر من واحدة.

"الحراس اصطفاف!" - أمر نوغتيف، صارخاً أعلى من ترويانسكي بسهولة.

لم يجر من قبل تنفيذ عمليات إعدام في الفناء، ولكن بعد عمل اللجنة هنا- لم يكن هناك ما يدعو للدهشة.

اصطف جنود الجيش الأحمر مسرعين، وهم يخبطون بجزمهم.

سحبوا اثني عشر شخصاً آخر من صفي الرجال، وهم في عجلة من أمرهم - كان هذا مثيراً للاشمئزاز حتّى بالنسبة لهم.

ظلّ ترويانسكي يصرخ، حتّى وصل إليه عنصر الأمن الثاني الذي كان يقف دون عمل الآن، بعد أن عدّ النساء منذ فترة طويلة، وضربه على أسنانه بعقب مسدسه.

أغلق ترويانسكي فمه بقوة، وسقط على ركبتيه.

ظهر تعبير بطيء، زجاجي، شبه مخمور، على وجوه جنود الجيش الأحمر، وهي سمة من سمات الناس الذين يستعدون لقتل نوعهم. ضغط بعضهم على بنادقهم بإحكام. كانت أصابعهم المعوجّة رطبة من ذوبان الثلج.

ابتسم أرتيوم لغالا.

نظرت غالا في عينيه وتنفست من فمها المفتوح.

تذكّر أرتيوم هذا الفم، وأنفاسه الدافئة والأنثوية المستحيلة.

يبدو أنّ نوغتيف قد سئم من المهزلة التي رتّبها، وفجأة انفجر بالضحك.

بعد أن شبع ضحكاً، غادر الفناء نحو البوابة.

"اذهبوا إلى العمل، يا بنات آوى!" - أعطى الأمر، ورفع رأسه إلى مكان ما في السماء، كما لو كان قد خاطب الملائكة.

نظر عناصر الأمن بتردد إلى ظهر نوغتيف. لكن كلّ شيء كان واضحاً.

فُضّ الاجتماع.

الخاتمة

أعطاني رقم هاتف ابنة فيودور إيفانوفيتش إيخمانيس، عقيد متقاعد من أمن الدولة، قارئ الصحف الوطنية، والديماغوجي المليء بالكرامة الشخصية وبأهميته الزائفة- ومع ذلك، شخص لا يخلو من اللطف، ومضياف، ويحب شرب الخمر. في مرحلة ما، يصبح العسكريون السابقون، والممثلون الكوميديون كبار السن متشابهين. هناك شيء من ذلك، أليس كذلك؟.

عرض العقيد صوراً لأطفاله. واقترح لعب الشطرنج. كنت اختلس النظر إلى المكان الذي يضع فيه قطعه: كانت آخر مرّة لعبتُ فيها الشطرنج، قبل عشرين عاماً، شعرت بالخجل من الخسارة، رغم أنّه بشكل عام كان ذلك من العبث...

خسرت بشكل حاسم، ومنحته الفرح.

"كأس كونياك آخر؟".

فقط لا تغرم بالمبارزة، أيّها الرفيق العقيد.

استشهد ببعض معارفه، وأشار بعينيه نحو الأعلى، ثمّ إلى الأسفل، ثمّ إلى الجانب، كما لو كان قد عمل منظّم سماوي، خلال عمله السابق. تحدّث بشكل سيئ، عن زملائه في المناصب الرفيعة، الذين بقوا بطريقة أم أخرى في السلطة، على الرغم من أنّه، بشكل عام، لم يحدد. تهكّم بشأن المعارضة- بدا أنّه يعرف عن كلّ شخص الشيء الذي لا يعرفه إلّا المطّلعون، لكن كان من الواضح أنّه لم يكن يفهم أيّ شيء عن الموضوع الذي طرحه- كان يسمع وراء كلّ كلمة فقط: لو أنّه هو قام بكل ذلك، لا جماعتكم المهرجون والمرتبكون، لكان الأمر...

لم يكن ليستطع فعل أيّ شيء من هذا القبيل، تحت أيّ ظرف من الظروف، كما لو كان قد جرى، في وقت من الأوقات، قطع العضو المسؤول لديه، عن اتخاذ قراراته الخاصّة، والمتعارضة بعضها مع بعضٍ بالطول والعرض.

(جرح أنيق، ست قطب، شفي منذ زمن طويل، لا يمكن العثور بأيّة عدسة مكبرة، أين كان هذا العضو موجود. يمكن النقر بمطرقة- والاستماع وتحديد المكان الفارغ تماماً داخل الجسم القوي (يساعد بستان الخضار في الحفاظ على اللياقة). ولكن من أجل ذلك، كان هناك حاجة إلى قصّة أخرى- وليس كما هي حالتي: لقد قدّمت نفسي على أنّني صحفي، وليس معالجاً بالتدليك.)

لم يكن العقيد يعيش، حياة باذخة، بشكل عام. تنظر إلى الأطفال الذين في الصور (أطفال مثل أي أطفال، جرى تغذيتهم منذ طفولتهم)، فهمت تقريباً ما يمثله منزله الريفي- شيء مضحك، يعيش في مثل هذا المنازل الآن، طابق واحد أعلى وطابق آخر أسفل في العمق، سائقوا الضباط الذين رتبتهم التي يمكن أن يترفعوا إليها لا تتجاوز رائد- السقف.

حاولت إحصاء كم عدد هؤلاء العقداء، ماذا يمكنني أن أقول- الجنرالات، أم حتّى الماريشالات، الذين يجلسون ويحرقون الكلمات على قدح من الكونياك، وعلى الطاولة مفرش ملوّن، وساعة فوق مدفأة الحائط، وصورهم الخاصّة مع أوسمة دول تشكّل نصف الكرة الأرضية (بعض هذه البلدان المعيّنة هربت بالفعل من الخارطة، أمّا الأوسمة- ها هي، أكثر ديمومة من بعض الإمبراطوريات)، صورة القائد العام- " كيف لا، نحن في خدمة الدولة "، إيقونة - عليها قديس- يحمل العقيد الاسم نفسه، فقط القديس بلحية، ولكن الشفيع ممتاز، يرى الله- أخرجه أكثر من مرّة من تحت النار"... أتذكّر، في أفغانستان، كانت القوات تنسحب..."، كان كلب الحراسة مربوط في الفناء (ينبح مثل الأحمق، وكان كوخه يقفز من غضبه)... تخيلت، بشكل عام عدد هؤلاء المذلين والمهانين والغاضبين والمعارضين، وأدركت أنّه يمكن استخدامهم جميعاً لاجتياح أيّ قصر شتوي. قم بوضعهم جميعاً في صفٍّ متراصٍّ – سينهار معقل من الرعب، لم يشاهد حتّى الأمريكيون مثله في الأفلام.

... لقد ساعدني في الحصول على رقم الهاتف، ولم أره بعد ذلك، حتّى إنّني لم أشكره. لقد فكّر أن نكتب معاً شيئاً ما - الفكرة من عنده ونحن نقوم بالتنفيذ، لذلك قررت على الفور أنّ الرقم الذي حصلت عليه (لنقل في الجوهر - مجموعة تافهة من الأرقام، والأعمال، أعرفهم جميعاً، رتبتهم ببساطة، بشكل غير صحيح). لا يستحق الشكر.

بالمناسبة، لم يعرف العقيد اسم "إيخمانيس" -على الرغم من أنّ خزانة الكتب في مكتبه المُكتنزة بالأدب المتعلق بالموضوعات ذات الصلة: لماذا سجن، من خرّب، انهيار الحركة السريّة، موت الإمبراطورية، مردة الثورات، الانهيار والبعث، الإنهيار من جديد.

قلت له، من هو - إيخمانيس. توقع العقيد فقط جنسية بطلي. لم يخمّن، لكنّني لم أصحح اعتقاده.

رفعت ابنته سماعة الهاتف على الفور.

لم تسمع باسمي من قبل قطّ، ولم تر أنّ هناك أيّ أسباب تستدعي اللقاء. كانت كنيتها تختلف عن كنيته بالطبع. بدا من صوتها أنّها ليست صغيرة، ولكنّها نشيطة- بدا صوتها يشبه- كما تعلم، عندما تحترق عيدان جافة ويصدر عنها فرقعة صلبة؟ - يشبه ذلك.

"لكن هل هذا والدك؟" - لم أكف عنها، مدركاً بالفعل: لن أحصل على شيء.

"ماذا تريد؟" - سألت هي.

انتظرت، بينما كنت أبحث عن الجواب الذي سقط في حلقي، دون أن تقدّر الغمغمة في حلقي، وضعت السماعة.

اتصلت هي من نفسها، في اليوم التالي: تعال، سأساعدك قدر ما أستطيع، رغم أنّني أستبعد أن أكون مفيدة لك.

لم يكن من الممكن قطّ، أن أخمّن من خلال مظهرها كم عمرها.

أي أنّها وفقاً للحسابات الأكثر مأساوية (ولدت بعد بضعة أشهر من دفن إيخمانيس في حقل تدريب بوتوفسكي) - سنة ميلادها كانت ١٩٣٩.

لكن لا يمكن أن يعتقد المرء أنّها في الخامسة والسبعين من عمرها - قطّ! تبدو امرأة هادئة ومبتسمة في منتصف العمر، في لباس، دون مجوهرات في أصابعها.

إلفيرا فيدوروفنا.

الشقة نظيفة، وهناك الكثير من الأثاث الخشبي، وسجاد جيد على الأرض، وثريا مصنوعة بشكل مصباح كيروسين - كلّ شيء متناسب بعضه مع بعضٍ، على الرغم من عدم وجود شعور أنّ هناك رجلاً يعيش في المنزل أم يزوره. يبدو أنّها تعيش بمفردها. ليس من الواضح حتّى ما إذا كان يأتي ضيوف إلى هنا - فالهواء فارغ جداً.

وضّحت بصدق، ما الذي أقوم به، وأعطيتها بضعة فصول مكتوبة. وضعتْها هي على الطاولة، ومسدتها بيدها بشكل لا إرادي. كانت يدها رفيعة وقوية. وأظافرها نسائية، مشذبة جيداً، غير مطلية أم مطلية بطلاء عديم اللون، لا أفهم كثيراً في هذه الأمور.

"هل بقي لديكي صور له؟" - سألتها، ونظرت إلى الجدران.

لسبب ما، عندما كنت أصعد الدرج، بدا لي أنّه يجب أن تكون هناك صور لأبيها على الجدران: ها هو يجْري التفقد في فناء معسكر سولوفكي، وهنا يسير في الساحة الحمراء، وها هو مع زوجته يضحكان.

لم تكن هناك صور على الجدران قطّ. كان هناك في خزانة الكتب، أدب كلاسيكي: كان تشيخوف آخر كلاسيكي. لم يكن هناك حتّى غوركي. مع ذلك، نعم، كان هناك نابوكوف—نابوكوف الروسي. ربّما كان هناك بونين أيضاً، لكن لم ألحظه.

وقفت، وفتحت باب الخزانة، وأخذت ألبوماً - كان موجوداً في الأعلى، يبدو أنّها جهزته قبل وصولي.

قالت: "يوجد هنا بعض الصور".

إيخمانيس في أثناء الصيد، هذه صورة في سولوفكي - يبتسم فيها، ولسبب ما بشارب، وجميل جداً، وفي كنزة صوفية، دون قبعة، وبجزمة طويلة، وبندقية...

وهذه الصورة في منطقة فايغاتش: تكوين معماري مهيب لوجه جبار- نصفه في الظل، والنصف الآخر في الضوء: حاجب غير واضح، وفتحة أنف لحيوان مفترس، وشفّة سفلية متغطرسة، وعين بياضها بحجم بياض البيضة الكبيرة- كلّ هذا نحته القدر بدقة واجتهاد في رياح جليدية، لقد حاول، ونجح. يشبه إيخمانيس المحقق في القرون الوسطى، لكن ليس بقبعة سوداء، وإنّما في معطف فرو أبيض.

يبدو إيخمانيس بالزي الرسمي، صورة متأخرة، أكبر من عمره، نظرة مستقيمة، وشفتان مستقيمتان، وخط جبين مستقيم.

إيخمانيس وسط مجموعة عسكريين- مع العلم ، يبدو أنّ الجميع هنا عسكريون، حتّى الذين يرتدون ملابس مدنية. ربّما هذا هو غليب بوكي. من الغريب، في الصور السوفييتية المماثلة، واضح دائماً من هو الأعلى رتبة - على الرغم من عدم وجود كتافيات إلى حدّ الآن، ولا يمكن تمييز شكل الشارات. الوقفة، وتعبير العينين، والمكان في المنتصف أم على الطرف - هذه هي العلامات التي تحدد.

"هذا هو مع أمّي "- كلمة "هو" بدت دون عواطف.

حسناً، بهذا المعنى، كان لديه ذوق ممتاز. العينان والرموش والصدر. يليق بهؤلاء النساء الأزواج العسكريين وحفلات الاستقبال.

يبدو خدها حتّى في الصورة، بارد، مثلج تقريباً، وفيما لو اقتربت من مسافة قريبة، يمكنك رؤية شعيرات دقيقة جداً وغير مرئية تقريباً على عظام وجنتيها. إنّك لترغب في أن تطوّق عنقها براحة يدك تزيد قليلاً عن المطلوب (بحيث يستند الإبهام والسبابة إلى قاعدة الجمجمة)، ولا تتركه.

لسبب ما، نظرت حولي، لأرى ما إذا بقي الغرامofون في المنزل.

"هل كانا يعيشان هنا؟" - سألت أنا.

"كانت أمّي تعيش هنا" - أجابت إلفيرا فيدوروفنا.

"هل صحيح أنّها كانت ابنة سجين، وقد وعد فيودور إيفانوفيتش والدها بالعفو الفوري عنه إن هي تزوجته؟".

"أعتقد جرى تلفيق ذلك".

"لكنّها كانت ابنة سجين؟"- لم أتراجع.

سلمتني إلفيرا فيودوروفنا الألبوم، الذي كانت لا تزال تحتفظ به في حضنها، وأجابت بهدوء:

" نعم، كان جدي سجين في سولوفكي. لقد عاش ستة وتسعين عاماً، ولم يتحدث عن ذلك قطّ. لقد مات منذ فترة قريبة..."- ونظرت إلفيرا فيدوروفنا إلى مكان ما في اتجاه المطبخ، كما لو كنت قد تأخرت أربعين دقيقة عن جدّها السولوفي- "كان يشرب الشاي هنا، ثمّ وصل فريق أبيض الجناح، وسحبه معه.

ضجّ صوت أبريق في المطبخ.

سرعان ما قلّبت الألبوم في أثناء غيابها- كانت إلفيرا فيودوروفنا، جميلة في شبابها.

بعد بضع دقائق عادت بصينية: عليها كوبان، ووعاء سكّر فضّي، وشوكولاتة.

"هل ستكتب عن أمّي أيضاً؟"- سألت إلفيرا فيودوروفنا، وهي تضع الصينية على طاولة منخفضة بالقرب من الأريكة.

"عن أمّك؟ لا".

"جيد" - بدت لي أنّها سعيدة حقاً بذلك.

كان لدي الكثير من الأسئلة حول فيودور إيخمانيس، وتذوقت الشاي المغلي بشفتي (لقد صنعت شاياً أسودً ثقيلاً، دون أن تسأل ماذا أفضل)، سألت بعضاً منها: هل تعرف هي، هل تتذكّر، هل التقت هي.

أجابت إلفيرا فيدوروفنا لا سبع مرات. لم ترد أن تغضبني قطّ : فقط - لا.

" يوجد لدي أيضاً القليل من صور الفيديو من الأرشيف. قام بعض معارفي قبل بضع سنوات، بعمل هذ التسجيلات من أجلي، ظنّوا أنّها ستكون ممتعة لي.

" أليست ممتعة بالنسبة لك؟" - تفاجأت أنا.

أجابت بعد وقفة: "لقد رأيتها. لا أعرف ما الذي يجب أن اشعر به وأنا أتطلع فيها".

خطان أبيضان متقاطعان على شاشة سوداء، وعلى الفور ذهب رتل من السجناء المفعمين بالنشاط، وهم يتحركون قافزين تقريباً، إلى مكان ما.

الدواخل الحجرية لدير سولوفكي، ووجوه جنود الجيش الأحمر المنحوتة على عجل، لديهم جميعاً عيون مجنونة، كما لو أنّه جرى اختيارهم، وكان الجميع ينظر إلى الكاميرا.

نوغتيف- فكّان قويّان، يتحدث كما لو أنّه يمضغ لحم حيوان معمّر مليء بالعروق. حاول مرّات عدّة أن يبتسم، لكنّه لا يستطيع الابتسام.

أوه، هذا فيدور إيخمانيس. أنيق، ورقيق. إنّه هادئ للغاية، ولا يرى الكاميرا- على الرغم من السقسقة القوية للكمرة هناك على الأرجح.

" وهذه، على ما أعتقد... هذه غالا" - قلت بصوت مسموع – "غالا، ها أنت. لقد عرفتك".

أصبت بخيبة أمل قليلاً:إنّها خرقاء، ممتلئة الجسم، ليست جذابة إلى هذا الحد كما كنت اعتقد.

على الرغم من أنّ ذلك تصوير، هو تصوير. كان كلّ شيء في الحياة مختلفاً.

نظرت إلفيرا فيودوروفنا إليّ بسرعة.

"هل تعرفين من هي؟ غالينا كوتشيرينكو؟ هل تعرفينها؟" - استعجلت بسؤالها، حتّى أنّ ركبتي لامست الصينية، وانسكب القليل من الشاي من كوبي. شربت هي ثلثي كوبها.

دون أن تجيب، نظرت إلفيرا فيدوروفنا إلى الشاشة، وقمت أنا أيضاً بتحويل نظري عنها: نوغتيف من جديد، إيخمانيس مرّة أخرى... ثمّ لم يعرضوه بعد ذلك، قضبان سكة حديد فقط، وعوارض فقط، وسفينة "غليب بوكي".

"هل تريد قتل والدي مرّة أخرى؟" - سألتني المضيفة- "عمل ضائع، لن يقوم بأيّ حال".

"لا. ليس قتله "- قلت، دون أن أرفع عيني عن الشاشة: ربّما سيركض أرتيوم غوريانوف، وسيمر بورتسيف على حصان ليطلب عيّنة من الغداء، ويمر شلابوكوفسكي وهو يلوّح بعصاه.

" يا ترى، هل تريدين تبرئته؟ هل لديك... كلمات من أجل ذلك؟"- حوّلت إلفيرا فيدورونا نظرها إليّ، وبطبيعة الحال، التفت إليها: يا إلهي، كانت مستعدة للضحك. إذ لم تفعل ذلك، فهذا بسبب ذوقها الرفيع فقط: النساء اللواتي في مثل سنها لا يليق بهنّ الضحك، لا سيّما في وجود شاب.

"لا أحب السلطة السوفييتية كثيراً "- أجبت وأنا أختار كلماتي ببطء. ببساطة لا يحبها بشكل خاص، ذلك النوع من الناس، الذين عادة يثيرون اشمئزازي".

أومأت برأسها: فهمت.

"هذا يجعلني أتصالح معها"- أكملت أنا.

لم تتفاعل هذه المرّة بأيّ شكل من الأشكال، كما لو أنّ كلّ شيء أصبح واضحاً بالنسبة لها معي.

حان الوقت للمغادرة.

"السؤال الأخير، إذا سمحت. ربّما أخبرتك والدتك. هل كان يتكلّم الفرنسية؟".

" تحدث الألمانية".

"وبالفرنسية؟".

"لا. أعتقد لا".

تودعنا بشكل جاف نوعاً ما، خرجت وذهبت إلى أقرب مقهى. كان هناك كرسي فارغ في الزاوية، وجلست وظهري إلى المدخل، بالطريقة التي أحبها تماماً.

قالت النادلة: "مرحبا". أومأت برأسي مرحّباً.

"هل تعلم لماذا لا أحد يلقي التحية على النادلات؟" - هي سألت. لقد كانت ملاحظة غير متوقعة، لكنّها صحيحة في حالتي.

أجبتها: "آسف، مرحبا".

طلبت الشاي وقليلاً من الفودكا. أشرب الفودكا، وأشرب بعدها الشاي، هذا ليس سيئاً. يمكن شايٌ حلوٌ، أم دون سكر - حسب الذوق هنا.

ذهبت النادلة إلى الطاولات الأخرى، تطلّعت إليها: كانت تستحق عملاً أفضل من نادلة مقهى، لكنّني كنت أفكّر في شيء آخر.

يقدم التاريخ الروسي أمثلة، على درجات مذهلة من الخسّة والدناءة: ومع ذلك، فهي ليست شاذة على خلفية الشعوب الأخرى، على الرغم من أنّ لدينا عادة إقناع الشعوب الأخرى في شذوذنا - وهم يصدقوننا، ربّما هذا هو الشيء الوحيد الذي يصدّقوننا به.

ومع ذلك، إنّنا نختلف عن الآخرين، في أنّنا نعاقب أنفسنا بسرعة كبيرة وبأيدينا - لسنا بحاجة إلى شعوب أخرى في هذا الأمر، على الرغم من حدوث ذلك، فهم يأتون إلينا - في اللحظة التي، لنقل، كسرنا فيها أرجلنا، وقلعنا أعيننا الزرقاء، وهي محتدمة وتنزف، نستلقي، نحرك أيدينا برفق على الأرض.

الشخص الروسي لا يشعر بالأسف على نفسه: هذه هي ميزته الرئيسة. في روسيا كلّ شيء بإذن الله. ليس لديه ما يفعله هنا.

بمجرّد الاستدارة نحونا، متعباً وغاضباً، يرفع يده التي يعاقب بها، ويرى فجأة: ها نحن أنفسنا، نحن أنفسنا فعلنا بنفسنا - خرجت الضلوع، وتدلّت المصران، وكسر مفتوح في سلسلة جبال الأورال، والرأس محطّم، وتزحف على ما تبقى من الوجه حشرات لا حصر لها.

" على الأقل أنت، أيّها الإنسان الروسي لا تتحامق".

لا، هل تسمع، أنا لا أتحامق، لا. أنا أغنّي.

... يجب أن نفكّر بهذه الأشياء، في المقهى بالذات، وفي حالة من السكر طفيف، لأنّه إذا خطر مثل هذا الشيء، لرأس رصين في حقل خريفي، أم بالقرب من الجدران القديمة المدمّرة، أم على شاطئ بحر أبيض من البرد- فليس كلّ شيء على ما يرام لديك.

اتصلت بي إلفيرا فيدوروفنا بعد أسبوع، وعرضت أن أعرج إليها لدقيقة.

حزمت أمتعتي وذهبت إليها: لماذا عليّ أن أخبرها أنّني لا أسكن بالقرب منها، بحيث أعرج إليها.

اعتقدت سيكون هناك ملاحظات على مخطوطتي، لكن لم يكن هناك ملاحظات، قالت بإيجاز:

"قرأتها"- وأضافت بهدوء: "الأمر متروك لك".

كان هناك مصنّف ضخم بما فيه الكفاية، من الأوراق على طاولة الهاتف.

"هذه لك..."- قالت إلفيرا فيودوروفنا - هنا يوميات تلك المرأة التي عرفتها في الصورة في أثناء زيارتك الماضية... كانت في أرشيف والدتي. على ما يبدو، أخذها والدي بطريقة ما وجلبها معه، عندما نقل إلى موسكو. من المستغرب أنّه لم يتخلّص منها. ربّما كان عاطفياً- هذا النوع من الناس غالباً ما يكون عاطفياً... لا أعرف. لقد قرأتها مرّات عدّة في شبابي، تأثرت بها كثيراً. قبل ربع قرن، أعدت قراءتها بحماس أقل، وفكّرت حتّى في نشرها. لكنّني قررت أنّها لا تهمّ الناس كثيراً، وبصفة عامة لا فائدة منها. على الرغم من إنّه، كما فهمت، تعتقد أنت عكس ذلك. خذها: على أيّ حال، يمكن أن تكوم مفيدة لك في عملك.

عندما فتحتها بالفعل وأنا في مدخل البناء- شعرت بالدوار: هذا مستحيل، لا يحدث ذلك، ولا يمكن أن يكون. أوقعت الأوراق من الفرح. جمعت الأوراق المتناثرة على درجات السلّم ، وضحكت.

ملحق

يوميات غالينا كوتشيرينكو

١٧ كانون الأول:

أردت أن أخدع نفسي، وأن أبدأ يومياتي بما يجب أن يقلقني. حول كيفية تصوري، لمسار حياتي ومسار ثورتنا. هذا يقلقني.

لكن رغم ذلك، أريد أن أكتب عن شيء آخر.

أتذكّره باستمرار. منذ الصباح، لم أكد أستيقظ. أتخيل ما يفعله هناك، في منزله الضخم.

إنّه دائماً ما يستيقظ مرحاً، بوجه كما لو أنّه أكل ثلجاً: أسنانه تلمع، وشفتاه حمراوين، وعيناه مبتهجتان.

إنّه مرح لدرجة أنّه لا يهتم بشيء إطلاقاً. سيذهب للصيد اليوم.

٢٠ كانون الأول:

تزلجنا أمس من تلّة على أيقونات متجلدة، انسكب عليها الماء. جاء هو، صاح، والتقط عدد من الأيقونات، وهرع د. (كان هو نفسه قد تزلج للتو) على الفور لأخذها وإيصالها.

أعطاها له ف. وهو يشتم بكلمات غير لائقة، رأيت تلك البقع البيضاء على جلده الذي كان كأنّه متجلّد، والتي أحْبُها كثيراً.

هذا لأنّه منذ بعض الوقت لديه تسلية جديدة - المتحف. على الغالب، تحدّث مع أحد ما من السجناء، الذي شرح له كم يمكن أن يكون سعر أيقونة قديمة، أم أيّ شيء آخر عن الثقافة. لم يكن لدى ف. ما يكفي من الثقافة في

طفولته، فهو يريد أن يكون هناك ثقافة. هذا مضحك أحياناً. أم إنّني ببساطة، غاضبة منه.

يطلقون عليه أحياناً، من وراء ظهره، "إنجلز". فيدور إنجلز، أم حتّى هكذا: إنجيليس. يحاولون عدم إطلاق هذا اللقب عليه بوجودي. الكلّ يعرف كلّ شيء.

(في مساء اليوم نفسه، تذكّرت)

كان ذلك في شهر أيلول.

لم يذهب ف. أنا ذهبت. وجدوا في كاتدرائية التجلّي صندوقين في تجويف مسدود بالطوب في الجدار الجنوبي. كتب على أحدهم " زوسيما"، وعلى الآخر - "سافّاتي". أمر مضحك: مثل البسكويت أم الأثاث. حتّى لا يجري الخلط بينهما.

أحضروا رئيس أساقفة تولا، الأسقف غدوفسكي، وكان هناك الكاهن إيوان، يسمونه هنا،" الأب إيوان". ترأس اللجنة كوغان. فتحوا رفات القديس زوسيما. وضعوها قرب القبر. اتضح أنّها عظام وغبار. كنت أعتقد ذلك. في أثناء فتحها، لم يكن لديّ أدنى شك بذلك.

يسأل كوغان: "هل هذا هو القديس الرئيس؟"- وألقى بمقدمة حذائه الجمجمة على الحائط. لم يكن لـ ف. أيّ علاقة بذلك على الإطلاق.

(في وقت لاحق)

تحب النساء دائماً قراءة رسائل الآخرين، أكثر من الرجال. أصادر كتابات السجناء، وأقرؤها، وكلّ هذا يثيرني، أنا أريد أن أكتب إلى شخص ما مثل ذلك أيضاً. " تعال إلى مستودع الحطب، أيّتها الجميلة. عشيقك المعروف ".

أريد أن أذهب إلى مستودع الحطب. أيّ غباء هذا، أيّتها الجميلة. يجب أن تضبطي نفسك، في نهاية الأمر.

(في وقت لاحق)

سمح ف. للسجناء بما يلي: في حال اشترى الشخص تذكرتين إلى السينما، فعندئذ يمكن إعطاء التذكرة الثانية لإحداهنّ في ثكنة النساء. يجلس في أثناء العرض بجانب صديقته.

يجلسان في معاطف من فرو الغنم أم معاطف من فرو آخر (الجو بارد) ويداعبان أيدي بعضهما بعضاً، تحت الثياب.

لن يرسل لي أحد تذكرة. أنا لست سجينة.

٢٢ كانون الأول:

مرّ الصيف دون أن يشعر به أحد.

أتذكّر في الربيع: لم يكن قد ذاب الثلج بعد، فيما الفراشات في كلّ مكان- الطبيعة في عجلة من أمرها لتلحق تفعل كلّ شيء، الصيف قصير جداً هنا. صيفي أنا- قصير هكذا أيضاً. يجب أن ألحق.

أتذكّر أيضاً، كنت أسير عبر الغابة في الصيف، ورأيت أسروعاً ضخماً- تهيأ لي أنّ طوله يبلغ متراً تقريباً. لقد تصببت عرقاً من الرعب. أراه في أحلامي الآن. ما هذا اليسروع ؟ إلى أين كان يزحف؟ هل نسي أن يصبح فراشة؟.

لقد استدعيت اليوم إيفان ميخائيلوفيتش زايتسيف للاستجواب- إنّه رئيس الأركان السابق لجيش دوتوف.

جنرال الجيش القيصري والأبيض.

قال ف. ذات مرّة: "هل تعرف من قتل دوتوف؟ أنا قتلت دوتوف ".

لقد كان مخموراً ومبتهجاً. سمح بتمرير كفي على وجهه (عادة لا يسمح بذلك).

قتلوا الجنرال دوتوف في الصين، حيث فرّ. هذا كل ما أعرفه.

سألت اليوم زايتسيف قليلاً عن هذا، فأجاب بشكل موزون وببطء شديد، كما لو كان يخشى أن يتعثّر. إنّه لا يعرف تفاصيل مقتل دوتوف. يعرف فقط ، أنّ دوتوف كان تحت حراسة مشددة، وأطلق النار عليه شخص اكتسب ثقته.

على الأرجح، اعتقد زايتسيف أنّني أجمع عنه مواد جديدة، ويخاف. هناك الكثير ممن يستدعون إلى مكتبي، يعطون معنى لكلّ ما يحدث هناك.

وغالباً ما لا يكون هناك أيّ معنى. يحدث غالباً، أنّ لدي مزاجاً سيئاً أم أفكّر في ف. من جديد.

كانت تعذبني طوال الوقت رغبة غبية وبنّاتية تماماً، وهي أن أقول لزايتسيف: "هل تعرف من نظّم مقتل جنرالكم؟"، وأسميه.

الآن أسأل نفسي: لماذا أردت أن أفعل ذلك؟ ربّما يكون الجواب هكذا: أريد أن يشاركني أحد ما شعوري الشديد تجاهه. ليكن ذلك ليس حبّاً (هل لدي حبّ فقط ؟)، ليكن ذلك أيّ شيء، حتّى كره. لكنت شعرت أنّني لست وحيدة.

٢٣ كانون الأول:

شربوا الخمر في الليل مرّة أخرى، وسمعت اسمي من الممر من جديد. إنّهم لا يطرقون بابي فقط لأنّهم يعرفون علاقتي مع ف.

مع العلم لم يكن هناك شيء بيننا منذ شهر. لقد بدأت أعدّ الأيام. لم يكن لذلك أهمية بالنسبة إلي، ولكن يتعيّن عليّ عدّ الأيام. لا سيّما إنّ ذلك يحدث هنا - في كلّ مكان.

كيف يتحوّل بسرعة هنا، مقاتلو وأبطال الجيش الأحمر السابقين، إلى خنازير عاهرة. يجب أن يعيش عناصر الأمن وجنود الجيش الأحمر دائماً، بجانب الموت، بالقرب منه. عندها فقط، تبدأ وجوههم تعكس الضوء الشاحب والاعتزاز بقضية عظيمة. أمّا هنا فقد وقعوا في الفاحشة نتيجة الصفاقة والإفلات من العقاب.

٢٤ كانون الأول:

في الصيف، ليس للزهور رائحة في سولوفكي.

لا توجد رائحة للثلج في الشتاء.

إنّني أشعر بالبرد. أريد الوقوع في الحب. نكاية به.

هو سيسرّ فقط، ها- ها.

ما مدى سخافة ذلك ال "ها- ها" عندما تكون مكتوبة. تتبدو ها. ها. كأنّ عسكرياً يقود طفلاً. العسكري مزنّر بالأحزمة. ويرتدي الطفل الصغير، معطفاً من الفرو طويلاً عليه، لم تكد تبرز ساقاه منه، وللقبعة أذنان.

أريد معطفاً من الفرو، وأن أركض في الساحة الحمراء ليلاً، وهو يلحق بي ويطلب منّي: " قفي يكفي!" يمسك بكمي. أخفي وجهي حتّى لا أرى عينيه، وأضحك. يتساقط الثلج بشكل رتيب، ويذوب على الفور.

من أين أتتني جميع هذه الأفكار؟ ألن يحصل ذلك قطّ ؟.

لماذا إذن كلّ ذلك؟.

٢٥ كانون الأول:

قبل شهر من الآن، قدّمت له حزمة أخرى من المستندات، حول مخالفات موظفي الإشراف والإدارة.

لم يكن هناك أيّ جواب.

رأيته اليوم في الإدارة. كانت الوثائق حجّة بالطبع. لقد أوقفته، كان في عجلة من أمره (هو يمشي دائماً بسرعة، ويسرع الجميع وراءه).

قال : "حتّى يكون كلّ شيء على ما يرام - يجب إطلاق النار على جميع عناصر الأمن. لأنّ جميع الذين أرسلوا إلى هنا- معاقبون، وساديون، وأوغاد، فليس هناك معنى لإعادة تثقيفهم. لكن إذا أطلقت النار على عناصر الأمن هؤلاء، فلن يعطوني آخرين. لذا دع كلّ شيء يسير كما هو".

٣ كانون الثاني:

أحاول أحياناً تهدئة نفسي: لقد حصل الكثير خلال حياتي القصيرة، ما كانت لتتسع له حياة طويلة جداً.

رأيت حلماً في الليل: كنّا مرّة أخرى في قطار تروتسكي، وتعارفنا بالصدفة من جديد في مكتب السكرتارية.

قدّم ف. تقريراً إلى رودولف بيترسون، قائد القطار. كان نحيفاً، لكن السترة الجلدية جعلته يبدو عريض الكتفين، وكانت تليق به كثيراً. كانت تليق بالجميع. عندما رافق (الحراس الذين يرتدون سترات جلدية) ليف دافيدوفيتش ونزلوا جميعاً من القطار، كان النظر إلى ذلك، ممتعاً ورهيباً. ساروا مثل العفاريت السود. تأهب على الفور جنود الجيش الأحمر الذين وقعوا بالفعل في حالة من اللامبالاة، وأكلهم القمل والجوع، على جميع الجبهات، كان هناك حالات إعدام. لكن غفروا للعفاريت كلّ شيء، لأنّهم كانوا يجلبون النصر دائماً.

توجهنا أنا والصحفي أوستينوف الذي ساعدته، إلى بيترسون. كان يحتاج أوستينوف لتوضيح سؤال ما. ناقشا شيئاً ما لفترة وجيزة، وقال رودولف أفغوستوفيتش: "سيرافقكم إيخمانيس".

انتقلنا إلى القطار الثاني، عرض ف. كلّ شيء.

غادر أوستينوف للقاء شخص آخر، أمّا نحن فتحدثنا لأوّل مرّة مع ف.

شعرت على الفور: يمكنني أن أحب هذا الشخص، وأريد أن أحبّه.

العينان- كما لو أنّ في داخلهما رطوبة، لا يمكن أن تسيل قطّ. خط عظام الخدين غير واضح، على الرغم من أنّني كنت أقول عنها "عظام الخد المائلة: كما في أشعار مایاكوفسكي. مائلة بمعنى أنّها مائلة- لقد ميلوها ونحتوها.

لكن ضحك مرّة واحدة، فارتجفت أضواء الفرح في عينيه، كما لو أنّ عشباً أم كومة حشائش قد اشتعلت فيها النيران في مكان ما وراء النهر. هبّت الريح، وطارت الشرارات. نظرت إلى تلك العيون لفترة طويلة، ففهم هو كلّ شيء على الفور. ودعاني للقاء. صرّت سترته. حاول أن يقف دون أن يتحرك: فجأة سيشتت الصرير انتباهي؟.

أنا رفضت. أومأ برأسه، كما لو أنّني رفضت لسبب واضح للغاية، يحترمه هو.

وهنا خرج أوستينوف.

حدث ذلك بعد شهر، ولفترة قصيرة ومشوشة. كنت أمسك بالكم الجلدي، وكانت يدي تنزلق.

كنت أقع وأقع كلّ الوقت، وأردت أن أقع بشكل نهائي.

أنا أتحدث عن الحلم. حلمت كما حدث تماماً، لكن فقط مع بعض التفاصيل الجديدة والمرتبكة وغير الضرورية قطّ. كان بيترسون هذه المرّة يتحدث أكثر، وتحدث أوستينوف أكثر، وتحدّث الجميع، وكنت في داخلي أستعجلهم.

كنت أريد بشدة، أن أعيش ذلك بسرعة من جديد.

أيّ سعادة يمكن أن تحصل، فيما لو عشت الشيء نفسه من جديد.

١٧ كانون الثاني:

كان يستمتع في الصيف بالمسيرات والاستعراضات، وفي الخريف بالمتحف، والآن لا يفكّر سوى في الصيد.

أشعر بالغضب، وأبدأ في كلّ مرّة الانغماس في كل ما يفعله، بشكل لا إرادي. بدا لي كلّ ذلك في الصيف، مهماً للغاية: الاستعراضات، النظام المنضم، الهتافات، مرحبا! مرحبا! مرحبا!. ثمّ كنت على استعداد أن أهتم بالمتحف بنفسي، وكنت استدعي باستمرار، إمّا الفنان براز للاستجواب (كاد يصاب بنوبة قلبية - لم يفهم ما أريده منه بأيّ شكل)، وإمّا بشكل عام أيّ شخص يمكن أن يبدو لي على دراية ومثقفاً. وأخيراً الكهنة: هم أيضاً لم يعرفوا لماذا سألتهم عن قيمة الأيقونات والأواني الكنسية. كنت أريد أن أكون مفيدة ل ف.! وجدت نفسي الآن أفكّر في أنّني أريد الذهاب إلى الصيد، لأنّ الصيد - رائع: شمس وصقيع، قتلوا حيواناً، وهو يرقد على الثلج.

ذهبت إلى المكتبة، بحثت عن شيء ما يخص الصيد، لكنّني تذكرت فقط مشهد الذئب في "الحرب والسلام[1]". قرأتها من جديد، وشعرت بالحزن.

---

(١) رواية الحرب والسلام ليو تولستوي النشر الأول للنص: ١٨٦٥-١٨٦٩. [المترجم].

أتساءل مع من ينام؟.

أين أنا هنا؟.

كنت سأغفر له. أتساءل فقط.

أنا أكذب ، أكذب ، أكذب ، أكذب على نفسي دون خجل.

أطلق ف. شاربه. هل هي طلبت منه ذلك؟.

١٩ كانون الثاني

أعدت، في الصباح، قراءة ملفّي الشخصي، ووجدت نفسي أفكّر، من ناحية، كلّ شيء مفهوم، ومن ناحية أخرى،لا أجد نفسي في أيّ سطر.

كان والدي طالباً. انفصل عن والدتي، عندما كنت في السادسة من عمري. أتذكّر أسنانه السيئة، ولحيته الخفيفة، وسترته السيئة فقط. كنت على استعداد لأعشق والدي. أين هو الآن؟ على الأغلب أنّهم قتلوه في مكان ما.

عشت مع خالتي، في مدينة أوديسا[1]، لعام ونصف العام. كان عمري أربعة عشر عاماً. كانت الجارة في البيت المقابل، تبيع البسكويت والعنب والنبيذ، مباشرة من النافذة، وتصنع بنفسها الآيس كريم.

كنت أذهب مع زوج خالتي إلى البحر. علّمني كيف أنصب الشراع.

كنت أفهم البحر وخرائط البحر قليلاً. كان زوج خالتي حذراً جداً معي دائماً. كنت نحيفة جداً، كان على الغالب، يخشى أن يكسرني، فقد كانت يداه كبيرتين. وتفوح منه رائحة السمك.

لكن البحر- كان البحر مثل السعادة. يكفي صيف واحد فقط، مدى الحياة. كنت اشتري الآيس كريم من الجارة مقابل كوبيك واحد، وكانت تفوح من يدي رائحة السمك أيضاً: هذه هي أوديسا بالنسبة لي.

---

(١) أوديسا: مدينة في أوكرانيا على البحر الأسود. **[**المترجم**]**.

بعد ذلك سافرت إلى بيتر، تزوجت والدتي أخيراً، كانت علاقاتي سيئة مع زوج والدتي، مبتذل، ومدعي فاشل. تخرجت من مدرسة بريوبراجينسكايا عام ١٩١٧. حاولت الالتحاق بالجامعة، قسم العلوم الطبيعة، كنت أتضور جوعاً، وكان حينئذ حبّي الأوّل، والآن لا أتذكره تقريباً، وجدت نفسي أفكّر، في أنّني لم أتذكره لعام كامل. لقد كان حباً كبيراً.

أصبحت "من الحمر"، على الفور. على الأقل هذا ما أفكّر به عن نفسي الآن. كان ذلك في الغالب بسبب اندفاع الشباب، والغضب والاستياء. لأنّني كنت دون أبٍ. وبسبب زوج أمي. لكنّ الكثير منها كان صادقاً.

كانت يانا زميلتي في مدرسة بريوبراجينسكايا، هي الأولى، من بين جميع معارفي، التي عملت إجهاض بسبب المرض، وصلت في آذار عام ١٩١٩. قالت إنّها تعمل كاتبة اختزال في قطار تروتسكي، وقالت إنّ هناك راتباً ضخماً. تحدثت عن الرجال بالطبع. كان كلّ ما قالته مزعجاً، لكن (كان لا يجوز أن أعترف حتّى لنفسي) أنّها كانت تجتذبهم.

وأنا كنت أريد، على أيّ حال، الذهاب إلى الجبهة. إلى جانب ذلك كان هناك جوع.

المشهد الأخير مع الأم: كنّا قد كرهنا بعضنا بعضاً بالفعل.

كان الراتب ما يقرب من ألفي روبل، لم تكذب يانا. لم أرسل المال إلى المنزل ولا مرّة واحدة. كنت أبرّر أنّ البريد لا يجدها. مرضت أمي وماتت. اختفى زوج أمي، ولم أبحث عنه.

عندما تسرد كلّ ذلك، يتبيّن أنّ ذلك كان محزناً وسيئاً. لكنّني كنت في هذه الأثناء صغيرة جداً، وكان هناك دائماً أمل وشعرٌ.

كان ف. يحفظ القصائد عن ظهر قلب، كنت مندهشة جداً. شيء فظيع، مثل سيفيريانين[1]. أعتقد في بعض الأحيان، أنّ ذوقه سيء. لكن لأنّه رجل، يعرف كيف يقدم ذوقه السيئ كما لو كان جيداً.

---

(١) إيغور سيفيريانين شاعر روسي. [المترجم].

على الرغم من أنّني غاضبة مرّة أخرى. هو ذكي. لا أستطيع تحمّل ذلك.

١٤ أذار

شعرت للمرّة الأولى: بالربيع. كم أشتهي أن أعيش الربيع بقوة. لقد أصبح الشباب ملموساً: ما زال موجوداً، ولكن كأنّه وقود، سينتهي.

يمكنني أن أذهب بعيداً بما يكفي بهذا الوقود، لكنّني أقف في مكاني.

ليس لدي أيّ شيء: لا الحب، ولا طفل، ولا والدين.

يوجد فقط ناس أجعلهم يتألمون.

لكنّهم يستحقون ذلك. يكذب الجميع مثل الصغار، ويعتقدون أنّه غير ملاحظ. كلّهم أبرياء. والجميع يكره السلطة السوفييتية. والجميع مستعد لتقبيل جزمتي.

عندما أراهم، أبدأ في حبّ ثورتنا أكثر. إنّها تقف خلف ظهري مثل الحائط.

١٥ آذار

ما جرى يثير الاشمئزاز. يثير الاشمئزاز لأنّ ذلك حصل مع د. إنّه أحمق، ليس لديه عقل، ولا أفكار، لديه غطرسة وغرور فقط. لقد جذبني إليه بذلك.

جاء هو اليوم، وقلت له بحزم: "انس الأمر. إذا وصلتني شائعة واحدة، أنّك أخبرت أياً كان عن ذلك، أنت تعلم ما أستطيع فعله. أنت تعرف ما يمكن أن يفعله ف. عليك أن تفكّر بسلامتك".

اندهش، وغادر بصمت. أحمرّ وجهه، وحتّى أذنيه أصبحتا حمراء من الدهشة. امتلأت عيناه بالكراهية.

٢٩ نيسان

في الليل لم أستطع التحمّل، وذهبت إلى منزله. أدركت فجأة أنّ الحصان يعرف الطريق.

وقفت أنظر إلى النوافذ. كان هناك ضوء في إحداها.

تخيلت كيف لاحظني وخرج وعانقني.

"ما أنت أيّتها الغبية؟ - يقول - لقد انتظرتك طويلاً ".

كذبة، يا لها من كذبة مقرفة.

عدت وأنا أبكي.

نظر جنود الجيش الأحمر عند البوابة بلؤم، كما لو أنّهم يفهمون كلّ شيء. كم سيكون من الجيد إطلاق النار عليهم.

٣ أيار

حدثتني ز. كيف احتفل ف. في عيد الأوّل من أيار. حيوان. لقد توقعت ذلك بالفعل. لقد سمعت إحدى المرّات حديثاً حول ذلك، لكنّني أقنعت نفسي أنّ كل ذلك تهيأ لي.

١٧ أيار

كان ف. يقرأ بشغف، ثمّ توقف تماماً. قال إنّه يحب قراءة الأوامر والمراسيم أكثر من أيّ شيء آخر. يتصنّع لأنّه يستريح هنا، يمكن أن يكتسب وزناً، لكنّ حرارته الداخلية تحرق عواقب ولائمه التي لا تنتهي.

وأيضاً بالطبع، توهجه الذكوري وعربدته في الحمام مع السجينات المناهضات للثورة. نذل، وحقير. أوه، كنت لأقتله. كيف كنت سأنظر في عينيه عندما يسمع: "نفذوا حكم الإعدام ".

(هدأت في مساء اليوم نفسه)

قال ف. فيما بعد ، إنّه مع مرور الوقت، لن يقرأ سوى الجرائد، أم في أسوأ الأحوال، اليوميات والمذكرات. قال إنّ هذا هو الشيء الأكثر صدقاً. أيّ هراء! يوجد أكاذيب في اليوميات والمذكرات كلّها - أكثر بكثير من أيّ رواية.

يظن الكاتب في الرواية أنّه أخفى نفسه، ويظهر في أحد الأبطال، أم في بطلين، أم في ثلاثة أبطال معاً، بكلّ ما هنالك من سفالة، أمّا في اليوميات، فيؤخذ في الحسبان دائماً عند كتابتها أنّها ستقرأ، ولذلك الكاتب (أيّ شخص، على سبيل المثال، أنا)، فيتجهّم، ويمثّل. الحكم من خلال اليوميات - غباء.

لو أنّني كتبت رواية عن ف.، لكنت... سيكون الأمر مختلفاً عمّا هو عليه هنا. أصف الحقيقة هنا فقط - تلك التي أراها. لكن لوصف الحياة- لا تكفي الحقيقة! وفي الحقيقة أنّ الأحداث وتعدادها وحتّى فهمها، لا تغطي سوى جزء صغير جداً، وخارجي ومثير للسخرية من الحياة.

أنت تكتب الحقيقة، لكن يتضح أنّها ليست الحقيقة.

(تذكّرت، أمر مضحك)

استدعيت شلابوكوفسكي، الذي حوكم بقضية " أخوية الفاشيين الروس".

كان شلابوكوفسكي يعرف يسينين جيداً، فهو يعرف كلّ هذه البيئة. استجوبته ساعة كاملة عن يسينين وماريينغوف[1]. لم يستطع أن يفهم اهتمامي بهما، بأيّ شكل من الأشكال، لكنّه تحدث بحذر، ثمّ استرخى، وأصبح يتحدث بإلهام.

فكرت فجأة: هكذا تحدد مصيري، لقد شاءت الصدف أن أكون في قطار تروتسكي، ثمّ هنا، لكن كان من الممكن أن أبقى في موسكو، وكنت تصادقت مع الشعراء، وكنت عشت مع أحدهم. هل كنت خسرت أكثر، أم كسبت المزيد؟.

لما كنت عرفت الكثير. لما كنت عرفت ثمن الثورة. لكنت أصغر سنّاً وأغبى.

ما هو الاستنتاج؟ أنا لست نادمة على أيّ شيء.

شلابوكوفسكي مدمن كوكايين. هناك إمكانية للحصول على الكوكايين حتّى هنا. يحب ف. المسرح، ويريد إطلاق سراحه قبل الموعد المحدد بموجب عفو. وكان يتعيّن تمديد فترة سجنه، خمس سنوات أخرى.

---

(١) أناتولي بوريسوفيتش مارينجوف (١٨٩٧ - ١٩٦٢): شاعر، كاتب نثر، كاتب مسرحي، كاتب مذكرات، كان شخصية بارزة في الحياة الأدبية الرروسية في النصف الأول من القرن الماضي. [المترجم].

١٩ أيار

أحضروا لي أمس عطراً ومسكرة من كيم.

دخل ف. إلى مكتبي. الأمر مضحك: كما لو كان شمّ الرائحة. إنّه بطبيعة الحال صياد. هو مثل كلب الصيد. شمّ الرائحة

وانجذب.

حدث كلّ شيء مرّة أخرى. إنّه لأمر مضحك، لكن كان ضحكي سعيداً.

أحياناً تقرع رأسي فكرة مؤلمة حول نسائه، وبهيميته، حول أنّه يمكن أن ينقل لي عدوى: لقد رأيت ما يحدث هنا. لكن أبعد هذه الأفكار عني بسرعة، بسرعة، بسرعة.

يا لها من سعادة. يا له من ضيق أفق: أنّني أريد كثيراً أن أرتدي ملابس جميلة.

أغنّي بصوت عالٍ:

سأخيط لنفسي تنورة حسب الموضة، ما لا أستطيع أن أخفيه، سأخفيه في الخزانة ذات الأدراج

قال إنّه ينتظرني في المساء، وينبغي أن آتي.

لم يوضح، لقد أعجبني ذلك: لو أنّه أوضح، كان من الممكن أن يكون الأمر مؤلماً للغاية ومثيراً للاشمئزاز. (لكن على الرغم من ذلك، ومضت في داخلي: إنّه ببساطة لا يخجل، لقد تخطى ذلك منذ مدّة طويلة.)

لم أستطع فعل أيّ شيء طوال اليوم. قبل أن أخرج من المكتب، أحاول قصارى جهدي أن أتوقف عن الابتسام.

قال ف. أيضاً: "أزيلي صورة ليف دافيدوفيتش، يكفي". لكنّه قال ذلك بلطف. أزلتها على الفور. إلى داخل الطاولة.

يوجد في المعسكر طاهي تروتسكي الشخصي. وأنا و ف. بالتأكيد كنّا نلتقي به في القطار. كان يطعم تروتسكي فقط، وكنّا نحن نقوم بطهي الطعام

لأنفسنا، لكنّني أتذكّر أنّه قدّم لي ذات مرّة تفاحة مخبوزة بحشوة حلوة. كان هذا قبل نحو مئة عام. كنت وقتها مجرّد فتاة يافعة. لكن أريد تفاحة الآن أيضاً.

لا يتحدث معه ف. أرسله للعمل في المستشفى، حيث لا يذهب هو إلى هناك قطّ.

لو لم يكن تروتسكي، لكانت الثورة قد خسرت، وأنا أعلم ذلك، وف. يعرف ذلك. لقد رأينا ذلك بأمّ أعيننا. الثورة لا تعرف الشكر. ربّما هذا صحيحاً. المستقبل يلفّ ما هو غير ضروري على العجلة. هكذا يجب.

يجب طلب عطراً أيضاً. بصقت على كلّ شيء، وذهبت إلى المستودع، اخترت جزمة صودرت من سجينة معارضة للثورة. لا أريد أن أفكّر في ذلك. أخذتها، وهذا كلّ شيء.

٢٣ أيار

ف. : " لدى كلّ شخص هنا حلقة في شفته غير مرئية. إذا كان هناك ضرورة- سأسحبه من الحلقة وأقوده إلى الحفرة".

لاحظت أنا أيضاً أنّ: السجناء مثيرون للسخرية، وهم يحاولوا الاختباء، وعند ذلك، يشبهون الفجل: لدى كلّ واحد منهم ذيل بارز من الأرض: في أيّ لحظة، يمكن لأيّ شخص يمر بالقرب من أيّ صفٍّ، أن يمسك هذا الذيل ويقتلعه.

أستطيع أن أفعل ذلك مع أيّ شخص هنا.

(لاحقاً)

أعتقد أنّني أعرف لماذا أعادني. يريد التحدث مع امرأة. ليس لديه من يتحدث معه هنا. يمكنه التحدث مع السجينات المناهضات للثورة، لكنّه لا يستطيع السماح لنفسه بذلك.

هكذا أعتقد. إنّه يحتاج إلى من يستمع إليه، وكان لهذا الصمت نغمة أنثوية. وهذه النغمة موجودة لدي.

عدا عن ذلك، فهو لا يحبّني. أستطيع أن أقول لنفسي هذا.

في بعض الأحيان لا نفعل شيئاً على الإطلاق، ونتحدث فقط. وعندها أنظر إلى وجهه، كما أنظر إلى المصباح: أشعر بالدفء، لكن لا يمكنني لمسه.

الجزمة ضيقة تزعجني.

٢٤ أيار

ذهبت وأخذت لنفسي جزمة أخرى، لا أهتم.

تحتاج هذه الجزمة إلى تنورة مختلفة. لماذا يمكنني أخذ جزمة، ولا يمكنني أخذ تنورة. ليكن، سيحصل هذا فيما بعد.

بشكل عام، يجب الذهاب إلى كيم، وشراء كلّ شيء. أنا أريد كثيراً أن أثير أعجابه.

لقد لاحظت ما هو مثير للضحك. بمجرد استئناف علاقتنا بعد مشاجرة، (وهذه هي المرّة الخامسة بشكل جدي، إذا لم نحسب المشاجرات الصغيرة، كنت دائماً من يبدأ الشجار، أعتقد الآن- أنّني كنت حمقاء بشكل فظيع)- نعم، هكذا، عندما نحن الآن معاً من جديد، أبدأ الإيمان بقوة جديدة وعاطفة جديدة، بما نقوم به هنا، وبشكل عام في الثورة، والتي بالطبع، لم تحقق ما كنّا نتوقعه بهذه السرعة.

الجميع يفهم ذلك، وحتّى ف. الذي لم يتحدث حول ذلك قطّ.

يتحدث فقط عمّا يحدث هنا والآن.

أحياناً أتذكّر كلماته، وعندما يحاول "السياسيون" مجادلتي في أثناء استجوابهم، أجيبهم بحجج ف.

يتهمونه (ومعه السلطة السوفييتية بأكملها) بقسوة النظام، كما قال لي مؤخراً ذلك، ضاحكاً:

"هل تعرفين كيف كانت الأمور عام ١٩١٧؟ نعم، لم يغلق البلاشفة السجون، رغم وجود الرغبة بذلك. لكن- لا عزل إنفرادي، ولا تصرفات فظة

في السجون، لا تمشّي واحد تلو الآخر، لم يكن ذلك كلّه- كانت الزنزانات مفتوحة- تمشّوا وتحدثّوا... ثمّ في عام١٩١٨ ألغينا عقوبة الإعدام تماماً. لماذا نحن أعدناها، دعهم يسألون. هل لقتل المزيد من الناس؟ أعدناها من جديد، لأنّ لا أحد يريد السلام إلّا نحن. الأمر الآن، كما لو أنّنا وحدنا كنّا نقْتل.

ألم يقتلونا هم؟".

(على الرغم من أنّه سمع ذلك على الأرجح من شخص آخر، على ما أعتقد من بوكي. كان ف. عام ١٩١٧ في المستشفى).

وأيضاً لماذا يوجد أبرياء أحياناً هنا، (يحدث ذلك، وأنا شخصياً أعرف حالات عدّة).

يقول ف. (أنقل كلماته قدر الإمكان)، ليس لدى البلاشفة إمكانية انتظار ارتكاب الجريمة، وبالتالي، سيتم مسبقاً اعتقال وعزل عدد من الشخصيات التي لديها ميل للقيام بأنشطة مناهضة للسوفييت أم المنخرطة فيها، وذلك من أجل أمن الدولة السوفييتية.

هل هذه هي أفكاره، أم لا ؟ لا فرق.

يقول الجميع هنا إنّهم أبرياء- كلهم بلا استثناء، وأحياناً أريد معاقبتهم بسبب ذلك: أعرف أفعالهم، وأحياناً يكون على الشخص الكثير من الأوساخ، لدرجة أنّه ليس من المؤسف دفنه، لكنّه ينظر إليك بعيون صادقة تماماً. الإنسان- شيء فظيع جداً.

يجلس بورتسيف، ليس لأنّه من الحرس الأبيض، ولكن لسلسلة من عمليات السطو ضمن عصابة يقودها هو(بينما يتصرف، على أنّه أرستقراطي، وبمثل هذه النغمة). خذ القس إيوان نفسه، على الرغم من كونه مناصراً للتجديد، فهو موجود في السجن لأنّه جمّع دائرة من أبناء الرعية، التي تحولت إلى منظمة سريّة مناهضة للسوفييت. خذ الشاعر أفاناسييف (الذي استدعيته

للتو)، يجلس لا من أجل أشعاره (والتي هي الأخرى سيئة أيضاً)، ولكن لمشاركته في افتتاح محل سري، لألعاب الورق، وتجارة الخمر، والدعارة.

وحول ما يزعم أيضاً أنّه يوجد هنا نظام وحشي.

(في الواقع، كلّ شيء أكثر تعقيداً: أحياناً يكون وحشياً، وأحياناً يكون اللجام رخواً تماماً).

يقول ف. لا مفر من الانضباط - وإلّا سيكون هناك إنهيار. أثبت السياسيون في سافاتيفا ذلك بامتياز. فيما لو جرى تحرير الجميع مثل السياسيين وقتها، لكان الجميع يتجولون بالقرب أبراج الحراسة، ويصرخون على جنود الجيش الأحمر"أيّها الخواريف!"، ولكانوا عانوا من مرض الإسقربوط نتيجة الملل.

أشعر أنّه محق، وعندما أقول ذلك لـ "السياسيين"، أم لأيّ سجين عاقل (هؤلاء قلة)، أم للذين يعملون مخبرين، أم للعاملين في مجال الجنس أرى دائماً أنّهم لا يريدون فهم ذلك، على أساس أنّ لديهم "حقيقتهم الخاصّة".

٢٦ أيار

نقلت له اليوم الكلام الذي سمعه غراكوف من الكاهن إيوان خلال جلسة سجناء: "كنت على استعداد للإيمان بالسلطة السوفييتية، ومساعدتها بعملها، قدر الإمكان، لولا هذه الوحشية التي ترتكب هنا".

لوّح ف. بيده. وقال بسرعة، وبلا مبالاة تقريباً، أنّ لا أحد يعرف كيف يدار المعسكر، فهذا لا يجري تدريسه في أيّ مكان. لكن أولئك الذين يتهموننا بالقسوة لم يكونوا على الجبهة في يوم من الأيام. تحدّث عن تروتسكي وعمليات الإعدام في تلك السنوات: لم أرَ ذلك، لكنّني سمعت الكثير عنها- نعم، حصل ذلك، وقد كان لها مفعول. الأمر مخيف، لكن في كثير من الأحيان كان هذا هو الشيء الوحيد الذي نجح فقط.

قال ف.: "سبعة آلاف شخص، ولكلّ منهم روح خالدة، وقد أخذتها أسيرة. تزبل الروح وتسعى إلى الأعلى وفي جميع الاتجاهات الأربعة. لكن إذا ما

أرخيت أصابعي لدقيقة، فإنّ الفهود ستأكل الكهنة، وسيقتل عناصر الأمن المعاقبون الفهود، وبعد ذلك سيأكلهم أعداء الثورة، ومن ثمّ سيخنق السياسيون من الاشتراكيين هؤلاء".

وأشار بيده كيف يرخي أصابعه.

أصابعه رفيعة وبيضاء وقوية جداً. كان يؤلمني بها أحياناً. أنا أشتاق الآن، لهذا الألم ولو مرّة واحدة فقط.

١ حزيران

تفحّص ف. الكنيسة التي في المقبرة، فقد سمح بإقامة الشعائر، وكنت معه. إنّها سعادة كبيرة دائماً أن أكون معه، حتّى لو لم يوليني اهتمام.

أصبحت أكثر مطواعة، شيء مضحك.

بينما كان يتحدث مع القساوسة الذين لديهم دائماً لائحة كاملة من الطلبات والرغبات، ذهبت أتمشّى في المقبرة، أحبّ ذلك.

نظرت إلى نصب تذكاري: صخرة ثقيلة جداً، وفكّرت: كيف أحضروها إلى هنا؟ أم جرى نقل الميّت إلى هذه الصخرة ودفنوه تحتها؟.

اقترب مني الكاهن إيوان بهدوء، وسلّم بودٍّ، رددت السلام.

نظر معي لنصف دقيقة إلى الصخرة، ثمّ قال فجأة:

"الحب بين قوسين، والموت خارج القوس".

في البداية لم أفهم، عمّا يتحدث، ثمّ فكّرت في الأمر طوال اليوم. هذا شيء كهنوتي، بالطبع... لكن رغم ذلك فكّرت على أيّ حال.

(لاحقاً)

استجوبت أحد المرّات إيوان، في موضوع خلافهم مع الكهنة البولنديين.

يقول إيوان:

"إنّهم على يقين من أنّه لا توجد نعمة فينا نحن الأرثوذكس على الإطلاق، ونحن لا نمانع إذا كانت فيهم".

سألته أنا: "وفينا؟".

لم يجب كما كنت أريد.

تذكّرت، قال في نفس الاستجواب: "لا يوجد سوى المصلوبين في الجنة" و" في روسيا يوجد متّسع في كلّ مكان". كلتا المقولتين كانتا عن معسكرنا.

(لاحقاً أيضاً)

تذكّرت كيف ضحك ف. "يكتب المهاجرون، في سولوفكي يقتلون رجال الدين الروس، في الوقت الذي لدينا ١١٩رجل دين موقوف، يوجد هنا ٤٨٥ موظفاً من جهاز الأمن ومن الإدارة السياسية الحكومية الموحدة و٥٩١ عضواً سابقاً في الحزب الشيوعي البلشفي: لماذا لا يكتبون أنّنا قررنا قتل جميع عناصر الأمن والشيوعيين؟".

٢ حزيران

ما الذي أعرفه عنه بشكل عام؟.

أعرف صمته. يوجد للصمت نغمات أيضاً.

وأنا أفرّق بينها.

بالطبع أعرف صوته. يقولون إنّه لا يوجد تعبير في العيون، عيون الناس لا تختلف، ولكن يوجد فقط تعبيرات التجاعيد التي حول العيون، تعابير الوجه. حسب المشاعر التي يمر بها الشخص، أغلب الأحيان- تتطور هذه الشبكة من التجاعيد على الوجه.

تعكس التجاعيد صفات ومصير الشخصية. لديه وجهه شاب، أبيض، يشير إلى أقل من عمره، كأنّه لم يقاتل ولم ير كلّ ما رأيناه نحن. لكن عندما يبتسم- يبتسم بصدق. تتراكم التجاعيد كما لو أنّ فيها الكثير من الطيبة، على

الرغم من أنّها أقل من إرادة الذات والغضب. عندما يبتسم، أستطيع أن أغفر له الكثير.

صوته مشبع. الصوت، مثل تجاعيد الوجه، له علاماته الخاصة: غالباً ما يكون مثل صوت الدمية الميكانيكية، ولكن في بعض الأحيان (عندما يشرب النبيذ، وعندما يكون في الصيد، وفي الليل، وعندما لا يسمعه أحد سواي، وعندما يستطيع فعل ما كان يريده، وبعد المسرح أيضاً، عندما يكون العرض جيداً، وعندما تصل بوكي)- يمتليء بالضحك والقوة والإرادة، يفيض منه كل ذلك. الغريب أنّ صوته، يؤشر غلى أنّه رجل مسن، أكثر من وجهه. لو كنت وقفت عند الباب وسمعت ف. ولم أره من قبل قطّ، لكنت اعتقدت أنّه رجلٌ مسنٌّ، فوق الأربعين من العمر، ثقيل الوزن، وحتّى بدين.

أنا أعلم أنّه حاد الطبع. يمكن أن يصبح مثل نابليون، لكنّه هو نفسه يحرس مختلف الجيف.

ولكن إلى جانب كونه حاد الطبع فهو- متواضع. كان على سبيل المثال، متأكد دائماً، ليس فقط تروتسكي أهم منه، بل وبوكي أيضاً- أكبر وأقوى وأكثر ذكاءً: إنّه يثق في غليب، دون قيد أو شرط.

تذكرت أنّه كان مع تروتسكي دائماً مصور فوتوغرافي ومصور سينمائي. أمّا ف. لم يكن ليسمح لنفسه بفعل ذلك قطّ، وما كان ليخطر بباله ذلك. هو يقول عن نفسه إنّه جندي.

لكنّه هنا يمكر أيضاً وأحياناً يستخدم فجأة، عندما يتكلّم، مصطلحات من الكتب، غير معروفة بالنسبة إليّ دائماً، كأنّه يعظ، لكنّه لا يعظ حافي القدمين، بل كأنّه جالس بالضبط على صهوة حصان. لقد سمعته كيف تحدث بسخرية واضحة، وهو في حالة سكر شديد: "لقد ضللتم جميعاً الطريق، وأصبحتم جميعاً عديمي الفائدة. لا تسمعونني، ولكن إذا تجاوز أحد ما آخر، فهذا زنا وظلم. فمن الأسهل التحدّث إلى الرب من التحدث معكم أيّها الكفار".

كانت موجودة هناك سريّة الفنانين، والكاهن إيوان، وعناصر أمن سابقون من السريّة الثالثة.

خمّن أحد الفنانين، ورأيت من وجوههم، أنّ ف. كان يقرأ الكتاب المقدس من ذاكرته.

قال الكاهن إيوان، كأنّ ليس ل ف، وإنّما بصوت مسموع: "إذا اقتطع أيّ شخص كلمات من هذه النبوءة، فإنّ الله سيأخذ مشاركته في سفر الحياة".

تظاهر ف. أنّه لم يسمع. أم أنّه لم يسمعه حقاً.

ثمّ قال ف: "لقد عقدنا اتفاقاً مع الموت، وهو يعمل لصالحنا".

هنا، لم يخمّن أحد من أين اقتطع ذلك.

هذا ما قاله ليف دافيدوفيتش.

فكّرت سابقاً، عندما بدأ ف. الحديث أنّه أقام دكتاتورية هنا، أنّه يبحث عن أعذار لنفسه (لا يوجد حرب الآن). أفهم الآن: لا! فهو راضٍ عن نفسه. أنا من يبحث عن أعذار. وهو من وقت لآخر، يتأكد من حقيقة مصداقيته اللامحدودة.

(في الليل)

والده لاتفي وأمه روسية.

قال ذات مرّة: "لا يوجد لدى اللاتفيين طبع خاص- يحل محلّ الطبع لديهم، الاجتهاد والدقة. لقد اعتقدوا أنّ روسيا كلّها ستصبح بلدهم- لم يكن لديهم بلد، فقط السادة الألمان. لكن روسيا استدارت مرّة أخرى وأصبحت هي بنفسها. إنّها مثل صخرة سولوفكي: لا يمكنك الدخول فيها. بقي اللاتفيون دون أيّ شيء، وقد أدركوا ذلك بعد فوات الأوان".

(عندما رأيت الصخرة في المقبرة، تذكّرت الصخرة التي كان يتحدث عنها ف. وقد تكّون في ذهني أنّها كانت الصخرة نفسها).

لقد أنهى ف. حديثه على النحو التالي: " مهمّة البلاشفة- ألّا يسمحوا بعودة روسيا إلى نفسها. من الضروري تفريغ داخلها بالساطور وتعبئته بأحشاء أخرى".

ليس لدى ف. بالطبع أيّ قومية.

٣ حزيران

وصلت إلى موسكو خريف عام ١٩٢١- كان وقتها ف. يخدم في مكان ما في آسيا الوسطى. عملت في جهاز الأمن، وعشت بشكل سيء مع شخص فاشل. لن يكون لدي أطفال بعد الآن.

عاد ف. في حزيران عام ١٩٢٢، وبدأ كلّ شيء من جديد. أود أن أقول إنّنا عشنا معاً، لكنّنا لم نعش معاً. كنّا معاً.

لقد عرفته على حقيقته هنا فقط. في البداية غادر واختفى. ثمّ أرسل إليّ رسالة، وأجبت عليها- أعدت كتابة كلّ إجابة مرّات عدّة.

ثمّ دعاني إلى معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، وقال إنّه يوجد هناك مكان لي.

والآن ليس لديّ مكان هنا.

٥ حزيران

جاءت لجنة التفريغ. قام ف. من جديد بإدراج ثلاث من عاهراته في حفلات الحمّام، بقائمة الإفراج المبكر. لم أستطع تمالك نفسي، وطالبته بإزالتهنّ من القائمة، لأنّ الأمر يشمل معارضات صريحات للثورة.

حصل حديث:

" فيدور، لماذا تطلق سراحهم؟ عليك أن تشرح وفقاً للقانون".

فكّر وكتب قراراً:

"للعناية المثالية بالثيران".

وضحك بطريقته المقززة.

(كتبت، قبل أيام قليلة عن مدى حبي لضحكه، حمقاء. أبشع ضحكة في العالم. ابتسامة حقيرة مقززة).

لم يفرج عن شلابوكوفسكي. يريد أن يرى بعض عروضه المسرحية أيضاً. " كما أريد، أرحمه أم أعدمه".

لم أذهب إليه. ذهبت إلى غرفتي للنوم. انتظرت حتّى الليل على أمل أن يدعونني إليه، وكان ذلك جنوناً تاماً: لم يكن عندي ولا مرّة واحدة، ولم يدعونني من هنا إليه قطّ.

يبدو لي أنّ الجميع يلاحظ على الفور خلافاتنا ويهمسون: لقد جئت إلى هنا للنوم. لم آت إلى هنا للنوم. يا لها من سفالة.

حتّى الدكتور علي يشعر بذلك، على الرغم، من أين له أن يعرف، بشكل عام؟ لا يزال يأمل، ويمشّط لحيته. إنّه يدرك أنّني لست زوجة ف. ولذلك يبقى هناك أمل.

يبدو أيضاً، أنّه من المهم جداً بالنسبة للدكتور علي أن يكون لديه المرأة نفسها التي كانت مع ف. فهذا، إذا جاز التعبير، من شأنه أن يربطه بالسلطة والقوّة. من أين لي أن أعرف ذلك؟ أنا نفسي لا أعرف، من أين تأتي هذه المعرفة المثيرة للاشمئزاز، وماذا أفعل بها.

٨ حزيران

غادرت لجنة التفريغ.

جرى إطلاق سراح ٤٥٠ شخصاً، من بينهم ١٦ بحاراً، من المشاركين في انتفاضة كرونشتاد[1]. وسبع نساء، من أعداء الثورة، وليس ثلاث فقط.

---

(١) انتفاضة كرونشتاد: تمرّد مسلح لبحارة أسطول البلطيق المتمركزين في قلعة كرونشتاد عام ١٩٢١. [المترجم].

بعد ليلة سكر، وأنا أصبحت أعرف بالفعل، أنّه بحاجة إلى أن يظهر في هذا اليوم: إنّه نشط هذه الأيام، ولديه فائض قوة، بما في ذلك الذكورية.

لاحظني على الفور، وأمرني بالذهاب إليه، "إلى الفيلا".

وصل هو بسرعة كبيرة، بعد نصف ساعة.

كانت لا تزال تفوح منه رائحة خمر كريهة، لكنّني لم أهتم، كان حارّاً، وكان شبقاً. لقد تناسب كل ذلك: رائحة الخمر، ويديه الماهرتين. شعرت كأنّني شجرة تفاح، مليئة بالثمار، وهي تسقط مني، ونتيجة ذلك شعرت بالسعادة، غمرتني راحة كبيرة- كما لو أنّ شجرة تفاح يمكن أن تطير.

ثمّ قال: "غالا (ناداني باسمي، على الرغم من أنّه قليلاً ما كان يحاول أن يفعل ذلك، لاحظت منذ وقت طويل- لا يلفظ اسمي، حتّى لا يمدّ خيطاً منه نحوي)- أنا أكره جميع هؤلاء العاهرات، هذه الحمّامات، شيء ما يموت في داخلي من وراء ذلك كلّه. أبدأ بكره نفسي. وأنا معتاد احترام نفسي".

قلت في داخلي: " تكذب أيّها الدنيء!". لم أقل أيّ شيء بصوت مسموع. لو كان في ذلك شيء من الحقيقة! لكن كونه قال ذلك، فهل يعني ذلك شيئاً؟.

لم يكن منفتحاً معي بهذا الشكل قطّ.

أعتقد أنّني أعرف ماذا كان يريد أن يقول أيضاً.

أراد أن يقول: "كان من الممكن أن أعيش معك يا غالا. لكن، يا غالا، أنا لا أحبك ".

فكيف لي أن أعيش بمثل هذا الشعور، فكلّ شيء واضح بالنسبة لي؟ لماذا أحتاج إلى هذه المعرفة؟

أريد العواء.

٩ حزيران

يشعر ف. بالملل. يتواصل باستمرار مع سجين واحد فقط. فتحت إضبارته: خلوة ماسونية، ماسونيون. يتحدثون بالألمانية. يلتقون بشكل يومي.

١٣ حزيران

متعة أخرى: الكنوز، يبحث ف. من جديد عن الكنوز، وهو متأكد من أنها موجودة. عثر الصيف الماضي على عدد من اللقى. حفروا في الخريف، ولم يجدوا شيئاً، ثمّ تساقط الثلج، وقد نسيت ذلك.

اتضح أنّه بدأ البحث في الربيع، من جديد. لقد جلبوا إليه، إلى المكتب، أوراق من أرشيف الدير، ومراسلات، يقرأ، ويعطس. أعتقد أحياناً أنّ عمره أربعة عشر عاماً.

في الوقت نفسه، لا تمنعه، المسيرات، ولا الصيد، ولا الكنوز، ولا الحمامات، ولا السكر، التي على كلّ حال، لا تتكرّر كثيراً- لا شيء يمنعه من الاهتمام، في الوقت نفسه، في جميع الصناعات، والمشاتل، والمحميات، والورش، والمصانع، التي بدأها، واخترع الآن المسابقات الرياضية أيضاً، فهو يستقبل يومياً ١٥ و٢٠ و٣٠ زائراً، ويناقش مع الجميع قضاياهم، مع المجرمين، والفنانين، والكهنة، وأحياناً يلهمهم، ولكن غالباً ما يتحدث بصوت الدمية الميكانيكية، ويتذكّر مئات عدّة من الأسماء، وبعض التفاصيل غير الضرورية تماماً، عن كلّ منهم، ويعتقد حقاً، من الممكن إعادة تربية الناس هنا، وهو ينجح في ذلك، ولكن إذا لم ينجح، فإنّه يكسر الشخص أم أشخاص عدّة في وقت واحد، مثل طفلٍ يكسر لعبته. لكن ف. لا يفعل ذلك في حالة من الهستيريا، لكنّه يكسر ببساطة، ثمّ لا يولي أيّ أهمية بإنّه كسر. أي لمن أمر بقتله أم سمح بقتله.

لم تنته الحرب بالنسبة له. أو حتّى ليس كذلك: عالمه لا يختلف عن الحرب.

١٥ حزيران

المطران إيوان:

" تحتاج روسيا إلى الزهد، وليس إلى الفجور، وأنتم تمنحون ذلك. وإن شاء الله، لا تسقطوا أنتم في الفجور، أمّا بخصوص، أنّ إخوتكم في الإلحاد، يقتلونكم فهذا- جيد أيضاً. لقد أنقذ الدير أولئك الذين أرادوا أن ينقذوا

أنفسهم- لقد وضعتم كلّ الناس الروس في ديركم، لقد أعطيتم الجميع الزهد، وإمكانية أن يصبحوا رهباناً، على قدم المساواة مع بيريسفيت و أوسليابا"[1]. أنت أيّها القس تتملّق، وفي نفس الوقت نفسه تتواقح. نريد إطعام الجميع، لكنّنا نخفي الأشخاص الخطرين اجتماعياً فقط.

١ تموز

قال ف. للكاهن إيوان (أتذكّر)

" أعرف ما الذي ترمي إليه! أنت ترمي إلى أنّ كلّ شيء سيعود إلينا. كلّ شيء قد عاد لكم! قضى الفلاح سيميون شوبين ٦٣ عاماً في سولوفكي- لأنّه نطق كلمات كفر ضد الهدايا المقدسة والكنيسة المقدسة! ٦٣! وجلس نصفهم في الانفرادية يا لها من رحيمة وخيرة! هذه هي هداياها... أمضى آخر زعيم لتنظيم القوزاق الأوكرانيين في زابوروجيا، بيوتر كالنشيفسكي ٢٥ عاماً هنا، ستة عشر منها في كيس حجري.

كان يسمح له بالتنزه ثلاث مرّات في السنة- في عيد الفصح، والتجلّي، وعيد الميلاد. هذه أرثوذكسية جداً، نعم! سلّم الرهبان المطران فيليب، رئيس دير سولوفكي السابق، إلى إيفان غروزني[2]. من الأفضل لكم أن تصمتوا! وهنا ظهر

---

(١) - بيريسفيت و أوسليابا: راهبان روسيان محاربان اشتركا في معركة كوليكوفسكي الكبرى التي جرت في العصور الوسطى بين الجيش الروسي الموحد بقيادة دوق فلاديمير الأكبر وأمير موسكو دميتري إيفانوفيتش وجيش حاكم الجزء الغربي من القبيلة الذهبية ماماي، عام ١٣٨٠ في المنطقة الواقعة جنوب التقاء نهر نيبريادفا مع نهر الدون، في حقل كوليكوفو جنوب شرق منطقة تولا. [المترجم].

(٢) إيفان غروزني: إيفان الرابع المعروف باسم إيفان الرهيب أمير موسكو العظيم وقيصر عموم روسيا الأول، توج أميراً لموسكو عام ١٥٣٣(في سن الثلاث سنوات) وتوج كأول قياصرة روسيا في العام ١٥٤٧ وهو في السادسة عشرة من عمره، فحكم مدة ٥١ من عام ١٥٣٣ وحتّى وفاته عام ١٥٨٤. كما أصبحت موسكو عاصمة لروسيا في عهده. وعرف إيفان بلقب الرهيب لإنّه كان يقمع بقسوة وعنف الثورات التي حدثت في عصره، وقاد حروباً توسّعية وأضاف مناطق شاسعة من سيبيريا. [المترجم].

المسيح لفيليب - في منسك فيليب! وسلّمه رهبانه وخنق فيليب. والآن ماذا تريد أن يكون في سولوفكي؟ أن تنمو أشجار النخيل هنا؟".

(كان مخموراً ومنفعلاً، كلّ هذا قيل باستهزاء.)

(كان الكاهن إيوان يستمع ويبتسم، ويومئ برأسه بهدوء، كما لو كان يستمع إلى طفل عزيز عليه، بينما كان ف. يعيد رمز الإيمان.)

٢ تموز

أتذكر أنّه كان يعمل في قطار تروتسكي: سكرتارية، ومطبعة، وهيئة تحرير صحيفة، وطاقم اختزال، ومحطة تلغراف، ومستشفى متنقل، وإذاعة، ومحطة كهربائية، ومكتبة، ومرآب، وحمّام. المجموعة العملياتية بقيادة ف. وحراس من رماة لاتفيين وفريق دعاية وفريق أعمال إصلاح سكك الحديد.

فصيل مدافع رشاشة. ثمّ أضيف طائرتين، وسيارات عدّة وأوركسترا.

بماذا يذكّر هذا ؟ في الحقيقة، بمعسكر سولوفكي.

إنّه يبني قطار تروتسكي هنا. ما رآه في شبابه - فإنّه ينشؤه. إنّه أحضرني إلى هنا، لهذا السبب: أنا من هناك.

٦ تموز

جاءت لجنة طبية: فحصوا عناصر الحراسة، بما فيهم أنا.

ثمّ رافقتهم أنا إلى كلّ مكان بأمر من ف. كان هناك الكثير من العمل والأعصاب كانت النتائج رهيبة.

(في وقت لاحق، حاولت أن أهدئ نفسي)

هذه هي المقتطفات التي كتبتها من ما خلصت إليه اللجنة : " تبيّن أنّ من بين ٦٠٠ شخص جرى فحصهم، مدنيون مستخدمون، وسجناء، ومن الإدارة السياسية الحكومية، هناك نحو٤٠ بالمئة منهم، يعانون نوع من الصرع النفسي

الحاد، ونحو ٣٠ بالمئة مضطربين نفسياً من نوع الهستيرية، ونحو ٢٠ بالمئة من الأشخاص يعانون من اضطرابات نفسية أخرى، وحالات عصبية شديدة ".

أين أعيش؟ أين أنا؟ أين؟.

ماذا لو كانت كلّها معدية؟.

يمكننا أن نفكّر في أيّ شيء، لكن اتضح أنّهم عصابة من المهوْسين والساديين والمختلين عقلياً، ارتدوا زي رجال الأمن وجنود الجيش الأحمر، وحصلوا على مناصب قيادية - وهم يعذبون الناس، ويأكلونهم، وتنمو أسنانهم، بحيث تنمو جذورها في جماجمهم: أخلع الفك، وسيقع مع منشفة الدماغ الدموية. قرف! هذا كلّه كابوس بالنسبة لي! شيء رهيب!.

(في الليل)

كنت أعرف كلّ شيء، لماذا الكذب. هل كان عليك أن تر الورقة، حتّى تصدقي؟ كنت أعرف كلّ شيء، كلّ شيء.

في المرّة الأخيرةعندما كنت عنده: رأيت يديه ملوثة بالحبر. نادراً ما كان يكتب بنفسه، يملي فقط. هذا يعني أنّه كان يوقّع. تذكّرت: كان هناك إعدامات.

وقّع أحكام الإعدام وداعبني بهذه الأيدي الملوثة بالحبر.

٨ تموز

اجتاحتني نوبة غضب في منزل ف.

ضربني للمرّة الأولى وطردني.

لا أتذكّر سوى جملة واحدة، قالها في بداية الحديث:

" المقيمون في سولوفكي هنا - أسباب وجودهم هنا. نحن نرى النتيجة. أمّا خلفيتهم غير واضحة".

أنا ببساطة، لا أستطيع سماع ذلك بعد الآن.

١١ تموز

ثملت. قلت أنّني مريضة. شربت مرّة أخرى. وهكذا أسبوع كامل على هذه الحالة " مريضة بهذا الشكل".

ربّما، مع ممثل؟ سيحدّث الجميع على الفور، عن ذلك.

١٢ تموز

يعرف ف. أنّ هذا التافه، كان يحاول التقرب منّي. لم يفعل أيّ شيء. عن قصد. من الغريب أنّني أنتظر شيئاً ما.

لا أنتظر أيّ شيء.

٢٦ تموز

مساعد الرفيق المواطن. هكذا.

(عدد من التعليقات دون تواريخ)

...

نعم أنتقم. كنت أرغب في الانتقام - ليس مع عنصر أمن، ولا مع حارس، وإنّما مع مثل هذا الذي لا سيّما يقع دائماً تحت بصره.

ربّما لا يجب الحديث عن ذلك.

...

وجدت نفسي أفكّر، في أنّني أرغب في أن أكتب لأحدهم رسالة طويلة ضخمة، من أربعين صفحة، عن كلّ شيء. ثمّ فكّرت مباشرة : لا يمكنني أن أكتب لأيّ شخص سوى ل ف. حتّى أنّني قهقهت.

يانا متزوجة الآن. ربّما أكتب ليانا. يجب أن أجدها.

...

جرى تعيين فيوليار مشرفاً على الحديقة البيولوجية. (حتّى يوم أمس، كان يبيع الحليب في كشك المعسكر) أرسله إلى هناك مع زوجته، أميرة جورجية، في عزبة مجاورة، ليست بعيدة عن فيلته سُرّ فيوليار، وكاد أن يقبّل يد ف. حين التقاه.

يتعلّم ف. الإنكليزية معه، من جديد. لكن الأمر لا يتعلق باللغة الإنكليزية. أنا أعرف لماذا استقدمها للعيش في مكان قريب منه. من أجل الأميرة! إنّه سافل على كل حال.

ليس لي أيّ علاقة بذلك.

...

أمسكوا براهب- ناسك بالقرب من الحديقة البيولوجية. مضى على المعسكر هنا سبع سنوات- وهو عاش هناك. جرى استجوبه لفترة طويلة، ولكن كلّ شيء كان واضحاً. إنّه لا يكذب. كان يطعمه أحياناً أحد الرهبان السابقين.

ذهبت إلى هناك جحر- مثل أيّ جحر، عاش هناك مثل الخلد.

كان يجب الخروج من الجحر.

...

اتضح أنّ ف. كان ينوي السفر إلى موسكو! اتضح أنّه أزمع على الزواج! من الفتاة التي رآها لأوّل مرّة قبل أسبوع. كم من الأخبار تدفقت مباشرة.

أقترب الشتاء، وأنا سأتزحلق من التل أيضاً. سأعدّ لنفسي زلاجة. وسأتزحلق، تعبت من صخوركم.

...

أنت شيء غير محلّي.

(بعد ساعة لم أتذكّر حول ماذا كتبت العبارة الأخيرة.)

بعض الملاحظات

صدر عفو عن غالينا أندرييفنا كوشيرينكو في العام التالي بعد الإدانة: على الأرجح، بمبادرة من إيخمانيس.

عادت في إحدى رحلات الربيع الأولى، في البر الرئيسي، إلى كيم. فقد أثرها بعد ذلك.

بتفصيل أكثر عن إيخمانيس: يمكن من هذه المكعبات، بناء برج غير ثابت، والأهم من ذلك، التنحّي عندما يسقط، وإلّا فأنّه يمكن أن يسحقك.

هكذا إذن، ولد فيدور إيفانوفيتش إيخمانيس في ٢٥ نيسان عام ١٨٩٧ في عائلة أحد الفلاحين، في قرية فيتس- يودوب في منطقة غروس- إيزيرن، مقاطعة غولدينغين، محافظة كورلاند،(فيما لو لفظت هذه الأسماء الجغرافية بصوت مسموع -لبدت كقصة خيالية.)

الأسرة مؤلفة من (الأب، والأم، وثلاثة أطفال - لدى تيودور، هكذا كانوا يطلقون عليه في البداية، أخت وشقيق)، أفلست وفقدت قطعة أرضها في عام ١٩٠٤.

أنهى المدرسة الابتدائية الريفية من صفين، والمدرسة الإعدادية كتلميذ حرٍّ.

عمل منذ عام ١٩٠٩ في دار للطباعة مراسلاً، (مدينة فيندافا). ثمّ - أمين مستودع، وبعد ذلك مصحح، ثمّ محاسب في دار الطباعة هذه: نموه الوظيفي السريع، منذ سن الرابعة عشر إلى السبعة عشر، شاب يقتنص الفرص.

وفي الوقت نفسه تخرّج في جامعة ريغا التقنية، والكلية العسكرية في ريغا.

إلى أين تيودور بعد ذلك؟ إلى موسكو! موظف في شركة "ميور و ميريليذ" في العاصمة. صورة فلاش: جبين عالٍ، عينان منتبهتان، شفتان رقيقتان- شكل نبيل، وإن كان من منشأ فلاحي، يقف الشاب تحت أكاليل إعلانية لمتجر يحمل الاسم نفسه، شيء جميل. صورة الفلاش التالية، وفقاً لقوانين الفن- أشياء مأساوية، تخيّم فوق رأسه غيمة تشبه خربشة الأطفال- سيدوي الرعد الآن.

جرى استدعاؤه إلى الجبهة عام ١٩١٦: فيدور إيخمانيس - جندي في فوج مشاة أخالتسيخ.

نقل خلال فترة قصيرة إلى فريق الاستطلاع التابع لأركان فرقة المشاة ٤١. الأسباب: إظهار الشجاعة بشكل متكرر، ولديه تخصصين، (وفقاً لبعض البيانات - تخرج من الجامعة التقنية كطالب حر قبل الوقت المحدد أيضاً)، ولإجادته اللغة الألمانية بشكل ممتاز.

حارب كثيراً، عام تقريباً: أي أنّه كان يقتل الناس باستمرار، ويقود عدد من العمليات العسكرية، ومشغول دائماً، ليس لديه الوقت لالتقاط صور في الأوسمة التي حصل عليها.

في ربيع عام ١٩١٧، أصيب بجروح خطيرة. عولج أشهر عدّة في مستشفيات بيتربورغ.

في شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧ (وفقاً لمصادر أخرى - بعد ستة أشهر)، يصبح عضواً في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي. في ربيع عام ١٩١٨، جرى تسريحه. عمل لبعض الوقت، كميكانيكي في أحد مصانع بتروغراد. (إنّه يعرف كلّ شيء - هل تريد محاسباً، هل تريد مصححاً، هل تريد رجل استطلاع، هل تريد ميكانيكياً.) من هناك انتبه - يأتي إلى قسم الرقابة العسكرية، في المقر الميداني للمجلس العسكري الثوري للجمهورية.

بالفعل في صيف عام ١٩١٨ وبناء على توصية نائب رئيس لجنة الطوارئ، وعضو مجلس لجنة الطوارئ بجميع أنحاء روسيا ياكوف بيترز عين سكرتيراً في إدارة القسم الخاص في لجنة الطوارئ بجميع أنحاء روسيا، ورئيس القسم العام في هذه الإدارة.

في حزيران عام ١٩١٩، كان هناك نقلة سريعة - شاب في الثانية والعشرين من عمره، أصبح رئيساً للمجموعة العملياتية في قطار رئيس المجلس العسكري الثوري وقائد الجيش الأحمر، والشخص الثاني في البلاد بعد لينين - ليف تروتسكي.

كان قطار تروتسكي يتحرّك في جميع أنحاء الجمهورية، بسرعة استثنائية ومحمومة، وكان يظهر فجأة إمّا على الجبهة الشرقية وإمّا الجنوبية وإمّا الغربية، وهو يرسل الأوامر بسرعة البرق، ويقوم بعمليات الاعتقال، وإجراء المحاكمات الفورية، وإطلاق النار على الفارين الذين يقومون بأعمال السلب على الجبهات، ويقوم بالدعاية ويعبئ الفلاحين في الجيش الأحمر، ويضع سدّاً من المفارز لمنع تراجع الوحدات المقاتلة في الجبهة، ويهاجم، ويرسل مجموعات الإنزال، ويجري الاستجوابات، ويقوم باحتجاز الخبراء العسكريين كرهائن، وإجبارهم على العمل لصالح السلطة البلشفية، ويقع تحت القصف، ويتعرض للتدمير. أطلق تروتسكي على قطاره اسم "جهاز الإدارة الطائر".

كان إيخمانيس - في مركز كلّ ذلك، و أمام نظر تروتسكي دائماً.

في أيلول عام ١٩٢٠، مع نقل العمليات العسكرية للجيش الأحمر إلى آسيا الوسطى، جرى تعيين إيخمانيس في قسم الأمن لجبهة تركستان، في منصب رئيس الوحدة الفعالة، ثمّ رئيس فرع لجنة الطوارئ في كازالين.

في تشرين الثاني عام١٩٢٠ - عيّن رئيس لجنة الطوارئ في منطقة سيميريتشينسك. يضع خطة ناجحة للقضاء على فصيلة القوزاق بقيادة العقيد بويكو.

في بداية عام ١٩٢١، نرى إيخمانيس البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، في منصب رئيس لجنة طوارئ جمهورية تركستان كلها، (مساحتها تعادل مساحة أيّ دولة أوروبية كبرى).

ينظم عملية قتل أحد أخطر أعداء الحكومة السوفييتية، القائد القوزاقي ألكسندر دوتوف. في ليلة ٦-٧ شباط عام١٩٢١، في الصين، في بلدة سويدون، جرى إطلاق النار على دوتوف وجهاً لوجه، من مسافة قريبة في مكتبه. لم يستطع حراسه الكثيرون والمدربون تدريباً جيداً إنقاذه.

في العام نفسه، في ليلة ٨-٩ من تموز، أثناء كارثة التدفق الطيني في ألما آتا، توفيت الزوجة الأولى لفيدور إيخمانيس.

يقود قمع الانتفاضة المشتركة للفلاحين، وجنود لواء الحدود الثالث في نارين.

يقود عملية القضاء على الوحدات الفدائية لإسرائيل بك، وينظم فيما بعد، عملية اغتياله في مقره.

(هنا يمكن للمرء أن يرى بالفعل، بصمة إيخمانيس الخاصّة. تقريباً هو- منظم أولى الاغتيالات السياسية المطلوبة، ليس في البلاد فقط، وإنّما خارجها أيضاً- من الممكن أن أخمّن ، بصريح العبارة- بصمته- سيكتبون بعد ذلك بكثير، عن تصفية الرفيق تروتسكي في منزله- كان ذات يوم الرئيس المباشر لإيخمانيس).

بعد ذلك، بمشاركة مباشرة أم غير مباشرة لإيخمانيس، جرى قتل: زعيم حركة بسماتش دجانوزاكوف، وأحد قادة البسماتثيين البارزين، إنفر باشا.

(هناك حرب مستمرة: كانوا سيقتلونه أيضاً، وقاموا بمحاولات عدَّة. وبمرور الوقت، كان إيخمانيس مكروهاً من قبل جميع البسماتشيين والباي وغيرهم من البكوات- حتّى إنهم نسبوا إلى هذا الشيطان المبتكر، قتل الذين لم يكن له يد في قتلهم.)

فيما بعد، ينتقل إيخمانيس، تنفيذاً لأمر خاص من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي لعموم الاتحاد الروسي، إلى بخارى، فقد نفذ بنجاح مهمّة سريّة، لطرد آخر أمير بخارى إلى ما وراء نهر بانج.

في ٢ حزيران عام ١٩٢٢، جرى نقل إيخمانيس إلى موسكو: عيّن في منصب رئيس القسم الثاني (شرق اسيا واسيا الوسطى)، إدارة العمليات السريّة، في الإدارة السياسية الحكومية التابعة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية في جمهوريات روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية. ونتوقف لثانية هنا مرّة أخرى، ونلاحظ بهدوء: شخص يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، يمنح المراقبة العملياتية، على شرق آسيا وآسيا الوسطى- يمكن قياسه بالإسكندر المقدوني.

في بداية عام ١٩٢٣، يعرض على إيخمانيس منصب في إدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، وهو أوّل معسكر اعتقال أنشأته الجمهورية السوفييتية على أراضي دير سابق.

(وبهذه الطريقة، وبتعرجات غير متوقعة، ستتطور سيرته الذاتية الفظيعة والمذهلة بنفس القدر.)

يجري بلورة هدف العمل الجديد، بشكل تدريجي: وضع آليّة الاستخدام الأمثل لعمل السجناء.

نقطة مهمة: عمل معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، لم ينظمه التشريع الوطني. أي: افعلوا ما ترونه مناسباً أيّها الرفاق. لديكم خبرة واسعة في العمل المستقل، على سبيل المثال، في آسيا السوفييتية.

لم يكن نقل إيخمانيس الجديد، منفى له، (جنوب- موسكو- شمال)- بل على العكس، وضعت الثقة به لتنظيم تجربة فائقة الأهمية للدولة.

بالإضافة إلى ذلك، جمع كلّ أعداء السلطة السوفييتية الكبار في معسكر سولوفكي، على وجه التحديد- ولمن، تعهد بهم القيادة البلشفية، إن لم يكن وضعهم تحت تصرّف إيخمانيس الشخصي.

يصل إيخمانيس لاستلام منصبه الجديد، على سفينة "غليب بوكي"، التي أطلق عليها أسم (رفيقه القديم من أيام تركستان، والراعي الجديد لإيخمانيس بعد ياكوف بيتيرس- ليس فقط سفينة، ولكن شخص حي، بالطبع - ضابط أمن، وصي على معسكر سولوفكي للأغراض الخاصة).

إليكم الآن تفاصيل مثيرة للاهتمام.

في ١٣ آذار عام ١٩٢٥، عندما جرى تنظيم فرع سولوفكي لجمعية أرخانغيلسك للعلوم المحلية: صدر أمر، مثير للدهشة، بتكليف فيدور إيخمانيس بإدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة، ورئيس الباحثين لطبيعة المنطقة.

في ١٢ أيار عام ١٩٢٥، صدر أمر آخر لإدارة معسكر سولوفكي للأغراض الخاصّة ، بإعلان الجزء الشمالي الشرقي من جزيرة سولوفكي الكبيرة، محميّة طبيعية. حظر قطع الغابات والصيد وجمع البيض والزغب في أراضي

المحمية. في وقت لاحق، وبمبادرة من إيخمانيس، انشئ مشتل لأشجار الشربين وغيرها من الصنوبريات، التي زرعت في جميع أنحاء الجزيرة.

(يرسم رجل شاب واسع الخيال- لديه شتلة في يديه، وها هو يحمل في كفيه أرقّ فرخ بلون الليمون).

الباحثون السولوفيتيون للمنطقة (في نفس الوقت- سجناء)، والمنظم السابق للاغتيالات الخاصّة،على رأس الباحثين- يؤقلمون بنجاح فأر المسك، وترشيد استخدام الغابات.

يدرس إيخمانيس ومتخصصوه جزر الأرخبيل، ومناسك جزيرة أنزر، والمتاهات النيوليتية في جزيرة زاياتسكي الكبيرة، ومصلى طابور في جزيرة موكسالما الكبيرة، ويبحثون عن مخابئ النسّاك ويصفونها.

عدد ضخم: ١٣٨ مؤسسة علمية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، يتراسلون مع باحثي إيخمانيس.

في صيف عام ١٩٢٦، زار ضيوف من العاصمة إيخمانيس- البروفيسور شميدت (أكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية)، والبروفيسور رودنيف (المكتب المركزي للعلوم المحلية)، والبروفيسور بينكن (جامعة لينينغراد الحكومية). بعبارة ملطّفة، فوجئ الأساتذة بنتائج العمل، وأصروا على تحويل فرع جمعية سولوفكي للعلوم المحلية إلى جمعية سولوفكي المستقلة للعلوم المحليّة.

جرى تنظّيم جمعية سولوفكي للعلوم المحليّة في تشرين الثاني عام ١٩٢٦.

نشرت في كانون الأوّل، أوّل مجموعة من المواد العلمية لجمعية سولوفكي للعلوم المحلية. وفي السنوات اللاحقة سيتم نشر خمسة وعشرين آخرين. لا تزال العديد من هذه الدراسات قيّمة حتّى الآن بلا شك.

علاوة على ذلك: متعة أخرى لمطلق النار اللتواني- هي المتحف، الذي خصص له كنيسة البشارة وقسم من جدار القلعة المدفأ، بالقرب من البرج الأبيض.

بعد الحريق الذي حدث في الدير (على عكس الأسطورة، لم يكن للبلاشفة أيّ علاقة به: لماذا يحرقون معسكرهم)، نقلت إلى المتحف ١٥٠٠ قطعة محفوظة من أرشيف الدير، و١١٢٦ كتاباً ومخطوطة قديمة، وألفين وخمسمئة أيقونة، وأواني من الخشب والقصدير لمؤسسي الدير، وصليب من الحجر الأبيض للقديس سافاتي، وأيقونة سوسنوفسكايا المعجزة، لوالدة الإله كورسون والتي صنع لها إطاراً مصنوعاً يدوياً من الفضة المطلية بالذهب، وأيقونة المخلّص الذي لم تصنعه الأيدي، كتبها القديس إليزار من أنزر، وديباج جميل، ومجموعة من الأدوات الحربية القديمة التي جرى ترميمها، وفؤوس، ورماح، وسهام، ومدافع، وبنادق. مجموعها ١٢ ألف قطعة.

في الوقت نفسه: برامج تعريفية بالعروض المسرحية في المعسكر، وصحف ومجلات المعسكر، وصور فوتوغرافية للحياة المبهجة لنزلاء المعسكر، ومؤلفاتهم الأدبية، وغيرها من المنتجات المصنوعة يدوياً بأيدي السجناء. حسناً هذا تاريخ أيضاً.

في الوقت نفسه، افتتح متحف أخر بأمر من إيخمانيس، في جزء من كاتدرائية المخلص المتجلّي. يوجد في المذبح معرض للرسوم الأيقونية، ويوجد في المبنى الإضافي لكنيسة أرخانغيلسك - مجموعة من الألواح النحاسية الأصلية المنقوشة من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وطبعة عنها، وقبّة مذبح عليها نقش منذ عام ١٦٧٦، ومجموعة من المصابيح والشمعدانات من القرن السابع عشر.

أعيدت رفات القديسين زوسيما وسافاتي وهيرمان، التي أخرجها عناصر الأمن الفضوليون إلى النور، في وقت سابق، إلى الأضرحة الفضية، مرّة أخرى.

(ربّما اعتقد إيخمانيس أنّهما سينقذانه، نتيجة الاحترام الذي أظهره لهما؟ لم ينقذاه.)

جدير بالذكر أنّه في أيار عام ١٩٢٦، وبناءً على طلب إيخمانيس، خفضت مدّة سجن نفتالي فرينكل إلى النصف.

في وقت لاحق، أصبح فرينكل برتبة فريق في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، وإلى يومنا هذا يتمتع بمجد لا نظير له كمنظم للعمل ألقسري.

في أب عام ١٩٢٩، أعيد إيخمانيس إلى موسكو وشغل منصب رئيس الفرع الثالث، للقسم الخاص، في الإدارة السياسية الحكومية الموحدة: مكافحة التجسس الخارجي. هذا العمل يناسبه: لقد عمل بالفعل في هذا الاتجاه في الحرب الإمبريالية.

في العام التالي: عيّن بموقع جديد، أعلى، لا يوجد مكان أفظع منه - في ٢٥ نيسان، عهد إلى إيخمانيس قيادة جميع المعسكرات في ذلك الوقت: سولوفكي، وفيشيرا، والشمالي، وكازاخستان، والشرق الأقصى، وسيبيريا، وآسيا الوسطى.

هو أوّل رئيس لمعسكرات الإدارة السياسية الحكومية الموحدة، وإمبراطور ما سيطلق عليه فيما بعد أرخبيل غولاغ. (ركض وركض مراسل المطبعة السابق، وصاحب الأرجل الرفيعة، والوسيم و- وصل أخيراً. يقف على القمة، وينظر حوله. هل ركض إلى هنا، أم لا؟.)

على الرغم من أنّه لا يوجد ما يدعو للمبالغة في السعي هنا: فقد بقي في منصبه أكثر من شهر بقليل، تسلّم مستندات، وسلّم مستندات (شغل لازار كوغان هذا المنصب).

(بشكل عام، لم يرأس إيخمانيس أرخبيل غولاغ بالذات: لأنّ اختصار "غولاغ" نفسه- مع مثل هذا الصوت الصدئ الذي يرن، يجب أن يسقط الفأس على الرقبة- لن يظهر سوى في شهر تشرين الثاني من العام نفسه.)

في ١٦ حزيران عام ١٩٣٠، دفع الحزب مطلق النار اللاتفي إلى أبعد من ذلك.

يصبح إيخمانيس منظم ورئيس بعثة فايغاش الاستكشافية الأسطورية.

(نسرد عناوين السجلات والملاحم السابقة: الاستطلاع في الحرب الإمبريالية الأولى - لجنة طوارئ بتروغراد - قطار تروتسكي - آسيا الساخنة، تركمانستان، بخارى- سولوفكي وحواليها- موسكو، الاستخبارات الخارجية، أربع إشارات في العروات، وتقارير في الكرملين- معسكرات كلّ روسيا، أكبر إمبراطوريات عبيد في العالم، تحت تصرفه الشخصي- والآن فايغاتش، القطب الشمالي، صقيع دائم، درجة حرارة ناقص ٥٠...)

وصل إيخمانيس إلى جزيرة فايغاتش، والأمر المميز، على ظهر سفينة "غليب بوكي" التي أصبحت معروفة - في الحقيقة سارت السفينة هذه المرّة وراء كاسحتي جليد- عبر حقول وأكوام من روابي الجليد.

كلمة "ألبعثة الاستكشافية" تبدو رومانسية، ولذلك نحن سنفاجأكم بشكل قاطع: كان يطلق عليها، بشكل عام، نقطة معسكر فايغاتش المنفصلة. كانت إدارة النقطة موجودة في خليج فارنيكا بجزيرة فايغاتش، وكانت بدورها تابعة لإدارة المعسكرات الشمالية التابعة للإدارة السياسية الحكومية الموحدة.

للوهلة الأولى يبدو أنّه جرى تخفيض منصب إيخمانيس بشكل خطير، لكن كلّ هذا هراء: كانت بعثة فايغاتش الاستكشافية، ذات أهمية حكومية ضخمة، ولم يتبع إيخمانيس لأيّ شخص ما على الجزيرة الجليدية: على العكس الجميع كانوا يتبعون له.

(كان هناك شخص واحد من السكان الأصليين- من شعب نينيتس الأصلي واسمه فيلكي مع عائلته- هو الوحيد الذي لم يخضع لإخمانيس.)

قضى أوّل شتاء مع إيخمانيس في خليج فارنيكا، ١٣٢ شخصاً، من بينهم ١٠٠ شخص كانوا من المساجين: جناة وسجناء سياسيون. إضافة إلى ذلك كان هناك ٢٥ موظفاً مدنياً.

أي أنّه جاء مع إيخمانيس، ستة من عناصر الأمن فقط.

لقد كان في فريق كولومبوس، ناس محترمون أكثر بكثير. لكنّهم لم يبحروا إلى القطب الشمالي.

لم يكن هؤلاء الستة على علم ، بسبب قدوم البعثة إلى الجزيرة بالضبط.

أقرب المقربين الموثوقين من إيخمانيس كانوا- الجيولوجيون، وعمال المناجم، والمهندسون، والطوبوغرافيون- الأشخاص العلماء، لكن جميعهم، للأسف، محكومون بموجب المادة ٥٨. كانت، ربّما منذ أيام سولوفكي- أكثر مجموعة عزيزة إليه.

واحد، اثنين، ووضعوا بعد وصولهم مباشرة، في المكان الجديد البراكيات الخشبية الدافئة التي جهّز إيخمانيس هياكلها في أرخانغيلسك، وجمعوا محطة ديزل، ومحطة إذاعية، ونظموا نقطة طبية، ومطعماً، وتغذية سليمة (البطاطس والبصل والجزر وحتّى مستخلص التوت البري ضد الإسقربوط) و- إلى العمل، إلى العمل.

(بعد ذلك بقليل، بنوا مطاراً، وحماماً، ومكتب بريد.)

نقلت كاسحة الجليد من فايغاتش المتجمدة، عينات خام إلى أرخانغيلسك، ومن هناك أرسلت بالطائرة إلى موسكو، فقد أجروا التحليلات، وسارعوا لإرسال النتائج إلى الكرملين.

كلمة قصيرة لسجين سابق في فايغاتش:"كان إيخمانيس إدارياً نشيطاً إلى حدٍّ كبير. نظّم بمهارة بناء القرية، والحياة، والنظام. لم يكن هناك في القرية تمييز بين السجناء والمدنيين. كان الجميع يعيش جنباً إلى جنب، ويعملون معاً ويتواصلون بحرية. لم تكن هناك مناطق محظورة ولا قيود. كان يمكن للسجناء في أيّ وقت فراغ، إذا رغبوا في ذلك، أن يتجولوا في الأرجاء مع المدنيين الأحرار، دون أيّ رخصة أم تصريح خاص، وتنظيم مسابقات تزلج".

حتّى لا يبدو هنا كلّ شيء حسن، سيكون من المفيد ذكر هذه القصة المأساوية، حول كيفية سحق إيخمانيس لتمرّد كان يحضّر له المجرمون، لكن هذا كلّه ليس ضرورياً: الإدارة الحقيقية هي عندما لا يفكّر أيّ شخص بالتمرّد قطّ، حتّى إذا كان هناك إمكانية خنق رجال الأمن كلّهم في عشر دقائق.

بالمناسبة، كانت بعض نتائج العمل في سولوفكي مفيدة لإيخمانيس: فيما لو قام السجناء بعملهم بشكل صحيح، يحتسب كلّ عام، عامين من سجنهم. حصل الخبراء من بين السجناء على الحق في استدعاء زوجاتهم وأطفالهم إلى فايغاتش- وهو ما حدث فعلاً (فقد استدعوا عائلاتهم كلٌّ من الجيولوجي كليكوف، والجيولوجي فليروف، والقائد السابق للواء الجيش الأحمر أرخانغيلسكي، والطوبوغرافي بيريبليتشيكوف، ورسام الخرائط بوخ، وجاءت

زوجة البروفيسور فيتنبرغ مع ابنته البالغة أحد عشر عاماً من لينينغراد: جميع تشوك وهيك بشكل عام). كانت الظروف المعيشية للخبراء والمدنيين متساوية. افتتحوا متجراً واحداً، لعناصر الأمن والمدنيين والسجناء، وفي الحقيقة لم يبيعوا فيه الكحول للسجناء في فايغاتش (على الرغم من أنّهم كانوا يبيعون الكحول للسجناء في سولوفكي.)

في السنوات القادمة القليلة، سيجري اكتشاف ٥٨ مكمناً لوجود خامات، تحتوي على الرصاص والزنك والنحاس.

كانوا يأملون في العثور على الذهب والفضة والبلاتين أيضاً، لكن ما لم يكن موجوداً، لم يوجد.

نفذ إيخمانيس المهمّة المكلف بها من قبل الحكومة، وغادر في عام ١٩٣٢، إلى البر الرئيسي على متن الباخرة "غليب بوكي".

طريقه - من جديد إلى موسكو.

وهو الآن نائب رئيس القسم التاسع، (رئيس القسم هو نفسه غليب بوكي)، وفي الوقت نفسه رئيس الفرع الثالث للقسم التاسع في لإدارة الرئيسية لأمن الدولة بمفوضية الشعب للشؤون الداخلية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

ما هو عمله: يقوم قسمه بتلقي شفرات المخابرات السوفييتية الخارجية، ويقوم بدراستها وتطبيقها، وإجراء اتصالات مشفّرة مع البعثات الخارجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

بشكل عام، جرى ربط مكافحة التجسس في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية بالكامل تقريباً به (وبغليب بوكي).

يقوم بعدد من رحلات العمل إلى الخارج، إلى أوروبا واليابان. لقد درس روسيا من قبل، وحان الوقت ليتعرّف على العالم. العالم ضخم وخطير، ويستعد لارتكاب فظائع جماعية.

ذهبت حياة كاملة في القطارات المدرّعة، والهجمات المضادة، والمعسكرات، والاستجوابات، ومع السياسيين، والمجرمين، والفهود، والبسماتشي المتعرقين، وفي القطب الشمالي الجليدي- وهنا، اللعنة، مظلة أنيقة في اليد، وبوّاب عند المدخل، "دعني، أنا نفسي... "، أرصفة، وجسور، ومقهى، وقهوة، ومن فضلك (coffee, please).

... يرقد ضابط مخابرات سوفييتي في غرفة فندق، لم يخلع حذائه الجميل، ينظر إلى السقف الأبيض. يوجد ثريا في السقف. إلى البيت قريباً.

ظهر في عام ١٩٣٧، اسم فيدور إيخمانيس في قائمة وضعها الرفيق ستالين شخصياً. القائمة ليست لمنح الجوائز (ولكن على العكس من ذلك، تحتوي القائمة على ١٣٤ اسم موظف في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، خاضعين للمحاكمة من قبل لجنة عسكرية تابعة للمحكمة العليا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. صادق ستالين ومولوتوف على القائمة، وأرسل ١٣٤ شخصاً تدريجياً نحو منصة الإعدام.

جرى في البداية، تسريح إيخمانيس من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية.

(هل تتذكّر أنت، مطلق النار اللاتفي، كيف عرّضت السجين لعض "البعوض" في معسكر سولوفكي؟ ها وقد طارت إليك بعوضة جليدية ضخمة، وجلست على مؤخرة رأسك، وغرزت خرطومها في رأسك.)

كان يعاني لبعض الوقت من الملل في شقته في بتروفكا[١] وينتظر "عندما يتوضّح كلّ شيء". تنظر الزوجة الحامل بعيون متوسلة.

من الأفضل لو أنّه حفر جحراً واختفى فيه.

٢٢ تموز عام ١٩٣٧ جرى إلقاء القبض على إيخمانيس بتهمة "المشاركة في مؤامرة بمفوضية الشعب للشؤون الداخلية".

---

(١) شارع بتروفكا: أحد الشوارع الرئيسية والأقدم في وسط موسكو. يقع في المنطقة الإدارية المركزية للمدينة. [المترجم].

ظلّ قيد التحقيق لأكثر من عام. هذا وقت طويل. كم من الوقت استغرق الحصول على اعترافات؟ كان على الأغلب، هناك ما يتطلّب حديث جدي معه.

لنفترض. أنّه في البداية، بعد بعض الإجراءات، تحدّث كيف جرى كلّ شيء بالفعل. أم على الأقل جزء من الحقيقة. حللوا الحقيقة، وتوصلوا إلى استنتاجات. ثمّ، فكروا مع المحققين، كيف كتابة ذلك، بحيث تبدو جميلة ومثيرة للإعجاب- من أجل نشرها في الصفحات الأولى للصحف.

وردت التهم التالية في قضية إيخمانيس.

جرى تجنيده من قبل ياكوف بيترز للعمل لصالح المخابرات الإنكليزية في عام ١٩٢١، بالتحديد، في الوقت الذي كان فيه إيخمانيس يرأس لجنة الطوارئ في تركستان (هراء مطلق).

إحباط محاولة القضاء على عصابات البسماتشي، (الجحود البلشفي الأسود).

عضو في المجموعة الإرهابية التخريبية، "الإخوّة العمالية المتحدة"(اسم ماسوني نموزجي)، بقيادة غليب بوكي (إيخمانيس، بالطبع، مخرّب وإرهابي بمعنى ما، ولكن مع ذلك، ليس بمعنى الاتهام الذي وجه له في المحكمة، مع العلم أنّ الاتهام بالماسونية... ربّما لا ينبغي تجاهله.

عضو في حلقة تقوم باستحضار الأرواح نظمها بوكي نفسه (تشبه إلى حدٍّ كبير الحقيقة، كان بوكي مشهوراً بمثل هذه التسلية، وكان الجميع يعرف أطواره الغريبة. حاول الشياطين استدعاء أشباههم. كانت الحلقة، من بين أمور أخرى، منخرطة في تنبؤات المصير (تبيّن، من خلال الحكم على النتائج، إنّها كانت فاشلة للغاية).

لعب دور حلقة الوصل بين بوكي وتروتسكي (من الممكن أن يكون قد حدث ذلك بشكل أم بآخر، وفي هذه الحالة، يضاف خطّاف أخر إلى سيرة إيخمانيس، الذي التقطوه به من ضلعه وجروه للذبح).

تفاصيل القضية كما يلي: في عام ١٩٣٥ سافر إيخمانيس الذي كان يبلغ من العمر حينها ثمانية وثلاثين عاماً، (بالمناسبة رفّع إلى رتبة رائد في مفوضية الشعب

للشؤون الداخلية)، إلى كوبنهاغن. التقى مع التروتسكي يورغينسون، وبمساعدته سرعان ما التقى مع تروتسكي نفسه. "آه، ليف دافيدوفيتش، كم من السنوات، كم فصل من الشتاء... كيف حالك هنا؟". أرسل تروتسكي مع إيخمانيس رسالة إلى بوكي. (في الواقع، لم يكن هناك أيّ لقاء. على الرغم من أنّ يورغينسون كان هناك. ربّما كان هناك رسالة؟.)

في عام ١٩٣٦، في أثناء سفره إلى لندن، سلّم إلى تروتسكي مواد سريّة تتعلق بالقوة الدفاعية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وتفاصيل عن عمل مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في الخارج، ورموز وكالات الاستخبارات. (هذا هراء، لكنّ قراء الصفحات الأولى يجب أن يشعروا بالرهبة والغضب.)

في العام نفسه ١٩٣٦، شارك في التحضير لهجوم إرهابي، لاغتيال رئيس مجلس مفوضي الشعب مولوتوف (لو كان قد شارك بالفعل، لكان قد قتله.)

في أثناء مثوله أمام اللجنة العسكرية للمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، أكد فيدور إيفانوفيتش إيخمانيس جميع التهم الموجهة ضده، وحكم عليه بعقوبة الإعدام، وفي اليوم نفسه، ٣ أيلول عام ١٩٣٨، اعدم بالرصاص في حقل بوتوفو للتدريب العسكري.

كان يبلغ من العمر حينئذ ٤١ عاماً.

جرى إبلاغ شقيقة إيخمانيس في وقت لاحق أنّه توفي في ١٧ من شهر شباط عام ١٩٤٣، نتيجة انخفاض في نشاط القلب. كتبوا لإبنة إيخمانيس بدورها، في عام ١٩٥٥ أنّه قتل رمياً بالرصاص في ١٥ تشرين الأوّل ١٩٣٩. من خصائص البريد السوفياتي. سكرتير مجنون يجلس في بقبو ويرسل باستمرار رسائل إلى الأقارب والأصدقاء. يضع التواريخ بشكل اعتباطي، ويستمتع.

لا تسأل لمن يقرع صندوق البريد.

... بقي لدينا عدد قليل من الشخصيات.

ألكسندر بتروفيتش نوغتيف، بحار في اسطول البلطيق، مشارك في الهجوم على قصر الشتاء، ورئيس معسكر سولوفكي بين عامي ١٩٢٣-١٩٢٤، فيما بعد

عمل في معسكرات أخرى، عاد إلى منصبه في عام ١٩٢٩. تقاعد عام ١٩٣٠ (لأسباب صحية على ما يبدو - كان يبلغ وقتها من العمر ثمانية وثلاثين عاماً فقط)، وهذا أنقذه من الإعدام .عاش في موسكو، بين عامي ١٩٣٢-١٩٣٨ عمل مديراً لمؤسسة "موسغورتوب. جرى اعتقاله في شهر أيلول عام ١٩٣٨ (بعد إطلاق النار على إيخمانيس مباشرة، وتذكّروا فجأة: ماذا عن نوغتيف؟ كيف حاله؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟)، حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، وأرسل إلى معسكر نوريلسك . هناك رآه في أحد المرّات أوسيب ترويانسكي الذي كان يقضي فترة حكمه التالية، صفع ترويانسكي نوغتيف على وجهه. في عام ١٩٤٤ جرى نقله إلى بلدة في إقليم كراسنويارسك. أطلق سراحه بموجب عفو في كانون الأوّل عام ١٩٤٥، لكنّه لم يصل إلى موسكو، لم يلحق أن يسجل نفسه هناك من جديد، وتوفي في عام ١٩٤٧ بسبب فقدان صحته بشكل مفاجئ.

جلس ترويانسكي في سلوفكي مدّة حكمه، وحكم عليه خمسة عشر عاماً إضافية في عام ١٩٣٥. أطلق سراحه قبل الموعد المحدد. ورشّح لنيل جائزة ستالين في علم الأحياء عام ١٩٤٩. عاش حتّى سن الشيخوخة.

بوكي غليب إيفانوفيتش، نبيل روسي، يشبه وجهه وجه مدرس لطيف في قرية، والذي أحياناً يضرب في الأرض، ويتبيّن أنّه ذئب. هو الذي فكّر بإنشاء معسكر اعتقال خاص للمثقفين وعناصر الحرس الأبيض في الشمال، دون عمل شاق- لكنّ الأمور سارت تدريجياً بشكل مختلف. في أب عام ١٩١٨، أصبح رئيساً للجنة الطوارئ في بيتروغراد ـ ثمّ أشرف على معسكر سلوفكي للأغراض الخاصّة- ترأس لأكثر من خمسة عشر عاماً، قسم التشفير في الإدارة السياسية الحكومية الموحدة- مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، وشغل عدداً من المناصب المهمّة الأخرى، ولهذا الغرض، جرى إطلاق النار عليه في ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٣٧.

فرينكل نفتالي أرونوفيتش، كان في شبابه مغامراً مالياً ومهرباً، ثمّ سجيناً في معسكر سولوفكي (جرى القبض عليه في عام ١٩٢٤، وحكم عليه بالسجن عشر

سنوات)، وفجأة أصبح - رئيساً لقسم الاقتصاد في معسكرات سولوفكي للأغراض الخاصّة. في عام ١٩٣١، أصبح مساعد الرئيس المشرف على شق قناة بيلامور، والمشرف على العمل. في عام ١٩٣٣، ترأس معسكر باملاغ، وما إلى ذلك، إلى الأمام وصعود على الجماجم... خرج منذ عام ١٩٤٧، إلى التقاعد بميزات خاصّة. كان أحد منظمي معسكرات اعتقال غولاغ القلائل الذين نجوا، ولم يتعرضوا للقمع. عاش سنواته الأخيرة في عزلة، ولم يقترب من الهاتف على الإطلاق، على الرغم من أنّهم اتصلوا به، وقلقوا عليه، ربّما قد حدث شيء له فجأة- ربّما يجب إحضار علبة دخان "بيلومور كانال" له، لأنّه من الصعب عليه الذهاب إلى المتجر بنفسه، وربّما مات فرينكل وحيداً ولذلك يصمت. لقد عاش وعاش... وتوفي عام ١٩٦٠ عن عمر ثلاثة وثمانين عاماً. كان يمكن أن يكتب مذكرات، أم شيء من هذا القبيل.

حاول شلابوكوفسكي كتابة مذكراته، لكنّه غيّر رأيه في الوقت المناسب. توفي بعد ثلاث سنوات بعد سولوفكي نتيجة جرعة زائدة من المورفين.

أنهى الوثيقة أيامه في سولوفكي أثناء انتشار وباء التيفوس. فرّ بوريس لوكيانوفيتش إلى فنلندا في أوائل الثلاثينيات. جرى إطلاق سراح مويسي سولومونوفيتش قبل الأوان، وأعيد اعتقاله واختفى في عام ١٩٣٧. حصل كرابين على مجموعة كبيرة من الأوسمة في الحرب الوطنية.

لا شيء معروف عن البقيّة، وغير مهم ذلك.

أرتيوم غوريايونوف، كما أخبرني جدي، نقلاً عن أبيه، ذبحه الجناة في الغابة صيف عام ١٩٣٠: كان يمر على طرف بحيرة الغابة، وقرّر السباحة - وعلى الشاطئ، وهو عارٍ جرى طعنه.

أعتقد الآن: لو أنّني نظرت إلى كلّ ما حدث من داخل رأس آخر، ومن خلال عيون إيخمانيس؟ وغالينا؟ وبورتسيف؟ وميزيرنيتسكي؟ وأفاناسييف؟ - هل ستكون هذه قصة مختلفة؟ وحياة أخرى؟.

أم أنّها هي نفسها؟

الخاتمة

كان هناك في شهر شباط برد شديد، أمّا في آذار فكان هناك بركة ماء كبيرة. وكان البرد جافاً، والبركة مالحة.

عادت النوارس في آذار، ولكن بأعداد أقل بكثير من العام الماضي، أمّا الغربان فقد طارت بعيداً.

كان الجو في نيسان لا يزال عاصفاً وصعباً، لكن في أيار لم يكن هناك شيء، فقد كان الجو هادئاً. جرى القضاء على النوارس حتّى لا تصرخ.

في حزيران، بذل أرتيوم قصارى جهده، وأعطى روبلاً، وأعطى عشرة، وخرج من سريّة الحظر، وأعيد إلى فصيلة جمع الثمار مرّة أخرى.

في تموز، انضم إليهم الأب زينوفي بشكل غير متوقع: لم تقض عليه زنزانة العقاب.

لقد رؤوا ثعباناً في الغابة اليوم. لم يخف منه أحد.

همس الأب زينوفي الذي فقد كلّ أسنانه: "السابع من تموز ليس يوماً عرضياً- في ٧ تموز، وقع حدث مروّع في حياة دير سولوفكي"- همس بذلك وهو يحملق بعينيه الصغيرتين بشكل مضحك- "اقترب أسطول إنكليزي ضخم من الدير، وقصف الدير لساعات طويلة، مطالبين بفتح البوابات والاستسلام. جرى في ذلك الوقت، إلقاء أطنان وأطنان من القنابل. صلّى الرهبان بلا كلل طوال هذا الوقت. عندما ابتعد الأسطول، اتضح أنّ الجدران ثقبت في مئات الأماكن، لكن لم يصب ولم يقتل ولو راهب واحد. حدثت معجزة الرب في هذا اليوم" - قرّب الأب زينوفي وجهه المتجعّد، ولسبب ما، قال لا في أذن أرتيوم،

وإنّما في فمه: " في السابع من تموز كلّ عام، أصلّي من أجل نهاية البلاشفة". أراد أرتيوم أن يقول:" من الأفضل أن تصلّي من أجلي"، لكنّه تكاسل، ولا سيّما أنّ الأب زينوفي لم يفسح في المجال لوضع كلمة واحدة، فقد كان يتحدث وحده: "جاء يوم السابع من شهر تموز- وأنا أصلّي، وأصلّي. وبعد ذلك أواصل في ما تبقى من أيام. ما هذا الذي لديك؟"

أجاب أرتيوم: " ثمار آس سوداء، عنب سولوفكي".

" هذه الثمرة روحي"- تأثر الأب زينوفي- "أمّا أنا فلا أستطيع العثور على مثلها"- أضاف بسرعة، وهو يمضغ سريعاً بفمه الغائر، كما لو أنّ الثمرة يجب أن تنمو في فمه.

"ابحث في مكان جاف يا أبتي، في العشب". نصحه أرتيوم: "أمّا أنت تبحث دائماً في المستنقع".

" بالنسبة لي طحلب الغزلان- أنعم"- ضحك الأب زينوفي- "لقد حفّت المضاجع كلّ عظامي، لقد أصبحت واهناً وجافاً. يمكن غرزي في الأرض، وسأشير إلى اتجاه الريح".

كيّف أرتيوم مشط ذي أسنان كبيرة، لجمع ثمار الآس البري، وكان المشط نفسه- على جاروف.

تمشّط العشب - وتجمع الثمار.

تصبّ بعد ذلك ما جمع على لوح عريض مغطّى بكيس خشن. يبقى عشب الحشائش، وتتدحرج الثمار إلى حيث يجب: كلّ شيء يجري كم يجب.

لقد فعل كلّ هذا في نهاية العمل، على الطريق المباشر إلى الدير: لا يمكنك أن تفرز الثمار في السريّة.

كان الدير من بعيد يشبه السلّة. برزت من السلة فطور كبيرة الرؤوس، أكل الدود بعض الأماكن منها.

كان نوغتيف يسير مشياً على الأقدام، ربّما من منسك فيليب، برفقة حاشية- عناصر أمن وضيوف. كان بين البالغين، شاب صغير من المشرّدين- وردي اللون، ونظيف، وتنبعث منه رائحة الكولونيا، كان ينقصه قبعة بحرية فقط.

كان الجميع مبتهجاً، ونظروا إلى جامعي الثمار وهم يضحكون، كما لو كانوا ينظرون إلى سكان الغابات الذين خرجوا للناس.

" كلوا ثماراً أيّها المواطن القائد!"- اقترح أرتيوم، بلطف، وبطريقة رجل عجوز، مستسلماً للمرح العام.

أخذ رئيس المعسكر ثمرة تلقائياً، ودحرجها على كفه، وسحقها بأصابعه.

هزّ طائر غير مرئي غصناً شائكاً.

في كلّ مرّة، بعد المشي في الغابة، كان هناك الكثير من السماء، لدرجة أنّ الفضاء جعل الإنسان أصماً.

قريباً سوف يرن الجرس، وسيسرع كلّ الأحياء إلى مائدة المساء، ويعتني الموتى بهم.

الإنسان مظلم ومخيف، لكنّ العالم إنساني ودافئ.

المحتوى

	الصفحة
من المؤلف	٥
الكتاب الأول	١٣
الكتاب الثاني	٥٠١
الخاتمة	٨٥٥
ملحق	٨٦٥
بعض الملاحظات	٨٩٥
الخاتمة	٩١١
المحتوى	٩١٤

زاخار بريليبين

- كاتب روسي معاصر.
- حاصل على الجائزة الأدبية الوطنية "الكتاب الكبير".

د. محمد جميل قاجو

- مترجم سوري؛
- دكتوراه في الصحافة من جامعة روستوف على الدون في روسيا الاتحادية عام ١٩٩٢؛
- محاضر في قسم الإعلام بكلية الآداب في جامعة دمشق منذ عام ١٩٩٤ وحتى عام ٢٠٠٧.

- **من أعماله المترجمة:**
- الثقافة تنقذ العالم، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣.
- غوغوليانا وقصص أخرى، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣.

٢٠٢٥م

رواية تاريخية تحكي عن حياة سجناء أول معسكر سوفييتي للأغراض الخاصة في أواخر عشرينيات القرن الماضي، واسمه معسكر سولوفكي للأغراض الخاصة وهو معسكر أقيم بهدف إعادة تأهيل المساجين في الحياة السوفييتية الجديدة. تتناول الرواية أحداثاً جرت في عشرينيات القرن الماضي ضمن أحد معسكرات "العمل الإصلاحي" التي كان يُسجن فيها معادو الثورة الاشتراكية. وتلخص حياة بعض السجناء وتصور تعذيبهم الجسدي والنفسي وموقف الكاهن من ذلك الأمر.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٥ م